

الشوقيات

المحتويات

١١	الجزء الأول
١٣	مقدّمة الطبعة الأولى
٢٥	كبار الحوادث في وادي النيل
٤١	الهمزية النبوية
٤٩	صدى الحرب
٥١	أبو أمير المؤمنين
٥٣	الجلوس الأسعد
٥٥	حلم عظيم وبطش أعظم
٥٧	معجزات الجنود على الحدود
٥٩	زينب بني عثمان
٦١	الحالة في بحر الروم
٦٣	منعة السواحل العثمانية
٦٥	زينب المتطوّعة في موقعة
٦٧	مضيق ملونا
٦٩	الحاج عبد الأزل باشا
٧١	هزيمة طرناو
٧٥	التلاقي سهل فرسالا
٧٧	غصب دوموقو
٧٩	أحلام اليونان
٨١	عفو القادر

٨٣	التماس القبول
٨٥	انتصار الأتراك في الحرب والسياسة
٩١	بعد المنفى
٩٥	ذكرى المولد
١٠١	مشروع ملنر
١٠٥	مشروع ٢٨ فبراير
١١١	الله والعلم
١١٧	ذكرى كانارفون
١٢٥	أيها العمال
١٢٧	نجاة
١٣٥	إلى عرفات
١٤١	مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات
١٤٥	خلافة الإسلام
١٤٩	تكريم
١٥٣	على سفح الأهرام
١٥٩	المطرية تتكلم
١٦٣	الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد
١٦٩	انتحار الطلبة
١٧٥	عبث المشيب
١٧٩	أبو الهول
١٩٧	مملكة النحل
٢٠١	في سبيل الهلال الأحمر
٢٠٣	الأزهر
٢٠٧	وداع فروق
٢٠٩	رحلة الشرق
٢١٣	براءة
٢١٥	الصحافة
٢١٩	عيد الفداء

٢٢١	نكبة بيروت
٢٢٣	تكليل أنقرة وعزل الآستانة
٢٢٩	عيد الدهر وليلة القدر
٢٣٥	وداع اللورد كرومر
٢٣٩	بين الحجاب والسفور
٢٤٥	العلم والتعليم، وواجب المعلم
٢٤٩	بنك مصر
٢٥١	مرحباً بالهلال
٢٥٥	يا شباب الديار
٢٥٩	نهج البردة
٢٨٧	خاتمة رياض
٢٩١	ضجيج الحجيج
٢٩٥	استقبال
٢٩٩	أرسططاليس وترجمانه
٣٠٣	شهيد الحق
٣٠٧	تحية للترك
٣٠٩	الأسطول العثماني
٣١٥	الأندلس الجديدة
٣٢٥	ضيف أمير المؤمنين
٣٣١	ذكرى دنشواي
٣٣٣	الهلال الأحمر
٣٣٩	رومة
٣٤٥	على قبر نابليون
٣٥١	تكريم
٣٥٥	اعتداء
٣٦١	توت عنخ آمون
٣٧١	تحية المؤتمر الجغرافي
٣٧٥	الصليب الأحمر

٣٧٧	تحية للترك
٣٨٥	الدستور العثماني
٣٩١	الهلال والصليب الأحمران
٣٩٥	الجزء الثاني
٣٩٧	باب الوصف
٥٠٧	باب النسب
٥٣٩	متفرقات
٥٨٣	الباب الثالث
٥٨٥	سليمان باشا أباطة
٥٨٧	مصطفى باشا فهمي
٥٩١	أبو هيف بك
٥٩٥	مولانا محمد علي
٥٩٧	سيد درويش
٦٠١	عمر المختار
٦٠٥	عبد الحليم العلالي بك
٦٠٧	حافظ إبراهيم
٦١١	محمد تيمور
٦١٥	يعقوب صروف
٦١٩	حسين شيرين بك
٦٢٣	محمد عبد المطلب
٦٢٧	يرثي جدته
٦٣١	محمد عبده
٦٣٣	رياض باشا
٦٣٩	عثمان باشا غالب
٦٤٣	عبد الحي
٦٤٧	محمد ثابت باشا
٦٤٩	محمد فريد بك

المحتويات

٦٥٣	البنون والحياة الدنيا
٦٥٧	ثروت باشا
٦٦١	عبد العزيز جاویش
٦٦٥	تعزية ورثاء
٦٦٧	ذكرى هيجو
٦٦٩	عبد الحامولي
٦٧٣	قاسم بك أمين
٦٧٧	تولستوي
٦٨١	عمر بك لطفي
٦٨٣	عمر بك لطفي
٦٨٧	الأميرة
٦٩١	ذكرى مصطفى كامل
٦٩٥	المنفلوطي
٦٩٩	عاطف بركات باشا
٧٠٣	المويلحي
٧٠٧	إسماعيل باشا صبري
٧١٣	فوزي الغزي
٧١٧	كريمة البارودي
٧٢١	فتحي ونوري
٧٢٧	علي باشا أبو الفتوح
٧٣١	جورجي زيدان
٧٣٥	شهداء العلم والغربة
٧٣٩	سعيد زغلول بك
٧٤١	أمين بك الرافعي
٧٤٥	الشيخ سلامة حجازي
٧٤٩	أدهم باشا
٧٥١	عثمان باشا الغازي
٧٥٣	بطرس باشا غالي

الشوقيات

٧٥٥	يبكي والدته
٧٥٩	الملك حسين
٧٦٣	يرثي أباه
٧٦٧	مصطفى كامل باشا
٧٧١	حسن بك أنور
٧٧٣	أم المحسنين
٧٧٧	الدكتور أحمد فؤاد
٧٨١	نجل إمام اليمن
٧٨٥	عبد الله بك الطوير
٧٨٧	سعد باشا زغلول
٧٩٣	الشاعر الموسيقي فردى
٧٩٥	إسماعيل أباطة باشا
٧٩٩	علي بهجت

٨٠٣	الباب الرابع
٨٠٥	متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع
٨٥٥	الخصوصيات
٨٦٧	الحكايات
٩٠٣	ديوان الأطفال
٩١١	من شعر الصبا
٩١٧	محجوبيات

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(١) كانت مصر إلى حين قدوم الحملة الفرنسية إليها في سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوروبا، خلا ما كان من مرور بعض التجّار والمتاجر بأرضها في ذهابهم وعودتهم بين الغرب والشرق، وكانت بحكم خضوعها لاستبداد الممالك — تحت سيادة تركيا — تسود فيها الدسائس، ويعمل كل من أمرائها لما يجرُّ عليه النفع، وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها في سائر بلاد الدولة العثمانية، وبلغ من ذلك أن تدنَّى علماء الفقه الإسلامي، الذين كانوا في مختلف العصور فخر مصر وزينتها، وفتر نشاطهم وفسد نتاجهم في ذلك العصر، فأما الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتدَّ سلطان الأتراك على مصر، وإنك لتعجب حين تقرأ كاتبًا كالجبرتي أو ابن إياس، لضعف تأليفه ولغته، ولسقم ما فيه من آثار الأدب شعراً كانت هذه الآثار أم نثرًا.

فلما جاء الفرنسيون إلى مصر، وتغلغلوا فيها، وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء، رأى المصريون مظهرًا جديدًا من مظاهر الحياة لم يكن لهم في تاريخهم الأخير به عهد. كان من بينهم الأطباء والمهندسون والصنّاع والقوَّاد، ومن بينهم قام رفاعة بك رافع وتلاميذه يحيون عهد الأدب العربي في مصر، ولكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماضٍ طويل؛ لذلك كان سريان نورها ضئيلًا قصير المدى، لكنها مع ذلك كانت بدءًا لما بعده، فلما كان عهد إسماعيل سارت في سبيل النضج والقوَّة، ثم كانت الثورة العربية وما تلاها من الحوادث مثارًا لشاعرية أكابر الشعراء من أمثال: سامي باشا البارودي، وإسماعيل

باشا صبري، ووحياً لخيال شبان كان روح الشعر آخذاً بنفوسهم، متهيناً ليفيض منها ما ينفخ في الأدب العربي روحاً وقوة.

وكانت الفترة التي انقضت ما بين الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٧٩٨ واحتلال الإنكليز إيّاها على أثر الثورة العربية في سنة ١٨٨١ فترة تقلّبات سياسية عجّت بين الشرق والغرب والمسلمين والنصارى؛ فقد كانت تركيا من قبل ذلك التاريخ في عهد تدهورها، وكانت محطّ أطماع روسيا، فلم تكن تمرّ حقبة من الزمن من غير أن تشبّ بينهما حرب تنقص من أطراف المملكة العثمانية، وضعف تركيا هو الذي دفع محمد علي إلى غزوها، لكنه ما كاد يقترب من الآستانة حتى تألبت عليه إنكلترا وفرنسا وروسيا؛ مخافة أن يزعجهم قيامه في عاصمة آل عثمان بين الدول الأوروبية بعد ما كان من انتصاراته الباهرة في الشرق، ومن سعيه لتوطيد قوة السيف وقوة العلم في مصر، وكأنّ ما قامت به الثورة الفرنسية من نشر مبادئ حرية الرأي والعقيدة لم يغير من نفس تلك الدول التي جعلت من الإسلام والمسيحية والشرق والغرب خصمين لايتهادنان من غير أن تنطوي الضلوع على حفيظة.

فأمّا المسلمون في أقطار الأرض فلم يشدّ حقدهم على محمد علي؛ ذلك بأن الدول الأوروبية كافة وروسيا خاصة، كانت لا تفتأ تشنّ الغارة على الأتراك وتزيدهم ضعفاً على ضعفهم، فقد انتهت حروب الإمبراطورة كاترينا في سنة ١٨١٢ بمدّ الحدود الروسية إلى الدنيستر، ثم تحالفت روسيا وإنكلترا وفرنسا في سنة ١٨٢٨، وسلخن اليونان من جسم الدولة العثمانية، وأقمّنها مملكة مستقلة، وفي سنة ١٨٥٣ كانت حرب القرم، ولولا خوف إنكلترا وفرنسا من طغيان روسيا، ومن اكتساح الجنس السلافي أوروبا، لنال الروس من تركيا أكثر مما نالوا من قبل، ولنقدوا برنامجهم بإجلاء الأتراك عن أوروبا. وهذا الضعف والاضمحلال الذي أصيبت الدولة التركية به هو الذي جعل المسلمين لا يحقدون على محمد علي حين غزا الأتراك، متمسكين بقول الشاعر:

فإن كنتُ مأكولاً فكنّ أنتَ آكلي وإلا فأدركني ولمّا أمزّق

على أن الحرب التي شبّت ناراها بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧ والتي خلد فيها الغازي عثمان باشا انتصار الترك بدفاعه المجيد عن (بلغنا) أحيّت في نفوس المسلمين آمالاً في دولة الخلافة التي كانت توشك أن تنهدم وتنهار.

ولقد كان المصريون إلى ذلك العهد يعطفون على تركيا عطف غيرهم من المسلمين، ولكنهم كانوا أبداً يفكرون في استقلالهم عنها ويريدون تحقيقه، ولم يكن الأمل في ذلك بعيداً بعد الفرمان الذي استصدره إسماعيل باشا في سنة ١٨٧٣ واستقلَّ فيه بإدارة الدولة، وبالتشريع لها، وبإنشاء الجيش الذي يقوم بحاجاتها ومطامعها؛ لذلك كان عطفهم على تركيا منبعثاً عن شعور ديني بحث لا أثر للتبعية السياسية فيه، فلما حطمت إنكلترا وفرنسا آمال إسماعيل، وقضتا عليه باسم ديون مصر، ودفعتا تركيا إلى خلعه، وانتهت إنكلترا باحتلال مصر بعد الثورة العربية.

ونكثت بعد الاحتلال، وعُودها بالجلاء، وأحسَّ المصريون بتدخلها في شئونهم، اشتد عطفهم على تركيا، وضعف تَبَرُّمهم بسيادتها عليهم، وثبت عندهم اليقين بأن دول النصرانية تطارد دول الإسلام، وقويت فيهم النزعة الدينية؛ وكان من ذلك ما زاد النشاط في بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربي في مصر.

(٢) وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية وَجَدَ «أحمد شوقي»، وَلَدَ «ببَاب إسماعيل»، وشَبَّ في جواره ونشأ في حماه؛ فكان طبيعياً أن تتأثر نفسه بالبيئة الاجتماعية والسياسية، وأن تكون أكثر تأثراً بها لقربها من المسرح الذي تشتبك فيه أصول هذه العوامل وأسبابها، وتضطرب فيه اضطراباً يخفيه ما تقضي به حياة القصور، ثم تصدر إلى الحياة بعد أن تكون قد نُظِّمَتْ وَهْدَبَتْ، وشوقي خُلِقَ شاعراً، والشاعر يتأثر أضعاف ما يتأثر سائر الناس؛ لذلك كان لكل هذه العوامل أثر باٍ في شعره وفي حياته.

ومع أن شوقي درس في مصر، ثم أتمَّ دراسته في أوروبا وتأثر بالوسط الأوربي وبالحياة الأوربية وبالشعر الأوربي تأثراً كبيراً، فقد ظلَّ تأثره بالبيئة التي وصفنا ظاهراً في حياته وفي شعره، كما ظلَّ تأثره بالبيئة الأوربية ظاهراً فيهما كذلك.

وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه — بعد أن يتمَّ نشرها جميعاً — كأنك أمام رجلين مختلفين جدَّ الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر، إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سماواته، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدَّ التقديس والعبادة.

أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر: أحدهما مؤمن عامر النفس بالإيمان، مسلم يقْدُسُ أخوة المسلمين، ويجعل من دولة الخلافة قدساً تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال.. والآخر

رجل دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، متسامح تسع نفسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله، ساخر من الناس وأمانيهم، مجدّد في اللغة لفظاً ومعنى، وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر، وإن كان لتأثره بالقديم الغلبة اليوم، وكانت آثار الرجل الآخر لا تظهر اليوم في شعر شوقي إلا قليلاً.

ولا تقل: إن الازدواج النفسي شأن الشعراء، وإن أبا نواس الذي كان يقول:

ألا فاسقني خمراً، وقل لي: هي الخمرُ ولا تسقني سراً إذا أمكنَ الجهرُ

والذي كان يقول:

دع عنك لومي: فإن اللومَ إغراءٌ ودأوني بالتي كانت هي الداءُ

هو أبو نواس الذي كان يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت له عن عدوّ في ثياب صديق

فليس هذا من أبي نواس ازدواجاً في الروح، وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهدها اللذة فأضعفتها، فأخافها الضعف، فألجأها إلى حمى الحكمة والزهد، وإلى استغفار الله والتوبة؛ لذلك لا تلبث نفسه أن تعاودها القوة حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة، وذلك هو السرُّ في أنك لا ترى الزهد في شعر أبي نواس إلا عَرَضاً واستثناءً، وذلك شأن الشعراء جميعاً إلا قليلاً منهم، وشوقي من هذا القليل؛ ففي شعره صورتان من صور الحياة تقوم كل منهما مستقلة، كأنما صاحبها غير الآخر، فأنت تقرأ:

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

أو تقرأ:

رمضان ولّى، هاتها يا ساقِي مشتاقَة تسعى إلى مشتاق

فترك في حضرة شاعر مغرم بالحياة وبمتاعها ونعمتها، شاعر تختلف روحه جدًّا
الاختلاف عن صاحب نهج البردة التي مطلعها:

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفَكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ

وصاحب الهمزية الذي يقول:

وُلِدَ الْهَدْيُ، فَالْكَائِنَاتُ ضِيَاءٌ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءٌ

وهذان الروحان، أو هاتان الصورتان من صور الحياة تتجاوران في نفس شوقي،
وتصدران عنها وهي في كل قوتها وسلطانها؛ وأنت لذلك حين تقرأ القصيدتين الأوليين
تمتلئ إعجابًا بالحياة ومتاعها ولذتها، وحين تقرأ الثانية تكون أشدَّ إعجابًا بكلمة
الإيمان وروح الحق ورسالته، وأنت لا تشعر في أي الحالين بضعف نفساني عند الشاعر
دفع به إلى لبوس روح غير روحه، بل أنت فيها جميعًا بيهرك شوقي بقوة شاعريته
الملتئة حياة وخيالًا، والتي تفيض بمتاع العيش فيضها بنور الإيمان.

كيف كان هذا الازدواج؟ كيف جمع شوقي في نفسه بين هذين الشاعرين: شاعر
الحياة العربية بحضارتها الإسلامية وبما فيها من قَدَم وإيمان، وبين شاعر الحياة
الغربية الخاضعة لحكم العلم وما يكشف عنه كل يوم من جديد؟

مسألة تبدو للنظرة الأولى دقيقة معقدة؛ فقد تزدوج في نفس واحدة حيتان بينهما
من الصَّلَة ما يبيح الازدواج، فيكون الرجل الواحد فيلسوفًا وشاعرًا، كما كان المعريُّ
أو كما كان فولتير، فأما أن يكون الرجل شاعرًا وحدة حياته الشعر، ثم تكون نفسه
مقسمة مع هذه الوحدة قسمة ازدواج على نحو شوقي؛ فذلك عجب في شاعر مطبوع
يفيض عنه الشعر كما يفيض الماء من النبع، وكما ينهمل المطر من الغمام.

على أن لهذا الازدواج سببًا لم يكن مفرًّا من أن يؤدي إليه، ذلك أن شوقي كان في
طبع شبابه رسول الحياة، كان شاعرًا:

حف كَأْسَهَا الْحَبِّبُ فَهِيَ فَضَّةٌ ذَهَبُ

لكن هذا الشباب لم يكن في ملك نفسه؛ فقد بعث به الخديو توفيق باشا ليتَّم علومه
في أوروبا، وكان من قبل ذلك شاعرًا متفوقًا، وكان في تفوقه ككل شاعر شاب يرسل القول

كما تلهمه إياه نفسه. فلمّا عاد إلى مصر اتّصل بالأمير الشاب عباس حلمي باشا وصار كلمته، ورأى يومئذ صنوّاً له على العرش جعلته روحه الشابة مقدّاماً لا يهاب، ومع ما فوجيء به أول ولايته في حادث عرض الجيش في السودان — مما اضطره للاعتذار — قد بقي شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جدّه إسماعيل من مغامرة، لكن قيام الاحتلال الإنكليزي في مصر جعل الخصومة بينه وبينهم وليست بينه وبين الأتراك، بل لقد كان منظوراً إليه أكثر الأحيان بشيء غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان؛ لذلك كانت عواطفه متفقة وعواطف المسلمين الذين كانوا بعد انتصار الأتراك يرون في الخليفة المُوَلِّد الأخير لأُمّ الإسلام جميعاً.

اتّصل الشاعر الشاب بالأمير الشاب، فتحتمّ عليه ذلك أن يكون المعبر عن الميول والآمال الكمينية في نفوس المسلمين جميعاً، لا في نفوس المصريين وحدهم؛ وبذلك اجتمع في نفسه من أول حياته ميله للحياة، وحبّه إياها، وحرصه على المتاع بها، مع إيمان المسلمين جميعاً وحرصهم على وحدتهم وعلى كياناتهم، بإزاء الأمم الغربية التي تنظر إليهم يعين صليبية بحثّة، وكانت هذه الناحية التي تمثّلها نفسه من ظروف الحياة ومن البيئة المحيطة به، أكثر استحياءً لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه؛ فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر، ويصبح جندياً، وجندياً باسلاً، ويتفوق في كل مواقف الحرب، ويصبح القائد الأعظم، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة، السعيد بها غاية السعادة.

(٣) وهذا الجزء الأول من ديوان شوقي فيه طائفة من شعره أوحى إليه بها على أنه ممثّل المصريين والعرب والمسلمين، وأولى قصائده التي مطلعها:

هَمَّتِ الْفُلُكُ، واحتواها الماءُ وحَداها بمن ثَقُلَ الرَّجَاءُ

هي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي، وقف فيها الشاعر وقفة مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عَرَفَهَا التاريخ، أي منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ، وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخراً بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذراه، آسفاً حزيناً حين تمرُّ بمصر فترات ظلم وذلة، مستفزاً للهمم، حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده؛ كي يعيدوا الماضي وعظمته.

وتراه في انتقاله من الفخر إلى الأسف إلى الاستفزاز يسير مع الحوادث متدفقاً، مندفعاً فوق موج الماضي، آتياً من لا نهايات القَدَم، كأنما هو قيثاره آلهة ذلك الزمان البعيد، يدفع إليها كل جيل نسائمه، فتتغنى وتشدو بأهازيج النصر، وبترانيم المسرة طوراً، وبشجو الألم أحياناً.^١

وللِقَدَم وللماضي على نفس الشاعر أثرٌ يذهب إلى أعماقها، وليس لمثل الآثار المصرية من القَدَم نصيب، فهذه الأهرام ما تزال تحتوي من الطلاسم ما يحار العقل في حَلِّه، وهذا أبو الهول في مجثمه بين رمال الصحراء أكثر ثباتاً من الليل والنهار ومن الشمس والقمر، وهو في روعة صمته ينطق كل خط خطَّته الدهور على صحائف جثمانه، بما حوته من عبر أيسرها دوام انهيار الأشياء لدوام تجدُّدها، وهذا الملك الشاب «توت عنخ آمون» نبش قبره النابشون باسم العلم فإذا فيه من طرف الفن ما يزري بكل فن وعلم، وهذه وسواها من الآثار تثير في النفس — إلى جانب صورتها الظاهرة وما يدل عليه إبداع صنعها ودقة فنِّها من حضارة كملت لها كل أنواع الحضارة — صورة الماضي الذاهب في القَدَم إلى أغوار الأزل، وتثير من شاعرية شوقي معاني بالغة الموعظة والعبرة مبلغها من السمو والعظمة.

وأنت إذ تقرأ قصائده: على سفح الأهرام، وأبو الهول، وتوت عنخ آمون، يهزُّك الشعور بصورة هذا الماضي في قداستها ومهابتها، وتمتلكك نفس الشاعر فترفع بك من مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد، ذلك بأن شوقي يهديك المعنى الذي كانت تلتسمه نفسك فلا تقع عليه، ويرسم أمامك — بوضوح، وقوة، وسمو خيال، ونبل عاطفة — كل ما ينبض به قلبك ويهتُّزُّ له فؤادك.

خلع القَدَم على هذه الآثار معنى البقاء والثبات؛ لذلك كان ما يفيض من الوحي إلى روح شاعر الشرق ثابتاً باقياً، لا تزعزع الحوادث، ولا تعصف به الغيرة، فأما ما سوى ذلك من شئون هذه العصور الحديثة فشوقي فيه هو كلمة الأمة، وفي هذه العصور الحديثة تغير قدر الناس للحوادث إصغاراً وإكباراً، بمبلغ رجائهم فيها، أو خشيتهم آثارها، وقد تعجب إذ ترى قصيدتين من أبدع قصائد شوقي وأحراها بالخلود متجاورتين في هذا الجزء الأول من الديوان: إحداهما في وداع لورد كرومر ومطلعها:

أيامكم أم عهد إسماعيلاً أم أنت فرعونُ يسوس النيل؟

والثانية في ارتقاء السلطان حسين كامل على أريكة مصر، ومطلعها:

المُلْكُ فيكم آل إسماعيلًا لا زال بيتكم يظلُّ النيلًا

فترى الشاعر ينظر في كل من القصيدتين إلى الحوادث والأشخاص بغير ما ينظر إليها في الأخرى، ثم تجد مثل هذا في غير هاتين القصيدتين، وليس لذلك من علة إلا الاضطراب الذي أصاب العالم قبل الحرب وبعدها، والذي لا يزال عظيم الأثر على تفكير المُفكرين وكتابة الكُتّاب وشعر الشعراء.

على أن هذا التأثير بالحوادث في بعض الشئون التي لا يستقرُّ للناس فيها — عادة — رأيٌ قبل أن يصدر التاريخ عليها حكمًا خاليًا من الغرض، لا يؤثر بشيء في روعة القصائد التي كان فيها، وهو بعدُ لا يشغل من هذه القصائد إلا حيزًا ضيقًا، فإن شوقي لا يزيد في القصائد التي تقال لمناسبة حادث من الحوادث على أن يشير لهذا الحادث بأبيات خلال القصيدة وفي آخرها، فأما أكثر أبيات القصيدة فحُكْمُ غوالٍ، أو وصف رائع، أو ما سوى ذلك مما يلدُّ عقل شوقي أو خياله أن يفكر فيه أو يلهو به، وهذه الحكم لم يتغير تقدير شوقي لها؛ فهو يرى أن الأمم لا تقوم على دعامة غير الإخلاق، فالعلم عنده حسنٌ وله فائدة، والغنى حسن كذلك، وسائر أدوات الحضارة تصلح للأمم، لكنها جميعًا لا فائدة من رقيها وغازتها إذا انحطَّت أخلاق الأمة، فأما إن قويت هذه الأخلاق فقليل من ذلك كله كافٍ ليرتفع بالأمة إلى ذروة المجد والسؤدد.

وليس معنى هذا أن شوقيًا يحقر من شأن ما سوى الأخلاق، فله عن العلم والفن والعمل والترحال وغيرها آيات بيّنات، لكننا معناه أن الأخلاق عنده في المحلِّ الأول، وهو لا يَمَلُّ من أن يكرّر الدعوة إلى الخُلُق الصالح على أنه قوام حياة الأمم في قصيدة يقولها عن مصر أو عن غير مصر، وكثير من أبياته في هذا المعنى قد أصبح مثلاً يتداوله كل كاتب، وكل أستاذ، وكل تلميذ، ويردّده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها، أولًا ترى قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قد بلغ من تواتره على الألسن أن أصبح الكثيرون لا يعرفون إن كان لشوقي أو لشعراء العصور الزاهرة في أيام العرب إلا لأنهم يريدون أن يكون فخر هذا البيت وغيره من مثله لهم، بنسبته لشاعر مصر والشرق في عصرهم.

(٤) إلى جانب مقام العاطفة الوطنية التي هي قوة متسلطة على نفس شوقي، تقوم عاطفة أخرى لا تقلُّ عنها قوة، وربما كانت أشدَّ أخذًا بهذه النفس وإثارة لشاعريتها، تلك هي العاطفة الإسلامية؛ فشوقي شاعر الإسلام والمسلمين، كما أنه شاعر مصر وشاعر الشرق، وعاطفة المسلم تتَّجه حتى العصور الأخيرة إلى جهتين، ثم إلى قومين: فهي تتَّجه صوب مكة مسقط رأس النبي ﷺ ومقام إبراهيم كعبة المسلمين وقبلة أنظارهم، ومكة في بلاد العرب، والنبي عربي، والقرآن عربي، وهي تتَّجه — أو كانت تتَّجه — صوب الآستانة، مقرَّ الخلافة الإسلامية، ومقام الخليفة من آل عثمان، والآستانة عاصمة الترك، وخليفة المسلمين كان تركيًا، فكل مسلم تعنيه وحدة المسلمين كان يتَّجه ببصره — إلى حين ألغيت الخلافة — نحو مكة ونحو الآستانة، يستمد من الأولى المدد الروحي، ومن الثانية مدد السيف والمدفع.

إلى جانب ما يروجوه المسلم من أهل بلاد الشرق العربي في مكة من مدد روحي، تحرَّك نفسه إلى هذه الأنحاء عاطفة أخرى هي العاطفة العربية، هي عاطفة هذه اللغة التي تربط اليوم أكثر من سبعين مليوناً، أكثرهم مسلمون، وكلهم خاضع لما يخضع له غيره من بطش القوة وسلطان التحكم، واللغة في حياة الأمم ليس شأنها هيناً؛ فأمة لا لغة لها لا حياة لها، ورقِّي اللغة في أمة آية صادقة من آيات رقيها، وما دام العرب مصدر اللغة، وعلى رجل منهم هبط الوحي، وبينهم قام صاحب الشريعة، فلهم — عند المسلمين كافة وعند الذين يتكلمون العربية خاصة — حُرمة تدفعهم إلى التغني بأنثارتهم، والإشادة بقديم مجدهم، وتمني خير الأمانى لهم.

لذلك كان العرب، ومكة، والوحي، والقرآن، والإسلام، والرسول، كلها معانٍ لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي؛ ولذلك لم يكن شوقي يشيد بذكر المسلمين وبخلافاتهم لغاية سياسة سرفة، بل إنه ليؤمن بهذه المعاني إيماناً يتجلى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة: كيف يبلغ الإيمان من نفس هذا المحبِّ للحياة كل هذا المبلغ؟! فلا نجد لحيرتنا جلاءً إلا من الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وبحسبك أن تقرأ الهمزية النبوية، ونهج البردة، وقصيدته في ذكرى المولد التي مطلعها:

سَلُوا قلبي غداة سلا وثابا لعلَّ على الجمال له عتابا

لترى في غير إبهام أنه إنما أملت هذه القصائد قوة غلبت طبع الشاعر؛ هي قوة الإيمان!

لكنك قد يدهشك — مع تجلّي الإيمان في هذه القصائد وغيرها — أن يكون شوقي أكثر تحدثاً عن الترك وعن الخليفة منه عن العرب وعن الرسول؛ فهذا الجزء الأول من ديوانه يشتمل على ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة، ويشتمل على ثماني عشرة قصيدة عن الخلافة وعن الترك، وأنت تلمس في هذه القصائد الثماني عشرة جميعاً حساً أدقّ من العاطفة، وفيضاً أغزر من الشعر، وقوة تكاد تعتقد معها أن شوقيًا إذ يتحدث عن الترك إنما يملي ما يكنه فؤاده، وإنما يندفع بقوة كمينه هي قوة دم الجنس، أو أن اتصاله بالبيت المال في مصر كان قوي الأثر في نفسه إلى حدّ جعله يفيض من ذكر الترك بما ينبض به قلب سلالة محمد علي.

وليس عليك إلا أن تقرّأ أيّاً من قصائده التركية، لتقتنع بما نقول.. اقرأ قصيدته العظيمة العامرة عن الحرب العثمانية اليونانية التي مطلعها:

بسيفك يعلو الحق، والحق أغلب ويُنصرُ دينُ الله أيّانَ تضرب

أو قصيدته في رثاء أدرنة، أو تحيته للترك أيام حرب اليونان، اقرأ أيّاً من هذه القصائد التي قيلت قبل الحرب الكبرى، أو اقرأ غيرها مما قيل بعد الحرب على أثر انتصار الأتراك على اليونان، كقصيدته التي مطلعها:

الله أكبر، كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدّد خالد العرب

وإنك لمؤمنٌ حقاً بأن هذه القصائد التركية هي أقوى قصائده عن الحوادث وأصدقها حساً وعاطفة.

ولعل مرجع ذلك أن قد اجتمعت في الأتراك عوامل كثيرة كان لشوقي اتصال بها؛ فكانت لذلك تهزّه أكثر ما تهزُّ سواه. فالترك — فوق أنهم كانوا مقر الخلافة وقبلة المسلمين الزمنية، وأصحاب السيادة على مصر سيادة يشلّها الاحتلال الانجليزي — يجري من دمّهم في عروق الشاعر الكبير، ومنهم أصحاب عرش مصر — يومئذ الذين بابهم ولّد شوقي وفي حماهم شبّ ونشأ.

وقد بلغ من حبِّ شوقي للترك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تشوبها نقیصة. (٥) على أن شوقيًا — وإن كان شاعر مصر، وشاعر العرب، وشاعر المسلمين، وكان فيه الازدواج بين حبِّ الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه — له ذاتيته التي لا تخفى فهو شاعر الحكمة العامة، وهو شاعر اللغة العربية السليمة، وإنك لتعجب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبيات معدودة تدخل في موضوع العنوان، بينما سائرُها حكمة أو غزل أو وصف أو ما شاء لشوقي هواه، وما أحسب شاعرًا بالغ في ذلك ما بالغ شوقي، ولستُ أضرب لك مثلًا لذلك مما في هذا الجزء الأول من الديوان إلا بقصائد ثلاث: لجان التموين، والانقلاب العثماني، وبين الحجاب والسفور. هذا وإنك واجد في غير هذه القصائد الثلاث ما يظهر لك منه ما ألقينا به إليك، فشیطان شوقي أشدُّ حرصًا على متاعه بالشعر للشعر منه بموضوع خاص، أمَّا القصائد التي يملك موضوعها أبياتها جميعًا فهي القصائد التي ملك موضوعها شوقيًا فأنساه نفسه، بما كان له في هذا الموضوع من لذة ومتاع، وما أفاضه على شاعريته من وحي وإلهام.

وحكمة شوقي، وما يصدر عنه من وصف وغزل، وما يميز شعره جميعًا يبدو كأنه شرقي عربي لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار، وهذا طبيعي ما دام شوقي شاعر العرب والمسلمين، وما دام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة، ولقد ترى شوقيًا يغلو في شرقيته وعربيته أحيانًا، ولقد تراه يتعمد ذلك في لفظه ومعناه، وسبب ذلك هو ما يراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلف السلف من تراث، والأخذ بكل ما ينبع به الحاضر من وراء الغرب.

وقد يكون غلوُّ شوقي أكثر وضوحًا في جانب اللغة منه في جانب المعاني، فهو بمعانيه وصوره وخيالاته تحيط مما في الغرب بكل ما يسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أمَّا لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس وصاروا لا يحبونها لأنهم لا يعرفونها، ولعل سرَّ ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد، بل لقد يكون البعث أكد وسائل التجديد نتيجة ما يوجد من أرباب اللغة، ممن يفيضون على الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها، والبعث لها إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل ما بين مدنية دراسة ومدنية وليدة، يجب أن تتصل بها اتصال كل خلف بسلفه.

وَمَنْ ذَا تَرَى مِنْ أَرْبابِ اللُّغَةِ قَدِيرًا قُدْرَةَ شَوْقِي عَلَى أَنْ يَبْعَثَ فِي الْأَلْفَاظِ الْقَدِيمَةِ
رُوحًا تَكْفُلُ حَيَاتَهَا فِي الْحَاضِرِ، وَتَفِيضُ عَلَيْهَا مِنْ ثَوْبِ الشَّعْرِ مَا يَجْعَلُهَا تَتَسَّعُ لِمَا لَمْ
تَكُنْ تَتَسَّعُ لَهُ مِنْ قَبْلُ الْمَعَانِي وَالْأَخْيَلَةِ وَالصُّورِ؟ إِنَّ الْيُونَانِيَّةَ لَا تَزَالُ مَوْضِعَ دَرَاةِ
الْعُلَمَاءِ وَاللُّغَوِيِّينَ لِأَنَّ هُومِيرَ كَتَبَ بِهَا إِيَّادَتَهُ، وَاللَّاتِينِيَّةَ مَا تَزَالُ حَيَاتَهَا كَمِينَةً وَإِنْ
تَدَثَّرَتْ بِحُجَبِ الْمَاضِي أَنْ كَتَبَ بِهَا فَرْجِيلَ شَعْرِهِ، وَاللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ حَتَّى الْيَوْمِ لُغَةُ
التَّفَاهَمِ بَيْنَ سَبْعِينَ مَلْيُونًا مِنْ أَهْلِ هَذَا الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ حَيَّةٌ وَسَتَبْقَى أَبَدًا حَيَّةً،
وَلَكِنْ كِمَالِ حَيَاتِهَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ لَهَا أَمْثَالَ شَوْقِي؛ لِيَزِيدُوا تِلْكَ الْحَيَاةَ قُوَّةَ
وَرُوعَةٍ وَجَمَالًا.

وما أنا بحاجة إلى أن أدلّ على هذه القوة، وتلك الروعة، وذلك الجمال، فكل أديب
أو متأدب يعرف منها ما أعرف، وما هي ذي مجلوة في هذا الديوان بكل ما لشوقي على
اللغة والأدب والشعر من سلطان.

هوامش

(١) انظر الانتقال في هذه الأبيات التي اخترناها:

قل لبان بنى فشاد فغالى	لم يجز مصر في الزمان بناء
أجفل الجن عن عزائم فرعو	ن ودانت لبأسها الآباء
زعموا أنها دعائم شيدت	بيد البغي ملؤها ظلماء
إن يكن غير ما أتوه فخار	فأنا منك — يا فخار — براء
لا رعاك التاريخ يا يوم قمبيز	ز ولا طنطننت بك الأنباء
جىء بالمالك العزيز ذليلا	لم تزلزل فؤاده البأساء
بنت فرعون في السلاسل تمشي	أزعج الدهر عريها والحفاء
والأعادي شواخص وأبوها	بيد الخطب صخرة صماء
فأرادوا لينظروا دمع فرعو	ن وفرعون دمع العنقاء

كبار الحوادث في وادي النيل^١

هَمَّتِ الْفُلُكُ، واحتواها الماءُ
ضرب البحرُ ذو الغُبَابِ حَوَالِيَّ
ورأى المارقون من شَرِكِ الْأَرِ
وجبالاً موائجاً في جبالِ
ودوياً كما تَاهَبَتِ الْخِيـ
لُجَّةٌ عِنْدَ لَجَةٍ عِنْدَ أُخْرَى
وَسَفِينٌ طَوْرًا تَلُوحُ، وَحِينًا
نَازِلَاتٌ فِي سَيْرِهَا صَاعِدَاتٌ
رَبِّ، إِنْ شِئْتَ فَالْفَضَاءُ مَضِيقُ
فاجعل البحرَ عَصْمَةً، وابعث الرحـ
أَنْتَ أَنْسٌ لَنَا إِذَا بَعُدَ الْأُنْـ
يتولَّى البحارَ — مهما ادلهمتْ —
وَإِذَا مَا عَلَّتْ فَذَاكَ قِيَامُ
فَإِذَا رَاعَهَا جَلَالُكَ خَرَّتْ

وَحَدَّاهَا بِمَنْ تُقِلُّ الرِّجَاءُ^١
هَهَا سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ^٢
ضِ شِبَاكًا تَمُدُّهَا الدُّمَاءُ^٣
تَتَدَجَّى كَأَنَّهَا الظُّلُمَاءُ^٤
لُ وَهَاجَتِ حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ
كَهَضَابٍ مَاجَتِ بِهَا الْبِيدَاءُ
يَتَوَلَّى أَشْبَاحَهُنَّ الْخَفَاءُ^٥
كَالْهُوَادِي يَهْزُؤَنَّ الْحُدَاءُ^٦
وَإِذَا شِئْتَ فَالْمَضِيقُ فضاء
مَمَّةٌ فِيهَا الرِّيحُ وَالْأَنْوَاءُ^٧
سُسْ، وَأَنْتَ الْحَيَاةُ وَالْإِحْيَاءُ
مِنْكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ لِأَلَاءُ
وَإِذَا مَا رَغَتِ فَذَاكَ دَعَاءُ^٨
هَيْبَةً، فَهِيَ وَالْبَسَاطُ سَوَاءُ

^١ قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة جنيف في سبتمبر سنة ١٨٩٤، وكان مندوباً للحكومة المصرية فيه.

لك فيه تحيةً وثناءً
جَع بِنُعمَى زمانها الوَجْناً^٩
أَرْض، وانقاد بالشرع الماء^{١٠}
ق، وقام الوجود فيما يشاء
وعَلُونا، فلم يَجْزْنَا علاءً
والبرايا بأسرهم أُسْراءُ
لم يَجْز مصرَ في الزمانِ بناءً
أَل شُماً، وأن تُنالَ السماء^{١١}
ن، ودانت لبأسها الآناء^{١٢}
شأ عصر، ولا بنى بناءً
فهى والناسُ والقرونُ هَباءُ
ويُوارى الإصباحُ والإمساءُ
والجديدان، والبلَى، والفناء^{١٣}
بَيدِ البَغْيِ، ملؤها ظلماءُ
مُوا، فصعبٌ على الحسودِ الثَّناءُ
يبيدها، والخلائقُ الأُسْراءُ
ممة، والرأي، والنهى، والذكاءُ
والعلومُ التي بها يُستضاءُ
نَا، ودَعواهم حَنًا وافتراء^{١٤}
سُبَّةً أن تُسَخَّرَ الأعداءُ
فأنا منك — يا فخار — براءُ
وأياديه عنده أفياء^{١٥}
في صباننا، والليالي دهاء^{١٦}
ن، وهَمَّت بِمَلِكِهِ الأرْزاءُ؟
في ثيابِ الرُّعاةِ من قبلُ جاءوا^{١٧}
لك إليهم، وانضمتُ الأجزاءُ
لَهُمْ في ثرى الصعيدِ التَّجاءُ

والعريضُ الطويلُ منها كتابُ
يا زمانَ البحار، لولاك لم تُف
فقدماً عن وَحْدِها ضاق وجهُ الـ
وانتهت إمرةُ البحارِ إلى الشر
وبنينا، فلم نُخَلْ لبان
ومَلَكْنَا، فالمالكُونُ عبيدُ
قُل لبانِ بنى، فشادَ، فغالى:
ليس في الممكناتِ أن تُنقلَ الأجْب
أَجفل الجنُّ عن عزائم فرعو
شادَ ما لم يَشِدْ زمانُ، ولا أن
هيكُلُ تُنثَرُ الدياناتُ فيه
وقبورُ تحطُّ فيها الليالي
تشفقُ الشمسُ والكواكبُ منها
زعموا أنها دعائمُ شيدت
فاعذرِ الحاسدين فيها إذا لا
دُمِرَ الناسُ والرعيَّةُ في تش
أين كان القضاء، والعدل، والحك
وبنو الشمسِ من أعزَّةِ مصرِ
فادَّعُوا ما ادَّعى أصاغرُ آثيـ
ورأوا للذين سادوا وشادوا
إن يكن غيرَ ما أتوه فَخارُ
ليت شعري، والدهرُ حربُ بنيه
ما الذى داخلَ الليالي مِنّا
فَعَلَا الدهرُ فوقَ علياءِ فرعو
أعلنتُ أمرها الذئابُ وكانوا
وأتى كُلُّ شامتٍ من عدا المَلِ
ومضى المالكون، إلا بقايا

فَعَلَى دَوْلَةِ الْبُنَاةِ سَلَامٌ
وَإِذَا مَصْرُ شَاةٍ خَيْرٌ لِرَاعِي السِّدِّ
قَدْ أَذَلَّ الرِّجَالَ، فَهِيَ عَبِيدٌ
فَإِذَا شَاءَ فَالْرِقَابُ فِدَاهُ
وَلِقُومِ نَوَالِهِ وَرِضَاهُ
فَفَرِيقٌ مَمْتَعُونَ بِمِصْرَ
إِنْ مَلَكَتِ النُّفُوسُ فَاثْبَغَ رِضَاهَا
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلْوُثُوبِ مِنَ الْأَسَدِ
يَحْسَبُ الظَّالِمُونَ أَنْ سَيَسُودُوا
وَاللِّيَالِي جَوَائِرُ مِثْلَمَا جَا
لَبِثَتْ مِصْرُ فِي الظَّلَامِ، إِلَى أَنْ
لَمْ يَكُنْ ذَاكَ مِنْ عَمَى، كُلُّ عَيْنٍ
مَا نَرَاهَا دَعَا الْوَفَاءَ بَنِيهَا
لِيَزِيحُوا عَنْهَا الْعِدَاءَ، فَأَزَاخُوا
وَأَعِيدَ الْمَجْدُ الْقَدِيمَ، وَقَامَتْ
وَأَتَى الدَّهْرُ تَائِبًا بِعِظِيمِ
مَنْ كَرَّمَسِيْسَ فِي الْمُلُوكِ حَدِيثًا
بَايَعَتْهُ الْقُلُوبُ فِي صُلْبِ سِيْتِي
وَاسْتَعَدَّ الْعِبَادُ لِلْمَوْلِدِ الْأَكْبَرِ
جَلَّ سِيزُوسْتَرِيْسُ عَهْدًا، وَجَلَّتْ
فَسَمِعْنَا عَنِ الصَّبِيِّ الَّذِي يَعَى
وَيَرَى النَّاسَ وَالْمُلُوكَ سَوَاءً
وَأَرَانَا التَّارِيخُ فِرْعَوْنَ يَمْشِي

وَعَلَى مَا بَنَى الْبُنَاةَ الْعَفَاءُ
وَوَيْ، تُؤَذَى فِي نَسْلِهَا وَتُسَاءُ
وَنَفُوسُ الرِّجَالِ، فَهِيَ إِمَاءُ
وَيَسِيرُ إِذَا أَرَادَ الدِّمَاءُ
وَلَأَقْوَامِ الْقَلَى وَالْجَفَاءُ^{١٨}
وَفَرِيقٌ فِي أَرْضِهِمْ غُرْبَاءُ
فَلَهَا ثَوْرَةٌ، وَفِيهَا مَضَاءُ^{١٩}
رِ، فَكَيْفَ الْخَلَاتِقُ الْعُقْلَاءُ؟
نَ، وَأَنْ لَنْ يُؤَيَّدَ الضَّعَفَاءُ
رُؤَا، وَلِلدَّهْرِ مِثْلَهُمْ أَهْوَاءُ
قِيلَ: مَاتَ الصَّبَاحُ وَالْأَضْوَاءُ
حَجَبَ اللَّيْلُ ضَوْءَهَا عَمِيَاءُ
وَأَتَاهُمُ مِنَ الْقُبُورِ النَّدَاءُ
وَأَزِيحَتْ عَنْ جَفْنِهَا الْأَقْدَاءُ
فِي مَعَالِي آبَائِهَا الْأَبْنَاءُ
مِنْ عَظِيمِ، أَبَاؤُهُ عَظْمَاءُ
وَلِرَمْسِيْسِ الْمُلُوكِ فِدَاءُ^{٢٠}
يَوْمَ أَنْ شَاقَّهَا إِلَيْهِ الرِّجَاءُ
بِرِ، وَأَزَيَّنَتْ لَهُ الْغَبْرَاءُ
فِي صَبَاهُ الْآيَاتِ وَالْآلَاءُ
لُفُو، وَطَبَعَ الصَّبَا الْغَشُومَ الْإِبَاءُ
وَهَلِ النَّاسُ وَالْمُلُوكُ سَوَاءُ؟
لَمْ يَحُلْ دُونَ بَشَرِهِ كَبْرِيَاءُ

يُولَدُ السَّيِّدُ الْمَتَوَجُّعُ غَضًّا
لَمْ يَغْيِرْهُ يَوْمَ مِيلَادِهِ بؤ
فَإِذَا مَا الْمُمْلَقُونَ تَوَلَّوْا

طَهَّرَتْهُ فِي مَهْدِهَا النَّعْمَاءُ^{٢١}
سُ، وَلَا نَالَهُ وَلِيدًا شَقَاءُ
هُ تَوَلَّى طِبَاعَهُ الْخِيَلَاءُ^{٢٢}

وسرى في فؤاده زخرفُ القو
لِ، تراه مستعدباً وهو داءُ
فإذا أبيضُ الهديل غرابُ
وإذا أبلجُ الصباح مَساءُ^{٢٣}

جَلَّ رمسيسُ فطرَةً، وتغالى
وسمًا للعلأ، فنال مكانًا
وجيوشُ ينهضن بالأرض ملكًا
ووجودُ يسأس، والقولُ فيه
وبناءً إلى بناءٍ، يودُ الخُلُ
وعلومُ تحيي البلادَ، وبناتُ
إيه سيزوستريس، ماذا ينال الـ
كبرت ذاتك العلية أن تُحـ
لك آمونُ، والهللُ إذا يكـ
ولك الريفُ، والصعيدُ، وتاجًا
ولك المنشآتُ في كلِّ بحرٍ
ليت لم يُبلِّك الزمانُ، ولم يبـ
هكذا الدهرُ: حالةٌ ثم ضدُّ

شيعَةً أن يقوده السفهاءُ
لَمْ يَنْلُه الأمثالُ والنظراءُ
ولواءُ من تحته الأحياءُ
ما يقولُ القضاةَ والحُكماءُ
دُ لو نال عمره والبقاءُ
هُورُ فخرُ البلادِ، والشعراءُ^{٢٤}
وصفُ يومًا، أو يبلغُ الإطراءُ
حِصِي ثَنَاهَا الألقابُ والأسماءُ
جبرُ، والشمسُ، والضحي، آباءُ^{٢٥}
مصرَ، والعرشُ عاليًا، والرداءُ
ولك البرُّ أرضه والسماءُ
لَ لِمَلِكِ البلادِ فيك رجاءُ
ما لحال مع الزمانِ بقاءُ

لا رَعَاكَ التاريخُ يا يومَ قمبيـ
دارت الدائراتُ فيك، ونالت
فبمصر مما جنيت لمِصرٍ
نكدُ خالدُ، وبؤسُ مقيمٍ
يَوْمَ مَنْفِيسَ، والبلادُ لكسرى
يأمرُ السيفُ في الرقابِ، وينهى
جِيءَ بالملكِ العزيز ذليلاً
يُبصرُ الآل إذ يُراحُ بهم في بنتُ
بنت فرعونَ في السلاسلِ تمشي

زَ، ولا طَنَطَنَت بك الأنباءُ^{٢٦}
دارت الدائراتُ فيك، ونالت
أَيُّ داءٍ، ما إن إليه دواءُ^{٢٧}
وشقاءُ يجدُ منه شقاءُ
والمُلوكُ المُطاعةُ الأعداءُ^{٢٨}
ولِمِصرٍ على القَدَى إغضاءُ
لَمْ تُزَلِزْ فؤاده البأساءُ
موقفِ الذلِّ عَنوَةً، ويُجاءُ
أزعج الدهرَ عُرْيُها والحفاءُ^{٢٩}

فَكَأَن لَّمْ يَنْهَضْ بِهَوْدَجِهَا الدَّهْرُ، وَلَا سَارَ خَلْفَهَا الْأَمْرَاءُ^{٣٠}

وَأَبُوهَا الْعَظِيمُ يَنْظُرُ لِمَا
أَعْطَيْتَ جَرَّةً، وَقِيلَ: إِلَيْكَ النَّهْـ
فَمَشَتْ تَظْهَرُ الْإِبَاءَ، وَتَحْمِي الدَّمْـ
وَالْأَعَادِي شَوَاحِصُ، وَأَبُوهَا
فَأَرَادُوا لِيَنْظُرُوا دَمْعَ فَرَعُو
فَأَرَوْهُ الصَّدِيقَ فِي ثَوْبٍ فَقِرْ
فَبَكَى رَحْمَةً، وَمَا كَانَ مَنْ يَبْـ
هَكَذَا الْمَلِكُ وَالْمَلُوكُ، وَإِنْ جَا
رُدِّيتَ مِثْلَمَا تَرُدَّى الْإِمَاءُ^{٣١}
رَ، قَوْمِي كَمَا تَقُومُ النِّسَاءُ
عَ أَنْ تَسْتَرْقَهُ الضَّرَاءُ^{٣٢}
بَيَدِ الْخَطْبِ صَخْرَةً صَمَاءُ^{٣٣}
نَ، وَفَرَعُونَ دَمْعُهُ الْعَنْقَاءُ^{٣٤}
يَسْأَلُ الْجَمْعَ، وَالسَّوَالُ بِلَاءُ
كِي، وَلَكِنَّمَا أَرَادَ الْوَفَاءُ
رَ زَمَانُ، وَرَوَّعْتَ بَلْوَاءُ

لَا تَسْلَنِي: مَا دَوْلَةُ الْفَرَسِ؟! سَاءَتْ
أَمَّةٌ هُمُّهَا الْخَرَائِبُ تُبْلِيـ
سَلَبَتْ مَصْرَ عِزِّهَا، وَكَسَتْهَا
وَارْتَوَى سَيْفُهَا، فَعَاجَلَهَا اللَّهُ
طَلِبَةً لِلْعِبَادِ كَانَتْ لِإِسْكَـ
شَادَ إِسْكَندَرُ لِمَصْرَ بِنَاءُ
بَلَدًا يَرْحَلُ الْأَنَامُ إِلَيْهِ
عَاشَ عُمَرًا فِي الْبَحْرِ ثَغَرَ الْمَعَالِي
مَطْمَئِنًّا مِنَ الْكَتَائِبِ وَالْكَتْـ
يَبْعَثُ الضَّوْءَ لِلْبِلَادِ، فَتَسْرِي
وَالْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ يُظْهِرْنَ عِزَّ الـ
وَالرَّعَايَا فِي نِعْمَةٍ، وَلِبَطْلَايَ
فَقَضَى اللَّهُ أَنْ تَضِيَعَ هَذَا الْمُـ
تَخَذَتْهَا رُومًا إِلَى الشَّرِّ تَمْهِـ
فَتَنَاهَى الْفَسَادُ فِي هَذِهِ الْأَرْـ

دَوْلَةُ الْفَرَسِ فِي الْبِلَادِ، وَسَاءُوا^{٣٥}
هَهَا، وَحَقُّ الْخَرَائِبِ الْإِعْلَاءُ^{٣٦}
ذَلَّةٌ مَا لَهَا الزَّمَانُ انْقِضَاءُ
بَسِيفٍ مَا إِنْ لَهُ إِرْوَاءُ^{٣٧}
دَرَ فِي نَيْلِهَا الْيَدُ الْبَيْضَاءُ^{٣٨}
لَمْ تَشْهَدْهُ الْمُلُوكُ وَالْأَمْرَاءُ
وَيَحُجُّ الطُّلَّابُ وَالْحُكَمَاءُ
وَالْمَنَارَ الَّذِي بِهِ الْاهْتِدَاءُ
بِ بِمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْعَلَاءُ
فِي سَنَاهُ الْفُهُومُ وَالْفَهْمَاءُ
مُلْكٍ، وَالْبَحْرُ صَوْلُهُ وَثَرَاءُ^{٣٩}
مُوسٍ فِي الْأَرْضِ دَوْلَةٌ عَلِيَاءُ^{٤٠}
لَكَ أَنْتَى صَعْبٌ عَلَيْهَا الْوَفَاءُ^{٤١}
ذَا، وَتَمْهِيدُهُ بِأَنْتَى بِلَاءُ
ضِ، وَجَارَ الْأَبَالِسِ الْإِغْوَاءُ

ضِيَعَتْ قِصَرَ الْبَرِيَّةِ أَنْثَى
فَتَنَّتْ مِنْهُ كَهْفَ رُومَا الْمَرْجَى
قَاهَرَ الْخَصِمِ وَالْجَحَافِلِ مَهْمَا
فَأَتَاهَا مَنْ لَيْسَ تَمْلِكُهُ أَنْ
بَطَلَ الدُّوَلَتَيْنِ، حَامِي جَمَى رُو
أَخَذَ الْمُلْكَ، وَهِيَ فِي قَبْضَةِ الْأَفْ
سَلَبَتْهَا الْحَيَاةُ، فَاعْجَبَ لِرُقْطَا
لَمْ تُصَبْ بِالْخِدَاعِ نُجْحًا، وَلَكِنْ
قَتَلَتْ نَفْسَهَا، وَظَنَّتْ فِدَاءً
سَلْ كِلَوْبَتَرَةَ الْمَكَايِدِ: هَلَّا
فِي رُومَا تَأَيَّدَتْ، وَبِ رُومَا
وَلِرُومَا الْمُلْكَ الَّذِي طَالَمَا وَآ
وَتَوَلَّتْ مِصْرًا يَمِينُ عَلَى الْمِصْرِ
تُسْمِعُ الْأَرْضَ قِيصَرًا حِينَ تَدْعُو
وَيُنِيلُ الْوَرَى الْحَقُوقَ، فَإِنْ نَا
فَاصْبِرِي مِصْرَ لِلْبَلَاءِ، وَأَنْتِ
ذَا الَّذِي كُنْتَ تَلْتَجِينَ إِلَيْهِ

يَا لَرَبِّي مِمَّا تَجُرُّ النِّسَاءُ^{٢٢}
وَالْحُسَامَ الَّذِي بِهِ الْإِتْقَاءُ^{٢٣}
جَدَّ هَوْلُ الْوَعَى وَجَدَّ الْلِقَاءُ
نَتَى، وَلَا تَسْتَرْقِهِ هَيْفَاءُ^{٢٤}
مَا، الَّذِي لَا تَقُودُهُ الْأَهْوَاءُ^{٢٥}
عَى عَنِ الْمُلْكِ وَالْهَوَى عَمِيَاءُ^{٢٦}
ءَ أَرَاخَتْ مِنْهَا الْوَرَى رَقْطَاءُ^{٢٧}
خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ: حَسَنَاءُ
صَغَرَتْ نَفْسُهَا، وَقَلَّ الْفِدَاءُ
صَدَّهَا عَنِ وِلَاةِ رُومَا الدَّهَاءُ؟
هِيَ تَشْقَى، وَهَكَذَا الْأَعْدَاءُ
فَاهُ فِي السَّرِّ نَصَحُهَا وَالْوِلَاءُ
سَرِّي مِنْ دُونِ ذَا الْوَرَى عَشْرَاءُ
وَعَقِيمٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الدَّعَاءُ^{٢٨}
دَتَهُ مِصْرُ فَأَذْنُهُ صَمَاءُ
لَكَ؟ وَالصَّبْرُ لِلْبَلَاءِ بِلَاءُ
لَيْسَ مِنْهُ إِلَى سِوَاهِ التَّجَاءُ

رَبِّ، شُقَّتِ الْعِبَادَ أَزْمَانٌ لَا كَتَ
زَهَبُوا فِي الْهَوَى مَظَاهِبَ شَتَّى
فَإِذَا لَقِبُوا قَوِيًّا إِلَهًا
وَإِذَا آثَرُوا جَمِيلًا بِتَنْزِيهِ
وَإِذَا أَنْشَأُوا التَّمَاثِيلَ غَرًّا
وَإِذَا قَدَّرُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَا
وَإِذَا أَلْهَوْا النَّبَاتَ، فَمِنْ آ
وَإِذَا يَمَّمُوا الْجِبَالَ سَجُودًا
وَإِذَا تُعْبِدُ الْبَحَارَ مَعَ الْأَسْ

سَبُّ بِهَا يُهْتَدَى، وَلَا أَنْبِيَاءُ^{٢٩}
جَمَعَتْهَا الْحَقِيقَةُ الزَّهْرَاءُ^{٣٠}
فَلَهُ بِالْقُوَى إِلَيْكَ انْتِهَاءُ
هَ، فَإِنَّ الْجَمَالَ مِنْكَ جِبَاءُ^{٣١}
فَإِلَيْكَ الرُّمُوزُ وَالْإِيمَاءُ^{٣٢}
بَا، فَمِنْكَ السَّنَا وَمِنْكَ السَّنَاءُ^{٣٣}
ثَارِ نِعْمَاكَ حُسْنُهُ وَالنِّمَاءُ
فَالْمُرَادُ الْجَلَالَةُ الشَّمَاءُ^{٣٤}
مَّاكَ، وَالْعَاصِفَاتُ، وَالْأَنْوَاءُ

وسبأغ السماء والأرض، والأر
لِعُلاك المَذْكَرَاتُ عبيدُ
جام، والأمهات، والآباء
خُضَعُ، والمؤنثات إماء^{٥٥}
شَفَّ عنه الحِجابُ فهو ضياءُ
جمع الخلق والفضيلة سرُّ

سجَدَتِ مصرُ في الزمان لإيزيد
إِنْ تَلِ الْبَرَّ، فالبلادُ نُضَارُ
سَسَ الندى، مَنْ لها اليدُ البيضاء^{٥٦}
أو تَلِ الْبَحْرَ، فالرياحُ رُخاءُ^{٥٧}
أو تَلِ الْأَفْقَ، فهي فيه ذُكاءُ^{٥٨}
أَنْ تَوَحَّدَتْ، لم تَكُ الأشياءُ
صُرِكَ أرضُ، ولا رَأَتْكَ سماءُ
فَقَى، وَأَنْتِ الْإِظْهَارُ وَالْإِخْفَاءُ
رَيْسُ، وابْنَاهُ، كُلُّهُمْ أَوْلِياءُ^{٥٩}
ثِيلُ يُدْنِي مَنْ لا له إِدْناءُ
وتلاه في حُبِّكَ الْقُدَماءُ
قِيلَ: مِنْهَا إِيزِيْسُهَا الْغَراءُ

رَبِّ، هِذِي عَقُولُنَا فِي صِبَاهَا
فَعَشِقْنَاكَ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الرَّسُ
ووصلنا السُّرى، فلولا ظلامُ الـ
واتخذنا الأسماءَ شَتَّى، فلمَّا
حَجَّنا في الزَّمانِ سحرًا بِسِحْرِ
ويريدُ الإلهُ أَنْ يُكْرِمَ الْعَقْـ
ظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّ مُوسَى لَهُ وَ
لم يكنْ في حسابِهِ يَوْمَ رَبِّي
فرأى الله أَنْ يَعْقُ، وَلِلَّهِ
مصرُ موسى عِنْدَ انْتِمَاءِ، وموسى
فَبِهِ فخرُها الْمُؤَيَّدُ، مهما

نالها الخوفُ، واستبأها الرجاءُ
لُ، وقامت بِحُبِّكَ الأَعْضاءُ
جَهْلُ لم يَخْطُنَا إِلَيْكَ اهْتِداءُ^{٦٠}
جاءَ موسى انتَهَتْ لَكَ الأَسْماءُ
واطمأنتْ إلى العصا السَّعداءُ^{٦١}
لُ، وَأَلَا تُحَقِّقِرِ الْآراءُ
فِ، وعندَ الْكِرَامِ يُرْجَى الْوَفاءُ
أَنْ سِيَأْتِيَ ضِدَّ الْجِزاءِ الْجِزاءُ
تَفِي - لا لِغَيْرِهِ - الْأَنْبياءُ
مصرُ إِنْ كانَ نَسَبُهُ وانْتِمَاءُ
هُزَّ بِالسَّيِّدِ الْكَلِيمِ الْلواءُ^{٦٢}

إن تكن قد جفته في ساعة الشكِّ
خَلَّةٌ للبلادِ يَشْقَى بِهَا النَّا
فكبيرُ ألا يُصانَ كبيرُ
فحظُّ الكبيرِ منها الجَفَاءُ
سُ، وتَشْقَى الدَّيارُ والأبناءُ
وعظيمُ أن يُنْبَذَ العُظماءُ

وُلِدَ الرَّفَقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عَيْسَى
وازدَهَى الكونُ بالوليد، وضاءتْ
وسرَّتْ آيَةُ الْمَسِيحِ، كما يسر
تملاً الأرضَ والعوالمَ نوراً
لا وعيدٌ، لا صولةٌ، لا انتقامٌ
مَلَكٌ جاورَ الترابَ، فلمّا
وأطاعتهُ في الإلهِ شيوخُ
أذعنَ الناسُ والمُلوكُ إلى ما
فلهم وقفةٌ على كلِّ أرضٍ
دخلوا ثيبةً فأحسنَ لُقياً
فَهَمُّوا السرَّ حينَ ذاقُوا، وسهلُ
فإذا الهيكُلُ المُقدَّسُ دُيِّرًا
وإذا ثيبةٌ لعيسى، ومنفياً
إنّما الأرضُ والفضاءُ لرَبِّي
لَهُمُ الحُبُّ خالصةً من رعايا
إنّما ينكرُ الدياناتِ قومُ
هرمتْ دولةُ القياصرِ، والدَّو
ليس تُغني عنها البلادُ ولا ما
نالَ روما ما نالَ من قبلُ آثي
سُنَّةُ الله في الممالكِ من قبـ

والمُروءاتُ، والهُدى، والحياءُ
بسَناهُ مِنَ الثَّرَى الأرجاءُ
حري من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
فالثرى مائجٌ بها، وضاءُ
لا حُسامٌ، لا غزوةٌ، لا دماءُ
ملَّ نابتَ عن الترابِ السَّماءُ^{٦٣}
خُشَّعٌ، خُضَّعٌ له، ضعفاءُ
رسمُوا، والعقولُ، والعُقلاءُ
وعلى كلِّ شاطئٍ إرساءُ
هم رجالٌ بتيبةٍ حكماءُ^{٦٤}
أن ينالَ الحقائقَ الفُهماءُ^{٦٥}
وإذا الدَّيْرُ رَوْنَقٌ وبهَاءُ
سُ، ونيلُ الثراءِ، والبطحاءُ^{٦٦}
ومُلوكُ الحَقِيقَةِ الأنبياءُ
هم، وكُلُّ الهوى لَهُمُ والولاءُ
هم بما ينكرونَهُ أشقياءُ
لأتَ كالناسِ، داوَهُنَّ الفناءُ^{٦٧}
لُ الأقاليمِ إن أتاهَا النداءُ^{٦٨}
نَا، وسيَمَتُّه ثيبةُ العَصماءُ^{٦٩}
لُ ومن بعدُ، ما لِنَعْمَى بقاءُ

أظلمَ الشرقُ بعد قيصرٍ والغرُّ
بُ، وعمَّ البرِّيَّةُ الإِدْجاءُ^{٧٠}

يفتك الجهل فيه والجهلاء
أو شهاب، أو صخرة صماء^{٧١}
ثان، حتى انتهت له الأهواء
ف، وأن تغسل الخطايا الدماء
بعض أعضائها لبعض فداء
شقيت بالغبابة الأغبياء
فمن العدل أن يهول الجزاء
بشرتها بأحمد الأنبياء
حى إليه العلوم والأسماء
تعبت في مراسه الأقوياء^{٧٢}
ق مبینا، وقومه الفصحاء
سبق الخلق نحوه البلغاء
ب، ولبي الأعوان والنصرأ^{٧٣}
لم يؤلف شتاتهن لواء^{٧٤}
والحق، والصواب وراء
وهبوط إلى الثرى، وارتقاء
سلبته النجوم والجوزأ
ه ضياء يهدي به من يشاء^{٧٥}
ل، كما ينسخ الضياء الضياء
ء على الخصم، بينهم رُحماء
وتتول العلوم والعلماء^{٧٦}
مطمئن به السنأ والسنأ
جاور الرشد أهلها والذكاء^{٧٧}
ل، ونالت حقوقها الضعفاء
زان من دينها إلى من تشاء
هو طب الوجود، وهو الدواء
سن، والجاحدون، والأعداء

فالورى في ضلاله متماد
عرف الله ضلأ، فهو شخص
وتولى على النفوس هوى الأؤ
فرأى الله أن تطهر بالسيف
وكذلك النفوس وهي مراض
لم يعاد الله العبيد، ولكن
وإذا جلت الذنوب وهالت
أشرق النور في العوالم لما
باليقيم الأمي، والبشر المو
قوة الله إن تولت ضعيفا
أشرف المرسلين، آيته النط
لم يفه بالنبوغ الغر حتى
وأتته العقول منقادة لل
جاء للناس، والسرائر فوضى
وحمى الله مستباح، وشرع الله،
فلجبريل جيئة، ورواح
يحسب الأفق في جناحيه نور
تلك آي الفرقان، أرسلها لل
نسخت سنة النبيين والرؤس
وحماها غر، كرام، أشدا
أمة ينتهي البيان إليها
جارت النجم، واطمأنت بأفق
كلما حنت الركاب لأرض
وعلا الحق بينهم، وسما الفض
تحمل النجم، والوسيلة، والميد
وتنيل الوجود منه نظاما
يرجع الناس والعصور إلى ما

سَمَّ نَوَّوْهَا وَيَشْتَهِي الْأَنْكِيَاءَ
وَلِمَنْ أَثَرَ الشَّقَاءِ شَقَاءُ
عَجِيبًا أَنْ تُنَجِّبَ الْبِيدَاءُ^{٧٨}
أَتَرَاهَا أَسَادَهَا الْهَيْجَاءُ
أَرْضُ طُرَّا فِي أَسْرَهَا وَالْفَضَاءُ
دُ، وَمَصْرُ، وَالْغَرْبُ، وَالْحَمْرَاءُ^{٧٩}
شَادَ فِيهَا، وَالْمَلَّةُ الْغَرَاءُ؟
ضَافِي الظِّلِّ، دَأْبُهُ الْإِيوَاءُ^{٨٠}
فَاطْمَأْنَنْتِ، وَقَامَتِ الْخُلَفَاءُ
وَبَنُو الدِّينِ إِذْ هُمْ ضُعَفَاءُ
غَيَّضَ التُّرْكُ صَفْوَهُ وَالثَّوَاءُ^{٨١}
إِنَّ عَمْرًا لَنَيَّيرُ وَضَاءُ
لُ لِمَنْ يِقْتَنِيه أَفْرِيْقَاءُ
لُ، وَفِي رِقِّهِ لَهَا إِزْرَاءُ^{٨٢}

فيه ما تشتهي العزائمُ إن هـ
فَلِمَنْ حَاوَلَ النِّعِيمَ نَعِيمُ
أَيَّرِ الْعُجْمُ مِنْ بَنِي الظِّلِّ وَالْمَا
وَتُنْيِرُ الْخِيَامَ أَسَادَ هَيْجَا
ما أَنَا فَتِ عَلَى السَّوَادِ حَتَّى الـ
تَشْهَدُ الصَّيْنُ، وَالْبَحَارُ، وَبَغْدَا
مَنْ كَعَمِرِ الْبِلَادِ، وَالضَّادُ مَمَّا
شَادَ لِلْمُسْلِمِينَ رَكْنًا جَسَامًا
طَالَمَا قَامَتِ الْخِلَافَةُ فِيهِ
وَانْتَهَى الدِّينُ بِالرَّجَاءِ إِلَيْهِ
مَنْ يَصْنُهُ يَصْنُ بَقِيَّةَ عِزِّ
فَابِكِ عَمْرًا إِنْ كُنْتَ مُنْصِفَ عَمِرِ
جَادَ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْزَيْلِ، وَالنَّيْبِ
فَهَيَّ تَعْلُو شَأْنَا إِذَا حُرَّرَ النَّيْبُ

فَمِنْ الْمَدْحِ لِلرِّجَالِ جَزَاءُ^{٨٣}
خُ، الْمُلُوكُ، الْأَعْزَةُ، الصُّلَحَاءُ^{٨٤}
وَبِبُلَيْسَ قَلْعَةً شَمَاءُ
نَارُ عَظِيمَةٍ حَمْرَاءُ
وَلِأَسْرَاهُمْ قِرَى وَثَوَاءُ^{٨٥}
مَنْ هُوَ الْمَسْجِدَانِ وَالْإِسْرَاءُ؟^{٨٦}
وَجِمَاهُ الَّذِي بِهِ الْإِحْتِمَاءُ
وَمَشَى الْغَرْبُ: قَوْمُهُ، وَالنِّسَاءُ
وَقُلُوبُ تَثُورُ فِيهَا الدَّمَاءُ
سِ، وَدَيْنِ الَّذِينَ بِالْحَقِّ جَاءُوا
جَبَانَ مَا شَادَ بِالْقَنَا الْبِنَاءُ
نُصَّ لِلدِّينِ بَيْنَهُنَّ خِبَاءُ^{٨٧}

وَاذْكُرِ الْغُرَّ آلَ أَيُوبَ، وَامْدَحْ
هُمْ حُمَاةَ الْإِسْلَامِ، وَالنَّفَرُ الْبَيْدِ
كَلَّ يَوْمٍ بِالصَّالِحِيَّةِ حِصْنُ
وَبِمَصْرِ لِلْعِلْمِ دَارُ، وَلِلضُّيْفَانِ
وَلِأَعْدَاءِ آلِ أَيُوبَ قَتْلُ
يَعْرِفُ الدِّينُ مَنْ صَلَاحُ؟ وَيَدْرِي
إِنَّهُ حَصْنُهُ الَّذِي كَانَ حَصْنًا
يَوْمَ سَارِ الصَّلِيبِ وَالْحَامِلُوهُ
بِنَفُوسٍ تَجُولُ فِيهَا الْأَمَانِي
يُضْمِرُونَ الدَّمَارَ لِلْحَقِّ، وَالنَّارِ
وَيَهْدُونَ بِالتَّلَاوَةِ وَالصُّلُ
فَتَلَقَّتْهُمْ عِزَائِمُ صَدَقِ

مَزَقَتْ جَمَعَهُمْ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ
وَسَبَتْ أَمْرَدَ الْمُلُوكِ، فَرَدَّتْ
وَلَوْ أَنَّ الْمَلِيكَ هِيبَ أَذَاهُ
هَكَذَا الْمُسْلِمُونَ، وَالْعَرَبُ الْخَا
فَبِهِمْ فِي الزَّمَانِ نِلْنَا اللَّيَالِي
لَيْسَ لِلذَّلِّ حِيلَةٌ فِي نَفُوسٍ
مِثْلَمَا مَزَقَ الظَّلَامَ الضِيَاءُ
هُ وَمَا فِيهِ لِلرَّعَايَا رَجَاءُ^{٨٨}
لَمْ يُخْلَصْهُ مِنْ أَذَاهَا الْفِدَاءُ
لُون، لَا مَا يَقُولُهُ الْأَعْدَاءُ
وَبِهِمْ فِي الْوَرَى لَنَا أَنْبَاءُ
يَسْتَوِي الْمَوْتُ عِنْدَهَا وَالْبَقَاءُ

وَإِذْ كُرِ التُّرْكُ، إِنَّهُمْ لَمْ يُطَاعُوا
حَكَمَتْ دَوْلَةُ الْجَرَائِسِ عَنْهُمْ
وَاسْتَبَدَّتْ بِالْأَمْرِ مِنْهُمْ، فَ «بَاشَا»
يَأْخُذُ الْمَالَ مِنْ مَوَاعِيدَ مَا كَا
وَيَسُومُونَهُ الرِّضَا بِأُمُورٍ
فِيذَارِي لِيَعَصِمَ الْغَدَ مِنْهُمْ
فَيَرَى النَّاسُ أَحْسَنُوا أَمْ أَسَاءُ
وَهِيَ فِي الدَّهْرِ دَوْلَةٌ عَسْرَاءُ^{٨٩}
التُّرْكُ فِي مِصْرَ آلَهُ صَمَاءُ
نَوَا لَهَا مُنْجِزِينَ، فَهِيَ هَبَاءُ
لَيْسَ يَرْضَى أَقْلَهُنَّ الرِّضَاءُ^{٩٠}
وَالْمُدَارَةُ حِكْمَةٌ وَدَهَاءُ

وَأَتَى النَّسْرُ يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْيًا
يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ
حَلَمَتْ رُومَةٌ بِهَا فِي اللَّيَالِي
فَأَتَتْ مِصْرَ رُسُلُهُمْ تَتَوَالَى
وَلَوْ اسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيُّسُ رُومًا
عِلِمَتْ كُلُّ دَوْلَةٍ قَدْ تَوَلَّتْ
قَاهِرُ الْعَصْرِ وَالْمَمَالِكِ، نَابِلْ
جَاءَ طَيْشًا، وَرَاحَ طَيْشًا، وَمَنْ قَبْ
سَكَنَتْ عَنْهُ يَوْمَ عَيْرِهَا الْأَهْمُ
فَهِيَ تُوجِي إِلَيْهِ: أَنْ تَلِك «وَاتِر»
حَوْلَهُ قَوْمُهُ، النَّسُورُ ظِمَاءُ^{٩١}
دَوْلَةٌ عَرْضُهَا الثَّرَى وَالسَّمَاءُ
وَرَأَاهَا الْقِيَاضِرُ الْأَقْوِيَاءُ
وَتَرَامَتْ سَوَادِنَهَا الْعُلَمَاءُ^{٩٢}
لَأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةِ الْأَنْبِيَاءِ
أَنْنَا سَمُّهَا، وَأَنَا الْوَبَاءُ
يُونُ وَلَّتْ قَوَادَهُ الْكِبْرَاءُ
لُ أَطَاشَتْ أَنْاسُهَا الْعَلِيَاءُ
رَامُ، لَكِنْ سَكُوتُهَا اسْتِهْزَاءُ
لَوْ، قَائِنُ الْجِيُوشُ؟ أَيْنَ الْلَوَاءُ؟^{٩٣}

هوامش

- (١) حدا الإبل، وحدا بها: ساقها وغنّى لها.
- (٢) العباب: ارتفاع السيل أو الموج.
- (٣) مرق السهم من الرمية مروقًا: نفذ فيها وخرج من الجانب الآخر، فهو مارق، والمقصود هنا الهارب. الدأماء: البحر.
- (٤) تدجّى الليل: أظلم.
- (٥) السفين: جمع سفينة.
- (٦) الهوادي: أول رغيل من الإبل. الحداء: الغناء في أثر الإبل.
- (٧) الأنواء: الأمطار.
- (٨) رغا: ضجَّ في صوته.
- (٩) الوجناء: الناقة الشديدة.
- (١٠) وخدها: سيرها السريع وسعة خطوها.
- (١١) الأجبال: جمع جبل. والشمُّ: جمع أشم، وهو المرتفع.
- (١٢) أجفل: نفر وفرَّ خائفًا.
- (١٣) الجديدان: الليل والنهار.
- (١٤) الخنا: الفحش في الكلام.
- (١٥) الأفياء: جمع فيء، وهو الغنيمة، والمراد أن الدهر لا يحسن إلى الناس إلا راغمًا، فكأنهم لا يظفرون منه بنعمة إلا كغنيمة حرب.
- (١٦) أي تفعل فعل الدهاة.
- (١٧) ملوك الرعاة أو الهكسوس: فاتحون من آسيا انتهزوا فرصة الضعف الذي حلَّ بالبلاد على أثر انقضاء عهد الأسرة الثانية عشرة، والتنازع الذي حدث على الملك بين طبقة الأشراف؛ فغزوها في سنة ١٦٧٥ ق.م.
- (١٨) القلى: البغض.
- (١٩) مضاء السيف: نفاذه في الضربة.
- (٢٠) هو رمسيس الثاني ابن سيتي الأول: أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، وُلِّيَ عرش مصر وهو صغير، واستمرَّ حكمه من سنة ١٢٩٢-١٢٢٥ قبل الميلاد. ويُعرَفُ برمسيس الأكبر؛ لما اكتسبه من الشهرة الفائقة التي جعلت كثيرًا من الناس يزعمون أنه

أعظم ملوك مصر، والذي كَوَّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المباني العديدة التي شَيَّدها في جميع أنحاء البلاد.

(٢١) الغُضُّ: النضير.

(٢٢) الخِيلاء: العجب والكبر.

(٢٣) الهديل: ذكر الحَمَام. وبلج الصباح: أشرق وأنار.

(٢٤) بنتاهور: شاعر مصري قديم.

(٢٥) آمون إله الشمس في اعتقاد القدماء، وقد كان القدماء يعتقدون أن الملوك نسل الآلهة التي أشير إليها في هذا البيت بالشمس والقمر.

(٢٦) قمبيز: أحد ملوك الفرس، استولى على مصر سنة ٥٢٥ ق.م، وسلك في المصريين مسلك العسف والظلم، وخرب المعابد والهيكل، وقتل العجل أبيس إله المصريين وغير ذلك. ويوم قمبيز: هو اليوم الذي انتصرت فيه جيوشه على جيوش أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين في الفرما ومنف، والذي أُخِذَ فيه الملك أسيراً فأذيق من الذلِّ ما سترى. وطنطن: صوَّت.

(٢٧) إن: هنا زائدة. وما: نافية، بمعنى ليس.

(٢٨) منفيس: هي منف التي ذكرناها وكانت العاصمة حينئذ. وكسرى: اسم لكل ملك من ملوك الفرس، والمراد به قمبيز.

(٢٩) الحفا (مقصورة ومُدَّت): المشي بلا خوف ولا نعل.

(٣٠) الهودج: محمل النساء.

(٣١) رَدَّأها أي ألبسها الرداء، وتردَّى: أصلها تتردى، أي تلبس الرداء.

(٣٢) استرقه: ملكه. والضَّراء: الشدَّة

(٣٣) شواخص: جمع شاخص وهو الناظر بحيث لا تطرف عيناه.

(٣٤) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم، ويكنى به في الشيء البعيد

المنال.

(٣٥) يعود الضمير هنا إلى الفرس أنفسهم.

(٣٦) الخبرة: موضوع الخراب وجمعها خرائب، والغرض منها هنا بقايا الهياكل

والآثار.

(٣٧) إن: زائدة. وما: نافية.

(٣٨) هو الإسكندر الأكبر المقدوني الذي افتتح مصر سنة ٣٣٢ ق.م وقضى على

حكم الفرس وأنشأ مدينة الإسكندرية.

- (٣٩) الجواري: السفن.
- (٤٠) بطليموس: حاكم مصر بعد الإسكندر ومؤسس دولة البطالسة التي استمرت من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٣٠٠ ق.م؛ إذ سقطت في عهد كليوباترا.
- (٤١) الأثني: المقصود بها كليوباترا، وهي آخر ملكة حكمت مصر من دولة البطالسة، وقد هام بها قيصران: «يوليوس» وهو الذي انتهت بموته الجمهورية الرومانية، وكانت صنيعه له، و«أنطونيوس» وهو الذي أنشأ — بالأشتراك مع أكتافوس — الإمبراطورية الرومانية، وقد كان هيام الأخير بها سبباً لغزو أكتافوس لمصر وانتصاره على كليوباترا، التي حاولت عبثاً أن تؤثر في قلبه بجمالها؛ فانتحرت بأن وضعت على صدرها حية، وانتحر أنطونيوس.
- (٤٢) المقصود بقيصر هنا: أنطونيوس.
- (٤٣) الكهف: الملجأ.
- (٤٤) أكتافوس قيصر.
- (٤٥) الدولتان: دولة الغرب، ودولة الشرق.
- (٤٦) هي: أي كليوباترا.
- (٤٧) الرقطاء: الحية التي يخالط بياضها نقط سوداء، أو العكس.
- (٤٨) عقيم: أي لا خير وراءه.
- (٤٩) شاقة الحب إليه: هاجه. والمراد بالكتب: الكتب الإلهية التي تنزلت على الأنبياء.
- (٥٠) الحقيقة الزَّهراء: هي وجود الله وتوحيده، ولقد تنوعت ديانة قدماء المصريين، فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص، ثم رمزوا لصفات هذا الإله برموز صارت بعدئذ معبودات، ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير محسوس في حياتهم كالشمس والقمر والليل، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان، فعبدوا العجل (أبيس) والقط والكلب وما إلى ذلك.
- (٥١) التنزيه: التقديس. والحباء: العطاء.
- (٥٢) الرمز والإيماء: الإشارة.
- (٥٣) السنا: الضوء. والسنا: الرفعة.
- (٥٤) الشماء: الرفيعة.
- (٥٥) المذكرات: ما كان من هذه الآلهة مذكراً.
- (٥٦) إيزيس: إلهة من آلهة القدماء.

- (٥٧) النضار: الذهب. رخاء: لينة.
- (٥٨) ذكاء: من أسماء الشمس.
- (٥٩) آبيس: هو العجل آبيس، معبود القدماء، كما قَدَّمنا. وأوزيريس: هو إله الشمس في اعتقاد القدماء.
- (٦٠) السرى: السير ليلاً. ولم يخطنا: لم يجاوزنا.
- (٦١) حجّه: غلبه بالحجة.
- (٦٢) هز الكوكب: انقض، والمراد: مهما خذل.
- (٦٣) يشير إلى رفعه إلى السماء.
- (٦٤) ثيبة: عاصمة من عواصم مصر القديمة
- (٦٥) السرّ: أي سرّ عبادة الله على دين المسيح.
- (٦٦) البطحاء: مسيل الماء في دقيق الحصى.
- (٦٧) دولة القياصر: الدولة الرومانية. والهرم: بلوغ أقصى الكبر.
- (٦٨) النداء: نداء الفناء.
- (٦٩) سامه الأمر: كلّفه إياه، وأكثر ما يستعمل في الشر والعذاب.
- (٧٠) الإدجاء: الظلام.
- (٧١) ضلّة: ضلال. والشهاب: شعلة من نار ساطعة، وقد يطلق على الكوكب.
- (٧٢) المراس: هنا بمعنى المأخذ والمعالجة.
- (٧٣) اللب: ذكاء من العقل.
- (٧٤) الشتات: المتفرق.
- (٧٥) الآي: جمع آية.
- (٧٦) تنوّل: ترجع.
- (٧٧) حثّ الركاب: أي حَضَّ الإبل على أن تسرع، والمراد كلّما انتقلت لأرض.
- (٧٨) أنجب الرجل: ولد ولدًا نجيبًا.
- (٧٩) الحمراء: قصر مشهور بالأندلس.
- (٨٠) الجسام: العظيم.
- (٨١) النواء: الإقامة.
- (٨٢) أزرى عليه عمله: عابه.
- (٨٣) يشير على الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي، وحكمت مصر من سنة ١١٧١ على سنة ١٢٥٠م.

- (٨٤) الأبيض: السيف، أو النجم، والجمع بيض.
- (٨٥) القرى: الضيافة. والثواء: الإقامة.
- (٨٦) صلاح: صلاح الدين الأيوبي.
- (٨٧) نصّ الشيء: رفعه. والخباء: ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر، ويكون عمودين أو ثلاثة.
- (٨٨) سبي العدو: أسره. وأمرد الملوك: لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أبطال الصليبيين، أسره توران شاه في موقعة المنصورة الفاصلة ثم فدى نفسه وبقيّة أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك.
- (٨٩) الجراكس: الممالك. وعسراء: أي شديدة ظالمة.
- (٩٠) سامه الأمر: كلفه إياه، وأكثر ما يكون في الشرّ.
- (٩١) النسر: نابليون بونابرت.
- (٩٢) ترامى القوم: رمى بعضهم بعضاً.
- (٩٣) واترلو «في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥»: موقعة دارت رحاها بين نابليون وولنجتون القائد الإنكليزي الشهير، فانتصر الأخير بمساعدة بلوخر القائد الروسي، وكان من نتائج هزيمة نابليون في هذه الموقعة أسره ونفيه إلى جزيرة «سنت هيلانة» حيث قضى البقية من حياته.

الهمزية النبوية

وُلِدَ الْهُدَى، فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ
الرُّوحِ وَالْمَلَأُ الْمَلَأْتُكَ حَوْلَهُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو، وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي
وَحَدِيقَةُ الْفُرْقَانِ ضَاكِكَةُ الرُّبَا
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلًا مِنْ سَلْسَلِ
نُظْمَتِ أَسَامِي الرُّسُلِ فَهِيَ صَحِيفَةٌ
أَسْمُ الْجَلَالَةِ فِي بَدِيعِ حُرُوفِهِ

وَقَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ
لِلذِّينِ وَالذَّنْيَا بِهِ بَشْرَاءُ^١
وَالْمُنْتَهَى، وَالسَّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ^٢
بِالْتَرَجَمَانِ، شَذِيَّةٌ، غَنَاءُ^٣
وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْبَدِيعُ رِوَاءُ^٤
فِي اللُّوحِ، وَأَسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ^٥
أَلِفُ هُنَالِكَ، وَأَسْمُ (طه) الْبَاءُ

* * *

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ، تَحِيَّةُ
بَيْتِ النَّبِيِّينَ الَّذِي لَا يِلْتَقِي
خَيْرُ الْأَبْوَةِ حَازِمَهُ لَكَ «آدَمُ»
هُمْ أَدْرَكُوا عِزَّ النَّبُوءَةِ وَانْتَهَتْ
خُلِقَتْ لِبَيْتِكَ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهَا
بِكَ بَشَرُ اللَّهِ السَّمَاءِ فَزَيَّنْتَ
وَبَدَأَ مُحَيَّاكَ الَّذِي قَسَمَاتُهُ
وَعَلِيهِ مِنْ نُورِ النَّبُوءَةِ رَوْنَقُ
أَثْنَى «الْمَسِيحِ» عَلَيْهِ خَلْفَ سَمَائِهِ

مِنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَى بِكَ جَاءُوا
إِلَّا الْحَنَائِفُ فِيهِ وَالْحُنَفَاءُ^٦
نُورَ الْأَنْامِ، وَأَحْرَزْتَ حَوَاءُ
فِيهَا إِلَيْكَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ^٧
إِنَّ الْعِظَائِمَ كُفُّوْهَا الْعُظْمَاءُ
وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَ بِكَ الْغَبْرَاءُ^٨
حَقُّ، وَغُرَّتْهُ هُدَى وَحِيَاءُ^٩
وَمِنْ الْخَلِيلِ وَهَدِيهِ سَيَمَاءُ^{١٠}
وَتَهَلَّلْتَ وَاهْتَزَّتْ «الْعِذْرَاءُ»^{١١}

وَمَسَاوُهُ «بِمَحْمَدٍ» وَضَاءُ
 فِي الْمُلْكِ، لَا يَعْلُو عَلَيْهِ لَوَاءُ
 وَعَلَتْ عَلَى تِيجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
 خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا، وَغَاضَ الْمَاءُ^{١٢}
 «جَبْرِيلُ» رَوَّاحُ بِهَا غَدَاءُ^{١٣}
 وَالْيَتَمُ رَزَقُ بَعْضُهُ وَذَكَاءُ^{١٤}
 وَبِقَصْدِهِ تُسْتَدْفَعُ الْبِأَسَاءُ^{١٥}
 يَعْرِفُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ وَالْأَمْنَاءُ
 مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكِبْرَاءُ
 دِينَارُ تُضِيءُ بَنُورِهِ الْآنَاءُ
 يُغَرِّى بِهِنَّ وَيُولَعُ الْكُرْمَاءُ
 وَمِلَاحَةُ «الصَّدِّيقِ» مِنْكَ أَيَاءُ^{١٦}
 مَا أُوتِيَ الْقَوَادُ وَالزَّعْمَاءُ
 وَفَعَلَتْ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنْوَاءُ^{١٧}
 لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجُهْلَاءُ
 هَذَا فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ
 فِي الْحَقِّ، لَا ضِغْنٌ وَلَا بَغْضَاءُ^{١٨}
 وَرَضَى الْكَثِيرُ تَحْلُمٌ وَرِيَاءُ^{١٩}
 تَعَرُّو النَّدِيَّ، وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ^{٢٠}
 جَاءَ الْخَصُومُ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
 أَنْ الْقِيَاصَرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ
 يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرُ عَدَاءُ
 وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ
 وَإِذَا ابْتَنَيْتَ فِدُونَكَ الْآبَاءُ^{٢١}
 فِي بُرْدِكَ الْأَصْحَابُ وَالْخُلَطَاءُ
 فَجَمِيعُ عَهْدِكَ ذِمَّةٌ وَوَفَاءُ
 وَإِذَا جَرَيْتَ فَإِنَّكَ النُّكْبَاءُ^{٢٢}

يَوْمُ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ
 الْحَقُّ عَالِي الرُّكْنِ فِيهِ، مُظَفَّرُ
 ذُعَرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ، فَزَلَزَتْ
 وَالنَّارُ خَاوِيَةُ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ
 وَالْأَيُّ تَتَرَى، وَالْخَوَارِقُ جَمَّةُ
 نِعَمَ الْيَتِيمِ، بَدَتْ مَخَايِلُ فَضْلِهِ
 فِي الْمَهْدِ يُسْتَسْقَى الْحَيَا بِرَجَائِهِ
 بِسَوَى الْأَمَانَةِ فِي الصَّبَا وَالصَّدَقِ لَمْ
 يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعُلَا
 لَوْ لَمْ تُقَمِّ دِينًا، لِقَامَتْ وَحْدَهَا
 زَانَتْكَ فِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ
 أَمَّا الْجَمَالُ، فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائِهِ
 وَالْحَسَنُ مِنْ كَرَمِ الْوُجُوهِ، وَخَيْرُهُ
 فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى
 وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا، وَمَقْدَرًا
 وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أَمٌّ، أَوْ أَبُ
 وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضَبَةٌ
 وَإِذَا رَضِيتَ فَذَاكَ فِي مَرْضَاتِهِ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هَزَّةُ
 وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا ارْتِيَابَ، كَأَنَّمَا
 وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدْ، وَلَوْ
 وَإِذَا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللَّهِ، لَمْ
 وَإِذَا مَلَكَتِ النَّفْسُ قَمَتَ بِيرَهَا
 وَإِذَا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجِ عَشْرَةٍ
 وَإِذَا صَحِبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مُجَسَّمًا
 وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ، أَوْ أَعْطَيْتَهُ
 وَإِذَا مَشَيْتَ عَلَى الْعَدَا فَعُضْنَفَرُ

وَتَمُدُّ جِلْمَكَ لِلْسَفِيهِ مُدَارِيًّا حَتَّى يَضِيقَ بِعَرْضِكَ السَّفَهَاءُ
فِي كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سَطَاكَ مَهَابَةً وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءُ^{٢٣}
فَالرَّأْيُ لَمْ يُنْضِ الْمَهْنَدُ دُونَهُ كَالسِّيفِ لَمْ تُضْرَبْ بِهِ الْآرَاءُ^{٢٤}

يَأْيُهَا الْأَمِّيُّ، حَسْبُكَ رَتْبَةٌ فِي الْعِلْمِ أَنْ دَانَتْ بِكَ الْعِلْمَاءُ^{٢٥}
الذِّكْرُ آيَةُ رَبِّكَ الْكِبْرَى الَّتِي فِيهَا لِبَاغِي الْمَعْجَزَاتِ غَنَاءُ^{٢٦}
صَدُرَ الْبَيَانِ لَهُ إِذَا تَلَقَّتِ اللَّغْيُ وَتَقَدَّمَ الْبُلْغَاءُ وَالْفُصْحَاءُ^{٢٧}
نُسِخَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَهِيَ وَضِئَةٌ وَتَخَلَّفَ الْإِنْجِيلُ وَهُوَ ذِكَاؤُ^{٢٨}
لَمَّا تَمَشَّى فِي «الْحِجَازِ» حَكِيمُهُ فَضَّتْ «عِكَازُ» بِهِ، وَقَامَ جِرَاءُ^{٢٩}
أَزْرَى بِمَنْطِقِ أَهْلِهِ وَبَيَانِهِمْ وَحْيِي يُقَصِّرُ دُونَهُ الْبُلْغَاءُ^{٣٠}
حَسَدُوا، فَقَالُوا: شَاعِرٌ، أَوْ سَاحِرٌ وَمِنْ الْحَسَدِ يَكُونُ الْاسْتِهْزَاءُ
قَدْ نَالَ «بِالْهَادِي» الْكَرِيمِ وَ«بِالْهَدَى» مَا لَمْ تَنْلُ مِنْ سُؤْدِدِ سَيْنَاءُ
أَمْسَى كَأَنَّكَ مِنْ جَلَالِكَ أُمَةٌ وَكَأَنَّهُ مِنْ أَنْسِهِ بَيْدَاءُ
يُوْحَى إِلَيْكَ الْفَوْزُ فِي ظِلْمَاتِهِ مُتَتَابِعًا، تُجَلَّى بِهِ الظُّلُمَاءُ
دَيْنٌ يُشِيدُ آيَةً فِي آيَةٍ لِبَنَائِهِ السُّورَاتِ وَالْأَضْوَاءُ
الْحَقُّ فِيهِ هُوَ الْأَسَاسُ، وَكَيْفَ لَا وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ الْبَنَاءُ؟
أَمَّا حَدِيثُكَ فِي الْعُقُولِ فَمَشْرَعٌ وَالْعِلْمُ وَالْحِكْمُ الْغَوَالِي الْمَاءُ^{٣١}
هُوَ صِبْغَةُ الْفُرْقَانِ، نَفْحَةُ قُدْسِهِ وَالسَّيْنُ مِنْ سُورَاتِهِ وَالرَّاءُ^{٣٢}
جَرَتْ الْفَصَاحَةُ مِنْ يَنَابِيعِ النُّهَى مِنْ دَوْحِهِ، وَتَفَجَّرَ الْإِنْشَاءُ^{٣٣}
فِي بَحْرِهِ لِلْسَّابِحِينَ بِهِ عَلَى أَدَبِ الْحَيَاةِ وَعِلْمِهَا إِرْسَاءُ
أَتَتْ الدُّهُورُ عَلَى سُلَاقَتِهِ، وَلَمْ تَفْنِ السُّلَافُ، وَلَا سَلَ النُّدْمَاءُ^{٣٤}

بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمَحَةٌ بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهُدَى غَرَاءُ^{٣٥}
بُنِيَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ نَادَى بِهَا سُقْرَاطُ وَالْقُدْمَاءُ
وَجَدَ الزُّعَافَ مِنَ السُّمُومِ لِأَجْلِهَا كَالشَّهْدِ، ثُمَّ تَتَابَعَ الشُّهْدَاءُ
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا كُفَّانَ وَإِدِي النِّيلِ وَالْعُرْفَاءُ^{٣٦}

أَخَذَتْ قِوَامَ أُمُورِهَا الْأَشْيَاءُ^{٣٧}
وَأَصَمَّ مِنْكَ الْجَاهِلِينَ نِدَاءُ
وَالنَّاسُ فِي أَوْهَامِهِمْ سُجْنَاءُ
وَمِنْ النَفُوسِ حَرَائِرُ وَإِمَاءُ^{٣٨}
يُوصَفُ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءُ
لَا سَوْقَةَ فِيهَا وَلَا أَمْرَاءُ
وَالنَّاسُ تَحْتَ لِوَائِهَا أَكْفَاءُ
وَالأَمْرُ شُورَى، وَالْحَقُوقُ قَضَاءُ
لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلُوءُ^{٣٩}
وَأَخْفُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ^{٤٠}
وَمِنْ السُّمُومِ النَّاqَعَاتِ دَوَاءُ^{٤١}
لَا مِنَّةَ مَمْنُونَةٍ وَجَبَاءُ^{٤٢}
حَتَّى التَّقَى الْكُرَمَاءُ وَالْبُخْلَاءُ
فَالْكُلُّ فِي حَقِّ الْحَيَاةِ سَوَاءُ
مَا اخْتَارَ إِلَّا دِينَكَ الْفَقْرَاءُ

إِيزِيسُ ذَاتُ الْمُلكِ حِينَ تَوَحَّدَتْ
لَمَّا دَعَوَتْ النَّاسَ لَبَّى عَاقِلُ
أَبُوءُ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ مِنْ أَوْهَامِهِمْ
وَمِنْ الْعُقُولِ جَدَاوِلُ وَجَلَامِدُ
دَاءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرْسَطَالِيسَ لَمْ
فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حَكُومَةً
اللَّهِ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ
وَالدِّينُ يُسْرُ، وَالْخِلَافَةُ بَيْعَةٌ
الْإِشْتِرَاقِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ
دَاوَيْتَ مُتَنَدِّا، وَدَاوُوا طَفَرَةً
الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدَيْكَ شَرِيعَةٌ
وَالْبِرُّ عِنْدَكَ ذِمَّةٌ، وَفَرِيضَةٌ
جَاءَتْ فَوَحَّدَتْ الزُّكَاةَ سَبِيلَهُ
أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا تَخَيَّرَ مِلَّةً

مَا لَا تَنَالُ الشَّمْسُ وَالْجَوَازُءُ^{٤٣}
بِالرُّوحِ أَمْ بِالْهَيْكَلِ الْإِسْرَاءُ^{٤٤}
نُورٌ، وَرِيحَانِيَّةٌ، وَبَهَاءُ
وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَرَى وَيَشَاءُ
طُوِيَتْ سَمَاءٌ قُلْدَتِكَ سَمَاءُ^{٤٥}
نُونٌ، وَأَنْتَ النَّقْطَةُ الزَّهْرَاءُ
وَالْكَفُّ، وَالْمِرَاةُ، وَالْحَسَنَاءُ
نُزُلًا لَذَاتِكَ لَمْ يَجْزُهُ عِلَاءُ
وَمَنَاكِبُ الرُّوحِ الْأَمِينِ وَطَاءُ
حَاشَا لَغَيْرِكَ مَوْعِدٌ وَلِقَاءُ

يَأْيُهَا الْمُسْرَى بِهِ شَرْفًا إِلَى
يَتَسَاءَلُونَ — وَأَنْتَ أَطْهَرُ هَيْكَلٍ:
بِهِمَا سَمَوْتَ مُطَهَّرِينَ، كِلَاهُمَا
فَضْلٌ عَلَيْكَ لِذِي الْجَلَالِ وَمِنَّةٌ
تَغْشَى الْغُيُوبَ مِنَ الْعَوَالِمِ، كُلَّمَا
فِي كُلِّ مَنَاطِقَةٍ حَوَاشِي نُورِهَا
أَنْتَ الْجَمَالُ بِهَا، وَأَنْتَ الْمُجْتَلَى
اللَّهُ هَيَّأَ مِنْ حَظِيرَةِ قُدْسِهِ
الْعَرْشُ تَحْتِكَ سُدَّةٌ وَقَوَائِمًا
وَالرُّسُلُ دُونَ الْعَرْشِ لَمْ يُؤَذِّنْ لَهُمْ

الخيْلُ تَأْبَى غَيْرَ «أَحْمَدَ» حَامِيًا
شَيْخَ الْفَوَارِسِ يَعْلَمُونَ مَكَانَهُ
وَإِذَا تَصَدَّى لِلظُّبَى فَمُهَنْدٌ
وَإِذَا رَمَى عَنْ قَوْسِهِ فَيَمِينُهُ
مَنْ كُلِّ دَاعِي الْحَقِّ هَمَّةٌ سَيْفِهِ
سَاقِي الْجَرِيحِ، وَمُطْعَمُ الْأَسْرَى، وَمَنْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الرِّجَالِ غِلَظَةٌ
وَالْحَرْبُ مِنْ شَرَفِ الشُّعُوبِ، فَإِنْ بَغَوْا
وَالْحَرْبُ يَبْعَثُهَا الْقَوِيُّ تَجْبُرًا
كَمْ مِنْ غَزَاةٍ لِلرُّسُولِ كَرِيمَةٍ
كَانَتْ لَجُنْدِ اللَّهِ فِيهَا شِدَّةٌ
ضَرْبُوا الضَّلَالَةَ ضَرْبَةً نَهَبَتْ بِهَا
دَعَمُوا عَلَى الْحَرْبِ السَّلَامَ، وَطَالَمَا

وَبِهَا إِذَا ذُكِرَ اسْمُهُ خِيَلَاءُ
إِنْ هَيَّجَتْ آسَادَهَا الْهَيْجَاءُ
أَوْ لِلرَّمَاكِ فَصَعْدَةُ سَمَرَاءُ^{٤٦}
قَدَرٌ، وَمَا تَرْمِي الْيَمِينَ قِضَاءُ
فِلْسَيْفِهِ فِي الرَّاسِيَّاتِ مَضَاءُ^{٤٧}
أَمِنْتَ سَنَابِكَ خَيْلَهُ الْأَشْلَاءُ
مَا لَمْ تُزْنِهَا رَافَةً وَسَخَاءُ
فَالْمَجْدُ مِمَّا يَدْعُونَ بَرَاءُ
وَيَنْوُءُ تَحْتَ بَلَائِهَا الضُّعْفَاءُ
فِيهَا رِضَى لِلْحَقِّ أَوْ إِعْلَاءُ
فِي إِثْرِهَا لِلْعَالَمِينَ رَحَاءُ
فَعَلَى الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ عَفَاءُ
حَقَنْتَ دِمَاءً فِي الزَّمَانِ دِمَاءُ

الْحَقُّ عَرَضَ اللَّهُ، كُلُّ أَبْيَّةٍ
هَلْ كَانَ حَوْلَ مُحَمَّدٍ مِنْ قَوْمِهِ
فَدَعَا، فَلَبَّى فِي الْقِبَائِلِ عُصْبَةٌ
رَدُّوا بِبَاسِ الْعَزْمِ عَنْهُ مِنَ الْأَدَى
وَالْحَقُّ وَالْإِيمَانُ إِنْ صُبَّ عَلَى
نَسَفُوا بِنَاءَ الشَّرِكِ، فَهُوَ خَرَائِبُ
يَمْشُونَ تَغْضِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ هَيْبَةٌ
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا

بَيْنَ النَفُوسِ جَمَّى لَهُ وَوَقَاءُ
إِلَّا صَبِيٍّ وَاحِدٌ وَنِسَاءُ؟
مُسْتَضْعَفُونَ، قَلَائِلُ، أَنْضَاءُ^{٤٨}
مَا لَا تَرُدُّ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءُ
بَرْدٍ فِيهِ كَتِيبَةٌ خَرَسَاءُ^{٤٩}
وَاسْتَأْصَلُوا الْأَصْنَامَ، فَهِيَ هَبَاءُ^{٥٠}
وَبِهِمْ حِيَالٌ نَعِيمِهَا إِغْضَاءُ
لَمْ يُطِغِهِمْ تَرْفٌ وَلَا نَعْمَاءُ

يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَحَدُّهُ
وَهُوَ الْمَنْزَرَةُ، مَا لَهُ شُفْعَاءُ

والخَوْضُ أَنْتَ حِيَالُهُ السَّقَاءُ
والصالحاتُ ذخائرُ وجزاءُ
وانشَقَّ مِنْ خَلْقٍ عَلَيْكَ رِداءُ؟
تَيْمَنَ فَيْكَ، وشاقِهِنَّ جَلَاءُ^{٥١}
فمُهورُهُنَّ شَفَاعَةُ حَسَناءُ
ماذا يقول وَيَنْظُمُ الشَّعْرَاءُ؟
هي أَنْتَ، بَلْ أَنْتَ الْبَدُّ الْبَيْضَاءُ
ومن المديح تَضَرَّعُ ودُعاءُ
في مثلها يُلْقَى عَلَيْكَ رَجاءُ
رَكِبَتْ هَواها، والقلوبُ هَواءُ؟
ثَقَّةٌ، ولا جَمَعَ الْقُلُوبَ صَفاءُ
ونعيمُ قومٍ في القِيُودِ بلاءُ

عرشُ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوائِهِ
تروي وتسقي الصالحين ثوابهم
أَلَمْ تَلِ هذا دُفَّتْ فِي الدُّنْيَا الطَّوَى
لي في مديحك يا رَسُولُ عرائسُ
هُنَّ الْحَسَناءُ، فَإِنْ قَبِلْتَ تَكَرُّمًا
أَنْتَ الَّذِي نَظَّمُ الْبَرِّيَّةَ دِينُهُ
المُصْلِحُونَ أَصَابِعُ جُمِعَتْ يَدًا
ما جِئْتُ بِابِكَ مَادِحًا، بل دَاعِيًا
أَدْعُوكَ عَنْ قَوْمِي الضَّعَافِ لِأَزْمَةٍ
أَدْرِي رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ نَفُوسَهُمْ
مُتَفَكِّكُونَ، فما تَضَمُّ نَفُوسَهُمْ
رَقَدُوا، وَغَرَّهُمْ نَعِيمٌ باطلٌ

* * *

ما لم ينل في رومةَ الفقهاءُ
في الدُّنْيَا والدُّنْيَا بها السَّعْداءُ
حَادٍ، وَحَنَّتْ بِالْفِلا وَجَناءُ^{٥٢}
بِجَنانِ عَدْنٍ أَلَكِ السُّمَحَاءُ
سَبَبَ إِلَيْكَ فَحَسْبِي «الزَّهْرَاءُ»

ظَلَمُوا شَرِيعَتَكَ الَّتِي نَلْنَا بِهَا
مَشَتْ الْحَضَارَةُ فِي سَنَاهَا، وَاهْتَدَى
صَلَى عَلَيْكَ اللَّهُ مَا صَحِبَ الدُّجَى
وَاسْتَقْبَلَ الرِّضْوَانَ فِي غُرَفَاتِهِمْ
خَيْرُ الْوَسَائِلِ، مَنْ يَقَعُ مِنْهُمْ عَلَى

هوامش

(١) الروح الأمين: لقب جبريل. والملا: الأشراف. والملائك: الملائكة. وبشراء: جمع

بشير.

(٢) يزهو: يشرق. وسدرة المنتهى: يقال إنها شجرة نبق على يمين العرش.

(٣) الرُّبَا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٤) الرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

(٥) الطغراء: ما يسميه العامة «طرة» وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تكتب

بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

- (٦) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، وكل مَنْ كان على دين إبراهيم (عليه السلام)، والمؤنث حنيفة، وجمعها حنائف.
- (٧) القعساء: المنفعة الثابتة.
- (٨) تَضَوَّع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.
- (٩) القسمة ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسّمات.
- (١٠) الخليل: إبراهيم (عليه السلام).
- (١١) العذراء: السيدة مريم.
- (١٢) خدمت النار: سكن لهيبها، والذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء، والمراد بالذوائب هنا ألسنة اللهب.
- (١٣) تترى: تتوالى. وروّاح، غدّاء، أي يروح ويغدو.
- (١٤) المخيلة: المظنة.
- (١٥) استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.
- (١٦) أياء الشمس وآياتها: نورها وحسنها.
- (١٧) النوء: المطر.
- (١٨) الضغن: الحقد.
- (١٩) التحلُّم: تكلف الحلم.
- (٢٠) النديّ: النادي.
- (٢١) بنى بأهله: زَفَّ إليهم.
- (٢٢) غضنفر: أسد. والنكباء: ريح بين ريحين.
- (٢٣) سطا: جمع سطوة.
- (٢٤) نضا السيف من غمده: سلّه. والمهَنَّد: السيف المطبوع من حديد.
- (٢٥) دان به: اتَّخذه ديناً.
- (٢٦) الباغي: الطالب. والغناء: ما يغني.
- (٢٧) اللغى: جمع لغة.
- (٢٨) ذكاء: من أسماء الشمس.
- (٢٩) حراء: الغار الذي كان يتعبَّد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.
- (٣٠) أزرى به: عابه.
- (٣١) مشروع: مورد.

- (٣٢) الصبغة النوع.
- (٣٣) الدوح: الشجر العظيم المتسع.
- (٣٤) السلاف والسلافة: أفضل الخمر.
- (٣٥) السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق.
- (٣٦) العرّاف: المنجم، والجمع عُرفاء.
- (٣٧) إيزيس: من آلهة المصريين القدماء.
- (٣٨) الجدول: النهر الصغير. والجلمود: الصخر.
- (٣٩) الغلواء: الغلؤ.
- (٤٠) متئدًا: متأنياً. وظفر: وثب.
- (٤١) الناقعات: القاتلات.
- (٤٢) البرّ: الإحسان. وذمة: عهد، والمنة: العطية، والمنونة: المتبوعة بالمنّ.
- (٤٣) الإسراء: السير ليلاً.
- (٤٤) الهيكل: الجسم والصورة والشخص.
- (٤٥) غشي المكان يغشاه: أتاح.
- (٤٦) الظبي: جمع ظبة، وهي حد السيف. والصعدة: القناة المستوية.
- (٤٧) مضى السيف مضاء: قطع.
- (٤٨) النضو: المهزول من الإبل وغيرها.
- (٤٩) الكتيبة الخرساء: التي لا يسمع فيها صوت.
- (٥٠) الهباء: الغبار.
- (٥١) شاقة الحبّ: هاجه.
- (٥٢) الوجناء: الناقة الشديدة.

صدى الحرب^١

وَيُنْصَرُ دِينَ اللّٰهِ أَيَّانَ تَضْرِبُ
وَلَا الْأَمْرُ إِلَّا لِلَّذِي يَتَغَلَّبُ
لَنَعْمَ الْمُرَبِّيُّ لِلطُّغَاةِ الْمُؤَدَّبِ
فَنَعْمَ الْحَسَامُ الطَّبُّ وَالْمُتَطَبِّبُ^١
وَإِنْ هُوَ نَامَ اسْتَيْقَظْتَ تَتَأَلَّبِ
و(أرمينيا) ثكلى، و(حوران) أَشِيبُ^٢
رَجَاؤُكَ يَعْطِيهَا، وَخَوْفُكَ يَسْلُبُ
بِأَسْطَعٍ مِثْلَ الصَّبْحِ لَا يَتَكَذَّبُ^٣
يُسَارِيهِ مِنْ عَالِي ذِكَاثِكَ كَوَكَبٌ
تَكْشَفُ دَاجِي الْخَطْبِ وَانْجَابَ غَيْهَبٌ^٤
لَهُمْ مَأْرَبٌ فِيهَا وَاللّٰهُ مَأْرَبٌ

بَسِيفِكَ يَعْلُو الْحَقُّ، وَالْحَقُّ أَغْلَبُ
وَمَا السِّيفُ إِلَّا آيَةُ الْمُلْكِ فِي الْوَرَى
فَأَدَّبَ بِهِ الْقَوْمَ الطُّغَاةَ، فَإِنَّهُ
وَدَاوِ بِهِ الدُّوَلَاتِ مِنْ كُلِّ دَائِهَا
تَنَامُ خُطُوبُ الْمُلْكِ إِنْ بَاتَ سَاهِرًا
أَمْنًا اللَّيَالِي أَنْ نُرَاعَ بِحَادِثٍ
وَمَمْلَكَةُ (اليونان) محلولة العُرى
هَدَدَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِيَانَهَا
وَمَا زَالَ فَجْرًا سَيْفُ (عثمان) صَادِقًا
إِذَا مَا صَدَعَتْ الْحَادِثَاتِ بِحَدِّهِ
وَهَابَ الْعَدَا فِيهِ خِلَافَتِكَ الَّتِي

^١ في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

هوامش

- (١) المتطبب: المتعاطي علم الطب.
- (٢) ثكلى مصابة ببنيها الذين نالهم صارم التأديب وتأديب الصارم. وأشيب: علاه الشيب، لكثرة ما أدب وأنب.
- (٣) الخطاب للسلطان عبد الحميد. وكيانها: وجودها. وبأسطح: بسيف شديد السطوع.
- (٤) معناه: لكل فجر كوكب يسايره ويصاحبه، وفجر هذا السيف رأيك الوضاء، وما مُنحت من نادر الذكاء.
- (٥) الداجي: المظلم. وانجاب: انكشف. والغيب: الظلام.

أبو أمير المؤمنين

سما بك يا (عبد الحميد) أبوة^١
قياصر أحياناً، خلائف تارة^٢
نجوم سعود الملك، أقمار زهرة^٣
تواصوا به عصرًا فعصرًا، فزاده
هم الشمس، لم تبحر سماوات عزها
ثلاثون، حضار الجلالة غيب^١
خواقين طورًا، والفخار المقلب^٢
لو أن النجوم الزهر يجمعها أب
معممهم من هيبة والمعصب^٣
وفينا ضحاها والشعاع المحبب

هوامش

- (١) أبوة: آباء. وحضار وغيهب: جمع حاضر وغائب.
(٢) معناه: انفرادوا بأمر المسلمين فهم الخلفاء، واستوى عرشهم على الغرب والشرق فهم قياصر عظماء، وهم الخواقين (ملوك الترك).
(٣) معممهم: ذو العمامة منهم، وكذا المعصب هو أيضًا المتوَّج، والعمامة والعصابة والتاج مما لبس سلاطين آل عثمان.

الجلوس الأسعد

نهضتَ بعَرْشٍ ينهض الدهرُ دونه
مَكِينٍ على متن الوجود، مُؤَيَّدٍ
ترَقَّتْ له الأسواءُ، حتى ارتقيته
فكنتَ كعين، ذاتِ جَرِيٍّ، كمينَةٍ
موكَّلةٍ بالأرض، تنسابُ في الثرى
فأحييتَ مَيِّتًا، دارسَ الرسم، غابِرًا
وشدَّتْ منارًا للخلافةِ في الورى
سهرتَ، ونام المسلمون بغبطةٍ
فنبَّهنا الفتْحُ الذي ما بفجرِه

خشوعًا، وتخشاها الليالي وترهب
بشمسِ استواءٍ ما لها الدهرَ مغرب^١
فقمْتَ بها في بعضِ ما تتنكَّب^٢
تفيض على مرَّ الزمانِ وتُعذَّب
فيحيا، وتجري في البلادِ فتُخصِب
كأنك فيما جئتَ عيسى المقرَّب^٣
تشرَّقُ فيهم شمسُه، وتُغرَّب
وما يزعجُ النومَ والساهرُ الأب؟
ولا بك، يا فجرَ السلام، مُكذَّب

هوامش

- (١) مكين: عظيم مرتفع. والمتن: الظهر.
- (٢) الأسواء: جمع سوء، وهو كل ما يسوء. وتتنكب: تحمل.
- (٣) الرسم: ما كان لاصقا بالأرض من آثار الدار. ودرس: أي بلى وعفا.

حلم عظيم وبطش أعظم

وعودك من عود المنابر أضلَبُ^١
وأجلى بياناً في القلوب، وأعذب^٢
فعهدك بالفتح المحجل أقرب^٣
وأنفذ سهماً في الأمور، وأصوب
ظهوراً يسوء الحاسدين ويَتعب
لرأيك فيهم، أو لسيفك مَضرب^٤
جهام من الأعوان أهدى وأكذب^٥
وما كنت، يا برق المنية، تُخلب^٦
من الذود إلا ما أطالوا وأسهبوا
ولكن خُلِقاً في السباع التأهب
ويذهب عنهم أمرهم حين تذهب
حسام معز، أو يراع مهذب

حُسامك من سقراط في الخطب أخطب
وعزمك من (هومير) أمضى بديهة
وإن يذكروا (إسكندراً) وفتوحه
وملكك أرقى بالدليل حكومة
ظهرت أمير المؤمنين على العدا
سل العصر، والأيام، والناس: هل نبا
هم ملئوا الدنيا جهاماً، وراءه
فلما استللت السيف أخلب برقهم
أخذتهم، لا مالكين لحوضهم
ولم يتكلف قومك الأسد أهبة
كذا الناس: بالأخلاق يبقى صلاحهم
ومن شرف الأوطان ألا يفوتها

هوامش

(١) سقراط: خطيب اليونان وحكيمها المشهور.

(٢) هومير: أكبر شعراء اليونان الأقدمين.

(٣) المحجل: المضيء المشرق.

(٤) نبا السيف عن الضربة: كل، وارتد.

الشوقيات

- (٥) الجهام: السحاب العظيم الذي لا ماء فيه. وهذى في الكلام: أكثر منه في خطأ.
- (٦) أخلب برقهم: بطل وعيدهم. وتخلّب، أي تخذّع.

معجزات الجنود على الحدود

لجيشك ممدودٌ، وفي الغرب مَضْرِبٌ^١
لها مَخْلَبٌ فيهم، وللموتِ مَخْلَبٌ
وإن غضبتُ فالشرُّ يقظانٌ مُغضبٌ
وأبعدُ من شمسِ النهارِ وأقربُ^٢
وتظهر في جدِّ القتالِ وتلعب
وتطلع فيهم من مكانٍ، وتغرب
وتُدبِرُ علمًا بالوغي، وتُعَقِّبُ^٣
وتأخذُ عفواً كلَّ عالٍ، وتغصِبُ^٤
فثيْبُهُنَّ البِكْرُ، والبِكْرُ ثِيْبٌ^٥
سديدُ المرائي في الحروبِ، مُجَرَّبٌ^٦
كما تدفعُ اللجَّ البحارُ وتَجْذِبُ^٧
فكلُّ خميسٍ لجةٌ تتضربُ^٨
كما يتلاقى العارضُ المتشعبُ^٩
كما دار يلقى عقربَ السَّيْرِ عقربُ^{١٠}
نواظرَ ما تأتي الليوثُ وتُغَرِّبُ^{١١}
وتعجبُ بالقوَّادِ، والجنْدُ أعجبُ^{١٢}
ومُلْهِمُها فيما تنال وتكسِبُ^{١٣}
ولا الجيشُ إلا رَبُّهُ حين يُنسبُ

ملكْتَ سَبِيلَهُمْ: ففى الشرقِ مَضْرِبٌ
ثمانون ألفاً أسدُ غابٍ ضَرَاغِمٌ
إذا حَلَمْتَ فالشرُّ وسنانٌ حالمٌ
فَيَالِقُ أَفْشَى في البلادِ من الضُّحَى
وتُصْبِحُ تلقاهم، وتُمسي تصدُّهم
تلوح لهم في كلِّ أفقٍ، وتعتلي
وتُقدِّمُ إقدامَ الليوثِ، وتنثني
وتملكُ أطرافَ الشعابِ، وتلتقي
وتغشى أُبَيَّاتِ المعازلِ والذِّرا
يقودُ سراياها، ويحمي لواءها
يجيءُ بها حيناً، ويرجعُ مرةً
ويرمي بها كالبحرِ من كلِّ جانبٍ
وينفُذها من كلِّ شعبٍ، فتلتقي
ويجعلُ ميقَاتاً لها تَنْبِري له
فظلت عيونُ الحربِ حَيْرَى لما ترى
تبالغ بالرامي، وتزهو بما رمى
وتثنى على مُزجِي الجيوشِ (بيلدز)
وما الملكُ إلا الجيشُ شأنًا ومظهرًا

هوامش

- (١) مضرب: فسطاط عظيم.
(٢) الفيلق: الجيش العظيم، والجمع فيالق.
(٣) أدبر: ولى. وتعقب: أي تعود.
(٤) الشعاب: جمع شعب، وهو الطريق في الجبل.
(٥) الأبيات: جمع أبيّة، وهي التي لا ترضى الدنية كبراً. والمعقل: الملجأ. والذرا. الأمكنة المرتفعة. والثيب: نقيض البكر.
(٦) السرايا: جمع سرية، وهي القطعة من الجيش. والمرائي: جمع مرأى، وهو المنظر.
(٧) اللج: معظم الماء.
(٨) الخميس: الجيش.
(٩) ينفذها: يسيرها. والشعب: الطريق في الجبل. والعارض المتشعب: السحاب المتفرق.
(١٠) انبرى له: اعترض.
(١١) أغرب الرجل: أتى بشيء غريب.
(١٢) زها: تاه وتكبر.
(١٣) أزجى الجيش: ساقه.

زينب بني عثمان

تُحَذِّرُنِي مِنْ قَوْمِهَا التُّرْكِ زَيْنَبُ
وَتُكْثِرُ ذِكْرَ الْبَاسِلِينَ، وَتَنْتَنِي
وَتَسْحَبُ ذَيْلَ الْكِبْرِيَاءِ، وَهَكَذَا
وَزَيْنَبُ إِنْ تَاهَتْ وَإِنْ هِيَ فَاخَرَتْ
يُؤَلِّفُ إِيلَامُ الْحَوَادِثِ بَيْنَنَا
نَمَا الْوُدُّ حَتَّى مَهَّدَ السَّبِيلَ لِلْهُوَى
وَدَانَى الْهُوَى مَا شَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَتُعْجِمُ فِي وَصْفِ اللَّيْثِ وَتُعْرِبُ
بِعَزٍّ عَلَى عِزِّ الْجَمَالِ، وَتُعْجِبُ
يَتَيُّهُ وَيَخْتَالُ الْقَوِيُّ الْمَغْلَبُ
فَمَا قَوْمُهَا إِلَّا الْعَشِيرُ الْمَحَبَّبُ^١
وَيَجْمَعُنَا فِي اللَّهِ دِينَ وَمَذْهَبَ
فَمَا فِي سَبِيلِ الْوَصْلِ مَا يُنْصَعَبُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَرْضُ، وَالْأَرْضُ تَقْرُبُ^٢

هوامش

(١) العشير: القبيلة.

(٢) داني: قارب.

الحالة في بحر الروم

تُمَدُّ بها سَفْنُ الحديد، وتُنْصَبُ^١
وما هي إلا الموجُ يأتي، ويذهب
بُتُوزُ تراعيها على البعد أعقبُ^٢
عليها سلاطينُ البريَّةِ، غُيِّبَ
وتطفو حوالِها الخطوبُ، وترسُبُ^٣
إذا جَمَعَتْ أثقالُها تترقَّبُ
أم الحربُ أدنى من وريدٍ وأقربُ؟^٤
لو أن أماناً عند دأماءٍ يُطْلَبُ^٥
وقد فاض منها حوضُك المتضرب
وغالَ سلامُ العالمين التعصُّبُ
أبرُّ بهم من كلِّ برٍّ وأحدبُ^٦
(بيلدرز) لا يغفو، ولا يتغيَّبُ^٧
من الغوثِ، مُنْهَلٌّ على الخلقِ، صَيَّبُ^٨
فبادت، وكانت جمرَةً تتلهَّبُ^٩

ركبتُ إليها البحرَ، وهو مَصِيدُهُ
تروح المنايا الزُّرْقُ فيه، وتغتدي
وتبدؤُ عليه الفلكُ شَتَّى، كأنها
حواملُ أعلامِ القياصرِ، حُضِرُ
تُجَارِي خُطاها الحادثَاتِ وتقتفي
ويوشك يجري الماءُ من تحتها دماً
فقللت: أأُشْرَاطُ القيامةِ ما أرى
أماناً أماناً لُجَّةَ الرُّومِ للورى
كأنني بأحداثِ الزمانِ مُلِمَّةٌ
فأزْعَجَ مَغْبُوطٌ، ورُوعَ آمِنُ
فقلت: أطلتَ الهَمَّ، للخلقِ ملجأً
سَلامُ البرايا في كلاءةِ فَرْقَدٍ
وإن أميرَ المؤمنين لوابلُ
رأى الفتنةَ الكبرى، فوالى انهمالَه

هوامش

- (١) مصيدة ومصيدة: بمعنى واحد، وهي ما يصاد به.
- (٢) بثوز: جمع باز. وأعقب: جمع عقاب، وكلاهما من جوارح الطير.
- (٣) اقتفى أثره: تبعه.
- (٤) الأشراف: جمع شرط، وهو العلامة.
- (٥) لجة الروم: بحر الروم، والدأماء: البحر.
- (٦) أحذب: من الحذب، وهو التعطُّف.
- (٧) كلاءة: أي حفظ.
- (٨) الغوث: الإسعاف. والوايل: المطر الشديد. والصيب: السحاب.
- (٩) الانهمال: دوام الانسكاب.

منعة السواحل العثمانية

وقد تُركبُ الحاجاتُ ما ليس يُركبُ^١
إلى أفقٍ فيه الخليفةُ كوكبُ^٢
بناءُ العوالي المشمخُ المطنبُ^٣
على الماءِ، قد حاذاه صرْحُ مُثَقَّبٍ
لها في الجواري نظرةٌ لا تُخَيِّبُ
تكادُ ذراها في السحابِ تغَيِّبُ
أهذي ثغورُ الترك أم أنا أحسبُ؟
ومثلُ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مغرب
حوائرُ، ما يدرين ماذا تخرَّبُ؟
أتاها حديدٌ ما يطيشُ، وأسربُ
وأيدي المنايا، والقضاءُ المُدرَّبُ
علتُ مُصْعِداتٍ، أنها لا تُصَوِّبُ^٤
وغانمها الناجي، فكيف المخيَّبُ؟
وهل عاصمٌ منهنَّ إلا التنكُّبُ؟^٥
إلى الرُّشدِ نارٌ ثم لا تَنَذِذبُ
ولا الغربُ في أسطوله مُتهَيَّبُ

فما زلتُ بالأهوالِ حتى اقتحمْتُها
أخوض الليالي من عُبابٍ، ومن دُجَى
إلى مُلكِ عثمانَ الذي دونَ حوضه
فلاح يناعي النجمَ صرْحُ مُثَقَّبٍ
بروجُ أعارتها المَنونُ عيونها
رواسي ابتداعٍ في رواسي طبيعةٍ
فقمْتُ أجيلُ الطَّرَفِ حيرانَ قائلاً:
فمثلُ بناءِ التركِ لم يَبْنِ مشرقُ
تَظَلُّ مَهولاتُ البوارجِ دونَهُ
إذا طاش بين الماءِ والصخرِ سهمُها
يُسَدِّده عزريلُ في زِيٍّ قاذِفٍ
قذائفُ تخشى مُهَجَةَ الشمسِ كلَّما
إذا صَبَّ حاميتها على السفنِ انثنت
سلِ الرُّومِ: هل فيهنَّ للفلكِ حيلةٌ؟
تذبذبَ أسطولاهُم فدعتُهما
فلا الشرقُ في أسطوله مُتقي الحمى

هوامش

- (١) اقتحم الهول: رمى نفسه فيه بشدة.
- (٢) الدجى: الظلمة.
- (٣) العوالي: الرماح. والمشمخر: العالي. والمطنب. المشدود بالأطناب.
- (٤) الأسرب: الرصاص.
- (٥) معناه: إذا ارتفعت هذه القنابل خشيت الشمس أن تخطئ هدفها وأن تستمر صاعدة فتصيب مهجتها.
- (٦) الضمير في «فيهن» و«منهن» راجع للقنابل. والتنكُّب: العدول والتجنُّب.

زينب المتطوعة في موقعة

هنالك يَحْمِيهِ بَنَانٌ مُخَضَّبٌ^١
من التُّرْكِ ضَارٍ، أَمْ غَزَالٌ مُرَبَّبٌ؟^٢
أَمْ النُّجْمُ فِي الْأَرَامِ، أَمْ أَنْتِ زَيْنَبُ؟
بَنَاتِ الضَّوَارِي أَنْ نَصُولَ تَعَجُّبُ؟
كَرَائِمُ مِنَّا بِالْقَنَا تَتَنَقَّبُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَعْلٌ فَنَفْسًا تُقَرَّبُ^٣
فَوَارِسُ تَبْدُو تَارَةً، وَتَحَجَّبُ
رَوَاكِضُ فِي سَهْلٍ كَمَا انْسَابَ ثُغْلُبُ^٤
لَهُمْ سَكَنٌ أَنَا، وَأَنَا تَهْيُبُ
فَصِفْنَا، فَأَنْتِ الْبَاسِلُ الْمَتَأَدُّ
وَلَبَّى عَلَيْهَا الْقَسُورُ الْمَتَرَقَّبُ^٥
مِنَ الْحَرْبِ دَاعٍ لِلصَّلَاةِ مُنَوَّبُ
لَهُ مِعْقَلٌ فَوْقَ الْمَعَاقِلِ أَغْلَبُ
أَنْ التَّحَمْتُ، وَالْحَرْبُ بَكْرٌ وَتَغْلِبُ^٦
وَلَا شَهَدَتْ يَوْمًا مَعَدَّ وَيَعْرُبُ

وَمَا رَاعَنِي إِلَّا لَوَاءٌ مُخَضَّبُ
فَقُلْتُ: مِنَ الْحَامِي؟ أَلَيْتُ غَضَنْفَرُ
أَمْ الْمَلِكُ الْغَازِي الْمَجَاهِدُ قَدْ بَدَا
رَفَعَتْ بَنَاتُ التُّرْكِ، قَالَتْ: وَهَلْ بَنَا
إِذَا مَا الدِّيَارُ اسْتَرَخَتْ بَدَرْتُ لَهَا
تُقَرَّبُ رَبَّاتُ الْبَعُولِ بَعُولَهَا
وَلَا حَتَّ بِأَفَاقِ الْعَدُوِّ سَرِيَّةُ
نَوَاهِضُ فِي حَزْنٍ كَمَا تَنْهَضُ الْقَطَا
قَلِيلُونَ مِنْ بُعْدٍ، كَثِيرُونَ إِنْ دَنَوْا
فَقَالَتْ: شَهَدْتُ الْحَرْبَ أَوْ أَنْتِ مُوشِكُ
وَنَادَتْ، فَلَبَّى الْخَيْلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
خِفَافًا إِلَى الدَّاعِي، سِرَاعًا، كَأَنَّمَا
مُنِيفِينَ مِنْ حَوْلِ اللَّوَاءِ، كَأَنَّهُمْ
وَمَا هِيَ إِلَّا دَعْوَةٌ وَإِجَابَةٌ
فَأَبْصَرْتُ مَا لَمْ تَبْصُرَا مِنْ مَشَاهِدٍ

هوامش

- (١) اللواء المخضَّب: هو الراية العثمانية الحمراء. ويحميه بنان مخضب: أي أنثى مخضوبة البنان.
- (٢) ربب الصبي: ربَّاه حتى أدرك.
- (٣) البعل: الزوج.
- (٤) الحزن: ما غلظ من الأرض.
- (٥) القصور: الأسد، والمراد به فارس الترك.
- (٦) بكر وتغلب: قبيلتان لم تقف بينهما العداوة عند حدٍّ؛ فتشبيه المقاتلين بهما جيد.

مضيق ملونا

إذا مال رأسُ، أو تضعضع منكب
وما كان يستعصي على الترك مركب
مَضِيقٌ كخلق الليث، أو هو أصعب
وكانوا فريقَ الله، ما ثمَّ مُذنب
دُخَانًا، به أشباحُهم تتجللب^١
كما انهارَ طَوْدٌ، أو كما انهالِ مِذْنَبٌ^٢
بنارِ كنيِرانِ البراكينِ تدأب
ويسفحُ منها السفحُ إذ تنصب^٣
ويسكنُ أعجازَ الحصونِ المِذْنَبُ^٤
تبَلِّجُ والنضرَ الهلالُ المحجَّبُ^٥
تناثرَ منها الجيشُ، أو كاد يذهب
وَقَلْبًا على حَرِّ الوغى يتَقَلَّبُ
شواخصُ، ما إن تهتدي أين تذهب؟^٦
وإن نزلتْ، فالنارُ حمراءُ تَلْهَبُ
تَطْوَعُ حربًا، والزمانُ تَقْلُبُ
وفَتَحُ المعالي، والنهارُ المذهبُ
عن المُلِكِ والأوطانِ ما الحقُّ يُوجِبُ
وقَبِلْتُ سيفًا كان بالكفِّ يضربُ

جبالَ (ملونا)، لا تخوري وتجزعي
فما كنتِ إلا السيفَ والنارَ مركبًا
عَلَوْا فوقَ علياءِ العدوِّ، ودونه
فكان صراطُ الحشرِ، ما ثمَّ ريبٌ
يَمْرُونَ مَرَّ البرقِ تحتَ دُجْنَةٍ
حِثِّينَ من فوقِ الجبالِ وتحتها
تُمِدُّهُمْ قُدَّافُهُمْ ورُمَاتُهُمْ
تُذَرِّي بها شُمُّ الذُّرَا حينَ تعتلي
تُسَمِّرُ في رأسِ القِلاعِ كُرَاتُهَا
فلَمَّا دَجَى داجي العَوانِ وأطبقت
ورُدَّتْ على أعقابها الرومُ، بعد ما
جناحينَ في شبه الشبَّاكَيْنِ من قنا
على قُلُلِ الأَجبالِ حَيْرَى جموعُهُم
إذا صعدتْ، فالسيفُ أبيضُ خاطِفُ
تَطْوَعُ أسْرًا منهمُ ذلكَ الذي
وتَمَّ لنا النصرَ المبينَ على العدا
فجئتُ فتاةَ التركِ أَجْزِي دِفاعَها
فَقَبِلْتُ كَفًّا كان بالسيفِ ضاربًا

وقلتُ: أفي الدنيا لقومك غالبٌ وفي مثل هذا الحجر رُبُّوا وهذبوا؟
 رويدًا بني عثمان في طلب العلا وهيها، لم يستبقَ شيءٌ فيطلب
 أفي كلِّ آنٍ تغرسون، ونجتني وفي كل يومٍ تفتحون، ونكتبُ؟
 وما زلتُم يسقيكم النصرُ خمره وتسقونه، والكلُّ نشوان مصابٌ^٧
 إلى أن أحلَّ السكرَ مَنْ لا يحلُّه ومدَّ بساطَ الشَّرْبِ مَنْ ليس يشرب

هوامش

- (١) أي تحت ظلمة من الدخان تختفي بها أشباحهم.
- (٢) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والمعنى: كما انقضَّ جبل، أو انحط سيل.
- (٣) تذرَّى: من التذرية، وهي الإطارة والإثارة. والذرا: جمع ذروة وهي أعلى الشيء.
- والشمُّ: جمع شَمَاء، وهو الارتفاع. ويسفح: ينصب. والسفح: عرض الجبل المضطجع.
- (٤) المذنب: ذو الذنب من القنابل الكبيرة.
- (٥) العوان: الحرب الشديدة.
- (٦) القلَّة: أعلى الرأس.
- (٧) المصاب: من شرب حتى ارتوى.

الحاج عبد الأزل باشا

يَسِيرُ بِهِ فِي الشَّعْبِ أَشْمَطُ أَشْيَبُ^١
قَدْ اصْطَحَبَا، وَالْحُرُّ لِلْحُرِّ يَصْحَبُ
كَمَا يَتَصَابَى ذُو ثَمَانِينَ يَطْرِبُ
وَيَنْفِرُ هَذَا كَالْغَزَالِ، وَيَلْعَبُ
يُخْضَلُ مِنْ شَيْبِهِمَا وَيُخْضَبُ
أَبْرُ جَوَادًا إِنْ فَعَلْتَ وَأَنْجِبُ
نَمُوتُ كَمُوتِ الْغَانِيَاتِ وَنَعْطَبُ؟
إِلَى الْمَوْتِ أَمْشِي، أَمْ إِلَى الْمَوْتِ أُرْكَبُ؟
وَأُخْذَلُهُ فِي وَهْنِهِ وَأُخْيَبُ؟^٢
يُظَلُّ بِذِكْرَانَا ثَرَاهَا يُطَيَّبُ
لَهَا، مِثْلُ مَا لِلنَّاسِ، فِي الْمَوْتِ مَشْرَبُ^٣
كَأَنَّهُمَا فِيهِ مِثَالُ مَنْصَبُ
وَإِنْ شَيْدَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَطَنَبُوا^٤
وَبِالتَّبَرِّ مِنْ غَالِي تَرَاهُمْ يُتَرَبُّ^٥
وَمَنْ جَبَلِيهَا مِنْبَرٌ لِي فَأُخْطَبُ؟
وَمَدْخَلُهَا الْأَعْصَى الَّذِي هُوَ أَعْجَبُ؟
بَوَاذِخَ، تُلَوِّي بِالنَّجُومِ وَتَجْذِبُ؟^٦
أَوْ الْعِزْمُ إِلَّا عِزْمُهُمُ وَالتَّلْبُّبُ؟^٧

وَأَشْمَطُ سَوَاسِ الْفَوَارِسِ أَشْيَبُ
رَفِيقًا ذَهَابٍ فِي الْحُرُوبِ وَجَيْئَةً
إِذَا شَهِدَاهَا جَدًُّا هَزَّةَ الصُّبَا
فِيهِتَزُّ هَذَا كَالْحَسَامِ، وَيَنْثَنِي
تَوَالِي رِصَاصِ الْمَطْلِقِينَ عَلَيْهِمَا
فَقِيلَ: أَنْلَ أَقْدَامَكَ الْأَرْضَ، إِنَّهَا
فَقَالَ: أَيْرِضَى وَاهِبُ النِّصْرِ أَنَا
ذُرُونِي وَشَأْنِي وَالْوَعَى، لَا مِبَالِيَا
أَيَحْمِلَنِي عُمْرًا، وَيَحْمِي شَبِيبَتِي
إِذَا نَحْنُ مَتْنَا فَادْفَنُونَا بِبِقْعَةٍ
وَلَا تَعْجَبُوا أَنْ تَبْسَلَ الْخَيْلُ، إِنَّهَا
فَمَاتَا أَمَامَ اللَّهِ مَوْتَ بَسَالَةٍ
وَمَا شَهِدَاءُ الْحَرْبِ إِلَّا عِمَادُهَا
مِدَادُ سِجْلِ النِّصْرِ فِيهَا دِمَاؤُهُمْ
فَهَلْ مِنْ (مَلُونَا) مَوْقِفٌ وَمَسَامِعُ
فَأَسْأَلُ حِصْنَيْهَا الْعَجِيبِينَ فِي الْوَرَى
وَأَسْتَشْهَدُ الْأَطْوَادَ شَمَاءَ، وَالذَّرَا
هَلْ الْبَأْسُ إِلَّا بِأَسْهُمٍ وَثَبَاتُهُمْ؟

أَوِ الدِّينُ إِلَّا مَا رَأَتْ مِنْ جِهَادِهِمْ؟
 وَأَيُّ فُضَاءٍ فِي الْوَعَى لَمْ يُضَيِّقُوا؟
 وَهَلْ قَبْلَهُمْ مَنْ عَانَقَ النَّارَ رَاغِبًا
 وَهَلْ نَالَ مَا نَالُوا مِنَ الْفَخْرِ حَاضِرٌ؟
 سَلَامًا (مَلُونًا)، وَاحْتِفَاطًا، وَعَصْمَةً
 وَضَنْيَ بَعْظَمٍ فِي ثَرَاكِ مُعْظَمٍ
 أَوِ الْمُلْكُ إِلَّا مَا أَعَزُّوا وَهَيَّبُوا؟
 وَأَيُّ مَضِيقٍ فِي الْوَرَى لَمْ يُرَحِّبُوا؟
 وَلَوْ أَنَّهُ عَبَّادُهَا الْمَتَرَهَّبُ؟
 وَهَلْ حُبِّي الْخَالُونَ مِنْهُ الَّذِي حُبُّو؟^{١٠}
 لِمَنْ بَاتَ فِي عَالِي الرِّضَى يَتَقَلَّبُ
 يُقَرِّبُهُ الرَّحْمَنُ فِيمَا يُقَرَّبُ

هوامش

(١) الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد، والمراد بالأول: الفارس وبالثاني: فرسه.

(٢) الوهن: الضعف، والمعنى: ليس من الوفاء، ولا من حسن الجزاء أن يكون نصيبه مني في شبيه الترك والخذلان، وقد كان نصيبي منه الصبر على الأهوال، والمعاناة على القتال.

(٣) تبسل: تشجع.

(٤) منصب: مرفوع.

(٥) طنب البيت: شدّه بالأطناب، وهي الحبال.

(٦) السجل: كتاب العهد، أو الحكم. وتَرَّبَ الكتابة: وضع عليها التراب لتجف.

(٧) الشماء: المرتفعة. والبواذخ: من بذخ الجبل أي طال. وألوى بثوبه أو يده: أشار

بها.

(٨) التلبُّب: من تلبب الرجل للحرب، أي تحزَّم وتشمَّر لها.

(٩) هيَّبه: صَيَّرَهُ مَهِيْبًا.

(١٠) حباه الشيء: أعطاه إياه.

هزيمة طرناو

وبالشَّعب فوضى في المذاهب يذهب
وضاق قضاءً بين ذاك مُرَحَّب
مساكنُ أهليها، وعمَّ التَّخْرُبُ^١
وإنَّ مُنادي التُّرك يدنو ويقرب
وعَلَّمه قُوَّاده كيف يهرب
مئيينَ وآلافًا تَهِيْمُ وتسُرُّبُ^٢
بغير يدٍ صَفْر، وأخرى تقلب
وبالسلب، لم يَمُدُّ بها فيه أَجَنَبُ^٣
وَيَنْسَى هناك المُرْضَعُ الأمُّ والأبُّ^٤
أرامِلَ تبكي، أو ثواكلَ تنذب
وَمِنْ فارسٍ تمشي النساءُ، ويركبُ^٥
وَمُزَجٌ أثاثًا بين عينيهِ يُنْهَبُ^٦
وتنجو الرواسي لو حَوَّاهُنَّ مَشْعَبُ^٧
ويَقْضِمُ بعضُ الأرضِ بعضًا ويقْضِبُ^٨
وتذهب بالأبصار أَيَّانَ تذهب
وتنفذ مرماها البعيدَ وتحجُبُ^٩
ولو وجدوا سُبُلًا إلى الجو نَكَبُوا^{١٠}
ولا طاردٌ يدعو لذاك ويوجب

و(طرناو) إذ طارَ الذَّهولُ بجيشها
عَشِيَّةً ضاقت أرضُها وسماؤها
خَلَّتْ من بني الجيش الحصونُ، وأقفرت
ونادى منادٍ للهزيمة في المَلا
فأعرضَ عن قُوَّاده الجندُ شارِدًا
وطار الأهالي، نافرين إلى الفَلا
نَجَوْا بالنفوس الذاهِلاتِ، وما نَجَوْا
وطالت يدُ للجمع في الجمع بالخنا
يسير على أشلاءٍ والده الفتى
وتمضي السرايا واطئأتٍ بخيلها
فَمِنْ راجلٍ تهوي السَّنونُ برجله
وماضٍ بمالٍ قد مضى عنه وألَّهُ
يكادون من دُعرٍ تفرُّ ديارهم
يكاد الثرى من تحيتهم يَلْجُ الثرى
تكادُ خطاهم تسبق البرقَ سرعةً
تكاد على أبصارهم تقطع المدى
تكاد تَمْسُ الأرضُ مَسًّا نِعَالَهُم
هزيمة من لا هازمٌ يَسْتَحِثُّه

قعدنا، فلم يعدم فتى الروم فَيَلْقَا
ظفرنا به وجهًا، فظنَّ تعقُبًا
فولَّى، وما ولى نظامُ جنوده
يسوق ويحدو للنجاةِ كَتائبًا
منظمة من حوله، بَيَدَ أنها
مؤزرة بالرُّعب، ملدوغة به
ترى الخيل من كلِّ الجهاتِ تَخَيَّلًا
فَمِنْ خلفها طورًا، وحينًا أمامها
فوارسُ في طولِ الجبالِ وعرضها
فمهما تهم يسنخ لها ذو مُهنِّدٍ
وتنزلُ عليها من سماءِ خيالها
رُؤى إن تكن حقًا يكن من ورائها

من الرعب يغزوه، وآخرَ يسلبُ
وماذا يزيد الظافرين التعقُب؟
ويا شؤمَ جيشٍ للفرار يُرتب
له موكب منها، وللعار موكب
تودُّ لو انشقَّ الثرى فتُغيَّب
ففي كل ثوبٍ عقرب منه تَلْسِبُ^{١١}
فيأخذ منها وهُمُّها والتهيبُ
وآونةً من كلِّ أُوٍ تَأْلُبُ^{١٢}
إذا غابَ منهم مِقْنَبٌ لاح مِقْنَبُ^{١٣}
ويخرجُ لها من باطن الأرضِ مَحْرَبُ^{١٤}
صواعق فيهنَّ الردى المَتَصَبِّبُ
ملائكةُ الله الذي ليس يُغلبُ^{١٥}

هوامش

- (١) بني: جمع بَنِيَّة، بكسر الباء، وهي البنيان، والمراد بها هنا: القلاع والثكنات.
- (٢) تسرَّب: من سرب الرجل في الأرض، إذا ذهب على وجهه فيها ومضى.
- (٣) معناه: تعدَّى بعضهم على بعض بالفحش والسب. والأجنب: الأجنبي، والمراد: الترك.
- (٤) أشلاء: جمع شلو، وهي أعضاء الإنسان بعد البلى والتفريق.
- (٥) الراجل: الماشي على رجليه. وتهوي السنون برجله: أي تزلُّ به القدم من ثقل وطأة الهرم.
- (٦) الوأل: الملجأ. مزج: من أزجها، بمعنى ساقه ودفعه برفق. الأثاث: متاع البيت.
- (٧) الذعر: الخوف الشديد. والرواسي: الجبال. والمشعب: الطريق.
- (٨) يلج: يدخل. ويقضم ويقضب: يقطع.
- (٩) مدى البصر: منتهاه وغايته. وتنفذ مرماها: تبلغه وتتجاوزها.
- (١٠) نكبوا: مالوا.
- (١١) أرزه: غطاه وقواه. وتلسب: أي تلدغ.

(١٢) تألب: من التأليب، وهو التجمُّع. والأرب: الناحية.

(١٣) أي يجسمها لهم الويل فيرونها كذلك. والمقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.

(١٤) المحرب: الشجاع الشديد في الحرب.

(١٥) الرؤى: جمع رؤيا، وهي المنام.

التلاقي سهل فرسالا

على السهل لُذًا، يرقبون، ونرقب¹
وقام فتاهم ليّله يتلعب
وهذا على أحلامه يتحسب²
غريّر، وهذا ذو تجاربٍ قلب³؟
فكلُّ سبيل بين ذلك معطّب⁴
وتشمل أرواح القتال وتجنب⁵
قطيع بأقصى السهل، حيران، مُذنب⁶
نواشِر، فوضى، في دجى الليل شُرَب⁷
قطائع، تعطى الأمنَ طورًا، وتُسَلَب⁸
جداولُ، يُجريها الظلامُ، ويسكب⁹
كأن السرايا موجه المتضرّب
همومٌ بها فاض الضمير المحجّب
تراهنّ فيها ضحّا وهي نُحَب¹⁰
دراريّ ليل طلّع فيه ثُقب¹¹
مجامرُ في الظلماء تهذا وتلهب¹²
كأن بقايا النضح فيهن طُحلب¹³
كأن صداها الرعد للبرق يصحب
دويّ رياح في الدجى تتذأب¹⁴

و(فرسأل) إذ باتوا وبتنا أعاديًا
وقام فتانا الليلَ يحمي لواءه
توسّد هذا قائم السيف يتقي
وهل يستوي القرنان: هذا مُنعمٌ
حمينا كلانا أرض (فرسال) والسما
ورحنا ينهب الشرّ فينا وفيهم
كأننا أسود رابضات، كأنهم
كأننا خيام الجيش في السهل أينق
كأن السرايا ساكنات موائجا
كأن القنا دون الخيام نوازلا
كأن الدجى بحر إلى النجم صاعد
كأن المنايا في ضمير ظلامه
كأن صهيل الخيل ناع مبشّر
كأن وجوه الخيل غرًا وسيمّة
كأن أنوف الخيل حرّى من الوغى
كأن صدور الخيل غدّر على الدجى
كأن سنى الأبواق في الليل برقه
كأن نداء الجيش من كل جانب

كأن عيون الجيش من كل مذهب
كأن الوغى نار، كأن جنودنا
كأن الوغى نار، كأن الردى قرى
كأن الوغى نار، كأن بني الوغى
وثبنا يضيق السهل عن وثباتنا
مشت في سراياهم، فحلت نظامها
من السهل جنُّ جُولٍ فيه جُوبٌ^{١٥}
مجوسٌ إذا ما يَمَمُوا النارَ قَرَبُوا^{١٦}
كأن وراء النار حاتمٌ يأدب^{١٧}
فراشٌ، له في ملمس النار مأرب
وتقدّمنا ناراً إلى الروم أوثب
فلما مشينا أدبرت، لا تعقب

هوامش

- (١) اللد: جمع الألد، وهو الشديد الخصومة.
- (٢) يتحسب: يتوسد.
- (٣) القرن: النظير المقاوم. والغرير: العديم الخبرة. والقلب: المحتال البصير بتقلب الأمور.
- (٤) معطب: مهلك.
- (٥) تشمل: من شملت الريح، أي هبَّت شمالاً. وجنبت: هبَّت جنوباً.
- (٦) القطيع: الطائفة من الغنم. وأذاب القطيع: فزع من الذئب، فهو مذئب.
- (٧) الأيئق: جمع ناقة. ونواشز: مرتفعة. وشرب: متفرقة.
- (٨) القطائع: جمع قطيعة، وهي هنا ما قُطِعَ من الجيش.
- (٩) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.
- (١٠) نحَب: أي منتحبات باكيات.
- (١١) ثقب النجم: أضاء. والدراري: النجوم الثواقب.
- (١٢) المجامر: جمع مجمر، وهو ما يوضع فيه الجمر.
- (١٣) الغدر: جمع غدير. والطلحب: خضرة تلعو الماء المزمّن. والنضح: رشاش الماء.
- (١٤) تتذأب الريح: تجيء مرة كذا ومرة كذا.
- (١٥) عيون الجيش: أرساده وجواسيسه.
- (١٦) قربوا الله: قدّموا له القرى.
- (١٧) القرى: ما قُري به الضيف، أي قدم له، وحاتم: هو حاتم الطائي المضروب به المثل في الجود.

غصب دوموقو

فيا قوم، حتى السهلُ في الحرب يصعبُ؟
مُعَشِّشٍ نسرٍ، أو بهذا يلقب
مَنون المَفاجي، والجِمامُ المرحَّب
فيُزَجِّي، وتَنَزَّمُ الرياحُ فيركبُ¹
على عَجَلٍ، واستجمعتُ تترقب
وتغدو بما تغدي، وترمي وتنشب²
وأعيا على أوهامهم، فترَيِّبوا³
بجيِّشٍ، وأن النجم يُغشى فيغضبُ⁴
وشهبُ المنايا، والرصاصُ المصوبُ
على النار، أو أنتم أشدُّ وأصلبُ⁵
ولا سُلَّمٌ إلا الحديدُ المذربُ⁶
أو ارتفعت تلقى الفريسةَ أعقبُ⁷
ولم تحتضرْ شمسُ النهار فتغربُ
وبالغ فيكم آلُ عثمان مغربُ
ورَدَّ جماحُ العصر، فالعصر هَيِّبُ
وكنّا بحكم الحادثات نصوبُ
فليس إلى شيءٍ سوى العِزِّ يُنسبُ

رأى السهلُ منهم ما رأى الوعرُ قبله
وحصن تسامى من (دموقو)، كأنه
أشَمُّ على طَوْدٍ أَشَمٍّ، كلاهما
تكاد تقاد الغاديات لربِّه
حمته ليوثُ من حديدٍ تركَّزت
تثور وتستأنى، وتنأى وتَدْنِتَابِي،
فظنَّ العالمون استحالةً
فما في القوى أن السمواتِ تُرتقى
سموتمُ إليه، والقنابلُ دونه
فكنتم يواقيتِ الحروبِ كرامةً
صعدتم، وما غيرُ القنا تَمَّ مَصْعَدُ
كما ازدحمتُ بيزان جَوُّ بمَورِدِ
فما زلتمُ حتى نزلتم بُروجَه
هنالك غالى في الأماديح مَشْرِقُ
وزيدَ حمى الإسلام عِزًّا وَمَنَعَةً
رفعنا إلى النجم الرؤوس بنصركم
ومَنْ كان منسوبًا إلى دولةِ القنا

هوامش

- (١) الغاديات: جمع غادية، وهي السحابة تنشأ غدوة. ويزجي: يسوق. وتنزم: تزم بزماء.
- (٢) استأنى: انتظر. وأدنى: اقترب.
- (٣) تأبى: امتنع. وتريبوا: تخوفوا.
- (٤) يغضب (على البناء للمجهول): يصاب بالغضب، وهو القذى في العين.
- (٥) يقال: إن الياقوت لا يحترق بالنار.
- (٦) الحديد المذرب: المسموم، وذرب السيف: حده.
- (٧) البيزان: جمع باز. والأعقب: جمع عقاب، وهما من جوارح الطير.

أحلام اليونان

فيا قوم، أين الجيش فيما زعمتم؟
وأين أمير البأس والعزم والحجى؟
وأين تخوم تستبيحون دوسها؟
وأين الذي قالت لنا الصحف عنكم
وما قد روى برق من القول كاذب
وما شدت من دولة عرضها الثرى
لها علم فوق الهلال، وسدة
أهذا هو الذود الذي تدعونه
أهذا الذي للملك والعرض عندكم
أهذا سلاح الفتاح، والنصر والعلا؟
أهذا الذي للذكر خلّب معشر
أساتم، وكان السوء منكم إليكم
إلى ذي انتقام، لا ينام غريمه
شقيتم بها من حيلة مستحيلة
فلولا سيوف الترك جرب غيركم

وأين الجواري، والدفاع المركب؟
وأين رجاء في الأمير مخيب؟
وأين عصابات لكم تتوثب؟
واسند أهلوها إليكم فأطنبوا؟
وآخر من فعل المحبين فأكذب
يدين لها الجنسان: ترك وصقلب^٢
تنص على هام النجوم، وتنصب
ونصر «كريد»، والولا، والتحبب؟
وللجار إن أعياء على الجار مطلب؟
أهذا مطايا من إلى المجد يركب؟
على ذكرهم يأتي الزمان ويذهب؟
إلى خير جار عنده الخير يطلب
ولو أنه شخص المنام المحجب
وأين من المحتال عنقاء مغرب؟^٥
ولكن من الأشياء ما لا يجرب

هوامش

- (١) الجواري: السفن.
- (٢) التخوم: الحدود.
- (٣) صقلب: الجنس السلافي.
- (٤) تنصُّ: أي ترفع.
- (٥) عنقاء مغرب: طائر من طيور الأساطير.

عفو القادر

دَعَتْ قَادِرًا، مَا زَال فِي الْعَفْوِ يَرْغَبُ
وَأَنْتَ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا الْيَوْمَ تَضْرِبُ
فَمَا يَفْعَلُ الْمَوْلَى الْكَرِيمُ الْمَهْدَّبُ؟
فَمَا يَفْعَلُ الْمَوْلَى الْكَرِيمُ الْمَهْدَّبُ؟
وَلَيْسَ بِفَانٍ طَيِّشُهُمْ، وَالتَّقَلُّبُ
فَقَدْ يَشْتَهِي الْمَوْتَ الْمَرِيضُ الْمَعَذَّبُ
فَمَنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ أَنْ لَا يُخَيَّبُوا
إِلَى فَضْلِهِ مِنْ عَدْلِهِ الْجَارُ يَهْرَبُ
وَيَمْرَحُ فِي أَوْطَانِهِ الْمَتَغَرَّبُ

فَعَفَوْا — أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — لَأَمَّةٍ
ضَرَبَتْ عَلَى آمَالِهَا، وَمَالَهَا
إِذَا خَانَ عَبْدُ السُّوءِ مَوْلَاهُ مُعْتَقًا
وَلَا تَضْرِبُنْ بِالرَّأْيِ مُنْخَلَّ مُلْكِهِمْ
لَقَدْ فَزَيْتَ أَرْزَاقَهُمْ، وَرَجَالَهُمْ
فَإِنْ يَجِدُوا لِلنَّفْسِ بِالْعَوْدِ رَاحَةً
وَإِنْ هُمْ بِالْعَفْوِ الْكَرِيمِ رَجَاؤُهُمْ
فَمَا زِلْتَ جَارَ الْبِرِّ، وَالسَيِّدَ الَّذِي
يُلَاقِي بَعِيدَ الْأَهْلِ عِنْدَكَ أَهْلُهُ

التماس القبول

فهل ليراعي أن يُغني فيُطرب
ومختلِفُ الأنعامِ للأنسِ أجلب^١
لفي لُطفه ما لا ينال المُعرَّب
جميعاً لسانٌ، يمليان، وأكتب
وأكسو القوافي ما يدوم فيقشب^٢
فكلُّ لسانٍ في مديحك طيبٌ
فمُرْ ينفِثْ بابٌ من العذرِ أرحب
وما النيلُ إلا من رياضك يُحسب
وبغدادُ بغدادٌ، ويثرب يثرب
أجازبك الظلُّ الذي هو أخصب
إلى الله بالزلْفَى له نتقرب

أمولاي غنَّتْكَ السيوفُ فأطربت
فعندي، كما عند الطُّبَا، لك نَغْمَةٌ
أُعرِّبُ ما تُنشِي عُلاك، وإنه
مدحتك والدنيا لسانٌ، وأهلُها
أناول من شعر الخلافة ربَّها
وهل أنت إلا الشمسُ في كل أمة؟
فإن لم يلقُ شعري لبابك مدحةً
وإني لطيرُ النيل، لا طير غيره
إذا قلتُ شعراً فالقوافي حواضر
ولم أعدم الظلَّ الخصيبَ، وإنما
فلا زلتَ كهف الدين، والهادي الذي

هوامش

(١) الطبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف أو السنان.

(٢) يقشب الشيء: يجعله جديداً.

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

يا خالدَ التُّركِ جدَّدْ خالدَ العَرَبِ^١
فالسيفُ في غمده، والحقُّ في النُّصَبِ^٢
وطيبَ أُمْنِيَّةٍ في الرأي لم تَخِبْ
وأنتَ أكرمُ في حَقْنِ الدِّمِ السَّرْبِ^٣
فيه القتالُ بلا شرع، ولا أدب
قناك من حُرْمَةِ الرُّهبانِ والصُّلْبِ
ولو سئِلْتَ بغيرِ النصرِ لم تُجِبْ^٤
وأذعنَ السيفُ مَطُوبًا على عَضْبِ
سيوفِ قومِكَ لا ترتاحُ للقُرْبِ^٥
كلُّ المروءةِ في الإسلامِ والحسبِ
فهبْ لهم هُدْنَةً من رأيكَ الضَّرْبِ^٦
جاءت به الحربُ من حَيَّاتِها الرُّقْبِ^٧
ولا يضيقُ بجَهْرِ المُحَنَّقِ الصَّخِبِ
إلا قضى وَطَرًا من ذلك الأربِ
ومهدَّ السيفُ في «لوزان» للخُطْبِ
على الكتائبِ يُبْنِي المُلكَ لا الكُتْبِ
الحقُّ عندهمُ مُعْنَى من الغَلْبِ
عوُدٌ من السُّمْرِ، أو عودٌ من القُضْبِ^٨

الله أكبر، كم في الفتح من عَجَبِ
صلحُ عزيزٍ على حربِ مُظَفَّرَةٍ
يا حُسْنَ أُمْنِيَّةٍ في السيفِ ما كَذَبْتَ
خُطاك في الحق كانت كُلُّها كَرَمًا
خَذوتَ حربَ (الصلاحيين) في زَمَنٍ
لم يأت سيفُك فحشَاءً، ولا هتَكَتْ
سئِلْتَ سَلَمًا على نصر، فجدتَ بها
مَشِيئَةً قَبِلَتْها الخيلُ عاتِبَةً
أَتَيْتَ ما يشبه التقوى وإن خُلِقْتَ
ولا أزيدُك بالإسلامِ مترَفَةً
مَنَحَتْهُمْ هُدْنَةً من سيفِكَ التُّمَسْتَ
أتاهمُ منك في «لوزان» داهيَةً
أصمُّ، يسمعُ سرَّ الكائدين له
لم تَفْتَرِقْ شهواتِ القومِ في أَرْبِ
تَدَرَّعْتَ للقاءِ السَّلمِ «أنقرة»
فقل لبانِ بقولِ رُكْنٍ مَمْلُوكَةٍ
لا تَلْتَمِسْ غَلْبًا للحقِّ في أُمَمٍ
لا خيرَ في مَنَبَرٍ حتى يكون له

وما السلاح لقوم كلُّ عَدَّتِهِم
لو كان في الناب دون الخلق مَنبَهَةً
لم يُغن عن قادة اليونان ما حشدوا
وتركُّهم «آسيا الصغرى» مُدَجَّجَةً
للتُّرك ساعاتُ صبرٍ يومَ نكبتهم
مغارمٌ، وضحايا ما صرَّخُن، ولا
بالفعل والأثر المحمود تعرفها
جُمعنَ في اثنين: من دينٍ ومن وَطَنٍ
فيها حياةٌ لشعبٍ لم يمتَّ خُلُقًا
لم يَطْعَم الغُمُضُ جَفَنَ المسلمين لها
كُنَّ الرجاء، وكُنَّ اليأس، ثم محا
تلمَّس الترك أسبابًا، فما وجدوا
خاضوا العَوَانَ رجاءً أن تُبَلِّغهم
سفينةُ الله لم تُقهر على دُسرٍ
قد أَمَّن الله مجراها، وأبدلها
واختار رُبَّانها من أهلها، فنجت
ما كان ماءً «سَقاريًا» سوى سَقَرٍ
لَمَّا انبَرَّت نارُها تبغيهم حَطَبًا
سَعَتْ بهم نحوَك الآجالُ يومئذٍ
مَدُّوا الجُسورَ، فحلَّ الله ما عقدوا
كربُّ تغشاهم من رأيٍ ساستهم
هم حَسَّنوا للسواد البُلَّه مملكةً
وأنشئوا نُزهةً للجيش قاتلةً
ضَلَّ الأميرُ، كما ضَلَّ الوزيرُ بهم
تجاذباهم كما شاءَ بمختلفٍ
وكيف تلقى نجاحًا أمةً زهبتُ
زحفتُ زحفَ أتيٍّ غيرِ ذي شَفَقٍ

حتى يكونوا من الأخلاق في أهبٍ
تساوت الأسدُ والدُّوبانُ في الرُّتب
من السلاح، وما ساقوا من العُصب
كثُكُنَّ النحل، أو كالقُنُفُذِ الخشبِ ١٠
كُتِبْنَ في صحفِ الأخلاق بالذهب
كُدِّرْنَ بالمنِّ، أو أفسِدْنَ بالكذب
ولستَ تعرفها باسم ولا لقب
جمعَ الذبائح في اسم الله والقُربِ ١١
ومَطْمَعٌ لِقَبِيلِ ناهضٍ أرب
حتى انجلى ليلُها عن صُبْحِ الشَّنبِ ١٢
نورُ اليقين ظلامَ الشك والريب
كالسيف من سُلَمٍ للعزِّ، أو سَبَبٍ
عَبَرِ النجاة، فكانت صخرة العُطبِ ١٣
في العاصفات، ولم تُغَلَبْ على خُشبٍ ١٤
بحسن عاقبةٍ من سوءٍ مُنْقَلَبٍ
من كَيْدِ حام، ومن تضليل مُنْتَدَبٍ
طغت، فأغرقت الإغريق في اللهبِ ١٥
كانت قِيادَتُهُم حَمَالَةَ الحطب
يا ضَلَّ ساعِ بداعي الحين مُنجذبٍ
إلا مسالكِ فرعونِيَّةِ السَّرَبِ
وأشأمُ الرأي ما ألقاك فَي الكُربِ
من لبدةِ الليث أو من غِيلِهِ الأُشبِ ١٦
ومَنْ تنزَّه في الأجسام لم يَؤُبِ
كلا السَّرابَيْنِ أَظْمَاهم، ولم يَصُبِ ١٧
من الأمانِيِّ والأحلامِ مُختَلِبِ
حَزْبَيْنِ عند الحادث الحزبِ؟ ١٨
على الوهاد ولا رَفِقٍ على الهَضْبِ ١٩

يَحْمِلْنَ أَسَدَ الشَّرَى فِي الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ ٢٠
وَالثَلْجُ فِي قُلُلِ الْأَجْبَالِ لَمْ يَذُبْ
طَارُوا بِأَجْنَحَةِ شَتَى مِنَ الرُّعْبِ
قَنَاتُهُ، وَتَخَلَّى كُلُّ مُحْتَقِبٍ ٢١
تُدْعَى الْهَزِيمَةُ فِيهِ حُسْنٌ مُنْسَحَبٍ
هَبِطَتْ مِنْ صُعْدٍ أَمْ جِئْتَ مِنْ صَبَبٍ؟ ٢٢
فَلَمْ تَتَمَّ، وَكَانَتْ خُطَّةُ الْهَرَبِ
قَرَّبَتْ مَا كَانَ مِنْهَا غَيْرَ مُقْتَرِبٍ
وَسَائِرِ الْخَيْلِ مِنْ لَحْمٍ وَمِنْ عَصَبٍ
وَتَقْطَعُ الْأَرْضَ مِنْ قُطْبٍ إِلَى قُطْبٍ؟
تَطْفِرُ، وَأَيُّ حَصُونِ الرُّومِ لَمْ تَشَبْ؟ ٢٣
مَاءً سَوَاهَا، وَلَا حَلَّتْ عَلَى عُشْبٍ
تَوَارَثُوهُ أَبَا فِي الرُّوعِ بَعْدَ أَبٍ
فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ، لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ ٢٤
مِنْ نَابِهِ الذِّكْرُ لَمْ يَسْمُكْ عَلَى الشُّهْبِ ٢٥
فَلَمْ يُكَذِّبْ، وَلَمْ يَذْمَمْ، وَلَمْ يُرْبِ
عَلَى الصَّعِيدِ، وَخَيْلَ اللَّهِ فِي السُّحْبِ
بَدْرِيَّةُ الْعُودِ، وَالذَّيْبَاجِ، وَالْعَذَبِ ٢٦
مِنْ سَكْرَةِ النُّصْرِ، لَا مِنْ سَكْرَةِ النَّصَبِ
كَالْمِسْكَ مِنْ جَنَابَاتِ (السَّكْبِ) مُنْسَكِبِ ٢٧
مَشَى الْمُجَلَّى إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْقَصَبِ

قَذَفَتْهُمْ بِالرِّيَّاحِ الْهُوجِ مُسْرَجَةً
هَبَّتْ عَلَيْهِمْ، فَذَابُوا عَنْ مَعَاقِلِهِمْ
لَمَّا صَدَعَتْ جَنَاحِيَهُمْ وَقَلَبَهُمْ
جَدَّ الْفِرَارِ، فَأَلْقَى كُلُّ مَعْتَقِلٍ
يَا حُسْنٌ مَا انْسَحَبُوا فِي مَنْطِقِ عَجَبٍ
لَمْ يَذِرْ قَائِدُهُمْ لَمَّا أَحْطَتْ بِهِ
أَخَذَتْهُ وَهُوَ فِي تَدْبِيرِ خُطَّتِهِ
تِلْكَ الْفِرَاسِخُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
خَيْلُ الرُّسُولِ مِنَ الْفُؤُلَازِ مَعْدِنُهَا
أَفِي لِيَالٍ تَجُوبُ الرَّاسِيَاتِ بِهَا
سَلِ الظَّلَامِ بِهَا: أَيُّ الْمَعَاقِلِ لَمْ
أَلْتَ لَنْ لَمْ تَرِدْ «أَزْمِيرَ» لَا نَزَلْتُ
وَالصَّبْرَ فِيهَا وَفِي فُرْسَانِهَا خُلُقٌ
كَمَا وَلِدْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلِدَتْ
حَتَّى طَلَعَتْ عَلَى «أَزْمِيرَ» فِي فَلَكَ
فِي مَوْكِبٍ وَقَفَ التَّارِيخُ يَعْرضُهُ
يَوْمٌ «كَبْدَرٍ» فَخَيْلُ الْحَقِّ رَاقِصَةٌ
غُرٌّ، تَظَلَّلُهَا غَرَاءٌ، وَارْفَةٌ
نَشَوَى مِنَ الظَّفَرِ الْعَالِي، مُرْنَحَةٌ
تَذَكَّرُ الْأَرْضَ مَا لَمْ تَنْسَ مِنْ زَيْدٍ
حَتَّى تَعَالَى أَذَانُ الْفَتْحِ، فَاتَّأَدَّتْ

بِأَيَّةِ الْفَتْحِ تَبْقَى آيَةُ الْحَقْبِ
إِلَّا التَّعَجُّبُ مِنْ أَصْحَابِكَ النَّجْبِ
كَالْيَتِّ عَضَّ عَلَى نَابِيهِ فِي النَّوْبِ
وَالكَاتِبِينَ بِأَطْرَافِ الْقَنَا السُّلْبِ ٢٨
وَلَا الْمُحَالُ بِمُسْتَعَصٍ عَلَى الطَّلَبِ

تَحِيَّةٌ — أَيُّهَا الْغَازِي — وَتَهْنِئَةٌ
وَقِيَّةً مِنْ ثَنَاءٍ، لَا كِفَاءً لَهُ
الصَّابِرِينَ إِذَا حَلَّ الْبَلَاءُ بِهِمْ
وَالْجَاعِلِينَ سَيُوفَ الْهِنْدِ أَلْسِنَهُمْ
لَا الصَّعْبُ عِنْدَهُمْ بِالصَّعْبِ مَرْكَبُهُ

بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِّ
أوتادُ مملكةٍ، آسادُ مُحترَبٍ
من مُضْمَحِلٍّ؟ وكم عَمَّرَتْ من خرب؟
وكم هزمتَ بهم من جَحْفَلٍ لَجِب؟
في الهدم ما ليس في البنيان من صخب
ومن بقية قومٍ جئتُ بالعجب^{٢٩}
شعباً وراءَ العوالي غيرَ مُنْشَعِبٍ
تلفَّتَ البيتُ في الأستار والحجب
إن المنورة المسكية الترب
بابَ الرسول، فمستَ أشرفَ العتب
قضى الليالي لم يَنْعَمَ، ولم يَطِب
مهارجُ الفتحِ في المؤشَّة القشِب
يهنئون (بني حمدان) في (حلب)
ومسلمو (مصر) والأقباطُ في طرب
وشيجة، وخواها الشرقُ في نسب^{٣٠}
إلى مكانك، أو ترمي بمختضب
يومٌ كيوم يهودٍ كان عن كُئِب

ولا المصائبُ إذ يرمي الرجالُ بها
قُودَ معركةٍ، ورَّادُ مهلكةٍ
بلوتهم، فتحدَّث: كم شدَّتْ بهم
وكم ثَلَمَتْ بهم من مَعْقِلٍ أَشْب؟
وكم بنيتَ بهم مجدًا فما نَبَسوا؟
مِنْ قَلَّ جيشٍ، ومن أنقاض مملكةٍ
أخرجتَ للناس من ذلٍّ، ومن فشلٍ
لَمَّا أتيتَ ببدرٍ من مطالعها
وهشَّت الروضة الفيحاء ضاحكةً
وَمَسَّت الدارُ أزكى طيِّبها، وأتت
وأرَّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجاز، وكم
وأزَّيْنَتْ أمهاتُ الشرق، واستبقت
هَزَّت (دمشقُ) بني (أيوبَ)، فانتبهوا
ومسلمو (الهند) و(الهندوسُ) في جدلٍ
ممالكُ ضمَّها الإسلامُ في رَحَمٍ
من كل ضاحيةٍ ترمي بمكتحلٍ
تقول: لولا الفتى التركيَّ حلَّ بنا

هوامش

- (١) خالد الترك: يراد به الغازي مصطفى باشا كمال. وخالد العرب: هو خالد بن الوليد وله في الحروب الإسلامية صوت بعيد.
- (٢) النصب: جمع نصاب، وهو الأصل والمرجع.
- (٣) السرب: المسفوح.
- (٤) الضمير في «بها»: للسلم بالكسر والفتح مؤنثة، بمعنى الصلح والسلام.
- (٥) القرب: جمع قراب، وهو الغمد.
- (٦) الضرب: القاطع.

(٧) الرقب: جمع رقيب، وهي الحيّة الخبيثة. والمقصود بالداهية: عصمت باشا مندوب الترك في مؤتمر «لوزان»، والمشهور عنه أن في سمعه ضعفًا، لا تصل إليه إلا الأصوات العالية.

(٨) السمر: الرماح. والقضب: السيوف.

(٩) أهب: جمع إهاب.

(١٠) حينما ينكمش القنفذ ويتخشب يتسع ما بين شعراته من الانفراج بخلاف حالة الانبساط، فإن شعراته حينئذ تكون متضامة.

(١١) القرب: جمع قربة، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من أعمال البرّ والطاعة.

(١٢) الشنب: الأبلج، من الشنب: وهو عذوبة الأسنان.

(١٣) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. وعبر الوادي (بالفتح والكسر): شاطئه.

(١٤) دسر: جمع دسار، وهو المسمار، أو الخيط من ليف تُشدُّ به ألواح السفينة.

(١٥) الإغريق: اليونان.

(١٦) اللبدة: شعر وبرة الليث، ويضرب بها المثل في المنعة، فيقال: أَمْنَع من لبدة الأسد. والغيل: موضع الأسد. والأشب: الشائك المشتبك.

(١٧) لم يصب: من الصوب، أي المطر.

(١٨) الحزب: الشديد.

(١٩) الآتي: السيل.

(٢٠) الشرى: مأسدة يضرب بها المثل بجانب الفرات. والبيض: الخوذ. واليلب:

الدروع.

(٢١) المحتقب: المدّخر، ويقال: احتقب فلان الشيء، أي أدخره أو احتمله خلفه.

(٢٢) الصيب: ما انحدر من الأرض.

(٢٣) تطفر: من الطفور وهو الوثوب في ارتفاع، والطفرة كذلك: الوثبة.

(٢٤) الأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.

(٢٥) لم يسمك: لم يرفع.

(٢٦) غرّاء وارفة: يصف العلم «اللواء». والعذب: خرق الألوية.

(٢٧) السكب، فرس من أفراس النبي ﷺ.

الشوقيات

- (٢٨) السلب: جمع سلب، وهو الطويل.
(٢٩) الفل: واحد الفلول. وفلول السيف: كسور في حدّه.
(٣٠) الرحم الوشيحة: المتّصلة القرابة.

بعد المنفى^١

أنادي الرسمَ لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعي لو أثابا^١
وقلَّ لحقه العبراتُ تجري وإن كانت سوادَ القلب ذابا
سبقنَ مُقبَّلاتِ التُّربِ عني وأدينَ التحيةَ والخطابا
فنثري الدمعَ في الدَّمنِ البوالي كنظمي في كواعبها الشَّبابا^٢
وقفتُ بها كما شاءت وشاءوا وقوفاً علَّمَ الصبرَ الذَّهابا
لها حقٌّ، وللأحابِ حقٌّ رشفتُ وصالهم فيها حبابا^٣
ومنْ شكرَ المناجمَ مُحسناتٍ إذا التبرُّ انجلى، شكر الترابا
وبين جوانحي وإفٍ، ألوفٌ إذا لمح الديارَ مضى، وثابا
رأى مِيلَ الزمان بها، فكانت على الأيامِ صحبتُهُ عتابا

* * *

وداعاً أرض أندلسٍ، وهذا ثنائِي إن رَضيتَ به ثوابا

^١ كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الأندلس، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد شكراً لها وعرفاناً بجميلها، ثم انتقل إلى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة، وعزج على مسألة التموين التي كانت حينئذ شغل البلاد الشاغل، وقد أنشدت هذه القصيدة في اجتماع لجان التموين بالأوبرا الملكية سنة (١٩٢٠).

وما أَثْنَيْتُ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ وكم من جاهلٍ أَثْنَى فَعَابَا
تَخَذْتُكَ مَوْتَلًّا، فَحَلَلْتُ أُنْدَى ذَرًّا مِنْ وَائِلٍ، وَأَعَزَّ غَابَا
مُغْرَبُ آدَمٍ مِنْ دَارِ عَدْنٍ قضاها في حِمَاكِ لِي اغْتَرَابَا^٥
شَكَرْتُ الْفُلْكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي فَيَا لِمُفَارِقِ شَكَرَ الْغُرَابَا!!
فَأَنْتِ أَرْحَتْنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انتِصَابَا
وَمَنْظَرِ كُلِّ خَوَانٍ، يِرَانِي بوجه كالبَغْيِ رَمَى النِّقَابَا
وَلَيْسَ بَعَامِرٍ بَنِيَانُ قَوْمٍ إِذْ أَخْلَقَهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

* * *

أَحَقُّ كُنْتَ لِلزَّهْرَاءِ سَاحًا وَكُنْتَ لِسَاكِنِ (الزَّاهِي) رَحَابَا؟
وَلَمْ تَكِ (جَوْرًا) أَبْهَى مِنْكِ وَرْدًا وَلَمْ تَكِ بَابِلُ أَشْهَى شَرَابَا؟
وَأَنْ الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا رَحِيقُ إِذَا طَالَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ طَابَا؟
أُولَئِكَ أُمَةٌ ضَرَبُوا الْمَعَالِي بِمَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا قِيبَا
جَرَى كَدْرًا لَهُمْ صَفْوُ اللَّيَالِي وَغَايَةُ كُلِّ صَفْوٍ أَنْ يُشَابَا
مُشِيبَةُ الْقُرُونِ أُدِيلُ مِنْهَا أَلَمْ تَرَ قَرْنَهَا فِي الْجَوْ شَابَا؟^٦
مُعَلَّقَةٌ تَنْظَرُ صَوْلَجَانًا يَخْرُ عَنْ السَّمَاءِ بِهَا لِعَابَا
تُعَدُّ بِهَا عَلَى الْأَمِّ اللَّيَالِي وَمَا تَدْرِي السَّنِينَ وَلَا الْحِسَابَا

* * *

وَيَا وَطَنِي، لَقِيْتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ بِكَ الشَّبَابَا
وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيُثْوِبُ يَوْمًا إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةَ وَالْإِيَابَا
وَلَوْ أَنِّي دُعِيتُ لَكُنْتُ دِينِي عَلَيْهِ أَقَابِلَ الْحَتَمِ الْمُجَابَا^٧
أَدِيرُ إِلَيْكَ قَبْلَ الْبَيْتِ وَجْهِي إِذَا فَهَتِ الشَّهَادَةَ وَالْمَتَابَا
وَقَدْ سَبَقْتُ رَكَائِبِي الْقَوَافِي مُقْلَدَةً أَرَمَّتْهَا، طَرَابَا
تَجُوبُ الدَّهْرَ نَحْوَكَ، وَالْفِيَا فِي وَتَقْتَحُمُ اللَّيَالِي، لَا الْعُجَابَا
وَتُهْدِيكَ الثَّنَاءَ الْحَرَّ تَاجَا عَلَى تَاجِيكَ مُؤْتَلَقًا عُجَابَا

* * *

كما تهدي (المنورة) الركابا
 كنار (الطور) جَلَلَتِ الشَّعَابا^٩
 فكانت من ثراك الطُّهر قابا
 به أضحي الزمانُ إليّ ثابا
 كَسَوْا عِطْفِيّ من فخر ثيابا
 أَحَبَّكَ كُلُّ من تَلَقَّى، وهابا
 بلغت على أَكْفَهُم السحابا
 كأن على أَسْرَتِهِ شهابا
 ونور العلم، والكرم اللُّبابا^{١٠}
 مُحْيَا مِصرَ رائِعةٍ كُعبا^{١١}
 ولكن مَنْ أَحَبَّ الشَّيْءَ حابي
 مُلَبِّي حين يُرْفَعُ، مُستجابا
 يخفّف عن كنانته العذابا
 يكاد يُعيدُها سبعا صعبا؟
 ويُحسنُ حِسْبَهُ، ويرى صوابا؟^{١٢}
 أنيلاً سَقَتْ فيهم، أم سَرابا؟
 بها ملكوا المرافِقَ والرقابا
 مُحَجَّرَةً، وأكباداً صلابا
 ومن أكل الفقيرَ فلا عقابا؟
 أشدَّ من الزمانِ عليه نابا
 يَنازعه الحشاشَةُ والإهابا^{١٣}
 ولستَ تحِسُّ للبرِّ انتدابا
 زكاةَ المالِ ليست فيه بابا؟
 فدعهم، واسمع الغرثي السغابا^{١٤}
 كما تصفُ المَعْدُدَةُ المصابا
 ولا كتجارةِ السوءِ اكتسابا
 إذا جرَّعتها انتشرتْ نئابا
 ولم يَحْمِلْ إلى قومِ كتابا

هدانا ضوءُ تغرِكَ من ثلاثٍ
 وقد غَشِيَ المنارُ البحرَ نوراً
 وقيل: الثَّغَرُ، فاتَّأَدْتُ، فأرُست
 فصفحاً للزمانِ لصبحِ يومٍ
 وحياً الله فتیاناً سِماحاً
 ملائكة إذا حَفُّوكَ يومًا
 وإن حملتْك أيديهم بحورًا
 تَلَقَّوْنِي بكلِّ أغرٍّ زاهٍ
 ترى الإيمانَ مؤتلقًا عليه
 وتلمحُ من وضاءةِ صفحتَيْهِ
 وما أدبي لما أَسَدَوْهُ أَهْلُ
 شبابِ النيل، إن لكم لصوتًا
 فهُزُّوا (العرشَ) بالدعواتِ حتى
 أَمِنْ حربِ البسوسِ، إلا غَلاءٍ
 وهل في القومِ يوسفُ يتَّقِيها
 عبادك — رَبِّ — قد جاعوا بمصر
 حنانك، واهدِ للحسنَى تِجارًا
 ورقِّقْ للفقيرِ بها قلوبًا
 أَمِنْ أَكَلِ الْيَتِيمِ له عقابُ
 أُصِيبَ من التجارِ بكلِّ ضارٍ
 يكاد إذا غَذَاهُ، أو كسَاهُ
 وتسمعُ رحمةً في كلِّ نادٍ
 أَكَلُ في كتابِ الله إلا
 إذا ما الطامعونُ شَكُّوا وضجُّوا
 فما يَبكون من تُكُلٍ، ولكن
 ولم أرَ مثلَ سوقِ الخيرِ كَسْبًا
 ولا كأولئك البؤساءِ شاءَ
 ولولا البرُّ لم يُبعثْ رسولٌ

هوامش

- (١) الرسم: ما كان بالأرض من آثار الدار.
- (٢) الدّمن: آثار الديار. والكواعب من الجوّاري ناهدات الثدى، والمراد بها هنا: الديار قبل أن تستحيل إلى دمن.
- (٣) رشف الماء: مصّه بشفتيه. والحباب الحبيب.
- (٤) وائل: طلب النجدة. والموئل: الملجأ. ووائل: جبل، وسُمّيت به قبيلة من العرب.
- (٥) إن الله الذي أخرج آدم من الجنة ليجعل الأرض منفاه، قد قضى عليّ أن يكون منفاي في جنة من حماك، وهذه مبالغة من الشاعر في تكريم هذه البلاد التي آوته وهو غريب.
- (٦) أدال الله فلاناً من فلان: نزع الدولة من الثاني وحولّها إلى الأول، والكلام على الشمس.
- (٧) دُعيت إلى الموت: نوديت. والحتم المجاب: هو الموت.
- (٨) جلل الشيء: غطاه.
- (٩) اللباب: الخالص.
- (١٠) الوضاعة: الحسن والنظافة.
- (١١) الحسبة: الحساب.
- (١٢) الحشاشة: بقية الروح في المريض.
- (١٣) الغرثى: جمع غرثان، وهو الجائع. والسغاب: جمع ساغب، وهو الجائع أيضاً.

ذكرى المولد

لعلَّ على الجمالِ له عِتَابًا
فهل ترك الجمالُ له صوابًا؟
تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابا
هما الواهي الذي ثكَلَ الشبابا^١
وصفَّق في الضلوع، فقلتُ: ثابا^٢
لما حَمَلْتُ كما حَمَلَ العذابا
وكان الوصلُ من قِصْرِ حَبَابا^٣
من اللذاتِ مختلفٍ شرابا
وإن طال الزمانُ به وطابا
إذا عادَتْهُ ذكرى الأهلِ ذابا
كمن فقد الأُحِبَّةَ والصَّحَابا
تُبَدِّلُ كُلَّ آوْنَةٍ إهابا
وأترعُ في ظلالِ السلمِ نابا^٤
وتُفَنِّيهُم، وما بَرَحْتَ كَعَابا^٥
لبستُ بها فأبليتُ الثيابا
ولي ضحكُ اللبيبِ إذا تغابى^٦
وذقتُ بكأسها شَهْدًا، وصابا
ولم أرَ دون بابِ الله بابا

سلُّوا قلبي غداةَ سلا وثابا
ويُسألُ في الحوادثِ ذو صوابٍ
وكنْتُ إذا سألتُ القلبَ يومًا
ولي بين الضلوعِ دمٌ ولحمٌ
تسرَّب في الدموعِ فقلتُ: ولَّى
ولو خُلقت قلوبٌ من حديدٍ
وأحبابٍ سُقِيتُ بهم سُلافًا
ونادَمنا الشبابَ على بساطٍ
وكلُّ بساطٍ عيشٍ سوف يُطوى
كأن القلبَ بَعْدَهُم غريبٌ
ولا يُنْبِيكُ عن خُلُقِ الليالي
أخا الدنيا، أرى دنياكَ أفعى
وأن الرُّقْطَ أيقَظُ هاجعاتٍ
ومن عجبٍ تُشَيِّبُ عاشِقيها
فمن يغترَّ بالدنيا فإني
لها ضحكُ القيانِ إلى غبيٍّ
جنيتُ برؤسها وردًا، وشوكًا
فلم أرَ غيرَ حكمِ الله حكمًا

ولا عَظَّمْتُ فِي الْأَشْيَاءِ إِلَّا
 وَلَا كَرَّمْتُ إِلَّا وَجَهَ حُرٍّ^٧
 وَلَمْ أَرْ مِثْلَ جَمْعِ الْمَالِ دَاءً
 فَلَا تَقْتُلْكَ شَهْوَتُهُ، وَزِنْهَا
 وَخُذْ لِبْنِيكَ وَالْأَيَّامِ نَخْرًا
 فَلَوْ طَالَعْتَ أَحْدَاثَ اللَّيَالِي
 وَأَنْ الْبِرَّ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ
 وَأَنْ الشَّرَّ يَصْدَعُ فَاعِلِيهِ
 فَرِفْقًا بِالْبَنِينَ إِذَا اللَّيَالِي
 وَلَمْ يَتَقَلَّدُوا شُكْرَ الْيَتَامَى
 عَجِبْتُ لِمَعْشَرٍ صَلُّوا وَصَامُوا
 وَتُلَفِّيهِمْ حِيَالَ الْمَالِ صُمًّا
 لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللَّهِ مِنْهُ
 وَمَنْ يَعْدِلْ بِحَبِّ اللَّهِ شَيْئًا
 أَرَادَ اللَّهُ بِالْفُقَرَاءِ بِرًّا
 فَرُبُّ صَغِيرٍ قَوْمٍ عَلَّمُوهُ
 وَكَانَ لِقَوْمِهِ نَفْعًا وَفَخْرًا
 فَعَلِمَ مَا اسْتَطَعْتَ، لَعَلَّ جِيلًا
 وَلَا تُرْهَقُ شَبَابَ الْحَيِّ يَأْسًا
 يَرِيدُ الْخَالِقُ الرِّزْقَ اشْتِرَاكًا
 فَمَا حَرَمَ الْمُجِدَّ جَنَى يَدِيهِ
 وَلَوْلَا الْبَخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقُ
 تَعَبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْمًا، وَقَبْلِي
 وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادٍ
 أَلَمْ تَرَ لِلْهَوَاءِ جَرَى فَأَفْضَى
 وَأَنْ الشَّمْسُ فِي الْأَفْئَاقِ تَغْشَى
 وَأَنْ الْمَاءَ تَرَوِي الْأَسْدُ مِنْهُ

صَحِيحَ الْعِلْمِ، وَالْأَدَبَ اللَّبَابَا^٨
 يُقَلِّدُ قَوْمَهُ الْمِنْنَ الرُّغَابَا^٩
 وَلَا مِثْلَ الْبَخِيلِ بِهِ مُصَابَا
 كَمَا تَزُنُّ الطَّعَامُ أَوْ الشَّرَابَا
 وَأَعْطِ اللَّهَ حِصَّتَهُ احْتِسَابَا^{١٠}
 وَجَدْتَ الْفَقْرَ أَقْرَبَهَا انْتِيَابَا^{١١}
 وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ ثَوَابَا
 وَلَمْ أَرْ خَيْرًا بِالشَّرِّ آبَا
 عَلَى الْأَعْقَابِ أَوْقَعْتَ الْعِقَابَا
 وَلَا أَدْرَعُوا الدَّعَاءَ الْمُسْتَجَابَا^{١٢}
 عَوَاهِرَ، خَشْيَةً وَتُقَى كِذَابَا^{١٣}
 إِذَا دَاعَى الزَّكَاةَ بِهِمْ أَهَابَا^{١٤}
 كَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحْصِ النَّصَابَا
 كَحَبِّ الْمَالِ، ضَلَّ هَوَى وَخَابَا
 وَبِالْإِيْتَامِ حُبًّا وَارْتِبَابَا^{١٥}
 سَمَا وَحَمَى الْمُسَوِّمَةَ الْعِرَابَا^{١٦}
 وَلَوْ تَرَكَوهُ كَانَ أَدَى وَعَابَا^{١٧}
 سَيَأْتِي يُحَدِّثُ الْعَجَبَ الْعُجَابَا
 فَإِنَّ الْيَأْسَ يَخْتَرُمُ الشَّبَابَا^{١٨}
 وَإِنْ يَكُ خَصَّ أَقْوَامًا وَحَابَى^{١٩}
 وَلَا نَسِيَ الشَّقِيَّ، وَلَا الْمُصَابَا^{٢٠}
 عَلَى الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غِضَابَا
 دُعَاةَ الْبِرِّ قَدْ سَنِمُوا الْخَطَابَا
 فَجَزَتْ بِهِ الْيَنَابِيعُ الْعِذَابَا
 إِلَى الْأَكْوَاخِ، وَاخْتَرَقَ الْقَبَابَا؟^{٢١}
 جَمِي كَسْرَى، كَمَا تَغْشَى الْيَبَابَا؟^{٢٢}
 وَيَشْفِي مَنْ تَلْعَلُّهَا الْكَلَابَا؟

وَسَوَّى اللّٰهَ بَيْنَكُمْ الْمَنَآيَا
وَأَرْسَلَ عَائِلًا مِنْكُمْ يَتِيمًا
نَبِيَّ الْبَرِّ، بَيَّنَّهُ سَبِيلًا
تَفَرَّقَ بَعْدَ عَيْسَى النَّاسُ فِيهِ
وَشَافِي النَّفْسِ مِنْ نَزَعَاتِ شَرٍّ
وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدْيِ سُبُلًا
وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ، حَتَّى
وَمَا نِيلَ الْمَطَالِبِ بِالْتَمَنِّي
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ

وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرِّسْلِ التُّرَابَا^{٢٣}
دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا^{٢٤}
وَسَنَّ خِلَالَهُ، وَهَدَى الشُّعَابَا^{٢٥}
فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابَا^{٢٦}
كَشَافٍ مِنْ طِبَائِعِهَا الذُّنَابَا^{٢٧}
وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا
أَخَذْنَا إِمْرَةً الْأَرْضِ اغْتِصَابَا
وَلَكِنْ تَوَخَّذُ الدُّنْيَا غِلَابَا^{٢٨}
إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا

* * *

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي، وَعَمَّتْ
وَأَسَدَتْ لِلْبَرِيَّةِ بَنَتْ وَهَبْ
لَقَدْ وَضَعْتَهُ وَهَاجًا، مَنِيرًا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نَوْرًا
وَضَاعَتْ يَثْرِبُ الْفِيحَاءِ مَسْكًَا
أَبَا الزَّهْرَاءِ، قَدْ جَاوَزْتُ قَدْرِي
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانٍ
مَدَحْتُ الْمَالِكِينَ، فَزِدْتُ قَدْرًا
سَأَلْتُ اللَّهَ فِي أَبْنَاءِ دِينِي
وَمَا لِلْمُسْلِمِينَ سِوَاكَ حَسَنٌ
كَأَنَّ النُّحْسَ حِينَ جَرَى عَلَيْهِمْ
وَلَوْ حَفَظُوا سَبِيلَكَ كَانَ نَوْرًا
بَنَيْتَ لَهُمْ مِنَ الْأَخْلَاقِ رَكْنًا
وَكَانَ جَنَابُهُمْ فِيهَا مَهِيْبًا
فَلَوْلَاهَا لَسَاوَى الْلَيْثُ ذَنْبًا
فَإِنْ قُرْنَتْ مَكَارِمُهَا بِعِلْمٍ
وَفِي هَذَا الزَّمَانِ مَسِيحُ عِلْمٍ

بَشَائِرُهُ الْبَوَادِي وَالْقِصَابَا^{٢٩}
يَدًا بِيضَاءً، طَوَّقَتْ الرِّقَابَا^{٣٠}
كَمَا تَلَدُّ السَّمَاوَاتُ الشُّهَابَا^{٣١}
يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنَّقَابَا^{٣٢}
وَفَاحَ الْقَاعُ أَرْجَاءً وَطَابَا^{٣٣}
بِمَدْحِكَ، بَيَدُ أَنْ لِيْ انْتِسَابَا
إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
فَحِينَ مَدَحْتُكَ أَقْتَدْتُ السَّحَابَا
فَإِنْ تَكُنِ الْوَسِيلَةَ لِي أَجَابَا
إِذَا مَا الضَّرُّ مَسَّهُمْ وَنَابَا
أَطَارَ بِكُلِّ مَمْلَكَةٍ غُرَابَا
وَكَانَ مِنَ النُّحُوسِ لَهُمْ حَجَابَا
فَخَانُوا الرُّكْنَ، فَانْهَدَمَ اضْطِرَابَا
وَلَلْأَخْلَاقُ أَجْدَرُ أَنْ تُهَابَا
وَسَاوَى الصَّارِمُ الْمَاضِي قِرَابَا^{٣٤}
تَذَلَّلَتِ الْعَلَا بِهِمَا صَعَابَا
يَرُدُّ عَلَى بَنِي الْأُمَمِ الشُّبَابَا

هوامش

- (١) الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا القلب.
- (٢) ثاب: رجع بعد ذهاب.
- (٣) السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تعلوه.
- (٤) الرقط: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سواد مشوب بالبياض. وأترع: أسرع إلى الشر.
- (٥) الكعاب: الجارية: الجارية الناهد.
- (٦) القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية.
- (٧) اللباب: المختار الخالص.
- (٨) الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.
- (٩) احتسب عند الله أمرًا: قدّمه.
- (١٠) انتابه: أتاه مرّة بعد أخرى.
- (١١) أدّرع: ليس الدرع.
- (١٢) الكذاب: الكذب.
- (١٣) أهاب به: دعاه.
- (١٤) ارتبّ الصبي ارتبّابًا: ربّاه حتى أدرك.
- (١٥) الخيل المسومة: المرعية. والخيل العرب: الكرائم.
- (١٦) العاب: العيب.
- (١٧) أرهقة طغيانًا: أغشاه إيّاه. ويخترم الشباب: يستأصله.
- (١٨) حاباه: اختصّه ومال إليه.
- (١٩) الجنى: ما نجني من الشجر.
- (٢٠) أفضى: بلغ.
- (٢١) اللياب: القفر.
- (٢٢) تلعلع الكلب: دلّع لسانه عطشًا.
- (٢٣) سوى: جعلكم فيها سواءً.
- (٢٤) عائلاً: فقيراً. وقاب القوس: ما بين المقبض والسيّة، والمراد أنه كان قريباً.
- (٢٥) الشعاب: الطرق.
- (٢٦) الضمير في «فيه» يعود على البر.

- (٢٧) النزغات: الوسوس.
(٢٨) غلابًا: قهراً.
(٢٩) القصابا: جمع قصبة، وهي المدينة.
(٣٠) بنت وهب: السيدة آمنة، أمه ﷺ.
(٣١) الشهاب: الكوكب.
(٣٢) نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.
(٣٣) ضاع المسك: تحرّك فانتشرت رائحته.
(٣٤) الصارم: السيف. والقراب: الغمد.

مشروع ملنر^١

إِثْنِ عُنَانَ الْقَلْبِ، وَاسْلَمْ بِهِ
وَمِنْ تَثْنِي الْغَيْدِ عَنْ بَانِهِ
ظِبَائِهِ الْمُنْكَسِرَاتُ الظَّبَا
بِيضٌ، رِقَاقُ الْحَسَنِ فِي لَمَحَةٍ
ذَوَابِلُ النَّرْجِسِ فِي أَصْلِهِ
زَنْ عَلَى الْأَرْضِ سَمَاءَ الدُّجَى
يَمْشِينَ أَسْرَابًا، عَلَى هَيْئَةٍ
مِنْ كُلِّ وَسْنَانٍ بِغَيْرِ الْكَرَى
جَفْنٌ تَلْقَى مَلَكًا بَابِلٍ
يَا ظَبِيَّةَ الرَّمْلِ، وَقِيَتِ الْهُوَى
مِنْ رَبْرِبِ الرَّمْلِ، وَمِنْ سِرْبِهِ^١
مُرْتَجَّةَ الْأُرْدَافِ عَنْ كُثْبِهِ^٢
يَغْلِبُنَ ذَا اللَّبِّ عَلَى لُبِّهِ^٣
مِنْ نَاعِمِ الدَّرِّ، وَمِنْ رَطْبِهِ
يَوَانِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ
وَزْدَنُ فِي الْحَسَنِ عَلَى شُهْبِهِ
مَشَى الْقَطَا الْأَمِنِ فِي سِرْبِهِ^٤
تَنْتَبَهُ الْأَجَالُ مِنْ هُدْبِهِ
غَرَائِبَ السَّحَرِ عَلَى غَرْبِهِ^٥
وَأِنْ سَعَتْ عَيْنَاكَ فِي جَلْبِهِ

^١ في سنة ١٩١٩ ثارت البلاد في طلب استقلالها، وسافر الوفد المصري لعرض قضية البلاد في مؤتمر السلام في «فرساي»، وتلقى هناك دعوة من لورد «ملنر» وزير المستعمرات الإنكليزية إذ ذاك؛ ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنكلترا بها، فتمخضت المحادثات بينهما عن مشروع قدمه لورد ملنر، واتفق مع الوفد على عرضه على البلاط لأخذ رأيهما فيه مع التزام الحيدة؛ فانتدب الوفد أربعة من أعضائه للقيام بهذه المهمة، وقد كانت الأفكار يومئذ متجهة إلى أن المشروع يصلح أساساً للمفاوضة ببعض تعديلات.

أَسْرَفْتُ فِي الدَّمْعِ يَوْمًا، وَإِنْ
هَذِي الشَّوَاكِي النُّحْلُ صَدَنَ أَمْرًا
صَيَّادَ آرَامٍ، رَمَاهُ الْهَوَى
شَابًّا، وَفِي أَضْلَعِهِ صَاحِبُ
وَاهٍ بِجَنْبِي، خَافَقُ، كُلَّمَا
لَا تَنْتَنِي الْآرَامُ عَنْ قَاعِهِ
حَمَلْتُهُ فِي الْحَبِّ مَا لَمْ يَكُنْ
مَا خَفَّ إِلَّا لِلْهَوَى وَالْعَلَا
أَرْبَعَةٌ تَجْمَعُهُمْ هَمَّةٌ
قِطَارُهُمْ كَالْقَطَرِ هَزَّ الثَّرَى
لَوْلَا اسْتِلَامُ الْخَلْقِ أَرْسَانَهُ
كُلُّهُمْ أَغِيرُ مِنْ وَائِلٍ
لَوْ قَدَرُوا جَاءُوكُمْ بِالثَّرَى
وَمَا اعْتَرَا ضُحْطٌ دُونَ الْمَنَى
وَلَيْسَ بِالْفَاضِلِ فِي نَفْسِهِ
مَا بَالُ قَوْمِي اخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ
كَأَنَّهُمْ أَسْرَى، أَحَادِيثُهُمْ
يَا قَوْمُ، هَذَا زَمَنٌ قَدْ رَمَى
لَوْ أَنَّ قَيْدًا جَاءَهُ مِنْ عَلٍ
وَهَذِهِ الضَّجَّةُ مِنْ نَاسِهِ
مَنْ يَخْلَعُ النَّيِّرَ يَعْشُ بُرْهَةً
يَا نَشَأَ الْحَيِّ، شَبَابَ الْجَمَى
بَنِي الْأَوَّلِ أَصْبَحَ إِحْسَانُهُمْ
مُوسَى وَعِيسَى نَشَأَ بَيْنَهُمْ
وَعَالِجَا أَوَّلِ مَا عَالِجَا
مَا نَسَيْتُ مَصْرُ لَكُمْ بَرَّهَا
مَزَّقْتُمْ الْوَهْمَ، وَأَلْفَتُمْ

أَسْرَفْتُ فِي الدَّمْعِ، وَفِي سَكْبِهِ
مُلْقَى الصَّبَا، أَعَزَلَ مِنْ غَرْبِهِ^٦
بَشَادِنِ لَا بُرَاءَ مِنْ حُبِّهِ^٧
خُلُوٍّ مِنَ الشَّيْبِ، وَمَنْ خَطْبِهِ^٨
قُلْتُ: تَنَاهَى، لَجَّ فِي وَثْبِهِ
وَلَا بَنَاتُ الشَّوْقِ عَنْ شِعْبِهِ^٩
لِيَحْمَلَ الْحَبَّ عَلَى قَلْبِهِ
أَوْ لَجَلَالِ الْوَفْدِ فِي رَكْبِهِ
يَنْقُلُهَا الْجِيلَ إِلَى عَقْبِهِ^{١٠}
وَزَادَهُ خِصْبًا عَلَى خِصْبِهِ^{١١}
شَبَّ، فَنَالَ الشَّمْسَ مِنْ عُجْبِهِ^{١٢}
عَلَى حِمَاهِ، وَعَلَى شِعْبِهِ^{١٣}
مَنْ قُطِبَ مُلْكًا إِلَى قُطْبِهِ
مِنْ هَفْوَةِ الْمُحْسِنِ أَوْ ذَنْبِهِ
مَنْ يُنْكَرُ الْفَضْلَ عَلَى رَبِّهِ
فِي مِدْحَةِ الْمَشْرُوعِ أَوْ ثَلْبِهِ؟^{١٤}
فِي لَيْلِ الْقَيْدِ، وَفِي صُلْبِهِ
بِالْقَيْدِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ سَحْبِهِ^{١٥}
خَشِيتُ أَنْ يَأْبَى عَلَى رَبِّهِ
جَنَازَةُ الرِّقِّ إِلَى تُرْبِهِ
فِي أَثَرِ النَّيْرِ، وَفِي نَدْبِهِ^{١٦}
سُلَالَةَ الْمَشْرِقِ مِنْ نَخْبِهِ^{١٧}
دَارَتْ رَحَى الْفَنِّ عَلَى قُطْبِهِ
فِي سَعَةِ الْفِكْرِ وَفِي رُحْبِهِ
مَنْ عَلِلَّ الْعَالَمَ أَوْ طَبَّهُ^{١٨}
فِي حَازِبِ الْأَمْرِ وَفِي صَعْبِهِ^{١٩}
أَهْلَةَ اللَّهِ عَلَى صُلْبِهِ

حتى بنيتم هرمًا رابعًا
يومٌ لكم يَبْقَى (كبدِر) على
قد صارت الحالُ إلى جدِّها
اللَّيْثُ، والعالمُ من شرقه
قضى بأن نبني على نابه
ونبلُغَ المجدَّ على عينه
ونصلَّ النازلَ في سلمه
ونصرفَ النيلَ إلى رأيه
يُبِيحُ أو يَحْمِي على قُدْرَةٍ
أمرٌ عليكم أو لكم في غد
لا تستقلُّوه، فما دهرُكم
نسمعُ بالحقِّ، ولم نطلُعْ
ينال باللين الفتى بعضَ ما
فإن أنستم فليكن أنسُكم
وفي احتشام الأسدِ دون القُدَى
قد أسقط الطَّفَرَةُ في ملكه
يا رَبِّ قيدٍ لا تُحِبُّونه
ومطلبٍ في الظنِّ مستبعدٍ
والْيَأْسُ لا يَجْمَلُ من مؤمن

من فِئَةِ الحقِّ ومن حزبه
أنصار سعدٍ، وعلى صحبه^{٢٠}
وانتبه الغافلُ من لعبه
في هيبة الليثِ إلى غربه^{٢١}
مُلْك بَنِينا، وعلى خِلْبِه^{٢٢}
وندخل العَصَرَ إلى جَنْبِه
ونقطع الداخلَ في حربِه
يَقْسِمُه بالعدل في شَرْبِه^{٢٣}
حقُّ القُرَى والناس في عذبه
ما ساءَ أو ما سَرَّ من غِبِّه^{٢٤}
بحاتم الجود ولا كعبه^{٢٥}
على قنا الحقِّ، ولا قُضْبِه^{٢٦}
يعجز بالشدَّة عن غصْبِه
في الصبر للدهر، وفي عَتْبِه
إذا هي اضطُرَّت إلى شَرْبِه^{٢٧}
من ليس بالعاجز عن قلبه^{٢٨}
زمانُكم لم يتقيَّد به
كالصبح للناظرِ في قربِه
ما دام هذا الغيبُ في حُجْبِه

هوامش

(١) الربرب: القطيع من بقر الوحش. والسرب (بكسر السين): جماعة الظباء أو

النساء.

(٢) الغيد: جمع غيداء، وهي المرأة اللينة الأعطاف. والبان: شجر يُشَبَّه به القدُّ

لطوله. والكتب: جمع كثيب، وهو التل من الرمل، يُشَبَّه به الردف.

(٣) الظبا: جمع ظبة، وهي حدُّ السيف.

(٤) الهينة (بالكسر): السكينة والوقار.

- (٥) هاروت وماروت: الملكان اللذان أنزل عليهما السحر. وغرب العين: مقدمها أو مؤخرها. والغرب: السيف: وعلى المعنى يكون المراد بالجفن: غمد السيف.
- (٦) الشواكي: المسلحة. وغرب الشباب: حدّته ونشاطه.
- (٧) آرام: جمع رئم، وهو الظبي الخالص البياض. والشادن: ولد الظبية.
- (٨) صاحب: يريد القلب.
- (٩) القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام. والشعب (بالكسر): الناحية.
- (١٠) يريد بالأربعة: الأعضاء المندوبين لعرض المشروع. والعقب الولد، وولد الولد.
- (١١) القطر: المطر.
- (١٢) أرسان: جمع رسن، وهو الزمام.
- (١٣) وائل: قبيلة من العرب.
- (١٤) ثلّبه: عيبه وتنقصه.
- (١٥) السحب: الجرُّ على الأرض.
- (١٦) النير: الأخشبة المعترضة في عنق الثورين بأداتها، وتعرف عند العامة (بالناف).
- والندب: جمع ندبة، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد.
- (١٧) النجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.
- (١٨) الطب الشهوة، وهو أيضًا علاج الجسم والنفس.
- (١٩) حازب الأمر: شديده.
- (٢٠) بدر: أكبر وقعة انتصر فيها الإسلام على أعدائه.
- (٢١) الليث: الأسد البريطاني، وهنا يبدأ الشاعر في سرد نقط المشروع الهامة.
- (٢٢) الخلب (بالكسر): الظفر.
- (٢٣) الشرب (بالكسر): النصيب من الماء.
- (٢٤) الغب: العاقب.
- (٢٥) حاتم طيئ وكعب بن مامة: من أجواد العرب.
- (٢٦) القنا: الرماح. والقضب: السيوف.
- (٢٧) احتشام: إحجام.
- (٢٨) الطفرة: الوثبة في ارتفاع. وأسقط الطفرة: تركها. وقلب الملك: تبديله وتغيير نظامه.

مشروع ٢٨ فبراير

وفاز بالحق من لم يأله طلبا^١
حتى تجرّ ذيول الغبطة القُشبا^٢
من واقع جزعا، أو طائر طربا^٣
إذا تحيّر فيها الدمع واضطربا^٤
إذا سدت عليك الشكّ والريبا^٥
أو فاحشدين رماح الخطّ والقُضبا^٦
إن الصغائر ليست للعلّا أهبا^٧
كالحقّ والصبر في أمر إذا اصطحبا^٨
إلى التعاون فيما جَلّ أو حَزبا^٩
وأن ليل سَراها صُبْحُه اقتربا^{١٠}

أعدّت الراحة الكبرى لمن تعبها
وما قضت مصر من كلّ لبانتها
في الأمر ما فيه من جدّ، فلا تقفوا
لا تُثبِت العَيْنُ شيئا، أو تُحقِّقه
والصبح يُظلم في عينيك ناصعه
إذا طلبت عظيمًا فاصبرنَّ له
ولا تعدّ صغيرات الأمور له
ولن ترى صحبة تُرضى عواقبها
إن الرجال إذا ما ألجئوا لجئوا
لا ريب أن خطأ الآمال واسعة

عهدًا وعقدًا بحق كان مغتصبا^{١١}
وراءها فسحّ الآمال والرحبا^{١٢}
ولم نعالج على مصراعها الأربا^{١٣}
سيّان من غلب الأيام أو غلبا^{١٤}
هيهات يذهب سعي المحسنين هبا^{١٥}
أساء عاقبة، أم سرّ مُنقلبًا!^{١٦}

وأن في راحتي مصر وصاحبها
قد فتح الله أبوابًا، لعل لنا
لولا يدُ الله لم ندفع مناكبها
لا تعدم الهمة الكبرى جوائزها
وكلُّ سعي سيجزي الله ساعيه
لم يُبرم الأمر حتى يستبين لكم

إلا الذي دفع الدستور أو جَلِبَا^{١٧}
 تلقى ركابُ السُّرى من مثلها نصَبًا^{١٨}
 في موقف الفصل إلا الشَّعبُ مُنتخبًا
 إذا تمهَّل فوق الشوكِ أو وثبًا^{١٩}
 وسهَّل الغدُ في الأشياءِ ما صعبًا^{٢٠}
 لا تملئوا الشَّدقَ من تعريفها عجا
 تُحصون من مات أو تُحصون ما سلبًا؟^{٢١}
 يداً تؤلِّفها دُرًّا ومخشَلَبًا^{٢٢}
 من بينكم سَبَقُ الأنبياءِ والكتبا
 يدها ترتجلان الماءَ واللَّهبا^{٢٣}
 فاحكمْ هنالك أن العقلَ قد ذهبًا
 بل كان باطلها فيكم هو العجبا
 كنانةُ الله حَزْمًا يقطع الذنبا
 بأيِّ سيفٍ على يافوخها ضربًا؟^{٢٤}
 أم بالذي هزَّ يومَ الحربِ مُختضبًا؟
 من أربعين ينادي الويلَ والحربًا؟^{٢٥}
 ليس الصليبُ حديدًا كان، بل خشبا
 وكيف جاوز في سلطانه القُطبا
 وأنَّ للحق — لا للقوة — الغلبا

نلتَم جليلاً، ولا تعطونَ خردلَةً
 تمهَّدتْ عقباتٌ غيرُ هينةٍ
 وأقبلتْ عقباتٌ لا يذلُّها
 له غداً رأيُه فيها وحِكمَتُه
 كم صعبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ به
 ضمُّوا الجهودَ، وخلوها منكَرَةً
 أفي الوغى ورخى الهيجاءِ دائرةً
 خلَّوا الأكاليلَ للتاريخ، إن له
 أمرُ الرجالِ إليه، لا إلى نفرٍ
 أملى عليه الهوى والحقُّ، فاندفعتْ
 إذا رأيتَ الهوى في أمةٍ حكمًا
 قالوا: الحماية زالت، قلتُ: لا عجبُ
 رأسُ الحماية مقطوعٌ، فلا عِدَمْتُ
 لو تسألون (الأنبي) يومَ جَنَدَلِها:
 أبا لذي جرٍّ يومَ السَّلمِ مُتَشَحًّا
 أم بالتكاتِفِ حولَ الحقِّ في بلدٍ
 يا فاتحَ القدس، خلَّ السيفَ ناحيةً
 إذا نظرتَ إلى أين انتهت يدُه
 علمت أن وراءَ الضعفِ مقدرةً

هوامش

(١) لم يأل: لم يقصِّر.. قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء، فكم وراء جهاد الحياة من راحة وكم وراء الضعف من قوة.

(٢) اللبانة: الحاجة. والقشب: جمع قشيب: الجديد. وفي هذا البيت استفزاز للهم وبيان؛ لأن سبيل المجد طويل وميدانه متسع.

(٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وفي هذا البيت نوع من البيان المربي للأُم في نهوضها، فكثيراً ما يستفزُّ الطرب أناساً فيطير بهم، أو يستحكم اليأس منهم فيرديهم.

(٤) تثبت العين: تصحح، وفي هذا البيت تصوير للتردد والذعر والهلع والشك الذي يصيب الإنسان من أموره فلا يستطيع الاهتداء، ولا يستبين طريق الصواب.

(٥) الريب: جمع ريبة، مثل سدرية وسدر: الظن. وكم من رجل تسدُّ أمامه كوى الحياة وتضيق عليه الأرض بما رحبت ولا سبب لهذا إلا الشكوك والأوهام.

(٦) الخطُّ: موضع باليمامة ينسب إليه على لفظه، فيقال: رماح خطية، والرماح لا تنبت به ولكنه ساحل للسفن التي تحمل القنا إليه وتعمل به. وقال الخليل: إذا جعلت النسبة اسمًا لازمًا قلت: خطية (بكسر الخاء) ولم تذكر الرماح وهذا كما قالوا: ثياب قبطية (بالكسر) فإذا جعلوه اسمًا حذفوا الثياب وقالوا قبطيًا (بالضم) فرقًا بين الاسم والنسبة، وما أحسن أن تنتشر هذه الحكم بين أفراد أمتنا الناهضة حتى تعرف حقوقها وواجباتها.

(٧) أهبك جمع إهاب ككتاب وكتب والإهاب: الجلد.

(٨) بيّن في هذا البيت شاعرنا نوعًا من أنواع الصحبة هو خيرها وهو وحده المحمود عواقبه، وذلك النوع هو أن يصحب الحق — وهو السمع الكريم — صبر جميل على وثبات الباطل حتى يدمغه فإذا هو زاهق، والصبر من خير الفضائل التي هي جماع كل خير، ولهذا ذكر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وروي أنه كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا لم يفترقا حتى يوصي كل منهما أخاه بالصبر والحق.

(٩) أَلْجِئُوا: اضطروا وأكروهوا. ولجئوا: اعتصموا. وجل الشيء يجل (بالكسر) عظم، فهو جليل. وحزبهم الأمر يحزبهم من باب قتل أصابهم. ولعمري أن المفزع الوحيد عند وثبات الأحداث إنما هو في الاعتصام بالتعاون والقضاء على التحزّب.

(١٠) السرى: جمع سرية (بضم السين وفتحها)، يقال: سرينا سرية من الليل، وسرية.. قال أبو زيد: ويكون السرى أول الليل وأوسطه وآخره، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً واتساعاً، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. وكأن الشاعر أراد حفز الهمم وشحن العزائم لاجتماع صبح الآمال.

(١١) الراحة: بطن الكف، والجمع راحات وراح. قصد الشاعر في هذا البيت أن مصر أصبح بين يديها عهد جديد، وأن في يد مليكها عقداً وثيقاً، ومظهر كله استقلال البلاد الذي أعلنه جلالة الملك بعد أن عدا العادي زمناً طويلاً عليه.

(١٢) فسح: جمع فسحة، مثل غرفة وغرف. والرحب: جمع رحبة، مثل قسبة وقصب، وهي الساحة المنبسطة.

(١٣) يَدُّ الله: قدرة الله. والمناكب: جمع منكب كمجلس، وهو مجتمع رأس العضد والكثف. وعالج الأمر: باشره بمشقة. والمصرع من الباب: الشطر. والأرب: الحاجة. ولقد شاء الشاعر أن يصوّر جهاد الأمة وقد دجا ليل الحوادث، واستأسد العادي، والأمة تصابره، وتدافع الخطوب، وتلقي عنها نيرها، وتريد الإفلات من عنتها إلى حيث أبواب النصر.

(١٤) ما أحسن أن يودع الشاعر في ثنايا هذا البيت الأمل الواسع يدركه ذو الهمة الكبيرة ولو بعد حين.

(١٥) في هذا البيت شفاءً لما يصيب النفوس من ألم الإخفاق وصددمات الأيام، فلئن أعيان الإنسان شأن تلك الحياة فلن يعدل الخير العميم في دار النعيم؛ وبذلك يعدُّ المرء بإحدى الحسنين، وأن يذهب العرف بين الله والناس.

(١٦) لقد شاء أن تقيس الأمة أمرها بمقياس صحيح حتى تتجاوز الخطل.

(١٧) وفي هذا البيت أراد أن يضع بين يدي الأمة كل دقيق وجليل من أمرها، حتى تستبين حقيقة أمرها، فقال: إن ما جد، وإن كان جليلاً، إلا أنه قليل إذا قيس بحقوق الأمة الكاملة، ثم شاء أن يضع على عواتق رجال الأمة الأمور الخطيرة في حاضرها ومستقبلها، فقال: إن الأمر للدستور يرفع ما شاء ويجلب ما نفع.

(١٨) الركاب (بالكسر): المطي، الواحد: راحلة، من غير لفظها والسرى: السير ليلاً، جمع سرية مثل مدية ومدى. ونصباً: تعباً. وقد صوّر شاعرنا في هذا البيت ما قطعتة الأمة من مراحل جهادها في سبيل حريتها.

(١٩) في هذين البيتين يبين الشاعر ما للآراء المجتمعة من تصريف الأمور وقيادة الأمم وتهوين الصعاب، وسبيل ذلك اصطفاء نخبة رجالها إذا جدَّ الجدُّ وحزب الأمر، فإن شاءوا بحكمتهم جاوزوا الصعاب وتخطّوا شوك القتاد، وإن قعدت بهم همهم وأعوزتهم حكمتهم، ذاقوا وذاقوا الأمة عذاب الهون، وقَلَّبوها على جمر الغضا.

(٢٠) قصد الشاعر إلى أن يعيد النظر ليرى الدهر قلباً، والأحداث لا تبقى سمرماً، فلا يؤيسه الخطب الداهم، ويرجو في الغد ما أعجزه اليوم.

(٢١) يريد الشاعر أن يبين ما يعتور الأمم في نهوضها فيثنيها عن غايتها، ويعوق وثوبها، ثم هو بعد يأمر أمته بأن تحاذر الوقوع في هذا الشرِّ، ورأس تلك الآثام الاعتداد بالنفس، والإعجاب بالعمل، وانتفاخ الأوداج صلفاً وكبرياء، ثم شاء أن يضرب مثلاً بالجيش المقاتل، ينسى ما هو فيه من جلائل الأخطار، ويعمد إلى حطام فإن يحصيه

ويجمعه، فلا جرم أن يصيب هذا الجيش الفشل اللازم، ولقد أدّب الله المؤمنين أدبًا عاليًا حينما خالفوا محمد ﷺ ولاح لهم النصر، فأخذوا يجمعون الغنائم ويحصون الأسلاب؛ ففشلوا وندموا، وذلك مفصّل في سورة «آل عمران».

(٢٢) الأكاليل: جمع إكليل شبه عصابة تزين بالجوهر، ويُسمّى التاج إكليلًا. والمخشلب: الزجاج.

(٢٣) ترتجلان: تبدّئان من غير تهئية، وقد شاء الشاعر أن ينيى على أولئك الذين يضعون أنفسهم موضع التاريخ، فيكيلون الثناء، ويفحشون في الألقاب، ويخلطون بين المتناقضين.

(٢٤) جندلها: أرداها. واليافوخ: مقدّم الرأس.

(٢٥) حرب، كفرح: كئب واشتد غضبه، فهو حربٌ.

الله والعلم^١

لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه^١
يغار عليه، والذي هو واهبه؟^٢
فأتبعه لطفًا، فجَلَّتْ عواقبه^٣
فهل يتَّيه خلقه أو يُراقبه؟^٤
وتخبو مجاليه، وتطوى مواكبه؟^٥
وفيهام مصابيح الورى وكواكبه؟
إلى طُنْب الأَقْوَاسِ، والنصرُ ضاربه؟^٦
ويجمع من ذيل المَخِيلَةِ صاحبه؟^٧
وتنقص من أطرافهن مآربه؟^٨
فهلَّا تَأْتِي في الأمانِي خاطبه؟^٩
وما في حساب الله ما هو حاسبه
مشاركه عن أمرها، ومغاربه^{١٠}
وكاثر مَوْج البحر في البحر راكبه^{١١}
ولن يتهادى فوقها ما يقاربه^{١٢}

لمن ذلك الملك الذي عزَّ جانبُه؟
أُمْلُكُكَ يَا (داودُ)، والملكُ الذي
أراد به أمرًا، فجَلَّتْ صُدُورُه
رمى، واستردَّ السهمَ، والخلقُ غافلُ
أَيَبْطُلُ عيدُ الدهرِ من أجل دُمْلٍ
ويرجع بالقلب الكسير وفودُه
وتسمو يد الدهر ارتجالاً ببأسها
ويستغفر الشعبُ الفخورُ لربِّه
ويُحجِبُ ربُّ العيد ساعة عيده
ألا هكذا الدنيا، وذلك ودُّها
أعدَّ لها إدورْدُ أعيادَ تاجِه
مَشَتْ في الثرى أنباؤها، فتساءلت
وكاثر في البرِّ الحصى مَن يَجوبُه
إلى موكب لم تُخرج الأرض مثله

^١ نُظِّمَتْ هذه القصيدة بمناسبة حفلة تتويج الملك إدوارد السابع وتأجيل إقامة الحفلة لإصابة جلالاته
بدمل وذلك في سنة ١٩٠٢.

وشدَّت مغاويرَ الملوك ركائبه^{١٣}
 وتملأَ آفاقَ البحارِ مراكبه
 زمانٌ وشيكٌ ريبه ونوائبه^{١٤}
 إذا هو خوفٌ في الظنونِ مذهبه^{١٥}
 تجوبُ الثرى شرقًا وغربًا جوائبه^{١٦}
 سل الدهرَ: أيُّ الحادثينِ عجائبه؟^{١٧}
 وكيف تراخت في الفداءِ قواضيه؟^{١٨}
 وما ردها في البحرِ يومًا مُحاربَه؟^{١٩}
 وما عودته أن تفوتَ رغائبه^{٢٠}
 ومن فوقَ آرابِ الملوكِ مآربه^{٢١}
 ولا تاجٌ إلا أنتَ بالحقِ كاسبه^{٢٢}
 ومنك أياديه، ومنك مناقبه^{٢٣}
 على أمره في الأرض، والداءُ غالبه^{٢٤}
 وأسدُ الشرى تعنو له وتحاربَه؟^{٢٥}
 وهل حجبَ البابِ الممنعَ حاجبه؟^{٢٦}
 وساعفَ إلا بالصلاةِ أقاربَه؟^{٢٧}
 وكان سلاحِ النفسِ تغني تجاربَه^{٢٨}

إذا سار فيه سارت الناسُ خلفه
 تحيطُ به كالنملِ في البرِّ خيله
 نظامُ المجالي والمواكبِ حلّه
 فبيننا سبيلُ القومِ أمنٌ إلى المنى
 إذا جاءت الأعيادُ في كل مسمع
 رجاءٌ فلم يلبث، فحَوْفٌ فلم يدم
 فياليث شعري: أين كانت جنوده؟
 وردَّت على أعقابهن سفينه
 وكيف أفاتته الحوادثِ طلبه
 لك الملكُ يا من خَصَّ بالعزَّ ذاته
 فلا عرشَ إلا أنتَ وارثُ عزّه
 وآمنتُ بالعلمِ الذى أنتَ نورُه
 تؤامنُ من خوفٍ به كلُّ غالبٍ
 سلوا صاحبِ الملُكين: هل ملكِ القوى
 وهل رفعِ الداءَ العُضالَ وزيرُه؟
 وهل قدّمتَ إلا دعاةَ شعوبه
 هنالك كان العلمُ يُبلي بلاءه

وفي غيره شرُّ الورى ومعاطبه^{٢٩}
 كأصبعِ عيسى نحو مَيِّتٍ يخاطبه
 وأسهل من سيفِ اللّاحظِ مضاربَه^{٣٠}
 من الغربِ راجيه، من الشرقِ هائبه؟^{٣١}
 لألقتُ قناها في البلادِ كتابه^{٣٢}
 طبيبًا له بالأمس كان يصاحبه^{٣٣}
 وآمنتُ بالعلمِ الذي عزَّ طالبه^{٣٤}

كريمُ الظبّا، لا يقرب الشرَّ حدّه
 إذا مرَّ نحو المرءِ كان حياته
 وأيسرُ من جرحِ الصدودِ فعاله
 عجيبٌ!! يُرجى «مشرطًا» أو يهابه
 فلو تفتدى بالبيضِ والسُمرِ فديته
 ولو أن فوقِ العلمِ تاجًا لتوجوا
 فآمنتُ بالله الذي عزَّ شأنه

هوامش

- (١) عزَّ جانبه: قوي. وعظ الأملاك والناس: نصحهم وذكَّرههم بالعواقب.
- (٢) الملك الذي يغار عليه والذي هو واهبه: هو الله تعالى.
- (٣) جلَّتْ صدوره: عظمت. وصدور الأمر: جمع صدر، وصدر كل شيء: أوله. وعواقبه: جمع عاقبة، وهي آخر كل شيء أيضًا، وأتبعه لطفًا: ألحقه. والمعنى أن الله الذي وهب هذا الملك قضى فيه بأمر عظيم، هو موت الملكة فيكتوريا ولكنه لطف في هذا القضاء بتتويج إدوارد، فكانت عواقب اللطف عظيمة، كما كانت أوائل الخطب عظيمة.
- (٤) استردَّ السهم: ردَّه وأرجعه إليه، والألف والسين زائدتان. والغفلة: غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكُّره له، وقد غفل فهو غافل.
- (٥) يبطل عيد الدهر: يتعطل. تخبو: تُطفأ. ومجاليه: مواضعه، من جلا الأمر: وضع وانكشف. والمواكب: جمع موكب وهو القوم الراكبون للزينة.
- (٦) تسمو: تعلو. وارجل الأمر: ابتدأه من غير تهيئة قبل. والبأس: الشدَّة. والطنب: حبل الخباء.
- (٧) المخيلة: الكبر.
- (٨) يحجب: يمنع عن الناس. والمآرب: جمع مأربة، وهي الحاجة.
- (٩) الودُّ (مفتوح الواو ومضمومها ومكسورها): هو المودة. تأنى في الأمر: ترفَّق وتنظر. والأمانى: جمع أمنية، ما يتمناه المرء. الخاطب: الداعي إلى نفسه، من قولهم خطب المرأة دعا أهلها إلى تزويجها منه، والمراد أن مَنْ يطلب لنفسه مودة الدنيا ينبغي له أن يترفق في ذلك، فضمير خاطبه يرجع إلى «الود».
- (١٠) الثرى. التراب، والمراد الأرض. الأنباء: الأخبار، والضمير للأعياد. مشاركته ومغاريبه: أي مشارق الأرض ومغاربها. وأمرها: أي الأعياد أيضًا، بمعنى أن أنباء تلك الأعياد ذاعت في أقطار الأرض فتساءلت عنها مشارقها ومغاربها.
- (١١) كآثره: غالبه بالكثرة. والبرُّ: ضد البحر. والحصى: جمع الحصاة. وجاب البلاد يجوبها: قطعها، لكثرة المقبلين على تلك الأعياد صار مَنْ يجوبون منهم الأرض من الكثرة بحيث يغلبون الحصى إذا كآثروه، وكذلك راكبو البحر المقبلون عليها يغلبون موجه بالمكثرة.
- (١٢) يتهادى: يمشي مشيًا غير قوي متميلاً. وما يقاربه: أي ما يدانيه.

- (١٣) شَدَّ الشيء: أوثقه، ومنه شَدَّ الرحال. والمغاوير: جمع مغوار، وهو الكثير الهجوم على العدو لشجاعته. والركائب: جمع ركوبة، وهي كل ما رُكِبَ.
- (١٤) نظام الشيء: ملاكه وطريقته التي عليها يستقيم، وهو أيضاً الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. والمجالي: جمع مجلى. ووشيك. قريب. والريب هنا: ما يكره من الحوادث. والنوائب: جمع نائبة، وهي ما يصيب الإنسان من مكروه.
- (١٥) بينا: كبينما، ظرف زمان للمفاجأة، وقيل هما للابتداء، وعلى كل حال تقع بعدهما جملة اسمية أو فعلية، ويحتاجان إلى جواب يتم به المعنى. والسبيل: الطريق. وأمن: مأمونة. والظنون: جمع ظن وهو غير اليقين. والمذاهب: الطرق والمسالك، جمع مذهب.
- (١٦) المسمع: الأذن. وجاب الأرض يجوبها: قطعها، ومنه الجواب.
- (١٧) الرجاء: الأمل. ولم يلبث: لم يمكث.
- (١٨) شعري: علمي، من شعر بالشيء شعراً إذا فطن إليه وعلمه، ويا ليت شعري: أي ليتني علمت. وتراخت: أبطأت. وقواضيه: سيوفه القواطع.
- (١٩) رَدَّتْ: أرجعت. وأعقاب: جمع عقب وهو مؤخر القدم، يقال: رجع على عقبه، ورجعوا على أعقابهم: أي على الطريق الذي كانوا يضعون فيه أقدامهم. والسفين: جمع سفينة.
- (٢٠) أفانته طلبته: أذهبتها عنه. والطلبة: الشيء المطلوب، وسكون اللام لضرورة الشعر والرغائب: جمع رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه، والعطاء الكثير أيضاً.
- (٢١) خصَّه بالشيء: جعله له دون سواه. والآراب: جمع أرب، وهو الحاجة.
- (٢٢) العرش: سرير الملك. والتاج: أصله للعجم، يقال: تُوِّجَ إذا لبس التاج، كما تقول العرب: عُمِمَ إذا لبس العمامة، استعمل على وجه العموم. وكاسبه: نائله ورابحه.
- (٢٣) أياديه: جمع يد، وهي هنا النعمة. ومناقبه: جمع منقبة، وهي الفعل الطيب.
- (٢٤) تَوَّامَن: أي تعطي الأمان. وكل غالب على أمره: أي لا يعجزه شيء.
- (٢٥) القوى: جمع قوة، ضد الضعف. وتعنو: تخضع وتذل.
- (٢٦) الداء العضال: الشديد الذي يعيي الأطباء. والباب المنع: الذي لا يرام.
- (٢٧) ساعف: ساعد.
- (٢٨) يبلي بلاءه: يجتهد اجتهداه. والتجارب: جمع تجربة، من جرَّبت الشيء إذا اختبرته مرة بعد أخرى.

(٢٩) كريم الظبا: من إضافة الصفة للموصوف، أي الظبا الكريمة، والظبا: جمع ظبة وهي حدّ السيف أو السنان أو نحو ذلك، والمراد السيف أو نحوه ليستقيم المعنى فيكون مجازاً من إطلاق اسم الجزء على الكل. والمعاطب: المهالك، جمع معطب. (٣٠) الصدود: الإعراض. وفعاله: جمع فعل. واللحاظ: جمع لحظ. ومضاربه: جمع مضرب.

(٣١) عجيب: صفة موصوف مقدّر، أي أمر عجيب. ويرجى: أي يرجو. والمشرط: الموضع الذي يفتح به الطبيب الجراحات. ويهابه: يخافه. و«من» في «من الغرب راجيه.. إلخ»: فاعل «يرجى». يقول إنه لأمر عجيب أن هذا الملك الذي يرجوه الغرب ويخافه الشرق، يتعلق رجاؤه أو خوفه بمشرط الطبيب الذي يفتح له دمله.

(٣٢) تفتدي: تستنقذ بالفدية. والبيض والسمر: السيوف والرماح. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. والكتائب: جمع كتيبة وهي الطائفة من الجيش مجتمعة.

(٣٣) توجّوه: ألبسوه التاج.

(٣٤) عزّ شأنه: قوي. وطالب العلم: محصّله.

ذكرى كانارفون

كل امرئ رهنٌ بطَيِّ كتابه^١
عند اللقاء، كمن يموت بِنابه^٢
أو لم ينم، فالطبُّ من أذنبه
هَمْ نَسِيْنٌ مَجِيئُهُ بَذَاهِبُهُ^٣
أَتَتِ الْحَيَاةَ وَشَغَلَهَا مِنْ بَابِهِ^٤
وتضيقُ عنه على قصير عذابه^٥
كثَرَ النَّهَارُ عَلَيْهِ فِي إِتْعَابِهِ^٦
ودواءُ هذا الجسمِ من أَوْصَابِهِ^٧
خَلَدَ الرِّجَالَ، وبِالْفِعَالِ النَّابِهُ^٨
واستولت الدنيا على آدابه^٩
وبِمَا يُجِلُّ النَّاسُ مِنْ أَنْسَابِهِ^{١٠}
وِينَامُ مِلْءَ الْجَفْنِ عَنْ غُيَّابِهِ^{١١}
دِيْبَا جَتِيَّهِ، مُعَمَّرًا بِخِرَابِهِ^{١٢}
فِي الْجَوِّ صَائِدًا بَاذِهِ وَعُقَابِهِ^{١٣}
خُلِقَتْ لِسَيْفِ الْهِنْدِ أَوْ لَذُبَابِهِ^{١٤}
بِكْرِيْمَتِيَّهِ، وَلَامَسَتْ بِلُعَابِهِ^{١٥}
قَالُوا بِبَاطِلِ عِلْمِهِمْ وَكَذَابِهِ^{١٦}
هِيَ مِنْ ضَنَائِنِ عِلْمِهِ وَغِيَابِهِ^{١٧}

في الموت ما أعيًا وفي أسبابه
أَسَدٌ لَعَمْرُكَ، مَنْ يَمُوتُ بُظْفَرِهِ
إِنْ نَامَ عَنْكَ، فَكُلُّ طَبِّ نَافِعٌ
دَاءُ النَّفُوسِ، وَكُلُّ دَاءٍ قَبْلَهُ
النَّفْسُ حَرْبُ الْمَوْتِ، إِلَّا أَنَّهَا
النَّفْسُ حَرْبٌ عَلَى طَوِيلِ بِلَائِهَا
هُوَ مَنْزِلُ السَّارِي، وَرَاحَةُ رَائِحِ
وَشَفَاءُ هَذِي الرُّوحِ مِنْ آلَمِهَا
مَنْ سَرَّهُ أَلَا يَمُوتَ، فَبِالْعِلَا
مَا مَاتَ مَنْ حَازَ الثَّرَى آثَارَهُ
قُلْ لِلْمُدِلِّ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ
هَذَا الْأَدِيمُ يَصْدُ عَنْ حُضَارِهِ
أَلَّا فَتَى يَمْشِي عَلَيْهِ مُجَدِّدًا
صَادَتْ بِقَارِعَةِ الصَّعِيدِ بَعُوضَةٌ
وَأَصَابَ حُرْطُومُ الذَّبَابَةِ صَفْحَةٌ
طَارَتْ بِخَافِيَةِ الْقَضَاءِ، وَرَأَتْ
لَا تَسْمَعَنَّ لِعَصْبَةِ الْأَرْوَاحِ مَا
الرُّوحُ لِلرَّحْمَنِ جَلٌّ جَلَّالُهُ

غلبوا على أعصابهم، فتوهموا أوهام مغلوب على أعصابه

ما أبَ جَبَّارُ القُرُونِ، وإنَّما
فذرّوه في بلد العجائب مُغَمَّداً
المستبدُّ يطاقُ في ناووسه
والفردُ يؤمِّنُ شرُّه في قبره
هل كان (توتَنخُ) تَقْمَصُ روحُه
أو كان يَجْزِيكَ الردى عن صُحْبَةِ
تالله لو أهدي لك الهرمين من
أنت البشير به، وقيِّم قصره
أَعْلَمْتَ أقوامَ الزمان مكانه
لولا بَنانُك في طلاس تربه

يومُ الحساب يكون يومَ إِيابه^{١٨}
لا تشهروه كأمس فوق رقابه^{١٩}
لا تحت تاجيه وفوق وثابه^{٢٠}
كالسيف نام الشرُّ خلفَ قرابه^{٢١}
قُمَصَ البعوض ومُسْتَحَسَّ إهابه؟^{٢٢}
وهو القديم وفاؤه لصاحبه^{٢٣}
ذهب، لكان أقلُّ ما تُجْزَى به
ومُقَدِّم النبلاء من حُجَّابه^{٢٤}
وحَشَدَتَّهم في ساحه ورحابه^{٢٥}
ما زاد في شرف على أترابه^{٢٦}

أخنى الجِمامُ على ابن هِمَّةٍ نفسه
الجائب الصخر العتيد بحاجر
لو زایل الموتى محاجرهم به
لم يألِه صبراً، ولم يَنِ هِمَّةً
أفضى إلى خَتَمَ الزمان ففضّه
وطوى القرون القَهْقَرى، حتى أتى
المَنْدَلُ الفَيَّاحُ عودُ سريره
وكان راح القاطفين فرغن من
جدث حوى ما ضاق (غُمدانُ) به
بنيانُ عُمرانٍ، وصَرْحُ حضارةٍ
فترى الزمان هناك قبلَ مشيبه
وتحسُّ ثَمَّ العلم عند عُبابه

في المجد، والبانى على أحسابه^{٢٧}
دبَّ الزمانُ وشبَّ في أسرابه^{٢٨}
وتلَفَّتوا، لتحيروا كضبابه^{٢٩}
حتى انثنى بكنوزه ورغابه^{٣٠}
وحبا إلى التاريخ في محرابه^{٣١}
فرعونَ بين طعامه وشرابه^{٣٢}
واللؤلؤ اللماحُ وشي ثيابه^{٣٣}
أثماره صُبْحاً ومن أرطابه^{٣٤}
من هالة المُلِكِ الجسيم وغابه^{٣٥}
في القبر يلتقيان في أطنابه^{٣٦}
مثلَ الزمانِ اليومَ بعد شبابه
تحت الثرى والفنَّ عند عجابه^{٣٧}

يا صاحبَ الأخرى، بلغتَ محلَّةً
نُزِّلَ أفاقُ بجانبيه من الهوى
نام العدوُّ لديه عن أحقادِه
الراحةُ الكبرى مِلاك أديمه
هي من أخي الدنيا مُناخُ ركابه^{٣٨}
من لا يُفِيقُ، وجدَّ من تلعباه^{٣٩}
وسلا الصديقُ به هوى أحبابه^{٤٠}
والسلوةُ الطُولى قِوامُ ترابه^{٤١}

* * *

(وادي الملوك) بكثَّ عليكَ عيونه
ألقي بياضَ الغيمِ عن أعطافه
يأسَى على حرباءِ شمسِ نهاره
ويودُّ لو أَلِيسَت من بَرْدِيَّه
نوّهت في الدنيا به، ورفَعته
أخرجت من قبرِ كتابِ حضارةٍ
فصلّته، فالبرقُ في إيجازه
طلعا على (لوزان) والدنيا بها
جئتُ الشعوبَ المحسنين بشافع
فرفعتُ رُكنًا للقضية، لم يكن
بمُرَقَرَق كالْمزِنِ في تَسْكا به^{٤٢}
حزنًا، وأقبل في سوادِ سحابه^{٤٣}
ونزيل قِيَعَتِه، وجار سَرابه^{٤٤}
بُرْدَيْنِ، ثم دُفِنَت بين شعباه^{٤٥}
فوق الأديم، بطاحه، وهضابه^{٤٦}
الفنُّ والإعجازُ من أبوابه^{٤٧}
يُبْنَى البريدُ عليه في إطنابه^{٤٨}
وعلى (المحيط) وما وراءَ عُبابه^{٤٩}
مِنْ مِثْل مُتَقَنٍ فنَّهم ولُبابه^{٥٠}
(سَحْبَانُ) يرفَعُه بسحر خطابه^{٥١}

هوامش

- (١) ما أعيا: أي ما أتعب وأعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه: أي باق في الحياة كبقاء الرهن حتى ينتهي أجله.
- (٢) لعمرك: يقول النحاة: إنه قسم، واللام فيه لتوكيد الابتداء، وهو مبتدأ خبره محذوف، أي لعمرك قسمي، أو ما أقسم به.
- (٣) الداء: العلة والمرض. ونسين: أي النفوس.
- (٤) حرب الموت: أي حرب للموت، والمراد أنها تكرهه وتدافعه. أتت، جاءت، والضمير في «شغلها» للحياة، والضمير في «بابه» للموت.
- (٥) بلاء الحياة: ما فيها من ألم وهمٍّ، أي أن النفس تسع الحياة وتحتملها مع ما فيها من هموم وآلام لا تنتهي، وتضيق عن الموت وتأباه وهو ليس فيه إلا شيء من الألم قصير.

(٦) هو: أي الموت. والساري: الذي يقطع الليل سيرًا. والرائح: الذهاب. وإتعب: مصدر أتعب.

(٧) وشفاء هذه الروح، إلى آخر البيت: متَّصل بالبيت الذي قبله. والأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.

(٨) العلا: إمَّا الرفعة والشرف، وإمَّا جمع عليا: وهي المنزلة الرفيعة. الفعال النابه: الفعل الشريف المذكور.

(٩) حاز الشيء ضمَّه إليه. والثرى: التراب الندي. والآثار: جمع أثر، وهو ما بقي من الشيء. واستولت على آدابه: غلبت عليها وتمكَّنت منها. والآداب: جمع أدب، وهو كل ما يتحلَّى به الإنسان من فضيلة.

(١٠) المدلل بماله.. إلخ: الذي يتيه به على أقرانه. والجاه: القدر والمنزلة. ويجلُّ: يعظم.

(١١) الأديم: الجلد المدبوغ، وقد يطلق على وجه الأرض، وهو المراد هنا. يصدُّ عن حضاره: يعرض عنهم، والحضار: جمع حاضر. وجفن العين: غطاؤها من أعلاها وأسفلها، والمراد العين نفسها. والغَيَّاب: جمع غائب.

(١٢) الديباجتان: الخدَّان، أي إلا فتى يمشي على وجه الأرض يجدد خديه والمراد ما يكون له كالخدَّين لوجه الإنسان.

(١٣) القارعة: الشديدة من شدائد الدهر. والصعيد: بلاد مصر العليا. والباز والعقاب: من جوارح الطير، يقول: إن تلك البعوضة صادت في الجو مَنْ كان يصيد بازاته وعقبانه.

(١٤) الخرطوم: الأنف. والمراد بالذبابة: تلك البعوضة نفسها. وصفحة كل شيء: جانبه. وذباب السيف: طرفه الذي يضرب به.

(١٥) الخافية: واحدة الخوافي، وهي ما دون الريشات العشر من مقدَّم الجناح. والقضاء هنا: معناه الصنع والتقدير، والمراد به قضاء الله. ويقال: رأراً بعينيه، إذا حدد النظر أو إذا أدارهما. والكريمتان: العينان. واللعب: ما يسيل من الفم. والضمير في «طارت» يرجع إلى «الذبابة».

(١٦) العصبية من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين، والمراد هنا الجماعة بغير عدد. والكذاب: الكذب.

(١٧) ضنائن علمه: أي خصائص علمه مما اختصَّ به نفسه فلا يعلم به سواه. وغيباه: إمَّا جمع غيب وهو ما غاب عنك من الأمر، وإمَّا مصدر غاب يغيب وهو كالغيب في معناه.

(١٨) آب: رجع. جبَّار القرون: يريد توت عنخ آمون. ويوم الحساب: اليوم الآخر. (١٩) ذروه: اتركوه. بلد العجائب: الأقصر، لما فيها من عجائب الآثار. مغمداً: أي باقياً في قبره كما يبقى السيف في غمده. لا تشهروه (من شهر السيف إذا سلّه): يعني لا تخرجه محمولاً على الرقاب كما كان يحمل على الرقاب التي يملكها وهو حي. (٢٠) المستبد: من استبد بالشيء إذا انفرد به. يطاق: من أطاق الشيء إذا قدر عليه. والناووس: هو مقبرة النصارى خاصة، وقد يستعمل لتابوت الميت. الوثاب: السرير الذي لا يبرح الملك عليه.

(٢١) قراب السيف: قيل هو غمده، وقيل: هو وعاء يوضع فيه السيف بغمده، وقيل غير ذلك.

(٢٢) تقمَّص روحه قمص البعوض: أي لبسها، والقمص: جمع قميص. المستخس: الخسيس. الإهاب: الجلد الذي لم يدبغ. (٢٣) يجزيك: يقضيه لك ويثيبك عليه. الردى: الهلاك. الوفاء: ضد الغدر. الصحاب: جمع صاحب.

(٢٤) البشير: المبشِّر بالخير، قيم القصر: سائس أمره. النبلاء: جمع نبيل وهو الذكي النجيب. الحجاب: جمع حاجب.

(٢٥) أقوام: جمع قوم. حشدتهم: جمعتهم. الساح: جمع ساحة وهي الموضع المتَّسع أمام الدار ونحوها. الرحاب جمع رحبة وهي الساحة.

(٢٦) البنان: أطراف الأصابع ومفردها بنانة. الترب: التراب. أترابه: لداته، جمع ترب وهم من ولدوا معه.

(٢٧) أحنى عليه: أهلكه. الحمام: الموت. الأحساب: جمع حسب، وهو ما للرجل من مفاخر الآباء، أو هو دين الرجل أو ماله.

(٢٨) العتيد: الحاضر المهيأ. دبَّ: يقال دبَّ الصبي إذا مشى. شبَّ: أدرك شبيبته. الأسراب: جمع سرب وهو البيت تحت الأرض.

(٢٩) زایل: فارق. والموتى: جمع ميت. محاجرهم: النواحي التي اتخذت لهم من الأرض، أو هي القبور في الأرض المتحرَّرة، الضباب: جمع ضب.

(٣٠) لم يألِه صبرًا: أي لم يقصر في حمله على الصبر. ولم ين همة: لم تضعف همته، من ونى في الأمر إذا ضعف عنه. انثنى: رجع. الكنوز: جمع كنز. الرغاب: جمع رغبة، وهي هنا الشيء المرغوب فيه، وتكون أيضًا بمعنى العطاء الكثير.

(٣١) أفضى إلى ختم الزمان: وصل إليه. فضّه: كسره. حبا إلى التاريخ: دنا منه. المحراب: صدر المجلس، وقيل: هو أشرف المجالس، ومنه محراب الصلاة.

(٣٢) طوى القرون: قطعها. والقرون: جمع قرن، وهو الجيل من الناس، مدّته ثمانون سنة وقيل أكثر وقيل أقل. القهقري: الرجوع، أي طوى القرون حتى رجع بها القهقري.

(٣٣) المندل: العود المعروف بطيب رائحته. الفيّاح: الفياض بنشره وطيبه. اللماح: الشديد اللمعان. وشي الثوب: نقشه وتحسينه. والضمير في «سريه» و«ثيابه» لفرعون.

(٣٤) الرّاح: جمع راحة وهي الكف. القاطفين: جمع قاطف وهو من يجتني الثمر. أثمار. جمع ثمر. أرطاب: جمع رطب وهو ما نضج من البلح، والمراد بالأنثمار والأرطاب: التحف والآثار الغالية التي وُجِدَت في قبر فرعون وهي لم تزل على جدتها كأنها مصنوعة الآن.

(٣٥) الجذث: القبر. حوى الشيء: أحرزه. غمدان: قصر كان مشهورًا، يرجحون أن يشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ جد بلقيس ملكة اليمن هو الذي بناه، وجعل له أربعة وجوه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وبني داخله قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين أربعون ذراعًا، وقيل: كان ارتفاع السقف مائتي ذراع. الهالة: دارة القمر. الغاب: الرماح، جمع غابة.

(٣٦) العمران: اسم لما يعمر به المكان وتحسن حاله. الصرح: القصر، وكل بناء مرتفع. الحضارة: الإقامة في الحضر. الأطناب: جمع طناب وهو الحبل الذي يشدُّ به السرادق، ويستعمل مجازًا في الناحية وهي المراد هنا.

(٣٧) تحسّ العلم: تشعر به. ثم ظرف مكان بمعنى هناك. العباب: ارتفاع السيل وكثرته. العجاب: ما جاوز حد العجب.

(٣٨) المحلّة: المنزل. المُنَاخ: مبرك الإبل، ومحل الإقامة مجازًا. الركاب: الإبل والأخرى: يريد بها الآخرة، والخطاب للورد المرثي، يقول: بلغت منزلًا هو نهاية المسير لأهل الدنيا وهو القبر.

(٣٩) النزل: ما هيئ للضيف أن ينزل عليه. أفاق صحا واستيقظ. الهوى: إرادة النفس غير المحمودة. التلعاب: اللعب.

(٤٠) الأحقاد: جمع حقد وهو الغضب الثابت. سلا الشيء: نسبه وغفل عن ذكره. الهوى في هذا البيت: العشق.

(٤١) ملاك الشيء: قوامه. السلوة: السلو. الطولى: مؤنث الأطول، أي العظيمة الطول. القوام: ما يقوم به.

(٤٢) دمع مرقوق: أي دائر في حملاق العين. المزن: السحاب البيض، جمع مزنة. التسكاب: الانسكاب.

(٤٣) الغيم: السحاب، واحدته غيمة. الأعطاف: جمع عطف وهو جانب الشيء، وعطف الرجل جانبه من رأسه إلى وركيه.

(٤٤) الحرباء: اسم للذكر، والأنثى حرباءة، وهي حيوان اسمه «أم حبين» يستقبل الشمس ويدور معها كيف دارت ويتلَوَّن بحرهما ألواناً مختلفة، وهو يضرب مثلاً في التقلُّب. القيعه: قيل جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال، وقيل هي مفرد في معنى القاع. السراب: ما تراه نصف النهار من شدة الحر كأنه ماء يلصق بالأرض.

(٤٥) البردي: نبات تعمل منه الحصر، وهو ينبت كثيراً في مناطق الماء. بردين مثنى برد وهو ثوب مخطط، والمراد هنا مطلق ثوب. الشعاب: جمع شعب وهو الطريق المنفرج بين جبلين. والضماير في «برديه» و«شعابه» يرجع إلى وادي الملوك.

(٤٦) نوه. به: رفع ذكره وعظمه. الأديم: هنا وجه الأرض. البطاح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. الهضاب: جمع هضبة وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

(٤٧) الفنُّ: في الأصل النوع من الشيء، ثم توسَّعوا فأرادوا به الصناعة والعلم وما إليهما. والإعجاز: مصدر أعجز، وهو أداء المعنى بطريق لا قدرة لأحد عليها.

(٤٨) فصلته: بينته. والبرق: وميض السحاب، واستعمل الآن في نقل الرسائل بـ «التلغراف» مجازاً لسرعة النقل، كأنه الوميض. البريد: المسافة التي يقطعها الرسول، والمراد به الآن نقل الرسائل بواسطة «البوستة». الإيجاز: اختصار الكلام. والإطناب: إطالته.

(٤٩) طلعا: أي البريد والبرق. لوزان: مدينة في سويسرة كان بها مجلس الدول الذي تمَّ فيه الصلح بين تركيا واليونان سنة ١٩٢٢، وإلى هذا المجلس يشير بقوله (والدنيا بها). المحيط: البحر الذي يحيط باليابسة. وما وراء عبابه: بلاد أمريكا التي

يحيط بها المحيطان المتجمدان من الشمال والجنوب، والمحيطان الأطلسي والهادي من الشرق والغرب، والمعنى أن البرق والبريد طلعا على العالم المتحضر كله بخير تلك الآثار التي وجدت في القبر.

(٥٠) الشافع: مَنْ يعاونك عند غيرك أو يسعى لك في مطلبه. المتقن: المحكم. اللباب: المختار الخالص من كل شيء.

(٥١) الركن: الجانب الأقوى من الشيء. سحبان: رجل من وائل كان خطيباً فصيحاً، ويضرب به المثل في ذلك، فيقال: «أخطب من سحبان».

أيها العمال

أيُّها العمالُ، أَفَنُوا الـ
واعمروا الأرضَ، فلولا
إن لي نصْحًا إليكم
في زمان غَيِّ النـا
أين أنتم من حدود
قَلَدوه الأثرَ المُنْعـ
وَكَسَوْهُ أَبَدَ الدهـ
أَتَقْنُوا الصنْعَةَ، حتـى
إن للمتقين عند
أَتَقْنُوا، يُحِبِّبُكُمُ اللّهُ،
أرضيتم أن تُرى (مصـ
بعد ما كانت سماءً

عمرَ كَدًا واكتسابـا
سعيكم أَمَسَتْ يَبابـا¹
إن أَدُنْتُمْ وَعِتابـا
صَحُّ فيه، أو تغابى
خَلَدُوا هذا الترابـا؟
جِزْ، والفنُّ العُجـابـا
رَ من الفخر ثيابـا
أخذوا الخُلْدَ اغتصابـا
الله والناسِ ثوابـا
ويرفَعكم جنابـا
رُ) من الفن خرابـا؟
للصناعاتِ وغابـا؟

* * *

أيها الجمعُ، لقد صرـ
فكنِ الحُرَّ اختيـارًا
إن للقوم لعيُنًا
فتوقع أن يقولوا:

تَ من المجلس قابـا²
وكنِ الحُرَّ انتخـابـا
ليس تَأْلوكَ ارتقابـا
مَنْ عن العمالِ نابـا؟

ليس بالأمر جديرًا
أو سخا بالمال، أو قدَّ
أو رأى أُمِّيَّةً، فاحـ
فتخَيَّرَ كُلَّ من شَبَّ
واذكِرِ الْأَنْصَارَ بِالْأَمـ
أيها الغادون كالنحـ
في بكور الطير للرز
اطلبوا الحقَّ برفق
واستقيموا يفتحِ اللهُ
اهجروا الخمر تطيعوا اللهَ
إنها رجسٌ، فطُوبَى
تُرْعِشُ الأيدي، ومن ير
إنما العاقلُ مَنْ يجـ
فاذكروا يومَ مَشِيْبٍ
إنَّ للسنِّ لهمَّا
فاجعلوا من مالكم
واذكروا في الصحة الدا
واجعلوا المال ليومٍ
قد دعاكم ذنبُ الهيبـ
هي طاووسٌ، وهل أحـ

كُلُّ مَنْ أَلْقَى خطابا
م جاهاً وانتسابا
تلب الجهل اختلابا
على الصدق وشابا
س، ولا تَنْسَ الصُّحَابا
لِ ارتيابًا وطلابا
قِ مجيئًا وذهابا
واجعلوا الواجبَ دابا^٢
لكم بابًا فبابا
أو تُرضوا الكتابا
لامرئٍ كف وتابا
عش من الصناعِ خابا
علٌ للدهر حسابا
فيه تَبْكون الشبابا
حين تعلو وعذابا
للشيب والضعفِ نصابا
ء إذا ما السُّقْمُ نابا
فيه تَلْقَوْنَ اغتصابا
ئبة داع فأصابا
سنه إلا الذُّنَابَى؟

هوامش

- (١) الأرض اليباب: الخراب.
- (٢) يريد بالمجلس: دار النيابة.
- (٣) أي دأبا، وخففت للضرورة.

نِجَاة^١

هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّمَا
هَنِيئًا لَطَهُ، وَالكِتَابِ، وَأَمَةٍ
أَخَذَتْ عَلَى الْأَقْدَارِ عَهْدًا وَمَوْثِقًا
وَمَنْ يَكُ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ وَثَوِيهِ
يَكَادُ يَسِيرُ الْبَيْتُ شُكْرًا لِرَبِّهِ
وَتَسْتَوْهَبُ الصَّفَحَ الْمَسَاجِدُ خُشْعًا
وَتَسْتَغْفِرُ الْأَرْضُ الْخَصِيبُ وَمَا جَنَّتْ
وَتُثْنِي مِنَ الْجَرْحَى عَلَيْكَ جِرَاحُهُمْ
ضَحَكَتَ مِنَ الْأَهْوَالِ، ثُمَّ بِكَيْتِهِمْ
تُثَابُ بِغَالِيهِ، وَتُجْزَى بِطُهْرِهِ
وَمَا كُنْتَ تُحْيِيهِمْ، فَكُلُّهُمْ لِرَبِّهِمْ
رَمْتَهُمْ بِسَهْمِ الْغَدْرِ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ
تَبْرًا عِيسَى مِنْهُمْ وَصِحَابَهُ

نَجَاتُكَ لِلدَّيْنِ الْحَنِيفِ نِجَاةُ^١
بِقَاؤُكَ إِبْقَاءً لَهَا وَحْيَاةُ^٢
فَلَسْتَ الَّذِي تَرْقَى إِلَيْهِ أَذَاةُ^٣
تَجْزُهُ إِلَى أَعْدَائِهِ الرَّمِيَّاتُ^٤
إِلَيْكَ، وَيَسْعَى هَاتِفًا عِرْفَاتُ^٥
وَتَبْسُطُ رَاحَ التَّوْبَةِ الْجُمُعَاتُ^٦
وَلَكِنْ سَقَاهَا قَاتِلُونَ جِنَاةُ^٧
وَتَأْتِي مِنَ الْقَتْلَى لَكَ الدَّعَوَاتُ^٨
بَدْمَعِ جَرَتْ فِي إِثْرِهِ الرَّحْمَاتُ^٩
إِلَى الْبَعْثِ أَشْلَاءُ لَهُمْ وَرُفَاتُ^{١٠}
فَمَا مَاتَ قَوْمٌ فِي سَبِيلِكَ مَاتُوا^{١١}
عَصَابَةُ شَرٍّ لِلصَّلَاةِ عِدَاةُ^{١٢}
أَتَّبَاعُ عِيسَى نِي الْحَنَانِ جُفَاةُ؟^{١٣}

^١ أَلْقِيَتْ عَلَى جَلَالَةِ الْخَلِيفَةِ قَذِيفَةً فِي سَبْتِمَبْرِ سَنَةِ ١٩٠٥، ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ النِّجَاةَ مِنْ شَرِّهَا؛
فَكَتَبَ الشَّاعِرُ يَهْنَةً.

يُعَادُونَ دِينًا، لَا يُعَادُونَ دَوْلَةً
 وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا، وَلَا فِي حَقُوقِهَا
 بَأْيٍ فَوَادٍ تَلْتَقِي الْهَوْلَ ثَابِتًا
 إِذَا زُلْزِلَتْ مِنْ حَوْلِكَ الْأَرْضُ؛ رَادَهَا
 وَإِنْ خَرَجْتَ نَارًا فَكَانَتْ جَهَنَّمَا
 وَتَرْتَجُّ مِنْهَا لُجَّةً، وَمَدِينَةً
 تَمْشِيَتْ فِي بُرْدِ الْخَلِيلِ، فَخَضَّتْهَا
 وَسَرَتْ وَمِلءُ الْأَرْضِ حَوْلَكَ أَذْرُعُ
 ضُحُوكًا، وَأَصْنَافُ الْمَنَايَا عَوَابِسُ
 يَحُوطُكَ إِنْ خَانَ الْحُمَاةَ انْتِبَاهُهُمْ
 تَشِيرُ بِوَجْهِ أَحْمَدِيٍّ، مُنَوَّرِ
 يَحْيِي الرِّعَايَا، وَالْقَضَاءُ مُهْلَلِ
 نَجَاتِكَ نُعْمَى لِلَّهِ سَنِيَّةُ
 فَصِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثَنَاءَهَا
 إِذَا لَمْ يُفْتِنَا مِنْ وَجُودِكَ فَائَتْ
 بَلُونَاكَ يَقْظَانِ الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا
 سَهْرَتَ، وَلَذَّ النَّوْمُ — وَهُوَ مَنِيَّةُ —
 فَلَوْلَاكَ مُلْكُ الْمُسْلِمِينَ مُضِيْعُ
 لَقَدْ زَهَبَتْ رِيَائُهُمْ غَيْرَ رَايَةٍ
 تَظَلُّ عَلَى الْأَيَّامِ غَرَاءَ، حُرَّةُ
 حَنِيْفِيَّةُ، قَدْ عَزَّهَا، وَأَعَزَّهَا
 حَمَاهَا، وَأَسْمَاهَا عَلَى الدَّهْرِ مِنْهُمْ
 غَمَائِمُ فِي مَحَلِّ السَّنِينَ، هَوَاطِلُ
 تَهَادَتْ سَلَامًا فِي ذُرَاكِ مَطِيفَةٍ
 تَمُوتُ سِبَاغُ الْجَوِّ غَرَّتْ حَيَالُهَا
 سَنَنْتَ اعْتِدَالَ الدَّهْرِ فِي أَمْرِ أَهْلِهِ
 فَأَنْتَ غَمَامُ، وَالزَّمَانُ خَمِيلَةٌ

لَقَدْ كَذَبْتَ دَعْوَى لَهُمْ وَشَكَاةُ
 إِذَا قِيلَ: طَلَّابُ الْحَقُوقِ بُغَاةُ
 وَمَا لِقُلُوبِ الْعَالَمِينَ ثَبَاتُ؟
 وَقَارُكَ حَتَّى تَسْكُنَ الْجَنَابَاتُ
 تُغْذِي بِأَجْسَادِ الْوَرَى وَثُقَاتُ
 وَتَصَلَّى نَوَاحٍ حَرَّهَا، وَجِهَاتُ
 سَلَامًا وَبَرْدًا حَوْلِكَ الْغَمَرَاتُ
 وَدَرْعُ قَلْبٍ خَاشِعُ وَصَلَاةُ
 وَقُورًا، وَأَنْوَاعُ الْحُتُوفِ طُغَاةُ
 مَلَائِكُ مِنْ عِنْدِ الْإِلَهِ حُمَاةُ
 عَيُونُ الْبَرَايَا فِيهِ مُنْحَسِرَاتُ
 يَحْيِيهِ، وَالْأَقْدَارُ مَعْتَذِرَاتُ
 لَهَا فِيكَ شُكْرٌ وَاجِبٌ وَزَكَاةُ
 مَآثِرُ تَحْيِي الْأَرْضِ وَهِيَ مَوَاتُ
 فَلَيْسَ لِأَمَالِ النُّفُوسِ فَوَاتُ
 إِذَا ضَيَّعَ الصَّيْدَ الْمُلُوكُ سُبَاتُ
 رَعَايَا تَوَلَّاهَا الْهَوَى وَرُعَاةُ
 وَلَوْلَاكَ شَمْلُ الْمُسْلِمِينَ شَتَاتُ
 لَهَا النُّصْرُ وَسَمٌّ، وَالْفَتْوحُ شِيَاتُ
 مُحَجَّلَةٌ فِي ظِلِّهَا الْغَزَوَاتُ
 ثَلَاثُونَ مَلَكًا، فَاتِحُونَ، غُزَاةُ
 مَلُوكُ عَلَى أَمْلَاكِهِ سَرَواتُ
 مَصَابِيحُ فِي لَيْلِ الشُّكُوكِ، هُدَاةُ
 لَهَا رَغْبَاتُ الْخَلْقِ، وَالرَّهْبَاتُ
 وَتَحْيَا نَفُوسُ الْخَلْقِ وَالْمُهْجَاتُ
 فَبَاتَ رَضِيًّا فِي ذَرَاكِ، وَبَاتُوا
 وَأَنْتَ سِنَانُ، وَالزَّمَانُ قَنَاةُ

وَأَنْتَ مَلَكُ السَّلَامِ إِنْ مَادَ رُكْنُهُ
أَكَانَ لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرَكَ صَالِحُ
وَمَنْ يَسُوسِ الدُّنْيَا ثَلَاثِينَ جَبَّةً
مَلَكَتْ — أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ — ابْنَ هَانِيٍّ
وَمَا زِلْتُ حَسَّانَ الْمَقَامِ، وَلَمْ تَزَلْ
زَهْدْتُ الَّذِي فِي رَاحَتِكَ، وَشَاقَنِي
وَمَنْ كَانَ مِثْلِي أَحْمَدَ الْوَقْتِ، لَمْ تَجُزْ
وَلِي دُرُّ الْأَخْلَاقِ فِي الْمَدْحِ وَالْهَوَى
نَجَتْ أُمَّةٌ لَمَّا نَجَوْتُ، وَدُورَكَتْ
وَصِيحَ جَلَالُ الْمَلِكِ، وَامْتَدَّ عَزُّهُ
وَأَمَّنَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
سَلَامِي عَنْ هَذَا الْمَقَامِ مُقْصَرٌ

وَأَشْفَقَ قَوَّامٌ عَلَيْهِ ثَقَاتٌ^{٤١}
وَقَدْ هَوَّنَتْهُ عِنْدَكَ السَّنَوَاتُ^{٤٢}
تُعِنُهُ عَلَيْهَا حَكْمَةٌ، وَأَنَاةٌ^{٤٣}
بِفَضْلٍ، لَهُ الْأَلْبَابُ مُمْتَلِكَاتُ
تَلِينِي، وَتَسْرِي مِنْكَ لِي النَّفَحَاتُ^{٤٤}
جَوَائِزُ عِنْدَ اللَّهِ مُبْتَغِيَاتُ^{٤٥}
عَلَيْهِ — وَلَوْ مِنْ مِثْلِكَ — الصَّدَقَاتُ^{٤٦}
وَلِلْمُتَنَبِّي دُرَّةٌ، وَحَصَاةٌ^{٤٧}
بِلَادٌ، وَطَالَتْ لِلْسُرِيرِ حَيَاةٌ^{٤٨}
وَدَامَ عَلَيْهِ الْحَسَنُ وَالْحَسَنَاتُ^{٤٩}
يَتَامَى عَلَى أَقْوَاتِهِمْ، وَعُفَاةٌ^{٥٠}
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتُ^{٥١}

هوامش

- (١) أتاك الشيء هنيئاً، وهو هنيء لك: أي سائغ ثابت لا مشقة فيه.
- (٢) طه: من أسماء النبي محمد ﷺ. الكتاب: القرآن الكريم. الأمة: المسلمون جميعاً.
- (٣) الأقدار: جمع قدر وهو ما يقدره الله من قضائه، ويعرفه بعضهم بأنه تعلُّق إرادة الله بالأشياء. العهد: هنا بمعنى الضمان. الموثق: العهد. ترقى إليه: تصعد. الأداة: المكروه.
- (٤) البرد: ثوب مخطط. تجزه: تتعدها إلى غيره. الرميات: جمع رمية.
- (٥) البيت: الكعبة. عرفات: مكان على مقربة من مكة، الوقوف به ركن من أركان الحج.
- (٦) تستوهب الصفح: تطلب هبته. والصفح: الإعراض عن الذنب. خُشَعًا: جمع خاشع. الراح: جمع راحة وهي الكف.
- (٧) تستغفر: تطلب المغفرة. الأرض الخصيب: الكثيرة العشب، كناية عن كثرة خيرها. و«ما» في «ما جنت» للنفي.

(٨) تتني عليك: تمدحك. الجرحى: جمع جريح. والجراح: جمع جُرح. القتلى: جمع قتل.

(٩) الأهوال: جمع هول، وهو الخوف من الأمر لا يدري الإنسان ما يهجم عليه منه. بكيثهم: أي الجرحى والقتلى. الرحمات: جمع رحمة.

(١٠) تثاب: تجازى. بغاليه وبطهره: الضمير فيها للدمع. البعث: هنا من بعث الموتى، أي نشرهم يوم القيامة. الرُفات: الحطام وكل ما تكسّر وبلي. أشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفريق.

(١١) كلهم لربهم: من وكل إليه الأمر، أي تركه له وفوضه إليه. في سبيلك: أي من أجلك وبسببك.

(١٢) الغدر: الخيانة وعدم الوفاء. الجماعة: قبل العشرة، وقيل ما بين العشرة والأربعين. العداة: جمع عدوّ، والمراد نصارى الأرمن الذين دبّروا حادث القنبلة.

(١٣) تبرأ منه: تخلص منه وأنكره. عيسى: ابن مريم النبي (عليه السلام). صاحب: جمع صاحب. أتباع جمع تابع، والهمزة للاستفهام. الحنان: الرحمة. الجفاة: جمع جاف وهو الغليظ الخلق.

(١٤) الشكاة: الشكوى وهي التظلم.

(١٥) الطلاب: جمع طالب. البغاة: جمع باغ وهو الظالم.

(١٦) الفؤاد: القلب. تلتقي الهول: تستقبله. الهول: المخيف المفاجئ. الثبات: الاستقرار، والخطاب لأمر المؤمنين.

(١٧) زلزلت الأرض: أرجفت. راد الأرض: تفقدها ليرى هل تصلح للنزول بها. الوقار: الحلم والرزانة. والجنبات: النواحي، جمع جنبه.

(١٨) تغذى، من غذاه: أي أطعمه. أجساد: جمع جسد. الورى: الخلق. ثقات: من قاته، أعطاه قوتاً وهو ما يؤكل ليمسك الرمح.

(١٩) ترتج: تضطرب. لجة الماء: معظمه. تصلى حرّها: تجده وتحسّه. النواحي: جمع ناحية. الجهات: جمع جهة. والمراد: يرتج منها البر والبحر، وتخرق بها جهات الأرض ونواحيها، أي أنها نار عامة عظيمة.

(٢٠) تمشيت: مشيت. البرد. الثوب. الخليل: هو النبي إبراهيم (عليه السلام)، وقصة خوضه النار التي أوقدها له النمرود مشهورة. سلاماً: أي سلامة. وبرداً: أي لا حرّاً. الغمرات: الشدائد والمكاره.

(٢١) ملء الشيء: ما يملؤه. أدرع جمع درع، وهي ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس في الحرب؛ للوقاية من سلاح العدو.

(٢٢) الضحوك: الكثير الضحك. المنايا: جمع منية وهي الموت. عوابس: كوالح الوجوه متجهمة. الوقور: الحليم الرزين. الحتوف: جمع حتف وهو الموت أيضاً. طغاة: جمع طاغ وهو الظالم المسرف في ظلمه.

(٢٣) يحوطك: يحفظك ويتعهدك. الحماة: جمع حام. الانتباه: اليقظة للأمر. والملائكة: الملائكة.

(٢٤) وجه أحمدي: منسوب إلى أحمد وهو النبي ﷺ نسبة تشريف وتبعية. منور: مضيء. منحسرات: يريد حسيرات، والعين الحسيرة الكليلة التي ينقطع بصرها من طول المدى.

(٢٥) يحيي الرعايا: يسلم عليها. ورعايا الملك: القوم الخاضعون له، جمع رعية. القضاء هنا: تقدير الله. مهلل: من التهليل وهو رفع الصوت بلا إله إلا الله. والأقدار: جمع قدر.

(٢٦) النعمى، كالنعمة: ما أنعم به عليك. سنية: رقيقة عظيمة.

(٢٧) صير: أي اجعل. مآثر: جمع مأثرة وهي المكرمة. أرض موات: لا ينتفع بها.

(٢٨) فاته الشيء: أعوزه وذهب عنه فلم يدركه. الآمال: جمع أمل وهو الرجاء.

(٢٩) بلوناك: جربناك واختبرناك. اليقظان: المتنبه المستيقظ. الصوارم: جمع صارم وهو السيف القاطع. القنا: جمع قناة وهي الرمح. الصيد: جمع أصيد وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يميناً ولا شمالاً، والأصل أنه الجمل الذي لا يستطيع الالتفات من داء الصيد. السبات: النوم والراحة.

(٣٠) سهرت: أرققت فلم تنم. لذّ النوم رعايا ورعاة: أي صار لذيذاً لهم. والرعاة: جمع راع وهو الوالي.

(٣١) مضيع: مهمل أو مفقود. الشمل: ما اجتمع من الأمر وما تفرّق منه، يقال: جمع الله شملهم أي ما تشئت من شملهم، وفرّق الله شملهم أي ما اجتمع منه. الشتات: المشتت المتفرق.

(٣٢) الراية: العلم، جمعها رايات. الوسم: الأثر والعلامة. الفتوح: جمع فتح وهو النصر. الشيات: جمع شية وهي العلامة.

(٣٣) تظل: تبقى، والمراد الراية. الغراء: مؤنث الأعر، وهو الفرس بجبهته بياض قدر الدرهم، والأبيض من كل شيء، والكريم الفعال، الواضحها، ومن المجازم: يومٌ أعرٌ

محجّل، ومثله: راية غرّاء محجّلة. المحجّلة: من التحجيل وهو بياض في قوائم الفرس، والمراد أن بها بياضاً كأنه التحجيل. الغزوات. جمع غزوة: وهي الواحدة من الغزو، وهو المسير إلى قتال العدو.

(٣٤) الحنيفية: المائلة إلى الإسلام الثابتة عليه، وهو وصف للراية أيضاً. عزّها: قواها. وأعزّها: أجلّها. ملكاً: لغة في ملك. غزاة: جمع غاز.

(٣٥) حماها: دافع عنها. أسماها: أعلاها. سرات: سادات ورؤساء، وضمير «حماها» و«أسماها» للراية.

(٣٦) غمائم: سحاب وهي جمع غمامة. المحل: الجذب ويبس الأرض من الكلاء لانقطاع المطر. الهواطل: جمع هاطلة وهي السحابة التي يتتابع مطرها. مصابيح: جمع مصباح وهو السراج. هداة. جمع هادٍ وهو المرشد الدال على الطريق.

(٣٧) تهادت: من التهادي وهو أن يمشي الرجل وحده مشياً غير قوي متميلاً، والضمير عائد إلى الراية. الذرا: أعالي الأشياء، واحدها ذروة. مطيفة: من أطاف بالشيء ألّبه وقاربه أو حام حوله أو أحاط به. الرغبات جمع رغبة وهي إرادة الشيء والحرص عليه. الرهبات: جمع رهبة وهي الخوف.

(٣٨) السباع: جمع سبع وهو المفترس من الحيوانات مطلقاً، والمراد بسباع الجو سباع الطير. غرثي: جمع غرثان وهو الجائع. حيالها: أي قبالتها وإزاءها. المهجات: جمع مهجة وهي الدم، أو هي دم القلب، يقال: سالت مهجته والنفس، ويقال: بذلت له مهجتي، والخالص من كل شيء.

(٣٩) سننت: أبنت وصوّرت. والاعتدال: الاستقامة. راضيّاً: راضياً. والذرا: الملجأ. (٤٠) الغمام: السحاب. والخميلة: الشجر الكثير الملتف حيث كان، وهي أيضاً الموضع الكثير الشجر. السنان: نصل الرمح. القناة: الرمح.

(٤١) ملاك السلم: قوامه الذي يملك به. والسلم السلام والأمان. وماد: تحرّك واضطرب. وقوّم: جمع قائم. وثقات: جمع ثقة، يقال هو ثقة أي موثوق به.

(٤٢) هوّنته: سهلته وخففته. والسنوات: جمع سنة.

(٤٣) يسس: من ساس الشيء دبّره وقام بأمره. يعنه: يساعده ويظاهره. والحكمة: العدل، والعلم، ووضع الأمر في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الرفق، وهي الحلم أيضاً.

(٤٤) ما زلت حَسَّانَ المقام: أي ما زلت قائمًا منك مقام حَسَّانَ من النبي ﷺ، وهو حَسَّانُ بن ثابت الشاعر والصحابي، تليني: تدنو مني. تسري: تتسلسل. النفحات: العطايا.

(٤٥) زهدت الشيء: تركته ورغبت عنه. الراحتان: الكفَّان. شاقني جوائز: هيجتني. الجوائز: جمع جائزة وهي العطية. مبتغيات: مطلوبات.

(٤٦) لم تجز: لم تكن جائزة. الصدقات: جمع صدقة وهي العطية، يُراد بها الثواب.

(٤٧) الدرر: جمع درة وهي اللؤلؤة العظيمة. المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور. الحصاة: الحجر الصغير، يريد أن للمتنبي الجيد والريء من الشعر، أمَّا هو فله الجيد دائمًا.

(٤٨) نجت: خلصت. ودوركت: فعل المجهول من داركه إذا لحقه. السرير: سرير الملك.

(٤٩) صين: حَفِظَ. الجلال: التناهي في عظم القدر ورفع الشَّأن. والعزُّ: القوة وعدم الذلِّ. والحسن: الجمال. والحسنات: جمع حسنة وهي ضد السيئة.

(٥٠) أمن: أعطى الأمان. يتامى: جمع يتيم وهو مَنْ مات أبوه. أقوات: جمع قوت وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. العفاة: طَلَّابُ المعروف، جمع عافٍ.

(٥١) مقصّر: من قصر عن الأمر إذا تركه ولم يقدر عليه.

إلى عرفات

إلى عرفاتِ الله يا خيرَ زائرٍ
ويومَ تُولِّي وجههَ البيتَ ناضراً
على كلِّ أفقٍ بالحجاز ملائكُ
إذا حُدِثَ عيسُ الملوكِ، فإنسهم
لدى (الباب) جبريلُ الأمينِ، براحِه
عليك سلامُ الله في عرفاتِ^١
وسيمَ مجالي البشرِ والقسماتِ^٢
تَرْفُ تحايا الله والبركاتِ^٣
لِعيسك في البیداءِ خيرُ حُداةٍ^٤
رسائلُ رحمانیةٍ النَّفَحَاتِ^٥

* * *

وفي الكعبة الغراءِ ركنٌ مُرَحَّبٌ
وما سكب الميزابُ ماءً، وإنما
(وزمزمُ) تجري بين عينيكِ أعيناً
ويرمون إبليسَ الرجيمَ، فيصطلي
يُحييكَ (طه) في مضاجع طُهره
ويُثني عليك (الراشدون) بصالحِ
لك الدينُ يا ربَّ الحَجِيجِ، جمعَتهم
أرى الناسَ أصنافاً، ومن كل بقعةٍ
تساووا، فلا الأنسابُ فيها تفاوتُ
عَنْتَ لك في التُّرْبِ المقدَّسِ جبهةُ
مُنَوَّرَةٍ كالبدْرِ، شَمَاءُ كَالسُّهَى
بكعبةٍ قُصَّادٍ، ورُكْنٍ عُفاةٍ^٦
أفاض عليك الأجرَ والرحماتِ^٧
من الكوثرِ المعسولِ مُنفَجراتِ^٨
وشانيكِ نيراناً من الجَمَرَاتِ^٩
ويعلم ما عالجتَ من عقباتِ^{١٠}
ورُبَّ ثناءٍ من لسانِ رُفاتِ^{١١}
لبيتِ طُهورِ السَّاجِ والعِرصَاتِ^{١٢}
إليك انتهوا من غُربةٍ وشتاتِ^{١٣}
لديك، ولا الأقدارُ مختلفاتِ
يدينُ لها العاتي من الجبهاتِ^{١٤}
وتُخَفِّضُ في حَقٍّ، وعند صلاةٍ^{١٥}

لعبدك، ما كانت من السَّلَسات^{١٦}
 فيدنو بعيدُ البِيدِ والفَلَوَاتِ؟^{١٧}
 وفي العمر ما فيه من الهفواتِ؟^{١٨}
 ولم أبغِ في جَهري، ولا خطراتي^{١٩}
 على حكمةٍ آتيتَنِي وأناة^{٢٠}
 لدى سُدّةِ خيرِيّةِ الرغباتِ^{٢١}
 على حُسدي، مستغفراً لعداتي^{٢٢}
 كنفسي، في فِعلي، وفي نفثاتي^{٢٣}
 أُجِلُّ، وأُغلي في الفروض زكاتي^{٢٤}
 ويتركها النُّسَاك في الخلواتِ^{٢٥}
 من الصفح ما سوّدتُ من صفحاتي^{٢٦}
 يمتُ كقتيل الغيد بالبسماتِ^{٢٧}
 كريمِ الحواشي، كابر الخطواتِ^{٢٨}
 وتحت سماءِ الوحي والسوراتِ^{٢٩}
 ويُضفي عليها الأمنُ في الرّوحاتِ^{٣٠}

وياربِّ، لو سَخَرَتِ ناقةً (صالح)
 ويا ربِّ، هل سيارةٌ أو مطارةٌ
 ويا ربِّ، هل تُغني عن العبدِ حَجّةٌ
 وتشهدُ ما آذيتُ نفساً، ولم أضُرْ
 ولا غلبتَنِي شِقوَةٌ أو سعادةٌ
 ولا جال إلا الخيرُ بين سرائري
 ولا بتُّ إلا كابنِ مريم، مشفقاً
 ولا حُمَلْتُ نفسٌ هوى لبلادها
 وإنِّي — ولا منُ عليك بطاعة —
 أبالغُ فيها وهي عدل ورحمة
 وأنت وليُّ العفو، فامحُ بناصع
 ومَنْ تضحك الدنيا إليه فيغترّر
 وركب كإقبالِ الزمان، مُحجَّل
 يسيرُ بأرضٍ أخرجتُ خيرَ أمةٍ
 يُفيض عليها اليُمنُ في غدواته

وقبَلتْ مَثوى الأعظمِ العَطِراتِ^{٣١}
 لأحمدَ بين السُّترِ والحُجراتِ^{٣٢}
 وضاع أريجُ تحت كلِّ حِصاةٍ^{٣٣}
 وباني صروحِ المجدِ فوق فلاةٍ^{٣٤}
 أبثُّك ما تدري من الحسراتِ^{٣٥}
 كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُباتِ^{٣٦}
 فما بالُهم في حالِكِ الظلماتِ^{٣٧}
 فما ضرُّهم لو يعملون لأتي؟^{٣٨}
 مجالٌ لمقدامِ كبيرِ حياةٍ^{٣٩}
 بوارجٍ في الأبراجِ ممتنعاتِ^{٤٠}
 وزَيْنٌ لها الأفعالُ والعزماتِ^{٤١}

إذا زرتَ — يا مولاي — قبرَ محمدٍ
 وفاضتْ مع الدَّمعِ العيونُ مهابةً
 وأشرقَ نورٌ تحت كلِّ ثَرِيّةٍ
 لمُظهرِ دينِ الله فوق تَنُوفِيّةٍ
 فقل لرسولِ الله: يا خَيْرَ مُرسلٍ
 شعوبكُ في شرقِ البلادِ وغربِها
 بأيِّمانهم نورانٍ ذِكرُ، وسُنّةُ
 وذلكِ ماضي مَجدهم وفخارهم
 وهذا زمانُ، أرضُه وسماؤُه
 مشى فيه قومٌ في السماءِ، وأنشئوا
 فقل: ربِّ وَفَّقْ للعظامِ أمتي

هوامش

- (١) عرفات: اسم موضع وقوف الحاج على مقربة من مكة، وهو اسم واحد في صورة الجمع.
- (٢) تَوَلَّى وجهه البيت: تستقبلها. والوجهة: المكان الذي يستقبله الإنسان. ناضراً من النضرة: وهي الحسن. وسيم: جميل مجالي البشر، والمراد الوجه. والبشر: طلاقة الوجه. القسمة: جمع قسمة وهي الوجه، وقيل: ما بين الوجنتين والأنف.
- (٣) الأفق: الناحية. ملائك: جمع ملك. التحايا: جمع تحية.
- (٤) حديث: من الحذاء وهو سوق الإبل والغناء لها. والعيس: الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشقرة. والبيداء: المفازة. الحداة: جمع حاد
- (٥) جبريل: هو أمين الوحي (عليه السلام). والراح: جمع راحة وهي الكف.
- (٦) مرحب: من رَحَّب به أي قال له مرحباً. وقُصَّاد: جمع قاصد. وعفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف.
- (٧) سكب الماء: صبّه. الميزاب (ويقال له مئزاب ومرزاب ومزراب): ما يسيل منه الماء من مكان عالٍ، قالوا: ومنه ميزاب الكعبة أي مصب ماء المطر من فوقها، وهو المراد هنا. أفاض: أفرغ.
- (٨) زمزم: بئر عند الكعبة. والكوثر: نهر في الجنة، والكثير من الماء، والمعسول: الحلو.
- (٩) إبليس: عَلم جنس للشيطان. والرجيم: هو المطرود، والملعون، والمرجوم بالحجارة ويصطلي نيراناً: يحترق بها. والشاني: المبغض، والجمرات: الحصيات، واحدها جمرة.
- (١٠) يحييك: من حيَّاه إذا قال له: حيَّاك الله، أي أطال عمرك. وطه: اسم النبي ﷺ ومضاجع: جمع مضطجع وهو مكان الاضطجاع. العقبات: واحدها عقبة وهي الطريق الصعب في أعلى الجبل، والمراد هنا صعاب الأمور.
- (١١) يثني عليك الراشدون: يذكرونك بخير. والراشدون: الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ. والرفات: ما بقي من جسم الإنسان بعد موته.
- (١٢) الحجيج: جمع حاج وهم الحجاج. والساح: جمع ساحة وهي ساحة الدار. والعرصات: جمع عرصة وهي البقعة من بين الدور ليس فيها بناء.
- (١٣) الأصناف: الأنواع. والغربة: الاغتراب. والشتات: التفرُّق.

- (١٤) عنت لك: خضعت وذلت. والترب: التراب. ويدين لها: يطيعها. والعاتي من الجبهات: أي الجبهة العاتية التي تجاوزت الحد في الاستكبار والجبروت والخطاب لله تعالى، يريد أن جبهة الممدوح عنت الله، وهي التي أطاعها العتاة المتكبرون.
- (١٥) منورة: صفة للجبهة في البيت السابق. وشماء: مرتفعة، صفة للجبهة أيضاً. والسها: كوكب من بنات نعش الصغرى. وتخفض: من الخفض ضد الرفع.
- (١٦) سخرت: من التسخير، وهو تذليل الدابة وركوبها بغير أجره. والسلسات: جمع سلسة وهي المنقادة.
- (١٧) السيّارة: صيغة مبالغة من السير، جعله المتأدبون اسماً (للاتومبيل). المطارة: سمّي بها المركبة التي تطير في الجو بالوسائل الصناعية. يدنو: يقرب. والبيد: جمع بيداء. والفلوات: جمع فلاة.
- (١٨) هل تغني عن العبد حجة: أي هل تنفعه حجة في مهم أمره عند الله. والهفوات: الزلات.
- (١٩) وتشهد أنت يا رب ما آذيت نفساً: أي لم أصل إليها بأذى. ولم أضّر: لم أفعل ما يضرّ. ولم أبغ: لم أرتكب البغي. والجهر: العلانية. والخطرات: واحدها خطرة وهي ما يلوح للإنسان في فكره.
- (٢٠) الشقوة: ضد السعادة. والحكمة: العدل، والحلم، وقيل: ما يمنع الجهل، وقيل: هي كل كلام واقع الحق، وقيل: هي وضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الحلم.
- (٢١) جال: طاف غير مستقر. والسرائر: جمع سريرة وهي ما أسرّه الإنسان من أمره. والسدة الباب.
- (٢٢) ابن مريم: عيسى (عليه السلام). ومشفقاً على حسدي: حريصاً على صلاحهم. والحُسَد: جمع حاسد. مستغفراً لعداتي: طالباً المغفرة. والعداء: جمع عدوّ.
- (٢٣) الهوى: الحب. والنفثات: جمع نفثة، تطلق على الشعر مجازاً فيقال: ما أحسن نفثات فلان، أي ما أحسن شعره.
- (٢٤) المنّ: الامتنان بتعداد الصنائع. وأجلّ زكاتي: أعظمها. وأغليها أجعلها غالية والفروض: ما فرضه الله من العبادات الخمس، والزكاة أحد هذه الفروض.
- (٢٥) أبالغ فيها: من بالغ في الأمر أي اجتهد فيه ولم يقصر. والنسّاك: جمع ناسك وهو العابد المتزهد. في الخلوات: متعلق بالنسّاك.

(٢٦) وليُّ العفو: أي متوليه وصاحبه، والعفو: ترك العقوبة والإعراض عن المؤاخذة. امح: أزل. الناصع: الخالص الصافي. والصفح: ترك الشيء والإعراض عنه.

(٢٧) يَغْتَرُّ: يخدع بالشيء ويظنُّ به الأمن فلا يتحفظ. والغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الطويلة العنق، والتي تنتني ليناً، والتي لطفت بشرتها وكمل حسننها، والبسمات: واحدتها بسمّة وهي الضحكة من غير صوت.

(٢٨) المحجَّل من الخيل: ما في قوائمه بياض، والمعنى ركب مطاياها محجَّلة، أو محجل، ويكون المراد مشرق مضيء على سبيل المجاز، كقولهم: يوم أغرَّ محجَّل. والحواشي الجوانب والنواحي والكابر: رفيع الشآن.

(٢٩) يسير بأرض: يريد أرض الحجاز، ويريد بخير أمة العرب خاصة والمسلمين عامة. والوحي: أصله كل ما ألقىته إلى غيرك، ثم غلب على ما يلقي للأنبياء من عند الله. والسورات: هي سور القرآن، جمع سورة.

(٣٠) يفيض: يسيل. واليمن: الخير والبركة. والغدوات: جمع غدوة وهي المرة من الغدو. ويضفي عليها الأمن: يسبغها عليها. والروحات: جمع روحة وهي المرة من الرواح. والغدو والرواح على إطلاقهما: الذهاب والمجيء في أي وقت. وضمير «عليها» للأرض في البيت السابق.

(٣١) إذا زرت يا مولاي: الخطاب للخديو. والمثوى: المقام. والأعظم: جمع عظم. والعطرات: المتطيبات بالعطر.

(٣٢) فاضت: سألت مأواها. والمهابة: الخوف والتوقير. وأحمد: اسم النبي ﷺ أيضاً. الستر: ما يستر به. والحجرات: جمع حجرة وهي البيت الصغير في الدار.

(٣٣) الثنية: طريق العقبة. وضاع: فاح. والأريج: الرائحة الطيبة.

(٣٤) مظهر دين الله: معلنه والجاهر به. والتنوفة: المفازة وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف. والصروح: جمع صرح وهو القصر، وكل بناء عالٍ. والفلاة: أي الصحراء القفر الواسعة.

(٣٥) أبئك: أطلعك. وما تدري: ما تعلم. والحسرات: جمع حسرة وهي أشد التلهف على الفائت.

(٣٦) شعوبك: جمع شعب وهو القبيلة العظيمة من الناس. والكهف: البيت الواسع المنقور في الجبل. والعميق: البعيد الغور. والسبات: النوم.

(٣٧) أيمانهم: جمع يمين، وهي الجهة المضادة لليسار والجارحة أيضاً، وهي المرادة هنا، والمعنى معهم نوران.. إلخ. والذكر: القرآن. والسنة: الشريعة، وقد تطلق

عند الفقهاء على جملة أحاديث النبي ﷺ والبال. الحال والشأن، أي ماذا غيّر حالهم حتى ساروا في الظلمات الحالكة؟ وال حالك: الشديد السواد. والظلمات: جمع ظلمة، وهي نهاب النور.

(٣٨) المجد: العزُّ والرفعة. والفخار: المباهاة بالمناقب والمكارم.

(٣٩) المجال: مكان الجولان وهو الطواف في غير استقرار. المقدام: أصله الكثير الإقدام على العدو، والمراد هنا الكثير الإقدام على عظام الأمور.

(٤٠) مشى فيه: أي في هذا الزمان. وأنشئوا: أحدثوا. وبوارج: جمع بارجة وهي سفينة كبيرة للقتال. والأبراج جمع برج وهو في السماء بابها، وقيل منزلة القمر، وقيل الكوكب العظيم. وممتنعات: محتميات، والمعنى أن قومًا بلغوا من العزّة في هذا الزمان أن مشوا في جوّ السماء، يريد طاروا فيه وأنشئوا طيارات ترتفع حتى تكاد تصل إلى السماء.

(٤١) وفق للعظام أمتى: ألهمها إياها. والعظام: جمع عظيمة وهي ما عظم من الأمور. وزين لها الأفعال: اجعلها زينة عندها أي غير مشينة. والعزمات: جمع عزمة وهي الثبات والصبر فيما يعزم عليه.

مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات^١

قُمْ حَيِّ هَٰذِي النَّيِّرَاتِ
واخفض جبينك هَيبَةً
زَيْنِ المقاصِرِ والحِجَا
هَذَا مقامُ الأمْهَاتِ
لَا تَلْغُ فِيهِ، وَلَا تَقْلُ
وَإِذَا خَطَبْتَ فَلَا تَكُنْ
اذْكُرْ لَهَا الْيَابَانَ، لَا
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْحُضَا
لَمْ تَلَقْ غَيْرَ الرِّقِّ مِنْ
خُذْ بِالْكِتَابِ، وَبِالْحَدِيدِ
وَارْجِعْ إِلَى سَنَنِ الْخَلِيهِ
هَذَا رَسُولُ اللَّهِ، لَمْ
الْعِلْمُ كَانَ شَرِيعَةً
رُضْنُ التَّجَارَةِ، وَالسِّيَا

حَيِّ الْحَسَانَ الْخَيْرَاتِ
لِلْخُرْدِ الْمُتَخَفُّرَاتِ^١
لِ، وَزَيْنِ مُحْرَابِ الصَّلَاةِ^٢
تِ، فَهَلْ قَدَرْتَ الْأُمْهَاتِ؟
غَيْرَ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ^٣
خَطْبًا عَلَى مَصْرِ الْفَتَاةِ
أُمِّ الْهُوَى الْمُتَهْتَكَاتِ
رَةِ يَا أَخِي التُّرْهَاتِ^٤
عُسْرٍ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ
ثِ، وَسِيرَةِ السَّلَفِ الثَّقَاتِ^٥
قَةِ، وَاتَّبِعْ نُظْمَ الْحَيَاةِ
يُنْقِصُ حَقُوقَ الْمُؤْمَنَاتِ
لِنَسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ^٦
سَةِ، وَالشُّنُونِ الْأَخْرِيَاتِ^٧

^١ أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي جَمْعٍ حَافِلٍ مِنَ السَيِّدَاتِ الْمَصْرِياتِ بِمَسْرَحِ حَدِيقَةِ الْأَرْبَكِيَّةِ.

ولقد علت ببناته كانت سَكِينَةً تملأ الدنيا،
 روت الحديث، وفَسَّرَتْ وحضارة الإسلام تنـ
 بغداد دارُ العالمَا ودمشق تحت أَمِيَّةٍ
 ورياض أندلس نَمِيـ لَجَج العلوم الزاخرات
 وتهزأ بالرواة^٨ آي الكتاب البيِّنات
 طق عن مكان المسلمات ت، ومنزل المُتأدِّبات^٩
 أمَّ الجواري النابغات^{١٠} سَن الهاتفاتِ الشاعرات^{١١}

ادْعُ الرجالَ لينظروا والنفعَ كيف أخذن في
 لَمَّا رأين نَدَى الرَّجَا ورأين عندهمُ الصنا
 والبرَّ عند الأغنيا أقبلن يبنين المنا
 كيف اتحاد الغانيات؟ أسبابه متعاونات؟
 ل تفأخرًا، أو حبَّ ذات^{١٢} ثَع والفنون مُضِيَّعات
 ء من الشئون المهملات ئر للنجاح موفقات

للصالحاتِ عقائل الـ لله أنبتهنَّ في
 فأتينَ أطيَبَ ما أتى لم يكفِ أن أحسنَّ حتَّى
 يمشين في سوقِ الثوا يلبسنَ ذلَّ السائلَا
 فوجوههنَّ وماؤها مصرُّ تجدد مجدها
 النافرات من الجمو هل بينهنَّ جوامدًا
 لما حضنَّ لنا القضيةَ وادي هوى في الصالحات^{١٣}
 طاعاته خيرَ النبات زَهَرُ المناقبِ والصِّفات^{١٤}
 زِدْنَ حَضَّ المحصنات؟^{١٥} ب، مساومات، رابحات
 ت، وما ذُكرن البائسات^{١٦} سِتْرُ على المتجملات^{١٧}
 بنسائها المتجددات د، كأنه شَبَحَ الممات^{١٨}
 فرق وبين الموميات؟^{١٩} كن خير الحاضنات^{٢٠}

غَذِّيْنَهَا فِي مَهْدِهَا	بَلْبَانِهِنَّ الطَاهِرَاتِ
وَسَبَقْنَ فِيهَا الْمُعَلِّمِ	نَ إِلَى الْكِرِيهَةِ مُعْلِمَاتِ ^{٢١}
يَنْفُقْنَ فِي الْفِتْيَاتِ مِنْ	رُوحِ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ ^{٢٢}
يَهْوَيْنَ تَقْبِيلَ الْمُهَنْدِ	أَوْ مُعَانِقَةَ الْقَنَاةِ ^{٢٣}
وَيَرَيْنَ حَتَّى فِي الْكُرَى	قُبَلَ الرِّجَالِ مُحَرَّمَاتِ

هوامش

- (١) الخَرَدُ: العذاري. والمخفرات: المستحييات.
- (٢) الزين: ضد الشين. والمقاصر: جمع مقصورة وهي إمَّا الدار الواسعة المحصنة، أو الحجرة من حجر الدار. والحجال: جمع حجل وهو الخلخال.
- (٣) لا تلُعُ: لا تقل باطلاً عن غير رويّة وفكر. والفواصل: جمع فاصلة وهي من السجع بمنزلة القافية من الشعر.
- (٤) التُّرَهَات: الطرق الصغار تتشعب عن الجادة، واحدها تُرْهَة، ثم استعيرت للباطل.
- (٥) الثقات: جمع ثقة وهي الموثوق به، ويوصف به المفرد وغير المفرد، والمذكر والمؤنث.
- (٦) المتفقهّات: من تفقه أي تعلّم الفقه وتعاطاه، والفقه هو علم الدين، أو من تفقه في العلم إذا تعلّمه.
- (٧) رضى: من راض الشيء أي ذلّله وجعله مطيعاً.
- (٨) سكيّنة، هي بنت الحسين بن الإمام عليّ (رضى الله عنه) وحفيدة الرسول ﷺ.
- (٩) بغداد: مقرُّ مُلْكِ العباسيين بالعراق. والمتأدّبات: المتعلّقات الأدب.
- (١٠) دمشق: مقرُّ الأمويين في الشام. والجواري: جمع جارية وهي الفتاة.
- (١١) أندلس: بلاد في غرب أوربا، هي الآن مملكة إسبانيا أو بعضها، وكانت قديماً مقرّ ملك إسلامي عظيم، أوّل مَنْ دخلها ونقل إليها حضارة وأنشأ بها ذلك الملك هو عبد الرحمن الداخل الأموي المسمّى «صقر قريش». ونمين الهاتفات: من قولهم نمته عشيرته، أي رفعته بالانتساب إليها.
- (١٢) الندى: الجود.

- (١٣) الصالحات: ذوات الصلاح من النساء. والعقائل: جمع عقيلة وهي الكريمة المخدّرة. والصالحات — في آخر البيت — صفة لمحذوف، أي والأفعال الصالحات.
- (١٤) المناقب: المفاخر.
- (١٥) الحُضُّ: مصدر حَضَّه على الأمر إذا حمّله عليه.
- (١٦) البائسات: الشديديات الحاجة.
- (١٧) المتجمّلات: الفقيرات اللاتي لم يظهرن ذلّ الفقر.
- (١٨) الجمود: التيبس.
- (١٩) الموميات. واحدتها موميا، وهي يونانية معناها حافظ الأجسام، وتطلق اليوم على الأجسام المحنّطة.
- (٢٠) القضية: هي قضية استقلال وادي النيل.
- (٢١) المعلمون: الفرسان لهم علامة في الحرب لبطولتهم.
- (٢٢) ينفثن: من قولهم: نفث الله الشيء في القلب أي ألقاه.
- (٢٣) المهنّد: السيف. والقناة: الرمح.

خلافة الإسلام^١

عادت أغاني العرس رَجَعَ نَوَاحٍ
كُفِّنَتْ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثَوْبِهِ
شُيِّعَتْ مِنْ هَلَجٍ بَعْبَرَةٍ ضَاكِ
ضَجَّتْ عَلَيْكَ مَآذُنٌ وَمَنَابِرُ
الْهِنْدُ وَالْهَيَّةُ، وَمَصْرُ حَزِينَةُ
وَالشَّامُ تَسْأَلُ، وَالْعِرَاقُ، وَفَارَسُ
وَأَتَتْ لَكَ الْجَمْعُ الْجَلَائِلُ مَأْتَمًا
يَا لِلرِّجَالِ لِحُرَّةِ مَوْءُودَةٍ
إِنَّ الَّذِينَ أَسَتْ جِرَاحَكَ حَرْبُهُمْ
هَتَكُوا بِأَيْدِيهِمْ مَلَاءَةً فَخْرِهِمْ
نَزَعُوا عَنِ الْأَعْنَاقِ خَيْرَ قِلَادَةٍ
حَسَبُ أَتَى طَوْلُ اللَّيَالِي دُونَهُ
وُنُعِيتَ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ^١
وُدُنْتِ عِنْدَ تَبْلُجِ الْإِصْبَاحِ^٢
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَسَكْرَةِ صَاحِ^٣
وَبَكَتْ عَلَيْكَ مِمَالِكُ، وَنَوَاحِ
تَبْكِي عَلَيْكَ بِمَدْمَعِ سَحَاحِ^٤
أَمَحَا مِنَ الْأَرْضِ الْخِلَافَةَ مَا حِ؟
فَقَعْدَنَ فِيهِ مَقَاعِدَ الْأَنْوَاحِ^٥
قُتِلْتَ بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ وَجُنَاحِ^٦
قَتَلْتِكَ سَلْمُهُمْ بِغَيْرِ جِرَاحِ^٧
مَوْشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الْفَتَاحِ^٨
وَنَضُّوا عَنِ الْأَعْطَافِ خَيْرَ وَشَاحِ^٩
قَدْ طَاحَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَصَبَاحِ^{١٠}

^١ ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة، ذلك النصر الحاسم، الذي كان حديث الدنيا، والذي تمَّ على يد مصطفى باشا كمال في سنة ١٩٢٣، حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، ونفى الخليفة من بلاد الأتراك، فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، وينبئ ممالك الإسلام إلى إسداء النصح للغازي، لعله يبني ما هُدمَ وينصف مَنْ ظَلِمَ.

كانت أبرَّ علائق الأرواح
 جمعت عليه سرائر النُّزاح^{١١}
 في كلِّ غُدوةٍ جُمعةٍ وروح
 بالشرع، عَرَبِيدِ القضاء، وقاح^{١٢}
 وأتى بكفر في البلادِ بواح^{١٣}
 خلُّقوا لِفقه كتيبةٍ وسلاح
 أو خوطبوا سَمِعوا بضُمِّ رِماح
 مَنْ كُنْتُ أدفعُ دونهِ والأحي^{١٤}
 قلَّدته المأثور من أمداحي؟
 وقريعُ شهباءٍ، وكبشُ نِطاح^{١٥}
 واقولُ مَنْ رَدَّ الحقوقَ إباحي؟
 وأحقُّ منك بنصرةٍ وكِفاح
 أو خلَّ عنك مَواقِفِ النُّصاح
 هَرَمٌ غليظٌ مَنَاجِبِ الصُّفاح^{١٦}
 ترك الصراعَ مُضغَضَ الألواح^{١٧}
 إن الجوادَ يثوبُ بعد جِماح^{١٨}
 كيف احتيالك في صريعِ الراح؟
 والناسَ نقلَ كتائبٍ في السَاح^{١٩}
 لم تَسَلْ بعدُ عبادةَ الأشباح
 حتى تناول كلَّ غيرِ مباح
 وجد السوادُ لها هَوَى المُرَتاح
 لم تُعْطَ غيرَ سَرايه اللَمَّاح^{٢٠}
 لم يوحها غيرَ النصيحةِ واح؟
 عن حوضها ببراعةِ نضاح^{٢١}
 وهوى لذاتِ الحقِّ والإصلاح
 حتى أكونَ فراشةَ المصباح^{٢٢}
 وفتوحُ أنورَ فُصِّلَت بِصفاح^{٢٣}

وعَلاقَةُ فُصِّمَت عُرَى أسبابها
 جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ، وربَّما
 نظمت صفوفَ المسلمين وخَطَّوهم
 بكت الصلاة، وتلك فتنةٌ عابِثُ
 أفتى خُزْعِبِلَةً، وقال ضلالةً
 إنَّ الذين جرى عليهم فقهُهُ
 إن حَدَّثوا نطقوا بخُرسِ كتائبِ
 أَسْتَغْفِرُ الأخلاقَ، لستُ بجاحِدِ
 ما لي أطوِّقُه الملامَ وطالما
 هو ركنٌ مملكة، وحائِطُ دُولَةٍ
 أأقولُ مَنْ أحيَا الجماعةَ مُلِحِدُ
 الحقِّ أولى من وليِّك حرمةً
 فامدح على الحقِّ الرجالَ ولُمُهُمُو
 ومِن الرجالِ إذا انبريتَ لهدمهم
 فإذا قذفتِ الحق في أجلاده
 أدُّوا إلى الغازي النصحيةَ يَنْتَصِحُ
 إن الغرورَ سقى الرئيسَ بِراحِه
 نقل الشرائعَ، والعقائدَ، والقرى
 تركته كالشبح المؤلِّه أَمَّةُ
 هُم أطلقوا يده كقيصر فيهمو
 غرَّته طاعاتُ الجُموعِ، ودولةُ
 وإذا أخذتِ المجدَ من أَمِّيَّةِ
 مَنْ قائلٌ للمسلمين مقالةُ
 عهدُ الخلافةِ فيَّ أوَّلُ نائِدِ
 حبُّ لذاتِ الله كان، ولم يزل
 إني أنا المصباحُ، لست بضائع
 غزواتُ (أدهم) كُلتُ بذوايِلِ

وَلَّتْ سَيُوفُهُمَا، وَبَانَ قَنَاهُمَا
لَا تَبْذِلُوا بُرْدَ النَّبِيِّ لِعَاجِزٍ
بِالْأَمْسِ أَوْهَى الْمُسْلِمِينَ جِرَاحَةً
فَلْتَسْمَعُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ دَاعِيًا
وَلْتَشْهَدُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فِتْنَةً
يُفْتَتَى عَلَى ذَهَبِ الْمُعَزِّ وَسَيْفِهِ
وَشَبَا يِرَاعِي غَيْرُ ذَاتِ بَرَّاحٍ^{٢٤}
عُزْلٍ، يِدَافِعُ دُونَهُ بِالرَّاحِ^{٢٥}
وَالْيَوْمَ مَدَّ لَهُمَ يَدَ الْجِرَّاحِ^{٢٦}
يَدْعُو إِلَى (الْكُذَّابِ) أَوْ لِسَجَّاحٍ^{٢٧}
فِيهَا يَبَاعُ الدَّيْنُ بَيْعَ سَمَاحٍ
وَهَوَى النَّفُوسِ، وَحَقَّدَهَا الْمِلْحَاحِ^{٢٨}

هوامش

(١) الأغاني: جمع أغنية وهي ما يترنم به ويتغنّى فيه من شعر ونحوه. والرجع: ما يردُّ في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالِم: جمع معلم وهو موضع الشيء الذي يظن فيه وجوده.

(٢) تَبَلَّجَ الإصْبَاح: إشراقه وإنارته.

(٣) الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل: هي تحلب الدمع.

(٤) الوالهة: الحزينة أو التي ذهب عقلها حزناً. وسحاح: كثير السحّ وهو أن يسيل

الماء من أعلى إلى أسفل.

(٥) الجُمع: واحدتها جمعة وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم. والأنواح: النائحات.

(٦) الموءودة: التي تُدْفَنُ حَيَّةً في التراب. والجناح: الإثم.

(٧) أَسَتْ جِرَاحَكَ: داوتها. السلم: الصلح، والسلام أيضاً.

(٨) يقال: هتك الستر ونحوه: خرّقه، أو جذبه فقطعه من موضعه، أو شق منه

جزءاً فبدا ما وراءه. وموشية: منقوشة منمنمة. والفتّاح: من أسماء الله تعالى.

(٩) نضوا: خلعوا. والأعطاف: جمع عطف وهو الجانب من كل شيء. والوشاح:

شبه قلادة ينسج من جلد عريض ويرصّع بالجواهر فتشده المرأة بين عاتقها وكشحيها.

(١٠) طاح: ذهب.

(١١) البرُّ: الصلة والرفق. والنُّزَّاح: البعيدون، جمع نازح.

(١٢) العرييد: الشرير، والكثير العريدة، وهي سوء الخلق من السكر. والوقاح: ذو

الوقاحة وهي قلة الحياء.

- (١٣) الخزعة: الفكاهة والمزاح، أمّا الباطل فهو الخزعيل والخزعبل. ويقال: جاء بالكفر بواحًا أي بيّنًا، وقيل: جهازًا.
- (١٤) أدفع دونه: أردُّ عنه بالحجّة. ألحي: من الملاحة وهي الملاعة.
- (١٥) القريع: الغالب في المقارعة، وهي أن يضرب الأبطال بعضهم بعضًا. والشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.
- (١٦) المناكب هنا: الجوانب والنواحي، والصفاح: حجارة عريضة رقيقة.
- (١٧) الأجلاد والتجاليد: جسم الإنسان وبدنه.
- (١٨) الغازي: مصطفى كمال، وهو أيضًا المراد بالرئيس في البيت الثاني.
- (١٩) الساح: جمع ساحة، والمراد ساحة الحرب.
- (٢٠) اللّماح: اللّماع.
- (٢١) الذائد: الحامي الدافع. والنضاح: الدافع أيضًا.
- (٢٢) الفراشة: حيوان ذو جناحين يطير ويتهافت على السراج حتى يحترق.
- (٢٣) الذوابل. صفة للرماح. والصفاح: جمع صفح وهو عرض السيف. وأدهم وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا الأقلام.
- (٢٤) القنا: جمع قنّاة. والشبا: جمع شبة وهي حدُّ كل شيء، البراح: الزوال.
- (٢٥) العاجز العزل: حسين بن علي شريف الحجاز، يريد أنه طامع في الخلافة، فالأترك إذا أصروا على خروجها منهم، كانوا بذلك قد بذلوا لهذا العاجز الذي لا يملك لحمايتها إلا يدًا خالية. والراح: جمع راحة وهي بطن الكف.
- (٢٦) بالأمس أوهى.. إلخ: الموصوف بهذا العمل هو حسين بن علي أيضًا، وهو إشارة إلى خروجه على المسلمين وموالاته أعدائهم في الحرب الكبرى.
- (٢٧) يريد أن تنحي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها مَنْ لا يصلح لها، وجعل الدعاة لهؤلاء الطامعين يظهرهم بكل مكان. والمراد بالكذاب: مسيلم الكذاب. وسجاح: امرأة كانت تدّعي النبوة.
- (٢٨) المراد بذهبه وسيفه: المال الذي كان يبذل لمن أطاعوه، والعقاب الذي كان يصيب مَنْ خالفوه.

تكريم^١

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا
الرائياتِ بكلِّ أحوَرِ فاترِ
الرواياتِ من السُّلافِ محاجرًا
اللاعباتِ على النسيمِ غدائرًا
أَقْبَلْنَ في ذهبِ الأصيلِ ووشيه
يَحْدِجْنَ بالحدِّقِ الحواسِدِ دُمِيَّةً
حَوَّتِ الجمالَ فلو زهبتَ تزيدها
لو مرَّ بالولدانِ طَيْفٌ جمالها
أشهى من العودِ المرنِّمِ منطقًا
لو كنتَ سعدًا مُطْلِقَ السجناء، لم
ما قَصَّرَ الرؤساءُ عنه، سعى له
يا مصرُ، أشبالُ العَرِينِ ترعرعت

الباسماتِ عن اليتيمِ نَضِيدًا^١
يذرُ الخَلِيَّ من القلوبِ عميدا^٢
الناهلاتِ سِوَالفًا وخدودًا^٣
الرائعاتِ مع النسيمِ قُدودًا^٤
مِلءَ الغلائِلِ لَوْلًا وفريدا^٥
كَظَبَاءٍ وَجْرَةً مُقْلَتَيْنِ وجيدا^٦
في الوهمِ حُسْنًا ما استطعتَ مزيدا
في الخلدِ خَرُّوا رُكْعًا وسُجودا
وَأَلَذُّ من أوتاره تغريدا
تُطْلِقُ لساجرِ طَرْفِها مصفودًا^٧
سعدُ، فكان مُوَفَّقًا ورشيدا
ومشتُ إليك من السجونِ أسودا

^١ في وزارة سعد زغلول باشا سنة ١٩٣٤ أطلق سجناء، كانت المحاكم العسكرية الإنجليزية قد أدانتهم في مؤامرة شاع يومئذ أنها مبالغ فيها، وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم، فرجوا صاحب الديوان أن يشاركهم في هذا الاحتفال؛ فنظم هذه القصيدة، مشيرًا فيها إلى أهم ما كان يشغل بال الناس في ذلك العهد من الحوادث.

قاضي السياسة نالهم بعقابه
أتت الحوادث دون عقد قضائه
تقضي السياسة غير مالكة لما
قالوا: أتنظّم للشباب تحية
قلت: الشباب أتم عقد مآثر
قبلت جهودهم البلاد، وقبلت
خرجوا، فما مدوا حناجرهم، ولا
خفي الأساس عن العيون تواضعا
ما كان أفطنهم لكل خديعة
لما بنى الله القضية منهم
جادوا بأيام الشباب، وأوشكوا
طلبوا الجلاء على الجهاد ماثبة
والله: ما دون الجلاء ويومه
وجد السجين يدا تحطم قيده
ربحت من (التصريح) أن قيودها
أوما ترؤن على (المنابع) غدة
يا فتية النيل السعيد: خذوا المدى
وتنكبوا العدوان، واجتنبوا الأذى
الأرض أليق منزلا بجماعة
أنتم غدا أهل الأمور، وإنما
فابنوا على أسس الزمان وروجه
الهدم أجمل من بناية مصلح
وجه الكنانة ليس يغضب ربكم
ولوا إليه في الدروس وجوهكم
إن الذي قسم البلاد حباكم
قد كان - والدنيا لحود كلها -
مجد الأمور زواله في زلة

خشن الحكومة في السباب عتدا^٨
فانهار بينة، ودك شهيدا^٩
حكمت به نقضا ولا توكيدا
تبقى على جيد الزمان قصيدا؟
من أن أزيدهمو الثناء عقودا
تاجا على هاماتهم معقودا^{١٠}
منوا على أوطانهم مجهودا
من بعد ما رفع البناء مشيدا
ولكل شر بالبلاد أريدا
قامت على الحق المبين عمودا^{١١}
يتجاوزون إلى الحياة الجودا
لم يطلبوا أجر الجهاد زهيدا^{١٢}
يوم تسميه الكنانة عيدا
من ذا يحطم للبلاد قيودا؟
قد صرن من ذهب، وكن حديدا^{١٣}
لا تنجلي، وعلى الضفاف عديدا^{١٤}
واستأنفوا نفس الجهاد مديدا
وقفوا بمصر الموقف المحمودا^{١٥}
يبغون أسباب السماء قعودا
كنّا عليكم في الأمور وفودا
ركن الحضارة بانحا وشديدا
يبنى على الأسس العتاق جديدا
أن تجعلوه كوجهه معبودا
وإذا فرغتم، واعبدوه هجودا^{١٦}
بلدا كأوطان النجوم مجيدا^{١٧}
للعبقرية والفنون مهودا
لا ترج لإسمك بالأمور خلودا

الفرد بالشُّورى، وباسم نديها خلعتهُ دون المسلمين عصابةً يقضون ذلك عن سوادٍ غافل جعلوا مشيئته الغبية سلماً إني نظرتُ إلى الشعوب فلم أجد الجهلُ لا يلدُ الحياةَ موأته لم يخلُ من صُورِ الحياة، وإنما وإذا سبى الفردُ المُسلطُ مجلساً ورأيتُ في صدرِ الندى مُنوماً الحقُّ سهمٌ، لا ترشهُ بباطلٍ والعبُ بغير سلاحه، فلربما لُفطَ (الخليفة) في الظلام شريداً^{١٨} لم يجعلوا للمسلمين وجوداً خُلِقَ السوادُ مُضلاً ومَسوداً^{١٩} نحو الأمور لمن أراد صعوداً كالجهل داءً للشعوب مُبيداً إلا كما تلدُ الرِّمَامُ الدوداً^{٢٠} أخطأه عُصرُها، فمات وليداً^{٢١} ألفتِ أحرارَ الرجال عبيداً في عُصبةٍ يتحرَّكون رُقوداً ما كان سهمُ المُبطلين سديداً^{٢٢} قتلَ الرجالَ سلاحهُ مردوداً

هوامش

(١) بأبي وروحي: أي أفندي بهما. والغيد: جمع غيداء وهي الجارية اللينة الأعطاف. واليتيم من كل شيء: ما لا نظير له، والمراد هنا الأسنان. والنضيد: المنضود المتسق.

(٢) الرانيات: اللاتي يُدمن النظر بطرف ساكن. والأحور: من الحور وهو شدة سواد العين في شدة بياضها. والعميد من القلوب: ما هدَّه العشق.

(٣) السلاف: أطيب الخمر، ويراد به هنا سحر العيون. والناهل: الرِّيان. والسوالف: صفحات الأعناق.

(٤) الغدائر: جمع غديرة وهي الذؤابة من الشعر. والقودود: جمع قُد وهو القامة.

(٥) الوشي: النممة والتحسين. والغلائل: الأثواب الرقيقة. والفريد: الدُر المنظوم.

(٦) حدجه بنظره: حدد النظر إليه. والحدق: الأحداق. والدمية: الصورة المنقشة المزينة، فيها حمرة كالدم، ويضرب بها المثل في الحسن، ويراد بها هنا الحسناء. ووجرة: موضع بين مكة والبصرة تسكنه الطباء والوحوش، والمراد في هذا البيت أن أولئك الجميلات على ما أسبغ الله عليهن من نعمة الجمال، وقفن ينظرن إلى هذه الحسناء التي

ابتدأ الشاعر في وصفها، يحسّنها على ما أوتيت من سحر؛ ويدلك هذا الحسد على أن حظها من الحسن عظيم.

(٧) المصفود: الموثق المغل، وهنا يتخلص الشاعر من هذا الغزل الرقيق؛ ليسوق إليك ما أراد من تعزية السجناء عما نالهم من ظلم، وتهنئتهم بما أتيح لهم من نجاة، ثم شكر المحسنين إلى هؤلاء السجناء.

(٨) خشن الحكومة: أي قاسياً. والعetid: الجسيم، وهو هنا الجسيم من الظلم.

(٩) الشهيد: الشاهد. وانهايار البيئة: ثبوت بطلانها. وسقوط الشهود: ثبوت

تزويرهم.

(١٠) الهامات: الرعوس.

(١١) القضية: السياسة المصرية.

(١٢) يريد بالجلء جلاء الجنود الإنجليزية المحتلة عن أرض البلاد.

(١٣) تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢.

(١٤) منابع النيل.

(١٥) تنكبوا العدوان: أي تجنبوه.

(١٦) الهجود: جمع هاجد وهو النائم أو المصلي بالليل.

(١٧) حباه: أعطاه. وأوطان النجوم: كناية عن السماء.

(١٨) الندى: المجمع. ولفظه: رمى به وطرحه.

(١٩) سواد الناس: عامتهم.

(٢٠) موات الجهل: الخراب الذي يحدث بسببه. والرمام: جمع رمة وهي العظام

البالية، والمراد بها هنا الجيفة. ومعنى البيت أن الجاهل ميت، والميت بطبعه لا يلد ولا يأتي بعظيم، فإن ولد فكالجيفة المستحيلة لا ينشأ منها إلا الدود.

(٢١) الإشارة إلى الدود في البيت السابق.

(٢٢) راش السهم يريشه: ألصق عليه الريش حتى يكون أكثر نفاذاً.

على سفح الأهرام^١

قف ناج أهرامَ الجلالِ، ونادِ:
نشكو، ونَفزَعُ فيه بين عيونهم
ونُبِثُّهم عبثَ الهوى بثرائهم
ونُبِينُ كيف تفرَّقَ الإخوانُ في
إن المغالطَ في الحقيقةِ نفسَه
هل من بُناتِكَ مجلسٌ أو نادٍ؟^١
إن الأبوةَ مَفزَعُ الأولادِ^٢
من كل مُلقٍ للهوى بقيادِ^٣
وقتِ البلاءِ تفرَّقَ الأضدادِ^٤
باغٍ على النفسِ الضعيفةِ عادِ^٥

قل للأعاجيبِ الثلاثِ مقالةً
لله أنتِ، فما رأيتُ على الصفا
لكِ كالمعابدِ روعةً قدسيَّةً
أسستِ من أحلامهم بقواعد
تلك الرمالُ بجانبيكِ بقيَّةً
إن نحن أكرمنا النزِيلَ حيالها
هذا (الأمين) بحائطيكِ مطوِّقاً
من هاتِفٍ بمكانهن وشادِ^٦
هذا الجلالَ ولا على الأوتادِ^٧
وعليكِ روحانيَّةُ العُبادِ^٨
ورُفعتِ من أخلاقهم بعمادِ^٩
من نعمةٍ، وسماحةٍ، ورمادِ^{١٠}
فالضيفُ عندك موضِعُ الإرفادِ^{١١}
متقدِّمَ الحُجَّاجِ والوُقُودِ؟^{١٢}

^١ أمين أفندي الريحاني أديب من أدباء سوريا، وفد على مصر فأقام له بعض الأدباء حفلاً على سفح الأهرام، شاطروهم إيَّاه صاحب الديوان.

إن يعدُّه منك الخلودُ، فشعرُهُ باقٍ، وليس بيانُهُ لنفاد^{١٣}

إيه (أمينُ)، لمستَ كلَّ مُحجَّبٍ في الحسن من أثر العقول وبادي^{١٤}
 قم قبْل الأحجارِ والأيدي التي أخذتْ لها عهدًا من الآباد^{١٥}
 وخُذ النبوغَ عن الكنانة، إنها مهْدُ الشموِس، ومَسْقَطُ الآراد^{١٦}
 أمَّ القرى — إن لم تكن أمَّ القرى — ومثابَةُ الأعيان والأفراد^{١٧}
 ما زال يغشى الشرقَ من لمحاتها في كل مُظْلِمَةٍ شُعاعٌ هادي^{١٨}
 رفعوا لك الريحان كاسمك طيبًا إن العَمَارَ تحيَّةُ الأمجاد^{١٩}
 وتخَيَّرُوا للمِهْرَجَان مكانه وجعلتُ موضعَ الاحتفاءِ فؤادي^{٢٠}
 سلف الزمان على المودَّة بيننا سنواتٌ صحو بل سنواتٌ رقاد^{٢١}
 وإذا جمعت الطيباتِ رددتها لعتيقِ خمِرٍ أو قديمٍ وداد^{٢٢}
 يا نجمَ سوريًّا — ولست بأولٍ — ماذا نَمَتَ من نَيْرٍ وقاد؟^{٢٣}
 اطلُّعْ على يَمَنِ بِيَمْنِكَ في غِدٍ وتجلَّ بعد غِدٍ على بغداد
 وأجلَّ خيالك في طُلُولِ مماليكٍ مما تجوبُ، وفي رُسُومِ بلاد^{٢٤}
 وسل القبورَ — ولا أقول سل القرى — هل من ربيعة حاضِرٌ أو بادي^{٢٥}
 سترى الديار من اختلافِ أمورها نطقَ البعيرُ بها، وعَيَّ الحادي^{٢٦}

قضيتَ أيامَ الشبابِ بعالم لبس السنين قشيبَةَ الأبراد^{٢٧}
 ولدَ البدائعَ والروائعَ كلها وعدَّتْهُ أن يلدَ البيانَ عوادي
 لم يَخترعَ شيطانَ حَسَّان، ولم تُخرجَ مصانِعُه لسانَ زياد^{٢٨}
 الله كَرَّمَ بالبيان عصابةً في العالمينَ عزِيْزَةَ الميلاد
 (هوميرُ) أحدثُ من قرونِ بعده شعرًا، وإن لم تخلُ من آحاد^{٢٩}
 والشعرُ في حيث النفوسُ تَلَدُهُ لا في الجديد، ولا القديم العادي
 حقَّ العشيرة في نبوغك أولًا فانظر، لعلك بالعشيرةِ بادي^{٣٠}
 لم يَكْفِهِم شطرُ النبوغِ، فزدهمُ إن كنت بالشرطين غيرَ جواد
 أو دَعَّ لسانك واللغاتِ، فربَّما غنى الأصيلُ بمنطقِ الأجداد

إن الذي ملأ اللغات محاسنًا جعلَ الجمالَ وسرَّهُ في الضاد^{٢١}

هوامش

- (١) ناج: من المناجاة وهي المسارة. والجلال: التناهي في عظم القدر. والبناة: جمع بان. المجلس: مكان الجلوس. والنادي: اسم للمجلس حين يجتمع فيه القوم ليتحدثوا، فإذا تفرّقوا فليس ناديًا.
- (٢) نشكو: نعلن الشكوى. ونفزع: نستغيث، وضمير «فيه» للمجلس أو النادي. بين عيونهم: أي أمامهم. والأبوة: كون الرجل أبا.
- (٣) نبثُّهم: نكاشفهم. والعبث: اللعب. والهوى: إرادة النفس، وهو غالب في الشرّ. القياد: في الأصل حبل يقاد به.
- (٤) نبين: مضارع أبان الشيء أي أوضحه. والبلاء: الغمُّ يبلي الجسم.
- (٥) المغالط نفسه: موقعتها في الغلط. باغ: ظالم. عاد: ظالم أيضًا.
- (٦) الأعاجيب الثلاث: يريد بها الأهرام الثلاثة، وإنما كانت أعاجيب؛ لأن الإنسان يستعظمها، فتعتريه روعة عند ذلك وهذا هو العجب، والمفرد أعجوبة وهي اسم لما يكون العجب منه. هاتف: مادح، من هتف به أي مدحه. شاد: من شدا الشعر أي غنى به وترنّم.
- (٧) الصفا: جمع صفاة وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت. الأوتاد: الجبال.
- (٨) الروعة: الفزعة، والمسحة من الجبال، والعبّاد: جمع عابد.
- (٩) الأحلام: العقول، جمع حلم. وعماد الشيء: ما يسند به. والخطاب في هذا البيت والبيتين قبله للأعاجيب الثلاث.
- (١٠) السماحة: موافقة الرجل على ما يراد منه، وهي الجود والعطاء أيضًا. والرماد: ما يبقى من المواد المحترقة بعد احتراقها، وقد كنّى به عن الكرم كما يقولون: فلان كثير الرماد أي كريم؛ لأنه يكثر من إيقاد النار لكثرة صنع الطعام للأكلين من الأضياف.
- (١١) النزيل: الضيف. وحيالها: قبالتها. الإرفاد: الإعطاء.
- (١٢) مطوّفاً: دائراً حولهما. والحجّاج: القُصّاد. والوُفّاد: جمع وافد، من وفد إذا قدم.

(١٣) إن يعدة: أي إن يجاوزه ويفته. والخلود: الدوام والبقاء، والمراد خلود الذكر لا خلود الشخص. والنفاذ: الذهاب والانقطاع.

(١٤) إيه: اسم فعل معناه زدني من حديثك. المحجَّب: المستور. البادي: الظاهر.

(١٥) الآباد: جمع أبد وهو الدَّهر.

(١٦) النبوغ: الإجابة. والكنانة: مصر. والآراد: جمع راد، والمراد الضحى، وهو وقت

ارتفاع الشمس، وانبساط الضوء في الخمس الأول من النهار.

(١٧) القُرى: الضيافة، أو ما قُري به الضيف. والقُرى: جمع قرية. والمثابة: مجتمع

القوم بعد تفرُّقهم. والأعيان: جمع عين وهو كبير القوم وشريفهم. أفراد الناس: كبارهم، ولا يقال للإنسان الواحد فرد، بل يقال له فريد.

(١٨) يغشى الشرق: يغطيه. واللمحات: جمع لمحة وهي النظرة الخفيفة بالعجلة.

والشعاع: ما ينتشر من ضوء الشمس.

(١٩) الريحان: نبات طيب الرائحة. والأمجاد: جمع مجيد وهو الكريم الشريف.

(٢٠) المهرجان: هو عيد الفرس، وكان يوافق أول الشتاء، ثم صار في الخريف،

والمراد به هنا الاحتفال. والاحتفاء: المبالغة في الإكرام وإظهار السرور والفرح.

(٢١) سلف: مضى. والسنوات: جمع سَنَة. والسنوات: جمع سَنَة وهي النعاس.

والرقاد: النوم.

(٢٢) رددتها: أي أرجعت نسبته. والعتيق: القديم.

(٢٣) ولست بأول: احتراس من الإطلاق، أي وإن كنت نجم سوريا فلست الأول من

نجومها، الأول سواك، أو لست أول نجم لها، فقد سبقك أوائل آخرون. وماذا نمت: أي كم ذا رفعت بالانتساب إليها.

(٢٤) الطلول: جمع طلل وهو ما شخص من آثار الدار. والرسوم: جمع رسم وهو

الأثر.

(٢٥) ربعية: قبيلة من العرب. والحاضر: مَنْ ينزل الحضر. والبادي: مَنْ يذهب إلى

البادية.

(٢٦) عيَّ الحادي: لم يستطع البيان والإفصاح.

(٢٧) قضيت: خطاب للريحاني. والعالم الذي قضى به أيام شبابه هو أمريكا التي

قام بها. قشبية الأبراد: جديدها. والأبراد: جمع برد.

(٢٨) لم يخترع.. إلخ: يريد أنه عالم لم يرتق في اختراعه إلى حيث يبتدع البلاغة اللسانية التي كرم الله بها العرب. وحسان: الشاعر الصحابي المعروف. وزيا: هو زياد بن أبي سفيان، كان من أخطب العرب.

(٢٩) هومير: شاعر يوناني قديم، كان شعره قصصًا يضمّنه وصف الأبطال والإشادة بذكرهم، وهو صاحب الإلياذة، يريد أن شعره — على أنه قديم — أجود من شعر الذين جاءوا بعده، وإن كانت أيامهم لم تخل من شعراء مجيدين هم آحاد في عددهم.

(٣٠) حق العشيرة.. إلخ: في هذا البيت والأبيات بعده أمور أخذ بها الريحاني في رفق ولين، فهو يقول له: إن كانت معانيك في كتابتك جيدة، فألفاظك فيها رديئة؛ لأنك أهملت جانب اللغة العربية، وهي الشطر الثاني من شطري النبوغ، وأيضًا يقتضي الوفاء لعشيرتك وقومك أن تحسن لغتهم حتى تغني بها.

(٣١) الضاد: اللغة العربية، وإنما سميت كذلك؛ لأن الضاد لا توجد في لغة سواها، ولا يقوى أهل اللغات الأخرى على النطق بها.

المطرية تتكلم^١

وُفِّقَتْ، نشرُ العلم مثلُ الجهاد
تبني بيوتَ العلم في كل ناد
واخترقوا السبعَ الطِّبَاقَ الشَّدَادَ^١
قومٌ لسوقِ العلم فيهم كساد؟
إذا غلا الدرُّ غلا الانتقاد^٢
وأسهلَ القولَ على مَنْ أراد
منك قبولاً، فالشكاوى تُعاد^٣
فالفضلُ إن وُزَّعَ بالعدلِ زاد^٤
مدرسةً في كلِّ حيٍّ تُشاد
كنتُ أنا السيفَ، وكنَّ النِّجاد^٥
ساد (كإِدْوَرْد) زماناً وشاد^٦
من قبل سقراطَ ومن قبل عاد^٧
بلك خافٍ من رموزي وباد^٨
أوجيَ مِنْ بعدُ إليه فهاد^٩

يا ناشرَ العلم بهذا البلادُ
بانيَ صَرْحِ المجدِ، أنتَ الذي
بالعلم ساد الناسُ في عصرهم
أيطلب المجدَ ويبغي العلا
نَقَّادُ أعمالك مُغِلُّ لها
ما أصعبَ الفعلَ لِمَنْ رامه
سمعاً لشكاوي، فإن لم تجد
عدلاً على ما كان من فضلكم
أسمعُ أحياناً، وحيناً أرى
قَدِّمْتَ قبلي مدناً أو قُرى
أنا التي كنت سريراً لِمَنْ
قد وَحَّدَ الخالقَ في هيكلٍ
وهذَّبَ الهندُ دياناتهم
ومن تلاميذي موسى الذي

^١ أحسَّ صاحب الديوان أيام كان يسكن «المطرية» بحاجة هذا البلد إلى مدرسة تهذَّبُ أبناؤه فناشد وزير المعارف يومئذ «سعد زغلول باشا» على لسان المطرية أن يقوم بإنشاء هذا الأثر الجليل.

وَأَرْضَعَ الْحِكْمَةَ عَيْسَى الْهَدَى
مَدْرَسَتِي كَانَتْ حِيَاضَ النَّهْيِ
مَشَايِخُ الْيُونَانِ يَأْتُونَهَا
كَنَا نَسْمِيهِمْ بِصَبْيَانِهِ
ذَلِكَ أُمِّسِي، مَا بِهِ رَيْبَةٌ
أَصْبَحْتُ كَالْفَرْدُوسِ فِي ظِلِّهَا
لَوْلَا جُلَى زَيْتُونِي النَّضْرُ، مَا
الْوَاحَةُ الزَّهْرَاءُ ذَاتَ الْغَنَى
تُرِيكَ بِالصَّبْحِ وَجَنَحِ الدُّجَى
أَيَّامَ تُرْبِي مَهْدُهُ وَالْوَسَادُ^{١٠}
قَرَارَةُ الْعَرْفَانِ، دَارَ الرِّشَادِ^{١١}
يُلْقُونَ فِي الْعِلْمِ إِلَيْهَا الْقِيَادَ
وَصَبِيتِي بِالشَّيْبِ أَهْلُ السَّدَادِ^{١٢}
وَيَوْمِي (الْقَبَةُ) ذَاتَ الْعِمَادِ^{١٣}
مَنْ مِصْرَ لِلخَنَكَا لِظِلِّي امْتِدَادَ
أَقْسَمَ بِالزَيْتُونِ رَبُّ الْعِبَادِ^{١٤}
تُرْبِي الَّتِي مَا مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ^{١٥}
بَدُورَ حَسَنِ، وَشُمُوسَ اتِّقَادَ

بَنِيَّ — يَا سَعْدُ — كُزْغِبِ الْقَطَا
إِنْ فَاتَكَ النِّسْلُ فَأَكْرِمْ بِهِمْ
أَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ أَدَى رَائِحِ
صَفِيرُهُ يَسْلُبُنِي رَاحَتِي
يَعْقُوبُ مِنْ ذَنْبٍ بَكَى مُشْفِقًا
فَانْظُرْ — رَعَاكَ اللَّهُ — فِي حَاجِهِمْ
قَدْ بَسَطُوا الْكَفَّ عَلَى أَنْهَمُ
إِنْ طُلِبَ (الْقَسْطُ) فَمَا مِنْهُمْ
لَا نَقُصُّ اللَّهَ لَهُمْ مِنْ عِدَادِ^{١٦}
وَرُبَّ نَسْلٍ بِالْنَدَى يُسْتَفَادُ
يَجْمَعُهُمْ فِي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ غَادِ^{١٧}
وَيَمْنَعُ الْجَفْنَ لَذِيذَ الرِّقَادِ^{١٨}
فَكَيْفَ أَنْيَابُ الْحَدِيدِ الْحِدَادِ؟^{١٩}
فَنَظْرَةُ مَنْكَ تُنِيلُ الْمَرَادِ^{٢٠}
فِي كَرَمِ الرَّاحِ كَصُوبِ الْعِهَادِ^{٢١}
إِلَّا جَوَادٌ عَنْ أَبِيهِ الْجَوَادِ

هوامش

(١) ساد الناس: مجدوا وجلوا. والسبع الطَّباق: السموات السبع، وهي طباق أي مطابقة بعضها بعضاً.

(٢) النَّقَاد: مبالغة من النقد، وهي في الكلام: إظهار ما به من العيوب، وفي غير الكلام: النظر إلى الشيء لمعرفة جيده من رديئه. ومغلٍ لها: من أغلى الشيء أي جعله غالياً.

(٣) سَمْعًا لَشَكْوَايَ: أي اسمعها سمعاً.

- (٤) عدلاً: أي أطلب عدلاً زائداً على ما حصل من فضلكم.
- (٥) النّجاد: حمائل السيف.
- (٦) السرير: تخت الملك. وساد: صار سيّد قومه متسلطاً عليهم. وإدورد: ملك الإنجليز قبل الملك جورج القائم حينذاك. وشاد: رفع البناء.
- (٧) الهيكل: بيت الأصنام. وسقراط: حكيم من حكماء اليونان. وعاد: اسم رجل من العرب الأولى سُمّيَت به قومه، وهم الذين أرسل إليهم هود نبي الله (عليه السلام).
- (٨) هذّب الشيء: خلّصه مما يشينه وطهره من العيوب. والخافي: المستتر. والبادي: الظاهر.
- (٩) موسى: النبي (عليه السلام). وأوحى إليه: أنزل الله عليه الوحي. وهاد: رجع إلى الحق.
- (١٠) الحكمة: صواب الأمر، ووضع الشيء في موضعه، والعلم، والعدل، والحلم. وعيسى: ابن مريم (عليه السلام). والترب: التراب. والمهد: الموضع يهياً للصبي. والوساد: المتكأ وكل ما يتوسّد به من قماش وغيره، أي أيام أن كان ترابي مهده ووساده.
- (١١) مدرسة المطرية القديمة: إحدى مدارس العلم الكبرى عند المصريين القدماء، وكان يقصدها الطلاب من بلاد اليونان وغيرها. القرارة: القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر.
- (١٢) وصبتي بالشيب: أي وتسمّى صبتي بالشيب.
- (١٣) القبة: ناحية من ضواحي القاهرة، بها قصر عظيم بناه الخديو عباس حلمي، وقد غلب اسمها على هذا القصر. والعماد: الأبنية الرفيعة، تذكر وتؤنّث، مفردها عمادة.
- (١٤) الزيتون: شجر مثمر معروف، وثمره يُسمّى زيتوناً أيضاً، وتسمّى به ضاحية أخرى من ضواحي القاهرة مجاورة للقبة.
- (١٥) الواحة الزّهراء: هي واحة عين شمس، والواحة: وادٍ متسع منخفض في الصحراء.
- (١٦) الزغب: جمع أزغب وهو ما له شعر أو ريش صغير. القطا: جمع قطاة وهي طائر في حجم الحمامة.
- (١٧) رائح: غاد، يريد قطار البخار الذي يركبه الأبناء إلى المدارس في القاهرة.
- (١٨) صغيره: أي صغير القطار.

- (١٩) يعقوب: النبي أبو يوسف (عليه السلام)، بكى على يوسف حين رجع إليه
أبنائوه إخوة يوسف (عليه السلام) فأخبروه أن الذئب أكله، وقد كان يخاف عليه هذا من
قبل، وقصة ذلك مبسوبة في كتب التاريخ الديني.
- (٢٠) الحاج: جمع حاجة.
- (٢١) كصوب العهد: أي كنزول المطر. والعهد: جمع عهد، والمطر ينزل متعاقبًا
فيدرك آخره أوله.

الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد

سَلْ «يَلْدِرَا» ذَاتَ الْقُصُورِ
لو تَسْتَطِيعُ إِجَابَةً
أَخْنِي عَلَيْهَا مَا أَنَا
ودها الْجَزِيرَةَ بَعْدَ إِسْمَاعِيلِ
ذَهَبَ الْجَمِيعُ، فَلَا الْقُصُورِ
فَلِكُ يَدُورُ سَعُودُهُ
أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذُرَا
الْمُتَرَعَاتُ مِنَ النِّعِ
الْعَاثِرَاتُ مِنَ الدَّلَالِ
الْأَمْرَاتُ عَلَى الْوَلَا
النَّاعِمَاتُ، الطَّيِّبَا
الذَّاهِلَاتُ عَنِ الزَّمَا
الْمُشْرِفَاتُ — وَمَا انْتَقَلَ
مِنْ كُلِّ بَلْقَيْسٍ عَلَى
أَمْضَى نَفْوَذًا مِنْ زُبَيْ
بَيْنَ الرِّفَارِفِ، وَالْمَشَا
وَالرُّوضِ فِي حِجْمِ الدَّنَا

هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ الْبَدُورِ؟^١
لِبِكْتُكَ بِالدَّمْعِ الْغَزِيرِ
خَ عَلَى الْخَوَزْنَقِ وَالسَّدِيرِ^٢
وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ^٣
رُ تُرَى، وَلَا أَهْلُ الْقُصُورِ
وَنَحْوُسُهُ بِيَدِ الْمَدِيرِ
هَا مِنْ مَلَائِكَةٍ وَحُورِ؟^٤
مِ، الرُّوَايَاتُ مِنَ السَّرُورِ
لِ، النَّاهِضَاتُ مِنَ الْغُرُورِ
ةِ، النَّاهِيَّاتُ عَلَى الصَّدُورِ^٥
تُ الْعَرْفِ، أَمْثَالُ الزُّهُورِ^٦
نِ بِنَشْوَةِ الْعَيْشِ النُّضِيرِ
نَ — عَلَى الْمَمَالِكِ وَالْبُحُورِ
كُرْسِيِّ عِزَّتِهَا الْوُثِيرِ^٧
دَّةٌ فِي الْإِمَارَةِ وَالْأَمِيرِ^٨
رِفِ، وَالزَّخَارِفِ، وَالْحَرِيرِ^٩
وَالْبَحْرِ فِي حِجْمِ الْغَدِيرِ

والدرّ مؤتلقِ السنا
 في مسكن فوق السّما
 بين المعازل، والقنا
 سَمَّوْهُ (يَلْدِزْ)، والأفو
 دارت عليهنّ الدّوا
 أمسين في رِقِّ العبيل
 ما ينتهين من الصلا
 يطلبن نُصرة ربّهن،
 صبغ السواد حَبِيرَهُنَّ
 أنا إن عجزتُ فإن في
 خَطْبُ الإمام على النّظير
 عظة الملوك، وعبرة الـ
 شيخ الملوك وإن تضع
 نستغفر المولى له
 ونراه عند مُصابه
 ونصونّه، ونُجلّه
 عبد الحميد، حسابُ مث
 سُدَّتِ الثلاثين الطوا
 تنهى وتأمّر ما بدا
 لا تستشير وفي الجمى
 كم سَبّحوا لك في الروا
 ورأيَتهم لك سجداً
 خفضوا الرُّؤوسَ ووَتّروا
 ماذا دهاك من الأمو
 ما كنت إن حدثتُ وجلّت
 أين الرّويّة، والأنّا
 إنّ القضاء إذا رمى

والمسك فيّاحِ العبير
 ك، وفوق غاراتِ المغير^{١١}
 والخيل، والجَمّ الغفير
 لُ نهاية النجمِ المغير
 ثُرُ في المخادع والحدور^{١٢}
 وبثّن في أسِرِ العشير^{١٣}
 عِ ضراعةً ومن النذور
 وربُّهن بلا نصير^{١٤}
 وكان من يققِ الخُبور^{١٥}
 بُردَيّ أشعرَ من (جَريِر)
 م يعزُّ شرحاً والنّثير
 أيام في الزمنِ الأخير
 ضع في الفؤادِ وفي الضمير
 والله يعفو عن كثير
 أولى بباكٍ أو عَذير
 بين الشّماتَةِ والنكير
 لِكَ في يد الملكِ الغفور
 ل، ولسنَ بالحُكم القصير^{١٦}
 لك في الكبير وفي الصغير
 عددُ الكواكب من مُشير
 ح، وألّهوك لدى البُكور
 كسجد موسى في الحضور^{١٧}
 بالذلّ أقواسَ الظهور^{١٨}
 ر وكنت داهيةَ الأمور؟
 بالجزوع ولا العثور
 ة، وحكمةُ الشيخِ الخبير؟
 دكّ القواعد من (تَبير)^{١٩}

دخلوا السرير عليك يح
أَعْظُمُ بِهِمْ مِنْ أَسْرِي
أَسَدُ هَـصُورٍ أَنْشَبَ الـ
قالوا: اعتزل. قلت: اعتزلـ
صبروا لدولتك السنيـ
أُذِيَتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ
وَعُضِبَتَ كَالْمَنْصُورِ أَوْ
ضُنُّوا بِضَائِعِ حَقِّهِمْ
هَلَّا احْتَفَظْتَ بِهِ احْتِفَا
هُوَ حِلْيَةُ الْمَلِكِ الرَّشِيدِ
وبه يُبَارَكُ فِي الْمَمَا

تَكْمُونَ فِي رَبِّ السَّرِيرِ^{٢٠}
نَ وَبِالْخَلِيفَةِ مِنْ أَسِيرِ
أَظْفَارَ فِي أَسَدِ هَـصُورِ^{٢١}
تُ. وَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْقَدِيرِ
نَ، وَمَا صَبَرْتَ سِوَى شُهُورِ
وَحَنَنْتَ لِلْحَكْمِ الْعَسِيرِ
هَارُونَ فِي خَالِي الْعُصُورِ^{٢٢}
وَضَنْنْتَ بِالدُّنْيَا الْغُرُورِ
ظَ مُرَحَّبٍ فَرِحَ قَرِيرِ؟
دِ، وَعِصْمَةُ الْمَلِكِ الْغَرِيرِ
لِكَ وَالْمُلُوكِ عَلَى الدُّهُورِ

يَأْيُهَا الْجَيْشُ الَّذِي
يَخْفَى، فَإِنْ رِيْعَ الْحَمَى
كَالْليثِ، يَسْرِفُ فِي الْفِعَا
الْخَاطِبِ الْعَلِيَاءِ بِالـ
عِنْدَ الْمُهِيمِنِ مَا جَرَى
يَتَلَوُ الزَّمَانُ صَحِيفَةً
فِي مَدْحِ (أُنُورِكَ) الْجَرِي
يَا (شُوكَتِ) الْإِسْلَامِ، بَلِ
وَابْنَ الْأَكَارِمِ مِنْ بَنِي
الْقَابُضِينَ عَلَى الصَّلِيـ
هَلْ كَانَ جَدُّكَ فِي رَدَا
فَقَنْصَتَ صَيَّادَ الْأَسُودِ
وَأَخَذَتْ (يَلْدَرْ) عَنُوءَ

لَا بِالدَّعْيِ، وَلَا الْفَخُورِ
لَفَتَ الْبَرِيَّةَ بِالظُّهُورِ^{٢٣}
لِ، وَلَيْسَ يُسْرِفُ فِي الزَّئِيرِ^{٢٤}
أَرْوَاحَ غَالِيَةِ الْمَهُورِ
فِي الْحَقِّ مَنْ دَمَكَ الطُّهُورِ
غَرًّا مُذْهَبَةَ السُّطُورِ
ءِ، وَفِي (نِيَاذِيكَ) الْجَسُورِ
يَا فَاتِحَ الْبَلَدِ الْعَسِيرِ^{٢٥}
(عُمَرَ) الْكَرِيمِ عَلَى (الْبَشِيرِ)^{٢٦}
لِ كَجَدِّهِمْ، وَعَلَى الصَّرِيرِ^{٢٧}
ثُكَ يَوْمَ زَحْفِكَ وَالْكُرُورِ؟
دِ، وَصِدْتَ قَنَاصَ النُّسُورِ
وَمَلَكْتَ عِنَقَاءَ الثُّغُورِ^{٢٨}

المؤمنون (بمصر) يُهـ
ويُبايعونك يا (محمـ
قد أَمَلُوا لَهْلَاهُمْ
فابْلَغْ بِهِ أَوْجَ الْكَمَا
أَنْتَ الْكَبِيرُ، يُقَلِّدُو
شَيْخَ الْغُزَاةِ الْفَاتِحِ
يَمْضِي وَيَغْمَد بِالْهَدَى
بُشْرَى الْإِمَامِ مُحَمَّد
بُشْرَى الْخِلَافَةِ بِالْإِمَا
الْبَاعِثِ الدُّسْتُورَ فِي الْـ
أَوْدَى «مَعَاوِيَةَ» بِهِ
فَعَلَى الْخِلَافَةِ مِنْكُمْ

دُونَ السَّلَامِ إِلَى الْأَمِيرِ
دُ) فِي الضَّمَائِرِ وَالصُّدُورِ^{٢٩}
حَظَ الْأَهْلَةِ فِي الْمَسِيرِ
لِ بَقْوَةِ اللَّهِ النَّصِيرِ
نَكَ سَيْفَ (عَثْمَانَ) الْكَبِيرِ
نَ، حُسَامُهُ شَيْخُ الذُّكُورِ^{٣٠}
فَكَأَنَّهُ سَيْفُ النَّذِيرِ^{٣١}
بِخِلَافَةِ اللَّهِ الْقَدِيرِ
مِ الْعَادِلِ النَّزْهِ الْجَدِيرِ
إِسْلَامٍ مِنْ حُفَرِ الْقُبُورِ
وَبِعَثَّتِهِ قَبْلَ النُّشُورِ^{٣٢}
نُورٌ تَلَأَلَا فَوْقَ نُورِ^{٣٣}

هوامش

- (١) يلدز: في لغة الترك: اسم نجم، وقد سُمِّيَ به قصر عظيم في الآستانة، كان يسكنه السلطان عبد الحميد أيام ملكه، والمخاطب بقوله (سل.. إلخ) هو هذا السلطان.
- (٢) أخصني عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه. والخورنق: قصر كان في الحيرة بالعراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر. والسدير: قصر كان بالحيرة أيضاً للمناذرة.
- (٣) دهاه الأمر: أصابه. والجزيرة: هي جزيرة الروضة في النيل شرقي القاهرة، وكان بها قصر عظيم من قصور الخديو إسماعيل، وهو المراد.
- (٤) الأوانس: جمع آنسة وهي الطيبة النفس. والخور: جمع حورية وهي المرأة البيضاء الناعمة.
- (٥) المترعات: جمع مترعة، من أترع الإناء أي ملأه.
- (٦) الولاة: جمع والٍ. الصدور: جمع صدر، ويقال له الصدر الأعظم، وهو كبير وزراء السلطان في الدولة التركية.
- (٧) العرف: الرائحة الطيبة.
- (٨) بلقيس: ملكة سبأ من أرض اليمن، وقصتها مع الملك سليمان مبسوبة في كتب التاريخ الديني. والوثير: اللين الموطئ.

- (٩) زبيدة. زوجة الخليفة هارون الرشيد.
- (١٠) الرِّفَّارِف: جمع رفرِف، وهو الفراش. والمشارِف: جمع مشرف، وهو الموضع يشرف منه، ومشارِف الأرض: أعالِيتها.
- (١١) السَّمَاك: كوكب.
- (١٢) الدوائِر: جمع دائرة وهي النائبة من صروف الدهر. والمخادع: جمع مخدع (بضم الميم وكسرهما) بيت يكون في البيت الكبير يحرز فيه الشيء.
- (١٣) العبيل: الضخم الغيظ.
- (١٤) ربهن: سيدهن وهو السلطان عبد الحميد.
- (١٥) الحبير: الناعم الجديد. اليقق: الشديد البياض.
- (١٦) الثلاثين الطوال: الأعوام التي مضت له وهو سلطان.
- (١٧) كسجود موسى في الحضور: أي حضوره حين تجلَّى له الله فكلمه.
- (١٨) وتَرَوَا بالذِّلَّ أقواس الظهور: أي جعلوا الذِّلَّ وتَرَاً لأقواس ظهورهم، يعني أن الذِّلَّ قَوَّسٌ ظهورهم كما يفعل الوتر بالقوس إذا شُدَّ عليها.
- (١٩) ثبير: جبل معروف.
- (٢٠) يحتكمون في ربِّ السرير: يتصرَّفون فيه وفق مشيئتهم.
- (٢١) أنشب أظفاره في الشيء: أعلقها فيه.
- (٢٢) أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد: من الخلفاء العباسيين.
- (٢٣) ريع الحمى: أي راعه شيء وأفزعه.
- (٢٤) الزئير: صوت الأسد.
- (٢٥) أنور، ونيازي، وشوكت: كانوا من كبار القوَّاد في الجيش العثماني، وكانوا على رأس الحركة التي قام بها هذا الجيش لحمل السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور وجعله أساس الحكم في البلاد التركيَّة.
- (٢٦) عمر: هو الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كان شوكت باشا من سلالته. والبشير: من أسماء النبي محمد ﷺ.
- (٢٧) الصليل: الصوت يسمع عند المقارعة بالسيوف. الصرير: صوت القلم عند الكتابة به.
- (٢٨) أخذ الشيء عنوة: أي قهراً. العنقاء: طير معروف الاسم مجهول الجسم، يُضْرَبُ مثلاً لكل عزيز ممتنع، والمراد أنه ملك ثغر الأستانة الذي يشبه العنقاء في عزَّته وامتناعه.

الشوقيات

(٢٩) محمد: هو السلطان محمد رشاد الخامس الخليفة بعد السلطان عبد الحميد.

(٣٠) الذكور: جمع ذكر وهو السيف.

(٣١) النذير: من أسماء النبي ﷺ.

(٣٢) أودى به: ذهب به وأضاعه. ومعاوية بن أبي سفيان: أول ملوك الدولة الأموية،

وكان حكم الخلفاء الراشدين قبله شورى بين المسلمين، وهي معنى حكم الدستور، فلماً

أخذ معاوية الملك استقلّ فيه برأيه.

(٣٣) منكما: أي من الخليفة، ومن الدستور.

انتحار الطلبة^١

ناشئٌ في الورْدِ من أيامِه	حسبُه الله، أبا الورْدِ عثر؟ ^١
سدّد السهمَ إلى صدرِ الصبّا	ورماه في حواشيه الغُرر ^٢
بيدٍ لا تعرفُ الشرَّ، ولا	صلّحتُ إلا لتلهو بالأكر ^٣
بُسطتُ للسمِّ والحبل، وما	بُسطت للكأس يومًا والوتر
غفرَ الله له، ما ضرّه	لو قضى من لذّة العيشِ الوطر؟
لم يُمتّع من صبا أيامِه	ولياليه أصيلٌ وسحرٌ
يَتمنى الشيخُ منه ساعةٌ	بحجابِ السمع، أو نورِ البصر ^٤
ليس في الجنةِ ما يشبهه	خِفّة في الظلّ، أو طيبٌ قصر
فصبا الخلدِ كثيرٌ دائمٌ	وصبا الدنيا عزيزٌ مختصر

* * *

كل يوم خبر عن حَدثٍ	سئم العيش، ومن يَسأم يَدْر ^٥
عاف بالدنيا بناءً بعد ما	خَطب الدنيا، وأهدى، ومهر ^٦
حلّ يومَ العُرسِ منها نفسه	رجمَ الله العرُوسَ المختصر ^٧

^١ رأى صاحب الديوان ذلك المفزع الوبئ، الذي يفزع إليه صغار الطلبة في مصر بعد سقوطهم في الامتحانات؛ فنظم لهم هذه القصيدة، يقطع عليهم فيها سبيل اليأس، ويبسط لهم سبيل الأمل.

ضاق بالعيشة ذُرْعًا، فهوى
 راحلاً في مثل أعمارِ المنى
 هارباً من ساحةِ العيش، وما
 لا أرى الأيامَ إلَّا مَعْرَكًا
 ربَّ واهي الجأشِ فيه قَصَفُ
 عن شفا اليأسِ، وبئسَ المُنحَدَرُ^٩
 زاهباً في مثل آجالِ الزَّهر
 شارَفَ الغَمرةَ منها والغُدْرُ^{١٠}
 وأرى الصَّنديدَ فيه من صبرِ^{١١}
 مات بالجبنِ، وأودى بالحدَرِ^{١٢}

* * *

لامه الناسُ، وما أظلمهم
 ولقد أهلكَ عذراً حسناً
 قال ناسٌ: صَرَعَةُ من قدر
 ويقول الطبُّ: بل من جَنَّةٍ
 ويقولون: جفاءٌ راعه
 وامتحانٌ صَعَبَتْهُ وَطْأَةٌ
 لا أرى إلَّا نِظامًا فاسداً
 من ضحاياها — وما أكثرها! —
 ما أرى في العيش شيئاً سرَّه
 نزل العيش، فلم ينزل سوى
 ونهارٍ ليس فيه غِبْطَةٌ
 ودروسٍ لم يُذَلَّلَ قطفها
 ولقد تَنَهَكَه نهكُ الضَّنَى
 ويلَاقِي نَصَبًا مما انطوى
 إخوةٌ ما جَمَعَتْهم رَجْمٌ
 لم يرفرفِ مَلِكُ الحُبِّ على
 خَلَقَ الله من الحُبِّ الورى
 وقليلٌ من تَغاضَى أو عَذَر
 مُرتدي الأكفانِ مُلقَى في الحُفر
 وقديماً ظَلَمَ الناسَ القَدْر
 ورأيتُ العقلَ في الناسِ نَدْر^{١٣}
 من أبٍ أغلظَ قلباً من حَجَر^{١٤}
 شدَّها في العلم أستاذٌ نَكِر^{١٥}
 فَكَّكَ العلمَ، وأودى بالأُسْرُ؟
 ذلك الكارِهُ في غَضِّ العُمُرِ^{١٦}
 وأخفُ العيش ما ساءَ وسر
 شعبةِ الهمِّ، وبَيْداءِ الفِكرِ^{١٧}
 وليالٍ ليس فيهن سَمَر^{١٨}
 عالمٌ إن نطقَ الدرس سَحَر^{١٩}
 ضَرَّةٌ منظرُها سَقَمٌ وضُر^{٢٠}
 في بني العَلاتِ من ضِغْنٍ وشر^{٢١}
 بعضُهم يمشون للبعض الخمر^{٢٢}
 أبويهم أو يُباركُ في الثَّمَر
 وبنى المُلِك عليه وعمر

* * *

نشأ الخير، رويداً، قتلُكم
 لو عصيتم كاذبَ اليأسِ، فما
 في الصِّبا النفسَ ضلالٌ وخُسْر^{٢٣}
 في صباها ينحرُ النفسَ الضَّجَرُ^{٢٤}

تُضْمِرُ الْيَأْسَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
فِيمَ تَجْنُونَ عَلَى آبَائِكُمْ
وَتَعْقُونَ بِلَادًا لَمْ تَزَلْ
فَمَصَابُ الْمُلْكِ فِي شُبَّانِهِ
لَيْسَ يَدْرِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمَا
رُبَّ طِفْلِ بَرَّحَ الْبُؤْسُ بِهِ
وَصَبِيٌّ أَزْرَتْ الدُّنْيَا بِهِ
وَرَفِيعٌ لَمْ يُسَوِّدْهُ أَبٌ
فَلَكَ جَارٌ، وَدُنْيَا لَمْ يَدُمْ
رَوْحُوا الْقُلُوبَ بِلَذَاتِ الصَّبَا
عَالَجُوا الْحِكْمَةَ، وَاسْتَشْفَوْا بِهَا
وَاقْرَءُوا آدَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ
وَاعْنَمُوا مَا سَخَّرَ اللَّهُ لَكُمْ
وَاطْلُبُوا الْعِلْمَ لَذَاتِ الْعِلْمِ، لَا
كَمْ غُلَامٌ خَامِلٌ فِي دَرَسِهِ
وَمُجِدٌّ فِيهِ أَمْسَى خَامِلًا

عندها عن حادثِ الدُّنْيَا خَبِرَ
أَلَمَ التُّكُلِ شَدِيدًا فِي الْكِبَرِ؟
بَيْنَ إِشْفَاقٍ عَلَيْكُمْ وَحَذَرٍ؟
كَمَصَابِ الْأَرْضِ فِي الزَّرْعِ النَّضْرِ
كَانَ يُعْطَى لَوْ تَأْنَى وَانْتَظَرَ
مُطِرَ الْخَيْرِ فَتَيًّا وَمَطَرٌ^{٢٥}
شَبَّ بَيْنَ الْعَرْزِ فِيهَا وَالْخَطَرِ^{٢٦}
مَنْ أَبُو الشَّمْسِ، وَمَنْ جَدُّ الْقَمَرِ؟
عندها السَّعْدُ، وَلَا النَّحْسُ اسْتَمَرَ
فَكَفَى الشَّيْبُ مَجَالًا لِلْكَدْرِ^{٢٧}
وَأَنشَدُوا مَا ضَلَّ مِنْهَا فِي السَّيْرِ^{٢٨}
رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مَنْ غَبِرَ^{٢٩}
مَنْ جَمَالَ فِي الْمَعَانِي وَالصُّورِ^{٣٠}
لَشَهَادَاتٍ وَأَرَابٍ أُخْرِ^{٣١}
صَارَ بَحْرَ الْعِلْمِ، أَسْتَاذَ الْعُصْرِ
لَيْسَ فَيَمَنْ غَابَ أَوْ فَيَمَنْ حَضَرَ

قَاتَلَ النَّفْسَ — وَلَوْ كَانَتْ لَهُ —
سَاحَةُ الْعَيْشِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي
لَا تَمُوتُ النَّفْسُ إِلَّا بِاسْمِهِ
إِنَّمَا يَسْمَحُ بِالرُّوحِ الْفَتَى
فَهَنَّاكَ الْأَجْرُ وَالْفَخْرُ مَعًا

أَسْخَطَ اللَّهَ، وَلَمْ يُرِضِ الْبَشَرَ
جَعَلَ الْوَرْدَ بِإِذْنِ وَالصَّدْرِ^{٣٢}
قَامَ بِالْمَوْتِ عَلَيْهَا وَقَهَرَ
سَاعَةَ الرَّوْعِ إِذَا الْجَمْعُ اشْتَجَرَ^{٣٣}
مَنْ يَعْشُ يُحْمَدُ، وَمَنْ مَاتَ أُجِرَ

هوامش

- (١) حسبه الله: أي كفاه الله.
- (٢) الصبا: الميل إلى جهالة الفتوة. والحواشي: الجوانب.
- (٣) الأكر: جمع أكرة، وهي الكرة.
- (٤) الأصيل: وقت ما بعد العصر إلى المغرب، والسحر: قبيل الصبح.
- (٥) منه: أي من صبا الأيام.
- (٦) الحدث: الشاب. ويذر: يترك.
- (٧) عاف: كره. وبناء: من قولهم: بنى بأهله أي زُفَّت إليه. خطب: من خطبة الزواج. أهدى: أعطى الهدية. مهر: أعطى المهر.
- (٨) المختصر: أي الميت في صباه، من اختصار الكلأ أي قطعه وهو أخضر.
- (٩) ضاق بالشيء ذرعًا: ضعفت عنه طاقته ولم يجد مخلصًا من مكروهه. والشفاء: حرف كل شيء.
- (١٠) شارف الشيء: قاربه ودنا منه. وغمرة الشيء: شدَّته ومزدحمه. والغدر: جمع غدِير وهو النهر أو القطعة من الماء يغادرها السيل.
- (١١) الصنديد: السيّد الشجاع.
- (١٢) الواهي: الضعيف المتداعي إلى السقوط. الجأش: نفس الإنسان أو هو رواع القلب عند الفزع. والقصف: الخور والضعف. أودى: هلك.
- (١٣) لجنة: الجنون.
- (١٤) الجفاء: غلظة العشرة.
- (١٥) النكر: الفطن.
- (١٦) غَضُّ العمر: أي العمر الغَضُّ الناضر.
- (١٧) شعبة الهَمِّ: الطائفة منه.
- (١٨) الغبطة: حسن الحال. والسمر: الحديث في الليل.
- (١٩) يذل: من ذلل الشيء: جعله هيئًا. وقطف الثمر: جنيه وجمعه، وقطف الشيء: أخذه بسرعة.
- (٢٠) تنهكة: تضيئه. والضنى: المرض والهزال. وضرة المرأة: امرأة زوجها، وهما ضرَّتَان، وهن ضرائر.
- (٢١) بنو العلات (بفتح العين): هم بنو أمهات شتى من رجل واحد. والضغن: الحقد.

- (٢٢) بعضهم يمشون للبعض. الخمر (بفتح الخاء): أي يختلونهم، ومنه قولهم: هو يدبُّ له الضَّرَاء ويمشي له الخمر.
- (٢٣) نشأ الخير: أي يا نشأ الخير. والنشأ (بفتح الشين): جمع نشء، و(بسكونها): تعني النسل. ورويًا: أي مهلاً لتسمعوا ما أقول. والخسر (بضم السين): الخسران.
- (٢٤) لو عصيتم كاذب اليأس: حُضُّ معناه: اعصوا كاذب اليأس.
- (٢٥) بَرَّحَ به: جهده وأذاه. ومطر الخير (بضم الميم): أي أصابه كما يصيب المطر الأرض. ومطر (بفتح الميم): أي صدر عنه الخير كالمطر.
- (٢٦) أزرَّت به: تهاونت.
- (٢٧) رَوَّحوا القلب: أي أُنْعَشَوْه وطَيَّبَوْه.
- (٢٨) الحكمة: صواب الأمر وسداده ووضع الشيء في موضعه. السير (بكسر السين): جمع سيرة وهي للإنسان طريقة سلوكه بين الناس.
- (٢٩) مَنْ غِبِرَ: مَنْ مَضَى.
- (٣٠) اغنموا: من غنم الشيء أي فاز به من غير مشقَّة وأخذه بغير بذل.
- (٣١) آراب: جمع أرب وهو الحاجة.
- (٣٢) الورد: بلوغ الماء. والصدر: الرجوع عنه.
- (٣٣) الروع: الفرع، ويأتي بمعنى الحرب، وهو المراد هنا.

عبث المشيب

ظلمَ الرجالُ نساءَهُم وتَعَسَّفُوا
يا معشرَ الكُتَّابِ، أينَ بلاؤُكم
أيهمُّكم عبثٌ، وليس يهْمُكم
عندي على ضيمِ الحرائرِ بينكم
مما رأيتُ وما علمتُ مسافراً
فيه مجالٌ للكلامِ، ومذهبٌ
هل للنساءِ بمصرٍ من أنصار؟^١
أين البيانُ وصائبُ الأفكار؟^٢
بنيانُ أخلاقٍ بغيرِ جدار؟^٣
نبأٌ يثيرُ ضمائرَ الأحرارِ
والعلمُ بعضُ فوائِدِ الأسفارِ
ليراعٍ «باحثةٍ» و«ستٍ الدار»^٤

* * *

كثُرَت على دارِ السعادةِ زُمَرَةٌ
يتزَوَّجون على نساءٍ تحتَهُم
شاطرنهم نَعَمَ الصُّبا، وسقَيْنَهُم
الوالداتُ بَنِيَهُم وبناتُهُم
الصابراتُ لضَرَّةٍ ومضَرَّةٍ
من مصرٍ، أهلُ مَزارعٍ وَيَسارِ^٦
لا صاحباتِ بُغْيٍ، ولا بشرارِ^٧
دهراً بكأسٍ للسُرورِ عُقارِ^٨
الحائطاتُ العَرَضَ كالأسوارِ^٩
المحيياتُ الليلَ بالأذكارِ

* * *

مَنْ كُلِّ ذِي سَبْعِينَ، يَكْتُمُ شَيْبَهُ
يَأْبَى لَهُ فِي الشَّيْبِ غَيْرَ سَفَاهَةٍ
ما حَلَّهُ عَطْفٌ، ولا رِفْقٌ، ولا
كم ناهِدٍ فِي اللّاعِبَاتِ صَغِيرَةٍ
والشَّيْبُ فِي قَوْدِيهِ ضَوْءُ نَهَارِ^{١٠}
قَلْبٌ صَغِيرُ الهمِّ والأوطارِ^{١١}
بَرٌّ بأهلٍ، أو هَوَى لِدِيَارِ
ألّهته عن حَفْدٍ بِمِصْرٍ صِغارِ^{١٢}

مهما غدا أو راح في جولاته
 شُغل المشايخ بالمتاب، وشغله
 في كلِّ عامٍ همُّه في طِفْلَةٍ
 يرشو عليها الوالدين ثلاثة
 المالُ حلَّ كلِّ غير محلِّل
 سَحَرَ القلوبَ، فَرُبَّ أَمِّ قلبُها
 دفعت بُنَيَّتَها لأشأم مضجَع
 وتعلَّلت بالشرع، قلت: كذبتِه
 ما زُوِّجت تلك الفتاة، وإنما
 بعضُ الزواج مُدَمَّمٌ، ما بالزنا
 فتشتُ لم أرَ في الزواج كفاءةً
 أسفي على تلك المحاسنِ كلِّما
 إن الحجابَ على (فروق) جنَّة
 وعلى وجوه كالأهْلَةِ، رُوِّعَتْ
 وعلى الذوائب وهي مسكٌ خولطت
 وعلى الشفاه المُحييات، أماتها
 وعلى المجالس فوق كلِّ خَمِيلَةٍ
 تدنو الزوارقُ منه، تُنزلُ جُودَرًا
 يرْفُلن في أُرِّ الحرير تنوَّعتُ
 الطاهراتُ اللَّحِظ، أمثالُ المها
 الدَّهْرُ فَرَّقَ شملهن، فمُرَّ به

دفعته خاطبةً إلى سمسار^{١٢}
 بتبدُّل الأزواج والأصهار^{١٤}
 كالشمس، إن خُطبتُ فلأقمار^{١٥}
 لم أدر أيُّهم الغليظُ الضاري؟
 حتى زواج الشَّيب بالأبكار
 من سحره حجرٌ من الأحجار
 ورَمَتْ بها في غُرْبَةٍ وإسار^{١٦}
 ما كان شرعُ الله بالجزار^{١٧}
 بيعُ الصُّبا والحسنُ بالدينار
 والرقُّ إن قيسا به من عار
 ككفاءة الأزواج في الأعمار
 نُقِلت من (البالي) إلى الدُّوار
 وحجابُ مصرَ وريفها من نار
 بعد السفور ببرقع وخمار^{١٨}
 عند العناق بمثل ذُوبِ القار^{١٩}
 ريحُ الشيوخ تهبُّ في الأسحار
 بين الجبالِ وشاطئِ مجبار^{٢٠}
 بقلادة، أو شادينًا بسوار^{٢١}
 ألوانه، كالزَّهر في آذار^{٢٢}
 الناطقاتُ الجرسُ كالأوتار^{٢٣}
 يا ربَّ تجمعه يدُ المقدار

هوامش

- (١) تعسَّفوا: ظلموا أو لم ينصفوا.
- (٢) البلاء: الاختبار.
- (٣) العبث: اللعب. الجدار: الحائط.
- (٤) الحرائر: جمع حرَّة. الضمائر: جمع ضمير وهو قلب الإنسان وباطنه.

- (٥) باحثة: هي المرحومة ملك ناصف، وكانت قد اتخذت لنفسها اسم «باحثة البادية» تذييل به مقالات كانت تزيّعها بواسطة الصحف في شئون اجتماعية ونسوية. وست الدار: اسم كانت تذيّل به مقالات في الصحف أيضًا.
- (٦) دار السعادة: هي الآستانة. الزمرة: الجماعة متفرقة. اليسار: الغنى.
- (٧) البغي والبغاء (مقصود وممدود): الزنى.
- (٨) شاطرهم: من شاطر الشيء أي ناصفه إيّاه. والعقار: الخمر؛ لأنها تعقر العقل، أو لأنها تعاقِر البدن أي تلازمه.
- (٩) الوداد: أي اللاتي هن والدات أبنائهن وبناتهن. والحائطات: من حاط الشيء أي حفظه وتعهّده. والعرض: هو ما يصونه الإنسان من نفسه، أو سلفه، أو مَنْ يلزمه أمره، أو هو محلّ المدح والذمّ من الإنسان. والأسوار: جمع سور.
- (١٠) الفودان: تشنية فود، وهو معظم الرأس مما يلي الأذن، وقيل هو ناصية الرأس.
- (١١) الهمُّ: ما يهْمُ به الإنسان في نفسه، ويقال: رجل همُّ أي ذو همة يطلب معالي الأمور. الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة.
- (١٢) الناهد: الجارية ارتفع ثديها. والحفد (بفتح الفاء): جمع حافد وهو ولد الولد كالحفيد.
- (١٣) الخاطبة: مَنْ تتوسط في تزويج الرجال من النساء.
- (١٤) المشايخ: أي مَنْ أدركتهم الشيخوخة. والمتاب: التوبة.
- (١٥) الطفلة (بفتح الطاء): الرخصة الناعمة.
- (١٦) أشأم مضجع: أي أشدّ المضاجع شؤمًا. والإسار: الأسر.
- (١٧) تعلل بالشيء: تلهى به واكتفى. وكذبت: أي كذبت عليه.
- (١٨) وعلى وجوه: أي وأسفى على وجوه. والأهْلَّة: جمع هلال. والخمار (بكسر الخاء): ما تغطي به المرأة رأسها.
- (١٩) الذوائب: جمع ذؤابة وهي الناصية. والقار: قيل: هو ما يُسمَّى بالزفت.
- (٢٠) الخميّلة: الشجر الكثيف الملتف، وقيل: الموضع الكثير الشجر. والمحبار: الأرض السريعة النبات الحسنة.
- (٢١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه. والشادن: ولد الظبية.
- (٢٢) يرفلن: من رفل في ثيابه، أي أطالها وجرّها متبخترًا. والأزر: جمع إزار وهو كل ما سترك. وآذار: الشهر الثالث من السنة الميلادية (شهر مارس).

الشوقيات

(٢٣) المها: جمع مها وهي البقرة الوحشية. والجرس: الصوت.

أبو الهول^١

أبا الهول، طالَ عليك العُصُرُ
فيا لدةَ الدهر، لا الدهرُ شَبٌّ،
إلامَ ركوبُكَ متنَ الرما
تُسافر منتقلاً في القرو
أبينكَ عهدٌ وبين الجبا
أبا الهول، ماذا وراء البقا
عجبتَ لِلْقَمَانِ في حِرْصه
وشكوى لبيدٍ لطولِ الحيا
ولو وُجِدَتْ يا بنَ الصِّفا
فإن الحياةَ تفلُّ الحدي
أبا الهول، ما أنتَ في المُعضِلا
تَحَيَّرْتَ البدوُ ماذا تكو
فكنتَ لهم صورةَ العُنُقُفوا
وسِرُّكَ في حُجْبه كَلِّما

وَبُلَّغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعُمُرِ^١
وَلَا أَنْتَ جَاوَزْتَ حَدَّ الصَّغَرِ^٢
لِإِطْيِ الْأَصِيلِ وَجَوِبِ السَّحَرِ؟^٣
نِ، فَأَيَّانَ تُلْقَى غِبَارَ السَّفَرِ؟
لِ، تَزُولَانِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُنْتَظَرِ؟^٤
ءِ — إِذَا مَا تَطَاوَلَ — غَيْرُ الضَّجَرِ؟^٥
عَلَى لُبْدٍ وَالنُّسُورِ الْآخِرِ^٦
ة، وَلَوْ لَمْ تَطُلْ لَتَشَكَّى الْقِصَرِ^٧
ة لَحَقَّتْ بِصَانِعِكَ الْمَقْتَدِرِ^٨
دَ إِذَا لِبَسْتُهُ، وَتُبْلِي الْحَجَرِ^٩
تِ؟ لَقَدْ ضَلَّتْ السُّبُلُ فَيْكَ الْفِكْرِ!^{١٠}
نُ؟ وَضَلَّتْ بِوَادِي الظُّنُونِ الْحُضْرِ^{١١}
نِ، وَكُنْتَ مِثَالَ الْحَجَى وَالْبَصْرِ^{١٢}
أَطَلَّتْ عَلَيْهِ الظُّنُونُ اسْتَتَرَ^{١٣}

^١ رُفِعَ السَّتَارُ فِي مَسْرَحٍ حَدِيقَةِ الْأَرْبُكِيَّةِ يَوْمَ افْتِتَاحِهِ عَنْ تَمَثَالِ أَبِي الْهَوْلِ، يَنَاجِيهِ رَجُلٌ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ.

لِ عَلَى هَيْكَلٍ مِنْ ذَوَاتِ الظُّفْرِ
عَ تَوَالَّوْا عَلَيْكَ سَبَاعَ الصُّورِ^{١٤}
تَشَابَهَ حَامِلُهُ وَالنَّمِيرِ^{١٥}
لُ مَعَ الدَّهْرِ شَيْءٌ وَلَا يُحْتَقَرُ^{١٦}
حَ فَنَقَرَ عَيْنِكَ فِيمَا نَقَرَ^{١٧}
وَأَوْغَلَ مِنْقَارُهُ فِي الْحَفَرِ
نَ، قَطِيعَ الْقِيَامِ، سَلِيبَ الْبَصْرِ^{١٨}
كَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ ذُنُوبُ الْبَشَرِ
ءَ عَلَى الْأَرْضِ، أَوْ دَيْدِبَانُ الْقَدَرِ^{١٩}
خَبَايَا الْغُيُوبِ خِلَالَ السَّطْرِ^{٢٠}

وَمَا رَاعَهُمْ غَيْرُ رَأْسِ الرِّجَا
لَوْ صُورُوا مِنْ نَوَاحِي الطُّبَا
فِيَا رَبِّ وَجْهِ كَصَافِي النَّمِيرِ
أَبَا الْهَوْلِ وَيَحْكُ لَا يُسْتَقَلُّ
تَهَزَّتْ دَهْرًا بِدَيْكَ الصَّبَا
أَسَالُ الْبِيَاضَ، وَسَلَّ السَّوَادَ
فَعُدَّتْ كَأَنَّكَ ذُو الْمَحْبِسِي
كَأَنَّ الرُّمَالَ عَلَى جَانِبَيْ
كَأَنَّكَ فِيهَا لَوَاءُ الْفَضَا
كَأَنَّكَ صَاحِبُ رَمَلٍ يَرَى

نَ، نَجِيَّ الْأَوَانِ، سَمِيرُ الْعُصْرِ^{٢١}
وَوَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ^{٢٢}
لُ وَتُوفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضَرُ^{٢٣}
دَ، وَأُخْرَى مَشِيعَةً مِنْ غَيْرِ^{٢٤}
ثَ، وَخَبَرٍ، فَقَدْ يُوْتَسَى بِالْخَبَرِ^{٢٥}
إِلَى الشَّمْسِ مُعْتَزِيًا وَالْقَمَرِ؟^{٢٦}
نَ، رَفِيعَ الْبِنَاءِ، جَلِيلَ الْأَثَرِ^{٢٧}
نَ، وَيَغْرِسُ لِلْآخِرِينَ الثَّمَرِ^{٢٨}
زَ، تَرْمِي سَنَابِكُهَا بِالْشَّرَرِ^{٢٩}
دَ، وَأَوْنَةً بِالْقَنَا الْمَشْتَجِرِ
قَشِيبَ الْعَلَا فِي الشَّبَابِ النَّضْرِ^{٣٠}
فَلَمْ يَعُدْ فِي الْمَلِكِ عُمَرُ الزَّهَرِ^{٣١}
دَ، وَكَيْفَ أَذَلَّ بِمَصْرِ الْقَصْرِ؟^{٣٢}
وَسَاقُوا الْخَلَائِقَ سَوْقَ الْحُمُرِ؟
دَ مِنْ الْفَاتِحِينَ كَرِيمِ النَّفَرِ؟
جَ، وَقَلَّ الْجَمُوعُ، وَثَلَّ السُّرُرُ^{٣٣}

أَبَا الْهَوْلِ، أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَا
بَسَطْتَ ذِرَاعَيْكَ مِنْ آدَمِ
تُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهْ
فَعَيْنٌ إِلَى مَنْ بَدَا لِلْوَجُو
فَحَدَّثَ، فَقَدْ يُهْتَدَى بِالْحَدِيدِ
إِلَى الشَّمْسِ مُعْتَزِيًا وَالْقَمَرِ؟
ظَلِيلَ الْحَضَارَةِ فِي الْأَوَّلِي
يُؤَسَّسُ فِي الْأَرْضِ لِلْغَابِرِي
وَرَاعَكَ مَا رَاعَ مِنْ خَيْلٍ قَمْبِي
جَوَارِفُ بِالنَّارِ تَغْزُو الْبِلَا
وَأَبْصُرْتَ إِسْكَندَرًا فِي الْمَلَا
تَبَلَّجَ فِي مِصْرَ إِكْلِيلُهُ
وَشَاهَدَتْ قَيْصَرَ، كَيْفَ أَسْتَدَّ
وَكَيْفَ تَجَبَّرَ أَعْوَانُهُ
وَكَيْفَ ابْتُلُوا بِقَلِيلِ الْعَدِيدِ
رَمَى تَاجَ قَيْصَرَ رَمِي الزُّجَا

فَدَعُ كُلَّ طَاغِيَةٍ لِلزَّمَانِ
رَأَيْتَ الدِّيَانَاتِ فِي نَظْمِهَا
تُشَادُّ الْبُيُوتَ لَهَا كَالْبُرُوجِ
تَلْقَى أَسَاسًا وَشُمَّ الْجَبَا
وَيُزَيِّسُ خَلْفَ مَقَاصِيرِهِ
تُضِيءُ عَلَى صَفَحَاتِ السَّمَاءِ
وَأَبْيَسُ فِي نِيرِهِ الْعَالَمُ
تُسَاسُ بِهِ مُعْضَلَاتُ الْأُمُورِ
وَلَا يَشْعُرُ الْقَوْمُ إِلَّا بِهِ
يَقِلُّ أَبُو الْمَسْكِ عَبْدًا لَهُ
وَأَنَسَتْ مُوسَى وَتَابُوتُهُ
وَعِيسَى يَلُمُّ رِذَاءَ الْحَيَاةِ
وَعَمْرُو يَسُوقُ بِمَصْرٍ الصَّحَاةِ
فَكَيْفَ رَأَيْتَ الْهُدَى، وَالضَّلَاةِ
وَنَبَذَ الْمُقَوِّسَ عَهْدَ الْفُجْوَةِ
وَتَبَدَّلَهُ ظِلْمَاتِ الضَّلَاةِ
وَتَأَلَيْفَهُ الْقَبْطَ وَالْمُسْلِمِينَ
أَبَا الْهَوْلِ، لَوْ لَمْ تَكُنْ آيَةً
أُطْلِقَ عَلَى الْهَرَمَيْنِ الْوَقُوفُ
تُرْجَى لِبَانِيهِمَا عَوْدَةٌ
تَجُوسُ بَعِينَ خِلَالَ الدِّينِ
تَرُومُ بِمَنْفِيَسٍ بَيْضِ الظُّبَاةِ
وَمَهْدَ الْعُلُومِ الْخَطِيرِ الْجَلَاةِ
فَلَا تَسْتَبِينَ سَوَى قَرْيَةٍ
تَكَادُ لِإِغْرَاقِهَا فِي الْجَمُودِ
فَهَلْ مَنْ يَبْلُغُ عَنَّا الْأَصُوفَ
وَأَنَا خَطْبِنَا حِسَانَ الْعِلَاةِ

نِ، فَإِنَّ الزَّمَانَ يُقِيمُ الصَّعَرَ^{٣٤}
وَحِينَ وَهَى سِلْكُهَا وَانْتَشَرَ^{٣٥}
ج، إِذَا أَخَذَ الطَّرْفُ فِيهَا انْحَسَرَ^{٣٦}
لِ، كَمَا تَتَلَقَّى أَصُولُ الشَّجَرِ^{٣٧}
تَخْطَى الْمُلُوكُ إِلَيْهَا السُّتُرَ^{٣٨}
ءِ، وَتُشْرِقُ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا الْحُجَرُ^{٣٩}
نِ، وَبَعْضُ الْعَقَائِدِ نَيْرٌ عَسِرُ^{٤٠}
رِ، وَيُرْجَى النِّعِيمُ، وَتُخْشَى سَقَرُ
وَلَوْ أَخَذَتْهُ الْمُدَى مَا شَعَرَ
وَإِنْ صَاعَ أَحْمَدُ فِيهِ الدُّرَرُ^{٤١}
وَنُورَ الْعَصَا، وَالْوَصَايَا الْغُرَرُ^{٤٢}
ءِ، وَمَرِيَمُ تَجْمَعُ ذَيْلَ الْخَفَرِ^{٤٣}
بِ، وَيُزْجِي الْكِتَابَ، وَيَحْدُو السُّورَ^{٤٤}
لِ، وَدُنْيَا الْمُلُوكِ، وَأُخْرَى عَمَرُ؟^{٤٥}
رِ، وَأَخَذَ الْمُقَوِّسَ عَهْدَ الْفَجْرِ^{٤٦}
لِ بِصَبْحِ الْهَدَايَةِ لَمَّا سَفَرَ^{٤٧}
نِ كَمَا أَلْفَتْ بِالْوَلَاءِ الْأُسْرَ^{٤٨}
لِكَانَ وَفَاؤُكَ إِحْدَى الْعِبَرِ^{٤٩}
فِ، كَثَاكِلَةٍ لَا تَرِيمُ الْحَفَرَ^{٥٠}
وَكَيْفَ يَعُودُ الرَّمِيمُ النَّخِرُ؟^{٥١}
رِ، وَتَرْمِي بِأُخْرَى فِضَاءَ النَّهْرِ^{٥٢}
وَسُمَّرَ الْقَنَا، وَالْخَمِيْسُ الدُّثْرُ^{٥٣}
لِ، وَعَهْدَ الْفَنُونِ الْجَلِيلِ الْخَطَرِ
أَجْدُ مُحَاسِنِهَا مَا انْدَثَرَ^{٥٤}
يِ إِذَا الْأَرْضُ دَارَتْ بِهَا لَمْ تَدُرْ
لِ بِأَنَّ الْفُرُوعَ اقْتَدَتْ بِالسَّيْرِ؟^{٥٥}
وَسَقْنَا لَهَا الْغَالِيَّ الْمَدَّخَرَ

وَأَنَا رَكِبْنَا غَمَارَ الْأُمُو رِ، وَأَنَا نَزَلْنَا إِلَى الْمُؤْتَمِرِ^{٥٦}
بِكُلِّ مُبِينٍ شَدِيدِ اللَّدَا د، وَكُلِّ أَرِيْبٍ بَعِيدِ النَّظَرِ^{٥٧}
تَطَالِبٍ بِالْحَقِّ فِي أُمَّةٍ جَرَى دُمُهَا دُونَهُ وَانْتَشَرَ^{٥٨}
وَلَمْ تَفْتَخَرْ بِأَسَاطِيلِهَا وَلَكِنْ بِدَسْتُورِهَا تَفْتَخِرُ^{٥٩}
فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَحْفَ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَطْرَ
تَحَرَّكَ أَبَا الْهَوْلِ، هَذَا الزَّمَا نُ تَحَرَّكَ مَا فِيهِ، حَتَّى الْحَجَرِ
فَهَلْ مَنْ يَبْلُغُ عَنَّا الْأَصُو لَ بِأَنَّ الْفُرُوعَ اقْتَدَتْ بِالسَّيْرِ؟^{٦٠}
وَأَنَا خَطَبْنَا حِسَانَ الْعَلَا وَسَقْنَا لَهَا الْغَالِيَّ الْمَدَّخَرَ
وَأَنَا رَكِبْنَا غَمَارَ الْأُمُو رِ، وَأَنَا نَزَلْنَا إِلَى الْمُؤْتَمِرِ^{٦١}
بِكُلِّ مُبِينٍ شَدِيدِ اللَّدَا د، وَكُلِّ أَرِيْبٍ بَعِيدِ النَّظَرِ^{٦٢}
تَطَالِبٍ بِالْحَقِّ فِي أُمَّةٍ جَرَى دُمُهَا دُونَهُ وَانْتَشَرَ^{٦٣}
وَلَمْ تَفْتَخَرْ بِأَسَاطِيلِهَا وَلَكِنْ بِدَسْتُورِهَا تَفْتَخِرُ^{٦٤}
فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَحْفَ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَطْرَ
تَحَرَّكَ أَبَا الْهَوْلِ، هَذَا الزَّمَا نُ تَحَرَّكَ مَا فِيهِ، حَتَّى الْحَجَرِ

«فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَجَابَهُ آخِرُ كَانَ يَخْتَفِي وَرَاءَ التَّمَثَالِ وَيَنْطِقُ بِلِسَانِهِ»:

نَجِيَّ أَبِي الْهَوْلِ أَنْ الْآوَا نُ، وَدَانَ الزَّمَانُ، وَلَانَ الْقَدَرُ
خَبَأْتُ لِقَوْمِكَ مَا يَسْتَقُو ن، وَلَا يَخْبَأُ الْعَذَبُ مِثْلُ الْحَجَرِ
فَعَنْدِي الْمُلُوكُ بِأَعْيَانِهَا وَعَنْدَ التَّوَابِيَةِ مِنْهَا الْأَثَرُ
مَحَا ظِلْمَةَ الْيَأْسِ صُبْحُ الرِّجَا ءِ، وَهَذَا هُوَ الْفَلَقُ الْمُنْتَظَرُ

«ثُمَّ انْشَقَّ صَدْرُ أَبِي الْهَوْلِ عَنْ فَتَى وَفَتَاةٍ، مَثَلًا أَمَامَهُ، وَأَنْشَدَا النَّدِيدَ»:

الْيَوْمَ نَسُودُ بِوَادِينَا وَنُعِيدُ مُحَاسِنَ مَاضِينَا
وَيَشِيدُ الْعِزَّ بِأَيْدِينَا وَطَنُ نَفْدِيهِ وَيَفْدِينَا
وَطَنُ بِالْحَقِّ نُوَيِّدُهُ وَبِعَيْنِ اللَّهِ نَشِيدُهُ
وَنَحْسَنُهُ، وَنَزَيِّنُهُ بِمَآثِرِنَا وَمَسَاعِينَا

وسريرُ الدهرِ ومنبرُهُ	سرُّ التاريخ، وعُنصرُهُ
وكفى الآباءَ رياحيناً	وجنانُ الخلد، وكوثرُهُ
وضُحاهما عرشاً وهاجاً	نَحْذُ الشمسَ له تاجاً
وكذلك كان أوالينا	وسماءُ السُّودِّ أبراجاً
والكرنك يلحظُ، والهَرْمُ	العصرُ يراكمُ، والأممُ
كبناءِ الأولِ يبنيُنَا؟	أبني الأوطان ألا هممُ
لأثيل المجد وللعليا	سعيًا أبداً، سعيًا سعيًا
ولنجعل مصرَ هي الدنيا	ولنجعلُ مصرَ هي الدنيا

هوامش

(١) «طال عليك العصر» العصر والعصر والعصر: الدهر، فالعصر هنا مفرد لا جمع، ومعنى طول الدهر على أبي الهول: أنه عمَّر أعماراً طويلاً، وقد أوضح ذلك مع زيادة في التوكيد بقوله: وبلغت في الأرض أقصى العمر، والعُمُر (بضم العين والميم) لغة في العمر.

(٢) فيا لدَّة الدهر: فيا أبا الدهر وقريته، فكأنك والدهر توأمان، خلقتما معاً في أوان، والبيت كما ترى آية في الإبداع وروعة البيان. ولا أنت جاوزت حدَّ الصغر: أي برغم أنك بلغت في الأرض أقصى العمر.

(٣) إلام ركوبك: «إلى» من حروف الجر دخلت على «ما» الاستفهامية فبُنِيَتْ بناء كلمة واحدة، وسقطت الألف من «ما» طلباً للخفة واعتداداً بإلى الموصولة بها، وكذلك يفعلون في بَمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون، في بَمَ وفيمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون: إلامه وعمه وفيمه ولمه.. هذا وإنه لتصوير شعري بديع رائع، تصوير أبي الهول راكباً متن الرمال، يطوي الليل والنهار، ويسافر متنقلاً في القرون والأدهار. وجَوَّب: في معنى طَيَّ.

(٤) في الموعد المنتظر: يوم يزول كل شيء، أي في اليوم الآخر.

(٥) ماذا وراء البقاء: يقول: ما وراء البقاء المتطاوَل غير السَّامِ.. قال زهير بن أبي

سلمى:

سئمت تكاليف الحياة وَمَنْ يَعِشْ ثمانين حَوْلًا لا أبا لك يسأم

(٦) لقمان: هو لقمان بن عاديا، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي لها، فلمَّا أهلكوا، خيّر لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر، من أظب عفر، في جبل وعر، لا يمسها القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلُّما أهلك نسر خلف بعده نسر؛ فاستحقر الأبقار وآثر النسور، فلمَّا لم يبق غير السابع قال ابن أخ له: يا عم! ما بقي من عمرك إلا عمر هذا، فقال لقمان: هذا لبد (ولبد بلسانهم: الدَّهر)، قالوا: وكان يأخذ فرخ النسر، فيجعله في حوبة في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع، أخذه فوضعه في ذلك الوضع وسَمَّاه لبدًا، وكان أطولها عمرًا؛ فضربت العرب به المثل فقالوا: «طال الأبد على لبد».. قال الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قتيلا بكأسه ولقمان إذ خيَّرت لقمان في العمر
لنفسك أن تختار سبعة أنسر إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمر حتى خال أن نسوره خلودٌ وهل تبقى النفوس على الدَّهر؟

فعاش لقمان — كما زعموا — ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة.. وقال النابغة:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد

وهذا لقمان بن عاديا، غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم.

(٧) وشكوى لبيد: أي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة.. إلخ، وهو لبيد بن ربيعة، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم، صاحب المعلقة المشهورة التي أوَّلها:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

كان لبيد من المعمرين، روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين، وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية، أمَّا شكواه التي ألمع إليها، فذلك حيث يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس: كيف لبيد؟

يقول: إذا لم يكن وراء البقاء المتناول إلا الضجر، فإني أعجب للقمان في حرصه على أن تطول حياته. وللبيد الذي إن مل الحياة وسئم من طولها، فإنه لا محالة كان أكثر شكاة إذا هي لم تطل؛ لأن حب الحياة جبلة مركوزة في الطباع. (٨) وَجِدْتُ: أي الحياة. يا بن الصفاة: هي الحجر الصلد الذي لا ينبت شيئاً، وفي المثل: فلان ما تندى صفاته، وفي الحديث: لا تقرر لهم صفاة، أي لا ينالهم أحد بسوء، وأبو الهول ابن الصفاة؛ لأنه من الحجر. لحقت.. إلخ: أي لأدرك الموت. (٩) فإن الحياة: من المعاني المبتكرة التي لا نظن صاحب الديوان قد سبق إليها على هذا الوجه.

(١٠) ما أنت في العضلات: خبرني أي معضلة أنت في العضلات وأي معمي؟! (١١) تحيرت: يقول: حار الناس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي. (١٢) صورة العنقوان لما ينطوي عليه جسمك الذي صوّر على صورة الأسد من معاني القوة. مثال الحجى والبصر: لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوّران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور. (١٣) يقول: ومع ذلك لا يزال سرك مكتناً في حجبته والناس من أمرك في ظلام. (١٤) ولو صوّروا: أي ما كان ينبغي أن يرّوع الناس منك أن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر؛ لأن الناس لو صوّروا من نواحي شيمهم وطباعهم لتوالوا عليك كأنهم وحوش، وهذا معنى حسن بديع، وقد زاده حسناً وأكدّه بقوله: فيا ربّ وجه كصافي النمر.

(١٥) النمر: الماء الناجع في الري، أو النامي، أو الكثير، والنمر: هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وخبثه وشراسته، وهذا البيت من جوامع الكلم وروائع الحكم، ولا يخفي ما فيه من الجناس بين النمر وبين النمر.. وللشعراء فيما يتصل بهذا المعنى ويقاربه ما يخطئه العدّ والإحصاء، فمن ذلك ما يقول القائل:

لا يغرنك ما ترى من أناس إن تحت الضلوع داء دويّا

ويقول الأبيوردي:

الشوقيات

يلقاك، والعسل المصفى يجتنى من قوله، ومن الفعال العلقم
بيدي الهوى ويثور — إن عرضت له فرص — عليك كما يثور الأرقم
ويقول الشريف الرضي:

لا تجعلنَّ دليلَ المرءِ صورته كم مخبر سمج عن منظر حسن
ويقول:

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول العمر أن يتقوَّما
تقبلت منه ظاهراً متبلِّجاً وأدمج دوني باطناً متجَّهما
ولو أنني كشفته عن ضميره أقيمت على ما بيننا اليوم مأتما
وقال آخر:

يعطيك ودّاً صادقاً بلسانه ويجن تحت ضلوعه ألوانا
وقال أبو فراس:

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم نئاباً على أجسادهن ثياب
وقال آخر:

ظننت بهم خيراً فلماً بلوتهم نزلت بواٍ منهم غير ذي زرع
ويقول أبو تمام:

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن متجهم

(١٦) لا يستقل: لا يُعدُّ قليلاً، وهذا البيت كالتمهيد لما بعده.

(١٧) ديك الصباح: يريد الزمن، والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة، وإنه لَتَخِيل شعري جميل، ومن بارع حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويهه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسلّ سوادهما، هو هزء أبي الهول به، وسخريته منه، وعدم اكتراثه، ثم تعبيره عن الدهر بديك الصباح. هذا، ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول: إنه ورد في بعض الآثار: «لا تسبوا الديكة فإنها تدعو إلى الصلاة».. ولابن المعتز:

بشّر بالصبح هاتفٌ هتفا	هاج بالليل بعد ما انتصفا
مذكّر بالصبح هاج بنا	كخاطب فوق منبر وقفا
صفق إمّا ارتياحة لسنا الـ	فجر وإمّا على الدّجى أسفا

وللمعري:

أيا ديك، عدت من أيديك صيحة	بعثت بها ميت الكرى وهو نائمٌ
هتف، فقال الناس: أوس بن معبر	أو ابن رباح بالمحلة قائمٌ

إلى أن يقول:

عليك ثياب خاطها الله قادراً	بها رثمتك العاطفات الروائم
وتاجك معقود، كأنك هرمز	يباهي به أملاكه ويوائم
وعينك سقط ما خبا عند قرّة	كلمعة برق ما لها الدهر شائم
وما زلت للدين القويم دعامة	إذ قلقت من حاملها الدعائم

أوس بن معبر: هو مؤذن رسول الله ﷺ بمكة بعد الفتح. وابن رباح: هو بلال، كان يؤذن لرسول الله ﷺ سفراً وحضراً. ورثمتك: عطفك عليك ولزمتك. ويوائم: يوافق ويلائم. والسقط: ما سقط من النار بين الزندين قبل استحكام الوري. والقرّة: البرد.

(١٨) المحبسین: المحبس هو الموضع الذي يحبس فيه، وكان يقال عن أبي العلاء المعري: رهين المحبسین أي رهين عماه وبيته، فكأنه من عماه في محبس، وكذلك أبو الهول، عدّه شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه من عماه وسكونه في محبسین.

(١٩) ديدبان: فارسية معرّبة أصلها ديدَه بان، ومعنى ديدَه: العين، وبان: ذو أي الرقيب والعين، ومعناها الخاص: الجندي المكلف بالحراسة.

(٢٠) السَّطَر: السطر وهو الصف من الكتاب والشجر ونحوهما، ومعنى البيت ظاهر.

(٢١) نجِّي الأوان: النجى (بوزن فعيل) هو الذي تسارَّه، وفي الحديث: «اللهم بمحمد نبيك وبموسى نبيك»، وهو الناجي المحدث للإنسان.

(٢٢) من آدم: أي من قديم الزمان. والزمز: جمع زمرة وهي الجماعة من الناس، والمراد هنا الناس جميعاً.

(٢٣) يستهل: يعني يقدم على الدنيا، من استهل الصبي بالبكاء أي رفع صوته وصاح عند الولادة. ويحتضر: حضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت.

(٢٤) وأخرى مشيعة من غير: مَنْ مضى، وإن هذا البيت لمشبع من الروعة والجلال.

(٢٥) فحدّث: هذا البيت هو كالمدخل لما بعده.

(٢٦) ألم تبلُ فرعون: بلاه يبلوه بلواً وابتلاء أي جرّبه واختبره. وفرعون: لقب يطلق على كل مَنْ ولي مُلك مصر، كالنجاشي للملك الحبشة، وقيصر للملك الرومان، وفرعون أصلها في الهيروغليفية مركبة من «بي» وهي أداة التعريف كأل، و«راع» أي الشمس، فتكون كلمة واحدة، وراع أو راهو: معبود قوي وحاكم جبار يقاتل احتفاظاً بالحياة وإبقاءً على الكون، ومن هنا كان العنوّ والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فرعون عند العرب، وإن لا يقصد بفرعون فرعوناً معيناً، ولكن جميع فراعنة مصر، وقد ابتلاهم أبو الهول. إلى الشمس معتزياً: تقول: ألم تبلُ يا أبا الهول فرعون وهو في عزّه، حتى لكأنه من العزّ والمنعة بحيث يناطح الشمس والقمر؛ لأن مَنْ اعتزى إلى شيء قاربه وشاكه، وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صورة أوزيريس الشمس، وإيزيس القمر؛ لأنهما من أصنامهم فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العزّ والمنعة.

(٢٧) ظليل الحضارة: مكان ظليل أي ذو ظلٍّ دائم يستظلُّ به، يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظلُّ الناس، ويرتعون في ذراها وكنفها، والحضارة (بكسر الحاء وفتحها): الإقامة في الحضر. والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البدو والبادية، وهي المدن والقرى والريف؛ سمّيت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار.. قال الفطامي:

فَمَنْ تَكُن الحضارة أعجبتَه فأي رجال بادية ترانا

وقال المتنبي:

حسن الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسنٌ غير مجلوب

ولكن الحضارة هنا بمعنى التمدن.

(٢٨) للغابرين: الغابر من الأضداد، فيكون بمعنى الباقي، ويكون بمعنى الماضي، ومن ثَمَّ يكون معنى البيت: إمَّا أن فرعون يخلد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتمثيل ويغرس للأتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها، وإمَّا أن فرعون يؤسس ويغرس لهم كل ما يجدي ويثمر.

(٢٩) قميمز: هو ابن كورش الأكبر الذي أسس دولة الفرس العظيمة، ومعلوم أن الفرس من الدول التي غزت مصر واستولت عليها حيناً من الدهر، قال المؤرخون: أخذ الفرس في غزو مصر أزمان الأسرة السادسة والعشرين، وذلك حين ولي الملك «أبسمتيك الثالث» أحد ملوك هذه الأسرة؛ فأعدَّ الفرس لهذه الغزاة المعدَّات الكبيرة، وجاء ملكهم «قممير» بجيش جرَّار، لفتح البلاد التي طالما تآقت نفس أبيه «كورش» إلى إخضاعها، وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة.. يقول مؤرخو الإغريق: إن أحد الجنود اليونانية، هو الذي خان مصر والمصريين، ودلَّ الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد، فهوجمت مدينة «بلوز» (الفرما) بحرًا، وزحفت الجنود الفارسية على مصر برًا، وبعد مقاومة عنيفة جهتي بلوز ومنف، سقطت البلاد، وأخذ قميمز أبسمتيك أسيرًا، وكان ذلك سنة ٥٢٥ ق.م، ثم سار قميمز أوَّل أيامه سيرة حسنة، وعامل المصريين معاملة طيبة، يحترم ديانتهم وتقاليدهم، ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر، وحنق على البلاد ومَن فيها، فكَّر على المعابد والهياكل فهدمها، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة، وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق.م، ولمَّا ولي ملك فارس «دارا الأول» زار مصر، واراد أن يصلح ما أفسده قميمز، فأبدى احترامًا كبيرًا لديانة المصريين ومعبوداتهم، وشيَّد هيكلًا عظيمًا للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى، وعضد التجارة، وشيَّد كثيرًا من المدارس، وفتح الخليج الموصل ما بين النيل والبحر الأحمر، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة «مرتون» في حربه مع الإغريق؛ فخرجوا عن طاعته، وطردهوا الفرس من البلاد بقيادة

أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م، ثم غزا الفرس مصر ثانية، وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق.م.

(٣٠) إسكندر: هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم، قال المؤرخون: بعد أن هزم الإسكندر الفرس في واقعة أسوس، زحف على مدينة صور فأخذها عنوة؛ وبذلك تم استيلاؤه على الشام، ثم قدم إلى «بلوز» (الفرما) سنة ٣٣٢ ق.م؛ رحَّب به المصريون، لما سمعوه عن عدالة حكمه، ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس، ففتحت له مصر أبوابها ودخلها دون عناء، حتى أن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب؛ ومن ثَمَّ سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى، ودخل معبد آمون، ولقَّبه الكهنة بابن آمون، فاحترم ديانة المصريين وقَدَّم القرايين لمعبوداتهم، ولم يهمل مع ذلك التقاليد الإغريقية، فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النظامية. ولمَّا رأى الإسكندر أن قرية «راقودة» — وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندرية — ذات موقع بحري موفق، أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هي الإسكندرية، وبعد أن استوثق الأمر للإسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق، وكانت وفاته سنة ٣٢٣ ق.م، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ونيّفًا، لم يقم بمصر — كما ترى — إلا قليلاً، فذلك حيث يقول في البيت التالي:

فلم يعد في الملك عمر الزهر

وخلف الإسكندر على مصر البطالسة، وما زالوا بها إلى أن استولى الرومان عليها.
(٣١) إكليله: تاجه.

(٣٢) قيصر: أسلفنا أن قيصرًا هذا لقب ملوك الرومان، قال المؤرخون: ما كادت دولة الرومان تظهر بين ممالك الأرض، حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين البطالسة في مصر، ولبثت بين الدولتين مدّة طويلة من أيام مجد البطالسة إلى انقراضهم، تطوّرت أثناءها في عدّة أطوار: ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت إلى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر سنة ٣٠ ق.م في عهد أغسطس، ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خمّول سياسي طويل، امتد نحوًا من ٦٧ سنة، لم يكن لها فيها شيء يذكر في التاريخ، بل كانت كحقل لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدّ أهم جزء من الخراج، وما زال الرومان بمصر حتى أدال الله منهم بالعرب

سنة ٦٤١ م على يد عمرو بن العاص، فذلك حيث يقول «وكيف ابتلوا بقليل العديد.. إلخ». القصر: أي الأعناق.. قال الشاعر.

لاتدلك الشمس إلا حذو منكبه في حومة تحتها الهامات والقصر

(٣٣) رمى: أي هذا النفر القليل، وهم أصحاب عمرو بن العاص. وفلاً الجموع: هزمها وثلّ السرور: كسرهما. والسرر: جمع سرير، والمراد هنا العروش التي يجلس عليها القياصرة.

(٣٤) الصعر: ميل في العنق وانقلاب في الوجه إلى أحد الشقين، وقد صعرَّ خذّه أي أماله من الكبر، قال المتلمس:

وكنا إذا الجبار صعرَّ خذّه أقمنا له من رده فتقومنا

والزمان يقيم الصعر: يعدل الطغاة: يقال: أقمت الشيء فقام أي استقام.

(٣٥) في نظمها وحين وهى سلكها: في حالتها قوتها وضعفها.

(٣٦) انحسر: كلّ، والبصر يحسر عند أقصى بلوغ النظر.

(٣٧) تتلاقى: تتلاقى، بحذف إحدى التاءين، يريد أنها راسخة رسوخ الجبال.

(٣٨) إيزيس: هي من معبودات قدماء المصريين، وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه، وأم عوروس وهاريوقراط ... يرى قدماء المصريين، أن إيزيس هذه وليت أمر مصر مع أخيها زوجها أوزيريس حيناً من الدهر ازدهرت فيه الزراعة، ويؤخذ من تقاليد إيزيس أنها عندهم رمز للقمر، وأوزيريس رمز للشمس، ومن هنا يريد بـ «إيزيس» القمر، وقوله «تخطى» أي تتخطى، بحذف إحدى التاءين.

(٣٩) قوله «تضيء على صفحات السماء» أي إيزيس بمعنى قمر السماء الحقيقي.

وقوله «وتشرق في الأرض منها الحجر» أي القمر بمعنى المعبود في الأرض، وعلى ذلك يكون في الكلام استخدام، وهو عند علماء البيان أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميرين أحدهما، ثم بالآخر الآخر، فالأول كقول معوّد الحكماء:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه، وإن كانوا غضابا

فإنه أراد بالسماء الغيث، وبضميره النبت.. والثاني كقول البحري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شبوه بين جوانح وقلوب

فإنه أراد بضمير الغضا في قوله «والساكنيه» المكان، وفي قوله «شبوه» أي أوقدوا الشجر. والحجر: جمع حجرة كغرفة وغرف.

(٤٠) (أبيس: هو العجل أبيس.. روى أن تيفون إله الشر تغلب أخيراً على أوزيريس إله الخير وقتله؛ فتقمصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقي، وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمصته روحه هو ابن بقرة حملت به بواسطة شعاع من الشمس وشعاع من القمر، وله علامات ظاهرة في جسده، فإنه يكون أسود اللون، وفي جبهته سمة بيضاء مربعة أو مثلثة، وصورة نسر على ظهره، وصورة خنفساء تحت لسانه، وكان الكهنة عندما يجدون العجل بعد موت سلفه، يركبون مركبة حربية ويسيرون به باحتفال عظيم إلى هليوبوليس، وكانوا يضعونه فيها في هيكل يتركونه مفتوحاً للعبادة أربعين يوماً، وكان الأهالي عند موته ينوحون ويلبسون ثوب الحداد، ويضعونه في تاووس ثمين جداً، وكانوا يقومون بالاحتفال بأيامه المقدسة كل سنة عند ارتفاع النيل، وذلك بإقامة الولائم والأفراح وكانوا يطرحون في ذلك الوقت إناءً من الذهب في النيل لإخماد غضب التماسيح.. في نيره: النير هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين المقرونين بالحراثة بأداتها، وهم يقولون: فلان تحت نير فلان، يريدون الخضوع والاستخاء.

(٤١) أبو المسك: كافور الإخشيدي. وأحمد: أبو الطيب المتنبي.

(٤٢) التابوت الذي وُضِعَ فيه موسى وقُدِفَ به في النيل. وعصا موسى وما كان منها من الآيات، والوصايا العشر، كل أولئك معروف فلا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه.

(٤٣) «وعيسى يلمُّ رداء الحياء» يقول: وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحياء، ومثله في ذلك العذراء.

(٤٤) «وعمر» يقول: وقد رأيت عمرو بن العاص إذا يسوق المسلمين لفتح مصر، ويزجي كتاب الله وآياته.

(٤٥) «فكيف رأيت»، يقول: خبرني يا أبا الهول كيف رأيت فرق ما بين هدي المسلمين وأخرى عمر، أي دنياه التي كأنها الأخرى في الإصلاح وما إليه من كل ما كان ماثلاً أيام الفاروق (رضى الله عنه) وأرضاه، وما بين الضلال ودنيا الملوك من القياسرة والفرس والروم ومن إليهم.

(٤٦) المقوقس: هو سيروس، بطريق الطائفة الملكانية بالإسكندرية، والحاكم الإداري بمصر من قبل الرومان، والذي فتح عمرو بن العاص مصر في عهده، وفي المقرئزي: أنه يُسمَّى المقوقس بن قرقفت، ولعله محرّف عن سيروس. عهد الفجور: عهد الانحراف عن الصراط السوي، عهد الإسراف في المعاصي والآثام، عهد الرومان الذي استبدل به المقوقس. عهد الفجر: أي عهد الخير العميم، عهد النور، عهد التلقي والإسلام، عهد الإسلام، إذا مالاً المسلمين وعبد لهم طريق الفتح.

(٤٧) وتبديله: في معنى البيت قبله. لما سفر: سفر الصبح وأسفر أي أضاء. (٤٨) وتألّيفه: أي المقوقس. والأسر: جمع الأسرة، وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأذنون.

(٤٩) إحدى العبر: إحدى الآيات.

(٥٠) أطلت.. إلخ: بيان لوفاء أبي الهول. كثاكلة: يقول إنك في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاءً منك، كثاكلة ولداها لا تبرح قبره ولا تزايله، والثاكلة هي التي فقدت ولداها. ولا تريم: أي لا تبرح. والحفر: جمع حفرة وهي ما يحفر في الأرض؛ والمراد بها هنا القبر.

(٥١) لبانيهما: أي لباني الهرمين.

(٥٢) تجوس: تطوف وتتخلل. والنَّهْر والنهر: واحد الأنهار، يعني نهر النيل.

(٥٣) تروم: تنشد وتطلب. ومنفيس: منف، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة: هي عاصمة ملك الفراعنة، والذي بناها هو «مينا» مؤسس الأسرة المالكة، وكانت كما قال شاعرنا:

ومهد العلوم الخطير الجلا ل، وعهد الفنون الجليل الخطر

ولا يخفى ما في هذا البيت من العكس، والعكس هذا من المحسنات البديعية، وهو أن تقدّم في الكلام جزءاً، ثم تعكس فتقدّم ما أخرت وتؤخّر ما قدّمت، مثل قول الحماسي:

فردَّ شعورهن السود بيضا وردَّ وجوهنَّ البيض سودا

وقول أبي الطيب:

فلا مجد في الدنيا لمن قال ماله ولا مال في الدنيا لمن قال مجده

وقول الآخر:

إن الليالي للأنام مناهيل تطوى وتنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

الخميس الدثر: الجيش الكثير، يقول: إنك يا أبا الهول لأوفى الأوفياء، إذ كأني بك وقد فقدت تلك الحضارة الباهرة، والمدنيَّة الزاهرة، التي تحليت بها حيناً من الدَّهر، وشاهدت عصرها الذهبي، ثم ذهبت وذهب أهلوها، وأصبحت منفرداً وحيداً.
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر، فأبى عليك وفاؤك إلا أن تطيل الوقوف على الهرمين، شأن الثكول فقدت وحيدها فأبى عليها وجدها أن تريم قبره، وكأنك في وقوفك هذا ترجى لباني الهرمين عودة تعود معها تلك المعاني الساميات، وتنشد بمنفيس — وهي منك عن كُتب — عهد القوة والعظمة والسلطان، وعهد العلوم والعرفان، وعهد الفنون الخطير الجلال مما رأيت في الزمن الخالي، فلا تصيب شيئاً من ذلك، ولا تقع عينك من منفيس هذه إلا على قرية قد اندثرت، ودمنة قد عفت، تكاد لإغراقها في الجمود، إذا الأرض دارت بها لم تدر.. فترى في هذه الأبيات صورة أبي الهول في وقوفه هذا، صورة شعرية آية في الإبداع والتخيُّل الشعري، ثم ترى فيها وصف عظمة المصريين، وأن مصر كانت عهد الحضارة والتمدن، ولا جرم فقد أمَّها وجاور فيها للاستفادة أمثال ليكرغ وصولون من كبار المتشرعين، وفيثاغورس وأفلاطون وإقليدس من شيوخ الفلسفة، كما تؤمُّ اليوم بلاد الغرب للمجاورة فيها والإفادة منها، ومن هنا قال بعد ذلك «فهل منَّ يبلِّغ عنَّا الأصول»

(٥٤) «أجد محاسنها ما اندثر» يقول: إن طولها الدوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدت محاسنها، وهو معنى دقيق عجيب، ولعله ينظر إلى قول أبي نواس:

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نعيم

هذا ويجوز أن يكون «أجدُّ» مبتدأ وما اندثر «خبر»، أي أن أجدَّ ما بقي من هذه القرية وأجلَّه، هو آثارها الدوراس.

(٥٥) الأصول: أصولنا وأباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسَّير: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٥٦) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٥٧) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٥٨) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٥٩) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتز بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

(٦٠) الأصول: أصولنا وأباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسَّير: حذت حذو أصولها، إذ كان منَّا في هذه الآونة ما قصَّه بعد.

(٦١) غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠ الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

(٦٢) الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

(٦٣) تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

(٦٤) ولم تفتخر: أي أنها مع ذلك لم تعتز بقوتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتزُّ بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

مملكة النحل

مملكة مُدَبَّرَةٌ بامرأةٍ مُؤمَّره
تحمِلُ في العمال والصناع عبءَ السيطره
فأعجب لعمالٍ يُؤلُّون عليهم قَيْصَره
تحكمهم راهبَةٌ نكَّارَةٌ مُغَبَّرَةٌ^١
عاقدةٌ زُنَّارَهَا عن ساقها مُشَمَّره
تَلَثَّمَت بالأرجوا ن، وارتدته مئزره
وارتفعت كأنها شَرَارَةٌ مُطَيَّره
ووقعت لم تختلج كأنها مُسَمَّره^٢

مخالوفةٌ ضعيفَةٌ من خُلُقٍ مُصَوَّره
يا ما أقلَّ ملكها وما أجَلَّ خطره
قف سائل النحل به بأيِّ عقلٍ دُبَّره؟
يُجببك بالأخلاق وهـ ي كالعقولِ جوهره
تغني قوى الأخلاق ما تغني القوى المفكَّره
ويرفعُ الله بها مَن شاء، حتى الحشره

أليس في مملكة النحلِ لقومٍ تَبَصَّره؟

بِهَمَّةٍ وَمَجْدَرَهُ^٢
 الْيَدِيدِينَ، لَمْ تَرَهُ
 لَى فِيهِ غَيْرَ مُنْذَرِهِ
 فِي قَوْمِهَا مَوْقَرِهِ
 بِ حُكْمِهِمْ مَوْقَرِهِ
 كَانُوا الْبَنِينَ الْبَرِّهِ
 لَا لَلْذِكْرِهِ^٣
 هَالَتْهَا لَنْيِيرُهُ
 عَ فِي الرِّجَالِ وَالشَّرِّهِ^٤
 بِالْهَمْجِ الْمَصْيَرِهِ
 إِلَى الظُّهُورِ قَنْطَرِهِ
 الضَّعِيفِ، وَلَوْ الْمَقْدَرِهِ
 وَرَاءَهَا مِنْ أَثَرِهِ
 حَايَهَا لَبَاةٌ مُخْدِرُهُ^٥
 طَارِدَةٌ مِّنْ كَدَرِهِ
 وَادَّرَعَتْ بِالْحَبَرِهِ
 قَدْ رَابَطَتْ بِأَنْقَرِهِ
 كَتِيبَةٌ مُّعْسِكِرِهِ
 بِ الْخُشْنِ الْمَنْمَرِهِ
 الْبَالِغِينَ جَسَرِهِ^٦
 وَنَفَضَتْهُمْ مِئْبَرِهِ^٧
 فَبَالَقْنَا الْمَجَرَّهِ
 لَيْسَ الْأُمُورُ ثَرَثَرِهِ
 أَلْوِيَةِ الْمُنْشَرِّهِ
 يَحْمِيهِ إِلَّا قَسُورُهُ^٨
 مَخَالِبِ الْمَذْكَرِهِ

مُلْكُ بَنَاهِ أَهْلِهِ
 لَوْ التَّمَسَّتْ فِيهِ بَطَّالُ
 تُقْتَلُ، أَوْ تَنْفَى الْكُسَا
 تَحْكُمُ فِيهِ قَيْصَرِهِ
 مِنَ الرِّجَالِ وَقَيْو
 لَا تَوَرُّ الْقَوْمَ وَلَوْ
 الْمَلِكُ لِلْإِنَاثِ فِي الدَّسْتُورِ
 نَيْيرُهُ تَنْزَلُ عَنْ
 فَهَلْ تُرَى تَخْشَى الطَّمَا
 فَطَالَمَا تَلَاعَبُوا
 وَعَبَرُوا غَفَلَتْهَا
 وَفِي الرِّجَالِ كَرْمُ
 وَفَتْنَةُ الرَّأْيِ، وَمَا
 أَنْثَى، وَلَكِنْ فِي جَنَّا
 نَائِدَةٌ عَنْ حَوْضِهَا
 تَقَلَّدَتْ غِبَرَتَهَا
 كَأَنَّهَا تُرْكِيَّةُ
 كَأَنَّهَا (جَانْدَرَك) فِي
 تَلْقَى الْمُغِيرَ بِالْجَنُورِ
 السَّابِغِينَ شِجَّةُ
 قَدْ نَثَرَتْهُمْ جُعْبَةُ
 مَنْ يَبْنُ مُلْكًا أَوْ يَذُ
 إِنْ الْإِمُورَ هِمَّةُ
 مَا الْمَلِكُ إِلَّا فِي ذُرَى
 عَرِيْنٌ مُنْذُ كَانَ لَا
 رَبُّ النُّيُوبِ الزُّرْقِ، وَالْـ

مَالِكَةٌ، عَامِلَةٌ
الْمَالُ فِي أَتْبَاعِهَا
لَا يَعْرِفُونَ بَيْنَهُمْ
لَوْ عَرَفُوهُ عَرَفُوا
وَأَتَّخِذُوا نِقَابَةً
سَبْحَانَ مَنْ نَزَّهُ عَنْهُ
وَسَاسَهُ بِحُورَةٍ
صَاعِدَةٍ فِي مَعْمَلٍ
وَارِدَةٍ دَسْكَرَةٍ
بَاكِرَةٍ، تَسْتَنْهَضُ
السَّامِعِينَ، الطَّائِعِينَ،
مَنْ كُلٌّ مِنْ خَطِّ الْبِنَا
أَوْشَدَّ أَصْلَ عَقْدِهِ
أَوْ طَافَ بِالْمَاءِ عَلَى

مُصْلِحَةٍ، مُعَمَّرَةٍ
لَا تَسْتَبِينُ أَثَرَهُ
أَصْلًا لَهُ مِنْ ثَمَرِهِ
مَنْ الْبِلَاءِ أَكْثَرَهُ
لَأَمْرِهِمْ مَسِيئَرَهُ
هُ مَلِكُهُمْ وَطَهَّرَهُ
عَامِلَةٍ، مَسْخَرَهُ
مَنْ مَعْمَلٍ مُنْحَدِرِهِ
صَادِرَةٍ عَنْ دَسْكَرَةٍ^{١٠}
عَصَائِبِ الْمُبْكِرَةِ^{١١}
نَ، الْمُحْسِنِينَ الْمَهْرَةَ
ءَ، أَوْ أَقَامَ أَسْطَرَّهُ
أَوْ سَدَّهُ، أَوْ قَوَّورَهُ^{١٢}
جِدْرَانِهِ الْمَجْدَرَهُ^{١٣}

وَتَذْهَبُ النِّحْلُ خِفا
جَوَالِبَ الشَّمْعِ مِنْ
حَوَالِبِ الْمَازِي مِنْ
مَشْدُودَةٍ جَيُوبُهَا
وَكُلُّ خُرْطُومٍ أَدَا
وَكُلُّ أَنْفٍ قَانِيٍّ
حَتَّى إِذَا جَاءَتْ بِهِ
وَغَيَّبَتْهُ كَالسُّلَا
فَهَلْ رَأَيْتَ النِّحْلَ عَنْ
مَا اقْتَرَضَتْ مِنْ بَقْلِيَّةٍ
أَدَّتْ إِلَى النَّاسِ بِهِ

فَأَ، وَتَجِيءُ مُوقَرَهُ
خَمَائِلِ الْمَنُورِهِ
زَهْرِ الرِّيَاضِ الشَّيْئَرِهِ^{١٤}
عَلَى الْجَنَى مُزَرَّرَهُ
ةُ الْعَسَلِ الْمُقْطَّرَهُ
فِيهِ مِنَ الشُّهْدِ بُرَّهُ^{١٥}
جَاسَتْ خِلَالَ الْأَدُورِهِ^{١٦}
فَ فِي الدَّنَانِ الْمُحْضَرِهِ^{١٧}
أَمَانَةٍ مُقْصَّرَهُ؟
أَوْ اسْتَعَارَتْ زَهْرَهُ
سُكَّارَةٍ بِسْكَرِهِ

هوامش

- (١) التغبير: ترديد الصوت بالقراءة.
- (٢) الاختلاج: الاضطراب.
- (٣) يقال: هذا الأمر مجردة ذلك، أي جدير به.
- (٤) الذكرة: الذكور.
- (٥) الطماع: الطمع.
- (٦) اللبابة: اللبوة.
- (٧) الشكة: السلاح. والجسرة: الجسارة.
- (٨) المثبرة: بيت الإبرة.
- (٩) القسورة: الأسد.
- (١٠) الدسكرة: القرية.
- (١١) العصائب: جمع عصابة.
- (١٢) قور الشيء: قطعه من وسطه خرقاً مستديرًا.
- (١٣) المجدرة: أي المشيدة.
- (١٤) المازني: العسل. والشيرة: الجميلة الحسنة.
- (١٥) البرة: الحلقة في الأنف.
- (١٦) الأدورة: الديار، يُرَادُ بها الخلايا هنا.
- (١٧) السُّلاف: أفضل الخمر.

في سبيل الهلال الأحمر

واكتبُ ثوابَ المحسنينَ وسطراً
واطلبُ مزيداً في الرخاءِ لموسرٍ
يفتحُ على أُممِ الهلالِ وينصرِ
واقعدُ بهم في ذلكِ المستمطرِ
الله من ملأ كريمة خيّر
والله زانك بالقبول الأنور
من كل أبلج في الأكارم أزهر
فكأنها قطع الغمام الممطر
بيع الحصى في السوق بيع الجواهر
أين المساوم في الثواب المشتري؟
ومن المهابة بين ألف معسكر
لا يسمحون بها وبين الكوثر^١
لا يطعنون القرن ما لم يُنذر^٢
أخذ المعادل بالقنا المتشجر^٣
لا يسألون عن السعير الممطر
جرّحى نُجلهم، كجرّحى خيبر
دم أهل بدر فيه، أو دم حيدر^٤
وجراحه في قلب كل غضنفر

جبريلُ، هلل في السماء، وكبر
سل للفقير على تكرمِهِ الغني
وادع الذي جعل الهلال شعاره
وتول في الهيجاء جند محمد
يا مهرجان البر، أنت تحية
هم زينوك بكل أزهر في الدجى
حسنّت وجهك في العيون وأشرقّت
كُثرت عليك أكفهم في صوبها
لو يعلمون (السوق) ما حسنتها؟
جبريلُ يعرض، والملائك باعة
ومجاهدين هناك عند معسكر
موفين للأوطان بين حياضها عرب
على دين الأبوة في الوغى
ألفوا مصاحبة السيوف، وعودوا
يمشون من تحت القذائف نحوها
في أعين الباري، وفوق يمينه
من كل ميمون الضماد، كأنما
جدلان، هيئة عليه جراحه

ضُمِدَتْ بأهدابِ الجفونِ، وطالما ضُمِدَتْ بأعرافِ الجياد الضُّمَرُ^٥
عُودُهُ يَتَمَسَّحُونَ بِرُؤْنِهِ كالوفدِ مَسَّحَ بالحطيمِ الأطهر^٦
وتكادُ من نورِ الإلهِ حياله تبيضُ أثناءً (الهلالِ الأحمر)

هوامش

- (١) أي لا يسمحون بالكوثر بديلاً منها لو خيرو بين حياض نيلها وبينه.
- (٢) القرن: الكفء والنظير.
- (٣) القنا: الرمام. والمتشجر: المشتبك.
- (٤) الحيدر: الأسد، ولقب من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب (رضى الله عنه).
- والضماذ: عصابة الجرح.
- (٥) الضمر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم الدقيق. والأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.
- (٦) الردن: أصل الكم.

الأزهر^١

قَمْ فِي فَمِ الدُّنْيَا وَحَيِّ الْأَزْهَرَ
وَاجْعَلْ مَكَانَ الدَّرِّ — إِنْ فَصَّلْتَهُ
وَإِذْكَرْهُ بَعْدَ الْمَسْجِدَيْنِ، مُعْظَمًا
وَإِخْشَعْ مَلِيًّا، وَاقْضِ حَقَّ أَثْمَةٍ
كَانُوا أَجَلٌ مِنَ الْمُلُوكِ جَلَالَةً
زَمَنُ الْمَخَافِ كَانَ فِيهِ جَنَابُهُمْ
مِنْ كُلِّ بَحْرٍ فِي الشَّرِيعَةِ زَاخِرٍ
لَا تَحْذُ حَذْوُ عِصَابَةٍ مَفْتُونَةٍ
وَلَوْ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكَرُوا
مِنْ كُلِّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدْمِهِ
وَأَتَى الْحَضَارَةَ بِالصَّنَاعَةِ رَثَّةً

وَانْتَرُ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَ
فِي مَدْحِهِ — خَرَزَ السَّمَاءِ النِّيْرَا
لِمَسَاجِدِ اللَّهِ الثَّلَاثَةِ مُكْبِرَا^١
طَلَعُوا بِهِ زُهْرًا، وَمَاجُوا أَبْحُرَا
وَأَعَزَّ سُلْطَانًا، وَأَفْخَمَ مَظْهَرَا
حَرَمَ الْأَمَانِ، وَكَانَ ظِلُّهُمْ الذَّرَا^٢
وَيُرِيكُهُ الْخُلُقُ الْعَظِيمُ غَضَنَفَرَا
يَجِدُونَ كُلَّ قَدِيمٍ شَيْءٍ مِنْكَرَا
مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ عُمَرَا
وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبَنَاءِ قَصْرَا
وَالْعِلْمِ نَزْرًا، وَالْبَيَانِ مُتَرَثْرَا^٣

* * *

يَا مَعْهَدًا أَفْنَى الْقُرُونِ جِدَارُهُ
وَمَشَى عَلَى يَبَسِ الْمَشَارِقِ نُورُهُ
وَطَوَى اللَّيَالِي رَكْنُهُ وَالْأَعْصُرَا
وَأَضَاءَ أَبْيَضَ لُجَّهَا وَالْأَحْمَرَا

^١ قُيِّلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِمُنَاسَبَةِ إِصْلَاحِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ وَابْدَأَ فِيهِ فِي سَنَةِ ١٩٢٤.

وَأَتَى الزَّمَانُ عَلَيْهِ يَحْمِي سُنَّةً
فِي الْفَاطَمِيِّينَ انْتَمَى يَنْبُوْعُهُ
عَيْنٌ مِنَ الْفَرَقَانِ فَاضَ نَمِيرُهَا
مَا ضَرَّنِي أَنْ لَيْسَ أَفْقُكَ مَطْلَعِي
لَا وَالَّذِي وَكَلَّ الْبَيَانَ إِلَيْكَ، لَمْ
لَمَّا جَرَى الْإِصْلَاحُ قَمَتَ مُهْنِنًا
نَبَأَ سَرَى، فَكَسَا الْمَنَارَةَ حَبْرَةً
وَسَمَا بِأَرْوَقَةِ الْهُدَى، فَأَحْلَاهَا
وَمَشَى إِلَى الْحَلَقَاتِ، فَانْفَرَجَتْ لَهُ
حَتَّى ظَنَنَّا الشَّافِعِيَّ، وَمَالِغًا
إِنَّ الَّذِي جَعَلَ الْعَتِيقَ مَثَابَةً
الْعِلْمُ فِيهِ مَنَاهِلًا وَمَجَانِيًا

وَيَذُودُ عَنْ نُسُكِ وَيَمْنَعُ مَشْعَرًا
عَذَبَ الْأَصُولَ كَجَدِّهِمْ مَتَفَجَّرًا^٥
وَحِيًّا مِنَ الْفَصْحَى جَرَى وَتَحَدَّرًا^٦
وَعَلَى كَوَاكِبِهِ تَعَلَّمْتُ السُّرَى
أَكْ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ مُقْصَرًا
بِاسْمِ الْحَنِيفَةِ بِالْمَزِيدِ مُبَشِّرًا^٧
وَزَهَا الْمُصَلَّى، وَاسْتَخَفَّ الْمُنْبِرَا^٨
فَرَعَ الثُّرَيَّا، وَهِيَ فِي أَصْلِ الثَّرَى
حَلَقًا كَهَالَاتِ السَّمَاءِ مُنَوَّرًا
وَأَبَا حَنِيفَةَ، وَابْنَ حَنْبَلٍ حُضْرًا
جَعَلَ الْكِنَانِيَّ الْمُبَارَكَ كَوْثَرًا^٩
يَأْتِي لَهُ النُّزَاعُ يَبْغُونَ الْقِرَى^{١٠}

يَا فِتْيَةَ الْمَعْمُورِ، سَارَ حَدِيثُكُمْ
الْمَعْهَدُ الْقُدْسِيُّ كَانَ نَدِيَّهُ
وُلِدَتْ قَضِيَّتُهَا عَلَى مُحْرَابِهِ
وَتَقَدَّمَتْ تَرْجِي الصَّفُوفَ، كَأَنَّهَا

نَدَا بِأَفْوَاهِ الرِّكَابِ وَعَنْبَرًا^{١١}
قُطِبًا لِدَائِرَةِ الْبِلَادِ وَمَحُورًا
وَحَبَّتْ بِهِ طِفْلًا، وَشَبَّتْ مُعْصِرًا^{١٢}
(جَانَدْرُكُ) فِي يَدِهَا اللَّوَاءُ مُظْفَرًا

هُزُّوا الْقِرَى مِنْ كَهْفِهَا وَرَقِيمِهَا
الْغَافِلُ الْأَمِّيُّ عِنْدَكُمْ
يُمَسِّي وَيَصْبِحُ فِي أَوَامِرِ دِينِهِ
لَوْ قُلْتُمْ: اخْتَرْتُ لِلْنِّيَابَةِ جَاهِلًا
ذُكِرَ الرِّجَالُ لَهُ، فَأَلَّهَ عَصَبَةً
أَبَاؤُكُمْ قَرُّوْا عَلَيْهِ، وَرَتَّلُوا
حَتَّى تَلَفَّتْ عَنْ مُحَاجِرِ رُومَةٍ
وَدَعَا لِمَخْلُوقٍ، وَأَلَّهَ زَائِلًا

أَنْتُمْ — لَعْمُرُ اللَّهِ — أَعْصَابُ الْقِرَى
كَالْبَبْغَاءِ، مُرَدِّدًا، وَمُكْرَّرًا
وَأُمُورَ دُنْيَاهُ بِكُمْ مُسْتَبْصِرًا
أَوْ لِلْخَطَابَةِ بِأَقْلًا، لَتَخِيرًا^{١٣}
مِنْهُمْ، وَفَسَّقَ آخَرِينَ، وَكَفَرًا^{١٤}
بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الرِّجَالِ مُزَوَّرًا
فَرَأَى (عَرَابِي) فِي الْمَوَاكِبِ قَيْصَرًا
وَارْتَدَّ فِي ظُلَمِ الْعُصُورِ الْقَهْقَرَى

وَتَفَيَّئُوا الدِّسْتَوْرَ تَحْتَ ظِلَالِهِ
لَا تَجْعَلُوهُ هَوًى، وَخُلُقًا بَيْنَكُمْ
الْيَوْمَ صَرَّحَتْ الْأُمُورُ، فَأُظْهِرْتُ
قَدْ كَانَ وَجْهُ الرَّأْيِ أَنْ نَبْقَى يَدًا
فَإِذَا أَتَيْنَا بِالصَّفُوفِ كَثِيرَةً
غَضِبْتُ، فَغَضَّ الطَّرْفَ كُلُّ مُكَابِرٍ
لَمْ تَلَقْ إِصْلَاحًا يُهَابُ، وَلَمْ تَجِدْ
حَظًّا رَجَوْنَا الْخَيْرَ مِنْ إِقْبَالِهِ
دَارَ النِّيَابَةِ هَيئَتْ دَرَجَاتُهَا
الصَّارِخُونَ إِذَا أَسِيءَ إِلَى الْجَمَى
لَا الْجَاهِلُونَ الْعَاجِزُونَ، وَلَا الْأُلَى

كُنْفًا أَهَشَّ مِنَ الرِّيَاضِ وَأَنْضَرَا
وَمَجَرَ دُنْيَا لِلنَّفُوسِ، وَمَتَّجَرَا
مَا كَانَ مِنْ خُدَعِ السِّيَاسَةِ مُضْمَرَا
وَنَرَى وَرَاءَ جَنُودِهَا إِنْكَلَتِرَا
جِئْنَا بِصَفٍّ وَاحِدٍ لَنْ يُكْسِرَا
يَلْقَاكَ بِالْخَدِّ اللَّطِيمِ مُصْعَرَا
مَنْ كُتِلَ مَا كَانَ أَعْيَا مِلْنَرَا^{١٥}
عَاثَ الْمُفَرَّقُ فِيهِ حَتَّى أَدْبَرَا
فَلْيَرْقُ فِي الدَّرَجِ الذَوَائِبُ وَالذَّرَا^{١٦}
وَالزَّائِرُونَ إِذَا أُغِيرَ عَلَى الشَّرَى
يَمْشُونَ فِي ذَهَبِ الْقِيُودِ تَبَخُّرَا

هوامش

- (١) المسجدان: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى.
- (٢) الذرا: الملجأ.
- (٣) النزر: القليل. والمثرثر: المخلط.
- (٤) النسك: العبادة. والمشعر: موضع من مناسك الحج.
- (٥) جدُّ الفاطميين: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، وقد كان مضرب المثل في التبجُّر في العلوم.
- (٦) الفرقان: القرآن. والحياء: المطر. والفصحى: اللغة العربية.
- (٧) الحنيفة: الشريعة.
- (٨) المنارة: المئذنة. والحبرة: السرور.
- (٩) العتيق: المسجد الحرام. والمثابة: مجمع الزمر.
- (١٠) النزاع: القصاد. والقرى: الضيافة.
- (١١) المعمور: الأزهر.
- (١٢) طفلاً: أي طفلة. والمعصر: الفتاة المدركة.
- (١٣) باقل: عربي يضرب به المثل في العي والفهاهة.

(١٤) فسقه: رماه بالفسق. وكفّره: نسبته إلى الكفر.

(١٥) المراد بالكتلة: الأمة مجتمعة. واللورد ملنر: هو أحد الوزراء الإنجليز، وكان قدم إلى مصر في جماعة من قومه سنة ١٩٢٠ ليتقصوا رغائبها وآمالها، فقاطعتهم البلاد وأحالتهم على الوفد المصري الذي كانت وكلته في الدفاع عن حقها إن ذاك.

(١٦) المراد بالذوائب والذُّرا: عليّة القوم وأكفاهم.

وداع فروق

وداعًا جَنَّةَ الدنيا وداعاً^١
أرى العيشَ افتراقًا واجتماعاً
— كما للناسِ — تنفطرُ التِّباعاً^٢
وما فعلَ الفراقُ غداةَ راعاً^٣
لأنطقت المآذنَ والقلاعاً
فلَمَّا ضففتُها حوتَ اليراعاً^٤
أَكُنَّ ليلالِياً أم كُنَّ ساعاً؟^٥
كدقَّاتي لذاكرها سِراعاً
لقد رَضِيَاكِ بينهما مشاعاً^٦
يمدُّ الجهلُ بينهم النَّزاعاً؟
بأطولِ حائطٍ منكِ امتناعاً
وكنْتَ لبَيْتِهِ الأَقصى سِطاعاً^٧
كفى بهما من الدنيا متاعاً^٨
تخَطَّرَتِ الحِياةُ به شُعاها
أوانسُ، لا نقابَ ولا قِناعاً
تعالى الله خَلْقًا وابتداعاً
على الفِرْدوسِ أكامًا وقاعاً^٩

تجلَّد للرحيل، فما استطاعاً
عسى الأيَّامُ تجمعنِي، فإنِّي
ألا لَيْتَ البلادَ لها قلوبُ
وليتَ لَدِي (فروق) بعضُ بَنِي
أما والله، لو عَلِمْتُ مكانِي
حَوْتُ رِقِّ القواضبِ والعوالي
سألتُ القلبَ عن تلك الليالي
فقال القلبُ: بل مرَّ عَجالاً
أدارَ (محمد) وثرأثَ (عيسى)
فهل نبذَ التعصُّبَ فيكَ قومُ
أرى الرحمنَ حصَّنَ مسجديه
فكنْتَ لبَيْتِهِ المحجوجِ ركنًا
هواؤُكِ والعيونُ مُفجَّرات
وشمسُكِ كلُّما طلعتْ بأفُقِ
وغيْدُكِ، هُنَّ فوق الأرضِ حورُ
حوالِي لُجَّةٍ من لازورِدِ
يروح لُجَيْنُها الجاري وَيغدو

هوامش

- (١) تجلَّد: تكلَّف الجلد وأظهره. والجلد: قوة الصبر.
- (٢) تنفطر: تنشق. والالتياح: احتراق القلب من الهم أو الشوق.
- (٣) فروق: الآستانة. والبث: أشدُّ الحزن. راع: أفرع.
- (٤) القواضب: السيوف القاطعة، مفردها قاضب. والعوالي: جمع عالية، وهي من الرمح أعلى رأسه، أو نصفه الذي يلي السنان، أو ما دخل منه تحت السنان إلى ثلثه.
- (٥) الساع: جمع ساعة.
- (٦) المشاع (بفتح الميم وضمها): المشترك غير المقسوم.
- (٧) السطاع: عمود البيت.
- (٨) لجينها: أي اللجنة، واللجين: الفضة. والآكام: التلال. والقناع: أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام.
- (٩) العيون: هي عيون الماء.

رحلة الشرق^١

واصنع به المجد، فهو البارُع الصَّنْعُ^١
ما لم يكن لامرئٍ في خاطر يقع
على السماءِ لطيفُ الصنع، مُخْتَرَعٌ؟
جَنَّ، جُنُودُ سُلَيْمَانَ لها تَبَعٌ؟
راموا من القُبَّةِ الكبرى، وما فَزَعُوا^٢
بكل غايةِ إقدامٍ له وَلَعٌ
لا التَرَهَاتُ لها أَسٌّ، ولا الخدع
وليس يبخُسُهُم شيئًا إذا برعوا
إذا خِيارُكُمْ بالدُّولةِ اضطلعوا؟^٣
والبحر ليس لكم في عرضه شُرْعٌ
فليس يلحق أهلَ السيرِ مُضْطَجِعٌ
إن المِقْصَصَ خفيفٌ حين يقطّـعُ
منه الضغائنُ ما لم تشهد الضُّبُعُ

أَقْدَمُ، فليس على الإقدام مُمتنع
للناس في كل يومٍ من عجائبه
هل كان في الوهم أن الطير يخلُفها
وأن أدراجها في الجوَّ يسلكها
أعيا العُقَابَ مداهم في السماء، وما
قل للشباب بمصر: عَصْرُكُمْ بَطْلٌ
أَسُّ الممالك فيه هِمَّةٌ وَجَجَى
يُعطي الشعوبَ على مقدار ما نبغوا
ماذا تُعَدُّون بعد البرلمان له
الْبَرُّ ليس لكم في طوله لُجْمٌ
هل تنهضون عساكم تلحقون به؟
لا يُعجبَنَّكُمْ ساعٍ بتفرقةٍ
قد أشهدوكم من الماضي وما نبشت

^١ بعد رحلة طويلة شاقة في صحراء ليبيا، استطاع الرحالة المصري الكبير أحمد حسنين أن يسدي إلى العلم يدا بيضاء، وأن يكشف للناس عن مجاهل هذه البدياء، فلمّا عاد قابله البلاء بالحفاوة والترحاب، واحتفل به القوم احتفالاً فخماً ألقى فيه هذه القصيدة.

فيه على الجيف الأحزابُ والشيع؟
وللمسالك فيه الناصحُ الورع
يكون صنْعُكم غيرَ الذي صنعوا
من الولاية، والمال الذي جمعوا
إلاَّ عواريَّ حظٍّ ثم تُرتَجَعُ
حيالُهُ، وعلى تمثاله اجتمعوا
فالصبر ينفعُ ما لا ينفعُ الجَزَعُ
وفي صناعات عصر ناسه صنْعُ
دعائم العصر من رُكنيه، مُنْصَدِعُ
فهل تُرى القومُ بالحرية انتفعوا؟

ما للشباب وللماضي تمرُّ بهم
إن الشبابَ غدٌ، فليهدهم لغدٍ
لا يَمْنَعَنَّكُمْ بَرُّ الأبوةِ أن
لا يُعْجِبَنَّكُم الجاهُ الذي بلغوا
ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حَسُنَّا
عليكُم بخيال المجد، فأتلِفوا
وأجملوا الصبرَ في جدٍّ وفي عمل
وإن تَبَغْتُم ففي علم، وفي أدب
وكلُّ بنيان قوم لا يقوم على
شريف مكة حُرٌّ في ممالكه

كلتاها في مُفاجأة الفنى شَرَعُ^٦
لا تعلمُ النفسُ ما يأتي وما يَدَعُ
تَهْبُّ رِيحاهما، أو يَطْلُعُ السبعُ؟
من العواصف فيها الخوفُ والهَلَعُ
متى تحطُّ رحالاً؟ أو متى تَضَعُ؟
أَنَّ الدليلَ — وإن أرداك — مُتَّبَعُ
إلاَّ سرابٌ على صحراء يلتَمِعُ

كم في الحياة من الصحراء من شَبِه
وراءَ كلِّ سبيلٍ فيهما قَدَرُ
فلست تدري، وإن كنتَ الحريصَ، متى
ولست تأمنُ عند الصحو فاجئَةً
ولست تدري، وإن قَدَّرْتَ مجتهدًا،
ولست تملكُ من أمر الدليل سوى
وما الحياة إذا أَظْلَمَتْ، وإن خَدَعَتْ

تروم ما لا يرومُ الفتيَةُ القُنْعُ
فيما يبلِّغُها حَمْدًا، فتندفع
طاحوا على جنباتِ الحمدِ أم رَجَعوا
بأنك الليثُ لم يَخْلُقْ له الفَزَعُ
قَفَرٍ يضيقُ على الساري، ويتسع؟^٧
من عهد آدم لا خُبْتُ ولا طَبَعُ؟^٨
على الفلا، ولغير الله ما رَكَعوا

أكبرتُ من (حَسَنَيْنِ) هِمَّةً طَمَحَتْ
وما البطولةُ إلاَّ النفسُ تدفعها
ولا يُبالي لها أهلٌ إذا وصلوا
رَحالة الشرق، إنَّ البیدَ قد علمتُ
ماذا لقيت من الدوّ السحيق، ومن
وهل مررتُ بأقوامٍ كَفِطَرَتِهِمْ
ومن عجيبٍ لغير الله ما سجدوا

كيف اهتدى لهم الإسلام، وانتقلت
جزتك مصرُ ثناءً أنتَ موضعُه
إليهم الصلواتُ الخمسُ والجمعُ؟
ولو جزتك الصحاري جئتُنا مَلِكًا
فلا تذبُّ من حياءٍ حينَ تستمعُ
من الملوك، عليك الريشُ والودعُ^٩

هوامش

- (١) الصنع: الحاذق.
- (٢) فرع الجبل: صعده.
- (٣) اضطلعوا: أي نهضوا بها.
- (٤) الشرع: جمع الشراع، والمراد بها هنا السفن، من إطلاق الجزء على الكل. واللجم، والشرع: يُراد بها قوّة البرّ، وقوّة البحر.
- (٥) العواري: جمع عارية وهي العطبة بلا عوض.
- (٦) شرع: أي سواء.
- (٧) الدو: المفازة.
- (٨) الطبع: الشين، والعيب، والدنس.
- (٩) الريش والودع: عنوان العظمة في أواسط أفريقيا.

براءة^١

الناسُ للدنيا تبَع	ولمن تُحالفُه شيع
لا تهجَعَنَّ إلى الزما	ن، فقد يُنبَّه مَنْ هجع ^١
وارباً بحلمك في النوا	زلِ أن يُلمَّ به الجزع
لا تخلُ من أملٍ، إذا	ذهب الزمانُ فكم رجع
وانفع بوسعك كله	إن الموفقُ مَنْ نفع

* * *

مصر بَنَتْ لقضائها	ركناً على النجم ارتفع
فيه احتمى استقلالُها	وبه تحصَّن وامتنع
فليهنها، وليهننا	أن القضاء به اضطلع ^٢
الله صان رجاله	مما يُدنُّس أو يضع
ساروا بسيرة منذر	وأبي حنيفة في الورع
وكان أيام القضا	ء جميعها بهمُ الجُمع
قل للمُبَرِّأ مُرْقُص:	أنت النقيُّ من الطبع ^٣

^١ حُرِّم الأستاذ مرقص فهمي حيناً من الاشتغال بالمحامة، ثم برَّاه القضاء من تلك التهمة التي عُزِيَتْ إليه؛ فاحتفل بعودته إلى المحامة احتفالاً أُلْقِيَتْ فيه هذه القصيدة.

هَذَا الْقَضَاءُ رَمَاكَ بِالْـ	يُؤْمِنِي، وَبِالْيَسْرِى نَزَعِ
هَذَا قِصَاءُ اللَّهِ مُمَّـ	تَتَلُّ الْحُكُومَةَ، مُتَّبِعِ
عُدِّ لِلْمَحَامَاةِ الشَّرِيبِـ	خَفَةِ عَوْدَ مُشْتَاقٍ وَلَعِ
وَالْبِسْ رِدَاءَكَ طَاهِرًا	كَرْدَاءِ مَرْقَصٍ فِي الْبَيْعِ
وَادْفَعْ عَنِ الْمَظْلُومِ وَالـ	مَحْرَمِ أْبْلَغَ مَنْ دَفَعَ
وَإِغْفِرْ لِحَاسِدٍ نَعْمَةٍ	بِالْأَمْسِ نَالِكَ أَوْ وَقَعَ
مَا فِي الْحَيَاةِ لِأَنْ تَعَا	تَبَ أَوْ تُحَاسِبَ، مُتَّسِعِ

هوامش

- (١) الهجوع: النوم.
- (٢) اضطلع: قوي.
- (٣) الطبع: الشين والعيب.
- (٤) البيع: جمع بيعة وهي متعبد النصارى.
- (٥) وقع فلان في فلان: سبّه وعابه.

الصحافة^١

لكلِّ زمانٍ مضى آيةٌ
لسانُ البلادِ، ونبضُ العبادِ
تسيرُ مسيرَ الصَّحَى في البلادِ
وتمشي تَعْلَمُ في أمةٍ
فيا فتيةَ الصَّحَفِ، صبرًا إذا
فإنَّ السَّعادةَ غيرُ الظَّهو
ولكنها في نواحي الضمير
خذوا القصدَ، واقتنعوا بالكفافِ
وروموا النبوغَ، فمن ناله
وما الرزقُ مجتنَبُ حِرْفَةٍ
إذا آخَتِ الجوهريُّ الحظوظُ
وإنَّ أَعْرَضَتْ عنه لم يحلُ في

وآيةُ هذا الزمانِ الصُّحُفِ
وكهفُ الحقوقِ، وحرْبُ الجَنَفِ^١
إذا العلمُ مَزَّقَ فيها السَّدَفِ^٢
كثيرةٌ مَنْ لا يَخْطُ الأَلَفِ!
نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
ر، وغيرُ الثَّراءِ، وغيرُ الترفِ
إذا هو باللؤمِ لم يُكْتَنَفِ
وخلوا الفضولَ يغلُّها السَّرَفِ^٣
تلَقَّى من الحظِّ أَسْنَى التَّحَفِ
إذا الحظُّ لم يهجر المحترِفِ
كفلنَ اليتيمَ له في الصَّدَفِ^٤
عيونِ الخرائدِ غيرُ الخزفِ^٥

* * *

رعى الله ليلتكم، إنها تلت عنده ليلةَ المنتصفِ^٦

^١ أَلَفُ أصحابِ الصحفِ العربيةِ نقابةُ تجمعِ كلمتهم، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدةُ في الاحتفالِ بإنشائها.

لقد طلع البدرُ من جُنْحِها وأوما إلى صُبْحِها أن يقف
جلوتم حواشِيَهَا بالفنون فمن كل فنٍّ جميل طَرف
فإن تسألوا: ما مكانُ الفنون؟ فكم شرفٍ فوق هذا الشرف^٧
أريكةُ (موليير) فيما مضى وعرضُ (شكسبير) فيما سلف
وعودُ (ابن ساعدة) في عُكاظ إذ سأل خاطره بالطَّرَف^٨
فلا يَرْقِيَنَّ فيه إلا فتى إلى درجات النبوغ انصرف
تعلَّم حكمتَه الحاضرين وتُسَمِّعُ في الغابرين النُّطف^٩

* * *

حمدنا بلاءكم في النضالِ وأمسِ حمدنا بلاءَ السلف
ومن نسيَ الفضلَ للسابقين فما عرف الفضلَ فيما عرف
أليس إليهم صلاح البناءِ إذا ما الأساس سما بالغرف؟
فهل تأذنون لذي خَلَّةٍ يَفُضُّ الرياحين فوق الجيف؟
فأين (اللواء)، وربُّ اللواءِ إمامُ الشباب، مثالُ الشرف؟^{١٠}
واين الذي بينكم شُبْلُهُ على غاية الحق نَعَم الخلف؟
ولا بدَّ للغرس من نقله إلى مَنْ تعهَّد، أو مَنْ قطف
فلا تجحدنَّ يدَ الغارسين وهذا الجَنَى في يدك اعترف
أولئك مَرُّوا كدود الحرير شجاها النَّفَاعُ وفيه التلف^{١١}

هوامش

- (١) الجنف: الحيف.
- (٢) السدف: الظلام.
- (٣) الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة. وغالها السرف بقولها: أتى عليها.
- (٤) اليتيم: اللؤلؤ المنقطع النظير.
- (٥) الخرائد: العذارى.
- (٦) المنتصف: منتصف شعبان.
- (٧) الشرف (أولاً): العلو والمجد. والشرف (ثانياً): الموضع العالي، وهو هنا المسرح.

- (٨) عود ابن ساعدة: أي منبر قسّ بن ساعدة، وهو أخطب خطباء الجاهلية.
- (٩) الغابرين: الآتين. والنظف: جمع نطفة وهي أصل النسل.
- (١٠) ربُّ اللواء: المرحوم مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء.
- (١١) النفع: النفع.

عيد الفداء^١

أَمَّا الْعِتَابُ، فَبِالْأَحَبَّةِ أَخْلَقُ
يَا مَنْ أَحَبُّ، وَمَنْ أَجَلُّ، وَحُسْبُهُ
الْبُعْدُ أَدْنَانِي إِلَيْكَ، فَهَلْ تُرَى
فِي جَاهِ حُسْنِكَ ذِلَّتِي وَضِرَاعَتِي
وَالْحَبُّ يَصْلُحُ بِالْعِتَابِ وَيَصْدُقُ
فِي الْغَيْدِ مَنْزِلَةً يُجَلُّ وَيُعْشَقُ
تَقْسُو وَتَنْفَرُ، أَمْ تَلِينَ وَتَرْفُقُ؟
فَاعْطِفْ، فَذَاكَ بِجَاهِ حُسْنِكَ أَلِيقُ!

* * *

خَلَقَ الشَّبَابُ، وَلَا أَزَالُ أَصُونُهُ
صَاحِبَتِهِ عَشْرِينَ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ
قَلْبِي، أَذْكَرْتُ الْيَوْمَ غَيْرَ مُوَفَّقٍ
فَخَفَقْتُ مِنْ ذِكْرِ الشَّبَابِ وَعَهْدِهِ
كَمْ ذُبْتُ مِنْ حُرْقِ الْجَوَى، وَالْيَوْمَ مِنْ
كَنَتْ الشَّبَاكَ، وَكَانَ صَيْدًا فِي الصَّبَا
خَدَعْتُ حَبَائِلَكَ الْمَلَاخَ هُنِيَّةً
وَأَنَا الْوَفِيُّ، مَوَدَّتِي لَا تَخْلُقُ^١
حَالِي بِهِ حَالٍ، وَعَيْشِي مُونِقُ^٢
أَيَّامَ أَنْتَ مَعَ الشَّبَابِ مُوَفَّقٍ
لَهْفِي عَلَيْكَ! لِكُلِّ ذِكْرٍ تَخْفُقُ
أَسْفٍ عَلَيْهِ وَحَسْرَةٍ تَتَحَرَّقُ
مَا تَسْتَرْقُ مِنَ الظُّبَاءِ وَتُعْتِقُ
وَالْيَوْمَ كُلُّ حِبَالَةٍ لَا تَعْلُقُ

^١ كان لهذه القصيدة يوم نُشِرت ضجة هائلة، ولعلها استمَدَّت معظمها من تلك الأبيات التي تنطق فيها
ذكرى الشباب، والتي قلَّما وُقِّت إلى مثلها شاعر، ولقد نُظِّمَت هذه القصيدة معارضة لأخرى من رويها
للمرحوم إسماعيل صبري باشا.

هل دون أيام الشبيبة للفتى صفوً يحيطُ به، وأنسُ يُحْدِقُ؟

هوامش

(١) خلق الشيء: بلي.

(٢) الحالي: الحلو، أو المزين.

نكبة بيروت^١

يا ربُّ، أَمْرُكَ فِي الْمَمَالِكِ نَافِذٌ
إِنْ شَتَّتَ أَهْرَقُهُ، وَإِنْ شَتَّتَ أَحِمَهُ
وَاحْكَمْ بَعْدَكَ، إِنْ عَدَلَكَ لَمْ يَكُنْ
أَلَّا جَلَّ آجَالُ دَنْتٍ وَتَهْيِآتٍ
مَا كَانَ يَحْمِيهِ، وَلَا يُحْمَى بِهِ
هَذَا بِجَانِبِهَا الْكَسِيرِ غَرِيقَةٌ

وَالْحَكْمُ حَكْمُكَ فِي الدِّمِ الْمَسْفُوكِ
هُوَ لَمْ يَكُنْ لِسَوَاكَ بِالْمَمْلُوكِ
بِالْمُمْتَرَى فِيهِ، وَلَا الْمَشْكُوكِ
قَدَّرْتَ ضَرْبَ الشَّاطِئِ الْمَتْرُوكِ؟
فُلْكَانَ أَنْعَمُ مِنْ بَوَاخِرِ «كُوك»^١
تَهْوِي، وَتِلْكَ بَرَكْنَهَا الْمَدْكُوكِ

* * *

بيروتُ، مَاتَ الْأَسَدُ حَتْفَ أَنْوْفِهِمْ
سَبْعُونَ لَيْتًا أُحْرِقُوا، أَوْ أُغْرِقُوا
كُلُّ يَصِيدِ اللَّيْلِ وَهُوَ مَقِيدٌ
يَا مُضْرِبَ الْخِيَمِ الْمَنِيْفَةِ لِلْقَرَى
مَا كُنْتُ يَوْمًا لِلْقَنَايِلِ مَوْضِعًا
بَيْرُوتُ، يَا رَاخَ النَّزِيلِ، وَأَنْسَهُ
الْحَسَنُ لَفْظُ فِي الْمَدَائِنِ كُلِّهَا

لَمْ يُشْهَرُوا سَيْفًا، وَلَمْ يَحْمُوكِ
يَا لَيْتَهُمْ قُتِلُوا عَلَى «طَبْرُوكِ»
وَيَعِزُّ صَيْدُ الضَّيْعِ الْمَفْكُوكِ
مَا أَنْصَفَ الْعُجْمُ الْأَلْيَ ضَرْبُوكِ^٢
وَلَوْ أَنَّهَا مِنْ عَسَجِدٍ مَسْبُوكِ
يَمْضِي الزَّمَانُ عَلَيَّ لَا أَسْلُوكِ
وَوَجَدْتُهُ لَفْظًا وَمَعْنَى فِيكَ

^١ قيلت على أثر ضرب الأسطول الإيطالي لمدينة بيروت.

نادمتُ يوماً في ظِلَالِكِ فتيةً
يُنسون (حساناً) عصابة (جَلَقَ)
تالله ما أحدثتِ شرّاً أو اذىً
أنتِ التي تحمي ويمنع عرضها
أن يجهلوك، فإنَّ أَمَكِ سوريا
والسابقين على المفاخر والعُلا
سالت دماءً فيك حول مساجدٍ
كنا نوُمِّل أن يُمَدَّ بقاؤها
لكِ في رَبَى النِيلِ المباركِ جيرةً
وَسَمُوا الملائكَ في جلالِ ملوك^٢
حتى يكاد بجلق يفديك^٣
حتى تُراعي، أو يُراعَ بَنوكِ
سيفُ الشريف، وَخَنَجِرُ الصُّلوكِ
والأبْلَقِ الفردِ الأشمَّ أبوك^٤
بَلَهَ المكارمَ والندى أهْلوكِ
وكنائسٍ، ومدارسٍ و«بُنوكِ»
حتى تَبِلَ صدَى القنا المشبوكِ
لو يقدِّرون بدمعهم غسلوك

هوامش

- (١) أي لم تكن تستطيع حمايته هاتان السفينتان الصغيرتان اللتان أعدتا به للرياضة والتنعم لا للحرب والقتال.
(٢) القرى: الضيافة.
(٣) واسمه في الحسن فوسمه: أي غلبه فيه.
(٤) حَسَّان بن ثابت: شاعر النبي ﷺ وعصابة جلق: هم ملوك غسان. وجلق: هي دمشق.. وكان حَسَّان بن ثابت كثيراً ما يفد على آل غسان ويمدحهم، وينال منهم، فمما يناسب هذا المقام قوله.

لله دُرُّ عصابة نادمتهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريس عليهم
بيض الوجوه، كريمة أحسابهم
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
يوماً بجلق في الزمان الأول
قبر ابن مارية الكريم المفضل
بردي يصفق بالرحيق السلسل
شَمُّ الأنوف، من الطراز الأوَّل
لا يسألون عن السواد المقبل

(٥) الأبلق: جبل لبنان.

تكليل أنقرة وعزل الآستانة

قُمْ نَادِ (أَنْقَرَةَ) وَقُلْ: يَهْنِيكَ
أَعْطَيْتَهُ ذُودَ اللَّبَاةِ عَنِ الشَّرَى
وَأَقَمْتَ بِالْدَّمِ جَانِبِيهِ، وَلَمْ تَزَلْ
فَعَقَدْتَ تَاَجَكٍ مِنْ طُبَى مَسْلُولَةٍ
تَاَجٌ تَرَى فِيهِ إِذَا قَلَّبْتَهُ
وَتَرَى الضَّحَايَا مِنْ مَعَاقِدِ غَارِهِ
وَتَرَاهُ فِي صَحْبِ الْحَوَاثِ صَامِتًا
خِرَزَاتُهُ دَمٌ أَمَّةٌ مَهْضُومَةٌ
بِالْوَاجِبِ التَّمَسُّ الْحَقُوقَ، وَخَابَ مَنْ
لَا لِلْفَرْدِ مَسَّ جَبِينِكَ الْعَالِي، وَلَا
لَمَّا نَفَرْتَ إِلَى الْقِتَالِ جَمَاعَةً
هَدَرُوا دِمَاءَ الْأُسْدِ فِي آجَامِهَا
يَا بِنْتَ (طُورُوسَ) الْمَرْمَرِ طَاطَأَتْ
أُمْعَنْتُمَا فِي الْعِزِّ، وَاسْتَعْصَمْتُمَا
نَحْتِ الشُّعُوبِ مِنَ الْجِبَالِ دِيَارَهُمْ
فَلَوْ أَنَّ أَخْلَاقَ الرِّجَالِ تَصَوَّرَتْ
إِنَّ الَّذِينَ بَنَوْكَ أَشْبَهُ نِيَّةً
حَلَفُوا عَلَى الْمِيثَاقِ، لَا طَعَمُوا الْكَرَى

مُلْكُ بَنَيْتٍ عَلَى سَيُوفِ بَنِيكَ
فَأَخَذْتَهُ حُرًّا بِغَيْرِ شَرِيكَ^١
تُبْنِي الْمَمَالِكَ بِالْدَّمِ الْمَسْفُوكِ
وَحَلَلْتَ عَرْشَكَ مِنْ قَنًا مَشْبُوكِ^٢
جَهْدَ الشَّرِيفِ، وَهَمَّةَ الصُّعْلُوكِ^٣
وَعَلَى جَوَانِبِ تَبْرِهِ الْمَسْبُوكِ^٤
كَالصَّخْرِ فِي عَصْفِ الرِّيحِ النَّوْكَِ^٥
وَجُهْدُ شَعْبٍ مُجْهَدٍ مِنْهُوكِ
طَلَبَ الْحَقُوقَ بِوَاجِبٍ مَتْرُوكِ
أَعَوَانُهُ بِأَكْفَقِهِمْ لِمَسُوكِ^٦
أَصْلُوكِ نَارَ تَلْصُصٍ وَفُتُوكِ^٧
وَالْأُسْدُ شَارِعَةُ الْقَنَا تَحْمِيكَ^٨
شُمُ الْجِبَالِ رَعُوسَهَا لِأَبِيكَ^٩
هُوَ فِي السَّحَابِ، وَأَنْتِ فِي أَهْلِيكَ^{١٠}
وَالْقَوْمُ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ نَحْتُوكِ
لِرَأْيَتِ صَخْرَتِهَا أَسَاسًا فِيكَ
بِشَبَابِ (خَيْرِز)، أَوْ كَهُولِ (تَبُوكِ)^{١١}
حَتَّى تَذُوقِي النُّصْرَ، هَلْ نَصْرُوكِ؟^{١٢}

زَعَمُوا (الفرنسيّ) المحجَّل صورةً
 (النسرُ) سَلَّ السيفَ يَبْنِي نَفْسَهُ
 والنسرُ مملوكٌ لسلطان الهوى
 يا دولة الخلق التي تاهت على
 بيني وبينك مَلَّةٌ وكتابُها
 قد ظنني اللاحي نطقتُ عن الهوى
 لم يُنْقِذِ الإسلامَ أو يرفعَ له
 رَدُّوا الخيالَ حقيقةً، وتطلعوا
 لم أكذبُ التاريخَ حين جعلتهم
 لم ترَضني ذنبًا لنجميك هَمَني
 قلبي — وإن جهل الغبِّي مكانه —
 ظفرتُ بيونانَ القديمةَ حكمتي

في حُلْبَةِ الفرسان من حاميك^{١٣}
 وفتاكِ سَلَّ حسامه يَبْنِيكَ^{١٤}
 ووجدتُ نسرَكَ ليس بالمملوك
 ركن السَّمَاكِ بركنِها المسموك^{١٥}
 والشرق يَنمِينِي كما يَنمِيكَ
 وركبتُ مَتَنَ الجهلِ إذ أطريك^{١٦}
 رأسًا سوى النفرِ الألي رفعوك
 كالحق حَصَصَ من وراء شكوك^{١٧}
 رُهبانَ نَسْكَ، لا عَجولَ نسيك^{١٨}
 إن البيان بنجمه يُنبِيكَ^{١٩}
 أبقى على الأحقاب من ماضيكَ^{٢٠}
 وغزا الحديثة ظافرًا غازيك

مني لَعَهْدِكَ يا (فروقُ) تحيَّةُ
 أو كالنسيم غدا عليك، وراح من
 أو كالأصيل جرى عليك عقيقه
 تلك الخمائلُ والعيونُ، اختارها
 قد أفرغت فيك الطبيعة سحرها
 خلعت عليك جمالها، وتأمّلت
 تالله ما فتنَ العيونَ ولذّها
 عن جيدك الحالي تَلَفَّتِ الرُّبَى
 إن أنسَ لا أنسَ الشبيبةُ، والهوى
 ولياليًا لم ندر أين عشاؤها
 وصَبَّوْحنا من «بندلار» وشرشر
 لو أن سلطانَ الجمالِ مَخَلَّدٌ
 خلعوك من سلطانهم، فسليهم
 لا يَحْزُنُنْكَ من حُمَاتِكَ خطّةُ

كعيونِ مائِكَ، أو رَبَى واديكَ^{٢١}
 فُوفَ الرياضِ، ووَشِيها المحبوك^{٢٢}
 أو سَالَ من عِقْيَانِه شاطيك^{٢٣}
 لك من رَبَى جَنَاتِه باريك^{٢٤}
 مَنْ ذا الذي من سحرها يَرْقِيكَ؟
 فإذا جمالك فوق ما تكسوك
 كقلائد الخُلجانِ في هاديكَ
 واستضحكتُ حُورَ الجِنانِ بفيكَ
 وسوالفَ اللذاتِ في ناديك^{٢٥}
 من فجرها لولا صياحُ الديك
 وَغَبُّوقنا «بترابيا» و«بُيوك»^{٢٦}
 لمليحة، لعذلتُ مَنْ عذلوك
 أَمِنَ القلوبِ ومُلِكها خَلْعوك؟
 كانت هي المُثلى، وإن ساءوك

أَيْقَالُ: فَتِيَانُ الحِمَى بِكَ قَصَّرُوا
وَهُمُ الخِفَافُ إِلَيْكَ، كَالْأَنْصَارِ إِذَا
الْمَشْتَرُوكِ بِمَالِهِمْ، وَدِمَائِهِمْ
هَدَرُوا دِمَاءَ الذَائِدِينَ عَنِ الحِمَى
شَرَبُوا عَلَى سِرِّ الْعَدُوِّ، وَغَرَّدُوا
لَوْ كُنْتَ (مَكَّةً) عَنْدهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ
أَوْ ضَيَّعُوا الْحَرَمَاتِ، أَمْ خَانُوكَ؟
قَلَّ النَصِيرُ، وَعَزَّ مَنْ يَفْدِيكَ
حِينَ الشَّيْخُ بِجَبَّةٍ بَاعُوكَ
بِلِسَانِ مَفْتِي النَّارِ، لَا مَفْتِيكَ^{٢٧}
كَالْبُومِ خَلْفَ جِدَارِكَ الْمَدْكُوكِ^{٢٨}
(كَمَحْمَدٍ) وَ(رَفِيقِهِ) هَجَرُوكَ^{٢٩}

* * *

يَا رَاكِبَ الطَّامِي يَجُوبُ لِحَاجَهُ
إِنْ جِئْتَ (مَرْمَرَةً) تَحْتَ الْفُلْكِ فِي
وَأَتَيْتَ (قَرْنَ التَّبْرِ) ثُمَّ تَحَفُّهُ
فَأَطْلَعَ عَلَى (دَارِ السَّعَادَةِ)، وَابْتَهِلَ
قَلَّ لِلْخِلَافَةِ قَوْلَ بَاكِ شَمْسَهَا
يَا جَذْوَةَ التَّوْحِيدِ، هَلْ لَكَ مُطْفِئُ
خَلَّتِ الْقُرُونُ، وَأَنْتِ حَرْبُ مُمَالِكِ
يَرْمِيكَ بِالْأَمَمِ الزَّمَانُ، وَتَارَةً
عُودِي إِلَى مَا كُنْتَ فِي فَجْرِ الْهَدَى
إِنَّ الَّذِينَ تَوَارَثُوكَ عَلَى الْهَوَى
لَمْ يَلْبَسُوا بُرْدَ النَّبِيِّ، وَإِنَّمَا
إِنِّي أَعْيَيْتُكَ أَنْ تُزَيَّ جِبَارَةً
أَوْ أَنْ تَزُفَّ لَكَ الْوَرَاثَةُ فَاسْقَا
فُضِّي نِيَوْبَ الْفَرْدِ، ثُمَّ خَذِي بِهِ
لَا فَرْقَ بَيْنَ مُسْلَطٍ مَتَتَوَّجٍ
إِنِّي أَرَى الشُّورَى الَّتِي اعْتَصَمُوا بِهَا
مِنْ كُلِّ نَيَّرَةٍ وَذَاتِ حُلُوكِ^{٣٠}
بَهَجٍ، كَأَفَاقِ النِّعَمِ، ضُحُوكِ^{٣١}
تُحَفُّ الضَّحَى مِنْ جَوْهَرِ وَسْلُوكِ^{٣٢}
فِي بَابِهَا الْعَالِي، وَأَدَّ الْوَكِي^{٣٣}
بِالْأَمَسِ لَمَّا أَذْنَتْ بُدْلُوكِ^{٣٤}
وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، مُذَكِّيكِ؟^{٣٥}
لَمْ يَغْفُ ضُدُّكَ، أَوْ يَنْمُ شَانِيكَ^{٣٦}
بِالْفَرْدِ وَاسْتَبْدَادِهِ يَرْمِيكَ
عُمَرُ يَسُوسُكَ، (وَالْعَتِيقُ) يَلِيكَ^{٣٧}
بَعْدَ (ابْنِ هَنْدٍ) طَالَمَا كَذَبُوكِ^{٣٨}
لَبَسُوا طَقُوسَ الرُّومِ إِذْ لَبَسُوكَ
كَالْبَابَوِيَّةِ فِي يَدِي (رُدْرِيكَ)
(كِيَزِيدَ)، أَوْ كَالْحَاكِمِ الْمَأْفُوكِ^{٣٩}
فِي أَيِّ تَوْبَيْهِ بِهِ جَاءُوكَ^{٤٠}
وَمُسْلَطٌ فِي غَيْرِ ثَوْبِ مَلِيكَ
هِيَ حَبْلُ رَبِّكَ، أَوْ زَمَامُ نَبِيِّكَ

هوامش

- (١) الذود: مصدر زاده عن الشيء أي دفعه عنه. واللباة: أنثى الأسد. والشرى: مكان في جانب الفرات، تكثر فيه الأسود ويضرب به المثل في ذلك.
- (٢) الظبى: جمع ظبة، وهي حدُ السيف والسنان ونحوهما.
- (٣) الجهد (بضم الجيم وفتحها): الطاقة، وقيل المشقة.
- (٤) المعاهد: مواضع الانعقاد. والغار: شجر عظيم واحدته غارة، وكان الإغريق الأقدمون والرومان أيضًا يصفرون منه أكاليل لأبطالهم المنتصرين في الحروب. والتبر: الذهب غير المضروب. المسبوك: المذوب المفرغ في القالب.
- (٥) الصخب. الصوت شديدًا. وعصف الرياح: اشتدادها. والنوك: نوكاء وهي الحمقاء.
- (٦) لا الفرد. أي لا الفرد المستبد بالحكم، والخطاب لأنقرة، ويريد بالفرد السلطان محمد وحيد الدين. أعوانه: وزرائه الذين أرادوا أن يخدموا حركة الأناضول ضد اليونان والإنجليز.
- (٧) نفرت إلى قتال: ذهبت إليه مسرعة. وأصلوك: أحرقوك، أي أولئك الأعوان. والتلصص: أن يصير الإنسان لصًا، وأن يتخلق بأخلاق اللصوص. والفتوك: مصدر فتك أي بطش، وفتك فلان في الخبث إذا بالغ فيه.
- (٨) الأجمة: الشجر الكثير الملتف، جمعها أجم بفتح الجيم، وجمع الجمع آجام وهو الوارد في البيت، وهو يشير إلى فتوى شرعية كانت حكومة الآستانة قد أذاعتها في أول أمر الفاتحين في الأناضول تحلل بها قتالهم.
- (٩) طوروس: جبل عظيم في آسيا الصغرى. والمرد: المطول المملس.
- (١٠) أمعنتما: أبعدتما. واستعصمتما: امتنعتما.
- (١١) خيبر: اسم مكان كان به سبعة حصون غزاها النبي ﷺ. وتبوك: أرض بين المدينة والشام نسبت إليها غزوة من غزوات النبي ﷺ أيضًا.
- (١٢) الميثاق: أمور كان القائمون بدعوة القتال قد أخذوا على أنفسهم أن يقاتلوا حتى تتم للأمة.
- (١٣) الفرنسي: نابليون بونابرت.
- (١٤) النسر: لقب نابليون. يريد بفتاك (في هذا البيت) وبحاميك (في البيت قبله) مصطفى كمال.

تكليل أنقرة وعزل الآستانة

- (١٥) السماك: كوكب معروف. والمسموك: المرفوع.
- (١٦) اللاحي: اللائم. متن الجبل: ظهره
- (١٧) حصص الحق: بان بعد كتمانته.
- (١٨) النسيك: الذهب والفضة.
- (١٩) ينبيك. يخبرك.
- (٢٠) الأحقاب: جمع حقب (بضم الحاء)، قيل: هو ثمانون عامًا، وقيل: هو الدهر.
- (٢١) فروق: هي الآستانة.
- (٢٢) فوف الرياض: زهرها، تشبيهاً لها بغوف الثياب وهي نوع من برود اليمن. والوشي: نممة الثوب وتحسينه، وهو أيضًا نوع من الثياب الموشية، تسمية لها باسم المصدر. والمحبوک، من حبك الحائك الثوب أي حسن أثر الصنعة فيه.
- (٢٣) الأصيل: هو ما بعد العصر إلى المغرب. والعقيان: الذهب الخالص.
- (٢٤) الخمائل: جمع خميلة؛ وهي الشجر الكثير الملتف.
- (٢٥) إن أنس لا أنس: أي إن نسيت شيئاً فلست أنسى الشبيبة.. إلخ.
- (٢٦) الصبوح: شراب الصباح. والغبوق: شراب العشي. وبندلار وترابيا وبيوك: أسماء أمكنة في الآستانة.
- (٢٧) الذائدين عن الحمى: جمع ذائد وهو المدافع. ومفتي النار: شيخ الإسلام الذي أفتى بقتالهم.
- (٢٨) شربوا: أي الشيوخ.
- (٢٩) عندهم: عند فتیان الذين اشترك بمالهم ودمائهم.
- (٣٠) الطامي: البحر. واللجاج: جمع لجة. من كل نيرة: أي كل لجة نيرة بيضاء، يكتني بذلك عن البحر الأبيض المتوسط. وذات حلوك: أي ومن كل لجة سوداء ذات حلوك، يكتني بذلك عن البحر الأسود.
- (٣١) مرمرة: هو بحر مرمرة تدخله من مضيق الدردنيل، ويصله بالبحر الأسود مضيق البسفور.
- (٣٢) قرن التبر: هو القرن الذهبي، وهو جزء من البسفور.
- (٣٣) دار السعادة: هي الآستانة. والألوك: الرسالة.
- (٣٤) الدلوك: غروب الشمس.
- (٣٥) مذكك: موقدك.

- (٣٦) لم يغف: لم ينم. والشانئ: المبغض.
- (٣٧) يشير إلى ترك الملك المحصور في أسرة واحدة، والرجوع إلى جعله حقاً يتولاه من تبايعه الأمة، كما كان لعهد الخلفاء الراشدين.
- (٣٨) ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء من بني أمية.
- (٣٩) يزيد: هو يزيد بن الوليد، من ملوك بني أمية، كان من أصحاب الدعارة والفسوق. والحاكم: هو الحاكم بأمر الله أحد الملوك الفاطميين في مصر، كان فاسقاً مختبلاً، وكانت له بدع وضلالات يحمل الناس عليها قسراً.
- (٤٠) فضي نيوب الفرد: انثريها، ومنه قولهم فضَّ الله فمَّ فلان أي نثر أسنانه.
- والنيوب: جمع ناب.

عيد الدهر وليلة القدر^١

الملك بين يديكَ في إقباله
حُرٌّ وأنت الحرُّ في تاريخه
فيضاً على الأوطان من حُرِّيَّة
سعدت بعهدكما المبارك أمة
يفديكَ نصرانيُّه بصليبه
وفتى الدروز على الحُزُون بشيخه
صدقوا الخليفة طاعةً ومحبة
يجدون دولتك التي سَعِدوا بها
جددت عهد (الراشدين) بسيرة
بُنيت على الشورى كصالح حكمهم
حقُّ أعزَّ بك المهيمنُ نصره
شرُّ الحكومة أن يُساسَ بواحدٍ
مُلكٌ نُشاطُره ميامنَ حاله
أخذتْ حكومتُكَ الأمانَ لظبيهِ

عوذتْ مُلكك بالنبي وآله^١
سمحُ، وأنت السمحُ في أقباله^٢
فكلاكما المفتكُ من أغلاله^٣
رقتْ لحالكِ حقبةً، ولحاله^٤
والمنتمي (لمحمدٍ) بهلاله
والموسويُّ على السهولِ بماله^٥
وتمسَّكوا بالطُّهر من أذياله
من رحمة المولى، ومن أفضاله
نسجَ (الرشادُ) لها على منواله
وعلى حياة الرأي واستقلاله
والحقُّ منصورٌ على خُذَّاله^٦
في الملك أقوامٌ عداؤُ رماله
وترى بإذن الله حُسنَ مآله^٧
في مُقفرات البيدِ من رثباله^٨

^١ قيلت في احتفال بالمولد النبوي الشريف.

مَكَّنْتَ للدستور فيه، وحُزَّتْه
فكَأَنَّكَ (الفاروقُ) في كرسِيَّه
أو أنت مثلُ (أبي تراب)، يُتَقَى
عهدُ النَّبِيِّ هو السَّماحَةُ والرضى
بالحق يحملُه (الإمامُ)، وبِالهدى
يا بُنَ الخواقينِ الثَّلاثينِ الأوَّلَى
المبْلِغينِ الدِّينَ ذرْوَةَ سَعِيدِهِ
الموْطِئِينَ مِنَ الممالكِ خيلَهُم
في عدلٍ (فاتحهم) و(قانونيَّهم)
أَمَّا الخِلافَةُ فهي حائِطٌ بيتكم
أَخَذَتْ بِحَدِّ المَشْرِفِيِّ، وحازها
لا تسمعوا للمُرْجَفينِ وجَهلِهِم
طَمَعُ القَرِيبِ أو البعيدِ بِنَيْلِهَا
ما الذَّنْبُ مُجْتَرِئًا على لَيْثِ الشَّرِّ
بأَضَلَّ عَقْلًا — وهي في أَيْمانكم —

تاجًا لوجهك فوقَ تاجِ جلاله^٩
نَعِمْتُ شعوبُ الأرضِ تحتِ ظلاله^{١٠}
ويهابُهُ الأَمَلُكُ في أَسْماله^{١١}
(بمحمّد) أوْلَى وَسَمَحَ خِلاله
في حاضِرِ الدِّستورِ، واستقباله
قد جَمَلُوا الإسلامَ فوقَ جَماله^{١٢}
الرافعينِ المَلِكُ أَوْجَ كَماله^{١٣}
ما لم يَفُزْ (إِسْكَندَرُ) بوصاله^{١٤}
ما يَحْتَذِي الخلفاءُ حَذَوْ مثاله^{١٥}
حتى يُبَيِّنَ الحِشْرُ عن أهواله
لكُمُ القَنَا بِقِصارِهِ وطِواله^{١٦}
فمَصِيبَةُ الإسلامِ من جُهلِهِ^{١٧}
طَمَعُ الفَتَى من دهرِهِ بِمحاله
في الغابِ مُعْتَدِيًا على أَشباهه^{١٨}
مَمَّنْ يُحَاوِلُ أَخْذَها بِشماله

رضي المُهِيمُنُ، والمُسيحُ، وأحمدُ
الهازئينِ مِنَ الثَّرَى بِسَهولِهِ
القاتِلينِ عَدُوَّهُم في حِصْنِهِ
الآخِذِينَ الحِصْنَ عَزَّ سَبيلُهُ
المُعْرضِينَ — ولو بِسَاحَةِ يَلْدَز —
القارئينِ على (عليٍّ) عِلْمِها
المَلِكُ زُلْزَلَ في (فروق) سَاعَةً
لولا انتِظَامُ قلوبِهِم ككَفوفِهِم
والمرءُ ليس بِصادِقٍ في قولِهِ
والشَّعْبُ إن رَامَ الحِياةَ كَبِيرَةً
شَكَرُ الممالكِ لِلسَّخِيِّ بِروحِهِ

عن جيشِكِ الفادي، وعن أبطاله
الدائسينِ على رُؤوسِ جِبالِهِ
بالرأيِ والتدبيرِ قَبْلَ قتالِهِ
مِثْلَ السَّهْأِ أو في امْتِناعِ مَنالِهِ^{١٩}
في الحربِ عن عِزِّضِ العَدُوِّ ومالِهِ
وعلى الغِزاةِ المَتَّقِينَ رِجالِهِ^{٢٠}
كانوا لِه الأوتادِ في زَلِزالِهِ
لنثَرْتُ دَمْعِي اليَوْمَ في أَطلالِهِ^{٢١}
حتى يُوَيِّدَ قولَهُ بِفِعالِهِ
خاضَ الغَمَارَ دَمًا إلى آمالِهِ^{٢٢}
لا لِلسَّخِيِّ بِقِيلِهِ أو قالِهِ

إِيَّاهُ (فروق) الحسن نجوى هائم
أَخْرَجْتَ لِلْعَرَبِ الْفِصَاحَ بَيَانَهُ
لَمْ تُكْثِرِ (الحمراء) مِنْ نَظَائِرِهِ
جَعَلَ الْإِلَهَ خَيَالَهُ (قيس) الْهُوَى
فِي كُلِّ عَامٍ أَنْتِ نَزْهَةٌ رَوْحُهُ
يَغْشَاكَ قَدْ حَنَّتْ إِلَيْكَ مَطِيئُهُ
أَفْرَاحُهُ لَمَّا رَأَى طَلِيقَةً
وَسُرُورُهُ بِكَ مِنْ قِيُودِكَ حُرَّةً
اللَّهُ صَاغَكَ جَنَّتَيْنِ لَخَلْقِهِ
لَوْ أَنَّ لِلَّهِ أَتَّخَذَ خَمِيلَةً
فَكَأَنَّمَا الصَّفَتَانِ فِي حَسَنِيهِمَا
وَكَأَنَّمَا (البسفور) حَوْضُ (محمّد)
وَكَأَنَّ شَاهِقَةَ الْقُصُورِ حَيَالَهُ
وَكَأَنَّ عِيدَكَ عِيدُهَا لَمَّا مَشَى
تَبِيهِي بَعِيدَكَ فِي الْمَمَالِكِ، وَاسْلَمِي
وَاسْتَقْبَلِي عَهْدَ الرِّشَادِ مُجَمَّلًا
دَارُ السَّعَادَةِ أَنْتِ، ذَلِكَ بِأَبْهَا

يَسْمُو إِلَيْكَ بِجَدِّهِ وَبِخَالِهِ^{٢٣}
قَبَسًا يُضِيءُ الشَّرْقَ مِثْلَ كَمَالِهِ^{٢٤}
نَسْلًا، وَلَا (بغداد) مِنْ أَمْثَالِهِ^{٢٥}
وَجُعَلَتْ (ليلي) فِتْنَةً لَخَيَالِهِ^{٢٦}
وَنَعِيمٌ مَهْجَتُهُ، وَرَاحَةٌ بِأَلِهِ
وَيَثُوبُ، وَالْأَشْوَاقُ مَلَأَتْ رِحَالَهُ
أَفْرَاحُ (يوسف) يَوْمَ حُلِّ عَقَالِهِ^{٢٧}
كَسْرُورِ (قيس) بِانْفِلَاتِ غَزَالِهِ^{٢٨}
مَحْفُوفَتَيْنِ بِأَنْعَمِ لِعِيَالِهِ
مَا اخْتَارَ غَيْرَكَ رَوْضَةً لَجَلَالِهِ^{٢٩}
دِيْبَاجَتَا خَدَّ يَتِيهِ بِخَالِهِ^{٣٠}
وَسَطَ الْجَنَانِ وَهْنٌ فِي إِجْلَالِهِ^{٣١}
حُجَرَاتُ (طه) فِي الْجِنَانِ وَآلِهِ^{٣٢}
فِيهَا الْبَشِيرُ بِبَشَرِهِ وَجَمَالِهِ^{٣٣}
فِي السَّلْمِ لِلْآلَافِ مِنْ أَمْثَالِهِ
بِمَحَاسِنِ الدِّسْتُورِ فِي اسْتِهْلَالِهِ
شُلَّتْ يَدٌ مُدَّتْ إِلَى إِقْفَالِهِ

هوامش

- (١) الملك بين يديك: الخطاب للخليفة محمد رشاد الخامس.
- (٢) حرّ: أي الملك، يريد أنه غير مقيد بسلطة الفرد المستبد. وأنت الحرّ في تاريخه: لأن الخليفة محمد رشاد أول خليفة دستوري. وسمح: يقال رجل سمح أي ذو سماحة وعطاء. والأقيال: جمع قيل وهو الملك.
- (٣) كلاكما: أي أنت والملك. والمفتك: المطلق. والأغلل: جمع غل بضم الغين، وهو طوق من حديد يجعل في العنق.
- (٤) الحقبة: المدّة من الدهر.
- (٥) الحزون: جمع حزن بفتح الحاء، ما غلظ من الأرض.

- (٦) الخذال: جمع خاذل وهو الذي لا ينصرک.
(٧) الميامن: جمع ميمنة وهي اليمن والبركة.
(٨) الرثبال: الأسد.
(٩) مَكَّنْتُ للدستور: أي جعلته مكيناً ثابتاً. والدستور: هو القانون الذي ينظم حكم الشورى.
(١٠) الفاروق: لقب عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(١١) أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب (رضى الله عنه). والأسمال: الثياب البالية واحدها سَمَل (بفتح الميم).
(١٢) الخواقين: جمع خاقان وهو اسم لكل ملك من ملوك الترك.
(١٣) الأوج: العلو.
(١٤) إسكندر: هو المقدوني الفاتح العظيم.
(١٥) فاتحهم وقانونيهم: لقبان أولهما للسلطان محمد الفاتح، لُقِّبَ به لأنه أول ملك في الإسلام استطاع أن يفتح القسطنطينية ويقضي على كل سلطة للروم بها. وثانيهما للسلطان سليمان القانوني، لُقِّبَ به لأنه أول واضع لقانون الدولة التركية.
(١٦) المشرقي: السيف، نسبة إلى موضع في اليمن كانت تصنع به السيوف.
(١٧) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة ليقعوا الناس في الاضطراب.
(١٨) الأشبال: جمع شبل وهو ولد الأسد.
(١٩) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.
(٢٠) علي: هو علي بن أبي طالب (رضى الله عنه)، والضمير للحرب.
(٢١) الأطلال: ما شُيِّدَ من آثار الديار.
(٢٢) الغمار (بضم الغين وفتحها): لفيف الناس.
(٢٣) إِيَّه: اسم فعل للاستزادة من الحديث. والنجوى: المسارة بالكلام، وهي السرُّ أيضاً، الهائم: المحبُّ، والذاهب من العشق، أو غيره لا يدري أين يتوجَّه، يريد نفسه، أي أنه هائم بحب فروق — وهي الآستانة — لما بها من حسن ومعنى «يسمو إليك بجده وبخاله» أنه من أصل تركي من ناحية أبويه.
(٢٤) أخرجت: الخطاب لروق، والضمير للهائم في البيت قبله.
(٢٥) الحمراء: هي مدينة غرناطة بالأندلس. وبغداد: حاضرة العراق.

- (٢٦) قيس: هو ابن الملوح، وقيل هو قيس بن معاذ المعروف بالمجنون. وليلى: هي محبوبته التي جُنَّ بها، يقول: إن الله صرف خياله في الشعر على الآستانة، فهو يجيد المعاني في وصفها، حتى شغف بها كشغف قيس بليلى.
- (٢٧) يقول: إنه فرح لها كما فرح يوسف (عليه السلام) بخروجه من السجن.
- (٢٨) يشير بقوله «كسرور قيس بانفلات غزاله» على ما قيل من المجنون رأى ظبية في حباله صيادين فسألهم أن يطلقوها ويضع مكانها شاة من غنمه، ففعلوا.
- (٢٩) الخميطة: الشجر الكثير الملتف. والروضة: ما اجتمع من الحدائق.
- (٣٠) الديباجتان: تثنية ديباجة وهي الوجه، يقال: فلان يصون ديباجته، والديباجتان أيضًا، الخدان. والخال: شامة في الخد.
- (٣١) حوض محمد: يريد الحوض المورود يوم القيامة. ومحمد: هو النبي ﷺ
- (٣٢) حياله: أي قبالبته وإزاءه. والحجرات: جمع حجرة وهي الغرفة. وطه: اسم من أسماء النبي ﷺ أيضًا.
- (٣٣) البشير: من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

وداع اللورد كرومر

أيامكم، أم عهد إسماعيل؟
أم حاكم في أرض مصر بأمره
يا مالكا رِقَّ الرقاب ببأسه
لَمَّا رحلتَ عن البلاد تشهّدت
أوسعَتنا يومَ الوداعِ إهانةً
هلاً بدا لك أن تجاملَ بعدما
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه
أم أنتِ فرعونُ يسوسُ النيل؟
لا سائلاً أبداً ولا مسئولاً؟
هلاً اتَّخذتِ إلى القلوب سبيلاً؟
فكأنكِ الداءَ العيأَ رحيلاً
أدبٌ لعمرِكَ لا يُصيبُ مثيلاً
صاغ الرئيسُ لك الثَّنا إكليلاً؟
تجد الرئيسَ مُهذباً، ونبيلاً

في ملعبٍ للمُضحكات مُشيدي
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله
جُبْنٌ أَقلُّ وُحْطٌ من قدرَيْهما
لَمَّا ذكرتَ به البلادَ وأهلها
أنذرتنا رِقاً يدوم، وذِلَّةً
أحسبت أن الله دونك قدرة؟
الله يحكم في الملوك، ولم تكن
فرعونٌ قبلك كان أعظم سطوة
اليوم أخلفت الوعودَ حكومةً
مثّلت فيه المُبكياتِ فصولاً^٤
ويُصدّر (الأعمى) به تطفيلاً^٥
والمرءُ إن يجبنَ يَعِشَ مرذولاً
مثّلت دورَ مماتها تمثيلاً^٦
تبقى، وحالاً لا ترى تحويلاً
لا يملكُ التغييرَ والتبديلاً؟
دولٌ تنازعة القوى لتدولا^٧
وأعزَّ بين العالمين قبيلاً^٨
كنا نظنُّ عهودها الإنجيلاً

مصرًا، فكانت كالسُّلالِ دخولاً^٩
وأضاعت استقلالها المأمولاً^{١٠}
جحدوا الإله، وصنَّعَه، والنيلَ^{١١}
منًا على الفَظِنِ الخبير ثقيلاً^{١٢}
أفهل ترى تقريرَكَ التنزيلاً؟^{١٣}
تذرُ العلومَ، وتأخذ (الفُوتبولاً)؟^{١٤}
تأتي بقاضي دِنْشَوَايَ وكيلًا؟^{١٥}
جيش كجيش الهند، بات ذليلاً؟
أو ليس شأنًا في الجيوش ضئيلاً؟
ورفعت قومَكَ فوقهم تفضيلاً
مستقبلاً، لم يملكوا التأميلاً
فتحاً عريضاً في البلاد، طويلاً^{١٦}
من دون عيسى، مُحسِنًا، ومُنيلًا^{١٧}
مَلِكًا، أَقْطَعُ كَفَّهُ تقبيلًا
أسفًا لفرقتكم، بُكًا، وعويلًا^{١٨}
رَتَلْتُ آيَةَ مَدْحِكُم ترتيلاً^{١٩}
أعطيتُكم عن طيبة تحويلاً
مدحًا، يُردَّد في الورى موصولاً^{٢٠}
سَبَّحْتُ باسمك بُكرةً وأصيلًا
أنتم حَيَوْتُمْ بالقننة الجيلاً^{٢١}
ذللتموه بعزمكم تذليلًا
لا يبخسون المحسنين فتيلًا
مستعفيًا إن شئت، أو معزولًا
واخلف هناك غِرَايَ أو كمبيلًا^{٢٢}
وسُس الممالك، عرضها والطولًا
والله كان بنيلهنَّ كفيلاً
متمكن عند الإله رسولاً^{٢٣}

دخلتُ على حكم الوداد وشرعه
هدمتُ معالمها، وهَدَّت رُكنها
قالوا: جلبتُ لنا الرفاهة والغنى
كم مِنَّةٍ موهومةٍ أتبعَتها
في كلِّ تقرير، تقول: خلقتكم
هل من نذاك على المدارس أنها
أم من صيانتك القضاء بمصر أن
أم هل يُعدُّ لك الإضاعة مِنَّةً
انظر إلى فيتاينه، ما شأنهم؟
حرَّمتهم أن ييلُغوا رتبَ العُلا
فإذا تطلعتِ الجيوشُ، وأمَّلت
من بعد ما زَفُوا لِإِدْوَرْدَ العُلا
لو كنتُ من حُمُرِ الثياب، عبدتُكم
أو كنتُ بعضُ الإنكليز، قبلتُكم
أو كنتُ عضواً في (الكلوب)، ملأته
أو كنتُ قسيساً يَهِيمُ مُبَشِّرًا
أو كنتُ صرَّافًا بلندن دائنًا
أو كنتُ (تيمسك)، ملأت صحائفي
أو كنتُ في مصرٍ نزيلًا جاهداً
أو كنتُ (سريونًا)، حلفتُ بأنكم
ما كان من عقباتها، وصعابها
عهدُ الفرنج — وأنت تعلم عهدهم —
فارحل بحفظِ الله جلَّ صنيعه
واحمل بساقتك رِبطة في لندن
أو شاطر المَلِكِ العَظِيمِ بلائه
إنَّا تمنينا على الله المنى
مَنْ سَبَّ دينَ محمدٍ؛ فمحمَّدُ

هوامش

- (١) إسماعيل: هو الخديو إسماعيل باشا. وفرعون: لقب كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.
- (٢) رَقَّ الرقاب: استعبادها. والبأس: الشدَّة والقوَّة.
- (٣) الرئيس: هو مصطفى باشا فهمي كانا رئيس مجلس الوزراء لعهد اللورد كرومر، وهو الذي أقام له حفلة توديع في دار الأوبرا يوم خروجه من مصر، وخطب له يودعه ويثني عليه، ثم خطب اللورد فأهان الأمة، وأهان الخديو إسماعيل في وجه الأمير حسين كامل «السلطان حسين»، ولم يراع شيئاً من الأدب ولا المجاملة.
- (٤) يريد ملعب دار الأوبرا.
- (٥) الحسين: هو السلطان حسين كامل. والأعمى: هو الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان قد ضعف بصره وكاد يكف.
- (٦) لمَّا ذكرت به: أي بذلك الملعب.
- (٧) لتدول: لتظهر على غيرها ويحالفها إقبال الحظ.
- (٨) القبيل: الجماعة من أصل واحد.
- (٩) السلال (بضم السين): هو داء السل.
- (١٠) المعالم: جمع معلم، وهو موضع الشيء الذي يظن الناس فيه وجوده.
- (١١) قالوا جلبت: الخطاب للورد كرومر.
- (١٢) المنُّ: أن تعدَّ لغيرك ما فعلته معه من الصنائع، كأن تقول: فعلت لك كذا وأعطيتك كذا، وهو قبيح مذموم.
- (١٣) كان اللورد كرومر يضع كل سنة تقريراً مطولاً عن الحالة العامة في مصر والسودان، وكان في كل تقرير يدَّعي لنفسه من وجوه الإصلاح في مصر ما يكذِّبه الواقع.
- (١٤) الندى: الكرم. تذر: تترك. والفوتبول: كلمة من لغة الإنكليز معناها كرة القدم.
- (١٥) قاضي دنشواي: هو أحمد فتحي زغلول باشا، كان قاضياً في المحكمة المخصوصة التي عاقبت أهل دنشواي بالشنق والجلد والسجن، جعله اللورد كرومر بعد هذه المحاكمة وكيلاً لوزارة الحقانية، وقد كان رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية.
- (١٦) يشير إلى فتح السودان، وأن الجيش المصري هو الذي قام بعبئه كله، ولم يكن لجنود الإنكليز فيه من أثر يذكر. وإدوارد، هو ملك الإنكليز.

(١٧) حمر الثياب: هم الإنكليز، يقول: لو كنت إنكليزيًا لعبدتك ولم أعبد عيسى؛ لأنك أنلت الإنكليز وأحسنيت إليهم بما لا مثيل له من إنالة وإحسان، والخطاب للورد كرومر.

(١٨) الكلوب: دار ندوة في القاهرة، يشترك في الإنفاق عليه كل مَنْ يشاء من السراة المصريين وكبار الموظفين الإنكليز.

(١٩) ذلك لأن اللورد كرومر كان يؤيد التبشير بالمسيحية في مصر، ويحمي القسوس القائمين به.

(٢٠) أو كنت تيمسكم: أي لو كنت جريدة التيمس الخاصة بكم.

(٢١) المسيو دي سريون: مدير شركة قناة السويس.

(٢٢) واحمل بساقتك ربطة: يشير إلى نشان عند الإنكليز يُسمَّى نشان ربطة الساق،

قليل يوم عزل كرومر أنعم عليه به. وغراي وكمبيل: وزيران من وزراء الإنكليز.

(٢٣) كان اللورد كرومر قد طعن على الدين الإسلامي في تقريره سنة ١٩٠٦، فزعم

أنه دين لا يصلح لهذا العصر. فشاعرنا يشير إلى ذلك بقوله: مَنْ سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ.. إلخ.

بين الحجاب والسفور

ر، ويا أَمِيرَ البُلْبُلِ ^١	صدّاحُ، يا ملكَ الكُنا
ورُزِقْتُ قَرَبَ (الموصلي) ^٢	قد فزْتُ منك (بمعبد)
مارًا، وحسن تَرْتُلُ ^٣	وأُتِيحَ لي (داودُ) مِز
بر قَطُّ لم تترجَلِ ^٤	فوق الأَسْرَةِ والمنا
مُرْتَجَّ لَحْظِ الأحوالِ ^٥	تهتَزُّ كالدينار في
عبٍ، لم تدع لممْتَلِ ^٦	وإذا خطرتَ على الملا
دِقْ، في مقاطع (جروِل) ^٧	ولك ابتداءاتُ (الفرز
صُفَرَ الغلائلِ والحليِ ^٨	ولقد تَخَذْتُ من الضُّحى
نِسٍ عن عذارى الهيكلِ ^٩	ورويتَ في بيض القلا

* * *

رُ، شَجِ فؤادُك، أم خَلي؟ ^{١٠}	يا ليتَ شعري يا أسيـ
مُ الليلِ حتى ينجلي؟ ^{١١}	وحليفُ سهدٍ، أم تنا
لُج في النحاسِ المقفلِ ^{١٢}	بالرغمِ مني ما تُعا
يُخْرِزُ ثمينًا يبخل	حرصِي عليك هوى، ومَن
رّةً في الجوادِ المُجَزَلِ ^{١٣}	والشَّحُّ تُحدِّثُهُ الضُّرو
ر بالحريرِ مُجَلَّلِ ^{١٤}	أنا إن جعلتُكَ في نُضا
وحففتُهُ بقرنُفَلِ ^{١٥}	ولففتُهُ في سوسنٍ

وحرقتُ أزكى العودِ حو
وحملتُهُ فوقَ العيو
ودعوتُ كلَّ أغرٍّ في
فأنتك بين مُطارح
وأمرت بابني فالتقا
بيمينه فالودجُ
وزجاجةً من فضة
ما كنتُ يا (صدّاحُ) عند
شُهدُ الحياةِ مشوبةً
والقيدُ لو كان الجما
يا طيرُ، لولا أن يقو
اسمع، فربُّ مُفصل
صبرًا لما تشقى به
أنت ابنُ رأيٍ للطبيب
أبدًا مَرُوعٌ بالإسا
إن طرتَ عن كنفِي وقعَ

لَيْه، وأغلى الصنَدل
ن، وفوق رأس الجدول^{١٦}
مُلْك الطيورِ محجَّل
ومحبِّذٍ، ومدلِّل^{١٧}
ك بوجهه المتهلَّل^{١٨}
لم يُهدَ (للمتوكِّل)^{١٩}
مملوءةً من سلسل^{٢٠}
حكّ بالكريم المُفضل
بالرّق، مثلُ الحنظل^{٢١}
نَ منظّمًا لم يُحمَل^{٢٢}
لوا: جُنَّ، قلتُ: تعقَّل
لك، لم يفدك كمجمل
أو ما بدا لك فافعل
عة فيك غير مُبدِّل
ر، مهدّدٌ بالمقتل^{٢٣}
تَ على النُور الجُهَل^{٢٤}

* * *

يا طيرُ، والأمثالُ تضربُ
دنياك من عاداتِها
أو للغبي، وإن تعلَّل
جُعِلَتْ لِحَرٍّ يُبتلى
يرمي، ويُرْمى في جها
مُستجمع كالليث، إن
أسمعتُ بالحكَمين في الـ
في الفتنة الكبرى، ولو
رَضِيَ الصحابةُ يومَ ذ
وهمُ المصابيحُ، الروا

للَّبيب الأمثل^{٢٥}
ألاً تكونَ لأعزل^{٢٦}
بالزمان المقبل
في ذي الحياة وَيَبْتلى
د العيشِ غيرَ مغفَّل
يُجهَل عليه يجهل^{٢٧}
إسلامِ يومَ (الجندل)^{٢٨}؟
لا حكمةً لم تُشعل^{٢٩}
لك بالكتاب المُنزل^{٣٠}
ة عن النبي المرسل

مفسر ومئول	قالوا: الكتاب، وقام كل
ويّة)، وضاق بها (علي) ٣١	حتى إذا وسعت (معا
نح في النفوس مؤصل	رجعوا لظلم كالطبا
وعند رأي الأصيل ٣٢	نزلوا على حكم القوي،
ل، حفلت، أم لم تحفل	صدّاح، حق ما أقو
وحللت أكرم منزل	جاورت أندی روضة
ن، والرعاية من علي	بين الحفاوة من حسي
في صباك الأول ٣٣	وحنان (أمنة) كأّمك
أبناءً بالمستقبل	صنح بالصباح، وبشر الـ
تأتي وتهبط من عل	واسأل لمصر عناية
والخير منك فأرسل	قل: ربنا افتح رحمة
مة - ربنا - وتقبل	أدرك كنانتك الكريـ

هوامش

(١) الصّدّاح: الصيّاح الرفيع الصوت. والكنار: الكناري وهو طائر حسن الصوت، وريشه أبيض يضرب إلى الصفرة، وقوادم جناحيه طويلة تميل إلى الخضرة، وينسب إلى جزائر كناريا، وهي الجزائر الخالدات. والبلبل: طائر صغير سريع الحركة، يُضربُ به المثل في طلاقة اللسان.

(٢) معبد: مغنٍ مشهور كان أيام الدولة الأموية. والموصلي: يُطلقُ على إسحاق الموصلي وابنه إبراهيم، وكانا مغنيين وكان لهما ذلك فقه وأدب.

(٣) داود: النبي. ومزاميره: ما كان يترنم به من الأدعية والأناشيد.

(٤) الترجل: أن ينزل المرء عن ركوبته ويمشي.

(٥) الأحول: مَنْ في عينه حول.

(٦) لم تدع لمثل: أي لم تترك له ما يجيده من التمثيل والغناء لأنك أجود صوتاً وفناً من كل مغنٍ وممثل.

(٧) الفرزدق: لقب همام بن صعصعة الشاعر المشهور، كان في صدر الدولة الأموية. وجرول: اسم الحطيئة وهو شاعر أدرك الجاهلية والإسلام. والابتداءات: أوائل القصائد. والمقاطع: جمع مقطع وهو آخر بيت من القصيدة.

(٨) الغلائل: واحدتها غلالة (بكسر الغين) وهي شعار يلبس تحت الثوب، يشير بهذا المجاز إلى أن طائره الصّدّاح أصفر اللون.

(٩) القلائس: جمع قلنسوة وهي نوع من لباس الرأس. والعداري: جمع عذراء وهي البكر. والهيكل: معناه هنا الموضع في صدر الكنيسة، يقرب فيه القربان كما تزعم النصرى، وفي هذا البيت أنواع من المجاز، ثم كناية عن المعنى المقصود، وهو يريد أن طائره أبيض الرأس كأنه يلبس قلنسوة بيضاء، كالعداري الراهبات المنقطعات لخدمة الهيكل.

(١٠) الشجي: المشغول. والخلي: الخالي من الهم.

(١١) الحليف: كل شيء لزم شيئاً آخر فلم يفارقه. والسهد: الأرق وعدم النوم.

وينجلي: يمضي.

(١٢) ما تعالج: أي ما تزاول وتمارس. والمراد بالنحاس المقفل: القفص الذي حُبِسَ

فيه الطائر.

(١٣) الجواد: الكريم. والمجزل: المكثّر من العطاء.

(١٤) النضار: الذهب. والمجلل: المغطى.

(١٥) السوسن (يفتح السين الأولى وضمها): نبات طيب الرائحة.

(١٦) العيون هنا: عيون الماء. والجدول: النهر الصغير.

(١٧) المدلل (يفتح اللام): المرفه.

(١٨) المتلهل: المتلألئ.

(١٩) الفالوذج: حلواء من دقيق وعسل وماء.

(٢٠) السلسل: الخمر اللينة.

(٢١) الشهد (بضم الشين وسكون الهاء): العسل.

(٢٢) الجمال: اللؤلؤ.

(٢٣) الإسار: الأسر.

(٢٤) الكنف: الجانب والناحية.

(٢٥) الأمثل: الأفضل.

(٢٦) الأعزل: مَنْ لا سلاح عنده.

(٢٧) المستجمع: مَنْ يبذل غاية إمكانه. ويجهل عليه: يتسافه عليه.

(٢٨) الحكمان: هما أبو موسى الأشعري، ارتضاه الإمام عليٌّ حَكَمًا له، وعمرو بن العاص، اختاره معاوية حَكَمًا له، وقصة هذا التحكيم مشهورة. ويوم الجندل: وهو أحد أيام الحرب بين عليٍّ ومعاوية. والجندل: اسم مكان.

(٢٩) ولولا حكمة: أي ولولا حكمة أرادها الله تعالى لم تشعل تلك الفتنة.
(٣٠) رضي الصحابة.. إلخ: ذلك أن أصحاب معاوية لما رأوا أن الهزيمة ستكون لهم، رفعوا المصاحف على أطراف الأُسُنَّة، ونادوا عليًّا وأصحابه أن ينزلوا وإيَّاهم على كتاب الله، فأمر عليٌّ أصحابه أن يكفُّوا عن الحرب.

(٣١) حتى إذا وسعت معاوية: أي حتى إذا وسعت ولاية الأمر معاوية بسبب أن الحيلة التي فعلها عمرو بن العاص جازت على أبي موسى الأشعري رجعوا لظلم. إلى آخر ما في البيتين التاليين.

(٣٢) الأحيل: الأكثر حيلة.

(٣٣) حسين، وعلي، وآمنة: أبناءه.

العلم والتعليم، وواجب المعلم^١

كاد المعلم أن يكون رسولا
يبني، ويُنشئ أنفُسًا وعقولا؟
علّمت بالقلم القرون الأولى
وهديته النور المبين سبيلا
صدئ الحديد، وتارة مصقولا^١
وابن البتول فعلم الإنجيلا^٢
فسقى الحديث، وناول التنزيلا^٣
عن كل شمس ما تُريد أفولا
في العلم، تلتمسانه تطفيلًا
ما بال مغربها عليه أدلاء^٤
بين الشمس وبين شروق حيا
واستعذبوا فيها العذاب وبيا
بالفرد، مخزومًا به، مغلولًا^٥
من ضربة السمس الرؤوس نهولا

قُم للمعلم وفه التبجيلا
أعلمت أشرف، أو أجل من الذي
سبحانك اللهم خير معلم
أخرجت هذا العقل من ظلماته
وطبعته بيد المعلم تارة
أرسلت بالتوراة موسى مُرشدًا
وفجرت ينبوع البيان محمدًا
علّمت يونانًا ومصر، فزالتا
واليوم أصبحنا بحال طفولة
من مشرق الأرض الشمس تظاهرت
يا أرض، مُد فقد المعلم نفسه
ذهب الذين حموا حقيقة علمهم
في عالم صحب الحياة مقيّدًا
صرعته دنيا المستبد، كما هوت

^١ أُلقيت هذه القصيدة في حفل قام به نادي مدرسة المعلمين العليا.

سُقْرَاطُ أَعْطَى الْكَأْسَ وَهِيَ مَنِيَّةٌ
عَرَضُوا الْحَيَاةَ عَلَيْهِ وَهِيَ غَبَاوَةٌ
إِنْ الشَّجَاعَةُ فِي الْقُلُوبِ كَثِيرَةٌ
شَفَتِي مَجَبٌّ يَشْتَهِي التَّقْبِيلَا
فَأَبَى، وَأَثَرُ أَنْ يَمُوتَ نَبِيلَا^٧
وَوَجَدْتُ شَجْعَانَ الْعُقُولِ قَلِيلَا

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْحَقِيقَةَ عَلَقَمًا
وَلَرُبَّمَا قَتَلَ الْغَرَامُ رَجَالَهَا
أَوْ كُلُّ مَنْ حَامَى عَنِ الْحَقِّ اقْتَنَى
لَوْ كُنْتُ أَعْتَقُدُ الصَّلِيبَ وَخَطْبُهُ
لَمْ يُخَلْ مِنْ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ جِيلَا
قُتِلَ الْغَرَامُ، كَمْ اسْتَبَاحَ قَتِيلَا
عِنْدَ السَّوَادِ ضَغَائِنًا وَذُحُولًا؟^٨
لَأَقْمِتُ مَنْ صَلَّبَ الْمَسِيحَ دَلِيلَا

أُمُعَلِّمِي الْوَادِي، وَسَاسَةَ نَشِئِهِ
وَالْحَامِلِينَ — إِذَا دُعُوا لِيُعَلِّمُوا —
كَانَتْ لَنَا قَدَمٌ إِلَيْهِ خَفِيفَةٌ
حَتَّى رَأَيْنَا مَصْرَ تَخْطُو إِصْبَعًا
تِلْكَ الْكَفُورُ — وَحَشَوْهَا أُمِّيَّةٌ —
تَجِدُ الَّذِينَ بَنَى «الْمَسَلَّةَ» جُدُّهُمْ
وَيَدَّلُّونَ إِذَا أُريدَ قِيَادُهُمْ
يَتْلُو الرِّجَالُ عَلَيْهِمْ شَهَوَاتِهِمْ
الْجَهْلُ لَا تَحْيَا عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ
وَاللَّهِ لَوْلَا أَلْسُنُ وَقَرَائِحُ
وَتَعَهَّدَتْ مِنْ أَرْبَعِينَ نَفُوسَهُمْ
عَرَفْتُ مَوَاضِعَ جَدْبِهِمْ، فَتَتَابَعْتُ
تُسَدِّي الْجَمِيلَ إِلَى الْبِلَادِ، وَتَسْتَحْيِ
مَا كَانَ دَنُوبٌ، وَلَا تَعْلِيْمُهُ

رَبُّوْا عَلَى الْإِنْصَافِ فَتَيَانَ الْجَمَى
تَجِدُوهُمْ كَهْفَ الْحَقُوقِ كَهُولَا

فهو الذي يبني الطباعَ قويمَةً
ويقيمُ منطقَ كلِّ أعوجٍ منطقٍ
وإذا المعلمُ لم يكن عدلاً، مشى
وإذا المعلمُ ساءَ لحظَ بصيرةٍ
وإذا أتى الإرشادُ من سببِ الهوى
وإذا أصيبَ القومُ في أخلاقهم
إنني لأعذرُكم وأحسبُ عبثَكم
وجد المساعدَ غيرُكم، وحُرِّمتمُ
وإذا النساءُ نشأنَ في أميةٍ
ليس اليتيمُ من انتهى أبواه من
فأصاب بالدنيا الحكيمَ منهما
إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقى له

وهو الذي يبني النفوسَ عدولا
ويُريه رأياً في الأمور أصيلا
روحُ العدالة في الشباب ضئيلا
جاءت على يده البصائرُ حولا^{١١}
ومن الغرورِ، فسَمَّه التضليلا
فأقمَ عليهم مأتما وعويلا
من بين أعباءِ الرجالِ ثقيلا
في مصرَ عونِ الأمهاتِ جليلا
رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخمولا
همَّ الحياةِ، وخلفاه ذليلا
وبحسنِ تربيةِ الزمانِ بديلا!
أما تخلَّتْ، أو أبأ مشغولا^{١٢}

مصرُّ إذا ما راجعتُ أيامها
(البرلمانُ) غداً يُمدُّ رواقه
نرجو إذا التعليمَ حرَّكَ شجوهُ
قل للشباب: اليومَ بُورك غرسُكم
حيُّوا من الشهداء كلَّ مغيبٍ
ليكونَ حظُّ الحيِّ من سُكرانكم
لا يلمسُ الدستورُ فيكم روحه
ناشدتُكم تلكَ الدِّماءَ زكيةً
فليسألنَّ عن الأرائكِ سائلُ
إنَّ أنتَ أطلعتَ الممثلَ ناقصاً
فادعوا لها أهلَّ الأمانة، واجعلوا
إن المقصَّرَ قد يحولُ، ولن ترى
فلربَّ قولٍ في الرجالِ سمعتُ
ولكم نصرتم بالكرامة والهوى

لم تلقَ للسَّبتِ العظيمِ مثيلاً^{١٣}
ظلاً على الوادي السعيدِ ظليلاً
ألا يكون على البلادِ بخيلاً
دنت القطوفُ، ودُلَّتْ تذليلاً
وضعوا على أحجاره إكليلاً
جمًّا، وحظُّ الميِّتِ منه جزيلاً
حتى يرى جنديَّه المجهولاً^{١٤}
لا تبعثوا للبرلمانِ جهولاً
أحملنَ فضلاً، أم حملنَ فضولاً؟
لم تلق عند كماله التمثيلاً
لأولي البصائرِ منهم التفضيلاً
لجهالةِ الطبعِ الغبيِّ محيلاً
ثم انقضى، فكأنَّه ما قيلاً
مَنْ كان عندكم هو المخذولاً

كِرْمٌ وصفحُ في الشبابِ، وطالما
قوموا اجمعوا شُعَبَ الأبوةِ، وارفعوا
صوتَ الشبابِ مُحَبَّبًا مقبولا
أجدُ الثباتَ لكم بهنَّ كفيلا
فَالله خَيْرُ كافلاً ووكيلا
فَكِلُوا إلى اللهِ النجاحَ، وثابروا

هوامش

- (١) طبع السيف. صاغه. وصدئ الحديد: أي غير مجلٍ ولا مصقول.
- (٢) البتول: لقب السيدة مريم عليها السلام.
- (٣) التنزيل: القرآن.
- (٤) التطفيل: التطفُّل.
- (٥) أدل المغرب على المشرق: أي فاقه وانتزع منه الدولة.
- (٦) مخزومًا به: أي مسخرًا له.
- (٧) النبل: الذكاء.
- (٨) الذحول: جمع نحل وهو الثَّار.
- (٩) الفيل: ورم يصيب الساق. ودنلوب: مستشار إنجليزي منيت به نظارة المعارف المصرية فأساء إلى العلم والتعليم.
- (١٠) الفطن: جمع فطنة، وهي الحذق والذكاء. والشمول: الخمر.
- (١١) الحول: جمع حولاء، والحولاء، مَنْ في عينها حَوْل، والحَوْل. إقبال الحدقة على الأنف، وهو عيب.
- (١٢) أمَّا تخلت عن تربيته، وأبًا مشغولا عن العناية به وتهذيبه.
- (١٣) السبت: ١٥ مارس سنة ١٩٢٤، وهو اليوم الذي افتتح فيه (البرلمان) الأول، وقد كان هذا اليوم قريبًا من يوم الاحتفال.
- (١٤) يريد بالجندي المجهول: مَنْ يعمل في غير جلبة ولا ضوضاء، وفي غير انتظار مكافأة أو جزاء.

بنك مصر^١

واذكُرُ رجالاً أَدالوها بِإِجمال
لا في جوانبِ رسمِ المنزلِ البالي
في العين، أَزِينَ من بُنيانِها الحالي
على مثالِ من الدنيا، وَمِنوال
وبؤسُ ساعٍ، ونُعَمَى قاعدِ سالي
والناسُ — مَذْ خُلِقُوا — عُبَادُ تَمثال
أو الممالك، فاندُبُها كأطلال
خُذْها من العلم أو خُذْها من المال
لم يُبْنَ ملكٌ على جهلٍ وإِقلال
يَدُ الدعاءِ سراعاً غيرَ بُخَالٍ
فامضوا إلى الماءِ، لا تَلُؤُوا على الآل^١
وبين زَهَرٍ من الأحلامِ قَتال
رأياً لرأى، ومُنْثِقالاً لمثقال
فابنوا بِناءَ قريشِ بيتَها العالي

قَفْ بالممالك، وانظرْ دولةَ المالِ
وانقلُ ركابَ القوافي في جوانبِها
ما هيكُلُ الهرمِ الجيزِ من ذهبٍ
علا بها الحرصُ أركاناً، وأُخرجها
فيها الشقاءُ لقومٍ، والنعيمُ لهم
والمالُ — مَذْ كان — تَمثالٌ يطافُ به
إذا جفا الدورَ، فَانْعَ النازلين بها
يا طالباً لمعالي الملكِ مجتهداً
بالعلمِ والمالِ يَبْنِي الناسُ مُلْكَهُمْ
سراةَ مصرَ، عهدناكم إذا بُسِطَتْ
تَبَيَّنَ الصدقُ من بينِ الأمورِ لكم
لا يذهبُ الدُّهرُ بين التُّرْهاتِ بكم
هاتوا الرجالَ وهاتوا المالَ، واحتشدوا
هذا هو الحجرُ الدرِّيُّ بينكم

^١ قيلت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشاء بنك مصر بدار «الأوبرا» الملكية.

الشوقيات

دارُ إذا نزلتُ فيها ودائعُكم أودعتم الحَبَّ أرضاً ذاتَ إغلال
آمالُ مصرَ إليها طالما طمحتُ هل تبخلونَ على مصرَ بآمال؟
فابنوا على بركات الله، واغتنموا ما هياً الله من حظٍّ وإقبال

هوامش

(١) الآل: السراب.

مرحبًا بالهلال^١

العامُ أَقبلَ، قُمْ نُحْيِ هلالاً
طُغِرَى كُتابِ الكائناتِ لقارئِ
مَلَكِ السماءِ، فكانَ في كُرْسِيِّه
تتنافسُ الآمالُ فيه، كأنَّه
والشَّمْسُ تُزَلِّفُ عِيدَها، وتزُفُّه
عيدُ المسيحِ، وعيدُ أحمدَ، أَقبِلا
ميلادُ إحسانِ، وهجرةُ سُودِدِ

كالتاجِ في هامِ الوجودِ جلالاً
يَزِنُ الكلامَ، وَيَقْدُرُ الأقوالا
بينَ الملائِكِ والملوكِ مثلاً
ثَغُرُ العنايةِ ضاحِكِ الآمالا
بشَرى بمطالعهِ السعيدِ، وفالا^١
يتباريانِ وضاءً وجمالاً
قد غيَّرا وجهَ البسيطةِ حالا

* * *

قُمْ للهلالِ قيامَ مُحْتَفِلٍ به
نورُ السبيلِ هَدَى، لكلِّ فضيلةٍ
ما بينَ مولِدِهِ وبينِ بلوغهِ
متواضعُ، واللهِ شَرَّفَ قدرَهُ
متودِّدٌ عندَ الكمالِ، تخالُهُ
وافٍ لجارةِ بَيْتِهِ، يَرعى لها

أثنى، وبالغِ في الثناءِ، وغالى
يَهدي الحَكيمُ لها، وَسَنَ خِلالا
ملاً الحِياةَ مآثِراً وفِعالا
بالشمسِ نداءً، والكواكبِ آلا^٢
في راحَتِكَ، وَعَزَّ ذاكَ مَنالا
عهدَ السَّمَوِّعِلِ، عُرْوَةً، وجبالا^٣

^١ قيلت هذه القصيدة في رأس سنة ١٣٢٩ الهجرية.

عَوْنُ السُّرَاةِ عَلَى تَصَارِيفِ النُّوَى
وَيُصَانُ مِنْ سَرِّ الصَّبَابَةِ عِنْدَهُ
وَيُشَكُّ فِيهِ، فَلَا يَكْلَفُ نَفْسَهُ
سَاءَتْ ظَنُونُ النَّاسِ حَتَّى أَحْدَثُوا
وَالظَّنُّ يَأْخُذُ فِي ضَمِيرِكَ مَأْخِذًا
وَمِنْ الْعَجَائِبِ عِنْدَ قِمَّةِ مَجْدِهِ
يَطْوِي إِلَى الْأَوْجِ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا
وَيَقْلُ مِنْ هُوجِ الرِّيحِ عَزَائِمًا
وَيُضِيءُ أَثْنَاءَ الْخُمَائِلِ وَالرُّبَى
وَيَجُولُ فِي زَهْرِ الرِّيَاضِ، كَأَنَّهُ

أَمِنُوا عَلَيْهِ وَحَشَّةً، وَضَلَالًا
مَا بَاتَ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مُذَالًا
غَيْرَ التَّرَفُّعِ وَالْوَقَارِ نِضَالًا
لِلشُّكِّ فِي النُّورِ الْمُبِينِ مَجَالًا
حَتَّى يُرِيكَ الْمُسْتَقِيمَ مُحَالًا
رَامَ الْمَزِيدَ، فَجَدَّ فِيهِ، فَنَالَا
وَيَشْدُ فِي طَلَبِ الْكَمَالِ رَحَالَا
وَيَذُكُّ مِنْ مَوْجِ الْبَحَارِ جَبَالَا
حَتَّى تَرَى أَسْحَارَهَا أَصَالَا
ضَيْبُ الرِّبِيعِ، مَشَى بِهِنَّ، وَجَالَا

* * *

أُمِّ الْهَلَالِ، مَقَالَةً مِنْ صَادِقٍ
مَتَلَطَّفٍ فِي النَّصِيحِ، غَيْرِ مُجَادِلٍ
مِنْ عَادَةِ الْإِسْلَامِ يَرْفَعُ عَامِلًا
ظَلَمَتَهُ أَلْسِنَةُ تَوَاخُذِهِ بِكُمْ
هَذَا هَلَالُكُمْ تَكْفَلُ بِالْهُدَى
سَرَتْ الْحَضَارَةُ حَقَبَةً فِي ضَوْئِهِ
وَبَنَى لَهُ الْعَرَبُ الْأَجَاوِدُ دَوْلَةً
رَفَعُوا لَهُ فَوْقَ السَّمَاءِ دَعَائِمًا
اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِلِسَانِهِمْ
وَتَخَيَّرَ الْأَخْلَاقَ أَحْسَنَهَا لَهُمْ
كَالرُّسْلِ عَزَمًا، وَالْمَلَأْتُكَ رَحْمَةً
عَدَلُوا، فَكَانُوا الْغِيثَ وَقَعًا، كُلَّمَا
وَالْعَدْلُ فِي الدُّوَلَاتِ أَسَّ ثَابِتٌ
أَيَّامَ كَانَ النَّاسُ فِي جَهْلَاتِهِمْ
مِنْ جَهْلِهِم بِالْدِّينِ وَالْدُّنْيَا مَعًا
ضَلُّوا عَقُولًا بَعْدَ عِرْفَانِ الْهُدَى

وَالصَّدُوقُ أَلِيقٌ بِالرِّجَالِ مَقَالًا
وَالنَّصِيحُ أَضْيَعُ مَا يَكُونُ جَدَالًا
وَيَسُوذُ الْمِقْدَامُ، وَالْفَعْلَالَا
وَوَظَلَمْتُمُوهُ مُفَرِّطِينَ، كَسَالَى
هَلْ تَعْلَمُونَ مَعَ الْهَلَالِ ضَلَالَا؟
وَمَشَى الزَّمَانُ بِنُورِهِ مَخْتَالَا
كَالشَّمْسِ عَرْشًا، وَالنَّجُومِ رَجَالَا
مِنْ عِلْمِهِمْ وَمِنْ الْبَيَانِ، طَوَالَا
خَلَقَ الْبَيَانَ وَعَلَّمَ الْأَمْثَالَ
وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ مِنْهُ تَعَالَى
وَالْأُسْدُ بِأَسَا، وَالْغِيُوْثُ نَوَالَا
زَهَبُوا يَمِينًا فِي الْوَرَى، وَشَمَالَا
يُفْنِي الزَّمَانَ، وَيُنْفِدُ الْأَجْيَالَ
مِثْلَ الْبَهَائِمِ، أُرْسِلَتْ إِرْسَالَا
عَبَدُوا الْأَصَمَّ، وَالْهَوَا تَمَثَّلَا
وَالْعَقْلُ إِنْ هُوَ ضَلَّ كَانَ عِقَالَا^٦

مرحبًا بالهلال

حتى إذا انقسموا تقوَّضَ ملكهم والملكُ إن بطلَ التعاونُ زالا
لو أن أبطالَ الحروب تفرَّقوا غلب الجبان على القنا الأبطال

هوامش

- (١) تزُلْفُه: أي تقربُه.
- (٢) النَّدُّ: النظير. والآل: الأهل.
- (٣) جارة بيته: هي الزهرة التي تلازمه دائماً. وبيته، هو الهالة التي تحيط به.
- (٤) السراة: السائرون ليلاً.
- (٥) السرُّ المذال: الذي لا يكتُم.
- (٦) العقال: في الأصل يُشَدُّ به البعير، وهنا بمعنى القيد.

يا شباب الديار^١

غالٍ في قيمة ابن بَطْرُسَ غالي
نحتفي بالأديب، والحقُّ يقضي
أدبُ الأكثرين قولٌ، وهذا
يُظهرُ المدحُ رُوْنَقَ الرجلِ الما
رَبُّ مدحٍ أذاع في الناس فضلا
وثناءً على فتى عمِّ قومًا
إنما يقدِّرُ الكرامَ كريمٌ
وإذا عَظَّمَ البلادَ بَنُوها
تَوَجَّتْ هامَهم كما تَوَجَّوها
إنما (واصفُ) بناءً من الأخـ
ونجيبُ، مهذَّبُ، من نجيبِ

علم الله ليس في الحقِّ غالي^١
وجلالُ الأخلاق والأعمال
أدبُ في النفوس والأفعال
جِدِّ، كالسيفِ يزدهي بالصِّقال^٢
وأَتاهم بِقُدوةٍ ومِثال
قيمة العَقْدِ حُسْنُ بعضِ اللاكي
ويقيمُ الرجالُ وزنَ الرجال^٣
أنزلتهم منازلَ الإجلال
بكريم من الثناءِ وغالي
لاق، في دولةِ المشارقِ عالي
هذَّبَته تجاربُ الأحوال

^١ قيلت هذه القصيدة في تكريم واصف غالي باشا سنة ١٩٠٦ (واصف غالي بك يومئذ) ولعلها كانت أوَّل دعوة إلى اتحاد عنصرَي هذه الأمة الكريمين، ولعل صاحب الديوان كان يتكشف له الغيب، فيرى خيال هذا الاتحاد، ويدعو إليه، والناس عنه عمون. وحديث المؤتمرين ما زال يومئذ ملء الأفواه والأسماع، ولقد شاء الله أن يستجيب دعاءه، وأن يربط بين الأخوين برباط مقدس، كان لصاحب الديوان فضل الخيط الأول في نسيجه.

واهْبُ الْمَالِ وَالشَّبَابِ لِمَا يَنْدُ
ومَذِيقُ الْعَقُولِ فِي الْغَرْبِ مِمَّا
فِي كِتَابِ حَوَى الْمَحَاسَنِ فِي الشَّ
مِنْ صِفَاتٍ، كَأَنَّهَا الْعَيْنُ صَدَقًا
وَنَسِيبٍ، تَحَاذِرُ الْغَيْدُ مِنْهُ
وَنِظَامٍ، كَأَنَّهُ فَلَكُ الْإِلِي
وَبَيَانٍ، كَمَا تَجَلَّى عَلَى الرَّسَدِ
مَا عَلِمْنَا لِغَيْرِهِمْ مِنْ لِسَانٍ
بَلِيْثٍ هَاشِمٍ، وَبَادَتْ نَزَارُ
كَلَّمَا هَمَّ مَجْدُهُ بِزَوَالٍ

فَع، لَا لِلْهَوَى، وَلَا لِلضَّلَالِ
عَصَرَ الْعُرْبُ فِي السَّنِينَ الْخَوَالِي
عَر، وَأَوْعَى جَوَائِزَ الْأَمْثَالِ
فِي أَدَاءِ الْوُجُوهِ وَالْأَشْكَالِ
شَرَكِ الْحُسْنِ أَوْ شَبَاكَ الدَّلَالِ
لِ إِذَا لَاحَ وَهُوَ بِالزَّهْرِ حَالِي
لِ تَجَلَّى عَلَى رِعَاةِ الضَّالِّ
زَالِ أَهْلُوهُ، وَهُوَ فِي إِقْبَالِ
وَاللِّسَانِ الْمُبِينِ لَيْسَ بِبَالِي
قَامَ فَحَلُّ، فَحَالَ دُونَ الزَّوَالِ

* * *

يَا بَنِي مِصْرَ، لَمْ أَقْلُ أُمَّةَ الْ
وَاحْتِيَالٍ عَلَى خِيَالٍ مِنَ الْمَجْدِ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمِينَ وَقَبِطًا
سَبَقَ النَّيْلُ بِالْأَبْوَةِ فِينَا
نَحْنُ مِنْ طِينِهِ الْكَرِيمِ عَلَى اللَّهِ
مَرَّ مَا مَرَّ مِنْ قُرُونٍ عَلَيْنَا
وَانْقَضَى الدَّهْرُ، بَيْنَ زَعْرَدَةِ الْعَرِ
مَا تَحَلَّى بِكُمْ يَسُوعُ، وَلَا كُنَّا
وَتَضَاعَ الْبِلَادُ بِالنُّومِ عَنْهَا
يَا شَبَابَ الدِّيَارِ، مِصْرُ إِلَيْكُمْ
كَلَّمَا رُوِّعَتْ بِشَبْهَةِ بَأْسِ
هَيَّئُوهَا لِمَا يَلِيقُ بِمَنْفِ
وَانْهَضُوا نَهْضَةَ الشُّعُوبِ لِدُنْيَا
وَالِلَّهِ مَنْ مَشَى بِصَلِيبِ

قَبِطِ، فَهَذَا تَشَبُّثٌ بِمَحَالِ
دِ، وَدَعَايَ مِنَ الْعِرَاضِ الطَّوَالِ
أُمَّةٌ وَحَدَّتْ عَلَى الْأَجْيَالِ
فَهُوَ أَصْلٌ، وَأَدَمُ الْجَدُّ تَالِي
وَمِنْ مَائِهِ الْقَرَاخُ الزُّلَالُ
رُسْفًا فِي الْقَيُودِ وَالْإِغْلَالِ
سِ، وَحَثُّو التَّرَابَ، وَالْإِعْوَالِ
لِطَهُ وَدِينَهُ بِجَمَالِ
وَتَضَاعَ الْأُمُورُ بِالْإِهْمَالِ
وَلِوَاءِ الْعَرِينِ لِلْأَشْبَالِ
جَعَلْتَكُمْ مَعَاقِلَ الْأَمَالِ
وَكَرِيمِ الْآثَارِ، وَالْأَطْلَالِ
وَحَيَاةٍ كَبِيرَةٍ الْأَشْغَالِ
فِي يَدَيْهِ، وَمَنْ مَشَى بِهِلَالِ

هوامش

- (١) غالٍ في المدح: بالغ فيه. وغالي (الثانية) إمَّا أن يراد بها الأمر، أو يراد بها اسم والد المكرَّم المرحوم بطرس باشا غالي.
- (٢) صقل السيف صقالاً: جلاَّه.
- (٣) قدَّره: عظَّمه.
- (٤) يشير إلى كتاب فرنسي ألفه واصف باشا وكان موضع تكريمه.
- (٥) الضال: نوع من الشجر، والمراد: رعاة ما يأكل الضال من الحيوان، أي رعاة الإبل.
- (٦) الماء القراح: الصافي.

نهج البردة

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهَرِ الْحُرْمِ^١
رَمِي الْقَضَاءُ بَعِينِي جُوذَرَ أَسَدًا
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ، أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجْمِ^٢
لَمَّا رَنَا حَدَثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً
يَا وَيْحَ جَنْبِكَ، بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِي^٣
جَحَدْتَهَا، وَكْتَمْتَ السَّهْمَ فِي كَبْدِي
جُرْحُ الْأَحْبَةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ^٤
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ
إِذَا رُزِقْتَ التَّمَّاسَ الْعَذْرُ فِي الشَّيْمِ^٥
يَا لَأَتَمِّي فِي هَوَاهُ — وَالْهَوَى قَدَرٌ —
لَوْ شَفَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعِذْ وَلَمْ تَلْمِ^٦
لَقَدْ أَنْلَتُكَ أَذْنًا غَيْرَ وَاعِيَةٍ
وَرُبَّ مُنْتَصِتٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمِ^٧
يَا نَاعَسَ الطَّرْفِ، لَا ذُقْتَ الْهَوَى أَبَدًا
أَسْهَرْتَ مُضْنَاكَ فِي حَفْظِ الْهَوَى، فَنَمِ^٨
أَفْدِيكَ إِلْفًا، وَلَا أَلَوْ الْخِيَالَ فِدَى
أَغْرَاكَ بِالْبَخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ^٩

- سَرَى، فصادف جُرْحًا داميًا، فأَسَا
 وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعِشَاقِ لِلْحُلُمِ ١٠
 مَنِ الْمَوَائِسُ بَانًا بِالرُّبَى وَقَنَا
 اللَّاعِبَاتُ بُرُوحِي، السَّافِحَاتِ دِمِي؟ ١١
 السَّافِرَاتُ كَأَمْثَالِ الْبُذُورِ ضُحَى
 يُغِرْنَ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلَى وَالْعَصَمِ ١٢
 الْقَاتِلَاتُ بِأَجْفَانٍ بِهَا سَقَمٌ
 وَلِلْمُنِيَةِ أَسْبَابٌ مِنَ السَّقَمِ
 الْعَاثِرَاتُ بِأَلْبَابِ الرِّجَالِ، وَمَا
 أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ ١٣
 الْمَضْرِمَاتُ خُدُودًا، أَسْفَرَتْ، وَجَلَتْ
 عَنْ فِتْنَةٍ، تُسَلِّمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ ١٤
 الْحَامِلَاتُ لَوَاءَ الْحَسَنِ مَخْتَلِفًا
 أَشْكَالُهُ، وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مَنْقَسِمِ ١٥
 مِنْ كُلِّ بَيْضَاءٍ أَوْ سَمْرَاءَ زَيْنَتَا
 لِلْعَيْنِ، وَالْحُسْنُ فِي الْآرَامِ كَالْعُصَمِ ١٦
 يُرَعْنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي، وَمَنْ عَجِبَ
 إِذَا أَشْرَنَ أَسْرَنَ اللَّيْثَ بِالْعَنَمِ ١٧
 وَضَعْتُ خَدَّ، وَقَسَمْتُ الْفَوَادَ رُبَى
 يَرْتَعَنَ فِي كُنُوسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ ١٨
 يَا بِنْتَ ذِي اللَّبَدِ الْمُحَمَّى جَانِبُهُ
 أَلْقَاكَ فِي الْغَابِ، أَمْ أَلْقَاكَ فِي الْأُطَمِ؟ ١٩
 مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنِهِ
 أَنْ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مُضْرِبُ الْخِيَمِ ٢٠
 مَنْ أَنْبَتَ الْغَصْنَ مِنْ صَمَامَةٍ ذَكَرَ؟
 وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضِرْغَامَةِ قَرَمِ؟ ٢١
 بَيْنِي وَبَيْنِكَ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجُبُ
 وَمِثْلُهَا عِفَّةُ عُذْرِيَةِ الْعِصَمِ ٢٢

لم أغش مغناك إلا في غضونِ كَرَى
 مَغْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمَشْتَاقِ مِنْ إِرَمِ ٢٣
 يَا نَفْسُ، دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ
 وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسَمِ ٢٤
 فُضِّي بِتَقْوَاكِ فَاهَا كُلَّمَا ضَحَكَتْ
 كَمَا يُفْضُ أَذَى الرَقِشَاءِ بِالثَّرَمِ ٢٥
 مَخْطُوبَةٌ — مَنْذُ كَانَ النَّاسُ — خَاطِبَةٌ
 كَمْ أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ تُرْمَلِ، وَلَمْ تَكَمْ ٢٦
 يَفْنَى الزَّمَانُ، وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
 جَرْحُ بَادِمٍ يَبْكِي مِنْهُ فِي الْأَدَمِ ٢٧
 لَا تَحْفَلِي بِجَنَاهَا، أَوْ جَنَائِثِهَا
 الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ ٢٨
 كَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا، وَهِيَ سَاهِرَةٌ
 لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنْمِ ٢٩
 طَوْرًا تَمُدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ
 وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ ٣٠
 كَمْ ضَلَّلْتَكِ، وَمَنْ تُحْجَبُ بِصِيرَتِهِ
 إِنْ يَلْقَ صَابًا يَرِدِ، أَوْ عَلَقَمًا يَسُمِ ٣١
 يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي! رَاعَهَا وَدَهَا
 مُسَوَّدَةُ الصُّخْفِ فِي مُبْيَضَّةِ اللَّمَمِ ٣٢
 رَغَضْتُهَا فِي مَرِيحِ الْمَعْصِيَاتِ، وَمَا
 أَخَذْتُ مِنْ حِمِيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخَمِ ٣٣
 هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَاتِ تَطْلُبُهَا
 وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِي الصَّبَا تَهْمِ ٣٤
 صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ
 فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ

والنفسُ من خيرِها في خيرِ عافية
 والنفسُ من شرِّها في مرَّتِ وخم^{٣٥}
 تطغى إذا مُكَّنت من لذةٍ وهوى
 طَغَى الجيادِ إذا عَضَّت على الشُّكْمِ^{٣٦}
 إنْ جَلَّ ذَنْبِي عن الغُفرانِ لي أملٌ
 في الله يجعلني في خيرٍ مُعتَصِمِ^{٣٧}
 ألقى رجائي إذا عَزَّ المُجيرُ على
 مُفَرِّجِ الكربِ في الدارينِ والغَمِ^{٣٨}
 إذا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذُّلِّ أسأله
 عَزَّ الشِّفَاعَةَ، لم أسأل سوى أُمِّ^{٣٩}
 وإن تقدَّم ذو تقوى بصالحةٍ
 قدَّمتُ بين يديه عِبْرَةَ النَّدَمِ^{٤٠}
 لَزِمْتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ، وَمَنْ
 يُمَسِّكُ بِمِفْتَاحِ بابِ الله يَغْتَنِمِ^{٤١}
 فكلُّ فضلٍ، وإحسانٍ، وعارِفَةٍ
 ما بين مستلَم منه ومُلْتَزَمِ^{٤٢}
 علقتُ من مدحِه حبلاً أعزُّ به
 في يومٍ لا عِزَّ بالأنسابِ واللَّحَمِ^{٤٣}
 يُزِرِّي قَرِيضِي زُهَيْرًا حينَ أمدحُه
 ولا يِقَاسُ إلى جودي لَدَى هَرَمِ^{٤٤}
 محمداً صفوةَ الباري، ورحمته
 وبِغِيَّةَ الله من خَلْقٍ ومن نَسَمِ^{٤٥}
 وصاحبُ الحوضِ يومَ الرُّسُلِ سائلةٌ
 متى الورودُ؟ وجبريلُ الأمينُ ظَمِي^{٤٦}
 سناؤه وسناهُ الشمسُ طالعةٌ
 فالجِرمُ في فلكٍ، والضوءُ في عَلمِ^{٤٧}
 قد أخطأ النجمَ ما نالت أبوُّته
 من سؤددٍ باذخٍ في مظهرٍ سَنِمِ^{٤٨}

نُمُوا إِلَيْهِن فزادوا في الورى شَرْفًا
 وَرُبَّ أَصْلٍ لِفِرْعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِي^{٤٩}
 حَوَاهِ فِي سُبُحَاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمْ
 نوران قاما مقام الصُّلْبِ وَالرَّجَمِ^{٥٠}
 لَمَّا رَأَاهُ بَاحِيرًا قَالَ: نَعْرِفُهُ
 بما حفظنا من الْأَسْمَاءِ وَالسَّيِّمِ^{٥١}
 سَائِلُ جِرَاءٍ، وَرُوحَ الْقُدُسِ: هَلْ عَلِمَا
 مَصُونٌ سَرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمٍ؟^{٥٢}
 كم جِيئَتْ وَذَهَابَ شُرْفَتْ بِهِمَا
 بَطْحَاءُ مَكَّةَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْغَسَمِ^{٥٣}
 وَوَحْشَةٍ لِابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بَيْنَهُمَا
 أَشْهَى مِنَ الْأُنْسِ بِالْأَحْبَابِ وَالْحَشَمِ^{٥٤}
 يُسَامِرُ الْوَحْيَ فِيهَا قَبْلَ مَهِيْطِهِ
 وَمَنْ يَبْشُرُ بِسَيِّمَى الْخَيْرِ يَتَّسِمِ^{٥٥}
 لَمَّا دَعَا الصَّحْبُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ ظَمَاءٍ
 فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّيْنِ^{٥٦}
 وَظَلَّلَتْهُ، فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ
 غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خَيْرَةُ الدِّيمِ^{٥٧}
 مَحَبَّةٌ لِرَسُولِ اللَّهِ أَشْرَبَهَا
 قَعَائِدُ الدَّيْرِ، وَالرُّهْبَانُ فِي الْقِمَمِ^{٥٨}
 إِنَّ الشَّمَائِلَ إِنْ رَقَّتْ يَكَادُ بِهَا
 يُغْفَرُ الْجَمَادُ، وَيُغْفَرُ كُلُّ ذِي نَسَمٍ
 وَنَوِيٍّ: اقْرَأْ، تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا
 لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمٍ
 هُنَاكَ أَدْنَى لِلرَّحْمَنِ، فَامْتَلَأَتْ
 أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّعْمِ^{٥٩}
 فَلَا تَسْأَلُ عَنْ قَرِيْشٍ كَيْفَ حَيَّرْتُهَا؟
 وَكَيْفَ نَفَّرْتُهَا فِي السَّهْلِ وَالْعِلْمِ؟^{٦٠}

تساءلوا عن عظيمٍ قد أَلَمَّ بهم
 رَمَى المشايخَ والولدانَ باللُّمَمِ^{٦١}
 يا جاهلين على الهادي ودعوته
 هل تجهلون مكانَ الصادقِ العَلَمِ؟^{٦٢}
 لَقَبْتُمُوهُ أَمِينَ القومِ في صِغَرٍ
 وما الأَمِينُ على قولٍ بمتَّهِمٍ
 فاق البدورَ، وفاق الأنبياءَ، فكمْ
 بالْخُلُقِ والْخَلْقِ من حَسَنٍ ومِن عِظَمٍ
 جاءَ النبيونَ بالآياتِ، فانصرمت
 وجئتنا بحكيمٍ غير مُنْصَرَمِ^{٦٣}
 آيَاتُهُ كُلُّما طَالَ المَدَى جُدُّ
 يَزِينُهُنَّ جلالُ العَتِقِ والقَدَمِ^{٦٤}
 يكاد في لفظةٍ منه مشرَّفَةٌ
 يوصيك بالحق، والتقوى، وبالرحم
 يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
 حديثُكَ الشَّهْدُ عندَ الذائقِ الفَهِمِ
 حَلَّيْتَ من عَطَلٍ جَيِّدَ البَيانِ به
 في كُلِّ مُنْتَثِرٍ في حَسَنٍ مُنْتَظَمِ^{٦٥}
 بِكُلِّ قولٍ كريمٍ أَنْتَ قائلُهُ
 تُخَيِّ القلوبَ، وتُخَيِّ مَيِّتَ الهِمَمِ
 سَرَتْ بِشائِرُ بالهادي ومولده
 في الشرق والغرب مَسْرَى النورِ في الظلم
 تَخَطَّفَتْ مُهَجَ الطاغين من عَرَبٍ
 وطَيَّرَتْ أَنْفُسَ الباغين من عَجَمِ^{٦٦}
 رِيَعَتْ لها شُرَفُ الإيوانِ، فانصدعت
 من صدمة الحق، لا من صدمة القَدَمِ^{٦٧}

أَتَيْتَ وَالنَّاسَ فَوُضِيَ لَا تَمُرُّ بِهِمْ
 إِلَّا عَلَى صَنَمٍ، قَدْ هَامَ فِي صَنَمٍ
 وَالْأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا، مُسَخَّرَةٌ
 لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِي الْخَلْقِ مُحْتَكَمٍ
 مُسَيِّطِرُ الْفَرَسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ
 وَقِيصِرُ الرُّومِ مِنْ كِبَرِ أَصَمٍّ عَمٍ
 يُعَذِّبَانِ عِبَادَ اللَّهِ فِي شُبْهِهِ
 وَيَذْبَحَانِ كَمَا ضَحَّيْتَ بِالْغَنَمِ
 وَالْخَلْقُ يَفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأُضْعَفِهِمْ
 كَاللَّيْثِ بِالْبَهْمِ، أَوْ كَالْحَوْتِ بِالْبَلَمِ^{٦٨}
 أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا، إِذْ مَلَأَتْهُ
 وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ^{٦٩}
 لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّفُؤَا بِسَيِّدِهِمْ
 كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ، أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ
 صَلَّى وَرَاءَكَ مِنْهُمْ كُلُّ نَبِيٍّ خَطِرٍ
 وَمَنْ يَقُزْ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمُمْ^{٧٠}
 جُبَّتِ السَّمَاوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ
 عَلَى مَنْوَرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجْمِ^{٧١}
 رَكُوبَةً لَكَ مِنْ عَزٍّ وَمَنْ شَرَفٍ
 لَا فِي الْجِيَادِ، وَلَا فِي الْأَيْتُقِ الرُّسُمِ^{٧٢}
 مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي، وَصَنَعَتُهُ
 وَقَدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالنُّهْمِ
 حَتَّى بَلَغْتَ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا
 عَلَى جَنَاحٍ، وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
 وَقِيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رَتْبِهِ
 وَيَا مُحَمَّدُ، هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ

خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا عُلُومَهَا
 يَا قَارِئَ اللُّوحِ، بَلْ يَا لِامْسَ الْقَلَمِ ٧٣
 أَحَطَّتَ بَيْنَهُمَا بِالسَّرِّ، وَانْكَشَفْتَ
 لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ، وَمِنْ حِكْمِ ٧٤
 وَضَاعَفَ الْقُرْبُ مَا قُلِدْتَ مِنْ مَنِّ
 بَلَا عِدَائٍ، وَمَا طُوقْتَ مِنْ نِعَمِ ٧٥
 سَلْ عَصْبَةَ الشَّرِكِ حَوْلَ الْغَارِ سَائِمَةً
 لَوْلَا مَطَارِدَةُ الْمُخْتَارِ لَمْ تُسَمِّ ٧٦
 هَلْ أَبْصَرُوا الْأَثَرَ الْوَضَاءُ، أَمْ سَمِعُوا
 هُمَسَ التَّسَابِيحِ وَالْقُرْآنِ مِنْ أُمِّ؟ ٧٧
 وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ لَهُمْ
 كَالْغَابِ، وَالحَائِمَاتُ الرُّغْبُ كَالرَّخْمِ؟ ٧٨
 فَادْبِرُوا، وَوَجْهُهُ الْأَرْضِ تَلْعَنُهُمْ
 كِبَاطِلٍ مِنْ جَلَالِ الْحَقِّ مِنْهَزِمِ ٧٩
 لَوْلَا يَدُ اللَّهِ بِالْجَارَيْنِ مَا سَلِمَا
 وَعَيْنُهُ حَوْلَ رَكْنِ الدِّينِ، لَمْ يَقَمْ ٨٠
 تَوَارِيَا بَجَنَاحِ اللَّهِ، وَاسْتَتَرَا
 وَمَنْ يُضْمُ جَنَاحُ اللَّهِ لَا يُضْمُ ٨١
 يَا أَحْمَدَ الْخَيْرِ، لِي جَاهٌ بِتَسْمِيَّتِي
 وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي؟ ٨٢
 الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعُ
 لِصَاحِبِ الْبُرْدَةِ الْفِيحَاءِ ذِي الْقَدَمِ ٨٣
 مَدِيحُهُ فَيْكَ حُبٌّ خَالِصٌ وَهَوَى
 وَصَادِقُ الْحَبِّ يُمْلِي صَادِقَ الْكَلَمِ ٨٤
 اللَّهُ يَشْهَدُ أَنِّي لَا أَعَارِضُهُ
 مَنْ ذَا يَعَارِضُ صَوْبَ الْعَارِضِ الْعَرِمِ؟ ٨٥
 وَإِنَّمَا أَنَا بَعْضُ الْغَابِطِينَ، وَمَنْ
 يَغْبِطُ وَلِيَّكَ لَا يُذَمِّمُ، وَلَا يُلَمِّ ٨٦

هذا مقامٌ من الرحمنِ مُقْتَبَسُ
 ترمي مهابتُهُ سَحْبَانَ بِالْبَكَمِ^{٨٧}
 البدرُ دونَكَ في حسنٍ وفي شرفٍ
 والبحرُ دونَكَ في خيرٍ وفي كرمٍ
 شَمُّ الجبالِ إذا طاولَتْها انخفضت
 والأنجُمُ الزُّهرُ ما واسمَتْها تَسَمِ^{٨٨}
 والليثُ دونَكَ بأَسًا عند وثبته
 إذا مشيتَ إلى شاكِي السلاحِ كَمِي^{٨٩}
 تهفو إليك - وإن أدميتَ حَبَّتْها
 في الحربِ - أفئدةُ الأبطالِ والبُهَمِ^{٩٠}
 محبَّةُ اللهِ ألقاها، وهيبتهُ
 على ابنِ أَمْنَةٍ في كلِّ مُصْطَدَمِ^{٩١}
 كان وجهَكَ تحت النِّقْعِ بدرٌ دُجِي
 يضيئُ مُلْتَثِمًا، أو غيرَ مُلْتَثِمِ^{٩٢}
 بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ، فغُرَّتْهُ
 كغُرَّةِ النصرِ، تجلو داجي الظلمِ^{٩٣}
 ذُكِرْتَ باليُتَمِّ في القرآنِ تَكْرَمَةً
 وقيمةُ اللؤلؤِ المكنونِ في اليُتَمِ^{٩٤}
 الله قسمَ بين الناسِ رزقَهُمُ
 وأنتَ خُيِّرْتَ في الأرزاقِ والقِسمِ^{٩٥}
 إن قلتَ في الأمرِ: «لا» أو قلتَ فيه: «نعم»
 فخيرَةُ اللهِ في «لا» منك أو «نعم»
 أخوك عيسى دَعَا مَيِّتًا، فقام لَهُ
 وأنتَ أحييتَ أجيالًا مِنَ الزَّمَمِ
 والجهلِ موتٌ، فإن أوتيتَ مُعْجَزَةً
 فابعثْ من الجهلِ، أو فابعثْ من الرَّجَمِ^{٩٦}
 قالوا: غرَّوتَ، ورسلُ اللهِ ما بُعثوا
 لقتلِ نفسٍ، ولا جاءوا لسفكِ دم

جهلٌ، وتضليلٌ أحلامٍ، وسفسطةٌ
 فتحتَ بالسيفِ بعدَ الفتحِ بالقلم
 لَمَّا أتى لكَ عفواً كلُّ ذي حَسَبٍ
 تكفَّلَ السيفُ بالجهَّالِ والعَمَمِ^{٩٧}
 والشرُّ إن تَلَقَّه بالخيرِ ضِقتَ به
 دَرْعاً، وإن تَلَقَّه بالشرِّ يَنحَسِمِ
 سَلِ المسيحيَّةَ الغرَّاءَ: كم شربت
 بالصَّابِ من شهواتِ الظالمِ الغَلَمِ^{٩٨}
 طريدةُ الشرِّ، يؤذيها، ويوسَّعُها
 في كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ^{٩٩}
 لولا حُماةُ لها هبُّوا لنصرَتِها
 بالسيفِ، ما انتفعتُ بالرفقِ والرُّحَمِ^{١٠٠}
 لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلِهِ
 وحُرْمَةٌ وجبتُ للروحِ في القِدَمِ^{١٠١}
 لَسَمَرَ البدنُ الطُّهرُ الشريفُ على
 لَوْحَيْنِ، لم يخشَ مؤذيه، ولم يَجِمِ^{١٠٢}
 جلَّ المسيحُ، وذاقَ الصَّلْبَ شائِئُهُ
 إن العقابَ بقدرِ الذنبِ والجُرْمِ^{١٠٣}
 أخو النبي، وروحُ الله في نُزُلِ
 فوقَ السماءِ ودونِ العرشِ مُحترَمِ^{١٠٤}
 علِّمَتَهُم كلَّ شيءٍ يجهلون به
 حتى القتالَ وما فيه من الذُّمِ^{١٠٥}
 دعوتَهُم لِجِهَادٍ فيه سؤدُدُهُم
 والحربُ أَسُّ نظامِ الكونِ والأممِ
 لولاه لم نرِ للدولِ في زمنِ
 ما طالَ من عمدٍ، أو قرَّ من دُهمِ^{١٠٦}
 تلكَ الشواهدُ تَتَرى كلَّ آونةٍ
 في الأعْصُرِ الغُرِّ، لا في الأعْصُرِ الدُّهمِ^{١٠٧}

بالأمس مالت عروشٌ، واعتلت سُرُرٌ
 لولا القذائفُ لم تثلَّم، ولم تصم^{١٠٨}
 أشياغُ عيسى أَعْدُوا كُلَّ قاصِمةٍ
 ولم نُعِدَّ سِوى حالاتٍ مُنْقِصِمْ^{١٠٩}
 مهما دُعِيتَ إلى الهِجَاءِ قمتَ لها
 ترمي بأَسَدٍ، ويرمي اللهُ بالرُّجْمِ^{١١٠}
 على لِوَائِكَ منهم كُلُّ مُنْتَقِمٍ
 لله، مُسْتَقْتَلٍ في الله، مُعْتَزِمٍ^{١١١}
 مُسَبِّحٍ لِلقاءِ الله، مُضْطَرِمٍ
 شوقًا، على سابِحِ كالبرقِ مضْطَرِمٍ^{١١٢}
 لو صادفَ الدهرَ يَبْغِي نَقْلَةً، فرمى
 بعزمِهِ في رِحالِ الدَّهرِ لم يَرمِ^{١١٣}
 بيضٌ، مَفالِيلُ من فَعَلَ الحروبِ بهم
 من أَسِيفِ الله، لا الهنديَّةِ الخُذْمِ^{١١٤}
 كم في الترابِ إذا فَتَّشتَ عن رجلٍ
 مَنْ ماتَ بالعهدِ، أو مَنْ ماتَ بالقَسَمِ^{١١٥}
 لولا مواهبُ في بعضِ الأنامِ لما
 تفاوتَ الناسُ في الأقدارِ والقِيَمِ^{١١٦}
 شريعةٌ لك فَجَّرتَ العقولَ بها
 عن زَاخِرِ بصنوفِ العلمِ ملتطمٍ
 يلوخُ حولَ سنا التوحيدِ جوهرها
 كالحلِيِّ للسيفِ أو كالوشِي للعِلْمِ^{١١٧}
 غَرَاءُ. حامتَ عليها أنفُسٌ، ونُهَيَّ
 وَمَنْ يَجِدُ سَلَسَلًا من حِكْمَةٍ يَحُمِ^{١١٨}
 نورُ السبيلِ يَساسُ العالمونَ بها
 تكفَّلْتُ بشِبابِ الدَّهرِ والهَرَمِ^{١١٩}
 يجري الزَمانُ وأحكامُ الزَمانِ على
 حُكْمِ لها. نافِذٍ في الخلقِ، مُرْتَسِمِ

لَمَّا اعْتَلَتْ دَوْلَةُ الْإِسْلَامِ وَاتَّسَعَتْ
مَشَتْ مَمَالِكُهُ فِي نَوْرِهَا التَّمَمِ ١٢٠
وَعَلَّمَتْ أُمَّةً بِالْقَفْرِ نَازِلَةً
رَغِيَّ الْقِيَاصِرِ بَعْدَ الشَّاءِ وَالنَّعَمِ
كَمْ شَيَّدَ الْمَصْلُحُونَ الْعَامِلُونَ بِهَا
فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ مُلْكًا بَازِخَ الْعِظَمِ
لِلْعِلْمِ. وَالْعَدْلِ. وَالتَّمْدِينِ مَا عَزَمُوا
مِنَ الْأُمُورِ، وَمَا شَدُّوا مِنَ الْحُزْمِ ١٢١
سَرَعَانِ مَا فَتَحُوا الدُّنْيَا لِمَلَّتْهُمْ
وَأَنْهَلُوا النَّاسَ مِنْ سَلْسَالِهَا الشَّبِيمِ ١٢٢
سَارُوا عَلَيْهَا هُدَاةَ النَّاسِ، فَهَيَّ بِهِمْ
إِلَى الْفَلَاحِ طَرِيقٌ وَاضِحُ الْعِظَمِ ١٢٣
لَا يَهْدِمُ الدَّهْرُ رُكْنًا شَادَ عَدْلُهُمْ
وَحَائِطُ الْبَغْيِ إِنْ تَلَمَّسَهُ يَنْهَدِمِ
نَالُوا السَّعَادَةَ فِي الدَّارَيْنِ، وَاجْتَمَعُوا
عَلَى عَمِيمٍ مِنَ الرِّضْوَانِ مَقْتَسَمِ
دُعْ عَنْكَ رُومًا، وَأَثِينًا، وَمَا حَوَّتَا
كُلَّ الْيَوَاقِيتِ فِي بَغْدَادَ وَالتُّوَمِ ١٢٤
وَحَلَّ كِسْرَى، وَإِيوَانًا يَدُلُّ بِهِ
هُوَى عَلَى أَثَرِ النِّيرَانِ وَالْأَيْمِ ١٢٥
وَاتْرُكْ رَعْمَسِيْسَ، إِنْ الْمَلِكُ مَظْهَرُهُ
فِي نَهْضَةِ الْعَدْلِ، لَا فِي نَهْضَةِ الْهَرَمِ ١٢٦
دَارُ الشَّرَائِعِ رُومًا كُلَّمَا ذُكِرَتْ
دَارُ السَّلَامِ لَهَا أَلْقَتْ يَدَ السَّلَامِ ١٢٧
مَا ضَارَعَتْهَا بَيَانًا عِنْدَ مُلْتَأَمِ
وَلَا حَكَّتْهَا قِضَاءً عِنْدَ مُخْتَصِمِ ١٢٨
وَلَا احْتَوَتْ فِي طِرَازٍ مِنْ قِيَاصِرِهَا
عَلَى رَشِيدٍ، وَمَأْمُونٍ، وَمُعْتَصِمِ ١٢٩

من الذين إذا سارت كتائبُهم
 تصرّفوا بحدود الأرض والتّخم^{١٣٠}
 ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ
 فلا يُدانُون في عقل ولا فَهَم
 يُطأطئ العلماءُ الهامَ إن نَبَسوا
 من هيبةِ العَلم، لا من هيبةِ الحُكْم
 ويمطّرون، فما بالأرض من مَحَلٍ
 ولا بمنّ بات فوق الأرض من عُدْم^{١٣١}
 خلائفُ الله جلُّوا عن موازنةٍ
 فلا تقيسنّ أملاك الورى بهم^{١٣٢}
 مَنْ في البرية كالفاروق مَعْدَلَةٌ؟
 وكابن عبد العزيز الخاشعِ الحشم؟^{١٣٣}
 وكالإمام إذا ما فَضّ مزدحمًا
 بمدمع في مآقي القوم مزدحم^{١٣٤}
 الزاخر العذّب في عَلم وفي أدبٍ
 والناصر النَّدب في حرب وفي سلم؟^{١٣٥}
 أو كابن عفّان والقرآن في يدهِ
 يحنو عليه كما تحنو على الفُطم^{١٣٦}
 ويجمع الآي ترتيبًا وينظّمها
 عقدًا بجيد الليالي غير منفصم^{١٣٧}
 جُرحان في كبد الإسلام ما التّأما
 جُرْحُ الشهيد، وجُرْحُ بالكتاب دمي^{١٣٨}
 وما بلاءُ أبي بكر بمتّهم
 بعد الجلائل في الأفعال والخدم
 بالحزم والعزم حاطّ الدّين في محنٍ
 أضلّت الحلم من كهلٍ ومحتلم^{١٣٩}
 وجِدَنَ بالراشد الفاروق عن رشِدٍ
 في الموت، وهو يقينٌ غير منبهم^{١٤٠}

يجادلُ القومَ مُسْتَلًّا مَهْنَدَه
في أعظم الرسلِ قدرًا، كيف لم يدم؟
لا تعذّله إذا طاف الذهولُ به
مات الحبيبُ، فضلَّ الصَّبُّ عن رَغَم

يا ربَّ صَلِّ وسلِّم ما أردتَ على
نزيل عرشك خيرِ الرسلِ كلِّهم
مُحيي الليالي صلاةً، لا يقطُّعها
إلَّا بدمعٍ من الإشفاق مُنسجم
مسبِّحًا لك جُنْحَ الليل، محتملاً
ضُرًّا من السُّهد، أو ضُرًّا من الورَم
رضيَّة نفسُه، لا تشتكي سَأْمًا
وما مع الحبِّ إن أخلصتِ مِن سَأْم
وصلَّ ربِّي على آلٍ له نُخبٍ
جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرم^{١٤١}
بيضُ الوجوه، ووجهُ الدهرِ ذو حَلَكٍ
شُمُّ الأنوف، وأنفُ الحادثاتِ حمي^{١٤٢}
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منك أربعةً
في الصَّحب، صُحبَتُهم مَرِعيَّةُ الحُرَم
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم
ما هال من جَلَلٍ، واشتدَّ من عَمَم^{١٤٣}
الصابرين ونفسُ الأرضِ واجفةً
الضاحكين إلى الأخطار والقُحَم^{١٤٤}
يا ربَّ، هبَّتْ شعوبٌ من منيَّتها
واستيقظت أُممٌ من رقدة العدم
سعدٌ، ونحسٌ، ومُلْكٌ أنت مالِكُه
تُديلُ مِن نِعَمٍ فيه، ومِن نِقَم

رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمته
أكرم بوجهك من قاضٍ ومنتقم
فالتطفُّ لأجلِ رسولِ العالمين بنا
ولا تزدُ قومَه خسفًا، ولا تُسم
يا ربَّ. أحسنت بدءَ المسلمين به
فتَمَّ الفضلَ. وامنحْ حُسْنَ مُخْتَتَمٍ^{١٤٥}

هوامش

- (١) الرئم (بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء): الظبي الخالص البياض. والقاع: الأرض السهلة المطمئنة. والبان: جمع بانه، ضرب من الشجر. والعلم: الجبل. والأشهر الحرم: أربعة، ثلاثة متتابعة هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وواحد فرد وهو رجب، وكانت العرب لا تستحلُّ فيها القتال، وفي الشطر الثاني طباق بين قوله «أحلَّ» وقوله «الحرم»، ولا يذهب عن القارئ ما في البيت من براعة الاستهلال.
- (٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. والأجم: جمع أجمة وهي الشجر الكثير الملتف، وهو مسكن الأسد، يريد بالجؤذر: المحبوبة التي شبهها في البيت السابق «بالريم» تشبيهاً لها بالجؤذر في جمال عينيه واتساعهما. ويريد «بالأسد»: نفسه. وفي الشطر الثاني يستغيث بالمقتول للقاتل — لا منه — ويستنجد للأسد بالغزال، وهو بديع.
- (٣) رنا: أدام النظر مع سكون الطرف. ويا ويح: كلمة تقال لمن وقع في الشدة والمكروه، يستنجد له بالرفقة والرحمة مما وقع فيه.
- (٤) جحدثها: الجحود هو الإنكار مع العلم.
- (٥) الشيم: جمع شيمة وهي الخلق والطبيعة.
- (٦) شَفَّه الوجد: أهزله وانحل جسمه.
- (٧) انتصت: سكت سكوت مستمع. وفي الشطر الثاني من البيت طباق بين قوله: «منتصت»، وقوله: «في صمم».
- (٨) الناعس: الوسنان. والطرف (بالفتح): العين. والمضني: الذي أثقله المرض. ومضناك: الذي أضنيته بما لحقه من الوله عليك. وفي الشطر الثاني طباق بين قوله: «أسهرت»، وقوله: «فنم».

- (٩) الألو: هنا بمعنى المنع والتقصير. وأغراه بالشيء: زَيَّنَه له وحرضه عليه.
- (١٠) السرى: المشي في الليل. وأسا الجرح يأسوه: داواه.
- (١١) المواثيس: جمع مائسة وهي المتبختر. والبان: ضرب من الشجر، واحدها: بانة، يشبّه القوام بأغصانها للدونتها. والقنا: جمع قناة وهي الرمح. وسفح الدم: سفكه وأساله.
- (١٢) يقال: سفرت المرأة: أي كشفت عن وجهها. والحلي: ما تزيّن به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة. والعصم: القلائد، جمع عصمة كعنب وعنبه.
- (١٣) العثرة: الزلة والسقطة. وأقاله من عثرته: أنهضه منها. والدلّ: قريب المعنى من الهدى، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك. والرسم: حسن المشي.
- (١٤) الضرم: اشتعال النار.
- (١٥) اللواء: العلم، وحمل لواء الحسن: كناية عن نهاية الحسن فيه.
- (١٦) العصم: جمع أعصم، الذي فيه العصمة (بالضم)، وهي بياض اليدين، والعصماء من المعز: البيضاء الذراعين وسائرهما أسود أو أحمر، وحركّ الصاد إتباعاً لحركة العين قبلها.
- (١٧) يرعن: يخفن. والعنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبّه بها البنان المخضوبة. وفي البيت جناس بين قوله: «أشرن»، وقوله: «أسرن».
- (١٨) وضع الخد: هنا كناية عن الخضوع والاستسلام. والكنس (بضمّتين): جمع كناس وهو مستقرّ الظباء في الشجر. والأكم: جمع أكمة وهي الموضع يكون أشدّ ارتفاعاً مما حوله.
- (١٩) اللبد: جمع لبدة وهي الشعر المتراكب بين كتفي الأسد. والغاب: جمع غابة وهي الشجر المتكاثف. والأطم: القصر، وكل حصن مبني بالحجارة.
- (٢٠) عنّ الشيء: بان وظهر. والمنايا: جمع المنية وهي الموت. يريد بـ «المنى»: محبوبته أو لقاءها، وبـ «المنايا» أباهاً أو لقاءه، مبالغة. ومضرب الخيم: المكان الذي تضرب فيه وتقام؛ أي حيث تنزل تلك المحبوبة في جوار أبيها. وفي البيت جناس.
- (٢١) الصمصامة: السيف. والضرغامة: الأسد. والقرم: شديد الشهوة إلى اللحم، وهنا كناية عن شدة البأس والافتراس. وأراد بـ «الغصن» و «الريم» معشوقته، وبـ «الصمصامة» و «الضرغامة» أباهاً. يتعجب كيف يولد لمثل هذا الرجل، الشبيه بالسيف

في صلابته ومضائه، مثل هذه المعشوقة، التي هي كالغصن في اللدونة ولطف التنني؟! وأيضاً كيف يكون لمن يشبه الأسد في قوته وسطوته وبأسه، مثل هذه التي تشبه الغزال في رفته وضعفه؟!

(٢٢) العفة العذرية: نسبة لقبيلة بني عذرة، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف. والعصم: جمع عصمة وهي المنع والحفظ.

(٢٣) غشي المكان: وافاه. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله. والكرى: النوم. وإرم: هي إرم ذات العماد. التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

(٢٤) المبتسم: بمعنى المصدر أي الابتسام، ويجوز أن يراد به الموضع أي الثغر، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف.

(٢٥) الرقشاء من الحيّات: المنقطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سمّها. والثرم: كسر السن من أصلها.

(٢٦) أرملت المرأة: إذا مات عنها زوجها. وآمت المرأة تتيم، والأيم: التي لا زوج لها، سواء أكانت بكرًا أم كان لها زوج فقدته.

(٢٧) الأدم: الجلد، يقول: مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا، فإن إساءتها ما تنتهي، حتى أن آدم (عليه السلام) لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان. وفي البيت جناس بين آدم والأدم.

(٢٨) الجنى: ما يُجْتَنَى من الشجرة ويُقَطَفُ من ثمرها.

(٢٩) يريد بالنائم: المغترّ بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها.

(٣٠) الوصم (بالتحريك): الألم والمرض، يقال: وصمته الحمى فتوصم أي آلمته فتألم.

(٣١) الصاب: جمع صابة وهو شجر مرّ، والعلقم، والحنظل. ويسم: من سام يسوم أي رعى يرعى.

(٣٢) دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة وهي الشعر يجاوز شحمة الأذن. مسوّدّة الصحف: كناية عن العمل السيئ. ومبيضة اللمم: الشيب، والإضافة فيها من إضافة الصفة للموصوف.

(٣٣) ركضتها: أصل الركض تحريك الرّجل، ويقال: ركضت الفرس برجلي إذا استحثّته ليعدو، والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها في طريق غوايتها، وفيه تشبيه النفس بالسائمة تشبيهاً مضمراً في النفس على سبيل الاستعارة المكنية. والمرع:

الخصيب. ومريع المعصيات: من إضافة المشبه به للمشبه، أي المعصيات التي هي شبيهة بالمرعى المريع تستطيه الدابة؛ ففيه تشبيهه ضمني لمن يرسل نفسه في المعاصي بالبهيم الذي يستطيب المرعى ويسترسل فيه. وحمة الطاعات: كذلك من إضافة المشبه به للمشبه، أي الطاعات التي شبيهة بالحمية، وفيها أيضًا تشبيهه ضمني لمن يتعفف عن مساورة المعاصي بمن يمسك نفسه أن ينال ما يهيضه من ألوان الطعام.. والتخم: جمع تخمة، قيل: هي فساد الطعام بالمعدة، وقيل: فساد المعدة بالطعام. وقوله «التخم» أي للتحرز عن التخم.

(٣٤) هامت الناقة على وجهها: ذهبت ترعى. وداعي الصبا: اللهو والشباب.
(٣٥) المرتع: من رتعت الماشية ترتع رتوعًا أي أكلت ما شاءت. والمرتع: موضع الرتوع. والوخم: الرديء الوبي.

(٣٦) الشكم: جمع شكمة وهي الحديد المعتبرة في لجام الفرس.
(٣٧) عصمة الله العبد: حفظه مما يوبقه ويهلكه، والمعتصم: الموضع منها، أو بمعنى المصدر أي الاعتصام.

(٣٨) الغم: جمع غمة وهي الهم والحزن. والمجير: هنا بمعنى المنقذ. إذا عزَّ المجير: أي يوم القيامة. ومفرج الكرب في الدارين: هو الرسول الأمين صلوات الله وتسليماته عليه؛ لأنه أخرج في الدنيا من ظلمة الغواية إلى نور الهداية، وهو في الآخرة صاحب الشفاعة العظمى.

(٣٩) الأمم: اليسير. وخفض جناح الذل: كناية عن شدة التواضع والانكسار.
(٤٠) العبرة: تحلب الدمع.
(٤١) أمير الأنبياء: هو محمد ﷺ. ولزوم بابه: كناية عن الالتجاء إلى كرمه، وعدم الانحراف عن التوسل به في قضاء الطلبات.

(٤٢) العارفة: المعروف.
(٤٣) اللحم: جمع لحمة وهي القرابة.

(٤٤) يزري: يعيب. والقريض: الشعر. وزهير: هو زهير بن أبي سلمى المزني، كان سيّدًا، غنيًا في الجاهلية، معروفًا بالحلم والحكمة، شاعرًا فحلًا. وهرم (بكسر الراء): هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المزي، مدح زهير هرمًا فأحسن، ووصله هرم فأجزل الصلة وبالع في العطاء.

(٤٥) النسم: جمع نسمة وهي النفس، أو هي الإنسان

(٤٦) وجبريل الأمين ظمي: الملائكة لا تظماً، فلعل مراده بالظماً هنا لازمه وهو الطلب أي للناس، بمعنى أن حاله تقتضي ذلك إشفاقاً على حالها، لِمَا يرهقهم من شدة الظماً وحرَج الموقف.

(٤٧) سناؤه: رفعتة. وسناه: نوره. والعلم: هنا بمعنى العالم.

(٤٨) السؤدد: السيادة. والبانخ: العالي. والسنم (ككتف). المرتفع. وأبوتّه: أي ذوو أبوتّه، والأبوة: المعنى المأخوذ من الأب كالأخوة والبنوة.

(٤٩) نموا: نسبوا.

(٥٠) السبحات (بضمّتين): مواضع السجود. سبحات وجه الله: أنواره.

(٥١) السيم: كعلب، جمع سيمة وهي العلامة. وبحيرا (بفتح الباء وكسر الحاء):

الراهب النصراني المشهور.

(٥٢) حراء: جبل بمكة فيه غار كان يتعبّد فيه النبي ﷺ قبل الرسالة. وروح القدس: جبريل (عليه السلام)، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف، أي الروح القدس، والقدس: الطهر. ومصون سرّ: من إضافة الصفة للموصوف أي السرّ المصون. وقوله «منكتم»: وصف مؤكد للسرّ المصون، لأن السرّ لا يكون إلا كذلك: وتنكير «سرّ» للتعظيم.

(٥٣) البطحاء: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. والغسم: الإمساء وظلمة الليل. الإصباح والغسم: أي من كل مرة كان يطلب فيها النبي ﷺ حراء لا كل صباح وكل غسم، فإنه ﷺ كان يتزوّد، فيقيم في حراء الليالي والأيام.

(٥٤) ابن عبد الله: هو النبي ﷺ. والحشم: الخدم الخاصون بمولاهم. والوحشة:

الخلوة والهَمُّ، والمراد بها هنا مجرّد الخلوة والانقطاع عن الناس.

(٥٥) مهبطه: هنا بمعنى هبوطه

(٥٦) التسنيم: ماء بالجنة يجري فوق الغرف، وسنم الإناء تسنيماً: فكأنه أراد

بالسنم هنا الإناء المملوء. والأحاديث الواردة في نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة.

(٥٧) الديم: جمع ديمة وهي المطر الدائم.

(٥٨) القعائد: جمع قعيدة، وقعائد الدين: ملازموه من متنسكة النصارى. والقمم:

جمع قمة وهي أعلى الرأس من كل شيء، والمراد بها هنا أعالي الجبل.

(٥٩) أذن للرحمن: أي دعا إلى الله. وقوله «من قدسية النغم»: ترشيح لتشبيه

الدعاء إلى الله تعالى بالصوت الجميل. وقدسية النغم: النغم المطهّرة المنزهة عن تطريب

الغناء بتكبير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات.

(٦٠) فلا تسأل: يعني أن الأمر واضح غني عن السؤال، يقال عند ظهور الأمر ووضوحه: لا تسأل. العلم: الجبل.

(٦١) أَلَمْ: نزل. واللمم (محرّكة): الجنون، والمعنى أنه قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذي نزل بهم، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من البأس والمنعة يزعجهم عما كان يعبد آبائهم — وهم سادات قريش وجباهاها — ويأخذهم عما ألفوا من عاداتهم وأخلاقهم المغروزة فيهم، دهشوا لهذا واستعظموه، حتى جُنَّ منه شبيبهم وشبابهم.

(٦٢) العلم: الظاهر المشتهر. والجاهلون على الهادي: المتعنتون، والاستفهام في قوله «هل تجهلون»: استنكاري.

(٦٣) انصرمت: انقطعت. منصرم: منقطع. الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم في مواضع منه.

(٦٤) جدد: جمع جديد كسرر وسرير.

(٦٥) يقال: عطلت المرأة عطلاً إذا لم يكن عليها حلي.

(٦٦) مهج: جمع مهجة وهي دُمُّ القلب.

(٦٧) ريعت: ذُعِرَت وخافت. وشُرِف: جمع شرفة وهي ما يوضع على القصور ونحوها. والقدم: جمع قدوم، روي أن شُرِفَ الإيوان — وهو مأوى سلطان الأكاسرة — ارتجّت وهوت ليلة مولده ﷺ، لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القدم، بل تداعت من صدمة الحق.

(٦٨) البهم: جمع بهمة وهي ولد الضأن والمعز. والبلم: صغار السمك.

(٦٩) المسجد الأقصى: بيت المقدس. وعلى قدم: قائمون محتشدون.

(٧٠) ذي خطر: ذي قدرة ومنزلة. ويأتم: أي يأتّم، والأصل: ومَن يأتّم بحبيب الله يفز، ولكنه قلب للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز.

(٧١) بهم: أي بملابسة بعضهم فيها، فإنه ورد أنه مر ببعضهم في السموات لا كما هو المتبادر من قوله إنهم صاحبه حين جاب السموات. ويريد بقوله «منورة درية اللجم»: البراق.

(٧٢) «من» في قوله «من عز ومن شرف»: للتعليل، أي لأجل عزك وشرفك. والأيتيق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها، حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها آثار ظاهرة. والرسم: واحد رسوم. والجياد: جمع جواد وهو الفرس الرائع البين الجودة.

- (٧٣) خطه علوم الدين والدنيا: كناية عن تعليمها الناس وبثها فيهم. وقراءة اللوح ولس القلم: كناية عن اطلاع الله له على ما أطلعة عليه من الغيوب.
- (٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنه انه ﷺ قال: «علمنى ربي ليلة الإسراء علوما شتى: علم أخذ على كتمانته، وعلم خيرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه»
- (٧٥) يجوز أن يكون «القرب» فاعلا لـ «ضاعف»، و«ما» وما بعدها مفعولا به، والمعنى أن قربه من الله تعالى قد أربى على جميع ما وليه ﷺ من النعم التي لا يدركها العد، فكانت بإضافة القرب عليها أضعاف ما كانت قبله، ويجوز أن يكون مفعولا، والفاعل «ما» وما بعدها، والمعنى أن ما تجلى الله تعالى عليه به من النعم التي لا تعد وأولاه من الفضائل التي لا تحصى قد زاد قربيه، لأنه قرب على قرب، والأول أولى.
- (٧٦) عصبه الشرك: أي عصبه من أهل الشرك الذين ذهبوا يطلبونه ﷺ يوم هجرته. والغار: كالثقب بجبل أسفل مكة. سائمة: راعية.
- (٧٧) مَنْ أَمَّ: مَنْ قَرَّبَ.
- (٧٨) الغاب: الشجر الكثير المتكاثف. والحائثات الرُغب: الحمام. والرخم: جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط السواد والبياض.
- (٧٩) شَبَّهَ إِدْبَارَهُمْ ونكوصهم على أعقابهم خائِبِينَ بدمغ الباطل وإدحاضه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلي، واللاعن: مَنْ فيها من المسلمين والملائكة، أو المراد وجوه أهلها أي أعيانهم وأفاضلهم.
- (٨٠) الجاران: الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق (رضى الله عنه). والمراد باليد: النعمة. وعينه: عنايته، وحرف الشرط مقدّر في الجملة الثانية.
- (٨١) جناح الله: لطفه وستره. ويضم: يلحق به الضيم.
- (٨٢) من أسمائه ﷺ أحمد، وقد سُمِّيَ الشاعر به تيمناً باسم الرسول الأكرم. ويتسامى: يتعالى، والاستفهام في البيت إنكاري.
- (٨٣) تبع: أخبر بالمصدر مبالغة، وأفرده لأنه يستوي فيه الواحد والجمع، أو على تقدير مضاف، أي ذوو تبع، أي مقتدون به. والقدم: التقدّم والمنزلة. وصاحب البردة: هو الإمام البوصيري.
- (٨٤) مديحة حب: أي ناشئ من الحب، أو ذو حب أي دال عليه.
- (٨٥) الصوب: الانصباب، ومجيء السماء بالمطر. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والعرم: يريد المطر الشديد.

- (٨٦) الغابط: الذي يتمنى مثل ما للغير، وليس هذا القدر بمذموم. ويذمم: يذم.
- (٨٧) البكم: الخرس. وسحبان: هو سحبان وائل من بني باهلة، كان يُضْرَبُ بفصاحته المثل.
- (٨٨) يقال: واسمه في الحسن فوسمه أي غلبه فيه. انخفاض الجبال: كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه.
- (٨٩) الكمي: لابس السلاح.
- (٩٠) تهفو هفا الظبي في المشي يهفو هفواً وهفواً: أسرع وخفّ فيه، والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه ﷺ. وحبّة القلب: سويداؤه. والمبهم: جمع بهمة وهو الشجاع.
- (٩١) مصطدم: بمعنى المصدر أي الاصطدام، أو الموضع أي موضع الاصطدام وهو ميدان الحرب.
- (٩٢) النقع: غبار الحرب.
- (٩٣) بدر: موضع بين الحرمين الشريفين، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمع الله فيها الشرك وأعزّ الإسلام.
- (٩٤) اليتيم في الناس: فقدان الأب، وهو في الأشياء: التفرد وعدم وجود نظائر لها. واللؤلؤة اليتيمة: التي لا نظير لها في العقد. دُكرت باليتيم في القرآن: يشير إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، وحرّك التاء إتباعاً لحركة الياء قبلها في قوله «اليتيم»، ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل.
- (٩٥) روى الترمذى عنه ﷺ أنه قال: «عرض عليّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً».
- (٩٦) والجهل موت: كالترشيح للاستعارة في البيت السابق، وهو تشبيهه بليغ. وأوتيت: خطاب لغير معين. والرجم: القبر.
- (٩٧) العمم: اسم جمع للعامة.
- (٩٨) الغلم: الهائج الثائر.
- (٩٩) الحدم (بالتحريك): شدة احتراق النار.
- (١٠٠) الرُحْم: الرقة والمغفرة والتعطف. لم يكن استعمال القوة في إقامة الدعوة للدين شأن الدين الإسلامي وحده، وهذه الديانة المسيحية الموصوفة بديانة الرهينة والسلام. لم تبدأ الدعوة إليها حتى أصاب أهلها ما أصابهم، من الطرد والقتل والتعذيب

والتشريد والتمثيل، بأيدي الجبابرة الطغاة من الملوك والقيصرة، بل بأيدي الشعوب والأمم، وتاريخ المسيحية بين أهل رومية مما تشيب له الولدان، فترى الدين المسيحي دين الرهينة والسلام ما دخل البلاد إلا على رءوس الأسنة، ولا حِمْلٌ إلى الأمم إلا على متون السيوف.

(١٠١) المكان: المكانة بمعنى القرب وارتفاع المنزلة؛ لأن الله تعالى منزّه عن المكان والجهة. ووجبت: ثبتت له من القدم؛ لأن الله تعالى علم الأشياء وأرادها أولاً فصارت واجبة، بمعنى أنها لم تتخلف أبداً، والخير محذوف في قوله «مكان» و«حرمة»: أي ثابتان.

(١٠٢) لسمر: جواب الشرط في البيت السابق. والطهر: الطاهر من أدران المعاصي، ووصف بالمصدر مبالغة. واللوحان: الصليب الذي أُعِدَّ له (عليه السلام). والمراد بالتسمير الصلب. لم يجم: لم يفزع.

(١٠٣) جلّ المسيح: تنزّه عما رماه به اليهود من كاذب التّهم وباطل الأقاويل، وعما زعموا من أنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبّهَ لَهُمْ﴾ وشأنه: مبغضه. وحرّك الرأى في قوله «والجرم» إتباعاً لحركة الجيم قبلها.

(١٠٤) أخو النبي: أي في الرسالة. روح الله: أي روح منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ وسُمّي روحاً لإحيائه الموتى بإذن الله، ولأنه نفخة من جبريل، قال تعالى: ﴿فَنفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، ونسبة النفخ إلى الله تعالى مجاز، و«من» في الآية للابتداء. فوق السماء: أي السماء الدنيا. محترم: صفة لقول «نزل» بضمّتين، وهو في الأصل المنزل، وما هيئ للضيف أن ينزل عليه.

(١٠٥) الذم: جمع ذمّة، وهي العهد والأمان، والحق.

(١٠٦) عمد: جمع عمود. وقَرَّ: ثبت ودعم، جمع دعام وهو عماد البيت، والدعم هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك، ويرتفع به شأن الأمم.

(١٠٧) الغرّ: جمع أغرّ: صفة لذي الغرّة، وهي بياض في الجبهة، والأعصر الغرّ: التي ساد فيها العلم وعمّت أسباب العدل. الدُّهم: المظلمة التي شاع في أهلها الجهل وفشا فيها الظلم.

ما زالت الغلبة للقوة، ولا زالت معتمد الدول ومستند الأمم، في رفع عماد الملك، وتثبيت دعامة الحكم، استوت في ذلك الأزمان السالفة التي يظنونها أزمان تأخر وتقهقر، والأيام الحاضرة التي يزعمونها أيام تقدّم وتنور. وفي البيت الطباق.

(١٠٨) اعتلت: علت.

(١٠٩) قاصمة: كاسرة: ومنقصم: منكسر. في هذا البيت مقارنة بين أهل الديانة المسيحية، وأهل الديانة الإسلامية، فذكر أن المتشيعين اليوم إلى الدين المسيحي «دين الهدوء والسلام» هم أهل القوة الحربية، الدائبون على إعداد المهلكات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا، ولم يبقَ لهم من شغل يشغلهم، إلا استخراج الذهب من بطون الأرض، وإنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتنوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يدمموا على الناس، ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم، حتى قاموا على تسخير الرياح، ليرموهم من فوق رؤوسهم بكل دهية، على حين أن أهل الديانة الإسلامية، الذين يتهمم الظالمون بحبِّ الفتوح والجهاد ويشينون سمعتهم بحبِّ الطعن والجلاد، والولوع في دماء العباد، هم القوم أهل السكينة والسلام، وهيئات أن يدانوا أهل الديانة المسيحية في حبِّ الفتوح والحروب، أو يشاكلوهم في ادخار آلات الحرب واستعداد معدات الكفاح. (١١٠) الهيجاء: الحرب. الرجم: النجوم التي يرمي بها. رجع إلى خطابه ﷺ وشبه أصحابه بالأسود؛ لما لهم من شجاعتهم وبأسهم. ورميه بهم: كناية عن نذبه إليهم للجهاد، وتقديمهم إلى مواطن الطعن والجلاد. والرمي بالرَّجم يكون للشياطين؛ ففيه استعارة مكنية، أي أنهم كالشياطين يرمون بالرَّجم.

(١١١) على لوائك: أي منصوب تحت لوائك. استعارة العلو للتحية استعارة تمليلية.

(١١٢) الاضطرام: توقد النار وتأججها. سابح: جواد، شبه حميتهم ونشاطهم في الحرب وجولاتهم فيها باضطرام النار: وهو توقدها، وتأججها، وأخذها يميناً وشمالاً، واستعار الاضطرام لذلك المعنى، ثم اشتق منه مضطرم، على سبيل التبعية.

(١١٣) يبغى: يريد. وشبه العزم بالسهم، بجامع المضاء والنفوذ في كل وشبه الدهر بذى رحال، بجامع التحول في كل، وحذف المشبه به، ورمز إليه بلازمه — وهو الرحال — على طريقة الاستعارة المكنية — لم يرم: لم ينتقل ولم يتحول.

(١١٤) مفاليل: الفل الثلم في السيف. والهندية: نسبة إلى الهند كانت مشتهرة بطبع السيوف. والخزم: جمع خزم، ككتف السيف القاطع. بيض: أي سيوف بيض. شبههم بالسيوف لإزهاقهم نفوس الأعداء وهو تشبيه بليغ. ومفاليل ترشيح للتشبيه بالسيوف. (١١٥) بالعهد: أي احتفاظاً بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرته للرسول. من: تفصيل الحال الرجل، أو تفصيل لمعنى «كم».

(١١٦) أشار في هذا البيت إلى أن ما ناله أصحاب الرسول ﷺ، من الفوز بالسعادة، وارتفاع الدرجة عند الله تعالى، إنما كان بما تقدم لهم من الفضائل، والبلاء في نصرة الدين، وتعرضهم للقتل والطعن في سبيل الله تعالى، ولولا ذلك ما كان لهم فضل على سائر الناس، ولا عدت درجاتهم منزلة غيرهم من العالمين.

(١١٧) الوشى: النقش.

(١١٨) حامت: عطف ومالت. ونهى: جمع نهية وهي العقل. والسلسل: الماء العذب.

(١١٩) نور السبيل: لأنها يهتدى بها إلى غاية النجاح والفلاح في الدنيا، والفوز والسعادة في الآخرة. وشباب الدهر والهرم: كناية عن أوله وآخره، أو عن حالتي إقباله وإدباره. وتكفلها بشباب الدهر.. إلخ: أي تكفلها بما يعلي أهلها، ويصلح من شأنهم على كل حال من الأحوال، بلا تغيير في أحكامها ولا تبديل لنصوصها.

(١٢٠) التمم: التام.

(١٢١) الحزم: جمع حزام.

(١٢٢) سرعان: اسم فعل، يستعمل خبرًا محضًا، وخبرًا فيه معنى التعجب يقال: سرعان ما فعل كذا: أي ما أسرعه. والنهل: أول الشرب، تقول: أنهلت الإبل إذا شربت من أول الورد. والسلسال: الماء العذب. والشيم: البارد.

(١٢٣) ساروا عليها: أخذوا بها وجروا على أحكامها. هداة الناس: أي حالة كونهم هادين للناس. فهي: أي الملة بهم: أي بسبب قيامهم بها ونشرهم لها.

(١٢٤) روما: هي المدينة المعروفة الآن بهذا الاسم، قاعدة لمملكة إيطاليا، وكانت في الزمن السابق قاعدة لمملكة الرومان المشهورة. وأثينا: قاعدة مملكة اليونان الآن، وكانت من أكبر مدن الأمة اليونانية في العصور السابقة. وبغداد: قاعدة الخلافة الإسلامية في دولة بني العباس، والتوم: جمع تومة، وهي الحبة من الفضة تُعمل على شكل الدرة.

(١٢٥) كسرى: لقب لكل من يلي ملك فارس. والنيران: لعله يريد بها نيران فارس، التي خبت ليلة مولد النبي ﷺ، وكان ذلك أيام كسرى أنوشروان. والأيم: الدخان.

(١٢٦) الهرم: الأهرام في مصر كثيرة وأشهرها أهرام الجيزة الثلاثة. وأكبرها أشهرها وأعجبها، حتى إذا ذُكرَ لفظ الهرم صُرفَ إليه، ورمسيس اسم بعض الفراعنة «ملوك مصر القدماء»، وقد تسمّى بهذا الاسم غير واحد منهم، ولعل الشاعر يريد أولئك الفراعين — على الجملة — الذين ينتسب مجدهم إلى مثل هذا العمل الخطير، وإن كان باني الهرم ليس رمسيس بعينه.

(١٢٧) دار السلام: بغداد. والسلم: التسليم.

(١٢٨) ملتأم: مجتمع. مختصم: بمعنى المصدر: أي اختصام. كما اشتهرت (روما) بقضاها وقوانينها قد اشتهرت بخطبائها وشعرائها، وكان من عادة الرومانيين أنهم إذا نزل بهم الأمر العظيم، نفروا إلى بعض أماكنهم العامة، فخطبهم الخطباء، وأنشدتهم الشعراء، الذين كان لفصاحة ألسنتهم في الناس تأثير عجيب، ومع هذا فما دانوا في قضائهم شأواً بغداد، التي كان يُقضى فيها بدين الله، وهو أجلُّ من أن يقاس به غيره، ويوازن به ما سواه، ولا بلغوا في فصاحتهم شأن فصحاء الدولة العباسية، الذين قالوا في كل باب، فهزُّوا النفوس وخببوا الألباب.

(١٢٩) الطراز: علم الثوب، والجيد من كل شيء. ولا احتوت على رشيد. إلخ، أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم. ورشيد: هو هارون الرشيد. ومأمون: هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور. ومعتصم: هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون.

(١٣٠) الكتائب: جمع كتيبة. وهي الجيش. والتخم، كعنق: جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود.

(١٣١) المحل: الجذب. والعدم: فقدان المال.

(١٣٢) خلافت الله: هذا قول مستأنف عام لجميع الخلفاء المتقدمين والمتأخرين وذكر الخلفاء الراشدين بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتماماً بشأنهم، وورعه، وتشبه بهم، واقتدائه في عبد العزيز (رضى الله عنه)، لشدة فضله وورعه، وتشبهه بهم. واقتدائه في حكومته بحكومتهم، فكان حقيقة أن يذكر فيهم، ويلحق بهم.

(١٣٣) المعدلة: العدل.

(١٣٤) الإمام: هو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ومآقي العيون: أطرافها مما يلي الأنوف، وهي مجاري الدمع.

(١٣٥) يقال: رجل ندب، أي خفيف في الحاجة سريع ظريف نجيب.

(١٣٦) بن عفان: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه). والفطم: جمع فطيم، وهو الصبي المفصول عن الرضاع.

(١٣٧) وجرح بالكتاب دمي: أي وجرح دمي به الكتاب، وقلب للمبالغة. وذلك أن قتلة عثمان (رضى الله عنه) دخلوا عليه الدار، وخطبوه بالسيوف وهو صائم والمصحف في حجره، وهو يقرأ فيه؛ فوقع المصحف من يده وسال الدم عليه.

- (١٣٨) يشير إلى حروب الردّة بعد وفاة النبي ﷺ، وانتصاره على المرتدّين.
- (١٣٩) يقول: ما ظنك بتلك المحن التي تنحرف بعمر (رضى الله عنه) عن الرشد وله ما تعلم من كمال الرشد، ووفور العقل، وصدق اليقين، وتذهله عن إدراك أمر من أظهر البديهيّات لديه، هو أن يدرك الموت رسول الله ﷺ.
- (١٤٠) وذلك أنه لما قبض رسول الله ﷺ، وقال الناس: مات رسول الله، أسرع عمر إلى سيفه وتوعد مَنْ يقول ذلك، وقال إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلما حضر أبو بكر، وأخبر الخبر، كشف عن وجه رسول الله ﷺ، ثم أكبّ عليه، فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجعل الله عليك موتتين، أمّا الموتة التي كتبت عليك فقد متها، ثم خرج إلى الناس، وقال: ألا مَنْ كان يعبد محمدًا فإنّ محمدًا قد مات، ومَنْ كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت.
- (١٤١) النخب: جمع نخب. وهو الرجل المختار.
- (١٤٢) الحلك (محرّكة): شدة السواد. والشمم في الأنف: ارتفاع القصبّة وحسنها، وهو هنا كناية عن الحميّة وشرف النفس. وأنف الحادّثات حمي: كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر.
- (١٤٣) هاله الأمر هولاً: أفزعه. والجلل، هنا: الأمر العظيم. والعمم: التام العام من كل أمر، يقال: أمر عمم، أي تام عام.
- (١٤٤) القحم: جمع قحمة بالضم، ومن معانيها، الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد، وهو المراد هنا.
- (١٤٥) لا يخفى ما في (حسن مختتم) من حسن الختام.

خاتمة رياض^١

برغمي أن أنالك بالملام^١
رأيت الحق فوقك والمقام^٢
خرجت من الوقار والاحتشام^٣
وقالوا: رمية من غير رام^٤
أردت المنعمين بالانتقام^٥
وهم غمروك بالنعم الجسام^٦
فكيف اليوم أصبح في الرغام؟^٧
صغيراً في ولائك، والخصام
فما لك في المواقف والكلام؟
أضيف إلى مصائبنا العظام
وجرحك منه — لو أحسست — دامي^٨
وما أغناك عن هذا الترامي^٩
وذا ثمن الولاء والاحترام
لعوباً بالحكومة والذمام^{١٠}

كبير السابقين من الكرام
مقامك فوق ما زعموا. ولكن
لقد وجدوك مفتوناً. فقالوا
وقال البعض: كيدك غير خاف
وقيل: شططت في الكفران، حتى
غمرت القوم إطرأ، وحمداً
رأوا بالأمس أنفك في الثريا
أما والله ما علموك إلا
إذا ما لم تكن للقول أهلاً
خطبت. فكنت خطباً — لا خطيباً —
لهجت بالاحتلال وما أتاه
وما أغناه عمّن قال فيه
أحببتك البلاد طویل دهر
حقرت لها زمماً كنت فيه

^١ قيلت بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ يونيو سنة ١٩٠٤.

لك الثمران: من حميد، وذام^{١١}
 يليقُ بحافل الماضي الهمام؟
 ويدعو الرابضين إلى القيام^{١٢}
 بأنك من مَشيبك في منام
 يُصمُّ عن الوشاية كالغرام
 كأنك بينهم داعي الحمام^{١٣}
 فقامت تزيدُ سهمًا في السهام؟^{١٤}
 لعرفان الحلال من الحرام؟
 فتذكره ودمعك في انسجام؟^{١٥}
 وسل دارًا على «نور الظلام»^{١٦}
 يُريك الحبَّ، أو باغي حُطام^{١٧}
 فكانوا عُصبةً في الاقتسام
 فنالوا منه أنواع المرام^{١٨}
 وأنت أصمُّ عن داعي الوئام^{١٩}
 سرائرهم عوامل الانقسام^{٢٠}
 أتى الكبراء أفعال الطغام^{٢١}
 ويا زمنَ النفاق، بلا سلام^{٢٢}
 وحبك في صميم القلب نامي^{٢٣}
 إذا ظهر الكرام على اللئام^{٢٤}
 أصدُّ الوجه، والدنيا أمامي
 فيصرفني الإباء عن الزحام^{٢٥}
 أشدَّ على العدو من الحسام^{٢٦}
 وفي التاريخ صفحة الاتهام
 ولا يُرجى سوى حسن الختام
 عرابي اليوم في نظر الأنام؟

محاسنُه غراسك والمساوي
 فهلأ قلت للشبان قولاً
 يُبثُّ تجارب الأيام فيهم
 خطبت على الشبيبة غير دار
 ولولا أن للأوطان حبًّا
 جنيت على قلوب الجمع يأسًا
 أراعك مقتل من مصر باق
 وهل تركت لك السبعون عقلًا
 ألا أنبيك عن زمن تولَّى
 سل «الحلمية» الفيحاء عنه
 وسل من كان حولك عبد جاه
 رأوا إرثًا سيذهب بعد حين
 ونالوا السمع من أذن كريم
 هم حزب، وسائر مصر حزب
 وكيف ينال عون الله قوم
 إذا الأحلام في قوم تولَّت
 فيا تلك الليالي، لا تعود
 أحبك مصر، من أعماق قلبي
 سيجمعني بك التاريخ يومًا
 لأجلك رحى بالدنيا شقيًا
 وأنظر جنة جمعت زئابًا
 وهبتك - غير هيا - يراعًا
 سيكتب عنك فوق ثرى رياض
 أفي السبعين، والدنيا تولَّت
 تكون - وأنت أنت رياض مصر -

هوامش

(١) الخطاب في هذا البيت لمصطفى رياض باشا، وكان قد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية، التي أنشأتها في الأسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤، وكان اللورد كرومر عميد الدولة المحتلة حاضراً هذا الافتتاح؛ فتملّقه الخطيب بكلام، كقربه نعمة مصر وأصحاب عرشها.

(٢) رأيت الحق فوقك والمقام: أي وفوق مقامك.

(٣) الوقار: الرزانة. والحلم والاحتشام: الاستحياء.

(٤) الكيد: المكر والخيث وإرادة ضرر الغير خفيّة. ورميّة من غير رام: يريد أنه لم يقصد الكيد بما قاله، وأصل المثل: رُبَّ رمية من غير رام، وهو يقال لمن يصيب في أمر وعادته أن يخطئ.

(٥) شططت: أفرطت.

(٦) غمرت القوم، من قولهم: غمرت فلاناً بالمعروف والفضل، أي بالغت في الإحسان إليه.

(٧) الثريا: سبعة كواكب في عنق البرج المعروف بالثور. والرغام (بفتح الراء): التراب.

(٨) لهجت بالاحتلال، من قولهم: لهج بالشيء، إذا أغري به فتأبر عليه. والدامي: الذي يسيل دمه.

(٩) وما أغناه.. إلخ: أي ما أغنى الاحتلال عنك، وما أغناك من أن تترامى على أصحابه بمثل ما قلت.

(١٠) حقرت (بفتح القاف مخففة): استصغرت. الزمام (بالزاي): ملك الأمر. والذمام (بالذال): الحقُّ والحرمة.

(١١) محاسنه: الضمير للزمام أي أنت الذي غرست ما لهذا الزمام من المحاسن والمساوئ، فلك ما يثمر من حمدٍ وذمٍ.

(١٢) يبتُّ: ينشر ويذيع. والتجارب: جمع تجربة، وهي اختبار الشيء مرّة بعد مرّة والرابضين: جمع رابض، وهو مَنْ يأوي إلى المكان فلا يفارقه.

(١٣) يقول: لولا أن الذين سمعوك يحبُّون بلادهم حبّاً يمنعهم من القعود عن العمل لإنقاذها من الاحتلال، لأصابهم اليأس والقنوط بسبب كلامك.

(١٤) أراعك: أي أفزعك. والمقتل: العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.
يقول: هل أفزعك أن رأيت بعض مقاتل مصر سليمة لم تصب فزدت سهماً ليصيبها.
(١٥) أنبيك: أخبرك. والانسجام: سيلان الدمع.
(١٦) الحلمية: حيٌّ من أحياء القاهرة. ونور الظلام: اسم شارع بهذا الحي فيه
دار رياض.

(١٧) الباغي: الطالب. والحطام: المال، قلٌّ أو كثر.
(١٨) رجل أذن (بضم الذال): إذا كان يسمع مقال كل أحد ويقبله.
(١٩) الوثام: الوفاق.
(٢٠) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف السخي.
(٢١) الأحلام: العقول. والطغام (بفتح الطاء): أوغاد الناس.
(٢٢) بلا سلام: أي اذهب بلا سلام.
(٢٣) في صميم القلب: أي في القلب. والصميم: الخالص من الشيء.
(٢٤) إذا ظهر الكرام على اللئام: أي إذا غلبوهم.
(٢٥) الإباء: الكبر والنخوة.
(٢٦) اليراع: القلم. والحسام: السيف.

ضجيج الحجيج^١

واستصرخت ربّها في مكّة الأمّ^١
خليفة الله، أنت السيد الحكم
الشريف عليها أم لك العلم؟^٢
إن أنت لم تنتقم فالله مُنتقم
تُسبى النساء. ويؤذى الأهل والحشم؟
وتستباح بها الأعراض والحرم؟^٣
ونعّله — دون ركن البيت — تُستلم^٤
مبالغ فيه. و«الحجاج» مُتّهم^٥
في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
بين البغاة وبين المصطفى رجم^٦
وفيه نخوته، والعهد، والشمم^٧
آل النبي بأعلام الهدى ختموا^٨
لسدّة الله هل ترقى لك «الكلم»^٩
واليوم يوشك هذا الركن ينهدم^{١٠}

ضجّ الحجاز، وضجّ البيت والحرم
قد مسّها في حماك الضّر، فاقض لها
لك الربوع التي ريع الحجيج بها
أهين فيها ضيوف الله. واضطهدوا
أفي الضحى — وعيون الجند ناظرة —
ويسفك الدم في أرض مقدّسة
يد الشريف على أيدي الولاة علت
«نيرون» إن قيس في باب الطّغاة به
أدّبه أدب — أمير المؤمنين — فما
لا ترج فيه وقارًا للرسول. فما
ابن الرسول فتى فيه شمائله
ما كان طه لرهط الفاسقين أبًا
خليفة الله. شكوى المسلمين رقت
الحج ركن من الإسلام نُكبره

^١ رُفِعَتْ إلى السلطان عبد الحميد استصراخًا من الشريف وأعوانه في ١٤ إبريل سنة ١٩٠٤.

نُعْمَى الزيادة ما لا تفعل النقم
فَمَنْ أَرَادَ سَبِيلًا فَالطَّرِيقُ دَمٌ^{١١}
وَبَاتَ مُسْتَأْمِنًا فِي قَوْمِهِ الصنَمِ^{١٢}
مِنْهُ الْعَهْدُ أَتَتْ لِلنَّاسِ وَالذَّمُّ^{١٣}
وَأَحْمَرُ فِيهِ الْحُمَى وَالْأَشْهُرُ الْحَرَمُ^{١٤}
الدَّاعِيَاتُ وَقَرَّبَ اللَّهُ مُغْتَنَمٌ^{١٥}
مِنْ حَوْلِهِنَّ النَّوَى وَالْأَيْنُ الرَّسْمُ^{١٦}
فَدَمْعُهُنَّ مِنَ الْحَرَمَانِ مَنْسَجَمٌ^{١٧}
تَوَدَّى بِأَيْسَرِهَا الدُّوَلَاتُ وَالْأُمَمُ^{١٨}
وَلَوْ جَرَى لِبَكْيٍ وَاسْتَضْحَكَ الْقَلَمُ^{١٩}
وَقَدْ يَرُوقُ الْعَمَى لِلْحَرِّ وَالصَّمَمُ^{٢٠}
فَلَيْسَ تَكْتُمُهُمْ مَا لَيْسَ يَنْكُتُمُ^{٢١}
أَنْ يَعْلَمَ الشَّامِتُونَ الْيَوْمَ مَا عُلِمُوا
يَدُ الْعَدُوِّ فَتَمَّ الْجُرْحُ وَالْأَلَمُ
إِذَا أَسَاها لِسَانٌ لِلْعَدَى وَفَمُ

من الشريف ومن أعوانه فعلت
عزَّ السبيلُ إلى طه وتربته
محمَّدٌ رُوِّعَتْ فِي الْقَبْرِ أَعْظَمُهُ
وَحَانَ «عَوْنُ الرَّفِيقِ» الْعَهْدُ فِي بَلَدٍ
قَدْ سَالَ بِالْدَمِ مِنْ ذُبْحٍ وَمِنْ بَشَرٍ
وَفَزَعَتْ فِي الْخَدُورِ السَّاعِيَاتُ لَهُ
أَبَتْ ثِكَالِي أَيَّامِي بَعْدَمَا أَخَذْتُ
حُرْمَنْ أَنْوَارِ خَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ كُتُبِ
أَيِّ الصِّغَائِرِ فِي الْإِسْلَامِ فَاشِيَةِ
يَجِيئُ صَدْرِي، وَلَا يَجْرِي بِهَا قَلَمِي
أَغْضَيْتُ ضَنْأًا بَعْرُضِي أَنْ أَلَمَ بِهِ
مَوَّهُ عَلَى النَّاسِ، أَوْ غَالَطَهُمْ عِبْتُ
مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْبَلَوَى وَإِنْ عَظُمَتْ
كُلُّ الْجِرَاحِ بِأَلَامٍ، فَمَا لِمَسْتُ
وَالْمَوْتَ أَهْوَنُ مِنْهَا وَهِيَ دَامِيَّةٌ

بِهَا الذَّنْبُ، وَضَلَّ الرَّاعِي الْغَنَمُ^{٢٢}
وَالظُّلْمُ تَصَحَّبُهُ الْأَهْوَالُ وَالظُّلَمُ^{٢٣}
وَفِتْنَةٌ فِي رَبْوَعِ اللَّهِ تَضْطَرُّمُ^{٢٤}
وَقَسَّموها كِارِثِ الْمَيْتِ، وَانْقَسَمُوا^{٢٥}
فِي الْحِلْمِ مَا يَسْمُ الْأَفْعَالُ أَوْ يَصِمُ^{٢٦}
وَمَا يَحَاوُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا الْعَجْمُ^{٢٧}
مَنَاهَلُ عَذْبَتِ اللَّقُومِ، فَآزِدْهُمْ^{٢٨}
وَفَوْقَ كُلِّ مَكَانٍ يَابِسٍ قَدَمُ^{٢٩}
مَعَ الْعِدَاةِ عَلَيْهَا، فَالْعِدَاةُ هُمْ
فَإِنَّ لِلْسَيْفِ يَوْمًا، ثُمَّ يَنْصَرِمُ^{٣٠}

رَبَّ الْجَزِيرَةِ، أَدْرَكْهَا، فَقَدْ عَبَثْتُ
إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا أَمْرَهَا ظَلَمُوا
فِي كُلِّ يَوْمٍ قَتَالَ تَقَشَّعَرُّ لَهُ
أَزْرَى الشَّرِيفُ وَأَحْزَابُ الشَّرِيفِ بِهَا
لَا تَجْزُهُمْ عَنْكَ حِلْمًا، وَأَجْزَهُمْ عَنْتًا
كَفَى الْجَزِيرَةَ مَا جَرُّوا لَهَا سَفْهًا
تِلْكَ الثَّغُورُ عَلَيْهَا — وَهِيَ زَيْنُهَا —
فِي كُلِّ لَجٍّ حَوَالِيهَا لَهُمْ سَفْنٌ
وَالْأَهْمُ أَمْرَاءُ السَّوَى. وَاتَّفَقُوا
فَجَرَّدَ السَّيْفُ فِي وَقْتٍ يُفِيدُ بِهِ

هوامش

- (١) ضَجَّ: فزع من شيء خافه فصاح. الربوع: جمع ربع، وهو الدار.
- (٢) والحجيج: جمع الحاج.
- (٣) الحرم: جمع حرمة، وهي ما لا يحل انتهاكه.
- (٤) تستلم: من استلام الحجر وركن البيت الحرام وغيره، وهو لمسه باليد أو بالقبلة.
- (٥) نيرون: طاغية روماني قديم. والحجاج: طاغية عربي كان والياً على العراق لعبد الملك بن مروان أحد الخلفاء الأمويين.
- (٦) لا ترَجُ: لا تخف، من رجا، بمعنى خاف. والوقار هنا: العظمة. وفي القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أي لا تخافون الله عظمة.
- (٧) الشمائل: جمع شمال بكسر الشين وهو الطبع. والنخوة. الحماسة والمروءة. والعهد: الوفاء والأمانة. والشمم: التكبر.
- (٨) طه: من أسماء النبي ﷺ. والرَّهط: من ثلاثة إلى عشرة. ولا تكون فيهم امرأة.
- (٩) رقت: صعدت. والكلم، اسم جنس جمعي لكلمة.
- (١٠) نكبه: نعظمه، ويوشك: يقارب.
- (١١) عزَّ السبيل، من قولهم عزَّ الشيء، إذا قلَّ فلا يكاد يوجد ولا يقدر عليه.
- (١٢) الصنم: صورة أو تمثال يتَّخذ للعبادة، وقيل: هو كل ما عُبد من دون الله.
- (١٣) عون الرفيق: اسم الشريف الذي اقترب تلك المظالم. والذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان.
- (١٤) الأشهر الحرم، أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ سميت كذلك لأن العرب كانت تجعل القتال فيها حراماً: ما عدا بني خثعم وطيء. والضمير في (سال) و(فيه): للبلد في البيت المتقدم. واحمرار الحمى والأشهر الحرم: كناية عن اقترافه القتل فيهما.
- (١٥) فزعت: خوفت. والحدور: البيوت. والساعات له: أي لذلك البلد.
- (١٦) الثكالي: جمع ثكلى: وهي مَنْ فقدت ولدها، والأيامى: جمع أيم، وهي من لا زوج لها. والنوى: البعد. والأنيق: جمع ناقة. والرسم: جمع رسوم، وهي الناقة تؤثر أخفافها في الأرض من شدة الوطء.
- (١٧) من كُتب: أي من قرب. والمنسجم: السائل.

(١٨) الصغائر: جمع صغيرة، وهي من الذنوب أخفُّ من الكبيرة في حكم الشرع. وتودي: تهلك. والدولت جمع دولة.

(١٩) يجيش صدري: يغلي غيظاً. استضحك: بمعنى ضحك.

(٢٠) أغضيت: أي صبرت وأمسكت. وضناً: بخلاً. وألَمَّ به: أي بما يؤذيه، من قولهم: ألَمَّ بالذنب إذا فعله. ويروق العمى: من راقه الشيء أعجبه.

(٢١) مؤه على الناس: أي زخرف لهم الأخبار وزوَّرها عليهم.

(٢٢) ربُّ الجزيرة: أي صاحب الجزيرة، وهي جزيرة العرب.

(٢٣) الأهوال: جمع هول، وهو المخافة من الأمر لا يعرف الإنسان ما يهجم منه. والظلم: جمع ظلمة.

(٢٤) تضطرم: تشتعل.

(٢٥) أزرى بها: تهاون.

(٢٦) العنت: الشدة والهلاك. وما يسم: أي ما يكون سمه وعلامة. وما يصم: أي ما يكون وصمة وعيباً.

(٢٧) العجم، هنا: أهل الغرب، ممَّن كانوا يحفدون على الدولة التركية وجودها.

(٢٨) المناهل: جمع منهل، وهو المورد. والمراد بالقوم: أولئك العجم.

(٢٩) اللج: معظم الماء.

(٣٠) جرَّد السيف: سلَّه. وينصرم: يمضي.

استقبال

يا راکبَ الریح، حیَّ النیلَ والهَرَمَا
وقفَ علی أثرِ مرِّ الزمانُ به
واخفض جناحک فی الأرض التي حَمَلَتْ
وأخْرَجَتْ حکمةَ الأجيالِ
وَشُرِفَتْ بملوکِ طالما اتَّخَذُوا
هذا فضاءً تَلِمَ الریحُ خاشعَةً
فمرحبًا بکما من طالعین به
وعظَّم السَفَح من سیناء، والحرما^١
فکان أثبتَ من أطوايه قِمما^٢
موسی رُضیعًا، وعیسی الطهر منقطما^٣
وبیَّنت للعبادِ السیفَ والقِلما^٤
مطیَّهم من ملوک الأرض والخدما^٥
به. ويمشی علیهِ الدَّهرُ محتشما^٥
علی سوی الطائر المیمونِ ما قِدا^٦

* * *

عاد الزمانُ، فأعطی بعدما حَرَمَا
فیارعی اللهُ وفدًا بین أعیننا
هم أقسموا لتَدینن السماءَ لهم
والناسُ باني بناءٍ، أو مُتَمَّمُهُ
تعاونُ لا یحلُّ الموتُ عُزَّوتَهُ
وتاب فی أُنَّ المحزونِ، فابتسما^٧
ویرحم الله ذاک الوفد ما رَحِمَا^٧
والیوم قد صدَّقوا فی قبرهم قسما^٨
وثالث یتلافی منه ما انهَدَمَا^٩
ولا یُری بیَدِ الأرزاءِ منقصما^٩

* * *

یا صاحِبِی (أدرمید)، حسبُها شرقًا
وأنها جاوزتْ فی القدس منطَقَةً
مشت علی أفقٍ مرَّ البَراقُ به
أن الریاحَ إليها أَلقت اللُّجما^{١٠}
جری البساطُ فلم یجتز لها حرما^{١١}
فقبِلتْ أثرًا للَخَفِ مُرتِسما^{١٢}

ومسّحت بالمُصَلَّى، فاكتست شرفاً
وكَلَّمَا شاقها حادٍ على أفق
جشمتماها من الأهوال أربعةً
حتى حوتها سماءُ النيل فانحدرت

وبالمغار المعلّى، فاكتست عِظماً^{١٣}
كانت مزاميرُ داودَ هي النغما^{١٤}
الرعدُ، والبرقُ، والإعصارُ، والظلما^{١٥}
كالنسر أعيا، فوافى الوُكُزُ، فاعتصما^{١٦}

* * *

يا آل عثمانَ أبناءَ العمومةِ. هل
إذا حزنتم حزناً في القلوب لكم
وكم نظرنا بكم نَعْمَى فجسّمها
ونبذل المال لم نُحَمَل عليه، كما
صبراً على الدَّهر إن جَلَّت مصائبُه
إذا المقاتلُ من أخلاقهم سلمتُ
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
نمتم على كلِّ ثارٍ لا قرار له
فنال من سيفكم من كان ساقِيه
قال العذولُ: خرجنا في مَحَبَّتكم
فما على المرء في الأخلاق من حرج
ولو وهبتم لنا عُلَيَا سيادتكم
نحنو عليكم، ولا ننسى لنا وطنًا
هذي كرائمُ أشياءِ الشعوب، فإن

تشكون جرحًا ولا نشكو له ألما؟^{١٧}
كالأمِّ تحملُ من همِّ ابنها سَقما
لنا السرورُ، فكانت عندنا نِعما^{١٨}
يقضي الكريمُ حقوقَ الأهل والذِّمما^{١٩}
إن المصائبُ مما يُوقِظُ الأمما
فكلُّ شيءٍ على آثارها سلما
فإن تَوَلَّت مضوًا في إثرها قُدما^{٢٠}
وهل ينامُ مُصِيبٌ في الشعوب دما؟
كما تنالُ المُدامُ الباسلَ القَدما^{٢١}
من الوقارِ، فيا صدقَ الذي زعما
إذا رعى صِلَّةً في الله، أو رَحِمَا
ما زادنا الفضلُ في إخلاصنا قدما
ولا سريرًا، ولا تاجًا، ولا عِلما
ماتت فكلُّ وجود يشبهُ العَدما

هوامش

- (١) السفح: عرض الجبل المضطجع. والحرَم: ما لا يحلُّ انتهاكه.
- (٢) الأطواد: الجبال. والقمم: واحدها قمة، وهي أعلى كل شيء.
- (٣) الحكمة: صواب الأمر وسداده. والأجيال: جمع جيل، وهم أهل الزمن الواحد. والخالدة: الدائمة الباقية.
- (٤) طالما اتَّخذوا مطاياهم وخدمهم من ملوك الأرض، أولئك هم ملوك مصر الأقدمون، حين كانوا يأسرون في حروبهم ملوك الأقطار الأخرى.

- (٥) المحتشم: المستحي.
- (٦) على الطائر الميمون: مأخوذ من قولهم في الدعاء للمسافر: سر على الطائر الميمون.
- (٧) كانت الدولة العليّة قد ندبت للقيام برحلة جوية بين الآستانة والقاهرة اثنتين من ضبّاطها الطيارين؛ فسقطت طيارتهما في الطريق وماتا، فندبت الدولة غيرهما، فوصلا سالمين وإلى هذا يشير بالوفدين في البيت.
- (٨) لتدينن: أي لتخضعن وتذلّن.
- (٩) العروة: كل ما يوثق به. والمنفصم: المنقطع
- (١٠) أدرميد: اسم الطائرة التي ركبها إلى مصر.
- (١١) القدس: مدينة بيت المقدس في الشام. والبساط: هو بساط سليمان (عليه السلام). وفي التاريخ الديني: أنه كان يتّخذ مع الريح بساطاً يجريه حيث يشاء.
- (١٢) البراق في اللغة الدينية: دابة كان يركبها الأنبياء، وقد ركبها النبي محمد ﷺ ليلة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس. والخفّ: أي خفّ الرسول ﷺ، ويقال: إن أثره مرتسم هناك.
- (١٣) المصلى: مكان الصلاة. والمغار — بفتح الميم وضمها —: الكهف. والمعلّى: المرفوع.
- (١٤) شاقها: هاجها وشوّقها. والحادي: سائق الإبل الذي يغني لها. ومزامير داود: ما كان يرتله في صلاته من الأنشيد والترانيم.
- (١٥) جشمتماها: كلّفتمهاها. والأهوال: جمع هول، وهو المخافة من أمر لا يُعرَف ما ينجم منه على الإنسان. والإعصار: ريح بتراب بين السماء والأرض، أو تستدير كأنها عامود. و«الظلم»: جمع ظلمة.
- (١٦) حوتها: أي حازتها. وانحدرت: هبطت. والنسر طائر من الجوارح وكلها تخافه، وهو حادّ البصر، وأشدُّ الطيور ارتفاعاً، وأقواها جناحاً. وأعيا: تعب. ووافى الوكر: أتاه، والوكر: عشُّ الطائر أينما كان في شجر أو في غيره. فاعتصم به: أي لزمه.
- (١٧) العمومة. مصدر من العمّ. كالحؤولة من الخال.
- (١٨) النُعمى: ما أنعم به.
- (١٩) الذم: جمع ذمّة، وهي العهد.
- (٢٠) القدم (بضم القاف والdal): أي يمضي الإنسان فلا يعرج على شيء ولا ينتني.

الشوقيات

(٢١) المدام: الخمر. والياسل: البطل الشجاع. والقدم (بفتح القاف والdal): الشجاع
أيضًا.

أرسططاليس وترجمانه^١

وهديتَ بالنَّجمِ الكريمِ	عَلَّمَتَ بالقلمِ الحكيمِ
بأرسططاليسِ العظيمِ	وَأُتِيَتْ مِنْ مُحَرَّابِهِ
لنَهايةِ المَلِكِ الجسيمِ	مَلِكِ العَقولِ، وإِنِها
نَا، وابنِ بَرَقِينِ الحكيمِ ^١	شَيْخُ ابنِ رَشَدٍ، وابنِ سَيِّدِ
ح، وكانَ في رُشْدِ الكليمِ	مَنْ كانَ في هَدْيِ المَسِيحِ
قَبْلَ البَيِّنَةِ والحَطِيمِ ^٢	وَعِدا وَراحَ مَوْحِداً
بِالجاهليةِ والهَزيمِ ^٣	صَوْتَ الحَقِيقَةِ بَينَ رَعِ
مَ وَبَينَ طُغَيانِ المَسيمِ ^٤	ما بَينَ عَاديَةِ السَّوَا
رَ بَناءِ جَبَّارِ رَحيمِ	يَبْنِي الشَّرائِعَ لِلعَصو
أَجيالِ تَفصِيلِ اليَتيمِ ^٥	وَيَفصِّلُ الأخلاقَ لِلـ
قَ مِنْ المَذاهِبِ مَسْتَقِيمِ ^٦	فِي واضِحِ لَحَبِ الطَريقِ
فَ إِذا تَمَشَّتْ فِي النَدِيمِ	وَرِسائِلِ مِثْلِ السُّلَا
كَرَ بِالمَذاقِ، وبِالشَّميمِ	قَدسيَةِ النَفحاتِ، تُسـ

^١ ترجم الأستاذ أحمد لطفي باشا السيد كتاب أرسططاليس في علم الأخلاق إلى العربية؛ فكتب إليه صاحب الديوان هذه التهنئة.

* * *

يا لطف، أنت هو الصدى	من ذلك صوت الرخيم
أرجُ الرياضِ نقلته	ونسخته نَسَخَ النسيم
وسريت من شعبِ الألف	بِ به إلى وادي الصريم ^٧
فتجارت اللغتان للـ	غايات في الحسب الصميم
لغة من الإغريق قيـ	مة، وأخرى من تميم
وأتيَتنا بمُفَصِّل	بالتبر، علويّ الرقيم
هو ضنة المثيري من الـ	أخلاق، أو مالُ العديم ^٨

* * *

مَشَاءَ هذا العصر، قف	حدّث عن العُصر القديم ^٩
مَثَلٌ لنا اليونان بيـ	نَ العلم والخُلق القويم
أخلاقها نورُ السبيـ	لِ، وعلمها نورُ الأديم
وشبابُها يتعلمو	ن على الفراقد والنجوم
لمسوا الحقيقة في الفنـ	ن، وأدركوها في العلوم
حلّت مكانًا عندهم	فوق المعلم والزعيم ^{١٠}
والجهلُ حظُّك إن أخذ	تَ العلم من غير العليم
ولربّ تعليم سرى	بالنِشء كالمرضِ المُنيم ^{١١}
يتلبّسُ الحُلمُ اللذيـ	ذُ عليه بالحُلمِ الأليم
ومدارس لا تُنهض الـ	أخلاق دارسة الرسوم
يمشي الفسادُ بنبتـ	مشي الشرارة بالهشيم
لمّا رأيتُ سوادَ قـو	مي في دُجى ليلٍ بهيم
يُسَقَوْنَ من أُمِّيَّة	هي غُصّة الوطن الكظيم
وسرائرهم في مُقعـد	من مطلبِ الدنيا مُقيم
يَسَعُونَ للجاه العظيـ	م، وليس للحق الهضم
وبصُرْتُ بالدستور يُزـ	هق وهو في عُمر الفطيم
لم يَنجُ من كيدِ العدو	له، ومن عبثِ الحميم

أَيَقْنَتُ أَنْ الْجَهْلَ عِلٌّ	لَهُ كُلُّ مَجْتَمَعٍ سَقِيمٍ
وَأَتَيْتُ - يَا رَبَّ النَّثِيبِ	رِ - بِمَا تُحِبُّ مِنَ النُّظْمِ
أَجْزِ اجْتِهَادِكَ فِي جَنِي	الثَّمَرَاتِ لِلنَّشْأِ النَّهِيمِ ^{١٢}
مِنْ رَوْضَةِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ	ح، وَرَبْوَةِ الْأَدَبِ السَّلِيمِ
الْعَاشِقِينَ الْعِلْمَ، لَا	يَأْلُونَهُ طَلَبَ الْغَرِيمِ
الْمُعْرِضِينَ عَنِ الصَّغَا	ثَر، وَالسَّعَايَةِ، وَالنَّمِيمِ

قَسَمًا بِمَذْهَبِكَ الْجَمِي	لِ، وَوَجْهَ صُحْبَتِكَ الْقَسِيمِ
وَقَدِيمِ عَهْدٍ، لَا ضَائِي	لِ فِي الْوُدَادِ، وَلَا ذَمِيمِ
مَا كُنْتَ يَوْمًا لِلْكِنَا	نَةِ بِالْعَدُوِّ وَلَا الْخَصِيمِ
لَمَّا تَلَا حَى النَّاسُ لَمْ	تَنْزِلْ إِلَى الْمَرْعَى الْوَحِيمِ ^{١٣}
كَمْ شَاتِمٍ قَابِلَتَهُ	بِتَرْفَعِ الْأَسَدِ الشَّتِيمِ ^{١٤}
وَشَغَلَتْ نَفْسَكَ بِالْخَصِي	بِ مِنْ الْجَهْدِ عَنِ الْعَقِيمِ
فَخَدَمْتَ بِالْعِلْمِ الْبَلَا	دَ، وَلَمْ تَزَلْ أَوْفَى خَدِيمِ ^{١٥}
وَالْعِلْمُ بِنَاءُ الْمَا	ثَرِ وَالْمَمَالِكِ مِنْ قَدِيمِ
كَسَرُوا بِهِ نِيرَ الْهَوَا	نِ، وَحَطَّمُوا ذُلَّ الشَّكِيمِ

هوامش

- (١) برقين: بلدة المترجم لطفى باشا السيد.
- (٢) البنية: الكعبة.
- (٣) الهزيم: صوت الرعد.
- (٤) السوام: المرعية. والمسيم: الراعي.
- (٥) اليتيم: اللؤلؤ.
- (٦) الطريق اللحب: الواسع.
- (٧) الألب: جبل من جبال اليونان. والصريم: وادٍ من أودية العرب.
- (٨) الضنة: الشيء الذي يضرُّ به.

الشوقيات

- (٩) المشاءون: تلاميذ أرسططاليس.
- (١٠) هذه إشارة إلى قول أرسططاليس المشهور: أفلاطون حبيب إليّ ولكنّ الحقيقة أحبُّ إليّ منه.
- (١١) المرض المنيم: المنوم.
- (١٢) النهيم: الذي لا يشبع.
- (١٣) تلاحى الناس: تلاعنوا.
- (١٤) الشتيم: العابس.
- (١٥) الخديم: الخادم.

شهيد الحق^١

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ؟ إِلَّا مَا؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
وَأَيْنَ الْفُورُ لَا مَصْرُ اسْتَقَرَّتْ
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لَمَّا
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغُنْمًا
وَتَقْتُمْ وَاتَهَمْتُمْ فِي اللَّيَالِي
شَبَبْتُمْ بَيْنَكُمْ فِي الْقَطْرِ نَارًا
إِذَا مَا رَاضَهَا بِالْعَقْلِ قَوْمٌ
تَرَامَيْتُمْ، فَقَالَ النَّاسُ: قَوْمٌ
وَكَانَتْ مَصْرُ أَوَّلَ مَنْ أَصَبْتُمْ
إِذَا كَانَ الرِّمَاءُ رِمَاةً سَوْءٍ
أَبْعَدَ الْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَصَفَّ

وهذي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى علما؟
وَتُبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَا؟
على حالٍ، ولا السُّودَانُ داما؟
ركبتم في قضيته الظلاما؟
وكان شعارها الموتَ الزُّؤاما
فلا ثَقَّةً أَدْمَنَ، ولا اتهاما
على مُحْتَلٍّ كَانَتْ سَلَامَا
أَجَدَّ لَهَا هَوَى قَوْمٍ ضِرَامَا
إِلَى الْخِذْلَانِ أَمْرُهُمْ تَرَامَى
فلم تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلَا الْكِلَامَا^١
أَحَلُّوا غَيْرَ مَرْمَاهَا السَّهَامَا
كَأَنْيَابِ الْغَضَنْفَرِ لَنْ يُرَامَا

^١ نظمها صاحب الديوان بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير وموقف بعض الزعماء حياله، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى فقيد البلاد المرحوم مصطفى كامل فوفاه حقّه، واستطرد من ذلك إلى البحث فيما تحتاج إليه البلاد من وسائل الإصلاح.

تباغيتكم كأنكم خلايا من السرطان لا تجد الضمما^٢؟
أرى طيَّارهم أوفى علينا وحلَّق فوق رؤسنا وحاما
وأنظر جيشهم من نصف قرن على أبصارنا ضرب الخياما
فلا أمناؤنا نقصوه رمحا ولا خواننا زادوا حساما
ونلقى الجوّ صاعقة ورعدا إذا قصر الدبارة فيه غاما
إذا انفجرت علينا الخيلُ منه ركبنا الصمت، أو قُذنا الكلاما^٣
فأبنا بالتخاذل والتلاحي وآب بما ابتغى منا وراما^٤

* * *

ملكنا مارن الدنيا بوقت فلم نحسن على الدنيا القياما^٥
طلعنا - وهي مقبلة - أسودا ورحنا - وهي مدبرة - نعاما
ولينا الأمر حزبا بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا ولم نعد الجزاء والانتقاما
وسسنا الأمر حين خلا إلينا بأهواء النفوس، فما استقاما
إذا التصريح كان براح كفر فلم جن الرجال به غراما^٦؟
وكيف يكون في أيّد حلالا وفي أخرى من الأيدي حراما؟
وما أدري غداة سقيتموه أترياقا سقيتم، أم سماما^٧؟

* * *

شهيد الحق، قم تره يتيما بأرض ضيّعت فيها اليتامي
أقام على الشفاه بها غريبا ومروا على القلوب، فما أقاما^٨
سقيمت، فلم تبث نفس بخير كأن بمهجة الوطن السقاما
ولم أر مثل نعشك إذ تهادى فغطى الأرض، وانتظم الأناما^٩
تحمل همّة، وأقلل دينّا وضم مروءة، وحوى زماما^{١٠}
وما أنساك في العشرين لما طلعت جبالها قمرا تاما
يشار إليك في النادي وتزمرى بعيني من أحب ومن تعامى
إذا جئت المنابر كنت قسا إذا هو في عكاظ على السناما^{١١}
وأنت ألد للحق اهتزازا وألطف حين تنطقه ابتساما

وتحملُ من أديمِ الحقِّ وجهًا
أتذكر قبل هذا الجيل جيلًا
مِهارُ الحقِّ بغَضْنا إليهم
لواؤُك كان يسقيهم بجام
من الوطنية استبقوا رحيقًا
غرسنا كَرْمَها، فزكا أصولًا
جمعتهم على نبراتِ صوتٍ
لك الخُطْبُ التي غَصَّ الأعادي
فكانت في مرارتها زائيرًا
بك الوطنية اعتدلتْ، وكانت
بنيت قضيَّةَ الأوطان منها
هزّزت بني الزَّمان به صبيًا
صُراحًا، ليس يتَّخذ اللُّثامًا^{١٢}
سهرنا عن معلمهم وناما؟^{١٣}
شكيمَ القيصريَّة واللباما^{١٤}
وكان الشعرُ بينَ يدَيَّ جاما^{١٥}
فضضنا عن مُعْنَقِها الختامًا^{١٦}
بكلِّ قَرارةٍ، وزكا مُداما^{١٧}
كنفخ الصُّور حرَّكت الرِّجاما^{١٨}
بسُورَتِها، وساعت للندامى^{١٩}
وكانت في حلاوتها بُغامًا^{٢٠}
حديثًا من خرافة أو مَناما^{٢١}
وصيَّرت الجلاءَ لها دِعاما^{٢٢}
ورُعتَ به بني الدُّنيا غلاما

هوامش

- (١) الكلام (بكسر الكاف): الجروح.
- (٢) الضمام: ما ضمنت به شيئاً آخر. والسرطان: ورم سوداوي تظهر عليه عروق حمرة وخضرة متشعبة.
- (٣) ركبنا الصمت: أي وجدناه خيرًا. وقدنا الكلام: استرسلنا فيه.
- (٤) التلاحي: التلاعن والتلاوم.
- (٥) المارن: الأنف أو ما لان منه، والمراد بمارن الدنيا: ذروتها وأعلاها.
- (٦) البراح: الصراح، والتصريح: تصريح ٢٨ فبراير، يشير إلى موقف بعض الزعماء منه.
- (٧) السمام: جمع سَمٍّ. والترياق: ما يدفع السموم من الدواء.
- (٨) أي تلفظه الأقواه ولا تحسُّ به القلوب.
- (٩) تهادى: تمايل على الأعناق.
- (١٠) زمام القوم: مقدّمهم وصاحب أمرهم.
- (١١) قسُّ: هو قسُّ بن ساعدة الإيادي، ويُضَرَّبُ به المثل في بلاغة الخطباء، ويروى عنه أنه كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر بعير.

- (١٢) الأديم: الوجه والصفحة.
- (١٣) سهرنا عن معلمهم: أي تركنا هذا المعلم ينام، وقمنا نحن على تهذيبهم وإنشائهم.
- (١٤) المِهَار: جمع مهر، والمراد بالمِهَار هنا الشباب. والشكيم: جمع شكيمة، وهي من اللجام حديدة تعترض فم الفرس، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها: قسوة الاحتلال وجبروته.
- (١٥) الجام: إناء من فضة. والمعنى: أنك كنت تغذوهم بما كنت تنشر عليهم من لوائك من ثمر الأدب، وكنت أنا أيضًا أغذوهم بما أُرْجِي لهم من زهور الشعر والبيان.
- (١٦) استبقوا الرحيق: تسابقوا إليه. والرحيق: الخمر. والمعتق: القديم، وقَدَم الخمر يحسّنها ويزيد لذة شاربها. وفضضنا الختام: فتحناه.
- (١٧) الكرم: العنب. وزكا: نما. والمدام: الخمر.
- (١٨) الرجام: القبور.
- (١٩) السورة: الحدة والشدة. وغصّ بالشيء: اعترض في حلقه فمنعه التنفّس.
- والمراد بغصّة الأعادي: غضبهم. والندامى: جمع ندمان وهو نديم الشّراب، والمراد بهم الشيعة والأصدقاء.
- (٢٠) البغام: صوت الظبي.
- (٢١) خرافة: رجل عذري اختطفته الجن فيما زعموا، ثم رجع إلى قومه، وأخبر بما رأى منها؛ فكذبوه، وأصبح حديثه مثلاً لكل حدث باطل.
- (٢٢) الدِعام: العماد.

تحية للترك

فما رقادُكم يا أشرف الأُمم؟
وهذه ضجعةُ الأسد في الأجم^١
والفتح يعترض الدُّولات بالتَّخَم^٢
مَنْ لم يكن فيه ذئبًا كان في الغنم
يا دولةَ السيف، كوني دولةَ القلم
وكلُّ بنيانٍ علم غيرُ منهدم^٣
وسوَّت الحرب بين البهْم والبُهْم^٤
مَنْ لا يُقِم ركنه العرفان لم يَقْم
ونحن نلبسُ عنه ضيقةَ العُدْم^٥
وصانكم. وهداكم صادق الخدم^٦
منكم بخير غدٍ في المجد مبتسم^٧
وتعلن الحبَّ جمًّا غيرَ متَّهم^٨
جاران في الضاد، أو في البيت والحرم^٩
وحبذا سببُ الإسلام من رجم^{١٠}
والضَّاد فينا يشمل غير ملتئم^{١١}
فإنها أوثقُ الأسباب والذَّم
وسعينَا قدم فيه إلى قَدَم
تلك العجوز، وكونوا تركيا القَدَم

الدَّهرُ يقظانُ، والأحداثُ لم تنم
لعلكم من مراسِ الحرب في نصَب
لقد فتحتم فأعرضتم على شَبَع
هَبُّوا بكم وبنا للمجد في زمن
هذا الزمانُ تناديكم حوادثُه
فالسيفُ يهدم فجرًا ما بُني سَحَرًا
قد مات في السَّلم مَنْ لا رأيَ يعصمه
وأصبح العلمُ ركنَ الأخذين به
الناسُ تسحبُ فضفاضَ الغنى مرحًا
يا فتيةَ الترك. حيَّا الله طلعتكم
أنتم غدُ الملك والإسلام، لا برحًا
تُحلُّكم مصرُ منها في ضمايرها
فنحن — إن بعدتْ دارٌ وإن قربتْ —
ناهيك بالسببِ الشرقيِّ من نسب
شملُ اللغات لدى الأقوامِ ملتئم
فقرَّبوا بيننا فيها وبينكم
وكلُّنا إن أخذنا بالفلاح يدُ
فلا تكوننَّ «تركيا الفتاة»، ولا

فسيفُها سيفُها في كل معترك وعدُّلها طَوَّقَ الإسلامَ بالنُّعم

هوامش

- (١) مراس الحرب: مزاولتها. والنصب: التعب. والضجعة: الرقدة. والآساد: جمع أسد. والأجم (بفتح الجيم): جمع أجمة، وهي الشجر الملتف.
- (٢) فتحتم: تغلبتم على البلاد التي حاربتموها حتى ملكتموها، والتخم: جمع تخمة، وهي ثقل الأكل.
- (٣) يهدم فجراً.. إلخ: أي يهدم وقت الفجر ما يكون قد بناه وقت السحر، والمعنى: أن بنيان السيف لا دوام له.
- (٤) السلم: ضد الحرب. ويعصمه: يحفظه ويقيه. والبهم (بفتح الباء وسكون الهاء) جمع بهمة (بفتح الباء وسكون الهاء أيضاً): وهي أولاد الضأن والمعز والبقر. والبهم (بضم الباء وفتح الهاء): جمع بهمة (بضم الباء وسكون الهاء) وهي الرجل الشجاع.
- (٥) الفضفاض: الواسع. والمرح: التبخر والاختيال. والضيقة (بفتح الضاد وكسرهما): سوء الحال. والعدم (بضم العين والdal وتُسَكَّن داله أيضاً): الفقر.
- (٦) صادق الخدم: أي الخدم الصادقة، وهي جمع خدمة.
- (٧) أنتم غد الملك والإسلام، أي أنتم الذين تهيئون لهما غدهما، والمراد مقبل حالهما.
- (٨) جمًا: كثيرًا. وغير متهم: أي غير مشكوك في صدقه.
- (٩) الضاد: تُطْلَقُ اسمًا للغة العربية؛ وذلك أن حرف الضاد لا يوجد في لغة سواها ولا يقوى عليه إلا أهلها.
- (١٠) ناهيك: كلمة استعظام وتعجب وتأويلها في الكلام: أن هذا الشيء هو غاية فيما تطلبه، حتى إنه ينهك عن طلب غيره، فمعنى البيت: أن السبب الشرقي هو ما يطلب من النسب بيننا وبينكم، فلا تطلبوا نسبًا سواه. وحبذا: كلمة مدح.
- (١١) الشمل: ما تفرَّق من الأمر وما اجتمع منه، يقال: جمع الله شملهم، وفرَّق الله شملهم. وملتئم: منضم وملتصق.

الأسطول العثماني^١

هَزَّ اللِّوَاءَ بِعَزِّكَ الْإِسْلَامُ
وَانْقَادَتِ الدُّنْيَا إِلَيْكَ، فَحَسِبُهَا
وَمَشَى الزَّمَانُ إِلَى سَرِيرِكَ تَائِبًا
عَرْشُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ جَنَبَاتُهُ
لَمَّا جَلَسْتَ سَمَا وَعَزَّ، كَأَنَّمَا
الْبَحْرُ مُحْشَوْدُ الْبُورَاجِ دُونَهُ
نَعَمَ الرِّعْيَةُ فِي ذِرَاكَ، وَنَضَّرْتُ
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَكُلِّ قَبِيلَةٍ
حَمَلُ (الصَّلِيبِ) إِلَيْكَ مِنْ فَتْيَانِهِ
وَالدِّينُ لَيْسَ بِرَافِعٍ مُلْكًا إِذَا
بِاللَّهِ قَدْ دَانَ الْجَمِيعُ، وَشَأْنُهُمْ
وَعَنْتَ لِقَائِمْ سَيْفِكَ الْيَوْمَ^١
عِذْرًا قِيَادًا أَسْلَسْتَ وَزِمَامَ^٢
خَجَلًا، عَلَيْهِ الذُّلُّ وَالْإِرْغَامُ
نُورٌ، وَرَفْرَفُهُ الطَّهْوَرُ غَمَامَ^٣
هَارُونَ وَابْنَاهُ عَلَيْهِ قِيَامُ^٤
وَالْبِرُّ تَحْتَ ظِلَالِهِ آجَامُ^٥
أَيَّامَهُمْ فِي ظِلِّكَ الْأَحْكَامِ^٦
عَدْلٌ، وَأَمْنٌ مُورِفٌ. وَوِثَامُ^٧
جَنْدًا، وَقَاتَلَ دُونَكَ (الْحَاخَامُ)^٨
لَمْ يَبْدُ لِلدُّنْيَا عَلَيْهِ نِظَامُ
بِاللَّهِ ثُمَّ بَعْرَشُكَ، اسْتِعْصَامُ^٩

* * *

^١ كان صاحب الديوان في الآستانة، وشاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من ألمانيا؛ فأخذته هزة الطرب، وعز عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة أسطول الدولة؛ فجرى لسانه بهذه القصيدة.

يا ابنَ الذين إذا الحروبُ تتابعت
المظهرينَ لنورِ «بدر» بعد ما
عشرون خاقاناً نموكَ وعشرةُ
نسبُ إذا ذُكر الملوكُ فإنه
لا تحفلنَ من الجراحِ ببقيةِ
جرت النحوس لغاية فتبدلت
تعبت بأمتك الخطوبُ فأقصرت
لبثت تنوشهم الحوادثُ حقبةً
ولقد يداس الذئبُ في فلواته
زدهم أمير المؤمنين من القوى
الملكُ والدُّولاتُ ما يبني القنا
والحقُّ ليس - وإن علا - بمؤيدٍ
خطَّ النبيُّ براحتيه خندقاً

صَلُّوا على حَدِّ السيوف، وصاموا^{١٠}
خيفَ المحاقُ عليه والإظلام^{١١}
غرُّ الفتوحِ خلائفُ أعلام^{١٢}
لِرَفيع أنسابِ الملوكِ سَنام^{١٣}
إن البقيةَ في غِدٍ تلتام^{١٤}
ولكل شيءٍ غايةٌ وتمام
والدهرُ يُقصر والخطوبُ تنام^{١٥}
وتصدُّها الأخلاقُ والأحلام^{١٦}
ويُهَابُ بين قيوده الضرغام^{١٧}
إن القوىَ عزٌّ لهم وقوام
والعلمُ، لا ما ترفعُ الأحلام^{١٨}
حتى يُحوِّطَ جانبُهُ حسام^{١٩}
ومشى يُحيط به قنأ وسهام^{٢٠}

* * *

يا بربروس، على ثراك تحيةُ
أعلمت ما أهدى إليك عصابةُ
نشروا حديثك في البريةِ بعدما
خصوك من أسطولهم بدعامةِ
شماء في عرض الخضمِّ، كأنها
كانت كبعض البارجات، فحفها
ما مات من نبيل الرجال وفضلهم
يمضي وينسى العالمون، وإنما
وتلاك (طرغود) كما قد كنتما
أرسي على باب الإمام كأنه
جمعتكما الأيامُ بعد تفرُّق
سيشدُّ أزرَكَ والشدائدُ جُمةً
ما السفنُ في عدد الحصى بنوافع

وعلى سَمِيكَ في البحارِ سلام^{٢١}
غرُّ المآثر من بنيك كرام^{٢٢}
همَّت بطيِّ حديثك الأيام
يُبني عليها ركنه ويقام^{٢٣}
برجٌ بذات الرجع ليس يرام^{٢٤}
لَمَّا تحلَّتْ باسمِكَ الإعظام
يحيا لدى التاريخ وهو عظام
تبقى السيوفُ، وتخلدُ الأقلام^{٢٥}
جنباً لجنبٍ والعُبابُ ضرام^{٢٦}
للفلك من فرط الجلال إمام^{٢٧}
ما للقاءٍ وللفرقِ دوام
ويُعزُّ نصرك والخطوبُ جسام^{٢٨}
حتى يهزَّ لواءها مقدم

لما لمحتكما سكبتُ مدامعي
وسألتُ: هل من (لؤلؤ) أو (طارق)
فرحاً، وطال تشوّفٌ وقيامٌ^{٢٩}
في البحر تخفُّقٌ فوقه الأعلام؟^{٣٠}

* * *

يا معشرَ الإسلام، في أسطولكم
جودوا عليه بمالككم، واقتضوا له
لا الهندُ قد كُرمَت، ولا مصرُ سخت
سيلُ الممالك جارِفٌ من شدّةِ
حبِّ السيادة في شمائل دينكم
والعلمُ من آياته الكبرى إذا
لو تقرئون صغاركم تاريخه
كم واثقٍ بالنفس، نهّاض بها
عزٌّ لكم، ووقايةٌ، وسلام
ما توجبُ الأعلّاق والأرحام^{٣١}
والغربُ قصّر عن ندَى، والشام
وقوّى، وأنتم في الطريق نيام^{٣٢}
والجدُّ روحٌ منه والإقدام^{٣٣}
رجعت إلى آياته الأقوام^{٣٤}
عرف البنون المجدّ كيف يُرام
ساد البريّة فيه وهو عصام^{٣٥}

هوامش

(١) عنت: خضعت وذلت، والخطاب في هذا البيت والبيتين بعده للخليفة محمد رشاد.

(٢) القيادة: ما يُقَادُ به، ويستعمل بمعنى الطاعة. وأسلس: جعلته سلساً، أي سهلاً ليناً، والزمّام: مقود البعير.

(٣) الجنّبات: النواحي، مفردها جنبه. والرفرف: كل ما فضل فثني. والظهور هو الطاهر في نفسه والمطهر غيره.

(٤) سما: ارتفع. وهارون: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وابناه: هما الأمين، والمأمون.

(٥) البوارج: سفن القتال الكبيرة وإحدها: بارجة. والأجام: جمع أجم والأجم: جمع أجمة: وهي الشجر الكثير الملتف، والأسود تتخذها مأوى لها. والضمير في «دونه» و«ظلاله» للعرش في البيت المتقدم، يعني أنه مصون، تحميه سفن القتال المحشودة في البحر، والجيش المقيمة في البرِّ كأنها الأسود في آجامها.

(٦) نعم الرعية: رفهوا وأخصبوا. والذرا: اللجأ. ونصّرت أيامهم الأحكام: جعلها ناضرة. والناصرة: الحسنة.

- (٧) مورف: مُتَّسَع وممتد.
- (٨) حمل الصليب.. إلخ: يريد أن رعاياك من النصارى واليهود مخلصون، يقاتلون من دونك لِمَا أَظَلَّلْتَهُمْ به من العدل والأمن.
- (٩) بالله قد دان الجميع: أي آمنوا به. والاستعصام: الاستمسك.
- (١٠) صلوا على حدِّ السيوف وصاموا: أي لزموها كما يلزم المتعبدُّ صلاته وصيامه.
- (١١) بدر: اسم الغزوة المشهورة في صدر الإسلام، سُمِّيَتْ باسم المكان الذي وقعت فيه. والمحاق (مثلث الميم): قيل: هو آخر الشهر حيث يحق نور القمر، وقيل: هو ثلاث ليالٍ من آخره.
- (١٢) الخاقان: هو كل ملك من الأتراك. ونموك: أي رفعوك بالانتساب إليهم، وعشرة غرُّ الفتوح: أي ونماك أيضًا عشرة خواقين، امتازوا بالفتح والتوسُّع في الملك، فاخضعوا بوصف الفاتحين، فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان. وخلائف: جمع خليفة.
- (١٣) السنام: اللحم المرتفع على ظهر البعير.
- (١٤) لا تحفلن بقية: أي لا تبال بها. فهي ستبرأ وتلتحم، يشير بذلك إلى حوادث كانت تشغل الدولة التركيَّة يومئذ.
- (١٥) أقصرت: أي انتهت وأمسكت عنها.
- (١٦) تنوشهم: تناولهم. وتصدُّها أي تصدُّ الحوادث. والأحلام: العقول.
- (١٧) الضرغام: الأسد.
- (١٨) القنا: الرماح. والأحلام هنا: جمع حلم، وهو ما يراه النائم.
- (١٩) يحوط جانبه، بواو مشدَّدة: أي يحفظهما ويتعهدهما. والحسام: السيف.
- (٢٠) الخندق: حفير حول أسوار المدينة.
- (٢١) بربروس: هو خير الدين بربروس من أبطال العثمانيين، جعلت الحكومة التركية اسمه علمًا لبارجة هي الأولى في الأسطول العثماني.
- (٢٢) عصابة غرُّ المآثر: هم رجال الحكومة العثمانية الذين أوجدوا البارجة بربروس.
- (٢٣) الدعامة: عماد البيت.
- (٢٤) شَمَاء: مرتفعة عظيمة. والخضم: البحر. والبرج: واحد بروج السماء. وذات الرج: هي السماء. والرج: المطر بعد المطر.

- (٢٥) وإنما تبقى السيوف: أي يبقى ما تفعله السيوف ويخلد ما تسطره الأقلام.
- (٢٦) تلاك: أي جاء تاليًا لك. وطرغود: هو أيضًا من أبطال البحر العثماني، جعلت الحكومة التركيّة اسمه كذلك علمًا لبارجة أخرى. والعباب: كثرة السيل وارتفاعه. والمراد به هنا كثرة ماء البحر. والضرام اشتعال النار؛ والمعنى: أن البارجة التي سُمّيت باسم طرغود، هي مع البارجة المُسمّاة باسمك، فهما في البحر كما كنتما فيه من قبل، حين كانت تشتعل نار القتال فوق عبابه.
- (٢٧) أرسى: وقف وثبت. والفلك: السفن، يستعمل للمفرد وللجمع بلفظ واحد، وفي البيت إشارة إلى أن مرسى البارحتين كان أمام قصر الخليفة.
- (٢٨) الأزّر: الظهر. والجَمّة: الكثيرة. والجسام: العظام، جمع جسيم.
- (٢٩) سكبت: صببت. والتشوّف: التطلّع.
- (٣٠) لؤلؤ: هو حسام الدين لؤلؤ، أمير الأسطول المصري في الحروب الصليبية، وطارق هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور.
- (٣١) الأعلاق: نفائس الأشياء.
- (٣٢) جارف، من جرف الشيء: ذهب به كله أو أكثره.
- (٣٣) الجدُّ: الاجتهاد في الأمر. وروح منه، أي من دينكم.
- (٣٤) والعلم من آياته: أي من آيات الدّين.
- (٣٥) النّهّاض: مبالغة من النهوض، وهو القيام. وهو عصام: أي كعصام، وهو رجل شرف بنفسه وعمله، لا بنسبه وآبائه، حتى قيل فيه: «نفس عصام سوّدت عصامًا» فضربَ به المثل في ذلك.

الأندلس الجديدة

يا أختَ أندلسٍ عليكِ سلامٌ
نزل الهلالُ عن السماءِ فليتها
أزرى به، وأزاله عن أوجِه
جُرحانِ تمضي الأمتانِ عليهما
بكما أصيبَ المسلمون. وفيكما
لم يُطوَ مَأْتُمُها. وهذا مَأْتَمٌ
ما بين مَصْرِعها ومَصْرِعِ انقضت
خلت القرونُ كليلَةً. وتصرَّمت
والدهرُ لا يَألو الممالكَ مُنذراً

هَوَتْ الخِلافةُ عنكِ، والإسلامُ^١
طُوِيَتْ، وعمَّ العالمين ظلام
قَدَرٌ يَحُطُّ البدرُ وهو تمام^٢
هذا يسيل، وذاك لا يلتام^٣
دُفِنَ اليراعُ، وعُيِّبَ الصَّمصَمُ^٤
لبسوا السِوَاةَ عليكِ فيه وقاموا^٥
فيما نُحِبُّ ونكره الأيام
دولُ الفتوح كأنها أحلام^٦
فإذا غفلنَ فما عليه مَلام^٧

* * *

مقدونيا — والمسلمون عشيرةً —
أترينهم هانوا، وكان بعزهم
إذا أنتِ نابُ الليث، كلُّ كتيبة
ما زالت الأيامُ حتى بُدِّلَتْ
أرأيتِ كيف أُدِيلَ من أسدِ الشَّرَى
زعموكِ همًّا للخِلافةِ ناصبًا
ويقول قومٌ: كنتِ أشأمَ مَوْرِدٍ

كيف الخِثْلَةُ فيكِ والأعمامُ؟^٨
وعَلَّوهم يتخايلُ الإسلامُ؟^٩
طلعتِ عليكِ فريسةٌ وطعام^{١٠}
وتغيَّرَ الساقِي، وحالُ الجام^{١١}
وشهدتِ كيف أبيضتِ الآجامُ؟^{١٢}
وهل الممالكُ راحةٌ ومنام^{١٣}
وأراكِ سائغةً عليكِ زحام

ويراك داءَ المُلكِ ناسُ جَهالةٍ
لو آثروا الإصلاحَ كنتَ لعرشهم
وهمُ يقيّدُ بعضُهم بعضًا به
صورَ العمى شَتَّى، وأقبحُها إذا
ولقد يُقام من السيوفِ، وليس من
بالمُلكِ منهم علةٌ وسقام
رُكْنَا على هامِ النجومِ يُقام^{١٤}
وقيودُ هذا العالمِ الأوهامِ
نظرتُ بغيرِ عيونهنَّ الهامِ
عثراتِ أخلاقِ الشعوبِ قيام

ومُبَشِّرٍ بالصلحِ قلت: لعله
تركَ الفريقانِ القتالَ، وهذه
ينعى إلينا الملكَ ناعٍ لم يطأ
برقِ جوائبه صواعقُ كُلِّها
إن كان شرًّا، زار غيرَ مفارقٍ
بالأمس (أفريقا) تولّت. وانقضى
نظمَ الهلالُ به ممالكَ أربعًا
من فتحِ هاشمٍ أو أميةٍ، لم يُضغِ
واليومَ حكمُ الله في مقدونيا
كانت من الغربِ البقية. فانقضت
خيرُ عسى أن تصدقَ الأحلام^{١٥}
سَلِمَ أمرٌ من القتالِ عُقام^{١٦}
أرضًا، ولا انتقلت به أقدام^{١٧}
ومن البروقِ صواعقُ وغمام^{١٨}
أو كان خيرٌ، فالمزارُ لِمَام^{١٩}
مُلكٌ على جيدِ الخِضَمِّ جسام^{٢٠}
أصبحنَ ليس لعقدهنَ نظام^{٢١}
آساسها تَتَرُّ ولا أعجام^{٢٢}
لا نقضَ فيه لنا ولا إبرام
فعلى بني عثمانٍ فيه سلام!

أخذَ المدائنَ والقرى بخناقها
غطّت به الأرضُ الفضاءَ وجوَّها
تمشي المناكرُ بين أيدي خيله
ويحثّه باسمِ الكتابِ أقسَّةُ
ومسيطرونَ على الممالكِ. سُخرت
من كلِّ جَزَارٍ يروم الصدرَ في
سُكِّينه، ويمينه، وحزامه
جيشٌ من المتحالفين لُهام^{٢٣}
وكست مناكِبَها به الآكام^{٢٤}
أُنِّي مَشَى. والبغي، والإجرام^{٢٥}
نَشطوا لما هو في الكتابِ حرام^{٢٦}
لهم الشعوبُ، كأنها أنعام^{٢٧}
نادي الملوكِ، وجَدُّه غَنَام^{٢٨}
والصولجانُ، جميعُها آثام^{٢٩}

«عيسى» سبيلك رحمةً، ومحبةً
 ما كنت سفاك الدماء، ولا أمراً
 يا حامل الآلام عن هذا الورى
 أنت الذي جعل العباد جميعهم
 أتت القيامة في ولاية يوسف
 كم هاجه صيد الملوك وهاجهم
 البغي في دين الجميع دنيةً
 واليوم يهتف بالصليب عصائب
 خلطوا صليبك والخنजर والمدى
 أوما تراهم ذبحوا جيرانهم
 كم مريض في جبر نعمته غداً
 وصبيّة هتكت خميلاً طهرها
 وأخي ثمانين أستبيح وقاره
 وجريح حرب ظامئ وأدوه. لم
 ومهاجرين تنكرت أوطانهم
 السيف إن ركبوا الفرار سبيلهم
 يتلفتون مودعين ديارهم

في العالمين، وعصمة، وسلام
 هان الضعاف عليه والأيتام^{٢٠}
 كثرت عليه باسمك الآلام^{٢١}
 رجمًا، وباسمك تقطع الأرحام
 واليوم باسمك مرتين تقام^{٢٢}
 وتكافأ الفرسان والأعلام^{٢٣}
 والسلم عهد، والقتال زمام
 هم للإله وروجه ظلام^{٢٤}
 كل أداة للأذى وحمام^{٢٥}
 بين البيوت كأنهم أغنام؟
 وله على حد السيوف فطام^{٢٦}
 وتناثرت عن نوره الأكماء^{٢٧}
 لم يغن عنه الضعف والأعوام
 يعطفهم جرح دم وأوام^{٢٨}
 ضلوا السبيل من الذهول وهاموا^{٢٩}
 والنطع إن طلبوا القرار مقام^{٣٠}
 واللحظ ماء، والديار ضرام^{٣١}

يا أمة (بفروق) فرق بينهم
 فيم التخاذل بينكم ووراءكم
 الله يشهد لم أكن متحزبًا،
 وإذا دعوت إلى الوثام فشاعر
 من يضجر البلوى فغاية جهده
 لا يأخذن على العواقب بعضكم
 تقضي على المرء الليالي، أو له
 من عادة التاريخ ملء قضائه
 ما ليس يدفعه المهندد مصلتا

قدّر تطيش إذا أتى الأحلام^{٣٢}
 أم تضاع حقوقها وتضام؟^{٣٣}
 في الرزء لا شيع ولا أحزام^{٣٤}
 أقصى مناه محبةً ووثام^{٣٥}
 رجعى إلى الأقدار واستسلام^{٣٦}
 بعضًا، فقدمًا جارت الأحكام
 فالحمد من سلطانها، والذام^{٣٧}
 عدل وملء كنانتيه سهام^{٣٨}
 لا الكتب تدفعه. ولا الأقلام^{٣٩}

إن الألى فتحوا الفتوحَ جلائلاً
 هذا جناه عليكم أبائكم
 رفعوا على السيفِ البناءَ. فلم يدم
 أبقي الممالكَ ما المعارفُ أسُّه
 فإذا جرى رُشدًا ويُمناً أمرُكم
 ودعوا التفاخَرَ بالثُراث وإن غلا
 إنَّ الغرورَ إذا تملَّك أمةً
 لا يعدلنَّ الملكُ في شهواتكم
 ومناصب في غير موضعها. كما
 الملك مرتبةً الشعوب. فإن يفتُ
 ومن البهائم مشبَعٌ ومُدلَّلٌ
 وقف الزمانُ بكم كموقِف «طارق»
 الصبرُ والإقدامُ فيه إذا هما
 يُحصي الدليلُ مدى مطالبه، ولا
 هذي البقية — لو حرصتم — دولةً
 قسَم الأئمة والخلائف قبلكم
 سرت النبوة في طهور فضائه
 وتدفَّق النهران فيه، وأزهرت
 أثرت سواحله، وطابت أرضه

دخلوا على الأسدِ الغياضَ وناموا^{٥٠}
 صبراً وصفحاً، فالجناةُ كرام^{٥١}
 ما للبناء على السيوف دوام
 والعدلُ فيه حائطٌ وديعام^{٥٢}
 فامشوا بنور العلم. فهو زَمَام
 فالمجدُ كسبٌ. والزمانُ عصام
 كالزَّهر يُخفي الموتَ وهو زَوَام^{٥٣}
 عَرَض من الدنيا بدا وحُطام^{٥٤}
 حلَّت محلَّ القدوة الأَصنام^{٥٥}
 عزُّ السَّيادة فالشعوبُ سَوام
 ومن الحريرِ شَكِمةٌ ولجام
 اليأسُ خلفٌ، والرجاءُ أمام^{٥٦}
 قُتلا فأقتلُ منهما الإحجام
 يحصي مدى المستقبلِ المقدام
 صال الرشيد بها، وطالَ هشام^{٥٧}
 في الأرض لم تُعدَل به الأقسام^{٥٨}
 ومشى عليه الوحي والإلهام
 بغدادٌ تحت ظلاله، والشام^{٥٩}
 فالدرُّ لُجٌّ، والنُّصارُ رَغام^{٦٠}

شرفاً أدرنهُ! هكذا يقفُ الحمى
 وتُرَدُّ بالدم بقعةً أخذت به
 والملكُ يؤخذ، أو يُردُّ، ولم يزل
 عَرَضُ الخلافةِ زاد عنه مجاهدٌ
 تستعصم الأوطانُ خلف ظيَّاته
 (عثمان) في بُردِيه يمنعُ جيشه
 علم الزمانُ مكانَ (شكري) وانتهى

للغاصبين، وتثبتُ الأقدام^{٦١}
 ويموتُ دون عرينه الضرغام^{٦٢}
 يرثُ الحسامَ على البلاد حسام^{٦٣}
 في الله. غاز في الرسول. همام^{٦٤}
 وتعرَّزُ حول قناتِه الأعلام^{٦٥}
 (وابن الوليد) على الجَمي قَوام^{٦٦}
 شكرُ الزمانِ إليه والإعظام^{٦٧}

* * *

صَبْرًا أَدْرَنَةُ! كُلُّ مَلِكٍ زَائِلٌ
خَفَّتِ الْأَذَانُ. فَمَا عَلَيْكَ مُوَحَّدٌ
وَحَبْتُ مَسَاجِدُ كَنْ نَوْرًا جَامِعًا
يَذْرُجْنَ فِي حَرَمِ الصَّلَاةِ قَوَانِنًا
وَعَفَّتْ قُبُورُ الْفَاتِحِينَ. وَفُضَّ عَنْ
نُبِشَتْ عَلَى قَعَسَاءٍ عَزَّتِهَا. كَمَا
فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ خَمْسَةُ أَشْهُرِ
السِّيفِ عَارٍ، وَالْوَبَاءُ مُسَلِّطٌ
وَالْجُوعُ فَتَّاكٌ، وَفِيهِ صَحَابَةٌ
ضَنُّوا بِعَرَضِكَ أَنْ يُبَاعَ وَيَشْتَرَى
ضَاقَ الْحَصَارُ كَأَنَّمَا حَلَقَاتُهُ
وَرَمَى الْعَدَى، وَرَمَيْتَهُمْ بِجَهَنَّمَ
بِغَتِ الْعَدُوَّ بِكُلِّ شَبْرٍ مَهْجَةٍ
مَا زَالَ بَيْنَكَ فِي الْحَصَارِ وَبَيْنَهُ
حَتَّى حَوَاكِ مَقَابِرًا، وَحَوَيْتَهُ

يَوْمًا. وَيَبْقَى الْمَالِكُ الْعَلَامُ^{٦٨}
يَسْعَى. وَلَا الْجَمْعُ الْحَسَانُ تُقَامُ^{٦٩}
تَمْشِي إِلَيْهِ الْأَسْدُ وَالْأَرَامُ^{٧٠}
بِيضَ الْإِزَارِ كَأَنَّهُنَّ حَمَامُ^{٧١}
حُقِرَ الْخَلَائِفُ جَنْدَلٌ وَرِجَامُ^{٧٢}
نُبِشَتْ عَلَى اسْتِعْلَائِهَا الْأَهْرَامُ^{٧٣}
طَالَتْ عَلَيْكَ. فَكُلُّ يَوْمٍ عَامُ^{٧٤}
وَالسَّيْلُ خَوْفٌ، وَالثَّلُوجُ رُكَامُ^{٧٥}
لَوْ لَمْ يَجُوعُوا فِي الْجِهَادِ لَصَامُوا
عَرِضَ الْحَرَارِ لَيْسَ فِيهِ سُورَامُ^{٧٦}
فَلَكَ، وَمَقْدُوفَاتُهَا أَجْرَامُ^{٧٧}
مِمَّا يَصْبُ اللَّهُ لَا الْأَقْوَامُ
وَكَذَا يُبَاعُ الْمَلِكُ حِينَ يُرَامُ^{٧٨}
شُمُّ الْحَصُونِ، وَمِثْلُهُنَّ عِظَامُ^{٧٩}
جُنْتُ، فَلَا غَبْنٌ وَلَا اسْتِذْمَامُ^{٨٠}

هوامش

(١) يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة: وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان، جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة ١٩١٢ بعد أن أبليت حاميتها في الدفاع بلاءً حسنًا.

(٢) أزرى له: وضع من شأنه. والأوج: العلو.

(٣) جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم، والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

(٤) اليراع: القلم. والصمصام: السيف.

(٥) لم يطو مآتمها: أي مآتم الأندلس.

- (٦) خلت: مضت. وتصرّمت: انقضت.
- (٧) لا يألوا: لا يقصر ولا يبیطى.
- (٨) مقدونيا: اسم الإقليم الذي تقع فيه أدرنة. والعشيرة: قبيلة الرجل. والخثولة: النسبة إلى الخال، كالعمومة، وهى النسبة إلى العمّ.
- (٩) يتخايل: يتبختر.
- (١٠) إذا أنت ناب الليث: أي مثل ناب الليث، في أنه مخوّف لا يمكن الوصول إليه. والكتيبة: الجيش، وقيل القطعة منه. والمعنى أن الإسلام كان يتخايل بعزّ أبنائه في مقدونيا، حينما كانت ممتنعة على العدو كامتناع ناب الليث على مَنْ يريده، وحينما كانت تفنى دونها جيوش الأعداء.
- (١١) حال: تحوّل من حال إلى حال. والجام: إناء من فضة تسقى فيه الخمر.
- (١٢) الشرى: مكان تكثر فيه الأسود. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الملتفّ تألفه الأسود أيضًا.
- (١٣) الهمُّ الناصب: المتعب.
- (١٤) لو آثروا الإصلاح: أي لو اختاروه. والهام: جمع هامة، وهى رأس كل شيء.
- (١٥) ومبشر بالصلح: يشير إلى ما كان قد جاء من الأنبياء بأن الصلح سيتمّ بين المتحاربين.
- (١٦) يقال: داء عقام، أي لا يُرَجى البرء منه، وحرب عقام: أي شديدة، وكلا المعنيين صالح هنا. ويشير بقوله: هذه سلم. إلخ، إلى ما كان من ممالة الدول الأوربية الكبرى، لدول البلقان الصغيرة على تركيا، وإرهاقها بشروط الصلح.
- (١٧) ينعي إلينا.. إلخ: يشير إلى الأنباء البرقية التي تنقل شروط الصلح الظالم. والناعي الذي لم يطمأ أرضًا.. إلخ: هو سلك البرق.
- (١٨) الجوائب: الأخبار الطارئة. جمع جائبة.
- (١٩) اللمام: جمع لمة وهى المرّة، يقال: أنت ما تزورنا إلا لمامًا: أي من حين إلى حين.
- (٢٠) الجيد: العنق. والخضم: البحر. وجسام: عظام جمع: عظيم.
- (٢١) ممالك أربعًا، هنّ: مصر، وطرابلس، وتونس، والجزائر.
- (٢٢) من فتح هاشم أو أميّة: أي هذه الممالك الأربع مما فتحه بنو هاشم وبنو أميّة في عصر الإسلام الأول. والاساس (بالمدّ): جمع أساس.

(٢٣) المتحالفون: هم دول البلقان: اليونان، ورومانيا، والبلغار، والصرب، تحالفوا على حرب الدولة التركيّة. واللهم بضم اللام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء.
(٢٤) مناكبها: نواحيها. والأكام: التلال. وقيل: هي الحجارة المجتمعة في أمكنة واحدة.

(٢٥) المناكر: جمع منكر، وهو كل قول أو فعل ليس فيه رضا الله، وأنى مشى: أي كيف مشى.

(٢٦) الأقسّة: جمع قسيس. ونشطوا: خفّوا وأسرعوا.

(٢٧) ومسيطرون: أي ويحتة مسيطرون. والمسيطر: المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله؛ والمراد بهم ملوك دول البلقان.

(٢٨) يروم الصدر: يطلبه. والصدر — هنا — معناه أعلى أمكنة النادي.

(٢٩) الصولجان: المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

(٣٠) سَفَاك الدماء: مريقها بكثرة.

(٣١) يشير بقوله: يا حامل الآلام، إلخ إلى ما يعتقده النصارى من أن السيد المسيح (عليه السلام) صُلِبَ ليحمل عن بني آدم خطيئتهم الأولى، أي حامل الآلام فيما يزعمه هؤلاء السفّاكون الذين يزعمون أنهم على طريقك.

(٣٢) يوسف: هو السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي، قامت في أيامه قيامة الصليبيين على المسلمين؛ فحاربهم ونصره الله عليهم.

(٣٣) حاجة: أثاره، والضمير ليوسف. وصيد الملوك: جمع أصيد، وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يميناً ولا شمالاً، كالبعير الذي أصيب بداء الصيد في عنقه فلا يلتفت.

(٣٤) العصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، وقيل ما بين العشرة والأربعين. وظلّام: جمع ظالم.

(٣٥) خلطوا صليبك: أي الصليب الذي ينسبونه إليك. والجِمام: الموت.

(٣٦) كم مرضع: أي طفل ترضعه أمه. والفِطَام: فصله عن الرضاع.

(٣٧) الخميّة، هنا: الدُّثار، من المخمل، وهو ثوب له وبر كالهداب، أو هي الشجر الكثير الملتف، والنور: هو الزَّهر الأبيض. والأكمام: جمع كم — بكسر الكاف — وهو غطاء النور.

(٣٨) وأدوه: أي قتلوه، كما تقتل البنت بالوَد، وهو دفنها حية. وجرح دم: أي يقطر منه الدم. والأوام: العطش ودوار الرأس.

- (٣٩) هاموا: ذهبوا على وجوههم من الظلم، فلا يدرون أين يتوجهون.
- (٤٠) النطع: بساط من الجلد يُفَرَّشُ لَمَنْ يُضْرَبُ عنقه، والقرار: المكان الذي يقرُّ فيه الإنسان، أو هو الثبات في المكان والسكون فيه.
- (٤١) والديار ضرام: أي مشتعلة نارًا.
- (٤٢) فروق: الآستانة. والأحلام: العقول.
- (٤٣) التخاذل: التدابر وأن يخذل بعضهم بعضًا.
- (٤٤) الرزء: المصيبة. والشيع: جمع شيعة، وهي أتباع الرجل وأنصاره. والأحزام: الأحزاب.
- (٤٥) الوثام: الوفاق.
- (٤٦) رجعى إلى الأقدار: أي رجوع إليها.
- (٤٧) الدَّام: الذمُّ.
- (٤٨) الكنانتان: تننية كنانة، وهي جعبة السهام، من الجلد أو من الخشب.
- (٤٩) المهنَّد: السيف.
- (٥٠) الغياض: جمع غيضة، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء، وهي أيضًا الأجمة، والمعنى: إن أسلافكم قنعوا من البلاد التي فتحوها بمجرد الفتح والغلبة، ولم يلتفتوا إلى أن أهلها يضمرون لهم العداوة، ويتربصون بهم الدوائر.
- (٥١) هذا: أي ما أنتم فيه من عداوة.
- (٥٢) الدِّعام: عماد البيت.
- (٥٣) كالزهر يخفي الموت: ذلك أن الزهر يتنفس فيفسد الهواء في الأمكنة الضيقة؛ فيحدث الاختناق. والزؤام: السريع من الموت.
- (٥٤) عرض الدنيا: ما لا دوام له منها. وحطامها: ما فيها من مال كثير أو قليل.
- (٥٥) مناصب جمع منصب. بكسر الصاد، وهو في كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل وأصله المقام. والأصنام: جمع صنم، وهو تمثال إنسان أو حيوان يتخذ للعبادة.
- (٥٦) طارق: هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور. يروي بعض المؤرخين أنه لما عبر بجيشه البحر ليقاتل الأعداء: أمر فأحرقت السفائن، ثم خطب في الجيش: أن البحر وراءه والعدوُّ أمامه، فإذا نكص عن القتال وقع بين عدوَّين ليس منهما غير الهلاك.

- (٥٧) هذي البقية: أي ما بقي للأتراك من البلاد بعد حرب البلقان. ولو حرصتم: أي لو حرصتم عليها. والرشيد: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وهشام: هو ابن عبد الملك أحد خلفاء بني أمية.
- (٥٨) القسم (بكسر القاف): النصيب.
- (٥٩) النهران: دجلة والفرات، وبغداد: حاضرة العراق.
- (٦٠) أثرت: كثر فيها الغنى والمال. فالدرُّ ليج: أي كثير كاللج. والنضار: الذهب. والرغام: التراب؛ أي أنه لكثرت صار كالتراب.
- (٦١) شرفاً أدرنة: أي لقد شرفت شرفاً. والحمى: ما يُحمى من الشيء.
- (٦٢) العرين: مأوى الأسد. والضرغام: الأسد.
- (٦٣) الحسام: السيف.
- (٦٤) العرض: جانب الرجل الذي يصونه من نفسه أو سلفه، وهو موضع المدح والذم منه. وذاد عنه: طرد عنه العدو ودفعه.
- (٦٥) تستعصم: تلجأ وتمتنع. الطبات: جمع ظبة — بضم الظاء، وهي حدُّ السيف. وتعزُّ: تصير عزيزة مكرمة.
- (٦٦) ابن الوليد: هو خالد بن الوليد، قائد عظيم من الصحابة.
- (٦٧) شكري: هو بطل أدرنة، وقائد حاميتها الذي تولى الدفاع عنها أثناء شهور الحصار.
- (٦٨) صبراً أدرنة: أي اصبري صبراً.
- (٦٩) خفت: سكن وانقطع. والموحد: مَنْ يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.
- (٧٠) خبت: سكنت. والأسد: هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها. والرئم: الظبي الأبيض.
- (٧١) يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدم. والقوانت: جمع قانته، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.
- (٧٢) عفت: اضمحلت وأمحت. وفُضَّ جندل ورجام: أي كُسِرَ متفرقاً. والجندل: الحجارة. والرجام: ما يبني عليه البئر وتعرض فوقه الخشبة للدلو.
- (٧٣) العزة القعساء: المنيعة الثابتة.
- (٧٤) خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.

(٧٥) السيف عارٍ: أي مجرّد من غمده كما يتجرّد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمرٌّ. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادة في كل مكان يكثر فيه القتال ويكون محصوراً من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والتلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

(٧٦) الحرائر: جمع حرّة. والسوام (بضم السين): أن تُعرَض السلعة ويُذكَر ثمنها.

(٧٧) الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

(٧٨) المهجة: الروح أو دَمُ القلب. أي أن العدو لم ينك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلاً من رجاله.

(٧٩) شَمُ الحصون: أي الحصون العالية.

(٨٠) حواك: ملكك. والاستذمام. فعل ما يقتضي الذم. والمعنى: أن الحصون بقيت

ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجالهم جثثاً هامدة؛ وبهذا لم تفعل ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذم.

ضيف أمير المؤمنين^١

فَرَعَ عَثْمَانُ، دُمَ، فِداكَ الدوامُ^١
لك منك الثناء والإكرام
أنها الشمس ليس فيها كلام؟
بأحاديثه يَتِيَهُ الأنام^٢
أنت فيه خليفة وإمام^٣
وأمٌ مجدًا، ولن يرى الأقوام
ومئاتُ، تعيدها أعوامُ
في ثمانٍ ومثلهن يُقام
دونها أن تنالها الأفهام
الناس ذو المقلّة التي لا تنام؟^٤
يُ كَرِيمٌ، وفعله إلهام؟^٥
يا عظيمًا ما جازه إعظام^٦
ويمينُ بُسْطُ، وأمرُ جسام^٧
للبرايا، وعصمة، وسلام^٨

رضي المسلمون والإسلامُ
كيف نحصي على عُلاك ثناء؟
هل كلامُ العباد في الشمس إلا
ومكانُ الإمام أعلى، ولكن
إيه «عبد الحميد»، جلّ زمانُ
ما رأَت مثلَ ذا الذي تَبَتَّنِي الأَقْدَامُ
دولةً شاد ركنها ألفُ عام
وأساسُ من عهدِ عثمان يُبنى
حكمةً حال كلُّ هذا التجلّي
يسأل الناس عندها الناس: هل في
أم من الناس — بعد — مَنْ قَوْلُهُ وَخُ
صدق الخلق، أنت هذا، وهذا
شرفٌ بانح، وملكٌ كبيرُ
(عَمَرُ) أنت. بَيَدَ أنك ظلُّ

^١ نزل صاحب الديوان بالآستانة، فبلغ أنه ضيف أمير المؤمنين ما أقام بها.

تُوجَّ البائسون والأيتام
بِشَرِّ، والظِّلُّ، والجَنَى، والغَمَامُ^{١٠}
فيه حَسَنٌ، وبِالْعُفَاةِ غَرَامُ^{١١}
يَوْمَ حَيَّتَهُمْ بِهِ الأَيَّامُ
يَاكَ فِي الذَّرْوَةِ الَّتِي لَا تُرَامُ^{١٢}
وبنو العصر، والولاءُ الفِخَامُ^{١٣}
ما لِحَالٍ مع الزمانِ دوام
حُدُّ، وَمَسْرَى ظلالها الآجَامُ^{١٤}
هـ، ولبنانُ، والرُّبَى، والخيام
أَنْكَ السَّلْمُ وَسَطُهُ والوئامُ^{١٥}
مَ أَتَمَّتْ تَهْذِيبَهُ الأَقْلَامُ^{١٦}
وقعودٌ مع الهوى، وقيامُ؟^{١٧}
تَشْرَفُ الكَأْسُ عِنْدَهُ والمُدَامُ^{١٨}
وَأَتَتْ مِنْ حُمَاتِهِ الأَقْسَامُ^{١٩}
والولاءِ الذي يريد المقامُ^{٢٠}
برئت من أولئك الأحلامُ^{٢١}
في الثرى ملؤها حصىً ورغامُ؟^{٢٢}
فعماماها في أن يزول الظلامُ^{٢٣}
لترى الضيمَ أنها لا تضامُ^{٢٤}
ولجُّوا البابَ، إنه الإسلامُ^{٢٥}
يومَ لا تدفعُ السهامَ السهامُ^{٢٦}
والمعالي على النيامِ حرامُ^{٢٧}
قد تسيغُ المنيةُ الأحلامُ^{٢٨}
ثم يُضْجِي وناسُه أعجامُ^{٢٩}

ما تتوجت بالخلافة حتى
وسرى الخُصْبُ والنماءُ، ووافى الـ
وتلقَى الهلالَ منك جبينُ
فسلامٌ عليهم وعليه
وبدا الملكُ ملكُ عثمانَ من علِّ
يهرعُ العرشُ، والملوكُ إليه
هكذا الدهرُ: حالةٌ. ثم ضدُّ
ولأنت الذي رعيتهُ الأسـ
أمة التُّركِ، والعراقُ، وأهلـو
عالمٌ لم يكن لينظَّم، لولا
هذبته السيوفُ في الدهر، واليو
أيقولون: سَكْرَةٌ لَنْ تَجَلَّى
ليدوقنَّ للمُهْلِهِلِ صَحْوًا
وضع الشرقُ في يديك يديه
بالولاءِ الذي تُريد الأيادي
غيرَ غاوٍ. أو خائنٍ. أو حسود
كيف تُهدى لما تشيد عيونُ
مُقلٌ عانت الظلامَ طويلاً
قد تعيش النفوسُ في الضيم حتى
أيها النافرون. عودوا إلينا
غرضُ أنتم. وفي الدهر سهمُ
نِمتُم. ثم تطلبون المعالي
سُرَّ عيش الرجال ما كان حُلْمًا
ويبيت الزمانُ أندلسيًا

* * *

فسعيننا. وفي النفوس مَرَامُ^{٣٠}
أس بالركن ذي الجلالِ استلامُ^{٣١}

عالي الباب. هَزَّ بِأُفْكٍ مِنَّا
وتجلَّيت، فاستلمنا، كما للـ

مثلما ينصرُ الحسامَ الحسام^{٣٢}
 بك - يا حامِي الحمى - استعصام^{٣٣}
 وكفانا أن يشهدَ العلامَ
 جورَ دهرٍ، أحراره ظلام^{٣٤}
 هل رأيت القرى علاها الجهام؟^{٣٥}
 أن تملأ الأرواح والأجسام^{٣٦}
 جُ؟ فبالتاج للبلاد قيام
 وارفع الصوت: إنها الأهرام
 فلها بالذي أرتك زمام
 فليقم في وقائك الخدام^{٣٧}
 وله السعدُ تابعٌ وغلَام^{٣٨}
 والأمور التي تولّوا عظام
 ر كثيرٌ، وفي الزمان كرام
 غي، فللحق هبةٌ وانتقام
 لمنايا أسبابهن العظام^{٣٩}
 فيباهي النجوم هذا النظام؟^{٤٠}
 فُهي فيه تحيةٌ وابتسام
 أنا صبٌّ بلطفها. مُستهام^{٤١}
 في كمالٍ بدت له أعلام^{٤٢}
 والزم البدرَ أيهذا التمام^{٤٣}

نستميحُ الإمامَ نصرًا لمصرٍ
 فلمصر - وأنت بالحبِّ أدرى -
 يشهدُ الله، للنفوس بهذا
 وإلى السيد الخليفة نشكو
 وعدوها لنا وعودًا كبارًا
 فمللنا، ولم يكُ الداءُ يحمي
 يمنعُ القيدُ أن تقوم. فهل تا
 فارفع الصوت: إنها هي مصرُ
 وارعَ مصرًا ولم تزل خيرَ زارعٍ
 إن جهد الوفاء ما أنت أت
 وليصولوا بمنّ له الدهرُ عبدُ
 فاللواء الذي تلقّوا ربيعُ
 مَنْ يُردُّ حَقُّه فللحق أنصا
 لا تروقنُ نومةَ الحقِّ للبا
 إن للوحش - والعظامُ منها -
 رافع الضادِ للسُها، هل قبولُ
 قامت الضادُ في فمي لك حُبًّا
 إن في «يلدز» الهوى لخلال
 قد تجلّت لخير بدرٍ أقلّت
 فالزم التّم أيها البدرُ دومًا

هوامش

- (١) فرع عثمان: هو السلطان عبد الحميد.
- (٢) يتكبر.
- (٣) إيه: اسم فعل، معناه الاستزادة من الحديث.
- (٤) شاد ركنها ألف عام ومئات: أي رفع ركنها ألف عام ومئات، وهي دولة الإسلام منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. تعيدها أعوام: أي ترجعها إلى مثل قوتها أعوام معدودة، هي التي توليت فيها أمرها.

- (٥) يسأل الناس عندها: أي عند هذه الحكمة، والمعنى أن بعضهم يسأل بعضاً: هل فيهم مَنْ هو مثلك ساهر على الملك فلا تنام عليه؟
- (٦) أم من الناس: أي يسألون أيضاً: أمنهم مَنْ يكون له ذكر بعدك، أنت الذي يصدر عنك القول صادقاً مطاعاً كأنه الوحي، ويصدر عنك العمل صواباً كأنه إلهام من الله.
- (٧) صدق الخلق: أي صدقوا في الحاليين، فأنت الذي لا تنام عينك، وأنت القائل المصدق، والفاعل الصواب.
- (٨) شرف باذخ: طويل، ويمين بسط (بضم الباء): أي مبسوطه مطلقه، كناية عن الجود والسخاء. أمر جسام. بضم الجيم: عظيم ضخم.
- (٩) عمر أنت: أي أنت كعمر بن الخطاب في عدله وتقواه.
- (١٠) الخصب: رغد العيش. والجنى: ما يجنى من الشجر.
- (١١) وبالعفة غرام: أي وفيه غرام العفة. والعفة: جمع عافٍ وهو طالب الفضل والرزق.
- (١٢) من عليك. والعلياء: ما علا من الشيء.
- (١٣) يهرع: يمشي إليه بسرعة. والفخام: جمع فخم. وهو العظيم القدر.
- (١٤) المسرى، السريان، كما يسري الماء أو السير عامة الليل. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الكثير الملتف.
- (١٥) ينظم: أي ينتظم. والسلم: ضد الحرب. والوثام: الوفاق.
- (١٦) هذَّبته: أصلحته.
- (١٧) لن تجلي: أي لن تنجلي، تنفرج وتنكشف.
- (١٨) ليذوقنَّ: هنا قسم، أي والله ليذوقن. والضمير في هذا الفعل للجماعة، يرجع إلى القائلين الذين يدلُّ عليهم قوله «أيقولون» في البيت المتقدم، والمهلل بكسر الهاء الثانية: هو عدي بن ربيعة، أخو كليب بن ربيعة، وكليب هذا كان من الرؤساء في الجاهلية، قتله جساس أخو امرأته وخبرهما مشهور في أيام العرب وحروبهم، وكان المهلهل صاحب شراب وقمار ونساء، فلماً علم بقتل أخيه هجر النساء والغزل، وحرَّم القمار والشراب، وشغل عن هذا كله بالحرب وطلب الثأر. وإلى هذا يشير بقوله: ليذوقنَّ للمهلل صحواً. إلخ: أي ليذوقنَّ صحواً كصحو المهلهل، وحرِّباً كالحرب التي أثارها.
- (١٩) الحماة: جمع حامٍ، وهو المانع الدافع. والأقسام: الأيمان: جمع قسم.

- (٢٠) الذي تريد الأيادي.. إلخ أي أتوا يحثُّهم الولاء الذي تقتضيه أياديك عليهم — جمع يدٌ. وهي النعمة — والولاء الذي يستوجبه مقامك الرفيع.
- (٢١) برئت من أولئك: أي من هذه الأصناف الثلاثة والأحلام: العقول.
- (٢٢) لما تشيد: لما تبني. والثرى: التراب، وكذلك الرغام.
- (٢٣) مقلٌ: جمع مقلة، وهي العين.
- (٢٤) الضيم: الظلم والقهر.
- (٢٥) النافرون: المتفرِّقون المتباعدون. لجوا: ادخلوا.
- (٢٦) الغرض: الهدف الذي يرمي إليه.
- (٢٧) المعالي: جمع معلاة (بفتح الميم) وهي الرفعة والشرف.
- (٢٨) الحلم (بضم الحاء): ما يراه النائم. جمعه أحلام.
- (٢٩) أندلسياً: أي كزمان الأندلس أيام عزِّ العرب والإسلام فيها.
- (٣٠) عالي الباب: أي يا من بابك العالي. هزَّ بابك منا: أي هزَّنَا. وفي النفوس مرام: مطلب.
- (٣١) تجلَّيت: ظهرت. والركن: ركن الكعبة. والاستلام: اللمس إمَّا بالقبلة أو باليد.
- (٣٢) نستميح: نسأل. والحسام: السيف.
- (٣٣) الحمى: ما حُمي من شيء. استعصام: استمسك.
- (٣٤) الجور: الظلم. وظُلَّامٌ: جمع ظالم.
- (٣٥) القرى: جمع قرية. والجهام (بفتح الجيم): السحاب لا ماء فيه، يعني أن تلك الوعود كانت كالسحاب الذي لا خير فيه.
- (٣٦) ولم يك الداء ييمى.. إلخ: أي لم يكن من شأن الداء أن يمنع الأرواح والأجسام من أن تمْلَهُ وتسأمه.
- (٣٧) إن جهد الوفاء: أي غاية الوفاء. ما أنت آتٍ: أي آتیه وفاعله.
- (٣٨) وليصولوا: أي وليسطوا بأمرك على مَنْ ظلموا مصر حتى يقهروهم.
- (٣٩) العظام: جمع عظم. ومناها: جمع أُمْنِيَّة. ومنايا: جمع مَنِيَّة، أي أَنَّ الوحوش تجد منيتها في العظام وهي تطلبها للأكل والغذاء.
- (٤٠) الضاد: اللغة العربية. والسُّها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. هذا النظام: أي الشعر.
- (٤١) يلدز: قصر السلطان عبد الحميد في الآستانة.

الشوقيات

(٤٢) أَقَلَّتْ: حملت.

(٤٣) التَّمُّ والتمام: الكمال.

ذكرى دنشواي^١

نَهَبْتُ بِأَنْسِ رُبُوعِكَ الْأَيَّامُ
هِيَهَاتَ لِلشَّمْلِ الشَّتِيتِ نِظَامُ
وَمَضَى عَلَيْهِمْ فِي الْقِيُودِ الْعَامُ
وَبِأَيِّ حَالٍ أَصْبَحَ الْإِيْتَامُ؟
بَعْدَ الْبِشَاشَةِ وَحِشَّةٍ وَظِلَامِ
أَمْ فِي الْبُرُوجِ مَنِيَّةٌ وَجِمَامُ؟
لَعَرَفْتَ كَيْفَ تُنْفِذَ الْأَحْكَامُ!
شَعْبًا بِوَادِي النِّيلِ لَيْسَ يَنَامُ
سَحَرًا وَبَيْنَ فَرَاشِهِ الْأَحْلَامُ
ضَجَّتْ لَشِدَّةٍ هَوْلُهُ الْأَقْدَامُ
مَتَوَحَّدَاتٍ وَالْجَنُودُ قِيَامُ
تَدْمَى جُلُودُ حَوْلِهِ وَعِظَامُ
جَزَعًا مِنَ الْمَلَأِ الْأَسِيفِ زَحَامُ
وَعَلَى وَجْهِهِ الثَّائِلِينَ رِغَامُ

يَا دِنَشَوَايَ. عَلَى رُبَاكِ سَلَامُ
شَهْدَاءُ حُكْمِكَ فِي الْبِلَادِ تَفَرَّقُوا
مَرَّتْ عَلَيْهِمْ فِي اللَّحُودِ أَهْلَةٌ
كَيْفَ الْأَرَامِلُ فِيكَ بَعْدَ رَجَالِهَا؟
عَشْرُونَ بَيْتًا أَقْفَرْتُ، وَانْتَابَهَا
يَا لَيْتَ شَعْرِي: فِي الْبُرُوجِ حَمَائِمُ
«نِيْرُونَ»، لَوْ أَدْرَكْتَ عَهْدَ «كِرُومِرِ»
نُوحِي حَمَائِمَ دِنَشَوَايَ، وَرُوعِي
إِنْ نَامَتِ الْأَحْيَاءُ حَالَتْ بَيْنَهُ
مَتَوَجَّعٌ، يَتِمَثَّلُ الْيَوْمَ الَّذِي
السُّوْطُ يَعْمَلُ، وَالْمِشَانِقُ أَرْبَعُ
وَالْمُسْتَشَارُ إِلَى الْفِطَائِعِ نَاطِرُ
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَكُلِّ مَحَلَّةٍ
وَعَلَى وَجْهِهِ الثَّائِلِينَ كَآبَةٌ

^١ قيلت بعد مرور عام على حادثة هذه القضية في سبيل طلب العفو عن سجنائها.

الهلال الأحمر^١

يا قَوْمَ عَثْمَانَ — والدنيا مداوِلَةٌ —
تعاونوا بينكم يا قَوْمَ عَثْمَانَ^١
كونوا الجِدَارَ الذي يقوَى الجِدَارُ به
فالله قد جعل الإسلامَ بنياناً^٢
أَمسى السبيلَ لغير المحسنين دَمًّا
فشأنكم وسبيلاً نورُهُ بانا
الْبِرُّ مِنْ شُعْبِ الْإِيمَانِ أَفْضَلُهَا
لا يقبل اللهِ دون البرِّ إيماناً^٣
هل ترحمون — لعل الله يرحمكم —
بالبيد أهلاً، وبالصحراء جيراناً؟
في ذِمَّةِ الله — أَوْفَى ذِمَّةٍ — نَفَرُ
على طرابُلُسٍ يقضون شجعاناً^٤
إن سال جرحاهُم من غُربَةٍ ووغَى
باتوا على الجمرِ أرواحاً وأبداناً^٥

^١ كانت جماعة الهلال الأحمر المصرية قد أحييت ليلة تجمع بها التبرعات؛ لإعانة المقاتلين في طرابلس الغرب من الجيش العثماني، حين أغارت إيطاليا عليها، فقال في ذلك هذه القصيدة.

هذا يَحْنُ إلى البسفور مُحْتَضَرًا
 وذاك يبكي الغَضَا، والشيخ، والباناء^٦
 يُودُّعون على بعدِ ديارُهُمْ
 وينشدون بُنَيَّاتٍ وصَبِياناً^٧
 أَدْنَبُهُمْ عند هذا الدَّهرِ أَنَّهُمْ
 يحمون أرضاً لهم دِيسَتِ وأوطاناً؟
 ماتوا، وعَرَضُهم الموفورُ بعدهم
 والعِرْضُ لا عَزَّ في الدنيا إذا هاناً^٨
 قَوْمِي - وَجَلَّتْ وَجُوهُ القومِ - مصرُ بكم
 أَلَقْتُ على كرماءِ الدَّهرِ نسياناً^٩
 لا تسألون عن الأعوانِ إن قعدوا
 وتنهضون إلى الملهوفِ أعواناً^{١٠}
 أَكَلَّمَا هَزَّكُم دَاعٍ لصالِحَةٍ
 قمتُم كُهوْلاً إلى الداعي وفتياناً؟^{١١}
 لو صَوَّرَ الشرقُ إنساناً أخا كرم
 لكنتمُ الروحَ، والأقوامُ جثماناً^{١٢}
 إذا هُزِزْتُم تلاقى السيفُ منصِلَتاً
 والريحُ مُرْسَلَةً، والغيثُ هَتَّاناً^{١٣}
 إذا المكارمُ في الدنيا أُشِيدَ بها
 كانت كتاباً، وكُنَّا نحنُ عُنواناً^{١٤}
 إِنَّ الحِياةَ نهارٌ أو سحابُته
 فَعِشْ نهارَكَ من دنياك إنساناً
 أرى الكريمَ بوجدانٍ وعاطفةٍ
 ولا أرى لبخيلِ القومِ وجداناً^{١٥}

هذا الهلالُ الذي تُحيون ليلَتَه
 أبهى الأهلَّةِ عند اللهِ ألواناً^{١٦}

أراه من بين أعلامِ الوغى مَلَكًا
وما سواه من الأعلامِ شيطاناً^{١٧}
فان، فقيه من الجرّحى مُشاكلةً
حتى إذا قيل ماتوا اخضرَّ رِيحاناً^{١٨}
لحامليه جلالٌ منه مقتبَسُ
كأنما رفعوا للناسِ قُرْآناً^{١٩}
كأن ما اهرّ منه حول غُرَّتِه
دُم البريء ذِكِّي الشَّيبِ عُثماناً^{٢٠}
كأن ما ابيضَّ في أثناء حُمرته
نورُ الشهيد الذي قد مات ظمآنأ^{٢١}
كأنه شفقٌ تسمو العيون له
قد قلَّد الأفق ياقوتاً ومَرجاناً
كأنه من دم العُشاق مختَضِبُ
يُثيرُ حيثُ بدا وجدًا وأشجاناً^{٢٢}
كأنه من جمال رائع وهُدًى
خدودُ يوسفَ لَمَّا عَفَّ وَلَهاناً^{٢٣}
كأنه وردةٌ حمراءُ زاهيةٌ
في الخلدِ قد فُتحت في كفِّ رضواناً^{٢٤}

هوامش

- (١) مداولة: من داوِل الله الأيام بين الناس، أي صرفها بينهم.
- (٢) الجدار: الحائط.
- (٣) البرُّ: الخير والعطاء. والشعب: جمع شعبة، وهي غصن الشجرة، أو هي الطائفة من الشيء.
- (٤) يقضون: يموتون.
- (٥) جرحاهم: أي الجرّحى منهم. والوغى: الحرب.

(٦) هذا يحنُّ إلى البسفور.. إلخ: أي مَنْ كان منهم تركياً يحنُّ إلى بلاده التي كُنَى عنها بالبسفور، ومَنْ كان عربياً بكى فرقة بلاده التي كُنَى عنها بالغضا والبان، وهما نوعان من الشجر ينبتان في بلاد العرب، والشيخ: هو نبات طيب الرائحة. والمحتضر: مَنْ حضرته الوفاة.

(٧) ينشدون بنيات ... إلخ: يطالبونها ويسألون عنها، أي ينشدون بنياتهم وصبيانهم.

(٨) ماتوا وعرضهم الموفور: أي ماتوا في سبيل صيانة عرضهم، فتركوه عزيزاً موفوراً.

(٩) قومي: أي يا قومي. وجلَّت وجوه القوم: أي وجوهكم، وهذه جملة معترضة بين المنادى وما كان من أجله النداء، وهو الإخبار بأنهم لما جاءوا بالخبر العظيم نُسي سواهم من الكرماء في غير مصر، فلم يعد لهم ذكر.

(١٠) لا تسألون: أي أنتم لا تسألون. وتنهضون: تقومون. والملهوف: المظلوم المستغيث.

(١١) أكلِّمًا: الهمزة للاستفهام، وكلما هي لفظ «كل» مضافة إلى «ما» المصدرية الظرفية، وهي حينئذ تفيد التكرار. ولصاحبة: أي فعلة صالحة. والكهول: جمع كهل، وهو الرجل من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين.

(١٢) الجثمان: الجسم.

(١٣) السيف المنصلت: المجرد من غمده: والهتآن: المنصب.

(١٤) أشيد بها: أي ذكَّرت بالثناء عليها.

(١٥) الوجدان والعاطفة: من استعمالات المولدين؛ يراد بهما الشعور القلبي.

(١٦) الهلال: اسم لراية الدولة التركية، وهي حمراء اللون في وسطها رسم الهلال بلون أبيض.

(١٧) أراه من بين أعلام الوغى: أي من بين الأعلام المنشورة في الحرب. ومَلَكًا: أي كالملك في تنزُّهه وطهارة عمله، وهو واحد الملائكة.

(١٨) المشاكلة: المشابهة.

(١٩) الجلال: التناهي في عظم القدر. ومقتبس: متَّخذ ومستفاد.

(٢٠) الغرَّة: بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم. شبَّه بها رسم الهلال لأنه أبيض. وعثمان: هو الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه).

- (٢١) الأثناء: تضاعف الشيء ومطاوئه؁ واحدها ثني؁ بكسر الاء. (٢٢) مختضب: ملون. والوءء: الحب. والأشجان: الأءزان والهموم. (٢٣) الجمال الرائع: يروع الرائي؁ أي يعجبه. ويوسف: هو يوسف الصءيق (عليه السلام). وعفّ: كفّ عما لا يحلّ. والولهان: الءزين؁ أو الءي ذهب عقله ءزنًا. (٢٤) رضوان: من الملائكة؁ وهو — كما يقول رجال الدين — موكل بأبواب الجنة.

رومة^١

صديقي المحترم:

صدرت^١ عن باريس وكأنها بابل ذات البرج والجسر وهي في دولتها، أو طيبة^٢ في الزمن الأول، إلا أنها مدينة الشمس، وباريس مدينة النور، أو رومة^٣ مقرّ القياصر، ومودحم الأجناس والعناصر، وهي في رفعة مُلكها الفاجر، تموج بالأمم كالبحر الزاخر، أو الإسكندرية^٤ ذات المسلة — والمسلة في باريس — وهي في ذروة سعداها وأوج كمالها، تُغيّر الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها، أو «بغداد»^٥ في إبان إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمن أمرها، وأسعد حالها، فسبحان المنعم، أعطى «مدينة المعروض» الأسماء كلها، وجلّت قدرته، بعث المدائن في واحدة.

رحلت عنها في اليوم الذي أسفر صباحه عن ليلة الاحتفال بتوزيع الجوائز على العارضين، وقد نالها منهم ستون ألفاً أو يزيدون، كلهم من مشهوري الصناع، وكبار المخترعين، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر ومشى الخلائق فيها حتى دفناه، وكأنه نهار مرّ، أو ليلة تقصّت بالسمر^٦، ثم انقلبنا ننفض الأنامل من ترابه، ونذكر من محاسنه أنه جيل واضح الغر والتجيل^٧، يذكره التاريخ بالتعظيم والتبجيل، قام العلم فيه على أمتن بُنيات، ورُفعت الحجب بين الحقائق والإنسان، ضربت له أطول سماء من ضروب

^١ نظم صاحب الديوان هذه القصيدة، وقدّمها بكتاب إلى صديقه المؤرّخ الأستاذ إسماعيل بك رأفت.

العرفان، واستمدَّ من القادر^٨ مبالغ الإمكان، فاقتاد البرَّ بشعرة، وزمَّ البحر بإبرة،^٩ وفَرَّقَ^{١٠} الأرض وبلغ الجبال، وأوشك أن يمدَّ إلى السماء بحبال، ونفَذَ على النجم المدى، ووجد على القطب هدى، وغاص على الحروب الماء، وركب إلى الوقائع الهواء، وكسر شِرَّةَ الدَّاءِ^{١١} وقتل قَتَّالَه وراض العياء، ودخل بصره على الجسم الأحشاء، وأنطق الآلة الصَّمَاء، ونقل الحديث من فضاء إلى فضاء، على انقطاع الصَّلَّة بين النطق والإصغاء، وحرك الصُّور وهي هباء، إذا رأيتها حسبتها جماعة الأحياء، ونال سرائر الحُوباء،^{١٢} وخاض في الطبائع^{١٣} والأهواء؛ فانكشف له الغطاء وبرح الخفاء،^{١٤} ونشر فكاد يوحى إليه في الإنشاء، ونظم فلم يدع من آية في الأرض ولا في السماء.

كل هذا أيها الأستاذ عرضته (باريس) للناس في خير معرض أخرج لهم، فواهاً^{١٥} له من سوق ثم ينفض، ويا أسفاً على بنيانه يوم ينقض.

برحمتها وهي تجرُّ الذيل على المدائن الكُبر،^{١٦} وتزري بالحضارات ما حضر منها وما غبر،^{١٧} وقصدت إلى رومة لعلِّي أَرُدُّ النفس إلى الخشوع. وأداوي الفؤاد من نشوة اغتراره بما رأى، فبلغتها وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلم، وحجر كاد لكرامته يُستلم،^{١٨} فوقفت أتأمل ذا الجدارَ وذا الجدارَ^{١٩} وأنشد^{٢٠} ذلك القصر وتلك الدار، إلى أن ثار الشعر — والشعر ابن أبوين: «التاريخ، والطبيعة» — فنظمت، وكأني بها في يدك تقرأ.

أحبُّ التوفيق إليَّ — أيها الأستاذ — إكرام العالم، وإجلال الصديق، وأنت لي — بحمد الله — هذان كلاهما، فهل تمنُّ بقبول هدية هي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر؟

قَفْ بروما، وشاهد الأمر، واشهد	أن للملك مالكا سبحانه
دولة في الثرى، وأنقاض ملك	هدم الدهر في العلا بنيانه ^{٢١}
مرقت تاجه الخطوب، وألقت	في التراب الذي أرى صولجانه ^{٢٢}
طلل، عند دمنية، عند رسم	ككتاب محا البلى عنوانه ^{٢٣}
وتماثيلُ الحقائق، تزدا	د وضوحاً على المدى وإبانه ^{٢٤}
من رآها يقول: هذي ملوك	الدهر، هذا وقارهم والرزانه ^{٢٥}

بين أَخِذِ الْبَلَى ودفع المتانـه^{٣٦}
و«بيلـيوس» لم يَهـب أرجوانـه^{٣٧}
واصل الدهرُ بعـدها جَـريـانـه
مُلْكُ قَوْمٍ، وحلَّ مُلْكُ مكانـه^{٣٨}
قُ دماءِ خَلـيـقَةٍ بالصـيـانـه^{٣٩}
سُ على ذي الدَنـيـه الفتانـه؟^{٤٠}
صار مَلِكُ القُـسُوس، عرش الديانـه^{٤١}
ثم يُـعلـون في البريـة شانـه
ويُعزُّون بعـدـه أكفانـه^{٤٢}
تتبارى غباوـة وفطانـه^{٤٣}
مـة في الحُـكـم، والهوى، والمجانـه^{٤٤}
فيك عِزٌّ، ولا مَهـيـنـًا مهانـه^{٤٥}
أو بلائٌ يُـعـدُّها أوطانـه^{٤٦}
ويرى عبـدُك الورع غلـمانـه^{٤٧}
تحسُدُ الشـمـسُ في الضحى سلطانـه^{٤٨}
لأ، ويعطي وَسـيـعَها أعوانـه^{٤٩}
كُلُّهم خازنٌ، وأنتِ الخزانـه؟^{٥٠}
رِ حتـى أذاقهم طغيانـه؟^{٥١}
أين نادـيـك؟ ما دَهِى شيخانـه؟^{٥٢}
ومن الدُّور ما ترى أحزانـه
هل قضتْ مَرَّتَيْنِ منه اللُّبانـه؟^{٥٣}
جعل القِـسـطَ بيـنـها ميزانـه^{٥٤}
لن تَرُدِّي على الورى رومانـه^{٥٥}

وبقايا هياكلٍ وقصورٍ
عبثَ الدَّهرُ بالحواريِّ فيها
وجرت هاهنا أُمُورٌ كَبـارٌ
راح دينٌ، وجاءَ دينٌ، ووَلَّى
والذي حصَّلَ المجدون إهـرا
ليتَ شعري: إلـامَ يـقـتـل النـا
بلدٌ كان للنصارى قتـادًا
وشعوبٌ يمحون آيـة عيسى
ويُـهـيـنون صاحـبَ الروح مـيـتًا
عالمٌ قُلُوبٌ، وأحلامٌ خَلـق
رومة الزهو في الشرائع، والحـكـ
والتناهي، فما تعدى عـزـيـزًا
ما لحيٍّ لم يُـمـس منكِ قبيلٌ
يصبحُ الناس فيك مولى وعبـدًا
أين مَلِكٌ في الشرق والغربِ عالٍ
قادرٌ، يمسحُ الممالك أعـما
أين مالٌ جَبـيـتـه، ورعايا
أين أشرافُك الذين طَغَوْا في الدَّهـ
أين قاضيـك؟ ما أناخ عليه؟
قد رأينا عليكِ آثارَ حـزـنٍ
أقصرى، واسألـي عن الدَّهرِ مصـرًا
إنَّ مَنْ فَرَّقَ العبادَ شعوبًا
هَبْكِ افنيتِ بالحدادِ الليالي

هوامش

(١) صدرت عن باريس: رجعت وانصرفت. وبابل: مدينة قديمة بناها بختنصر في آسيا الصغرى، وكان بها بناء عظيم ذو طبقات بعضها فوق بعض، وهو ما يُسمَّى برجًا، وقالوا في صفته: إنه كان ذا طبقات، طول كل من جوانب الطبقة الأولى بلغ ٢٧٢ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وفوقها طبقة ثانية طول كل من جوانبها ٢٣٠ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا. كانت مائلة فوق الطبقة الأولى إلى الطرف الجنوبي الغربي، وكانت الطبقات الباقية موضوعة هذا الوضع، وكان طول الثالثة ١٨٨ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وكان طول الرابعة ١٤٦ والخامسة ١٠٤ والسادسة ٦٢. والسابعة ٢٠، وكان ارتفاع كل من هذه الطبقات الأربع الأخيرة ١٥ قدمًا، وأمَّا جسر بابل فيذكرون عنه أنه كان هناك نهر يشقُّ المدينة من الشمال إلى الجنوب، وكان على كل من جانبي النهر سور له باب عند منتهى كل سوق من أسواق المدينة، وكان فوق النهر جسر واحد، وهو الجسر المنسوب إلى بابل، ويذكرون لها عجائب أخرى؛ كالبيساتين المعلقة وسواها.

(٢) طيبة: مدينة مصرية قديمة كانت مقرَّ الملك في بعض الأزمنة. وكانت بها عبادة الشمس؛ ولهذا سمَّاها مدينة الشمس.

(٣) رومة: عاصمة الدولة الإيطالية في هذا الزمن، وكانت مقرَّ الرومان في الزمن القديم. والقيصر: جمع قيصر، وهو لقب لكل ملك من ملوك الروم.

(٤) الإسكندرية: المدينة الثانية في الدولة المصريَّة، مشهورة في التاريخ القديم بمسلاتها العجيبة، والمسلة التي في باريس نقلها الفرنسيون حين أغاروا على البلاد المصرية منذ نحو قرن.

(٥) بغداد: عاصمة العراق العربي، كانت مقرَّ ملك الدولة العباسية. وسلطان أقبالها: قوَّة ملوكها. وأيمن أمرها: أي أتمَّ أمرها يمينًا وبركة.

(٦) السمر: حديث الليل.

(٧) الغرر: جمع غرَّة، وهي بياض قدر الدرهم في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أيضًا.

(٨) القادر: اسم من أسماء الله تعالى.

(٩) زَمَّ البحر. من قولهم زَمَّ الشيء، إذا شدَّ وجمعه.

(١٠) فرق الأرض، بتخفيف الراء: فصلها وأبان مسالكها.

(١١) الداء العياء: الذي لا براء منه.

- (١٢) السرائر: جمع سريرة، وهي السرُّ الذي يكتُم. والحوباء: النفس.
- (١٣) الطبائع: جمع طبيعة، وهي السجِّية التي جُبِلَ عليها الإنسان، وقيل: هي القوة السارية في الأجسام، التي بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي.
- (١٤) برح الخفاء: أي وضع.
- (١٥) واهًا: كلمة للتعجُّب من طيب كل شيء. أي ما أطيبه، وتكون للتلهُّف، وللتفجُّع أيضًا، يقال: واهًا على ما فات.
- (١٦) الكبر: جمع كبرى.
- (١٧) تزرى: تضع منها أو تصغر شأنها. وما غبر: ما مضى.
- (١٨) استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليد.
- (١٩) الجدار: الحائط.
- (٢٠) أنشد ذلك القصر.. إلخ: اسأل عنه، أو اطلبه.
- (٢١) الثرى: التراب. والأنقاض: جمع نقض، بضم النون، وهي ما انتقض من البنيان. والعلأ: الرفعة والشرف.
- (٢٢) الصولجان: هو المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.
- (٢٣) الظلل: ما شخص من آثار، والدمنة: آثار الديار أيضًا. والرسم: ما كان لاصقًا بالأرض من آثار الدار.
- (٢٤) تماثيل: جمع تمثال: بكسر التاء. والإبانة: الإيضاح.
- (٢٥) الوقار والزناة: بمعنى واحد، وهو الحلم والعظمة.
- (٢٦) هياكل: جمع هيكل، وهو هنا إِمَّا البناء المرتفع، وإِمَّا بيت الأصنام:
- (٢٧) الحوارى: الناصر، والناصر أيضًا. ويليوس: هو يليوس قيصر أحد قياصرة الرومان الأقدمين. والأرجوان: صيغ أحمر، وقيل هو الحمرة من الألوان، والمراد به هنا الدَّمُ لِحمرته، كناية عن القوَّة التي يستحلُّ صاحبها سفك الدماء.
- (٢٨) راح دين: ذهب، وهو دين الرومان قبل النصرانية. وجاء دين: وهو النصرانية. وولَّى ملك الرومان الأقدمين، وحلَّ مكانه ملك الغالين بعد ذلك التاريخ.
- (٢٩) والذي حصَّل المجذون.. إلخ! أي أن أولئك الذين سعوا بالحرب والقتال؛ ليحلوا في رومة دينًا بدل دين، ويقيموا ملكًا جديدًا على أنقاض ملك ذاهب، لم يجنوا من ذلك كله ثمرة إلا إراقة دماء البشر التي تستحق الصيانة والحفظ.
- (٣٠) الدنيَّة الفتانة: هي الدنيا.

(٣١) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر، والمراد أن وصولهم إليه كان صعباً شاقاً،
كالمشقة التي يجدها الإنسان من القتاد في خرطه وإشاكته.

(٣٢) المعنى في هذا البيت والبيت الذي قبله أنهم يخالفون شريعة عيسى، بينما
يدعون تعظيمه.

(٣٣) القلب — بتشديد اللام: المحتل.

(٣٤) الزهو: المنظر الحسن والكبر، والتهيه: الفخر. والمجانة: الهزل.

(٣٥) التناهي: بلوغ النهاية. فما تعدى عزيزاً.. إلخ أي إنك بلغت النهاية في كل
شيء، فمَنْ كان فيك عزيزاً لم يفته شيء من أسباب العزِّ، ومَنْ كان مهيناً لم يفته شيء
من موجبات المهانة.

(٣٦) أي لم يكن لغير أهلك عشيرة يعتزُّون بها، ولا بلاد يتخذونها وطناً يلجئون
إليه؛ لأنك أسقطت العشائر والعصبيات، وغلبت الجميع على أوطانهم.

(٣٧) يصبح الناس فيك. إلخ: يعني أن أهلك كانوا سادة وعبيداً، وكان للعبيد على
الأجانب عزُّ السادة وسلطانهم.

(٣٨) سلطانه: قوته.

(٣٩) قادر: وصف للملك في البيت المتقدم. ويمسخ الممالك أعمالاً: أي يحولها
أعمالاً. والأعمال ما تكون من البلاد تحت حكم المملكة ومضافاً إليها.

(٤٠) جبيته: جمعته.

(٤١) الأشراف: جمع شريف، وكان في رومة لعهداها القديم طائفة الأشراف تسوّدت
على مَنْ عداها؛ ونشأ بذلك في الشعب فريقان منفصلان: هما فريق السادة المسيطرين،
وفريق العامة المسخرين.

(٤٢) أين ناديك: المراد به دار ندوة الرومان، وكانت هي ما نُسميه الآن في النظم
الدستورية مجلس الشيوخ. وما دهم: ما أصاب. وشيخانه: جمع شيخ، وهو الرجل
تتألف منه ومن سواه جماعة المجلس.

(٤٣) أقصري: أي انتهى عند هذا الحدِّ وأمسكي عن الاسترسال. واللبانة: الحاجة.

(٤٤) القسط: العدل.

(٤٥) هبك: اسم فعل، أي افرضي أنك أفنيت ... إلخ.

على قبر نابليون

من فريد في المعاني وثمانين
صَدَفُ الدَّهْرِ بِتَرْبِيَّهَا ضَنِينَ^١
قَدُمُ الْعَهْدُ تَوَارَتْ فِي السَّنِينَ
دَنْتِ الدَّارُ، وَلَكِنْ لَاتَ حِينَ
وَأَذَابَتَهُ تَبَارِيحُ الْحَنِينَ^٢
وهوى الأوطانِ للأحرار دين؟

قَفَ عَلَى كَنْزٍ بَبَارِيسَ دَفِينُ
وَأَفْتَقَدَ جَوْهَرَةً مِنْ شَرَفِ
قَدْ تَوَارَتْ فِي الثَّرَى، حَتَّى إِذَا
غَرَبَتْ حَتَّى إِذَا مَا اسْتِيَأَسْتَ
لَمْ تُذِبْ نَارُ الْوَعَى يَاقُوتَهَا
لَا تَلُومُوهَا، أَلَيْسَتْ حُرَّةً

تُرْبُهَا الْقِيَمُ بِالْحَرِزِ الْحَصِينِ^٣
نَزَلَ التَّارِيخُ قَبْرَ النَّابِغِينَ
وَرَفَاتُ النَّسْرِ حَازَتْهُ الْوُكُونُ^٤
لَمْ تُقْلَبْ مِثْلَهُ أَيْدِي الْقُيُونِ^٥
حَائِطُ الشُّكِّ عَلَى أَسِّ الْيَقِينِ^٦
أُسْرَتْ أُمَسٍ، وَرَايَاتِ سُبُحِينَ^٧
يَدْبَانُ سَاهِرُ الْجَفْنِ أَمِينِ
لَكَ بِالْأَمَسِ هُوَ الْيَوْمَ خَدِينِ^٨
عَسَلًا قَدْ بَاتَ يَسْقِيكَ الْوَزِينِ^٩
جَوْهَرُ الْوَدِّ - وَإِنْ صَحَّ - ظَنِينِ^{١٠}

غَيَّبَتْ بَارِيسُ ذَخْرًا، وَمَضَى
نَزَلَ الْأَرْضَ، وَلَكِنْ بَعْدَمَا
أَعْظُمُ اللَّيْثُ تَلَقَّاهَا الشَّرَى
وَحَوَى الْغِمْدُ بَقَايَا صَارِمِ
شَيْدِ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَبَنَوْا
لَسَتْ تُحْصِي حَوْلَهُ أَلْوِيَّةُ
نَامَ عَنْهَا وَهِيَ فِي سُدَّتِهِ
وَكَأَيَّ مَنْ عَدُوٌّ كَاشِحِ
وَوَلِيٌّ كَانَ يَسْقِيكَ الْهُوَى
فَإِذَا اسْتَكْرَمَتْ وَدًّا فَاتَهُم

مَرَمَرُ أَضْجَعٍ فِي مَسْنُونِهِ
جَلَلَتْهُ هَيْبَةُ الثَّائِي بِهِ
هَلْ دَرِي الْمَرْمَرُ مَاذَا تَحْتَهُ
أَيُّهَا الْغَالُونَ فِي أَجْدَائِهِمْ
يَمَجِّي الْمَيْتُ، وَيَبْلَى رَمْسُهُ
حَصَّنُوا مَا شِئْتُمْ مَوْتَاكُمْ!
لَيْسَ فِي قَبْرِ - وَإِنْ نَالَ السُّهَى -
فَانْزِلِ التَّارِيخَ قَبْرًا، أَوْ فَنَمْ
وَاخْذَعِ الْأَحْيَاءَ مَا شِئْتَ، فَلَنْ

حَجَرُ الْأَرْضِ وَضَرْغَامُ الْعَرِينِ^{١١}
رَوْعَةُ الْحِكْمَةِ فِي الشَّعْرِ الرَّصِينِ^{١٢}
مَنْ قُوَى نَفْسٍ، وَمَنْ خَلَقَ مَتِينٌ؟
ابْحَثُوا فِي الْأَرْضِ: هَلْ عَيْسَى دَفِينٌ؟^{١٣}
وَيَغُولُ الرَّبْعُ مَا غَالَ الْقَطِينُ^{١٤}
هَلْ وَرَاءَ الْمَوْتِ مِنْ حَصْنٍ حَصِينٌ؟
مَا يَزِيدُ الْمَيْتَ وَزْنًا وَيَزِينُ^{١٥}
فِي الثَّرَى غُفْلًا كَبْعُضِ الْهَامِدِينَ^{١٦}
تَجَدَّ التَّارِيخُ فِي الْمُنْخَدَعِينَ!

بَا عَصَامِيًّا حَوَى الْمَجْدَ سَوَى
أُمِّكَ النَّفْسُ قَدِيمًا أَكْرَمَتْ
نَسَبُ الْبَدْرِ أَوْ الشَّمْسِ - إِذَا
وَأَصُولُ الْخَمْرِ مَا أَزْكَى عَلَى
لَا يَقُولَنَّ أُمْرُؤُ: أَصْلِي، فَمَا
قَدْ تَتَوَجَّتْ، فَقَالَتْ أُمِّم:
وَتَزَوَّجَتْ، فَقَالُوا: مَالَهُ
قَسَمًا لَوْ قَدَرُوا مَا احْتَشَمُوا

فَضْلَةٌ قَدْ قُسِّمَتْ فِي الْمُعْرِقِينَ^{١٧}
وَأَبُوكَ الْفَضْلُ خَيْرُ الْمُنْجَبِينَ^{١٨}
جِيءَ بِالْآبَاءِ - مَغْمُورٌ رَهِينٌ
خَبِثَ مَا قَدْ فَعَلْتَ بِالْشَّارِبِينَ
أَصْلُهُ مَسْكٌ وَأَصْلُ النَّاسِ طِينٌ
وَلَدُ الثَّوْرَةِ عَقُّ الثَّائِرِينَ
وَلِحُورٍ مِنْ بَنَاتِ الْمَلِكِ عَيْنٌ؟^{١٩}
لَا يَعِفُّ النَّاسُ إِلَّا عَاجِزِينَ

أَرَأَيْتَ الْخَيْرَ وَافَى أَمَّةً
يَصْلُحُ الْمَلِكُ عَلَى طَائِفَةٍ
مَلَأُوا الدُّنْيَا، عَلَى قِلَّتِهِمْ
يَحْسُنُ الدَّهْرُ بِهِمْ مَا طَلَعُوا
قَدْ أَقَامُوا قَدْوَةً صَالِحَةً

لَمْ يَنَالُوا حَظَّهُمْ فِي النَّابِغِينَ؟
هَمْ جَمَالُ الْأَرْضِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ
وَقَدِيمًا مُلِئَتْ بِالْمَرْسَلِينَ
وَبِهِمْ يَزْدَادُ حَسَنًا آفَلِينَ^{٢٠}
وَمَضُوا أَمْثَلَةً لِلْمَحْتَذِينَ

إنما الأسوة — والدنيا أسى —
يا صريع الموتِ ندمانَ البلى
كذت من قتل المنايا خبرةً
يا مبيد الأسد في آجامها
يا عزيز السجن بالبابا، إلى
رُبَّ يوم لك جَلَى وانثنى
أحرز الغاية نصرًا غاليًا
قيصر الأناضول فيه نازلاً
مُجلِس التاج على مفرقه
حول (استرلتز) كان المنتقى
وُضع الشطرنج، فاستقبلته
فإذا المَلِك: هذا خاضعٌ
صَدَتْ شاه الروس والنمسا معاً

سببُ العُمران، نظمُ العالمين^{٢١}
كلُّ حيٍّ بالذي نُقِت رهين^{٢٢}
تعلّم الأَجالَ أَيَّانَ تحين؟^{٢٣}
هل أبادت خيلك الدودَ المهين؟
كم تردى في الثرى ذلّ السجين؟^{٢٤}
سائلُ الغُرّةِ ممسوحَ الجبين^{٢٥}
لفرنسا، وحوى الفتحةَ الثمين
قيصر النفسِ عصامَ المالكين^{٢٦}
بيديه، لا بأيدي المُجلسين^{٢٧}
واصطدامُ النسرِ بالمستنصرين^{٢٨}
ببنان عابث باللاعبين
لك في الجمع، وهذا مُستكين^{٢٩}
مَنْ رأى شاهينَ صيدا في كمين؟

يا مُلقَى النصر في أحلامه
يا مُنيلَ التاج في المهد ابنه
اتَّئِد في أمةٍ أرهقتها
أتعبَ الريحَ مدى ما سلكت
من أديم يَهْرأُ الدب، إلى
لك في كلِّ مُغار غارةٍ
ومن المكرِ تَغْنِيكَ بها
سُحَّرَ الناسُ وإن لم يشعروا
والجماعاتُ ثنايا المرتقى

أين من وادي الكرى (سنت هلين)؟^{٣٠}
ما الذي غرَّك بالغيبِ الجنين؟^{٣١}
إنها كالناس من ماءٍ وطين
من سُهولٍ وأجازت من حُزون^{٣٢}
فلواتِ تُنَضِّجُ الضَّبَّ الكنين^{٣٣}
وعليها الدمعُ فيه والأنين^{٣٤}
هل يُزَكِّي الذَّبْحَ غيرَ الذابحين؟^{٣٥}
لقوي، أو غني، أو مُبين
في المعالي، وجُسورُ العابرين

يا خَطيبَ الدهر، هل مال البلى
تُرَجِّحُ السلمُ إذا حرَّكتَه

بلسان كان ميزانَ الشئون؟
كِفَّةً، أو تُرَجِّحُ الحربُ الزَّبون

خُطِبَ لَا صَوْتَ إِلَّا دَوْنَهَا فِي صَدَاهَا الْخَيْلُ تَجْرِي وَالسَّيْنِ
 مِنْ قَصِيرِ اللَّفْظِ، فِي مَكْرِ النَّهْيِ وَطَوِيلِ الرُّمَحِ، فِي كَيْدِ الْوَتِينِ
 غَيْرَ وَضَّاعٍ، وَلَا وَاشٍ، وَلَا مُنْكَرِ الْقَوْلِ، وَلَا لَغْوِ الْيَمِينِ
 سَرْنُ أَمْثَالًا، فَلَوْ لَمْ يُحْيِهِ سَيْفُهُ أَحْيَيْنَهُ فِي الْغَابِرِينَ^{٣٦}

قُمْ إِلَى الْأَهْرَامِ، وَاخْشَعْ، وَاطَّرَحْ خَيْلَةَ الصَّيِّدِ، وَزَهْوَ الْفَاتِحِينَ^{٣٧}
 وَتَمَهَّلْ، إِنَّمَا تَمْشِي إِلَى حَرَمِ الدَّهْرِ وَمِحْرَابِ الْقُرُونِ
 هُوَ كَالصَّخْرَةِ عِنْدَ الْقَبِيطِ، أَوْ كَالْحَطِيمِ الطُّهْرِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ
 وَتَسْنَمُ مِنْبَرًا مِنْ حَجَرٍ لَمْ يَكُنْ قَبْلَكَ حِظُّ الْخَاطِبِينَ
 وَادُعْ أَجْيَالًا تَوَلَّتْ يَسْمَعُوا لَكَ، وَابْعَثْ فِي الْأَوَالِي حَاشِرِينَ
 وَأَعِذْهَا كَلِمَاتٍ أَرْبَعًا قَدْ أَحَاطَتْ بِالْقُرُونِ الْأَرْبَعِينَ^{٣٨}
 أَلْهَبَتْ خَيْلًا، وَحَضَّتْ فَيْلَقًا وَأَحَالَتْ عَسَلًا صَابَ الْمَنُونِ
 قَدْ عَرَضَتْ الدَّهْرَ وَالْجَيْشَ مَعًا غَايَةً قَصَّرَ عَنْهَا الْفَاتِحُونَ
 مَا عَلِمْنَا قَائِدًا فِي مَوْطِنٍ صَفَحَ الدَّهْرَ، وَصَفَّ الدَّارِعِينَ^{٣٩}
 فَتَرَى الْأَحْيَاءَ فِي مَعْتَرِكٍ وَتَرَى الْمَوْتَى عَلَيْهِمْ مُشْرِفِينَ
 عِظَةً قَوْمِي بِهَا أُولَى وَإِنْ بُعِدَ الْعَهْدُ، فَهَلْ يَعْتَبِرُونَ؟
 هَذِهِ الْأَهْرَامُ تَارِيخُهُمْ كَيْفَ مِنْ تَارِيخِهِمْ لَا يَسْتَحُونَ؟

يَا كَثِيرَ الصَّيِّدِ لِلصَّيِّدِ الْعُلَا قُمْ تَأَمَّلْ: كَيْفَ صَادَتْكَ الْمَنُونُ؟
 قُمْ تَرِ الدُّنْيَا كَمَا غَادَرَتْهَا مَنْزَلَ الْغَدْرِ وَمَاءَ الْخَادِعِينَ
 وَتَرِ الْحَقَّ عَزِيزًا فِي الْقَنَا هَيِّنًا فِي الْعُزْلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ^{٤٠}
 وَتَرِ الْأَمْرَ يَدًا فَوْقَ يَدٍ وَتَرِ النَّاسَ ذُنَابًا وَضُئِينَ^{٤١}
 وَتَرِ الْعِزَّ لِسَيْفِ نَزِقٍ فِي بِنَاءِ الْمَلِكِ، أَوْ رَأْيِ رَزِينِ
 سَنَنْ كَانَتْ، وَنَظْمٌ لَمْ يَزَلْ وَفَسَادٌ فَوْقَ بَاعِ الْمَصْلَحِينَ

هوامش

- (١) التّرب: اللّدة والنظير، والتثنية هنا في معنى الإفراد.
- (٢) تباريح الشوق: توهّجه، على أنه جمع لا مفرد له، أو هو جمع تبريج.
- (٣) الحرز: الموضع الحصين.
- (٤) الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. والوكون: جمع وكن، وهو عَشُّ الطائر في جبل أو جدار.
- (٥) الصارم: السيف القاطع. والقيون: جمع قين وهو صانع الحديد. والشرى والوكون والغمد: كلها في هذين البيتين كنايةات عن باريس.
- (٦) حائط الشك: كناية عن القبر. وأُسُّ اليقين: هو الموت الذي يتمثل فيها ضمُّ القبر من رفات.
- (٧) يشير إلى تلك الأعلام التي غنمها نابليون في حروبه، ثم وُضعت على قبره، رمزًا لما نال في هذه الحروب من نصر وتوفيق.
- (٨) العدو الكاشح: هو الباطن العداوة. والخدين: هو الصاحب والحبیب.
- (٩) الوزين: حَبُّ الحنظل المطحون.
- (١٠) الظنين: المتهم.
- (١١) المرمر المسنون: المصقول. وحجر الأرض: كناية عن محورها، والمراد به نابليون. والضرغام: الأسد.
- (١٢) الثاوي: المقيم.
- (١٣) الغالون: جمع غال، وهو المسرف.
- (١٤) يمحي: أي يزول. والرمس: القبر. والقطين: السُّكَّان.
- (١٥) السُّها: كوكب من بنات نعلش الصغرى، يُضربُ به المثل في السمو والارتفاع.
- (١٦) غفلًا: أي مجهولًا.
- (١٧) الفضلة: البقية من كل شيء. والمعرق: العريق الأصل.
- (١٨) أكرمت: أي ولدت كرامًا.
- (١٩) يشير إلى زواجه من ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا.
- (٢٠) أقول النجم: غروبه، والمراد به هنا الموت.
- (٢١) الأسوة: القدوة وجمعها أسي.
- (٢٢) الندمان: النديم على الشراب وندمان البلى: كناية عن الميت.

(٢٣) يشير إلى قول نابليون: «إنَّ الرصاصة التي تخرق هذا الصدر لم تخلق بعد» يقول: إنك لكثرة ما اخترت المنايا بقتل أعدائك أصبحت تعرف متى تحين الآجال.

(٢٤) يشير إلى ما فعل نابليون بالبابا.

(٢٥) جلى: سبق، والغرة — في جبين الفرس: بياض. ومسح الجبين: عادة لسؤاس الخيل يأتونها بعد سبق جياهم في حلبة الرهان. ولا يخفى ما في البيت كله من مراعاة النظر.

(٢٦) يريد بقيصري الأنساب: ملكي روسيا والنمسا، وقد ولدا للملك والسلطان. وقصر النفس نابليون، وهو الذي سوّد نفسه ولم تسوّد الأنساب.

(٢٧) الإشارة إلى نابليون، يشير إلى أنه هو الذي توجّ نفسه بيده يوم قُدّم إليه التاج، ولم ير لأحد ممّن قدّموه له حقًا في هذا العمل.

(٢٨) استرلتز: موقعة من المواقع التي انتصر فيها نابليون.

(٢٩) الملك: بتسكين اللام، هو الملك.

(٣٠) سانت هيلين: الجزيرة التي نُفي إليها نابليون.

(٣١) يشير إلى قول نابليون يوم بُشّر بولي عهده أو كما سمّاه «ملك روما» المستقبل

لي.

(٣٢) الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٣٣) الأديم هنا: سطح الأرض. وهرأ اللحم: أنضجه. والكنين: المستور في جحره.

(٣٤) المغار: الغارة على الأعداء. والغار: ورق الكروم، وقد كان يُتخذ منه إكليل

للفاتح المنصور عند القدماء.

(٣٥) التزكية: المدح. والذبح: ما يذبح.

(٣٦) الغابر: الماضي والآتي، من أسماء الأضداد.

(٣٧) الصيد: الملوك.

(٣٨) يشير إلى تلك الجملة المشهورة التي قالها وهو على قمة الهرم يشجّع جنوده

البواسل: «أيها الجنود: أن أربعين قرنًا تنظر إليكم من قمة الأهرام».

(٣٩) صفح الكتاب: قلب صفحاته.

(٤٠) القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

(٤١) الضئين: الغنم.

تكريم^١

وطنٌ يرفُّ هوىً إلى شُبَّانِه
هم نَظْمُ جَلِيَّتِه، وجَوْهَرُ عِقْدِه
يرجو الربيعَ بهم ويأملُ دولَّةَ
من غاب منهم لم يغب عن سَمْعِه
وإذا أتاه مبشَّرٌ بقُدومِهم
ولقد يَخُصُّ النافعينَ بعَطْفِه
هيهات ينسى بذلَهم أرواحَهم
وقفوا له دون الزمانِ ورِيْبِه
في شدَّةٍ نُقِلَتْ أناةٌ كُهولِه

كالرَّوضِ رَفَّتِه على رِيحانِه^١
والعِقدِ قِيمَتُه يَتِيْمُ جُمانِه^٢
من حَسَنِه، ومن اعتدالِ زمانِه^٣
وضميرِه، وفؤادِه، ولسانِه
فمن القميصِ ومن شذى أُرْدانِه^٤
كالشيخِ خَصَّ نجيبَه بجنانِه^٥
في حَفْظِ راحَتِه وجلب أمانِه
ومشتِ حداثَتُهم على حدَثانِه^٦
فيها، وحكمتُهم إلى فتيانِه^٧

* * *

قُمْ يا خطيبَ الجمعِ، هات من الحلى
فلطالما أبدى الحنينَ لقسَّه
نادِ الشبابَ، فلم يزلْ لك نادياً

ما كنتَ تنشرُه على آذانه
واهتزَّ أشواقاً إلى سَحبانِه^٨
والمرءُ ذو أثرٍ على أخدانِه^٩

^١ نظم صاحب الديوان هذه القصيدة الاجتماعية في احتفال تكريمي أقيم للأساتذة: عبد الملك حمزة، وإسماعيل كامل، وعوض البحراوي، في فندق شبرد.

أُمِدُّ حُدَاكَ فِي النَّجَائِبِ تَنْصَرِفُ
أَلْقِ النَّصِيحَةَ غَيْرَ هَائِبٍ وَقِعْهَا
قُلْ لِلشَّبَابِ: زَمَانُكُمْ مُتَحَرِّكٌ
قَمْتُمْ عَلَى الْأَحْلَامِ تَلْتَزِمُونَهَا
وَتُنَازِعُونَ الْحَيَّ فَضَلَ ثِيَابِهِ
وَلَقَدْ صَدَقْتُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ الْهَوَى
أَمَلٌ بَذَلْتُمْ كُلَّ غَالٍ دُونَهُ
الْلَيْثُ يَدْفَعُكُمْ بِشِدَّةٍ بِأَسِهِ
يُرِيدُ هَذَا الطَّيْرُ حَرًّا مُطْلَقًا

بَهْوَى أَعْنَيْتَهَا إِلَى تَحْنَانِهِ^{١٠}
لَيْسَ الشَّجَاعُ الرَّأْيُ مِثْلَ جَبَانِهِ
هَلْ تَأْخُذُونَ الْقِسْطَ مِنْ دَوْرَانِهِ^{١١}
كَالْعَالِمِ الْخَالِي عَلَى أَوْثَانِهِ^{١٢}
وَالْمِيتَ مَا قَدْ رَثَ مِنْ أَكْفَانِهِ
وَالْحَرُّ يَصْدُقُ فِي هَوَى أَوْطَانِهِ
وَفَقَدْتُمْ مَا عَزَّ فِي وَجْدَانِهِ^{١٣}
عَنْهُ، وَيَطْعِمُكُمْ بِفِرْطِ لِبَانِهِ^{١٤}
لَكِنْ بِأَعْيُنِهِ وَفِي بُسْتَانِهِ

أَوْفَدْتُمْ وَفَدًا، وَأَوْفَدَ رَبُّكُمْ
العَصْرُ حُرٌّ، وَالشُّعُوبُ طَلِيقَةٌ
فَاضَ الزَّمَانُ مِنَ النُّبُوغِ، فَهَلْ فَتَى
أَيْنَ التِّجَارَةِ وَهِيَ مَضْمَارُ الْغِنَى؟
أَيْنَ الْجَوَادُ عَلَى الْعُلُومِ بِمَالِهِ؟
أَيْنَ الزَّرَاعَةُ فِي جَنَانٍ تَحْتَكُمُ
أُثْدَا أَصَابِ الْقَطَنِ كَاسِدُ سَوْقِهِ
يَا مَنْ لَشَعْبٍ رَزَوَهُ فِي مَالِهِ
الْمَلِكُ كَانَ، وَلَمْ يَكُنْ قَطُنٌ، فَلَمْ
(الْفَاطِمِيَّةُ) شَيِّدَتْ مِنْ عَزِّهِ
بِالْقَطَنِ لَمْ يَرْفَعْ قَوَاعِدَ مُلْكِهِ
لَكِنْ بِأَوَّلِ زَارِعِ نَقْضِ الثَّرَى
وَبِكُلِّ مُحْسِنٍ صَنْعَةٍ فِي دَهْرِهِ
وَبِهَمَةٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ حَلَّقَتْ
مَلِكٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ كَانَ بِنَاؤُهُ
فَأَتَا هَيْكَلُ إِنْ بَنَيْتُمْ، وَاقْبَسُوا

مَعَهُ الْعَنَاءَةَ، فَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ
مَا لَمْ يَحْزُهَا الْجَهْلُ فِي أَرْسَانِهِ^{١٥}
غَمَرَ الزَّمَانُ بَعْلَمَهُ وَبَيَانِهِ؟
أَيْنَ الصَّنَاعَةُ وَهِيَ وَجْهٌ عَنَانِهِ؟^{١٦}
أَيْنَ الْمِشَارِكُ مَصْرَ فِي فِدَانِهِ؟^{١٧}
كَخَمَائِلِ الْفِرْدُوسِ أَوْ كَجِنَانِهِ؟^{١٨}
قَمْنَا عَلَى سَاقٍ إِلَى أَثْمَانِهِ؟
أَنْسَاهُ ذَكَرَ مَصَابِهِ بِكِيَانِهِ؟^{١٩}
يُغْلَبُ أَبَوْتُنَا عَلَى عُمرَانِهِ^{٢٠}
وَبَنَى (بَنُو أَيُّوبَ) مِنْ سُلْطَانِهِ^{٢١}
فِرْعَوْنُ، وَالْهَرْمَانُ مِنْ بَنِيَانِهِ
بِذَكَائِهِ، وَأَثَارُهُ بِبَنَانِهِ^{٢٢}
تَتَعَجَّبُ الْأَجْيَالُ مِنْ إِتْقَانِهِ
فِي الْجَوِّ. وَارْتَفَعَتْ عَلَى كِيَوَانِهِ^{٢٣}
مَنْ نَحْتِ أَوْلَكُمُ وَمَنْ صَوَّانِهِ^{٢٤}
مَنْ عَرْشُهُ فِيهَا، وَمَنْ تِيْجَانِهِ

هوامش

- (١) يرف هوى إلى شَبَّانه: يرتاح إليهم. والرَّوض: الأرض المخضرة بالنبات. جمع روضة.
- (٢) نظم حليته: جمعها وضم بعضها إلى بعض. واليتيم: الثمين الذي لا نظير له. والجُمان: اللؤلؤ. واحدته: جمانة.
- (٣) يرجو الربيع.. إلخ: أي إن هذا الوطن يرجو أن يكونوا له مثل الربيع، وهو خير فصول السنة، ويأمل أن تقوم له دولة منهم، لها من الحسن والاعتدال ما يكون منها للربيع وزمنه.
- (٤) وإذا أتاه مبشّر.. إلخ: أي إذا أتى الوطن مبشر بأنهم قادمون عليه من غيبتهم، كان تأثير هذه البشرى فيه كتأثير قميص يوسف في أبيه يعقوب. والشذى: قوة ذكاء الرائحة. والأردان: جمع ردن، وهو أصل الكم.
- (٥) يخصُّ النافعين بعطفه: يفردهم به. والنجيب: الولد كرم حسبه وحمد رأيه أو قوله أو فعله.
- (٦) الحادثة: صغر السن. والحدثان (بفتح الدال): نوائب الدهر.
- (٧) الأناة: الحلم والوقار.
- (٨) قسّ بن ساعدة: خطيب عربي من نجران يُضَرَّبُ المثل ببلاغته. وسحبان: خطيب كذلك، وهو من وائل، والضمير فيها للوطن.
- (٩) الشباب: جمع شاب. والأخذان: الأصدقاء، جمع خدن.
- (١٠) الحُداء: الغناء للإبل لتنشط في مسيرها. والنجائب: النياق الكريمة. والأعنة: جمع عنان، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة. والتحنان: الحنين.
- (١١) القسط: النصيب.
- (١٢) الأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم. والخالى: الماضي. والأوثان: جمع وثن: وهو ما يتخذ للعبادة من حجر ونحوه.
- (١٣) وجدان الشيء: إدراكه والظفر به.
- (١٤) اللبان: اللب.
- (١٥) الأرسان: جمع رسن، وهو الزمام يكون على أنف الدابة.
- (١٦) العنان (بفتح العين): السحاب.
- (١٧) الجواد: الكريم الكثير الجود.

(١٨) الجنان: جمع جنة. والخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الكثير الملتف. والفردوس: الجنة أو نعيمها.

(١٩) يامن لشعب.. إلخ: كان قد لحق القطن كساد عظيم؛ فارتاع له المصريون جميعاً. وكاد يشغلهم أمره عن الجهد في قضية الاستقلال، فهو يشير إلى ذلك. (٢٠) أبوتنا: آبائنا.

(٢١) الفاطمية: أي الخلفاء الفاطميون، أو الدولة الفاطمية، وهي إحدى الدول التي قامت في مصر بعد الإسلام، ومؤسسها المعز لدين الله، قدم من بلاد المغرب ففتح مصر، وكانت دولتهم عزيزة الجانب مرهوبة السلطان. وبنو أيوب أيضاً: مؤسسو الدولة الأيوبية، وكان أعظمهم شأنًا السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي.

(٢٢) الثرى: التراب، والمراد به الأرض. ونقضها: أي شقها للزرع. والبنان: أطراف الأصابع.

(٢٣) حلقت: من حلّق الطائر، إذا ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة. وكيوان: اسم زحل بالفارسية.

(٢٤) الصوّان (بفتح الصاد وتشديد الواو): ضرب من الحجارة شديد.

اعتداء^١

نَجَا وَتَمَائِلَ رُبَانُهَا وَدَقَّ البَشَائِرَ رُكْبَانُهَا^١
وَهَلَّلَ فِي الجَوِّ قَيْدَوْمُهَا وَكَبَّرَ فِي المَاءِ سُكَّانُهَا^٢
تَحَوَّلَ عَنْهَا الأَذَى، وَانْتَنَى عُبَابُ الخُطُوبِ وَطُوفَانُهَا
نَجَا (نُوحُهَا) مِنْ يَدِ المَعْتَدِي وَضَلَّ المَقَاتِلَ عُدْوَانُهَا^٣
يَدٌ لِّلْعَنَائِيَّةِ، لَا يَنْقُضِي — وَإِنْ نَفَدَ العُمُرُ — شُكْرَانُهَا
وَقَى الأَرْضَ شَرَّ مَقَادِيرِهِ لَطِيفُ السَّمَاءِ وَرَحْمَانُهَا^٤
وَنَجَّى الكِنَانَةَ مِنْ فَتْنَةٍ تَهَدَّدَتِ النِّيلَ نِيرَانُهَا^٥
يَسِيلُ عَلَى قَرْنِ شَيْطَانِهَا عَقِيقُ الدِّمَاءِ وَعِقْيَانُهَا^٦
فِيَا (سَعْدُ)، جُرْحُكَ سَاءَ الرِّجَالِ فَلَا جُرَحْتَ فِيكَ أَوْطَانُهَا
وَقَتَّكَ العَنَائِيَّةُ بِالرَّاحَتَيْنِ وَطَوَّقَ جَيْدَكَ إِحْسَانُهَا^٧
مَنَايَا أَبِي اللّهِ إِذْ سَاوَرَتَكَ فَلَمْ يُلْقِ نَابِيَهُ تُعْبَانُهَا^٨

^١ اعتزم سعد زغلول السفر إلى إنجلترا للمفاوضة مع حكومتها، وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذ؛ فترصد له شاب وأطلق عليه النار، ولكن الله أنجى حياته، ووقى البلاد شر فتنة كادت تعصف بين الأحزاب؛ فنظم صاحب الديوان هذه القصيدة تهنئة له، ونصيحة لأهل النزق والطيش من الشبان، وحضاً على الإصلاح العملي، وتذكيراً بمنزلة السودان وقناة السويس، اللذين هما من مصر بمنزلة الروح من الجسد.

حَوَتْ دَمَكِ الْأَرْضُ فِي أَنْفِهَا زَكِيًّا، كَأَنَّكَ (عُثْمَانُهَا)^٩
 وَرَقَّتْ لَأَثَارِهِ فِي الْقَمِيصِ كَأَنَّ قَمِيصَكَ قَرَأَهَا
 وَرِيَعَتْ كَمَا رِيَعَتِ الْأَرْضُ فِيكَ نَوَاحِي السَّمَاءِ وَأَعْنَانُهَا^{١٠}
 وَلَوْ زُلَّتْ غُيَّبَ (عَمْرُو) الْأُمُورِ وَأَخْلَى الْمَنَابِرَ (سَحْبَانُهَا)^{١١}

* * *

رَمَاكَ عَلَى غِرَّةٍ يَافِعُ مُثَارُ السَّرِيرَةِ غَضْبَانُهَا^{١٢}
 وَقَدَمًا أَحَاطَتْ بِأَهْلِ الْأُمُورِ مَيُولُ النُّفُوسِ وَأَضْغَانُهَا^{١٣}
 تَلَمَّسَ نَفْسَكَ بَيْنَ الصَّفُوفِ وَمَنْ دُونَ نَفْسِكَ إِيْمَانُهَا^{١٤}
 يَرِيدُ الْأُمُورَ كَمَا شَاءَهَا وَتَأْبَى الْأُمُورُ وَسُلْطَانُهَا
 وَعِنْدَ الَّذِي قَهَرَ الْقَيْصَرَيْنِ مَصِيرُ الْأُمُورِ وَأَحْيَانُهَا^{١٥}
 وَلَوْ لَمْ يَسَابِقْ دُرُوسَ الْحَيَاةِ لِبَصَّرَهُ الرُّشْدَ لِقَمَانُهَا^{١٦}
 فَإِنَّ اللَّيَالِيَّ عَلَيْهَا يَحُولُ شَعُورُ النُّفُوسِ وَوُجْدَانُهَا^{١٧}
 وَيَخْتَلِفُ الدَّهْرُ حَتَّى يَبِينَ رُعَاةَ الْعُهُودِ وَخَوَانُهَا^{١٨}

* * *

أَرَى مَصْرَ يَلْهُو بِحَدِّ السَّلَاحِ وَيَلْعَبُ بِالنَّابِ وَلِدَانُهَا^{١٩}
 وَرَاحَ بَغِيرَ مَجَالِ الْعُقُولِ يُجِيلُ السِّيَاسَةَ غُلْمَانُهَا
 وَمَا الْقَتْلُ تَحِيًّا عَلَيْهِ الْبِلَادُ وَلَا هِمَّةُ الْقَوْلِ عَمْرَانُهَا
 وَلَا الْحَكْمُ أَنْ تَنْقُضِي دَوْلَةً وَتُقْبِلَ أُخْرَى وَأَعْوَانُهَا
 وَلَكِنْ عَلَى الْجَيْشِ تَقْوَى الْبِلَادُ وَبِالْعِلْمِ تَشْتَدُّ أَرْكَانُهَا
 فَأَيْنَ النَّبُوغُ؟ وَأَيْنَ الْعُلُومُ؟ وَأَيْنَ الْفَنُونُ وَإِتْقَانُهَا؟
 وَأَيْنَ مِنَ الْخُلُقِ حُظُّ الْبِلَادِ إِذَا قَتَلَ الشَّيْبَ شَبَانُهَا؟^{٢٠}
 وَأَيْنَ مِنَ الرِّيحِ قَسْطُ الرِّجَالِ إِذَا كَانَ فِي الْخُلُقِ خَسْرَانُهَا؟
 وَأَيْنَ الْمَعْلَمُ؟ مَا خَطْبُهُ؟ وَأَيْنَ الْمَدَارِسُ؟ مَا شَأْنُهَا؟
 لَقَدْ عِبِثْتَ بِالنِّيَاقِ الْحَدَاةِ وَنَامَ عَنِ الْإِبِلِ رُعْيَانُهَا^{٢١}
 إِلَى الْخُلُقِ أَنْظُرْ فِيمَا أَقُولُ وَتَأْخُذْ نَفْسِي أَشْجَانُهَا

* * *

ويا (سعدُ) أنتَ أَمِينُ البلاد
ولن ترتضي أن تُقَدَّ القناة
وَحَجَّتُنَا فيهما كالصباح
فمصرُ الرِّياضُ، وسودانها
وما هو ماءٌ، ولكنَّه
تُتَمِّمُ مصرَ ينابِيعه
وأهلوه منذ جرى عذُّبه
وأما الشريكُ فِعَلَّاته
وحربُ مَضَّتْ نحن أوزارُها
وكم مَنْ أَتَاكَ بمجموعة
فأين من (الْمَنْشِ) بحرُ الغزال
وأين التماسيحُ من لُجَّةٍ
ولكنْ رُءُوسٌ لأموالهم
ودعوى القويِّ كدعوى السباع

قد امتلأت منك أَيَمَانُها^{٢٢}
وَيُبْتَرُ من مصرَ سوادنها^{٢٣}
وليس بمُعِيكَ تبيانها^{٢٤}
عيون الرِّياضِ وخلصانها^{٢٥}
وريدُ الحياةِ وشريانها^{٢٦}
كما تَمَمَ العينَ إنسانها^{٢٧}
عشيرة مصرَ وجيرانها
هي الشُّرَكَاتُ وأقطانها
وخيلٌ خَلَّتْ نحن فرسانها^{٢٨}
من الباطل، الحقُّ عنوانها
وفيض (نيانزا) وتهتانها؟^{٢٩}
يموتُ من البردِ حيتانها!^{٣٠}
يحرِّكُ قَرْنِيهِ شيطانها
من النابِ والظفرِ بُرْهانها

هوامش

- (١) تماثل العليل: أقبل وقارب البرء. والرَّبَّان: مجري السفينة.
- (٢) هلل: قال لا إله إلا الله. وقيدومها: صدرها. وسكانها — بضم السين — ذنبتها.
- (٣) المقاتل: جمع مقتل: وهو العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم.
- (٤) المقادير: جمع مقدور، وهو الأمر المحتوم. والضمير للطفيف السماء وهو الله

تعالى.

- (٥) الكنانة: مصر.
- (٦) العقيان: الذهب، أي الدِّماء التي تشبه في حمرتها العقيق والعقيان.
- (٧) الراحتان: تثنية راحة. وهي الكفُّ. والجيد: العنق.
- (٨) المنايا: جمع منيَّة، وهي الموت. وساروتك: وثبت عليك.
- (٩) عثمانها: يريد الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ثالث الخلفاء الراشدين، قُتِلَ وهو جالس يتلو القرآن وفي حجره المصحف.

- (١٠) ريعت: فزّعت، بتشديد الزاي. وأعنان السماء: نواحيها.
- (١١) عمرو الأمور: أي مصرّف الأمور بحذقه وفطنته، وهو عمرو بن العاص (رضى الله عنه)، وسحبان: خطيب عربي مشهور من بني وائل.
- (١٢) اليافع: مَنْ راهق العشرين، أو مَنْ ترعرع وناهز البلوغ. والسريرة: ما يسرّه الإنسان من أمره.
- (١٣) الأضغان. الأحقاد.
- (١٤) تلمس نفسك: تطلبها مرة بعد أخرى
- (١٥) مصير الأمور: مرجعها. وأحيانها: جمع حين، وقالوا: إنه وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان طالت أو قصرت. والقيصران: ملك الروم وملك الفرس حين الفتح الإسلامي والله تعالى هو الذي قهرهما.
- (١٦) لقمانها، أي مَنْ هو كلقمان، وهو يُضْرَبُ به المثل.
- (١٧) عليها يحول: أي يتحوّل ويتبدّل. والمراد أن ما يكون للنفوس من ميول ووجدان يتغير بمضي الزمن.
- (١٨) رعاة اليهود: الحافظون لها، جمع راعٍ. وخوانها: جمع خائن.
- (١٩) الولدان: الصبيان، جمع وليد.
- (٢٠) الخلق: المروءة والدين والسجّية، ويغلب الآن على السجّية الفاضلة والمعنى أنه إذا كان شبان البلاد يقتلون شبيها فلا حظّ لها من الخلق النافع.
- (٢١) الحداة: جمع حادٍ، وهو مَنْ يغني للإبل لتتنشط في سيرها.
- (٢٢) أيمانها: جمع يمين، وهي إحدى يدي الإنسان، والمراد أنها تأكّدت فيما بلغ إليه حسن ظنها أنك أمين عليها، كما يتأكّد الإنسان مما يكون في يده.
- (٢٣) القدُّ والبتر، هنا: بمعنى الضياع.
- (٢٤) وليس بمعبيك: أي بمعجزك.
- (٢٥) الرّياض: أي كالرّياض في نضرتها وجمالها. والسودان: كالعيون والخلجان التي تستقي منها ماءها، فكما تجفّ الرّياض وتقفّر إذا انقطعت عنها العيون والخلجان، كذلك تقفّر مصر وتبور إذا فُصلَ عنها السودان.
- (٢٦) الوريد: عرق في العنق من الأوردة التي ترتبط بها الحياة. والشريان: العرق الذي يحمل الدّم من القلب.
- (٢٧) الينابيع: عيون الماء، وأحدها ينبوع. وإنسان العين: الدائرة التي ترى في سوادها.

- (٢٨) أوزارها: أسلحتها، جمع وزر، وهو السلاح.
- (٢٩) المنش: بحر في الشمال الغربي لأوربا، بين إنجلترا شمالاً وفرنسا جنوباً. وبحر الغزال: أحد فروع النيل الأبيض في السودان. ونيانزا: إحدى البحيرات الثلاث التي يخرج منها النيل.
- (٣٠) وأين التماسيح.. إلخ: أي إن مسافة التقاطع وعدم الاتصال بعيدة جداً بين السودان وبلاد الإنكليز، بقدر التناقض بين طبيعتهما؛ فهذا تعيش التماسيح في مائه، وتلك تموت الحيتان في مائها.

توت عنخ آمون

قفني — يا أختَ (يوشَعَ) — خبرينا
وقصّي من مصارعهم علينا
فمثلُكَ من روى الأخبارَ طرّاً
نرى لك في السماءِ خضيبَ قرْنٍ
مشيت على الشبابِ شواظَ نارٍ
تُعِينِنَ الموالد والمنايا
فيا لكِ هِرَّةً أكلت بنيها
أحاديثَ القرونِ الغابرينا^١
ومن دُولاتهم ما تعلمينا^٢
ومن نسب القبائل أجمعينا^٣
ولا نُحصي على الأرض الطعينا^٤
ودرت على المشيبِ رحى طحونا^٥
وتبنين الحياة وتهدميننا^٦
وما وَلدوا وتنتظر الجنيينا^٧

* * *

أُمُّ المالِكينَ بني (أمون)
ولدت له (المأمين) الدواهي
فكانوا الشُّهَبَ حين الأرض ليلٌ
مشّت بمنارهم في الأرض (روما)
ملوكُ الدهر بالوادي أقاموا
فرُبَّ مصفّد منهم، وكانت
تقيّد في التراب بغير قيّد
تعالى الله، كان السحرُ فيهم
غدواً يبنون ما يبقى، وراحوا
ليهنِكَ أنهم نزعوا (أمونا)^٨
ولم تلدي له قطُّ (الأمينا)^٩
وحين الناسُ جدُّ مُضَلَّلينا
ومن أنوارهم قُبِسَتْ (أثينا)^{١٠}
على (وادي الملوك) مُحجَّبينا^{١١}
تُساقُ له الملوكُ مُصفّدينا^{١٢}
وحلَّ على جوانبه رهيينا
أليسوا للحجارة مُنطَقينا؟^{١٣}
وراءَ الآبداتِ مُخلّدينا

إذا عَمِدُوا لِمَأْثِرَةٍ أَعْدُوا
وليس الخلدُ مرتبةً تُلْقَى
ولكن مُنْتَهَى هَمَمٍ كَبَارٍ
وسرُّ العبقريّة حين يسري
وأثارُ الرجال إذا تناهتْ
وأخذك من فم الدنيا ثناءً
فغالي في بنيك الصيدِ غالي
شبابٌ قَنَعَ لا خيرَ فيهم
فناجيتهم بعرشٍ كان صنواً
وكان العزُّ حليته، وكانتْ
وتاج من فرائده (ابن سיתי)
عَلَا حَدًّا بِهِ صَعَرٌ، وَأَنْقَا
ولستُ بقائل: ظلموا، وجاروا
فإننا لم نُوقِ النقصَ حتى
وما (البستيل) إلا بنت أمسٍ
ورُبّةٌ بيعةٍ عَزَّتْ وطالتْ
مُشَيِّدَةً لَشَافِي العُمِّي (عيسى)

لها الإتقان والخلق المتينا
وتؤخذ من شفاه الجاهلينا
إذا ذهبَتْ مصادِرُها بقينا
فينتظمُ الصنائعَ والفنونا
إلى التاريخ خيرَ الحاكمينا
وتركك في مسامعها طنيناً^{١٤}
فقد حُبَّ الغلو إلى بنينا^{١٥}
وبُورِك في الشبابِ الطامحين^{١٦}
لعرشك في سبيلته سَنِينَا^{١٧}
قوائمه الكتابُ والسفينَا^{١٨}
ومن خرزاته (خوفو) و(مينَا)^{١٩}
ترفع في الحوادث أن يدينا^{٢٠}
على الأجراء، أو جلدوا القطينا^{٢١}
نُطالبَ بالكمالِ الأولينا^{٢٢}
وكم أكلَ الحديدُ بها صَحِينَا^{٢٣}
بناها الناسُ أمس مُسَخَّرِينَا^{٢٤}
وكم سَمَلَ القسوسُ بها عيونَا^{٢٥}

(أخا اللوردات)، مثلك مَنْ تحلّى
لك الأصل الذي نَبَتَتْ عليه
ومالك لا يُعَدُّ، وكلُّ مالٍ
وجدتَ مذاقَ كلِّ تليدٍ مجدٍ
نشرتْ صفائحا، فجزتكَ مصرُ
فإن تكُ قد فتحتَ لها كنوزًا
فلو (قارون) فوق الأرضِ إلّا
سبيلُ الخلد كان عليك سهلاً
رأيتَ تنكراً، وسمعتَ عتباً

بحلية آله المُتَطَوِّلينا^{٢٦}
فروعُ المجد من (كرنارفونا)^{٢٧}
سَيَفْنِي، أو سَيُفْنِي المالكينا^{٢٨}
فكيف وجدتَ مجدَ الكاسبينا؟^{٢٩}
صحائفَ سُودٍ لا ينطوينا
فقد فتحتَ لك الفتحَ المبينا^{٣٠}
تمنّى لو رُضيتَ به قرينا^{٣١}
وعادته يكُدُّ السكالينا
فعذراً للغضاب المحنقينَا^{٣٢}

أَبُوتْنَا وَأَعْظُمُهُمْ تُرَاثُ نَحَازِرُ أَنْ يَثُولَ لآخِرِينَا^{٣٢}
 وَنَأْبَى أَنْ يَحُلَّ عَلَيْهِ ضَيْمٌ وَيَذْهَبَ نَهْبَةً لِلنَّاهِبِينَا^{٣٤}
 سَكَّتْ، فَحَامَ حَوْلَكَ كُلُّ ظَنٍّ وَلَوْ صَرَّحْتَ لَمْ تُثِّرِ الظُّنُونَا^{٣٥}
 يَقُولُ النَّاسُ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ وَمَالِكٌ حِيلَةٌ فِي الْمَرْجَفِينَا^{٣٦}
 أَمِنْ سَرَقِ الْخَلِيفَةِ وَهُوَ حَيٌّ يَعِفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مَكْفَنِينَا؟^{٣٧}

خَلِيلِيْ اهْبِطَا الْوَادِي، وَمِيلَا إِلَى غُرْفِ الشَّمُوسِ الْغَارِبِينَا^{٣٨}
 وَسِيرَا فِي مُحَاجِرِهِمْ رَوِيْدًا وَطُوفَا بِالْمُضَاجِعِ خَاشِعِينَا^{٣٩}
 وَخُصًّا بِالْعِمَارِ وَبِالْتَحَايَا رَفَاتَ الْمَجْدِ مِنْ (تُوتَنْخَمِينَا)^{٤٠}
 وَقَبْرًا كَادَ مِنْ حَسَنِ وَطِيبٍ يَضِيءُ حَجَارَةً، وَيَضُوعُ طِينَا^{٤١}
 يُخَالُ لِرُوعَةِ التَّارِيخِ قُدَّتْ جَنَادِلُهُ الْعَلَا مِنْ (طُورِ سِينَا)^{٤٢}
 وَكَانَ نَزِيلُهُ بِالْمَلِكِ يُدْعَى فَصَارَ يُلقَّبُ الْكَنْزَ الثَّمِينَا^{٤٣}
 وَقُومًا هَاتِفَيْنِ بِهِ، وَلَكِنْ كَمَا كَانَ الْأَوَائِلُ يَهْتَفُونَا^{٤٤}
 فَتَنَّمْ جَلَالَةُ قَرَّتْ وَرَامَتْ عَلَى مَرِّ الْقُرُونِ الْأَرْبَعِينَا^{٤٥}
 جَلَالَ الْمَلِكِ أَيَّامٌ وَتَمْضِي وَلَا يَمْضِي جَلَالُ الْخَالِدِينَا^{٤٦}
 وَقُولَا لِلنَّزِيلِ قَدُومَ سَعْدٍ وَحَيًّا لِلَّهِ مَقْدِمَكَ الْيَمِينَا^{٤٧}
 سَلَامٌ يَوْمَ وَارْتَكَ الْمَنَايَا بِوَادِيهَا، وَيَوْمَ ظَهَرَتْ فِينَا^{٤٨}
 خَرَجْتَ مِنَ الْقُبُورِ خُرُوجَ عَيْسَى عَلَيْكَ جَلَالَةٌ فِي الْعَالَمِينَا^{٤٩}
 يَجُوبُ الْبَرْقُ بِاسْمِكَ كُلِّ سَهْلٍ وَيَخْتَرِقُ الْبُخَارُ بِهِ الْحَزُونَا^{٥٠}
 وَأَقْسَمُ كُنْتُ فِي (لُوزَانَ) شُغْلًا وَكُنْتُ عَجِيبَةً الْمُتَفَاوِضِينَا^{٥١}
 أَتَعْلَمُ أَنَّهُمْ صَلَفُوا، وَتَاهُوا وَصَدُّوا الْبَابَ عَنَّا مُوَصِّدِينَا؟^{٥٢}
 وَلَوْ كُنَّا نَجِرُّ هُنَاكَ سَيْفًا وَجَدْنَا عَنْدهُمْ عَطْفًا وَلِينَا^{٥٣}
 سَيَقْضِي (كَرَزَنُ) بِالْأَمْرِ عَنَّا وَحَاجَاتُ (الْكَنَانَةِ) مَا قُضِينَا؟^{٥٤}

تَعَالَ الْيَوْمَ خَبَرْنَا: أَكَانَتْ نَوَاكَ سِنَاتِ نَوْمٍ، أَمْ سَنِينَا؟^{٥٥}
 وَمَاذَا جَبْتَ مِنْ ظِلْمَاتِ لَيْلٍ بَعِيدِ الصَّبْحِ، يُنْضِي الْمُدْلَجِينَا؟^{٥٦}

وهل تبقى النفوس إذا أقامت
وما تلك القبابُ؟ وأين كانت؟
مُمرّدة البناء، تُخالُ برجًا
تغطّي بالآثاث فكان قصرًا
حملت العرش فيه، فهل تُرجى
وهل تلقى المهيمَن فوق عرش
وما بالُ الطعام يكاد يقدي
ولم تكُ أمس تصبرُ عنه يومًا
لقد كان الذي حَذَرَ الأوالي
يحبُّ المرءُ نبشَ أخيه حيًّا
سُلبت من الحفائر قبل يوم
فإن تكُ عند بعثٍ فيه شكٌ
ولو لم يعصموك لكان خيرًا
يُضِرُّ أخو الحياة، وليس شيءٌ

هياكلُها، وتبلى إن بلينا؟
وكيف أضلَّ حافرُها القرونا؟^{٥٧}
ببطن الأرض محطوطًا دفينا؟^{٥٨}
وبالصور العتاق فكان زونا؟^{٥٩}
وتأملُ دولةً في الغابرينا؟^{٦٠}
ويلقاه الملا مُترجلينا؟^{٦١}
كما تركته أيدي الصانعينا؟^{٦٢}
فكيف صبرت أحقابًا مئينا؟^{٦٣}
وخاف بنو زمانك أن يكونا؟^{٦٤}
وينبشه ولو في الهالكينا
يسلُّ من التراب الهامدينا؟^{٦٥}
فإن وراءه البعث اليقيننا؟^{٦٦}
كفى بالموت معتصمًا حصينا؟^{٦٧}
بضائره إذا صحب المنونا؟^{٦٨}

زمانُ الفرد — يا (فرعون) — ولّى
وأصبحت الرعاة بكل أرضٍ

ودالت دولة المتجبرينا؟^{٦٩}
على حكم الرعية نازلينا

هوامش

(١) الخطاب للشمس، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس، فقد روي أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم، ويدخل السبت فلا يحلُّ له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فردَّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم، وقد لَحَّ ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله:

وما أنس لا أنس المليحة إذا بدت دجى، فأضاء الأفق من كل موضع

فحدّثت نفسي أنها الشمس أشرقت وأنّي قد أوتيت آية يوشع

القرون الغابرة: الأجيال الماضية.

(٢) قصّي: حدّثي، ومنه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. ومصارعهم: مهالكهم. ودولاتها: جمع دولة، بضم ففتح، وهي الدّاهية، يقال: جاء الدّهر بدولته، أي بدواهيه.

(٣) طرّاً: جميعاً من دون أن تترك منها شيئاً. ونسب القبائل: ذكر أنسابها.

(٤) الخضيب: الملّون بالخضاب. والقرن: حاجب الشمس. والطعين: المطعون.

(٥) بالضم والكسر: دُخان النار.

(٦) المنايا: جمع منيّة، وهي الموت.

(٧) الهرة: القطّة، ويقال في المثل: «أعق من الهرة»؛ لأنها تأكل أولادها. والجنين:

الولد ما دام في الرحم.

(٨) نزع أباه: أشبهه. إشارة إلى أمّ (آمون). واختلف المؤرخون: هل كانت أمّه

زوجة شرعية لأبيه أو إحدى سراريه؟ وكان من عادتهم أن لا يتولى الملك إلا مَنْ كانت أمّه زوجة شرعية لأبيه، إلّا أن (توت عنخ آمون) تولّى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك خون آتون.

(٩) إشارة للخليفتين: الأمين والمأمون، وقد اختار المأمون؛ لأنه كان أفضل بني

العباس حمزماً، وحلماً، وعلماً، ورأياً، ودهاءً، وهيبة، وشجاعة، أي ولدت له أبناء صاروا ملوكاً، وكانت صفاتهم في الملك كالصفات التي عرفناها في المأمون.

(١٠) روما: عاصمة إيطالية. وقبست: أخذت. وأثينا: عاصمة اليونان. وفيه إشارة

إلى ما أخذته الأم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة.

(١١) وادي الملوك: هو إلى الشاطئ الغربي للنيل بالأقصر على مسير نصف ساعة

تقريباً، وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها. وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإتقانها إلى حدّ يفوق الوصف.

(١٢) مصقّدين: مقيدّين، يصف فراعنة مصر في مقرّهم الأخير. وهو مقام يتساوى

فيه الملوك والسوقة.

(١٣) منطقتين: أي أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة؟ ويريد أنهم أنشئوا من الأبنية

ما يدلّ على عظمة شأنهم دلالة النطق على معناه، وأشهر الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة، وهما من أعجب ما بنى البُناة، وفيهما دليلٌ على أن المصريين القدماء

كانوا أعلم الأمم قاطبة بفنّ العمارة وهندستها، وقد توالى الدَّهر عليها فلم ينل منهما مرُّ الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب، قال أحد الحكماء: «كل شيء يُخْشَى عليه الدَّهر إلا الأهرام، فإن الدَّهر يُخْشَى عليه منها».

(١٤) الطنين: صوت الذُّباب والطست والناقوس ونحو ذلك.

(١٥) الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل يرفع رأسه كبراً وعجباً ولا يلتفت من زهوه يميناً وشمالاً.

(١٦) شباب قُنْع: أي قانعون لا يطلبون شيئاً وراء ما بلغوا. والطامحون: المتفانون في طلب المعالي.

(١٧) الصنو: الأخ الشقيق والابن. والسنين (بفتح السين) مَنْ يكون في سنك.

(١٨) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش.

(١٩) ابن سיתי، هو رمسيس الثاني المعروف بسيزوستريس، ويُلقَّب بالأكبر؛ لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة، وطالت مدَّة حكمه، وكثرت فيها الآثار المصرية، وتزايدت العمارات، حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا وعليه اسمه ورسمه. وولي الملك صغيراً في حياة والده، وقد تربَّى على الشجاعة والحماسة، وأراد أبوه أن يعلمه اقتحام الأهوال؛ فأرسله في جيش إلى بلاد الشام، وكان عمره عشر سنين، فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة، وله حروب عظيمة، ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشمالية، وكان في أيامه بنتاءور الشاعر المصري، وله فيه عدَّة مدائح يصف بها شجاعته وإقدامه. «خوفو» و«مينا»: من الملوك الفراعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطاً بعيداً في المدنيَّة، ومن آثارهما الخالدة الأهرامات.

(٢٠) علا خذاً: أي ذلك التاج؛ والصعر: أن يميل الرجل بخدِّه عن النظر إلى الناس تهاوئاً وكبراً.

(٢١) القطين: الخدم، أي أنه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأجراء، ويجلدون الخدم ليسخروهم في إنشاء تلك الأبنية.

(٢٢) لم نوق النقص: أي لم نحفظ منه.

(٢٣) البستيل: سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩، وفي هذا السجن ذاق رجال العلم والفضل في فرنسا أشدَّ أنواع العذاب أيام الاستبداد، فكم هلك فيه فيلسوف عظيم، وفني بين جدران المظلمة مصلح كبير، وكم من سياسي جنى عليه عمله الخير بلاده فدخله حياً وفارقه ميتاً. وقد ذكر الفرنسيون

«البستيل»، واسم «البستيل» وعدُّوه مستقرَّ الظلم، ومعهد العسف والقسوة، فلم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان أول غرضهم «البستيل»؛ فهدموه، واقتلعوا أصوله، وأخذت فتات أحجاره فجعلها النسوة عقوداً يتحلىن بها في أمكنة اللآلى؛ إشارة لغلبة الأمة على الظلم وانتقامها من الظالمين، وكان أخذه في ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩، وقد أقيم اليوم مكان هذا البناء تمثال الحرية، ولا يزال الفرنسيون يحتفلون بذكره على الآن.

(٢٤) البيعة «بكسر الباء»: معبد النصرى، ومسخرين: أي كلّفوا عملهم بلا أجره.

(٢٥) سمل العين: فقأها بحديدة محماة وقلعها.

(٢٦) المخاطب اللورد كارنارفون الذي اهتدى إلى الكنوز، وكانت وفاته بالقاهرة في سحر ليلة الخميس ٥ إبريل سنة ١٩٢٣ بفندق الكونتنتال، وكانت قد عضّته بعوضة، فطُبّب خمسة عشر يوماً حتى أخذت تزول أعراض التسمم الذي أصابه من هذه العضة، ولكنه لم يقوَ على احتمال ذات الرئة التي أصيب بها، فأودت به. المتطولين: أصحاب الغنى والسعة.

(٢٧) لك الأصل.. إلخ: وذلك أنه من بيوتات إنجلترا القديمة في المجد.

(٢٨) ومالك لا يُعدُّ.. إلخ: فهو يملك في بلاد الإنجليز ألف فدان.

(٢٩) وجدت مذاق.. إلخ: إشارة إلى استمراره في أعمال الحفر والتنقيب في وادي الملوك، فقد بدأها منذ ست عشرة سنة، ولم يزل حتى اهتدى إلى أعظم أثر بين الآثار التي عثر عليها العلماء منذ قرن من الزمن، وقد ضمن له هذا العمل الجليل خلود اسمه، ورفعته ذكره، وكان اهتدائه إلى هذا الكنز الثمين في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٣، وفي مدافن ملوك طيبة، تحت مدفن رعمسيس السادس. والصفائح: حجارة القبور.

(٣٠) إشارة على ما حواه هذا الكنز العظيم من التحف الثمينة النادرة المثال، والآلى: الغالية القليلة الوجود.

(٣١) قارون: رجل كان صاحب كنوز عظيمة يضرب به المثل في الغنى.

(٣٢) التتكرّر: تغَيّر الرجل عن حال تسرّه إلى حال يكرهها، وفي الأساس تنكّر لي

فلان: لقيني لقاءً بشعاً. والمحققون: الذين ملأهم الغيظ.

(٣٣) أبوتنا: أي آبائنا. والتراث: الميراث، وفيه إشارة إلى ما قيل يومئذ ونشرته

الصحف، من أن اللورد كرنارفون، أخذ خفية أعلى ما في الكنز من تحف، بينها تاج الملكة وعقدها.

(٣٤) الضيم: الظلم. أي نأبى أن يظلم ذلك التراث بذهابه نهباً كما روت الأنباء

البرقية في ذلك الحين.

(٣٥) سكت فحام حولك.. إلخ، أي إن الذي قيل وشاع لاقى منك سكوتاً عن نفيه؛ فلحقتك الشبهات بسبب سكوتك.

(٣٦) المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة.

(٣٧) أَمَنْ سرق الخليفة.. إلخ هذا ما يقوله الناس، وذلك أن إنجلترا هي التي نقلت الخليفة وحيد الدين من قصره في الآستانة. وألجأته إلى المدرعة البريطانية «مالايا» هرباً من الكماليين؛ فذهبت به إلى مالطة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢١، فإذا كانت هذه الدولة تفعل ذلك بالملوك الأحياء، فلا يبعد على رجالها أن يفعلوه بالملوك الأموات، وبما في قبورهم من جواهر ودرر، وقد ذكرت الأنباء في إثبات ذلك: أن اللورد كرنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنكليز عقداً مصرياً قديماً له قيمة عظيمة، وأنها لما علمت بوفاته وأن بعوضة من القبر عضته. نزعته من عنقها ذلك العقد خوفاً من انتقام توت عنخ آمون الذي نسبت إليه يومئذ وفاة اللورد.

(٣٨) يريد بالشموس الغارين: ملوك الفراغة. وغرفهم: مدافنهم.

(٣٩) المحاجر: ما يحميه الملوك حول منازلهم، ومنها محاجر أقيال اليمن، وهي أحماؤهم، أي ما كان يحميه كل واحد منهم.

(٤٠) العمار: التحية. وهو أيضاً الريحان يزيّن به مجلس الشّراب، واستعماله هنا على الإطلاق؛ إذ لا يليق أن يكون مقيداً بتزيين هذا المجلس. التحايا: جمع تحية. والرّفات: كل ما تكسّر وبلي.

(٤١) يצוע: يتحرّك وينتشر. أي كادت حجارته تضيء حسناً، وكادت تنتشر رائحته الطيبة الزكية.

(٤٢) الروعة: المسحة من الجمال. والجنادل: جمع جندل. وهو الحجارة. وطور سينا: هو الجبل الذي كلّم الله عليه موسى (عليه السلام).

(٤٣) النزيل: الضيف.

(٤٤) هاتفين به: أي بالملك الذي هو نزيل القبر، وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته.

(٤٥) فثمّ: فهناك. والجلالة: عظم القدر. ورامت: أقامت. والقرون الأربعون: هي التي مضت منذ عهد توت عنخ آمون.

(٤٦) أي أن الجلال الصحيح ما خلد به صاحبه في التاريخ، أمّا جلال الملك فلا بقاء له.

- (٤٧) اليمين: المبارك، وهو من اليمين.
- (٤٨) وارتك: أخفتك.
- (٤٩) خروج عيسى: أي كما خرج عيسى من القبر على رأي النصارى، وصاحب الديوان لا يعتقد ذلك، وإنما ينظر فيه إلى رأيهم.
- (٥٠) يجوب: يقطع. والبرق: اسم منقول من معناه الأصلي للتلغراف. والبحار: اسم منقول كذلك للوابور، أو هو من باب تسمية الشيء باسم المؤثر فيه. والحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.
- (٥١) لوزان: إحدى مدن سويسرة، وقد عُرفت بمؤتمر الدول الذي اجتمع بها للنظر فيما بينهن من الخلاف، ولتقرير الصلح بين الترك واليونان، وقد وافق اجتماع المؤتمر ظهور قبر الملك توت عنخ آمون ومعرفة ما فيه.
- (٥٢) صلفوا: تمدحوا بما ليس فيهم، وأدعوا فوق ذلك إعجابًا وتكبرًا. وصدوا الباب عنا: منعهوا عنا، أي لم يفتحوه لنا. وموصدين: من أوصد الباب، أطبقه وأغلقه.
- (٥٣) أي لو كانت لنا قوة من السلاح لعاملونا باللين والمودة: لأنهم يدارون الأقوياء ويمالئونهم.
- (٥٤) كرزن: وزير إنكليزي مشهور، كان هو مندوب إنكلترا في مؤتمر لوزان. والكنانة: هي مصر.
- (٥٥) تعال اليوم.. إلخ: الخطاب لتوت عنخ آمون. ونواك: بعدك. والسّئات: جمع سنة، بكسر السين، وهي النعاس.
- (٥٦) ينضي: يهزل. والمدلجون: الذين يسرون من أول الليل.
- (٥٧) وما تلك القباب.. إلخ: أي وخبرنا ما تلك القباب جمع قبة: وهي ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة. والقرون: جمع قرن، وهو مائة عام.
- (٥٨) ممرّدة البناء: مملسته.
- (٥٩) تغطي: أي هذا البناء تغطى.. إلخ والأثاث: متاع البيت. والصور: جمع صورة، يريد بها الرسوم التي تحاكي صور الأشياء. والعقاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو النجيب من الخيل، والجارج من الطير. والزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.
- (٦٠) في الغابرين: في الباقين، وفي القرآن الكريم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنْ الْغَابِرِينَ﴾، ويكون أيضًا بمعنى الماضين، فهو من الكلمات التي تُستعمل للأضداد.
- (٦١) المهيمن: من أسماء الله تعالى. والمترجلون: الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على أرجلهم.

- (٦٢) ما بال الطعام: ما حاله. ويقدى: من قدى الطعام، أي طاب طعمه ورائحته.
- (٦٣) الأحقاب: جمع حقب. بضم الحاء. وهو الدهر. والمئين: جمع مائة.
- (٦٤) لقد كان: أي لقد حصل الذي حذر الأولي. والأولي: جمع أول، والمعنى: أن ما كنتم تخافونه، وتحذرون وقوعه من نبش قبوركم، قد حصل، ولم تمنعه مبالغتكم في الوقاية منه.
- (٦٥) سللت: أخرجت منها برفق. الحفائر: جمع حفيرة. واليوم الذي يسئل الهامدين من التراب: هو يوم القيامة.
- (٦٦) فإن تك عند بعث.. إلخ: أي فإن تكن الآن تشكُّ في هذا البعث الذي خرجت به من قبرك فلا محالة سيأتي البعث الذي لا تشكُّ فيه؛ وهو بعث يوم القيامة.
- (٦٧) يعصموك: يمنعوك من المكروه، أي لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه؛ لأن الموت يمنع الأذى أن يصل إليك، وجلاء هذا المعنى في البيت الثاني.
- (٦٨) يضرُّ: بضم الياء وفتح الضاد.
- (٦٩) زمان الفرد: أي زمان حكم الفرد. ودالت: انقلبت من حال إلى حال.
- والمتجبرون: المتكبرون.

تحية المؤتمر الجغرافي

وهل تَصَوَّرُ أَفْرَادًا وَأَعْيَانًا؟^١
لِلشَّمْسِ مُلْكًا، وَلِلْأَقْمَارِ سُلْطَانًا^٢
عِلْمًا عَلَى الْعُصْرِ الْخَالِي وَعِرْفَانًا^٣
تَوَاضَعًا صَخْرًا وَصَوَانًا^٤
أَقْوَى عَلَى صَوْلَجَانِ الْمَلِكِ أَيْمَانًا^٥
حَتَّى يَنَالَ لَهُم بِالْهَدَمِ بَنِيَانًا^٦
وَلَا الزَّوَاخِرَ أَثْبَاجًا وَشُطْطَانًا^٧
لِلْمَوْتِ تَحْتَ لَوَاءِ الْعِلْمِ شَجْعَانًا^٨
وَأَوْغَلُوا فِي الْفَلَا كَالْأَسَدِ وَحُدَانًا^٩
وَلَا «الْبَخَارُ» لِبَنْتِ الْمَاءِ رُبَّانًا^{١٠}
لِعَبْقَرِيَّةٍ أَحْمَالًا وَأُظْعَانًا؟^{١١}
وَلَنْ تَرَى كَجُنُودِ الْعِلْمِ إِخْوَانًا^{١٢}
شَتَى الْقِبَائِلِ أَجْنَاسًا، وَأَوْطَانًا^{١٣}
بِالْأَرْضِ دَارًا، وَبِالْأَحْيَاءِ جِيرَانًا^{١٤}
زَرْعًا، وَضَرْعًا، وَإِقْلِيمًا، وَسُكَّانًا^{١٥}
وَفَصَّلَ الْبَحْرَ أَصْدَاقًا، وَمَرْجَانًا^{١٥}
وَمَيَّزَ النَّاسَ أَجْنَاسًا وَأَدْيَانًا

هل تهبط النِّيَرَاتُ الْأَرْضَ أَحْيَانًا؟
نَزَلْنَ أَوَّلَ دَارٍ فِي الثَّرَى رَفَعَتْ
تَفَنَّنَتْ قَبْلَ خَلْقِ الْفَنِّ، وَانْفَجَرَتْ
أَبْوَةٌ لَوْ سَكْتْنَا عَنْ مَفَاخِرِهِمْ
هَمَّ قَلَّبُوا كِرَّةَ الدُّنْيَا فَمَا وَجَدَتْ
وَصَيَّرُوا الدَّهْرَ هَزْءًا يَسْخَرُونَ بِهِ
لَمْ يَسْلِكِ الْأَرْضَ قَوْمٌ قَبْلَهُمْ سُبُلًا
تَقَدَّمَ النَّاسُ مِنْهُمْ مُحْسِنُونَ مَضَوْا
جَابُوا الْعُجَابَ عَلَى عَوْدٍ وَسَارِيَّةٍ
أَزْمَانَ لَا الْبِرُّ «بِالْوَابُورِ» مَنْتَهَبًا
هَلْ شَيَّعَ النَّشْءُ رَكْبَ الْعِلْمِ، وَاکْتَنَفُوا
وَسَايَرُوا الْمَوَكِبَ الْمَرْمُوقَ مُتَشِّحًا
يَسِيرُ تَحْتَ لَوَاءِ الْعِلْمِ مُؤْتَلِفًا
الْعِلْمُ يَجْمَعُ فِي جَنْسٍ، وَفِي وَطَنِ
وَلَمْ يَزِدْكَ كَرَسِمِ الْأَرْضِ مَعْرِفَةً
عِلْمُ أَبَانَ عَنِ الْغُيُوبِ، فَانْكَشَفَتْ
وَقَسَّمِ الْأَرْضَ آكَامًا، وَأَوْدِيَّةً
وَبَيَّنَ النَّاسَ عَادَاتٍ وَأَمْزَجَةً

وفد الممالك، هزَّ النيلُ منكبَه
غدا على الثغرِ غادٍ من مواكبكم
جرت سفينتُكم فيه، فقلَّبها
يلقاكمُ بسماءِ البحرِ ضاحيةً
ولو نزلتم به والدَّهرُ معتدلٌ
إذ (الفنارُ) وراءَ البحرِ مؤتلقٌ
أناف خلف سماءِ الليلِ متقدِّداً
تطوي الجواري إليه اليمَّ مُقبلَةً
نورَ الحضارة لا تبغي الركابَ له
يا موكبَ العلم، قفْ في أرض مُنفَ به
بكى تمائمُه طفلاً بها، ويبكي
أرض ترعزع لم يصحب بساحتها
عيسى ابنُ مريم فيها جرَّ برْدته
لولا الحياءُ لناجتكم بحاجتِها
إذا تفرَّقتم في الغربِ ألسنةً

لما نزلتم على أوديه ضيفانا^{١٦}
فراح مبتسم الأرجاءِ جذلانا^{١٧}
على الكرامة قيْدومًا وسكانا^{١٨}
وتارةً بفضاءِ البرِّ مُزدانا^{١٩}
نزلتم بعروسِ المُلِكِ عُمرانا^{٢٠}
كأنه فلقٌ من خدره بانا^{٢١}
يُخال في شُرَفاتِ الجوِّ (كيوانا)^{٢٢}
تجري بوارجٍ أو تناسب خُلجانا^{٢٣}
لا بالنهار ولا بالليل برهانا
يُناج مَهْدًا، ويذكرُ للصبا شانا^{٢٤}
ملاعبًا من رُبى الوادي وأحضانا^{٢٥}
إلا نبيين قد طابوا، وكهَّانا
وجرَّ فيها العصا موسى بنُ عمراننا
لعل منكم على الأيام أعوانا
ليَنتمُ كلُّ قلبٍ لم يكن لانا

هوامش

(١) النِّيرات: الكواكب، واحدها نيرٌ، بالياء المشدَّدة. وتصور: تتصور. والأعيان: جمع عين، وهو شريف القوم. يقول: إن هؤلاء العلماء الذين أقبلوا من البلاد الأخرى ليحضروا المؤتمر في مصر، هم الكواكب المنيرة، ولكنهم مع ذلك أفراد من الناس، وأعيان شرفاء في أقوامهم. فهل الكواكب تهبط الأرض وتكون كذلك؟

(٢) نزلن: أي هذه النيرات. وأول دار.. إلخ: هي مصر، وذلك كناية عن أنها سبقت العالم إلى العلم والمدنية. حتى رسخت قدمها فيهما.

(٣) تفننت: تنوعت فنونها، أو أخذت في فنون كثيرة. والعُصر: بضمّتين: الدَّهر. والخالي: الماضي.

(٤) أبوة: جمع أبٍ، أي لنا أبوة أو أولئك أبوة. والمفاخر: جمع مفخرة، بفتح الخاء وضمها، وهي المأثرة. أو ما يفتخر به. والصوَّان: نوع من الحجارة.

(٥) الصولجان: عصا منعطفة الرأس، والأيمان: جمع يمين، وهي اليدُ، أي ما وجد أيماناً أقوى على صولجان الملك من أيمانهم.

(٦) حتى ينال لهم بالهدم بنيانا: أي وهو لا ينال ذلك فهم يسخرون به أبداً.

(٧) لم يسلك الأرض.. إلخ: وذلك أن المصريين القدماء هم أوّل من طاف الأرض برّاً وبحراً. والسبل: جمع سبيل. والزواخر: البحار، مفرداها زاخر. والأثباج: جمع ثبج، وهو معظم البحر. والشطآن: جمع شطّ، وهو الشاطئ.

(٨) جابوا: طافوا، والعباب: أكثر السيل، والمراد البحر. والعود: الخشب، والمراد به السفينة. والسارية: عمود ينصب في وسط السفينة ليعلق القلح به. والفلا: جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة، وقيل: المفازة لا ماء فيها. والوحدان: جمع واحد.

(٩) أزمان: أي فعلوا ذلك من أزمان لم يكن بها الوابور ينهب البر، ولا البخار يجري السفن. والربان: مَنْ يُجْري السفينة. وجوب الأرض على هذه الحال يستدعي عرائم قوية، ويؤدي إلى مخاطر عظيمة.

(١٠) هل شيع النشاء.. إلخ: أي هل خرجوا مع ركب العلم يودعونهم. والنشاء: جمع ناشئ: وهو الغلام جاوز حدّ الصغر. وركب العلم: هو العلماء الذين جاءوا فحضروا المؤتمر، ثم رجعوا إلى بلادهم. واكتنفوا أحمالاً وأطعانا: أحاطوا بها. والعبقرية: أصلها نسبة عبقّر، وهو موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن، وقد جعله المعاصرون اسماً وأرادوا به التناهي في حذق الشيء وإتقانه. والأحمال: الهودج، واحدها: حمل — بكسر الحاء وفتحها — والأطعان: الهودج أيضاً.

(١١) المرموق: الذي ينظر إليه طويلاً. ومتشخاً: لابساً.

(١٢) شتى القبائل: أي القبائل المتفرقة.

(١٣) كرسم الأرض: يريد العلم الذي يعرف به رسم الأرض، وهو علم الجغرافيا.

(١٤) أبان عن الغبراء: أوضحها. والغبراء: الأرض.

(١٥) الأكام: التلال، وقيل: ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد. والأودية: جمع وادٍ، وهو المنفرج بين جبلين أو تلين. والأصداق: جمع صدف، وهو غشاء الدر. والمرجان: عروق حمر، تطلع من البحر.

(١٦) المنكب: هو من الحيوان مجتمع رأس الكتف والعضد، ومن غير الحيوان ناحية كل شيء وجانبه، والمراد المعنى الأول؛ كناية عن نهوضه لإكرامهم.

(١٧) غدا: أقبل. والثَّغَر: هو ثغر الإسكندرية. والمواكب: جمع موكب، وهو الجماعة ركباً أو مشاة. والأرجاء: النواحي. والجدلان: الفرحان.

- (١٨) الكرامة: العازة. والقيدوم: الصدر. والسكان — بالضم — ذنب السفينة.
- (١٩) ضاحية: بارزة منكشفة؛ وهو كناية عن صفائها.
- (٢٠) ولو نزلتم به: أي بالثغر. ومعتدل: مستقيم، أي ليس منحرفاً ولا معوجاً عن أنصافنا.
- (٢١) إذ الفنار: أي إذ يكون الفنار.. إلخ. والفنار: هو منارة السفن تقام عالية في الميناء ليهتدي الربابنة في الليل بنورها. ومؤتلق: لامع. والفلق: الصبح، أو ما انفلق من عموده. والخمر: الستر، وقيل: هو كل ما وارك من بيت ونحوه.
- (٢٢) أناف: طال وارتفع. وشرفات: واحدها شرفة، وهي ما أشرف من بناء القصر. وكيوان: اسم فارسي لكوكب زحل.
- (٢٣) الجواري: السفن، جمع جارية. واليُمُّ: البحر. والبوارج: جمع بارجة. وهي سفينة كبيرة للقتال. وتنساب: تجري وتتدافع. والخلجان: جمع خليج، وهو شرم من البحر.
- (٢٤) أرض منف: هي الأرض المصرية. ومنف: مدينة مصرية قديمة، بناها الملك «ميناء» مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية، وجعلها مقرّاً ملكه، وبقيت مقرّاً للملك حتى زالت الأسرة الثامنة. ويناج، من ناجاه: سارّه. والمهد: الموضع يهياً للصبي ويوطأ. يقول: قف بالعلم في الأرض التي نشأ فيها؛ ليناجي مهده الأول، ويذكر عهد صباه.
- (٢٥) بكى: أي العلم. وتمائمه: جمع تميمية، وهي العوزة التي تعلّق للأطفال مخافة العين. والملاعب: جمع ملعب، وهو مكان اللعب، والرُّبى: جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض.

الصليب الأحمر

وانشر عليها رحمةً وحناناً^١
وأعِنْ على آلامه الإنساناً
ما كنت إلا للمسيح بناناً^٢
خُضْ (كالخليل) إليهم النيراناً^٣
واضرع، وسلْ في خلقه الرحماناً^٤
الله لا يبعاً ولا صُلباناً^٥
هدمتُ لِسلم العالمين كياناً^٦

سر يا (صليب) الرِّفق في ساح الوغى
وادخل على الموت الصقوف مُواسياً
والمس جراحات البرية شافياً
وإذا الوطيسُ رمى الشباب بناره
واجعل وسيلتك المسيح وأمه
الله جارك في عوان لم تهب
وسلمت يا «حرم المعارك» من يدٍ

* * *

وأراد أمراً بالبلاد فكانا
بيديه، أحدث في «الكنانة» شانا
ترمي العروش وتنثر التيجاناً^٧
ووقى من الفتن العباد. وصانا
وديأراً مصر لا تزال جناناً؟^٨
جيش يعاف البغي والعدواناً^٩
عَفُوا يداً. ومُهَنِّداً. وسناناً^{١٠}
وأرى الجريء على الشرور جباناً

يا أهل مصر، رمى القضاء بلطفه
إن الذي أمر الممالك كلُّها
أبقى عليها عرشها في بُرْهة
وكسا البلاد سكيناً من أهلها
أوما ترون الأرض خرب نصفها
يرعى كرامتها، ويمنع حوضها
كجنود (عَمُرُو) أينما ركزوا القنا
إن الشجاع هو الجبان عن الأذى

* * *

أَمَمَ الحضارة. أَنْتُمْ أَبَاؤُنَا مِنْكُمْ أَخَذْنَا الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَا
رَقَّتْ لَكُمْ مَنَّا الْقُلُوبُ. كَأَنَّمَا جَرَحَاكُمُ يَوْمَ الْوَعَى جَرَجَانَا
وَمِنَ الْمَرْوَةِ — وَهِيَ حَائِطُ دِينِنَا — أَنْ نَذْكَرَ الْإِصْلَاحَ وَالْإِحْسَانَا^{١١}
وَلِئِنْ غَزَاكُمْ مِنْ ذَوِينَا مَعْشَرٌ فَلَرُبَّ إِخْوَانٍ غَزَوْا إِخْوَانَا
حَتَّى إِذَا الشَّحْنَاءُ نَامَتْ بَيْنَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الْأَحْقَادَ وَالْأَضْغَانَا^{١٢}

هوامش

- (١) السّاح جمع ساحة. والوعى: الحرب.
- (٢) الجراحات: جمع جراحة. والبنان: أطراف الأصابع: مفردها بنانة.
- (٣) الوطيس: شدة الحرب. والخليل: هو إبراهيم (عليه السلام)، وقصة إلقاءه في النار مشهورة.
- (٤) الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير. واضرع. من ضرع إليه: خضع وذلّ. والرحمن: اسم من أسماء الله تعالى.
- (٥) العوان: الحرب التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. والبيع، بكسر الباء: جمع بيعة، بكسرها أيضاً، وهي متعبد النصرى.
- (٦) السلم: ضدّ الحرب. وكيان الشيء: وجوده أو طبيعته.
- (٧) البرهة: قطعة من الزمن طويلة. وتنثر التيجان: ترميها متفرقة.
- (٨) الجنان: جمع جنة.
- (٩) يعاف: يكره.
- (١٠) كجنود عمرو: هو عمرو بن العاص فاتح مصر وواليتها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. وركزوا القنا: غرزوها في الأرض. والقنا: الرماح: جمع قنّاء. عفوا: تركوا الشهوات. والمهند: السيف. والسنان: نصل الرمح.
- (١١) الحائط: الجدار، أي وهي من ديننا كالحائط من الدار.
- (١٢) الشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس. والأضغان: الأحقاد.

تحية للترك^١

بحمدِ الله ربِّ العالمينا وحمدك يا أمير المؤمنين
لقينا في عدوك ما لقينا لقينا الفتح والنصر المبينا

* * *

هُمُ شهرُوا أذىً، وشهرتَ حرباً فكنتَ أجلاً إقداماً وضرباً
أخذتَ حدودَهُم شرقاً وغرباً وطهرتَ المواقعَ والحصونا

* * *

وقبل الحربِ حربٌ منك كانت نتائجُها لنا ظهرت وبانت
ألنّتَ الحادثَاتِ بها، فلانت وغادرتَ القياصرَ حائرينا

* * *

جمعتَ لنا الممالكَ والشعوبا وكانت في سياستها ضروبا

^١ قيلت في الحرب بين اليونان والأتراك سنة ١٣١٤ هجرية، ولَمَّا نالت قصيدة في العالم العربي بأجمعه ما نالته هذه القصيدة أيام ظهورها من حفاوة وانتشار؛ وذلك لما ورد فيها من وصف وتهكُّم صادفا هوًى في النفوس.

فلَمَّا هَبَّ (جُورِجِيهِمْ) هبوباً تَلَفَّتْ لَا يَصِيبُ لَهُ مُعِينًا^١

* * *

رَأَى كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى كَرِيد وَكَيْفَ عَوَاقِبُ الطَّيْشِ الْمَزِيد
وَكَيفَ تَنَامُ يَا عَبْدَ الْحَمِيد وَتَغْفُلُ عَنْ دِمَاءِ الْعَالَمِينَا؟

* * *

وَلَا وَاللَّهِ وَالرُّسُلِ الْكَرَام وَبَيْتِكَ خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْأَنَام
لَمَّا كَانُوا — وَسَيْفُكَ ذُو انْتِقَام — يَعَادِلُ جَمْعُهُمْ مَنَا جَنِينَا

* * *

رَأَيْتَ الْحَلَمَ لَمَّا زَادَ غَرًّا وَجَرًّا مَلَكَهُمْ حَتَّى تَجَرًّا^٢
فَجَاءَتْكَ الدَّعَاوَى مِنْهُ تَتَرَى وَجَاءَتْهُ جُنُودُكَ مَبْطَلِينَا

* * *

بَخِيلٌ فِي الْهَضَابِ. وَفِي الرُّوَابِي وَنَارٌ فِي الْقَلَاعِ. وَفِي الطُّوَابِي
وَسَيْفٌ لَا يَلِينُ، وَلَا يَحَابِي إِذَا الْأَجَالُ رَجَّتْ مِنْهُ لِينَا

* * *

وَجَيْشٌ مِنْ غُزَاةٍ عَنْ غُزَاةٍ هُمُ الْأَبْطَالُ فِي مَاضٍ وَأَتِي
وَمَنْ كَرِمٍ أَذْلُوا كُلَّ عَاتِي وَذَلُّوا فِي قِتَالِ الْمُؤْمِنِينَا

* * *

أَبْعَدُ بِلَائِهِمْ فِي كُلِّ حَرْبٍ وَضَرْبٍ فِي الْمَمَالِكِ أَيُّ ضَرْبٍ
تَحَاوَلُ صَبِيئَةً فِي زِيٍّ شَعْبٍ وَتَطْمَعُ أَنْ تَدُوسَ لَهُمْ عَرِينَا؟

* * *

جُنُودٌ لِلْجِرَاحِ الدَّهْرَ مِرْهَمٌ يَدْبِرُهَا الْبَعِيدُ الصَّيْتِ أَدْهَمُ
فَأَنْجَدَ فِي تَسَالِيَةٍ وَأَتَتْهُمْ وَكَانَتْ لِلْعَدَا حَصْنًا حَصِينَا^٣

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ

* * *

أروتُرُ، لا تدسَّ السم دَسًّا ومهلاً في التهؤُس يا (هَوْسا) ٤
سِل اليونان: هل ثبتت (لِرْسًا) وهل حَفِظَ الطريقُ على أثينا ٥

* * *

معاذَ الله، كَلَّا، ثم كَلَّا هُمُ البحارةُ الغرُّ الأَجِلَا!
وما أسطولُهم في البحر إلا (شخاشُخُ) ما يَرْحَنَ وما يجينا! ٦

* * *

وكم بعثوا جيوشًا من أُماني أَّتت دارَ السعادة في أمان
وما سارت سوى يَوْمَيَ زمان فأهلاً بالغزاة الفاتحين!

* * *

وكم باتوا على هَرْجٍ ومَرْجٍ وقالوا: المالُ مِذُولٌ لجورجي ٧
وكلُّ المال من دَخْلٍ وخَرْجٍ ديونٌ لا تقدِّرها ديونا! ٨

* * *

وكم فتحوا الثغورَ بلا تواني وبالأسطولِ جاءُوا من مواني
وللبسفورِ طاروا في ثواني فأهلاً بالأوزِ العائمين! ٩

* * *

وفي الآستانة انتصروا انتصارا وبطرسبرج دكَّوها حصارا
فيا للمسلمين وللنصارى وقيصِرَ والملوكِ الآخرين!

* * *

ويا غليومُ، أين لك الفِراؤُ إذا جورجي وعسكرُه أغاروا؟
فضاقت عن سفينهمُ البحارُ وضاقَ البرُّ عنهم واجفينا!

* * *

أَمُورٌ تَضْحَكُ الصَّبِيانُ مِنْهَا وَلَا تَدْرِي لَهَا الْعَقْلَاءُ كُنْهَا
فَسَلُّ رُوتَرُ، وَسَلُّ هَافَسٌ عَنْهَا فَإِنْ لَدِيهِمَا الْخَبَرُ الْيَقِينَا

* * *

وَيَوْمَ مَلَوْنَ إِذْ صَحْنَا، وَصَاحُوا ذَكَرْنَا اللَّهَ مِنْ فَرَحٍ، وَنَاحُوا
وَدَارَتْ بَيْنَهُم بِالرَّاحِ رَاخٌ وَدَارَتْ رَاحَةُ الْإِيمَانِ فِينَا^{١٠}
عَلَى الْجَبَلَيْنِ قَدْ بَتْنَا، وَبَاتُوا وَقَتْنَاهُمْ مِنْيَّتَهُمْ، وَفَاتُوا
وَقَدْ مَتْنَا ثَبَاتًا، وَاسْتَمَاتُوا وَمَا الْبُسْلَاءُ كَالْمُسْتَبْسِلِينَا

* * *

خَسَفْنَا بِالْحَصُونِ الْأَرْضَ خَسَفَا تَزِيدُ تَأْبِيًّا فَنَزِيدُ قَذْفَا
بِنَارٍ تَنْسُفُ الْأَجْيَالَ نَسَفَا وَتَلْقَفُ نَارَهُمَ وَالْمَطْلَقِينَا

* * *

مَدَافِعُ مَا تَتَوَبُّ بِغَيْرِ زَادٍ بِرَاكِينٍ تَصُوبُ بِلَا نَفَادٍ^{١١}
نَصَبْنَاهَا لَهُمْ فِي كُلِّ وَادِي فَكَنَّ الْمَوْتَ، أَوْ أَهْدَى عَيُونَا

* * *

جَعَلْنَا الْأَرْضَ تَحْتَهُمْ دِمَاءَ وَصَيَّرْنَا الدُّخَانَ لَهُمْ سَمَاءَ
وَإِذْ رَامُوا مِنَ النَّارِ احْتِمَاءَ حَمَتْ أَسْيَافُنَا مِنْهُمْ مَثِينَا

* * *

وَرَبِّ مُجَاهِدٍ شَيْخٍ مُبَجَّلٍ تَرَجَّلَتِ الْجِبَالُ وَمَا تَرَجَّلَ
أَرَادَ لِيَرْكَبَ الْمَوْتَ الْمُحَجَّلَ إِلَى أَجْدَادِهِ الْمُسْتَشْهَدِينَا

* * *

وَفِي لَجْوَادِهِ، وَحْنَا عَلَيْهِ فَخُوطِبَ فِي النُّزُولِ، فَمَا أَجَابَا

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ

وصابَ رصاصُها يُدْمِي يديه هنا فليطلبِ المرءُ المَنونا

* * *

وقد زاد البسالةَ من وقارِ هزيرٍ من ليوثِ التُّركِ ضاري
تقدَّم نحو نارٍ أي نارِ ليسبقَ نحوَ خالقه القرينا

* * *

جری، فأذلَّ هاتيكَ الألُوفَا وزحزح عن مواضعها الصفوفا
فخاض إلى مكامنِها الحُتُوفَا وما هاب الرُماةَ مسدِّدِنا

* * *

دعا لله في وجه الأعداي كليثِ زائرٍ في بطن وادي
فلبَّتْ الفِيالقُ والأرادي ودارَ هلالُ رايتنا يميننا^{١٢}

* * *

فلمَّا أذعنوا أنا المنايا وأنا خيرٌ مَنْ قاد السرايا^{١٣}
تفرَّقَ جمعُهم إلَّا بقايا على قُللِ الجبالِ مُجنِّدِنا

* * *

صلاةُ الله ربي والسلامُ على قتلى بفرسالو أقاموا^{١٤}
هم الشهداءُ، حول الله حاموا فأدناهم، وكانوا الفائزينا

* * *

أنالوا الملكَ فتحًا أيَّ فتح وشادوا للخلافةِ أيَّ صرح
وجاءوا ربَّهم منهم بذبح تقبَّلَه، وكان به ضنيننا^{١٥}

* * *

سلامًا سفحَ فرسالو سلاما وكنُ خيرَ المُقامِ لمنْ أقاما
وضنَّ بها وإن بليت عظاما تطيف بها الملائك حائمينا

* * *

أَأَذْهَمُ. هَكَذَا تُقْنَى الْمَعَالِي وَتُقْنَى بِالْقَوَاضِبِ وَالْعَوَالِي^{١٦}
لَقَدْ بَيَّضْتَ لِلْمَلِكِ اللَّيَالِي بِسَيْفٍ يَفْضَحُ الْفَجَرَ الْمَبِينَا

* * *

أَخَذْتَ النِّصْرَ بِالْجَبَلَيْنِ غَضَبَا وَكُنْتَ اللَّيْثَ تَخْطَرًا وَوُثْبَا
حَمَلْتَ. فَمَا جِئَ الْحُمْلَانُ رُغْبَا يَظُنُّهُمُ الْجَهْلُ مَقَاتِلِينَا

* * *

وَفِي فِرْسَالٍ قَدْ جِئْتَ الْعُجَابَا بِسَطَتِ الْجَيْشَ تَقْرُؤُهُ كِتَابَا
وَقَدْ أَحْصَيْتَهُ بَابًا فَبَابَا وَكَانُوا عَنْ كِتَابِكَ غَافِلِينَا

* * *

ثَبِتَ مُؤَمَّلًا مِنْكَ الثِّبَاتُ تَوَافِيكَ الرِّسَائِلُ وَالسُّعَاةُ
وَحَوْلَكَ أَهْلُ شُورَاكَ الثِّقَاتُ تَسُوسُونَ الْجِيُوشَ مَظْفَرِينَا

* * *

هَنَّاكَ الصَّخْفُ سَارَتْ حَاكِيَاتِ وَطَيَّرَتْ الْبُرُوقُ مُحَدَّثَاتِ
وَحَدَّثَتِ الْمَمَالِكُ أَخَذَاتِ عُلُومَ الْحَرْبِ عَنْكُمْ وَالْفَنُونَا

* * *

بَنِي عَثْمَانَ، إِنَّا قَدْ قَدَرْنَا فَتَوَحَّكُمُ الْكِبَارَ وَقَدْ شَكَرْنَا
سَأَلْنَا اللَّهَ نَصْرًا، فَاَنْتَصَرْنَا بِكُمْ، وَاللَّهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَا

هوامش

- (١) جورجي: ملك اليونان يومئذ.
- (٢) تجرّاً: مخفف تجرّأ.
- (٣) تسالية: موقعة من مواقع هذه الحرب. وأنجد وأتهم: نزل نجداً وتهامة، والمراد أنه أتى على كل ما فيها ما ارتفع منه وانخفض.
- (٤) هوسا: المراد به هافاس، وهي الشركة البرقيّة المعروفة.
- (٥) لرسا: موقعة من مواقع هذه الحرب.
- (٦) شخاشخ: جمع (شخشيخة) وهي لعبة معروفة للأطفال.
- (٧) الهرج والمرج: الفتنة والاختلاط.
- (٨) لا تقدّرها ديونا: أي لضاقتها، والمراد في كل هذه الأبيات التهكّم باليونان.
- (٩) وصف الأوزّ بجمع المذكر، قد يُرادُ به العظيم.
- (١٠) ملون: موقعة، والراح الأولى: الأكف، والثانية: الخمر.
- (١١) تصوب: أي يسقط حممها كالطر.
- (١٢) الأرادي: جمع أردى، وهو الجيش.
- (١٣) السرايا: جمع سريّة، وهي القطعة من الجيش.
- (١٤) فرسالو: موقعة.
- (١٥) الذبح: ما يذبح.
- (١٦) القواضب: السيوف. والعوالي: الرماح.

الدستور العثماني

بشرى البرية قاصيها ودانيها
لما رآها بلا ركن تداركها
وبالأبيين من قوم أماتهم
حنوا إليها كما حنت لهم زمنا
مشتتين على الغبراء، تحسبهم
لا يقرب اليأس في البأس أنفسهم
حاط الخلافة بالدستور حاميتها^١
بعد (ال خليفة) بالشورى، وناديتها^٢
بعد الديار، وأحياءهم تدانيتها^٣
وأوشك البين يبلبهم، ويبلبها^٤
رحالة البدو هاموا في فيافيها^٥
والنفس إن قنطت فاليأس مُرديها^٦

أسدى إلينا (أمير المؤمنين) يدا
بيضاء، ما شابها للأبرياء دم
وليس مستعظما فضل، ولا كرم
إن الندى والرضى فيه وأسرت
قوم على الحب والإخلاص قد ملكوا
إذا الخلائف من بيت الهدى حمدت
خلافة الله في أحضان دولتهم
دروعا تحتمي في النائبات بهم
جلت، كما جل في الأملاك مُسديها^٧
ولا تكدر بالآثام صافيتها^٨
من صاحب (السكة الكبرى) ومُنشيتها^٩
والله للخير هاديه وهاديتها
وحسب نفسك إخلاص يزكيها^{١٠}
أعلى الخواقين من عثمان ماضيها^{١١}
شاب الزمان، وما شابت نواصيها
من رمح طاعنها، أو سهم راميتها

الرأي رأي «أمير المؤمنين» إذا
حارت رجال وضلت في مرائيها^{١٢}

وإنما هي سُورى الله، جاءَ بها
حَقَنْتَ عندَ مناداةِ الجيوشِ بها
ولو منعتَ أريقْتَ للعبادِ دِمًا
وَمَنْ يَسُسُ دولةً قد سُسَّتْها زمناً
أتى ثلاثونَ حَوْلًا لم تَذُقْ سِنَةً
مُسَهَّدَ الجفنِ، مكدودَ الفؤادِ بما
تكادُ من صُحبةِ الدنيا وخِبرَتِها
كتابُهُ الحقُّ، يُعليها، ويُغليها
دَمَ البريَّةِ إرضاءً لباريها^{١٣}
وطاحَ من مُهَجِ الأجنادِ غاليتها^{١٤}
تَهْنُ عليه من الدُّنيا عواديها^{١٥}
ولا استخفَكَ لَلذاتِ داعيها
يُضني القلوبَ، شجى النفسَ، عانيها^{١٦}
تسيءُ ظَنُّكَ بالدُّنيا وما فيها

أما ترى المُلكَ في عرسٍ وفي فرحٍ
لَمَّا استعدَّ لها الأقوامُ جئَتْ بها
فضلٌ لذاتِكَ في أعناقِها، ويدُ
خِلافَةُ اللهِ جرَّ الذيلَ حاضرُها
طارَتْ قناها سرورًا عن مراكزِها
هَبَّ النسيمُ على «مقدونيا» بردًا
تغلي بساكنِها ضِغْنًا ونائِرَةً
عاثتْ عصائبُ فيها كالذُّبابِ عَدَتْ
حَلًا لها من رسومِ الحكمِ دارُها
فسامَرَ الشرَّ في الأجيالِ رائحُها
مظلومةٌ في جوارِ الخوفِ، ظالمةٌ
رثتْ لها وبكتْ من رِقَّةٍ دولُ
أعلامُ مملكةٍ في الغربِ خائفَةٌ
لَمَّا ملئنا قنوطًا من سلامتها
من كلِ مستبسلٍ يرمي بمهجتهِ
كأنها — وسلامُ الملكِ يطلبها —
بدولةِ الرأي والشورى وأهلِها؟
كالماءِ عندَ غليلِ النفسِ صاديها؟^{١٧}
عندَ الرعيَّةِ من أسنى أياديها^{١٨}
بما منحتْ، وهزَّ العطفَ باديها^{١٩}
وألقت الغمَدَ إعجابًا مواضيها^{٢٠}
من بعد ما عَصَفَتْ جمرًا سوافيها^{٢١}
على الصدورِ إذ ثارت دواعيها^{٢٢}
على الأقطايحِ لَمَّا نام راعيها^{٢٣}
وغرَّها من طولِ المُلكِ باليها^{٢٤}
وصبَّح السهلَ بالعدوانِ غاديها^{٢٥}
والنفسُ مؤذيةٌ مَنْ راحَ يؤذيها
كالبومِ يبكي رُبوعًا عزَّ باكيها^{٢٦}
لآلِ عثمانَ كادَ الدَّهرُ يطويها
تَوَنَّبَتْ أَسَدُ الآجامِ تحمِيها^{٢٧}
في الهولِ إن هي جاشت لا يراعيها^{٢٨}
أمانةٌ عندَ ذي عهدٍ يؤدِّيها

الدينُ لله، من شاءَ الإلهَ هَدَى لكلِ نفسٍ هَوَى في الدينِ داعيها

ما كان مُخْتَلَفُ الأديان داعيةً
الكُتُبُ، والرسلُ، والأديانُ قاطبةً
محبَّةُ الله أصلٌ في مرادها
وكل خيرٍ يُلْقَى في أوامرها
تسامحُ النفسِ معنًى من مروءتها
تخلِّقُ الصفحَ تسعدُ في الحياة به
الله يعلمُ ما نفسي بجاهليةٍ
لئن غدوتُ إلى الإحسانِ أصرفها
والنفسُ إن كبرت رقتُ لحاسدها

إلى اختلافِ البرايا، أو تعاديتها
خزائنُ الحكمةِ الكبرى لإواعيتها
وَحَشِيَّةُ اللهِ أَسُّ في مبانيها^{٢٩}
وكل شرٍّ يوقى في نواهيها
بل المروءةُ في أسمى معانيها
فالنفسُ يسعدُها خُلُقٌ ويُشقيها^{٣٠}
مَنْ أَهْلُ خِلَّتْهَا مِمَّنْ يُعَادِيهَا؟^{٣١}
فإن ذلك أجرى من معاليها
واستغفرت كرمًا منها لثانيها^{٣٢}

* * *

يا شعبَ عثمانَ من تركٍ ومن عربٍ
صبرتَ للحقِّ حين النفسُ جازعةً
نِلْتُ الذي لم ينله بالقنا أحدٌ
ما بين آمالكِ اللائي ظفرتَ بها

حيّاكَ مَنْ يبعثُ الموتى ويُحييها
والله بالصبرِ عند الحقِّ موصيها
فاهتفِ (لأنورها) واحمدُ (نيازيها)^{٣٣}
وبين (مصر) معانٍ أنتَ تدريها

هوامش

- (١) حاط الخلافة: حفظها وتعهدها. وحاميها: هو الله تعالى.
- (٢) الشورى: التشاور في الأمر، والمراد الرجوع في الحكم إلى رأي الأمة.
- (٣) الأبيون: جمع أبي من الإباء، وهو الكبر والنخوة.
- (٤) البين: الفرقة.
- (٥) البدو: الصحراء. ورحالة البدو: أي الرحالة من أهل البدو. وهاموا: ذهبوا لا يدرون أين يتوجهون. والفيافي: جمع فيفاء، وهي المكان المستوي، أو المفاضة لا ماء فيها.
- (٦) اليأس: أن يقطع الإنسان أمله من الشيء، وهو القنوط أيضًا.
- (٧) أسدى: أحسن. وأمير المؤمنين: هو السلطان عبد الحميد. واليدُّ: النعمة، والمراد الدستور. وجلَّت: عظمت. والأملاك: الملوك.
- (٨) بيضاء.. إلخ: وذلك إنه لم تكد أمة تستخلص الحكم من الملك المستبد به، وتعيده إلى رأيها، إلا بعد حرب تقع بينه وبينها، ولكن السلطان عبد الحميد لم يكد يعلم

أن الجيوش زاحفة لتستخلص الحكم الشوري حتى رضيه وأقرّه؛ فلم تقع يومئذ حرب، ولا أريقت دماء، وإن كانت قد حدثت بعد ذلك فتنة أُريدَ بها إرجاع الاستبداد، وانتهت بخلع السلطان.

(٩) السكة الكبرى: هي السكة الحديدية الحجازية، وقد أنشأتها الدولة في أيامه.

(١٠) يزكيها: يطهرها.

(١١) الخلائف: جمع خليفة. وبيت الهدى: هو بيت النبوة. والخواقين: جمع خاقان،

وهو اسم لكل ملك من الترك. وعثمان: هو مؤسس الدولة التركية.

(١٢) المرائي: الآراء، جمع مرأى.

(١٣) حقنت دم البرية: منعت أن يسفك. والبرية: الخلق. والباري: الخالق.

(١٤) أريقت، من أراق الماء: صبّه. والدما: جمع دم. وطاح، هلك. والمهج: الأرواح.

والأجناد: العسكر، جمع جند.

(١٥) عواديها: جمع عادية من عدا عليه: ظلمه، أي العوادي التي تصيبه منها.

(١٦) مسهد الجفن: من سهده، بالتشديد جعله يسهد. أي لا ينام. ومكدود الفؤاد:

متعبه. ويضني القلوب: يثقلها. وشجي النفس: مشغولها. والعاني: الأسير.

(١٧) الغليل: شدة العطش. وغليل النفس: أي مغلولها، من غلّ الرجل بضم الغين:

اشتدّ عطشه. والصادي: الشديد العطش أيضاً.

(١٨) اليد هنا: النعمة.

(١٩) الحاضر: المقيم في الحضر. والبادي: المقيم في البادية.

(٢٠) مراكزها: جمع مركز، من ركز القناة، إذا غرزها في الأرض. والغمد: جفن

السيف. والمواضي: السيوف.

(٢١) مقدونيا: هي إقليم البلقان، من تركية أوربا، والبرد: حبّ الغمام. والعصف:

اشتداد الريح. والسواقي: الرياح تذري التراب، جمع ساقية.

(٢٢) تغلي: أي مقدونيا. والضغن: الحقد. والنائرة: يقال: نارت في الناس نائرة،

أي هاجت هائجة، ودواعي الصدور: همومها.

(٢٣) عانت: أفسدت. والعصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، قيل:

العشرة، وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. عدت: وثبت. والأقاطيع: جمع قطيع، وهو

الطائفة من الغنم.

(٢٤) الرسم الدارس: العاني القديم. والطلول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار.

(٢٥) فسامر الشرّ: من المسامرة، وهي الحديث ليلاً. وصَبَّح، بتشديد الباء: أتاها صباحاً.

(٢٦) رثت لها: رحمتها. وهذا البيت والأبيات قبله وصف الحالة مقدونيا، وذلك أن أوروبا كانت دائماً تدبّر المكايد للدولة التركية، وكانت تجد مقدونيل أصلح مكان لمكايدها؛ لما بين أهلها من اختلاف كثير في الجنس والدين واللغة، وكانت الدولة العليّة لا تكاد تطفئ فتنة في ناحية منها حتى تشبّ فتنة في ناحية أخرى، وكلّما كانت تتذرع بالقوة وإظهار الحزم في القضاء على أصحاب الثورات كان يشتدّ خوف الناس في هذا الإقليم.

(٢٧) يريد بأسد الآجام: رجال الجيش الذين طلبوا من السلطان عبد الحميد إعلان الدستور فأذعن لهم.

(٢٨) المستبسل: المستقتل. والمهجة: الروح. والهول: الخوف من الأمر لا يدري ما يهجم عليه منه. وجاشت: اضطربت.

(٢٩) المرشد: مقاصد الطرق.

(٣٠) تخلّق الصفح: أي اجعله خلقاً لك. والصفح: الإعراض عن ذنوب الغير.

(٣١) الخلفة (بكسر الخاء): المصادقة والإخفاء.

(٣٢) شانيها: مبغضها.

(٣٣) القنا: الرماح، جمع قناة، وأنور ونيازي: هما بطلا الدستور العثماني المشهوران.

الهلال والصليب الأحمران

(جبريل)، أَنْتَ هَدَى السَّما
ابْسُطْ جَنَاحَيْكَ الَّذِي
وَزِدْ (الهلالَ) مِنَ الكرا
فَهُمَا لِرَبِّكَ رَايَةً
لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَكْ
الأحمران عن الدَّمِ الـ
الغاديان لنَجْدَةٍ
يَتَأَلَّقَانِ عَلَى الْوَعَى
يَقِفَانِ فِي جَنْبِ الدِّمَا
لَوْ خَيَّمَا فِي (كربلا)
أَوْ أَدْرَكَا يَوْمَ الْمَسِيحِ
وَلَنَاوَلَاهُ الشَّهَدَ، لَا الـ
يَأْيُهَا (اللاذي) الَّتِي
أَبْلَيْتِ فِي نَزَعِ السَّهَا
وَمَرَرَتْ بِالْأَسْرَى، فَكُنْ
وَبَنَاتُ جَنْسِكَ إِنْ بَنَيْـ
بِالْأَمْسِ لَأَدِيبُ (لَوْثِرِ)
أَسَدَتْ إِلَى أَهْلِ الْجَنُو

ءِ، وَأَنْتَ بَرَهَانُ الْعِنايَةِ¹
مِنْ هُمَا الطَّهَارَةُ وَالْهَدَايَةِ
مَةِ، وَ(الصَّليبِ) مِنَ الرِّعَايَةِ
وَالْحَرْبِ لِلشَّيْطَانِ رَايَةِ
بَرٍّ مِنْهُمَا فِي الْبِرِّ آيَةِ
غَالِي وَحَرَمَتِهِ كُنَايَةِ²
الرَّائِحَانِ إِلَى وَقَايَةِ³
رَشْدًا تَبَيَّنَ مِنْ غَوَايِهِ⁴
كَالْعُذْرِ فِي جَنْبِ الْجَنَايَةِ
لَمْ يُنَمَعْ (السَّبْطُ) السَّقَايَةِ⁵
حَ لِعَاوَنَاهُ عَلَى النِّكَايَةِ⁶
خَلَّ الَّذِي تَصِفُ الرِّوَايَةَ⁷
أَلْقَتْ عَلَى الْجَرْحَى جِمَايَةِ⁸
مِ بَلَاءٍ دَهْرِكَ فِي الرِّمَايَةِ⁹
تِ نَسِيمٍ وَادِيهِمْ سِرَايَةِ¹⁰
مِنَ الْبِرِّ أَحْسَنُ الْبِنَايَةِ
لَمْ تَأَلَّ جِيرَتَهَا عُنَايَةِ¹¹
بِ يَدًا، وَغَالَتْ فِي الْحَقَايَةِ¹²

وَمُحَجَّباتِ هَنٍّ أَطْ - هَرُّ عِنْدَ نائِبَةٍ كَفايه^{١٣}
يَسْعِفَن رِيًّا، أَوْ قَرَى - كَنَساءِ طَيِّ في البدايه^{١٤}
إِنْ لَمْ يَكُنْ مَلائِكَ الرِّ - حَمَن كُنْ هُمْ حِكايه^{١٥}
لَبَيِّنَ دَعوَتِكَ الكَرِيب - مَمَّةً، وَاسْتَبَقْنَ البَرَّ غايه^{١٦}
المَحسَنونَ هُمُ اللَّبا - بٌ، وَسائِرُ النَّاسِ النِّفايه^{١٧}
يَا أَيُّها البَاغونَ. رُكا - بَ الجَهاَلَة وَالغَمايه
البَاعثونَ الحَرْبَ حُبِّ - أَ لِلتَّوسُّعِ في الوِلايه
المَدْعونَ عَلى الوِرى - حَقَّ القِيامَةِ وَالوِصايه
المُثْكلونَ، المَوْتِمُو - نَ، الهَاديْمونَ بَلا نَهايه^{١٨}
كُلُّ الجِراحِ لَها التَّئ - مَ مِنْ عِزائٍ أَوْ نِسايه^{١٩}
إِلَّا جِراحَ الحَقِّ في - عَصْرَ الحِصافَةِ وَالدرايه^{٢٠}
سَتَظَلُّ دَاميَّةٌ إلى - يَوْمَ الخِصومَةِ وَالشِكايه

هوامش

- (١) جبريل: من الملائكة مختص بالوحي.
- (٢) الأحمران.. إلخ: أي اللذان جُعلا أحمرين ليُكنى بهما عن الدّم وحرمته.
- (٣) النجدة: الإعانة.
- (٤) يتألقان: يلمعان ويضيئان.
- (٥) كربلا: مدينة في العراق بها قبر للحسين بن علي رضي الله عنهما. والسبط: ولد الولد والحسين سبط النبي ﷺ. يشير بذلك إلى مقتل الحسين، وما قيل من أن قتله منعوا عنه الماء حين طلبه وهو في النزاع.
- (٦) يوم المسيح: أي اليوم الذي يزعم النصارى أن المسيح (عليه السلام) صلب فيه.
- (٧) ولناولاه الشهد.. إلخ: وذلك أن النصارى تدّعي أن المسيح (عليه السلام) طلب وقت شدّة الصلب ماءً فأعطوه خلاً.
- (٨) اللادي: لقب عام لزوجات لوردات الإنكليز، وهي هنا زوجة المعتمد البريطاني في مصر أثناء الحرب الكبرى؛ وذلك أنها قامت تجمع المال إعانة للصليب الأحمر، وتدعو إلى ذلك.

- (٩) أبلت، من أبلى في الحرب: أظهر بأسه حتى اختبره الناس وامتحنوه.
- (١٠) السراية: مصدر سرى، أي تسلل.
- (١١) لادي لوثر: إنكليزية أخرى. ولوثر: اسم زوجها. والجيرة: الجيران.
- (١٢) الحفاية: الحفاوة، وهي أن تتلطف بالرجل وتبالغ في إكرامه وتظهر السرور به.
- (١٣) ومحجبات: أي ورُبَّ نساءٍ محجباتٍ لسن سافرات مثكن. والكفاية: ما يحمل به الاستغناء والقناعة.
- (١٤) الري: (بكسر الراء وفتحها): أي تشرب الماء حتى تشبع. والقرى: ما قُرِي به الضيف. وطى: قبيلة من العرب مشهورة بالكرم.
- (١٥) الملائك: جمع ملك، بفتح اللام.
- (١٦) لبين: أجبن. واستبقن البر: جاوزنه.
- (١٧) اللباب: المختار الخالص من الشيء. والنفاية (بضم النون وفتحها): ما نفيته من الشيء لرداءته.
- (١٨) المثلكون، من أكلها ولدها: أماته. والموتمون: الذين يجعلون الأبناء يتامى بقتل آبائهم في الحرب.
- (١٩) النساية: النسيان.
- (٢٠) الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.

الجزء الثاني

باب الوصف

آيَةُ الْعَصْرِ فِي سَمَاءِ مِصْرَ

نظمت عند قدوم (فدرين) و(يونيه) طائرين من باريز إلى مصر سنة ١٩١٤

وتملّكتِ مقاليدَ الجِواءِ^١
وتنحّى لك عن عرشِ الهواءِ
لِكَ يَا بَلْقَيْسُ — من أوفى الإمامِ^٢
طوعَ سُلْطَانَيْنِ: علم، وذَكَاءَ
خَيْلَ جَبْرِيلَ لنصرِ الأنبياءِ
بُرْدُ^٣ في البرِّ والبحرِ بطاءُ^٤
فوقَ عُتْقِ الرِّيحِ، أو مَتْنِ العَمَاءِ^٥
لبثتُ غيرَ صَبَاحٍ وَمَسَاءِ
لِفَرِيقٍ من بَنِيكَ البُسْلاءِ
في السَّمَوَاتِ قُبُورَ الشَّهَدَاءِ
سَمَرَاءِ النِّجْمِ في أَوْجِ العَلَاءِ^٦
للرياحِ الهُوَجِ يومًا بِوِطَاءِ
ولهم أَلْفُ بَسَاطٍ في الفضاءِ
رَفْعَةَ الذِّكْرِ، وَعَلِيَاءِ الثَّنَاءِ
سَالِفِ الحُبِّ، وَمَأْثُورِ الوَلَاءِ
مرحبًا بالأقربينَ الكَرَمَاءِ

يا فرنسا، نِلْتِ أسبابَ السماءِ
غُلِبَ النَّسْرُ على دولتهِ
وَأَتَتْكَ الرِّيحُ تَمْشِي أَمَّةَ
رُوضَتِ بَعْدَ جِمَاحٍ، وَجَرَتْ
لِكَ خَيْلٌ بِجَنَاحٍ أَشْبَهَتْ
وَبَرِيدٌ يَسْحَبُ الذَّيْلَ على
تَطْلُعِ الشَّمْسِ، فَيَجْرِي دُونَهَا
رِحْلَةُ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ما
بُسْلاءِ الْإِنْسِ والجِنِّ فِدَى
ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ، فَاتَّخَذُوا
فَتِيَّةً يُمَسُونَ جِيرَانَ السُّهَاءِ
حَوْمًا فوقَ جِبَالٍ لَمْ تَكُنْ
لِسَلِيمَانَ بِسَاطٌ وَاحِدٌ
يَرْكَبُونَ الشُّهْبَ والسُّحْبَ إلى
يا «نُورًا» هَبَطُوا «الوادي» على
دَارُكُمْ مِصْرَ، وفيها قَوْمُكُمْ

طَرْتُمْ فِيهَا، فَطَارَتْ فَرَحًا
هَلْ شَجَاكُمْ فِي ثَرَى أَهْرَامِهَا
أَيْنَ نَسَرُّ قَدْ تَلَقَّى قَبْلَكُمْ
لَوْ شَهِدْتُمْ عَصْرَهُ! أَضْحَى لَهُ
بَأْعَزُّ الضَّيْفِ خَيْرِ النَّزْلَاءِ^٧
مَا أَرْقُتُمْ مِنْ دُمُوعٍ وَدُمَاءٍ؟
عِظَةُ الْأَجْيَالِ مِنْ أَعْلَى بِنَاءِ^٨
عَالَمِ الْأَفْلَاكِ مَعْقُودِ اللَّوَاءِ
فَمَشَى لِلْقَبْرِ مَجْرُوحَ الْإِبَاءِ
أَخَذَتْ تَاجًا بَتَاجِ ثَارِهَا
وَتَمَنَّتْ لَوْ حَوَتْ أَعْظَمَهُ
وَجَرَتْ مِنَ صَلَفِ الْكِبْرِيَاءِ^٩
بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّمْسِ الْعُظْمَاءِ

جَلَّ شَأْنُ اللَّهِ هَادِي خَلْقِهِ
زَفَّ مِنْ آيَاتِهِ الْكِبْرَى لَنَا
مَرْكَبٌ لَوْ سَلَفَ الدَّهْرُ بِهِ
نَصْفُهُ طَيْرٌ، وَنَصْفٌ بَشَرٌ!
بَهْدَى الْعِلْمِ، وَنُورِ الْعِلْمَاءِ
رَائِعٌ، مَرْتَفِعًا أَوْ وَاقِعًا،
طَلَبَةُ طَالِ بِهَا عَهْدُ الرِّجَاءِ
مُسْرَجٌ فِي كُلِّ حِينٍ، مُلْجَمٌ
أَنْفُسَ الشَّجْعَانِ قَبْلَ الْجَبْنَاءِ
كَامِلُ الْعُدَّةِ، مَرْمُوقُ الرُّوَاءِ^{١٠}
كِبْسَاطِ الرِّيحِ فِي الْقَدْرَةِ، أَوْ
هُدْهُدِ السَّيْرِ فِي صِدْقِ الْبَلَاءِ
أَوْ كَحُوتِ يَرْتَمِي الْمَوْجَ بِهِ
سَابِحَ بَيْنَ ظُهُورٍ وَخَفَاءِ
رَاكِبَ مَا شَاءَ مِنْ أَطْرَافِهِ
لَا يُرَى مِنْ مَرْكَبِ ذِي عُدْوَاءِ^{١١}

مَلَأَ الْجَوَّ فَعَالًا، وَغَدَا
وَتَرَى السُّحْبَ بِهِ رَاعِدَةً
حَمَلَ الْفَوْلَادَ رِيشًا، وَجَرَى
وَجَنَاحَ غَيْرِ نِي قَائِمَةٍ
عَجَبَ الْغُرْبَانِ فِيهِ وَالْجِدَاءِ
وَذُنَابِي، كُلُّ رِيحٍ مَسَّهَا
مِنْ حَدِيدٍ جُمُعَتِ، لَا مِنْ رَوَاءِ^{١٢}
يَتَرَاءَى كَوَكَبًا ذَا ذَنْبٍ
كَجَنَاحِ النُّحْلِ مَصْقُولٍ سَوَاءِ^{١٣}
فَإِذَا جَدَّ فَسَهْمًا ذَا مَضَاءِ
فَإِذَا جَزَّ كَالطَّائِفِ ذَيْلَ الْخَيْلَاءِ
كَعَزِيفِ الْجَنِّ فِي الْأَرْضِ الْعَرَاءِ

أرسلته الأرض عنها خبراً طَنَّ في آذانِ سَكَّانِ السَّمَاءِ

يا شبابَ الغدِ، وابنَايَ الفِدَى
هل يمدُّ الله لي العيشَ، عسى
وأرى تاجَكُم فوق السُّها
مَنْ رَأَكم قال: مصرُ استرجعتُ
أُمَّةٌ للخلد ما تبني، إذا
تَعَصَّمُ الأجسامُ من عادي البلا
إن أسأنا لَكُم، أو لم نُسئْ
إنما مصرُ إليكم وبكم
عَصْرُكم حرٌّ، ومُستقبلُكم
لا تقولوا: حطْنَا الدَّهرُ، فما
هل علمتم أُمَّةً في جهلها
باطنُ الأُمَّة من ظاهرها
فخذوا العلمَ على أعلامه
واقرءوا تاريخكم، واحتفظوا
أنزلَ الله على ألسنتهم
واحكموا الدنيا بسلطان، فما
واطلبوا المجد على الأرض، فإن

لَكُم. أَكْرَمُ وأعزُّ بالفداء
أن أراكم في الفريق السُّعداء؟
وأرى عرشَكُم فوق ذُكاء؟^{١٤}
عزَّها في عهد «خوفو» و«مناء»
ما بنى الناسُ جميعاً للعفاء^{١٥}
وتَقِيَ الآثارُ من عادي الفناء
نحن هَلَكى، فلکم طولُ البقاء
وحقوقُ البرِّ أولى بالقضاء
في يمين الله خيرُ الأمان
هو إلّا من خيالِ الشعراء
ظهرت في المجد حسناء الرِّداء؟
إنما السائلُ من لونِ الإناء
واطلبوا الحكمةَ عندَ الحكماء
بفصيح جاءكم من فصحاء
وَحْيِهِ في أَغْصُرِ الوَحْيِ الوُضاء^{١٦}
خُلِقَتْ نَضْرَتُها للضعفاء
هي ضاقت فاطلبوه في السماء

شَيْكِسِير

أعلى الممالك ما كرسِيه الماءُ
يا جيرة (المنش)، حَلَاكُم أَبَوْتُكُم
مُلْكٌ يطاول ملكَ الشمس، عزَّتْهُ
تأوي الحقيقة منه والحقوق إلى

وما دِعامتُه بالحق شَمَاءُ^{١٧}
ما لم يُطَوَّقْ به الأبناء آباءُ
في الغرب باذخة، في الشرق فَعَسَاءُ^{١٨}
رُكِنَ بَنَاهُ من الأخلاق بَنَاءُ

بحائط الرأى أشياخُ أجلاءُ
في السلم زهرُ ربى، في الروع أَرْزاءُ
كأنهم عربٌ في الدهر عرباءُ^{١٩}
ولا وراءَ مداها فيه عُلْياءُ
فيها، ولا رَحِمُ الإنسانِ قُطْعاءُ
وراءُهنَّ لباعي الصَّيدِ عَنَقاءُ^{٢٠}
للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

أعلاه بالنظرِ العالي، ونطَّقه
وحاطَه بالِقنا فتِيانَ مملكةٍ
يُسْتَصْرخون، ويرجى فضلُ نَجديهم
ودولةٌ لا يراها الظنُّ من سَعَة
عصماءُ، لا سببُ الرَحْمَنِ مُطَّرَح
تلك (الجزائرُ) كانت تحْتَمُ رُكُنًا
وكان وُدُّهم الصافي ونُصرتَهُم

يَدُ على خَلقه لله بيضاءُ
ولا نَمْتُ من كريم الطيرِ غَناءُ^{٢١}
ما لم تنلُ بالنجوم الكُثْرَ جَوْزاءُ^{٢٢}
لها سرائرُ لا تُحصَى وأهْواءُ^{٢٣}
من جانبِ الله إلهامٌ وإيحاءُ
حَقِيقَةُ من خَيالِ الشَّعرِ غَرَاءُ^{٢٤}
جاءَتْ به من بناتِ الشَّعرِ عَذراءُ
كِلَاهُمَا فيه إِضْحَاكٌ وإِبْكَاءُ
أو تُتَلَّ فهي من الإنجيلِ أَجْزاءُ

دستورُهُم عجبُ الدنيا، وشاعرُهُم
ما أنجبتُ مثْلَ (شيكسبيرِ) حاضرةً
نالتُ به وَحْدَه (إنكلترا) شرفًا
لم تُكْشَفِ النَّفْسُ لولاهُ، ولا بُليتِ
شِعْرٌ من النَّسَقِ الأعلى، يُؤَيِّدُه
من كلِّ بَيْتٍ كَأَيِّ الله، تَسْكُنُه
وكلَّ معنى كعيسى في محاسنه
أو قِصَّة ككتابِ الدهرِ جامعةً
مهما تُمَثِّلُ تَرِ الدنيا مُمَثِّلَةً

عن عالمِ الموتِ يَرْوِيهِ الألباءُ^{٢٥}
فهل لِمَا بعدُ تَمَثَّلُ وإِدْناءُ؟^{٢٦}
غبراءُ في ظُلُماتِ الأرضِ جَوْفاءُ؟^{٢٧}
شُؤْبِبْهَا عَسَلُ صافٍ وصهباءُ^{٢٨}
جَفَّتْه رِيحانة للشَّعرِ فَيَحْءُ^{٢٩}
ولم تَفْتَه من الباغين عَوْرَاءُ^{٣٠}
وسُمُّها في عروقِ الظلمِ مِشَاءُ
لها إلى الغيبِ بالأقلامِ إِيْمَاءُ؟

يا صاحبَ العُصْرِ الخالي. ألا خَبَرُ
أَمَّا الحَياءُ، فأمرٌ قد وصفتَ لنا
بِمَنْ أَماتك قل لي: كيف جُمجَمَةُ
كانتُ سماءَ بيانٍ غيرَ مُقْلَعَةٍ
فأصبحتُ كأصيصٍ غيرِ مُفْتَقَدٍ
وكيف باتَ لِسَانٌ لم يدع غرضًا
عفا، فأَمَسَى زُنابى عَقْرِبَ بَلِيَّتِ
وما الذي صنعتُ أيدي البلى بِيَدِ

في كل أنملة منها إذا انبجست
أمست من الدود مثل الدود في جدث
وأين تحت الثرى قلب جوانبه
نصغي إلى دقه أذن البيان، كما
لئن تمشى البلى تحت التراب به
بَرَق، وَرَعْدٌ، وَأَرْوَاحٌ، وَأَنْوَاءٌ^{٣١}
قُفَّازُهَا فِيهِ حَصْبَاءٌ وَبَوْغَاءٌ^{٣٢}
كَأَنَّهُنَّ لَوَادِي الْحَقِّ أَرْجَاءٌ؟
إِلَى النَوَاقِيسِ لِلرُّهْبَانِ إِضْغَاءٌ
لَا يُؤْكَلُ اللَّيْثُ إِلَّا وَهُوَ أَشْلَاءٌ^{٣٣}

* * *

والناس صنفان: موتى في حياتهم
تأبى المواهب، فالأحياء بينهم
يا وإصف الدّم يجري ههنا وههنا
لاموك في جعلك الإنسان ذئب دم
وقيل: أَكْثَرَ ذَكَرَ الْقَتْلِ، ثُمَّ أَتَوْا
كانوا الذئاب، وكان الجهل داءهمو
لوم الحياة مشى في الناس قاطبة
قم أيد الحق في الدنيا، أليس له
وأين صوت تميد الراسيات له
وأين ماضية في الظلم، قاضية؟
أيترك الأرض جانوها وليس بها
تأوي إليها الأيامى، فهي تعزية
وَأَخْرُونَ بِبِطْنِ الْأَرْضِ أَحْيَاءٌ
لَا يَسْتَوُونَ، وَلَا الْأَمْوَاتُ أَكْفَاءٌ
قُمْ انْظُرِ الدَّمَ، فَهُوَ الْيَوْمَ دَأْمَاءٌ^{٣٤}
وَالْيَوْمَ تَبْدُو لَهُمْ مِنْ ذَاكَ أَشْيَاءٌ
مَا لَمْ تَسْعُهُ خِيَالَاتٌ وَأَنْبَاءٌ
وَالْيَوْمَ عَلِمَهُمُ الرَّاقِي هُوَ الدَّاءُ
كَمَا مَشَى آدَمُ فِيهِمْ وَحَوَاءُ
كَتِيبَةٌ مِنْكَ تَحْتَ الْأَرْضِ خَرْسَاءٌ؟
كَمَا تَمَایَدَ يَوْمَ النَّاسِ سَيْنَاءٌ؟^{٣٥}
وَأَيْنَ نَافِذَةٌ فِي الْبَغْيِ، نَجْلَاءُ؟
صَحِيفَةٌ مِنْكَ فِي الْجَانِينِ سَوْدَاءُ؟
وَيَسْتَرِيحُ الْيَتَامَى، فَهِيَ تَأْسَاءُ^{٣٦}

أَثَرُ الْبَالِ فِي الْبَالِ

في وصف ليلة راقصة أقيمت في قصر عابدين

حَفَّ كَأَسْهَاهَا الْحَبَبُ
أَوْ دَوَائِرُ دُرَّرُ
أَوْ فَمُ الْحَبِيبِ، جَلَا
أَوْ يَدُ، وَبَاطِنُهَا
فَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ^{٣٧}
مَائِجٌ بِهَا لَبَبُ^{٣٨}
عَنْ جُمَانِهِ الشَّنْبُ^{٣٩}
عَاطِلٌ وَمَخْتَضِبُ

أو شَقِيقُ وَجَنَّتِهِ حِينَ لِي بِهِ لِعِبْ^{٤٠}
 رَاحَةُ النَفُوسِ، وَهَلْ عِنْدَ رَاحَةٍ تَعْبُ
 يَا نَدِيمٌ، خَفَّ بِهَا لَا كَبَا بِكَ الطَّرِبُ
 لَا تَقْلُ: عَوَاقِبُهَا فَالْعَوَاقِبُ الْأَدْبُ
 تَنْجَلِي وَلِي خُلُقْ يَنْجَلِي وَيَنْسَكِبُ
 يَرْقُبُ الرِّفَاقُ لَهُ كُلَّمَا سَرَى شَرِبُوا
 شَاعِرُ الْعَزِيزِ، وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا اللَّقْبِ
 لَيْلَةٌ لَسَيِّدِنَا فِي الزَّمَانِ تُرْتَقِبُ
 دُونَهَا الرِّشِيدُ، وَمَا أَخْلَدْتُ لَهُ الْكُتُبُ
 يُهْرَعُ النِّزِيلُ لَهَا وَالرَّعِيَّةُ النُّحْبُ^{٤١}
 فَالْإِسْرَافُ جَوْهَرَةٌ لِلْعُقُولِ تَخْتَلِبُ
 أَوْ كِبَاقَةٌ زَهْرًا لِلْعُيُونِ تَأْتُشِبُ^{٤٢}
 الْجَلَالُ قَبِيَّتُهُ وَالسَّنَا لَهُ طُنْبُ^{٤٣}
 ثَابِتٌ، وَذُرُوتُهُ فِي الْفَضَاءِ تَضْطَرِبُ
 أَشْرَقَتْ نَوَافِذُهُ فَهِيَ مَنَظَرٌ عَجَبُ
 وَاسْتَنَارَ رَفْرَفُهُ وَالسُّجُوفُ، وَالْحُجُبُ^{٤٤}
 تَعَجَّبَ الْعُيُونُ لَهُ كَيْفَ تَسْكُنُ الشُّهُبُ؟^{٤٥}
 أَقْبَلْتُ شَمُوسَ ضَحَى مَا لَهَا مِنْ مُنْتَقَبِ^{٤٦}
 الظُّلَامِ رَايَتْهَا وَهِيَ جَيْشُهُ اللَّجْبُ^{٤٧}
 فِي هَوَاجِ عَجَلًا بِالْجِيَادِ تَنْسَجِبُ
 قَامَ دُونَهَا سَبَبٌ وَاسْتَحْتَنَّتْهَا سَبَبُ^{٤٨}
 فَهِيَ تَارَةٌ مَهْلٌ وَهِيَ تَارَةٌ حَبَبُ^{٤٩}
 تَرْتَمِي بِهِنَّ جَمَى لَا يَجُوزُهُ رَغَبُ^{٥٠}
 بَابُهُ لِدَاخِلِهِ جَنَّةٌ، هِيَ الْأَرْبُ
 قَامَتِ السُّرَاةُ بِهِ وَالْمَعِيَّةُ النُّجُبُ^{٥١}
 وَانْبَرَى النِّسَاءُ لَهُ عُجْمُهُنَّ، وَالْعَرَبُ
 الْعَفَافُ زَيْنَتْهَا وَالْجَمَالُ، وَالْحَسَبُ

أَنْجُمٌ، مَطَالِعُهَا عَابِدِينَ وَالرَّحَبَ^{٥٢}
 سَيِّدِي لَهَا فَلَكْ وَهِيَ مِنْهُ تَقْتَرِبُ
 عِنْدَ رُكْنِ حُجْرَتِهِ بِذُرِّهِ لَنَا كَتَبَ^{٥٣}
 يَزْدَهِي السَّرِيرُ بِهِ وَالْمَطَارِفُ الْقُشْبَ^{٥٤}
 حَوْلَ عَرْشِهِ عَجَمٌ حَوْلَ عَرْشِهِ عَرَبُ
 رُتْبَةُ الْجُدُودِ لَهُ تَسْتَوِي بِهَا الرُّتَبُ
 شَرَّفَتْ بِهِ وَسَمَا تَالِدٌ، وَمُكْتَسَبَ^{٥٥}
 الْليوْثُ مَاثِلَةٌ وَالظُّبَاءُ تَنْسَرِبُ
 الْحَرِيرُ مَلْبَسُهَا وَاللُّجَيْنُ، وَالذَّهَبُ^{٥٦}
 وَالْقَصُورُ مَسْرَحُهَا لَا الرِّمَالُ، وَالْعُشْبُ
 يَسْتَفْزُهَا نَعَمٌ لَا صَدَى، وَلَا لَجَبُ^{٥٧}
 يُسْتَعَادُ مُرْقِصُهُ تَارَةً وَيُقْتَضَبُ
 فَالْقُدُودُ بَانَ رَبِّي بَيِّدَ أَنَّهَا تَثْبُ^{٥٨}
 يَلْعَبُ الْعِنَاقُ بِهَا وَهُوَ مُشْفِقٌ حَذِبُ^{٥٩}
 فَهِيَ مَرَّةً صُعْدُ وَهِيَ مَرَّةً صَبَبُ^{٦٠}
 وَهِيَ هَهْنَا، وَهَنَا تَلْتَقِي، وَتَضْطَجِبُ
 مِثْلَمَا التَقْتُ أَسْلُ أَوْ تَعَانَقْتُ قُضْبُ^{٦١}
 الرَّءُوسُ مَاثِلَةٌ فِي الصَّدُورِ تَحْتَجِبُ
 وَالنُّحُورُ قَائِمَةٌ قَاعِدُ بِهَا الْوَصَبُ^{٦٢}
 وَالنُّهُودُ هَامِدَةٌ وَالْخُدُودُ تَلْتَهَبُ
 وَالْخُصُورُ وَاهِيَةٌ بِالْبَنَانِ تَنْجَذِبُ
 سَالَتِ الْأَكْفُ بِهَا فَهِيَ أَغْصَنُ نُهَبُ^{٦٣}
 الْخَوَانُ دَائِرَةٌ الْمَلَا لَهَا قُطْبُ^{٦٤}
 لِلْوَفُودِ مَائِدَةٌ مِنْهُ أَيْنَمَا انْقَلَبُوا
 وَالطَّرِيقُ مُتَّصِلٌ نَحْوَهُ، وَمُنْشَعِبُ
 وَالطَّعَامُ حَاضِرُهُ وَالْمَزِيدُ مُنْتَهَبُ
 بَارِدٌ، وَمِنْ عَجَبٍ يُشْتَهَى وَيُطَلَّبُ

سائغٌ لِيذِي سَغَبٍ	سائغٌ ولا سَغَبٍ ^{٦٥}
حاضرٌ لَدَى طَلَبٍ	حاضرٌ ولا طَلَبٍ
والمُدامُ أَكُوْسُها	ما تغيضُ والعُلبُ ^{٦٦}
وهيَ بيننا سَلَبٌ	والنُّهى لها سَلَبٌ ^{٦٧}
شَرُفْتُ منافِحُها	واعتلى بها العِنب
حوَلُها الحوائِمْ، ما	ينقضى لها قَرَبٌ ^{٦٨}
يغتِبطُنَ في حَرَمٍ	لا تناله الرِّيب
ما سوى الحديث به	يُبتغى ويُجتَذَبُ
هكذا الكرامُ، كرا	مُ «وإن همو طَرَبوا»
ليلةً علَّتْ، وغَلَّتْ	ليتَ فَجَرُها كَذِبُ
يكفلُ الأميرُ لنا	أن تَعِيدَها الحِقَبُ ^{٦٩}
عاشَ لِلندى مَلِكٌ	سيِّدُ لنا، وأُبُ
حاتمُ الملوِكِ إذا	ضاقَ بالندى النَّشَبُ ^{٧٠}
السُّرورُ أنْعَمَه	والهناءُ ما يَهَبُ
والندى سَجِيَّتُه	والحنانُ، والحدَبُ ^{٧١}
يا عزيزُ، دام لنا	رَوْضُ عِزِّك الأشْبُ ^{٧٢}
هذه عروسُ نُهى	في القبولِ تَرْتِغِبُ ^{٧٣}
زَفَها لكم، وجَلا	شاعِرُ الحِمى الأرب
احتفى الحُضورُ بها	واكتفى بها الغِيبُ ^{٧٤}
أنتم الظلالُ لنا	والمنازلُ الخُصَبُ
لو مَدَحْتُكم زَمَنِي	لم أقم بما يَجِبُ

مَرَقَصُ

نُظِمَت هذه القصيدة في وصف مرقص أُقيم بسراي عابدين سنة ١٩٠٤

مالَ واحتجبُ وادَّعى الغضبُ

ليت هاجري	يشرحُ السبب
عَتَبُهُ رَضِيَ	ليته عتب
عَلَّ بَيْنَنَا	واشياء كذب
أَوْ مَفْنَنًا	يخلقُ الرَّيبَ ^{٧٥}
مَنْ لِمُذْنَفٍ	دمعه سُحِبَ؟ ^{٧٦}
بات متعبًا	هَمُّهُ اللَّعِب
يستوي خَلٍ	عنده وَصَب
ذقتُ صَدَّه	غيرَ محتسب
ضقتُ فيه بالـ	رُسلِ والكتب
كلَّما مَشَى	أخجل القُضْب
بَيْنَ عَيْنِهِ	والمها نسب
ماءُ خَدَّه	شفَّ عن لَهَب
ساقِي الطَّلَا	شُرْبُهَا وَجِبَ ^{٧٧}
هَاتِهَا مَشَتْ	فوقها الحِقْب ^{٧٨}
بَابِلِيَّةً	تنفثُ الحَبَّ ^{٧٩}
إِنَّ كَرَمَهَا	أَدَمُ الْعَيْنِ
هُذَّبَتْ، ففى	دَنَّهَا الْأَدَب
إسْقِهَا فَتَى	خيرَ مَنْ شَرِب
كلَّما طغى	راضها الحسب
(عابدين) أَمْ	هالة عجب؟ ^{٨٠}
أُسُّهُ الْهَدَى	والعُلا طُنُب ^{٨١}
مُشْرِفُ الذرى	مائجُ الرَّحَب
قام رَبُّه	يرفع الحُجُب
عند عرشه	عَرِشٍ (مُنْحَتَب)
دونِ عِزِّه	(تُبَّعُ) الْعَلَب
السُّرَاةُ مِنْ	وفده النُّخَب
حول سُدَّةٍ	حَقُّهَا الرِّغَب
طابَ عِنْدَهَا الـ	عُجْمُ وَالْعَرَب

من بني الصُّلْبِ	وارتضى المَلا
سِرْبٌ انْسَرَبَ	مِنْ حِسانِهِم
يَسْحَبُ الذَّنْبَ	بَيْنَ كوكِبِ
فاتنِ الشَّنْبِ ^{٨٢}	عند جُوذِرِ
حاسِرِ اللَّبِّبِ ^{٨٣}	عند شادنِ
أينما ذهب	تَذهَبُ النُّهَى
كلَّما وثب	يَلْفِتُ المَلا
سُنْدِسٍ قُشْبِ ^{٨٤}	في غلائِلِ
يثبت اليَبْلَبِ ^{٨٥}	دونهنَّ لا
عُطْفُه اضْطراب	قَرَّ نَهْدُه
صدره صَبَبَ	خصره هَبَا
مَشْيُهُ الخَبَبِ	يُرْكِضُ النُّهَى
شاءَ في الكُتُبِ	رائعًا كما
شبهه انجذب	أَنَسَا إلى
أينما انقلب	يَسْتَخِفُّه
لَحْنٍ مُنْتَخَبِ	مُطَرَّبٍ من الـ
يُحْضِرُ الغَيْبِ	يَجْمَعُ المَلا
قبلَه طَرِبَ	ما حدا المَها

* * *

يا أبا النُّجُبِ	يا ابنَ خير أب
للقَرَى انتدب	أنت (حاتم)
كُلُّ ما يجب	في خِوانِه
مِثْلُه القُفْبِ	لم تَقُم على
يا وما نضب	أنهَلَ البَرا
لم يقل جدب	أطعم الورى
ما بهم سغب ^{٨٦}	ما بهم صدَى
سِ انظر النَّشْبِ ^{٨٧}	قَمُ أبا (نوا

ما الخصب؟ ما الـ	بحرُ ذو الغُب؟
هل عهدته	يُمطرُ الذَّهب؟
ذا هو الجنا	بُ الذي خصب
ظللَ الوري	روضه الأشب ^{٨٨}
خيرُ مَنْ دعا	خيرُ مَنْ أدب ^{٨٩}

(رَبِّ مصر)، عش	وابلُغ الأرب
لم تزل ليا	ليك تُرتقب
مثل صفوها الـ	دَّهرُ ما وهب
أحيتها لنا	عدَّة الشُّهب
هاك مدحة الشـ	اعر الأرب ^{٩٠}
زفها إلى	خيرُ مَنْ خطب
فارسِيَّة	برزت العرب
لم يَجِئ بها	شاعرُ ذهب
إن تُراعها	تسمع العَجَب ^{٩١}
بيد أنها	بعضُ ما وجب

تَحْلِيَةُ كِتَاب

(قيلت بمناسبة تأليف كتاب فتح مصر الحديث لحافظ بك عوني) صفة الكتاب — صفة التاريخ — صفة الجبرتي — واقعة الأهرام

أنا مَنْ بدَّل بالكتَب الصَّحَابَا	لم أجد لي وافيًا إلا الكتابَا
صاحبٌ — إن عِبته أو لم تعب —	ليس بالواجد للصاحب عابَا
كلَّما أخلقته جدَّدني	وكساني من حلى الفضل ثيابَا
صُحبةٌ لم أشك منها رِيبةٌ	ودادٌ لم يُكلِّفني عتَابَا
رُبَّ ليلٍ لم نُقصَّر فيه عن	سمَرٍ طالَ على الصمت وطابَا

كان من همّ نهاري راحتي
إن يجدني يتحدث، أو يجد
تجد الكتب على النقد كما
فتخيزها كما تختاره
صالح الإخوان يبغيك التقى
ورشيد الكتب يبغيك الصوابا

غال بالتاريخ، واجعل صُحفه
قلب الإنجيل، وانظر في الهدى
ربّ من سافر في أسفاره
واطلب الخلد، ورُمه منزلاً
عاش خلق، ومضوا، ما نقصوا
أخذ التاريخ مما تركوا
ومن الإحسان، أو من ضده
مثل القوم نسوا تاريخهم
أو كمغلوب على ذاكرة

يا أبا «الحُفاظ» قد بلغتنا
لك في الفتح وفي أحداثه
من يطالعُه، ويستأنس به
صُحفُ ألفتها في شدة
لغة «الكامل» في استرساله
إنّ للقصص زماماً ويداً
لغة الذكر، لسان المُجتبى
كلّ عصرٍ دارها إن صادفت
إئت بالعُمران رَوْضاً يانعاً
لا تجئها بالمتاع المُقتنى

طُلبة، بلغك الله الرغابا
فتح الله حديثاً وخطابا
يجد الجدّ، ولا يعدم دعابا
يتلاشى دونها الفكرُ انتهابا
«وابن خلدون» إذا صحّ وصابا
تجنب السهل، وتقنأ الصعابا^{٩٤}
كيف تغيا بالمُنادين جوابا؟
منزلاً رحباً، وأهلاً، وجنابا^{٩٥}
واذعها تجرّ ينابيع عذابا
سرقاً من كلّ قوم ونهابا

سَلْ بِهَا أُنْدَلَسًا: هَلْ قَصَّرَتْ
غُرِسَتْ فِي كُلِّ تُرْبٍ أَعْجَمٍ
دُونِ مِضْمَارِ الْعُلَى حِينَ أَهَابَا؟
فَزَكْتُ أَصْلًا، كَمَا طَابَتْ نِصَابَا
وَمَشَتْ مِشْيَتَهَا، لَمْ تَرْتَكِبْ
غَيْرَ رِجْلَيْهَا، وَلَمْ تَحْجَلْ غُرَابَا^{٩٦}

إِنَّ عَصْرًا تَجَلَّوْهُ لَنَا
الْمَمَالِيكَ تَمْشَى ظِلْمُهُمْ
لَيْسَ الْأَيَّامُ دَجْنَا وَضَبَابَا^{٩٧}
ظُلُمَاتٍ، كَدَجَى اللَّيْلِ حِجَابَا
كُلُّهُمْ كَافُورٌ، أَوْ عَبْدُ الْخَنَا
غَيْرَ أَنْ الْمَتَنَبِي عَنْهُ خَابَا؟^{٩٨}
وَلِكُلِّ شَيْعَةٍ مِنْ جَنْسِهِ
إِنْ لِلشَّرِّ إِلَى الشَّرِّ انْجَذَابَا
ظُلُمَاتٌ لَا تَرَى فِي جُنْحِهَا
غَيْرَ هَذَا الْأَزْهَرِ السَّمْحِ شَهَابَا^{٩٩}
زَيْدَتِ الْأَخْلَاقُ فِيهِ حَائِطًا
فَاحْتَمَى فِيهَا رَوَاقًا وَقَبَابَا
وَتَرَى الْأَعْزَالَ مِنْ أَشْيَاخِهِ
صَيَّرُوهُ بِسِلَاحِ الْحَقِّ غَابَا^{١٠٠}
قَسَمًا لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ بِهَا
رَجُلٌ يَقْرَأُ أَوْ يَدْرِي الْكِتَابَا
حَفِظَ الدِّينَ مَلِيًّا، وَمَضَى
يُنْقِذُ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَمْلِكْ ذَهَابَا^{١٠١}
أُوذِيَتْ هَيْبَتُهُ مِنْ عَجْزِهِ
وَقُصَارَى عَاجِزٍ أَنْ لَا يُهَابَا
لَمْ تَغَادِرْ قَلَمًا فِي رَاحَةٍ
دَوْلَةً مَا عَرَفْتُ إِلَّا الْحِرَابَا
أَقْعَدَ اللَّهُ (الْجَبْرَتِي) لَهَا
قَلَمًا عَنْ غَائِبِ الْأَقْلَامِ نَابَا^{١٠٢}
خَبَأَ (الشَّيْخُ) لَهَا فِي رُذْنِهِ
مَرَقَمًا أَهَى مِنَ الصَّلِّ انْسِيَابَا^{١٠٣}
مَلِكٌ لَمْ يُغْضِ عَنْ سَيِّئَةٍ
يَا لَهُ مِنْ مَلِكٍ يَهْوَى السَّبَابَا^{١٠٤}
لَا يَرَاهُ الظُّلْمُ فِي كَاهِلِهِ
وَهُوَ يَكْوِي كَاهِلَ الظُّلْمِ عِقَابَا
صُحِفُ (الشَّيْخِ)، وَيَوْمِيَّاتُهُ
كَزْمَانِ الشَّيْخِ سُقَمًا وَاضْطِرَابَا
مِنْ حَوَاشٍ كَجَلِيدٍ لَمْ يَذُبْ
وَفُصُولٍ تَشْبِهُ التَّبَرَّ الْمَذَابَا
و(الْجَبْرَتِي) عَلَى فِطْنَتِهِ
مَرَّةً يَغْبَى، وَحِينًا يَتَغَابَى^{١٠٥}
مُنْصَفٌ مَا لَمْ يَرُضْ عَاطِفَةً
أَوْ يُعَالِجَ لَهْوَى النَفْسِ غَلَابَا^{١٠٦}
وَإِذَا الْحَيُّ تَوَلَّى بِالْهَوَى
سِيرَةَ الْحَيِّ بَغَى فِيهَا وَحَابَى

وَقَعَةُ الْأَهْرَامِ جَلَّتْ مَوْقِعًا
وَتَعَالَتْ فِي الْمَغَازِي أَنْ تُرَابَا^{١٠٧}

لعقول تجعل الماضي ماثباً^{١٠٨}
 تنشر الدهر وتطويه كعاباً^{١٠٩}
 أمعن الأبطال في الدهر احتجاباً
 غاية في المجد لا تدنو طلاباً
 دولة الشرق استواءً وانقلاباً
 أمماً في مهدهم شهداً وصاباً^{١١٠}
 وعلى التل لبسناها معاباً^{١١١}
 قطع الأرض بطاحاً وهضاباً^{١١٢}
 خطفت تاجاً، واصطادت عقاباً^{١١٣}
 لبسوا الغار على الغار اعتصاباً^{١١٤}
 واختلاف النقع لونا وإهاباً^{١١٥}
 لو تأنى حظه قاد السحاب
 جمع الجرح على الليث الذباب
 فيلق كالزهر حسناً والتهاباً؟^{١١٦}
 وجلال الخيل ذراً وذهاباً^{١١٧}
 لمست طعناً، ولا مست ضراباً
 بين لصين أرادها جذاباً
 من ذئاب الحرب، والأطول ناباً
 وقفوا من ساقه الجيش ذنابى
 يحرس الأحمال، أو يسقي مصاباً

عظة الماضي، وملقى درسه
 من بنات الدهر، إلا أنها
 ومن الأيام ما يبقى وإن
 هي من أي سبيل جننتها
 انظر الشرق تجدها. صرقت
 جلبت خيراً وشرّاً، وسقت
 في (نصيبين) لبسنا حسنها
 إن سرباً زحف (النسر) به
 إن ترامت بلداً عقبانها
 شهد (الجيبي) منهم عصابة
 كذئاب القفر من طول الوغى
 قادهم للفتح في الأرض فتى
 غرت الناس به نكبته
 برزت بالمنظر الضاحي لهم
 حلي الفرسان فيها جوهرًا
 في سلاح كجلي الغيد، ما
 طرحت مصر، فكانت (موميا)
 نالها الأعرض ظفراً منهما
 وبنو الوادي رجالات الحمى
 موقف العاجز من حلف الوغى

الرَّبيعُ وَوَادِي النَّيلِ

إلى (هول كين) الكاتب الروائى الشهير

حيّ الربيع حديقة الأرواح
 وانشر بساحته بساط الرّاح

أذار أقبل، قم بنا يا صاح
 واجمع ندامى الظرف تحت لوائه

فالصفو ليس على المدى بمُتاح
لتجاوُب الأوتارِ والأقداح
غُرٌّ، كأمثال النجوم، صباح
وتجمَّلوا بمروءةٍ وسَماح
للمنجَبَيْن: الكرمِ والتفاح^{١١٨}
مُليء المكانُ سَنَى، وطيبَ نُفاح
خلعت على النشوان جَلِيَّةً صاحي
وأعدَّ منها قُرْبَةً (للفتاح)^{١١٩}
ومُحجَّباتِ الأيِّك في الأدواح^{١٢٠}
غَرِدٍ على أغصانه، صَدَّاح
حُلَيْنَ بالأطواق والأوضاع
كالرَّاهباتِ صبيحةَ الإفصاح
في هيكلٍ من سُندسٍ فيَّاح

صفوُ أتيحَ، فخذُ لنفسِكِ قسَطَها
واجلس بضاحكة الرياض مُصَفَّقًا
واستأنِسْنَ من السَّقاةِ برُفْقَةٍ
رَقَّتْ كندمان الملوك خلألُهم
واجعل صَبوحَكَ في البكور سَلِيلَةً
مهما فضضت دنانها فاستضحكت
تطغى، فإنْ ذكرْتُ كريمَ أصولها
(فرعونُ) خَبَأها ليومِ فُتوحه
ما بين شادٍ في المجالي أَيْكُهُ
غَرِدٌ على أوتاره، يُوحى إلى
بيضِ القلائس في سوادِ جَلابِبِ
رَتَلْنَ في أوراقهن مَلاحِنًا
يخطرُن بين أرائكٍ ومنايِرِ

تلقاه بالأعراس والأفراح
قان، وأبيضُ في الرُّبَى لَمَّاح
ومَرَحَى في كَنَفٍ له وجناح
آنًا، وآنًا من ثغور أقاح^{١٢١}
تيجانَهْنَ عواطرَ الأرواح
متقابل يُثني على الفَتَّاح
دون الزهور بشوكةٍ وسلاح
مرَّ الشِّفاه على خدود ملاح
بالليل ما نسجت يدُ الإصباح
أن الحياة كغُدوةٍ وزواح
كالدُّرِّ رُكَب في صدور رماح^{١٢٢}
كسريرة المتنزَّه المِسماح
في بُلْجَةِ الأفنانِ ضوءُ صباح^{١٢٣}

مَلِكُ النبات، فكلُّ أرضٍ دارُهُ
منشورةُ أعلامه، من أحمر
لِبِسَتْ لمقدِّمه الخمائلُ وشيها
يغشى المنازل من لواظِ نرجس
ورءوس «منثور» حَفَظْنَ لعزَّهُ
الوردُ في سُرُرِ الغصونِ مُفَتَّحُ
ضاحي المواكب في الرياض، مُمَيِّزُ
مرَّ النسيمِ بصفحتيه مُقْبِلًا
هتَكَ الردى من حسنه وبهائه
ينبيك مصرعُه — وكلُّ زائلُ —
ويقائق النَّسْرَيْنِ في أغصانها
و«الْيَاسَمِينَ»، لَطِيفُه ونَقِيُّه
مُتَالِقُ خَلَلِ الغصون، كأنه

قاني الحروف، كخاتم السفاح
يُلْقَى القضاء بخشية وصلاح
كخواطر الشعراء في الأتراح^{١٢٤}
عن ساقه كمليحة مفراح^{١٢٥}
متزيّن بمناطق ووشاح
تحت (المراوح) في نهار ضاح
نُضِدَتْ عليه بدائع الألواح
بركت، وأخرى خلّقت بجناح
يوم الزفاف بعسجد وضاح
من زئبق، أو مُلَقِيَاتِ صفاح^{١٢٦}
كانت حلى (النيلوفر) السباح
زهو الجواهر في بطون الرّاح
رُغِنَ الشجبيّ بأنّة ونواح
الباقيات بمدمع سحاح
والماء في أحشائها، ملواح^{١٢٧}
كالعيس بين تنشط وزراح^{١٢٨}
أعمى، ينوء بنيره الفداح

و«الجُلَنَار» دم على أوراقه
وكان مخزون «البنفسج» ثاكل
وعلى «الخواطر» رقة وكأبة
والسرور في الحبر السوايف كاشف
و«النخل» ممشوق العذوق، مُعَصَّب
كبنات فرعون شهدن مواكباً
وترى الفضاء كحائط من مزمر
الغيم فيه كالنعام: بدينة
والشمس أهي من عروس برقعت
والماء بالوادي يخال مسارباً
بعثت له شمس النهار أشعة
يزهو على ورق الغصون نثيرها
وجرت سواق كالنّوادر بالقرى
الشاقيات وما عرفن صباية
من كلّ بادية الضلوع غليظة
تبكي إذا رتبت، وتضحك إن هفت
هي في السلاسل والغلو، وجارها

عهد الشباب وطرفه الممرح^{١٢٩}
عجل الفناء لها بغير جناح؟

إنني لأذكرُ بالربيع وحسنه
هل كان إلا زهرة كزهوره

منها يدُ الكُتّاب والشرح
تورا، والفرقان، والإصحاح^{١٣٠}
فالقصرين، فذي الجلال (صلاح)
فابعث خيالك يأت بالمفتاح
بالنجم مزدان وبالمصباح

(هول كين)، مصر رواية لا تنتهي
فيها من البردي، والمزمر، والـ
(ومنا)، و(قمبيز)، على (إسكندر)
تلك الخلائق والدُّهور خزائن
أفق البلاد — وأنت بين ربوعها —

مَسْجِدُ أَيَا صُوفِيَا

هَدِيَّةُ السَّيِّدِ لِلْسَيِّدِ
بَنْصَرَةِ الرُّوحِ إِلَى أَحْمَدَ
عَلَى مِثَالِ الْهَرَمِ الْمُخْلَدِ^{١٢١}
وَعَنْ هَوَىِّ لِلدِّينِ لَمْ يَخْمُدْ
تَمْلُؤُهُ مِنْ نَدَاهَا الْمُوقَدِ^{١٢٢}
لَمْ تَتَّخِذْ دَارًا وَلَمْ تُحْشَدْ
وَكَانَ رَوْحُ اللَّهِ مِنْ عَسَجِدِ
وَالْأُمِّ مِنْ عَيْسَى لَدَى فَرْقَدِ
مَصَوِّرُ الرُّومِ الْقَدِيرُ الْيَدِ
بِدَائِعًا مِنْ فَنِّهِ الْمَفْرِدِ
عِنْدَ مَلَكَ فِي الضُّحَى مَغْتَدِي
وَهُوَ عَلَى الْحَائِطِ غَضُّ نَدِي
قَوَى الْأَجِيرِ، الْمُنْعَبِ، الْمُجْهَدِ
لِرَبِّهِ بَيْتًا، فَلَمْ يَقْصِدِ: ^{١٢٣}
مَا لَا يُسَامِ الْعَيْرُ فِي الْمَقُودِ؟ ^{١٢٤}
وَمَسْجِدُ كَالْقَصْرِ مِنْ أَضْيَدِ ^{١٢٥}
لَوْ يَعْقِلُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَهْتَدِي
مِنْ الْأَسْوَدِ الرُّكْعِ، السُّجْدِ
يَصْطَلِمُ الْجَلْمَدُ بِالْجَلْمَدِ ^{١٢٦}
وَاخْتَلَطَ الْمَشْهَدُ بِالْمَشْهَدِ
وَالسِّيفُ فِي الْمَقْدِيِّ وَالْمَفْتَدِي
وَأُيِّدَتْ بِالْقَيْصَرِ الْأَسْعَدِ
لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ، وَلَا يَعْتَدِي
مَنْهُمْ، وَأَصْفَى الْأَمْنِ لِلْمَرْتَدِي
جَلَالَةُ الْمَعْبُودِ فِي الْمَعْبَدِ

كَنِيسَةً صَارَتْ إِلَى مَسْجِدِ
كَانَتْ لِعَيْسَى حَرَمًا، فَاثْتَهَتْ
شَيْدَهَا الرُّومُ وَأَقْيَالُهُمْ
تُنْبِئُ عَنْ عَزٍّ، وَعَنْ صَوْلَةٍ
مَجَامِرُ الْيَاقُوتِ فِي صَحْنِهَا
وَمِثْلُ مَا قَدْ أُودِعَتْ مِنْ حُلَى
كَانَتْ بِهَا الْعِذْرَاءُ مِنْ فَضَّةِ
عَيْسَى مِنَ الْأُمِّ لَدَى هَالَةِ
جَلَّاهُمَا فِيهَا، وَحَلَّاهُمَا
وَأُودِعَ. الْجِدْرَانِ مِنْ نَقْشِهِ
فَمِنْ مَلَكَ فِي الدُّجَى رَائِحِ
وَمِنْ نَبَاتِ عَاشِ كَالْبَبْغَا
فَقُلْ لِمَنْ شَاءَ، فَهَذَا الْقَوَى
كَأَنَّهُ فِرْعَوْنُ لِمَا بَنَى
أَيُّعْبُدُ اللَّهَ بِسُومِ الْوَرَى
كَنِيسَةً كَالْفَدَنِ الْمَعْتَلَى
وَاللَّهُ عَنْ هَذَا وَذَا فِي غَنَى
قَدْ جَاءَهَا (الْفَاتِحُ) فِي غُصْبَةٍ
رَمَى بِهِمْ بَنِيَانَهَا، مِثْلَمَا
فَكَبَّرُوا فِيهَا، وَصَلَّى الْعِدَا
وَمَا تَوَانَى الرُّومُ يَفْقُدُونَهَا
فَخَانَهَا مِنْ قَيْصَرِ سَعْدِهِ
بِفَاتِحِ، غَازٍ، عَفِيفِ الْقَنَا
أَجَارَ مَنْ أَلْقَى مِقَالِيدَهُ
وَنَابَ عَمَّا كَانَ مِنْ زُخْرَفِ

أقام، لم يقرب، ولم يبعد
لا ننتهي منه، ولا يبتدي
فالشرُّ حول الصَّارمِ الْمُغْمَدِ
أو ينزل التركُّ عن السُّودَدِ
ما أشبه المسجدَ بالمسجد
فيا ليومِ اللورى أُسود
ويزعج الميِّتُ من المرقد
وكن لنا اليومَ، وكن في غد
من أجلك الخلقُ ولم يقعد
أنت براءٌ منه طهرُ اليد

فيا لثأرٍ بيننا بعده
باقٍ كثارٌ (القدس) من قبله
فلا يغرنك سكونُ الملا
لن ن يترك الرومُ عباداتهم
هذا لهم بيت على بيتهم
فإن يُعادوا في مفاتيحه
يشيب فيه الطفلُ في مهده
فكن لنا اللهم في أمسنا
لولا ضلالٌ سابقٌ لم يقم
فكلُّ شرٍّ بينهم أو أذى

غَابُ بُولُونِيَا^١

نَمَمَ عليك، ولي عهدُ
ولنا بظلك، هل يعود؟
ورجوعُ أحلامي بعيد
هل للشبيبة من يُعيد؟
وجدُ مع الذكرى يزيد
عُ، وزُلْزَلَ القلبُ العَميد^{١٣٧}
تُ، فما تَميلُ، ولا تَميد
كم؟ هكذا أبداً جُحود؟
والزَّمانُ كما نريد؟
لي، والدُّجى عَنَّا يذود

يا غابَ بولون، ولي
زمنٌ تقضى للهوى
حُلُمٌ أريدُ رجوعه
وهبِ الزَّمانَ أعادها
يا غابَ بولون، وبي
خَفَقَتْ لرؤيتك الضلو
وأراك أقسى ما عهدُ
كم يا جمادُ قساوة؟
هلاً ذكرتَ زمانَ كنَّا
نطوي إليك دُجى الليا

^١ غاب بولونيا: متنزه مشهور في باريس.

فَنَقُولُ عِنْدَكَ مَا نَقُو
نُطْقِي هَوَى وَصِبَابَةَ
نَسْرِي، وَنَسْرُحُ فِي فِضَا
وَالطَّيْرُ أَقْعَدَهَا الْكَرَى
فَنَبِيْتُ فِي الْإِنْسَانِ يَغُ
فِي كُلِّ رُكْنٍ وَقِفَّةُ
نَسْقِي، وَنُسْقِي، وَالْهَوَى
فَمِنْ الْقُلُوبِ تَمَائِمُ
وَالْغَصْنُ يَسْجُدُ فِي الْفِضَا
وَالنَّجْمُ يَلْحَظُنَا بَعِيدُ
حَتَّى إِذَا دَعَتِ النَّوَى
بِتَنَا، وَمِمَّا بَيْنَنَا
لِيلِي بِمِصْرَ، وَلِيلُهَا

لُ، وَلَيْسَ غَيْرُكَ مَنْ يُعِيدُ
وَحَدِيثُهَا وَتَرُّ وَعُودُ
نُكْ، وَالرَّيَاخُ بِهِ هُجُودُ
وَالنَّاسُ نَامَتِ وَالْوُجُودُ
بِطْنَا بِهِ النَّجْمُ الْوَحِيدُ
وَبِكُلِّ زَاوِيَةٍ قُعودُ
مَا بَيْنَ أَعْيُنِنَا وَلِيدُ
وَمِنْ الْجَنُوبِ لَهُ مُهُودُ
ءِ، وَحَبَّذَا مِنْهُ السَّجُودُ
نَ مَا تَحُولُ وَلَا تَحِيدُ
فَتَبَدَّدَ الشَّمْلُ النُّزِيدُ
بَحْر. وَدُونَ الْبَحْرِ بِيدُ
بِالْغَرْبِ، وَهُوَ بِهَا سَعِيدُ

المرأة العثمانية

يَا مَلَكًا تَعَبَّدَا
مَبَارَكًا فِي يَوْمِهِ
مُسَخَّرًا لَأَمَّةٍ
قَدْ جَعَلْتُهُ تَاجَهَا
وَأَعْرَضْتُ حَيْثُ مَشَى
تُجِلُّهُ فِي حَسَنِهِ
أَنْتِ شُعَاعٌ مِنْ عَلٍ
كَمْ قَدْ أَضَاءَ مَنْزَلًا
وَكَمْ كَسَا الْأَسْوَاقَ مِنْ
لَوْلَا التَّقَى لَقَلْتُ: لَمْ

مُصَلِّيًا مَوْحِدَا
وَالْأَمْسِ، مَيْمُونًا غَدَا
مَنْ حَقَّهَا أَنْ تَسْعَدَا
وَعِزَّهَا، وَالسُّودْدَا
وَأَطْرَقَتْ حَيْثُ بَدَا
كَمَا تُجِلُّ الْفَرْقَدَا
أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى
وَكَمْ أَنْارَ مَسْجِدًا
حُسْنِ، وَزَانَ الْبِلْدَا
يَخْلُقُ سَوَاكَ الْوِلْدَا

إِنَّ شِئْتَ كَانَ الْعَيْرُ، أَوْ
 وَإِنْ تُرِدْ غَيًّا غَوَى
 وَالْبَيْتُ أَنْتَ الصَّوْتُ فِيهِ
 كَالْبَبِّغَا فِي قَفْصِ
 وَكَالْقَضِيبِ اللَّدْنِ، قَدْ
 يَأْخُذُ مَا عَوَّدَتْهُ
 مِمَّا انْفَرَدَتْ فِي الْوَرَى
 وَكُلُّ لَيْثٍ قَدْ رَمَى
 أَنْتَ الَّذِي جَنَّدَتْهُ
 وَقَلْتَ: كُنْ لِلَّهِ، وَالسَّ

إِنَّ شِئْتَ كَانَ الْأَسَدَا
 أَوْ تَبِغْ رُشْدًا رَشْدَا
 هـ، وَهُوَ لِلصَّوْتِ صَدَى
 قِيلَ لَهُ، فَقُلُّدَا
 طَاوَعُ فِي الشَّكْلِ الْيَدَا
 وَالْمَرْءُ مَا تَعَوَّدَا
 بِفَضْلِهِ وَانْفَرَدَا
 بِهِ الْإِمَامُ فِي الْعَدَا
 وَسُقَّتْهُ إِلَى الرَّدَى
 لَطَانِ، وَالتَّرِكِ، فِدَى

الْهَلَالُ

سَنُونَ تَعَادُ، وَدَهْرٌ يَعِيدُ
 أَضَاءَ لِادَمَ هَذَا الْهَلَالُ
 نَعْدُ عَلَيْهِ الزَّمَانَ الْقَرِيبَ
 عَلَى صَفْحَتَيْهِ حَدِيثُ الْقَرَى
 وَ(طَيْبَةُ) أَهْلُهُ بِالْمُلُوكِ
 يَزُولُ بَبْعُضِ سَنَاهِ الصِّفَا
 وَمَنْ عَجَبٍ وَهُوَ جَدُّ اللَّيَالِي

لَعَمْرُكَ مَا فِي اللَّيَالِي جَدِيدُ
 فَكَيْفَ تَقُولُ: الْهَلَالُ الْوَلِيدُ؟
 وَيُخَصِّي عَلَيْنَا الزَّمَانَ الْبَعِيدُ
 وَأَيَّامُ (عَادٍ)، وَدُنْيَا (ثَمُودِ)
 (وَطَيْبَةُ) مُقْفِرَةٌ بِالصَّعِيدِ
 وَيَفْنَى بَبْعُضِ سَنَاهِ الْحَدِيدِ^{١٣٨}
 يُبِيدُ اللَّيَالِي فِيمَا يُبِيدُ!!

يَقُولُونَ يَا عَامٌ: قَدْ عَدْتَ لِي
 لَقَدْ كُنْتُ لِي أَمْسٍ مَا لَمْ أُرِدْ
 وَمَنْ صَابَرَ الدَّهْرَ صَبِرَ لَهُ
 ظَمِئْتُ، وَمِثْلِي بِرِيٍّ أَحَقُّ
 تَغَابَيْتُ حَتَّى صَحِبْتُ الْجَهْلَ

فَيَا لَيْتَ شَعْرِي بِمَاذَا تَعُودُ؟
 فَهَلْ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ مَا لَا أُرِيدُ؟
 شَكََا فِي الثَّلَاثِينَ شَكْوَى (لَيْدِ)^{١٣٩}
 كَأَنِّي حَسِينٌ، وَدَهْرِي يَزِيدُ^{١٤٠}
 وَدَارَيْتُ حَتَّى صَحِبْتُ الْحُسُودَ

منظر الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة

لِمَنْ غُرَّةٌ تَنْجَلِي مِنْ بَعِيدٍ
تَهْزُ الوجودَ تَبَاشِيرُهَا
وَيَغْشَى الدُّنَا مِنْ حُلَاهَا سَنَى
مِنَ المَوْجِ مُلْتَمِعٌ، مِثْلَمَا
أَتْتَنَا مِنَ المَاءِ مُهْتَزَّةً
وَتَضَعِدُ مِنْ غَيْرِ مَا سَلَّمَ
وَهَذَا المَنِيرُ القَرِيبُ القَرِيبُ
وَهَذَا المَنِيرُ الَّذِي لَنْ يُرَى
وَهَذَا الجُسامُ الخَفِيفُ الخُطَا
وَيَا لِلْمَصَوِّرِ آثَارَهَا
وَتَقْلِيلُهَا كُلَّ جَمِّ السَّنَا
مِنَ النَّارِ، لَكِنَّ أَطْرَافَهَا
مِنَ النَّارِ، لَكِنَّ أَنْوَارَهَا
هِيَ الشَّمْسُ، كَانَتْ كَمَا شَاءَهَا
تَرَدُّ المِيَاهُ إِلَى حَدِّهَا
وَتَطْلُعُ بِالْعِيشِ، أَوْ بِالرَّدَى
وَتَسْعَى لَذَا النَّاسِ مَهْمَا سَعَتْ
وَقَدْ تَتَجَلَّى إِذَا أَقْبَلَتْ
وَقَدْ تَتَوَلَّى إِذَا أَدْبَرَتْ
فَمَا لِلْغُرُوبِ يَهِيْجُ الْأَسَى
كَذَا المَرَّةَ سَاعَةً مِيلَايِهِ
وَلَيْسَ بِجَارٍ وَلَا وَاقِعٍ

بِمَرَأَى كَمَا الحُلْمُ ضَاحٍ سَعِيدٌ؟
كَمَا هَزَّ مِنْ وَالِدِيهِ الْوَلِيدِ
أَضَاءَ لَنَا كُلَّ حَالٍ نَضِيدِ^{١٤١}
تَحَلَّتْ نَحْوُ الدُّمَى، بِالْعَقُودِ^{١٤٢}
مَنْوَرَةً، تَعْتَلِي لِلْوُجُودِ
فِيَا لِلْمَصَوِّرِ هَذَا الصُّعُودِ!
وَهَذَا المَنِيرُ البَعِيدُ البَعِيدِ
وَهَذَا المَنِيرُ وَكُلُّ شَهِيدِ
وَهَذَا الجُسامُ الَّذِي مَا يَمِيدُ
بِكُلِّ بَحَارٍ، وَفِي كُلِّ بِيدِ!!
وَتَصْغِيرُهَا كُلَّ عَالٍ مَشِيدِ
تَدُورُ بِيَاقُوتَةٍ لَنْ تَبِيدَ
إِلَهِيَّةً، زَيْنَتْ لِلْعَبِيدِ
مِمَاتُ الْقَدِيمِ، حَيَاةُ الْجَدِيدِ
وَتُبْلِي جِبَالَ الصِّفَا وَالْحَدِيدِ^{١٤٣}
عَلَى الزَّرْعِ: قَائِمُهُ، وَالْحَصِيدِ
بَخِيرِ الْوَعُودِ، وَشَرِّ الْوَعِيدِ
بِنُعْمَى الشَّقِيِّ وَبُؤْسَى السَّعِيدِ
وَلَيْسَتْ بِمَأْمُونَةٍ أَنْ تَعُودَ
وَكَانَ الشَّرُوقُ لَنَا أَيَّ عِيدٍ؟
وَسَاعَةً يَدْعُو الْجِمَامُ الْعَنِيدِ
سَوَى الْحَقِّ مِمَّا قَضَاهُ الْمُرِيدِ

مَنْظَرُ طُلُوعِ الْبَدْرِ مِنْ سَفِينَةٍ

ففداك كلُّ مُتَوَجٍّ من ساري
سكنتُ، وقد كانت بغير قرار
في البحر من عُبْبٍ، ومن تِيَّارٍ ١٤٤
لك في الكمال تحيَّةُ الإكبار
عينُ تُسامِرُ نورَها وتُساري
بِشَرِّ الوجوه وزحمة الأبصار
مُوفٍ على الأفاق بالأسفار
يُمناه يجلوها على النُّظار
يُسْمُو بها، والنصفُ كاسٍ عار
عن قُفْلٍ ماسٍ، في سِوَارٍ نضار
ضاح، ويحملُ منك تاجَ فَخَّارٍ
والشَّهْبُ دينارٌ لدى دينار
يبدو لها ذيلٌ من الأنوار
إِذْ تَنْثَنِي في عسجدٍ زَخَّارٍ
أَوْفَيْتَ ثم دنوتُ كالْمُحْتَارِ
شِعْرًا ليقْرَأه، وأنتَ القارِ
ونظيره قُرْبًا وبُعْدَ مَزارٍ
وسواكما قمرٌ من الأقمار
وهي الضنينةُ بالخيالِ الساري
لكن أداري، والمحَبُّ يُداري
والله مُطَّلِعٌ على الأسرار

مَلِكَ السماءِ، بَهَرَتْ في الأنوار
لَمَّا طَلَعَتْ على المياه تُنيرُها
وَزَهَتْ لناظرِها السماءُ، وقرَّ ما
وأهلٌ لله السُّرَّةُ، وأزَلَفُوا
وتأَمَّلوك، فكل جارحةٍ لهم
والبدر منك على العوالم يَجْتَلِي
مُتَقَدِّمٌ في النور، محجوبٌ به
يا دُرَّةَ الغَوَاصِ أخرج ظافراً
مُتَهَلِّلاً في الماءِ، أبدى نصفه
وافى بك الأفقُ السماءَ، فأسفرتُ
ونَهَضتُ، يزهو الكونُ منك بمنظر
الماءِ والأفاق حولك فِضَّةٌ
والفلكُ مشرقةُ الجوانبِ في الدُّجَى
بيْنَا تَخَطَّرُ في لُجَيْنٍ مائجٍ
وكأنها والموجُ منتظم وقد
غَيِّدَاءُ لاهيةً، تَخَطُّ لِأَغْيَدٍ
فليهنِ بدرَ الأرضِ أنك صِنُوهُ
وحلاكُما، ما البدرُ إلَّا أنتما
أنتَ الكريمُ على الوجود بوجهه
هيفاءُ أهواها، وأعشَقُ ذكرَها
لي في الهوى سرُّ أبيتِ أصونه

بَلَدَةُ الْمُؤْتَمَرِ لِنَظَرِهَا فِي بَهْجَةِ مَنَظَرِهَا

جنيف وضواحيها

طَيْفٌ يَزُورُ بِفَضْلِهِ مَهْمَا سَرَى
سُبُلًا إِلَى جَفْنِيكَ، لَمْ يَرْضَ الثَّرَى
مَلَكًا تَنَمُّ بِهِ السَّمَاءُ، مُطَهَّرَا
أَهْدَابِهِ يَأْخُذْنَهُ مُتَحَدِّرَا
حَذَرًا وَخَوْفًا أَنْ يُرَاعَ وَيُذْعَرَا
بَيْنَ الْجَفُونِ. وَبَيْنَ هُدَيْكَ، وَالكَرَى
مَتَصَوِّرًا مَا شِئْتَ أَنْ يَتَصَوَّرَا
وَتَدُوسَ أَلْسِنَةَ الْوَشَاةِ مَظْفَرَا
مَا سَامَحْتَ أَيَّامَهَا فِيمَا جَرَى
زُورًا بِتَمَثَالِ الْجَمَالِ مَنْوَرَا
بِكَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي الْمَنَى وَتَوَخَّرَا
حَتَّى إِذَا وَدَّعْتَ عَانَقْتَ الثَّرَى
فَدَنْتِ كَوَاكِبُهَا تُعَلِّمُهُ السُّرَى
وَيَرَى لَهُ الْمِيلَادُ أَنْ يَتَصَدَّرَا
بَيْنَ الرِّيَاضِ، وَبَيْنَ مَاءِ (سُؤَيْسِرَا)
مَنْ كُلُّ أَبْيَضٍ فِي الْفَضَاءِ وَأَخْضَرَا
مَشْبُوبَةً الْأَجْرَامِ، شَائِبَةَ الذُّرَى
وَأَنَافٍ مَكْشُوفَ الْجَوَانِبِ مُنْذِرَا
أُنْدَا مِنْ الْحَجَرِ الْأَصْمِ وَمِشْفَرَا^{١٤٥}
أَلْفِيَّتِهِ دَرَجًا يَمُوجُ مُدَوَّرَا
فَبَدَا زَبَرَجَدُهُ بِهِنَّ مَجُوهَرَا
أَوْكَارُ طَيْرٍ، أَوْ خَمِيْسُ عَسْكَرَا^{١٤٦}
وَالْكَهْرِبَاءُ تَضِيءُ أَثْنَاءَ الثَّرَى
يَحْكِي حَوَالِيَهَا الْغَمَامَ مَسِيرَا

لَا السُّهْدُ يُدْنِينِي إِلَيْهِ، وَلَا الْكَرَى
تَخَذَ الدُّجَى، وَسَمَاءَهُ، وَنَجُومَهُ
وَأَتَاكَ مَوْفُورَ النِّعِيمِ، تَخَالُهُ
عِلْمُ الظَّلَامِ هَبُوطَهُ، فَمَشَتْ لَهُ
وَحْمَى النَّسَائِمِ أَنْ تَرُوحَ وَأَنْ تَجِي
وَرَقْدَتْ تُزْلِفُ لِلْخِيَالِ مَكَانَهُ
فَهَنِيئَتُهُ مِثْلَ السَّعَادَةِ شَائِقًا
تَطْوِي لَهُ الرُّقْبَاءَ مَنْصُورَ الْهُوَى
لَوْلَا امْتِنَانُ الْعَيْنِ يَا طَيْفَ الرِّضَا
بَانَتْ مُشَوَّقَةً، وَبَاتَ سَوَادُهَا
تُعْطَى الْمَنَى، وَتَنْيِلُهُنَّ خَلِيقَةُ
وَتَعَانِقُ الْقَمَرَ السَّنْبِيَّ عَزِيزَةً
فِي لَيْلَةٍ قَدِيمِ الْوُجُودِ هَلَالُهَا
وَتَرِيهِ أَثَارَ الْبَدُورِ لِيَقْتَفِي
نَاجِيَتْ مَنْ أَهْوَى، وَنَاجَانِي بِهَا
حَيْثُ الْجِبَالُ صِغَارُهَا وَكِبَارُهَا
تَخَذَ الْغَمَامُ بِهَا بِيُوتًا، فَانْجَلَتْ
وَالصَّخْرُ عَالٍ، قَامَ يَشْبَهُ قَاعَدًا
بَيْنَ الْكَوَاكِبِ وَالسَّحَابِ، تَرَى لَهُ
وَالسَّفْحُ مِنْ أَيِّ الْجِهَاتِ أَتَيْتَهُ
نَثَرُ الْفَضَاءِ عَلَيْهِ عِقْدُ نَجُومِهِ
وَتَنْظَّمَتْ بِيضُ الْبَيُوتِ، كَأَنَّهَا
وَالنَّجْمُ يَبْعَثُ لِلْمِيَاهِ ضِيَاءَهُ
هَامَ الْفَرَاشُ بِهَا، وَحَامَ كَتَائِبًا

بَرَدًا، ونار العاشقين تَسْعُرَا
 وَخِلَالَهَا يَجْرِي، وَمِنْ حَوْلِ الْقَرْيَا
 مُتَسَرِّعًا، مُتَسَلِّسًا، مُتَعَثِّرًا
 يَصْلَانِ جِسْرًا فِي الْمِيَاهِ وَمَعْبَرَا
 تَطْوِي الْجَدَاوِلَ نَحْوَهَا وَالْأَنْهَارَا
 جَاذِبَتْ لِيَلِي ثَوْبَهُ مَتَحِيرَا
 أَسْتَقْبِلُ الْعَرْفَ الْحَبِيبَ إِذَا سَرَى
 وَقَدْ اطمأنَّ الطيرُ فِيهَا بِالْكَرَى
 فَأَمِيلُ أَنْظُرَ فِيهِ، أَطْمَعُ أَنْ أَرَى
 أَنْسَتْ نَوْرًا مَا أَتَمَّ وَأَبْهَرَا!!
 بَدُرٌ تَسَايِرُهُ الْكَوَاكِبُ خُطْرَا
 فِيهِ، فَمَا اسْتَتَمَّتْ حَتَّى فُسْرَا
 سَى يَقْظَةً، وَمُنَايَ لَبَّتْ حُضْرَا
 بِالطُّودِ أبيض من جبال (سُويسرا)
 وَإِذَا هَوَتْ حَمْرَاءَ فِي تِلْكَ الذُّرَى
 وَغُرُوبُهَا أَجْلَى وَأَكْمَلُ مَنْظَرَا
 تَهْنَأُ بِهَا الدُّنْيَا، وَيَغْتَبِطُ الثَّرَى
 لَاحَتْ بِرَأْسِ الطُّودِ تَاجًا أَزْهَرَا
 حَتَّى أَنْافَ، فَلَاخَ طَارًا أَكْبَرَا
 مُسْتَعْصِيًا بِمَكَانِهِ أَنْ يُنْقَرَا
 وَتَغَطَّتْ الْأَشْبَاحُ، لَكِنْ جَوْهَرَا
 وَأَنَارَ، فَانْكَشَفَ الْوُجُودُ مَنْوَرَا
 أَذِنَتْ لِدَاعِي النَقْصِ تَهْوِي الْقَهْقَرَى^{١٤٧}
 وَتَبَدَّلُ الْمُسْتَعْظُمُ الْمُسْتَصْغَرَا
 وَأَحْمَرَّ بُرْقُعُهَا وَكَانَ الْأَصْفَرَا
 جَعَلْتُ أَعَالِيَهُ شَرِيطًا أَحْمَرَا
 وَبَدَتْ ذُرَاهُ الشَّمُّ تَحْمِلُ مِجْمَرَا

خَلِقت لرحمته، فباتت ناره
 والماء من فوق الدِّيار، وتحتها
 مُتَصَوِّبًا، مُتَصَعِّدًا، مُتَمَهِّلًا
 وَالْأَرْضُ جِسْرٌ حَيْثُ دُرْتُ وَمَعْبَرٌ
 وَالْفُلُكُ فِي ظِلِّ الْبُيُوتِ مَوَاحِرَا
 حَتَّى إِذَا هَدَأَ الْمَلَا فِي لَيْلِهِ
 وَخَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ الْجَسُورِ، لَعَلَّنِي
 أَوِي إِلَى الشَّجَرَاتِ، وَهِيَ تَهْزُنِي
 وَيَهْزُ مِنْي الْمَاءُ فِي لِمَعَانِهِ
 وَهَنَالِكَ ازْدَهَتْ السَّمَاءُ، وَكَانَ أَنْ
 فَسْرِيْتُ فِي الْأَلَاءِ، وَإِذَا بِهِ
 حُلُمٌ أَعَارَتْنِي الْعِنَايَةَ سَمِعَهَا
 فَرَأَيْتُ صَفُوفِي جَهْرَةً، وَأَخَذْتُ أَنْ
 وَأَشْرْتُ: هَلْ لُقِيَا؟ فَأَوْجَى: أَنْ غَدَا
 إِنْ اشْرَقَتْ زَهْرَاءُ تَسْمُو لِلضَّحَى
 فَشَرُوقُهَا مِنْهُ أَتَمُّ مَعَانِيَا
 تَبْدُو هَنَالِكَ لِلْوُجُودِ وَلَيْدَةً
 وَتَضِيءُ أَثْنَاءَ الْفَضَاءِ بَغْرَةً
 فَسَمْتُ، فَكَانَتْ نَصْفَ طَارٍ، مَا بَدَا
 يَعْلُو الْعَوَالِمَ، مُسْتَقِلًا، نَامِيَا
 سَالَتْ بِهِ الْأَفَاقُ، لَكِنْ عَسَجَدَا
 وَاهْتَرَزَ، فَالِدُنْيَا لَهُ مُهْتَزَّةٌ
 حَتَّى إِذَا بَلَغَ السُّمُو كَمَالَهُ
 فَدَنْتُ لِنَازِئِهَا، وَدَانَ عَنَانُهَا
 وَاصْفَرَ أبيض كلَّ شَيْءٍ حَوْلَهَا
 وَسَمَا إِلَيْهَا الطُّودُ يَأْخُذُهَا، وَقَدْ
 مَسَّتْهُ، فَاشْتَعَلَتْ بِهَا جَنَابَاتُهُ

شَرَكًا لَتَصْطَادَ النَّهَارَ الْمَذْبِرَا
وَأَتَى طُلُولَهُمَا الظَّلَامُ فَعَسْكَرَا
وَعَرُوبُهَا الْأَجَلُ الْبَغِيضُ لَمَنْ دَرَى
مَا كَانَ بَيْنَهُمَا الصَّفَاءُ لِيَعْمُرَا
وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَتَغَيَّرَا
وَلَدَى جَوَانِبِهِ، وَمَا بَيْنَ الذُّرَى
عَجَلٌ هُنَالِكَ كَهَرِبَائِي السَّرَى
قُضِبَ الْحَدِيدِ، تَعَرُّجًا وَتَحَدُّرًا
وَيَخْفُ بَيْنَ الْهُوتَيْنِ تَخَطُّرًا
عِصْمَاءَ، هَمَّ مَعَانِقًا مَتَسُورًا
قَمْنَا عَلَى فَرْعِ (السَّلِيفِ) لِنَنْظُرَا
وَعَوَالِمَ نِعَمِ الْكِتَابِ لَمَنْ قَرَا
وَمَدَائِنَ حَلَّيْنِ أَجْيَادَ الْقُرَى
لَبَسَ الْفَضَاءَ بِهَا طَرَاذَا أَخْضَرَا
وَجَدَاوِلُ هُنَّ اللَّجَيْنُ وَقَدْ جَرَى
وَمَلَأْنَ أَقْبَالَ الرُّوَاسِخِ جَوْهَرَا^{١٤٨}
لِلَّهِ مَا أَحْلَى الْوُجُودَ مَصْغَرًا!!

فَكَأَنَّمَا مَدَّتْ بِهِ نَيْرَانَهَا
حَرَقَتَهُ، وَاحْتَرَقَتْ بِهِ، فَتَوَلَّىَا
فَشَرَوْقُهَا الْأَمَلُ الْحَبِيبُ لَمَنْ رَأَى
خَطْبَانَ قَامَا بِالْفَنَاءِ عَلَى الصَّفَا
تَتَغَيَّرُ الْأَشْيَاءُ مَهْمَا عَاوَدَا
أَنهَارِنَا تَحْتَ (السَّلِيفِ)، وَفَوْقَهُ
رَجُلًا، وَرُكْبَانًا، وَرَحْلَقَةً عَلَى
فِي مَرْكَبٍ مُسْتَأْنَسٍ، سَأَلْتُ بِهِ
يَنْسَابُ مَا بَيْنَ الصَّخُورِ تَمْهَلًا
وَإِذَا اعْتَلَى بِالْكَهْرِبَاءِ لَذُرُورِ
لَمَّا نَزَلْنَا عَنْهُ فِي أُمِّ الذُّرَى
أَرْضُ تَمَوْجُ بِهَا الْمَنَاظِرُ جَمَّةٌ
وَقُرَى ضَرَبْنَ عَلَى الْمَدَائِنِ هَالَةً
وَمَزَارِعُ لِلْمَنَاظِرِينَ رَوَائِعُ
وَالْمَاءُ غُدْرٌ مَا أَرْقَ وَأَغْزَرَا!!
فَحَشُونُ أَفْوَاهِ السَّهُولِ سِبَائِكَا
قَدْ صَغُرَ الْبَعْدُ الْوُجُودَ لَنَا، فَيَا

(وقال يصف مشاهد الطبيعة في طريقه إلى الآستانة قادمًا من أوربا):

حَتَّى أَرَيْكَ بَدِيعَ صُنْعِ الْبَارِي
لِرَوَائِعِ الْآيَاتِ وَالْآثَارِ
أُمُّ الْكِتَابِ عَلَى لِسَانِ الْقَارِي^{١٤٩}
لِلدَّلَةِ الْفَقْهَاءِ وَالْأَحْبَارِ^{١٥٠}
تَمَحُّو أَثِيمَ الشَّكِّ وَالْإِنْكَارِ

تِلْكَ الطَّبِيعَةُ، قِفْ بَنَا يَا سَارِي
الْأَرْضُ حَوْلَكَ وَالسَّمَاءُ اهْتَزَّتَا
مِنْ كُلِّ نَاطِقَةِ الْجَلَالِ، كَأَنَّهَا
دَلَّتْ عَلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ، فَلَمْ تَدَعْ
مَنْ شَكَّ فِيهِ فَنَظَرَةً فِي صُنْعِهِ

مِنْهُ الطَّبِيعَةُ غَيْرَ ذَاتِ سِتَارِ

كَشَفَ الْغَطَاءَ عَنِ (الطَّرُولِ) وَأَشْرَقَتْ

شَبَّهْتُهَا (بَلْقَيْسَ) فوق سريرها
أو (بابن داوُد) وواسع مُلكه
في نَضْرَةٍ، ومواكبٍ، وجواري
ومعالمٍ للعزِّ فيه كبار^{١٥١}
والطيرُ فيه نواكسُ المنقار^{١٥٢}

قامت على ضاحي الجنان كأنها
كم في الخمائل وهي بعض إمائها
وحَسِيرَةٍ عنها الثيابُ، وبَضَّةٍ
وضُحوكٍ سنَّ تملأ الدنيا سنَى
ورضوانٌ يُزجي الخلد للأبرار^{١٥٣}
من ذاتِ خلخالٍ، وذاتِ سوار^{١٥٤}
في الناعماتِ تجرُّ فضلَ إزار^{١٥٥}
وغريقةٍ في دمعها المِذار
وكتيرة الأتراب بالأغوار^{١٥٦}

ولقد تمرُّ على الغدير تخاله
حلو التسلسل موجُّه وجريره
مدَّت سواعد مائه وتألَّقت
ينساب في مُخضَلَّةٍ مُبتَلَّةٍ
زهراء عَوْنِ العاشقين على الهوى
قام الجليدُ بها وسالَ، كأنه
وترى السماء ضحَى وفي جنح الدُجى
في كلِّ ناحيةٍ سلكَتْ ومذهبٍ
من كلِّ مُنهمِرِ الجوانبِ والذرى
عقد الضريبُ له عمامةً فارِع
ومكذَّبٍ بالجنِّ ريع لصوتها
ملأ الفضاء على المسامع ضجَّةً
وكأنما طوفانُ نوح ما نرى
يجري على مثل الصرَّاط، وتارةً

والنبت مرآة زهت بإطار^{١٥٧}
كأنامل مرَّت على أوتار
فيها الجواهر من حصَى وجمار^{١٥٨}
منسوجةٍ من سُنْدُسٍ ونُضار^{١٥٩}
مختارة الشعراء في أذار
دَمَعُ الصبابة بلَّ غُضن عذار
مُنشَقَّةً من أنهرٍ وبحار^{١٦٠}
جبلانٍ من صخر وماءٍ جاري
عَمَرِ الحضيض، مُجَلَّلٍ بوقار^{١٦١}
جَمِّ المهابة من شيوخ نزار^{١٦٢}
في الماءٍ منحدرًا وفي التيار
فكأنما ملأ الجهات ضواري
والفلكُ قد مُسَخَّتْ حثيثَ قطار
ما بين هاويةٍ وجُرْفٍ هاري

جَابَ الْمَمَالِكَ حَزْنَهَا وَسَهْوَهَا
حَى رَمَى بِرَحَالِنَا وَرَجَائِنَا
مَلِكٌ بِمَفْرَقِهِ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ
سَكَنٌ (الثَّرِيًّا) مُسْتَقَرَّ جَلَالِهِ
فَالشَّرْقُ يُسْقَى دِيْمَةً بِيَمِينِهِ
وَمَدَائِنُ الْبَرِّيْنِ فِي إِعْظَامِهِ
اللَّهُ أَيْدِهِ بِأَسَادِ الشَّيْءِ
الصَّاعِدِينَ إِلَى الْعَدُوِّ عَلَى الظُّبَى
الْمُشْتَرِينَ اللَّهَ بِالْأَبْنَاءِ، وَالـ
الْقَائِمِينَ عَلَى لَوَاءِ نَبِيِّهِ

وَطَوَى شِعَابَ (الصَّرْبِ) (وَالْبُلْغَارِ) ١٦٣
فِي سَاحِ مَأْمُولٍ عَزِيزِ الْجَارِ
تَاجَان: تَاجُ هُدًى، وَتَاجُ فَخَارٍ
وَمَشَتْ مَكَارِمُهُ إِلَى الْأُمْصَارِ
وَالْغَرْبِ تَمْطِرُهُ غِيُوْتُ يَسَارِ ١٦٤
وَعَوَالِمُ الْبَحْرَيْنِ فِي الْإِكْبَارِ
فِي صُورَةِ الْمُتَدَجِّجِ الْجَرَّارِ
النَّازِلِينَ عَلَى الْقَنَا الْخَطَّارِ ١٦٥
أَزْوَاجٍ، وَالْأَمْوَالِ، وَالْأَعْمَارِ
الْمُنْزَلِينَ مَنَازِلَ الْأَنْصَارِ

يَا عَرْشَ (قُسْطَنْطِينِ)، نَلْتَ مَكَانَةً
شُرِّفْتَ بِالصَّدِيقِ، وَالْفَارُوقِ، بَلْ
حَامِيَ الْخِلَافَةِ مَجْدَهَا وَكِيَانِهَا

لَمْ تُعْطَهَا فِي سَالِفِ الْأَعْصَارِ
بِالْأَقْرَبِ الْأَدْنَى مِنَ الْمُخْتَارِ
بِالرَّأْيِ آوَنَةً وَبِالْبَبْتَارِ ١٦٦

تَاهَتْ (فُرُوقُ) عَلَى الْعَوَاصِمِ، وَازْدَهَتْ
(جَمَّ الْجَلَالِ، كَأَنَّمَا كَرَسِيُّهُ
أَخَذَتْ عَلَى (الْبُوسْفُورِ) زُخْرَفَهَا دُجًى
فَالْبَدْرُ يَنْظُرُ مِنْ نَوَافِذِ مَنْزِلِ
وَكُوكِبُ الْجُوزَاءِ تَخْطُرُ فِي الرُّبَى
وَاسْمِ الْخَلِيفَةِ فِي الْجِهَاتِ مَنْوَرٍ
كَتَبُوهُ فِي شُرْفِ الْقُصُورِ، وَطَالَمَا

بَجَلُوسٍ أَصِيدَ بِإِذِخِ الْمَقْدَارِ ١٦٧
جُزْءٌ مِنَ الْكَرْسِيِّ ذِي الْأَنْوَارِ
وَتَلَالُاتُ كَمَنَازِلِ الْأَقْمَارِ
وَالشَّمْسُ ثَمَّ مُطِلَّةٌ مِنْ دَارِ
(وَالنَّسْرِ) مُطْلَعُهُ مِنَ الْأَشْجَارِ
تَبْدُو السَّبِيلُ، بِهِ وَيَهْدِي السَّارِي
كَتَبُوهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ

يَا وَاحِدَ الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُدَافِعٍ
لِي فِي ثَنَائِكَ — وَهُوَ بَاقِي خَالِدٌ —
أَخْلَصْتُ حَبِي فِي الْإِمَامِ دِيَانَةً

أَنَا فِي زَمَانِكَ وَاحِدُ الْأَشْعَارِ
شَعْرٌ عَلَى الشَّعْرِ الْمُنِيعَةِ زَارِي ١٦٨
وَجَعَلْتَهُ حَتَّى الْمَمَاتِ شِعَارِي

لم أَلْتَمِسَ عَرَضَ الحَيَاةِ، وَإِنَّمَا
 إِن الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ كَرِيمَةً
 وَالْحُبُّ لَيْسَ بِصَادِقٍ مَا لَمْ تَكُنْ
 وَالشَّعْرُ إِنْجِيلٌ إِذَا اسْتَعْمَلْتَهُ
 وَثَنَيْتَ عَنْ كَدْرِ الْحَيَاضِ عِنَانَهُ
 عِنْدَ الْعَوَاهِلِ مِنْ سِيَاسَةِ دَهْرِهِمْ
 (هَذَا مُقَامٌ أَنْتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ
 (إِنْ الْهَلَالَ - وَأَنْتَ وَحْدَكَ كَهْفُهُ -
 لَمْ يَبْقَ غَيْرَكَ مَنْ يَقُولُ: أَصُونُهُ
 أَقْرَضْتُهُ فِي اللَّهِ وَالْمُخْتَارِ
 حَتَّى تُقَلِّدَهَا كَرِيمَ نِجَارِ
 حَسَنَ التَّكْرُمِ فِيهِ وَالْإِيثَارِ
 فِي نَشْرِ مَكْرَمَةٍ وَسَنَرِ عَوَارِ
 إِنَّ الْأَدِيبَ مُسَامِحٌ وَمُدَارِي
 سِرٌّ، وَعِنْدَكَ سَائِرُ الْأَسْرَارِ
 أَعْدَاءُ ذَاتِكَ فِرْقَةٌ فِي النَّارِ
 بَيْنَ الْمَعَاقِلِ مِنْكَ وَالْأَسْوَارِ
 صُنْهُ بِحَوْلِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

الْبُسْفُورُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ

على أَيِّ الْجَنَانِ بَنَا تَمَرُّ؟ وفي أَيِّ الْحَدَائِقِ تَسْتَقِرُّ؟
 رَوَيْدًا أَيُّهَا الْفُلُكُ الْأَبْرُ بلغتَ بِنَا الرَّبُوعَ، فَأَنْتَ حُرٌّ؟^{١٦٩}

* * *

سَهَرْتَ وَلَمْ تَنْمِ لِلرَّكَبِ عَيْنُ كَأَنَّ لَمْ يُضَوِّهِمْ صَجَرٌ وَأَيْنُ^{١٧٠}
 يَحُثُّ خَطَاكَ لُجٌّ، بَلْ لَجَيْنُ بَلِ الْإِبْرِيْزُ، بَلِ أَفْقُ أَغْرُ^{١٧١}

* * *

على شِبْهِ السَّهُولِ مِنَ الْمِيَاهِ تُحِيطُ بِكَ الْجَزَائِرُ كَالشَّيَاهِ
 وَأَنْتَ لَهْنٌ رَاعٍ ذُو انْتِبَاهِ تَكُرُّ مَعَ الظَّلَامِ وَلَا تَفِرُّ

* * *

يُنِيفُ الْبَدْرُ فَوْقَكَ بِالْهَبَاءِ رَفِيعًا فِي السَّمَاءِ بَلَا انْتِهَاءِ^{١٧٢}
 تَخَالِكُمَا الْعَيُونُ إِلَى التَّقَاءِ وَدُونَ الْمُلتَقَى كَوْنٌ وَدَهْرٌ

* * *

إِلَى أَنْ قِيلَ: هَذَا (الدردنيلُ) فَسِرَتْ إِلَيْهِ. وَالْفَجْرُ الدَّلِيلُ
يُجِيزُكَ، وَالْأَمَانُ بِهِ سَبِيلُ إِذَا هُوَ لَمْ يُجْزْ فَالْمَاءُ خَمَرُ

* * *

تَمَرُّ مِنَ الْمَعَاقِلِ وَالْجِبَالِ بَعَالٍ، فَوْقَ عَالٍ، خَلْفَ عَالِي
إِذَا أَوْمَأَنَ وَقَفَّتِ اللَّيَالِي وَتَحْمِي الْحَادِثَاتِ، فَلَا تَمَرُّ

* * *

مَدَافِعُ، بَعْضُهَا مُتَقَابِلَاتُ وَمِنْهَا الصَّاعِدَاتُ النَّازِلَاتُ
وَمِنْهَا الظَّاهِرَاتُ وَأُخْرِيَاتُ تَوَارَى فِي الصَّخُورِ وَتَسْتَسِرُّ

* * *

فَلَوْ أَنَّ الْبَحَارَ جَرَتْ مِئِينَا وَكَانَ اللَّجُّ أَجْمَعُهُ سَفِينَا
لِتَلْقَى مِنْفَذًا، لِلْقَيْنِ حَيْنَا وَلَمَّا يَمْسَسِ (البوغازَ) ضُرُّ

* * *

وَبَعْدَ الْأَرْخَبِيلِ وَمَا يَلِيهِ وَتِيهِ فِي الْعِيَالِ أَيَّ تِيهِ ١٧٣
بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ فَسِرَتْ فِيهِ إِلَى (البسفور) وَاقْتَرَبَ الْمَقَرُّ

* * *

تُسَايِرُكَ الْمَدَائِنُ وَالْأَنَاسِي وَفُلُكَ بَيْنَ جَوَالٍ وَرَاسِي ١٧٤
وَتَحْضُنُكَ الْجَزَائِرُ وَالرَّوَاسِي وَتَجْرِي رِقَّةً لَكَ وَهِيَ صَخْرُ

* * *

تَسِيرُ مِنَ الْفَضَاءِ إِلَى الْمَضِيقِ فَأَنَا أَنْتَ فِي بَحْرِ طَلِيقِ
وَأَوْنَةٌ لَدَى مَجْرَى سَحِيقِ كَمَا الشَّلَالُ قَامَ لَدَيْهِ نَهْرُ

* * *

وَتَأْتِي الْأَفَقَ تَطْوِيهِ سَجَلًا لِأَخَرِ كَالسَّرَابِ إِذَا أَضَلَّ

الشوقيات

إذا قلنا: المنازلُ، قيل: كلاً فدونَ بلوغها ظَهَرُ وعَصُرُ

* * *

إلى أن حلَّ في الأوجِ النهارُ وليرائي تبَيَّنَت الدِّيارُ
فقلنا: الشمسُ فيها أم نُضارُ وياقوتُ، ومَرْجانُ، ودُرُّ؟

* * *

ودينا لو مَشَيْتَ بنا الهَوينا وأين لنا الخلودُ لديك؟ أيننا؟
لِنَبْهَجِ خاطراً ونَقَرَّ عينا بأحسنِ ما رأى في البحرِ سَفَرُ

* * *

بلُوحِ جامعِ الصُّورِ الغوالي وديوانِ تفرَّدِ بالخيالِ
ومِرَّةِ المناظرِ والمجالي تمرُّ بها الطبيعةُ ما تمرُّ

* * *

فضاءً مُثَلَّ الفردوسُ فيه ومَرَأَى في البحارِ بلا شبيهه
فإيه — بابناتِ الشعرِ — إيه فمالكِ في عقوقِ الشعرِ عَذْرُ

* * *

لأجلِكِ سِرْتُ في برٍّ وبحرٍ وأنتِ الدَّهرُ أنتِ بكلِّ قُطرٍ
حننتِ إلى الطبيعةِ دونِ مصرٍ وقُلْتَ لدى الطبيعةِ: أين مصرُ؟

* * *

فهلاً هَزَّكَ التَّبَرُّ المذابُ وهذا اللُّوحُ، والقلمُ العُجابُ
وما بيني وبينهما حجابُ ولا دوني على الآياتِ سترُ؟

* * *

جهاً، أم عذارىِ حالياتُ؟ وماءً، أم سماءً. أم نباتُ؟
وتلك جزائرُ، أم نِيَّراتُ؟ وكيف طلوعُها والوقتُ ظهَرُ؟

* * *

جلاها الأفق صُفْرًا وَهِيَ خُضْرُ كَزَهْرٍ دُونَهُ فِي الرُّوضِ زَهْرُ
لَوَى بَحْرُ بِهَا، وَالتَفَّ بَحْرُ كَمَا مَلَكْتَ جِهَاتِ الدَّوْحِ غُدْرُ^{١٧٥}

* * *

تَلُوحُ بِهَا الْمَسَاجِدُ بَانِخَاتٍ وَتَتَّصِلُ الْمَعَاقِلُ شَامَخَاتٍ
طِبَاقًا فِي الْعُلَى، مِتْفَاوِتَاتٍ سَمَا بَرُّ بِهَا، وَانْحَطَّ بَرُّ

* * *

وَكَمْ أَرْضٍ هِنَاكَ فَوْقَ أَرْضِ وَرَوْضٍ، فَوْقَ رَوْضٍ، فَوْقَ رَوْضِ
وَدُورٌ بَعْضُهَا مِنْ فَوْقِ بَعْضٍ كَسَطَرٍ فِي الْكِتَابِ عِلَاهِ سَطَرِ

* * *

سُطُورٌ لَا يَحِيطُ بِهِنَّ رَسْمٌ وَلَا يُحْصِي مَعَانِيهِنَّ عِلْمٌ
إِذَا قُرِئَتْ جَمِيعًا فَهِيَ نَظْمٌ وَإِنْ قُرِئَتْ فُرَادَى فَهِيَ نَثْرٌ

* * *

تَأَرَّجُ كُلَّمَا اقْتَرَبْتَ وَتَزَكُو وَيَجْمَعُهَا مِنَ الْآفَاقِ سِلْكُ^{١٧٦}
تَشَاكُلُ مَا بِهِ، فَالْقَصْرُ فُلْكُ عَلَى بُعْدٍ لَنَا، وَالْفُلْكُ قَصْرُ

* * *

وَنَوْنٌ دُونَهَا فِي الْبَحْرِ نَوْنٌ مِنْ الْبَسْفُورِ نَقَطُهَا السَّفِينِ
كَأَنَّ السُّبُلَ فِيهِ لَنَا عَيُونٌ وَإِنْسَانُ السَّفِينَةِ لَا يَقِرُّ

* * *

هِنَاكَ حَفَّتِ النُّعْمَى خُطَانَا وَحَاطَتْنَا السَّلَامَةُ فِي حِمَانَا
فَأَلْقَيْنَا الْمَرَاسِي. وَاحْتَوَانَا بِنَاءً لِلْخِلَافَةِ مُشْمَخِرُ

* * *

فيا مَنْ يطلب المرأى البديعا ويعشقه شهيداً أو سميعا
رأيت محاسن الدنيا جميعاً فهنَّ الواوُ، والبسفورُ عمرو

الرَّحْلةُ إلى الأندلس

لَمَّا وضعت الحربُ الشُّومى أوزارها،^{١٧٧} وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها،^{١٧٨} ورمَّ لهم ربوعَ السَّلم، وجدَّد مزارها،^{١٧٩} أصبحتُ وإذا العوادي^{١٨٠} مُقصرة! والدواعي غير مقصَّرة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجَّد، والبخار المشتدَّ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط،^{١٨١} فبلغتُ النفس بمرآه الأرب، واكتحلت العينُ في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرَّقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسرى زائرُها من حرَم، كمن يُمسي بالكرنك ويُصبح بالهرم، فلا تقاربَ غيرَ العتق والكرم: (طُلَيْطَلَة) تُطَلُّ على جسرِها البالي، و(أشبيلية) تُشْبِلُ^{١٨٢} على قصرِها الخالي، و(قرطبة) منتبذةٌ ناحيةً بالبيعة^{١٨٣} الغراءِ، و(غرناطة) بعيدةٌ مزارِ الحمراء. وكان «البحترى» رحمه الله رفيقي في هذا الترحال، وسميري في الرحال، والأحوال تصلح على الرجال، كل رجل لحال. فإنه أبلغُ مَنْ حَلَّى الأثر، وحيَّ الحجر، ونشر الخبر، وحشَرَ العبر، ومَنْ قام في مآثم على الدول الكُبر، والملوك البهاليل الغرر، عطف على (الجعفري) حين تَحَمَّل^{١٨٤} عنه الملا، وعطل منه الحلى، ووَكَّل بعد (المتوكل) للبلَى. فرفع قواعده في السَّير، وبنى رُكنه في الخبر، وجمع معاملة في الفكر، حتى عاد كقصور الخُلد امتلأت منها البصيرةُ وإن خلا البَصَر، وتكفَّل بعد ذلك (لكسرى) بإيوانه، حتى زال عن الأرض إلى ديوانه. وسينئته المشهورةُ في وصفه، ليست دونه وهو تحت (كسرى) في رصَّه ورصفه^{١٨٥} وهي تُريك حُسْنَ قيام الشعرِ على الآثار، وكيف تتجدَّد الديار في بيوته بعد الاندثار. قال صاحب الفتح القُسي، في الفتح القدسي، بعد الكلام: «فانظروا إلى إيون كسرى وسينية البحترى في وصفه، تجدوا الإيوانَ قد خَرَّتْ شَعَفاته، وعُفِرَتْ شرفاته، وتجدوا سينية (البحترى) قد بَقِيَ بها (كسرى) في ديوانه، أضعاف ما بَقِيَ شخصُه في (إيوانه)».

وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صنت نفسي عما يُدْنُسُ نفسي وترَفَّعت عن ندى كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا موائل وأنوشر وان يُزجي الجيوش تحت الدَرَفَس

فكنت كلَّما وقفتُ بحجر، أو أطفُتُ بأثر، تمثَّلتُ بأبياتها، واسترحتُ من مَوَائِلِ العبر
إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وعظ البحتريَّ إيوانُ كسرى وشفتني القصورُ من عبد شمس

ثم جعلتُ أروض القولَ على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن حتى نظمت هذه
القافية الملهلة، وأتممت هذه الكلمة الرِيْضة. وأنا أعرضها على القُرَّاء راجياً أن يلحظوها
بعين الرضاء، ويسحبوا على عيوبها ذيل الإغضاء، وهذه هي:

اذكرا لى الصَّبَا، وأيام أنسي
صُورَت من تصوُّرات وَمَسَّ^{١٨٦}
سِنَةً^{١٨٨} حُلُوَّةً، وَلَذَّةً خَلَسَ^{١٨٩}
أو أَسَا^{١٩٠} جُرَحَه الزمان المؤسِّي؟
رَقَّ، والعهدُ في الليالي تُقَسِّي^{١٩١}
أولَ الليل، أو عَوَتْ بعد جَرَسِ^{١٩٤}
كلَّما تُرِّنَ شاعهن بَنَقَسِ^{١٩٧}
ما لَه مولَعًا بمنعٍ وحبس؟
حُ، حلالٌ للطير من كلِّ^{١٩٩} جنس
في خبيثٍ من المذاهب رَجَسِ
بهما في الدموع سِيرِي وأرسي
كِ يَدَ (الثغرِ) بين (رملٍ) و(مكس)

اختلافُ النَّهارِ والليل يُنسي
وصفا لي مُلَاوَةً من شباب
عصفتُ كالصَّبَا^{١٨٧} اللعوبِ ومرَّت
وسلا مصرَ: هل سلا القلبُ عنها
كلَّما مرَّت الليالي عليه
مُسْتَطَارُ^{١٩٢} إذا البواخيرُ رنَّتْ^{١٩٣}
راهبٌ^{١٩٥} في الضلوع للسنفن فَطُنَ^{١٩٦}
يا أَبْنَةَ اليمِّ،^{١٩٨} ما أبوك بخيلٌ
أحرامٌ على بلبله الدَّوْ
كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهل، إلا
نَفْسِي مِرْجَلٌ،^{٢٠٠} وقلبي شِراعٌ
واجعلي وجهَك (الفنارَ)، ومجرا

وطني لو شَغِلْتُ بالخلدِ عنه
وهفا^{٢٠١} بالفؤاد في سلسبيلِ
شهد الله، لم يَغِبْ عن جفوني
يُصبح الفكرُ و(المسلَّة) ناد
وكأنِّي أرى الجزيرةَ أيَّكاً^{٢٠٢}
هي (بلقيس) في الخمائلِ صُرُخُ^{٢٠٥}
حَسْبُهَا أن تكونَ للنيلِ عَرْساً
لبستْ بالأصيلِ حُلَّةً وشي
قدَّها النيلُ، فاستحتتْ، فتوارتْ
وأرى النيلَ (كالعقيق) بواديـ
ابنُ ماء السماءِ ذو الموكبِ الفخمِ
لا ترى في ركابه غيرَ مُثْنٍ
وأرى (الجيزة) الحزينة تَكَلَّى
أكثرَتْ ضجَّةُ السواقِي عليه
وقيامَ النخيلِ ضَفَرْنَ شعراً
وكانَ الأهرامَ ميزانَ فرعو
أو قناطرِه تَأَنَّقَ فيها
رُوعَةً في الضحى، مَلَاعِبُ جَنٍّ^{٢٠٣}
و(رهينُ الرمال) أَفطُسُ، إلَّا
تتجَلَّى حقيقةُ الناسِ فيه
لِعَبِّ الدَّهْرِ في ثراه صبيّاً
ركبتُ صيِّدُ^{٢٢١} المقاديرِ عينيه
فأصابَتْ به الممالكُ: (كسرى)
يا فؤادي، لكلِّ أمرٍ قرارٌ
عَقَلْتُ^{٢٢٢} لُجَّةَ الأمورِ عقولاً
غَرِقْتُ حيثُ لا يُصاحُ بطافٍ
فلَکْ يَكسِفُ الشَّموسُ نهاراً

نازعتني إليه في الخلدِ نفسي
ظماً للسواد من (عين شمس)^{٢٠٢}
شخصُه ساعةً، ولم يخلُ جِسي
يه، و(بالسَّرحة الزكيَّة) يُمسي
نَغَمَتْ طَيْرُهُ بأَرْخَمِ جَرَسِ^{٢٠٤}
من عُبابِ،^{٢٠٦} وصاحبُ غيرِ نِكسِ^{٢٠٧}
قبلها لم يُجَنِّ يوماً بعِرسِ
بين صنعاء^{٢٠٨} في الثيابِ وقَسِ^{٢٠٩}
منه بالجسرِ بين عُريِّ ولُبسِ
ه وإن كان كوثَرُ المتحسِّي^{٢١١}
الذي يَحسُرُ العيونَ ويُخسي^{٢١٢}
بَخْمِيلٍ، وشاكرِ فضلِ عِرسِ
لم تُفَقِّ بعدُ من مَنَاحَةِ (رمسي)^{٢١٣}
وسؤالِ اليراعِ عنه بهَمْسِ^{٢١٤}
وتجرَّدَنَ غَيْرَ طَوْقٍ وسَلْسِ^{٢١٥}
نَ بيومِ على الجبابِرِ نَحْسِ
ألفُ جَابِ^{٢١٦} وألفُ صاحبِ مَكْسِ^{٢١٧}
حين يَغشَى الدُّجى حماها ويُغسي^{٢١٨}
أنه صُنْعُ جِنَّةٍ غيرِ فُطْسِ^{٢١٩}
سَبُعُ الخَلْقِ في أساريرِ إنسي
والليالي كواعباً غيرَ عُنْسِ^{٢٢٠}
لنَقْدِ، ومُخَلَّبِيهِ لِفَرَسِ^{٢٢٢}
(وهرقلاً)، (والعبقريِّ الفرنسي)
فيه يبدو وينجلي بعدَ لُبْسِ
طالتِ الحوتَ طُولَ سَبَحٍ وَغَسِ^{٢٢٤}
أو غريقِ، ولا يُصاخُ لِجَسِ
ويسومُ البدورَ ليلةً وكُسِ^{٢٢٥}

بَلَّغْتُهَا الْأُمُورُ صَارَتْ لِعَكْسِ
 بِقِيَامٍ مِنَ الْجُدُودِ وَتَغْسِ
 لَطَمَتْ كُلَّ رَبِّ (رُومٍ) (وَفُرْسِ)
 خِنْجَرًا يَنْفُذَانِ مِنْ كُلِّ تُرْسِ
 وَعَفَتْ^{٢٢٦} (وَأَثَلَا) وَاللَّوْتُ (بِعَبْسِ)
 أَمْوِيٍّ، وَفِي الْمَغَارِبِ كَرْسِي^{٢٢٧}؟
 نَوْرَهَا كُلَّ ثَاقِبِ الرَّأْيِ نَطُسِ^{٢٢٨}
 نَكَ تَبْلَى، وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسِ^{٢٢٩}
 وَشَقَنْتِي^{٢٣٠} الْقَصُورُ مِنْ (عَبْدِ شَمْسِ)
 وَبَسَاطِ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنَسِي^{٢٣١}
 بَ، وَأَطْوِي الْبِلَادَ حَزْنًا^{٢٣٢} لَدَهْسِ^{٢٣٣}
 وَمَنَارِ^{٢٣٥} مِنَ الطَّوَائِفِ طَمَسِ
 نِ خُضْرٍ، وَفِي ذَرَا الْكَرْمِ طُلْسِ^{٢٣٦}
 لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
 وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسِي
 تُمَسِّكُ الْأَرْضُ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي
 لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شَرَاخِ وَقَلْسِ^{٢٣٧}
 فَأَتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسِ^{٢٣٨}
 هَا مِنْ الْعَزِّ فِي مَنَازِلَ قُعْسِ^{٢٣٩}
 لِ الْمَعَالِي، وَلَا تَرَدَّتْ بَنَجْسِ
 فِيهِ مَا لِلْعَقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسِ
 حَجَّهُ الْقَوْمُ مِنْ فَقِيهِهِ وَقَسِ
 صُرِّ) نَوْرُ الْخَمِيسِ تَحْتَ الدَّرَفْسِ^{٢٤١}
 وَيُحَلِّي بِهِ جَبِينِ (الْبَرْنَسِ)
 وَصَحَا الْقَلْبُ مِنْ ضَلَالٍ وَهَجْسِ^{٢٤٢}
 وَإِذَا الْقَوْمُ مَا لَهُمْ مِنْ مُحْسِ^{٢٤٣}
 جَاوَزَ الْأَلْفَ غَيْرَ مَذْمُومِ حَرَسِ^{٢٤٤}

وَمَوَاقِيتُ لِلْأُمُورِ، إِذَا مَا
 دُولُ كَالرَّجَالِ، مَرْتَهَنَاتُ
 وَلِيَالٍ مِنْ كُلِّ ذَاتِ سِوَارِ
 سَدَّدَتْ بِالْهَلَالِ قَوْسًا، وَسَلَّتْ
 حَكَمَتْ فِي الْقُرُونِ (خَوْفُو) وَ(دَارَا)
 أَيْنَ (مِرْوَانُ): فِي الْمَشَارِقِ عَرْشُ
 سَقِمَتْ شَمْسُهُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهَا
 ثُمَّ غَابَتْ، وَكُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَاتِيهِ
 وَعَظُ (الْبَحْتَرِيِّ) إِيوَانُ (كَسْرِي)
 رَبُّ لَيْلٍ سَرِيَتْ وَالْبَرْقُ طَرْقِي
 أَنْظُمُ الشَّرْقِ فِي (الْجَزِيرَةِ) بِالْغَرِ
 فِي دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ^{٢٣٤} دَرَسِ
 وَرُبِّي كَالْجَنَانِ، فِي كَنْفِ الزَّيْتِ
 لَمْ يَرْعُنِي سِوَى ثَرَى قَرْطَبِي
 يَا وَقَى اللَّهُ مَا أَصْبَحُ مِنْهُ
 قَرْيَةً لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ، كَانَتْ
 غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمَحِيطِ، وَغَطَّتْ
 رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا
 فَتَجَلَّتْ لِي الْقَصُورُ وَمَنْ فِيهِ
 مَا ضَفَّتْ^{٢٤٠} قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَذْ
 وَكَأَنِّي بَلَّغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتًا
 قُدُسًا فِي الْبِلَادِ شَرْقًا، وَغَرْبًا
 وَعَلَى الْجَمْعَةِ الْجَلَالَةِ، وَ(النَّا)
 يُنْزَلُ التَّاجُ عَنْ مِفَارِقِ (دُونِ)
 سِنَةً مِنْ كَرَى، وَطَيْفُ أَمَانِ
 وَإِذَا الدَّارُ مَا بِهَا مِنْ أَنْيَسِ
 وَرَقِيقُ مِنَ الْبَيُوتِ عَتِيقُ

صار (للروح) ذي الولاء الأَمْسُ ٢٤٥
 بَيْنَ (تَهْلَانِ) ٢٤٦ في الأساس و(قُدس) ٢٤٧
 ويطول المدى عليها فترسي
 أَلِفَاتُ الْوَزِيرِ فِي عَرْضِ طَرَسٍ ٢٤٩
 ما اكتسى الهدبُ من فتورٍ ونعس
 وَاحِدِ الدَّهْرِ، واستعدَّتْ لخمس ٢٥١
 من ملاءٍ مُدْرَاتُ الدَّمَقَسِ ٢٥٢
 يتنزّلن في معارجِ قُدس ٢٥٤
 لم يزل يكتسيه، أو تحتَ (قُسٍّ)
 وَرِدِهِ غَائِبًا، فتدنو لِلْمَسِ ٢٥٦
 ب، وآل له مَيَامِينِ شُمُس ٢٥٨

أَثَرُ من (محمّد)، وتُراثُ
 بَلَغَ النّجْمَ ذِرْوَةً، وتناهى
 مَزْمَرُ تَسْبِخِ النّوَاطِرُ فيه
 وَسَوَارٍ ٢٤٨ كأنها في استواءٍ
 فَتْرَةَ الدَّهْرِ قد كست سَطَرِيهَا ٢٥٠
 وَيَحَهَا! كَمْ تَزَيَّنْتَ لعليمٍ
 وكأن الرفيفَ ٢٥٢ في مسرح العيدِ
 وكأن الآياتِ في جانبيه
 مِنْبَرٌ تحتَ (مُنذر) ٢٥٥ من جلال
 ومكان الكتاب يُغريك رِيًا
 صَنَعَةُ (الدَّاخِلِ) ٢٥٧ المبارك في الغر

* * *

دَهْرٍ، كالجُرح بين بُرءٍ ونكس
 لمحتها العيونُ من طول قَبَسِ
 (مر): من غافلٍ، ويقظانٌ نَدَسُ ٢٥٩
 فبدا منه في عصائبِ بَرَسِ ٢٦٠
 قبله يُرجى البقاء وَيُنْسَى
 راءِ) مَشْيِ النُّعْيِ في دار عرس
 سُدَّةِ الباب من سَمِيرِ وَأُنْسِ
 واستراحت من احتراسٍ وَعَسِ ٢٦١
 لم تجد للعشيّ تكرارَ مَسِ
 ريخ، ساعينَ في خشوع ونكس
 من نقوش، وفي عُصارة وَرَسِ ٢٦٢
 كالرُّبَى الشَّمِّ بين ظلٍ وشمس
 ولألفاظها بأزين لبس
 مُقْفِرَ القاعِ من ظباءٍ وخنس
 يتنزّلن فيه أَقْمَارِ إِنْسِ

مَنْ (الحمراء) جُلِّلَتْ بغبار الـ
 كَسْنَا البرقِ، لو محاً الضوءَ لحظًا
 حِصْنُ (غرناطة)، ودارُ بني (الأحـ
 جَلَّلَ الثَّلْجُ دونها رَأْسَ (شيري)
 سَرْمَدُ شَيْبُهُ، ولم أَرِ شَيْبًا
 مَشَتْ الحادثاتُ في غُرْفِ (الحمـ
 هَتَكْتَ عِزَّةَ الحجاب، وفَضَّتْ
 عَرِصَاتُ تَخَلَّتْ الخيلُ عنها
 وَمَغَانٍ على الليالي وضاء
 لا ترى غيرَ وافدين على التا
 نَقَّلُوا الطرفَ في نضارةِ آسِ
 وَقَبَابٍ من لازوردٍ وتبـ
 وخطوطٍ تكفَلَتْ للمعاني
 وترى مجلسَ السباعِ خَلَاءَ
 لا (الثُّرَيَّا)، ولا جوارِي الثريا

كَلَّةَ الظُّفْرِ. لِيِّنَاتِ الْمَجَسِّ
يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبَ مُلَس
بعد عَرِكٍ مِنَ الزَّمَانِ وَضَرَس^{٢٦٣}
بَادَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ أُسْرِ وَحَسِّ^{٢٦٤}
بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِبَخْسٍ
عن حِفَاطٍ، كَمُوكِبِ الدَّفْنِ خُرْس^{٢٦٥}
تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أَمْسٍ
لُمِشَتْ، وَمُحَسِّنٍ لُمُخَسِّ
لِجَبَانٍ، وَلَا تَسْنَى لِجَبَسِ^{٢٦٦}
وَهْيُ خُلُقٍ، فَإِنَّهُ وَهْيُ أَسِّ
وَجَنَى دَانِيَا، وَسَلَسَالِ أُنْسٍ
هَهَا بِقَيْظٍ، وَلَا جُمَادَى بِقَرَسِ^{٢٦٨}
غَيْرَ حُورٍ حَوَّ^{٢٦٩} الْمَرَاشِفِ،^{٢٧٠} لُغْسِ^{٢٧١}
وَرَبَا فِي رُبَاكِ وَاشْتَدَّ غَرْسِي
بُمَضَاعٍ، وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِي
وَجَنَانٍ عَلَى وَلَائِكِ حَبْسٍ
مَنْ جَدِيدٍ عَلَى الدَّهْورِ وَدَرْسٍ
ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأْسِي

مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأَسْوَدُ عَلَيْهِ
مَرْمَرُ الْمَاءِ فِي الْحِيَاضِ جُمَانًا
آخَرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
فَتَرَاهَا، تَقُولُ: رَايَةُ جَيْشٍ
وَمِفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلِكٍ
خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كِتَائِبَ صُمِّ
رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعْشًا، وَكَانَتْ
رُبَّ بَانَ لِهَادِمٍ، وَجَمُوعِ
إِمْرَةِ النَّاسِ هِمَّةً، لَا تَأْتِي
وَإِذَا مَا أَصَابَ بَنِيَانَ قَوْمٍ
يَا دِيَارًا نَزَلْتُ كَالْخُلْدِ ظِلًّا
مُحْسِنَاتِ الْفُصُولِ، لَا نَاجِرُ^{٢٦٧} فِيهِ
لَا تَحِشَّ الْعَيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا
كُسَيْتِ أَفْرُخِي بِظَلِّكَ رِيشًا
هَمْ بَنُو مَصْرَ، لَا الْجَمِيلُ لَدِيهِمْ
مَنْ لِسَانٍ عَلَى ثَنَائِكَ وَقَفُ
حَسَبُهُمْ هَذِهِ الطُّلُولُ عِظَاتٍ
وَإِذَا فَاتَكَ التَّفَاتِ إِلَى الْمَا

كُوكُ صُو

قال يصف (كوك صو) وهو موقع جميل في الآستانة العليّة. ومعنى اللفظين اللذين سُمّي
بهما (ماء السماء)

فليس سواك للأرواح أنس
ولا جُعِلَتْ فِدَاكَ وَهِيَ نَحْسُ
وَأَمُونٌ عَلَى الْأَرْدُنِّ قُدْسُ

تَحِيَّةُ شَاعِرٍ يَا مَاءَ (جَكْسُو)
فَدَتِكَ مِيَاهُ (بِجَلَّة) وَهِيَ سَعْدُ
وَجَاءَكَ مَاءُ (زَمَزَمَ) وَهُوَ طُهُرُ

وَأَنْتِ عَلَى الْمَدَى فَزَحْ وَعُرس
وَأَنْتِ لِهَمَّهِنَّ الدَّهْرَ رَمَسُ
وَهَلْ بِالْحُورِ إِنْ أَسْفَرْنَ بِأَسْ؟
أُتَحَبُّ عَنْ صَنِيعِ اللَّهِ نَفْسُ؟
فَلَا يُغْنِي الْحَرِيرُ، وَلَا الدِّمَقْسُ
نُحِسُ النَّفْسُ مِنْهُ مَا تَحْسُ؟
وَرَائِيهَا حَوَارِيٍّ وَقَسُ
يَهْمُ بِهَا، وَلَا عَيْنُ نُحِسُ
وَيَنْسَجُ لِلرُّبَى حُلًّا وَيَكْسُو
أَنَامُلُ تَنْثُرِ الْعَقِيَانِ^{٢٧٢} خَمْسُ
وَفِي آذَانِهَا قُرْطُ وَسَلَسُ^{٢٧٥}
يَسُرُّ النَّاضِرِينَ، وَنَارَ رَأْسِ
وَمِنْ شَعْرِي نَدِيمٌ لِي وَجِلْسُ
زَوَارِقُ حَوْلَنَا تَجْرِي وَتَرْسُو
تُسْفُ^{٢٧٦} عَلَيْهِ أحيانًا وَتَحْسُو
لَهَا عُرْفُ^{٢٧٧} إِذَا خَطَرَتْ وَجَرَسُ^{٢٧٨}
وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحَرِّكَ فَهَيَّ رَعْسُ^{٢٧٩}
فَكُلُّ طَرِيقِهِ وَتَرَّ وَقَوْسُ
كَمَا حَمَلَتْ حَبَابَ الرَّاحِ كَأْسُ
مَلَانُكَ هَمُّهَا نَظَرُ وَهَمْسُ
عَلَى وَجَنَاتِهَا غَيْمٌ وَشَمْسُ
زَهْوَرُ لَا تُشْمُ، وَلَا تُمَسُّ
وَإِنْ طُوِيَتْ، فَتُسْرِينُ وَوَرَسُ
وَلَكِنْ لَيْسَ يَجْمَعُهُنَّ لُبْسُ
وَخَيْرُ الْوَقْتِ مَالِكٌ فِيهِ أُنْسُ
بِهَا مِنْ دَهْرِهَا هَمٌّ وَبُؤْسُ
وَقَدْ طُوِيَ النَّهَارُ، وَمَاتَ أَمْسُ

وَكَانَ (النَّيْلُ) يُعْرِسُ كُلَّ عَامٍ
وَقَدْ زَعَمُوهُ لِلْغَادَاتِ رَمَسًا
وَرَدْنَكَ كَوَثْرًا، وَسَفَرْنَ حُورًا
فَقُلْ لِلْجَانَحِينَ إِلَى حِجَابِ
إِذَا لَمْ يَسْتَرِ الْأَدَبُ الْغَوَانِي
تَأْمَلْ. هَلْ تَرَى إِلَّا جَلَالًا
كَأَنَّ الْخُودَ^{٢٧٢} (مَرِيْمُ) فِي سُفُورِ
تَهَيَّبَهَا الرِّجَالُ، فَلَا ضَمِيرُ
غَشِيَتِكَ وَالْأَصِيلُ يَفِيضُ تَبْرًا
وَتَذْهَبُ فِي الْخَلِيجِ لَهُ وَتَأْتِي
وَفِي جِيدِ الْخَمِيلَةِ^{٢٧٤} مِنْهُ عَقْدُ
وَلَأَلَّتِ الْجِبَالُ فُضَاءَ سَفْحِ
عَلِ فُلِكَ تَسِيرُ بِنَا الْهُوَيْنِي
تُنَازِعُنَا الْمَذَاهِبُ حَيْثُ مِلْنَا
لَهَا فِي الْمَاءِ مُنْسَابُ كَطِيرِ
صَغَارِ الْحَجْمِ، مُزْهَفَةِ الْحَوَاشِي
إِذَا الْمَجْدَافُ حَرَّكَهَا اِطْمَأْنَنْتِ
وَإِنْ هُوَ جَدٌّ فِي الْمَاءِ انْسِيَابَا
حَمَلْنَ اللَّوْلُؤَ الْمُنْتَوَرَ عَيْنًا^{٢٨٠}
كَأَنَّ سَوَافِرَ^{٢٨١} الْغَادَاتِ فِيهَا
كَأَنَّ بَرَاقِعَ الْغَادَاتِ تَهْفُو
كَأَنَّ مَازَرَ^{٢٨٢} الْعَيْنِ انْتِسَابَا
إِذْ نُشِرَتْ، فَرِيحَانُ وَوَرْدُ
عَجِبْتُ لَهُنَّ يَجْمَعُهُنَّ حَسَنُ
فَكَانَ لَنَا بِظُلُكُ خَيْرُ وَقْتِ
نَمْتَعُ مِنْكَ (يَا جَكْسُو) نَفُوسًا
عَلَى أَنْ بَانَ سِرُّكَ فَانْتَنِينَا

وقال في كلاب الآستانة وكان يُضْرَبُ بها المثلُ في الكثرة والقذارة:

قالوا (فروق) الملكِ دارُ مَخَافٍ لا ينقضي لنزِيلِها وسَواسُ
وكلابُها في مَأْمِنٍ، فاعجب لها أَمِنَ الكلابُ بها، وخاف الناسُ

أَنَسُ الْوُجُودِ

إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أَتَأْذَنُ لرجلٍ تَعَوَّدُ أَنْ يَخْرُجَ عن دائِرَةِ (الموظف) كُلِّما عَرَضَتْ حال يخدم الوطنَ فيها الرجالُ يرفع لشعره ذكره، ويشرّف قدره، مهدياً إليك منه هذه القصيدة في لغة (الضاد)، وهي مما قلتُ في (أنس الوجود) ذلك الأثر المحتضر، الذي جمع العبرَ، ومحاه الدهر أو كاد وكان إحدى آياته الكبر، هياكل «لفرعون» و«بطلليموس»، تَوَرَّاثُها عن «الكهنة» «القسوس». ثم لا تكون عَشِيَّة أو ضُحاهَا حتى يهوي في الماءِ كُلُّ حجر كان يُقْبَلُ (كالأسود)،^{٢٨٣} وكل ركن كان يُسْتَلَمُ «كالحطيم»^{٢٨٤} شهدتُ على «أنس الوجود» ما يُعلم الإنسانَ — ولو أنه (روزفلت) علماً وحكمة وأدباً — كيف يَحْتَقِرُ الدنيا ويحترم الدين جميعاً. دخلته ذات يوم وكان «الدوق أوف كونوت» لديه يتمشى في ظلاله، ويتنقل بين رسومه وأطلاله، عيناه ونفسه في إكباره وإجلاله، فكانت مني التفاتة فرأيت «فلاحاً» أقبلَ ثم ألقى عباةً وتوجّه يصلي «العصر» غير مُلقٍ بالاً «لفرعون» كيف كان يعبد ويُعبد، ولا «لبطلليموس» كيف كان يُعْظَمُ ويُمَجَّدُ، ولا للمسيحية السمجة كيف دخلت على «الوثنية» المَعْبُد، ولا «للملك إدوارد» الذي تحتل جنوده الآن مصر وهو في ثياب أخيه «الدوق» يرفع البصرَ ويُسَدِّله ممتلئاً من آيات الدَّهر مهابة وإعجاباً، مشغلاً بالتاريخ القائم المجسَّم، يقرؤه كتاباً كتاباً. دين سهل سَمَح يَسِر، وإله واحد يُعْبَد حيث وُجِد العابد، على العزاء كما في الهياكل، والكنائس والمساجد.

التاريخ — أيها الضيف العظيم — غابر متجدد، قديمه منوال، وحاضره مثال. والغدُ بيد الله المتعال، وأنت اليوم تمشي فوق مَهْد الأعصر الأول، ولحد قواهر الدول، أرض اتَّخذها «الإسكندر» عريناً، وملأها على أهلها «قيصر»

سفينًا، وخَلَفَ «ابن العاص» فيها لسانًا وجنسًا ودينًا، فكان أعظم المستعمرين حقيقة وأكبرهم يقينًا، وهو الذي لم يعلم عليه أن بغى أو ظلم أو سفك الدم، أو نهى، أو أمر، إلا بين الرجاء والحذر؛ من عدل «عمر»، الذى تنبىك عنه السَّير.

قمتَ — أيها الضيف العظيم — في السودان خطيبًا فأنصت العصر، والتفتت مصر، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون: «كيف خالف الرئيس سُنَّةَ الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله، فطارد الشعور وهو يهبُّ، والوجدان وهو يشبُّ، والحياة وهي تدبُّ، في هذا الشعب؟! وَمَنْ حرمة العواطف السامية، ألا تطارد كأنها وحوش ضارية، على صحراء أو بادية، كما طاردت السباع بالأمس نَقَمًا من طبائعها الجافية».

المصريُّ — أيها الضيف العظيم — سمح كريم التجاوز، فقد ظفرت بمنْ مهَّد عذرك، ونفى الظن عن كرمك، وادَّخر ودَّك الذى تخطبه الأمم المستضعفة، والشعوب المتلهَّفة، المتشوّفة، إذ قيل: إنما أراد الرئيس أن يمدح دينًا من حقه أن يمدح بكل لسان، وفي كل مكان، فكيف به في بعض معاهده في السودان؟! وأراد كذلك أن يحذّر من الفتنة في الجيوش، وينهى عن إيقاظها، ويذكر للمحسن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته، ويدعو هذه الأمة التى حركتها المستقبل في السكون، إلى العمل في ظلِّ الحقِّ والصبر بإذن الله مضمون، ومستقبل بمشيئة الله مأمون، وقديمًا فاز بالصبر الصابرون.

فإن كان ذلك — أيها الضيف العظيم — وهو ما لانعتقد غيره — فمثلك مَنْ نصَحَ للأمم، وبعث العزائم والهمم. وعلم باللسان والقلم.

على أننا نرجو أن ستذكرنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جميعًا أهله، وأن ستعطينا عهدك، وتصفينَا ودَّك، وتملأ من أجمل الظنون وأحسنها بردك. يوم تقلُّ السفينة عظمتك ومجدك، وتنقل من أقصى البروج إلى أقصاها سعدك.

على يد الله تجري إن هي اندفعت وفي جمى الله — لا في الماء — تحتجب

كالثريّا تريد أن تنقضا
لا تحاول من آية الدهر غضا
ممسكا بعضها من الذعر بعضا
سابحات به، وأبدين بضاً
مشرفات على الكواكب نهضا
وشبابُ الفنونِ ما زال غضا
نُعُ منه اليدينِ بالأمس نفضا
أعصرُ منه بالسراج والزيت وضاً^{٢٨٦}
حسنتُ صنعةً، وطولاً، وعرضاً
لو أصابتُ من قدرة الله نبضا
عزماً من عزمة الجنِّ أمضى^{٢٨٨}
وبنى البعضُ أجنبُ يترضى^{٢٩٠}
حسكُ تزيّاً، وباليواقيت قضا^{٢٩١}
صُرِّفتُ في الحظوظ، رفعاً وخفضاً
س، إلى أن تعاطت النحاس محضاً^{٢٩٢}
كان إتقانه على القوم فرضاً

أيها المنتحي (بأسوان) داراً
اخلع النعل، واخفض الطرف، واخشع
قف بتلك (القصور) في اليمِّ غرقى
كعدارى أخفين في الماء بضاً^{٢٨٥}
مشرفاتٍ على الزوال، وكانت
شبابٌ من حولها الزمانُ وشابت
رُبَّ «نَقِشٍ» كأنما نفض الصا
و«دهان» كلامع الزيت، مرّت
و«خُطوطٍ» كأنها هدب ريم^{٢٨٧}
و«ضحايا» تكاد تمشي وترعى
و«محاريب» كالبروج، بنتها
شيدت بعضها الفراعين زُلْفَى^{٢٨٩}
و«مقاصير» أبدلت بفئات الـ
حظُّها اليوم هُدَّةً، وقديماً
سَقَتِ العالمين بالسعد والنحـ
صنعةٌ تُدهش العقول، وفنٌ

فسكبتُ الدموعَ، والحقُّ يُقضي
كيف سامِ البلى كتابك فضا؟
مَنْ يَصُنُّ مجدَ قومه صان عرضاً
كان حتى على «الفراعين» غمضاً
يا سماءَ الجلال، لا صرّت أرضاً
وتولّت عزائمُ العلمِ مَرَضَى
من نظام النعيم أصبح فضا؟^{٢٩٤}
يركض المالكين كالخيل ركضاً
وجلا للفخارِ في السلمِ عرضاً
حكمت فيه شاطئين وعرضاً؟

يا قصوراً نظرتُها وهي تقضي^{٢٩٣}
أنتِ سَطْرٌ مصرٌ كتابٌ
وأنا المحتفي بتاريخ مصرٍ
رُبَّ سرٍّ بجانبك مُزالٍ
قل لها في الدُعاء لو كان يجدي:
حارَ «فيك» المهندسون عقولاً
أين ملكٌ حيالها وفريد
أين «فرعون» في المواكب تَتَرَى
ساق للفتح في الممالك عرضاً
أين «إيزيس» تحتها النيل يجري

في ثراها، وأرسل الرأس خفضا
في قيود الهوان، عانين، جرّضى^{٢٩٥}
تشتكي من نوائب الدهر عضّا؟
ملكة في السجون فوق حَضَوْضَى^{٢٩٦}
أبهذا في شرعهم كان يُقْضَى؟
أم رماه الوشاةُ حقداً وبغضّا؟
دون فعل الفراقِ بالنفس مَضّا
دون سيفٍ من اللواحق يُنْضَى^{٢٩٨}
أين راوي الحديثِ نثراً وقرضا؟

أَسْدَلَ الطرفَ كاهنٌ ومليكٌ
يُعَرِّضُ المالكون أسرى عليها
ما لها أصبحت بغير مُجيرٍ
هي في الأسر بين صخرٍ وبحرٍ
أين «هوروس» بين سيفٍ ونطعٍ؟
ليت شعري: قضى شهيداً غرامٍ
رُبَّ ضَرْبٍ من سَوْطِ فرعونَ مَضٍّ^{٢٩٧}
وهلاكٍ بسيفه وهُوَ قانٍ
قتلوه، فهل لذاك حديثٌ؟

م، سَتُعْطَى من الثناء، فترضى
وجمى الجود (حاتم) الجود أفضى
وابذل النصيح بعد ذلك محضا
ظ إذا ذاقَت البريّةُ غمضا
أخرجوه، فضيّع العهد نقضا
ليت بالنيل يوم يسقط غيضا^{٣٠٢}
أنقذوه بالمال والعلم نقضا^{٣٠٣}

يا إمام الشعوب بالأمس واليو
(مصر) بالنازليين من ساح (معين)^{٢٩٩}
كن ظهيرا^{٣٠٠} لأهلها ونصيرا
قل لقوم على (الولايات) أيقا
شيمة (النيل) أن يفي، وعجيب
حاشه^{٣٠١} الماء، فهو صيدٌ كريمٌ
شيدَ والمال والعلوم قليل

النفس

قال الرئيس ابن سينا:

ورقاء ذات تَعَزَّزٍ وتمنّع
وهي التي سَفَرَتْ ولم تنبرقع
كرهت فراقك وهي ذات تفجّع
ألغت مجاورة الخراب البلّقع
ومنازلاً بفراقها لم تقنع

هبطت إليك من المحل الأرفع
محجوبة عن كلّ مُقْلَةٍ عارفٍ
وصلت على كره إليك، وربما
ألغت وما سكنت، فلما واصلت
وأظنها نسيت عهداً بالحمى

حتى إذا اتصلت بهاءً هبوطها عن ميم مركزها بذات الأجرع
عَلَقْتَ بها ثَاءُ الثَّقِيلِ، فَأَصْبَحْتَ بَيْنَ المعَالِمِ والطُّلُولِ الخُضْعِ
تَبْكِي وقد ذَكَرْتَ عَهودًا بالحمى بَمَدَامِ تَهْمِي، وَلَمَّا تُقْلِعِ
... إلخ إلخ إلخ

وقد قال المقتطف في الشاعرين بعد كلام طويل: «والاثنان جريا مجرى أفلاطون، في حسابان النفس روحًا كانت عند الخالق، ثم هبطت ودخلت جسم الإنسان، إلا أن أفلاطون تصوورها فرسًا مجنحة، غذاؤها الجمال والحكمة والصلاح، فلما هبطت فقدت جناحيها ودخلت جسم الإنسان. والفلاسفة يشعرون بشيء لا يستطيعون معرفته فيصفونه كما يتصورونه، ويجاريهم الشعراء في التصور، ويفوقونهم في الوصف».

ضُمِّي قِنَاعَكَ يَا سُعَادُ، أَوْ ارْفَعِي هَذِي الْمَحَاسِنُ مَا خُلِقْنَ لِبَرْقِعٍ^{٣٠٤}
الضاحياتُ، الضاحكاتُ، ودونها سِتْرُ الْجَلَالِ، وَبُعْدُ شَأْوِ الْمُطْلَعِ^{٣٠٥}
يَا دُمِيَّةٌ لَا يُسْتَزَادُ جَمَالُهَا زَيْدِيهِ حُسْنُ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ
ماذا على سلطانِه من وقفة لِلضَّارِعِينَ، وَعَظْفَةٍ لِلخُشْعِ؟
بل ما يضرِك لو سمحتِ بجلوة؟ إِنَّ الْعُرُوسَ كَثِيرَةَ الْمُتَطْلَعِ
ليس الحجابُ لَمَنْ يَعِزُّ مَنَالُهُ إِنَّ الْحَجَابَ لِهَيْئٍ لَمْ يَمْنَعِ
أَنْتِ الَّتِي اتَّخَذَ الْجَمَالَ لِعِزِّهِ مِنْ مَظْهَرٍ، وَلِسَرِهِ مِنْ مَوْضِعٍ^{٣٠٦}
وهو الصَّنَاعُ، يَصُوغُ كُلَّ دَقِيقَةٍ وَأَدَقُّ مِنْكَ بَنَانُهُ لَمْ تَصْنَعْ^{٣٠٧}
لمستكِ راحته، ومسكِ روحه فَأَتَى الْبَدِيعُ عَلَى مِثَالِ الْمُبْدِعِ
الله في الأحبار: مِنْ مُتَهَالِكِ بَضُو، وَمَهْتُوكِ الْمُسُوحِ مُصَرَّعٍ^{٣٠٨}
من كلِّ غَاوٍ فِي طَوِيَّةٍ رَاشِدِ عَاصِيِ الظَّوَاهِرِ فِي سَرِيرَةِ طَيِّعِ
يَتَوَهَّجُونَ وَيُطْفَأُونَ، كَأَنَّهُمْ سُرُجٌ بِمُعْتَرَكِ الرِّيَاحِ الْأَرْبَعِ
علموا، فضاقت بهم وَشَقَّ طَرِيقُهُمْ وَالْجَاهِلُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الْمَهْيَعِ
ذهب (ابن سينا)، لَمْ يَقْزُ بِكَ سَاعَةٌ وَتَوَلَّتْ الْحُكْمَاءُ، لَمْ تَتَمَتَّعِ
هذا مَقَامٌ، كُلُّ عِزٍّ دُونَهُ شَمْسُ النَّهَارِ بِمِثْلِهِ لَمْ تَطْمَعِ
(فمحمّد) لَكَ وَ(المسيح) تَرَجَّلَا وَتَرَجَّلَتْ شَمْسُ النَّهَارِ (لِيُوشَعَ)^{٣٠٩}
ما بَالُ (أحمد) عَيَّ عَنْكَ بَيَانُهُ؟ بَلْ مَا (لَعِيسَى) لَمْ يَقُلْ أَوْ يَدَّعِ؟

مِنْ جَانِبِكَ، عَلاجُهَا لَمْ يَنْجَعْ؟
ومشى على المَلَأِ السُّجُودِ الرُّكَّعِ^{٣١٠}
في (يوسف)، وَتَكَلَّمْتُ فِي الْمُرْضِعِ^{٣١١}
بِالْبَابِلِيِّ مِنَ الْبَيَانِ الْمُمْتِعِ^{٣١٢}
وَحَدَّثَهُ فِي قُلُلِ الْجِبَالِ اللَّمْعِ^{٣١٣}
رُفِعَ الرَّحِيقُ وَسِرُّهُ لَمْ يُرْفَعْ^{٣١٤}
أَتَرَعْنَ مِنْكَ، وَمَنْزِلًا لَمْ تُتَرَعْ
وَخَلِيَّةً مَعْمُورَةً (بِالْتَّبَعِ)^{٣١٥}
وَخَظِيرَةً مَحْرُومَةً لَمْ تَوَدَعْ^{٣١٦}
لَمْ تَخُلْ مِنْ بَصَرِ اللَّبِيبِ الْأَرْوَعِ
قَصَرَ الْحَيَاةِ، وَحَالَ وَشْكُ الْمَضْرَعِ
لَمْ تَحْسُنِ الدُّنْيَا، وَلَمْ تَتَرَعَّرَعْ^{٣١٧}
هُمْ حَائِطُ الدُّنْيَا، وَرَكْنُ الْمَجْمَعِ
شَاوُ (الرَّئِيسِ) وَكُلُّ صَاحِبِ مِبْضَعِ
فِي الْعَالَمِ الْمَتَفَاوِتِ الْمَتَنَوِّعِ

ولسانُ (موسى) انحلَّ، إِلَّا عَقْدَةً
لَمَّا حَلَلْتِ (بَادِم) حَلَّ الْحَبَا
وَأَرَى النُّبُوَّةَ فِي ذَرَاكِ تَكْرَمَتْ
وَسَقَتْ (قَرِيشَ) عَلَى لِسَانِ (مُحَمَّدٍ)
وَمَشَتْ (بِمُوسَى) فِي الظَّلَامِ مُشَرَّرًا
حَتَّى إِذَا طُويَتْ وَرِثَتْ خِلَالَهَا
قَسَمَتْ مَنَازِلَكَ الْحُظُوظُ: فَمَنْزِلًا
وَخَلِيَّةً بِالنَّحْلِ مِنْكَ عَمِيرَةً
وَخَظِيرَةً قَدْ أُودِعَتْ غُرَرَ الدُّمَى
نَظَرَ (الرَّئِيسُ) إِلَى كِمَالِكَ نَظْرَةً
فَرَأَاهُ مَنْزِلَةً تَعَرَّضَ دُونَهَا
لَوْلَا كِمَالُكَ فِي (الرَّئِيسِ) وَمِثْلِهِ
اللَّهُ ثَبَّتْ أَرْضَهُ بِدَعَائِمِ
لَوْ أَنَّ كُلَّ أَخِي يَرَاعُ بِالْغُ
زَهَبَ الْكِمَالُ سُدًى، وَضَاعَ مَحْلُهُ

فِي عَامِرٍ، وَأَشِعَّةٌ فِي بَلَقَعِ
شَتَّى الْأَشِعَّةِ، فَالْتَقَتْ فِي الْمَرْجِعِ
دَكَا، وَمِثْلُكَ فِي الْمَنَازِلِ مَا نَعِي
وَبَكَتْ فِرَاقُكَ بِالدُّمُوعِ الْهُمَّعِ^{٣١٨}
تَصِلُ الْحَبَالُ، وَلِيَّتْهَا لَمْ تَقْطَعْ
بِيدِ الشَّبَابِ عَلَى الْمَشِيبِ مُرْقَعِ
ثُوبُ الْمَمْتَلِّ، أَوْ لِبَاسُ الْمَرْفَعِ؟^{٣١٩}
وَالْخَزُّ أَكْفَانُ إِذَا لَمْ يُنْزَعْ
لَكِنَّ مَنْ يَرِدُ الْقِيَامَةَ يَفْزَعُ^{٣٢٠}
أَنَّ السَّفِينَةَ أَقْلَعَتْ فِي الْأَدْمَعِ
مَوْمٌ، وَلَا عَهْدُ الْهَوَى بِمُضَيِّعِ

يَا نَفْسُ، مِثْلُ الشَّمْسِ أَنْتِ: أَشِعَّةٌ
فَإِذَا طَوَى اللَّهُ النَّهَارَ تَرَاوَعَتْ
لَمَّا نُعِيَتْ إِلَى الْمَنَازِلِ غُودِرَتْ
ضَجَّتْ عَلَيْكَ مَعَالِمًا وَمَعَاهِدًا
أَذْنَبْتُهَا بَنَوًى، فَقَالَتْ: لَيْتَ لَمْ
وَرَدَّ جُثْمَانِ لِبَسْتِ مُرْقَمِ
كَمْ بِنْتُ فِيهِ، وَكَمْ خَفِيتِ، كَأَنَّهُ
أَسْتَمْتِ مِنْ دِيْبَاجِهِ، فَنَزَعْتَهُ؟
فَزِعَتْ وَمَا خَفِيتِ عَلَيْهَا غَايَةً
ضَرَعَتْ بِأَدْمُعِهَا إِلَيْكَ، وَمَا دَرَتْ
أَنْتِ الْوَفِيَّةُ، لَا الذَّمَامُ لَدَيْكَ مَذُ

أَزْمَعْتُ، فَاَنْهَلْتُ دَمَوْعِكَ رِقَّةً وَلَوْ اسْتَطَعْتَ إِقَامَةً لَمْ تُزْمِعِي
بَانَ الْأَحْبَةُ يَوْمَ بَيْنِكَ كُلَّهُم وَذَهَبْتَ بِالْمَاضِي وَبِالْمَتَوَقَّعِ

مَيْدَانُ الْكُونْكَورد

ميدان الكونكوردي (الوفاق) بباريز، وهو الذي أُعِدَّ فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنسية

أَمِيدَانِ الْوَفَاقِ، وَكُنْتَ تُدْعَى بِمِيدَانِ الْعَدَاوَةِ وَالشَّقَاقِ
أَتَدْرِي: أَيُّ ذَنْبٍ أَنْتَ جَان؟ وَأَيُّ دَمٍ ذَهَبْتَ بِهِ مُرَاقٍ؟
هَوَى فَيْكَ السَّرِيرُ وَمَنْ عَلَيْهِ وَمَاتَ الثَّائِرُونَ، وَأَنْتَ بَاقٍ
أَصَابُوا، وَاسْتَرَحَ (لُويْسُ) مِنْهُمْ لَذَا سُمِّيَتْ مَيْدَانُ الْوَفَاقِ

أَيُّهَا النَّيْلُ

إِلَى الْأَسْتَاذِ مَرْجَلِيوْتِ مَدْرَسِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَامِعَةِ أُكْسْفُورْدِ
أَيُّهَا الْأَسْتَاذُ الْكَرِيمُ:

تَذَكَّرْتُ «أَثِينَا» مَدِينَةَ الْحِكْمَةِ فِي الدُّهُورِ الْخَالِيَةِ، وَأَيَّامًا غَنَمْنَاهَا عَلَى رَسُومِهَا الْعَافِيَةِ، وَأَطْلَالِهَا الْبَالِيَةِ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْمُؤْتَمَرِ، عِلْمَاؤُهُ الْهَالَةِ، وَأَنْتَ الْقَمَرُ، أَوْ زُمَرُ الْحَجِيجِ وَأَنْتَ حَادِي الزُّمَرِ، وَأَرَى الْمُلُوكَ فِي الْحَفْرِ، بُنْيَانَهُمْ مَصْدُوعُ الْجُدْرِ، وَبَيْنَهُمْ نُورَ الْبَشَرِ، نَزَلْنَا بِهِمْ فَإِذَا الدُّولُ خَبِرَ، وَإِذَا الْمَمَالِكُ أَثَرُ، وَالطُّولُ شُغْلُ الْفَوَاكِدِ وَالْبَصَرِ، مَنَّا الْعِبَرَاتِ وَمِنْهَا الْعِبَرُ، صَمَتَ الْإِنْسَانِ وَنَطَقَ الْحَجَرِ، فَسَبْحَانَ الْعَزِيزِ الْمُقَدَّرِ الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ بِالْقَدَرِ. كَانَ ذَلِكَ وَالْحَوَادِثُ أَجْنَةً، وَالْأُمُورُ فِي أَحْسَنِ الْأَعْنَةِ، وَالْأَرْضُ بِالسَّلَامِ مَطْمَئِنَّةٌ، مَغْتَبِطَةٌ بِسَلَامَةِ الشَّبَابِ، مَنِبَسُطَةٌ بِتَلَقِّي الْأَحْبَابِ، وَالصَّفْوُ فِي الدَّارِ وَالْأَكْدَارُ بِالْبَابِ، ثُمَّ أَخَذَ اللَّهُ الْأُمَمَ بِذُنُوبِهِمْ فَرَمَاهُمْ بِعَوَانٍ فِي الْمَاءِ، ضَرَوْسٍ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، مَنُوهِمَةٍ بِالْأَمْوَالِ مُدْمِنَةٍ لِلدَّمَاءِ، نَزَلَتْ بِالْبَرِّيَّةِ فَعَصَفَتْ بِأَحْسَنِ شَبَابِهَا وَنَبَاتِهَا، وَنَقَضَتْ مَوْفُورَ أَمْنِهَا وَأَقْوَاتِهَا، وَهَتَكَتْ فِي الثَّرَى مَصُونِ رُفَاتِهَا، وَخَلَطَتْ فِي الْخَنَادِقِ أَحْيَاءَهَا

بأمواتها، وعدت على الوحش في فلواتها، وعلى الطير في وكناتها، وعلى الرياح في مخترقاتها، وعلى بلم^{٣٢١} البحار وأخواتها، وهوام القفار وحشراتنا. وعلى بيوت الله في ستراتنا، والنواقيس في قبابها، والمآذن في سماواتها، فسبحان الملك الأكبر، الذي يقهر ولا يقهر، ويغير ولا يتغير، والذي يقيم القيامة في ميقاتها. الشعر كالأحلام، تدخل على المسرور الكرى، وتكثر على المحزون في السرى. وقرينة الشاعر كعين صاحب الأيام، عندها للحن عبرة، وللسرور عبرة، وهذه أيها — الأستاذ الكريم — كلمة قيلت والهموم سارية، والأقدار بالمخاوف جارية، والدُموع متبارية، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية، نظمها تغنيًا بمحاسن الماضي، وتقييدًا لمآثر الآباء، وقضاءً لحق «النيل» الأسعد الأُمجد، ونسبها إليك، عرفانًا لفصلك على لغة العرب، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها، ونشر آدابها، وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروسًا نافعة على أنبل شباب العصر، في أعظم جامعات العالم، فلعلها تقع إليك، فنتذكر على النوى تلك الأيام، ونتنادم من بعد على بساط الأدب والكلام، ونسأل الله أن يحقق الدماء، ويقيم جدار السلام.

مَنْ أَيَّ عَهْدٍ فِي الْقُرَى تَتَدَفَّقُ؟
وبأيّ كفٍ في المدائن تُغْدِقُ؟
ومن السماء نزلت أم فُجِّرَتْ من
عليها الجنان جداولاً تترقرق؟
وبأيّ عين، أم بآية مُزَنَّةٍ^{٣٢٢}
أم أيّ طوفانٍ تفيض وتَفْهَقُ؟^{٣٢٣}
وبأيّ نولٍ^{٣٢٤} أنتَ ناسجٌ بُرْدَةٍ
للضفتين، جديدها لا يخلق؟^{٣٢٥}
تَسْوَدُّ رِيحًا إِذَا فَارَقَتْهَا
فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق^{٣٢٦}
في كل آونة تُبدّل صبغةً
عجبًا، وأنت الصابغ المُتأنق

أَتَتِ الدُّهُورُ عَلَيْكَ. مَهْدُكَ مُتَرَعٌ^{٣٢٧}
وَحِيَاضُكَ الشُّرُقُ^{٣٢٨} الشَّهِيَّةُ دَفَّقَ
تَسْقِي وَتُطْعِمُ، لَا إِنَّاؤَكَ ضَائِقُ
بِالْوَارِدِينَ، وَلَا خَوَانُكَ يَنْفُقُ^{٣٢٩}
وَالْمَاءُ تَسْكُبُهُ فَيُسْبِكُ عَسَجَدًا^{٣٣٠}
وَالْأَرْضُ تُغْرِقُهَا فَيَحْيَا الْمُغْرَقُ
تُعْيِي مَنَابِغُ الْعُقُولِ، وَيَسْتَوِي
مُتَخَبِّطٌ فِي عِلْمِهَا وَمُحَقِّقُ
أَخْلَقَتْ رَاووقَ^{٣٣١} الدُّهُورِ، وَلَمْ تَزَلْ
بِكَ حَمَاءُ^{٣٣٢} كَالْمَسْكِ، لَا تَتَرَوَّقُ^{٣٣٣}
حَمْرَاءُ فِي الْأَحْوَاضِ، إِلَّا أَنَهَا
بِيضَاءُ فِي عُنُقِ الثَّرَى تَتَأَلَّقُ
بَيْنَ الْأَوَائِلِ فَيْكَ بَيْنَ مُرْوَةِ
لِمَ لَا يُوَلِّهِ مَنْ يَقُوتُ وَيَرْزُقُ؟
لَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا يُوَلِّهِ لَمْ تَكُنْ
لِسَوَاكَ مَرْتَبَةُ الْأُلُوهَةِ تَخْلُقُ^{٣٣٤}
جَعَلُوا الْهَوَى لَكَ وَالْوَقَارَ عِبَادَةً
إِنَّ الْعِبَادَةَ خَشِيَّةٌ وَتَعَلُّقُ
دَانُوا بِبَحْرِ بِالْمَكَارِمِ زَاخِرِ
عَذَبِ الْمَشَارِعِ، مَدُّهُ لَا يُلْحَقُ
مُتَقَيِّدٌ بَعْهُودِهِ وَوُعُودِهِ
يَجْرِي عَلَى سَنَنِ الْوَفَاءِ وَيَصْدُقُ^{٣٣٥}
يَتَقَبَّلُ الْوَادِي الْحَيَاةَ كَرِيمَةً
مَنْ رَاخَتِيكَ عَمِيقَةً تَتَدَفَّقُ
مَتَقَلَّبُ الْجَنْبَيْنِ فِي نَعْمَائِهِ
يَغْرَى وَيُصْبَغُ فِي نَدَاكَ فَيُورِقُ

الشوقيات

فِي بَيْتٍ خُصْبًا فِي ثَرَاهُ وَنِعْمَةٍ
وَيَعُمُّهُ مَاءُ الْحَيَاةِ الْمَوْسِقِ ٣٣٦
وَإِلَيْكَ - بَعْدَ اللَّهِ - يَرْجِعُ تَحْتَهُ
مَا جَفَّ، أَوْ مَا مَاتَ، أَوْ مَا يَنْفَقُ ٣٣٧

* * *

أَيْنَ الْفِرَاعِنَةُ الْأُولَى اسْتَذْرَى ٣٣٨ بِهِمْ
(عَيْسَى)، وَ(يُوسُفُ) وَ(الْكَلِيمُ) الْمُصْعَقُ؟
الْمُورِدُونَ النَّاسَ مَنْهَلٍ ٣٣٩ حِكْمَةٍ
أَفْضَى إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ لِيَسْتَقُوا
الرَّافِعُونَ إِلَى الضَّحَى آبَاءَهُمْ
فَالشَّمْسُ أَصْلُهُمُ الْوَضِيءُ الْمُعْرِقُ ٣٤٠
وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْبَلَى وَقَبُورِهِمْ
عَهْدٌ عَلَى أَنْ لَا مِسَاسَ، وَمَوْثِقُ
فَحْجَابُهُمْ تَحْتَ الثَّرَى مِنْ هَيْبَةٍ
كَحِجَابِهِمْ فَوْقَ الثَّرَى لَا يُخْرِقُ
بَلَّغُوا الْحَقِيقَةَ مِنْ حَيَاةِ عِلْمِهَا
حُجُبٌ مُكَثَّفَةٌ، وَسِرٌّ مُغْلَقُ
وَتَبَيَّنُوا مَعْنَى الْوُجُودِ، فَلَمْ يَرَوْا
دُونَ الْخُلُودِ سَعَادَةً تَتَحَقَّقُ
يَبْنُونَ لِلدُّنْيَا كَمَا تَبْنِي لَهُمْ
خِرْبًا، غَرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
فَقُصُورُهُمْ، كُؤُخٌ، وَبَيْتٌ بَدَاوَةٍ
وَقَبُورُهُمْ، صَرْخُ أَشْمٍ، وَجَوْسِقُ ٣٤١
رَفَعُوا لَهَا مِنْ جَنْدَلٍ وَصَفَائِحِ
عَمْدًا، فَكَانَتْ حَائِطًا لَا يُنْتَقُ ٣٤٢
تَتَشَايَعُ الدَّارَانِ فِيهِ: فَمَا بَدَا
دُنْيَا، وَمَا لَمْ يَبْدُ أُخْرَى تَصْدُقُ

لِلْمَوْتِ سِرٌّ تَحْتَهُ، وَجِدَارُهُ
سُورٌ عَلَى السِّرِّ الْخَفِيِّ، وَخَنْدَقٌ
وَكَأَنَّ مَنْزِلَهُمْ بِأَعْمَاقِ الثَّرَى
بَيْنَ الْمَحَلَّةِ^{٣٤٣} وَالْمَحَلَّةِ، فُنْدُقُ
مَوْفُورَةٌ تَحْتَ الثَّرَى أَزْوَادُهُمْ^{٣٤٤}
رَحَّبَ بِهِمْ بَيْنَ الْكَهَوفِ الْمُطْبِقِ^{٣٤٥}

وَلِمَنْ هِيَ أَكَلٌ قَدْ عَلَا الْبَانِي بِهَا
بَيْنَ الثَّرِيَّا وَالثَّرَى تَتَنَسَّقُ^{٣٤٦}
مِنْهَا الْمُشَيِّدُ كَالْبُرُوجِ، وَبَعْضُهَا
كَالطَّوْدِ مُضْطَّجِعٌ أَشْمُ مُنْطَقِ^{٣٤٧}
جُدُدٌ كَأَوَّلِ عَهْدِهَا، وَجِيَالُهَا
تَتَقَادِمُ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ وَتَعْتَقُ^{٣٤٨}
مِنْ كُلِّ ثَقَلٍ كَاهِلُ الدُّنْيَا بِهِ
تَعِبٌ، وَوَجْهُ الْأَرْضِ عَنْهُ ضَيِّقٌ
عَالٍ عَلَى بَاعِ الْبِلَى، لَا يَهْتَدِي
مَا يَعْتَلِي مِنْهُ وَمَا يَتَسَلَّقُ
مُتَمَكِّنٌ كَالطَّوْدِ أَصْلًا فِي الثَّرَى
وَالْفَرْعُ فِي حَرَمِ السَّمَاءِ مُحَلَّقٌ
هِيَ مَنْ بِنَاءِ الظُّلَمِ، إِلَّا أَنَّهُ
يَبْيَضُ وَجْهُ الظُّلَمِ مِنْهُ وَيُشْرِقُ
لَمْ يُرْهِقِ الْأَمَمَ الْمَلُوكُ بِمِثْلِهَا
فَخَرًّا لَهُمْ يَبْقَى وَذَكَرًا يَغْبَقُ
فُتِنَتْ بِشَطَطِيكَ الْعِبَادُ، فَلَمْ يَزَلْ
قَاصٍ يَحُجُّهُمَا، وَدَانٍ يَرْمُقُ

وتضوّعتِ مِسْكُ الدُّهُورِ، كأنما
 في كلّ ناحيةٍ بخورٌ يُحرقُ
 وتقابلتُ فيها على السُّرْرِ الدُّمى^{٣٤٩}
 مُسْتَرْدِيَاتِ^{٣٥٠} الذِّلَّ لا تَتَفَنَّقُ^{٣٥١}
 عَطَلَتْ،^{٣٥٢} وكان مكانهنّ من العلى
 (بِلَقِيْسُ) تَقِيْسُ من حلاه وتَسْرِقُ
 وعلا عليهن الترابُ، ولم يكن
 يَرْكُو بهنّ سوى العبير^{٣٥٣} ويلَبَقُ^{٣٥٤}
 حُجْرَاتُهَا مَوْطُوَّةً، وستورُها
 مَهْتَوَكَةٌ، بيدِ البلى تَتَخَرَّقُ
 أَوْدَى بزينتها الزَّمانُ وحليها
 والحسنُ باقٍ والشبابُ الرِّيَقُ^{٣٥٥}
 لو رُدَّ فِرْعَوْنُ الغداة، لراعته
 أنّ الغرانيق^{٣٥٦} العلى لا تَنطِقُ
 خلع الزمانُ على الورى أيامه
 فإذا الضُّحى لك حصّةٌ والرُّونقُ
 لك من مواسمه ومن أعياده
 ما تَحْسِرُ^{٣٥٧} الأبصارُ فيه وتَبْرَقُ
 لا (الفرسُ) أوتوا مثله يومًا، ولا
 (بغدادُ) في ظلِّ (الرشيد) و(جِلَقُ)^{٣٥٨}
 فَتَحُ الممالك، أو قِيَامُ (العِجَلِ)، أو
 يومُ القبور، أو الزفافُ المُونِقُ؟
 كم موكبٍ تَتَخَايَلُ الدُّنيا به
 يُجَلَى كما تُجَلَى النجومُ ويُنسَقُ!
 (فرعونُ) فيه من الكتائبِ مُقْبِلُ
 كالسُّحْبِ، قَرْنُ الشمسِ منها مُفَتِّقُ^{٣٥٩}
 تَعْنُو^{٣٦٠} لعزّته الوجوه، ووجهه
 للشمسِ في الآفاقِ عانٍ مُطْرِقُ

آبَتْ مِنْ السَّفَرِ الْبَعِيدِ جَنُودُهُ
 وَأَتَتْهُ بِالْفَتْحِ السَّعِيدِ الْفَيْلَقُ ٣٦١
 وَمَشَى الْمُلُوكُ مُصَقِّدِينَ، خَدُودَهُمْ
 نَعْلٌ لِفِرْعَوْنَ الْعَظِيمِ وَنُفْرُقُ ٣٦٢
 مَمْلُوكَةٌ أَعْنَاقُهُمْ لِيَمِينِهِ
 يَأْبَى فَيَضْرِبُ، أَوْ يَمُنُّ فَيُعْتِقُ
 وَنَجِيبَةٌ بَيْنَ الطَّفُولَةِ وَالصَّبَا
 عِذَاءً، تَشْرِبُهَا الْقُلُوبُ وَتَعْلَقُ
 كَانَ الزَّفَافُ إِلَيْكَ غَايَةً حَظَّهَا
 وَالْحِظُّ إِنْ بَلَغَ النِّهَايَةَ مُوَبِقُ ٣٦٣
 لَأَفَيْتَ أَعْرَاسًا، وَلَافَتْ مَأْتَمًا
 كَالشَّيْخِ يَنْعَمُ بِالْفَتَاةِ وَتَزْهَقُ
 فِي كُلِّ عَامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بِلا
 ثَمَنِ إِلَيْكَ، وَحُرَّةٌ لَا تُصَدَّقُ ٣٦٤
 حَوْلُ ٣٦٥ تُسَائِلُ فِيهِ كُلُّ نَجِيبَةٍ
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ: مَتَى يَحُولُ فَتَلْحَقُ؟
 وَالْمُجْدُ عِنْدَ الْغَانِيَاتِ رَغِيبَةٌ
 يُبْغَى كَمَا يُبْغَى الْجَمَالُ وَيُغْشَقُ
 إِنْ زَوَّجَكَ بِهِنَّ فَهِيَ عَقِيدَةٌ
 وَمِنْ الْعَقَائِدِ مَا يَلْبُ ٣٦٦ وَيَحْمُقُ
 مَا أَجْمَلَ الْإِيمَانَ!! لَوْلَا ضَلَّةٌ
 فِي كُلِّ دِينٍ بِالْهَدَايَةِ تُلْصَقُ
 زُفَّتْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ يَحُثُّهَا
 دِينَ، وَيَذْفَعُهَا هَوًى وَتَشَوُّقُ
 وَلِرُبَّمَا حَسَدَتْ عَلَيْكَ مَكَانَهَا
 تَرِبُ ٣٦٧ تَمَسَّحُ بِالْعُرُوسِ وَتُحْدِقُ
 مَجْلُوءَةٌ فِي الْفُلْكِ يَحْدُو ٣٦٨ فُلْكَهَا
 بِالشَّاطِئِينَ مُزْغَرِدُ وَمُصَفَّقُ

فِي مَهْرَجَانٍ هَزَّتِ الدُّنْيَا بِهِ
 أَعْطَافَهَا، وَاخْتَالَ فِيهِ الْمَشْرِقُ
 فَرَعُونَ تَحْتَ لَوَائِهِ، وَبَنَاتُهُ
 يَجْرِي بِهِنَّ عَلَى السَّفِينِ الزُّورَقِ
 حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُوَاقِبُهَا الْمَدَى
 وَجَرَى لَهَايَتَهُ الْقَضَاءُ الْأَسْبَقُ
 وَكَسَا سَمَاءَ الْمَهْرَجَانِ جَلَالَةً
 سَيْفُ الْمَنِيَةِ وَهُوَ صَلَتْ^{٣٦٩} يَبْرُقُ
 وَتَلَفَّتْ فِي الْيَمِّ كُلِّ سَفِينَةٍ
 وَانْثَالَ^{٣٧٠} بِالْوَادِي الْجَمُوعُ وَحَدَّقُوا
 أَلَقَتْ إِلَيْكَ بِنَفْسِهَا وَنَفِيسَهَا
 وَأَتَتْكَ شَيْقَةً حَوَاهَا شَيْقُ
 خَلَعَتْ عَلَيْكَ حَيَاءَهَا وَحَيَاتَهَا
 أَلْعَزُّ مِنْ هَذِينَ شَيْءٌ يُنْفَقُ؟
 وَإِذَا تَنَاهَى الْحَبُّ وَاتَّفَقَ الْفِدَى
 فَالرُّوحُ فِي بَابِ الضَّحِيَّةِ أَلْيَقُ
 مَا الْعَالَمُ السُّفْلِيُّ إِلَّا طِينَةٌ
 أَزَلِيَّةٌ^{٣٧١} فِيهِ تُضَيُّ وَتَغْشَقُ^{٣٧٢}
 هِيَ فِيهِ لِلْخَضْبِ الْعَمِيمِ خَمِيرَةٌ
 يَنْدَى بِمَا حَمَلَتْ إِلَيْهِ، وَيَبْتُقُ^{٣٧٣}
 مَا كَانَ فِيهَا لِلزِّيَادَةِ مَوْضِعُ
 وَإِلَى حَمَاهَا النِّقْصُ لَا يَتَطَرَّقُ
 مُنْبِئَةٌ فِي الْأَرْضِ، تَنْتَظِمُ الثَّرَى
 وَتَنَالُ مِمَّا فِي السَّمَاءِ، وَتَعْلَقُ
 مِنْهَا الْحَيَاةَ لَنَا، وَمِنْهَا ضِدُّهَا
 أَبَدًا نَعُودُ لَهَا، وَمِنْهَا نُخْلَقُ
 وَالزَّرْعُ سُنْبُلُهُ يَطِيبُ، وَحَبُّهُ
 مِنْهَا، فَيُخْرِجُ نَا، وَهَذَا يُفْلَقُ

وَتَشْدُ بَيْتَ النَحْلِ، فَهُوَ مُطَنَّبٌ
وَتَمْدُ بَيْتَ النَمْلِ، فَهُوَ مَرُوقٌ
وَتَظَلُّ بَيْنَ قَوَى الْحَيَاةِ، جَوَائِلًا
لَا تَسْتَقِرُّ، دَوَائِلًا لَا تُمَحَقُّ ٣٧٤
هِيَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْقَدِيرِ، وَرُوحُهُ
فِي الْكَائِنَاتِ، وَسِرُّهُ الْمَسْتَغْلِقِ
فِي النَّجْمِ وَالْقَمَرَيْنِ مَظْهَرُهَا، إِذَا
طَلَعَتْ عَلَى الدُّنْيَا، وَسَاعَةً تَخْفُقُ
وَالذَّرُّ ٣٧٥ وَالصَّخَرَاتُ مِمَّا كَوَّرَتْ
وَالْفِيلُ مِمَّا صَوَّرَتْ، وَالْخَزْنِقُ ٣٧٦
فَتَنَّتْ عَقُولَ الْأُولَيْنِ، فَأَلَّهُوا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَا يَرُوعُ وَيَخْرُقُ
سَجَدُوا لِمَخْلُوقٍ، وَظَنُّوا خَالِقًا
مَنْ ذَا يُمَيِّزُ فِي الظَّلَامِ وَيَفْرِقُ؟
دَانَتْ (بَابَيْسَ) الرَعِيَّةُ كُلُّهَا
مَنْ يَسْتَغْلُ الْأَرْضَ، أَوْ مَنْ يَعْزُقُ
جَاءُوا مِنَ الْمَرْعَى بِهِ يَمْشِي، كَمَا
تَمْشِي وَتَلْتَفِتُ الْمِهَاءُ وَتَرْشِقُ
دَاجٍ كَجَنَحِ اللَّيْلِ زَانَ جَبِينَهُ
وَضَحَّ عَلَيْهِ مِنَ الْأَهْلَةِ أَشْرَقَ ٣٧٧
الْعَسْجَدُ ٣٧٨ الْوَهَّاجُ وَشَيْ جَلَالِهِ
وَالْوَرْدُ مَوْطِئُ خَفِّهِ، وَالزَّنْبِقُ ٣٧٩
وَمِنَ الْعَجَائِبِ بَعْدَ طَوْلِ عِبَادَةٍ
يُؤْتَى بِهِ حَوْضَ الْخُلُودِ فَيُغْرَقُ
يَا لَيْتَ شِعْرِي: هَلْ أَضَاعُوا الْعَهْدَ، أَمْ
حَذَرُوا مِنَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ وَأَشْفَقُوا؟

قَوْمٌ وَقَارُ الدِّينِ فِي أَخْلَاقِهِمْ
 وَالشَّعْبُ مَا يَعْتَادُ أَوْ يَتَخَلَّقُ
 يَدْعُونَ خَلْفَ السُّتْرِ آلِهَةً لَهُمْ
 مَلَأُوا النَّدِيَّ جَلَالَةً، وَتَأَبَّقُوا^{٣٨٠}
 وَاسْتَحْجَبُوا^{٣٨١} الْكُھَّانَ، هَذَا مُبْلَغُ
 مَا يَهْتَفُونَ بِهِ، وَذَاكَ مُصَدِّقُ
 لَا يُسْأَلُونَ إِذَا جَرَتْ أَلْفَاظُهُمْ
 مِنْ أَيْنَ لِلْحَجَرِ اللِّسَانُ الْأَذْلَقُ؟
 أَوْ كَيْفَ تَخْتَرِقُ الْغُيُوبَ بِهَيْمَةٍ
 فِيمَا يَنْوِبُ مِنَ الْأُمُورِ وَيَطْرُقُ؟
 وَإِذَا هُمُ حَجُّوا الْقُبُورَ حَسِبْتَهُمْ
 وَفَدَ (الْعَتِيقِ)^{٣٨٢} بِهِمْ تَزَامَى الْإِنْتِقُ^{٣٨٣}
 يَأْتُونَ (طَيِّبَةً) بِالْهَدْيِ^{٣٨٤} أَمَامَهُمْ
 يَغْشَى الْمَدَائِنَ وَالْقُرَى وَيُطَبِّقُ
 فَالْبَرْ مُشْدُودُ الزَّوَاهِلِ مُخَدَّجٌ^{٣٨٥}
 وَالْبَحْرُ مَمْدُودُ الشَّرَاعِ مُوسَّقُ
 حَتَّى إِذَا أَلْقَوْا بِهِيْكَلَهَا الْعَصَا
 وَفُّوا النَّذُورَ، وَقَرَّبُوا، وَاصَّدَّقُوا
 وَجَرَتْ زَوَارِقُ بِالْحَجَّيْجِ، كَأَنَّهَا
 رُقُطٌ تَدَافِعُ، أَوْ سِهَامٌ تَمْرُقُ^{٣٨٦}
 مِنْ شَاطِئٍ فِيهِ الْحَيَاةُ لَشَاطِئِ
 هُوَ مُضْجَعٌ لِلْسَابِقِينَ وَمِرْفَقُ^{٣٨٧}
 غَرَبُوا غُرُوبَ الشَّمْسِ فِيهِ، وَاسْتَوَى
 شَاةٌ وَرُخٌّ^{٣٨٨} فِي التَّرَابِ وَبَيْدَقُ^{٣٨٩}
 حَيْثُ الْقُبُورُ عَلَى الْفَضَاءِ كَأَنَّهَا
 قِطْعُ السَّحَابِ، أَوْ السَّرَابُ الدَّيْسَقُ^{٣٩٠}
 لِلْحَقِّ فِيهِ جَوْلَةٌ، وَلَهُ سَنًا
 كَالصَّبْحِ مِنْ جَنَابَاتِهَا يَتَفَلَّقُ

نزلوا بها فمشى الملوكُ كرامةً
وجثا المُدِلُّ بماله والمُمْلَقُ^{٣٩١}
ضاقت بهم عَرَصَاتُهَا. فكأنما
رَدَّتْ ودائعُهَا الفلاةَ الفَيْهَقُ^{٣٩٢}
وتَنَادَمَ الأحياءُ والموتى بها
فكأنهم في الدَّهرِ لم يتفرَّقوا

أصلُ الحضارةِ في صَعِيدِكَ ثَابِتٌ
ونَبَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيْكَ مُخَلَّقُ^{٣٩٣}
وُلِدَتْ. فكنْتَ المَهْدَ، ثم ترعرعتُ
فأظَلَّهَا مِنْكَ الحَفِيُّ المُشْفِقُ
ملأتُ ديارَكَ حكمةً، مَأْثُورُهَا
في الصخرِ والبرديِّ الكريمِ مُنْبَقُ^{٣٩٤}
وَبَنَنْتُ بيوتَ العلمِ بانحةَ الذرى
يسعى لهنَّ مُغْرَبٌ ومُشَرَّقُ
واستحدثتُ دينًا، فكان فضائلًا
وبِنَاءَ أخلاقٍ يطول وَيَشْهَقُ^{٣٩٥}
مَهْدَ السَّبِيلِ لكلِّ دِينَ بعده
كالمسكِ رِيَّاهُ بأخرى تُفْتَقُ^{٣٩٦}
يدعو إلى بَرٍّ، ويرفعُ صَالِحًا
ويَعَافُ ما هو للمروءةِ مُخْلِقُ
للناسِ من أسرارِهِ ما عُلِّمُوا
ولشُعْبَةِ الكَهَنوتِ ما هو أَعْمَقُ
فيه محلٌّ للأقانييمِ^{٣٩٧} العُلَى
ولجامعِ التوحيدِ فيه تَعَلَّقُ
تابوتُ موسى، لا تزالُ جلالَةً
تبدو عليك له، ورِيًّا تُنْشَقُ^{٣٩٨}

وجمالُ يوسفَ، لا يزالُ لواءُهُ
 حَوْلِيكَ فِي أَفْقِ الْجَلالِ يُرْنَقُ^{٣٩٩}
 ودموعُ إخوته، رسائلُ توبةٍ
 مَسْطُورُهُنَّ بِشَاطِئِيكَ مُنَمَّقُ
 وصلاةُ مريمَ، فوقَ زرعكَ لم يزل
 يَزْكُو لذكراها النباتَ وَيَسْمُقُ^{٤٠٠}
 وَخَطَى المسيحَ عَلَيْكَ رَوْحًا طَاهِرًا
 بَرَكَاتُ رَبِّكَ، وَالنَّعِيمُ الْغَيْدَقُ^{٤٠١}
 وودائعُ (الفاروقِ)^{٤٠٢} عندكَ، دينه
 وَلِوَاؤُهُ، وَبَيَانُهُ، وَالْمَنْطِقُ
 بَعَثَ الصَّاحِبَةَ يَحْمِلُونَ مِنَ الْهَدْيِ
 وَالْحَقُّ مَا يُحْيِي الْعُقُولَ وَيَفْتَقُ
 فَتَحُ الْفَتْوحَ، مِنَ الْمَلَائِكِ رَزْدَقُ^{٤٠٣}
 فِيهِ، وَمَنْ (أَصْحَابِ بَدْرِ) رَزْدَقُ
 يَبْنُونَ لِلَّهِ الْكَنَانَةَ بِالْقَنَا
 وَاللَّهُ مِنْ حَوْلِ الْبِنَاءِ مُوَفَّقُ
 أَحْلَاسُ^{٤٠٤} خَيْلٍ، بَيِّدُ أَنْ حَسَامَهُمْ
 فِي السَّلْمِ مِنْ حَذْرِ الْحَوَادِثِ مُفْلَقُ
 تُطَوِّي الْبِلَادَ لَهُمْ، وَيُنْجِدُ جَيْشَهُمْ
 جَيْشُ مِنَ الْأَخْلَاقِ غَازِ مُورِقِ^{٤٠٥}
 فِي الْحَقِّ سُلٌّ وَفِيهِ أُغْمِدَ سَيْفُهُمْ
 سَيْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الْجَهَالَةِ يَفْرَقُ^{٤٠٦}
 وَالْفَتْحُ بَغْيِي لَا يَهْوَنُ وَقَعَهُ
 إِلَّا الْعَفِيفُ حَسَامُهُ، الْمَتَرَفُّقُ
 مَا كَانَتْ «الْفُسْطَاطُ» إِلَّا حَائِطًا
 يَأْوِي الضَّعِيفُ لِرُكْنِهِ وَالْمُرْهَقُ
 وَبِهِ تَلَوُذُ الطَّيْرِ فِي طَلَبِ الْكَرَى
 وَيَبِيتُ «قَيْصَرُ» وَهُوَ مِنْهُ مُؤَرَّقُ

«عَمَّرُو» على شطب^{٤٠٧} الحَصِيرِ مُعَصَّب^{٤٠٨}

بِقِلَادَةِ اللّٰهِ الْعَلِيِّ مَطَوَّقٌ
يدعو له «الحاخام» في صلواته
(موسى). ويسأل فيه عيسى البَطْرَقُ
يا نيلُ، أَنْتَ بطيب ما نَعَتَ «الهدى»
وبمَذْحَةِ (التوراة) أُخْرِىَ أَخْلَقَ
وإِلَيْكَ يُهْدِي الْحَمْدَ خَلَقَ حَازِمَ
كَنَفَ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ مُرَهَّق^{٤٠٩}
كَنَفَ «كَمَعِنِ»، أَوْ كَسَاحَةِ «حَاتِمِ»
خَلَقَ يُودِّعُهُ، وَخَلَقَ يَطْرُقُ
وعليك تُجَلَّى مِنْ مَصُونَاتِ النُّهَى
خَوْدُ، عَرَائِسُ. خِذْرَهْنَ الْمُهْرَقِ^{٤١٠}
الدَّرُّ فِي لَبَّاتِهِنَّ^{٤١١} مُنَظَّمُ
وَالطَّيِّبُ فِي حَبْرَاتِهِنَّ مُرَقَّرَقُ
لِي فِيكَ مَذْحٌ لَيْسَ فِيهِ تَكْلُفُ
أَمْلَاهُ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّقُ
مِمَّا يُحْمَلُنَا الْهُوَى لَكَ أَفْرُخُ
سَنْطِيرِ عَنْهَا، وَهِيَ عِنْدَكَ تُرْزَقُ
تَهْفُو إِلَيْهِمْ فِي التُّرَابِ قُلُوبُنَا
وَتَكَادُ فِيهِ بِغَيْرِ عِرْقٍ تَخْفُقُ
تُرْجَى لَهُمْ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
مَنَا وَمَنْكَ بِهِمْ أَبَرُّ وَأَرْفَقُ
فَاحْفَظْ وَدَائِعَكَ الَّتِي اسْتَوْدِعْتَهَا
أَنْتَ الْوَفِيُّ إِذَا أَوْتَمَنْتَ الْأَصْدَقُ
لِلْأَرْضِ يَوْمَ، وَالسَّمَاءِ قِيَامَةً
وَقِيَامَةً «الْوَادِي» غَدَاةَ تَحْلُقُ^{٤١٢}

نَكْبَةُ دِمَشْق

قيلت في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سوريا بتياترو وحديقة الأزبكية في يناير سنة ١٩٢٦

سلامٌ من صَبا (بَرَدَى) ٤١٣ أرقُّ
ومعذرة اليَرَاعة والقوافي
وذكرى عن خواطرها لقلبي
وبي مما رَمَتْكَ به الليالي
دخلتك والأصيل له ائتلاقٌ ٤١٦
وتحت جنانك الأنهار تجري
وحولي فتية غُرَّ صباحُ
على لهواتهم ٤١٨ شعراء لُسُنُ ٤١٩
رِوَاة قصائدي، فاعجب لشعر
غَمَزْتُ إِبَاءَهُمْ حتى تلظَّتْ
وضجَّ من الشَّكِيمَةِ ٤٢٣ كلُّ حُرٍّ

ودمعٌ لا يُكْفَكُفُ يا دِمَشْقُ
جلال الرُّزْءِ ٤١٤ عن وَصْفِ يَدُقْ
إليك تَلَفْتُ أبداً وَخَفَّقُ ٤١٥
جراحات لها في القلب عُمُق
ووجهك ضاحكُ القسماتِ طَلَق
وملء رُباك أوراقٌ ووُزُقُ ٤١٧
لهم في الفضل غاياتٌ وسَبَق
وفي أعطافهم خُطباءُ شُدُقُ ٤٢٠
بكلِّ محلَّة يَرْوِيهِ خَلْق
أنوفُ الأسدِ واضطرمَّ ٤٢١ المَدَقُ ٤٢٢
أبي من أُمَيَّة فيه عِتْقُ ٤٢٤

لحاها الله أنباءً توالَتْ
يُفْصِّلُهَا ٤٢٦ إلى الدنيا بَرِيدُ
تكاذُ لروعة الأحداثِ ٤٢٨ فيها
وقيل: معالمُ التاريخ دُكَّتْ
ألسِتْ - دِمَشْقُ - للإسلام ظَنَرًا ٤٢٩
صلاحُ الدين، تاجك لم يُجَمَّلْ
وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالتْ
سماؤك من حُلَى الماضي كتابُ
بنيَتْ الدولة الكبرى ومُلْكا
له بالشامِ أعلامٌ وغُرُسُ

على سَمْعِ الوليِّ بما يَشُقُّ ٤٢٥
ويُجَمِّلُهَا إلى الآفاق بَرَقُ ٤٢٧
تخال من الخُرافَةِ وَهْي صِدْق
وقيل: أصابها تلفٌ وَحَرَق
ومُرْضَعَةُ الأَبُوَّة لا تُعَوِّقُ؟
ولم يُوسَمِ بأزين منه فَرَق
لها من سَرَجِك العُلُويِّ عِرْقُ ٤٣٠
وأرضك من حلى التاريخ رَقُ ٤٣١
غبارُ حضارتَيْهِ لا يُشَقُّ
بشائره بأندلسٍ تَدَقُ

أَحَقُّ أَنَّهَا دَرَسَتْ؟ أَحَقُّ؟
 وهل لنعيمهن كَأَمْسٍ نَسَقُ؟
 مُهَتَّكَةً، وَأَسْتَارَ تُشَقُّ
 وَخَلَفَ الْأَيْكَ أَفْرَاخُ تُزَقُّ
 أَتَتْ مِنْ دُونِهِ لِلْمَوْتِ طُرُقُ
 وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفُ، وَصَعُقُ
 عَلَى جَنْبَاتِهِ، وَاسْوَدَّ أَفَقُ
 أَبْيَنَ فَوَائِدِهِ وَالصَّخْرِ فَرْقُ؟
 قُلُوبٌ كَالْحَجَارَةِ، لَا تَرِقُ
 أَخُو حَرْبٍ، بِهِ صَلَفُ، وَخُمُقُ
 يَقُولُ: عَصَابَةٌ خَرَجُوا وَشَقُّوا
 وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نَوْرٌ، وَحَقُّ
 كَمُنْهَلُ السَّمَاءِ، وَفِيهِ رِزْقُ^{٤٣٦}
 وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمْ لِيَبْقُوا
 فَكَيْفَ عَلَى قَنَاها تُسْتَرَقُّ؟^{٤٣٧}
 وَأَلْقُوا عَنْكُمْ الْأَحْلَامَ، أَلْقُوا
 بِالْقَابِ الْإِمَارَةِ وَهِيَ رِقُّ^{٤٣٨}
 كَمَا مَالَتْ مِنَ الْمَصْلُوبِ عُنُقُ
 وَلَا يَمْضِي لِمَخْتَلِفِينَ فَتَقُ
 وَلَكِنْ كُلُّنَا فِي الْهَمِّ شَرِقُ
 بَيَانٌ غَيْرُ مُخْتَلَفٍ وَنُطْقُ
 فَإِنْ رَمْتُمْ نَعِيمَ الدَّهْرِ فَاشْقُوا
 يَدُ سَلَفَتْ وَدَيْنُ مُسْتَجِقُ
 إِذَا الْأَحْرَارُ لَمْ يُسْقُوا وَيَسْقُوا؟
 وَلَا يُدْنِي الْحَقُوقَ وَلَا يُحِقُّ

رِبَاعُ الْخَلْدِ - وَيَحْكُ - مَا دَهَاها؟
 وهل غُرِفُ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتُ^{٤٣٢}؟
 وَأَيْنَ دُمِّي^{٤٣٣} الْمَقَاصِرُ^{٤٣٤} مِنْ جِبَالٍ
 يَرَزْنَ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكَ نَارُ
 إِذَا رُمْنَ السَّلَامَةُ مِنْ طَرِيقِ
 بَلِيلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
 إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ، احْمَرَّ أَفَقُ
 سَلِي مَنْ رَاعَ غَيْدَكَ بَعْدَ وَهْنٍ^{٤٣٥}
 وَلِلْمُسْتَعْمَرِينَ - وَإِنْ أَلَانُوا -
 رِمَاكِ بَطْيُشِهِ، وَرَمَى فَرَنْسَا
 إِذَا مَا جَاءَهُ طُلَّابُ حَقِّ
 دَمِ الثَّوَارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا
 جَرَى فِي أَرْضِهَا، فِيهِ حَيَاةُ
 بِلَادٍ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا
 وَحُرِّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاها
 بَنِي سَوْرِيَّةَ، اطَّرَحُوا الْأَمَانِي
 فَمِنْ خِدَعِ السِّيَاسَةِ أَنْ تُغَرُّوا
 وَكَمْ صَيِّدُ^{٤٣٩} بَدَا لَكَ مِنْ ذَلِيلِ
 فُتُوقِ الْمَلِكِ تَحَدُّتْ ثُمَّ تَمْضِي
 نَصَحَتْ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارًا
 وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلَادُ
 وَقَفْتُمْ بَيْنَ مَوْتٍ أَوْ حَيَاةِ
 وَلِلْأَوْطَانِ فِي دَمِ كُلِّ حُرٍّ
 وَمَنْ يَسْقِي وَيَشْرَبُ بِالْمَنَايَا
 وَلَا يَبْنِي الْمَمَالِكَ كَالضَّحَايَا

ففي القتلى لأجيال حياةً
وللحرية الحمراء بابٌ
جزاكم ذو الجلال بني دمشق
نصرتم يوم محنته أخاكم
وما كان الدروز قبيل^{٤١} شرٌّ
ولكن ذادة^{٤٢}، وقراءة ضيف
لهم جبل أشم له شعافٌ
لكل لبوءة، ولكل شبيل
كان من السمّال^{٤٣} فيه شيئاً

وفي الأسرى فدّى لهمو وعثق^{٤٤}
بكل يد مضرّجة يدقُّ
وعزّ الشرق أوله دمشق
وكل أخ بنصر أخيه حق
وإن أخذوا بما لم يستحقوا
كينبوع الصفا خشنوا ورقوا
موارد في السحاب الجون بلق
نضال دون غايته ورشق
فكل جهاته شرف وخلق

رَمَضانٌ ولّى

الآبيات التي بين قوسين ترجمتها جريدة الطان بقلم المرحوم عثمان باشا غالب

رمضان ولّى، هاتها يا ساقى
ما كان أكثره على الأفها
الله غفار الذنوب جميعها
بالأمس قد كُنّا سجينى طاعة
ضحكت إليّ من السرور، ولم تزل
هات إسقنيها غير ذات عواقب
صرفاً مُسلّطة الشعاع، كأنما
حمراء أو صفراء، إن كريمها
وحذارٍ من دمها الزكيّ تريقه
لا تسقني إلا دهاقاً^{٤٥}، إنني
فلعلّ سلطان المدامة مُخرّجي
(وطني، أسفت عليك في عيد الملا
(لا عيد لي حتى أراك بأمة

مُشتاقّة تسعى إلى مُشتاق
وأقلّه في طاعة الخلاق!!
إن كان ثمّ من الذنوب بواقي
واليوم من العيد بالإطلاق
بنت الكروم كريمة الأعراق
حتى نراع لصيحة الصفاق^{٤٤}
من وجنتيك تدار والأحداق
كالغيد، كلّ مليحة بمذاق
يكفيك — يا قاسي — دم العشاق
أسقى بكأس في الهموم دهاق
من عالم لم يحو غير نفاق
وبكيت من وجد، ومن إشفاق
شماء راوية من الأخلاق

(ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم
(أيظُلُّ بعضهم لبعضِ خاذلاً
وبقيتُ في خَلْفٍ بغيرِ خلاق)
ويقال: شَعَبٌ في الحضارة رَاقِي؟
جعلَ الهُدَاةَ بها دُعاةَ شِشَاق)
(وإذا أراد الله إشفاءَ القُرى

العيدُ بينَ يَدَيْكَ يا ابْنَ محمدٍ
وأتى يُقبَلُ راحتيكَ، ويرتجي
قابِلَتَهُ بسُعودٍ وجهك والسَّنا
فاهنأ بطالعه السعيدِ، يزيّنه
يتنَزَّلُ الأجرانِ^{٤٦} في صُبحيهما
إني أجِلُّ عن القتالِ سرائر
وأرى سُمومَ العالمين كثيرةً
قسَمْتُ بَنِيها، واستبدَّت فوقهم
والله أتعبها، وضلَّل كيدها
يأسُو جراحَ اليائسين من الورى
بلغ الكرامُ المجدَ حينَ جَرَوْا له
ورأوا غُبارَكَ في السُّها، وتراكضوا
مَولاي، طِلْبَةُ مصرَ أن تَبْقَى لها
سبقَ القريضُ إليك كلَّ مُهنئٍ
لم يدْخِرْ إلا رِضاكَ، ولا اقتنى
إن القلوبَ — وأنتَ ملءُ صميمها —
وأنا الفتى (الطائي) ^{٤٧} فيك. وهذه

نَحَرَ السُّعودِ حُلًى على الآفاق
أن لا يفوتكما الزمانَ تلاقٍ
فازداد من يُمنِ، ومن إشراق
عيدُ الفقيرِ، وليلةُ الأرزاق
جَزَلَيْنِ عن صَومٍ وعن إنفاق
إلا قِتالَ البؤسِ والإملاق^{٤٧}
وأرى التعاونَ أنجعَ التَّرياق^{٤٨}
دُنْيا تَعُقُّ، لثيمةُ الميثاق
من راحتيكَ بوابِلِ غَيْدِاق^{٤٩}
ويُساعِدُ الأنفاسَ في الأُزماق^{٥٠}
بسوابِقٍ، وبَلْغَتِهِ (بُبراق)
مَنْ للنجومِ، وَمَنْ لهم بَلْحاَق؟
فإذا بَقِيَتْ فكلُّ خيرٍ باقٍ
مِنْ شاعرٍ، مُتَفَرِّدٍ، سَبَّاقٍ
إلا وَلاءَكَ أنْفَسَ الأعلاق^{٥١}
بَعَثَتْ تَهانِيها من الأعماق
كَلِمِي هَزَزْتُ بها أبا إسحاق^{٥٢}

مِصْر

قال وقد كان أعدّ وليمة إلى الكاتب الإنجليزي المستر هول كين

أَيُّهَا الْكَاتِبُ الْمَصُّورُ، صَوَّرَ
 إِنْ مِصْرًا رَوَايَةَ الدَّهْرِ، فَاقْرَأْ
 مُلْعَبٌ مَثَلُ الْقَضَاءِ عَلَيْهِ
 وَأَمَحَاءٌ^{٤٥٥} (الْكَلِيمِ)^{٤٥٦} آنَسَ نَارًا
 وَمَنَايَا (مَنَا)، (فَكَسَرَى)، فِذِي (الْقَرْ
 دُولُ لَمْ تَبْدُ، وَلَكِنْ تَوَارَتْ
 رَوْضَتِي أَرَيَنْتُ، وَأَبَدْتُ حُلَاهَا
 مَثَلُ عَذْرَاءٍ مِنْ عَجَائِزِ (رُومَا)
 ضَحِكُ الْمَاءِ، وَالْأَقَاخِي^{٤٥٩} عَلَيْهَا
 زُرْتَهَا وَالرَّبِيعُ فَضْلًا، فَخَفَّتْ
 فَاَنْزَلَا فِي عَيُونِ نَرَجِسَهَا الْغُضُّ

مِصْرَ بِالْمَنْظَرِ الْأَنِيْقِ الْخَلِيقِ
 عِبْرَةَ الدَّهْرِ فِي الْكِتَابِ الْعَنِيْقِ
 فِي صَبَا الدَّهْرِ آيَةً (الصَّدِيقِ)^{٤٥٤}
 وَالتَّجَاءَ (الْبَتُولِ)^{٤٥٧} فِي وَقْتِ ضَيْقِ
 نَيْنِ)، فَالْقَيْصَرَيْنِ، (فَالْفَارُوقِ)^{٤٥٨}
 خَلَفَ سِتْرَ مِنَ الزَّمَانِ رَقِيقِ
 حِينَ قَالُوا: رِكَابُكُمْ فِي الطَّرِيقِ
 بِشُرُوهَا بِزُورَةِ الْبَطْرِيقِ
 قَابِلَتُهُ الْغُصُونُ بِالتَّصْفِيقِ
 نَحْوَ رَكْبَيْكُمَا خُفُوفَ الْمَشُوقِ
 صَبِيَانًا، وَفَوْقَ خَدِّ الشَّقِيقِ^{٤٦٠}

الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ الْمُتَوَسِّطُ

أَيُّ الْمَمَالِكِ؟ أَيُّهَا
 يَا أَبْيَضُ الْآثَارِ، وَالصَّ
 إِنَّ الْبَيَانَ، وَإِنَّ حُسْنَ
 أَبَدًا تُذَكِّرُنَا الْذِي
 وَبَنَوْا مَنَارَكَ عَالِيَا
 وَتَحَكَّمُوا بِكَ فِي الْوُجُو
 حَتَّى إِذَا جِئْتَ الْأَنَا
 وَالْيَوْمَ عَقَّ، كَأَنَّمَا
 فَاْبْلَغَ — فَذَيْتَكَ — كُلَّ مَا

فِي الدَّهْرِ مَا رَفَعْتَ شِرَاعَكَ؟
 فَحَاتِ، ضُيِّعَ مَنْ أَضَاعَكَ
 نَ الْعَقْلِ، مَا زَالَا مَتَاعَكَ
 نَ جَلَوْا عَلَى الدُّنْيَا شُعَاعَكَ
 مُتَأَلِّقًا، وَبَنَوْا قِلَاعَكَ
 دَ، تَحَكَّمَا كَانَ ابْتِدَاعَكَ
 مَ بِأَهْلٍ حَكِيمَتِهِ أَطَاعَكَ
 يَنْسَى جَمِيلَكَ وَاصْطِنَاعَكَ
 ثَكَ، فَالْمَلَا يَنْوِي ابْتِلَاعَكَ

(وقال عندما زار قسم الأزهار والثمار في المعرض بباريس سنة ١٩٠١):

رزق الله أهلَ باريسَ خيرًا
عندهم للثمارِ والزَّهرِ ممَّا
جَنَّةٌ تَخْلِبُ العقولَ، وروضُ
مَنْ رآه يقول: قد حُرِّموا الفر
ما ترى الكَرَمُ قد تشاكَل، حتى
يُسَكِّرُ الناظرينَ كَرَمًا، ولمَّا
صوَّروه كما يشاءون، حتى
يجدُ المُتَّقِي يدَ الله فيه

وأرى العقلَ خيرَ ما رُزِقوه
تُنَجِبُ الأرضَ مَعْرِضَ نَسَقوه
تجمع العينُ منه ما فرقوه
دوسَ، لكنَّ بسحرهم سرقوه
لو رآه السُّقَاةُ ما حَقَّقوه؟
تَعْتَصِرُهُ يَدٌ، ولا عَتَّقوه
عَجَبَ الناسِ: كيف لم يُنْطَقوه؟
ويقول الجَحودُ: قد خَلَقوه

بَارِيسُ

جَهْدُ الصَّبَابَةِ، ما أكابدُ فيكَ
حَتَّامَ هَجْرَانِي؟ وفيمَ تَجَنَّبِي؟
قد مُتُّ من ظَمًا، فلو سامَحْتَنِي
أجدُ المَنيا في رضاكِ هي المُنَى
يا بنتَ مَخْضوبِ الصَّوَارِمِ والقنا
فخضابُ تلك؛ من العيونِ وقايةُ
جُفْنَاكِ، أيُّهما الجريُّ على دمي؟
بالسِّيفِ، والسَّحرِ المُبِينِ، وبالطَّلَى
بهما وبِي سَقَمٌ، ومنَ عَجَبِ الهوى
رَفَقًا بِمَسْئَلَةِ^{٤٦٣} الشُّنُونِ قَرِيحَةٍ^{٤٦٤}
أَبْكَيْتَهَا، وقعدتِ عن إنسانِها^{٤٦٥}
ضَلَّتْ كَرَاهَا^{٤٦٦} في غِيَاهِ^{٤٦٧} حالكِ
رَقَّ النسيْمُ على دُجَاهِ لِأَنْتِي
قاسيتُهُ، حتى انجلى بالصبح عن

لو كان ما قد نُقِثَته يكفيك
وإِلَامَ بي ذُلُّ الهوى يُغْرِيكِ؟
أَنْ أَشْتَهِي ماءَ الحياةِ بِفِيكِ!!
ماذا وراءَ الموتِ؟ ما يُرْضِيكِ؟
بَرِئْتُ بَنَانُكِ من سلاحِ أبيكِ
وخصابُ ذاك من الدِّمِ المسفوكِ
بأبي هُمَا مِنْ قَاتِلٍ وَشَرِيكِ!!
حَمَلَا عَلَيَّ، وبالقنا المَشْبُوكِ^{٤٦١}
عُدُّوْا نَ مُنْكَسِرٍ على مَنهُوكِ
تسلو عن الدُّنيا ولا تَسْلُوكِ
يا لِلرَّجَالِ لِمُغْرَقٍ متروكِ
ضَلَّ الصَّبَاحُ لِمُغْرَقٍ متروكِ
ورثَى لحالي في السماءِ أخوكِ^{٤٦٨}
سِرِّي المَصُونِ، ومَدْمَعِي المهتوكِ

إِفْرَنْدُهُ^{٤٦٩} فِي جَفْنِهِ يَحْمِيكَ
 سَلُّوا سَيُوفَهُمْ عَلَى أَهْلِيكَ
 نَارًا سَنَابِكُهَا^{٤٧٠} عَلَى (الْبَلْجِيكِ)
 وَالْمَوْتُ حَوْلَ شَكِيمِهَا^{٤٧٢} الْمَغْلُوكِ^{٤٧٣}
 (نَامُورَ) عَنْ فُؤَادِهَا الْمَشْكُوكِ^{٤٧٤}
 وَعَلَى مَصُونِ مَوَاتِقٍ وَصُكُوكِ^{٤٧٥}
 مَا يَنْبَغِي مِنْ خُطَّةٍ وَسُلُوكِ
 مِنْ نَخْوَةٍ وَحَمِيَّةٍ، وَفُتُوكِ
 لَانُوا بَرَكِينَ لَيْسَ بِالْمَذْكُوكِ
 (بَارِيزُ)، لَمْ يَعْرِفْكَ مَنْ يَغْزُوكِ
 تُزْمَى بِمَشْهُودِ النَّهَارِ^{٤٧٧} سَفُوكِ
 وَدَعَارَةٍ: يَا إِفْكُ مَا زَعْمُوكِ!
 شَهَوَاتُهُنَّ مُرَوَّيَاتُ فَيْكِ
 أَصْحَابُ تَيْجَانٍ، مَلُوكُ أَرِيكِ
 وَتَفَجَّرَتْ كَالْكُوْثَرِ الْمَعْرُوكِ^{٤٧٨}
 مَا حَجَّ طَالِبُهُ سَوَى نَادِيكِ
 وَالرُّكْنُ مِنْ بُنْيَانِهِ الْمَسْمُوكِ^{٤٧٩}
 وَمَشَتْ حَضَارَتُهُ بِنُورِ بَنِيكِ
 لِلْفَخْرِ، خَيْرُ كَنْوَزِهَا مَاضِيكِ
 وَمَرَاتِعِ الْغَزَلَانِ فِي وَادِيكِ
 وَمَقِيلَ أَيَّامِ الشَّبَابِ النُّوْكِ^{٤٨١}
 أَفْقِ كَجَنَاتِ النِّعِيمِ ضَحُوكِ
 سَلِسٍ عَلَى نَوْلِ^{٤٨٢} السَّمَاءِ مَحُوكِ^{٤٨٣}
 غَيْرِ الْقَوَافِي مَا بِهِ أَجْزِيكِ
 فَالِلْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَاقِيكِ
 فَلَيْسَ بِمَجْنُونٍ، وَلَيْسَ بِعَاقِلِ
 كَمَا يَتَنَزَّى^{٤٨٤} فِي الْحَصَى غَيْرُ نَاعِلِ

سَلَّتْ سَيُوفُ الْحَيِّ، إِلَّا وَاحِدًا
 جَرَّدَتْهُ فِي غَيْرِ حَقٍّ، كَالْأَلَى
 طَلَعَتْ عَلَى حَرَمِ الْمَمَالِكِ خَيْلُهُمْ
 الْبَاسُ وَالْجَبْرُوتُ فِي أَغْرَافِهَا^{٤٧١}
 عَرَتْ (لِيَاجَ) عَنِ الْحَصُونِ، وَجَرَّدَتْ
 تَمْشِي عَلَى خَطِّ الْمُلُوكِ وَخَتَمَهُمْ
 وَالْحَرْبُ لَا عَقْلَ لَهَا فَتَسُومُهَا
 دَكَّتْ حَصُونِ الْقَوْمِ إِلَّا مَعْقِلًا
 وَإِذَا احْتَمَى الْأَقْوَامُ بِاسْتِقْلَالِهِمْ
 وَلَقَدْ أَقُولُ وَأُدْمَعِي مُنْهَلَّةً:
 مَا خِلْتُ جَنَاتِ النِّعِيمِ وَلَا الدُّمَى^{٤٧٦}
 زَعْمُوكِ دَارَ خِلَاعَةٍ، وَمَجَانَةٍ
 إِنْ كُنْتُ لِلشَّهَوَاتِ رِيًّا، فَالْعُلَا
 تَلِيدِينَ أَعْلَامَ الْبَيَانِ، كَأَنَّهُمْ
 فَاضَتْ عَلَى الْأَجْيَالِ حِكْمَةُ شَعْرِهِمْ
 وَالْعِلْمُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
 الْعَصْرُ، أَنْتِ جَمَالُهُ، وَجَلَالُهُ
 أَخَذْتُ لَوَاءَ الْحَقِّ عَنْكَ شُعُوبُهُ
 وَخَزَانَةُ التَّارِيخِ، سَاعَةً عَرَضُهَا
 وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ وَادِيكِ الشَّرَى^{٤٨٠}
 يَا مَكْتَبِي قَبْلَ الشَّبَابِ، وَمَلْعَبِي
 وَمِرَاحَ لَذَاتِي. وَمَغْدَاها عَلَى
 وَسَّمَاءٍ وَحَيِّ الشَّعْرِ مِنْ مُتَدَفِّقٍ
 لَمَّا احْتَمَلْتُ لِكَ الصَّنِيعَةِ، لَمْ أَجِدْ
 إِنْ لَمْ يَقُوكِ بِكُلِّ نَفْسٍ حُرَّةٍ
 لَنَا صَاحِبٌ قَدْ مُسَّ إِلَّا بَقِيَّةُ
 لَهُ قَدَمٌ لَا تَسْتَقَرُّ بِمَوْضِعٍ

من الصَّخَبِ العَالِي، وليس بحافل
وَيُمَطِّرُنَا مِنْ لَفْظِهِ كُلَّ جَامِدٍ
وَيُلْقِي عَلَى السَّمَارِ كَفًّا دِعَابُهَا
(مَحْجُوبٌ)، إِنْ جِئْتَ «الْحَجَا
شَوْقًا، وَحَبًّا بِالرَّسُو
فَلَمَحْتَ نَضْرَةً (بَانِهِ)
وَعَلَى (الْعَتِيقِ) ^{٤٨٦} مَشَيْتَ تَنْدٍ
وَمَضَى السُّرَى بِكَ حَيْثُ كَا
وَبَلَّغْتَ (بَيْتًا) بِالْحَجَا
اللَّهُ فِيهِ جَلَا الْحَرَا
فَهَنَّاكَ طِبُّ الرُّوحِ، ط
وَهَنَّاكَ أَطْلَالُ الْفَصَا
وَهَنَّاكَ أَزْكَى مَسْجِدٍ
وَهَنَّاكَ عُذْرِيَّ الهَوَى
وَهَنَّاكَ مُجْرِي الْخَيْلِ، يَجْرِي
وَهَنَّاكَ مَنْ جَمَعَ السَّمَاحَةَ
وَهَنَّاكَ خَيَّمَتِ النُّهَى
وَهَنَّاكَ سَرْحُ حَضَارَةٍ
إِنَّ الْحَسِينَ بْنَ الْحَسَنِ
قَمَرُ الْحَجَّاجِ إِذَا بَدَا
أَنْتَ الْعَلِيلُ، فَلِذْ بِهِ
لَا طِبُّ إِلَّا جَدُّهُ
قَبْلَ ثَرَاهِ، وَقُلْ لَهُ
أَنَا يَا ابْنَ أَحْمَدَ بَعْدَ مَدٍّ
أَنَا فِي جَمَى الْهَادِي أَبِي
شَوْقِي إِلَيْكَ عَلَى النَّوَى
يَا ابْنَ الْمُلُوكِ الرَّاشِدِ

من الصَّخَبِ العَالِي، وليس بحافل
وَيُمَطِّرُنَا مِنْ رَيْلِهِ ^{٤٨٥} شَرَّ سَائِلٍ
كَعَضَّةِ بَرْدٍ فِي نَوَاحِي الْمَفَاصِلِ
زَ، وَفِي جَوَانِحِ الْهَوَى لَهُ
لَ، وَأَلِهِ أَزْكَى سُلَالِهِ
وَشَمَعَتْ كَالرَّيْحَانِ (ضَالِهِ)
ظُرَ فِيهِ دَمْعٌ وَانْهَمَالُهُ
نَ الرُّوحُ يَسْرِي وَالرَّسَالَةُ
زَ، يُبَارِكُ الْبَارِي حَيَالَهُ
مَ لَخْلَقَهُ، وَجَلَا حَلَالَهُ
بُ الْعَالَمِينَ مِنَ الْجَهَالَةِ
حَةِ، وَالْبَلَاغَةِ، وَالنَّبَالَةِ
أَزْكَى الْبَرِّيَّةِ قَدْ مَشَى لَهُ
وَحْدَيْتُ (قَيْسٍ) ^{٤٨٧} وَالْغَزَالَةِ
فِي أَعْنَتِهَا خَيَالَهُ
وَالرَّجَاحَةِ، وَالْبَسَالَةِ ^{٤٨٨}
وَالْعِلْمُ قَدْ أَلْقَى رِحَالَهُ
اللَّهُ فَيَأْنَا ظِلَالَهُ
يُنِ أَمِيرَ مَكَّةَ وَالْإِيَالَةَ
دَارُ الْحَجَّاجِ عَلَيْهِ هَالَهُ
مُسْتَشْفِيًّا، وَاعْنَمَ نَوَالَهُ
شَافِي الْعُقُولِ مِنَ الضَّلَالَةِ
عَنِ، وَبَالِغٌ فِي الْمَقَالَةِ
حِي فِي أَبِيكَ بِخَيْرِ حَالِهِ
كَ، أَجْبُهُ، وَأَجِلُّ آلِهِ
شَوْقُ الضَّرِيرِ إِلَى الْغَزَالَةِ ^{٤٨٩}
نَ، الصَّالِحِينَ، أُولِي الْعَدَالَةِ

إن كان بالملك الجلا أوليس جدُّكم الذي
لّة، فالنبيُّ لكم جلاله
بلغ الوجودُ به كماله؟

طُوكِيُو

وصف نكبة اليابان الأخيرة بالزلزال الشهير

قِفْ (بطوكيو)، وطُفْ على (يو كاهامه)
دنت الساعةُ التي أُنْذِرَ النّا
قِفْ، تَأْمَلْ مَصَارِعَ القوم، وانظُرْ
خُسِفَتْ بالمساكن الأرضُ خَسْفًا
طَوَّقَتْ بالمدينتين المنايا
لا تَرى العينُ منهما أين جالت
حازهم من مراحل^{٤٩٥} الأرض قبرٌ
تحسبُ الميتَ في نواحيه يُعَي
أصبحوا في ذرا الحياة، وأمَسُوا
ثِقُ بما شئتَ من زمانك، إلّا
دولةُ الشرق وهي في زُرُوة العزّ
خانها الجيشُ وهو في البرِّ دِرْعُ
لو تَأْمَلْتَهَا عَشِيَّة جاشت
رَجَّها رَجَّةً أَكْبَتَتْ على قَرْ
استعذنا بالله من ذلك السَّيِّئِ
مَنْ رَأى جَلَمَدًا يَهْبُ هُبُوبًا
ودخانًا يَلْفُ جُنْحًا بَجُنْحٍ^{٤٩٦}
وهزيمًا كما عوى الذئبُ في كـ

وسلُ القريتين: كيف القيامة؟
سُ، وحَلَّتْ أَشْرَاطُهَا^{٤٩٧} والعلامة
هل ترى من ديار عادٍ دِعامه؟
وطَوَى أهلها بِسَاطَ الإقامه^{٤٩٨}
وأدارَ الردى على القومِ جامه^{٤٩٩}
غيرَ نَقْضٍ،^{٥٠٠} أو رِمَّةٍ، أو حُطامه^{٥٠١}
— في مدى الظنِّ — عُمُقُهُ أَلْفُ قامه
نفخة الصُّور أن تَلَمَّ عِظامه
ذهبتَ رِيحُهم وشالوا نَعامه^{٥٠٢}
صحبة العيش، أو جِوارَ السلامه
تَحَارُ العيونُ فيها فخامه
والأساطيلُ وهى في البحر لامة^{٥٠٣}
خَلَّتْها في يد القضاءِ حمامه
نَيْهِ (بوذا)، وزلزلتْ أَقدامه
لِ الذي يكسحُ البلادَ أمامه
وحميمًا^{٥٠٤} يَسْحُ سَحَّ الغمامه؟
لا ترى فيه مِعْصَمِيها اليَمامه؟^{٥٠٥}
لِ مكانٍ، وَزَمَجَرَ الضَّرغامه؟

أَتَتِ الأرضُ والسَّماءُ بطوفا نِ يَنْسِي طوفانَ نوحٍ وعامه

بَرٍّ، واحتلَّ مَوْجُهُ أعلامه
قَوَّضَ العاصِفُ الهَبُوبُ خيامه
لو رَأَتْه، وتستجير زَمَامه
من قراع القضاء صَرَغَى مُدامه
ظَنَّ لَيْلَ القِيَامِ ذاك، فنامه
من جراح قديمة مُلتامه؟
راحة الجسم من وراء الحِجَامه^{٥٠٢}
من فساد، وحُمَلَتْ من ظُلامه؟
شهدَتْ من زمانهم آثامه
رَّ وُلُوعًا، وبالذَّماءِ نَهامه
عَالَمَ الشَّرِّ: وَحْشَه، وأُنامه
بُ، وهذا سَلاحُه الصَّمْصَامَه
كُ، فَسَمَّى وليدَه بأَسامه^{٥٠٤}
وَلَدُ العاصِيَيْنِ شَرُّ لَامَه!^{٥٠٥}

فَترى البحرَ جُنَّ، حتى أَجاز^{٥٠١} الـ
مُزْبِدًا، ثائرَ اللُّجَاجِ، كجيش
فُلْكَ نوحَ تَعوذُ مِنْه بنوح
قد تَخَيَّلْتُهُمْ مَتَابِيلَ سحرٍ
وتَخَيَّلْتُ مَنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ
أَبْرَاكِيْنُ تِلْكَ، أَمْ نَزَوَاتُ^{٥٠٢}
تَجِدُ الأرضَ رَاحَةً حَيْثُ سالتُ
ما لَهَا لا تَضِجُ مِمَّا أَقَلَّتْ
كَلِّمًا لُبَّسَتْ بِأَهْلِ زَمَانٍ
استَووا بِالْأَذَى ضِرِيًّا، وبالشـ
لَبَّسَتْ هَذِهِ الحَيَاةُ عَلَيْنَا
ذَاقَ مِنْ مُؤَنَسَاتِهِ الظُّفُرُ وَالنَّارُ
سَرَّهُ مِنْ أَسَامَةِ البَطْشِ والْفَتـ
لَوُمْتُ مِنْهُمَا الطَّبَاعُ، وَلَكِنْ

طَابَعُ الْبَرِيدِ

العيد الفضي — ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٠ — لطابع البوستة في جنيف — سلام على لسان
البريد

لَمْ أُرْخِ فِي رِضَاكُمُ الْأَقْدَامَا
بَرَّ طَوْرًا، وَأَقْطَعُ الْإِيَّامَا
لَمْ يَكُنْ خَائِنًا، وَلَا نَمَامَا
ءَ وَالْحُبِّ، وَالرِّضَى وَالْمَلَامَا
وَيُؤَدِّي كَمَا وَعَاهُ الْكَلَامَا
فِيهِ أَبْكِي الْمُنْعَمَ الْبَسَامَا
وَأَفِيدُ الْحِرْمَانَ وَالْإِنْعَامَا

أَنَا مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامَا
أَرْكَبُ الْبَحْرَ تَارَةً، وَأَجُوبُ الـ
وَيُؤَافِي النَفُوسَ مِنْى رَسُولُ
يَحْمِلُ الْغِشَّ وَالنَّصِيحَةَ، وَالْبَغْضَا
وَيَعِي مَا تُسِرُّهُ مِنْ كَلَامٍ
وَلَقَدْ أَضْحَكُ الْعَبُوسَ بِيَوْمٍ
وَأُهْنِي عَلَى النَّوَى وَأُعْزِي

ثَمَنٌ لَا يُكَلِّفُ الْأَقْوَامَا
وَعُغْلَامٌ قَدْ سَاقَ مِنِّي غُلَامَا
وَجَزَوْنِي عَنْ خِدْمَتِي إِكْرَامَا
مِثْلَمَا جَامَلُوا الْمُلُوكَ الْعِظَامَا
وَيُوبِيلِي يَدُومُ فِي النَّاسِ عَامَا

وَجَزَائِي عَنْ خِدْمَتِي وَوَفَائِي
رُبَّ عَبْدٍ قَدْ اشْتَرَانِي بِمَالٍ
عَرَفَ الْقَوْمُ فِي (جَنيفَا) مَحَلِّي
جَامَلُونِي إِذْ تَمَّ لِي رُبُّعُ قَرْنٍ
وَيُوبِيلُ الْمُلُوكِ يَلْبَثُ يَوْمًا

الطَّيَّارُونَ الْفَرَنْسِيُّونَ

مَلِكَ الْقَوْمِ مِنَ الْجَوِّ الزَّمَامَا
أَسْرَجُوا الرِّيحَ، وَسَامَوْهَا اللَّجَامَا^{٥٠٦}
آيَةً لِلْعِلْمِ آتَاهَا الْأَنَامَا
أَصْبَحَتْ حِصَّةً مَنْ جَدَّ اعْتِزَامَا
مِنْ عِفَارِيَتِكَ يُدْعَى (شَاتِهَامَا)
ضَرْبَ الرِّيحِ بِسَوْطٍ وَالْغَمَامَا
جَمَعَتْ شَهْمًا، وَنَذَبًا، وَهَمَامَا^{٥٠٧}
مَا يُبَالُونَ: حَيَاةً، أَمْ حِمَامَا
نَزَلُوا، أَمْ حُفَرَاتٍ وَرَغَامَا^{٥٠٨}
عَبَسَتْ كَارِثَةٌ زَادُوا ابْتِسَامَا
جَمَعَ أَمْلَاكِ عَلَى الْخَيْلِ تَسَامِي
هَلْ رَأَيْتَ الطَّيْرَ قَدْ رَفَّ وَحَامَا؟^{٥٠٩}
بِجَنَاحِيهِ كَمَا رُعْتُ النُّعَامَا
فَنَسَوْرًا، فَصَقُورًا، فَحَمَامَا
سَبَحَ الْحُوتُ بِدَأْمَاءٍ، وَعَامَا^{٥١٢}
طَارَدَ «النَّسْرُ» عَلَى الْجَوِّ الْقُطَامَا^{٥١٣}
أَرْسَلْتُ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ سِهَامَا
تُنْزِرُ النَّاسَ نُشُورًا وَقِيَامَا^{٥١٥}

قُمْ (سَلِيمَانُ)، بِسَاطِ الرِّيحِ قَامَا
حِينَ ضَاقَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ بِهِمْ
صَارَ مَا كَانَ لَكُمْ مُعْجِزَةً
قُدْرَةً كُنْتَ بِهَا مُنْفَرِدًا
(عَيْنُ شَمْسٍ) قَامَ فِيهَا مَارِدٌ
يَمْلَأُ الْجَوَّ عَزِيفًا كُلَّمَا
مَلِكُ الْجَوِّ تَلِيهِ عُصْبَةٌ
اسْتَوَوْا فَوْقَ «مَنَاطِيدِهِمْ»
وَقَبُورًا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا
مُطْمَئِنِّينَ نَفُوسًا، كُلَّمَا
صَهْوَةً الْعِزِّ اعْتَلَوْا، تَحْسِبُهُمْ
رَفَعُوا «لَوْلَبَّهَا»، فَاَنْدَفَعَتْ
شَالَ^{٥١٠} بِالْأَذْنَابِ كُلُّ، وَرَمَى
زَهَبَتْ تَسْمُو، فَكَانَتْ أَعْقَبًا^{٥١١}
تَنْبَرِي فِي زَرْقِ الْأَفْقِ، كَمَا
بَعْضُهَا فِي طَلَبِ الْبَعْضِ، كَمَا
وَيَرَاهَا عَالَمٌ فِي زُحَلٍ^{٥١٤}
أَوْ نَجُومًا ذَاتَ أَذْنَابٍ بَدَتْ

وهو بالجَوْجُوِّ ماضٍ يَتْرَامِي؟
 أَمْ مَقَرُّ الْحَوْلِ^{٥١٨} في بعض القُدَامِي؟^{٥١٩}
 يَزِنُ الْجِسْمَ هُبُوطًا وَقِيَامًا؟
 تَكْشِفَانِ الْجَوَّ غَيْثًا أَمْ جَهَامًا؟^{٥٢٠}
 نَفَذْتَ فِي الرِّيحِ دَفْعًا وَاسْتِلَامًا؟
 يَوْمَ أَلْقَيْتَهُ وَمَا جَازَ الْفِطَامَا؟
 دُونَهُ فِي النَّاسِ بِالْوُلْدِ اهْتِمَامَا!
 لَمْ يَنْلُ فَهَمًّا، وَلَمْ يُعْطَ الْكَلَامَا
 وَابْتَغَاهَا مِنْ رَأْيِ الدَّهْرِ غُلَامَا
 «وَابْنَ فِرْنَانِسِ»، فَمَا اسْطَاعَا قِيَامَا
 شَهْدَاءُ الْعِلْمِ أَعْلَاهُمْ مَقَامَا
 يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِمْ عَامًّا فَعَامَا
 تَمَلُّ الْمَلِكَ جَمَالًا وَنِظَامَا

أَتَرَى الْقَوَّةَ فِي جُوجُوءِ^{٥١٦}
 أَمْ تَرَاهَا فِي الْخَوَافِي^{٥١٧} خَفِيَتْ
 أَمْ ذُنَابَاهُ إِذَا حَرَّكَه
 أَمْ بَعِينِيهِ إِذَا مَا جَالَتَا
 أَمْ بِأَظْفَارِ إِذَا شَبَّكَهَا
 أَمْ أَمَدَّتْهُ بِرُوحِ أُمِّهِ
 فَتَلَقَّاهُ أَبُّ، كَمْ مِنْ أَبٍ
 فَلَا كَيْ هُوَ، إِلَّا أَنَّهُ
 طَلِبَةٌ قَدْ رَامَهَا آبَاؤُنَا
 أَسْقَطَتْ «إِيكَارَ» فِي تَجْرِيبَةٍ
 فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَوْدَى نَفَرٌ
 خَلَفَاءُ الرُّسُلِ فِي الْأَرْضِ هَمُّو
 قَطْرَةً مِنْ دَمِهِمْ فِي مُلْكِهِ

فاجعل الخيرَ بِنَادِيهَا لِزَامَا
 فَتَعَالَتْ تُمْطِرُ الْمَوْتَ الزُّوَامَا
 رَحْمَةً مِنْكَ، وَعَدْلًا، وَانْتِقَامَا

رَبِّ، إِنْ كَانَتْ لَخَيْرٍ جُعِلَتْ
 وَإِنْ اعْتَزَّ بِهَا الْبَشَرُ غَدَا
 فَامَلًا الْجَوَّ عَلَيْهَا رُجْمًا

لَكَ عِنْدَ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ جُسَامَا
 لَقِيَتْ إِلَّا نَعِيمًا وَسَلَامَا
 سَامِرَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَالنِّيَامَا
 إِنَّ «لِلسَّيْنِ» - وَإِنْ جَارَ - نِإِمَامَا
 كَانَتْ الشَّهَدَى، وَأَحْبَابًا كِرَامَا
 تَحْمِلُ الْأَشْوَاقَ عَنْكُمْ وَالْغِرَامَا
 شَغَفَ الصَّبِّ وَشَاقَ الْمُسْتَهَامَا
 «يَمَنَّا» حَلَّ هَوَاهُ، أَمْ «شَامَا»

يَا «فِرْنَسَا»، لَا عَدِمْنَا مَنَّا
 لَطَفَ اللَّهِ «بِبَارِيَسَ»، وَلَا
 رَوَّعَتْ قَلْبِي خُطُوبُ رَوَّعَتْ
 أَنَا لَا أَدْعُو عَلَى «سَيْنِ» طَغَى
 لَسْتُ بِالنَّاسِي عَلَيْهِ عَيْشَةً
 اجْعَلُوهَا رُسُلَكُمْ أَهْلَ الْهَوَى
 وَاسْتَعِيرُوهَا جَنَاحًا طَالَمَا
 يَحْمِلُ الْمُضْنَى إِلَى أَرْضِ الْهَوَى

أَرْكَبُ اللَّيْثَ، وَلَا أَرْكَبُهَا
غَدَرْتُ «جِيْرُونَ»، لَمْ تَحْفَلْ بِهِ
وَقَعْتُ نَاحِيَةً، فَاحْتَرَقْتُ
رَاضَهَا بِالْيُمْنِ مِنْ طُلْعَتِهِ
كَخَلِيلِ اللَّهِ، فِي حَضْرَتِهِ
وَأَرَى لَيْثَ الشَّرَى أَوْفَى زِمَامَا
رَبِمَا حَاوَلَ مِنْ فَوْزٍ وَرَامَا
مِثْلَ قُرْصِ الشَّمْسِ بِالْأَفْقِ اضْطَرَامَا
خَيْرُ مَنْ حَجَّ، وَمَنْ صَلَّى، وَصَامَا
خَرَّتِ النَّارُ خُشُوعًا وَاحْتِرَامَا

ما (لروحي) صاعدًا ما ينتهي؟
كَلَّمَا دَارَ بِهِ دُورَتَهُ
أَنَا لَوْ نِلْتُ الَّذِي قَدْ نَالَهُ
هَلْ تَرَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا حَسَدًا
أُتْرَاهُ آثَرَ الْجَوِّ، فَزَامَا؟
أَبَدْتُ الرِّيحُ امْتِثَالًا وَارْتِسَامَا
مَا هَبَطْتُ الْأَرْضَ أَرْضَاهَا مُقَامَا
وَرِيَاءً، وَنَزَاعًا، وَخِصَامَا؟

مُلْكُ هَذَا الْجَوِّ فِي مَنَعَتِهِ
حَسَدَ الْإِنْسَانِ سِرْبَيْهِ^{٥٢١} بِمَا
دَخَلَ الْعُشَّ عَلَى «أَنْسَرِهِ»
أَيُّهَا الشَّرْقُ، انْتَبِهْ مِنْ غَفْلَةٍ
لَا تَقُولَنَّ: عِظَامِي أَنَا
شَاقَتْ الْعُلِيَاءُ فِيهِ خَلْقًا
كُلَّ حِينٍ مِنْهُمْ نَابِغَةٌ
طَالَمَا لِلنَّجْمِ وَالطَّيْرِ اسْتِقَامَا
أَوْتِيَا فِي نَزْوَةِ الْعَزِّ اعْتِصَامَا
أَتَرَى يَغْشَى مِنَ النَّجْمِ السَّنَامَا؟^{٥٢٢}
مَاتَ مَنْ فِي طُرُقَاتِ السَّيْلِ نَامَا
فِي زَمَانٍ كَانَ لِلنَّاسِ عِصَامَا
لَيْسَ يَأْلُوهَا طِلَابًا وَاعْتِنَامَا
يَفْضَلُ الْبَدْرَ بِهِاءً وَتَمَامَا

خَالِقَ الْعُضْفُورِ، حَيَّرْتَ بِهِ
أَفْنَوْا النَّقْدَيْنِ فِي تَقْلِيدِهِ
أَمَّا بَادُوا وَمَا نَالُوا الْمَرَامَا
وَهُوَ كَالدَّرْهِمِ رِيشًا وَعِظَامَا

وَصْفُ مَرْقَصٍ

وقال يصف «البال» الخديوي الذي أُقيم سنة ١٩٠٣ بسراي عابدين

طال عليها القَدَم	قد وُئِدَتْ في الصُّبَا ^{٥٢٣}
فهي وجودُ عَدَمٍ	بالغِ فِرْعَوْنُ في
وانبَعَثَتْ في الهَرَمِ	أَهْرَقَ عُنُقَوْدَهَا
كَرِّمَتِهَا مِنْ كَرَمٍ	خَبَّأَهَا كَاهِنٌ
تَقْدِيمَةً لِلصَّنَمِ	اكَتْشَفَتْ فَاَمَّحَتْ ^{٥٢٤}
نَاجِيَةً فِي (الْهَرَمِ)	أو كخِيالِ لها
غَيْرَ شَدَا ^{٥٢٥} أَوْ ضَرَمَ ^{٥٢٦}	نَمَّ بِهَا دَنُّهَا
بعد مِتَابِ أَلَمٍ ^{٥٢٧}	بي رَشَأُ نَاعِمٍ ^{٥٢٨}
وَهِيَ عَلَيْهِ أَنَّمٍ	أَخْرَجَهَا اللَّهُ كَالِ
مَا عَرَفَ الْعَمَرَ هَمَّ	تَخَطَّرُ عَنْ عَادِلٍ
زَهْرَةٍ، وَالْحَسَنُ كِمُ ^{٥٢٩}	تَبَسَّسُمُ عَنْ لَوْلُؤٍ
لَمْ يُرَ إِلَّا ظَلَمٌ	كَرَّمَهُ فِي النُّوَى
قَدَّرَهُ مَنْ قَسَمَ	مُضْطَهَّدُ خَصْرُهَا
هَذَبَهُ فِي الْيَتَمِ ^{٥٣٠}	طَاوَعَ مِنْ صَدْرِهَا
جَانِبُهُ مُهْتَزَمٌ	حَمَلَهُ ثِقْلُهُ
أَيَّ قَوِيٍّ حَكَمَ	تَسْأَلُ أَتْرَابَهَا
ثُمَّ عَلَيْهِ ادَّعَمَ ^{٥٣١}	أَيُّ فَتَى ذَلِكُ
مُؤَمِّنَةٌ بِالْعَنَمِ ^{٥٣٢}	يَشْرِبُهَا سَاهِرًا
نَّ الْعَرَبِيَّ الْعَلَمَ؟	فُلْنُ: تَجَاهَلْتَهُ
لَيْلَتَهُ لَمْ يَنَمَ	شَاعِرُ مَصَرَ الَّذِي
ذَلِكَ رَبُّ الْقَلَمِ	قُلْتُ لَهَا: لَيْتَ لَمْ
لَوْ خَفِيَ النُّجْمُ لَمْ	عَاذَلْتِي فِي الطَّلَى ^{٥٣٣}
نُرَمَ وَفِي نَتَّهَمَ	إِنْ عَبَسَ الْعَيْشُ لِي
لَوْ أَنْصَفْتُ لَمْ أَلَمَ	
غُدَّتْ بِهَا فَاَبْتَسَمَ	

يَشْرِبُهَا كَابِرٌ^{٥٣٤} بَيْنَ ضُلُوعِي أَشَمَّ
 يَبْذُلُ، إِلَّا النَّهْيَ يَهْتِكُ، إِلَّا الْحَرَمَ
 يُكْسِبُهَا خُلُقَهُ يَمَزُجُهَا بِالشَّيْمِ
 يَمْنَعُهَا حِلْمَهُ إِنْ دَفَعْتَهُ احْتَشَمَ
 تِلْكَ شَمُوسُ الدُّجَى أَمْ ظَبِيَّاتُ الْخَيْمِ؟
 تُقْبِلُ فِي مَوَكِبٍ شَقَّ سَنَاهِ الظُّلَمِ
 خِلْتُ بِأَنْوَارِهِ قَرَنَ ذُكَاةٍ نَجَمِ^{٥٣٥}
 مَقْصِدُهَا سُدَّةٌ آلَ إِلَيْهَا الْعِظَمِ
 حَيْثُ كِبَارُ الْمَلَا بَعْضُ صِغَارِ الْخَدَمِ
 قَدْ وَقَفُوا لِمَهَا فَانْسَرِبْتُ^{٥٣٦} مِنْ أُمَّمِ^{٥٣٧}
 تَخْطِرُ مِنْ جَمْعِهِمْ بَيْنَ لِيُوْثٍ بُهَمِ^{٥٣٨}
 خَارِجَةٌ مِنْ شَرِيٍّ دَاخِلَةٌ فِي أَجَمِ
 نَاعِمَةٌ لَمْ تُرْعَ لَاهِيَةٌ لَمْ تَجَمِ
 انْتَثَرَتْ لَوْلَا فِي الْمُهْجَاتِ انْتَضَمِ
 تَمَرَّحَ فِي مَأْمَنِ مِثْلَ حَمَامِ الْحَرَمِ
 مُؤْتَلَفٌ سِرْبُهَا حَيْثُ تَلَاقَى التَّامِ
 مَنْدَفَعَاتٌ عَلَى مَخْتَلَفَاتِ النَّعَمِ
 بَيْنَ يَدٍ فِي يَدٍ أَوْ قَدَمٍ فِي قَدَمِ
 تَذْهَبُ مَشْيَ الْقَطَا تَرْجِعُ كَرَّ النَّسَمِ
 تَبْعُثُ أُنَى بَدَتْ ضَوْءَ جَبِينِ وَقَمِ
 تَعْجَلُ خَطْوًا تَنِي^{٥٣٩} فَاتِنَةً بِالرَّسَمِ^{٥٤٠}
 تَجْمَعُ مِنْ ذَيْلِهَا تَتْرِكُهُ لَمْ يَلَمَّ
 تَرْفُلُ فِي مُخْمَلٍ نَمَّ وَلَمَّا يَنْبَمُ
 تَتَّبِعُ. إِلَّا الْهُوَى تَقْرُبُ، إِلَّا أَلْتُهُمُ
 فَاجْتَمَعَتْ فَالْتَقَتْ حَوْلَ خِوَانِ نُظْمِ
 مُنْتَهَبٍ كُلَّمَا ظَنَّ بِهِ النِّقْصُ تَمَّ
 مَائِدَةٌ مَدَّهَا بَحْرُ نَوَالٍ خِضَمُ

من شهوات النّهم	تحسبها صوّرت
ما عَهِدْتُ فِي (إِرم)	لم تُرَ فِي (بَابِل)
أَقْلَعَ عَمَّا زَعَم	(حَاتِمُ) لو شَامَهَا
أَدْرَكَ مَعْنَى الْكِرَم	(مَعْنُ) لو انتابها
يُحْرِجُهَا مُزْدَحَم	أَشْبَهُ بِالْبَحْرِ، لَا
يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ ثَم	قَامَ لَدَيْهَا الْمَلَا
مَلْتَقِيًا مَا رَسَم	مَقْتَرَحًا مَا اشْتَهَى
أَيَكْتِهَ مَا احْتَرَم ^{٥٤١}	لَوْ طَلَبَ الطَّيْرَ مِنْ
سَاحَتِهِ بِالْأَمَم	يَا مِلْغًا لَمْ تَضِقْ
مِنْ غَرَبٍ أَوْ عَجَم	تَجْمَعُ أَشْرَافَهَا
بَيْنَ صَنُوفِ النِّعَم	تُخْطِرُ مَنْ أُمُّهَا
لُجَّتِهَا وَالْأَكَم	سَادَةُ أَفْرِيْقِيَا
فِي الْمَلَأَيْنِ احْتَكِم ^{٥٤٢}	أَنْتِ رَشِيدُ الْعُلَى
فَوْقَ غَوَالِي الْقِيَم	لَيْلَتُكُمْ قَدْرُهَا
فِي زَمَنِ لَمْ يَقُمْ	مُشْرِقَةً، مَثَلُهَا
ظَلَّكُمْو يُغْتَنَم	لَا بَرَحَ الصَّفْوُ فِي
طَالَ عَلَيْهَا الْقِدَم	مَا شَرَبُوهَا وَمَا

تُوتُ عَنخَ أَمُونَ وَحَضَارَةُ عَصْرِهِ

وَأَتَتْ عَلَى الدَّنِّ السَّنُونُ ^{٥٤٣}	دَرَجَتْ عَلَى الْكَنْزِ الْقُرُونُ
نُ عَلَيْهِ فِي خَيْرِ الْجَفُونِ ^{٥٤٤}	خَيْرُ السِّيُوفِ مَضَى الزَّمَا
غَيْبِ اسْتَسَرَّ عَنْ الظَّنُونِ ^{٥٤٥}	فِي مَنْزِلٍ كَمْحَجَّبِ الْـ
رُ فَفَضَّ خَائِمَهُ الْمَصُونِ	حَتَّى أَتَى الْعِلْمُ الْجَسُو
لَ لِأَهْلِهِ مَا يَصْنَعُونَ	وَالْعِلْمُ (بَدْرِيٌّ)، أَجـ ^{٥٤٦}
رَّةً، وَالْخُدُورَ عَلَى الْفَنُونِ	هَتَكَ الْحِجَالَ ^{٥٤٧} عَلَى الْحَضَا

واندس كالْمصباح في حُفْرٍ مِّنَ الْأَجْدَاثِ جُون^{٥٤٨}
حُجْرٌ مُّمَرَّدَةٌ^{٥٤٩} المعَا
لا تهتدي الرِّيحُ الهَبُو
خانت أمانةَ جارِها
قَلٍ فِي الثَّرَى، شُمُّ الحُصُونِ
بُ لَهَا، وَلَا الْغَيْثُ الْهَتُونِ
وَالْقَبْرِ كالدُّنْيَا يَخُونِ

يا ابْنَ الثَّوَابِ مِنْ (رَعِ)
نَسَبٌ عَرِيقٌ فِي الضُّحَى
أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَنْوُبُ مِنْ
وَتَدُولُ آثَارُ الْقُرُو
حُبُّ الْخُلُودِ بَنَى لَكُمْ
لَمْ يَأْخُذِ الْمَتَقَدِّمُو
حَتَّى تَسَابِقْتُمْ إِلَى إِلَّا
لَمْ تَتْرَكُوهُ فِي الْجَلِيدِ
هَذَا الْقِيَامُ، فَقُلْ لَنَا: الـ
الْبَعَثُ غَايَةُ زَائِلِ
السَّبْقُ مِنْ عَادَاتِكُمْ
أَنْتُمْ أَسَاطِينُ الْحَضَا
الْمَتَقَنُّونَ، وَإِنَّمَا
وَابْنَ الزَّوَاهِرِ مِنْ (أُمُونِ)^{٥٥٠}
بَذَّ الْقِبَائِلَ وَالْبُطُونِ
غَمَرِ الْقَضَاءِ الْمُغْرَقُونَ؟
نَ، عَلَى رَحَى الزَّيْنِ الطَّحُونِ؟
خُلُقًا بِهِ تَتَفَرَّدُونَ
نَ بِهِ، وَلَا الْمَتَأَخَّرُونَ
حَسَانٍ فِيمَا تَعْمَلُونَ
لِ وَلَا الْحَقِيرِ مِنَ الشُّثُونِ
يَوْمُ الْأَخِيرِ مَتَى يَكُونُ؟
فَانِ، وَأَنْتُمْ خَالِدُونَ
أَتُرَى الْقِيَامَةَ تَسْبِقُونَ؟
رَةِ وَالْبُنَاةِ الْمُحْسِنُونَ
يُجْزَى الْخُلُودَ الْمُتَقَنُّونَ

أَنْزَلْتَ حُفْرَةَ هَالِكٍ
أَمْ فِي مَكَانٍ بَيْنَ ذِ
هُوَ مِنْ قُبُورِ الْمُتَلَفِ
لَمْ يَبْقَ غَالٍ فِي الْحَضَا
مِيتٌ تُحِيطُ بِهِ الْحَيَا
وَذَخَائِرُ مِنْ أَغْصُرٍ وَلَـ
حَمَلْتُ عَلَى الْعَجَبِ الزَّمَّا
أَمْ حَجَرَةَ الْمَلِكِ الْمَكِينِ؟
لَكَ يَدْهَشُ الْمُتَأَمِّلِينَ؟
بَيْنَ، وَمِنْ قُصُورِ الْمُتَرَفِّينِ
رَةِ لَمْ يَحْزُرُهُ، وَلَا ثَمِينِ
ةً، زَمَانُهُ مَعَهُ دَفِينِ
تَ، وَمِنْ دُنْيَا وَدِينِ
نَ وَأَهْلَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ

فَتَلَفَّتَتْ (بَارِيْسُ) تَحْ سَبُّ أَنَهَا صَنَعُ الْبَنِيْنَ

تَذَهَبُ بِبَطْنِ الْأَرْضِ لَمْ تَذَهَبُ بِلَمَحَتِهِ الْقُرُونُ
اسْتَحْدَثَتْ لَكَ جَنْدَلًا وصفائِحا مِنْهُ الْقِيُونُ^{٥٥١}
وَنَواوِسا^{٥٥٢} وَهَاجَةً لَمْ يَتَّخِذْهَا الْهَامِدُونَ
لَوْ يَفْطِنُ الْمَوْتَى لَهَا سَرَحُوا الْأَنَامِلَ يَنْبَشُّونَ
وَتَنَازَعُوا الذَّهَبَ الَّذِي كَانُوا لَهُ يَتَفَاتَنُونَ

أَكْفَانُ وَشِي فُصِّلَتْ بِرَقَائِقِ الذَّهَبِ الْفَتِيْنِ^{٥٥٣}
قَدْ لَقَّهَا لَفَّ الضَّمَا بِ مُحَنِّطُ آسِ رَزِينِ
وَكَأَنَّهُنَّ كَمَائِمُ وَكَأَنَّكَ الْوَرْدُ الْجَنِينِ
وَبِكَلِّ رُكْنٍ صَوْرَةٌ وَبِكَلِّ زَاوِيَةٍ رَقِيْنِ^{٥٥٤}
وَتَرَى الدُّمَى، فَتَخَالِهَا أَنْ تَتَثَرَّتْ عَلَى جَنَابَاتِ رُونِ^{٥٥٥}
صُورٌ تُرِيكَ تَحَرُّگًا وَالْأَصْلُ فِي الصُّورِ السُّكُونِ
وَيَمِرُّ رَائِعُ صَمْتِهَا بِالْجِسِّ كَالنُّطْقِ الْمُبِينِ
صَحَبَ الزَّمَانَ دِهَانُهَا حِينَ عَهِيدًا بَعْدَ حِينِ^{٥٥٦}
غَضُّ عَلَى طَوْلِ الْبِلَى حَيٌّ عَلَى طَوْلِ الْمَنُونِ
خَدَعَ الْعَيُونَ وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى تَحْدَى اللَّامِسِينِ
غِلْمَانُ قَصْرِكَ فِي الرُّكَا بِ يُنَاوِلُونَ، وَيَطْرَدُونَ^{٥٥٧}
وَالْبُوقُ يَهْتَفُ، وَالسَّهَا مُ تَرِنُ، وَالْقَوْسُ الْحَنُونِ
وَكَلَابُ صَيْدِكَ لُهَثُ وَالْخَيْلُ جُنَّ لَهَا جُنُونِ
وَالْوَحْشُ تَنْفِرُ فِي السَّهْوِ لَ، وَتَارَةً تَتَّبِ الْحَزُونِ
وَالطَّيْرُ تَرْسُفُ فِي الْجِرا حَ، وَفِي مَنَاقِرِهَا أَنْيْنِ
وَكَأَنَّ أَبَاءَ الْبَرِيِّ يَ فِي الْمَدَائِنِ مُحَضَّرُونَ
وَكَأَنَّ دَوْلَةَ (آلِ شَمِ سِ) عَنْ شِمَالِكَ وَالْيَمِينِ^{٥٥٨}

* * *

وَوَلَاءَ مُحْتَفِظِ أَمِينٍ	مَلِكِ الْمُلُوكِ، تَحِيَّةً
وَسَبَقْتُ فِيهِ الْقَائِلِينَ	هَذَا الْمَقَامَ عَرَفْتُهُ
أَزُنُ الْجَلَالَ وَأُسْتَبِينَ	وَوَقَفْتُ فِي آثَارِكُمْ
أَحْجَارَهَا شِعْرِي الرَّصِينَ	وَبَنَيْتُ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ
وَجَرَى مِنَ الْحَجَرِ الْمَعِينِ	سَالَتْ عَيُونُ قِصَائِدِي
وَأَقَمْتُ جِيلاً آخِرِينَ	أَقْعَدْتُ جِيلاً لِلْهَوَى
فُعَ لِلشَّبَابِ الطَّامِحِينَ	كَنْتُمْ خِيَالَ الْمَجْدِ يُزْ
لِمَحْمَدٍ وَالْمَالِكِينَ ^{٥٥٩}	وَكَمْ اسْتَعَرْتُ جَلَالَكُمْ
لِ، فَمَا اسْتَقَرَّ عَلَى جَبِينِ	تَاجُ تَنْقَلُ فِي الْخِيَا
لُ يَشْدُهُ الرَّمْحُ السَّنِينَ	خَرَزَاتِهِ السَّيْفُ الصَّقِي

* * *

لَكَ، هَلْ جَزَعْتَ عَلَى الْعَرِينِ؟	قُلْ لِي: أَحِينَ بَدَا الثَّرَى
كِي السَّلَاحِ، وَلَا الْحَصِينِ	أَنْسَتَ مُلْغًا لَيْسَ بِالشَّا
وَالْبَحْرُ مَسْلُوبُ السِّفِينِ	الْبَرْ مُغْلُوبُ الْقَنَا
رِ صَدَفَتْ بِالْقَلْبِ الْحَزِينِ ^{٥٦٠}	لَمَّا نَظَرْتَ إِلَى الدِّيَا
تَرَى، وَالنُّطَاسِيَّ الْمُعِينِ!	لَمْ تَلَقْ حَوْلَكَ غَيْرَ (كُر)
لِ عَلَى قَبِيلٍ مُعْرِضِينَ	أَقْبَلْتَ مِنْ حُجْبِ الْجَلَا
قَ لَمْ يَجِدْهُمْ حَافِلِينَ	تَاجُ الْحَضَارَةِ حِينَ أَشْرَ
هُ مِنْ قُرُونٍ أَرْبَعِينَ	وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَمْ يَرَوْ

* * *

مَ، وَلَا أَزِيدُكَ مِنْ يَمِينِ	قَسَمًا بِمَنْ يُحْيِي الْعِظَا
بُكَ أَمْسٍ، أَوْ فَتَحِ مُبِينِ	لَوْ كَانَ مِنْ سَفَرٍ إِيَا
بِ الرُّوحِ، أَوْ نَبْضِ الْوَتِينِ	أَوْ كَانَ بَعَثُكَ مِنْ دَبِي
كِ، عَلَيْكَ غَارُ الْفَاتِحِينَ	وَطَلَعْتَ مِنْ وَايِ الْمُلُو

الْخَيْلُ حَوْلَكَ فِي الْجِلَا
وَعَلَى نَجَادِكَ هَالَتَا
وَالْجَنْدُ يَدْفَعُ فِي رِكَأِ
لِرَأَيْتَ جَيْلًا غَيْرَ جَيِّدٍ
وَرَأَيْتَ مُحْكُومِينَ قَدْ
رُوحَ الزَّمَانِ وَنَظْمُهُ
إِنْ الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ
فَإِذَا رَأَيْتَ مَشَايِخًا
لَا قِيَامَ الزَّمَانِ، تَجِدُهُمْ
هُمْ فِي الْأَوَاخِرِ مَوْلِدًا

لِ الْعَسْجَدِيَّةِ يَنْثَنِينَ^{٥٦١}
نِ مِنْ الْقَنَاءِ، وَالذَّارِعِينَ
بِكَ بِالْمُلُوكِ مُصَفِّدِينَ
بِكَ، بِالْجَبَابِرِ لَا يَدِينُ
نَصَبُوا، وَرَدُّوا الْحَاكِمِينَ
وَسَبِيلُهُ فِي الْآخِرِينَ
فَرَعَا مِنَ الْفَرْدِ اللَّعِينِ
أَوْ فِتْيَةً لَكَ سَاجِدِينَ
عَنْ رُكْبِهِ مُتَخَلِّفِينَ
وَعَقُولُهُمْ فِي الْأَوَّلِينَ!

بِمَشَقِّ

قَمِ نَاجٍ جَلَقَ،^{٥٦٢} وَأَنْشُدْ رِسْمَ مَنْ بَانُوا
هَذَا الْأَدِيمُ^{٥٦٣} كِتَابٌ لَا كِفَاءَ لَهُ
الدِّينُ وَالْوَحْيُ وَالْأَخْلَاقُ طَائِفَةٌ
مَا فِيهِ إِنْ قُلِّبَتْ يَوْمًا جَوَاهِرُهُ
بَنُو أُمِّيَّةٍ لِلْأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا
كَانُوا مَلُوكًا، سَرِيرُ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ
عَالِيْنَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا
يَا وَيْحَ قَلْبِي! مَهْمَا انْتَابَ أَرْسَمَهُمْ
بِالْأَمْسِ قَمْتُ عَلَى (الزَّهْرَاءِ)^{٥٦٦} أَنْدَبُهُمْ
فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ سَمَاوَاتٌ، وَالْوَيَّةُ
مَعَادُنُ الْعَزِّ قَدْ مَالِ الرِّغَامُ^{٥٦٨} بِهِمْ
لَوْلَا بِمَشَقِّ لَمَّا كَانَتْ (طَلِيْطَلَةٌ)
مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ

مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثُ وَأَزْمَانُ
رَثَّ الصَّحَائِفِ، بَاقٍ مِنْهُ عُنوانُ
مِنْهُ، وَسَائِرُهُ دُنْيَا وَبُهْتَانُ
إِلَّا قَرَائِحُ مِنْ رَايَ وَأَذْهَانُ^{٥٦٤}
وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا وَمَا دَانُوا^{٥٦٥}
فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ: مَا كَانُوا؟
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْكٌ وَسُلْطَانُ
سَرَى بِهِ الْهَمُّ، أَوْ عَادَتُهُ أَشْجَانُ
وَالْيَوْمَ دَمْعِي عَلَى (الْفَيْحَاءِ) هَتَّانُ^{٥٦٧}
وَنِيَّارَتُ، وَأَنْوَاءُ، وَعَقَبَانُ
لَوْ هَانَ فِي تَرْبَةِ الْإِيرَازِ مَا هَانُوا
وَلَا زَهَتْ بِبَنِي الْعَبَّاسِ بَغْدَانُ^{٥٦٩}
هَلْ فِي الْمُصَلَّى أَوْ الْمَحْرَابِ (مَرْوَانُ)؟

تَغَيَّرَ المسجدُ المحزونُ، واختَلَفَتْ
على المنابرِ أحرارٌ وعِبدان
فلا الأذانُ أذانٌ في منارته إذا تعالَى، ولا الأذانُ أذان

أَمَنْتُ بالله، واستثنيتُ جَنَّتَه
قال الرفاقُ وقد هَبَّتْ خمائلُها:
جَرَى وصفُ يلقانا بها (بَرَدَى) ٥٧٠
دخلتُها وحواشيها زُمُرْدَةٌ
والحورُ في (دُمر)، ٥٧٢ أو حولَ (هامتها)
و(رَبْوَةٌ) الوادِ في جلبابٍ راقصةٍ
والطيرُ تصدح من خلف العيونِ بها
وأقبلتُ بالنَّباتِ الأرضُ مُخْتَلِفًا
وقد صَفَا (بَرَدَى) للريح، فابترَدَتْ ٥٧٥
ثم انثنت لم يزل عنها البلال، ٥٧٦ ولا
خَلَّفتُ (لُبنان) جَنَاتِ النعيم، وما
حتى انحدرتُ إلى فيحاءٍ وارفَةٍ
نزلتُ فيها بفتيانٍ ٥٧٩ جَحَاجِحَةٍ
بيضُ الأسرَّة، ٥٨١ باقٍ فيهمُ صَيْدٌ ٥٨٢
يا فتيةَ الشام، شكراً لا انقضاء له
ما فوقَ راحتكم يومَ السماحِ يدُ
خميْلَةُ الله وشَتُّها يَدَاهُ لكم
شيدُوا لها الملكَ، وابنوا ركنَ دولتها
لو يرجعُ الدهرُ مفقودًا له خَطَرُ
الملكُ أنْ تعملوا ما اسطَعْتُموا عملاً
الملكُ أنْ تُخرَجَ الأموالُ ناشِطَةً
الملكُ تحتَ لسانِ حوله أدبُ
الملكُ أنْ تتلاقوا في هوى وطنِ

دمشقُ رُوحٌ، وجَنَّاتٌ، ورِيحان
الأرضُ دارٌ لها (الفيحاءُ) بستان
كما تَلَقَّاكَ دونَ الخُلدِ رضوان
والشمسُ فوقَ لُجَيْنِ الماءِ عِقبان ٥٧١
حورٌ ٥٧٣ كَوَاشِفُ عن ساقٍ، وولدان
الساقُ كاسِيَّةٌ، والنحرُ عريان
وللعيونِ كما للطَّيرِ ألحان
أفوافه، فهو أصباغُ وألوان ٥٧٤
لدى ستورٍ، حواشيهنَّ أفنان
جَفَّتْ من الماءِ أذْيالٌ وأردان ٥٧٧
نُبِّئتُ أن طريقَ الخلدِ لُبنان
فيها النَّدَى، وبها (طَيِّ) (وشَيَّبان) ٥٧٨
أباؤهم في شبابِ الدهرِ غَسَّان ٥٨٠
من (عبد شمس) ٥٨٣ وإن لم تَبَقَ تيجان
لو أن إحسانكم يجزيه سُكران
ولا كأوطانكم في البشرِ أوطان
فهل لها قِيَمٌ منكم وجَنان؟ ٥٨٤
فالملكُ غرسٌ، وتجديدٌ، وبنيان
لأَبٍ بالواحد المَبْكِي ثُكلان
وأن يَبِينَ على الأعمالِ إتقان
لمطلبٍ فيه إصلاحٌ وعُمران
وتحتَ عقلٍ على جَنَبِيهِ عرفان
تفرَّقَت فيه أجناسٌ وأديان

* * *

نصيحةٌ ملؤها الإخلاصُ، صديقةٌ
والشعرُ ما لم يكن ذكرى وعاطفةٌ
والنصحُ خالصه دينٌ وإيمان
ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم
أو حكمة، فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الجرح والآلام إخوان

أَخْتُ أَمِينَةَ

(وقال وقد رأى في الفلك وهي ترجع به إلى مصر طفلةً فيها من كريمته أمانة مشابهة):

هذه نورُ السفينه	هذه شِبُهْ (أَمِينَه)
هذه صورتُها مُنْ	بئْتُ عنها مُبِينَه
هذه لَوْلُوَّةٌ عَنـ	دي لها مثْلُ ثَمِينَه
من بناتِ الرومِ، لكن	لم تكن عِنْدِي مَهِينَه
أنا مَنْ يترك للديِّ	ان في الدُّنيا شُتُونَه
يا مَلَاكَ الْفُلْكِ، لي صِنْدُ	وُك في تلك المدينة ^{٥٨٥}
أنتِ في الْفُلْكِ بَهَاءٌ	وهو في (حُلُوَان) زِينَه
ناجِه، واذكُرْ له وَجْه	دَ أْبِيَه، وَحَنِينَه
وأفدُه: إنني في الـ	بجر مذ دُستُ عَرِينَه
لستُ بالنفسِ ضَنيئاً	وبه نفسِي ضَنيَنَه
أَسألُ الرحمَنَ يُرْعِيـ	كَ وإِيَّاهُ عُيُونَه

أَنْدُلُسِيَّةٌ

نظمها في منفاه بأسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده

يا نائح (الطلح)،^{٥٨٦} أشباهُ عَوَادِينَا^{٥٨٧} نَشجى لِوَادِيكَ، أم نَأْسَى لِوَادِينَا؟

قَصَّتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا؟
— أَخَا الْغَرِيبِ — وَظِلًّا غَيْرَ نَادِينَا
سَهْمًا، وَسَلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنُ سَكِينًا
مِنَ الْجَنَاحِينَ عَيٍّ لَا يُلَبِّينَا
إِنَّ الْمَصَائِبَ يَجْمَعُنَ الْمُصَابِينَا
وَلَا اذْكَارًا^{٥٨٩} وَلَا شَجْوًا أَفَانِينَا^{٥٩٠}
وَتَسْحَبُ الذِّلُّ تَرْتَادُ الْمُوَاسِينَا
فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطْسِ^{٥٩٣} الْمُدَاوِينَا؟

مَاذَا تَقْصُ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ يَدًا
رَمَى بِنَا الْبَيْنُ أَيْكََا غَيْرَ سَامِرِنَا
كُلُّ رَمَتْهُ النَّوَى: رِيَشٌ^{٥٨٨} الْفِرَاقُ لَنَا
إِذَا دَعَا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ
فَإِنْ يَكُ الْجَنْسُ يَا ابْنَ الطَّلَحِ فَرَقْنَا
لَمْ تَأَلْ مَاءَكَ تَحْنَانًا، وَلَا ظَمًا
تَجَرُّ مِنْ فَنَنِ^{٥٩١} سَاقًا إِلَى فَنَنِ
أَسَاةُ^{٥٩٢} جَسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلِبُهُمْ

وَأِنْ حَلَلْنَا رَفِيقًا^{٥٩٥} مِنْ رَوَابِينَا!!
نَجِيشَ بِالْدَّمْعِ، وَالْإِجْلَالُ يَثْنِينَا
وَلَا مَفَارِقَهُمْ إِلَّا مُصَلِّينَا^{٥٩٦}
لِلنَّاسِ، كَانَتْ لَهُمْ أَخْلَاقُهُمْ دِينَا
كَالْخَمْرِ مِنْ (بَابِلٍ) سَارَتْ (لِدَارِينَا)^{٥٩٨}
تَمَائِلُ الْوَرْدِ (خَيْرِيًّا) وَ(نَسْرِينَا)^{٥٩٩}
دُمُوعُنَا نُظِمَتْ مِنْهَا مَرَاثِينَا
وَكُدُنٌ يَوْقِطُنَ فِي التُّرْبِ السَّلَاطِينَا
عَيْنٌ مِنَ الْخُلْدِ بِالْكَافُورِ تَسْقِينَا
وَحَوْلُ حَافَاتِهَا قَامَتْ رَوَاقِينَا^{٦٠١}
وَأَرْبُعٌ أُنِسَتْ فِيهَا أَمَانِينَا
وَمَغْرِبٌ لَجْدُودٍ مِنْ أَوَالِينَا^{٦٠٢}
مِنْ بَرٍّ مِصْرَ، وَرَيْحَانُ يُغَادِينَا
وَبِاسْمِهِ ذَهَبَتْ فِي الْيَمِّ تَلْقِينَا^{٦٠٤}
لِحَاضِرِينَ، وَأَكْوَابٌ لِبَادِينَا

أَهَا لَنَا نَارِحِي أَيْكَ^{٥٩٤} بِأَنْدَلِيسٍ
رَسْمٌ وَقَفْنَا عَلَى رَسْمِ الْوَفَاءِ لَهُ
لِفَتْيَةِ لَا تَنَالُ الْأَرْضُ أَدْمَعَهُمْ
لَوْ لَمْ يَسُودُوا بَدِينٍ فِيهِ مَنَبَهُةُ^{٥٩٧}
لَمْ نَسِرْ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ
لَمَّا نَبَا الْخُلْدُ نَابَتْ عَنْهُ نُسْخَتُهُ
نَسْقِي ثَرَاهُمْ ثَنَاءً، كُلَّمَا نُثِرَتْ
كَادَتْ عَيُونُ قَوَافِينَا تَحَرَّكُهُ
لَكِنَّ مِصْرَ وَإِنْ أَغْضَتْ عَلَى مِقَّةٍ^{٦٠٠}
عَلَى جَوَانِبِهَا رَفَّتْ تَمَائِمُنَا
مَلَاعِبُ مَرَحَتْ فِيهَا مَارِبُنَا
وَمَطْلَعُ لِسْعُودٍ مِنْ أَوَاخِرِنَا
بِنَا، فَلَمْ نَحُلْ مِنْ رَوْحٍ^{٦٠٣} يُرَاوِجُنَا
كَأَمْ مُوسَى، عَلَى اسْمِ اللَّهِ تَكْفَلُنَا
وَمِصْرُ كَالْكَرَمِ ذِي الْإِحْسَانِ: فَاكْهَةٌ

بَعْدَ الْهَدُوءِ، وَيَهْمِي عَنْ مَاقِينَا

يَا سَارِي الْبَرْقِ يَرْمِي عَنْ جَوَانِحِنَا

هاج البكا، فحَضْبُنَا الأَرْضَ بِاِكِينَا
على نِيَامٍ، ولم نَهْتَفِ بِسَالِينَا
قِيَامَ لَيْلِ الهوى، للعهد رَاعِينَا
مَمَّا نُرَدِّدُ فِيهِ حِينَ يُضْوِينَا
نَجَائِبِ النُّورِ مَحْدُوًا (بَجَرِينَا)
إِنْسًا يَعِثْنَ فِسَادًا، أَوْ شِيَاطِينَا
على الغيوث، وَإِنْ كَانَتْ مَيَامِينَا
وَشْيِ الزَّبْرِجِدِ مِنْ أَفْوَافِ وَادِينَا^{٦٠}
رَبَّتْ خُمَائِلٌ، واهْتَزَّتْ بِسَاتِينَا
واتزل كما نزل الطلُّ الرِّيَّاحِينَا
بالحادثات، وَيَضْوَى مِنْ مَغَانِينَا

لَمَّا تَرَقَّرَقَ فِي دَمْعِ السَّمَاءِ دَمًا
الليلُ يَشْهَدُ لَمْ نَهْتِكْ دِيَاجِيَهُ
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرْنَا إِلَّا عَلَى قَدَمِ
كَزْفَرَةٍ فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ حَائِرَةٍ
بَالِهَةٍ إِنْ جُبَّتْ ظِلْمَاءُ الْعُبابِ عَلَى
تَرْدُ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَةٍ
حَتَّى حَوَّتْكَ سَمَاءُ النِّيلِ عَالِيَةٍ
وَأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ عَلَى
وَحَاذِكَ الرِّيفُ أَرْجَاءً مُؤَرَّجَةً
فَقَفَ إِلَى النِّيلِ، واهْتَفَى فِي خُمَائِلِهِ
وَأَسَ مَا بَاتَ يَدْوِي مِنْ مَنَازِلِنَا

فَطَابَ كُلُّ طُروحٍ مِنْ مَرَامِينَا
قَمِيصَ يَوْسَفَ لَمْ نُحَسِبْ مُغَالِينَا
بِالْوَرْدِ كُتْبًا، وَبِالرِّيَّا عَنَاوِينَا
عَنْ طَيْبِ مَسْرَاكِ لَمْ تَنْهَضْ جَوَازِينَا
غَرَائِبَ الشُّوقِ وَشَيْءًا مِنْ أُمَالِينَا؟
دُنْيَا، وَوَدَّهْمُو الصَّافِي هُوَ الدِّينَا

وَيَا مُعْطَرَةَ الْوَادِي سَرَتْ سَحَرًا
ذَكِيَّةَ الذَّيْلِ، لَوْ خِلْنَا غِلَالَتَهَا
جَشِمَتْ شَوْكُ السُّرَى حَتَّى أَتَيْتَ لَنَا
فَلَوْ جَزِينَاكَ بِالْأُرُوحِ غَالِيَةٍ
هَلْ مِنْ ذِيُولِكَ مِسْكِي نَحْمَلُهُ
إِلَى الَّذِينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرَهُمْ

وَمِنْ مَصُونِ هَوَاهِمٍ فِي تَنَاجِينَا
عَنِ الدَّلَالِ عَلَيْكُمْ فِي أُمَانِينَا
فِي النَّائِبَاتِ، فَلَمْ يَأْخُذْ بِأَيِّدِينَا
حَتَّى أَتَتْنَا نَوَاكُمُ مِنْ صِيَاصِينَا^{٦١}
تُمِيئُنَا فِيهِ ذِكْرَاكُمُ وَتُحْيِينَا
يَكَادُ فِي غَلَسِ الْأَسْحَارِ يَطْوِينَا
حَتَّى يَزُولَ، وَلَمْ تَهْدَأْ تَرَاقِينَا

يَا مَنْ نَغَارُ عَلَيْهِمْ مِنْ ضَمَائِرِنَا
نَابِ الْحَنِينِ إِلَيْكُمْ فِي خَوَاطِرِنَا
جئْنَا إِلَى الصَّبْرِ نَدْعُوهُ كَعَادَتِنَا
وَمَا غُلِبْنَا عَلَى دَمْعٍ، وَلَا جَلَدٍ
وَنَابِغِي^{٦٢} كَأَنَّ الْحَشَرَ آخِرُهُ
نَطْوِي دُجَاهَ بَجْرٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
إِذَا رَسَا النَّجْمُ لَمْ تَرْقَأْ مَحَاجِرُنَا

بتنا نُقاسِي الدَّوَاهِي من كواكِبِهِ حتى قعدنا بها حَسَرَى تُقاسِينَا
يبدو النهارُ فيخفيه تجلُّدُنَا للشامتين، ويأسُوهُ تأسَّيْنَا

سَفِيًّا لعهدِ كَأَنَّافِ الرُّبَى رِفَةً^{٦٠٨} أنَّى ذهبنا، وأعطافِ الصَّبَا لِينَا
إِذِ الزَّمَانُ بنا غَيْنَاءُ زَاهِيَّةً تَرِفُ أَوْقَاتُنَا فِيهَا رِيَّاحِينَا
الوصلُ صَافِيَّةً، والعيشُ نَاعِيَّةً والسعدُ حَاشِيَّةً، والدَّهْرُ مَاشِينَا
والشمسُ تَخْتَالُ فِي العُقَيَانِ، تَحْسِبُهَا (بَلْقِيسَ) تَرْفُلُ فِي وَشْيِ الِيمانِينَا
وَالنَّيْلُ يُقْبِلُ كَالدُّنْيَا إِذَا احْتَفَلَتْ لو كان فيها وفاءً لِلْمُصَافِينَا
وَالسَّعْدُ لو دَامَ، وَالنُّعْمَى لو اطَّردَتْ والسيلُ لو عَفَّ، والمقدارُ لو دِينَا
أَلْقَى عَلَى الأرضِ — حتى رَدَّهَا ذَهَبًا — ماءً لَمَسْنَا بِهِ الإِكْسِيرَ، أو طِينَا
أَعْدَاهُ مِنْ يُمْنِهِ (التَّابُوتُ)، وَارْتَسَمَتْ على جوانبه الأَنوارُ مِنْ سِينَا
لَهُ مَبالِغُ ما فِي الخُلُقِ مِنْ كَرَمٍ عهدُ الكرامِ، وميثاقُ الوَفِيِّينَا
لَمْ يَجِرْ لِلدَّهْرِ إِعْذارُ^{٦٠٩} أَلَّا بِأَيَّامِنَا، أو فِي لِيالِينَا
وَلَا حوى السَّعْدُ أَطْغَى فِي أَعْنَتِهِ مَنا جِيادًا، وَلَا أَرْحَى مِيادِينَا
نَحْنُ الْيَواقِيتُ، خَاضَ النَّارَ جَوهرُنَا وَلَمْ يَهْنُ بِيدِ التَّشْتِيتِ غالِينَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صَبْغٌ، وَلَا خُلُقٌ إِذا تَلَوْنَ كَالجِرْبَاءِ شانِينَا
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيزانًا، وَلَا صَعِدَتْ فِي مُلْكِها عَرشًا مِثْلَ وادِينَا
أَلَمْ تُؤَلِّهْ عَلَى حَافَاتِهِ، وَرَأَتْ عَلَيْهِ أبناءَها الغُرَّ المِيامِينَا؟
إِنْ غَاظَتْ شَاطِئِيهِ فِي الضَّحَى لِبِسا خَمائِلَ السُّنْدُسِ المَوْشِيَّةِ الغِينَا^{٦١٠}
وَباتَ كُلُّ مُجَاجٍ^{٦١١} الوادِ مِنْ شَجَرٍ لَوافِظَ القُرْ بِالخِيطانِ تَرَمِينَا
وَهذِهِ الأرضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ قَبْلَ (القِياصِرِ) دِنَها (فِراعِينَا)
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَازٍ عَلَى حَجَرٍ فِي الأرضِ إِلَّا عَلَى آثارِ بَانيِنَا
كَأَنَّ أَهرامَ مِصرٍ حائِطٌ نَهَضَتْ بِهِ يَدُ الدَّهْرِ، لَا بَنِيانُ فانيِنَا
إِيوانُهُ الفَخْمُ مِنْ عُلْيَا مَقاصِرِهِ يُقْنِي المُلُوكَ، وَلَا يُبْقِي الأَوايِنَا^{٦١٢}
كَأَنَّها وَرَمالًا حَولَها التَّطَمَّتْ سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَساطِينَا^{٦١٣}
كَأَنَّها تَحْتَ لَألَاءِ الضُّحَى ذَهَبًا

* * *

أَرْضُ الأُبُوَّةِ والمِيلَادِ طَيِّبُهَا
كَانَتْ مُحَجَّلَةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا
فَأَبَ مِنْ كُرَّةِ الأَيَامِ لِاعْبُنَا
وَلَمْ نَدْعُ لِلْيَالِي صَافِيَا، فَدَعَتْ
لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَضْنَا الْجَوَّ صَاعِقَةً
سَعِيًّا إِلَى مَصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرْنَا
كَنْزُ (بَحْلَوَانٍ) عِنْدَ اللَّهِ نَطْلِبُهُ
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيَّبَتْنَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمَصْرٍ أَوْ لَهُ شَجَنًا

مَرُّ الصَّبَا فِي ذِيُولِ مَنْ تَصَابِينَا
غُرًّا مُسَلْسَلَةً الْمَجْرَى قَوَافِينَا
وِثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لِأَهِينَا
(بَأْنِ نَغْصَ، فَقَالَ: أَمِينَا)
وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى، وَالْبَحْرَ غَسَلِينَا^{٦١٤}
فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي، وَبَاكِينَا
خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا^{٦١٥}
لَمْ يَأْتِهِ الشَّوْقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
لَمْ نَذَرِ: أَيُّ هَوَى الْأَمِينِ شَاحِينَا؟

وَصَفُ الْغَوَاصَةِ وَنَكْبَةُ الْبَاخِرَةِ لُوزِيَتَانِيَا

(قال في حادثة نفس غواصة ألمانية للباخرة لوزيتانيا):

رَأَيْتُ عَلَى لَوْحِ (الْخِيَالِ)^{٦١٦} يَتِيمَةً
فِيَا لَكَ مِنْ حَاكِ أَمِينٍ مُصَدِّقٍ
فَوَاهَا عَلَيْهَا، ذَاقَتْ الْيَتَمَ طِفْلَةً
وَلَيْتَ الَّذِي قَاسَتْ مِنَ الْمَوْتِ سَاعَةً
كَفَرَّخَ رَمَى الرَّامِي أَبَاهُ فَعَالَهُ
فَلَا أَبَ يَسْتَذِرِي^{٦١٧} بِظِلِّ جَنَاحِهِ
وَدَبَابَةٍ^{٦١٨} تَحْتَ الْعُبَابِ بِمَكْمَنٍ
هِيَ الْحَوْتُ، أَوْ فِي الْحَوْتُ مِنْهَا مَشَابِهُ
أَبَتْ لِأَصْحَابِ السَّفِينِ غَوَائِلًا
خُتُونُ إِذَا غَاصَتْ، غَدُورُ، إِذَا طَفَتْ
تَبَيَّتْ^{٦٢٠} سَفْنُ الْأَبْرِيَاءِ مِنَ الْوَعَى

قَضَى يَوْمَ (لُوسِيَتَانِيَا) أَبَوَاهَا
وَأِنْ هَاجَ لِلنَّفْسِ الْبُكََا وَشَجَاهَا
وَقُوضَ رُكْنَاهَا، وَذَلَّ صِبَاهَا
كَمَا رَاحَ يَطْوِي الْوَالِدَيْنِ طَوَاهَا
فَقَامَتْ إِلَيْهِ أُمُّهُ فَرَمَاهَا
وَلَا أُمُّ يَبْغِي ظِلَّهَا وَذَرَاهَا^{٦١٨}
أَمِينٍ، تَرَى السَّارِي وَلَيْسَ يَرَاهَا
لَوْ كَانَ فَوَلَدًا لَكَانَ أَخَاهَا
وَالْأُمُّ نَابًا حِينَ تَفْغُرُ فَاهَا
مُلْعَنَةً فِي سَبْحِهَا وَسُرَاهَا
وَتَجْنِي عَلَى مَنْ لَا يَخُوضَ رَحَاهَا

فلو أدركت تابوت موسى لَسَلَّطْتُ عليه زُبَانَاهَا،^{٦٢١} وحرَّ حُمَاهَا
ولو لم تُغَيَّبْ فُلُكُ نُوحٍ وَتَحْتَجِبْ لَمَا أَمَنْتُ مَقْذُوفَهَا وَلَظَاهَا
فلا كان بانيها، ولا كَانَ رَكْبُهَا ولا كان بحرٌ ضَمَّهَا وَحَوَاهَا
وَأُفَّ عَلَى الْعِلْمِ الَّذِي تَدَّعُونَهُ إِذَا كَانَ فِي عِلْمِ النَفُوسِ رَدَاهَا

جِسْرُ الْبُسْفُورِ

هذه القصيدة اهتمَّ بها المغفور له السلطان عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، رَأَيْتُ جِسْرًا له خَشَبٌ يَجُوعُ السَّوْسُ فِيهِ
ولا يَتَكَلَّفُ الْمِنْشَارُ فِيهِ وَكَمْ قَدْ جَاهَدَ الْحَيَوَانُ فِيهِ
وَأَسْمَجُ مِنْهُ فِي عَيْنِي جُبَاةٌ^{٦٢٢} إِذَا لَا قَيْتَ وَاجِدَهُمْ تَصَدَّى
وَيَمْشِي (الصدر)^{٦٢٣} فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ وَلَكِنْ لَا يَمُرُّ عَلَيْهِ إِلَّا
وَمَنْ عَجِبَ هُوَ الْجِسْرُ الْمُعَلَّى يُفِيدُ حُكُومَةَ السُّلْطَانِ مَا لَا
يَجُودُ الْعَالَمُونَ عَلَيْهِ، هَذَا وَغَايَةُ أَمْرِهِ أَنَا سَمِعْنَا
(أَلَيْسَ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ مِثْلِي) (وَتُؤْخَذُ بِاسْمِهِ الدُّنْيَا جَمِيعًا)

أَمْرٌ عَلَى الصَّرَاطِ، وَلَا عَلَيْهِ وَتَمْضِي الْفَارُّ لَا تَأْوِي إِلَيْهِ
سَوَى مَرِّ الْفَطِيمِ بِسَاعِدَيْهِ وَخَلَّفَ فِي الْهَزِيمَةِ حَافِرِيهِ
تَرَاهُمْ وَسَطَهُ وَبِجَانِبَيْهِ كَعَفْرِيتٍ يُشِيرُ بِرَاحَتَيْهِ
بِمُوكِبَةِ السَّنِيِّ وَحَارِسِيهِ كَمَا مَرَّتْ يَدَاهُ بِعَارِضِيهِ
عَلَى الْبُسْفُورِ يَجْمَعُ شَاطِئِيهِ وَيُعْطِيهَا الْغِنَى مِنْ مَعْدِنِيهِ
بِعَشْرَتِهِ، وَذَاكَ بَعَشْرَتِيهِ لِسَانَ الْحَالِ يُنْشِدُنَا لَدِيهِ
يَرَى مَا قَلَّ مُمْتِنَعًا عَلَيْهِ؟ وَمَا مِنْ ذَاكَ شَيْءٍ فِي يَدَيْهِ؟

كتاب بعث به إلى المرحوم حسين واصف باشا، يستهديه لكرمة ابن هاني بالمطرية
شجيرات، وكان مشهوراً باقتناء الرياحين والعناية بتربيتها:

إِلَى حُسَيْنٍ حَاكِمِ الْقُنَالِ مِثَالِ حُسْنِ الْخُلُقِ فِي الرِّجَالِ

أُهْدِي سَلَامًا طَيِّبًا كَخُلُقِهِ
وَأَحْفَظْ الْعَهْدَ لَهُ عَلَى النَّوَى
وَبَعْدُ فَالْمَعْرُوفُ بَيْنَ الصَّحْبِ
وَعِنْدَكَ الرَّهْرُ بَيْنَ الصَّحْبِ
وَقَدْ سَمِعْتُ عَنْكَ مِنْ ثِقَاتٍ
زَهْرُكَ لَيْسَ لِلزُّهُورِ رَوْنُقُهُ
مَا نَظَرْتُ مِثْلَكَ عَيْنُ النَّرْجِسِ
وَلِي مِنَ الْحَدَائِقِ الْغِنَاءُ
أَتَيْتُ أَسْتَهْدِي لَهَا وَأَسْأَلُ
عَشْرَ شَجِيرَاتٍ مِنَ الْغَوَالِي
تَزْكُو وَتَزْهَوُ فِي الشِّتَا وَالصَّيْفِ
تُرْسَلُهَا مُؤَمَّنًا عَلَيْهَا
وَالْحَقُّ فِي الْخَرْطُومِ أَيْضًا حَقِّي
وَبَعْدَ هَذَا لِي عَلَيْكَ زُورَةٌ
فَإِنْ فَعَلْتَ فَالْقَوَافِي تَفْعَلُ
فَمَا رَأَيْتُ فِي حَيَاتِي أَزِينَا

مَعَ احْتِرَامٍ هُوَ بَعْضُ حَقِّهِ
وَالصَّدَقُ فِي الْوَدِّ لَهُ وَفِي الْهَوَى
أَنَّ التَّهَادِي مِنْ دَوَاعِي الْحَبِّ
كِلَاهُمَا فِيمَا يَقَالُ نَدُو
أَنْكَ أَنْتَ مَلِكُ النَّبَاتِ
تَكَادُ مِنْ فَرْطِ اعْتِنَاءٍ تَخْلُقُهُ
بَعْدَ مَلُوكِ الظَّرْفِ فِي الْأَنْدَلِسِ
رَوْضٌ عَلَى (الْمُطَرِّيَّةِ) الْفَيْجَاءِ
وَأَرْتَضِي النَّزْرَ وَلَا أُثْقَلُ
تَنْدُرُ إِلَّا فِي رِيَاضِ الْوَالِي
وَتَجْمَعُ الْأَلْوَانَ مِثْلَ الطَّيْفِ
إِنْ هَلَكْتُ لِي الْحَقُّ فِي مِثْلِهَا
وَالدَّرْسُ لِلخَادِمِ كَيْفَ يَسْقِي
لَكِي تَدُورُ حَوْلَ رَوْضِي دُورُهُ
مَا هُوَ مِنْ فَعْلِ الزُّهُورِ أَجْمَلُ
لِلْمَرْءِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا

هوامش

- (١) أسباب السماء: مراقبيها، أو طرقها، أو نواحيها، أو أبوابها.
- (٢) الأمة: المملوكة. وبلقيس: صاحبة نبي الله سليمان (عليه السلام) الذي سُخِّرَتْ له الريح.
- (٣) بُرْد: جميع بريد.
- (٤) بطاء: جمع بطيء.
- (٥) العماء: السحاب المرتفع، أو الكثيف، أو الممطر، أو الرقيق.
- (٦) السُّهَا: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.
- (٧) الضيف: النزول على غيره ويكون للواحد والجمع؛ لأنه في الأصل مصدر.
- (٨) يريد به نابليون الأول.

الشوقيات

- (٩) الصِّلَف: مجاوزة قدر الظرف.
(١٠) الرُّوَاء: حسن المنظر.
(١١) مركب ذي عدواء: أي ليس بمطمئن.
(١٢) الرُّوَاء: الماء العذب.
(١٣) القادمة: واحدة القوادم، وهي عشر ريشات في مقدّم الجناح، وهي كبار الريش.

- (١٤) دُكَاء: اسم للشمس.
(١٥) العفاء: الدروس والهلاك والفناء.
(١٦) الوضاء: المشرقة الحسنة.
(١٧) الدعامة أو الدعام: عماد البيت.
(١٨) قعساء: أي ثابتة.
(١٩) العرباء من العرب: الصُّرحاء الخلس.
(٢٠) العنقاء: طائر معروف الاسم مجهول الجسم.
(٢١) الروضة الكثيرة العشب.
(٢٢) الجوزاء: برج في السماء.
(٢٣) بليت: امتحنت.
(٢٤) غرَّاء: ناصعة.
(٢٥) الألباء: العقلاء، جمع لبيب.
(٢٦) أدنى الشيء: قرّبه إليه.
(٢٧) جوفاء: فارغة.
(٢٨) مقلعة: زاهية. والشؤبوب: الدفعة من المطر.
(٢٩) الأصيل: نصف الجرّة يُزرع فيها الرياحين.
(٣٠) العوراء: الكلمة أو الفعلة القبيحة.
(٣١) انبجست: أي انفجرت.
(٣٢) الحصباء: الحصى، الواحدة حصبة، والبوغاء: ما يثور من الغبار ودقائق

التراب.

- (٣٣) أشلاء واحدها شلو: العضو والجسد من كل شيء.
(٣٤) الدأماء: البحر

- (٣٥) يريد النار التي ظهرت لموسى الكليم وهو سائر بأهله شطر طور سيناء.
- (٣٦) أيامى: جمع أيم، وهي المرأة التي تفقد زوجها، أو الرجل الذي يفقد امرأته. وتأساء: تعزیه وتسلیة.
- (٣٧) الحبيب: الفقايع التي تعلقو الخمر.
- (٣٨) اللب، موضع القلادة من الصدر.
- (٣٩) جلا: أي كشف. والجمان: اللؤلؤ. والشنب: عذوبة الأسنان
- (٤٠) الشقيق: أحد شقائق النعمان، وهي أزهار حمراء فيها بقع سوداء.
- (٤١) النخب: جمع نخبة وهي المختار من كل شيء.
- (٤٢) انتشب الشجر: التفّ. والزهر: الزهراء.
- (٤٣) السنا هنا مقصور من السناء: بمعنى الرفعة. والطنب: الود، أو الحبل الذي يشدُّ به سرادق البيت.
- (٤٤) الرفرف: الرقيق من ثياب الديباج. والسجوف: الستور جمع سجاف.
- (٤٥) يشبّه مصابيح القصر بشهب ثابتة.
- (٤٦) المنتقب: النقاب.
- (٤٧) الجيش اللب: ذو الكثرة والضجيج.
- (٤٨) السبب: الحبل، ويشير به أولاً إلى زمام الدابة، وثانياً إلى سوط السائق.
- (٤٩) الخبب: سرعة عدو الجياد.
- (٥٠) ترتمي: بمعنى ترمي. والربغ: الابتهاال، والمعنى أنها تذهب بهنّ إلى ملجأ هو وحده غاية الراجي وكعبة الضارع.
- (٥١) السراة: جمع سري، وهو السيد الشريف في سخاء ومروءة. والنجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحبيب.
- (٥٢) الربح: جمع رحبة، وهي الأرض المتسعة.
- (٥٣) الكتب: القريب.
- (٥٤) المطارف: أودية من خزّ. والقشب: الجدد.
- (٥٥) التالد: القديم
- (٥٦) اللجين: الفضة.
- (٥٧) اللجب: الضجيج.
- (٥٨) البان: شجر سبط القوام لين ويشبّه به القدّ لطوله.

- (٥٩) الحذب: العطوف.
- (٦٠) الصعد: جمع صعد بكسر العين وهو المرتفع. والصبب: المنحدر.
- (٦١) الأسل: الرماح. والقضب: السيوف.
- (٦٢) الوصيب: التعب.
- (٦٣) النهب: جمع نهبة، وهي المنهوب.
- (٦٤) الخوان — بكسر الخاء وضمها —: يوضع عليه الطعام. والقطب بتسكين الطاء ويخفف: سيد القوم.
- (٦٥) السغب: الجوع.
- (٦٦) العلب: نوع من الأقداح الضخمة.
- (٦٧) السلب: ما يسلب وينهب.
- (٦٨) الحوائم: العطاش. والقرب: سير الليل لورد الغد.
- (٦٩) الحقب: جمع حقبة وهي هنا بمعنى السنة.
- (٧٠) الندى: الكرم. والنشب: العقار أو المال.
- (٧١) الحذب: العطف والإشفاق.
- (٧٢) الروض الأشب: الملتفُّ.
- (٧٣) ارتغب في الأمر: رغب فيه.
- (٧٤) الغيب: جمع غائب.
- (٧٥) مفند: مكذب.
- (٧٦) المدنَّف: الذي أثقله المرض.
- (٧٧) الطلاء: الخمر.
- (٧٨) الحقب: جمع حقبة، وهي السنة.
- (٧٩) الحبيب: الفقايع التي تعلقو الماء والخمر.
- (٨٠) الهالة: دارة القمر.
- (٨١) الطنب: حبل طويل يشدُّ به سرادق البيت أو الوتد.
- (٨٢) الشنب: ماء ورقة وعذوبة في الأسنان.
- (٨٣) الشادن: ولد الطيبة. واللب: المنحر، وموضع القلادة من الصدر.
- (٨٤) قشب: جمع قشيب وهو الجديد، والقشيب أيضًا: الأبيض والنظيف.
- (٨٥) اليلب: الترسة أو الدروع اليمانية من الجلود وقيل جلود يخرز بعضها إلى بعض تلبس على الرءوس، واليلب: الفولاذ، واليلب: خالص الحديد.

- (٨٦) السغب: الجوع، وقيل لا يكون إلا مع تعب.
- (٨٧) النشب: المال والعقار.
- (٨٨) الأشب: الملتف.
- (٨٩) أدب: أقام المأدبة.
- (٩٠) الأرب: الماهر البصير.
- (٩١) تراعها: تصغي إليها.
- (٩٢) النقل بالفتح: ما يتنقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما.
- (٩٣) انقضابا: انقطاعاً.
- (٩٤) تجنب: تنحى.
- (٩٥) الجنب: الفناء.
- (٩٦) لم تحجل غراباً: كناية عن أنها لم تقلد كما قلّد الغراب الطاووس.
- (٩٧) الدجن: لباس الغيم الأرض.
- (٩٨) كافور: هو كافور الأحشيدي ممدوح المتنبي. وعبد الخنا: أي كافور.
- (٩٩) الأزهر: يعني به معهد الأزهر.
- (١٠٠) الأعزال: الذين لا سلاح لهم.
- (١٠١) لم يملك ذهاباً: أي لم يستطع.
- (١٠٢) الجبرتي: المؤرّخ المعروف.
- (١٠٣) الشيخ يعني به الجبرتي. والردن: أصل الكم، وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير. والمرقم: القلم. والصّل: الثعبان.
- (١٠٤) السباب: السب.
- (١٠٥) يتغابى: يتغافل.
- (١٠٦) غلابا: أي مغالبة.
- (١٠٧) المغازي: وقائع الحروب والمعاني. ترابا، أي يشكّ في قيمتها بالنظر لعظيم أثرها في مستقبل الشرق.
- (١٠٨) مثابا: أي مرجعاً.
- (١٠٩) بنات الدهر: أي شدائده. وكعاب: أي وهي صبية لم تكبر.
- (١١٠) الصاب: عصارة شجر مرّ.
- (١١١) نصيبين: أكبر الوقائع وأشهرها بين إبراهيم بن محمد علي وبين الأتراك.
- التل: واقعة التلّ الكبير المشهورة التي جرّت على مصر الاحتلال الإنجليزي.

- (١١٢) النسر: يعني به نابليون.
- (١١٣) عقبان: واحدها عقاب؛ وهو طائر من الجوارح.
- (١١٤) الجيزي: يعني به هرم الجيزة. واعتصب: تتوج.
- (١١٥) النقع: الغبار. والإهاب: الجلد.
- (١١٦) الضاحي: البارز. والزهر: يعني بها النجوم.
- (١١٧) الجلال: واحدها جل وهو للدابة كالثوب للإنسان تصان به.
- (١١٨) الصبوح: ما أصبح عند القوم من الشراب فشربوه.
- (١١٩) أحد آلهة قدماء المصريين.
- (١٢٠) الأيك: الشجر الكثيف الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.
- (١٢١) أقاح: واحدها أقحوانة وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.
- (١٢٢) يقائق: جمع يقق، وأبيض يقق أي شديد البياض ناصعه. والنسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة.
- (١٢٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.
- (١٢٤) الخطر: نبات يُجْعَلُ ورقه في الخضاب الأسود يُخْتَضَبُ به.
- (١٢٥) الحبر: جمع حبرة بالتحريك ضرب من برود اليمن، وملاءة سوداء تلبسها نساء مصر.
- (١٢٦) صفاح: واحده صفح وهو عرض السيف.
- (١٢٧) الملواح: السريع العطش.
- (١٢٨) رزحت الناقة رزوحًا: ألقت نفسها إعياءً وهزالًا.
- (١٢٩) الطرف: هو الكريم من الخيل.
- (١٣٠) المزمور: واحد المزامير وهي الأناشيد والأدعية التي كان يترنم بها داود (عليه السلام).
- (١٣١) أقيالهم: ملوكهم.
- (١٣٢) مجامر الياقوت: جمع مجمرة وهو اسم ما يُجْعَلُ فيه الجمر.
- (١٣٣) لم يقصد: لم يعدل.
- (١٣٤) المقود: ما يقاد به من حبل أو غيره.

- (١٣٥) الفدن: القصر المشيد.
- (١٣٦) الجلمد: الصخر.
- (١٣٧) العميد: الذي هزّه العشق.
- (١٣٨) الصّفا: الصّخر.
- (١٣٩) لبيد: هو لبيد بن أبي ربيعة أحد المعمرين.
- (١٤٠) حسين: هو الحسين بن علي بن أبي طالب. ويزيد: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.
- (١٤١) السنا: الضوء: وحليت المرأة. لبست حليها؛ أي ما تتزين به. ونضيد: أي متسق.
- (١٤٢) الدُمي: واحدتها دمية وهي الصورة المنقشة المزينة.
- (١٤٣) الصّفا: الصّخر.
- (١٤٤) العيب: الماء المتدفق.
- (١٤٥) المشفر: الشفة من الإنسان.
- (١٤٦) الخميس: الجيش.
- (١٤٧) أذنت: أنصتت.
- (١٤٨) أقبال الجبال: أي وجوها.
- (١٤٩) أمُّ الكتاب: فاتحته.
- (١٥٠) الأحبار: جمع حَبْرٍ وهو العَالِم، وقيل الصالح من العلماء.
- (١٥١) المعالم: جمع معلم وهو ما يستدلُّ به على الطريق من أثرٍ ونحوه.
- (١٥٢) هوج: جمع هوجاء، والريح الهوجاء التي تستوي في هبوبها وتقلع البيوت.
- (١٥٣) الضاحي: المكان البارز. ويزجي: يسوق ويستحثُّ.
- (١٥٤) الإمام: الجواري.
- (١٥٥) الإزار: الملحفة وكل ما ستر.
- (١٥٦) النجد: ما ارتفع من الأرض. والغور: القعر من كل شيء.
- (١٥٧) إطار الشيء: كل ما أحاط به.
- (١٥٨) الجمار: جمع جمرة، وهي الحصى.
- (١٥٩) اخضل الشيء: صار ندياً بليلاً. والنضار: الذهب.
- (١٦٠) الدُّجى: الظلمة، أو سواد الليل.

- (١٦١) الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.
 (١٦٢) الضريب: الثلج. والفارع: المرتفع الهيئ الحسن.
 (١٦٣) الحزن: ما غلظ من الأرض.
 (١٦٤) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعدٍ ولا برق.
 (١٦٥) الخطَّار: المضطرب.
 (١٦٦) البتَّار: السيف القاطع.
 (١٦٧) الأصيد: الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يميناً وشمالاً.
 (١٦٨) الشعري: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء وطلوعه في شدَّة الحر. وزرى عليه فعله: عابه.
 (١٦٩) الفلك: السفينة، يؤنث ويذكر.
 (١٧٠) الأين: الإعياء.
 (١٧١) اللجين: الفضة.
 (١٧٢) الهباء: الغبار أو ما يشبه الدُّخان.
 (١٧٣) العيالم: جمع عيلم وهو البحر.
 (١٧٤) الأناسى: جمع إنسي.
 (١٧٥) الدَّوح: جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة المتَّسعة من أي شجرة كانت.
 (١٧٦) تَأَرَّجَ: أي فاح.
 (١٧٧) أوزار الحرب: آلاتها.
 (١٧٨) الإزار: الملحفة.
 (١٧٩) المزار. الزيارة.
 (١٨٠) العوادي: العوائق.
 (١٨١) البسيط: الأرض الواسعة.
 (١٨٢) أشبل عليه: أي عطف، والمرأة تشبل على أولادها: أقامت عليهم بعد وفاة زوجها ولم تتزوج.
 (١٨٣) البيعة: متعبَّد النصارى.
 (١٨٤) تحمَّل: ارتحل.
 (١٨٥) رصف الحجارة رصفاً: ضم بعضها إلى بعض.
 (١٨٦) الملاوة: البرَّهة من الدهر.

- (١٨٧) الصَّبَا: ريح مهبها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.
(١٨٨) السنة: النعاس.
(١٨٩) خلس الشيء: أخذه في نهزة ومخاتلة.
(١٩٠) أسا الجرح: داواه.
(١٩١) قساه تقسية: أي صيَّره قاسياً.
(١٩٢) مستطار: استطير الشيء: طير وانتشر.
(١٩٣) رَنَّ: أي صاح ورفع صوته بالبكاء.
(١٩٤) الجرس: الصوت.
(١٩٥) الراهب: هو مَنْ تبتل
(١٩٦) فطن للشيء: أي حذق به.
(١٩٧) النقس: ضرب النواقيس.
(١٩٨) اليمُّ: البحر.
(١٩٩) الدوح: جمع دوحة: وهي الشجرة العظيمة.
(٢٠٠) المرجل: القدر من الحجارة والنحاس.
(٢٠١) هفا: أي أسرع.
(٢٠٢) السواد: ما حول البلدة من القرى.
(٢٠٣) الأييك: الشجر الكثير الملتف، وقيل: الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.
(٢٠٤) الجرس: الصوت، أو خفيه.
(٢٠٥) الصَّرح: القصر، وكل بناءٍ خالٍ.
(٢٠٦) العباب: كثرة الماء، والعباب: معظم السيل، والعباب: ارتفاعه وكثرته.
(٢٠٧) النكس: الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه.
(٢٠٨) صنعاء: قصبة بلاد اليمن، وقرية بباب دمشق.
(٢٠٩) ثوب قسي وتكسر قافه، منسوب إلى قس وهو موضع بين العريش والفرما، من أرض مصر.
(٢١٠) العقيق: كل ما شقَّه ماء السيل فأنهره ووسَّعه، ويعني بالعقيق هنا عقيق المدينة، وهو معروف.
(٢١١) المتحسي: أي الشارب.

الشوقيات

- (٢١٢) يخسي: من خسا البصر. كلُّ وأعيا.
(٢١٣) رمسي: أي رمسيس.
(٢١٤) اليراع: القصب.
(٢١٥) سلسلت النخلة سلسًا: ذهب كريهًا.
(٢١٦) جاب: الجابي الذي يجمع الخراج.
(٢١٧) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.
(٢١٨) يغسي: يظلم.
(٢١٩) فطس الرجل: تطامنت قصبه أنفه وانتشرت في وجهه، فهو أفطس. والجمع فُطُس.
(٢٢٠) عنس: جمع عانس، وهي الجارية التي طال مُكُثُّها في أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.
(٢٢١) صيد: واحدها صائد.
(٢٢٢) الفرس: الافتراس.
(٢٢٣) عقلت: قيدت.
(٢٢٤) غسَّ في البلاد غسًا: دخل فيها ومضى قدمًا.
(٢٢٥) ليلة لوكس: أي ليلة دخول القمر في نجمٍ منحوس.
(٢٢٦) عفت: درست ومحت.
(٢٢٧) كرسي: أي عرش.
(٢٢٨) نطس: أي عالم.
(٢٢٩) الرمس: القبر.
(٢٣٠) شفتني: أي وعظتني هي أيضًا وعظًا شافيًا.
(٢٣١) العنس: الناقة.
(٢٣٢) الحزن: ما غلظ من الأرض.
(٢٣٣) الدَّهَس: المكان السهل ليس برملٍ ولا تراب.
(٢٣٤) الخلائف: جمع خليفة.
(٢٣٥) المنار: العلم يُجْعَلُ للطريق.
(٢٣٦) طلس: واحدها أطلس، وهو ما لونه أسود تخالطه غبرة.
(٢٣٧) القلس: حبل السفينة.

- (٢٣٨) الحدس: السير على غير هداية.
(٢٣٩) القعس: العزُّ الثابت.
(٢٤٠) ضفت: من ضفا: سبغ واتَّسع.
(٢٤١) الخميس: الجيش. والدرافس: العلم الكبير.
(٢٤٢) الهجس: كل ما وقع في خلد الإنسان.
(٢٤٣) محس: أي حاس بهم.
(٢٤٤) الحرس: الدَّهر.
(٢٤٥) الأمس: الأقرب.
(٢٤٦) نهلان: جبل بالعالية.
(٢٤٧) قدس: جبل عظيم بنجد.
(٢٤٨) السواري: واحدتها سارية، وهي الأستوانة (العمود).
(٢٤٩) الوزير: يعني به ابن مقلّة المشهور بجودة الخط.
(٢٥٠) سطرِيها: صفيها.
(٢٥١) ويحها كم تزينت لعليم: أي لمدرس عالم واستعدَّت لإقامة الصلوات الخمس.
(٢٥٢) الرفيف: السقف.
(٢٥٣) الدَّمقس: الحرير.
(٢٥٤) المعارج: واحدھا معرج، وهو السلم والمصعد.
(٢٥٥) منذر. هو قاضي الأندلس منذر بن سعيد المعروف بالعدل والزهد.
(٢٥٦) ريا ورده: أي رائحة ورده.
(٢٥٧) الدَّاخل: هو «عبد الرحمن بن معاوية بن هشام» مؤسس الدولة الأمويَّة بالأندلس.

- (٢٥٨) الشمس: الأُبة.
(٢٥٩) الندس: الفهم.
(٢٦٠) عصائب برس: أي بيض كالقطن.
(٢٦١) العسُّ: احتراس الليل.
(٢٦٢) الورس: نبات أحمر اللون.
(٢٦٣) الضرس؛ من ضرس الزمان القوم: اشتدَّ عليهم.
(٢٦٤) الحس: القتل.

- (٢٦٥) الحفاظ: الذبُّ عن المحارم.
 (٢٦٦) الجبس: الجبان.
 (٢٦٧) شهر رجب، أو صفر، أو شهر من شهور الصيف.
 (٢٦٨) بقرس: ببارد.
 (٢٦٩) حو المرافش: أي سمر الشفاه، وهو مستملح من النساء.
 (٢٧٠) المرافش: الشفاه.
 (٢٧١) اللعس: سوادٌ مستحسن في الشفة.
 (٢٧٢) الخود: جمع خودة وهي المرأة الشابة.
 (٢٧٣) العقيان: الذهب الخالص.
 (٢٧٤) الخميلة: الموضع الكثير الشجر.
 (٢٧٥) السلس: الخيط الذي ينظم به الخرز الأبيض تلبسه الإماء، وقيل القرط من الحلي.

- (٢٧٦) أسف الطائر: على وجه الأرض.
 (٢٧٧) العرف: لحمة مستطيلة في أعلى رأس الديك.
 (٢٧٨) الجرس: الصوت، أو خفيّة.
 (٢٧٩) رفس: من رفس الرجل إذا مشى مشياً ضعيفاً.
 (٢٨٠) العين: جمع عيناه، وهي المرأة التي عظم سواد عينها في سعة.
 (٢٨١) سوافر: جمع سافرة، وهي المرأة التي كشفت عن وجهها.
 (٢٨٢) مأزر: جمع إزار، وهو الملحفة.
 (٢٨٣) الأسود: هو الحجر الأسود الذي بمكة.
 (٢٨٤) الحطيم: جدار حجر الكعبة، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام.
 (٢٨٥) البضُّ: الرخص الجسد.
 (٢٨٦) وضا: وضاء.
 (٢٨٧) ريم: غزال.
 (٢٨٨) أمضى: أهد.
 (٢٨٩) زلفى: تقرباً.
 (٢٩٠) يترضى: يطلب الرضا.
 (٢٩١) قضا: حصى.

- (٢٩٢) محضًا: خالصًا.
(٢٩٣) تقضى: تفنى.
(٢٩٤) فضًا: مفضوضًا.
(٢٩٥) جرضى: مغمومين.
(٢٩٦) حضوضى: جبل في البحر.
(٢٩٧) مضّ: موجع.
(٢٩٨) ينضى: يُسَلّ
(٢٩٩) معن: هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب.
(٣٠٠) ظهيرًا: نصيرًا.
(٣٠١) حاشه، من حاش الصيد: أخرجته في كل مكان.
(٣٠٢) غيضًا، من غاض الماء غيضًا: نقص أو غار فذهب في الأرض.
(٣٠٣) نقضًا: ما انتقض من البناء، أي انتكث.
(٣٠٤) الخطاب للنفس: خاطبها كما يخاطبها فيلسوف، علم بدائعها، وبحث عن حقيقتها؛ فراها تزيد غموضًا كلّما زاد بحثًا، مع أنها أقرب ما يكون إليه.
(٣٠٥) الضاحيات: الطاهرات البارزات، وصف بها محاسن النفس، وقال: إنها مع ذلك، مطلعها بعيد وجلالها مستور.
(٣٠٦) «من» زائدة، والمعنى: أن النفس اتخذها الجمال مظهرًا لعزه، وموضعًا لسره.
(٣٠٧) الصناع: الماهر في الصناعة.
(٣٠٨) نصب اسم الجلالة على الاستغاثة، والكلام في الأبيات الخمسة بعده وصف لما عاناه الأبحار والفلاسفة من البحث عن حقيقة النفس، فشق طريقهم كلّما زادوا بحثًا، أمّا الجاهلون ففي راحة سائرون في المهيّع، أي الطريق الواسع البين.
(٣٠٩) الضمير في ذلك يرجع إلى النفس، أراد بها الجوهر الإلهي.
(٣١٠) حلّ الحبّ: نهض، والمقصود هنا تقديس الروح العالي الذي نفخ الله في آدم (عليه السلام).
(٣١١) أراد بيوسف: يوسف الصديق، ومعنى تَكْرُم النبوة فيه أنها سمت بنفسه وبلغت بها الكمال لمّا عفّ، وأراد بالمرضع: السيد المسيح (عليه السلام).
(٣١٢) أراد بالبَابِيّ: السحر إشارة إلى قوله ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

- (٣١٣) إشارة إلى العليقة الملتهبة.
- (٣١٤) فاعل طويت يعود على النبوة. والخلال: الصفات والمزايا التي يبقى أثرها كما يبقى أثر الخمر بعدما تزول.
- (٣١٥) التبغ: يعسوب النحل الأعظم، وهو ما يسمونه الملكة.
- (٣١٦) الدُمي: الصور، أو التماثيل الجميلة، أشار بما في الأبيات الثلاثة المتقدمة إلى تفاوت النفوس في الناس.
- (٣١٧) أي لولا كبار النفوس لما ارتقى العالم وصلحت الأنعام، والمقصود من الكمال هنا: بلوغ النفس الكمال في النبوة، أو ما يقرب من الكمال في بعض العبقريين من الناس، والرئيس منهم.
- (٣١٨) فاعل ضجت عائد إلى المنازل أي الأجسام، ومعالم ومعاهد منصوبتان على التمييز. أراد بالمعالم: ذوي النفوس الصغيرة، وبالمعاهد: ذوي النفوس الكبيرة.
- (٣١٩) المرفع: الكرنفال الذي يلبس الناس فيه ثياباً مزوّقة.
- (٣٢٠) فزعت: تأهبت أو استجارت، والضمير عائد إلى أجسام. وأراد بالقيامة: ساعة الموت.
- (٣٢١) البلم: صغار السمك.
- (٣٢٢) المزنة: هي هنا السحابة الممطرة.
- (٣٢٣) تفهّق: فهق الإناء امتلاً حتى صار يتصبّب.
- (٣٢٤) النول: خشبة الحائك ينسج عليها.
- (٣٢٥) يخلق: يبلى.
- (٣٢٦) الإستبرق: الحرير.
- (٣٢٧) مترع: ممتلئ.
- (٣٢٨) الشرق: الغرقى.
- (٣٢٩) تنفق: يفنى ويقلّ.
- (٣٣٠) العسجد: الذهب.
- (٣٣١) الراووق: المصفّاة.
- (٣٣٢) الحمأة: الطين الأسود.
- (٣٣٣) تتروّق، من روق الشراب: صفّاه.
- (٣٣٤) تخلق: أي تكون خليقة وجديرة.

- (٣٣٥) السنن: النهج.
- (٣٣٦) الموسق: اسم فاعل من أوسق، والهمزة فيه للتعدية، وثلاثيه وسق من وسقت الشاة ونحوها بمعنى لقحت، أو من وسقت الشيء إذا حملته.
- (٣٣٧) ينفق، من نفق الرجل والدابة: ماتا، يعني ما مات من الإنسان، وما هلك من الحيوان.
- (٣٣٨) استذرى بفلان: التجأ إليه، واستذرى بالشجرة: أي استظل بها.
- (٣٣٩) المنهل: المورد.
- (٣٤٠) المعرَّق: العريق في النسب.
- (٣٤١) الجوسق: القصر.
- (٣٤٢) ينتق: يززع.
- (٣٤٣) المحلة: المنزل.
- (٣٤٤) الأزواد: جمع زاد وهو الطعام يُتَّخَذ للسفر.
- (٣٤٥) المطبق: السجن تحت الأرض.
- (٣٤٦) تنتسق: تنتظم.
- (٣٤٧) منطق: مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه.
- (٣٤٨) تعنق: من عتق الشيء؛ قدم.
- (٣٤٩) الدُمي: جمع دمية، وهي الصورة المنقَّشة.
- (٣٥٠) مسترديات: لابسات.
- (٣٥١) تنفنع: تنتعم.
- (٣٥٢) عطلت: من عطلت المرأة لم يكن عليها حلي.
- (٣٥٣) العبير: أخلاط من الطيب.
- (٣٥٤) يلبق: يليق.
- (٣٥٥) الريق من كل شيء: أوله وأصله.
- (٣٥٦) الغرائق: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل، ويقصد التماثيل.
- (٣٥٧) تحسّر: من حسر البصر؛ كلَّ لطول مدى البصر.
- (٣٥٨) جلق: دمشق.
- (٣٥٩) مفتق: من فتق قرن الشمس أصاب فتقا من السحاب فبدا منه.
- (٣٦٠) تعنو: تخضع وتذل.

- (٣٦١) الفيلق: الكتيبة العظيمة.
- (٣٦٢) النمرق: الوسادة الصغيرة.
- (٣٦٣) موبق: مهلك.
- (٣٦٤) تصدق: من أصدق الرجل المرأة أى سمى لها صداقها.
- (٣٦٥) الحول: السنة.
- (٣٦٦) يلبُّ: من لبَّ أى صار لبيباً.
- (٣٦٧) الترب: مَنْ وُلِدَ معك.
- (٣٦٨) يحدو: من حدا الإبل؛ ساقها وغنى لها.
- (٣٦٩) الصَّلَت: السيف الصقيل الماضي.
- (٣٧٠) انثال: أى انصب.
- (٣٧١) أزيَّة: الأزل: القدم.
- (٣٧٢) تغسق: تظلم.
- (٣٧٣) ييثق: من بثق السيل موضع كذا: خرقة وشقّه.
- (٣٧٤) تمحَّق: من محقه أهلكه.
- (٣٧٥) الذرُّ: الهباء المنبعث في الهواء، الواحدة ذرّة.
- (٣٧٦) الخرنق: الفتى من الأرنب.
- (٣٧٧) الوضع: الغرّة، والوضح: التحجيل في القوائم.
- (٣٧٨) العسجد: الذهب.
- (٣٧٩) الزئبق: نبات له زهر طيب الرائحة.
- (٣٨٠) الندى: الندى.
- (٣٨١) استحبوا الكُّهان: أي ولَّوهم الحجابة، وهي خطة الحاجب أي البواب.
- (٣٨٢) العتيق: الكعبة.
- (٣٨٣) الأيئق: جمع ناقة.
- (٣٨٤) الهدى: ما يهدى إلى الحرم من النعم، وقيل هو جمع الهدى، واحدها هدية.
- (٣٨٥) محدَّج. من حدج الأحمال: شدّها ووسقها.
- (٣٨٦) رقط: واحدها رقطاء وهي الحيّة.
- (٣٨٧) المرفق: المتكأ.
- (٣٨٨) الرخُّ: قطعة شطرنج يلعب بها.

- (٣٨٩) البیدق: قطعة شطرنج يلعب بها.
- (٣٩٠) الديسق: بياض السَّراب وترقرقه، وهو اسم للسَّراب أيضًا، ويطلق كذلك على كل شيء ينير ويضيء.
- (٣٩١) المملق: الفقير.
- (٣٩٢) الفيهق: الواسع من كل شيء.
- (٣٩٣) مخلق: متطيب.
- (٣٩٤) منبق: مسطر.
- (٣٩٥) يشهق، من شهق الجبل: ارتفع.
- (٣٩٦) تفتَّق: من فتق المسك بغيره استخرج رائحته بشيء يدخله عليه.
- (٣٩٧) الأقانيم: جمع أقنوم وهو الأصل والشخص.
- (٣٩٨) تنشق: تشم.
- (٣٩٩) يرنق: يخفق ويتحرك.
- (٤٠٠) يسمق: سقم النبات أي طال وعلا.
- (٤٠١) الغيدق: من غيدق المطر؛ كثر.
- (٤٠٢) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
- (٤٠٣) الرزديق: الصف من الناس.
- (٤٠٤) أحلاس خيل: أي ملازمون ظهورها.
- (٤٠٥) مورق: هو هنا بمعنى غانم.
- (٤٠٦) يفرق: يحذر.
- (٤٠٧) الشطب: السعف الأخضر الرطب من جريد النخل.
- (٤٠٨) معصب: متوج.
- (٤٠٩) المرهق: مَنْ يغشاه الناس والأضياف كثيرًا.
- (٤١٠) المهرق: الصحيفة.
- (٤١١) لباتهن: واحدها لبة وهي النحر.
- (٤١٢) تحلق: تجفُّ، من حلقت الإبل إذا ارتفع لبنها وجفَّ.
- (٤١٣) بردى: نهر دمشق.
- (٤١٤) الرزء: المصيبة.
- (٤١٥) خفق: خفوق.

- (٤١٦) ائتلق: من ائتلق لمع وأضاء.
- (٤١٧) الورق: جمع ورقاء وهي الحمامة.
- (٤١٨) لهوات: جمع لها، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
- (٤١٩) لسن: من لسن الرجل فصح، أو تناهى في الفصاحة والبلاغة.
- (٤٢٠) شديق: جمع أشدق، أي بليغ مفوه كريم.
- (٤٢١) اضطرم. من اضطرمت النار: اشتعلت.
- (٤٢٢) المدَّق: قسبة الأنف.
- (٤٢٣) الشكيمة من اللجام: الحديدية المعترضة في فمّ الفرس.
- (٤٢٤) العتق: الكرم وخلوص الأصل.
- (٤٢٥) الولي: المحبُّ والصديق.
- (٤٢٦) فصَّل: بيَّن.
- (٤٢٧) يجمل، من أجمل الكلام: فصَّله وبيَّنه.
- (٤٢٨) الأحداث: المصائب.
- (٤٢٩) الظئر: المرضعة.
- (٤٣٠) السرح: الشجر العظام.
- (٤٣١) الرَّق: جلد رقيق يكتب فيه.
- (٤٣٢) منضَّد: منسَّق.
- (٤٣٣) الدُّمى: واحدتها دمية، وهي الصورة المنقَّشة.
- (٤٣٤) المقاصير: واحدتها مقصورة وهي الحجر.
- (٤٣٥) الوهن: نصف الليل، أو بعده بساعة.
- (٤٣٦) منهل السماء: أي قطره.
- (٤٣٧) تستعبد: تستعبد.
- (٤٣٨) الرَّق: العبودية.
- (٤٣٩) الصيد: ميل العنق وهو يضرب للكبر.
- (٤٤٠) العتق: الحرية.
- (٤٤١) القبيل: جمع قبيلة وهي العشيرة.
- (٤٤٢) الزادة: جمع زائد وهو الحامي.
- (٤٤٣) السموأل: هو السموأل بن عاديء اليهودي صاحب القصيدة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

- (٤٤٤) الصَّفَاق: الديك.
(٤٤٥) الدِّهَاق من الكئوس: الممتلئة.
(٤٤٦) الأجران: مثني أجر أي زكاة الفطر والصوم.
(٤٤٧) الإملاق: من أملق الرجل؛ أنفق ماله حتى افتقر.
(٤٤٨) التَّرياق: دواء مرگب بدفع السموم.
(٤٤٩) الغيدق: الكريم، الجواد، الواسع الخلق، الكثير العطية.
(٤٥٠) الأرماق: جمع رمق؛ وهو بقية الحياة.
(٤٥١) الأعلاق: جمع علق؛ وهو النفيس من كل شيء.
(٤٥٢) الطائئ: أبو تمام الطائئ الشاعر.
(٤٥٣) أبو إسحاق: المعتصم بالله.
(٤٥٤) الصَّدِّيق: يوسف (عليه السلام).
(٤٥٥) أمحاء: صعق.
(٤٥٦) الكلیم: موسى (عليه السلام).
(٤٥٧) البتول: مريم العذراء عليها السلام.
(٤٥٨) الفاروق: عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٤٥٩) الأقاحي: جمع أقحوانة وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.

- (٤٦٠) الشقيق: زهر.
(٤٦١) الطلى: الخمر.
(٤٦٢) مسبلة: من أسبل الدمع، أي أرسله.
(٤٦٣) الشئون: الدموع.
(٤٦٤) قريحة: أي ذات قرحة، وهي الجرح.
(٤٦٥) إنسانها: إنسان العين، وهو المثال يرى في سوادها.
(٤٦٦) كراها: نومها.
(٤٦٧) غياهب: جمع غيهب؛ وهو الظلمة.
(٤٦٨) أخوك: يعني البدر.

الشوقيات

- (٤٦٩) الإفrend: جوهـر السيف ووشيهـ.
(٤٧٠) سنابكها: جمع سنـبـك، وهـو طـرف الحافـز.
(٤٧١) أعرافها: الواحد عرف، وهـو شعـر عـنق الفـرس.
(٤٧٢) شكيمها: جمع شكيمـة، وهـي الحـديـدة المـعـترضة فـي فـم الفـرس.
(٤٧٣) المـعـلوك، مـن عـلك الفـرس اللـجام: لـاكـه وحرّكـه فـي فـمه.
(٤٧٤) المـشـكوك: أي المـشـدود.
(٤٧٥) أي إنها انتهكت المعاهدات.
(٤٧٦) الدُّمى: جمع دمـية. وهـي الصـورة المـنقّـشة.
(٤٧٧) يعـني الحـرب.
(٤٧٨) ماء معـروك: أي مزـدحم عـليه.
(٤٧٩) المـسوك: المـرتفع.
(٤٨٠) الشـرى: مأسـدة بـجانـب الفـرات يُضـرَبُ بـها المـثـل.
(٤٨١) النوك: جمع أنوك، وهـو الأحمق، وقـيل: العـاجـز الجـاهـل.
(٤٨٢) النول: خشـبة الحـائـك يُنـسَجَ عـليـها.
(٤٨٣) محوك: مـن حـاك أي نـسـج.
(٤٨٤) يـتنـزى: يـثـب.
(٤٨٥) الريل: اللـعـاب. مـن رال الصـبى ريلاً: أي جـرى لـعـابه.
(٤٨٦) العـتيق: الحـرم المـكي.
(٤٨٧) هـو قيس بن المـلـوَح المـعـروف بـمـجنون بـني عامـر، ولـه أحـاديـث يـرجـع إلـيـها فـي الأغانـي، ومـنـها حـديث الغـزاة الآتـفة.
(٤٨٨) البـسالة: الشـجاعة.
(٤٨٩) الغـزاة: الشـمس.
(٤٩٠) الأشرط، المـفـرد شـرط: العـلامـة.
(٤٩١) أي ارتحلوا.
(٤٩٢) الجـام: الكأس.
(٤٩٣) النـقض: اسـم البـناء المـنقـوض.
(٤٩٤) الحطامة: ما تحطّم مـن الشـيء المـحـطوم، أي ما تكسّر مـنـه.
(٤٩٥) مـراجـل: جـمع مـرجـل، وهـو القـدر مـن الحـجارة والنـحاس.

- (٤٩٦) أي ارتحلوا وتفرّقوا.
(٤٩٧) اللامة: الدرع.
(٤٩٨) الحميم: الماء الحار.
(٤٩٩) جنح الليل: طائفة منه.
(٥٠٠) هي زرقاء اليمامة المشهورة بقوة البصر.
(٥٠١) أجاز الموضع: سلكه.
(٥٠٢) نزوات الجرح: سوراته ونزفاته.
(٥٠٣) الحجامّة: الفصد.
(٥٠٤) أسامة: الأسد
(٥٠٥) العاصيين: آدم وحواء.
(٥٠٦) سام: من سام فلاناً الأمر: كلّفه إياه.
(٥٠٧) النذب: الخفيف في الحاجة، الظريف، النجيب؛ لأنه إذا نذب إليها خفّ لقضائها.

- (٥٠٨) الرغام: التراب.
(٥٠٩) زفّ الطائر: رمى بنفسه أو بسط جناحيه.
(٥١٠) شالت الناقة بذنبها: رفعته.
(٥١١) أعقبا: جمع عقاب، وهو طائر من الجوارح.
(٥١٢) الدأماء: البحر.
(٥١٣) القطاما: الصقر.
(٥١٤) زحل: كوكب من الخنس، سُمّي به لبعده وتخنيسه.
(٥١٥) نشورًا، من نشر الله الموتى: أحياهم.
(٥١٦) الجوّجؤ من الطائر: الصدر.
(٥١٧) الخوافي: رشات إذا ضمّ الطائر جناحية خفيت، وقيل: هي الأربع اللواتي بعد المناكب.

- (٥١٨) الحول: القوّة والقدرة على التصرّف.
(٥١٩) القدامى: جمع قادمة، وهي عشر ريشات في مقدم الجناح.
(٥٢٠) الجّهام: السحاب الذي لا ماء فيه.
(٥٢١) السرب: القطيع من الظباء والنساء وغيرها.

الشوقيات

- (٥٢٢) السنام: حذبة في ظهر البعير.
(٥٢٣) وثدت: من وأد ابنته؛ دفنها في القبر وهي حيّة.
(٥٢٤) امحى الشيء: ذهب أثره.
(٥٢٥) الشذا: قوّة ذكاء الرائحة.
(٥٢٦) الضرم: الاشتعال.
(٥٢٧) أي كخيال الخمر إذا ألمّ بالتائب عنها.
(٥٢٨) رشا: الرشا ولد الظبية الذي قد تحرّك ومشى.
(٥٢٩) الكم: غطاء النور.
(٥٣٠) اليتيم: مصدر؛ يقال: درّة يتيمة أي ثمينة لا نظير لها.
(٥٣١) ادّعم: ارتكز.
(٥٣٢) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشبّه بها البنان المخضوب.
(٥٣٣) الطلى: الخمر.
(٥٣٤) الكابر: الكبير، والكابر: الرفيع الشأن والشرف.
(٥٣٥) ذكاء: الشمس.
(٥٣٦) انسربت: يقال انسرب الطبي إذا دخل في سربه.
(٥٣٧) من أمم: أي من قريب.
(٥٣٨) بهم: واحدها بهمة وهو الشجاع.
(٥٣٩) تني: تتأنى.
(٥٤٠) الرسم: حسن المشي.
(٥٤١) احترم الشيء: معه.
(٥٤٢) الملائين: العرب والعجم.
(٥٤٣) الدّن: باطية الخمر.
(٥٤٤) الجفون: الأغصان.
(٥٤٥) استسرّ: توارى.
(٥٤٦) بدري: نسبة إلى بدر، وفي الأثر أن أهل بدر مغفورة لهم هفواتهم.
(٥٤٧) الحجال: جمع حجلة وهو ستر العروس في جوف البيت.
(٥٤٨) جون: سود.
(٥٤٩) ممزّدة: مطولة.

- (٥٥٠) رع وآمون: معبودان مصريان قديمان.
(٥٥١) القيون: الصُّنَّاع.
(٥٥٢) نواوس: ثوابيت.
(٥٥٣) الفتين: المحرق.
(٥٥٤) الرِّقَيْن: الرِّقِيم وهو الكتاب.
(٥٥٥) الزون: معرض الأصنام.
(٥٥٦) العهد: القديم.
(٥٥٧) يطردون: يزاولون الصيد.
(٥٥٨) آل شمس: الفراعنة.
(٥٥٩) الخديو محمد توفيق الأول.
(٥٦٠) صدفت: أعرضت.
(٥٦١) الجلال: جمع جُلُّ وهو غطاء الفرس.
(٥٦٢) جلق: دمشق.
(٥٦٣) الأديم: الأرض.
(٥٦٤) الرَّاد: الراديوم.
(٥٦٥) ما دانوا: ما غلبوا من الأمم وقهروا.
(٥٦٦) الزَّهراء: قصر خلفاء بني أُمَيَّة بالأندلس.
(٥٦٧) الفيحاء: دمشق.
(٥٦٨) الرِّغَام: التراب.
(٥٦٩) بغداد: إحدى لغات كثيرة في بغداد.
(٥٧٠) بردى: نهر دمشق.
(٥٧١) العقيان: الذهب الخالص.
(٥٧٢) دمر: ضاحية دمشق.
(٥٧٣) الحور: شجر عظيم يشبه السرو.
(٥٧٤) أفوافه: جمع فوف بالضم، نوع من الثياب؛ والمراد هنا الزَّهر.
(٥٧٥) ابتردت: اغتسلت.
(٥٧٦) البلال: أي البلل.
(٥٧٧) أردان: جمع ردن؛ وهو الكم.

- (٥٧٨) طي وشيبان: قبيلتا حاتم ومعن.
- (٥٧٩) ججاج: جمع ججح وهو السيد المسارع إلى المكارم.
- (٥٨٠) غسان: أبو قبيلة باليمن، منهم ملوك غسان وكانوا ملوكًا للشام.
- (٥٨١) الأسرة: الوجه.
- (٥٨٢) الصيد: رفع الرأس كبرًا.
- (٥٨٣) عبد شمس: يعني بني أمية.
- (٥٨٤) جنان: بستان.
- (٥٨٥) الصنو: الأخ.
- (٥٨٦) الطلح: نوع من الشجر، سُمي به وادٍ بظاهر إشبيلية كان ابن عبّاد شديد الولع به.
- (٥٨٧) عوادينا: عوادي الدّهر النازلة بنا؛ وهي مصائبه.
- (٥٨٨) ريش: من راش السهم ألصق عليه الريش.
- (٥٨٩) الفن: الغصن المستقيم.
- (٥٩٠) الأساة: الأطباء.
- (٥٩١) ادّكارًا: تذكرًا.
- (٥٩٢) أفانين: أجناس.
- (٥٩٣) النطس: الأطباء الحذاق.
- (٥٩٤) الأيك. الشجر الكثيف الملتف.
- (٥٩٥) الرفيف: الخصب.
- (٥٩٦) يقصد بهم ملوك الأندلس.
- (٥٩٧) منبهة: أي شرف ورفعة.
- (٥٩٨) بابل ودارينا: مدينتان مشهورتان بجودة الخمر.
- (٥٩٩) خيرياً ونسريناً: نوعان من الزهر.
- (٦٠٠) المقة: المحبة.
- (٦٠١) الرواقي: واحد راقية، وهي التي ترقى الصبي إذا كان به سحر.
- (٦٠٢) الجدود: الحظوظ.
- (٦٠٣) الروح: الرحمة والرزق.
- (٦٠٤) شبّه مصر — حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وخرج إلى المنفى — بأم موسى (عليه السلام) حين ألقيه في اليمّ صبياً وسألت الله أن يكفله.

(٦٠٥) الشفوف: واحدها شَفٌّ: الثوب الرقيق. واللازورد: حجر صافٍ شفاف أزرق. والأقواف: يريد بها الخمائل.

(٦٠٦) الصياصي: الحصون وكل من امتنع به.

(٦٠٧) يريد به الليل الذي ملؤه الهمُّ والأرق أشار إلى قول النابغة:

كليني لهمَّ يا أميمة ناصب وليل أقاسية بطيء الكواكب

(٦٠٨) الرفقة: النظرة.

(٦٠٩) الإعذار: طعامٌ يتخذ لسرور حادث.

(٦١٠) الغين: واحدها أغين: الخضر.

(٦١١) المجاج: ما تمجَّه الأرض من شجرٍ وغيره؛ أي ما تخرجه.

(٦١٢) جمع إيوان.

(٦١٣) الأساطين: واحدها أسطوانة، وهي السارية.

(٦١٤) الغسلين: الصديد.

(٦١٥) إشارة إلى المرحومة والدّة الناظم.

(٦١٦) الخيال: السينما توغراف.

(٦١٧) يستذري: يستظل.

(٦١٨) الذرى بالفتح: الفناء.

(٦١٩) الدبابة: يعني بها الغواصة.

(٦٢٠) يقال: بين العدو إذا أوقع به ليلاً من دون أن يعلم.

(٦٢١) زُبانا العقرب: قرناها.

(٦٢٢) جبابة: جمع جابي وهو المحصل.

(٦٢٣) يريد به الصدر الأعظم، وهو كبير الوزراء.

باب النسيب

خدعوها

والغواني يَغُرُّهن النِّناءُ
كثُرَتْ في غرامِها الأسماءُ؟
تَكُ بيني وبينها أشياء!
فكلامٌ، فموعدٌ، فلقاءُ
نتهاى من الهوى ما نشاءُ
تَعَبَتْ في مِراسه الأهواءُ
أنتمُ الناسُ أيُّها الشعراءُ
فالعذارى قلوبُهنَّ هواءُ

خدعوها بقولهم: حسناءُ
أُتراها تناست اسمي لَمَّا
إن رأني تميل عني، كأن لَمْ
نظرةً، فابتسامةً، فسلامُ
يومَ كُنَّا — ولا تسل: كيف كُنَّا؟ —
وعلينا من العفافِ رقيبُ
جاذبتني ثوبي العَصِيَّ وقالت:
فاتقوا اللهَ في قلوبِ العذارى

أخذ البيت الرابع فزاد قوله:

فكلاً، فموعدٌ، فلقاءُ
أو فراقٌ يكون منه الدَّاءُ

نظرةً، فابتسامةً، فسلامُ
ففراقٌ يكون فيه دواءُ

وقال:

لَيْلُ عِدَادٍ نُجُومِهِ رُقَبَاءُ
ما للهموم ولا لها إرساءُ

لا السُّهْدُ يَطْوِيهِ ولا الإغضاءُ
داجي عُبابِ الجُنْحِ، فَوُضِيَ فُلُكُهُ

أغزالة الإشراق، أنتِ من الدُّجى
رفقًا بجفنٍ كلِّما أبْكَيتِه
ما مدَّ هُدْبِيهَ ليصطادَ الكرى
مَنْ لي بهنَّ ليالٍ نَهْلُ الصِّبا
ألفنَ أوطاري، فعيشي والمُنَى
ومن السُّهادِ إذا طلعتِ شفاءُ
سال العَقِيقُ^١ به، وقام الماءُ
إلَّا وطيفُك في الكرى العَنَقاءُ
مما أفضنَ وعَلَّتْ^٢ الأهواءُ؟
في ظلَّهنَّ الكأسُ والصَّهباءُ

وقال:

سُوِجَعَ النِّيلُ، رَفَقًا بالسَّوِيْدَاءِ
للهِ وادٍ كما يَهْوَى الهوى عَجَبُ
وأنتِ في الأسْرِ تشكو ما تُكابده
اللّهَ في فَنَنِ تلهو الزمانَ به
وفي جوانحك اللَّاتِي سمحتَ بها
ماذا تريد بذِي الأَنَاتِ في سَهري؟
حَسْبُ المضاجعِ مني ما تعالج من
أُمْسِي وأُصْبَحُ مَنْ نَجَواك في كَلَفِ
الليلِ يُنْهَضُنِي من حيثِ يُقْعِدُنِي
آتي الكواكبَ لم أنقل لها قَدَمًا
والْحِظُّ الأرضَ، أطوي ما يكون إلى
مُؤَيِّدًا بكِ في حَلِّي ومُرتَحَلِي
تُوجِي إليَّ الذي تُوجِي، وتسمع لي

فما تُطِيقُ أنينَ المفردِ النَّائِي
تركتَ كلَّ حَلِيٍّ فيه ذا داءٍ
لصخرةٍ من بني الأعجام صَمَاءٍ
إنما هو مشدودٌ بأحشائي
فلو ترفقتَ لم تسمح بأعضائي
هذي جفونِي تَسْقِي عهدَ إغفائي
جَنَّبِي، ومن كَبِدٍ في الجَنبِ حَرَاءٍ
حتى ليعشَقَ نطقي فيك إصغائي
والنَّجْمُ يَمَلُّ لي، والفكرُ صَهْبائي
لا ينقضي سَهري فيها وإسرائي
ما كان مِنْ أَدَمٍ فيها وَحَوَاءٍ
وما هما غيرُ إصباحي وإمسائي
وفي سماعك بعد الوحي إغرائي

قال أبو نواس:

يا ويحَ أهْلِي، أُبْلَى بَيْنَ أَعْيَنِهِم
على الفَرَّاشِ، ولا يَدْرُونَ ما دائِي

وطلبَ إليه تشطير هذا البيت فقال:

يا ويح أهلي، أبلى بين أعينهم
وينظرون لجنبٍ لا هدوءَ له
ويذرُجُ الموتُ في جسمي وأعضائي
على الفراشِ، ولا يدرون ما دائي

وقال:

منك يا هاجر دائي
يا منى روعي، ودنيا
أنتِ إن شئتِ نعيمي
ليس من عمري يومٌ
وحياتي في التّداني
نمّ على نسيان سُهدي
كلُّ ما ترضاه يا مو
وكما تعلم حُبّي
فيك يا راحة روعي
وتواريتُ بدمعي
أنا أهواك، ولا أُر
غرْتُ، حتى لَترى أر
ليتنني كنتُ رداءً
ليتنني مأوك في الغُ

وبكفّيك دوائي
ي، وسؤلي، ورجائي
وإذا شئتِ شقائي
لا ترى فيه لقائي
ومماتي في التّنائي
فيك، واضحك من بُكائي
لاي يرضاه ولائي
وكما تدري وفائي
طال بالواشي عنائي
عن عيون الرُّقباءِ
ضَيّ الهوى من شُرَكَائي
ضَيّ غَيْرِي من سمائي
لك، أو كنتِ ردائي
لّة، أو ليَتَكَ مائي

وقال:

لقد لامني يا هندُ في الحب لائمٌ
فما هو بالواشي على مذهب الهوى
وصفتُ له من أنتِ، ثم جرى لنا
وقلت له: صبراً، فكلُّ أخِي هوى
مُحبٌّ إذا عَدَّ الصّحابُ حبيبُ
ولا هو في شرع الوداد مُريب
حديثُ يَهُمُّ العاشقين عجيب
على يدٍ من يَهوى غداً سيتوب

وقال:

على قدرِ الهوى يأتي العتابُ
ألومُ مُعذِّبي، فالومُ نفسي
ولو أني استطعتُ لتبتُ عنه
ولي قلبُ بأن يَهْوَى يُجَارَى
ولو وُجد العِقَابُ فعلتُ، لكن
يلوم اللائمون وما رأوه
صَحَوْتُ، فأنكر السُّلوان قلبي
كَأَنَّ يَدَ الغرامِ زِمَامُ قلبي
كَأَنَّ روايةَ الأشواقِ عَوْدُ
كَأَنِّي والهوى أَخَوَا مُدام
إِذَا مَا اغْتَضَتْ عن عشقٍ بعشقٍ

وقال:

أريدُ سُلُوكُكُمْ، والقلبُ يَأْبَى
وأهجركم، فيهجرنِي رُقادي
وأذكركم برؤيةِ كُلِّ حُسْنٍ
وأشكو من عذابي في هواكم
وأعلمُ أَنَّ دَأْبَكُمْ جَفَائِي
ورُبَّ مُعَانِبٍ كالعيش، يُشْكِي
أَتَجْزِينِي عن الزُّلْفَى نِفَارًا؟
فكلُّ ملاحَةٍ في الناسِ ذَنْبٌ
أخذتُ هواك عن عيني وقلبي
وأنتَ من المحاسنِ في مثال
أحبُّك حين تثني الجيدَ تِيهًا
وقالوا: في البديلِ رِضًا وروحُ

وَأَعْتَبُكُمْ، وملءُ النفسِ عُتْبَى
وَيُضَوِّنِي الظلامُ أَسَىً وكَرْبًا
فيصبو ناظري، والقلبُ أَصْبَى^٦
وأجزيكُم عن التعذيبِ حُبًّا
فما بالي جعلتُ الحبَّ دَأْبًا؟
وملءُ النفسِ منه هَوًى وعُتْبَى
عَنْبَتَكَ بالهوى، وكفاك عَتْبَا
إِذَا عُدَّ النِّفَارُ عَلَيْكَ ذَنْبَا
فعيني قد دَعَتْ، والقلبُ لَبَى
فديتكَ قَالِبًا فيه وقلْبَا
وأخشى أَن يصيرَ التَّيِّبُ دَأْبَا
لقد رُمْتُ البديلَ، فرمتُ صَعْبَا

وراجعتُ الرشادَ عَسَاى أَسْلُو
إِذَا مَا الْكَأْسُ لَمْ تُذْهِبْ هُمُومِي
عَلَى أَنِّي أَغْفُ مِنْ احْتِسَاها
وَلِي نَفْسٌ أَرْوِيها فَتَزْكُو
فَمَا بَالِي مَعَ السُّلُوانِ أَصْبِي؟
فَقَدْ تَبَّتْ يَدُ السَّاقِي، وَتَبَّا
وَأَكْرَمُ مَنْ عَذَارَى الدَّيرِ شَرِبَا
كَزْهَرِ الْوَرْدِ نَدْوُهُ فَهَبَّا

وقال:

رَوَّعُوهُ، فَتَوَلَّى مُغْضَبَا
خُلِقْتَ لِاهِيَّةٍ نَاعِمَةٍ
لِي حَبِيبٌ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ
كَذِبَ الْعُذَّالُ فِيمَا زَعَمُوا
لَوْ رَأَوْنَا وَالْهَوَى ثَالِثُنَا
فِي جِوَارِ اللَّيْلِ، فِي ذِمَّتِهِ
مِلءٌ بُرِّدِينَا عِفَافٌ وَهَوَى
يَا غَزَالاً أَهْلَ الْقَلْبِ بِهِ
لَكَ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ حَبَبَتِهِ
هُوَ عِنْدَ الْمَالِكِ الْأَوَّلَى بِهِ
إِنْ رَأَى أَبْقَى عَلَى مَمْلُوكِهِ
لَكَ قَدْ سَجَدَ الْبَانُ لَهُ
وِلْحَاضٌ، مِنْ مَعَانِي سَحَرِهِ
كَانَ عَنْ هَذَا لِقَلْبِي غُنِيَّةٌ
فِطْرَتِي لَا أَخْذُ الْقَلْبَ بِهَا
لَوْ جَلَّوْا حُسْنَكَ أَوْ غَنَّوْا بِهِ
إِيهَا النَّفْسُ، تَجْدِينَ سُدَى
جَرَّبَى الدُّنْيَا تَهْنُ عِنْدَكَ، مَا
نَلَتْ فِيمَا نَلَتْ مِنْ مَظْهَرِهَا
أَعْلِمْتُمْ كَيْفَ تَرْتَاغُ الظُّبَا؟
رُبَّمَا رَوَّعَهَا مَرُّ الصَّبَا
صَدَّقَ الْقَوْلَ، وَزَكَّى الرَّيْبَا
أَمَلَى فِي فَاتِنِي مَا كَذَّبَا
وَالدُّجَى يَرْجِي عَلَيْنَا الْحُجْبَا
نَذَكِرُ الصَّبْحَ بَأَنَّ لَا يَقْرِبَا
حِفْظَ الْحَسَنِ، وَصَنْتُ الْأَدْبَا
فَلَبَى السَّفْحُ وَأَحْنَى مُلْعَبَا
مَنْهَلًا عَذْبَانَ وَمَرَعَى طَيِّبَا
كَيْفَ أَشْكُو أَنَّهُ قَدْ سَلِبَا؟
أَوْ رَأَى أَتْلَفَهُ، وَاحْتَسِبَا
وَتَمَنَّتْ لَوْ أَقْلَّتَهُ الرُّبَى
جَمَعَ الْجَفْنَ سَهَامًا وَظُبَى^٨
مَا لِقَلْبِي وَالْهَوَى بَعْدَ الصَّبَا؟
خُلِقَ الشَّاعِرُ سَمَحًا طَرِبَا
«لَلْبَيْدِ» فِي الثَّمَانِينَ صَبَا^٩
هَلْ رَأَيْتَ الْعَيْشَ إِلَّا لِعِبَا؟
أَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ جَرَّبَا!!
وَمُنَحَّتِ الْخَلْدَ ذُكْرًا، وَنَبَا

وقال والمعنى لشاعر تركي:

ما تلك أهدابي تَنَظَّفُ مَ بينها الدمعُ السَّكُوبُ
بل تلك سُبْحَةٌ لَوْلُو تُحْصَى عليك بها الذُّنُوبُ

وقال:

لا والقوامِ الَّذِي، والأعينِ اللَّاتِي ما خُنْتُ رَبَّ الْقَنَا والمَشْرِفِيَّاتِ
ولا سَلُوتُ، ولم أَهْمُمُ، ولا خَطَرْتُ بالْبَالِ سَلُوكِ فِي ماضٍ ولا آتِ
وخَاتَمُ الْمَلِكِ لِلْحَاجَاتِ مُطَلَّبُ وَتَغْرُكِ الْمَتَمَنَّى كُلُّ حَاجَاتِي

وقال:

لَحَظْهَا لَحَظْهَا، رُوَيْدًا رُوَيْدًا كم إِلَى كم تَكِيدُ لِلروحِ كَيْدًا؟
كُفَّ أَوْ لَا تَكُفَّ، إِنَّ بَجْبِنِي لَسِهَا مَا أَرْسَلْنَهَا لَنْ تُرَدًّا
تَصِلُ الضَرْبُ مَا أَرَى لَكَ حَدًّا فَاتَّقِ اللَّهَ، وَالتَّزَمْ لَكَ حَدًّا
أَوْ فَصِّغْ لِي مِنَ الْحَجَارَةِ قَلْبًا ثَمْ صُغْ لِي مِنَ الْحَدَائِدِ كَيْدًا
وَكَفِّ جَفَنِي دَافِقًا لَيْسَ يَرْقَا وَكَفِّ جَنْبِي خَافِقًا لَيْسَ يَهْدَا
فَمَنْ الْعَبْنُ أَنْ يَصِيرَ وَعِيدًا مَا قَطَعْتُ الزَّمَانَ أَرْجُوهُ وَعْدًا

وقال:

الرُّشْدُ أَجْمَلُ سِيرَةٍ يَا أَحْمَدُ وَدُ الْغَوَانِي مِنْ شَبَابِكَ أَبْعَدُ
قَدْ كَانَ فِيكَ لِوَدَّهَنْ بَقِيَّةُ وَالْيَوْمَ أَوْشَكْتَ الْبَقِيَّةُ تَنْقُدُ
«هَارُوتُ» شِعْرِكَ بَعْدَ «مَارُوتِ» الصَّبَا أَعْيَا، وَفَارَقَهُ الْخَلِيلُ الْمُسْعِدُ
لَمَّا سَمِعْنَاكَ قُلْنَ: شَعْرُ أَمْرُدُ يَا لَيْتَ قَائِلَهُ الطَّرِيرُ الْأَمْرُدُ
مَا لِلْوَاهِي النَّاعِمَاتِ وَشَاعِرِ جَعَلَ النَسِيبَ حِبَالَهُ يَتَصَيَّدُ؟
وَلَكَمْ جَمَعَتْ قُلُوبُهُنَّ عَلَى الْهَوَى وَخَدَعَتْ مَنْ قَطَعَتْ وَمَنْ تَتَوَدَّدُ
وَسَخِرَتْ مِنْ وَاشٍ، وَكَذَّتْ لِعَاذِلِ وَالْيَوْمَ تَنْشُدُ مَنْ يَشَى وَيُفَنِّدُ

أَئِذَا وَجَدْتُ الْغَيْدَ أَلْهَاكَ الْهُوَى وَإِذَا وَجَدْتُ الشَّعْرَ عَزَّ الْأَغْيَدُ؟

وقال:

إِن الْوُشَاةَ — وَإِن لَمْ أَحْصِهِمْ عَدَا —
لَا أَخْلَفَ اللَّهُ ظَنِّي فِي نَوَاطِرِهِمْ
هُمْ أَغْضَبُوكَ فَرَاخَ الْقَدِّ مُنْتَنِيًّا
وَصَادَفُوا أَذْنَا صَغَوَاءَ لَيِّنَةً
لَوْلَا احْتِرَاسِي مِنْ عَيْنِكَ قَلْتُ: أَلَا
اللَّهِ فِي مُهْجَةٍ أُيْتِمَتَ وَاحِدَهَا
وَرُوحٌ صَبَّ أَطَالَ الْحُبُّ غُرْبَتَهَا
دَعِ الْمَوَاعِيدَ، إِنِّي مِتُّ مِنْ ظَمًا
تَدْعُو، وَمَنْ لِي أَنْ أَسْعَى بِلَا كَيْدٍ؟

وقال:

بَثَثْتُ شَكَاوَى، فَذَابَ الْجَلِيدُ
وَقَلْبُكَ الْقَاسَى عَلَى حَالِهِ
وَأَشْفَقُ الصَّخْرُ، وَلَانَ الْحَدِيدُ
هَيْهَاتَ! بَلْ قَسَوْتَهُ لِي تَزِيدُ

وقال:

يَمُدُّ الدُّجَى فِي لَوْعَتِي وَيَزِيدُ
إِذَا طَالَ وَاسْتَعْصَى فَمَا هِيَ لَيْلَةٌ
أَرَقْتُ وَعَادَتْنِي لَذَكْرِي أَحْبَبْتِي
وَمَنْ يَحْمِلُ الْأَشْوَاقَ يَتَعَبُ، وَيَخْتَلِفُ
لَقِيتَ الَّذِي لَمْ يَلْقَ قَلْبٌ مِنَ الْهُوَى
وَلَمْ أَخْلُ مِنْ وَجِدٍ عَلَيْكَ، وَرِقَّةٌ
وَرَوْضٌ كَمَا شَاءَ الْمُحِبُّونَ، ظِلُّهُ
تُظِلُّنَا وَالطَّيْرُ فِي جَنَابَاتِهِ
وَيُبْدِي بَنَى فِي الْهُوَى وَيُعِيدُ
وَلَكِنْ لَيَالٍ مَا لَهَنَ عَدِيدُ
شُجُونُ قِيَامٍ بِالضُّلُوعِ قُعُودُ
عَلَيْهِ قَدِيمٌ فِي الْهُوَى، وَجَدِيدُ
لَكَ اللَّهُ يَا قَلْبِي، أَأَنْتَ حَدِيدُ؟
إِذَا حَلَّ غَيْدٌ، أَوْ تَرَحَّلَ غَيْدُ
لَهُمُ وَالْأَسْرَارُ الْغَرَامِ مَدِيدُ
غُصُونُ قِيَامٍ لِلنَّسِيمِ سَجُودُ

يعارضها مُضْنَى الصَّبَا فَتَحِيد
ومارتُ عليها الحُلَى وهى تَمِيد
بأهل، وَمَفْقُودُ الأَلِيفِ وَحِيد
وَجَذْلَانُ يَشْدُو فِي الرُّبَى وَيُشِيد
وَعُزَيَّانِ كَاسِ تَزْدَهِيهِ مُهُود
وَيَقْطُرُ مِنْهَا العَيْشُ وَهُوَ رَغِيد
فقلتُ لها: حتى النهارُ شَهِيد
فما هي مِمَّا نَبْتَغِي وَنَصِيد
ويومَ تَسْلُ المُرْهَفَاتُ أَسْوَدُ
وَيَقْتُلُنَا لَحْظُ، وَيَأْسِرُ جِيدُ
ونحنُ لسلطان الغرام عبيد
أما لكِ يا عهدَ الشباب مُعِيد؟
لَأَمْسُ كِبَاقِي الغَابِرَاتِ عَهِيد^{١١}
كَأَنِّي عَلَى دَرْبِ المَشْيِبِ (لَبِيد)
شَبَبْنَا وَشَبَبْنَا والزَّمَانُ وَلِيدُ

تَمِيلُ إِلَى مُضْنَى الغَرَامِ، وَتَارَةٌ
مَشَى فِي حَوَاشِيهَا الأَصِيلُ، فَذَهَبَتْ
وَقَامَتْ لَدَيْهَا الطَّيْرُ شَتَّى، فَأَنَسَ
وَبَاكِ وَلَا دَمْعُ، وَشَاكِ وَلَا جَوَى
وَذَى كِبَرَةٍ لَمْ يُعْطَ بِالدَّهْرِ خِبَرَةٌ
غَشِينَاهُ وَالْأَيَّامُ تَنْدَى شَبِيبَةً
رَأَتْ شَفَقًا يَنْعَى النَّهَارَ مُضَرَّجًا
فَقَالَتْ: وما بالطيرِ؟ قلتُ: سَكِينَةٌ
أَجَلٌ لَنَا الصِّيدَانِ: يَوْمَ الهَوَى مَهَا
يُحَطِّمُ رُمُحَ دُونِنَا وَمُهَنْدُ
ونحكم حتى يَقْبَلَ الدَّهْرُ حُكْمَنَا
أَقُولُ لِأَيَّامِ الصَّبَا كُلِّمَا نَأَتْ:
وَكَيْفَ نَأَتْ وَالْأَمْسُ آخِرُ عَهْدِهَا؟
جَزَعْتُ، فَرَاعَتَنِي مِنَ الشَّيْبِ بَسْمَةٌ
وَمَنْ عَبَتْ الدُّنْيَا وَمَا عَبَتْ سَدَى

وقال:

أَلِفَ الدَّلَالِ عَلَى الْمَدَى
وَالِكُمُّ يَفْتَحُهُ النَّدَى^{١٢}

هَامَ الْفَوَادُ بِشَادِنِ
أُبْكِي، فَيُضْحِكُ تَغْرُهُ

وقال عن شاعر تركي:

حُسْنَى، وَلِي هَجْرٌ وَصْدُ
وَأَنَا الْعَلَامَةُ، لَا تُعَدُّ

لِلْعَاشِقِينَ رِضَاطٌ وَالْأَلُ
نُكِرُوا، فَكَانُوا سُبْحَةً

وقال:

في مقلتيك مَصارِعُ الأكبادِ
كانت له كَيْدٌ، فحاق بها الهوى
وإذا النفوسُ تطَوَّحَتْ في لَذَّةٍ
نَسَوَى، وما يُسْقَيْنَ إِلَّا راحتي
ضَعْفَى، وكم أُبْلِيَنَ من ذى قوةٍ
يا قاتِلَ الله العيونَ، فإنها
قاتِلنَ في أجفانهنَّ قلوبنا
وصَبَغْنَ من دمها الخدودَ تَنَصُّلاً

وقال:

قفْ باللَّواحِظِ عِنْدَ حَدِّكَ
واجْعَلْ لِعِغْمِكَ هُدًى
وَصُنِّ المحاسنَ عن قلوبِ
نظرتُ إِلَيْكَ عن الفُتُو
أعلى رِوايَاتِ القَنَا
نال العواذلُ جَهْدَهُم
نقلو غليكَ مِقالَةً
قسماً بما حَمَلْتَنِي
ما بى السهامُ الكُثْرَ من

وقال:

مُضْنَاكَ جِفاءَ مَرْقَدِهِ
حيرانُ القلبِ مُعَذِّبُهُ
أودَى حَرَقًا إِلَّا رَمَقًا
يستهوَى الوُرُقَ تَأوُّهُه

وبَكَاهِ وَرَحَّمَ عَوْدَهُ
مَقْرُوحَ الجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ
ويُذِيبُ الصخرَ تَنَهُدُهُ

وِينَاجِي النَجْمَ وَيُتَعِبُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ
كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرِكٍ
فَعَسَاكَ بَغْمُضٍ مُسْعِفُهُ
الْحَسَنُ، حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسَا
وَتَمَنَّتْ كُلُّ ١٢ مَقْطَعَةٍ
جَحَدَتْ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي
قَدْ عَزَّ شُهوْدِي إِذَا رَمَتَا
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرَكَهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامَكَ أَعْطَقَهُ
سَبَبٌ لِرِضَاكَ أَمَّهَدَهُ
بَيْنِي فِي الْحَبِّ وَبَيْنَكَ مَا
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي
وَيَقُولُ: تَكَادُ تَجَنُّ بِهِ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ
قَسَمًا بَثْنَايَا لَوْلُؤَهَا
وَرُضَابٌ يُوعَدُ كَوُثْرَهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يُحَاجُّ لَهُ
وَقَوَامٌ يَرَوِي الْغُصْنَ لَهُ
وَبِخَصْرِ أَوْهَنْ مِنْ جَلْدِي
مَا خُنْتُ هَوَاكَ، وَلَا خَطَرْتُ

وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
شَجْنَا فِي الدَّوْحِ تُرَدَّدُهُ
وَتَأْدَبُ لَا يَتَصَيَّدُهُ
وَلَعَلَّ خِيَالَكَ مُسْعِدُهُ
(وَالسُّورَةُ) إِنَّكَ مُفْرَدُهُ
حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
يَدَهَا لَوْ تُبْعَثُ تَشْهَدُهُ
أَكْذَلِكَ خَذُّكَ يَجْحَدُهُ؟
فَأَشَرْتُ لَخَذِّكَ أَشْهَدُهُ
فَأَبَى، وَاسْتَكْبَرَ أَصِيدُهُ
فَنَبَا، وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
مَا بَالُ الْخَصْرِ يُعَقِّدُهُ؟
لَا يَقْدِرُ وَاشِ يُفْسِدُهُ
بَابُ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ؟
فَأَقُولُ: وَأَوْشِكُ أَعْبِدُهُ
قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمْتُ يَدَهُ
وَحَنَايَا الْأَضْلَعِ مَعْبِدُهُ
قَسَمُ الْيَاقُوتِ مُنْضَدُهُ
مَقْتُولُ الْعِشْقِ وَمُشْهَدُهُ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَسْوَدُهُ
نَسَبًا، وَالرُّمَحُ يُفَنِّدُهُ
وَعَوَاذِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
سَلَوَى بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

وقال:

بِاللَّهِ يَا نَسَمَاتِ النَّيْلِ فِي السَّحَرِ
هَلْ عِنْدَكُنَّ عَنِ الْأَحْبَابِ مِنْ خَبَرٍ؟

عرفتُكُنَّ بِعَرَفٍ لَا أَكَيِّفُهُ
لَا فِي الْغَوَالِي، وَلَا فِي النَّوْرِ وَالزَّهَرِ
مِنْ بَعْضِ مَا مَسَحَ الْحَسَنُ الْوَجُوهَ بِهِ
بَيْنَ الْجَبِينِ، وَبَيْنَ الْفَرْقِ وَالشَّعَرِ
فَهَلْ عَلِقْتُنَّ أَثْنَاءَ السَّرَى أَرْجَا
مِنْ الْغَدَائِرِ أَوْ طَيِّبَا مِنَ الطُّرَرِ؟
هَجَّتُنَّ لِي لَوْعَةُ فِي الْقَلْبِ كَامِنَةٌ
وَالْجُرْحُ إِنْ تَعْتَرِضُهُ نَسَمَةٌ يَثُرُ
ذَكَرْتُ مَصْرَ، وَمَنْ أَهْوَى، وَمَجْلَسَنَا
عَلَى الْجَزِيرَةِ بَيْنَ الْجَسْرِ وَالنَّهَرِ
وَالْيَوْمِ أَشْيَبُ، وَالْآفَاقُ مُذْهَبَةٌ
وَالشَّمْسُ مُصْفَرَّةٌ تَجْرِي لِمُنْحَدَرِ
وَالنَّخْلُ مُتَشِّحٌ بِالْغَيْمِ، تَحْسِبُهُ
هَيْفَ الْعَرَائِسِ فِي بَيْضٍ مِنَ الْأَزْرِ
وَمَا شَجَانِي إِلَّا صَوْتُ سَاقِيَةٍ
تَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بَيْنَ النَّوْحِ وَالْعَبْرِ
لَمْ يَتْرَكِ الْوَجْدُ مِنْهَا غَيْرَ أَضْلَعِهَا
وْغَيْرَ دَمْعٍ كَصَوْبِ الْغَيْثِ مِنْهُمْ
بَخِيلَةٌ بِمَا قِيَهَا، فَلَوْ سُئِلْتُ
جَفْنَا يُعِينُ أَخَا الْأَشْوَاقِ لَمْ تُعِرْ
فِي لَيْلَةٍ مِنْ لِيَالِي الدَّهْرِ طَيِّبَةٍ
مَحَابِهَا كُلُّ ذَنْبٍ غَيْرِ مُغْتَفَرٍ
عَفَّتْ، وَعَفَّ الْهَوَى فِيهَا، وَفَازَ بِهَا
عَفُّ الْإِشَارَةِ، وَالْأَلْفَاظِ، وَالنَّظَرِ
بِتَّنَا، وَبَاتَتْ حَنَاًا حَوْلَنَا وَرَضًا
ثَلَاثَةً بَيْنَ سَمْعِ الْحَبِّ وَالْبَصْرِ
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ، كَانَ النَّجْمُ رَابِعَنَا
لَوْ يُذَكِّرُ النَّجْمُ بَعْدَ الْبَدْرِ فِي خَبَرِ

وأنصفتنا، فظلم أن نُجازيها
 شكوى من الطول، أو شكوى من القصر
 دُع بعد ريقَةٍ مَنْ تهوى وَمَنْطِقِهِ
 ما قيل في الكأس، أو ما قيل في الوتر
 ولا تُبالِ بكنزٍ بعد مَبْسِمِهِ
 أغلى اليواقيت ما أُعْطِيتَ والدُّرَر
 ولم يَرْغُبْنِي إِلَّا قَوْلُ عاذِلَةٍ
 ما بالُ أحمدَ لم يَحْلُمَ ولم يَقْرَ؟
 هلا ترفعَ عن لَهْوٍ وعن لَعِبٍ؟
 إن الضغائرَ تُغْرِى النفسَ بالصَّغَر
 فقلتُ: للمجد أشعاري مُسَيَّرَةٌ
 وفي غواني العُلا — لا في المَها — وطرى
 مصرُ العزیزةُ، ما لي لا أودَّعُها
 وداعَ مُحْتَفِظٍ بالعهد مُدَكِّرِ
 خَلَّفْتُ فيها القَطَا ما بين ذى رَغَبٍ
 وذى تَمائِمَ لم ينهض ولم يَطِرِ
 أسلمتُهُم لعيون الله تحرسُهُم
 وأسلمونى لظلِّ الله في البشر

وقال:

عرضوا الأمانَ على الخواطرِ	واستعرضوا السُّمَرَ الخواطرِ ^١
فوقفتُ في حَذَرٍ، وياً	بى القلبُ إلا أن يُخاطرِ
يا قلبَ شأنك والهوى	هذى الغصونُ وأنت طائر
إن التى صادتُك تسد	عى بالقلوب لها النواظر
يا ثغرها، أمسيتُ كالـ	غَوَّاصٍ، أحْلُمُ بالجواهر
يا لحظها، مَنْ أُمُّها؟	أو مَنْ أبوها في الجأزر؟
يا شعرها، لا تَسعَ في	هتكى، فشأنُ الليلِ ساتر

يا قَدَّهَا، حَتَّام تَغْـ
وبأى ذنبٍ قد طعنـ
عدو عاذلاً وتروح جائر؟
تَحْشَايَ يا قَدَّ الكبائر؟

وقال:

في ذى الجفونِ صوارمُ الأقدار
وكفى الحياةَ لنا حوادثٍ، فافْتِنَى
ما أنتِ في هذى الحلَى إنْسِيَّةَ
زهراءِ بالأفْقِ الذى من دونه
تتهتَّكُ الألبابُ خَلْفَ حجابها
يا زينة الإصباحِ والإمساءِ، بل
ماذا تحاول من تنائينا النوى؟
ألقى الضحى أَلْفَاكِ، ثم من الدجى
وإذا أنْسَتْ بوحدتى فلأنها
إيهِ زمانى في الهوى وزمانها
مُتَسَلِّسلا بين الصبابة والصبأ
نظر الفراقُ إليكما، فطواكما

وقال:

لك أن تلومَ، ولي من الأعذار
ما كنتُ أَسْلَمُ للعيون سلامتى
وطرَّ تَعَلَّقَه الفؤادُ وينقضى
يا قلبُ، شأْنُكَ، لا أَمْدُكَ في الهوى
أمرى وأمرُكَ في الهوى بيد الهوى
جار الشبيبةَ، وأنتفع بجوارها
مَثَلُ الحياةِ تُحِبُّ في عهد الصبأ
ابداً (فروق) من البلاد هي المنى
إن الهوى قَدَرُ من الأقدار
وأبيحُ حادثة الغرام وقارى
والنفسُ ماضية مع الأوطار
أبداً، ولا أدعوك للإقصار
لو أنه بيدي فكُنتُ إيسارى
قبل المشيب، فما له من جار
مَثَلُ الرياضِ تُحِبُّ في آذار^{١٥}
ومنأى منها ظبيةٌ بسوار

محجوبةٌ إلّا عن الأنظار
تمشى الدّلال، ولا بذاتِ نِفار
عن جَنّة، وتلفتت عن نار
نظرًا، ولا ينظرُن في الإصدار
أمرٌ أحاول كُتْمَه وأدارى

ممنوعةٌ إلّا الجمالَ بأُسره
خُطواتُها التقوى، فلا مَزْهُوّة
مرّت بنا فوق الخليج، فأسفرت
في نسوةٍ يُوردنَ مَنْ شَتْنُ الهوى
عارضتُهنّ، وبين قلبي والهوى

وقال:

إذن أنا أولى بالقناع وبالجذر
رددتُ به أمرَ الغرامِ إلى أمرى
ولكنّ نفسَ الحرّ أزعجُ للحرّ
تراءتْ دموعي فيه سابقةَ الفجر
وهل بالسُّها في حُلّة السُّقمِ من نُكر
أخوضُ غمارَ الظنّ والنظرِ الشّزر
يبالغن في زَجري، ويُسر فن في نهري
نرى حالةً بين الصّباة والسّحر
وذرنّ قضاءَ الله في خَلقه يجرى
رددتُ قلوبَ العاذِلاتِ إلى العُذر
يَقُلن: أمانًا للعداري من الشّعور
وجدتُ مقالَ الهجرِ يُزري بأن يُزرى
ومَنْ يَهُوَ يَعْدِلُ في الوصال وفي الهجر
فلا بدّ من يُسر، ولا بد من عُسر
يجدُ مرّها في الحلو، والحلو في المرّ
فإنى وجدتُ الكدّ أقتل للفقير
يُخنه الرقيقُ العون في المسلك الوعر
يعيش مستباحَ العرّض، مُنْهَتِكَ السّتر
يَبِنُ فضلُه عنه، ويَعْطِلُ من الفخر

أَتغلبني ذاتُ الدلالِ على صبري؟^{١٦}
تتيّه، ولى جِلْمٌ إذا ما ركبته
وما دَفَعِيَ اللّوامَ فيها سامةً
وليل كأنّ الحشرَ مطلعُ فجره
سريتُ به طيفًا إلى مَنْ أَحَبُّها
طرفتُ حِماها بعدَ ما هبَّ أهلُها
فما راعني إلّا نساءً لَقينني
يقلن لمن أهوى وأنسنَ ربيّة:
إليكنّ جاراتِ الحمى عن ملامتي
وأخرجني دمعى، فلما زجرته
فساءلنها: ما اسمي؟ فسئتُ، فجنّني
فقلتُ: اخافُ الله فيكُنّ، إننى
أخذتُ بحَظٍّ من هواها وبينها
إذا لم يكن للمرءِ عن عيشةٍ غنى
ومن يخبرِ الدنيا ويشربُ بكأسها
ومن كان يغزو بالتّعِلّاتِ فقره
ومن يستعنّ في أمره غيرَ نفسه
ومن لم يُقم سترًا على عيبٍ غيره
ومن لم يُجَمِّل بالتواضع فضلَه

وقال:

قلبٌ يذوب، ومدمعٌ يجرى
حالت نجومك دون مطلعهِ
وتطاوَلتْ جُنْحًا، فحِيلَ لى
ارسيَّتْها وملكتْ مذهبَها
ظُلُمٌ تَجىُّ بها وترجعُها
ليت الكرى (موسى) فيوردها
ياليلُ، هل خبرٌ عن الفجر
لا تبتغى جِولاً، ولا يسرى
أن الصباَحَ رهينةُ الحشر
بدُجْنَةٍ كسريرةِ الدَّهر
والموجُ منقلبٌ إلى البحر
(فرعون) هذا السُّهد والفكر

ولقد أقول لهاتفٍ سحرًا
والروضُ أخرسُ غيرِ وسوسةٍ
والطيرُ ملءُ الأيكِ، أرؤسُها
ألقى الجناحَ، وناءً بالصدر
كلم السهادِ بيوتَ هذبهما
تهذا جوانحه، فتحسبه
وتثور، فهو على الغصون يدُّ
يبكى لغير نوى ولا أسر
حَفَقَ الغصونِ، وجزيةُ الغُدرِ
مثلُ الثمارِ بدت من السَّدرِ
ورنا بصفراويْن كالْتَبَرِ
وأقام بين رُسومِها الحُمَرِ
من صنعةِ الأيدي أو السَّحرِ
عَلِقْتُ أناملُها من الجمرِ

يا طيرُ، بُثَّ أخاك ما يجرى
بى مثلُ ما بك من جوى ونوى
عَبَثَ الغرامُ بنا ورؤعنا
يا طيرُ، لا تجزعَ لحادثةٍ
فيما دهاك لو أطلعتَ رضى
يا طيرُ، كَدَّرَ العيشَ لو تدرى
وإذا الأمورُ استصعبتْ صَعَبَتْ
يا طيرُنْ لو لَدنا بمضطَّبرِ
وعسى الأمانى العذابُ لنا
إنَّا كِلانا مَوْضِعُ السَّرِ
أنا في الأنام، وأنت في القُمْرِ^{١٧}
أنا بالَمَلام، وأنت بالزَّجرِ
كلُّ النفوسِ رهائنُ الضَّرِ
شَرُّ أخفُّ عليك من شَرِّ
في صفوه، والصفو في الكَدْرِ
ويهون ما هَوَّنتَ من أمرِ
فلعلَّ رُوحَ الله في الصَّبْرِ
عونٌ على السلوان والهجر

وقال:

يا رسولَ الرّضى وُقِيتَ العِثارا
وتَيَمَّمُ من السُّوَيْدِ دارا
عادةُ النورِ ينزل الأبصارا
قد أعدَّ الجُجى لها أوزارا
أجملُ الصنعِ ما يُصيبُ افتقارا
بِ، كأن لم يكن له القلبُ جارا؟
هـ عن الذنبِ رَقَّةٌ واعتذارا
وجريحُ الأنامِ يطلبُ ثارا؟
هَدُ من مقلتي أَمْرًا، فصارا وأذى النصحِ
أن يكونَ جِهَارًا
رَجَمَ الله يا جفوني النهارا
قلُن: صبرًا، فقلت: هاتي اصطبارا
بعد ليلى، ولم أجذكِ قصارا
لا يُبالى بحملهن صغارا
مُذْمَنُ الخمر لا يُحسِ الخُمَارا
خرج الرشدُ عن أَكُفِّ السُّكَارِ

بَدَأُ الطيفُ بالجميلِ وزَّارا
خذ من الجفن والفؤاد سبيلا
أنت إن بتَّ في الجفون فأهْلُ
زار، والحرْبُ بين جفنى ونومى
حَسَنُ يا خيالُ صُنْعُكَ عندى
ما لربِّ الجالِ جارَ على القلبِ
وأزى القلبِ كلما ساءَ يَجْزِي
أجريحُ الغرامِ يطلب عطفًا
أيها العاذلون، نِمْتُمْ، ورام السُّـ
آفةُ النُّصحِ أن يكونَ لَجَاجًا
ساءَلْتَنِي عن النهارِ جفونى
قلن: نَبْكِيه؟ قلت: هاتى دموعًا
يا ليالى، لم أَجْذِكِ طوالًا
إن مَنْ يحملُ الخطوبَ كِبَارًا
لم نَفِقْ منك يا زمانُ فنشكو
فاصرف الكأسَ مُشَفِّقًا، أو فواصلُ

وقال:

فإنك دونَ الطَّيرِ للسَّرِّ مَوْضِعُ
تَتَنُّ فُنْصَغِي، أو تحنُّ فَنَسْمَعُ
كلانا غريبٌ، نازحُ الدارِ، مُوجِعُ
وناءٍ على قربِ الديارِ مُروِعُ
وأنت تُغْنِي في الغصونِ وتَسْبِجُ
فقد تُمْسِكُ العينانِ والقلبُ يَدْمَعُ
نَدِ مثلُ أيامِ الحَدَاثَةِ مُمَرِّعُ

أَبْنُكَ وَجَدَى يا حَمَامُ، وأودِعُ
وأنت مُعِينُ العاشقين على الهوى
أراك يَمَانِيًا، ومصرُ خميلتى
هما اثنان: دان في التغرُّبِ آمَنُ
ومن عجبِ الأشياءِ أبكى وأشتكى
لعلك تُخْفَى الوجْدَ، أو تكتُمُ الجوى
شباكِ صِغارِ كالخُمانِ ومَوْطِنُ

فما البينُ إلا حادثٌ مُتَوَقَّعٌ
تُفَرِّقُهَا الْأَيَّامُ، وَالسَّمْطُ يَجْمَعُ
فلا تُنْكِرِيهِ، فَهُوَ عِنْدَكَ مُودَعٌ
جَوَانِحُ فِي شَوْقٍ إِلَيْهِ وَأَضْلَعُ
يُذَالُ عَلَى سَفْحِ الْهَوَانِ وَيُوضَعُ
وَيَطْرَبُ إِنْ قَلْتَ: الْأَسِيرُ الْمُمنَعُ
هُوَ الْقَلْبُ، كَالْإِنْسَانِ يُغْرَى وَيُخْدَعُ
وَأَنْ خَلِيلَ الْغَانِيَاتِ مُضَيِّعُ
تَجِيءُ بِأَحْلَامِ الرِّجَالِ وَتَرْجِعُ
وَكثَرَتْهَا مِنْ كَثَرَةِ الزَّهْرِ أَضْرَعُ
زَمَانُ بِهِمْ مِنْ عَهْدِ سُقْرَاطَ مُولَعُ

إِذَا كَانَ فِي الْأَجَالِ طَوْلٌ وَفَسْحَةٌ
وَمَا الْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ إِلَّا لَأَلَىءُ
أُمْنِكِرْتِي، قَلْبِي دَلِيلٌ وَشَاهِدِي
أَسِيرِكَ، لَوْ يُفْدَى فَدَتُهُ يَجْمَعُهَا
رَمَاهُ إِلَيْكَ الدَّهْرُ مِنْ حَالِقِ الْهَوَى
وَمِنْ عَجَبٍ، يَأْسَى إِذَا قَلْتَ: مُتَعَبُ
لَقِيَتْ عَلِيمًا بِالْغَوَانِي، وَغَنَمَا
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَدَرَ فِي النَّاسِ شَائِعُ
وَأَنْ نِزَاعَ الرُّشْدِ وَالْغَى حَالَةٌ
وَأَنْ أَمَانِي النَّفُوسِ قَوَاتِلُ
وَأَنْ دُعَاةَ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ حَرْبُهُمْ

وقال:

وَأَرَاكَ فِي حَالِي دَلَالِكَ مُبْدِعَا
حَتَّى يُطَاعَ عَلَى الدَّلَالِ وَيُسْمَعَا
وَعَلَى أَنْ أَهْوَى الْغَزَالَ مُرَوَّعَا
وَأَقُولُ: مَا سَمِعَ الْغَزَالَ، وَلَا وَعَى
وَيُحِبُّ تَبِيهَكَ فِي نِفَارِكَ مَطْمَعَا
وَجَعَلْتُهَا أَمَلًا عَلَيْكَ مُضَيِّعَا
أَنْ أَمْنَحَ الدُّنْيَا بِهِ أَوْ أَمْنَعَا
صَرَفًا، وَدَارَ بَوَجْنَتِيهِ مُشْغَشَعًا^{١٨}
لَوْ صَبَّحُوا (رَضَوَى) بِهَا لَتَصَدَّعَا^{١٩}

تَأْتِي الدَّلَالُ سَجِيَّةً وَتَصْنَعَا
تَهْ كَيْفَ شِئْتَ، فَمَا الْجَمَالَ بِحَاكِمِ
لَكَ أَنْ يُرَوَّعَكَ الْوِشَاءُ مِنَ الْهَوَى
قَالُوا: لَقَدْ سَمِعَ الْغَزَالَ لِمَنْ وَشَى
أَنَا مَنْ يَحُبُّكَ فِي نِفَارِكَ مُؤَنَسَا
قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيَّ أَيَّامَ الْهَوَى
وَصَدَقْتُ فِي حَبِّي، فَلَسْتُ مُبَالِيَا
يَا مَنْ جَرَى مِنْ مُقْلَتِيهِ إِلَى الْهَوَى
اللَّهُ فِي بَكْدٍ سَقَيْتَ بِأَرْبَعِ

وقال:

أَحْسَنُ الْأَيَّامِ يَوْمٌ أَرْجَعَكَ
أُتْرَى يَا حُلُوُّ بَعْدَى رَوْعِكَ؟

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمُضْنَى مَعَكَ
مَرَّ مِنْ بَعْدِكَ مَا رَوَّعَنِي

كم شكوتُ البينَ بالليلِ إلى
وبعثتُ الشوقَ في ريح الصبَا
يا نعيمِي وعذابي في الهوى
أنتَ روحي. ظلَّم الواشى الذي
مَوْقَعِي عندَكَ لا أعلمُهُ
أزجفوا أنك شاكٍ مُوجِعُ
نامت الأعينُ. إلا مُقلَّة
مَطْلَعُ الفجرِ عسى أن يُطْلِعَكَ
فشكا الحُرْقَةَ مما استودَعَكَ
بعذولي في الهوى ما جَمَعَكَ؟
زَعَمَ القلبُ سَلا، أو ضيَّعَكَ
أه لو تعلمُ عندي مَوْقَعَكَ!!
ليت لي فوق الضَّنَا ما أوجعَكَ
تسكُّبُ الدمعِ، وترعى مضجَعَكَ

وقال مشطراً حيث اجتمع بعض الأدباء في مجلس، فذكر أحدهم بيتاً للبهاء زهير وهو:

يقول أناس: لو وصفت لنا الهوى
فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف؟
فقال:

يقول أناس: لو وصفت لنا الهوى
فقلت: لقد دُقْتُ الهوى، ثم دُقْتُه
وقال:

علِّمُوهُ كيفَ يجفو جفا
مسرفٌ في هجره ما ينتهى
جعلوا ذنبى لديهِ سَهْرَى
عرف الناسُ حقوقي عنده
صحَّ لي في العمرِ منه موعدُ
ويرى لي الصبرَ قلبٌ ما دَرى
مُستهامٌ في هواه مُدْنَفُ
يا خليلي، صفا لي حيلة
أنا لو ناديتُهُ في ذِلَّةٍ
ظالمٌ لا قِيْتُ منه ما كفى
أُتراهم علِّمُوهُ السَّرَفَا؟
ليتَ بَدْرِي إذ دَرَى الذنبَ عفا
وغريمي ما دَرى، ما عَرفا
ثم ما صدَّقْتُ حتى أخلفا
أنَّ ما كلفني ما كلفا
يترضى مستهاماً مُدْنَفَا
وأرى الحيلةَ أن لا تصفا
هي ذي روحي فخذها، ما احتفى

وقال:

جئْتَنَّا بالشُّعُورِ والأحْدَاقِ
وهَزَزْنَا القَنَا قُدُودًا، فأبْلَى
حبذا القِسْمُ في المحبين قِسْمِي
حيلتي في الهوى وما أتمنى
لو يُجَازَى المحبُّ عن فَرْطِ شَوْقِي
وفتاةٍ ما زادها في غريبِ الـ
نقت منها حلواً ومراً، وكانت
ضربتُ موعداً، فلما التقينا
قلت: ما هكذا الموائيقُ، قالت:
عَطَفْتُهَا نَحَافَتِي، وشجاها
فأرتني الهوى، وقالت: خَشِينَا
يا فتاةَ العراقِ، أَكُتْمُ مَنْ أَنـ
لي قوافٍ تَعَفُّ في الحبِّ إلا
لا تَمْنَى الزمانُ منها مزيداً
حمليني في الحبِّ ما شئتُ إلاَّ
واسمحي بالعناقِ إِرضى الدُّلُّ

وقال:

مُضْنَى وليس به حَرَائِكُ
وَيَمِيلُ من طَرِبٍ إِذَا
إِن الجَمَالَ كَسَاكَ من
وَنَبَتَتْ؟ بين جوانحي
حُلُو الوعودِ، متى وفاك؟
من كلِّ لَفِظٍ لو أَدْنـ
أَخَذَ الحلاوةَ عن ثَنَا
لَكُنْ يَخِفُّ إِذَا رَأَى
ما مِلْتُ يا غَصْنَ الأَرَاكِ
وَرَقَّ المحاسنِ ما كَسَاكَ
والقَلْبُ من دَمِهِ سَقَاكَ
أَتُرَاكَ مُنْجَرَّهَا تُرَاكَ؟
سَتَ لِأَجَلِهِ قَبِلْتُ فَاك
يَاكَ العِذَابَ، وعن لَمَّاكَ

ظلمًا أقول: جَنَى الهوى لم يَجُنْ إِلَّا مُقْلَتَاكَ
غَدَتَا مِنْيَّةً مَنْ رَأَيْتَ تَ، وَرُحْتَ مِنْيَّةً مَنْ رَأَى

وقال:

فَدَاثَكَ الْجَوَانِحُ مِنْ نَازِلٍ وَأَهْلًا بِطَيْفِكَ مِنْ وَاصِلٍ
بَذَلْتُ لَهُ الْجَفْنَ دُونَ الْكَرَى وَمَنْ بِالْكَرَى لِلشَّجَى الْبَازِلِ؟
وَقُلْتُ: أَرَاكَ بَرِغَمَ الْعَذُولِ فَنَابَ السُّهَادُ عَنِ الْعَاذِلِ
فَوَيْحَ الْمَتِيمِ!! حَتَّى الْخِيَالُ إِذَا زَارَ لَمْ يَخُلْ مِنْ حَائِلِ
يَجُنُّ عَلَيْكَ ضُلُوعٌ عَفَتْ مِنَ الْبَيْنِ فِي جَسَدٍ نَاحِلِ
وَقَلْبٌ جَوَّ عِنْدَهَا خَافِقُ تَعَلَّقَ بِالسَّنَدِ الْمَائِلِ
وَمِنْ عَبَثِ الْعَشْقِ بِالْعَاشِقِينَ حَنِينُ الْقَتِيلِ إِلَى الْقَاتِلِ
غَفَلْتُ عَنِ الْكَأْسِ حَتَّى طَغَتْ وَلَى أَدَبُ لَيْسَ بِالْغَافِلِ
وَشَفَّتْ، وَمَا شَفَّ مِنْى الضَّمِيرُ وَأَيْنَ الْجَمَادِ مِنَ الْعَاقِلِ؟
يَظَلُّ نَدِيمِي يُسْقَى بِهَا وَيَشْرَبُ مِنْ خُلْقَى الْفَاضِلِ
أَبَدُّهَا كَرَمًا كُلَّمَا بَدَتْ لَى كَالذَّهَبِ السَّائِلِ

وقال:

لَمْ فَيْكُمْ عَذُولُهُ وَأَطَالَا كَمْ إِلَى كَمْ يُعَالِجُ الْعُدَّالَا؟
كُلَّ يَوْمٍ لَهُمْ أَحَادِيثُ لَوِّمْ بَدَأَتْ رَاحَةً، وَعَادَتْ مَلَالَا
بَعَثْتُ ذَكَرَكُمْ، فَجَاءَتْ خِفَافًا وَاقْتَضَتْ هَجْرَكُمْ، فَرَاحَتْ ثِقَالَا
أَيُّهَا الْمُنْكَرُ الْغَرَامَ عَلَيْنَا حَسْبُكَ اللَّهُ، قَدْ جَحَدَتْ الْجَمَالَا
آيَةُ الْحَسَنِ لِلْقُلُوبِ تَجَلَّتْ كَيْفَ لَا تَعشَقُ الْعَيُونَ أَمْتَالَا؟
لَكَ نُصْحِي، وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالَا
وَهَبَ الرُّشْدَ أَنْنَى أَنَا أَسْلُو مَا مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَرُومَ مُحَالَا

وقال:

والبَرْحُ لا وان وما مُنْجَلِي
بموقف اللّوام والعُذْل
رَعَيْنُهُ بِالْحَدَقِ الْعُقْل
وما أنت يا أسودُ إلاّ خَلِي
تفعل أحجّمت فلم تفعل
ما كنت للأعداء ما أنت لي
والكأس لا تفنى ولا تمتلى
يشرب من عين ومن جدول
والفكرُ يذكي، والحشا يصطلى
كأنه الناقوس في الهيكل

بات المعنّى والدجى بيتلى
والشُّهْبُ في كلّ سبيل له
إذا رعاها ساهياً ساهراً
يا ليل، قد جُرّت، ولم تعدل
تالله لو حُكِّمت في الصبح أن
أوشمت سيفاً في جيوش الضحى
إبيت أسقى ويدير الجوى
الحد من دمعى ومن فيضه
والشوق نار في رَماد الأسى
والقلب قوام على أضلعي

وقال:

لَمَّا رَمَتْ فَأَصَابَتْ الْأَرَامُ؟
فيه لمحتوم القضاء سهام
واصبر، فما للحادثات دوام
وأذاقها قدرٌ له أحكام
كبت العقول وزلت الأحلام
أن الحوادث مُقلّة وقوام
كبدى، عليك من البرئ سلام
قعدت كُئوسك والهموم قيام
جرت الدنان بها وسال الجّام

أنا إن بذلت الروح كيف ألام
عمدت إلى قلبي بسهم نافذ
يا قلب، لا تجزع لحادثة الهوى
عرفت قلوب الناس قبلك: ما الجوى؟
تجرى العقول بأهلها، فإذا جرى
ما كنت أعلم — والحوادث جمّة —
جنياً على كبدى وما عرّضتها
ولقد أقول لمن يحث كئوسها
لم تجر بين جوانحي إلاّ كما

وقال:

فناح فاستبكي جفون العمام؟
مُبْلَبَلِ البال شريد المنام؟

هل تيّم البان فؤاد الحمام
أم شفه ما شفنى فانثنى

يَهْزُهُ الْأَيْكُ إِلَى الْفَه
وَتَوْقِدُ الذِّكْرَى بِأَحْشَائِهِ
كَذَلِكَ الْعَاشِقُ عِنْدَ الدَّجَى
لَهُ إِذَا هَبَّ الْجَوَى صَرْعَةً
يَا عَادِيَّ الْبَيْنِ، كَفَى قَسْوَةً
تِلْكَ قُلُوبَ الطَّيْرِ حَمَلَتْهَا
لَا ضَرْبَ الْمَقْدُورِ أَحْبَابَنَا
يَا زَمَنَ الْوَصْلِ، لَأَنْتَ الْمَنَى
لِلَّهِ عَيْشٌ لِي وَعَيْشٌ لَهَا
وَأَنْسُ أَوْقَاتِ ظَفَرِنَا بِهَا
لَكِنَّهُ الدَّهْرُ قَلِيلُ الْجَدَى
لَوْ سَامَحْتُنَا فِي السَّلَامِ النَّوَى
وَلَا نَقْضَى الْعِمْرَانَ فِي وَقْفَةٍ
قَالَتْ وَقَدْ كَادَ يَمِيدُ الثَّرَى
وَعَابَتْ الْأَعْيُنُ فِي دَمْعِهَا
يَا بَيْنُ، وَلَيْ جَلْدِي فَاتَّئِدُ
فَقُلْتُ وَالصَّبْرُ يَجَارِي الْأَسَى
إِنْ كَانَ لِي عِنْدَكَ هَذَا الْهَوَى

وقال:

صَرِيحُ جَفْنِيكَ يَنْفَى عَنْهُمَا التَّهْمَا
اللَّهُ فِي رُوحِ صَبٍّ يَغْشِيَانِ بِهَا
وَكُفَّ عَنْ قَلْبِهِ الْمَعْمُودِ نَبْلُهُمَا
سَلَوْا غَزَالًا غَزَا قَلْبِي بِحَاجِبِهِ
وَاسْتَخْبِرُوهُ: عَلَى كَمِ نَارٍ جَفَوْتَهُ؟
وَاسْتَوْهَبُوهُ يَدًا فِي الْعَمْرِ وَاحِدَةً
وَلَا تَرَوْا مِنْهُ ظِلًّا أَنْ يُضَيِّعَنِي
فَمَا رَمَيْتَ وَلَكِنْ الْقَضَاءُ رَمَى
مَوَارِدَ الْحَتْفِ لَمْ يَنْقُلْ لَهَا قَدَمَا
أَلَيْسَ عَهْدُكَ فِيهِ حَبَّةٌ وَدَمَا؟
أَمَا كَفَى السَّيْفُ حَتَّى جَرَّدَ الْقَلَمَا؟
أَمَا كَفَى مَا جَنَّتْ نَارُ الْخُدُودِ أَمَا؟
وَمَهَّهُوا عُذْرَهُ عَنِي إِذَا حَرَمَا
مَنْ ضَيَّعَ الْعَرَّ الْمَمْلُوكَ مَا ظَلَمَا

وقال:

زاد الكرى ن مقلتيك حمامُ
 حيرانُ، مشبوبُ المضاجع، ليلُهُ
 بين الدجى لكما وعادية الدجى
 تتعاونان، وللتعاون أمةُ
 يا أيها الطيرُ الكثيرُ سميرهُ
 عانقتُ أغصاناً، وعانقتُ الجوى
 أمحرمَ الأجفانِ إدناء الكرى
 حاولن منه إلى خيالك سلماً
 فأذنن لطيفك أن يلمَّ مجاملاً

وقال:

شغلته أشغالُ عن الآرام
 ومضى يجرُّ على الهوى أذياله
 ويدُّم عهد الغانيات كناقية
 لا تعجلن وفي الشباب بقيَّة
 كانت إنابتك المريبة سلوة
 إن الذي جعل القلوب أعنة
 يا قلب أحمد — والسَّهامُ شديدة —
 تدرى، وتسالني تجاهل عارف:
 ما زلت تركبُ كلَّ صعبٍ في الهوى
 وإذا القلوب استرسلت في غيها

وقال:

به سحرٌ يتَّيمُهُ
 هما كاد لمهجته
 كلا جفنيك يعلمُهُ
 ومنك الكيدُ معظَّمُهُ

وَتُوجِدُهُ، وَتُعِدُّهُ	تَعَذِّبُهُ بِسِحْرِهِمَا
وَلَا مَارُوتَ يَرْحُمُهُ	فَلَا هَارُوتَ رَقَّ لَهُ
إِلَى مَنْ لَيْسَ يَظْلِمُهُ	وَتَظْلِمُهُ فَلَا يَشْكُو
وَبَاحٍ، فَخَانَهُ فَمُهُ	أَسْرًا، فَمَاتَ كَتْمَانًا
وَدَّ حَتَّى الْبَيْتِ يُحْرِمُهُ	فَوَيْحَ الْمُدْنَفِ الْمَعْمِ
هُوَ تَفُّهُ وَأَنْجُمُهُ	طَوِيلُ اللَّيْلِ، تَرْحُمُهُ
جَرَى فِي دَمْعِهِ دُمُهُ	إِذَا جَدَّ الْغَرَامُ بِهِ
بِعَادِي السُّقْمِ يُسْقِمُهُ	يَكَادُ لَطُولُ صَحْبَتِهِ
وَأَلْقَى الْعَذْرَ لُؤْمُهُ	ثَنَى الْأَعْنَاقَ عُودُهُ
إِلَيْكَ غَدًا يَقْدِّمُهُ	قَضَى عَشْقًا سَوَى رَمَقٍ
تَقُولُ: اللَّهُ يَرْحُمُهُ	عَسَى إِنْ قِيلَ: مَاتَ هَوَى
بَلْفِظْ مِنْكَ أَعْظَمُهُ	فَتَحْيَا فِي مَرَاقِدِهَا

عَنِ الْمَقْدُورِ أَعْصَمُهُ	بِرُوحِي الْبَانُ يَوْمَ رَنَا
مُعَلَّمُهُ مُنْعَمُهُ	وَيَوْمَ طُعِنْتُ مِنْ غُصْنٍ
وَلَطْفُ اللَّهِ مَبْسَمُهُ	قَضَاءُ اللَّهِ نَظَرْتُهُ
بَى الرَّامِي وَأَسْهَمُهُ	رَمَى، فَاسْتَهْدَفْتُ كَبْدِي
وَمَنْ عَجَبٍ يَسْلَمُهُ	لَهُ مِنْ أَضْلُعِي قَاعٌ
كِنَاسٌ بَاتَ يَهْدِمُهُ	وَمَنْ قَلْبِي وَحَبَّتِيهِ
هُ بَيْنَ الْغَيْدِ يَقْسِمُهُ	غَزَالٌ فِي بَدَايِهِ التَّيِّبِ

وقال:

وَأَحْلَهُ حَدَقًا لَهَا وَجَفُونَا؟	مَنْ صَوَّرَ السَّحَرَ الْمُبِينَ عَيُونَا
كَبْدِي، وَكَانَ فَوَادِي الْمَغْبُونَا	نَظَرْتُ، فَحُلْتُ بِجَانِي، فَاسْتَهْدَفْتُ
حَتَّى اسْتَقَرَّ، فَزَنَ فِيهِ رَنِينَا	وَرَمْتُ بِسَهْمِ جَالٍ فِيهِ جَوْلَةٌ
وَلَمَسْتُ جَنْبِي مُشْفِقًا وَضْنِينَا	فَلَمَسْتُ صَدْرِي مُوجِسًا وَمُرَوَّعًا

يا قلبُ، إن من البَوَائرِ أَعْيُنًا
لا تأخذنَّ من الأمورِ بظاهرِ
فلکم رَجَعْتُ من الأَسَنَةِ سالماً
وَحَمِيلَةٍ فوق الجزيرةِ مَسَّها
كَالتَّيَرِ أَفَقًا، وَالزَّبْرَجِدِ رِبْوَةً
وقف الحيا من دونها مُسْتَأْذَنًا
وجرى عليها النيلُ يَقْذِفُ فَضَّةً
يُغْرِى جَوَارِيَهُ بها، فَيَجْتَنُّهَا
راع الظلامُ بها أوانِسَ تَرْتَمِي
يَخطِرُنَ في ساحِ القلوبِ عواليًا
عَفَنَ الذُّيُولَ من الحريرِ وغيره
عارضتُهنَّ ولي فَوَّادٌ عُرْضَةٌ
فَنظَرُنَ لا يَدْرِين: أَذْهَبُ يَسْرَةً
وَنَفَرُنَ من حَوَلي وَبَيْنَ خَبائِلي
فَجَمَعْتُهنَّ إلى الحديثِ بدائِهِ
وسمعتُ من أهوى تقول لِتَرْبِها:
قالت: أراه عندَ غايَةِ وَجْدِهِ

سَوَادًا، وَإِنَّ مِنَ الْجَاذِرِ عَيْنًا
إِنَّ الظَّوَاهِرَ تَخْدَعُ الرَّائِيْنَا
وصدُرْتُ عن هَيْفِ القُدودِ طَعِينًا
ذَهَبُ الْأَصِيلِ حَوَاشِيًا وَمَتُونًا
وَالْمِسْكِ تَرْبًا، وَاللُّجَيْنِ مَعِينًا
ومشى النسيمُ بظَلِّها مَأْذُونًا
نَثَرًا، وَيَكْسِرُ مَرَمَرًا مَسْنُونًا
وَيُغَيِّرُهُنَّ بها، فَيَسْتَعْلِيْنَا
مِثْلَ الظِّبَاءِ مِنَ الرُّبَى يَهْوِينَا
وَيَمْلُنَ في مَرَأَى العيونِ غُصُونًا
وَسَحَبْنِ ثَمَّ الْأَسَّ وَالنَّسْرِينَا
لهوى الجَاذِرِ دَانَ فيه وَدِينَا
فَيَجِدُنَ عَنِّي، أَمْ أَمِيلُ يَمِينًا؟
كَالسَّرْبِ صَادَفَ فِي الرُّوَّاحِ كَمِينَا
فَغَضِبَنَ، ثُمَّ أَعَدَّتْهُ فَرَضِينَا
أُخْرَى بِأَحْمَدَ أَنْ يَكُونَ رَزِينَا^{٢٠}
فلعلَّ ليلَى ترحمُ المَجْنُونَا

* * *

أَذْعَنَ لِلْحُسْنِ عَصِيَّ الْعِنَانُ
يَعِيشُ جَفْنَاكَ لَبِثَ الْمُنَى
يا مُسْرِفًا فِي التَّيِّهِ مَا يَنْتَهِي
ويا كَثِيرَ الدَّلِّ فِي عِرْهِ
ويا شَدِيدَ الْعُجْبِ، مَهْلًا، فَمَا

وَحَاوَلْتُ عَيْنَاكَ أَمْرًا فَكَانَ
أَوْ الْأَسَى فِي قَلْبِ رَاحٍ وَعَانَ
أَخَافُ أَنْ يَفْنَى عَلَيْنَا الزَّمَانُ
لا تَنْسَ لِي عَزَى قُبَيْلِ الْهَوَانِ
مَنْ مُنْكَرٍ أَنْكَ زَيْنُ الْحِسَانِ

وقال:

يا حسنَه بين الحِسانِ في شكله إن قيل: بأن

كالبدْرِ تأخذه العيو نُ وما لهنَّ به يدان
مَلِكَ الجوانِحِ والفؤا دَ ففي يديه الخافقان
ومنأى منه نظرةً فعسى يُشير الحاجبان
فعسى يُزكِّي حُسْنَه مَنْ لا له في الحسن ثان
فدعوه يَعْدِلُ أو يَجو رُ، فإنه مَلِكُ العِنان
حَقَّ الدلالُ لمن له في كل جارحة مكان

وقال:

يا ناعماً رقدت جُفونهُ مُضناكَ لا تهدا شُجونهُ
حملَ الهوى لك كلُّهُ إن لم تُعنه فَمَنْ يُعِينهُ؟
عُدْ مُنْعِماً، أو لا تُعُدْ أودَعْتَ سرَّكَ مَنْ يَصُونهُ
بيني وبينكَ في الهوى سببُ سيجمُعنا مَتِينهُ
رشاً يُعابُ الساحرو ن وسحرهم، إلَّا جُفونهُ
الروحُ مَلِكُ يمينه يَفديه ما مَلَكْتَ يَمِينهُ
ما البانُ إلَّا قَدُّهُ لو تَيَمَّتَ قلباً غصونهُ
ويزينُ كلَّ يتيمة فمهُ، وتحسبُها تَزِينُهُ
ما العمرُ إلَّا ليلَةٌ كان الصبّاحُ لها جَبِينُهُ
بات الغرُّ يَدِيننا فيها كما بتنا نَدِينهُ
بين الرقيب وبيننا وادِ تَباعَدُهُ حُزُونُهُ
نَغْتَابُهُ، ونقول: لا بَقى الرقيبُ ولا عيونهُ

وقال:

صحا القلبُ، إلَّا من حُمارِ أمانى يجاذُبني في الغيدِ رثَّ عِناني
حَنانِيكَ قلبي، هل أعيِدُ لك الصبّا؟ وهل للفتى بالمستحيلِ يدان؟
تحنُّ على ذاك الزمانِ وطيبه وهل أنتَ غلا من دمِ وحنان؟
إذا لم تُصنْ عهداً، ولم ترعَ ذمّةً ولم تَدَكِّرْ إلْفا، فلستَ جَناني

أتذكر إذ نُعْطِي الصَّبَابَةَ حَقَّهَا
وَأَنْتَ خَفُوقٌ، وَالْحَبِيبُ مَبَاعِدُ
وَأَيَّامٌ لَا أَلُو رِهَانًا مَعَ الْهُوَى
لَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو مِنْ خُفُوقِكَ دَائِبًا
سَقَاكَ التَّصَابِي بِعَدَمِ مَا عَلَيْكَ الصَّبَا
وَمَا زِلْتُ فِي رَيْعِ الشَّبَابِ، وَإِنَّمَا
وَلَا أَكْذِبُ الْبَارِي، بَنِي اللَّهِ هِيكَلِي
أَدِينُ إِذَا اقْتَادَ الْجَمَالَ أَرْمَتِي

وقال:

اللَّهُ فِي الْخَلْقِ مِنْ صَبٍّ وَمِنْ غَانِي
صَوْنِي جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّنَا بَشَرُ
أَوْ فَابْتَعَى لَلْكَ تَأْوِينَهُ مَلَكًا
يَنَسَابُ فِي النُّورِ مَشْغُوفًا بِصُورَتِهِ
إِذَا تَبَسَّمَ أَبَدَى الْكَوْنُ زِينَتَهُ
وَأَشْرَقَى مِنْ سَمَاءِ الْعَزِّ مُشْرِقَةً
عَسَى تَكْفُفُ دَمُوعُ فَيْكِ هَامِيَةً
يَا مَنْ هَجَرْتُ إِلَى الْأَوْطَانِ رُؤْيَتَهَا
أَتَذَكِّرِينَ حَنِينِي فِي الزَّمَانِ لَهَا
وَعَبْطِي الطَّيْرَ أَلْقَاهُ اصْبَحْ بِهِ:

وقال:

قَلْبُ بَوَادِي الْحَمَى خَلَفْتَهُ رَمَقًا
أَحْنِي عَلَيْكَ مِنَ الْكُثْبَانِ، فَاتَّخَذِي
غَرَبَتَهُ، فَوَهَى جَنْبِي لِفُرْقَتِهِ
لَا رَدَّ لِلَّهِ مِنْ اسْرِ، وَمِنْ خَبَلٍ
مَاذَا صَنَعْتَ بِهِ يَا ظَبِيَّةَ الْبَانِ؟
عَلَيْهِ مَرَعَاكِ مِنْ قَاعٍ وَكُثْبَانِ
وَحَنٍّ لِلنَّازِحِ الْمَأْسُورِ جُثْمَانِي
إِنْ كَانَ فِي رَدِّهِ صَحْوِي وَسُلْوَانِي

دلَّهتَه بعزیزِ فی مَحاَجِرِه
رمى فضجَّتْ علی قلبی جوانحُه
یا صوَرَةَ الحُورِ فی جِلبابِ فانیةِ
مُرى عَصیِّ الکرى یَغشى مُجامِلَةً
فحسبُ خَدَّی مِنْ عَینَی ما شربا

ماضٍ، له من مُبین السَّحَرِ جَفنان
وقلن: سَهْمٌ، فقال القلبُ: سَهمان
وکوکَبَ الصبَحِ فی أعطافِ إنسان
وسامحی فی عناق الطیفِ أجفانی
فممثل ما قد جرى لم تلقَ عینان

وقال:

قالوا له: رُوحی فداه
أنا لم أقم بصدویدِه
تجرى الأمور لغایةِ
سُمیتُه بدرَ الدُجی
ودعوته غصنَ الرِّیا
وأقولُ عنه: أخو الغزا
قال العواذلُ: قد جفا
أنا لو أطعتُ القلبَ فی
والنَّصَحُ مَتَّهَمٌ وإن
أذُنُ الفتی فی قلبه

هذا التجنَّى ما مداه؟
حتى یُحمِّلَنی نَواه
إلَّا عذابى فی هواه
ومن العجائب لا أراه
ضٍ، فلم أجد رَوْضًا حواه
ل، ولا أرى إلَّا أخاه
ما بالُ قلبك ما جفاه؟
ه لم أزدَه علی جَواه
نَثَرْتُهُ کالدَّرِّ الشفاه
حینًا، وحينًا فی نَهاه

وقال:

مقادیرُ من جَفَنیکِ حوَلَنَ حالیا
نفذَنَ علی اللبِّ بالسهم مُرسلًا
وألْبَسَنى ثوبَ الضنى فلبستُه
وما الحبُّ إلَّا طاعةٌ وتجاوزُ
وما هو إلَّا العینُ بالعين تلتقي
وعندي الهوى، موصوفُه لا صفاتُه
وبى رَشَأٌ قد كان دنیایَ حاضِرًا

فدُقْتُ الهوى من بعد ما كنتُ خالیا
وبالسَّحَرِ مَقْضِيًا، وبالسيف قاضیا
فأُحِبُّ به ثوبًا وإن ضمَّ بالیا
وإن أكثرُوا أوصافَه والمعانیا
وأن نَوَّعُوا أسبابَه والدَّواعیا
إذا سألوני: ما الهوى؟ قلتُ: ما بیا
فغادرَنى أَشتاقُ دُنیایَ نائیا

وَمَنْ يَهُوَ لَا يُؤْثِرُهُ عَلَى الْحَبِّ غَالِيَا
كهذى التي يجرى بها الدَّمْعُ وَاشِيَا
برغم فَوَادِي سَائِرُ بِفَوَادِيَا
كفكى بالهوى كَأَسَا، وَرَاحَا، وَسَاقِيَا
من الظلم أَنْ يَغْدُو لِنَارَيْنِ صَالِيَا
فرفقًا به من طعنة البَيْنِ دَامِيَا

سَمَحْتُ بِرُوحِي فِي هَوَاهُ رَخِيصَةً
وَلَمْ تَجْرِ أَلْفَاظُ الْوَشَاةِ بَرِيْبَةٍ
أَقُولُ لِمَنْ وَدَّعْتُ وَالرَّكْبُ سَائِرُ:
أَمَانًا لِقَلْبِي مِنْ جَفَوْنِكَ فِي الْهَوَى
وَلَا تَجْعَلِيْهِ بَيْنَ خَدْيِكَ وَالنَّوَى
وَلَمْ يَنْدَمَلْ مِنْ طَعْنَةِ الْقَدِّ جُرْحُهُ

وقال:

اللَّهِ فِي مُهْجٍ طَاحَتْ غَوَالِيَهَا
وَارْدُدْنَهَا كَرَمًا لَوْ كَانَ يُجْدِيهَا
مَا كَانَ مِنْ عَبَثِ الْأَحْدَاقِ يَكْفِيهَا
عَلَى (الْجَزِيرَةِ) سُرْبٌ مِنْ غَوَانِيَهَا
مِنَ الْجَوَانِحِ ضَمَّتْهَا حَوَانِيَهَا
مَهْزُوزَةً شَكْلًا، مَشْرُوعَةً تِيهَا^{٢٢}
نَشَوَى مَنَاصِلُهَا، كَحَلَى مَوَاضِيهَا
وَلَمْ نَخْلُ طَبَيَاتِ الْقَاعِ تَلْقِيَهَا
حَتَّى أَنْثَنِيَتْ بِنَفْسٍ عَزَّ فَادِيهَا
لَبَّائُهَا عَنِ شَبِيهِ الدَّرِّ مِنْ فِيهَا
كَأَنَّ يُوشَعُ مَفْتُونٌ يُجَارِيهَا
لِلنَّاضِرِينَ، وَبَانَا فِي تَثْنِيَّتِهَا
عُجْبًا، وَكَلَّ نَوَاحِيهِ مَرَاثِيَهَا
يَزُورُ عَنْ لِحْظَاتِي فِي مَسَارِيهَا
وَمِنْ غَلَاثِلِهَا عَمَّا يُدَانِيهَا
فَقُلْتُ: هَلْ يُحَرِّجُ الْأَقْمَارَ رَائِيهَا
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الرَّيْمَ يَرْوِيهَا
صَدَى السَّرِيرَةِ وَالْآدَابِ يَحْكِيهَا

أَهْلَ الْقُدُودِ الَّتِي صَالَتْ غَوَالِيَهَا
خُذْنِ الْأَمَانَ لَهَا لَوْ كَانَ يَنْفَعُهَا
وَانْظُرْنَ مَا فَعَلْتُ أَحْدَاقُكُنَّ بِهَا
تَعَرَّضْتُ أَعْيُنُ مَنَا، فَعَارَضْنَا
مَا تُرْنُ مِنْ كُنُسٍ^{٢٢} إِلَّا كُنُسٍ
عَنْتَ لَنَا أَصْلًا، تُغْرَى بِنَا أَسْلًا
وَأَرْهَفْتُ أَعْيُنًا ضَعْفَى حَمَائِلُهَا
لَنَا الْحَبَائِلُ تُلْقِيَهَا نَصِيدُ بِهَا
نَصَبْنَهَا لَكَ مِنْ هُدْبٍ وَمِنْ حَدَقٍ
مِنْ كُلِّ زَهْرَاءٍ فِي إِشْرَاقِهَا ضَحَكْتُ
شَمْسُ الْمَحَاسَنِ يُسْتَبْقَى النَّهَارُ بِهَا
مَشَتْ عَلَى (الْجَسْرِ) رِيْمًا فِي تَلْفَتِهَا
كَأَنَّ كُلَّ غَوَانِيهِ ضَرَائِرُهَا
عَارَضْتُهَا وَضَمِيرِي مِنْ مَحَارِمِهَا
أَعْفُ مِنْ حَلِيهَا عَمَّا يُجَاوِرُهُ
قَالَتْ: لَعَلَّ أَدِيبَ النَّيْلِ يُحَرِّجُنَا
بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَشْعَارُ هَتَفْتُ بِهَا
وَالْقَوْلُ إِنْ عَفَّ أَوْ سَاءَتْ مَوَاقِعُهُ

وقال:

أدارى العيونَ الفاتراتِ السَّواجيا وأشكو إليها كَيْدَ إنسانِها ليا
قتلنَ ومَنَيْنَ القَتِيلَ بألسُن من السحر يُبْدِلُنَ المنايا أمانيا
وكَلَّمَنَ بالألحاظِ مَرَضَى كَلِيلَةً فكانتِ صِحاخًا في القلوبِ مَواضيا
حَبَبْتُكَ ذَاتَ الخالِ، والحبُّ حالةٌ إذا عَرَضْتَ للمرءِ لم يَدْرِ ماهيا
وإنك دُنيا القلبِ مهما غَدَرْتَه أتى لك مملوءًا من الوجدِ وافيًا
صدودُك فيه ليس يألوه جارحًا ولفظُك لا ينفكُ للجرحِ آسيا
وبين الهوى والعذلِ للقلبِ موقِفٌ كخالِكِ بينَ السيفِ والنارِ ثاويا^{٢٤}
وبين المُنَى واليأسِ للصبرِ هِزَّةٌ كخَضْرِكِ بينَ النَّهْدِ والرَّدْفِ واهيا
وعَرَضَ بي قومي، يقولون: قد غوى عَدِمْتُ عذولى فيكَ إن كنتُ غاويا
يَرْمُونُ سُلوانًا لقلبي يُرِيحُهُ ومن لى بالسُّلوانِ أشريه غاليا؟
وما العشقُ إلا لذةٌ ثم شِقْوَةٌ كما شَقَى المَخمورُ بالسُّكرِ صاحيا

هوامش

- (١) العقيق: كناية عن الدَّم.
- (٢) نهل، من نهلت الإبل: شربت أول الشرب.
- (٣) علَّت، من علَّ الرجل: شرب شربة ثانية.
- (٤) سويجج: تصغير ساجع. والسويداء: حبة القلب.
- (٥) يضيوني: يضعفني، من أضواه الأمر: أضعفه.
- (٦) والقلب اصبى: أي أشد صبوة.
- (٧) أهل به: عمر.
- (٨) الظبى: جمع ظبة وهي حد السيف.
- (٩) هو لبيد بن ربيعة الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

أن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

(١٠) الفند: الكذب وكفر النعمة.

(١١) العهد: القديم.

(١٢) الكم بكسر الكاف: الغلاف الذي ينشق عن الثمر.

(١٣) يعنى بكل مقطعة يدها إلخ. صواحبات يوسف الصديق اللواتي ورد ذكرهن في السورة.

(١٤) السمر: الرماح. والخواطر: المهتزاز، يقال: خطر الرمح إذا اهتز، وهي هنا كناية عن القدود.

(١٥) آذار: شهر مارس وهو أول فصل الربيع.

(١٦) هذا الشطر من المطلع للمرحوم محمود سامي باشا البارودي، نظمته ثم أمسكه، فأكمّله الشاعر وأضاف إليه هذه الأبيات.

(١٧) القمر: جمع قمرية وهي ضرب من الحمام.

(١٨) المشعشع: الشراب يمزج بالماء.

(١٩) رضوى: اسم جبل.

(٢٠) الترب بالكسر: وما ولد معك، وأكثر ما يستعمل في المؤنث، يقال هذه ترب فلانه إذا كانت على سنّها.

(٢١) الأنداء: الأمطار.

(٢٢) الكنس: جمع كناس، وهو بيت الطّبي.

(٢٣) يقال: شكلت المرأة شكلا: كانت ذات شكل أي غنج ودلال وغزل.

(٢٤) يعنى الشاعر بهذه التورية أن خالها بين نار الخد — وهي كناية عن الحمرة — وبين سيف اللحظ وهو معروف.

متفرقات

مَصَايِرُ الْأَيَّامِ:

وأَحِبُّ بِأَيَّامِهِ أَحِبِّ!
ن، عِنَانُ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا صَبِي
ة وَأَنْفَاسُ رِيحَانِهَا الطَّيِّبِ
ع على مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَالْمَغْرِبِ
وراع غَرِيبِ الْعَصَا أَجْنَبِي
ة شَدِيدٍ عَلَى النَّفْسِ مُسْتَصْعَبِ
يَرَوْضُ الْجَنَاحِ، وَمَنْ أَرْغَبِ
س،^١ مِهَارٌ عَرَابِيدُ فِي الْمَلْعَبِ
ة، على الْأَمِّ يُلْقُونَهَا وَالْأَبِ
تَضْيِيقُ بِهِ سَعَةَ الْمَذْهَبِ
وَأَعْدَى الْمُؤَدَّبِ حَتَّى صَبِي!
ح، وليس إِذَا جَدَّ بِالْمَطْرِبِ
ن على النَّاسِ دَائِرَةُ الْعَقْرِ
ب، وَتَقْذِفُ بِالسَّمِّ فِي الشَّيْبِ
ء وَتَجْرِي الْمَقَادِيرُ فِي اللَّوْلَبِ
حَقَائِبُ فِيهَا الْغَدُّ الْمُخْتَبَى
من النَّاسِ، أَوْ يَمُضُ لَا يُحْسَبُ

أَلَا حَبَّذَا صُحْبَةُ الْمَكْتَبِ
وَيَا حَبَّذَا صَبِيَّةٌ يَمْرَحُو
كَأَنَّهُمْو بِسَمَاةٍ الْحَيَا
يُرَاحُ وَيُغْدَى بِهِمْ كَالْقَطِيطِ
إِلَى مَرْتَعِ أَلْفَوْا غَيْرَهُ
وَمُسْتَقْبَلٍ مِنْ قِيُودِ الْحَيَا
فِرَاحُ بِأَيْكِ: فَمَنْ نَاهِضِ
عَصَافِيرُ عِنْدَ تَهَجِّي الدُّرُ
خَلِيُونَ مِنْ تَبِعَاتِ الْحَيَا
جَنُونَ الْحَدَاثَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ
عَدَا فَاسْتَبَدَّ بِعَقْلِ الصَّبِيِّ
لَهُمْ جَرٌّ مُطْرِبٌ فِي السَّرَا
تَوَارَتْ بِهِ سَاعَةٌ لِلزَّمَا
تَشُولُ^٢ بِإِبْرَتِهَا لِلشَّبَا
يَدُقُّ بِمِطْرَقَتَيْهَا الْقَضَا
وَتِلْكَ الْأَوَاعِي بِأَيِّمَانِهِمْ^٣
فَفِيهَا الَّذِي إِنْ يُقِمَّ لَا يُعَدُّ

وفيها اللّواءُ، وفيها المنا رُ، وفيها التَّبِيعُ، وفيها النّبى
وفيها المؤخّرُ خلفَ الزحا م، وفيها المقدمُ في المواكب

* * *

جميلٌ عليهم قشيبُ الثيا
كساهم بنانُ الصّبا حلّة
وأبهى من الورد تحت الندى
وأطهر من ذيلها لم يلمّ
قطيعٌ يزجّيه راعٍ من الده
أهابت هرواته بالرّفا
وصرفَ قطعانه، فاستبدّ
أراد لمن شاء رعى الجدي
وروى على رِيّها النّاهلا
وألقي رقابا إلى الضاربيـ
وليس يبالى، رضا المستريـ
وليس بمُبقي على الحاضريـ

ب، وما لم يُجمل ولم يقشب
أعزّ من المخمِلِ المذهب
إذا رفّ في فرعه الأهدب
من الناس ماشٍ، ولم يسحب
ر، ليس بليّن ولا صلب
ق، ونادت على الحيدّ الهرب
ولم يخش شيئا، ولم يرهّب
ب، وأنزل من شاء بالمُخصب
ت، وردّ الظّماء فلم تشرب
ن، وضنّ بأخرى فلم تُضرب
ح، ولا صجّر الناقم المتعب
ن، وليس بباكٍ على الغيب

* * *

فيا ويحهم! هل أحسّوا الحيا
تجرّب فيهم وما يعلمو
سقتهم بسمّ جرى في الأصو
ودار الزمان، فدال الصّبا
وجدّ الطّلاب، وكدّ الشبا
وعادت نواعمُ أيّامه
وعذّب بالعلم طُلابه
رمتهم به شهواتُ الحيا
وزهو الأبوة من مُنجب
وعقلٌ بعيدُ مرامى الطّما

ة؟ لقد لعبوا وهى لم تلعب
ن، كتجربة الطّب في الأرنب
ل، وروى الفروع ولم ينضب
وشبّ الصّغار عن المكتب
بُ وأوغل في الصّعب فالأصعب
سنيين من الدّاب المنصب
وغصّوا بمنهله الأعذاب
ة، وحبّ النّباهة والمكسب
يفاخرو منّ ليس بالمنجب
ح، كبيرُ اللّبانة والمأرب

وَلَوْعُ الرَّجَاءِ بِمَا لَمْ تَنَلْ عَقُولُ الْأَوَالِي وَلَمْ تَطْلُبْ
تَنَقَّلَ كَالنَّجْمِ مِنْ غَيْهَبٍ يَجُوبُ الْعُصُورَ إِلَى غَيْهَبٍ
قَدِيمُ الشُّعَاعِ كَشَمْسِ النِّهَا رِ جَدِيدٌ كِمَصْبَاحِهَا الْمُلْهَبِ
أَبُو قُرَاطٍ مِثْلُ ابْنِ سِينَا الرَّئِئِيسِ وَهُوَ مِيزُ مِثْلُ أَبِي الطَّيِّبِ
وَكُلُّهُمْ حَجَرٌ فِي الْبِنَا وَغَرَسَ مِنَ الْمَثْمِرِ الْمُعْقِبِ

تَوَلَّفُهُمْ فِي ظِلَالِ الرِّخَا عِنَ وَفِي كَنَفِ النِّسْبِ الْأَقْرَبِ
وَتَكْسِرُ فِيهِمْ غُرُورَ الثَّرَا وَزَهْوَ الْوَلَايَةِ وَالْمَنْصِبِ
بِیُوتٍ مُنْزَهَةً كَالْعَتِي قَ وَإِنْ لَمْ تُسْتَرَّ وَلَمْ تُحْجَبِ
يُدَانِي ثَرَاهَا ثَرَى مَكَّةَ وَيَقْرُبُ فِي الطُّهْرِ مَنْ يَثْرِبِ
إِذَا مَا رَايَتْهُمْو عِنْدَهَا يَمُوجُونَ كَالنَّحْلِ عِنْدَ الرُّبَى
رَأَيْتَ الْحِضَارَةَ فِي حَصْنِهَا هُنَاكَ، وَفِي جُنْدِهَا الْأَغْلَبِ
وَتَعْرِضُهُمْ مَوَكِبًا مَوَكِبًا وَتَسْأَلُ عَنِ عِلْمِ الْمَوَكِبِ
دَعِ الْحِظَّ يَطْلُعُ بِهِ فِي غَدِ فَإِنَّكَ لَمْ تَدْرِ مَنْ يَجْتَبِي
لَقَدْ زَيْنَ الْأَرْضَ بِالْعَبْقَرَى مُحَلَّى السَّمَاوَاتِ بِالْكَوَكِبِ

لُبَّان

السَّحَرُ مِنْ سُودِ الْعَيُونِ لِقِيَّتُهُ وَالْبَابِلِيُّ بِلِحْظِهِنَّ سُقِيَّتُهُ
الْفَاتِرَاتِ وَمَا فَتَرَنَ رِمَايَةً يُمَسِّدُ بَيْنَ الضُّلُوعِ مَبِيتُهُ
النَّاعَسَاتِ الْمَوْقِظَاتِي لِلْهَوَى الْمُغْرِيَاتِ بِهِ وَكُنْتُ سَلِيَّتُهُ
الْقَاتِلَاتِ بَعَابِثٍ فِي جَفْنِهِ ثَمَلِ الْغَرَارِ مُعْرِيدِ إِصْلِيَّتِهِ°
الشَّارِعَاتِ الْهُدْبِ أَمْثَالَ الْقَنَا يُحْيِي الطَّعِينَ بِنَظَرَةٍ وَيُمِيتُهُ
النَّاسِجَاتِ عَلَى سَوَاءٍ سَطُورِهِ سَقَمًا عَلَى مَنَوَالِهِنَّ كُسِيَّتُهُ

وَأَغْنَى أَكْحَلَ مِنْ مَهَا «بِكُفْيَةٍ»
لُبْنَانُ دَارَتْهُ وَفِيهِ كِنَاسُهُ
السَّلْسَبِيلُ مِنَ الْجَدَاوِلِ وَرُدُّهُ
إِنْ قَلْتُ تَمَثَّلُ الْجَمَالَ مُنْصَبًّا
دَخَلَ الْكَنِيسَةَ فَارْتَقَبْتُ فَلَمْ يُطِلْ
فَازُورَ. غَضَبَانًا وَأَعْرَضَ نَافِرًا
فَصَرَفْتُ تَلْعَابِي إِلَى أَتْرَابِهِ
فَمَشَى إِلَيَّ وَلَيْسَ أَوَّلَ جَوْدَرٍ
قَدْ جَاءَ مِنْ سَحَرِ الْجَفُونِ فَصَادَنِي
لَمَّا ظَفَرْتُ بِهِ عَلَى حَرَمِ الْهُدَى
قَالَتْ تَرَى نَجْمَ الْبَيَانِ فَقُلْتُ بَلْ
بَلَّغَ السُّهَى بِشَمُوسِهِ وَبُدُورِهِ
مِنْ كُلِّ عَالِي الْقَدَرِ مِنْ أَعْلَامِهِ
حَامِي الْحَقِيقَةِ، لَا الْقَدِيمِ يَتُودُهُ
وَعَلَى الْمَشِيدِ الْفَخْمِ مِنْ آثَارِهِ
فِي كُلِّ رَابِيَةٍ وَكُلِّ قَرَارَةٍ
أَقْبَلْتُ أَبْكِي الْعِلْمَ حَوْلَ رَسُومِهِمْ
لِبْنَانُ وَالْخُلْدُ، اخْتِرَاعَ اللَّهِ لَمْ
هُوَ زِرْوَةٌ فِي الْحَسَنِ غَيْرَ مَرْوَمَةٍ
مَلِكُ الْهَضَابِ الشَّمَّ سُلْطَانُ الرُّبَى
سَيْنَاءُ شَاطِرِهِ الْجَلَالِ فَلَا يُرَى
وَالْأَبْلَقُ الْفَرْدُ انْتَهَتْ أَوْصَافُهُ
جَبَلَ عَنْ آذَارِ يُزْرَى صَيْفُهُ
أَبْهَى مِنَ الْوَشَى الْكَرِيمِ مَرْوَجُهُ
يَغْشَى رَوَابِيَهُ عَلَى كَافُورِهَا
وَكَأَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ رَبُوعُهُ
وَكَأَنَّ رِيْعَانَ الصَّبَا رِيْحَانُهُ

عَلَقْتُ مُحَاجِرُهُ دُمِي وَعَلِقْتَهُ
بَيْنَ الْقَنَا الْخَطَّارِ خُطِّ نَحِيَّتِهِ
وَالْأَسْ مِنْ خُضْرِ الْخَمَائِلِ قُوَّتُهُ
قَالَ الْجَمَالَ بِرَاحَتِي مَثَلْتُهُ
فَأَتَيْتُ دُونَ طَرِيقِهِ فَرَحِمْتُهُ
حَالًا مِنَ الْغَيْدِ الْمَلَاخِ عَرَفْتُهُ
وَزَعَمْتُهُنَّ لُبَانَتِي فَأَغْرَتُهُ
وَقَعْتُ عَلَيْهِ حَبَائِلِي فَقَنْصْتُهُ
وَأَتَيْتُ مِنْ سَحَرِ الْبَيَانِ فَصَدَّتُهُ
لَابِنِ الْبَتُولِ وَلِلصَّلَاةِ وَهْبَتُهُ^٦
أَفَقَ الْبَيَانِ بِأَرْضِكُمْ يَمِمَّتُهُ
لُبْنَانُ وَانْتَضَمَ الْمَشَارِقُ صَيْتُهُ
تَتَهَلَّلُ الْفُضْحَى إِذَا سَمِيَّتُهُ
حَفْظًا وَلَا طَلَبُ الْجَدِيدِ يَفُوتُهُ
خُلُقٌ يَبِينُ جَلَالُهُ وَثَبُوتُهُ
تُبْرُ الْقَرَائِحَ فِي التَّرَابِ لِمَحْتِهِ
ثُمَّ أَنْثَنِيَتْ إِلَى الْبَيَانِ بِكَيْتِهِ
يُوسَمُ بِأَزِينٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
وَذَرَا الْبِرَاعَةِ وَالْحَجَى «بَيْرُوتُهُ»
هَامُ السَّحَابِ عَرُوشُهُ وَتَخَوْتُهُ
إِلَّا سُبُحَاتِهِ^٧ وَسُمُوتُهُ^٨
فِي السُّؤْدُدِ الْعَالِيِ لَهُ وَنَعُوتُهُ
وَشَتَاؤُهُ يَبْدُ الْقَرَى جَبْرُوتُهُ
وَالدُّ مِنْ عَطَلٍ^٩ النَّحُورِ مُرُوتُهُ^{١٠}
مِسْكُ الْوَهَادِ فَتَيْقُهُ وَفَتَيْتُهُ^{١١}
وَكَأَنَّ أَحْلَامَ الْكَعَابِ بِيُوتُهُ
سِرُّ السَّرُورِ يَجُودُهُ وَيَقُوتُهُ^{١٢}

وكان أشرار النواهد تينهُ
وكان همس القاع في أذن الصفا^{١٢}
وكان ماءهما وجرس^{١٤} لجينه
وضح^{١٥} العروس تبينه وتصيته^{١٦}

زعماء لبنان وأهل نديهِ
قد زادني إقبالكم وقبولكم
تاج النيابة في رفيع رؤوسكم
«موسى»^{١٧} عدو الرق حول لوائكم
أنتم وصحابكم إذا أصبحتمو
هو غرة الأيام فيه، وكلكم

لبنان في ناديمو عظمتُهُ
شرفاً على الشرف الذي أوليته
لم يُشر لؤلؤه ولا ياقوته
لا الظلم يرهبه، ولا طاغوته
كالشهر أكمل عدة موقوته
آحاده في فضلها وسبوته

المؤتمر^١

صرخ على الوادي المبارك ضاحي
ضافي الجلالة كالعتيق مفضل
وكان رفرقه رواق من ضحى
الحق خلف جناح استذرى^{١٨} به
هو هكل الحرية القاني، له
يبني كما تبنى الخنادق في الوغى
ينهار الاستبداد حول عراضه
ويكب طاغوت الأمور لوجهه
هو ما بنى الأعزال بالراحات، أو

متظاهراً بالأعلام والأوضاع
ساحات فضل في رحاب سماح
وكان حائطه عمود صباح
ومرشد السلطان خلف جناح
ما للهياكل من فدى وأضاح
تحت النبال وصوبها السحاح
مثل انهيار الشوك حول (صلاح)^{١٩}
متحطماً الأصنام والأشباح
هو ما بنى الشهداء بالأرواح

^١ مؤتمر سياسي اجتمعت فيه كلمة الأحزاب السياسية المصرية على إنقاذ الدستور برياسة المغفور له سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٦.

أَخَذَتْهُ (مَصْرُ) بِكُلِّ يَوْمٍ قَائِمٍ
هَبَّتْ سَمَاحًا بِالْحَيَاةِ شَبَابَهَا
وَمَشَتْ إِلَى الْخَيْلِ الدَّوَارِ وَانْبَرَتْ
وَقَفَاتُ حَقٍّ لَمْ تَقْفَهَا أُمَّةٌ
وَإِذَا الشُّعُوبُ بَنَوْا حَقِيقَةَ مُلْكِهِمْ
وَرَدَّ الْكَوَاكِبَ أَحْمَرَ الْإِصْبَاحِ
وَالشَّيْبُ بِالْأَزْمَاقِ غَيْرُ شَحَاحِ
لِلظَّافِرِ الشَّاكِي بَغِيرِ سِلَاحِ
إِلَّا أَنْثَنَتْ أَمَالُهَا بِنَجَاحِ
جَعَلُوا الْمَاتَمَ حَائِطَ الْأَفْرَاحِ

بَشَرَى إِلَى الْوَادِي تَهْزُ نَبَاتَهُ
تَسْرَى مَلْمَحَةَ الْحُجُولِ ٢٠ عَلَى الرَّبِيِّ
الْتَمَّتِ الْأَحْزَابُ بَعْدَ تَصَدُّعِ
سُجِبَتْ عَلَى الْأَحْقَادِ أَذْيَالُ الْهُوَى
وَجَرَتْ أَحَادِيثُ الْعِتَابِ كَأَنَّهَا
تُرْمَى بِطَرْفِكَ فِي الْمَجَامِعِ لَا تَرَى
هَزَّ الرَّبِيعِ مَنَاكِبَ الْأُدْوَاهِ
وَتَسِيلُ غُرَّتُهَا بِكُلِّ بِطَاحِ
وَتَصَافَتِ الْأَقْلَامُ بَعْدَ تَلَاغِي
وَمَشَى عَلَى الضُّغْنِ الْوَدَادُ الْمَاحِي
سَمَرٌ عَلَى الْأَوْتَارِ وَالْأَقْدَاحِ
غَيْرَ التَّعَانُقِ وَاشْتَبَاكَ الرَّاحِ

شَمَسَ النَّهَارُ، تَعَلَّمَى الْمِيزَانَ مِنْ
مِيلَى أَنْظَرِيهِ فِي النَّدَى كَأَنَّهُ
كَمْ تَاجُ تَضْحِيَةٍ وَتَاجِ كِرَامَةٍ
وَالشَّيْبُ مُنْبَتِّقٌ كَنُورِ الْحَقِّ مِنْ
لَبَّى أَذَانِ الصُّلْحِ أَوَّلَ قَائِمٍ
سَبَقَ الرِّجَالَ مُصَافِحًا وَمُعَانِقًا
(عَدْلِي) الْجَلِيلُ ابْنُ الْجَلِيلِ مِنَ الْمَلَا
حُلُوُ السَّجِيَّةِ فِي قَنَاةٍ مُرَّةٍ
سَعْدُ الدِّيَارِ وَشَيْخُهَا النَّضَّاحُ ٢١
(عُثْمَانُ) عَنْ أَمِّ الْكِتَابِ يُلَاحِظُ
لِلْعَيْنِ حَوْلَ جَبِينِهِ اللَّمَّاحِ
فُودِيهِ، أَوْ فَجَرَ الْهُدَى الْمِنْصَاحِ ٢٢
وَالصُّلْحُ خُمْسُ قَوَاعِدِ الْإِصْلَاحِ
يَمْنَى السَّمَّاحِ وَهَيْكَلُ الْإِسْجَاحِ ٢٣
وَالْمَاجِدُ ابْنُ الْمَاجِدِ الْمِسْمَاحِ
تَمِلُ الشَّمَائِلُ فِي وَقَارِ صَاحِ

شَتَّى فُضَائِلَ الرِّجَالِ، كَأَنَّهَا
فَإِذَا هِيَ اجْتَمَعَتْ لِمُلْكِ جَبْهَةٍ
اللَّهُ أَلْفَ الْبِلَادِ صَدُورَهَا
شَتَّى سِلَاحٍ مِنْ قَنَا وَصِفَاحِ ٢٤
كَانَتْ حُصُونٌ مَنَاعَةٍ وَبَطَاحِ
مِنْ كُلِّ دَاهِيَةٍ وَكُلِّ صُرَاحِ

وزراء مملكة، دعائم دولة
يبنون بالدستور حائط ملئهم
أعلام مؤتمر، أسود صباح^{٢٥}
لا بالصفايح ولا على الأزماع
من معدين الدستور غير صحاح
وجواهر التيجان ما لم تتخذ

احتل حصن الحق غير جنوده
ضجت على أبطالها ثكناته
وتكالبت أيدي على المفتاح
واستوحشت لكماتها النزاح
وخلا من الغادين والرواح
كالغار من شرف وسمت^{٢٦} صلاح
هجرت أرائك، وعطل عوده
وعلاه نسج العنكبوت، فزاده

قل للبنين مقال صدق، واقتصد
أنتم بنو اليوم العصيب. نشأتمو
ورأيتمو الوطن المؤلف صخرة
وشهدتمو صدع الصفوف وما جنى
صوت الشعوب من الزئير مجمعا
اظمتكمو الأيام، ثم سقتكمو
وغذا منحت الخير من متكلف
تركتكمو مثل المهيب جناحه
من صيير الأغلال زهر قلند
إن التي تبغون، دون منالها
سيروا إليها بالأناة طويلة
وخذوا بناء الملك عن دستوركم
يت دار محمود، سلمت، وبورك
وازدبت من حسن الثناء وطيبه
الأمة انتقلت إليك، كأنما
بركات شيخ بالصعيد محمل
بالأمس جاد على القضية بابنه
نزع الشباب يضيق بالنصاح:
في قصف أنواء، وعصف رياح
في الحادثات وسيلها المجتاح
من أمر مفتات ونهي وقاح
فإذا تفرق كان بعض نباح
رنقا من الإحسان غير قراح
ظهرت عليه سجية المناح
لا في الحبال، ولا طليق سراح
وكسا القيود محاسن الأوضح؟
طول اجتهاد، واضطراد كفاح
إن الأناة سبيل كل فلاح
إن الشراع مثقف الملاح
أركانك الهرميّة الصفايح^{٢٧}
حجرا هو الدرر في الأمداح
أنزلتها من بيتها بجناح
عبء السنين مؤمل نفاح
واليوم آواها بأكرم ساح

النَّشْرُ الْمِصْرِيُّ^٢

أَعْقَابُ فِي عَنَانِ الْجَوِّ لَاحِ أَمْ سَحَابٌ فَرَّ مِنْ هُوجِ الرِّيحِ؟
أَمْ بِسَاطِ الرِّيحِ رَدَّتْهُ النُّوَى بَعْدَ مَا طَوَّفَ فِي الدَّهْرِ وَسَاحُ؟
أَوْ كَانَ الْبَرْجُ أَلْقَى حَوْتَهُ فَتَرَامَى فِي السَّمَوَاتِ الْفِسَاحِ

* * *

أَقْبَلْتُ مِنْ بُعْدٍ تَحْسِبُهَا نَحْلَةً عَنَّتْ وَطَنْتُ فِي الرِّيحِ
يَا سِلَاحَ الْعَصْرِ بُشِّرْنَا بِهِ كُلُّ عَصِرٍ بِكَمِيٍّ وَسِلَاحِ
إِنْ عَزَا لَمْ يَظْلَلْ فِي غِدٍ بِجَنَاحَيْكَ ذَلِيلُ مُسْتَبَاحِ
فَتَكَائُرٌ وَتَأَلَّفٌ قَيْلًا تَعَصِمُ السَّلَامَ وَتَعْلُو لِلْكَفَاحِ
مَصْرٌ لِلطَّيْرِ جَمِيعًا مَسْرُحٌ مَا لَنَا فِيهِ ذُنَابَى أَوْ جَنَاحِ
رُبَّ سِرْبٍ قَاطِعٍ مَرَّ بِهِ هَبِطَ الْأَرْضَ مَلِيًّا وَاسْتِرَاحِ
لِمَ لَا يَفْتَنُ فَتْيَانُ الْحَمَى ذَلِكَ الْإِقْدَامُ، أَوْ ذَاكَ الطَّمَاحِ؟
مَنْ فَتَى حَلَّ مِنَ الْجَوِّ بِهِمْ فَتَلَقَّوْهُ عَلَى هَامٍ وَرَاحِ
أَنَّهُ أَوَّلُ عُصْفُورٍ لَهُمْ هَزَّ فِي الْجَوِّ جَنَاحَيْهِ وَصَاحِ
دَبَّتْ الْهَمَّةُ فِيهِ، وَمَشَتْ عَزَمَاتُ مَنْكَ يَا (حَرْبُ) صِيحَاحِ^{٢٨}
نَاطَحَ النَّجْمِ فَتَى عِلْمَتَهُ فِي حَيَاةٍ حُرَّرَةٍ كَيْفَ النَّطَاحِ
لَكَ فِي الْأَجْيَالِ تَمَثُّالٌ مَشَى وَجَدُوا الرِّشْدَ عَلَيْهِ وَالصَّلَاحِ
جَاوَزَ النِّيلَ وَعَبَّرِيَهُ إِلَى أَكْمَ الشَّامِ وَهَاتِيكَ الْبَطَاحِ

* * *

فَارَسَ الْجَوَّ، سَلَامٌ فِي الذُّرَى وَعَلَى الْمَاءِ، وَمِنْ كُلِّ النُّوَاكِ
ثَبَّ إِلَى النَّجْمِ، وَزَاجِمُ رُكْنِهِ وَامْتَلِئْ مِنْ خِيَلٍ وَمِرَاحِ
إِنَّ هَذَا الْفَتْحَ لَا عَهْدَ بِهِ لَضِيفِ النِّيلِ مِنْ عَهْدِ (فَتْحِ)

^٢ قيلت بمناسبة قدوم صدقي الطيار المصري الأول من برلين إلى القاهرة طائرا في سنة ١٩٣٠.

تلك أبواب السماء انفتحت ما وراء الباب يا طير النجاح؟
اسماء النيل أيضا حرم من طريق الهند، أم جو مباح؟

* * *

عين شمس ملئت من موكب كان للأبطال أحيانا يتاح
ربما جلل وجه الأرض، أو ربما سد على الشمس السراح
إن يفته الجيش أو روعته لم يفته النشأ الزهر الصباح
وفدى (فائزة) سمر القنا وفدى حارسها بيض الصفاح
ولقد ابطأت حتى ينم للحمى ليل ولم ينعم صباح
فابتغى العذر كرام، وانبرت السن في التلم والهدم فصاح
تلتوى الخيل على راكبها كيف بالعاصف في يوم الجماح؟
ليس من يركب سرجا ليئا مثل من يركب أعراف الرياح
سر زويدا في فضاء سافر ضاحك الصفحة كالفردوس صاح
طرفت عينا به الشمس، فلو خيئت لم تتحفز للروحاح
وتكاد الطير من خفته تتعالى فيه من غير جناح
قف تأمل من علو قبة رفعت للفصل والرأي الصراح
نزل النواب فيها فتية في جناح وشيوخا في جناح
حملوا الحق وقاموا دونه كزعيل الخيل أو صف الرماح

* * *

يا أبا الفاروق، من ترعى ففى كنف الفضل وفي ظل السّماح
أنت من آبائك السّحب، وما في بناء السّحب الأيدى الشّحاح
يدك السّمحة في الخير، وفي همّة الغرس، وفي أسو الجراح
نحن افلحنا على الأرض بكم ورجونا في السماوات الفلاح

تُوتُ عَنْخُ أُمُونُ وَالْبَرْلَمَانُ

قُمْ، سَابِقِ (السَّاعَةَ) وَاسْبِقِي وَعِدَّهَا
وَأَمْلَأْ رِمَاحًا غُورَهَا وَنَجِّدْهَا
شَلَالَهَا، وَعَذِّبْهَا، وَعِدَّهَا^{٢٩}
تلك الوجوه لا شَكُونَا فَقَدْهَا
سُلِّتْ من (وادي الملوك) فَازْدَهَى
واسترجعت دولته إفرندَهَا
أَبْلَى طَبَى الدهر، وَقَلَّ حَدَّهَا
سَافَرَ أَرْبَعِينَ قَرْنًا عِدَّهَا
إنجلترا، وَجَيْشَهَا، وَلُورَدَهَا
قامت على السودانِ تَبْنَى سَدَّهَا

الأَرْضُ ضَاقَتْ عَنْكَ، فَاصْدَعْ غِمْدَهَا
وافتح أصولَ النيلِ واسترْدَهَا
واصرفْ إلينا جَزْرَهَا وَمَدَّهَا
بَيَّضْتَ الْقُرْبَى لَنَا مُسَوِّدَهَا
والقت الشمسُ عليه رَأْدَهَا
أَبْيَضَ، رِيَّانَ الْمُتُونِ، وَرَدَّهَا
وَأَخْلَقَ العصورَ، واستجدَّهَا
حتى أتى الدارَ، فَأَلْقَى عِدْنَهَا
مَسْلُولَةَ الْهِنْدِيِّ تَحْمِي هِنْدَهَا
وركزتُ دُونَ القَنَاةِ بَنَدَّهَا^{٣٠}

فَقَالَ والحسرةُ مَا أَشَدَّهَا
وَلَيْتَ عَيْنِي لَمْ تَفَارِقَ رَقْدَهَا
مِصْرُ فَتَاتِي لَمْ تُوقِرْ جَدَّهَا
وَحَلَطْتُ ظِبَاءَهَا وَأَسَدَّهَا
قَدْ سَحَبْتُ عَلَى جَلَالِي بُرْدَهَا

: لَيْتَ جِدَارَ الْقَبْرِ مَا تَدَّهَدَّهَا^{٣١}
قُمْ نَبْنَى يَا بَنْتَوُورُ: مَا دَهَا؟^{٣٢}
نَقْتُ وَرَاءَ مُضْجِعِي جَارُ بَنْدَهَا
وَسَكَبَ السَّاقِي الطَّلَا، وَبَدَّهَا^{٣٣}
لَيْتَ جَلَالَ الْمَوْتِ كَانَ صَدَّهَا

فَقُلْتُ: يَا مَا جَدَّهَا وَجَعَدَّهَا^{٣٤}
لَحْدُكَ وَدَتُّهُ النُّجُومُ لَحْدَهَا
سُلْطَانَهَا، وَعَزَّهَا، وَرَغَدَهَا
آثَارُكُمْ يُخْطِي الْحَسَابُ عَدَّهَا
أَبْوَابُكَ أَلَاتِي قَصَدْنَا قَصْدَهَا
لَوْلَا جَهْدُ لَا نَرِيدُ جَحْدَهَا
قُلْتُ لَكَ: اضْرِبْ يَدَهُ وَقُدَّهَا

لَوْ لَمْ تَكْ ابْنُ الشَّمْسِ كُنْتَ رَكْدَهَا^{٣٥}
أَرَيْتُنَا الدُّنْيَا بِهِ وَجَدَّهَا
وَكَيْفَ يُعْطَى الْمُتَّقُونَ حُلْدَهَا
انْهَدَمَ الدَّهْرُ وَلَمْ يَهْدَهَا
(كَارْتَرُ) فِي وَجْهِ الْوَفُودِ رَدَّهَا
وَحُرْمَةٌ مِنْ قُرْبِكَ اسْتَمَدَّهَا
وَابْعَثْ لَهُ مِنَ الْبَعُوضِ نُكْدَهَا

* * *

وَأَثَبَتَ الدَّمُ الزَّكِيُّ رُشْدَهَا	مِصْرَ الْفَتَاةِ بَلَغَتْ أَشَدَّهَا
وَجَرَّبَتْ إِرْخَاءَهَا وَشَدَّهَا	وَلَعِبَتْ عَلَى الْجِبَالِ وَحَدَّهَا
فِي الْغَرْبِ سَدُّوا عِنْدَهُ مَسَدَّهَا	فَأَرْسَلَتْ دُهَاتَهَا وَلُدَّهَا ^{٣٦}
وَحَشَدَتْ لِلْمِهْرَجَانِ حَشَدَهَا	وَبَعَثَتْ لِلْبِرْلَمَانِ جُنْدَهَا
وَابْرَزَتْ كَعَابَهَا وَخَوَدَهَا	حَدَّتْ إِلَيْهِ شَيْبَهَا وَمُرْدَهَا
وَأَسْتَقْبَلَتْ فَوَائِدَهَا وَوَفَدَهَا	وَنَثَرَتْ فَوْقَ الطَّرِيقِ وَرَدَّهَا
وَابْنُ الَّذِينَ قَوْمُوا مَقَدَّهَا	مَوْئِلَهَا، وَكَهَفَهَا، وَرِدَّهَا ^{٣٧}
وَجَعَلُوا صَحْرَاءَ لَيْبِيَا حَدَّهَا	وَأَلْفَوْا بَعْدَ انْفِرَاطِ عِقْدَهَا
وَصَيَّرُوا الْعَاتِيَّ فِيهِ عَبْدَهَا	وَبَسَطُوا عَلَى الْحِجَازِ أَيْدَهَا
لِمِصْرَ تَبْنَى فِي ذَرَاهَا مَجْدَهَا	حَتَّى أَتَى الدَّارَ الَّتِي أَعَدَّهَا
وَقَلَّدَ الْجِيلَ السَّعِيدَ عَهْدَهَا	فَثَبَّتْ الشُّورَى، وَشَدَّ عَقْدَهَا

سُلْطَتُهُ إِلَى بَنِينَا رَدَّهَا

وَأَفْتَحَ لَهَا السُّبُلَ، وَلَا تَسُدَّهَا	يَا رَبَّ قَوِّ يَدَهَا، وَشَدَّهَا
وَعَنْ صَغِيرَاتِ الْأُمُورِ حُدَّهَا	وَقَيْسَ لِكُلِّ خَطْوَةٍ مَا بَعْدَهَا
وَلَا تُضِغْ عَلَى الضَّحَايَا جُهْدَهَا	وَاصْرِفْ إِلَى جَدِّ الشُّثُونِ جَدَّهَا
وَاجْمَعْ عَلَى الْأُمِّ الرَّءُومِ وَلُدَّهَا	وَاكْبَحْ هَوَى الْأَنْفُسِ، وَاكْسِرْ حِقْدَهَا
وَلَا تَدْعُهَا تُحَيِّ مُسْتَبِيدَهَا	وَامْلَأْ بِالْبَيَانِ النَّبُوغَ نَهْدَهَا

وَتَنْجِثْ بِرَاحَتَيْهَا فَرْدَهَا

مَصْرَعُ اللُّورِدِ كِتْشَنَر

مظهر الشمس وإقبال القمر
 غَمْرَةً أَوَدَتْ بِخَوَاضِ الْغَمْرِ؟
 وسبيلَ الناس في خالي العُصْرُ
 فَلَكَ مَا لِعِصَاهُ مُسْتَقَرُّ
 جانبِيهِ الْمُزْتَقَى والمُنْحَدَرُ
 وَأَتَى (الأهرامَ) من أَمِّ الحُجَرِ
 نَزَعُهَا من عَضِدِ الأَرْضِ عَسِرِ
 ما لِيَالِيهَا المُرِنَاتُ الْوَتَرُ؟
 من دُمَى يَسْحَبْنَ في الْمَسِكِ الْحَبَرُ؟^{٤٠}
 شَنَّهَا الدهرُ عليه من غَيْرِ
 نَمَّ طَوِيلًا، قد تَوَسَّدَتْ الزَّهَرُ
 بَيَدَ أَنْ الصَّلَا^{٤١} في أصل الشجرِ
 وقضاءُ الله يَأْتِي وَيَذَرُ
 لك صَافٍ وَدُهُ بعدَ الْكَدَرِ
 أو تكن حَرْبًا فقد فات الضَّرُ
 أم كتابُ الدهرِ، أم صُحُفُ الْقَدَرِ؟
 فَلَمِ الْقُدْرَةُ فِيهَا ما سَطَرَ
 والمِسِ الْعِبْرَةُ من بين الْفَقْرِ^{٤٢}
 آيَةً جَانِبُهُ الْمُرْخَى السُّتْرُ
 وجَوَارِي الدَّهْرِ يَمْشِينَ الْخَمَرُ^{٤٣}
 في كنوز البحر مطروح الْكِسَرِ^{٤٤}
 ناله الفجرُ عِشَاءً بالقِصَرِ
 طالما أَوْحَتْ إِلَيْهِ فَأَتَمَرُ
 في نهار الْفَرَقِ، أو ليلِ الشَّعَرِ
 بِرُفَاتِ السَّحَرِ، أو قُلِّ الْحَوَرِ^{٤٥}

قِفْ بهذا البحرِ وانظُرْ ما غَمَرَ
 واعرض الموجَ مَلِيًّا، هل ترى
 أَخَذْتَ نَاحِيَةَ الْحَقِّ بِهِ
 مَنَعَ اللَّبَثَ وإن طال المَدَى
 دائِرُ الدُّوَلَابِ بالناس على
 نقضِ (الإيوانِ) من أساسِهِ
 وَمَا (الْحَمْرَاءُ)^{٢٨} إلا عَمْدًا
 أَيْنَ (رُومِيَّةٌ)؟ ما قَيَّصَرُهَا؟
 أَيْنَ (وَادِي الطَّلْحِ)^{٣٩} واللَّائِي بِهِ
 أَيْنَ (نَابِلِيُونُ)؟ ما غَارَاتُهُ؟
 أَيُّهَا السَّاكِنُ في ظِلِّ الْمَنَى
 شَجَرَ نَامٍ. وَظِلٌّ سَابِغُ
 يَذَرُ الْمَرْءَ وَيَأْتِي ما اشْتَهَى
 كُلُّ مَحْمُولٍ على النَعَشِ أَخُ
 إِنَّ تَكُن سَلَمًا لَهُ لم يَنْتَقِعِ
 رَاكِبَ الْبَحْرِ، أَمْوُجُ ما تَرَى؟
 لُجَّةٌ (كَالْلُوحِ)، لا يُحْصَى على
 فَتَلَفَتْ، وَتَنْسَمُ حَكْمَةً
 وَتَأْمَلُ مَلْعَبًا أَعْجَبُهُ
 ههنا تَمْشِي الْجَوَارِي مَرَحًا
 رَبِّ سَيْفٍ ضَرَبَ الْجَمْعَ بِهِ
 وَنَجَادَ لَمْ يُطَاوَلَ ضَحْوَةٌ
 وَسَفِينِ أَمْرٍ فِيهَا الْبَلَى
 وَوَجْوهُ زَهَبِ الْمَاءِ بِهَا
 وَعَيُونِ سَاجِيَاتٍ سُجَّيَتْ

قُلْ لِلْيَثِ خُسْفَ الْغِيلُ بِهِ بَيْنَ طَمٍّ وَظِلَامٍ مُعْتَكِرٌ^{٤٦}
انظر الفلَك: اِمْنَهَا أَثَرُ؟ هَكَذَا الدُّنْيَا إِذَا الْمَوْتُ حَضَرَ
هَذِهِ مَنْزِلَةٌ لَوْ زِدْتَهَا ضَاقَ عَنْكَ السَّعْدُ، أَوْ ضَاقَ الْعُمْرُ
فَامْضُ شَيْخًا فِي هَوَى الْمَجْدِ قَضَى رَحْمَةً الْمَجْدِ، وَرَفَقًا بِالْكَبَرِ
مِيتَةً لَمْ تَلَقْ مِنْهَا عِلَازًا^{٤٧} مَنْ وَقَارَ اللَّيْثُ أَنْ لَا يُحْتَضَرَ

أَنْتُمْ الْقَوْمُ حِمَى الْمَاءِ لَكُمْ يَرْجِعُ الْوِزْدُ إِلَيْكُمْ وَالصَّدَرُ
لَجَجُ الدَّامَاءِ أَوْطَانُ لَكُمْ وَمِنَ الْأَوْطَانِ دُورٌ وَحُفَرُ
لَسْتُ فِي الْبَحْرِ وَحِيدًا، فَاسْتَضِفْ فِيهِ أَبَاءُكَ تَنْزِلُ بِالْدُّرِّ
رَسَبُوا فِيهِ كِرَامًا وَطِفَا طَائِفُ النَّصْرِ عَلَيْهِمُ وَالظَّفَرُ

نَشَأَ (النَّيْلُ)، إِلَيْكُمْ سِيرَةٌ لَكُمْو فِيهَا عِظَاتٌ وَعِبَرُ
إِقْرَأُوهَا يُكْشَفُ الْعَصْرُ لَكُمْ كُلُّ عَصْرٍ بِرَجَالٍ وَسِيرُ
لَا تَقُولُوا: شَاعَرُ الْوَادِي غَوَى مَنْ يُغَالِطُ نَفْسَهُ لَا يَعْتَبِرُ
مَوْقِفُ التَّارِيخِ مِنْ فَوْقِ الْهَوَى وَمَقَامُ الْمَوْتِ مِنْ فَوْقِ الْهَذَرِ
لَيْسَ مَنْ مَاتَ بِخَافٍ عَنْكُمْو أَوْ قَلِيلِ الْفَعْلِ فِيكُمْ وَالْأَثَرُ
شَدْتُمْو دُنْيَاهُ فِي أَحْسَنِهَا غَزْوَةُ السُّودَانِ وَالْفَتْحُ الْأَعْرُ
وَبَنَى مَمْلَكَةَ النُّوبِ بِكُمْ فَاذْكُرُوا الْقَتْلَى، وَلَا تَنْسُوا الْبِدْرُ^{٤٨}
وَاحْذَرُوا مِنْ قِسْمَةِ النَّيْلِ فَيَا ضَيْعَةُ الْوَادِي إِذَا النَّيْلُ شَطِرُ

رَجُلٌ لَيْسَ ابْنُ (قَارُونَ)، وَلَا بَابِنَ (عَادِيٍّ) مِنَ الْعَظْمِ النَّخِرُ
لَيْسَ بِالزَّاحِرِ فِي الْعِلْمِ، وَلَا هُوَ يَنْبُوعُ الْبَيَانِ الْمَنْفَجِرُ
رَضَعَ الْأَخْلَاقَ مِنَ الْبَانِهَا إِنَّ لِلْأَخْلَاقِ وَقْعًا فِي الصَّغَرِ
وَرَأَاهَا صُورَةً فِي أُمَّةٍ وَمِنَ الْقُدُوءِ مَا تُوجِي الصُّورُ
ذَلِكَ الْمَجْدُ، هَذِي سُبُلُهُ بَيِّنٌ فِيهَا سَبِيلُ الْمُعْتَذِرِ

أَبْعَدَ السَّاعُونَ يَبْغُونَ الْمَدَى والمدى في المجد دانٍ لِنَفَرٍ
كجِيادِ السَّبْقِ، لَنْ تُغْنِيَهَا أدواتُ السَّبْقِ ما تغنى الفِطَرِ

وَجَنَاحُ السَّلَمِ إِلَّا أَنَهَا ساعةَ الرُّوعِ جَنَاحٌ مِنْ سَقَرٍ
مِنْ حَدِيدٍ جَانِبَاهَا سَابِغٌ رَبِضَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ وَفَغَرَ
أَشْبَهَتْ أَفْوَاهُهَا أَعْجَازَهَا فَنَقُدُّ فِي الْيَمِّ مَشْرُوعُ الْإِبَرِ
أَرْهَفَتْ سَمْعَ الْعَصَا^{٥١} إِثْمَدَ الزَّرْقَاءِ^{٥٢} فِي عَرْضِ السَّدْرِ^{٥١}
وَتَوَدَّى الْقَوْلَ، لَا يَسْبِقُهَا رُسُلُ الْأَرْوَاحِ فِي نَقْلِ الْفِكْرِ
خَطَرَتْ فِي مَحْجَرَيْهَا وَمَشَتْ بَعِیُونَ الْمَلِكِ فِي بَحْرِ وَبَرٍّ
غَابَةً تَجْرَى بِسُلْطَانِ الشَّرَى خَادِرًا فِي أَلْفِ نَافٍ وَظَفَرٍ^{٥٢}
وَأَذَا الْمَوْتُ إِلَى النَّفْسِ مَشَى وَرَكِبَتْ النِّجْمَ بِالْمَوْتِ عَثَرَ
رُبَّ ثَاوٍ فِي الظُّبَى مُمْتَنِعٍ سَلَّهُ الْمِقْدَارُ مِنْ جَفْنِ الْحَذَرِ
تَسَحَّبُ الْفُولاذُ فِي مُلْتَطَمٍ بِالْعَوَادِي مُتَعَالٍ مُعْتَكِرٍ
لَوْ أَشَارَتْ جَاءَهَا سَاحِلُهُ فِي حَدِيدٍ وَعَدِيدٍ مُنْتَصِرٍ
أَوْ فَدَى الْمَيِّتَ حَيٌّ فُدِيتَ بَوَقَاحٍ فِي الْجَوَارِي وَخَفِرٍ^{٥٣}
بَعَثَ الْبَحْرُ بِهَا كَالْمَوْجِ مِنْ لُجَجِ السَّنَدِ وَخُلْجَانِ الْخَزَرِ^{٥٤}
لَمَسَتْهَا لِلْمِقَادِيرِ يَدُ تَلْمَسُ الْمَاءَ فَيَزْمِي بِالشَّرِّ
ضَرَبَتْهَا وَهِيَ سُرٌّ فِي الدُّجَى لَيْسَ دُونَ اللَّهِ تَحْتَ اللَّيْلِ سِرٌّ
وَجَفَتْ قَلْبًا، وَخَارَتْ جُوجُؤًا وَنَزَتْ جَنْبًا، وَنَاءَتْ مِنْ آخِرِ
طُعْنَتْ، فَانْبَحَسَتْ، فَاصْصَرَخَتْ فَأَتَاهَا حَيْنُهَا، فَهِيَ خَبَرٌ^{٥٥}

الْبَرْكَمَانُ

على أثر ائتلاف الأحزاب

ولكلَّ أمرٍ غايةً وقرارُ
فَلَكْ بِكُلِّ فُجَاءَةٍ دَوَارُ
لا النقصُ يُعجزه، ولا الإمرار
وهل استجاب، فسألم المقدار؟
لم يعترضها في الفصول ستار؟
وعدتُ فما حَوَتْ المدى الأوطار
خطواتُ شعبٍ في القتادِ تُسار
سُورُ، ومن عِلْمِ الزمانِ إطار
أصلُ، ومن أدبِ البلادِ نِجار

سكن الزمانُ، ولانت الأقدارُ
أَرْحَى الأَعْنَةَ للخطوبِ وردّها
يجرى بأمرٍ، أو يدور بضدّه
هل آذنتنا الحادثاتُ بهدنة؟
سُدِلَ الستارُ، وهل شَهِدَتْ روايةً
وَجَرْتُ فما استولتُ على الأمدِ المنى
دون الجلاءِ، ودون يانعٍ وَرِدِه
وبناءٍ أخلاقٍ عليه من النُهي
وحضارةٍ من منطقِ الوادي لها

* * *

مُسْتَهْتَرَيْنِ، إلى الجرائم ساروا
عن العقائد، بالغُلُوِّ تُضَار
من أن يكون رسوله الإضرار
بالريف ما يدرون: ما السُّردار؟
فيها، ولُطِّخَ بالدم الأبرار
حتى انجلتْ غُفْمٌ لها وغِمَار
لينَ الحديدِ مَشَتْ عليه النار
والعزُّ للدستور والإكبار
فيه، ولا يَطْفَعِي به جَبَّار
والخيرُ ما تقضى وما تختار
أصائله، وأخضَلَّتْ الأسفار
ولكل جهدٍ في الحياة ثمار
وَبَيْنَ لَمْ يجدوا السلاح فتاروا

أَعْمَى هوى الوطن العزيز عصابة
يا سوءَ سَنَّتْهُمْ وَقُبِحَ غُلُوَّهُمْ
والحقُّ أرفعُ مِلَّةٍ وقضِيَّةٍ
أَخَذَتْ بذنبهم البلادُ وأُمَّةٌ
في فتنةٍ خُلِطَ البرىُّ بغيره
لَقِيَ الرجالُ الحادثاتِ بصبرهم
لأنوا لها في شِدَّةٍ وصلابةٍ
الحقُّ أبلجُ، والكنانةُ حُرَّةٌ
الأمرُ شورى، لا يَعِيْتُ مُسَلِّطُ
إن العنايةَ للبلادِ تَخَيَّرَتْ
عهدُ من الشورى الظليلةِ نُضِرَتْ
تجنى البلادُ به ثمارَ جهودها
بنيانُ آباءٍ مَشَوْا بسلاحهم

ومن المشانق والسجون جدار
بالحق أو بالواجب الأحرار
فيه، ولا سلطان مصر صغار
فيه، ولا غير الصلاح شعار
حتى تَقَرَّ وتَطْمِئَنَّ الدار
والريخ دون الفلك والإعصار
ومع المجدد بالجماح عثار
بان زعامته هدى ومَنار
يأبى ويغضب للشرى ويغار
عنها، ولا تتنازع الأظفار
صبح، وللحق المبين نهار
عُرس، وصدُرُ نهاره إغثار
وتَلَفَّتْ خلف الزحام ديار
وتنقَلَّتْ بجلالها الأخبار
يَفْتَنُ في قَسَمَاتِهِ النُّظار
عن جانبيه، وللزمان عذار
شيخ يذود، وفتية أنصار
وكان سعدًا يوسف النجار
منك الحلّى، ومن الضحى الأنوار
ما ليس يكسو الفاتحين الغار
ما ليس يفتح بالقنا المغوار

فيه من التلّ المُدَرِّج حائطُ
أبت التقيّد بالهوى، وتَقَيَّدَتْ
في مجلس لا مال مصر غنيمة
ما للرجال سوى المرشد منهج
يتعاونون كأهل دار زُلْزَلَتْ
يُجرون بالرفق الأمور وفُلكها
ومع المجدد بالأناة سلامة
الأمّة اتتَلَفَتْ، ورَصَّ بناءها
أسد وراء السنّ معقود الحبا
كُفُّ القضيّة لا تنام نُيوبه
يوم الخميس، وراء فَجْرِكَ للهدى
ما أنت إلا فارسيّ، لَيْلُهُ
بَكَرَتْ تُزاجِم مَهْرَجَانِكَ أمة
وروى مواكبك الزمان لأهله
أقبلت بالدستور أبْلَجَ زاهراً
وذؤابة الدنيا تَرْفُ حادثة
يحمى لفائفه، ويحرس مهده
وكانه عيسى الهدى في مهده
التاج فُصِّلَ في سمائك بالضحى
يكسو من الدستور هامة رَبِّه
بالحق يفتح كلُّ هادٍ مُصلحٍ

نُنْسَى الذنوب، وتَذْكَرُ الأعذار
بوزارة تُمَحَى بها الأوزار

وطنى، لديك — وأنت سَمَحٌ مُفْضِلٌ —
تاب الزمانُ إليك من هفواته

قصيدة في حفلة

وقال وقد القيت في حفلة نسائية عظيمة انعقدت بدار التمثيل العربي برئاسة السيدة هدى شعراوي:

طِيرُ الْجِبَالِ مَتَى يَطِيرُ؟	قُلْ لِلرَّجَالِ: طَغَى الْأَسِيرُ
دُ، وَحَزَّ سَاقِيهِ الْحَرِيرُ	أَوْهَى جَنَاحِيهِ الْحَدِيدُ
وَأَطَالَ حَيْرَتَهُ السُّفُورُ	زَهَبَ الْجِبَابُ بِصَبْرِهِ
ء لَه، وَهَلْ نُصَّ الْأَثِيرُ؟	هَلْ هُيَّئَتْ دَرَجُ السَّمَا
حُ، وَهَمَّ بِالنَّهْضِ الشَّكِيرُ؟ ^{٥٦}	وَهَلْ اسْتَمَرَّ بِهِ الْجَنَا
نِيَا، وَمَنْزَلُهُ خَطِيرُ؟	وَسَمَا لَمَنْزَلِهِ مِنَ الدِّ
ضُ كَمَا تُسَاسُ بِهِ الْوَكُورُ	وَمَتَى تُسَاسُ بِهِ الرِّيَا
لِ لَه الْخَوَاطِبُ وَالْمَهُورُ؟	أَوْ كُلُّ مَا عِنْدَ الرَّجَا
سَجَنُ يُقَالُ لَهُ: الْقُصُورُ؟	وَالسَّجَنُ فِي الْأَكْوَاحِ، أَوْ

يَمَ جَمِيعَهُ رَوْضٌ وَنُورُ	تَا لَلَّهِ لَوْ أَنَّ الْأَدُ
وَبِكَلِّ وَارْفَةٍ غَدِيرُ	فِي كُلِّ ظِلِّ رِبْوَةٍ
جُ، أَوْ مِنَ الْيَاقُوتِ سُرُ	فِي كُلِّ ظِلٍّ مِنْ زَهَبِ سِيَا
ء لَه عَلَى الْأَرْضِ الْحُبُورُ	مَا تَمَّ مِنْ دُونَ السَّمَا
بِالطَّيْرِ، وَهُوَ بِهَا جَدِيرُ	إِنَّ السَّمَاءَ جَدِيرَةٌ
وُ عَلَى أَعْنَتِهَا أَمِيرُ	هِيَ سَرْجُهُ الْمَشْدُودُ، وَه
ثُ لَهَا، كَمَا خُلِقَ الذُّكُورُ	حُرِّيَّةٌ خُلِقَ الْإِنَا

نُ مِنْ بَنَاتِ النَّيْلِ حُورُ	هَاجَتِ بَنَاتِ الشَّعْرِ عِي
هَمُّ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ نُورُ	لِي بَيْنَهُنَّ وَلَائِدُ
نُ بِمِثْلُهُنَّ، وَلَا الْبُحُورُ	لَا الشَّعْرُ يَأْتِي فِي الْجَمَا
قُ عَلَى الدُّمَى، وَأَنَا الْغِيُورُ	مِنْ أَجْلُهُنَّ أَنَا الشَّفِي

أرجو وأمل أن ستجـ رى بالذى شئتَ الأمور

يا قاسمُ، أنظر: كيف سا
جابت قضيتكَ البلا
ما الناسُ إلا أولُ
الفكرُ بينهما على
هذا البناءُ الفخمُ ليد
إن التي خلقتُ أمـ
نهض الحفيُّ بشأنها
في نمة الفضلى هدى
أقبلن يسألن الحضا
ما السُّبُلُ بيّنة، ولا
ر الفكرُ وانتقل الشعور؟
د، كأنها مَثَلٌ يسير
يمضى فيخلُفه الأخير
بُعْدِ المَزارِ هو السفير
س أسأسه إلا الحفير
س، وما سِواك لها نصير
وسعى لخدمتها الظهير
جيلٌ إلى هاد فقير
رة ما يُفيد وما يضير
كلُّ الهداة بها بصير

ما في كتابك ظفيرةٌ
هدبته حتى استقامت
ووضعتَه، وعلمت أن
لك في مسائله الكلا
ولك البيانُ الجدلُ في
مطلبِ حِشْن، كَثُ
ما بالكتاب ولا الحديد
حتى لنسأل: هل تغا
عشرون عامًا من زوا
رُعن النساء، وقد يرو
فنسین أنك كالبدو
تفنى السُّنُونُ بها، وما
نُنَعَى عليك، ولا غرور
من خلائقك السطور
حسابَ واضعه عسير
مُ العفُّ والجدلُ الوقور
أثنائه العلمُ الغزير
يرُّ في مزالقه العُثور
ث إذا ذكرتهما نكير
رُ على العقائد، أم تُغير؟
لك ما هي الشئُ الكثير
عُ المُشْفِقُ الجَلُّ اليسير
ر، ودونَ رفعتك البدور
آجالها إلا شهو

لقد اختلفنا، والمُعا
في الرأى، ثُمَّ أَهَابَ بى
ومحا الرِّوَاخُ إِلَى مِغَا
في الرأى تَضْطَغِنُ الْعَقْوُ
شَرُّ قَدْ يَخَالِفُهُ الْعَشِيرُ
وبك المُنَادِمُ والسَّمِيرُ
نى الودَّ ما اقترَفَ البُكُورُ
لُ وليس تَضْطَغِنُ الصُّدُورُ

* * *

قل لى بعيشك: أين أنـ
أين الإمام؟ وأين إسـ
لما نزلتم في الثرى
عصر العباقره النجو
ت؟ وأين صاحبك الكبير؟
سماعيلُ والملأُ المنيرُ؟
تاھت على الشھب القبور
م بنوره تمشى العصور

تَكْرِيمُ حَسَنِينَ بكَ بِمُنَاسَبَةِ طَيْرَانِهِ

جَنَّ عَلَى حَرَمِ السَّمَاءِ أَغَارُوا
من كُلِّ أَهْوَجٍ فِي الْهَوَاءِ عِنَانُهُ
يَبْغِي حِجَابَ الشَّمْسِ يَطْلُبُ عِنْدَهَا
لم يَبْقَ مِنْهُ وَمِنْ حَضَارَةِ عَهْدِهِ
ومقالة الأجيالِ لم يَلْحَقْ بِهِمْ
أَمْ فَتِيَّةٌ رَكَبُوا الْجَنَاحَ فَطَارُوا؟
هُوجُ الرِّيحِ، وَسَرْجُهُ الْأَعْصَارِ
عَزًّا تَحَمَّلَهُ الْجُدُودُ وَسَارُوا
إِلَّا صُؤْيَ مَحْجُوجَةٍ وَمَنَارِ
بَانَ، وَلَمْ يُدْرِكْهُمْ حَفَّارِ

* * *

طلعوا على الوادى براءة عصرهم
اثنان ثم ترى النسور كثيرة
سرَّ النجاجِ وَرَكُنْ كُلَّ حَضَارَةٍ
نُسِخَتْ بِأَبْطَالِ السَّمَاءِ بِطُولَةٍ
هذا زمانٌ لا الْأَعْنَةُ مَنْزِلُ
ما البأسُ إِلَّا مِنْ جَنَاحَى خَاطِفِ
أُتْرِى السَّلَامَةِ فِي السَّمَاءِ وَظَلَّهَا
ولكلَّ عصرٍ رايَةٌ وشعار
من كُلِّ نَاحِيَةٍ لَهَا أَوْ كَارِ
هَمَمٌ مِنَ الْمَتَطَوِّعِينَ كِبَارِ
فِي الْأَرْضِ يَوْشِكُ رَكْنُهَا بِنَهَارِ
لِلْبَاسِ فِيهِ، وَلَا الْأُسْنَةُ دَارِ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ اسْمُهُ الطَّيَّارِ
أَمْ بِالسَّمَاءِ يَصُولُ الْإِسْتِعْمَارِ؟

حَرَمُ الهدى والحقِّ رِيحَ جلاله
يا جائبَ الصحراءِ ملءُ سرابها
يكفيك من همِّ الشجاعةِ ليلةٌ
لما اعتمدتَ على الجناحِ تَلَفَّتَتْ
في كلِّ صحراءٍ، وكلَّ تَنُوفَةٍ
(حَسَنَيْنُ)، لو لم يَعْذِرْكَ لِبَادِرَتْ
لله سِرْجُك في السماءِ، فإنه
عَرَضَ الخُسوفُ له فما أَرَى به
أولَمَ تَطَأَ أرضَ السماءِ، ولم تَدُرْ
ألقي أبو الفاروق نَحْوكِ بآله
مَلِكُ رُجِمَتْ بِقُرْبِهِ وجواره

وغدا وراح بجانبَيْه دَمار
غَرَّرُ، ومِلءُ تُرابِها أخطار
لك من غَوائِلِها خَلَتْ ونهار
بِيدُ، وَقَلَّبتِ العيونَ قِفار
أَرْضُ عليك من السماءِ تَغَار
لَكَ من لسانِ جراحِكَ الأعذار
سَرَجُ الأهلَّةِ ما عليه غُبار
ما في الخسوفِ على الأهلَّةِ عار
حيثُ الشَّموسُ تَدورُ والأقمار؟
وتشاغلت بك أُمَّةٌ وديار
حتى كأنك للعناية جار

* * *

نُصِبَ السُّرَادِقُ والمطارُ، وحَلَّقَتْ
فلمستَ أَقْصِيَةَ السماءِ، وأسْفَرَتْ
قَدَرُ على يُمْنِي يَدِيهِ سَلامَةٌ
فإذا سَقَطَتْ على حديدٍ مُضْرَمٍ
ماذا لقيتَ من النجائبِ كُلِّها؟
هَذِي تَعَثَّرُ في الزَّمامِ، وتلك لا
فَشَلُّ يُعْظَمُ كالنجاحِ عليه من
لو لم يكن قَتْلَى وَجَرَحَى في الوَغَى

في الجَوِّ تَلَمَّسُ شَخْصَكَ الأبصار
حتى نَظَرَتْ وجوهها الأقدار
لك حيثُ مِلَتْ، وفي السماءِ عِثار
صَدَفَ الحديدُ، ولم تَنَلْكَ النار
قُلْ لِي، أَعْنَدَكَ لِلنجائبِ ثَار؟
تمضي، وأخرى في السُّلوكِ تَحَار
شَرَفِ الجروحِ ونورِهنَّ فَخار
لم يَعْلُ هامَ الظافرين الغار

صَقْرُ قُرَيْشٍ (عَبْدُ الرَّحْمَنِ الدَّاهِلِ)

موشح أندلسي

مَنْ لِنَضْوٍ يَتَنَزَّى^{٥٧} أَلَمَا بَرَّحَ الشُّوقُ بِهِ فِي الْغَلَسِ
حَنٌّ لِلْبَانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا أَيْنَ شَرْقُ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدُلُسِ

بُلْبُلٌ عَلَّمَهُ الْبَيِّنُ الْبَيَانَ بَاتَ فِي حَبْلِ الشُّجُونِ ارْتَبَكَا
فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ مَخْلُوعَ الْعِنَانِ ضَاقَتْ الْأَرْضُ عَلَيْهِ شَبَكَا
كَلِمَا اسْتَوْحَشَ فِي ظِلِّ الْجَنَانِ جُنٌّ فَاسْتَضْحَكَ مِنْ حَيْثُ بَكَى
ارْتَدَى بُرْنُسَهُ وَالتَّثَمَا وَخَطَا خُطْوَةَ شَيْخٍ مُرْعَسِ^{٥٨}
وَيُرَى ذَا حَدَبٍ إِنْ جَثَمَا فَإِنْ ارْتَدَّ بَدَا ذَا قَعَسِ^{٥٩}

فَمُهُ الْقَانِي عَلَى لَبَّتِهِ كَبَقَايَا الدِّمِّ فِي نَضْلٍ دَقِيقٍ
مَدَّهُ فَإِنْشَقَّ مِنْ مَنَبَّتِهِ مَنْ رَأَى شَقَّى مَقْصٍّ مِنْ عَقِيقٍ؟
وَبَكَى شَجَوًّا عَلَى شُعْبَتِهِ شَجَوَ ذَاتِ الثُّكُلِ فِي السَّنْرِ الرَّقِيقِ
سَلَّ نَ فِيهِ لِسَانًا عَنَمًا^{٦٠} مَاضِيًّا فِي الْبَثِّ لَمْ يَحْتَسِسِ
وَتَرَّ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ رَنَمَا فِي الدُّجَى، أَوْ شَرَّرَ مِنْ قَبَسِ

نَفَرَتْ لَوَعْتُهُ بَعْدَ الْهُدُوءِ وَالدُّجَى بَيْتَ الْجَوَى وَالْبُرْحَا
يَتَعَايَا بِجَنَاحٍ وَيَنُوءُ بِجَنَاحٍ مُذْ وَهَى مَا صِلْحَا
سَاءَ الدَّهْرُ، وَمَا زَالَ يَسُوءُ مَا عَلَيْهِ لَوْ أَسَا مَا جَرَحَا
كَلَّمَا أَدْمَى يَدَيْهِ نَدَمَا سَالَتَا مِنْ طَوْقِهِ وَالْبُرْنُسِ
فَنِيَتْ أَهْدَابُهُ إِلَّا دَمَا قَامَ كَالْيَاقُوتِ لَمْ يَنْبَجِسِ^{٦١}

مَدَّ فِي اللَّيْلِ أَنْيُنًا وَخَفَقُ
فَرَعَتْ مِنْهُ النَّوَى غَيْرَ رَمَقُ
يَتَلَاشَى نَزَوَاتٍ فِي حُرْقُ
لَمْ يَكُنْ طَوْقًا، وَلَكِنْ ضَرَمَا
رَحْمَةُ اللَّهِ لَهُ! هَلْ عَلِمَا
خَفَقَانَ الْقُرْطِ فِي جُنْحِ الشَّعْرِ
فَضْلَةَ الْجُرْحِ إِذَا الْجُرْحُ نَغَرُ^{٦٢}
كَذُبَالٍ آخَرَ اللَّيْلِ اسْتَعَرُ
مَا عَلَى لَبَّتِهِ مِنْ قَبَسِ
أَنَّ تِلْكَ النَّفْسَ مِنْ ذَا النَّفْسِ؟

* * *

قُلْتُ لِلَّيْلِ — وَلِلَّيْلِ عَوَادُ —
قُلْتُ: مَا واديه؟ قَالَ: الشَّجُو وَادُ
قُلْتُ: لَكِنْ جَفَنُهُ غَيْرُ جَوَادُ
نَغْبِطُ الطَّيْرَ، وَمَا نَعْلَمُ مَا
فَدَعَ الطَّيْرَ وَحَظًا قَسَمَا
مَنْ أَخُو الْبَثِّ؟ فَقَالَ: ابْنُ فِرَاقُ
لَيْسَ فِيهِ مِنْ حِجَازٍ أَوْ عِرَاقُ
قَالَ: شَرُّ الدَّمْعِ مَا لَيْسَ يُرَاقُ
هِيَ فِيهِ مِنْ عَذَابِ بَيْسِ
صَيَّرَ الْإِيكَ كُدُورِ الْأَنْسِ

* * *

نَاحَ إِذَا جَفَنَائِي فِي أَسْرِ النُّجُومِ
أَيُّهَا الصَّارُخُ مِنْ بَحْرِ الْهَمُومِ
إِنْ هَذَا السَّهْمُ لِي مِنْهُ كُلُّوْمِ
قَلْبُ الدُّنْيَا تَجِدُهَا قِسْمَا
وَانْظُرِ النَّاسَ تَجِدُ مِنْ سَلِمَا
رَسَفَا فِي السُّهْدِ وَالْدَّمْعُ طَلِيقُ^{٦٣}
مَا عَسَى يُغْنِي غَرِيقُ عَنْ غَرِيقُ؟
كُلُّنَا نَازِحُ أَيْكَ وَفَرِيقُ
صُرِفَتْ مِنْ أَنْعَمُ أَوْ أَبْوَسِ
مِنْ سِهَامِ الدَّهْرِ شَجَّتُهُ الْقِسَى

* * *

يَا شَبَابَ الشَّرْقِ عُنْوَانَ الشَّبَابِ
حَسْبُكُمْ فِي الْكَرَمِ الْمُحَضِّ اللَّبَابِ
فِي كِتَابِ الْفَخْرِ (لِلدَّخْلِ)^{٦٤} بَابُ
فِي الشَّمُوسِ الزُّهْرِ بِالشَّامِ انْتَمَى
قَعْدَ الشَّرْقِ عَلَيْهِمْ مَأْتَمَا
ثَمَرَاتِ الْحَسَبِ الزَّاكِي النَّمِيرِ
سِيرَةٌ تَبْقَى بَقَاءَ ابْنِي سَمِيرِ^{٦٤}
لَمْ يَلِجْهُ مِنْ بَنَى الْمُلْكِ أَمِيرُ
وَنَمَى الْأَقْمَارَ بِالْأَنْدَلِيسِ
وَانْتَنَى الْغَرْبُ بِهِمْ فِي عُرْسِ

* * *

هَلْ لَكُمْ فِي نَبَأٍ خَيْرِ نَبَأُ
حِلْيَةِ التَّارِيخِ، مَأْثُورِ عَظِيمِ

حَلَّ فِي الْأَنْبَاءِ مَا حَلَّتْ سَبَأُ
مِثْلُهُ الْمَقْدَارُ يَوْمًا مَا خَبَأُ
يُعْجِزُ الْقُصَّاصَ إِلَّا قَلَمًا
يُؤْثِرُ الصَّدَقَ وَيَجْزِي عِلْمًا
مَنْزَلَ الْوُسْطَى مِنَ الْعَقْدِ النَّظِيمِ
لَسْلِبِ التَّاجِ وَالْعَرْشِ كَظِيمِ
فِي سَوَادٍ مِنْ هَوَى لَمْ يُغْمَسِ
قَلْبَ الْعَالَمِ لَوْ لَمْ يُطْمَسْ؟

عَنْ عِصَامِيٍّ نَبِيلٍ مُعْرِقٍ
نَهَضَتْ دَوْلَتُهُمْ بِالْمَشْرِقِ
ثُمَّ خَانَ التَّاجُ وَدَّ الْمَفْرِقِ
غَفَلُوا عَنْ سَاهِرٍ حَوْلَ الْحِمَى
فِي بُنَاةِ الْمَجْدِ ابْنَاءِ الْفَخَارِ؟
نَهَضَتْ الشَّمْسُ بِأَطْرَافِ النَّهَارِ
وَنَبَتْ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرُ الدِّيَارِ
بَاسِطٌ مِنْ سَاعِدَيِّ مُفْتَرِسٍ
وَمَشَى فِي الدَّمِ مَشَى الضَّرْسِ

ثَارَ عَثْمَانُ لِمَرْوَانَ مَجَازُ
حَسَنُوا لِلشَّامِ ثَارًا وَالْحِجَازُ
مَكَّرَ سُوَّاسَ عَلَى الدُّهْمَاءِ جَارُ
جَعَلُوا الْحَقَّ لِبَغْيٍ سَلَامًا
وَقَدِيمًا بِاسْمِهِ قَدْ ظَلَمَا
وَدَمَ السَّبَبُ ٦٦ أَثَارَ الْأَقْرَبُونَ
فَتَغَالَى النَّاسُ فِيمَا يَطْلُبُونَ
وَرُعَاةُ بِالرَّعَايَا يَلْعَبُونَ
فَهُوَ كَالسَّيْرِ لِهِمُ وَالتُّرْسِ
كُلُّ نَى مِنْذَنَةٍ أَوْ جَرَسِ

جَزَيْتُ مَرْوَانَ ٦٧ عَنْ أَبَائِهَا
وَمِنْ النَّفْسِ وَمِنْ أَهْوَائِهَا
خَلَّتِ الْأَعْوَادُ مِنْ أَسْمَائِهَا
ظَلَمْتُ حَتَّى أَصَابْتُ أَظْلَمًا ٦٨
فَطِنًا فِي دَعْوَةِ الْإِلِّ لِمَا
مَا أَرَاقُوا مِنْ يَمَاءٍ وَدُمُوعٍ
مَا يُوَدِّيهِ عَنِ الْأَصْلِ الْفُرُوعِ
وَتَغَطَّتْ بِالْمَصَالِيبِ الْجُذُوعُ
حَاصِدَ السَّيْفِ، وَبِئْسَ الْمَحْبَسِ
هَمْسُ الشَّانِي وَمَا لَمْ يَهْمِسِ

لَبِستُ بُرْدَ النَّبِيِّ النَّيَّارِثِ
وَقَدِيمًا عِنْدَ مَرْوَانَ تِرَاثِ
مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ نُورًا فَوْقَ نُورِ
لِزَكِيَّاتٍ مِنَ الْأَنْفُسِ نُورِ

فنجنا الداخلُ سَبْحاً بالفُراتِ تاركَ الفتنةِ تطغى وتَنور^{٦٩}
عَسَّ^{٧٠} كالْحُوتِ بهِ واقتحما بينَ عِبرَيَّهِ عِيونَ الحَرَسِ
ولقد يُجِدِي الفتى أن يَعْلَمَا صَهوةَ الماءِ ومَتَنَ الفَرَسِ

* * *

صَحِبَ الداخلَ من إِخْوَتِهِ حَدَّثَ خاضَ الغَمَارَ ابْنَ ثَمَانٍ
غَلَبَ الموجَ على قُوَّتِهِ فكأنَّ الموجَ من جُنْدِ الزَمَانِ
وَإِذَا بِالشَّطِّ من شِقْوَتِهِ صائِحٌ صَاحَ بهِ: نِلْتَ الأَمَانِ
فانثنى مُنْخَدِعاً مُسْتَسْلِمَا شاةٌ اغْتَرَّتْ بعَهْدِ الأَطْلَسِ^{٧١}
خَضَبَ الجندُ بهِ الأرضَ دَمَا وقلوبُ الجندِ كالصخرِ القَسي

* * *

أيها اليائسُ، مُتْ قَبْلَ المماتِ أو إِذَا شئتَ حياءَ فالرَّجَا
لا يَضِقْ ذَرْعُكَ عندَ الأَزْماتِ إِنْ هِيَ اشْتَدَّتْ وَأَمَلُ فَرَجَا
ذلكَ الداخلُ لاقَى مُظْلِماتِ لم يَكُنْ يَأْمُلُ منها مَخْرَجَا
قد تَوَلَّى عِزُّهُ وانصَرَمَا فمضى من غَدِهِ لم يَبْأَسِ
رَامَ بالمغربِ مُلْكَاً فرمى أَبْعَدَ، الغَمْرِ، وأقصى اليَبَسِ

* * *

ذاك - واللّه - الغِنَى كُلُّ الغِنَى أَيْ صَعِبَ في المعالي ما سَلَكَ
ليس بالسائلِ إِنْ هَمَّ: مَتَى؟ لا، ولا الناظرِ ما يُوْجِي الفَلَكُ
زَايِلَ المُلْكِ ذَوِيهِ فَأَتَى مُلْكَ قومٍ ضَيَّعوه فَمَلَكَ
غَمَرَاتٍ عَارِضَتْ مُقْتَحِمَا عَالِيَ النَفْسِ أَشَمَّ المَعْطَسِ^{٧٢}
كُلُّ أَرْضٍ حَلَّ فيها، أو حَمَى منزلُ البدرِ، وغابُ البَيْهَسِ^{٧٣}

* * *

نَزَلَ النَّاجِي على حُكْمِ النُّوَى وتَوَارَى بالسُّرى من طالبيهِ
غَيْرَ ذِي رَحْلٍ ولا زَادٍ سَوَى جَوْهَرٍ وافاه من بيتِ أبيهِ
قَمَرٌ لاقَى خُسوفًا فانزَوَى ليس من آبائِهِ إلا نَبِيهِ

لَمْ يَجِدْ أَعْوَانَهُ وَالْخَدَمَا جَانِبُوهُ غَيْرَ (بَذَرِ) الْكَئِيسِ
مِنْ مَوَالِيهِ الثَّقَاتِ الْقُدَمَا لَمْ يَخْنَهُ فِي الزَّمَانِ الْمُؤَيِّسِ

* * *

حِينَ فِي إفْرِيقِيَا أَنْحَلَّ الْوَيْثَامُ وَتَوَارَى بِالسُّرَى مِنْ طَالِبِيهِ
مَاتَتْ الْأُمَّةُ فِي غَيْرِ التَّثَامِ جَوَّهَرٍ وَافَاهُ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِ
يَمَنْ سَلَّتْ ظَبَاهَا وَالشَّامُ لَيْسَ مِنْ آبَائِهِ إِلَّا نَبِيُّهُ
فَرَّقَ الْجَنْدَ الْغَنَى فَاَنْقَسَمَا جَانِبُوهُ غَيْرَ (بَذَرِ) الْكَئِيسِ
أَوْحَشَ السُّودُدُ فِيهِمْ، وَسَمَا لَمْ يَخْنَهُ فِي الزَّمَانِ الْمُؤَيِّسِ

* * *

حِينَ فِي إفْرِيقِيَا أَنْحَلَّ الْوَيْثَامُ وَاضْمَحَلَّتْ آيَةُ الْفَتْحِ الْجَلِيلُ
مَاتَتْ الْأُمَّةُ فِي غَيْرِ التَّثَامِ وَكَثِيرٌ لَيْسَ يَلْتَأَمُ قَلِيلُ
يَمَنْ سَلَّتْ ظَبَاهَا وَالشَّامُ شَامَهَا^{٧٤} هَنْدِيَّةٌ ذَاتَ صَلِيلُ
فَرَّقَ الْجَنْدَ الْغَنَى فَاَنْقَسَمَا وَغَدَا بَيْنَهُمُ الْحَقُّ نَسِيُ
أَوْ حَشَ السُّودُدُ فِيهِمْ، وَسَمَا لِلْمَعَالَى مَنْ بِهِ لَمْ تَأْنِسِ
رُجِمُوا بِالْعَبَقْرِئِ النَّابِيهِ الْبَعِيدِ الْهَمَّةِ الصَّعْبِ الْقِيَادِ
مَدَّ فِي الْفَتْحِ وَفِي أَطْنَابِهِ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ بِنَاءِ ابْنِ زِيَادِ^{٧٥}
هَجَرَ الصَّيْدَ، فَمَا يُغْنَى بِهِ وَهُوَ بِالْمَلِكِ رَفِيقٌ ذُو اصْطِيَادِ
سَتَلُّ بِهِ أَنْدَلَسًا: هَلْ سَلِمَا مِنْ أَخَى صَيْدٍ رَفِيقٍ مَرِسٍ؟^{٧٦}
جَرَّدَ السَّيْفَ، وَهَزَّ الْقَلَمَا وَرَمَى بِالرَّأْيِ أُمَّ الْخُلَسِ^{٧٧}

* * *

بِسَلَامٍ شَا شِرَاعًا مَا دَرَى مَا عَلَيْهِ مِنْ حَيَاءٍ وَسَخَاءٍ
فِي جَنَاحِ الْمَلِكِ الرُّوحِ^{٧٨} جَرَى وَبِرِيحٍ حَفَّهَا اللَّطْفُ رُخَاءُ
غَسَلَ الْيَمُّ جِرَاحَاتِ الثَّرَى وَمَا الشَّدَّةُ مَنْ يَمْحُو الرِّخَاءُ
هَلْ دَرَى أَنْدَلُسُ مَنْ قَدَمَا دَارَهُ مِنْ نَحْوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟
بَسَلِيلِ الْأَمْوِيِّينَ سَمَا فَتَحَ مُوسَى مُسْتَقَرَّ الْأُسُوسِ

* * *

أَمْوِيٌّ لِلْعُلَا رَحَلَتْهُ	والمعالي بمطىٍّ وطُرُق
كالهلال انفرَدَتْ نُقْلَتْهُ	لا يُجاريه رَكَابٌ فِي الْأَفُق
بُنِيَتْ مِنْ خُلُقِ دَوْلَتِهِ	قَدْ يَشِيدُ الدُّوَلُ الشُّمَّ الْخُلُق
وَإِذَا الْأَخْلَاقُ كَانَتْ سُلَّمَا	نَالَتْ النِّجْمَ يَدٌ لِلْمُلْتَمِسِ
فَارَقَ فِيهَا تَرَقَّ أَسْبَابُ السَّمَا	وَعَلَى نَاصِيَةِ الشَّمْسِ اجْلِسِ

* * *

أَيُّ مُلْكٍ مِنْ بِنَايَاتِ الْهَمَمِ	أَسَسَ الدَّاحِلُ فِي الْغَرْبِ وَشَاذُ؟
ذَلِكَ النَّاشِئُ فِي خَيْرِ الْأُمَمِ	سَادَ فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يُخْلَقْ يُسَادِ
حَكَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي وَحَكَمَ	فِي عَوَادِيهَا قِيَادًا بِقِيَادِ
سُلْبِ الْعِزِّ بِشَرْقٍ فَرَمَى	جَانِبَ الْغَرْبِ لِعِزٍّ أَقْعَسِ
وَإِذَا الْخَيْرُ لِعَبْدٍ قُسِمَا	سَنَحَ السَّعْدُ لَهُ فِي النَّحْسِ

* * *

أَيُّهَا الْقَلْبُ، أَحَقُّ أَنْتَ جَارُ	لِلَّذِي كَانَ عَلَى الدَّهْرِ يَجِيرُ؟
هَاهُنَا حَلٌّ بِهِ الرِّكْبُ وَسَارُ	وَهُنَا ثَاوٍ إِلَى الْبُعْثِ الْأَسِيرُ
فَلَكَ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ مُدَارُ	صَرَعَ الْجَامُ ^{٧٩} وَالْوَى بِالْمُذِيرِ
هَاهُنَا كُنْتَ تَرَى حَوْ الدُّمَى	فَاتَنَاتٍ بِالشَّفَاهِ اللَّعْسِ ^{٨٠}
نَاقِلَاتٍ فِي الْعَبِيرِ الْقَدَمَا	وَاطْنَاتٍ فِي حَبِيرِ السُّنْدُسِ

* * *

خُذْ عَنِ الدُّنْيَا بَلِيغَ الْعِظَةِ	قَدْ تَجَلَّتْ فِي بَلِيغِ الْكَلِمِ
طَرَفَاهَا جُمِعَا فِي لَفْظَةِ	فَتَأَمَّلْ طَرَفَيْهَا تَعْلَمِ
الْأَمَانَى حُلْمٌ فِي يَقْظَةِ	وَالْمَنَايَا يَقْظَةٌ مِنْ حُلْمِ
كُلُّ ذِي سَقْطَيْنِ ^{٨١} فِي الْجَوِّ سَمَا	وَاقِعٌ يَوْمًا وَإِنْ لَمْ يُغْرَسِ
وَسِيلَقَى حَيْنَهُ نَسْرُ السَّمَا	يَوْمَ تُطَوَّى كَالْكِتَابِ الدَّرْسِ

* * *

أَيْنَ — يَا وَاحِدَ مَرَوَانَ — عَلِمَ
رَايَةً صَرَفَهَا الْفَرْدُ الْعَلَمَ
كُنْتُ إِنْ جَرَدْتُ سَيْفًا أَوْ قَلَمَ
مَا رَأَى النَّاسُ سِوَاهُ عَلَمًا
أَعْلَى زُكْنِ السَّمَاءِ أَدْعَمًا
مَنْ دَعَا الصَّقَرَ سَمَاءَ الْعُقَابِ؟^{٨٢}
عَنْ وَجْهِ النَّصْرِ تَصْرِيفَ النَّقَابِ
أَبْتُ بِالْأَلْبَابِ أَوْ دِنْتُ الرِّقَابِ
لَمْ يُرَمَّ فِي لُجَّةٍ أَوْ يَبْسِ
وَتَغَطَّى بِجَنَاحِ الْقُدْسِ

* * *

قَصْرُكَ (الْمُنْيَةُ) مِنْ قُرْطُبَةٍ
صَدَفُ خُطٍّ عَلَى جَوْهَرَةٍ
لَمْ يَدْعُ ظِلًّا لِقَصْرِ (الْمُنْيَةِ)
كُنْتُ صَقْرًا قُرَشِيًّا عَلَمًا
إِنْ تَسَلَّ: أَيْنَ قُبُورُ الْعُظَمَاءِ؟
فِيهِ وَارُوكَ، وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ
بَيِّدَ أَنْ الدَّهْرَ نَبَّاشٌ بِصِيرُ
وَكَذَا عُمُرُ الْأَمَانِيِّ قَصِيرُ
مَا عَلَى الصَّقْرِ إِذَا لَمْ يُرْمَسِ
فَعَلَى الْأَفْوَاهِ أَوْ فِي الْأَنْفُسِ

* * *

كَمْ قُبُورٍ زَيَّنَتْ جِيدَ الثَّرَى
كَانَ مَنْ فِيهَا وَإِنْ جَاوَزَا الثَّرَى
وَعِظَامُ تَتَزَكَّى عَنْبَرًا
فَاتَّخَذَ قَبْرَكَ مِنْ ذِكْرٍ، فَمَا
هَبَكَ مِنْ حَرَصٍ سَكَنْتَ الْهَرَمَا
تَحْتَهَا أَنْجَسُ مِنْ مَيِّتِ الْمَجُوسِ
قَبْلَ مَوْتِ الْجَسْمِ أَمْوَاتُ النَفُوسِ
مِنْ ثَنَاءٍ صِرْنَ أَغْفَالُ الرُّمُوسِ
تَبْنِ مِنْ مَحْمُودِهِ لَا يُطْمَسِ
أَيْنَ بَانِيهِ الْمِينَعُ الْمَلْمَسِ؟!

زَخْلَةٌ

شَيَّعْتُ أَحْلَامِي بِقَلْبٍ بَاكِ
وَرَجَعْتُ أَدْرَاجَ الشَّبَابِ وَوَرَدَهُ
وَبِجَانِبِي وَاهٍ، كَأَنَّ خُفُوقَهُ
وَلَمَحْتُ مِنْ طُرُقِ الْمِلَاحِ شِبَاكِ
أَمْشِي مَكَانَهُمَا عَلَى الْأَشْوَاكِ
لَمَّا تَلَفَّتْ جَهْشَةُ الْمَتْبَاكِ

فإذا أهيبَ به فليس بشاك
من بعد طول تناول وفكاك
بعد الشباب عزيزة الإدراك
لفتوة. أو فضلة لعراك
ونشدُ شدَّ العُصبة الفتاك
ما يبعث الناقوس في النُسّاك
ما يشبه الأحلام من ذكراك
والذكريات صدَى السنين الحاكى
غنَاء كنت حيا لها ألقاك
ووجدت في أنفاسها رِيّاك
بين الجداول والعيون حَواك
لما حطرت يُقبلان خطاك؟
حتى ترفق ساعدى فطواك
واحمر من خفريهما خذاك
ولثمت كالصبح المنور فاك
من طيب فيك، ومن سلاف لَمّاك
عينى في لغة الهوى عيناك
ونسيت كلّ تعائب وتشاكى
جمع الزمان فكان يوم رِضاك

شاكى السلاح إذا خلا بضلوعه
قد راعه أني طويّت حبائلي
ويح ابن جنبي؟ كل غاية لذّة
لم تبق منا — يا فؤاد — بقيّة
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
واليوم تبعث فيّ حين تهزني
يا جارة الوادى، طربت وعادني
مئت في الذكرى هواك وفي الكرى
ولقد مررت على الرياض بريرة
ضحكت إلى وجوهها وعيونها
فذهبت في الأيام أنكر زفرًا
إنكرت هزولة الصباية والهوى
لم أدر ما طيب العناق على الهوى
وتأودت أعطاف بانك في يدى
ودخلت في ليلين: قرعك الدجى
ووجدت في كُنه الجوانح نشوة
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
ومحوّت كلّ لبانة من خاطرى
لا أمس من عمر الزمان ولا غدّ

أقدار سَيْر للحياة دراك
كرة وراء صوالج الأفلاك
كالطير فوق مكامن الأشراك
ملقى الرحال على ثراك الداكى

لبنان، ردّتنى إليك من النوى
جمعت نزيلى ظهرها من فرقة
نمشى عليها فوق كلّ فجاءة
ولو أن بالشوق المزار وجدتنى

طيبى كجلّفن واسكبي برداك

بنت البقاع وأمّ بردونيها

أَلْفَيْتُ سُدَّةَ عَذْنِهِنَّ رَبَّكَ
لَتَهْلَلُ الْفَرْدَوْسُ، ثُمَّ نَمَاكَ
لِمَ يَا زَحِيلَةَ لَا يَكُونُ أَبَاكَ؟
هَيْهَاتَ! نَسَى الْبَابِلِيُّ جَنَّاكَ
لِلنَّاضِرِينَ إِلَى أَلَدِّ حِيَاكَ
أَوْدَعْنَ كَافُورًا مِنَ الْأَسْلَاكَ
لَمَا رَأَيْتُ الْمَاءَ مَسَّ طِلَاكَ
سَلَفَتْ بِظِلِّكَ وَانْقَضَتْ بِدَرَاكَ
لُبْنَانُ فِي الْوَشْيِ الْكَرِيمِ جَلَاكَ
فِي الْعَاجِ مِنْ أَيِّ الشَّعَابِ أَتَاكَ
صِنْنِيَّ وَالْحَرْمُونُ^{٨٢} فَاحْتَضَنَّاكَ
سَأَلْتُ حُلَاهُ عَلَى الثَّرَى وَجَلَاكَ
كَالْغَيْدِ مِنْ سِتْرٍ وَمِنْ شَبَاكَ
رَكْنُ الْمَجْرَةِ أَوْ جِدَارُ سِمَاكَ
فِي الْأَيْكِ، أَوْ وَتَرًا شَجَى حَرَاكَ
تَحْتَ السَّمَاءِ مِنَ الْبِلَادِ فِدَاكَ
وَمَشَى مَلُوكُ الشَّعْرِ فِي مَغْنَاكَ
أَرْضًا تَمَخَّضَ بِالشَّمْسِ سِوَاكَ
وِيرَاعُهُ مِنْ خُلُقِهِ بِمَلَاكَ
سَرَقَ الشَّمَائِلُ مِنْ نَسِيمِ صَبَاكَ
وَعَصَاهُ فِي سِحْرِ الْبَيَانِ عَصَاكَ
وَجَمَعَتْهُ بِرَوَايَةِ الْأَمْلاكَ
أُنْكَرْتُ كُلَّ قَصِيدَةٍ إِلَّاكَ
اللَّهُ صَاغَكَ، وَالزَّمَانُ رَوَاكَ

وَدِمَشْقُ جَنَّاتِ النِّعِيمِ، وَإِنَّمَا
قَسَمًا لَوْ انْتَمَتِ الْجَدَاوِلُ وَالرُّبَا
مَرَّاكَ مَرَّاهُ وَعَيْنُكَ عَيْنُهُ
تِلْكَ الْكُرُومُ بَقِيَّةٌ مِنْ بَابِلَ
تُبْدِي كَوْشَى الْفَرْسِ أَفْتَنَ صَبْغَةً
خَرَزَاتِ مِسْكِ، أَوْ عُقُودَ الْكَهْرِبَا
فَكَّرْتُ فِي لَبَنِ الْجَنَانِ وَخَمَرِهَا
لَمْ أُنْسَ مِنْ هِبَةِ الزَّمَانِ عَشِيَّةً
كُنْتُ الْعُرُوسَ عَلَى مَنَصَّةِ جَنَحِهَا
يَمْشَى إِلَيْكَ اللَّحْظُ فِي الدِّيْبَاجِ أَوْ
ضَمَّتْ ذِرَاعَيْهَا الطَّبِيعَةُ رِقَّةً
وَالْبَدْرُ فِي تَبَجِّ السَّمَاءِ مُنَوَّرٌ
وَالنَّيِّرَاتُ مِنَ السَّحَابِ مُطْلَّةٌ
وَكَأَنَّ كُلَّ ذُوَابَةٍ مِنْ شَاهِقٍ
سَكَنْتْ نَوَاحِي اللَّيْلِ، إِلَّا أَنَّهُ
شَرَفًا — عُرُوسَ الْأَرْزِ — كُلُّ خَرِيدَةٍ
رَكَزَ الْبَيَانُ عَلَى ذِرَاكِ لَوَاءِهِ
أَدْبَاؤُكِ الزُّهْرُ الشَّمْسُوسُ، وَلَا أَرَى
مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ عِلْمُهُ فِي شَعْرِهِ
جَمَعَ الْقَصَائِدَ مِنْ رَبَّكَ، وَرَبَّمَا
(مُوسَى) بِبَابِكَ فِي الْمَكَارِمِ وَالْعِلَا
أَحْلَلْتَ شَعْرِي مِنْكَ فِي غُلْيَا الذُّرَا
إِنْ تُكْرِمِي يَا زَحْلُ شَعْرِي إِنَّنِي
أَنْتِ الْخِيَالُ: بِدِيعُهُ، وَغَرِيبُهُ

ذَكَرَى اسْتِقْلَالَ سُورِيَا وَذَكَرَ شَهْدَائِهَا

وَدُنْيَا لَا نُودُّ لَهَا انْتِقَالَ	حَيَاةٌ مَا نَرِيدُ لَهَا زِيَالَ
عُصَارَتُهُ، وَإِنْ بَسَطَ الظَّلَا	وَعِيشٌ فِي أَصُولِ الْمَوْتِ سَمٌّ
وَإِنْ خِيلَتْ تَدِبُّ بَنَا نِمْلًا	وَأَيَّامٌ تَطِيرُ بَنَا سَحَابًا
وَنُصِمِعُهَا التَّبَرُّمَ وَالْمَلَا	نُرِيهَا فِي الضَّمِيرِ هَضْوَى وَحُبًّا
طَوَالَ حِينَ نَقْطَعُهَا فَعَالًا	قِصَارٌ حِينَ نَجْرَى اللَّهَوَ فِيهَا
زَحَامُ السَّوِّ ضَيِّقُهَا مَجَالًا	وَلَمْ تَضُقْ الْحَيَاةَ بَنَا، وَلَكِنْ
وَلَكِنْ سَابَقُوا الْمَوْتَ اقْتِتَالًا	وَلَمْ تَقْتُلْ بِرَاحَتِهَا بَنِيهَا
وَإِخْلَاصًا لَزَادَتَهُمْ جَمَالًا	وَلَوْ زَادَ الْحَيَاةَ النَّاسُ سَعِيًّا

* * *

لَأَهْلِ الْوَاجِبِ أَذْخَرَ الْكَمَالَ	كَأَنَّ اللَّهَ إِذَا قَسَمَ الْمَعَالَى
وَلَوْعًا بِالصِّغَائِرِ وَاشْتَغَالًا	تَرَى جِدًّا، وَلَسْتَ تَرَى عَلَيْهِمُ
وَلَكِنْ أَنْعَمَ الْأَحْيَاءِ بِالَا	وَلَيْسُوا أَرْغَدَ الْأَحْيَاءِ عَيْشًا
وَإِنْ قَالُوا فَأَكْرَمَهُمْ مَقَالًا	إِذَا فَعَلُوا فَخِيرُ النَّاسِ فَعَلًا
دَمًا حَرًّا، وَابْنَاءً، وَمَالًا	وَإِنْ سَأَلْتَهُمُ الْأَوْطَانَ أَعْطَوْا

* * *

أَهَابَ بِدَمْعِهِ شَجَنُ فَسَالَا	بَنَى الْبَلَدِ الشَّقِيقِ، عِزَاءَ جَارِ
وَأَضْحَى الْيَوْمَ بِالشَّهْدَاءِ غَالِي	قَضَى بِالْأَمْسِ لِلْأَبْطَالِ حَقًّا
أَكَانَ السَّلْمُ أَمْ كَانَ الْقِتَالَا	يُعْظَمُ كُلُّ جُهْدٍ عِبْقَى
كَأَرْحَمِ مَا يَكُونُ الْبَيْتُ آلَا	وَمَا زِلْنَا إِذَا نَهَتْ الرِّزَايَا
وَلَا أَنْسَ الصَّنِيعَةَ وَالْفَعَالَا	وَقَدْ أَنْسَى الْإِسَاءَةَ مِنْ حَسَوِدِ
وَوَفَدَ الْمَشْرِقِينَ وَقَدْ تَوَالَى	ذَكَرْتُ الْمَهْرَجَانَ وَقَدْ تَجَلَّى
وَقَدْ جُلِيَتْ سَمَاءٌ لَا تَعَالَى	وِدَارَى بَيْنَ أَعْرَاسِ الْقَوَافِي
مِنَ الْأَحْرَارِ تَحْسِبُهُ خِيَالَا	تَسْلُلُ فِي الزَّحَامِ إِلَى نَضْوِ
وَبَلَّغْنِي التَّحِيَّةَ وَالسَّوَالَا	رَسُولُ الصَّابِرِينَ أَلَمْ وَهْنَا

دنا مني فناولني كتابًا
وجدتُ دَمَ الْأَسْوَدِ عَلَيْهِ مِسْكًا
كَأَنَّ أَسَامِيَّ الْأَبْطَالِ فِيهِ
رَوَاةُ قِصَائِدِي قَدْ رَتَّلُوهَا
إِذَا رَكَزُوا الْقَنَا انْتَقَلُوا إِلَيْهَا
أَحْسَسْتُ رَاحَتَايَ لَهُ جَلَالًا
وَكَانَ الْأَصْلُ فِي الْمِسْكِ الْغَزَالَا
حَوَامِيمٌ عَلَى رَقٍّ تَتَالَى
وَعَنُوهَا الْأَسِنَّةُ وَالنَّصَالَا
فَكَانَتْ فِي الْخِيَامِ لَهُمْ نِقَالَا

* * *

بَنَى سُورِيَّةً، التَّئَمُّوا كِيَوْمَ
سَلُّوا الْحَرِيَّةَ الزَّهْرَاءَ عُنَا
وَهَلْ نِلْنَا كِلَانَا الْيَوْمَ إِلَّا
عَرَفْتُمْ مَهْرَهَا فَمَهَرْتُمُوهَا
وَقَمْتُمْ دُونَهَا حَتَّى خَضِبْتُمْ
دَعَا فِي النَّاسِ مَفْتُونًا جِبَانًا
أَيَطْلُبُ حَقَّهُمْ بِالرُّوحِ قَوْمٌ
وَكُونُوا حَائِطًا لَا صَدَعَ فِيهِ
وَعِيشُوا فِي ظِلَالِ السَّلْمِ كَدًّا
وَلَكِنْ أَبْعَدَ الْيَوْمِينَ مَرَمًى
وَلَيْسَ الْحَرْبُ مَرْكَبٌ كُلَّ يَوْمٍ
خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ بِهِ النَّزَالَا
وَعَنْكُمْ: هَلْ أَذَاقْتَنَا الْوِصَالَا؟
عِرَاقِيْبَ الْمَوَاعِدِ وَالْمِطَالَا؟
دَمًا صَبَغَ السَّبَاسِبَ وَالذَّغَالَا
هَوَادِجَهَا الشَّرِيفَةَ وَالْحِجَالَا
يَقُولُ: الْحَرْبُ قَدْ كَانَتْ وَبَالَا
فَتَسْمَعُ قَائِلًا: رَكِبُوا الضَّلَالَا؟
وَصَفَا لَا يُرْقِعُ بِالْكَسَالَى
فَلَيْسَ السَّلْمُ عَجْزًا وَاتِّكَالَا
وَخَيْرُهُمَا لِكَلِمٍ نَصَحًا وَآلَا
وَلَا الدَّمُ كُلُّ أَوْنَةٍ حِلَالَا

* * *

سَأَذْكَرُ مَا حَيَّيْتُ جِدَارَ قَبْرِ
مَقِيمٌ مَا أَقَامْتُ (مَيْسَلُونُ)
لَقَدْ أَوْحَى إِلَيَّ بِمَا شَجَانِي
تَغَيَّبَ عَظْمَةُ الْعَظَمَاتِ فِيهِ
كَأَنَّ بُنَاتَهُ رَفَعُوا مَنَارًا
سَرَجُ الْحَقِّ فِي ثُبُجِ الصَّحَارَى
تَرَى نُورَ الْعَقِيدَةِ فِي ثَرَاهِ
مَشَى وَمَشَتْ فَيَالِقُ مِنْ فَرَنْسَا
بِظَاهِرِ جِلْقِ رَكِبِ الرَّمَالَا
يَذْكَرُ مِصْرَعَ الْأَسَدِ الشَّيْبَالَا
كَمَا تُوْحِي الْقُبُورُ إِلَى التُّكَالَى
وَأَوَّلُ سَيِّدٍ لَقِيَ النَّبَالَا
مِنَ الْإِخْلَاصِ، أَوْ نَصَبُوا مِثَالَا
تَهَابَ الْعَاصِفَاتُ لَهُ ذُبَالَا
وَتَنَشَّقُ مِنْ جَوَانِبِهِ الْخِلَالَا
تَجَرَّ مَطَارِفَ الظُّفْرِ اخْتِيَالَا

ملأَنَ الجوَّ أسلحةً خِفَافًا ووجه الأرض أسلحةً ثَقَالًا
وأرسلَنَ الرياحَ عليه نارًا فما حفل الجنوبَ ولا الشمالَا
سلوه: هل ترجُلُ في هبوبٍ من النيران أُرْجِلَتِ الجبالَا؟
أقام نهاره يُلقَى ويلقى فلما زال قرصُ الشمس زالا
وصاح، ترى به قيدَ المنايا ولستَ ترى الشكِّيمَ ولا الشكالا
فكفَّنَ بالصوارم والعوالى وغُيِبَ حيثُ جال وحيثُ صالا
إذا مَرَّتْ به الأجيالُ تَتَرَى سمِعتُ لها أزيزًا وابتهاالا
تعلَّقُ في ضمائرهم صليباً وحلَّقُ في سرائرهم هلالا

تمثالُ نهضةِ مصر

جعلتُ حُلاها وتمثالها عيونَ القوافي وأمثالها
وأرسلتها في سماءِ الخيال تجرُّ على النجم أذيالها
وإنى لغريدُ هذى البطاح تغدَّى جناها وسلسالها
ترى مصرَ كعبةَ أشعاره وكلَّ معلقةٍ قالها
وتلمحُ بين بيوتِ القصيدِ جبالَ^{٨٤} العروس وأحجالها^{٨٥}
أدار النسيبَ إلى حبَّها وولَّى المدايحَ إجلالها
أرَنَ بغابرها العبقريَّ وغنَّى بمثل البُكا حالها
ويروى الوقائعَ في شعره يروضُ على البأس أطفالها
وما لمحو بعدُ ماءَ السيوفِ فما ضرَّ لو لمحو آلهَا

* * *

ويومِ ظليل الضحى من بشنسٍ أفاءَ على مصرَ آمالها
رُوى ظلُّه عن شبابِ الزمانِ رفيفَ الحواشى وإخضالها^{٨٦}
مشَّتْ مصرُ فيه تُعيد العصورَ ويغمزُ ذكرُ الصبَّا بالها
وتُعَرِّضُ في المهرجانِ العظيمِ ضحاها الخوالى وأصالها

* * *

وأقبل (رمسيس) جَمَّ الْجَلالِ وما دان إلا بِشُورَى الأمور
سَنَى المَواكِبِ، مُختالها فحياً بأبلجٍ مثل الصَّباحِ
ولا اختال كِبَرًا، ولا استالها^{٨٧} وأوما إلى ظلماتِ القرونِ
وجوه البلادِ وأرسالها فشقَّ عن الفنِّ أسدالها

* * *

فمن يُبلِّغ (الكرنك) الأقصرى ويسمع ثم بوادي الملوك
ويُنَبِّئ (طيبة) أطلالها وكلَّ مخلدٍ في الدُّمى
ملوك الديار وأقيالها عليها من الوحي ديباجة
هنالك لم نُحِصْ أحوالها تكاد - وإن هي لم تتصل
ألح الزمانُ فما ازدالها وما الفنُّ إلا الصريحُ الجميلُ
بروح - تُحرِّك أوصالها وما هو الإجمالُ العقول
إذا خالط النفس أوحى لها إذا هي أولته إجمالها

* * *

لقد بعث الله عهدَ الفنون تعالوا نرى كيف سوى الصِّفاة
وأخرجت الأرض مَنالها دنت من أبى الهول مشى الرُّؤمِ
فتاةً تُلَمِّمُ سربالها وقد جاب في سَكَرات الكرى
إلى مُقَعِدِ هاج بَلْبالها وألقى على الرمل أرواقه^{٨٨}
عُرُوضَ الليالى وأطوالها يُخال لإطراقه في الرِّمال
وأرسي على الأرض أثقالها فقالت: تحرَّك، فهمَّ الجمادُ
سَطِيح^{٨٩} العصورِ ورَمالها فهل سَكَبَتْ في تجاليده
كأن الجمادَ وعى قالها أتذكرُ إذا غضبت كاللِّبابة^{٩٠}
شُعاعَ الحياةِ وسَيِّالها وألقت بهم في غمار الخطوبِ
ولمَّت من الغيل أشبالها وثاروا، فجَنَّ جُنُونُ الرياحِ
فخاضوا الخطوبَ وأهوالها وزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالها

وبات تَلْمُسُهُم شِيخَهُم
ومن ذا رأى غابَةً كَافَحَتْ
وأهْيَبُ ما كان بأسَ الشُّعُوبِ
حديثَ الشُّعُوبِ وأشغالها
فردَّت من الأسرِ رُئبالها؟
إذا سلَّحَ الحقُّ أعزَّلها

(فؤاد)، ارفع السِّتَرَ عن نهضة
ورُبَّ امرئٍ لم تَلِدْه البلادُ
وليس اللالئُ مِلْكُ البحورِ
وما (كعلئ) ولا جيلُه
بَنَوْا دولةً من بنات الأَسْنِ
لئن جَلَّ البحرُ أسطولُها
فأما أبوكَ فدينا الحضا
تخيّر (إفريقيّا) تاجَه
ركابُك يا (ابن المُعزِّ) الغُيوثُ
إذا سَرَنَ في الأرض نَسِئُها
فلم تبحرِ القصرَ إلا شَفِئَتْ
لقد رَكَّبَ اللهُ في ساعديك
تَخُطُّ وتَبْنِي صُروحَ العلومِ
تقدّم جَدُّك أبطالها
نماها، ونَبَّه أنسالها^{٩١}
ولكنها مِلْكُ من نالها
إذا عَرَضَتْ مصرُ أجيالها
ة لم يشهد (النيلُ) أمثالها
لقد لِسَ البرُّ قَسْطالها^{٩٢}
رة لو سالم الدهرُ إقبالها
وركَّبَ في التاج (صومالها)
ويفضِّلَن في الخيرِ منوالها
ركابَ السماءِ وأفضالها
جُدوبَ العقولِ وإمحالها
يمينَ الجدودِ وشيمالها
وتفتح للشرقِ أقفالها

الحُرِّيَّةُ الحُمْراءُ

قيلت في احتفال بيوم ١٣ نوفمبر

في مهرجانِ الحقِّ أو يومِ الدمِ
يبدو على هاتور نورُ دمائها
يومُ الجهادِ بها كمصدر نهاره
طلعت تَحُجُّ البيتَ فيه كأنها
لم لا تُطِلُّ من السماءِ وإنما
مُهَجُّ من الشهداءِ لم تتكلم
كدمِ الحسينِ على هلالِ محرّمِ
متمايلُ الأعطافِ مُبْتَسِمُ الفمِ
زُهرُ الملائكِ في سماءِ الموسِمِ
بين السحابِ قبورها والأنجمِ؟

ما حلَّ بالبيت المضيِّ المظلم
غُرْسًا أَقِيمَ عَلَى جَوَانِبِ مَاتِمٍ
سَلَوَى تُرْقَدُ جَرْحَهَا كَالْبَلَسَمِ
يَعْلُو فَمَ التَّكْلَى وَثَغَرَ الْأَيْمِ
لِنُظْمَتِ لِلْأَجْيَالِ مَا لَمْ يُنْظَمْ
بَاعَ الْخِيَالِ الْعَبْقَرِيَّ الْمَلْهَمِ
وَالنَّفَى حَالٌ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ
مَثَّلَتْ فِيهَا صُورَةَ الْمُسْتَسْلِمِ
وَحِكْمِيَّتُهُ مُتَغَيِّظًا لَمْ يَكْظَمْ
وُطْنِيَّةٌ بِمُتَّقَفٍ وَمُعْلَمٍ
بِسِوَاهِ جَلٍّ جَلَّالُهُ لَا تَحْتَمِي
يَدُهُ لِنُصْرَتِهَا ثَلَاثَةَ أَهْمِ
كَالسَيْفِ فِي يُمْنَى الْكَمَى الْمُعْلَمِ
مَلِكِ الْبَحَارِ بِكُلِّ قَيْصَرَ مُحْجَمِ
وَالْبَاسِ وَالسُّلْطَانِ دُونَ السُّلَمِ
أَوْحَوْا إِلَى مِصْرَ الْفِتَاةِ: تَقْدَمِي
لِبْنِ اللَّبَاةِ، وَهَاجَ عِرْقُ الضُّيْغِ
حَرِّيَّةٌ صَبَغَتْ أَدِيمَكَ بِالدَّمِ
ضَحَكَتْ أَسْرَةً وَجْهَكَ الْمُتَجَهَّمِ
يَا لَيْتَ مِنْ «سَعْدِ» الْحَمَى لَمْ تَيْتَمِ
لَيْسَ الشُّبُولُ عَنِ الْعَرِينِ بُنُومِ

ولقد شَجاها الغائبون، وراعها
وإذا نظرتَ إلى الحياة وجدتها
لا بُدَّ لِلْحَرِيَّةِ الْحَمْرَاءِ مِنْ
وَتَبَسُّمٍ يَعْلُو أَسْرَتَهَا كَمَا
يَوْمَ الْبَطُولَةِ لَوْ شَهِدْتُ نَهَارَهُ
غَبِنْتُ حَقِيقَتَهُ، وَفَاتَ جَمَالُهَا
لَوْلَا عَوَادِي النَّفْيِ أَوْ عَقْبَاتُهُ
لَجَمَعْتُ أَلْوَانَ الْحَوَادِثِ صُورَةً
وَحَكَيْتُ فِيهَا النَّيْلَ كَاطَمَ غِيْظِهِ
دَعَتِ الْبِلَادَ إِلَى الْغِمَارِ فْغَامَرْتُ
ثَارَتُ عَلَى الْحَامِي الْعَتِيدِ، وَاقْسَمْتُ
نَثَرَ الْكِنَانَةَ رُبُّهَا، وَتَخَيَّرْتُ
مِنْ كُلِّ أَعَزَلَ حَقُّهُ بِيَمِينِهِ
لَمْ يُحْجَمُوا فِي سَاعَةٍ قَدْ أَظْفَرْتُ
وَقَفُوا مَطِيَّهِمُو بِسُلْمِ قَصْرِهِ
وَتَقَدَّمُوا، حَتَّى إِذَا مَا بَلَّغُوا
سَأَلْتُ مِنَ الْغَابِ الشُّبُولُ غَلَا بِهَا
يَوْمَ النُّضَالِ، كَسَتْكَ لَوْنُ جَمَالِهَا
أَصْبَحْتَ مِنْ غُرْرِ الزَّمَانِ، وَأَصْبَحْتَ
وَلَقَدْ يَتِمَّتْ، فَكُنْتَ أَعْظَمَ رَوْعَةٍ
لَيْنَمَ أَبُو الْأَشْبَالِ مِلْءَ جَفُونِهِ

وقال في تكريم الدكتور علي بك إبراهيم الجراح العبقري.

وَحُذُوا الْقِمَّةَ عِلْمًا وَبَيَانًا
لَيْسَ كُلُّ الْخَيْلِ يَشْهَدُنِ الرَّهَانَا
تَمْلَأُ الْمِضْمَارَ مَعْنَى وَعِيَانَا
وَحُذُوا الْمَجْدَ عِنَانًا فَعِنَانَا

ابْتَغُوا نَاصِيَةَ الشَّمْسِ مَكَانًا
وَاطْلُبُوا بِالْعَبْقَرِيَّاتِ الْمَدَى
ابْعَثُوهَا سَابِقَاتٍ نُجْبًا
وِثْبُوا لِلْعَزِّ مِنْ صَهْوَتِهَا

لا تُثَيِّبُهَا عَلَى مَا قَلَّدَتْ مِنْ أَيَادٍ، حَسَدًا أَوْ شَنَانَا

وضئيل من أساة الحيِّ لم
ضامرٍ في سُفْعَةٍ تحسبه
أو طبيبًا أيبًا من «طيبة»
تُنكر الأرض عليه جسمه
نال عرش الطبِّ من «أمحوتب»
يا لأمحوتب من مُسْتَأْلِهِ
خاشعًا لله، لم يُزَهْ، ولم
يلمس القدرة لمسا كلِّما
لو يُرى الله بمصباح لما
في خلالٍ لفتت زَهَرَ الرُّبَى
لو أتاه مُجَعَا حاسدُه
خيرٌ مَنْ عَلم في «القصر» ومَنْ
كلُّ تعلِيمٍ نراه ناقصًا
دَرَكَ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ دَرَجٍ

يُعَنَ باللحم وبالشحم اختزانَا
نَضُو صحراء ارتدى الشمس دِهَانَا
لم تَزَلْ تَنْدَى يداه زَعْفَرَانَا
واسمه أعظمُ منها دَوْرَانَا
وتَلَقَّى من يَدَيْهِ الصَّوْلَجَانَا
لم يلد إلا حوارِيًّا هِجَانَا
يُرْهِق النفس اغترارًا وافتتانَا
قلب الموت وجسَّ الحيوانَا
كان إلا العلمَ جلَّ الله شانَا
وسجايَا أنست الشَّرْبَ الدَّنَانَا
سلَّ من جنب الحسودِ السرطانَا
شقَّ عن مُسْتَتِرِ الداءِ الكِنَانَا
سَلَّمَ رَثَ إذا استعمل خانَا
ومن الرِّفْعَةِ ما حطَّ الدخانَا

لا عِدْمُنَا «السيوطي» يذًا
تَصْرِفِ الْمِشْرَطَ لِلْبُرِّ كَمَا
مَدَّهَا كالأجل المبسوط في
تجد الفولاذ فيها محسنًا
يدُ «إبراهيم» لو جئت لها
لم تَخْطُ للناس يومًا كفنًا
ولقد يُؤسَى ذوو الجرحى بها
نَبَغَ الْجَيْلُ عَلَى مِشْرَطِهَا
لو أتت قبل نضوج الطبِّ ما

خُلِقَتْ لِلْفَتْقِ وَالرَّتْقِ بَنَانَا
صرف الرَّمْحِ إِلَى النصرِ السَّنَانَا
طلب البُرِّ اجتهاذًا وافتنانَا
أخذ الرفقَ عليها واللَّيَانَا
بذبيح الطير عاد الطيرانَا
إنما خاطت بقاءً وكيانَا
من جراح الدهر، أو يُشْفَى الحزانِي
في كفاح الموتِ ضربًا وطعانَا
وَجَدَ التَّنْوِيمُ عَوْنًا فاستعانَا

* * *

يا طِرَازًا يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِ فِي نَوَاجِي مُلْكِهِ أَنَا فَاثَا
مِنْ رِجَالِ خُلُقُوا أَلْوِيَّةً وَنَجُومًا وَغِيوُثًا، وَرَعَانَا
قَادَةَ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَقْرَبُوا طَبَّعَاتِ الْهِنْدِ وَالسُّمُرِ اللَّدَانَا
وَعِذَاءَ الْجِيلِ فَالْجِيلِ وَإِنْ نَسِيَ الْأَجْيَالُ كَالطِّفْلِ اللَّبَانَا
وَهُمُ الْأَبْطَالُ كَانَتْ حَرْبُهُمْ مِنْذُ شَنُوْهَا عَلَى الْجَهْلِ عَوَانَا

* * *

يَا أَخِي — وَالذَّخْرُ فِي الدُّنْيَا أُخْ — حَاضِرُ الْخَيْرِ عَلَى الْخَيْرِ أَعَانَا
لَكَ عِنْدَ ابْنِي — أَوْ عِنْدِي — يَدُ لَسْتُ أَلُوْهَا اِدْكَارًا وَصِيَانَا
حَسَنْتَ مِنْنِي وَمِنْهُ مَوْقِعًا فَجَعَلْنَا حِرْزَهَا الشُّكْرَ الْحُسَانَا
هَلْ تَرَى أَنْتَ؟ فَإِنِّي لَمْ أَجِدْ كَجَمِيلِ الصُّنْعِ بِالشُّكْرِ اقْتِرَانَا
وَإِذَا الدُّنْيَا خَلَّتْ مِنْ خَيْرٍ وَخَلَّتْ مِنْ شَاكِرٍ هَانَتْ هَوَانَا
دَفَعَ اللَّهُ «حُسَيْنًا» فِي يَدِ كَيْدِ الْأَطَافِ رِفْقًا وَاحْتِضَانَا
لَوْ تَنَاوَلْتُ الَّذِي قَدْ لَمَسْتُ مِنْهُ مَا زِدْتُ حِذَارًا وَحَنَانَا
جَرَحُهُ كَانَ بِقَلْبِي، يَا أَبَا لَا أَنْبِيَهُ بِجُرْجِي كَيْفَ كَانَا؟
لَطَفَ اللَّهُ فَعُوفِينَا مَعًا وَارْتَهَنَّا لَكَ بِالشُّكْرِ لِسَانَا

تحية الشاعر

وقال وهي القصيدة التي ألقى في دار الأبرار الملكية في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها

مَرْحَبًا بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهِ وَبِأَنْوَارِهِ وَطِيبِ زَمَانِهِ
رَفَّتِ الْأَرْضُ فِي مَوَاكِبِ آذَا وَشَبَّ الزَّمَانُ فِي مَهْرَجَانِهِ
نَزَلَ السَّهْلُ ضَاكًا الْبِشْرَ يَمْشِي فِيهِ مَشَى الْأَمِيرِ فِي بُسْتَانِهِ
عَادَ حَلْيًا بِرَاحَتِيهِ وَوَشْيًا طَوَّلَ أَنْهَارِهِ وَعَرَّضَ جِنَانِهِ

لف في طَيْلَسَانِهِ طُرَرَ الْأَر
ساحرُ فتنَةِ العيونِ مُبِينُ
عَبْقَرُ الخيالِ، زاد على الطَّيْدِ
صِبْغَةُ اللّهِ! أين منها رفَائِدِ
رَنَمِ الروضِ جَدولاً ونَسِيمًا
وشَدَّتْ في الرُّبَا الرياحينُ هَمَسًا
كلُّ رِيحَانَةٍ بلحنِ كَعْرِيسِ
نَعَمٌ في السماءِ والأَرْضِ شَتَى
أين نورُ الربيعِ من زهرِ الشَّعْـ
سَرْمَدُ الحسنِ والبشاشةِ مهما
حَسَنُ في أوانِهِ كلُّ شَيْءٍ
مَلِكُ ظُلُّهُ على بَبْوَةِ الخُلـ
أَمَرَ اللّهُ بالحَقِيقَةِ والحكـ
لم تَنْزُرْ أُمَّةً إلى الحَقِّ إلا
ليس عَرَفُ النحاسِ أَوْقَعَ منه

ظَلَّلَتْنِي عنايةً من «فؤادِ»
ورعاني، رعى الإلهُ «الفارو»
مَلِكُ النِيلِ من مَصْبِيهِ بالشـ
هو في المُلْكِ بَذْرُهُ الْمُتَجَلَّى
زادَهُ اللّهُ بالنبِياةِ عِزًّا
ظَلَّلَ اللّهُ عَرشَهُ بأمانه
قَ» طفلًا، ويومَ مَرَجُوءِ شانِه
طَّ، إلى مَنبَعِيهِ من سودانِه
حُفَّ بالهَالَتَيْنِ من (برلمانِه)
فوقَ عِزِّ الجلالِ من سلطانِه

منبرُ الحَقِّ في أمانةٍ «سعيدِ»
لم يَرِ الشرقُ داعيًا مثلَ «سعيدِ»
ذَكَرْتُهُ^{٩٤} عَقِيدَةُ النَّاسِ فِيهِ
نهضةً من فَتَى الشيوخِ وروحِ
وقِوامِ الأمورِ في ميزانِه
رَجَّه من بَطاحِه ورِعانِه^{٩٣}
كيف كان الدخولُ في أديانِه
سريًا كالشبابِ في عُنْفوانِه

حَرَكَ الشَّرْقَ مِنْ سَكُونٍ إِلَى الْقَيْدِ وَثَارًا بِهِ عَلَى أَرْسَانَا
وَإِذَا النَفْسُ أَنْهَضَتْ مِنْ مَرِيضٍ دَرَجَ الْبُرءِ فِي قُوَى جُثْمَانِهِ

* * *

يَا عُكَازًا تَأَلَّفَ الشَّرْقُ فِيهِ مِنْ فِلَسْطِينِهِ إِلَى بَغْدَانِهِ
افْتَقَدْنَا الْحَجَّازَ فِيهِ، فَلَمْ نَعُدْ نَزُرْ عَلَى قُسَّهِ وَلَا سَحْبَانِهِ
حَمَلْتُ مِصْرَ دُونَهُ هَيْكَلَ الدِّ يَنْ، وَرَوَّحَ الْبَيَانَ مِنْ فُرْقَانِهِ
وُطِدَتْ فِيكَ مِنْ دَعَائِمِهَا الْفُضْ حَى، وَشَدَّ الْبَيَانَ مِنْ أَرْكَانِهِ
إِنَّمَا أَنْتَ حَلْبَةٌ لَمْ يُسَخَّرْ مَثَلُهَا لِلْكَلامِ يَوْمَ رَهَانِهِ
تَتَبَارَى أَصَائِلُ الشَّامِ فِيهَا وَالْمَذَاكِي الْعِتَاقُ مِنْ لُبْنَانِهِ
قَلَّدْتَنِي الْمُلُوكُ مِنْ لَوْلُؤِ الْبَحْرِ مِنْ آلَاءِهَا وَمِنْ مَرْجَانِهِ
نَحْلَةٌ لَا تَزَالُ فِي الشَّرْقِ مَعْنَى مِنْ بَدَاوَتِهِ وَمِنْ عُمُرَانِهِ
حَنٌّ لِلشَّامِ حِقْبَةً وَإِلَيْهَا فَاتَحُ الْغَرْبَ مِنْ بَنِي مَرْوَانِهِ
وَحَبَّبْتَنِي بِمُبَايٍ فِيهَا يِرَاعًا أَفْرِغِ الْوُدَّ فِيهِ مِنْ عَقِيَانِهِ
لَيْسَ تَلْقَى يِرَاعَهَا الْهِنْدُ إِلَّا فِي ذَرَا الْخُلُقِ أَوْ وَرَاءَ ضَمَانِهِ
أَنْتَضِيهِ انْتِضَاءَ مُوسَى عَصَاهُ يَفْرُقُ الْمُسْتَبِدَّ مِنْ ثَعْبَانِهِ
يَلْتَقِي الْوَحَى مِنْ عَقِيدَةِ حُرٍّ كَالْحَوَارِيِّ فِي مَدَى إِيْمَانِهِ
غَيْرَ بَاغٍ إِذَا تَطَلَّبَ حَقًّا أَوْ لَنِيْمِ اللَّجَاجِ فِي عُدْوَانِهِ
مُوكِبُ الشَّعْرِ حَرَكَ الْمَتَنَبَّى فِي ثَرَاهُ، وَهَزَّ مِنْ حَسَّانِهِ
شُرِفَتْ مِصْرُ بِالشَّمُوسِ مِنَ الشَّرِّ قَ نَجُومِ الْبَيَانَ مِنْ أَعْيَانِهِ
قَدْ عَرَفْنَا بِنَجْمِهِ كُلَّ أَفْقٍ وَاسْتَبْنَا الْكِتَابَ مِنْ عُنوانِهِ
لَسْتُ أَنْسى يَدًا لِإِخْوَانِ صَدَقٍ مَنْحُونِي جِزَاءَ مَا لَمْ أَعَانِهِ
رَبُّ سَامِي الْبَيَانَ نَبَأَ شَأْنِي أَنَا أَسْمُو إِلَى نَبَاهَةِ شَانِهِ
كَانَ بِالسَّبْقِ وَالْمِيَادِينِ أَوْلَى لَوْ جَرَى الْحِظُّ فِي سَوَاءِ عَنَانِهِ
غَنِمًا أَظْهَرُوا يَدَ اللَّهِ عِنْدِي وَأَذْعُوا الْجَمِيلَ مِنْ إِحْسَانِهِ
مَا الرِّحِيقُ الَّذِي يَذُوقُونَ مِنْ كُرٍّ مِي، وَإِنْ عِشْتُ طَائِفًا بِدَنَانِهِ
وَهَبُونِي الْحَمَامَ لَذَّةَ سَجْعٍ أَيْنَ فَضْلُ الْحَمَامِ فِي تَحْنَانِهِ؟
وَتَرَّ فِي اللَّهَاءِ،^{٩٥} مَا لِلْمُغْنَى مِنْ يَدٍ فِي صَفَائِهِ وَلِيَانِهِ

* * *

رُبَّ جَارٍ تَلَفَّتَتْ مَصْرُ تُولِيهِ هـ سؤَالُ الكَرِيمِ عَن جِيرَانِهِ
بَعَثْتَنِي مَعَزِّبًا بِمَا قَى وَطَنِي، أَوْ مُهَنِّئًا بِلِسَانِهِ
كَانَ شَعْرَى الْغَنَاءِ فِي فَرْحِ الشَّرِّ ق، وَكَانَ الْعَزَاءُ فِي أَحْزَانِهِ
قَدْ قَضَى اللَّهُ أَنْ يُوَلِّفَنَا الْجَرَّ حُ، وَأَنْ نَلْتَقِيَ عَلَى أَشْجَانِهِ
كَلِمَا أَنْ بِالْعِرَاقِ جَرِيحُ لَمَسَ الشَّرْقُ جَنْبَهُ فِي عُمَانِهِ
وَعَلَيْنَا كَمَا عَلَيْكُمْ حَدِيدُ تَتَنَزَّى اللَّيْثُ فِي قَضْبَانِهِ
نَحْنُ فِي الْفَقْهِ بِالْذِيَارِ سَوَاءُ كُلُّنَا مَشْفُوقٌ عَلَى أَوْطَانِهِ

هوامش

- (١) المهار: جمع مهر، والعرايب جمع عرييد بالكسر، والعرييد الكثير العريدة.
- (٢) ترفع: اخذاً من قولهم: شالت الناقة ذنبها إذا رفعتة.
- (٣) الأيمان جمع يمين: وهي اليد اليمنى.
- (٤) القشيب: الجديد.
- (٥) الإصليت: السيف.
- (٦) ابن البتول هو المسيح عليه السلام.
- (٧) السبحة: بضمّتين: الجلال.
- (٨) السمّت بالفتح: هيئة أهل الخير.
- (٩) عطل النحر من الحلى: خلا.
- (١٠) المروت: جمع مرت وهي المفازة بلا نبات.
- (١١) فتق المسك: استخرجه بشئ يدخله عليه، والفتيت: المفتوت.
- (١٢) يقوته: يطعمه.
- (١٣) الصفا: الصخر.
- (١٤) الجرس: الصوت.
- (١٥) الوضع: حلى من الفضة.
- (١٦) تصيته: تجعله يصوت.

- (١٧) موسى نمور بك رئيس مجلس النواب اللبناني.
(١٨) استذرى: استظل.
(١٩) صلاح: اسم لمكة.
(٢٠) الحجول: الخلاخيل.
(٢١) النضاح: الرامي بالنبل وهو كناية عن الحامي والدافع.
(٢٢) المنصاح: الخالص.
(٢٣) يقال سجع خلقه: سهل ولان.
(٢٤) الصفح: السيوف.
(٢٥) صباح هنا: أي حرب.
(٢٦) السميت: هيئة أهل الخير.
(٢٧) الصفاح: حجارة عريضة.
(٢٨) طلعت بك حرب مدير بنك مصر.
(٢٩) العد: الماء الجارى له مادة لا تنقطع.
(٣٠) البند: العلم.
(٣١) تدهده: انقض وتدرج.
(٣٢) بنتاءور: شاعر مصرى قديم.
(٣٣) بد الشيء: فرقه، وهنا بمعنى أراقها.
(٣٤) الجعد: الكريم.
(٣٥) الرئد: الترب.
(٣٦) اللد: الأشداء في الخصومة.
(٣٧) الرد: العماد.
(٣٨) الحمراء: قصر عظيم بالأندلس.
(٣٩) وادى الطلح: منتزه بأشبيلة للمعتمد بن عباد.
(٤٠) الحبر: جمع حبرة، وهي ضرب من برود اليمن.
(٤١) الصل: الثعبان.
(٤٢) الفقر: كل كلام مختار نظما كان أو نثرا.
(٤٣) يمشى الخمر: جملة تقال لمن يختال صاحبه.
(٤٤) الكسر: جمع كسرة: وهي القطعة من الشيء.

الشوقيات

- (٤٥) الفل: الكسر في حد السيف.
- (٤٦) الطم: البحر.
- (٤٧) العلز: القلق والهلع من الموت.
- (٤٨) البدر: جمع بدرة، وهي عشرة آلاف درهم.
- (٤٩) العصا: الفرس المشهورة التي ورد ذكرها في مصرع الزباء، وقد كانت لقصير الذي يقول فيه المثل «لأمر ما جدع قصير أنفه».
- (٥٠) وهي زرقاء اليمامة المشهورة بقوة البصر.
- (٥١) السدر: البحر.
- (٥٢) الخادر: كناية عن أسد، يقال أسد خادر: مقيم في خدره.
- (٥٣) الوقاح: ذو الوقاحة، يقال امرأة وقاح الوجه.
- (٥٤) بحر الخزر: هو بحر قزوين، والخزر أيضا: جيل من الناس.
- (٥٥) الحين: هلاك.
- (٥٦) الشكير: صغار الريش بين كبارهم.
- (٥٧) يتنزي: يتوثب.
- (٥٨) المرعس: من رعى الرجل: إذا مشى مشيا ضعيفا من الإعياء.
- (٥٩) القعس: ضد الحذب، وهو نتوء الصدر.
- (٦٠) العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب.
- (٦١) لم ينبجس: لم يتفجر.
- (٦٢) يقال جرح نغاز: أي جياش بالدم.
- (٦٣) رسف مشى مشية المقيد.
- (٦٤) ابني سمير: الليل والنهار.
- (٦٥) هو عبد الرحمن الداخل أول ملوك بني أمية في الأندلس.
- (٦٦) يعني بالسبط الحسين بن علي صلوات الله عليه.
- (٦٧) يعني بمروان: بني مروان.
- (٦٨) الأظلم هنا: هو أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس وقد سلب بني أمية ملكهم.
- (٦٩) نارت الفتنة: وقعت وانتشرت.
- (٧٠) غس: دخل ومضى.

- (٧١) الأطلس: الذئب.
(٧٢) المعطس: الأنف.
(٧٣) البيهس: الأسد.
(٧٤) شام: سل.
(٧٥) هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي.
(٧٦) المرس: الشديد المجرب في الحروب، يقال: أنه لمرس حذر.
(٧٧) الخلس: جمع خلسة وهي الفرصة.
(٧٨) الملك الروح: جبريل.
(٧٩) الجام: الكأس.
(٨٠) اللعس: سواد مستحسن في الشفة.
(٨١) السقط: جناح الطائر.
(٨٢) العقاب: اسم راية الداخل.
(٨٣) هضبتان في زحلة.
(٨٤) الحجال: جمع حجلة، وهي بيت العروس.
(٨٥) الأحجال: الخلاخيل.
(٨٦) أخضل الشيء: ابتل.
(٨٧) استالها: أصله استاله، أي تشبه بالإله.
(٨٨) يقال ألقى أرواقه بالمكان: نزل به وضرب خيمته.
(٨٩) سطيح: اسم لكاهن من كهان العرب، والسطيح أيضاً: البطيء القيام لضعف أو زمانة.
(٩٠) اللبابة: لغة في اللبوة.
(٩١) أنسال: جمع نسل.
(٩٢) القسطال: غبار الحرب.
(٩٣) الرعان: رءوس الجبال.
(٩٤) الضمير عائد على الشرق.
(٩٥) اللهاء: اللحم المشرفة على الحلق في أقصى الفم.

الباب الثالث

سليمان باشا أباطة^١

مَنْ ظَنَّ بَعْدَكَ أَنْ يَقُولَ رِثَاءً
فَجَعَلَ الْمَكَارِمَ فَاجِعٌ فِي رَبِّهَا
وَنَعَى النِّعَاتُ إِلَى الْمَرْوَةِ كَنْزَهَا
أَبَا مُحَمَّدٍ، اتَّيَدُ فِي ذَا النُّوَى
وَاسْتَبَقَ عِزُّهُمْ (بِطَهْرَاءِ) الَّتِي
أَدَجَى بِهَا لَيْلُ الْخُطُوبِ، وَطَالَمَا
وَإِذَا سَلِيمَانُ اسْتَقَلَّ مَحَلَّةً
فَانْظُرْ مِنَ الْأَعْوَادِ حَوْلَكَ هَلْ تَرَى
سَارَتْ جَنَازَةٌ كُلُّ فَضْلٍ فِي الْوَرَى
وَتَيَّتَمَ الْأَيْتَامُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلَقَدْ عَهْدَتُكَ لَا تُضَيِّعَ رَاجِيًا
وَعَلِمْتُ أَنَّكَ مَنْ يَوَدُّ وَمَنْ يَفِي
وَذَكَرْتُ سَعِيكَ لِي مَرِيضًا فَانِيًا

فَلْيَرِثْ مِنْ هَذَا الْوَرَى مَنْ شَاءَ
وَالْمَجْدَ فِي بَانِيهِ، وَالْعُلِيَاءَ
وَالِىَ الْفَضَائِلِ نَجْمَهَا الْوَضَاءَ
وَارْفُقْ بِأَلِّكَ، وَارْحَمْ الْأَبْنَاءَ
كَانُوا النُّجُومَ بِهَا وَكُنْتَ سَمَاءً^١
مُلِئْتُ مَنَازِلُهَا سَنَى وَسَنَاءً^٢
كَانَتْ بِسَاطًا لِلْنَدَى وَرَجَاءً^٣
مَنْ بَعْدَ طَبِّكَ لِلْعُفَاةِ دَوَاءً^٤
لَمَّا رَكِبْتَ الْآلَةَ الْحَدَبَاءَ^٥
وَرَمَى الزَّمَانُ بِصَرْفِهِ الْفُقَرَاءَ^٦
وَالْيَوْمَ ضَاعَ الْكُلُّ فِيكَ رَجَاءً
فَقَفَ الْغَدَاةُ لَوْ اسْتَطَعْتَ وَفَاءً
فَجَعَلْتُ سَعْيِي بِالرِّثَاءِ جَزَاءً

^١ سليمان باشا أباطة: أحد سعاة مصر الكبار، وكان في حياته كبير الأسرة الأباضية الشهيرة، وقد أُسْنِدَتْ إليه وزارة المعارف العمومية سنة ١٨٨٢، وتوفي سنة ١٩٠١.

والمرء يُذَكَّرُ بالجمائل بعده فارفع لِذِكْرِكَ بالجميل بِناء^٧
واعلمُ بأنك سوف تُذَكَّرُ مرَّةً فيقالُ: أحسنَ، أو يقالُ: أساءَ
أَبْنِيهِ، كونوا لِلْعَدَى مِنْ بعده كيداً، وكونوا لِلْوَلِيِّ عَزَاءً
وتجلَّذُوا لِلخُطْبِ مثلَ ثباته أيامَ كان يُدافع الأرزاءَ
والله ما مات الوزيرُ وكنتمُ فوقَ الترابِ أعزَّةً أحياءَ

هوامش

- (١) طهراء: علم على بلد الفقيد، وهي من أعمال إقليم الشرقية بمصر.
- (٢) تدجى الليل وأدجى: كلاهما بمعنى أظلم، والسنى — بالقصر —: الضوء، والسناء — بالمد — الرفعة.
- (٣) المحلة في الأصل هي الناحية التي ينزل بها القوم، ولا تقل عن مائة بيت، والمراد هنا بقوله: «استقلَّ محلة» أي أنه كان عميدها المنفرد بزعامتها وبالعامل لرفعته.
- (٤) الأعواد: جمع عود، يطلق على المنبر، وعلى السرير للحي أو الميت. كان رجل من العرب يلقَّب «ذا الأعواد»؛ لأنه كان يحمل دائماً في سرير، والشعراء العظماء يستعملون الأعواد للموتى، وقَلَّما يستعملون النعش؛ تعظيماً للموت وتكريماً للميت. قال الشريف الرضي: رأيت مَنْ حملوا على الأعواد.. إلخ. والعفاة: جمع عافٍ، وهو كل طالب فضل أو رزق.
- (٥) الجنازة بكسر الجيم وفتحها، وقيل: بالكسر: هي الميت، وبالفتح هي النعش، وقيل بالعكس، وأرجح تعريف يتناسب مع مألوف عصرنا هو إطلاقها بالكسر على سرير الميت والمشييعين له، والآلة الحدباء: كناية عن النعش، وشكله أحذب كما هو معروف.
- (٦) صرف الزمان: نوائبه وحدثاته.
- (٧) جمائل: جمع جميلة، والمقصود أن المرء يذكر بصنيعته الجميلة، أو بمأثرته الجميلة، فحذف الموصوف، ثم جمع الصفة واستعملها. أقول: وهذه صنعة قصد بها التجميل الفني في الكلام بذكر الجمائل والجميل في البيت.

مصطفى باشا فهمي^١

يا أيها الناعي أبا الوزراء
حُثَّ البريدَ مشارقًا ومغاربًا
واستبكِ هذا الناسَ دمعا أو دَمًا
لم تنع للأحياء غيرَ ذخيرةِ
رُزْءِ البريةِ في الوزيرِ زيادةً
نَهَبَتْ على أثرِ المشيِّعِ دولةً
ندمانُ (إسماعيلَ) في آثاره
وُلِدوا على راحِ العُلا، وترعرعوا
أودى الردى بمُهَذَّبٍ لا تنتهي
صافي الأديم، أغرَّ، أبْلَجَ لم يزد
مُتَجَنَّبِ الخِيلاءِ إلا عِزَّةً
عَفَّ السرائرِ والمَلاحِظِ والخطا
متدرِّعٍ صَبَرَ الكرامِ على الأذى

هذا أوانُ جلائلِ الأنباءِ
واركبُ جناحِ البرقِ في الأرجاءِ^١
فاليومُ يومُ مدامعِ ودماءِ
ولَّتْ، وغيرَ بَقِيَّةِ الكُبراءِ
فيما أَلَمَ بها منَ الأرزاءِ
برجالها وكرائمِ الأشياءِ
ذهبوا، وتلك صُبابَةُ الندماءِ^٢
في نعمةِ الأملاكِ والأمراءِ
إلا إليه شمائلُ الرؤساءِ
في الشَّيبِ غيرَ جلالَةٍ ورُواءِ^٣
في العِزِّ حُسْنُ ليس في الخِيلاءِ
نَزِهَ الخلائقِ طاهرِ الأهواءِ^٤
إن الكرامَ مشاغلُ السفهاءِ

^١ مصطفى باشا فهمي: كان إلهامًا موفقًا لأمير الشعراء حين كنَّاه بأبي الوزراء؛ فهو والد الزعيمة صفية زغلول زوجة الزعيم الخالد سعد زغلول، وكان ياورًا للخديو إسماعيل، ووزيرًا في عهد توفيق، فرئيسًا للوزراء، ثم استقال، ثم عاد للرئاسة ولم يتركها إلا لمرضه قبيل الحرب، وقد توفي أول سنة ١٩١٤ م.

والحكمُ للتاريخ في الآراءِ
 مثلُ العقيدةِ فوق كلِّ مرأى^٥
 كشفَ الزمانُ مواقفَ النظراءِ
 أنْدَى لقبرِكَ من زلالِ الماءِ
 أم لم يكن إلا قليلَ بقاء؟
 مرَّت بك السبعونَ مرَّ عشاءٍ؟^٦
 عادي السنين، وعاثَ عادي الداء؟
 حتى يغيبَ به بغير دواءِ
 من عَفَّةٍ، وتكرُّمٍ، وحياءٍ^٧
 وطوى محاسنَ مَسْمَحٍ معطاءٍ^٨
 ذلَّلَتْه، ونهضتْ بالأعباءِ
 من نَخْوَةٍ وَحَمِيَّةٍ وإباءٍ^٩
 ويُسئى للأمواتِ والأحياءِ
 أودتْ بهذي الطعنةِ النَجْلاءِ^{١٠}
 لبَكَتْ عليك بمَدَمَعِ الخنساءِ^{١١}
 إلا غبارَ كَتِيبَةٍ ولواء؟
 بعدَ الفوارس من بني حَوَّاءِ
 في مُلْكِهِ من صَوْلَةٍ وثرَاءِ
 أو حافظٍ لِعَهودِهِ مِيفاءٍ^{١٢}
 حَرَمَ المسيحِ ولا حمى العذراءِ^{١٣}
 إثمٌ عواقبها على العلماءِ
 والحاملاتِ التُّكُلَ واليُتَماءِ^{١٤}
 لهم، وهُلْكُ تحتَ كلِّ سماءِ
 كرمٌ يليقُ بهم وَمَحْضُ سخاءٍ^{١٥}
 لم يَتَّخِذْ عِرْسًا سوى الهَيْجاءِ^{١٦}
 حُبِّ الدِّيارِ وبِغْضَةِ الأعداءِ
 أن الدماءَ مُهورَةُ العلَّيَاءِ

نقموا عليه رأيَه وصَنيعَه
 والرأيُ إنْ أَخْلَصَتْ فيه سريرةٌ
 وإذا الرجالُ على الأمور تعاقبوا
 يا أيُّها الشيخُ الكريمُ، تحيةٌ
 هذا المصيرُ، أكان طولَ سلامةٍ
 ماذا انتَفَاعُك بالليالي بعد ما
 أو بالحياة، وقد مشى في صفوها
 مَنْ لم يُطَبِّبْهُ الشبابُ فداؤه
 قسما تُ وجهك في الترابِ ذخائرُ
 ولكم أَعَارَ على مُحَيَّا ماجدٍ
 كم مَوْقِفٍ صعبٍ على مَنْ قامه
 كَبُرَ الغضنفرِ يومَ ذلك زاده
 مَنْ يَكْذِبُ التاريخَ يَكْذِبُ رَبَّهُ
 السلم لو لم تُودِ أُمِّسِ بجُرجِها
 لو أُخِرَتْ في العيشِ بعدكَ ساعةٌ
 انفض غبارُكَ عنك، وانظر، هل ترى
 يا ويح وجهِ الأرض: أصبحَ مَاتَمًا
 مِنْ ذائِدٍ عن حَوْضِهِ، أو زائِدٍ
 أو مانعٍ جارا يُناضلُ دونَه
 يتقاذفون بذاتِ هولٍ، لم تَهَبْ
 من مُحدَثاتِ العِلْمِ، إلا أنها
 لهفي على رُكنِ الشيوخِ مُهدِّمًا
 وعلى الشبابِ بكلِّ أَرْضٍ مَضْرَعٌ
 خرجوا إلى الأوطان من أرواحهم
 من كلِّ بانٍ بالمنيَّةِ في الصِّبا
 المُرْضعاتُ سَكَبْنَ في وجدانه
 وقررنَ في أُنْذنيه يومَ فِطامِهِ

أَبَا البناتِ، رُزِقَتْهُنَّ كَرَائِمًا
لا تذهبنَّ على الذكورِ بحسرةٍ
وأرى بُنَاةَ المجدِ يَثْلُمُ مجدهم
إن البناتِ ذخائرٌ من رَحمةٍ
والساهراتُ لِعَلَّةٍ أو كِبَرَةٍ
والباقياتُ كَ حينَ ينقطعُ البكا
والذاكراتُ كَ ما حَيَّينَ تحدُّنا
بالأمسِ عَزَاهنَّ فيكَ عَقائلُ
وأبيكَ ما الدنيا سوى معروفِها
أَجَزَعَنَ أن يجري عليهنَّ الذي
عذراً لهن إذا ذَهَبْنَ مع الأسَى
ما كُلُّ نِي وَلَدٍ يُسَمَّى والدًا
هَبْنَهُنَّ في عقل الرجال وحلمهم

وَرُزِقَتْ في أَصهارِكَ الكُرماءِ
الذَّكْرُ نَعَم سُلَالَةُ العُظماءِ
ما خَلَفُوا من طالِحٍ وَغُثَاءِ^{١٧}
وكنوزُ حَبٍّ صادقٍ وَوَفَاءِ
والصابراتُ لشدَّةٍ وبِلاءِ
والزائراتُ كَ في العَراءِ النَّائِي^{١٨}
بسَوَالِفِ الحُرَمَاتِ والآلِ
واليومَ جامَلَهُنَّ فيكَ رِثائِي
والبرِّ، كُلُّ صَنِيعَةٍ بِجِزاءِ
من قبلهنَّ جرى على «الزَهراءِ»؟^{١٩}
وطلبن عندَ الدمعِ بَعْضَ عَزاءِ
كم من أبٍ كالصخرةِ الصَّمَاءِ
أَقْلُوبُهُنَّ سوى قلوبِ نِساءٍ؟

هوامش

(١) البريد: كلمة فارسية، معناها القطع، كانوا يقطعون أذنان وأعراف الخيل المستعملة لنقل رسائلهم؛ علامة لها حتى لا يعوقها أحد في الطريق، وأول اصطناع العرب لهذه الطريقة كان في زمن معاوية، وكانوا يُسمُّون الخيل المستعملة في ذلك خيل البريد، ونحن نطلق كلمة البريد على رسائل البوستة وغيرها كما هو معروف، والمقصود بقوله: «حث البريد» «واركب جناح البرق»: هو الأمر للناعي بإذاعة النعي في الدنيا بأسرع وسائل الإذاعة، والغرض من ذلك هو إظهار ما للنعي من قيمة وخطر وعلو شأن.

(٢) الندمان — بفتح النون الأولى — جمع نديم، وهو الظريف الكيس، أو المُجَالِس على الشراب. وإسماعيل: هو سمو الخديو إسماعيل.

(٣) الرواء في المرء: هو مظهر السيادة والعظمة.

(٤) الملاحظ: جمع ملحظ: اسم مكان لما تقع عليه اللحاظ. يقول: إنه عفيف القلب، وعفيف الأعين فلا يقع لحظه على الريب.

(٥) المرء: الجد.

(٦) يقصد سبعين عامًا، ولكنه في استعمال لفظ السبعين يجري مجرى العرب الفصحاء في استعمال هذا اللفظ للدلالة على الكثرة فقط لا العدد بعينه، وفي هذا الباب جاء القرآن الكريم (إن تستغفر لهم سبعين مرة) فليس المقصود عدد الاستغفار، ولكن يراد الدلالة على كثرتة.

(٧) القسمات: ملامح وتقاسيم الوجه.

(٨) مسمح — بفتح — واسع الساحة. وفي القاموس المحيط: «يقال إن فيه لمسمحًا كمسكن. أي متسعًا»، والمعطاء: كثير العطاء.

(٩) الغضنفر: اسم من أسماء الأسد.

(١٠) يشير إلى اتفاق موته مع نشوب الحرب العالمية، كأنه يقول: إن اتفاق موت المرثي مع نشوب الحرب لم يكن إلا لأن المتوفى كان سلمًا لقومه يشبه السلم العام للناس، فهو والسلم توأمان.

(١١) يقول في هذا البيت: إن السلم لو عاشت بعد الفقيـد ساعة لبكت عليه بدمع الخنساء، وهي شاعرة عاشت في صدر الإسلام اشتهرت بمراثيها في أخيها صخر، وهذا البيت تأكيد لمعنى البيت قبله.

(١٢) ميفاء: كثير الوفاء.

(١٣) بذات هول: أي مقذوفات موصوفة بأنها ذات هول، وهذا من باب إقامة الصفة مقام الموصوف.

(١٤) الثكل: فقد الأبناء، واليتماء: من اليتيم، وهو في الناس فقد الأب، ويكون في غير الناس فقد الأم.

(١٥) المحض: الخالص من كل شيء.

(١٦) يقال: بنى على فلانة، إذا اتخذها زوجة، والعرس بكسر العين: الزوجة، يصف هذا الشباب السخي بروحه للأوطان بأنه يألف الحروب، ويحبها كما يحب غيره من الناس الزوجات والعرائس والعيشة الوادعة.

(١٧) الغناء، بضم الغين: الفاسد.

(١٨) العراء النائي: الخلاء البعيد؛ ويعني به هنا القبور.

(١٩) الزهراء: فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، والذي جرى عليها هو موت أبيها سيد الخلق ﷺ.

أبو هيف بك^١

اجْعَلْ رِثَاءَكَ لِلرِّجَالِ جَزَاءَ
إِنَّ الدِّيَارَ تُرِيقُ مَاءَ شُئُونِهَا
تُكَلُّ الرِّجَالِ مِنَ الْبَنِينِ، وَإِنَّمَا
يَجْزَعُنَ لِلْعَلَمِ الْكَبِيرِ إِذَا هَوَى
عَلَمُ الشَّرِيعَةِ أَدْرَكَتُهُ شَرِيعَةٌ
عَانِي قَضَاءَ الْأَرْضِ عِلْمٌ مُحْصَلٌ
وَمَضَى وَفِيهِ مِنَ الشَّبَابِ بَقِيَّةٌ
إِنَّ الشَّبَابَ يُحِبُّ جَمًّا حَافِلًا
بِالْأَمْسِ كَانَتْ لَابَنٍ هَيْفٍ غَضْبَةٌ
مَسَّتِ الْبِلَادُ إِلَى رِسَالَةِ (مَلَنَرِ)
فَلَمَحَتْ أَعْرَجٌ فِي زَوَايَا الْحَقِّ لَمْ
ارْتَدَّتِ الْعَاهَاتُ عَنْ أَخْلَاقِهِ
عَطَفَتْهُ عَطْفَ الْقَوْسِ يَوْمَ رِمَايَةِ
وَابْعَثْهُ لِلْوَطَنِ الْحَزِينِ عَزَاءَ
كَالْأُمَهَاتِ وَتَنْدُبُ الْأَبْنَاءَ^١
تَكَلُّ الْمَمَالِكِ فَقَدْهَا الْعُلَمَاءُ
جَزَعَ الْكَتَائِبِ قَدْ فَقَدْنَ لَوَاءَ^٢
لِلْمَوْتِ يَنْظِمُ حَكْمُهَا الْأَحْيَاءَ^٣
وَالْيَوْمَ عَالِجٌ لِلسَّمَاءِ قَضَاءُ
لِلنَّفْعِ أَرْجَى مَا تَكُونُ بَقَاءُ
وَتُحِبُّ أَيَّامُ الشَّبَابِ مِلَاءُ^٤
لِلْحَقِّ نَذْغُهَا يَدًا بَيَاضًا^٥
وَتَحَقَّقَتْ أَرْضًا لَهَا وَسْمَاءُ^٦
أَعْلَمَ عَلَيْهِ ذِمَّةٌ عَرْجَاءُ^٧
لِسُموهِنَّ وَحَلَّتِ الْأَعْضَاءُ
وَتَنَّتْهُ كَالْمَاضِي، فَزَادَ مَضَاءُ^٨

^١ هو فقيه العلم والقانون عبد الحميد بك أبو هيف، شغل منصب الأستاذ بكلية الحقوق، ومنصب القيم على دار الكتب المصرية، وقد وقف في معارضة مشروع ملنر موقفًا قانونيًا لامعًا؛ فاقترن اسمه من ذلك الحين بأعلام المجاهدين الكبار في قضية البلاد، وقد توفي سنة ١٩٢٦.

سَبَقَ الحُوءَ فَأَخْرَجَ الرَّقْطَاءَ^٩
 يَتَلَمَّسُونَ لَهَا السُّتُورَ رِيَاءَ
 راحوا إليك فحَسَنُوهُ مَسَاءَ
 لِلْمُدْلِجِينَ مَنَارَةً زَهْرَاءَ^{١٠}
 إِلَّا ظِمَاءً يَنْزِلُونَ رِوَاءَ^{١١}
 وَتُسَامِرُ الحُكَمَاءَ والشُّعْرَاءَ
 بِالْجَاهِلِينَ تَرُدُّهُمْ عُقْلَاءَ
 مَجْمُوعَةً، وَأَتَمَّهَا أَجْزَاءَ
 مِنْ كُلِّ أَعْلَاقِ الْكَنُوزِ خَلَاءَ^{١٢}
 فَوَجَدْتُ فِيَّ وَفِي الشَّبَابِ وَفَاءَ
 يَكْسُو عِظَامَكَ فِي الْبَلَى السَّرَاءَ؟^{١٣}
 مَلْمُومَةً، وَتَرُ الصَّفُوفَ سَوَاءَ
 دُونَ (القَضِيَّةِ) عَرْضُهُ وَفِدَاءَ
 وَتَأَلَّفَ الْأَحْزَابَ وَالزُّعَمَاءَ
 خَلَفَ الْوِدَادُ الْحَقْدَ وَالْبَغْضَاءَ
 مَنْ خَالَفَ الْأَعْمَامَ وَالْآبَاءَ
 يَجِدُونَ إِلَّا الصَّفْحَ وَالْإِغْضَاءَ
 حَتَّى تَرَاهُمْ بَيْنَهُمْ رُحَمَاءَ
 خُلَفَ يُعِيدُ وَيُبْدِي الشَّحْنَاءَ
 إِنْ الْعَقُولُ سَتَقْهَرُ الْأَهْوَاءَ
 اللَّهُ هَيَّأَهَا لَنَا مَا شَاءَ^{١٤}
 شَتَّى، وَقَوَّى حَوْلَهُ الضُّعْفَاءَ
 وَاسْتَقْبَلَتْ رِيحَ الْأُمُورِ رُخَاءَ
 تَطَأَ الْعَوَاصِفَ فِيهِ وَالْأَنْوَاءَ
 تُلْقِي الرِّجَاءَ عَلَيْهِ وَالْأَعْبَاءَ
 وَاجْعَلْ مَلَاكَ شِرَاعِهَا الْأَكْفَاءَ^{١٥}
 يَزِنُ الرِّجَالَ إِذَا اخْتِيَارَكَ سَاءَ؟
 يُبْقِي عَلَى اسْمِكَ فِي الْعُصُورِ ثَنَاءَ

لَمَّا رَأَى (التَّقْرِيرَ) يَنْفُثُ سُمَّهُ
 هَتَكَ الْحِمَايَةَ وَالرِّجَالَ وَرَاءَهَا
 مَا قَبَّحُوا بِالصَّبْحِ مِنْ أَشْبَاحِهَا
 يَا قِيَمَ الدَّارِ الَّتِي قَدْ أَخْرَجَتْ
 وَتَرَى لَدَيْهَا الْوَارِدِينَ، فَلَا تَرَى
 وَتُجَالِسُ الْعُلَمَاءَ فِي حُجْرَاتِهَا
 تَكْفِيكَ شَيْطَانَ الْفِرَاقِ، وَتَعْتَنِي
 دَارُ الذِّخَائِرِ كُنْتُ أَكْمَلَ كُنْتِهَا
 لَمَّا خَلْتُ مِنْ كَنْزِ عِلْمِكَ أَصْبَحْتُ
 هَرَّ الشَّبَابِ إِلَى رِثَائِكَ خَاطِرِي
 (عَبْدُ الْحَمِيدِ)، أَلَا أُسْرُكُ حَادِثًا
 قُمْ مِنْ صَفُوفِ الْحَقِّ تَلَقَّ كَتِيبَةً
 وَتَرِ الْكِنَانَةَ شَيْبَهَا وَشَبَابَهَا
 جَمَعَ السَّلَامُ الصُّحُفَ مِنْ غَارَاتِهَا
 فِي كُلِّ وَجْدَانٍ وَكُلِّ سَرِيرَةٍ
 وَغَدَا إِلَى دِينِ الْعَشِيرَةِ يَنْتَهِي
 لَا يَحْجُبُونَ عَلَى تَجَنُّيهِمْ، وَلَا
 وَالْأَهْلُ لَا أَهْلًا بِحَبْلِ وَلَا تُهْمُ
 كَذِبِ الْمُرِيبِ يَقُولُ: بَعْدَ غَدٍ لَنَا
 قَلْبِي يُحَدِّثُنِي وَلَيْسَ بِخَائِنِي
 يَا (سَعْدُ)، قَدْ جَرَتْ الْأُمُورُ لَغَايَةً
 سُبْحَانَهُ جَمَعَ الْقُلُوبَ مِنَ الْهَوَى
 الْفُلُكُ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسَرُّ أَمْرُهَا
 وَتَأَهَّبَتْ بِكَ تَسْتَعِدُّ لَزَاخِرِ
 رَجَعَتْ بِرَاكِبِهَا إِلَى رُبَّانِهَا
 فَاشْدُدْ بِأَرْبَابِ النُّهَى سُكَّانَهَا
 مَنْ ذَا الَّذِي يَخْتَارُ أَهْلَ الْفَضْلِ أَوْ
 أَخْرَجَ لِأَبْنَاءِ الْحَضَارَةِ مَجْلِسًا

هوامش

- (١) ماء الشئون: الدموع.
- (٢) الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجماعة أو الفرقة من الجيش لها لواء؛ أي رئيس تلتف وحدتها حوله.
- (٣) الشريعة: القانون.
- (٤) الملاء: الأغنياء الممولون، الواحد منهم مليء، ومن معاني الملاء أيضاً: الحسنو القضاء. يقول: إن الشباب يحب كثيراً على أي حال، ولكن أيام الشباب يحبون أكثر وهن في غنى، من المال الكثير، ومن تولي المناصب، كالحال في شباب الفقيد.
- (٥) يريد غضبته على مشروع ملنر، وموقفه في طليعة معارضييه.
- (٦) اللورد ملنر: هو أحد وزراء إنجلترا، ورسالته التي مشت البلاد إليها وتحفّزت لها: هي تقريره المشهور، بُعثَ من لندن مع أربعة من رجال مصر الساسة، وكادت البلاد تتأثر بهذا المشروع، لولا الفقيد ومعه نفر قليل جداً قاموا بحملتهم ضده، وفي هذه الحملة نشر الفقيد بحثاً قانونية في تنفيذ المشروع، كانت من أهم مراجع رجال السياسة في رفضه بعد.
- (٧) كانت ساق الفقيد مبتورة، وكان يمشي على ساق صناعية.
- (٨) في هذا البيت وصف لهيئة الأعرج، بلغ من جماله أنه قد يحبب المشية العرجاء للناس، فتأمل. والماضي: السيف.
- (٩) قوله: «سبق الحواة فأخرج الرقطاء» لا يمكن أن يكون هناك أبلغ في الإعجاز وأدق في الإيجاز من هذا الكلام، فقوله: «سبق الحواة» صورة كاملة، تريك كيف وثب الفقيد فوقف أمام المشروع، كما يثب الحاوي، فيقف أمام جحر الحية. وقوله: «فأخرج الرقطاء» أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع؛ فقد نبّه على السمّ الكامن فيه، بالرغم من جماله الظاهري ونعومته الشبيهة بنعومة الحية.
- (١٠) الدار: هي دار الكتب المصرية، وكان الفقيد يشغل منصب مديرها.
- (١١) الرواء: الماء الكثير.
- (١٢) أعلام الكنوز: نفائسها.
- (١٣) الحادث: هو حادث ائتلاف الأحزاب المصرية في وقت نظم هذه القصيدة التي تعدُّ من مفاخر المراثي في الشعر العربي.
- (١٤) سعد: هو الزعيم الخالد الذكر سعد باشا زغلول، وكان رئيس البرلمان في عهد ذلك الائتلاف.

الشوقيات

(١٥) السكان: مؤخر السفينة. وملاك الشيء: قوامه الذي يُمَلَكُ به.

مولانا محمد علي^١

بَيَّتْ عَلَى أَرْضِ الْهَدْيِ وَسَمَائِهِ
الْفَتْحُ مِنْ أَعْلَامِهِ، وَالطُّهْرُ مِنْ
تَحْنُو مَنَاكِبِهِ عَلَى شَعْبِ الْهَدْيِ
مَنْ ذَا يُنَازِعُنَا مَقَالِدَ بَابِهِ
وَمُحَمَّدٌ صَلَّى عَلَى جَنَابَتِهِ
وَالْيَوْمَ ضَمَّ النَّاسَ مَا تَمَّ أَرْضِهِ
يَا (قَدُسُ)، هَيْئُ مِنْ رِيَاضِكَ رَبَّوَّةٌ
هُوَ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ
فَتَحَ النَّبِيُّ لَهُ مُنَاحَ بُرَاقِهِ
بَطَلَ حَقُوقُ الشَّرْقِ مِنْ أَحْمَالِهِ
لَمْ تُنْسِهِ الْهِنْدُ الْعَزِيزَةُ رَقَّةً
وَقَبَاؤُهُ نَسْجُ الْهِنْدُودِ، فَهَلْ تُرَى
(النَّيْلُ) يَذْكُرُ فِي الْحَوَادِثِ صَوْتَهُ

الْحَقُّ حَائِطُهُ وَأُسُّ بِنَائِهِ
أَوْصَافُهُ، وَالْقُدُسُ مِنْ أَسْمَائِهِ
وَتُطِلُّ سُدَّتُهُ عَلَى سِينَائِهِ^١
وَجَلَالَ سُدَّتُهُ، وَطُهِرَ فِنَائِهِ؟
وَاسْتَقْبَلَ السَّمَحَاتِ فِي أَرْجَائِهِ؟
وَحَوَى الْمَلَائِكَةَ مِهْرَجَانُ سَمَائِهِ
لَنْزِيلِ تَرْبِكَ، وَاحْتَفَلَ بِلِقَائِهِ^٢
أَوْ مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ عِنْدَ قَضَائِهِ
وَمَعَارِجَ التَّشْرِيفِ مِنْ إِسْرَائِهِ
وَقَضِيَّةَ الْإِسْلَامِ مِنْ أَعْبَائِهِ
لِلشَّرْقِ، أَوْ سَهْرًا عَلَى أَشْيَائِهِ
دَفَنُوا الزَّعِيمَ مَكْفَنًا بِقَبَائِهِ؟^٣
وَالْتَّرَكَ لَا يَنْسَوْنَ صِدْقَ بَلَائِهِ

^١ هو كبير زعماء الهند المسلمين، توفي سنة ١٩٣١، وكان لا يألو جهدًا في خدمة الإسلام في شتى أقطاره، وقد أقيمت له في القاهرة حفلة تأبين كبيرة أُلقيت فيها هذه القصيدة.

قل للزعيم محمد: نزل الأسى
فمشى إليك بجفنه وبدمه
اجتذته فحواك في أطرافه
ولقد تعود أن تمر بأرضه
نم في جوار الله ما بك غربة
الفتح — وهو قضية قدسية —
أفتى بدفنك عند سيده القرى
بلد بنوه الأكرمون قصورهم
قد عشت تنصره وتمنح أهله
(بالنيل) واستولى على بطحائه^٤
وإلى أخيك بقلبه وعزائه^٥
ولو انتظرت حواك في أحشائه
مر الغمام بظله وبمائه
في ظل بيت أنت من أبنائه
يا طالما ناضلت دون لوائه
مفت أراد الله من إفتائه^٦
وقبورهم وقف على نزلائه^٧
عونا، فكيف تكون من غربائه؟

هوامش

- (١) السدة: باب الدار.
- (٢) يا قدر: لأنه دفن في القدس.
- (٣) القباء بفتح القاف — نوع من الثياب.
- (٤) محمد: هو المرثي.
- (٥) يريد بأخيه: مولانا شوكت علي، وقد آلت إليه زعامة المسلمين في الهند بعد أخيه.
- (٦) سيدة القرى: المقصودة هي القدس الشريف، ولا بد للدفن في هذا الحرم من تصريح ديني يصدره مفتي الإسلام هناك، ولا يصرح بذلك إلا لمن ثبت نفعه للإسلام وللعرب.
- (٧) يقصد بالبلد: فلسطين وسوريا جميعاً، وكثيراً ما هتف أمير الشعراء بأهل هذه البلاد إعجاباً بأخلاقهم.

سيد درويش^١

فيه مَيِّتًا برياحين الثناء^١
يُضِيّ الأَرْضَ بنور الكَهْرُبَاءِ
شَهَوَاتِ أَهْلِهِ والأَصْدِقَاءِ
يَخْلُ من زُورٍ لهم، أو من رِيَاءِ^٢
كَلِّمَا مَرَّ بِهِ الدهرُ أَضَاءِ
ضَجَّةِ المَحْيَا، وفي صَمْتِ الفَنَاءِ
(مَعْبَدُ) الألحانِ، (إِسْحَاقُ) الغِنَاءِ^٣
في سَمَوَاتِ الليالي قُدَمَاءِ
لم يَدُمَ غَرْسُ، ولم يَخْلُدْ بِنَاءِ
عَبَقَرِيٍّ فيهما سِرُّ البقاءِ
تَغْرِسُ الإِحْسَانِ، أو تَبْنِي العَلَاءِ
ليس في الأرضِ، ولكن في السماءِ^٤
ذاتِ ظِلٍّ وَرِياحينَ وماءِ

كلَّ يومٍ مَهْرَجَانٍ كَلَّلُوا
لم يَعْلَمَ قَوْمَهُ حَرْفًا، ولم
جُومِلَ الأَحْيَاءُ فيه وَقَضَى
ما أَضَلَّ النَّاسَ؟ حتى الموتُ لم
إِنَّمَا يُبْكَى شُعَاعُ نَابِغٍ
مَلَأَ الأفْوَاهَ والأَسْمَاعَ في
حائطِ الفَنِّ، وبَانِي رُكْنِهِ
من أَناسٍ كالذَّراري جُدِّ
غَرَسَ النَّاسُ قَدِيمًا، وَبَنَوْا
غَيْرَ غَرْسِ نَابِغٍ، أو حَجَرِ
من يَدٍ مَوْهُوبَةٍ مُلْهَمَةٍ
بُلْبُلٍ إِسْكَنْدَرِيٍّ أَيْكُهُ
هَبَطَ الشَّاطِئُ من رَابِيَةٍ

^١ الشيخ سيد درويش: كان يُعَدُّ رحمه الله في طليعة المجددين في الموسيقى العربية، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلة أقيمت لذكراه في سنة ١٩٣١.

غَدَقَ النَّبْعُ إِلَى جِيلٍ ظَمَاءٌ
عَزَّتِ الطَّيْرُ بِهِ إِلَّا الْجِدَاءُ
صَرَفَ الطَّيْرَ إِلَى الْأَيْكِ الْعِشَاءُ
وَأَتَى الْكُوكَبَ فَاسْتَوْحَى الضِّيَاءُ
يَخْلُسُ الْأَصْوَاتُ خَلْسَ الْبَبْغَاءُ
مَنْ خَفِيَ الْهَمْسُ، أَوْ جَهَرَ النَّدَاءُ
وَأَشْرَحَ الْحَبَّ، وَنَاجَ الشَّهْدَاءُ
بِالذِّي تَهَوَّى، وَتَنَطَّقُ مَا تَشَاءُ
وَتَنْفَسُ فِي الثَّقُوبِ الصُّعْدَاءُ^٦
مَنْ تَبَارِيخَ، وَشَجْوٍ، وَعَزَاءُ
عَالِمِ اللَّطْفِ وَأَقْطَارِ الصَّفَاءِ^٧
يَعِدِمُ الْفَنُّ الرُّعَاةَ الْأَمْنَاءُ
يَبْعَثُ الْمَاءَ إِلَيْهِ وَالْغِذَاءُ
فَهِيَ مِثْلُ الدَّارِ، وَالْفَنُّ الْفِنَاءُ
نَفْحَةُ الطَّيِّبِ وَإِشْرَاقُ الْبَهَاءِ^٨
فَشَتِ الْقَسْوَةَ فِيهَا وَالْجَفَاءُ
طَافَ كَالشَّمْسِ عَلَيْهَا وَالْهَوَاءُ
ظَهَرَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ وَالرُّوَاءُ
مَنْ سَنَى أَبْلَى اللَّيَالِي وَسَنَاءُ
فَتَرَاتٍ مِنْ ظُهُورٍ وَخَفَاءُ
جَاءَ مَنْ يُوفِّي الرِّسَالَاتِ الْأَدَاءُ
آخِرُ الْعَهْدِ بِنُعْمَاهُ الْبَلَاءُ
وَسَرَى الْوَحْيُ فَنَسَاكَ الشَّقَاءُ
دَفَعَ الْفَنُّ إِلَيْهِ بِاللَّوَاءُ
لَمْ يُتَخَ أَمْثَالُهُ لِلْخَلْفَاءِ^٩
صَوْتُهُ فِي كُرَّةِ الْأَرْضِ الْفَضَاءُ
وَجَمَالُ الْعَبَقْرِاتِ الْحَيَاءُ

يَحْمِلُ الْفَنُّ نَمِيرًا صَافِيًا
حَلًّا فِي وَادٍ عَلَى فُسْحَاتِهِ
يَمْلَأُ الْأَسْحَارَ تَغْرِيدًا إِذَا
رُبَّمَا اسْتَلَّهَمَ ظِلْمَاءَ الدُّجَى
وَرَمَى أُنْذِيهِ فِي نَاحِيَةٍ
فَتَلَقَّى فِيهِمَا مَا رَاعَهُ
أَيُّهَا الدَّرُوبِشُ، قُمْ بَثَّ الْجَوَى
اضْرِبِ الْعُودَ تَفْهُ أَوْتَارُهُ
حَرَكَ النَّايِ، وَنُحْ فِي غَابِهِ
وَاسْكُبِ الْعَبْرَةَ فِي آمَاقِهِ
وَاسْمُ بِالْأَرْوَاحِ، وَادْفَعْهَا إِلَى
لَا تَرِقْ دَمْعًا عَلَى الْفَنِّ فَلَئِنْ
هُوَ طَيْرُ اللَّهِ فِي رَبْوَتِهِ
رَوْحُ اللَّهِ عَلَى الدُّنْيَا بِهِ
تَكْتَسِي مِنْهُ وَمَنْ آذَارَهُ
وَإِذَا مَا حُرِمَتْ رِقَّتُهُ
وَإِذَا مَا سَبِمَتْ أَوْ سَقِمَتْ
وَإِذَا الْفَنُّ عَلَى الْمُلْكِ مَشَى
قَدْ كَسَا الْكَرْنُ مَصْرًا مَا كَسَا
يُرْسِلُ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ عَلَى
كُلِّمَا أَتَى رَسُولٌ وَمَضَى
سَيِّدَ الْفَنِّ، اسْتَرْحَ مِنْ عَالِمِ
رُبَّمَا ضِيقَتْ فَلَمْ تَنْعَمْ بِهِ
لَقَدْ اسْتَخْلَفَتْ فَنًّا نَابِغًا
إِنْ فِي مُلْكٍ فَوَادٍ بُلْبَلًا
نَاحِلٌ كَالْكُرَّةِ الصَّغْرَى سَرَى
يَسْتَحْيِ أَنْ يَهْتَفَ الْفَنُّ بِهِ

هوامش

- (١) المهرجان: الاحتفال، معرّب.
- (٢) الزور: الكذب.
- (٣) معبد وإسحاق: رجلان من أشهر رجال الغناء والموسيقى.
- (٤) كان رحمه الله من نشء الإسكندرية، والأيك: في الأصل هو الشجر الملتف الكثير. يقول: إنه إذا كان لكل بلبل من أيك يتخذه عشا، فهذا البلبل الإسكندري أيكه ليس محله الأرض، ولكن السماء هي محله اللائق به.
- (٥) الغدق — بفتح الغين والدال: الكثير.
- (٦) الصعداء — بضم الصاد وفتح العين —: تنفس ممدود.
- (٧) عالم اللطف: هو عالم المعاني والأرواح، ولا تسمو إليه الأنفس إلا في أوقات الصفاء والانشراح.
- (٨) آذار: شهر من فصل الربيع، أعجمي.
- (٩) يُراد بالبلبل هنا: الموسيقار النابغة الأستاذ محمد عبد الوهاب، وهو الذي حمل لواء التجديد في الموسيقى بعد الشيخ سيد درويش.

عمر المختار^١

رَكَّزُوا رُفَاتَكَ فِي الرَّمَالِ لِوَاءِ
يَا وَيَحَهُم! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ
مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا الْعَلَاقَةَ فِي غَدٍ
جُرْحٌ يَصِيحُ فِي الْمَدَى، وَضَجِيَّةٌ
يَا أَيُّهَا السَيْفُ الْمَجْرَدُ بِالْفَلَا
تلك الصَّحَارَى غَمْدٌ كُلُّ مُهَنْدٍ
وَقُبُورٌ مَوْتَى مِنْ شَبَابٍ أُمِّيَّةٍ
لَوْ لَادَ بِالْجُوزَاءِ مِنْهُمْ مَعْقِلٌ
فَتَحُوا الشَّمَالَ: سُهُولُهُ وَجِبَالُهُ
وَبَنَوْا حَضَارَتَهُمْ، فَطَاوَلَ رَكْنُهَا
خُيِّرَتْ فَاخْتَرَتْ الْمَبِيتَ عَلَى الطَّوَى
إِنَّ الْبَطُولَةَ أَنْ تَمُوتَ مِنَ الظُّمَاءِ

يَسْتَنْهَضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءٍ^١
تُوجِي إِلَى جِيلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءُ^٢
بَيْنَ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءَ؟
تَتَلَمَّسُ الْحَرِيَّةَ الْحَمْرَاءُ^٣
يَكْسُو السَيْفَ عَلَى الزَّمَانِ مَضَاءَ
أَبْلَى فَأَحْسَنَ فِي الْعَدُوِّ بَلَاءَ
وَكَهُولَهُمْ لَمْ يَبْرَحُوا أَحْيَاءَ
دَخَلُوا عَلَى أَبْرَاجِهَا الْجُوزَاءُ^٤
وَتَوَغَّلُوا، فَاسْتَعَمَرُوا الْخَضْرَاءَ
(دَارَ السَّلَامِ)، وَ(جَلَّقَ) الشَّمَاءُ^٥
لَمْ تَبْنِ جَاهًا، أَوْ تَلَمَّ ثَرَاءُ^٦
لَيْسَ الْبَطُولَةُ أَنْ تَعُوبَ الْمَاءَ

^١ شهيد المسلمين والعرب بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظلَّ يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقًا سنة ١٩٣١، وأُشيع وقتئذٍ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنَّه التي نيفت على التسعين.

ضَجَّتْ عَلَيْكَ أَرْجُلًا وَنِسَاءً
لا يَمْلِكُونَ مَعَ الْمُصَافِ عِزَاءً
يَبْكُونَ زَيْدَ الْخَيْلِ وَالْفُلْحَاءَ^٧
جَسَدُ (بِبَرْقَةٍ) وَسَدِ الصَّحْرَاءِ^٨
تَبَلَّى، وَلَمْ يُبْقِ الرِّمَاحُ دِمَاءً
بَاتَا وَرَاءَ السَّافِيَّاتِ هَبَاءَ^٩
«تَنْكَ»، وَلَمْ يَكْ يَرْكَبِ الْأَجْوَاءَ^{١٠}
وَأَذَارَ مَنْ أَعْرَفَهَا الْهَيْجَاءُ
لَمْ تَخْشَ إِلَّا لِلْسَّمَاءِ قِضَاءً
سُقْرَاطُ جَرَّ إِلَى الْقُضَاءِ رِدَاءً
كَالطِفْلِ مِنْ خَوْفِ الْعِقَابِ بُكَاءً
فَتَغَيَّرَتْ، فَتَوَقَّعَ الضَّرَاءُ
فِي السَّجَنِ ضَرْغَامًا بَكَى اسْتِخْدَاءً
أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رُقُطَاءً
وَمَشَتْ بِهِيْكَلَهُ السَّنُونُ فَنَاءً
لَتَرَجَّلَتْ هَضْبَاتُهُ إِعْيَاءً^{١١}
مَنْ رَفَقَ جُنْدٍ قَادَةً نُبْلَاءً
عَرَفَ الْجُدُودَ. وَأَدْرَكَ الْآبَاءُ
يَأْسُو الْجِرَاحَ، وَيُطْلِقُ الْأَسْرَاءَ
وَيُصَفُّ حَوْلَ خِوَانِهِ الْأَعْدَاءَ^{١٢}
لَلَّيْثِ يَلْفِظُ حَوْلَهُ الْحَوْبَاءَ^{١٣}
مَنْ كَانَ يُعْطِي الطَّغْنَةَ النَّجْلَاءَ
بِالْحَقِّ هَذَا تَارَةً وَبِنَاءً
إِلَّا أَبَا الضَّيِّمِ وَالضَّعْفَاءَ
فَأَصَوغَ فِي عُمَرِ الشَّهِيدِ رِثَاءً
أُذْنِيكَ حِينَ تُخَاطَبُ الْإِصْغَاءُ؟
فَانْقُدْ رِجَالَكَ، وَاخْتَرِ الزُّعَمَاءَ
وَاحْمِلْ عَلَى فِتْيَانِكَ الْأَعْبَاءَ

إِفْرِيقِيَا مَهْدُ الْأُسُودِ وَلَحْدُهَا
وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى اخْتِلَافِ دِيَارِهِمْ
وَالْجَاهِلِيَّةُ مِنْ وَرَاءِ قُبُورِهِمْ
فِي ذِمَّةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَحَفِظْهُ
لَمْ تَبْقِ مِنْهُ رَحَى الْوَقَائِعِ أَعْظَمًا
كَرُفَاتِ نَسْرِ أَوْ بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ
بَطْلُ الْبِدَاوَةِ لَمْ يَكُنْ يَغْزُو عَلَى
لَكِنْ أَخُو خَيْلِ حَمَى صَهَوَاتِهَا
لَبَّى قِضَاءَ الْأَرْضِ أَمْسٍ بِمُهْجَةٍ
وَإِفَاهُ مَرْفُوعِ الْجَبِينِ كَأَنَّهُ
شَيْخُ تِمَالِكَ سِنَّهُ لَمْ يَنْفَجِرْ
وَأَخُو أُمُورٍ عَاشَ فِي سَرَائِهَا
الْأُسْدُ تَزَارُ فِي الْحَدِيدِ وَلَنْ تَرَى
وَأَتَى الْأَسِيرُ يُجَرِّ ثِقْلَ حَدِيدِهِ
عَضَّتْ بِسَاقِيهِ الْقَيُودُ فَلَمْ يَنْوُ
تَسْعُونَ لَوْ رَكِبَتْ مَنَاكِبَ شَاهِقٍ
خَفِيَتْ عَنِ الْقَاضِي، وَفَاتِ نَصِيبُهَا
وَالسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبٍ مُهَذَّبٍ
دَفَعُوا إِلَى الْجَلَادِ أَغْلَبَ مَا جَدَا
وَيُشَاطِرُ الْأَقْرَانَ ذُخْرَ سِلَاحِهِ
وَتَخَيَّرُوا الْحَبْلَ الْمَهِينِ مَنِيَّةً
حَرَمُوا الْمَمَاتَ عَلَى الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا
إِنِّي رَأَيْتُ يَدَ الْحَضَارَةِ أُولَعَتْ
شَرَعَتْ حُقُوقَ النَّاسِ فِي أُوطَانِهِمْ
يَأْيُهَا الشَّعْبُ الْقَرِيبُ، أَسَامِعُ
أَمْ أَلْجَمْتُ فَاكِ الْخَطُوبِ وَحَرَمْتُ
زَهَبَ الزَّعِيمِ وَأَنْتَ بَاقٍ خَالِدُ
وَأَرْحُ شِيُوخَكَ مِنْ تَكَالِيفِ الْوَعَى

هوامش

(١) ركز اللواء: غرزه في الأرض. وهذا استعمال لغوي مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضّة والذهب والمعادن، كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويسمونها الدفائن، فقوله: «ركزوا رفاتك» استعمال أُريدَ به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر، التي يَضُنُّ بها ويحرص عليها.

(٢) المنار: موضع النور، وجعلها منارًا من دم: هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والانتناس محلاً للتنفير والإزعاج.

(٣) الحريّة الحمراء: هي المكتسبة بالدم، إشارة إلى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت إلا بالدماء..

(٤) الجوزاء: نجم معروف في السماء.

(٥) دار السلام: بغداد. وخلق: دمشق.

(٦) اللّم: الجمع.

(٧) الفلحاء: لقب عنترة العبسي، أمّا زيد الخيل فعلم على فارس بهذا الاسم.

(٨) برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وسُمّيت باسم عاصمتها القديمة، وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطلّيان.

(٩) السافيات: الرياح.

(١٠) تنك: هي الدبابة المستعملة في الحروب.

(١١) الشاهق: الجبل. والتسعون: هي التسعون عامًا التي يحدد بها عمر المرثي

حين قبضوا عليه ليعدموه.

(١٢) الخوان: مائدة الطعام.

(١٣) الحوباء: النفس.

عبد الحليم العلايلي بك^١

لقد لَبَّى زعيمُكم النداءَ
وإن كان المُعزَّى والمُعزَّى
فُجِعنا كُلُّنا بعلائلي
أَرَقَّ شبابِ دِمياطِ عليها
وخيرُ بيوتها كرمًا وتقوى
فتى كالرمحِ عاليةً وعُودًا
وأعطى المالَ والهَمَمَ العوالي
شبابٌ ضارَعَ الرِّيحانَ طيبًا
وجُنْدِيَّ القضيةِ منذُ قامتْ
ورُوعَ شيخها العاليِ بيومِ
سعى لضميره، ولوجهِ مصرِ
ونعشٍ كالغمامِ يَرِفُ ظلًّا

عَزاءَ أَهلِ دِمياطِ عَزاءَ
وكلُّ الناسِ في البُلوى سَواءَ
كركنِ النِّجمِ أو أَسنى علاءَ
وأنشطُهم لحاجتها قَضاءَ
وأصلًا في السَّيادةِ وانتهاءَ
وكالصَّمصَمِ إِفِرندًا وماءَ^١
ولم يُعطِ الكرامةَ والإباءَ
ونازَعَهُ البَشاشةَ والبَهاءَ
تعلَّمَ تحتَ رايَتِها اللِّقاءَ
فكان بِمَنكَبِيهِ له وقاءَ^٢
ولم يَتَوَلَّ ينتظرِ الجزاءَ
إذا ذهبَ الرِّحامُ به وجاءَ

^١ عبد الحليم العلايلي: كان عالية دمياط، توفي سنة ١٩٣٢، بعد أن ترك له في القضية المصرية مواقف مذكورة. اشتهر منذ نشأ بعلو الهمة ونفوذ الكلمة؛ فانتخب للمجالس النيابية بالنيابة عن دائرة دمياط عدة مرات، وانتخب سكرتير حزب الأحرار الدستوريين؛ فكان في رجال ذلك الحزب ممن يشار إليهم، وكان من أمير الشعراء بمنزلة الصهر والصدیق.

ولم تقع العيون عليه إلا
عجبنا كيف لم يخضر عوداً
مشّت دُمياطُ فالتفت عليه
بني دُمياطُ، ما شيءُ بباقي
تعالى الله، لا يبقى سواه
وأنتم أهلُ إيمانٍ وتقوى
ملاّتم من بيوتِ الله أرضاً
ولا تستقبلون الفجرَ إلا
وترتقبون مَطْلَعَهُ صِغاراً
وكم من مَوْقِفٍ ماضٍ وقفتم
دفعتم غارةً شعواءَ عنه
أخي (عبد الحليم) ولست أدري
وكم صَحَّ الودادُ فكان صَهراً
عجيبُ تركك الدنيا سقيماً
وكنّا حينَ يُعْضِلُ كُلُّ داءٍ
مضت بك آلةُ حَدْبَاءٍ كانت
وسارت خلفك الأحزابُ صفّاً
تولّف بينهم مَيْتاً، وتبني

أثارَ الحزنَ أو بعثَ البكاءَ
وقد حملَ المروءةَ والرُفَاءَ
تنازَعُهُ الخيرةَ والرجاءَ
سوى الفردِ الذي احتكرَ البقاءَ
إذا وردتْ بريئتهُ الفناءَ
فهل تَلْقَوْنَ بالعتَبِ القضاءَ؟
ومن داعي البُكُورِ لها سماءُ
على قَدَمِ الصلاةِ إذا أضاءَ
وتَسْتَبِقُونَ غُرَّتَهُ نِساءَ
فكنتم فيه لِلوطنِ الفداءَ
وذُذْتُمْ عن حواضره البلاءَ
أأدعو الصُّهْرَ أم أدعو الإخاءَ؟
وكان كأقربِ القُرْبَى صفاءَ
وكنْتَ النُّحْلَ تملؤها شفاءً^٢
نجيءُ إليك نجعلك الدَّواءَ
على الزمنِ المَطيّةِ والوطاءُ^٣
وسرّت، فكُنْتَ في الصَفِّ اللّواءَ
كعهديك في الحياة لهم ولأء

هوامش

- (١) عالية الرمح: نصفه الأعلى الذي يلي السنان. والصمصام: السيف. وإفرنده وماؤه: كلاهما تمييز لجوهره.
- (٢) يقصد «بشيخها العالي»: المغفور له سعد باشا زغلول.
- (٣) يريد تشبيهه المساعي الكثيرة النبيلة التي كان يقوم بها المرئي بعسل النحل.
- (٤) الآلة الحدباء: النعش.

حافظ إبراهيم^١

يا مُنْصَفَ المَوْتى من الأحياءِ
قدرُ، وكلُّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ
بالحقِّ تحِفَلُ عندَ كلِّ نداءِ
طُولِ الحنينِ لساكنِ الصحراءِ^١
في زُمْرَةِ الأبرارِ والحنفاءِ^٢
ومراشدُ التفسيرِ والإفتاءِ
طِيبَ التداني بعدَ طولِ تنائي
فالسَّمْحَةُ الأخرى ديارُ لقاءِ^٣
والكاذبونَ المُرجِفونَ فِدائي
المُوغِرُو المَوْتى على الأحياءِ
بكرائمِ الأنقاضِ والأشلاءِ
مَنْ ذا يُحِطُّمَ رَفَرَفَ الجوزاءِ؟^٤
في الشرقِ، واسْمُكَ أرفعُ الأسماءِ

قد كنتُ أوثُرُ أن تقولَ رِثائي
لكنَّ سَبَقَتْ، وكلُّ طولِ سلامةٍ
الحقُّ نادى فاستَجَبْتُ، ولم تزلْ
وأتيتُ صحراءَ الإمامِ تذوبُ من
فلقيتُ في الدارِ الإمامَ محمداً
أثرُ النعيمِ على كريمِ جبينه
فشكوتما الشَّوْقَ القديمَ، ودُقَّتْما
إنَّ كانتِ الأولى منازلَ فُرْقَةٍ
ووددتُ لو أني فداكَ من الرَّدَى
الناطقونَ عن الضَّغِينَةِ والهوى
من كلِّ هَدَامٍ وَيَبْنِي مجده
ما حَطَّموكَ، وإنما بك حُطِّموا
أنظره، فأنتَ كَأَمْسِ شَأْنُكَ بانحُ

^١ هو المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك، شاعر سباق معدود في الطليعة، وكان يلقب بشاعر النيل، توفي سنة ١٩٣٢، فرثاه أمير الشعراء شوقي بك بهذه القصيدة، التي ينبئ مطلعها عن مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له.

غِرَاءَ تُحَفِّظُ كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ^٥
وكما علمتَ مَوَدَّتِي وَوَفَائِي
لَمَّا رَفَعْتَ إِلَى السَّمَاءِ لَوَائِي
وَوَلِيَّتُهُ فِي السَّلَامِ وَالْهُيْجَاءِ
نُبُعُ الْبَيَانِ وَرَاءَ نُبُعِ الْمَاءِ
قَلَمًا كَصَدْرِ الصَّعْدَةِ السَّمَرَاءِ^٦
يَوْمًا بِفَاحِشَةٍ وَلَا بِهَجَاءِ^٧
وَيُشَيِّعُ الْمَوْتَى بِحَسَنِ ثَنَاءِ
وَحَمِيلَةِ الْحُكَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ^٨
وَتَرَعَرَعْتُ بِسَمَائِكَ الزَّهْرَاءِ
فَجَمَعْتَهَا كَالرَّبَّوَةِ الْغَنَاءِ
لِلوَافِدِينَ وَدُرَّةَ الدَّمَاءِ
وَبَنَوُا قُصُورَكَ فِي سَنَا الْحَمْرَاءِ^٩
كَسَبِيلِ عَيْسَى فِي فِجَاجِ الْمَاءِ^{١٠}
وَتَجَمَّلِي بِشَبَابِكَ النَّجْبَاءِ
حَجَرُ الْبِنَاءِ، وَعُدَّةُ الْإِنْشَاءِ
لِلْمُلُكِ فِي بَغْدَادَ وَالْفَيْحَاءِ
بَيْنَ الْمَمَالِكِ زُرَّةَ الْعَلْيَاءِ^{١١}
وَذَخَرْتُ مِنْ حَزْنٍ لَهُ وَبُكَاءِ؟
إِنَّ الْبَلَاءَ مَصَارِعُ الْعِظَمَاءِ
بِالدَّمْعِ غَيْرَ بَخِيلَةِ الْخُطَبَاءِ
جَمُّ الْمَآثِرِ، طَيِّبُ الْأَنْبَاءِ
وَحَدَا بِهِ الْبَادُونَ فِي الْبَيْدَاءِ^{١٢}
حَلَبٍ إِلَى الْفَيْحَا إِلَى صَنْعَاءِ
بَانِي الصَّفُوفِ، مُؤَلِّفُ الْأَجْزَاءِ
وَإِمَامٌ مَنْ نَجَلْتُ مِنَ الْبُلْغَاءِ^{١٣}
حَتَّى حَمَيْتُ أَمَانَةَ الْقُدَمَاءِ

بِالْأَمْسِ قَدْ حَلَيْتَنِي بِقَصِيدَةٍ
غِيْظَ الْحَسُودِ لَهَا وَقَمْتُ بِشُكْرِهَا
فِي مَحْفَلٍ بَشَّرْتُ أَمَالِي بِهِ
يَا مَانِحَ السُّودَانِ شَرْخَ شَبَابِهِ
لَمَّا نَزَلْتُ عَلَى خَمَائِلِهِ ثَوَى
قَلْدَتُهُ السَّيْفُ الْحُسَامِ، وَزِدَّتُهُ
قَلَمُ جَرَى الْحَقَبِ الطَّوَالِ فَمَا جَرَى
يَكْسُو بِمَذْحِجَةِ الْكِرَامِ جَلَالَةً
إِسْكَندَرِيَّةُ يَا عُرُوسَ الْمَاءِ
نَشَأْتُ بِشَاطِئِكَ الْفَنُونُ جَمِيلَةً
جَاءَتْكَ كَالطَّيْرِ الْكَرِيمِ غَرَائِبًا
قَدْ جَمَّلُوكَ، فَصَرْتُ زَيْنَبَةَ الثَّرَى
غَرَسُوا رُبَاكَ عَلَى خَمَائِلِ بَابِلِ
وَاسْتَحْدَثُوا طُرُقًا مُنَوَّرَةَ الْهَدَى
فَخُذِي كَأَمْسٍ مِنَ الثَّقَافَةِ زِينَةً
وَتَقْلَدِي لُغَةَ الْكِتَابِ؛ فَإِنَّهَا
بَنَتْ الْحَضَارَةَ مَرَّتَيْنِ، وَمَهَّدَتْ
وَسَمَتْ بِقَرْطَبَةٍ وَمِصْرَ، فَحَلَّتَا
مَاذَا حَشَدَتْ مِنَ الدَّمُوعِ «لِحَافِظٍ»
وَوَجَدَتْ مِنْ وَقَعِ الْبَلَاءِ بِفَقْدِهِ
اللَّهُ يَشْهَدُ قَدْ وَفَيْتِ سَخِيَّةً
وَأَخَذْتَ قِسْطًا مِنْ مَنَاحَةِ مَا جِدِ
هَتَفَ الرُّوَاةِ الْحَاضِرُونَ بِشَعْرِهِ
لِبَنَانٍ يَبْكِيهِ، وَتَبْكِي الضَّادُ مِنْ
عَرَبِ الْوَفَاءِ وَقَوْا بِذِمَّةِ شَاعِرِ
يَا حَافِظَ الْفَصْحَى، وَحَارِسَ مَجْدِهَا
مَا زِلْتُ تَهْتَفُ بِالْقَدِيمِ وَفَضْلِهِ

جَدَّدْتُ أُسْلُوبَ (الوليد) ولفظَه
وَجَرَّيْتُ فِي طَلِبِ الْجَدِيدِ إِلَى الْمَدَى
مَاذَا وَرَاءَ الْمَوْتِ مِنْ سَلْوَى، وَمِنْ
اِشْرَحْ حَقَائِقَ مَا رَأَيْتِ، وَلَمْ تَزَلْ
رُتَبُ الشَّجَاعَةِ فِي الرِّجَالِ جَلَائِلُ
كَمْ ضِيقَتْ ذَرْعًا بِالْحَيَاةِ وَكَيْدِهَا
فَهَلُمَّ فَارِقُ يَا أَسْ نَفْسِكَ سَاعَةً
وَأَشْرُ إِلَى الدُّنْيَا بِوَجْهِ ضَاكِ
يَا طَالَمَا مَلَأَ النَّدَى بِشَاشَةً
الْيَوْمَ هَادَنْتِ الْحَوَادِثَ؛ فَاطْرَحْ
خَلَّفْتَ فِي الدُّنْيَا بَيَانًا خَالِدًا
وَعَدًا سَيَذْكُرُكَ الزَّمَانُ، وَلَمْ يَزَلْ

وَأَتَيْتُ لِلدُّنْيَا بِسِحْرِ (الطائي) ١٤
حَتَّى اقْتَرَنْتُ بِصَاحِبِ الْبُؤْسَاءِ ١٥
دَعَا، وَمِنْ كَرَمٍ، وَمِنْ إِغْضَاءٍ؟
أَهْلًا لِشَرْحِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ
وَأَجَلُّهُمْ شَجَاعَةُ الْأَرَاءِ
وَهْتَفْتُ بِالشُّكْوَى مِنَ الضَّرَاءِ
وَاطْلُعْ عَلَى الْوَادِي شُعَاعَ رَجَاءِ
خُلِقْتُ أَسْرَتُهُ مِنَ السَّرَاءِ
وَهْدَى إِلَيْكَ حَوَائِجَ الْفُقَرَاءِ
عَبَّءَ السَّنِينَ، وَأَلْقَى عِبَاءَ الدَّاءِ
وَتَرَكْتُ أَجْيَالًا مِنَ الْأَبْنَاءِ
لِلدَّهْرِ إِنْصَافٌ وَحَسَنُ جَزَاءِ

هوامش

- (١) صحراء الإمام: المقبرة التي دُفِنَ بها، وهذه الصحراء تنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه — رضي الله عنه — في نطاقها.
- (٢) الإمام: هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.
- (٣) الأولى: الحياة الدنيا.
- (٤) الرفرف: ما يجعل عليه طرائف البيت. والجوزاء: نجم معروف في السماء، فالتعبير برفرف الجوزاء: كناية عن أسنى مواضع الشرف والسمو.
- (٥) يريد القصيدة التي أنشأها المرحوم حافظ وأنشدها في المهرجان العظيم الذي أقيم في القاهرة، وقد حضرت إليه وفود الأقطار العربية، وظل سبعة أيام تكريمًا لمبايعة أمير الشعراء شوقي بإمارة الشعر في الشرق العربي عامة، وهي التي يقول فيها:
- أمير القوافي، قد أتيت مبايعًا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
- (٦) الصعدة: قناة الرمح ينبت عودها مستويًا.

- (٧) الحقب: جمع حقبة — بكسر الحاء — وهي المدّة من الزمن أو السنة.
- (٨) نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لابد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاء لإقامته فيها وقتئذ.
- (٩) بابل: موضع مدينة بالعراق، ينسب إليها السحر والخمر. والحمراء: قصر مشهور في الأندلس.
- (١٠) الفجاج — بكسر الفاء: جمع فجّ — بفتحها — الطريق الواسع بين الجبلين.
- (١١) قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى، وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاها منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام.
- (١٢) البادون: السائرون في البادية.
- (١٣) نجلت: أي وُلِدَت.
- (١٤) الوليد: هو أبو عبادة البحري الشاعر العباسي الشهير. والطائي: هو حبيب الطائي الشهير بأبي تمام.
- (١٥) البؤساء: كتاب لفكتور هوجو، عربيّ الفقيد.

محمد تيمور^١

ضربوا القبابَ على اليبابِ
هَمَدُوا، وكلُّ مُحَرِّكٍ
نزلوا على ذئبِ البلى
وكأنهم صَرَعَى كَرَى
فإذا صَحَوْا وتنبَّهوا
من كلِّ مُنْفَضِّ الوفو
مَوْرُوثٍ كلِّ مَضِنَّةٍ
يا نائحاتِ محمدٍ
في مَاتِمٍ لم تَخُلْ فيه
تبكي الكريمَ على العش
حَسْبُ الجِمامِ دُمُوعُكُ
فارِجَعْنَ فيه لحكمةٍ
في العالمِ الفاني مَص
مَنْ سارَ لم يَثْنِ العِنا
وثووا إلى يومِ الحسابِ^١
يومًا سيسكنُ في الترابِ
فتضيِّفوا شرَّ الذئابِ
بالقاعِ أو صَرَعَى شرابِ
فاللهُ أعلمُ بالمآبِ
هناك مهجورِ الجَنابِ
إلا الذَّخيرةُ من ثوابِ^٢
نُحْتُنُّهُ غَضَّ الإهابِ
هه المكرماتُ من انتخابِ
يرة، والحبیبِ إلى الصَّحابِ
نَ الْمُسْتَهْلَةُ من عتابِ^٣
أو جِئْنَ فيه إلى احتسابِ
يرُ العالمينِ إلى ذهابِ
نَ، وَمَنْ أقامَ إلى اقترابِ

^١ محمد تيمور: أديب كبير اشتهر بوضع القصص الاجتماعية، ولكنَّ الموت لم يمهلَه فاخترم شبابه في

سنة ١٩٢١.

يا وارثَ الحَسَبِ الصَّمِيحِ
وابنَ الذي عَلِمَ الرجا
وكأنه في كُتُبِهِ
ماذا نَقَمْتَ مِنَ الشَّبا
مُتَحَلِّيًا هِبَةَ النُّبُو
ولم الترحُّلُ عن حيا
لم تُعَدُّ شاطِئُهَا، ولم
رِفْقًا على محزونة الـ
فقدتْكَ في العمر الطَّريـ
تبكى، وتندُبُ إلْفَهَا
وانظر أباك وتُكَلِّه
لو كان يملك سِرَّ يُو
أَعْلَمْتَ غَيْرَكَ مِنْ جَلَا التـ
وكسا غرائبَ جِدِّهِ
مُتَمَيِّزًا حِينَ التَّمَيُّـ
أَفُقَ العُلا كُنْتَ الشَّها
يَارُبَّ يَوْمِ ضَاقَ ذَرْ
سَعَهُمْ فَأَنْتَ جَمَعْتَهُمْ
خُذْ مِنْهُمْ نَقْدَ العَفَا
دُونَ النُّبُوغِ وَأَوْجِهـ
فإِذَا بَلَغْتَ الأَوَجَ كُنْـ
لا تَبْعِدَنَّ؛ فهذه
أَشْرَفُ بروحك فوقهم
وانظر بعينِ نُزْهَتٍ
تَرَى مِنْ لِدَاتِكَ أُمَّةً
أَسَدُ تَجُولُ بِغَيْرِ ظُفْ
جعلوا الثِّبَاتِ سِلَاحَهُمْ

سَمِ وكَاسِبَ الأَدَبِ اللُّبَابِ
لُ حَيَاءَهُ مِنْ كُلِّ عَابٍ
عَثْمَانُ فِي ظِلِّ الكِتَابِ
بِ، وَأَنْتَ فِي نَعَمِ الشَّبَابِ؟
ع، مُطَوَّقُ المِنَحِ الرَّغَابِ؟
ة أَنْتَ مِنْهَا فِي رِكَابِ؟
تَبْلُغُ إِلَى ثَبَجِ العُبابِ؟
أَبْيَاتٍ، مُوَحِّشَةِ الحِجَابِ
رِ، وَفِي زَهَا الدُّنْيَا الكَعَابِ
بَيْنَ الأَفَانِينَ الرُّطَابِ
وَرُزُوحَهُ تَحْتَ المَصَابِ
شَعَرَدَ شَمْسُكَ مِنْ غِيَابِ
مَثِيلَ فِي جُدِّ الثِّيَابِ
حُلَلًا مِنَ الهَزْلِ العُجَابِ
زُ لَيْسَ مِنْ أَرْبِ الشَّبَابِ
بَ عَلَيْهِ، لَا ذَنْبَ الشَّهَابِ
عُكَ فِيهِ بِالحُسْدِ الغِضَابِ
الشَّهْدُ مَائِدَةُ الذُّبَابِ
فِ، وَدَعْ لَهُمْ نَقْدَ السَّبَابِ
مَا لَا تُعَدُّ مِنَ الصَّعَابِ
تِ الشَّمْسِ تَهْزَأُ بِالصُّبَابِ
أَمَالُ قَوْمِكَ فِي اقْتِرَابِ
مَلَكًا يُرْفِرُ فِي السَّحَابِ
عَنْ زُخْرِفِ الدُّنْيَا الكِذَابِ
كَسَتْ الدِّيَارَ جَلالَ غَابِ
رِ، أَوْ تَصُولُ بِغَيْرِ نَابِ
نَعَمَ السِّلَاحُ مَعَ الصَّوَابِ

أَمَّا الْأُمُورُ فَإِنَّهَا بَلَغْتُ إِلَى فَضْلِ الْخُطَابِ
فَإِذَا مَلَكَتْ تَوَجُّهَهَا لِلَّهِ فِي قُدْسِ الرِّحَابِ
سَلْ فَاتَحِ الْأَبْوَابِ يَفْ تَحِ لِلْكِنَانَةِ خَيْرَ بَابِ

هوامش

- (١) القباب: جمع قبة، والمقصود بضرب القباب هنا: هو الكناية عن المقبرة.
- (٢) المضنة: هي الشيء النفيس يكون موضعاً للضنّ به.
- (٣) الحمام — بكسر الحاء —: الموت.
- (٤) وابن الذي.. إلخ: هو المرحوم أحمد باشا تيمور، كان عالماً بَحَاثاً اشتهر بالاطلاع الواسع وباقتناء أئمن الكتب.
- (٥) يشبه والد الفقيد في إقباله على الكتب في شيخوخته بعثمان بن عفان الخليفة الثالث الذي مات والكتاب العزيز في يده.
- (٦) العباب: البحر. وثبجه: وسطه.
- (٧) موحشة الحجاب: كناية عن شدة مصاب هذه السيدة، يقول: إن خدرها أفقر من الأئس حتى صار يبعث الوحشة والهلع في قلب صاحبه.
- (٨) العمر الطرير: هو سن الشباب، ويقصد بقوله: «الدنيا الكعاب» أنه كان يعيش في دنيا مزهوةً بنعيمها وثروتها.
- (٩) يوشع — كما في التوراة —: هو يوشع بن نون، اصطفاه الله وأرسله لبني إسرائيل بعد موسى، وأمره بمحاربة الجبّارين، ففي بعض وقائعه ابتهل إلى الله أن تقف الشمس حتى ينتقم من أعدائه، فوقفت ولم تغرب مدة يوم أو نحو ذلك.
- (١٠) الأوج: العلو.
- (١١) لدات الإنسان: المقاربون له في السن. والغاب: جمع غابة، وهي مأوى الآساد.
- (١٢) يصف شباب الأمة المصرية في ثورة سنة ١٩١٩.

يعقوب صُرُوف^١

وَأَرْضُكَ عُمْرَانُ وَشَيْكَ خَرَابُ^١
قيامُ ضِبَاعٍ، أَوْ قُعودُ ذِئابٍ
عليك بظُفْرِ لَمْ يَعِفْ وَنابٍ
وَمَرُّوا رِكابًا فِي غُبارِ رِكابٍ
من اللَّحْظِ عَنْ مَيِّتِ الْأَحْبَبَةِ نَابِي^٢
ومالوا فلم تستوحشي لغيابٍ
يرى الجيشُ خَلْقًا هَيْنًا كَذُبابٍ
وإنْ أَدْنَتْ أَجْنادَهُ بَتَبَابِ^٣
بَنوكِ مَذاقِ الضَّرِّ شَهِدَ رُضابُ^٤
وللْمُقْعَدِ العاني مَجالَ وِثابِ^٥
ولا كَرَّ بَعْدَ الفُرْصَةِ المِتْصابِ
بَنى بِيديه القَبْرَ أَلْفَ حِسابِ
أَجَلْ، إِنما أَقْضى حَقوقَ صِحابِ

سَماءُكَ يا دُنْيا خِداغُ سَرابِ
وما أَنْتِ إِلَّا جِيفَةٌ طالَ حَوْلُها
وكم أَلْجَأَ الجُوعُ الْأُسودَ فَأَقْبَلَتْ
قَعَدَتْ مِنَ الْأَظْلعانِ فِي مَقْطَعِ السُّرى
وَجُدَّتْ عَلَيْهِمُ فِي الْوِداغِ بِساخِرِ
أَقاموا، فلم يَؤْنِسْكَ حاضِرُ صَحْبَةٍ
تَسْوِقِينَ لِلْمَوْتِ الْبَنِينَ كَقائِدِ
رَأى الحَرْبَ سُلْطانًا لَهُ وَسَلامَةٌ
ولولا غُرورُ فِي لُبانِكَ لَمْ يَجِدِ
ولا كُنْتَ لِلْأَعْمى مَشاهاً فَتَنَةٍ
ولا ضلَّ رَأْيُ الناشئِ الْغَرِّ فِي الصِّبا
ولا حَسَبَ الْحَقَّارِ لِلْمَوْتِ بَعْدَما
يقولون: يَرِثِي كُلَّ خَلٍّ وَصاحبِ

^١ هو الدكتور يعقوب صُرُوف، أحد صاحبي مجلة المقتطف وجريدة المقطم، كان متبتلاً للعلم، معدوداً في طليعة الكتّاب والعلماء الذين يشار إليهم بالبنان، توفي سنة ١٩٢٨.

جعلتُ عيونَ الشعرِ حُسْنَ ثوابي
وبالمستقلِّيها لسانَ صواب^٦
ولولا المنايا ما تركتُ جوابي
لها أثراً شهدَ بفيك وصاب^٧؟
وسُقنا كتابَ الحمِدِ تَلَوَ كتاب^٨
لسانَ ثوابٍ، أو لسانَ عقاب
مَضَتْ بينَ تعلِيمٍ وبينَ طُلاب
بأمالِ نفسٍ في الكمالِ رِغاب
فنزّهتها عن هوشَةٍ وكذاب^٩
ولا منتدَى لغوٍ وسوقٍ سبّاب
فلم نسرِ إلّا في شُعاعِ شهاب
معلّمٍ نشءٍ، أو إمامَ شباب
حواشي عُيونٍ في الطُروسِ عذاب^{١٠}
غذاءً، ولا يشقى به ابنُ خُضاب^{١١}
على ما لديها من رُبّى وهضاب
كما قيل في الأمثال: حَجَلُ غراب
إذا وسَمَ النَقْلُ الرجالَ بعاب
فما رَدّه لاسمٍ، ولا لِنِصاب
فوالله ما ضاقت مَنابِكُ باب
و(روما) فحلُّوا في فسيحِ رِحاب
حقيقَةُ توحيدٍ وأنتَ صَحابي
وكلُّ جوادٍ في السِّياسَةِ كابي^{١٢}
بنا الدهرُ حتى فُضَّ كلُّ شِغاب
لتحطيمِ أغلالٍ وفكِّ رِقاب^{١٣}
تلمُّ بنيتها عندَ كلِّ مُصاب
تحدَّرُ من أعطافِ كلِّ سَحاب
على طيِّباتٍ في الخِلالِ رطاب

جَزَيْتُهُمْ دَمْعِي، فلمّا جرى المَدَى
كفى بذَرَى الأعوادِ منبرَ واعِظ
دعوتُك يا يعقوبُ من منزلِ البَلَى
أذكركَ الدنيا، وكيف ولم يزلْ
حملنا إليك الغارَ بالأُمسِ ناضراً
وما انفكَّتِ الدنيا وإنَّ قلَّ لُبُّها
ألا في سبيلِ العلمِ خمسونَ حِجَّةً
قطعتَ طوائِ ليّلها ونهارها
رأى الله تُلقي إليك صحيفَةً
ولم تتخذها آلةَ الحقدِ والهوى
مَشيّنا بنُورِي علمِها وبيانها
وعشنا بها جيلَيْنِ قمتَ عليهما
رسائلُ من عَفَوَ الكلامِ كأنّها
هي المحضُ، لا يشقى به ابنُ تَمِيمَةٍ
سُهلٌ من الفُصحى وقفتَ بها الهوى
وما ضِعتَ بين الشرقِ والغربِ مشيّةً
فلم أَرْ أنقى منك سُمعةً ناقلٍ
وكم أخذَ القولَ السَّريَّ مُعَرَّبُ
وفدّتَ على الفُصحى بخيراتٍ غيرها
وقدّما دَنَتْ (يونانُ) منها و(فارسُ)
تَبَتَّلَتْ للعلمِ الشَّريفِ كأنّه
وجشّمتَ مَيدانَ السِّياسَةِ (فارساً)
وكنا و(نمرُ) في شِغابٍ، فلم يزلْ
رأى الثورةَ الكُبرى، فسَلَّ يراعَه
وما الشرقُ إلّا أُسرَةٌ أو عَشيرةٌ
سلامٌ على شيخِ الشيوخِ ورحمةٌ
ورِقافُ رِيحانٍ يروحُ ويغتدي

وذكرى وإن لم ننس عهدك ساعةً
 وويح السّوافي هل عرّضن على البلى
 وهل صنّ ماءً كان فيه كأنه
 ويا لحياة لم تدع غير سائل
 وأين يدُ كانت وكان بنانها
 ولَهفي على الأخلاق في رُكنٍ هَيكل
 نعيش ونمضي في عذاب كلِّه
 نهبنا من الأحلام في كلِّ مذهب
 وكلُّ أخى عيش وإن طال عيشه
 وشوق وإن لم نفتكر بإياب
 جبينك، أم سترّنه بحجاب؟^{١٤}
 حياءً بتول في الصلاة كعاب^{١٥}
 أكانت حياةً، أم خلية داب؟^{١٦}
 يراعة وشي، أو يراعة غاب؟
 ببطن الثرى رثّ المعالم خابي
 من العيش، أو في لذة كعذاب
 فلما انتهينا فُسرت بذهاب
 تُرابٌ لعمُر الموت وابنُ تراب

هوامش

- (١) السراب: هو ما يرى في وسط النهار كأنه الماء. ووشيك: سريع.
- (٢) النابي: المتجافي المتباعد.
- (٣) يقال: أذنته بكذا، أي أذرتة. والتباب: الهلاك.
- (٤) اللبان — بتشديد اللام مضمومة — جمع لبانة، وهي الحاجة يطلبها الإنسان من غير احتياج إليها، بل يدافع من علو الهمة والرغبة. الرضاب: هو ريق الإنسان ما دام في فمه.
- (٥) العانى: المقيد، وهنا سمى الأسير بالعاني؛ لأن من شأنه أن يقيد.
- (٦) بالمستقليها: أي براكبيها.
- (٧) الشهد: عسل النحل. والصاب: المر.
- (٨) إشارة إلى الاحتفال بالفقيد في اليوبيل الفضي لمجلته المقتطف. والغار: ورق شجر كانت تتخذ منه أكاليل الظافرين.
- (٩) هذه الصحيفة هي مجلة المقتطف التي تعدّ بحق أمجد صحيفة علمية أدبية في الشرق العربي كله، وكان الفقيد مختصاً بتحريرها.
- (١٠) قوله «كأنها حواشي عيون.. إلخ» العيون: هي عيون الماء، ويقصد بحواشيها: النباتات والزهور التي تنبت حواليتها.
- (١١) المحض: هو الخالص من كل شيء، وابن تيمية وابن خضاب: يقصد بالأول اليفع الناشئ، وبالثاني الشائب الذي يخضب شعره.

(١٢) المقصود بفارس في هذا البيت هو الدكتور فارس نمر، الشريك الثاني للفقيه في مجلتي المقتطف والمقطع، ولكنه الشريك المختص بالسياسة، كما كان الفقيه مختصاً بالعلم، وقوله: وكل جواد في السياسة كابي، إشارة رقيقة إلى المثل القائل: «لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة».

(١٣) يريد أن الدكتور نمر لم يشاغب حباً في المشاغبة، ولكنه كان متأثراً بفكرة عامة.

(١٤) السوافي: الرياح.

(١٥) البتول: المنقطعة عن الرجال وعن الدنيا إلى الله تعالى.

(١٦) الداب: بمعنى الدأب.

حسين شيرين بك^١

أرأيت زينَ العابدينَ مُجَهَّزًا
من دارِ تُوأَمِهِ وصِنُو حَيَاتِهِ
ساروا به من باطلِ الدنيا إلى
ومضُوا به لسبيلِ آدَمَ قَبْلَهُ
تحنو السماءُ على زَكِيِّ سَرِيرِهِ
وتَطَيَّبَ هَامُ الحاملينَ وراحُهم
وكانَ مصرَ بجانبِهِ رُبُوءُ
ويكاد من طربِ لعادته الندى
الطَّيِّبُ ابنُ الطَّيِّبِينَ، وربَّما
والمؤمنُ المعصومُ في أخلاقه
أبدًا يراه الله في غَلَسِ الدُّجَى
ويرى اليتامى لائذين بظُلِّه
ويراه قد أدَّى الحقوقَ جميعَها

نقلوه نقلَ الوَرْدِ من محرابه^١
والأَوَّلِ المألوفِ من أترابه^٢
بُحْبُوحَةِ الحَقِّ المبينِ وغابِه^٣
ومَصَايِرِ الأَقْوَامِ من أعقابِه
ويَمَسُّ جِدَ الأرضِ طِيبُ رِكاِبِه
من طِيبِ مَحْمِلِهِ، وطِيبُ ثِيابِه
أَذَارُ أَذْنِهَا بَوْشَكِ نَهابِه
يَنْسَلُ للفقراءِ من أثوابِه^٤
نضح الفتى فابان عن أحسابِه
من كل شائنةٍ، وفي آدابه
من صَحْنِ مَسْجَدِهِ، وحولِ كِتَابِه
ويرى الأَرَامِلَ يَعْصِمْنَ ببابِه
لم يَنْسَ منها غيرَ حقِّ شبابِه

^١ حسين بك شيرين: كان مثلاً عالياً من أمثلة مكارم الأخلاق، وكانت بينه وبين أمير الشعراء صداقة تشبه القربى، وقد توفي في سنة ١٩٣١، فنظم فيه هذه القصيدة رثاء له وتعزية لشقيقه إسماعيل بك شيرين.

أَدَّى من المعروف حِصَّةَ أَهْلِهِ
(مهويش). أَيْنَ أَبُوكَ؟ هل ذهبوا به
قد وَكَّلَ اللّٰهَ الكَرِيمَ وَعَيْنَهُ
وَدَعِيَ البُكَاءَ، يكفيه ما حَمَلَتْهُ
ولقد شَرِبْتَ بِحَادِثِ يَا طالِما
كُلُّ امْرِئٍ غَادٍ عَلَى غَوَّادِهِ
والمرءُ في طَلَبِ الحَيَاةِ طَوِيلَةٌ
في بَرٍّ (عَمَّكَ) ما يَقُومُ مَكَانَهُ
(إِسْكَندَرِيَّةُ)، كَيْفَ صَبْرُكَ عَنْ فَتَى
عَظِلْتَ سَمَاوُكَ مِنْ بَرِيقِ سَحَابِهَا
زَيْنُ الشَّبَابِ قَضَى، وَلَمْ تَتَزَوَّجِي
قد نَابَ عَنْكَ؛ فَكَانَ أَصْدَقُ نَائِبٍ
أَعْلَمْتَهُ اتَّخَذَ الأَمَانَةَ مَرَّةً
لو عاش كان مُؤَمَّلًا لِمَوَاقِفِ
يَجْلُو عَلَى الأَلْبَابِ هِمَّةَ فِكْرِهِ
وَيَفِي كَدِيدِنِهِ بِحَقِّ بِلَادِهِ
تَقْوَاكَ (إِسْمَاعِيلُ)؛ كُلُّ عَلاَقَةٍ
إِنَّ الَّذِي ذُقْتَ العَشِيَّةَ فَقَدَهُ
فَارَقْتَ صَنُوكَ مَرَّتَيْنِ، فَلَاقَهُ
من عَادَةِ الذِّكْرِ تَرُدُّ مِنَ النُّوَى
حُلْمٌ كَأَحْلَامِ الكَرَى وَسِنَاتِهِ
اسْكُبْ دُمُوعَكَ لَا أَقُولُ: اسْتَبَقِهَا

وَقَضَى مِنَ الأَحْسَابِ حَقَّ صِحَابِهِ
لِمَ لَمْ يَعِدْ؟ أَيَّانَ يَوْمُ إِيَابِهِ؟^٦
بِكَ، فَاحْسَبِيهِ عَلَى كَرِيمِ رِحَابِهِ
مِنْ دَمْعِ الشَّاكِي، وَمَنْ تَسْكَابِهِ
شَرِبْتَ بِنَاتِ الْعَالَمِينَ بِصَابِهِ
وَسُؤَالِهِمْ: مَا حَالُهُ؟ مَاذَا بِهِ؟
وَحُطِيَ الْمَنِيَّةُ مِنْ وَرَاءِ طَلَابِهِ؟
فِي عَطْفِهِ، وَحَنَانِهِ، وَدَعَابِهِ
الصَّبْرُ لَمْ يُخْلَقْ لِمِثْلِ مُصَابِهِ^٧
وَحَبَا فُضَاوُكَ مِنْ شُعَاعِ شَهَابِهِ
مِنْهُ، وَلَمْ تَتَمَتَّعِي بِقَرَابِهِ
وَالشَّعْبُ يَهْوَى الصِّدْقَ فِي نَوَابِهِ
سَبَبًا يُبَلِّغُهُ إِلَى آرَابِهِ؟
يَرْجُو لَهَا الْوَادِي كِرَامَ شَبَابِهِ
وَيَنَالُ الأَسْمَاعَ سَحَرِ خُطَابِهِ
وَيَفِي بِعَهْدِ الْمُسْلِمِينَ كِدَابِهِ^٨
سَيَبُثُّهَا الدَّهْرُ الْعَضُوضُ بِنَابِهِ^٩
بِتَّ اللَّيَالِي مُوجَعًا لِعَذَابِهِ
فِي عَالَمِ الذِّكْرِ وَبَيْنَ شِعَابِهِ^{١٠}
مَنْ لَا يَدَيْنِ لَنَا بِطَيِّ غِيَابِهِ
مُسْتَعَذَّبٌ فِي صَدْقِهِ وَكِذَابِهِ
فَأَخُو الْهَوَى يَبْكِي عَلَى أَحْبَابِهِ

هوامش

(١) أراد تشبيهه بعلي زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنهما، وفي زين العابدين هذا يقول الشاعر الفرزدق:

ما قال «لا» قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاؤه «نعم»

وتجهيز الميت: تهيئته للقبر.

(٢) الصنو: الأخ الشقيق. والتوأم: المولود مع غيره في بطن، وهذه حال الفقيد مع أخيه، والأتراب: لدات المرء وزملاؤه الذين وُلِدُوا في سن متقاربة معه.

(٣) بحبوحة المكان: وسطه.

(٤) الندى: الكرم.

(٥) المعروف هنا بمعنى البرِّ بالناس والقيام بواجب المحتاجين.

(٦) مهويش: اسم تركي، وهو علم على ابنة الفقيد.

(٧) كان الفقيد من الإسكندرية منشأً، وعضو مجلس بلديتها.

(٨) الديدن: العادة.

(٩) إسماعيل بك شيرين شقيق المرثي.

(١٠) يشير هذا البيت إلى أن الفقيد كان مغترباً في سويسرا طيلة زمن الحرب

الكبرى.

محمد عبد المطلب^١

قام من علته الشاكي الوصب
أيها النفس، اصبري واسترجعي
نزل التُربَ على مَنْ قبله
ذهب اللَّيْنُ في إرشاده
القريبُ العتبِ مِنْ مَعْنَى الرِّضا
والأخُ الصادقُ في الوُدِّ إذا
خاشعٌ في درسه، مُحْتَشِمٌ
قَلَدَ الأوطانَ نَشْأً صالحاً
ربّما صالتْ بهم في غدها
جعلوا الأقلامَ أرماحهم
لا يميلون إلى البَغْيِ بها
شاعِرُ البدو، ومنهم جاءنا
قد جرت ألسنُهم صافيةً

وتلقَى راحةَ الدهرِ التَّعبُ^١
هتَفَ الناعي بعبدِ المُطَلِّبِ^٢
كلُّ حيٍّ مُنتَهاه في التُّربِ
كالأبِ المُشفِقِ والجَدِّ الحَدَبِ
والقريبِ الجدِّ من معنى اللَّعبِ
ظَهَرَ الإخوانُ بالودِّ الكَذِبِ
فَكَه في مجلسِ الصَّفْوِ طَرِبِ
وشباباً أهلَ دينٍ وحَسَبِ
صَوْلَةَ الدولةِ بالجيشِ اللَّجِبِ^٣
وأقاموها مقاماتِ القُضْبِ
كيف يَبْغِي مَنْ إلى العلمِ انتَسَبِ؟
كلُّ معنَى رَقٍّ، أو لَفْظٍ عَذَبِ
جَريانَ الماءِ في أصلِ العُشبِ

^١ هو الأستاذ محمد عبد المطلب أستاذ الأدب في مدرسة دار العلوم، كان ينظم الشعر مؤثراً في نظمه طريقة البادين؛ ولذلك كان يلقب بشاعر البدو. وقد توفي سنة ١٩٣١، وأقيمت له حفلة تأبين أقيمت فيها هذه القصيدة.

سَلِمْتُ من عَنَتِ الطَّبْعِ، ومن
 قد نَزَلَتْ اليومَ في باديةٍ
 ومَشَى (المجنونُ) فيها ساليًا
 أَعْرَ النَّاسَ لِسَانًا يَنْظُمُوا
 قُمْ صِفِ الْخُلْدَ لَنَا فِي مُلْكِهِ
 وثمرارٍ في يواقيتِ الرُّبَى
 وانثرِ الشعَرَ على الأبرارِ في
 واستعِرَ (رضوانَ) عُودَيَّ قَصَبٍ
 واسْقِ بالمعنى إلهيًّا، كما
 كلِّمًا سَبَّخْتَ للعرشِ به
 قُمْ تَأَمَّلْ؛ هذه الدارُ وفي
 وفَتِ الدارُ لباني رُكْنِهَا
 طلبوا العلمَ على شَيْخِهِمْ
 غَابَ عن أعينهم، لكنَّه
 صورةٌ مُحَسَّنَةٌ ما تَخْتَفِي
 رجلُ الواجبِ في الدنيا مضى
 عاش عَيْشَ النَّاسِ في دنياهمُ
 أَخَذَ الدَّرْسَ الَّذِي لُقِّنَهُ
 كُفِّتِ الأَقْلَامُ، أو حَشُوِ الكُتُبِ^٤
 عَمَّرَتْ فيها (امرأُ القيسِ) الحَقَبُ^٥
 نَقَضَ اللُّوْعَةَ عنه والوَصَبُ^٦
 لك فيه الشعَرَ أو يُنْشُوا الخُطْبُ
 من جلالِ الخُلُقِ، والصَّنْعِ العَجَبِ
 وسُلاَفٍ في أباريقِ الذهبِ^٧
 قُدُسُ السَّاحِ وعُلُوِّي الرَّحْبِ
 وترنَّمُ بالقوافي في القَصَبِ^٨
 تتساقونَ الرَّحِيقَ المنسكبِ
 رَفَعَ الرَّحْمَنُ والرُّسُلُ الحُجْبِ
 لك من طُلَّابِهَا الجَمْعُ الأَرَبِ^٩
 وقضى الحقُّ بنو الدارِ النُّجْبِ^{١٠}
 زمنًا، ثم إذا الشَّيْخُ طُلِبَ
 ماثِلٌ في كلِّ قلبٍ، لم يَغِبِ
 ومثالٌ طيِّبٌ ما يَحْتَجِبِ
 يُنْصَفُ الأُخْرَى ويقضي ما وَجِبِ
 وكما قد ذهبِ النَّاسُ ذهبِ
 عُجِمَ النَّاسُ قديمًا والعربِ

هوامش

- (١) يريد بالوصب: المتعب من مرض أو من علو الهمة.
- (٢) الاسترجاع: هو قول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾
- (٣) الجيش اللجب: الكثير العدد والعدة.
- (٤) العنت: المشقة.
- (٥) امرؤ القيس: الشاعر الجاهلي المعروف.
- (٦) المجنون: مجنون ليلي، من شعراء البادية كامرئ القيس.
- (٧) يواقيت الربى: الأكمام المفتحة بالورد والثمار التي تشبه الياقوت. والسلاف: الخمر.

- (٨) رضوان: هو الملك القائم على الجنة. والقصب: المزمار أو الناي الذي يترنم به.
(٩) الجمع الأرب: أي الكثير الحصافة والكياسة والدهاء.
(١٠) النُّجُب: جمع نجيب.

يرثي جدته^١

ومن هذين كلُّ الحادثَاتِ
يَمُرُّ خيَالُهُ بالكائناتِ
كنعش المرءِ بَيْنَ النَّائِحَاتِ^١
فهل يخلو المَعْمَرُ من أَذَاةٍ؟^٢
مقاصدُ لِلْحُسَامِ وَلِلْقَنَاةِ
كما دُفِعَ الجَبَانُ إِلَى الثَّبَاتِ
بسهمٍ من يَدِ المَقْدُورِ آتِي
تُرَاكِ عَنِ التَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ
مثالَ المحسنَاتِ الْفَضْلِيَّاتِ
لَعَلَّكَ أَنْتِ أُمَّ المَومِنَاتِ
وَأَنْتِ الْيَوْمَ كُلُّ الْبَاقِيَّاتِ
بِمَنْزِلَةِ الْبَنِيْنَ أَوِ الْبَنَاتِ
وَيُؤَوِّنُ التَّقَى وَالصَّالِحَاتِ
لدى ظِلِّ الْقَنَا والمرهفاتِ

خُلِقْنَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ
وَمَنْ يُولَدُ يَعِشُ وَيَمُتُ كَأَنَّ لَمْ
وَمَهْدُ المرءِ فِي أَيْدِي الرَوَاقِي
وَمَا سَلِمَ الْوَلِيدُ مِنْ اشْتِكَاءِ
هِيَ الدُّنْيَا، قَتَالُ نَحْنُ فِيهِ
وَكُلُّ النَّاسِ مَدْفُوعٌ إِلَيْهِ
نُرُوعُ مَا نُرُوعُ، ثُمَّ نُرْمَى
صَلَاةُ اللَّهِ يَا (تَمَزَارُ) تَجْزِي
وَعَنْ تَسْعِينَ عَامًا كُنْتُ فِيهَا
بَرَرْتُ الْمُؤْمِنَاتِ، فَقَالَ كُلُّ:
وَكُنْتُ فِي الْفَضَائِلِ بَاقِيَاتُ
تَبْنَاكِ الْمُلُوكُ، وَكُنْتُ مِنْهُمْ
يُظَلُّونَ الْمَنَاقِبَ مِنْكَ شَتَّى
وَمَا مَلِكُوكِ فِي (سُوقٍ) وَلَكِنْ

^١ جدته هي المرحومة السيدة «تمزار» معتوقة جنتمكان إبراهيم باشا والي مصر، وسترى في القصيدة كيف بلغت الجدة المحترمة تلك المنزلة العالية.

عَنَنْتِ لَهُمْ (بُمُورَةَ) بِنْتَ عَشْرِ
فَكَنْتَ لَهُمْ وَلِلرَّحْمَنِ صَيْدًا
تَبِعْتَ مُحَمَّدًا مِنْ بَعْدِ عَيْسَى
فَكَانَ الْوَالِدَانِ هَدَى وَتَقْوَى
وَلَوْ لَمْ تَظْهَرِي فِي الْعُرْبِ إِلَّا
تَجَاوَزْتَ الْوَلَاءَ فَاخْرَاتِ
وَأَحْكَمْ مَنْ تَحَكَّمَ فِي يَرَاعِ
وَأَبْرَأَ مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ عِدَاءِ
وَأَصْوَنَ صَائِنٍ لِأَخِيهِ عِرْضًا
وَأَقْتَلَ قَاتِلَ اللَّذَّهِرِ حُبْرًا
كَأَنِّي وَالزَّمَانُ عَلَى قِتَالِ
أَخَافُ إِذَا تَثَاقَلَتِ اللَّيَالِي
وَلَيْسَ بِنَافِعِي حَذَرِي، وَلَكِنْ
أَمَامُونُ مِنَ الْفَلَكَ الْعَوَادِي
تَأْمَلُ: هَلْ تَرَى إِلَّا شَبَاكَ
وَلَوْ أَنَّ الْجِهَاتِ خُلِقْنَ سَبْعًا
لَعَا لِلنَّعَشِ، لَا حُبًّا، وَلَكِنْ
وَلَا خَانَتَهُ أَيْدِي حَامِلِيهِ
فَلَمْ أَرْ قَبْلَهُ الْمَرِيخَ مُلْقَى
هَنَّاكَ وَقَفْتُ أَسْأَلُكَ اتِّثَادًا
وَأَنْظُرُ فِي تُرَابِكَ، ثُمَّ أَغْضِي
وَأُذَكِّرُ مِنْ حَيَاتِكَ مَا تَقْضَى

وَسَيْفُ الْمَوْتِ فِي هَامِ الْكُمَاةِ^٢
وَوَاسِطَةُ لِعَقْدِ الْمُسْلِمَاتِ
لَخِيرِكَ فِي سَنِيكِ الْأُولَيَاتِ
وَكَانَ الْوَلَدُ هَذَا الْمَعْجَزَاتِ
بِأَحْمَدَ كُنْتَ خَيْرَ الْوَالِدَاتِ^٣
إِلَى فَخْرِ الْقِبَائِلِ وَاللُّغَاتِ
وَأَبْلَغُ مَنْ تَبْلَغُ مِنْ دَوَاةِ
وَأَنْزَهُ مَنْ تَنْزَهُ مِنْ شَمَاتِ
وَأَحْفِظُ حَافِظَ عَهْدِ اللَّدَاتِ
وَأَصْبِرُ صَابِرٍ لِلْغَاشِيَاتِ
مُسَاجِلَةً بِمِيدَانِ الْحَيَاةِ^٤
وَأُشْفِقُ مِنْ خُفُوفِ النَّائِبَاتِ
إِبَاءً أَنْ أَرَاهَا بِاغْتَاتِ
و(بِرَجْلُهُ) يَخْطُ الدَّائِرَاتِ؟
مِنَ الْأَيَّامِ حَوْلَكَ مُلَقِيَاتِ؟
لَكَانَ الْمَوْتُ سَابِعَةَ الْجِهَاتِ
لَأَجْلِكَ يَا سَمَاءَ الْمَكْرُمَاتِ^٥
وَإِنْ سَارُوا بِصَبْرِي وَالْأَنَاءِ
وَلَمْ أَسْمَعْ بِدَفْنِ النِّيِّرَاتِ
وَأُمْسِكُ بِالصِّفَاتِ وَبِالْصَّفَاةِ^٦
كَمَا يُغْضِي الْأَبْيُّ عَلَى الْقَذَاةِ
فَكَانَ مِنَ الْغَدَاةِ إِلَى الْغَدَاةِ

هوامش

(١) المهذ: الموضع يهياً للطفل. والرواقي: جمع راقية، والراقية عند العرب هي الأم أو نحوها، تضع التمايم والتعاويد على الطفل حفظاً له من العين أو من الشياطين، على زعمهم.

(٢) المعمر: هو الذي يمدُّ له في العمر. يقول في هذه الأبيات الثلاثة، إن الدنيا لا ثبات لها، فالإنسان كأنه لم يوجد، فالراقيات والنائحات والمهد والنعش والصغر والكبر في لقاء الأقدار سواءً، فلا شيء يردُّ الموت ولا يمنع القدر.

(٣) عننت لهم.. إلخ: مأخوذة من قولهم «عنَّ الصيد للصائد» إذا ظهر. ومورة: علم على صقع بعينه هو الوطن الأول لجدته. والكمة: جمع كمي، وهو الفارس المدجج بالسلاح. بعد أن قال إن جدته كانت متبناة للملوك بيّن كيف وقع لها ذلك، فقال: إنها لاحت للفرسان المغيرين على وطنها (مورة) فأخذوها أسيرة حرب. وهي لم تجاوز العاشرة، وكان هذا خيراً؛ حيث أكرمها الله، فنشأت مسلمة. ونزلت من الملوك بمنزلة بناتهم.

(٤) أحمد: هو الاسم الشريف لأمير الشعراء، يقول لجدته في هذا البيت: إذا لم يكن لك نسب في العرب إلا ولادتك لي لكنك بهذا خير أمهات العرب. لقد وضع هذا البيت نفسه توأماً لبيت المتنبي الذي يخاطب به أمه فيقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

(٥) المساجلة في القتال هي من قولهم: «الحرب سجال يوم لك ويوم عليك».

(٦) لَعًا: كلمة دعاء تقال للعائر، تقول «لَعًا له» إذا أردت سلامته و«لا لَعًا له» إذا أردت غير ذلك.

(٧) الصفاة: الحجر الصلد، والمقصود بها هنا القبر.

محمد عبده^١

مُفَسِّرَ آيِ اللّهِ بِالْأَمْسِ بَيْنَنَا قُمْ الْيَوْمَ فَسِّرْ لِلوَرَى آيَةَ الْمَوْتِ
رُحِمْتَ، مَصِيرُ الْعَالَمِينَ كَمَا تَرَى وَكُلُّ هَنَاءٍ أَوْ عَزَاءٍ إِلَى فَوْتِ
هُوَ الدَّهْرُ: مِيلَادٌ، فَشْغَلٌ، فَمَاتُمْ فَذِكْرٌ كَمَا أَبْقَى الصَّدَى ذَاهِبَ الصَّوْتِ^١

هوامش

(١) يقول: إن الإنسان يشبه الصوت، وذكره من بعده يشبه الصدى، والصدى هو ما يردُّ على المصوِّت شبيهاً بصوته، ويقال له الرجع أيضاً.

^١ هو الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية. توفي سنة ١٩٠٥، وقد ظهرت أسمى ملكاته في فهم وتفسير القرآن الشريف.

رياض باشا^١

ونعشُ في المناكب، أم عِظَاتُ؟
وموكبُك الأدلَّةُ والشَّيَاتُ؟^١
على أنواعها والنَّازلاتُ؟
وتكبرُ في الكبير النائبات
كَمَنْ تَبْكِي عليه النائحات
فتَهْوِي، ثُمَّ تُضْمِرُهَا فَلَاةُ؟^٢
وتُدْفَنُ في الترابِ المُرْهَفَاتُ؟^٣
وكانت لا تَقْرُ بها الحَصَاةُ؟
ولا يَحْمِي لِوَاءَهُم الرُّمَاةُ؟^٤
وَوُسِّدَتِ الترابِ المَكْرُمَاتُ
يُشَيِّعُهُ الفوارسُ والمُشَاةُ
يُطِيفُ به النوائحُ والبُكَاةُ
وحازتْهُ القرونُ الخالياتُ

مَمَاتُ في المواكب، أم حياةُ
ويَوْمُكَ في البريَّةِ، أم قِيَامُ
وخطْبُكَ يا (رياضُ)، أم الدواهي
يجلُّ الخطْبُ في رجلٍ جليلٍ
وليس المَيِّتُ تبكيه بلادُ
وهل تَلْقَى مناهيا الرواسي
وتُكْسِرُ في مراكزها العوالي
ويُغَشَى الليثُ في الغابات ظُهرًا
ويَرْمِي الدهرُ (نادِي عَيْنِ شَمْسٍ)
أَجَلْ؛ حُمِلَتْ على النعشِ المعالي
وحُمِلَتِ المدافعُ ركنَ سلمٍ
وحلَّ المجدُّ حُفْرَتَهُ، وأمَسَى
هوى عن أَوْجِ رِفْعَتِهِ (رياضُ)

^١ يقترن تاريخ رياض باشا بتاريخ كبار الحوادث في مصر منذ الخديو إسماعيل إلى أواخر حكم عباس الثاني تقريباً؛ فتاريخه في الواقع هو تاريخ مصر طيلة هذه الحقبة من الزمن.

ولا هَتَفَتْ بدولته الرُّواة
 نجومٌ في السماء مُحَلِّقات
 إليها فهي حَسَرَى كاسفات
 على آثار مَنْ دَرَجوا وفاتوا
 كذلك فَلْيَلِدُنَّ الأمَّهات
 هما غَرَسَا ولِلوِطْنِ النِّبات
 وأسْفارُ النُّوابِغِ مُرجعات
 وكم بُعِثَ النُّوابِغُ يومَ ماتوا
 وزينَتْها وأنْجَمُها الهُدَاة
 هدىً، ويسارةً، ومُحَسِّنات
 كنوزُ الأرضِ: نحن هي الدِّيَّات
 كما بَكَتِ الأبَّ الكَهْلَ البَنَاتُ
 ويومَ كَبُرَتْ وانْحَنَتِ القَنَاة
 ويومَ الآمرونَ بها العُصَاة^٥
 إذا بَسَطَتْ دُجَاهَا المُشْكِلَات
 إذا نَقَصَتْ مع الشَّيْبِ الحَيَاة
 إذا قِيلَ: السُّنُونُ مُتَبَّطَات
 ورَقَّتْ صَفْحَتَاهُ وَالظُّبَات^٦
 كما نَظَرْتُ إلى النَّجْمِ السُّرَاة^٧
 وألْكَ في السَّمَاءِ النُّيِّرَات^٨
 عليك الآمرونَ ولا النِّهَاة
 نَبَذَتْهُمُ كَأَنَّهُمُ النُّوَاة
 كذلك كان (بِسمركُ) التُّبَات^٩
 كذلك تَرَفَعَ الرَّجُلَ الصِّفَات
 تَلَقَّاهُ المَقَادِيمُ الأَبَاة
 ويبقى المُقَدِّمُونَ همُ الرُّعَاة
 مع (المأمون) (دِجْلَةُ) و(الفرات)^{١٠}

كَأَنَّ لم يَمَلَأُ الدُّنْيَا فِعَالاً
 نَعَاهُ (البرقُ) مُضْطَرِباً، فَمَاجَتْ
 كَأَنَّ الشَّمْسَ قد نُبِعِثَ عِشَاءً
 صَحِيفَةً غَابِرٍ طُويِتْ، وولَّتْ
 يقول الآخرونَ إذا تَلَوَّهَا:
 جَزَى اللّهُ الرِّضَا أَبُوي (رياضِ)
 بنو الدُّنْيَا على سَفَرٍ عَقِيمِ
 أَرَى الأمَوَاتِ يَجْمَعُهُم نَشُورُ
 صِلَاحُ الأَرْضِ أَحْيَاءُ وَمَوْتَى
 قَرَائِحُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ عَلَيْهَا
 فلو طُلِبَتْ لَهُم دِيَّةٌ لَقَالَتْ
 أبا الوِطْنِ الأَسِيفُ، بَكَتْكَ مِصْرُ
 قَضَيْتَ لَهَا الحَقُوقَ فَتَى وَكَهْلاً
 ويومَ النِّهْيِ لِلأَمْرَاءِ فِيهَا
 فَكُنْتُ على حُكُومَتِهَا سَرَاجاً
 يَزِيدُ الشَّيْبُ نَفْسَكَ مِنْ حَيَاةٍ
 وَتَمْلُوكُ السُّنُونُ قُوًى وَعِزْماً
 كَسِيفِ الهِنْدِ أَبْلَى حِينَ فُلْتُ
 رَفِيعُ القَدْرِ بِالْأَمْصَارِ يُرْنِي
 كَأَنَّكَ فِي سَمَاءِ المُلْكِ (يحيى)
 تَسْوسُ الأَمْرَ، لا يُعْطِي نَفَاداً
 إذا الوِزَرَاءُ لم يُعْطُوا قِيَاداً
 زَمَاعُ فِي انْقِبَاضٍ فِي اخْتِيَالٍ
 صِفَاتٌ بَلَغَتْكَ ذُرَى المَعَالِي
 وَجَدْتَ المَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِوَاءٍ
 وَيَبْقَى النَّاسُ مَا دَامُوا رَعَايَا
 (رياضِ)، طُويِتْ قَرْنًا مَا طَوَّتْهُ

بها الدُّولُ الخوالي الباذخات
عليها من حَضارته سَمَات^{١١}
وأَعمارُ الكرام مُبارَكَات
ومدرسةُ الرجال التجربات
صنائعُ أهله والمحدثات
فشَبَّ، فبايَعته الصافِنات^{١٢}
وتحكم في الرياح المنشآت
غداً هي في العوالم بارِجات^{١٣}
إذا هي كلُّ يومٍ خارقَات
وقِيدَت بالعِنان السافيات^{١٤}
يَجوب بها البحارَ، ولا أداة
ضمايرُ بينها مُتناجيات
حديث الموتِ تَبْدُ لي العِظَات^{١٥}
أَحاديثُ المُنَى والتُّرَّهَات^{١٦}
وكيف مذاقُها؟ وَمَنْ السُّقَاة؟
إذا غَصَّت بعلَقَمها اللِّهَاءُ؟^{١٧}
على عِلْمٍ، أم الموتُ الفَوَات؟^{١٨}
كما وقَعَت على (الحرم) القِطَاة؟^{١٩}
كما تبلى العِظامُ أو الرُّفَات؟
وناعِشُها كما انتعش النبات
وعيشًا لا تُكادِّره أداة
وفي بُرْدِكَ كان له حماة؟^{٢٠}
وَأَنْ الحَيَّ غايَتُه المِمات؟
ولا يَحْزُنُكَ من عيشِ فَوَات
وغاب الأهلُ، واحتجت اللِّدَات
فكيف البيتُ حولك والبنات؟^{٢١}
ومن نِعَمٍ مَلَأَن (الطَوْدَ) شاة؟^{٢٢}

تَمَنَّتْ منه أَيْامًا تحلَّى
وَوَدَّ (القيصران) لَوْ أَنَّ (روما)
حَبَاكَ اللُّهُ (حاشِيَتَيْهِ) عُمَرَا
فَقَمَتَ عليه تجرِبَةً وَخُبْرَا
تَمَرُّ عليك كَالآيَاتِ تَتَرَى
فَأَدْرَكَتَ (البخارَ) وكان طفلاً
تُجَابَ على جناحَيْهِ الفيافي
ويُصْعَدُ في السماءِ على (بروج)
وبَيْنَمَا الكهْرُبَاءُ تُعَدُّ خَرْقَا
ودان البحرُ حتى خِيضَ عُمَقَا
وَبُلِّغَتِ الرِّسائِلُ، لا جَنَاحُ
كَأَنَّ القُطَرَ حين يُجِيبُ قُطْرَا
رَهِيْنَ الرَّمْسِ، حَدَّثَنِي مَلِيًّا
هو الخبرُ اليَقِينُ، وما سواه
سَأَلْتُكَ: ما المِنيَّةُ؟ أَيُّ كَأْسٍ؟
وماذا يُوجِسُ الإنسانُ منها
وَأَيُّ المَصْرَعَيْنِ أَشَدُّ: موتُ
وهل تَقَعُ النَفُوسُ على أَمَانٍ
وَتَخْلُدُ أم كزعم القولِ تَبْلَى
تعالَى اللُّهُ قابِضُها إِلَيْهِ
وجازيها النعيمَ جَمِيَّ أَمِينًا
أَمَثْلُكَ ضَائِقٌ بِالْحَقِّ ذَرْعًا
أَلَيْسَ الْحَقُّ أَنَّ العِيشَ فَنًا
فَنَمَ ما شِئْتَ، لا تُوجِشْكَ دُنْيَا
تَصَرَّمَتِ الشَّبِيْبَةُ والليالي
خَلَّتْ (جِلْمِيَّةً) مَمَّنْ بناها
أَفِيهِ من (المحلة) قُوْتُ يومٍ

إِذَا خَشَنْتَ لَجَنَبِيكَ الصَّفَاة؟^{٢٣}
سوى ما كان يَلْتَقِطُ العُفَاة
كَرَامٌ فِي بَرِيَّتِهِ، أَسَاة
حوَالِيهَا، وَتَقْعُدُ بَائِسَات
وَأَيُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُ هَنَات؟^{٢٤}
وَلَوْ شِيتِ الْعِدَاوَةَ وَالتُّرَات
عَلَى قَلْبِي الضَّغِينَةَ وَالشَّمَات
كَرِيمًا، لَا أَقُوتُ كَمَا أَقَات
مَنَازِلُ فِي الْحَفَاوَةِ لَا تُفَات
فَوَافَتْهَا بِشَمْسَيْنِ الْغَدَاة
تَوَافَى الْجَمْعُ وَاتَّمَرَتِ السَّرَاة^{٢٥}
كَمَا نَظَمْتَ مُقِيمِيهَا الصَّلَاة
وَكَيْفَ تَرَعَرَعْتَ مَصْرُ الْفَتَاة
تَبَيَّنَتِ الرِّزَانَةُ وَالْحَصَاة^{٢٦}
وَهُمْ بَكَ فِي الَّذِي تَقْضِي حُفَاة^{٢٧}
أَشَارَ إِلَيْهِ جِلْمُكَ وَالْأَنَاة
لَكَ الْكَلِمُ الْكِبَارُ الْخَالِدَات؟
فَأَذَانُ الشَّيْبَةِ صَادِيَات؟^{٢٨}
وَضُمَّ عَلَى الْإِخَاءِ لَهُمْ شَتَات؟^{٢٩}
عَسَى يَأْسُونُ مَا جَرَحَ الْغُلَاة؟^{٣٠}
وَفَرَّقَتِ الظُّنُونُ السَّيِّئَات
تَمَزَّقَتِ الرُّوَابِطُ وَالصَّلَات
عَلَى الْأَيَّامِ إِخْوَانُ ثِقَات
بَدَتْ لَكَ فِي مَحَبَّتِهِ بَدَاة^{٣١}
تُحِبُّبُهُ إِلَيْكَ التَّجَرِبَات
فَبَعْضُ الْمَوْتِ يَجْلِبُهُ السُّبَات^{٣٢}
وَنَحْنُ إِذَا مَشِينَا (السَّلْحَاة)
وَعُدَّتْنَا الْأَمَانِي الْكَاذِبَات

وهل لك من حريهرما وساد
تَوَلَّى الْكَلُّ، لَمْ يَنْفَعَكَ مِنْهُ
عِبَادُ اللَّهِ أَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ
كَمَائِدَةِ الْمَسِيحِ، يَقُومُ بُؤْسُ
أَخَذْتُكَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى هَنَاتِ
فَصَفْحًا فِي التَّرَابِ إِذَا التَّقِينَا
خُلِقْتُ كَأَنَّنِي (عَيْسَى)، حَرَامُ
يُسَاءُ إِلَيَّ أَحْيَانًا، فَأَمْضِي
وَعِنْدِي لِلرِّجَالِ — وَإِنْ تَجَافَوْا —
طَلَعْتُ عَلَى (النَّدَى) بَعِينَ شَمْسٍ
عَلَى مَا كَانَ يَنْدُو الْقَوْمُ فِيهَا
تَمَلَّكَهُمْ وَقَارُكَ فِي خَشُوعٍ
رَأَيْتُ وَجْهَ قَوْمِكَ كَيْفَ جَلَّتْ
أُجِيلَ الرَّأْيِ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى
وَأَنْتَ عَلَى أَعْنَتِهِمْ قَدِيرُ
إِذَا أَبْدَى الشَّبَابُ هَوًى وَزَهْوًا
فَهَلَّا قُمْتَ فِي النَّادِي خَطِيبًا
تُفَجِّرُ حَكْمَةً (التَّسْعِينَ) فِيهِ
تَقُولُ: مَتَى أَرَى (الْجِيرَانَ) عَادُوا
وَأَيْنَ أُولُو النُّهَى مِنَّا وَمَنْهُمْ
مَشَتْ بَيْنَ الْعَشِيرَةِ رُسُلُ شَرٍّ
إِذَا الثَّقَةُ اضْمَحَلَّتْ بَيْنَ قَوْمٍ
فَثِقُ، فَعَسَى الَّذِينَ ارْتَبَتْ فِيهِمْ
وَرَبٌّ مُحَبَّبٌ لَا صَبَرَ عَنْهُ
وَمَكْرُوهُ عَلَى أَخَذَاتِ ظَنٍّ
بَنِي الْأَوْطَانِ، هُبُّوا، ثُمَّ هُبُّوا
مَشَى لِلْمَجْدِ خَطْفَ الْبَرْقِ قَوْمٌ
يُعِدُّونَ الْقُوَى بَرًّا وَبَحْرًا

هوامش

- (١) الشيات: جمع شية، وهي العلامة: يشبه يوم ممات رياض بيوم القيامة، ويشبه جنازته بأشراط وعلامات القيامة.
- (٢) الفلاة: الصحراء.
- (٣) العوالي: الرماح. والمرهفات: السيوف.
- (٤) نادى عين شمس: موضع المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان القبط في فترة من خلاف وقع بين الطائفتين المصريتين، لا أعادها الله.
- (٥) يشير إلى أيام الثورة العربية في مصر وإلى لون الحكم قبل تلك الثورة.
- (٦) الطبات جمع ظبة — بضم الظاء — حدٌ السيف.
- (٧) السرّة — بضم السين — جمع ساري، ولا يكون السرى إلا للمشي بالليل.
- (٨) يحيى: هو يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد.
- (٩) بسمرك: وزير ألماني ضربَ مثلاً في الحنكة والمهارة والسياسة. والزماع: الذي يزمع الأمر في جرأة وإقدام ثم لا ينتهي.
- (١٠) المأمون: هو المأمون العباسي، ودجلة والفرات: نهران بالعراق.
- (١١) سمات: علامات.
- (١٢) الصافنات: الخيل.
- (١٣) يريد بالبروج: الطائرات.
- (١٤) العنان: الزمام، والسافيات: الرياح.
- (١٥) الرمس: القبر.
- (١٦) الترهات: جمع ترهة، بتشديد الراء مفتوحة، وهي الباطل.
- (١٧) اللهاة — بفتح اللام — اللحمية المشرفة على الحلق من أقصى الفم.
- (١٨) الموت الفوات: الموت المفاجئ.
- (١٩) القطاة: الحمام، أو طير يشبه الحمام، ويقصد بالحرم: الحرم المكي حيث يحرم صيد الطيور اللاتذة به.
- (٢٠) حماة: جمع حامٍ، وهو المدافع والمانع من العدوان، والحامي: الأسد لحمايته عرينه.
- (٢١) الحلمية: حيث كانت دار الفقيد. وقوله: «وكيف البيت حولك والبنات»: يسأله عن حاله في القبر وعن زاده هناك.

- (٢٢) المحلة: محلة روح قرية في إقليم الغربية بمصر، حيث كانت توجد أملاك الفقيد الواسعة.
- (٢٣) الصفاة: الحجر والمقصود به هنا القبر.
- (٢٤) الهنات: جمع هنة، وهي الشيء الصغير، وقد تعرف أسباب تلك الهنات من قصيدة مطبوعة في الجزء الأول من الشوقيات.
- (٢٥) يندو القوم: إذا اجتمعوا ليتشاوروا في ناديمهم. والسرارة: جمع سري، وهو السيد الشريف.
- (٢٦) الحصة: العقل والرأي.
- (٢٧) الحفاة: جمع حفي، وهو هنا بمعنى العالم يتعلم باستقصاء. قال الله تعالى ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ أي سائل عنها باستقصاء.
- (٢٨) التسعين: هي مدة عمر الفقيد. وصاديات، أي ظامئات.
- (٢٩) الجيران: هم القبط والمسلمون في مصر.
- (٣٠) الغلاة: هم البالغون حد الإفراط في عقائدهم وآرائهم.
- (٣١) البداة، من قولهم: بدا لي في هذا الأمر بداء، أي ظهر لي فيه شيء.
- (٣٢) السبات: النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

عثمان باشا غالب^١

ضَجَّتْ؟ لمصرَع (غالب)
أَمَسْتُ (بتيجان) عليـ
قامت على (ساق) لغـ
في مأْتَمٍ تَلْقَى الطبيعـ
وترى (نجوم الأرض) منـ
والزَّهْرُ في (أكمامه)
وشقائق النُّعمانِ آ
أَمَّا مُصابُ الطبِّ فيـ
أودى الحمامُ بشيخهم
مُلْقِي الدُّروسِ المُسْفِرِ
قد كان حَرَبَ الظلم، حر
والمُسْتَضَاءِ بنوره
عَلِمُ الْوَرَى في عِلْمه
قد كان فيه محلٌّ

في الأرضِ (مملكة النبات)
هـ من الحِدادِ مُنْكَسَاتٍ^١
سبته، وأَقْعَدتِ الجهات
لَهْ فيه بين النَّائحات
جَزَعِ مَوَائِدِ كاسفات
يَبْكِي بدمع الغاديات
بَتَّ بالخُدودِ مُحَمَّشَاتٍ^٢
هـ فَسَلَ به مَلَأَ الْأَسَاةَ^٣
ومآبهم في المعضلات
تِ عن الغُروسِ الْمُثْمِرَاتِ
بَ الْجَهْلِ، حَرَبَ التُّرَّهَاتِ
في الخافياتِ المظلمات
في الغربِ مُغْتَرِبِ الرُّفَاتِ
إجلالِ الجهابذةِ الثقاتِ

^١ عثمان باشا غالب: كان طبيباً عظيماً وعالماً بالنبات يشار إليه بالنبات، توفي في باريس سنة ١٩٢٠.

وَمُمَثِّلَ الْمَصْرِيِّ فِي قُلْ لِلْمُرِيبِ: إِلَيْكَ، لَا
إِنْ النَوَابِغِ (أَهْلَ بَدْ
هَم فِي عُلَا الْوُطَنِ الْأَدَا
وَهُمُ الْأَلْيَ جَمَعُوا الضَّمَا
لَهُمُ التَّجَلُّةُ فِي الْحَيَا
(عُثْمَانُ)، قُمْ تَرَ آيَةً
خَرَجْتَ بَنِينَ مِنَ الثَّرَى
وَاسْمَعْ بِمَصْرِ الْهَاتِفِ
وَالطَّالِبِينَ لِحَقِّهَا
وَالْجَاعِلِيهَا قِبْلَةً
لَا قُوا أَبَوْتَهُمْ عَلَى
حَتَّى الشَّبَابِ تَرَاهُمْ
وَزَنُوا الرِّجَالَ، فَكَانَ مَا
قُلْ لِلْمُغَالِطِ فِي الْحَقِّ
الْفَكْرُ جَاءَ رَسُولُهُ
عِيسَى الشُّعُورِ إِذَا مَشَى

حَظُّ الشُّعُوبِ مِنَ الْهَبَاتِ
تَأْخُذُ عَلَى الْحَرِّ الْهَنَاتِ
(ر) مَا لَهُمْ مِنْ سَيِّئَاتٍ
ةٌ فَلَا تَحُطُّ مِنَ الْأَدَا
ئَرَّ وَالْعَزَائِمِ مِنْ شَتَاتِ
ةٍ، وَفَوْقَ ذَلِكَ فِي الْمَمَاتِ
اللَّهُ أَحْيَا (الْمُومِيَاتِ)
وَتَحَرَّكَتْ مِنْهُ بَنَاتِ
يْنَ بِمَجْدِهَا وَالْهَاتِفَاتِ
بَيْنَ السَّكِينَةِ وَالْثَبَاتِ
عِنْدَ التَّرْنَمِ وَالصَّلَاةِ
عُرِّ الْمَنَاقِبِ وَالصِّفَاتِ
غَلَبُوا الشُّيُوخَ عَلَى الْأُنَاةِ
أَعْطُوا عَلَى قَدْرِ الزَّنَاتِ
ثَقَّ حَاضِرٍ مِنْهَا وَآتِ
وَأَتَى بِإِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ
رَدَّ الشُّعُوبَ إِلَى الْحَيَاةِ

هوامش

- (١) التيجان للنبات: هي أكاليل الثمار، كالأكمام.
- (٢) شقائق: جمع شقيقة، وهي الموضع ينبت الأعشاب، وشقائق النعمان موضع بعينه كثر فيه النبات المختلف الألوان والشيئات، مرَّ عليه النعمان بن المنذر فأعجبه، فقال: هو لي، فلم يعد أحد يمسُّه، ومن ذلك سُمِّي شقائق النعمان، وصار كل موضع ينبت مثل ذلك يقال له: شقائق النعمان، والحدود في شقائق النعمان يقصد بها الورد، وتخميها: يعني لطمها أو قطعها..
- (٣) الملاء: الجماعة من الناس. والأساة جمع آسي: وهو الطبيب.

- (٤) أهل بدر: هم أول الغزاة مع محمد ﷺ، شَبَّه النوايغ بهم، ووجه الشبه بينهما، هو سبق كل منهما لإحراز أسمى مراتب الشرف والرفعة. نقول: وهذا نوع من وجه الشبه لم نر شاعراً فطن إليه قبل شوقي حيَّاه الله.
- (٥) الترنُّم: أحد ضروب العبادة في المسيحية، كالصلاة عند المسلمين.
- (٦) الزنات: جمع زنة (كعدة) وهي المرة من الوزن.

عبد الحي^١

وَعَدَتْ عَوَاطِلَ بَعْدَكَ الْأَفْرَاحُ^١
فِي مِصْرَ أَنْتَ هَزَارُهُ الصَّدَّاحُ^٢
يُغْدَى إِلَى أَفْيَائِهَا وَيُرَاحُ^٣
أَعْلِيهِ يُبْكِي، أَمْ عَلَيْكَ يُنَاحُ؟
أَوْدَى، فَلَيْسَ مَعَ الْغُبُوقِ فَلَاحُ^٤
قَدَرُ يُزِيلُ الرَاسِيَّاتِ مُتَاحُ
وَمِنَ الْجَوَاهِرِ زَيْفٌ وَصِحَاحُ^٥
حَتَّى اسْتَبَدَّ بِهَا الرَدَى الْمُجْتَاخُ
مَشَتْ الرِيَاضُ إِلَيْهِ وَالْأَدْوَاخُ
قَعَدَتْ، وَهَيْضُ لَهَا الْغَدَاةُ جَنَاحُ
وَقَضَى فَتَاهَا الْأَجُودُ الْمُسْمَاحُ
جُرْحُ فَنَفِي أَحْشَاءِ مِصْرَ جِرَاحُ
وَبُكَاءُ الشُّعُوبِ إِذَا النُّوَابِغُ طَاحُوا
سَيَّانِ صَوْتُكَ بَيْنَهُمُ وَالرَّاحُ^٦

طُيُورِي الْبِسَاطُ وَجَفَّتْ الْأَقْدَاخُ
وَانْفَضَّ نَادٍ بِالشَّامِ، وَسَامِرُ
وَتَقَوَّضَتْ لِلْفَنِّ أَطْوَلُ سَرْحِيَّةُ
وَاللَّهِ مَا أُدْرِي وَأَنْتَ وَحِيدُهُ
(إِسْحَاقُ) مَاتَ، فَلَا صَبُوحَ، وَ(مَعْبُدُ)
مَلِكُ الْغِنَاءِ أَزَالَهُ عَنْ تَخْتِهِ
فِي التُّرْبِ فَوْقَ (بَنِي سُوَيْفٍ) يَتِيمُهُ
مَا زَالَ تَاجُ الْفَنِّ تِيَاهًا بِهَا
لَوْ تَسْتَطِيعُ كِرَامَةً لِمَكَانِهَا
رُحْمَاكَ (عَبْدُ الْحَيِّ)؛ أُمُّكَ شَيْخَةٌ
كُسِرَتْ عَصَاهَا الْيَوْمَ، فَهِيَ بِلَا عَصَا
اللَّهِ يَعْلَمُ، إِنْ يَكُنْ فِي قَلْبِهَا
وَالنَّاسُ مَبْكِيٌّ وَبَاكِ إِثْرُهُ
كَانَ النَّدَامَى إِنْ شَدَوْتَ وَعَاقَرُوا

^١ هو المرحوم عبد الحي المغربي، ذاع صيته في مصر وجاوزها إلى الأقطار العربية حتى عُدَّ وحيد عصره وإمام فنه. توفي سنة ١٩١٢ م.

فيما تقول مُغْنِيًّا وَمُحَدِّثًا
فَارَقْتَ دُنْيَا أَرْهَقَتْكَ خَسَارَةً
يَا مُخْلِفاً للوعد، وَعُدُّكَ ماله
عَبَثْتُ بِهِ وَبِكَ الْمَنِيَّةُ، وانقضى
لَمَّا بَلَّغْنَا بِالْأَحْبَةِ وَالْمَنَى
زَعَمُوا نَعِيكَ فِي الْمَجَامِعِ مَازِحًا
الْجِدُّ غَايَةٌ كُلٌّ لَاهٍ لَاعِبٍ
رَمَتْ الْمَنَايَا إِذْ رَمَيْتُكَ بُلْبُلًا
أَهَاتُهُ حُرَّقَ الْغَرَامُ، وَلَفْظُهُ
وَذَبْحُنْ حَنْجَرَةً عَلَى أَوْتَارِهَا
وَقَلْلُنْ مِنْ ذَاكَ اللِّسَانِ حَدِيدَةً
وَأَبْحُنْ رَاحَتَكَ الْبَلَى، وَلَطَالَمَا
رُوحٌ تَنَاهَتْ خِفَّةً فَتَخَيَّرْتُ
قُمْ غَنْ وَلِدَانِ الْجِنَانِ وَحَوْرَهَا

تَتَنَافَسُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَرْوَاحُ^٧
وَعَنِمْتَ قُرْبَ اللَّهِ وَهُوَ رَبَّاحٌ
عِنْدِي وَلَا لَكَ فِي الضَّمِيرِ بَرَّاحٌ
سَبَبٌ إِلَيْهِ بِأَنْسِنَا نَرْتَّاحُ
بَابَ السَّرُورِ تَغْيِيبَ الْمِفْتَاحِ
هَيْهَاتَ! فِي رَيْبِ الْمَنُونِ مِزَاحُ
عِنْدَ الْمَنِيَّةِ يَجْزَعُ الْمِفْرَاحُ^٨
أَرْدَاهُ فِي شَرَكِ الْحَيَاةِ جِمَاحُ
سَجَعُ الْحَمَامِ لَوْ أَتَّهَنُ فِصَاحُ
تُؤَسَى الْجِرَاحُ، وَتُذْبَحُ الْأَتْرَاحُ
يَخْشَى لئِيمَ بَأْسِهَا وَوَقَاحُ
أَمْسَى عَلَيْهَا الْمَالُ وَهُوَ مُبَاحُ
نُزْلًا تَقَاصَرُ دُونَهُ الْأَشْبَاحُ
وَابْعَثْ صَدَاكَ فَكَلَّنَا أَرْوَاحُ

هوامش

- (١) طوي البساط: تعبير يکنى به عن انتهاء عوامل السرور.
- (٢) الهزار: طائر حسن الصوت، وهو فارسي، معرب هزاردستان.
- (٣) السرحة: الشجرة العظيمة. والأفياء: جمع فيء، وهو — من الشجر — الظل.
- (٤) إسحاق ومعبد: علما على مغنيين. والصبوح: الشرب أول الصباح. والغبوق: الشرب بالعشي.
- (٥) دُفْنُ الْفَقِيدِ فِي بَنِي سُؤفٍ وَهِيَ بَلَدَةٌ مَشْهُورَةٌ بِالْقَطْرِ الْمَصْرِيِّ. وَالْجَوَاهِرُ الزَّائِفَةُ، هِيَ ضِدُّ الْجَوَاهِرِ الصَّادِقَةِ الصَّحِيحَةِ.
- (٦) الندامي: جمع نديم. وعاقروا: من المعاقرة، وهي شرب الراح. والراح: الخمر، يشبه صوته بالخمَر؛ لِأَنَّ كُلِيهِمَا مَسْكِرٌ.
- (٧) يقول: إن حديثه كان مثل غنائه. والمأثور عن عبد الحي أنه كان فكاه الحديث النكتة.

عبد الحي

(٨) المفراح: كثير الفرح.

محمد ثابت باشا^١

مصرَ في مأتمٍ وحزنٍ شديدٍ
مُنْتَهَى العِيشِ مُرِّهِ والرَّغِيدِ
نَعَشَ كَهْلٍ تَلَاهُ نَعَشُ الْوَلِيدِ؟
خَيْطُ عِيشٍ مُعَلَّقٌ بِالْوَرِيدِ^١
وَدَمٌ بَيْنَ جَرِيَّةٍ وَجُمُودٍ
فِيهِ تَسْعِينَ حِجَّةً فِي صُعُودٍ
لِلْيَالِي، فَأَصْبَحَتْ مِنْ حَدِيدِ^٢
فَبَلَوْنَا الْوَزِيرَ عَبْدَ الْحَمِيدِ^٣
وَافَرَ الْقِسْمِ مِنْ لِسَانِ لَبِيدٍ
كُلٌّ أَوْ لَظْلُكُ الْمَمْدُودِ
إِنَّمَا أَنْتَ دَوْلَةٌ فِي فَقِيدِ
وُفُتُوحِ الْمُمْلَكِينَ الصَّيْدِ^٤
أَنْتَ أَدْرَى بِهِ وَحَالٍ جَدِيدِ
وَإِذَاكَ الْيَمْنَ فِي زَمَانٍ سَعِيدِ^٥

سِرُّ أبا صالحٍ إلى الله وَاَتَرَكَ
هَذِهِ غَايَةَ النَفُوسِ، وَهَذَا
هَلْ تَرَى النَّاسَ فِي طَرِيقِكَ إِلَّا
إِنَّ أَوْهِيَ الْخِيُوطِ فِيمَا بَدَأَ لِي
مُضْغَةً بَيْنَ خَفَقَةٍ وَسُكُونٍ
أَنْزَلُوا فِي الثَّرَى الْوَزِيرَ، وَوَارَوْا
كَنْتَ فِيهَا عَلَى يَدٍ مِنْ حَرِيرٍ
قَدْ بَلَوْنَاكَ فِي الرِّيَاسَةِ حِينًا
أَخَذًا مِنْ لِسَانِ فَارَسٍ قَسْطًا
فِي ظِلَالِ الْمُلُوكِ، تُدْنِي إِلَيْهِمْ
لَسْتَ مَنْ مَرَّ بِالْمَعَالِمِ مَرًّا
قُمْ فَحَدِّثْ عَنِ السَّنِينَ الْخَوَالِي
وَالَّذِي مَرَّ بَيْنَ حَالٍ قَدِيمٍ
وَصِفِ الْعَزَّ فِي زَمَانٍ (عَلِيٍّ)

^١ هو أحد باشوات مصر الكبار، عاصر أكثر ولاية مصر من الأسرة العلوية، وتوفي سنة ١٩٠١ بعد أن عمّر حوالي تسعين عامًا.

كيف أُسْطَوُلْهم على كل بحرٍ وسَراياهُمُ على كلِّ بَيدٍ؟^٧
قد تَوَلَّوْا وخَلَّفوك وفِيًّا في زمانٍ على الوَفْيِّ شَدِيدِ
فأَلَحَقَ اليَوْمَ بالكرام كَرِيمًا وأَلَقَهم بَيْنَ جَنَّةٍ وخُلُودِ
وتَقَبَّلَ وداعَ باكِ على فقـ سدك، وإفٍ لعهدك المحمود

هوامش

(١) الوريد: شريان بكسر الشين، وهو عرق رئيسي في جسم الإنسان، يشبه العروق في جسم الإنسان بالخيوط؛ ليتوصل بذلك إلى إثبات ضرورة الضعف في الحياة وعدم بقائها.

(٢) يد من حرير: كناية عن رفاهة العيش.

(٣) بلوناك في الرياسة: أي اخترناك. والوزير عبد الحميد: هو عبد الحميد الكاتب المشهور.

(٤) القسم: هو العطاء أو الحظ. وليبيد: شاعر عربي قديم. والغرض أن المرثي كان ملماً بالفارسية والعربية.

(٥) الصيد جمع أصيد، وهو العزيز الجانب.

(٦) يريد زمان محمد علي الكبير، ورفاهة العيش في زمن الخديو سعيد باشا.

(٧) السرايا: جمع سريّة — بالياء المشددة مفتوحة — وهي القطعة من الجيش لا يزيد عددها عن الأربعمئة. والبيد: جمع بيداء، وهي الصحراء.

محمد فريد بك^١

كلُّ حَيٍّ على المنية غادي
ذهب الأولون قرناً فقرناً
هل ترى منهم وتسمع عنهم
كثرة الأرض كم رمت صولجاناً
والغبار الذي على صفحاتها
كلُّ قبر من جانب القفر يبدو
وزمام الركاب من كلِّ فج
تطلع الشمس حيث تطلع نضجاً
تلك حمراء في السماء، وهذا
ليت شعري تعمداً وأصرّاً
كذب (الأزهران)؛ مالأمر إلا
يا حماماً ترنمت مسعديات
تتوالى الركاب والموت حادي^١
لم يدُم حاضراً، ولم يبقَ بادي^٢
غير باقي مآثر وأيادي^٣؟
وطوت من ملاعب وجياد
دوران الرحي على الأجساد
علم الحق، أو منار المعاد
ومحط الرجال من كل وادي
وتنحى كمنجل الحصاد^٤
أعوج النصل من مراس الجلال
أم أعانا جناية الميلاد
قدر رائح بما شاء غادي^٥
وبها فاقة إلى الإسعاد^٦

^١ محمد بك فريد: الرئيس الثاني للحزب الوطني، وهو الضحية الغالية للوطنية المصرية، فقد ورث عن والده ثروة طائلة جداً، بذلها إلى آخر درهم في سبيل طلب الاستقلال لمصر والسودان، وظل يجاهد إلى أن مات معدماً فقيراً في سنة ١٩٢٠، محكوماً عليه بالنفي والتشريد، حيث لم يسمح له بالعودة إلى وطنه إلا ميتاً.

ضاق عن تُكْلِهَا الْبُكَاءُ، فَتَغَنَّتْ
الْأَنَاءَةُ الْأَنَاءَةُ؛ كُلُّ أَلِيفٍ
هَلْ رَجَعْتَنَ فِي الْحَيَاةِ لِفَهْمٍ؟
سَقَمُ مَنْ سَلَامَةٍ، وَعِزَاءُ
يُجْتَنَى شَهْدُهَا عَلَى إِبْرِ النَحْدِ
وَعَلَى نَائِمٍ وَسَهْرَانٍ فِيهَا
(لُبْدُ) صَادَهُ الرَّدَى، وَأَظُنُّ النَّسْ
سَاقَةَ النَّعْشِ بِالرَّئِيسِ، رُؤَيْدًا
كُلُّ أَعْوَادٍ مِنْبَرٍ وَسَرِيرٍ
تَسْتَرِيحُ الْمَطِيُّ يَوْمًا، وَهَذِي
لَا وَرَاءَ الْجِيَادِ زِيدَتْ جَلَالًا
أَسَأَلْتُمْ حَقِيبَةَ الْمَوْتِ: مَاذَا
إِنَّ فِي طَيِّهَا إِمَامَ صُفُوفٍ
لَوْ تَرَكْتُمْ لَهَا الزَّمَامَ لَجَاءَتْ
انظُرُوا، هَلْ تَرَوْنَ فِي الْجَمْعِ مَصْرًا
تَاجُ أَحْرَارِهَا غُلَامًا وَكَهْلًا
وَسُدُّهُ التَّرَابَ نِضْوُ سِفَارٍ
وَارْكَزُوهُ إِلَى الْقِيَامَةِ رُمَحًا
وَأَقْرُوهُ فِي الصَّفَائِحِ عَضْبًا
نَازِحَ الدَّارِ، أَقْصَرَ الْيَوْمَ بَيْنُ
وَكَفَى الْمَوْتُ مَا تَخَافُ وَتَرْجُو
مَنْ دَنَا أَوْ نَأَى فَإِنَّ الْمَنَايَا
سِرٌّ مَعَ الْعَمْرِ حَيْثُ شَتَّتْ تَتُوبَا
ذَلِكَ الْحَقُّ لَا الَّذِي زَعَمُوهُ
وَجَرَى لَفْظُهُ عَلَى أَلْسِنِ النَّاسِ
يَتَحَلَّى بِهِ الْقَوِيُّ وَلَكِنْ
هَلْ تَرَى كَالْتَرَابِ أَحْسَنَ عَدْلًا

رُبُّ تُكْلِ سَمِعْتَهُ مِنْ شَادِي^٨
سَابِقُ الْإِلْفِ، أَوْ مُلَاقِي أَنْفِرَادٍ
إِنْ فَهَمَ الْأُمُورَ نِصْفُ السَّدَادِ
مَنْ هِنَاءٍ، وَفَرْقَةُ مَنْ وِدَادِ
لِ، وَيُمَشَّى لَوْرِدُهَا فِي الْقِتَادِ^٩
أَجَلٌ لَا يَنَامُ بِالْمِرْصَادِ
رَ مِنْ سَهْمِهِ عَلَى مِيعَادِ^{١٠}
مَوْكِبُ الْمَوْتِ مَوْضِعُ الْإِتْنَادِ^{١١}
بَاطِلٌ غَيْرَ هَذِهِ الْأَعْوَادِ
تَنْقُلُ الْعَالَمِينَ مِنْ عَهْدِ عَادِ
مَنْذُ كَانَتْ وَلَا عَلَى الْأَجْيَادِ
تَحْتَهَا مِنْ نَخِيرَةٍ وَعَتَادِ؟
وَحَوَارِيَّ نِيَّةٍ وَاعْتِقَادِ^{١٢}
وَحَدَّهَا بِالشَّهِيدِ دَارَ الرِّشَادِ
حَاسِرًا قَدْ تَجَلَّلَتْ بِسَوَادِ؟
رَاعَهَا أَنْ تَرَاهُ فِي الْأَصْفَادِ
فِي سَبِيلِ الْحَقِّ نِضْوُ سُهَادِ^{١٣}
كَانَ لِلْحَشْدِ، وَالنَّدَى، وَالطَّرَادِ
لَمْ يَدِنْ بِالْقَرَارِ فِي الْأَغْمَادِ
وَانْتَهَتْ مِخْنَةٌ، وَكَفَّتْ عَوَادِي^{١٤}
وَشَفَى مِنْ أَصَادِقِ وَأَعَادِي
غَايَةُ الْقَرَبِ أَوْ قُصَارَى الْبِعَادِ
وَافْقَدَ الْعَمْرَ لَا تَوْبُ مِنْ رُقَادِ
فِي قَدِيمٍ مِنَ الْحَدِيثِ مُعَادِ
سِ، وَمَعْنَاهُ فِي صُدُورِ الصُّعَادِ^{١٥}
كَتَحَلَّى الْقِتَالِ بِاسْمِ الْجِهَادِ
وَقِيَامًا عَلَى حَقِّ الْعِبَادِ؟^{١٦}

نزل الأقوياء فيه على الضعف
صفحات نقيّة كقلوب الرُسُ
قُمْ إِنْ اسْطَعْتَ مِنْ سَرِيرِكَ، وانظر
هل تراهم وَأَنْتَ مُوفٍ عَلَيْهِمْ
أُمَّةٌ هَيَّئْتُ وَقَوْمٌ لَخَيْرِ الدَّهْرِ
مصرُ تبكي عليك في كل خِذِرٍ
لو تَأَمَّلْتَهَا لِرَاعِكَ مِنْهَا
مُنْتَهَى مَا بِهِ الْبِلَادُ تُعْزَى
أُمَّهَاتٌ لَا تَحْمِلُ التُّكْلَ إِلَّا
(كفريد)، وأين ثاني فريد؟
الرئيس الجواد فيما علمنا
أَكَلْتُ مَالَهُ الْحَقُوقُ، وأبلى
لك في ذلك الضنَى رِقَّةُ الرو
عِلَّةٌ لَمْ تَصِلْ فِرَاشَكَ حَتَّى
صَادَفَتْ قُرْحَةً يُلَاثِمُهَا الصَّب
وَعَدَ الدَّهْرُ أَنْ يَكُونَ ضِمَادًا
وَإِذَا الرُّوحُ لَمْ تُنْقَسْ عَنِ الْجَسَدِ

فَقَى، وَحَلَّ الْمُلُوكُ بِالزُّهَادِ
لِ، مَغْسُولَةٌ مِنَ الْأَحْقَادِ
سِرٌّ ذَاكَ اللَّوَاءِ فِي الْأَجْنَادِ
غَيْرَ بُنْيَانِ أَلْفَةٍ وَاتِّحَادٍ؟^{١٧}
رِ أَوْ شَرُّهُ عَلَى اسْتِعْدَادِ
وَتَصَوُّغِ الرِّثَاءِ فِي كُلِّ نَادِي
غُرَّةَ الْبَرِّ فِي سَوَادِ الْجِدَادِ
رَجُلٌ مَاتَ فِي سَبِيلِ الْبِلَادِ
لِلنَّجِيبِ الْجَرِيِّ فِي الْأَوْلَادِ
أَيُّ ثَانٍ لَوَاحِدِ الْآحَادِ؟
وَبَلُونَا وَابْنَ الرَّئِيسِ الْجَوَادِ؟
جِسْمُهُ عَائِدٌ مِنَ الْهَمِّ عَادِي
ح، وَخَفَقَ الْفَوَادِ فِي الْعَوَادِ
وِطِئْتُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ
رُ، وَتَأَبَّى عَلَيْهِ غَيْرَ الْفَسَادِ
لَكَ فِيهَا، فَكَانَ شَرُّ ضِمَادِ
م (فبقراط) نَافِخٌ فِي رَمَادِ^{١٨}

هوامش

- (١) الحادي: هو الذي يغني للقافلة فتنشط في مسيرها.
- (٢) الحاضر: ساكن الحضر، والبادي: ساكن البادية.
- (٣) الأيادي: جمع يد، ويقصد باليد، العطية أو الصنعة، ولا تجمع اليد على أيادي إلا بهذا المعنى، فإذا أريد جمع اليد الحقيقية قيل: أيدي.
- (٤) المفهوم من المقام أن الرحي المقصودة هي رحي المنون، فاكتفى بتعريفها بـأل. كأنه يقول: الرحي المعهودة.
- (٥) قوله: وتنجى كمجل الحصاد، أي هلاًلاً شكله كالمنجل في اعوجاجه.
- (٦) الأزهران: الشمس والقمر.

- (٧) الإسعاد: الإعانة، تقول: أسعدني على كذا، أي أعني عليه.
- (٨) الثكل هنا: بمعنى الحزن. والشادي: المغني.
- (٩) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبرة..
- (١٠) لبد، بضم اللام وفتح الباء: علم على آخر نسور لقمان، زعموا أن لقمان هذا عاش عمر سبعة أنسر، كان آخرها النسر المسمى: لبد، أمّا قوله «وأظن النسر» فليس المقصود الطائر المعروف بالنسر، وإنما يقصد أحد الكواكب في السماء معروفًا باسم النسر، يقول إن لكل كائن سهم من المنية مقدور.
- (١١) ساقة الجيش أو ساقة النعش: هم السائرون في المقدمة. والاتئاد: بمعنى الترفُّق والتمهُّل.
- (١٢) الحواري: مفرد الحواريين، وهم الصفوة المختارة من الصحاب.
- (١٣) النضو: المهزول الجسم.
- (١٤) عوادي الدهر: عوائقه.
- (١٥) الصعاد: الرماح.
- (١٦) يقول: إنه لم يجد الحق خالصًا في هذه الأرض إلا للقوة، ولم يجد العدل كاملاً إلا في التراب، حيث يسوّى الأقوياء بالضعفاء، والطامعين بالقانعين.
- (١٧) يشير هذا البيت إلى حقيقة تاريخية، هي أن عودة الفقيد ميتًا كانت في زمن اتحاد الأمة المصرية جميعًا على طلب الاستقلال التام، فلم يكن هناك أحزاب مختلفة المطالب وقتئذ.
- (١٨) بقراط: هو أبو الطب، كما يقولون.

البنون والحياة الدنيا^١

والدموعُ تَطَّردُ	الضلوعُ تَتَّقِدُ
من عَناءٍ ما تجد	أَيُّهَا الشَّجِيُّ، أَفُقْ
عَبْرَةً لها أمد	قد جَرَتْ لغايتها
أو بُكى؛ سَيَقْتَصِدُ	كلُّ مُسْرِفٍ جَزَعًا
في السُّلُوِّ يجتهد	والزمانُ سُنَّتُهُ
في قواهما الكَمَدُ	قل لثَاكِلَيْنِ مَشَى
والدُّ، ولا وَلَدُ	لم يُعَافَ قَبْلَكُما
في سَفَارِهِم بَعُدُوا	الذين مِيلَ بِهِم
بالرحيل أَمْ سَعِدُوا؟	ما علمنا أَشَقُّوا
لا يَرُدُّ مَنْ يَرُدُ	إنَّ مَنْزِلًا نَزَلُوا
ليس بالبعيد غَدُ	كلُّنا إِلَيْهِ غَدًا
والحياةُ والوُرْدُ ^١	البنونُ هم دَمُنَا
مُهْجَةً، ولا كَبَدُ	لا تَلَدُ مِثْلَهُم
— في الحنان — والعَدَدُ	يستوون واجِدُهُم

^١ نظم أمير الشعراء هذه القصيدة تعزيةً للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل «بك» في فقد وحيدته

زينةً، ومصلحةً واستراحةً، ودُدْ^٢
 فتنةً إذا صلحوا محنةً إذا فسدوا
 شاغلٌ إذا مَرَضُوا فاجعٌ إذا فُقدوا
 جُرْحُهُمْ إذا انتَزَعُوا لا تَلْمُهُ الضُّمْدُ
 العزاءُ ليس له آسيًا، ولا الجَلْدُ
 قل (لهيكل) كَلِمًا من ورائها رَشَدُ
 لم يَشَبْ مهذبها باطلٌ ولا فَنَدُ^٣
 قد عَجِبْتُ من قَلَمٍ ثاكلٍ وَيَنْجَرِدُ
 أَنْتَ لَيْتَ معركةً وهو صارمٌ فَرَدُ
 والسيوفُ نَحَوْتُها في الوطيس تَتَقَدُّ
 أَنْتَ ناقدٌ أَرَبُ والأريبُ يَنْتَقِدُ
 ما تقول في قَدَرٍ بعضُ سنِّه الأَبْدُ؟
 وهو في الحياة على كلِّ خُطْوَةٍ رَصَدُ
 يَعْتَثِرُ الأَنَامُ به إن سَعَوْا، وإن قَعَدُوا
 يَنْزِلُ الرجالُ على حُكْمِهِ وإن جَحَدُوا
 القضاء مُعْضِلَةٌ لم يَحْلُها أَحَدُ
 كَلِّما نَقَضَتْ لها عُقْدَةٌ بَدَتْ عُقْدُ
 أَتَعَبَتْ مُعَالَجَهَا واستراح مُعْتَقِدُ
 عَالَمٌ مُدَبِّرُهُ بالبقاءِ مُنْفَرِدُ
 من بلى كَوَائِنِهِ كائِنَاتُهُ الْجُدُ
 لا تقل به إِدُدُ إنَّ حُسْنَه الإِدَدُ
 تلتقي نقائضه غايَةً وتَتَجِدُ
 الفَناءُ فيه يَدُ للبقاءِ أو عَصْدُ
 ائْتِلافه رَشَدُ واختلافه سَدَدُ
 جدٌ في عمارته مُنْصَفٌ ومضطَّهَدُ
 والغنى لخدمته كالفقير محتشدُ
 وهو في أَعْنَتِهِ مُمَعِنٌ ومُطَرِدُ

والحياةُ حَنْظَلَةٌ في حروفها شُهِدَ
هَيْكَلُ الشَّقَاءِ لَهُ مِنْ مَدَامِجِ عَمَدٍ
قَامَتِ النُّعُوشُ عَلَى جَانِبَيْهِ وَالْوُسْدُ
عُرْسُهُ وَمَأْتَمُّهُ غَايَتُهُمَا نَفْدُ

هوامش

- (١) الورد: جمع وريد، كبريد وبرد.
- (٢) الدد — بالفتح — اللهو واللعب.
- (٣) الفند: هو الكذب.
- (٤) الوطيس: الحرب.
- (٥) الإدد — جمع إدادة، بالكسر — وهي الداهية.

ثروت باشا^١

كُلُّ البِلَادِ وَسَاءُ حِينَ تُتَسَدُّ^١
كانت على جَنَابَاتِ الشَّرْقِ تَتَّقِدُ
إِنَّ النَفُوسَ إِلَى أَجَالِهَا تَفِدُ
يَوْمٌ يُفَارِقُ فِيهِ الْمُهْجَةُ الْجَسَدُ
برقُ تمايلٍ منه السَّهْلُ وَالْجَلْدُ
كَادَتْ كَأَمْسٍ لَهُ الْأَحْزَابُ تَتَّجِدُ
حتى إِذَا هَدًى مِنْ آمَالِهِمْ قَعَدُوا
وَجَلَّلَ الرِّيفَ لَيْلٌ كُلُّهُ سُهْدُ
ولم يَرُدُّ عَلَى الْبَاكِينَ مَا فَقَدُوا
دَمٌ لِكُلِّ شِمَاتٍ ضَاكِ رَصْدُ^٢
تَكَادُ بِاللَّيْلِ فِي ظِلِّ الْبَلَى تَقْدُ^٣

يموت في الغابِ أَوْ فِي غَيْرِهِ الْأَسَدُ
قد غَيَّبَ الْغَرْبُ شَمْسًا لَا سَقَامَ بِهَا
حدا بِهَا الْأَجَلُ الْمُحْتَوَمُ فَاغْتَرَبَتْ
كُلُّ اغْتِرَابٍ مَتَاعٌ فِي الْحَيَاةِ سَوَى
نَعَى الْغَمَامِ إِلَى الْوَادِي وَسَاكِنِهِ
برقُ الْفَجِيعَةِ لَمَّا ثَارَ ثَائِرُهُ
قام الرِّجَالُ حَيَارَى مُنْصِتِينَ لَهُ
علا الصَّعِيدَ نَهَارٌ كُلُّهُ شَجَنُ
لم يُبْقِ لِلضَّاحِكِينَ الْمَوْتَ مَا وَجَدُوا
وراءَ رَيْبِ اللَّيَالِي أَوْ فُجَاءَتِهَا
بَاتَتْ عَلَى الْفُلْكِ فِي التَّابُوتِ جَوْهَرَةٌ

^١ هو المغفور له عبد الخالق ثروت باشا، كان زعيمًا وطنيًا عظيمًا، وسياسيًا إداريًا خطيرًا، تولى رئاسة الحكم في البلاد أكثر من مرة، وظفر من السياسة الإنجليزية لمصر بتصريح ٢٨ فبراير، وقد سافر إلى أوروبا لبعض المفاوضات السياسية المتممة لاستقلال مصر، فلم يمهله الموت، ففضى بفرنسا في سنة ١٩٢٨، وجيء به ميتًا، وكان بينه وبين أمير الشعراء صداقة حميمة، ومودة قديمة، ظهر أثرهما في هذه المراثية، التي تقرأها فتحسُّ رجوعها يعود إليك من أعماق الخلود.

وما يدبُّ إلى البحرين أو يردُّ
 ما يقذفُ المهْدُ، لا ما يقذفُ الرُّبْدُ
 كأنها في الأكفِّ الصارمُ الفردِ
 على السرير، ومن رُحِ الحمى قصْدُ
 مُقَدَّمُ كلِّوَاءِ الحقِّ مُنفردِ
 كما تدلَّهتِ التَّكَلَّى، وتفتقدِ^٦
 كأنهم من هوانِ الخطب ما وُجدوا
 هي النجابهُ في الأولاد، لا العدد
 عودُ من الهام يحويه ولا نصد^٧
 من الصنائع أو أعناقهم سَنَدِ
 وحلَّ فيه الهدى والرفق والرشد
 جندُ السلام، ولا قُوَّاده المُجدِ
 عن البناء، ولم يصرفه مُنتقدِ
 في ثورةٍ تليدُ الأبطال أو تئد^٨
 يدنو على مثلها، أو يبعد الأمد
 من الفياصل، ما في دينه أودِ
 ومَلَّ طُولَ النضالِ الذئب والنقد^٩
 حتى تفتَّحت الأبوابُ والسُدَدِ
 إنَّ السياسةَ فيها الصَّيْدُ والطَّرْدِ^{١٠}
 يمشي إلى الصيد تحت العاصف الأسدِ
 يداك للقوم ما ذمُّوا وما حمدوا
 تُبْنَى مِنَ الصَّخَرِ الأساسُ والعُمْدِ
 وفيه سَعْيٌ مِنَ الآبَاءِ مُطَّرِدِ
 على أَسَنَتِهَا الإحسانُ والسَّدَدِ^{١١}
 لولا المنيةُ ما مالوا، ولا رقدوا
 حتى تزعزعَ من أسبابه الوتدِ
 حمايةُ الله، فاستدري بها البلدِ

يُفاخرُ النيلُ أصدافَ الخليج بها
 إنَّ الجواهرَ أسناها وأكرمها
 حتى إذا بلغ الفلكُ المدى انحدرتْ
 تلك البقيةُ من سيفِ الحمى كسرْ
 قد ضمَّها فزكا نَعشُ يُطاف به
 مشتً على جانبيه مصرُ تنشده
 وقد يموت كثيرٌ لا تحسُّهم
 تُكُلُّ البلاد له عقلٌ، ونكبُّها
 مُكلَّلُ الهام بالتصريح، ليس له
 وصاحبُ الفضل في الأعناق ليس له
 خلا من المدفعِ الجبارِ مركبُه
 إن المدافعَ لم يُخلَقْ لصحبتهِ
 يا باني الصرح لم يشغله مُمتدِّحُ
 أصمَّ عن غضبٍ من حوله ورضى
 تصرُّحُ الخطوة الكبرى ومرحلةُ
 الحقِّ والقوة ارتدَّا إلى حكمِ
 لولا سفارتك المهدية اختصما
 ما زلتَ تطرُق بابَ الصلح بينهما
 وجَدَّتْها فرصةٌ تُلقي الجبالُ لها
 طلبتَها عند هُوجِ الحادثاتِ كما
 لمَّا وجدتِ مُعدَّاتِ البناءِ بنتُ
 بنيت صرحك من جهدِ البلاد، كما
 فيه ضحايا من الأبناء قيِّمةُ
 وفي أواسيه أقلامُ مُجاهدةُ
 وفيه ألويةُ عزِّ الجهادِ بهم
 رميت في وتِدِ الذلِّ القديم به
 طوى حِمَايَتَهُ المحتلُّ، وانبسطتْ

ما شِيدَ للحَقِّ فَهَوَ السَّرْمَدُ الأَبَدُ
 للناسِ أَنْكَ كَنْزُ فِي الثَّرَى بَدَدُ^{١٢}
 وَلَا اسْتَخْفَكَ لَيْنُ الْعَيْشِ وَالرَّغْدِ
 تَرْجُو فَتَقْدِمُ، أَوْ تَخْشَى فَتَتَّئِدُ
 يَدُورُ حَيْثُ تَدُورُ الْمَجْدُ وَالْحَسَدُ
 وَمَا لِيَوْمِكَ يَا خَيْرَ اللَّذَاتِ غَدُ
 مِنْيَّةُ مَا لَهَا قَلْبُ، وَلَا كَبِدُ
 أَزْكَى مِنَ الْوَرْدِ، أَوْ مِنْ مَائِهِ الْوُرْدُ^{١٣}
 فِيهِ الصَّدِيقُ وَفِيهِ الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ
 مِنْكَ الدَّهَاءُ وَرَأْيُ مُنْقِذُ نَجْدِ
 شَجَاهُ ذَاكَ الْحَنَانُ السَّاكِنُ الْهَمْدُ؟
 لَمْ يَبِكْ مِنْ آدَمِ أَحْبَابُهُ أَحَدُ
 مَدِينَةُ النُّورِ، فَارْتَدَّتْ بِهَا رَمْدُ^{١٤}
 لِلْعِلْمِ حَوْلَكَ عَيْنٌ لَمْ تَنْمُ وَيَدُ
 إِلَيْكَ تَحْمِلُ تَسْلِيمِي، وَلَا بُرْدُ^{١٥}
 فِي مَجْلِسِ الرَّاحِ وَالرِّيحَانِ تَحْتَشِدُ
 كَمَا تَحْدَرُ حَوْلَ السَّوْسَنِ الْبَرْدُ^{١٦}
 وَدُّ مِنَ الصَّغَرِ الْمَعْسُولِ مُنْعَقِدُ
 وَلَا تَغْيِيرُ فِي أَبْيَاتِهَا الشُّهُدُ
 حَدَاثَةٍ تَعِدُ الْأَوْطَانَ مَا تَعِدُ
 يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ قُلْتُ الَّذِي أَجِدُ؟^{١٧}

نَمْ غَيْرَ بَاكِ عَلَى مَا شَدَّتْ مِنْ كَرَمِ
 يَا (ثُرُوة) الْوَطْنِ الْغَالِي، كَفَى عِظَةً
 لَمْ يُطْغِكَ الْحَكْمُ فِي شَتَى مَظَاهِرِهِ
 تَعْدُو عَلَى اللَّهِ وَالتَّارِيخِ فِي ثِقَةٍ
 نَشَأَتْ فِي جَبْهَةِ الدُّنْيَا، وَفِي فَمِهَا
 لِكُلِّ يَوْمٍ غَدٌ يَمْضِي بِرَوْعَتِهِ
 رَمَتَكَ فِي قَنَوَاتِ الْقَلْبِ فَاَنْصَدَعَتْ
 لَمَّا أُنَاخَتْ عَلَى تَامُورِكَ انْفَجَرَتْ
 مَا كُلُّ قَلْبٍ غَدَا أَوْ رَاحَ فِي دَمِهِ
 وَلَمْ تَطَاوِلْكَ خَوْفًا أَنْ يُنَاضِلَهَا
 فَهَلْ رَثَى الْمَوْتَ لِلْبَرِّ الذَّبِيحِ؟ وَهَلْ
 هَيْهَاتَ! لَوْ وُجِدَتْ لِلْمَوْتِ عَاطِفَةٌ
 مَشَتْ تَذُودُ الْمَنَايَا عَنْ وَدِيعَتِهَا
 لَوْ يُدْفَعُ الْمَوْتُ رَدَّتْ عَنْكَ عَادِيَةٌ
 «أَبَا عَزِيز» سَلَامُ اللَّهِ، لَا رُسُلُ
 وَنَفْحَةٌ مِنْ قَوَافِي الشَّعْرِ كُنْتَ لَهَا
 أَرْسَلْتُهَا وَبَعَثْتُ الدَّمَاعَ يَكْنُفُهَا
 عَطَفْتُ فَيْكَ إِلَى الْمَاضِي، وَرَاجَعَنِي
 صَافٍ عَلَى الدَّهْرِ لَمْ تُقْفِرْ خَلِيقَتَهُ
 حَتَّى لِمَحْتِكَ مَرْمُوقَ الْهَلَالِ عَلَى
 وَالشَّعْرُ دَمْعٌ، وَوَجْدَانٌ، وَعَاطِفَةٌ

هوامش

- (١) هذا المطلع يشير إلى موته بفرنسا.
- (٢) رصد: بمعنى مترقب.
- (٣) يشير إلى مجيئه من أوروبا في نعش على الباخرة. وتقذ: تضيء.
- (٤) يريد بالخليج: الخليج الفارسي. وبالبحرين: مجموعة جزر عربية بالقرب من الشاطئ الغربي للخليج الفارسي، وعندها يصاد اللؤلؤ.

(٥) القصد — بكسر القاف —: جمع قصدة — بكسرها أيضًا هي القطعة مما يكسر، ويقال: رمح قصد، بكسر الصاد: أي منكسر.

(٦) التدلُّه: ذهاب الفؤاد من عشق أو حزن ونحوهما، وقوله: «تفتقد» من قولهم: وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

(٧) العود هنا: هو السرير، النضد — محرّكة الضاد — ما نضد من متاع والسرير ينضد عليه، كأنه يعجب لمن كلل هامات مصر بمجيئه لها بهذا الفوز السياسي في تصريح ٢٨ فبراير، كيف لا يحويه ميثاقاً سرير متخذ من الهام أو منضد بها، حتى يكون الجزاء من جنس العمل، ومن هذا النحو يقول البيت التالي: «وصاحب الفضل في الأعناق ... إلخ».

(٨) يريد بالثورة: ثورة مصر سنة ١٩١٩، والوَأْد: دفن الأحياء، يريد أنه كان يعمل في بناء صرح الوطن، بدون رغبة في مدح، أو خوف من ذم، في شجاعة لا تخاف الثورة، وهي لا عقل لها.

(٩) النقد: جنس من الغنم قبيح الشكل، من الهزال أو غيره.

(١٠) الطرد: مطاردة الصيد.

(١١) الأواشي: جمع آسية، وهي من البناء: المحكم الدعامة، والسدد: بمعنى السداد، أي الصواب.

(١٢) البدد: المتفرق.

(١٣) التامور: القلب. والورد، جمع وريد: العرق في الجسم.

(١٤) مدينة النور: تطلق في هذا العصر على باريس.

(١٥) البرد: جمع بريد.

(١٦) السوسن: نوع من الزهر، والبرَد: هو ما يتساقط من المطر كحبات الثلج.

(١٧) أي هل قلت الذي يجيش في وجداني؟

عبد العزيز جاویش^١

أَصَابَ الْمَجَاهِدُ عُقْبَى الشَّهِيدِ
وَأَمْسَى جَمَادًا عَدُوَّ الْجَمُودِ
حَدَاهُ السَّفَارُ إِلَى مَنْزِلِ
فَقَرَّ إِلَى مَوْعِدٍ صَادِقٍ
وَبَاتَ الْحَوَارِيُّ مِنْ صَاحِبِيهِ
تَسَرَّبَ فِي مَنْكِبِي (مُصْطَفَى)
فِيَالِكَ قَبْرًا أَكُنَّ الْكَنُوزَ
لَقَدْ غَيَّبُوا فِيكَ أَمْضَى السِّيُوفِ
ثَلَاثُ عَقَائِدَ فِي حَفْرَةٍ
قَعْدَنَ فَكُنَّ الْأَسَاسَ الْمَتِينَ
فَلَا تَنْسَ أَمْسٍ وَآلَاءَهُ
وَلَوْلَا الْبَلَى فِي زَوَايَا الْقُبُورِ

وَأَلْقَى عَصَاهُ الْمُضَافُ الشَّرِيدَ
وَبَاتَ عَلَى الْقَيْدِ خَصْمُ الْقِيُودِ
يَلْقَى الْخَفِيفَ عَلَيْهِ الْوَيْدِ
مُعِزُّ الْيَقِينِ مُذِلُّ الْجُودِ
شَهِيدَيْنِ أَسْرَى إِلَيْهِمْ شَهِيدَ
كَأَمْسٍ، وَبَيْنَ ذِرَاعِي (فَرِيدِ)^١
وَسَاحِ الْحَقُوقِ، وَحَاطَ الْعُهُودِ
فَهَلْ أَنْتَ يَا قَبْرُ أَوْفَى الْغُمُودِ؟
تَذُكُّ الْجِبَالَ، وَتُوْهِى الْحَدِيدِ
وَقَامَ عَلَيْهَا الْبِنَاءُ الْمَشِيدِ
أَلَا إِنَّ أَمْسَ أَسَاسُ الْوُجُودِ^٢
لَمَا ظَهَرَتْ جِدَّةٌ لِلْمُهِودِ

^١ هو الشيخ عبد العزيز جاویش، أحد السابقين في خدمة القضية المصرية، كان زعيمًا سياسيًا دينيًا عظيمًا، وقد كرّس حياته لخدمة سياسة بلاد الإسلام عامة، ومصر وتركيا خاصة، ثم حُكِمَ عليه بالنفي والتشريد مدة طويلة، ثم عاد إلى مصر ولم يلبث إلا بضع سنين، ومات في سنة ١٩٢٩، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها.

فإن العقيدة كنز عتيد
جليد الرجال، وغير الجليد
لقد أن أن يستريح الطريد
وما كالسياسة داه يكيد^٣
ق، وجاوزت المستطاع الجهود
ر، وغربت مثل الجمان الفريد
نبيه المكانة، جم العديد؟^٤
ربا الريف، وافتن فيك الصعيد
وراح الثرى من زحام يَميد
وتنسى رسائل عبد الحميد
ويحفظها النشء حفظ النشيد
وطول المدى، وانتقال الجدود؟^٥
فهل لأحاديثه من مُعيد؟
وللتُّرك؟ ما شأنه والهنود؟
من المسلمين وهم البعيد؟
من المسلمين إمام رشيد؟
ولّى القديم نصير الجديد؟
فلم يعد هذي الكتاب المجيد
ويدعو إلى الله أهل الجحود
دعاة تغني، ورسل تشيد
رؤوف الفؤاد، رحيم الوريد^٦
أو العلم تحت ظلال (الرشيد)^٧
ويدركهم في زوايا اللُحود
وجاملهم في البلاء الشديد
وكفكف بالعطف دمع الوليد
يُغير التراب رفيف الورود
وهل بين حي وميت بريد؟

ومن طلب الخلق من كنزه
تعلم بالصبر، أو بالثبات
طريد السياسة منذ الشباب
لقيت الدواهي من كيدها
حملت على النفس ما لا يطا
وقلبت في النار مثل النضا
أذكر إذ أنت تحت (اللواء)
إذا ما تطلعت في الشاطئين
وهز الندي لك المنكبين
رسائل تُذري بسجع البديع
يعيها شيوخ الحمى كالحديث
فما بالها نكرتها الأمور
لقد نسي القوم أمس القريب
يقولون: ما (لأبي ناصر)
وفيم تحمل هم القريب
فقلت: وما ضرّكم أن يقوم
أتستكثرون لهم واحدا
سعى ليؤلف بين القلوب
يشد عُرا الدين في داره
وللقوم حتى وراء القفار
جزى الله ملكا من المحسنين
كأن البيان بأيامه
يُداوي نداء جراح الكرام
أجار عيالك من دهرهم
تولّى الوليدة في يتمها
سلام (أبا ناصر) في التراب
بعدت وعز إليك البريد

أَجَلْ؛ بَيْنَنَا رَسْلُ الذِّكْرِيَّاتِ وَمَا ضُ يُطِيفُ، وَدَمْعُ يَجُودِ
وَفَكْرُ وَإِنْ عَقَلَتْهُ الْحَيَاةُ يَظَلُّ بَوَادِي الْمَنَايَا يَرُودُ^١
أَجَلْ؛ بَيْنَنَا الْخُشْبُ الدَّائِبَاتُ وَإِنْ كَانَ رَاكِبُهَا لَا يَعُودُ
مَضَى الدَّهْرُ وَهِيَ وَرَاءَ الدَّمُوعِ قِيَامُ بِمُلْكِ الصَّحَارَى قُعودُ
وَكَمْ حَمَلْتُ مِنْ صَدِيدٍ يَسِيلُ وَكَمْ وَضَعْتُ مِنْ حِنَاشٍ وَدُودِ
نَشَدْتُكَ بِالْمَوْتِ إِلَّا أَبْنَتَ أَأَنْتَ شَقِيٌّ بِهِ أَمْ سَعِيدُ؟
وَكَيْفَ يُسَمَّى الْغَرِيبُ امْرُؤُ نَزِيلُ الْأَبْوَةِ، ضَيْفُ الْجُدُودِ؟
وَكَيْفَ يُقَالُ لَجَارِ الْأَوَائِ لِي جَارِ الْأَوَاخِرِ: نَاءٍ وَحِيدُ؟

هوامش

- (١) هو مصطفى كامل الزعيم الوطني الأول، وفريد: هو محمد فريد الزعيم الوطني الثاني، وكانا صاحبي الفقيد في المبدأ والجهاد.
- (٢) الآلاء: النعم.
- (٣) الداهي: هو الذي يأتي بالداهية، وهي الأمر العظيم.
- (٤) كان الفقيد محرر جريدة اللواء في عهدها الأول.
- (٥) الجدود هنا: بمعنى الحظوظ.
- (٦) هو جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حيث تعطف على أبناء الفقيد ولم يتركهم بعد وفاة أبيهم لتصاريف الزمن؛ فأنعم عليهم بهبة ملكية وافرة.
- (٧) هو هارون الرشيد، وقد اعتز العلم والأدب في عهده اعتزازاً كبيراً.
- (٨) يرود: أي يبحث ويكتشف.
- (٩) يقول: إن الميت ينزل في التراب ضيفاً على آبائه وجدوده، إذن فليس يصح أن نعتبه غريباً ولا وحيداً.

تعزية ورثاء^١

كأُسٍ مِنَ الدُّنْيَا تُدَارُ لَيْلُ قَوَّامٍ بِهَا
وَحَبَا بِهَا الْأَعْمَارُ، لَمْ شَرِبَ الصَّبِيُّ بِهَا، وَلَمْ
وَحَسَا الْكَرَامُ سُلَافَهَا وَأَصَابَ مِنْهَا ذُو الْهَوَى
وَلَقَدْ تَمِيلُ عَلَى الْجَمَا كَأُسُ الْمَنِيَّةِ فِي يَدِ
تَجْرَى الْيَمِينُ، فَمَنْ تَو أَوْدَى الْجَرِيءِ إِذَا جَرَى
لَيْثُ الْمَعَامِعِ، وَالْوَقَا وَبَقِيَّةُ الزُّمَرِ الَّتِي
جَنْدُ الْخِلَافَةِ، عَسْكَرُ السِّدِّ مَنْ ذَاقَهَا خَلَعَ الْعِذَازُ^١
فَإِذَا وَنَى قَامَ النَّهَارُ
تَدُمُ الطُّوَالُ، وَلَا الْقِصَارُ
يَخْلُ الْمُعَمَّرُ مِنْ خُمَارِ
وَتَنَاوَلُ الْهَمَلُ الْعُقَارُ^٢
مَا قَدْ أَصَابَ أَخُو الْوَقَارِ
دَ، وَتَصَرَّعَ الْفَلَكَ الْمُدَارِ
عَسْرَاءَ، مَا مِنْهَا فِرَارُ^٣
لَّى يَسْرَةً جَرَتْ الْيَسَارِ
وَالْمُسْتَمِيْتُ إِذَا أَغَارِ
ئُعِ، وَالْمَوَاقِعِ، وَالْحِصَارِ
كَانَتْ تَذُودُ عَنِ الذُّمَارِ
لَطَّانٍ، حَامِيَةُ الدِّيَارِ

^١ وجّه هذه التعزية إلى صديقه حامد بك خلوصي حين مات والده المرحوم الأميرالاي مصطفى بك خلوصي، وقد كان من الضباط الكرام الذين مجدوا في قمع الثورة في الجزيرة (كريد) أيام كانت تابعة للدولة العثمانية.

ضاقَتْ (كريدُ) جبالُها	بك يا (خلوصي) والِقْفار
أَيَّامُكُمْ فِيهَا - وَإِنْ	طال المدى - ذاتُ اشْتِهَار
عَلِمَ الْعَدُوُّ بِأَنْكُمْ	أَنْتُمْ لِمَعْصِمِهَا سِوَار
أَحْدَقْتُمْ بِمَقَرِّهِ	فتركتموه بلا قرار
حتى اهتدى مَنْ كان ضا	لَّ، وثاب من قد كان ثار
واغْتَزَّ رَكْنٌ لِلْوَلا	ية كان مُنْقَضَ الْجِدَار
عِشْ لِلْعُلا والمجد - يا	خيرَ البنين - وللِفخار
أَبْكِي لدمعك جاريًا	ولدمع إخوتِكَ الصِّغار
وَأَوْدُ أَنْكُمُ رجا	لُ مثل والِدِكم كِبَار
وأريد بيتَكُمْ عما	را، لا يُحاكيه عَمَار
لا تخرجُ النِّعماءُ من	ه، ولا يُزايِلُهُ اليَسَار

هوامش

(١) العذار: الحياء والوقار.

(٢) السلاف والعقار: من أسماء الخمر، يقال: حسا فلان الماء إذا شربه شيئاً بعد

شيء.

(٣) يقال للرجل: أعسر، إذا عمل بيده الشمال. والعرب تصف ما ليس محبوباً

بالأعسر إذا كان مذكراً، وبالعسراء إذا كان مؤنثاً، فيد المنية عسراء، لأنها كذلك.

ذكرى هيجو^١

إِلا وَأَنْتِ أَجَلٌ يَا فِكْتُورُ
عُمُرٌ لِمِثْلِكَ فِي النُّجُومِ قَصِيرُ
لِلْعَالَمِينَ مَدَارُكَ وَشَعُورُ
كَالنَّجْمِ لَمْ يُرَ مِنْهُ إِلَّا النُّورُ
وَسَأَلْتُ: أَيْنَ السَّيِّدُ الْمَقْبُورُ؟^١
هَلْ فِيهِ مِنْ قَلَمِ الْفَقِيدِ سُطُورُ؟
تَاجٌ فَقَدْتُمْ رَبُّهُ وَسَرِيرُ
مُلْكُ الْبَيَانِ، فَأَنْتُمْ جُمُهورُ
وَجَلَالُهُ بَيْرَاعُهُ مَسْطُورُ؟
نَزَلَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ وَالتَّصْوِيرُ
فِي طَيِّهَا لِلْقَارِئِينَ ضَمِيرُ
غَرَضٌ، وَلَا نَظْمٌ، وَلَا مَنثورُ
وَبَرْدُهُ لِلَّهِ وَهُوَ قَرِيرُ
يَرْجُو وَيَأْمَلُ عَفْوَهُ الْمَثُورُ

مَا جَلَّ فِيهِمْ عَيْدُكَ الْمَأْثُورُ
ذَكَرُوكَ بِالْمِئَةِ السَّنِينَ، وَإِنِّهَا
سَتَدُومُ مَا دَامَ الْبَيَانُ، وَمَا ارْتَقَتْ
وَلَنْ حُجِبَتْ فَأَنْتِ فِي نَظَرِ الْوَرَى
لَوْلَا التَّقَى لَفَتَحْتُ قَبْرَكَ لِلْمَلَا
وَلَقُلْتُ: يَا قَوْمُ انظُرُوا إِنجِيلَكُمْ
مَنْ بَعْدَهُ مَلِكُ الْبَيَانِ؟ فَعِنْدَكَ
مَاتَ الْقَرِيضُ بِمَوْتِ (هُوجُو)، وَانْقَضَى
مَاذَا يَزِيدُ الْعَيْدُ فِي إِجْلَالِهِ
فَقَدَتْ وَجْوهُ الْكَائِنَاتِ مُصَوِّرًا
كُشِفَ الْغَطَاءُ لَهُ، فَكُلُّ عِبَارَةٍ
لَمْ يُعْيِهِ لَفْظٌ، وَلَا مَعْنَى، وَلَا
مُسْلِي الْحَزِينِ يَفُكُّهُ مِنْ حَزْنِهِ
ثَارَ الْمُلُوكُ، وَظَلَّ عِنْدَ إِبَائِهِ

^١ نُظِّمْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي ذِكْرِى شَاعِرِ فَرَنْسَا الْكَبِيرِ (فِيكْتُورِ هِيْجُو) لِمُنَاسِبَةِ مَرُورِ مِائَةِ عَامٍ عَلَى وَفَاتِهِ.

وَأَعَارَ (واترلو) جلالَ يَرَاعِهِ
يا أَيُّهَا البحرُ الذي غمرَ الثرى
أَنْتَ الحَقِيقَةُ إِن تَحْجَبْ شَخْصُهَا
ارْفَعْ حَدَادَ العالمينَ وعُدْ لهم
وانظُرْ إلى البُؤْسَاءِ نظرةً راحم
الحالَ باقيةً كما صَوَّرَتْهَا
البُؤْسُ والنُّعْمَى على حالِيهما
ومن القويِّ على الضعيفِ مُسَيِّطِرٌ
والنفسُ عاكفةٌ على شهواتها
والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي

فجلالُ ذاك السيفِ عنه قصيرٌ^٢
وَمِنَ الثرى حُفَرٌ له وقبور
فلها على مرِّ الزمانِ ظهور
كَيْمَا يُعَيِّدُ بَائِسٌ وفَقِير
قد كان يُسعدُ جَمْعَهُم وَيُجِيرُ^٣
من عهدِ آدمَ ما بها تغيير
والحظُّ يَعْدِلُ تارةً ويجور
ومن الغنيِّ على الفقيرِ أمير
تَأْوِي إلى أَحقادها وتثور
والموتُ أَصْدَقُ، والحياةُ غرورٌ

هوامش

- (١) الملاء: جماعة الناس.
- (٢) واترلو: علم على موضع من المواضع الذي حصلت فيه الموقعة التي هُزِمَ فيها نابليون هزيمته الكبرى.
- (٣) يشير إلى رواية البُؤْسَاءِ، تأليف فكتور هيجو.
- (٤) العيشُ آمالٌ تجد: أي تتجدد.

عبدہ الحامولي^١

وتَوَلَّى فَنَ عَلَى آثَارِهِ^١
لَا تَفِرُّ النَّسُورُ مِنْ أَظْفَارِهِ
(لُبْدًا) فِي الطَّوِيلِ مِنْ أَعْمَارِهِ^٢
دُ كَثِيبًا يَبْكِي عَلَى مِزْمَارِهِ^٣
عَبْدُهُ فِي افْتِنَانِهِ وَابْتِكَارِهِ
قُ (السَّمِيعِينَ) رَبِّ مَصْرٍ وَجَارِهِ^٤
فِي جَمَى جَعْفَرٍ وَضَافِي سِتَارِهِ^٥
وَمِنْ الصَّفْوِ أَنْ يَلُودَ بَدَارِهِ
لِكَ، وَيُنْسِي الْوَقُورَ ذِكْرَ وَقَارِهِ
وَأَثَارَ الْجَسَانَ مِنْ أَقْمَارِهِ^٦
وَحِجَازٍ أَرْقٍ مِنْ أَسْحَارِهِ^٧
كَحَدِيثِ النَّدِيمِ أَوْ كَعُقَارِهِ
عَرَفَ السَّامِعُونَ مَوْضِعَ نَارِهِ
حِينَ يُلْحَى تَكُونُ مِنْ أَعْدَارِهِ

سَاجِعُ الشَّرْقِ طَارَ عَنْ أَوْكَارِهِ
غَالَهُ نَافِذُ الْجَنَاحِينَ مَاضٍ
يَطْرُقُ الْفَرَخَ فِي الْغُصُونِ وَيَغْشَى
كَانَ مِزْمَارَهُ، فَأَصْبَحَ دَاوُ
(عَبْدُهُ) بَيِّدَ أَنْ كُلَّ مُغَنٍّ
مَعْبُدُ الدَّوْلَتَيْنِ فِي مَصْرَ، وَإِسْحَا
فِي بَسَاطِ الرَّشِيدِ يَوْمًا، وَيَوْمًا
صَفْوُ مُلْكَيْهِمَا بِهِ فِي ازْدِيَادٍ
يُخْرِجُ الْمَالِكِينَ مِنْ حِشْمَةِ الْمُلْ
رُبَّ لَيْلٍ أَغَارَ فِيهِ الْقَمَارِي
بَصَبًا يُذَكِّرُ الرِّيَاضَ صَبَاهُ
وَعَنَاءٍ يُدَارُ لَحْنًا فَلَحْنًا
وَأَنِينٍ لَوْ أَنَّهُ مِنْ مَشُوقٍ
يَتَمَنَّى أَخُو الْهَوَى مِنْهُ أَهَّا

^١ توفي عبدہ الحامولي في ١٩٠٢، وكان نادرة الزمن في حسن الصوت وفي ابتكار الألحان، هذا إلى أريحية ومروءة يضرب بهما المثل.

رَفَرَاتُ كَأَنَّهَا بَثُّ (قَيْسٍ)
 لَا يُجَارِيهِ فِي تَفَنُّنِهِ الْعَو
 يَسْمَعُ اللَّيْلُ مِنْهُ فِي الْفَجْرِ: يَا لَيْدِ
 فَجَّعَ النَّاسُ يَوْمَ مَاتَ (الْحَمُولِي)
 بِأَبِي الْفَنِّ، وَابْنِهِ، وَأَخِيهِ
 وَالْأَبِّي الْعَفِيفِ فِي حَالَتَيْهِ
 يَحْبِسُ اللَّحْنَ عَنْ غَنِّي مُدِلٌّ
 يَا مُغِيثًا بِصَوْتِهِ فِي الرِّزَايَا
 وَمُحِلًّا الْفَقِيرَ بَيْنَ ذَوِيهِ
 وَعِمَادَ الصَّدِيقِ إِنْ مَالَ دَهْرٌ
 لَسْتُ بِالرَّاحِلِ الْقَلِيلِ فَتَنْسَى
 غَايَةَ الدَّهْرِ إِنْ أَتَى أَوْ تَوَلَّى
 نَزَلَ الْجَدُّ فِي الثَّرَى، وَتَسَاوَى
 وَانْقَضَى الدَّاءُ بِالْيَقِينِ مِنَ الْحَا
 لَهْفٍ قَوْمِي عَلَى مَخَايِلِ عَزٍّ
 وَعَلَى ذَاهِبٍ مِنَ الْعَيْشِ، وَلَيْدِ
 وَزَمَانٍ أَنْتَ الرُّضَى مِنْ بَقَايَا
 كَانَ لِلنَّاسِ لَيْلُهُ حِينَ تَشْدُو
 فِي مَعَانِي الْهَوَى وَفِي أَخْبَارِهِ^٨
 دُ، وَلَا يَشْتَكِي إِذَا لَمْ يُجَارِهِ
 لُ، فَيُصْغِي مُسْتَمَهْلًا فِي فِرَارِهِ
 بِدَوَاءِ الْهَمُومِ فِي عَطَّارِهِ
 الْقَوِيُّ الْمَكِينِ فِي أَسْرَارِهِ
 وَالْجَوَادُ الْكَرِيمِ فِي إِيْثَارِهِ
 وَيُذِيقُ الْفَقِيرَ مِنْ مُخْتَارِهِ^٩
 وَمُعِينًا بِمَالِهِ فِي الْمَكَارِهِ
 وَمُعِزًّا الْيَتِيمَ بَيْنَ صِغَارِهِ
 وَشِفَاءَ الْمَحْزُونِ مِنْ أَكْدَارِهِ
 وَاحِدُ الْفَنِّ أُمَّةٌ فِي دِيَارِهِ
 مَا لَقِيتَ الْغَدَاةَ مِنْ إِدْبَارِهِ
 مَا مَضَى مِنْ قِيَامِهِ وَعِثَارِهِ
 لَيْنٌ، فَالْمَوْتُ مُنْتَهَى إِقْصَارِهِ
 زَالَ عَنَّا بِرَوْضِهِ وَهَزَارِهِ^{١٠}
 تَ فَوَلَّى الْأَخِيرُ مِنْ أَوْطَارِهِ
 هُ، وَأَنْتَ الْعَزَاءُ مِنْ آثَارِهِ
 لَحَقَّ الْيَوْمَ لَيْلُهُ بِنَهَارِهِ

هوامش

- (١) الأوكار: جمع وكر، وهو عشب الطائر.
- (٢) لبدي: اسم نسر.
- (٣) يشبه صوت المرثي في صفائه بمزمار داود النبي صاحب المزامير.
- (٤) يشبهه بمعبد وإسحاق. ويقصد بقوله «رب مصر وجاره» ملك مصر وجاره من أرباب الأقطار العربية. يعني أن عبده كان يطرب الأقطار العربية جميعها كما كان معبد وإسحاق كذلك.

(٥) الرشيد: هو هارون الرشيد. وجعفر: هو جعفر البرمكي وزيره، والغرض أن المراثي كان ينتقل من بساط الملوك المشابهين للرشيد، إلى بساط الوزراء المشابهين لجعفر.

(٦) القماري: جمع قمرية، نوع من الحمام حسن التغريد. والأقمار: جمع قمر. يريد أنه كان يطرب الحسان الشبيهات بالأقمار.

(٧) صبا الرياض — بفتح الصاد —: نسيمها. أمّا كلمة «صبا» الواقعة في أول البيت فمقصود بها نغمة معروفة في فن الغناء، وهي مفتوحة الصاد أيضاً، كأنها سميت بذلك تشبيهاً لها بالنسيم المعروف بالصبا، وكذلك «حجاز»: نغمة معروفة في الغناء أيضاً.

(٨) قيس: هو ابن الملوح الشهير بمجنون ليلى.

(٩) المدلّ بالمال: المتباهي به، يشير هذا البيت على بعض ما يؤثر عن عبده رحمة الله عليه، أنه كان يلجأ إليه الفقراء ليحيي أفراس أولادهم، فيحسن إليهم، ويجيب طلبهم، وينفق من ماله في تشييد الاحتفال اللائق بسهرته. وربما أثر هذه الليلة الفقيرة على دعوة أحد الأغنياء الكبار، ويروى له في هذا الباب حكايات كثيرة.

(١٠) الهزار: طائر حسن الصوت، فارسي.

قاسم بك أمين^١

نقضي حقوق الرفقة الأخيار^١
والعهد أن يُبْكُوا بدمعٍ جاري^٢
بالقفر بعد منازلٍ وديار
من بعد سُكْنَى السمع والأبصار
والبشرُ للندماءِ والسُّمَّار؟^٣
مَرَّوا بها كنسائم الأسفار
فتعهَّد الموتى من الإيثار^٤
أبكيكُم من غُيْبٍ حُضَار
سَفَرٌ سَأَزْمَعُه من الأسفار
هذا قَرَارُكُم، وذاك قَراري
مَصْرٌ بفردٍ في الرجال مَنَار^٥
نجم الهداية لم يَدُم للساوي؟
مَحْمُولَةٌ لمشيئة الأقدار
رُزُّ الممالك فيه والأمصار

يا أَيُّهَا الدَّمْعُ الوَفِيُّ، بَدَارِ
أَنَا إِن أَهْنُكَ فِي ثَراهم فالهوى
هانوا وكانوا الأكرمين، وعودروا
لهفي عليهم؛ أَسْكِنُوا دَوْرَ الثرى
أَيْنَ البِشَاشَةِ فِي وسيم وجوهم
كنا من الدنيا بهم في رَوْضَةٍ
عطفًا عليهم بالبكاءِ وبالأسى
يا غَائِبِينَ وفي الجوانح طَيْفُهُم
بيني وبينكُم وَإِن طال المدى
إِنِّي أَكَادُ أَرى مَحَلِّي بينكم
أَوْ كُلَّمَا سَمَحَ الزمانُ وبُشِّرَتِ
فُجِعَتْ به، فكأنه وكأنها
إِنَّ المصيبةَ فِي (الأمين) عظيمةٌ
فِي أَرْيَحِيٍّ ماجِدٍ مُسْتَغْظَمٍ

^١ المرحوم قاسم بك أمين هو الزعيم صاحب دعوة تحرير المرأة في مصر، وقد توفي في سنة ١٩٠٩.

أَوْفَى الرِّجَالِ لِعَهْدِهِ وَلِرَأْيِهِ
وَأَشَدَّهُمْ صَبْرًا لِمَعْتَقِدَاتِهِ
يَسْقِي الْقَرَائِحَ هَادئًا مُتَوَاضِعًا
قَلَّ لِلسَّمَاءِ تَغُضُّ مِنْ أَقْمَارِهَا
مِنْ كُلِّ وَضَاءٍ الْمَآثِرَ فَائِتٍ
تَمْضِي اللَّيَالِي لَا تَنَالُ كِمَالَهُ
آثَارُهُ بَعْدَ الْمَوَاتِ حَيَاتُهُ
يَا مَنْ تَفَرَّدَ بِالْقَضَاءِ وَعِلِمِهِ
مَا زِلْتَ تَرْجُوهُ، وَتَخْشَى سَهْمَهُ
هَلَا بُعِثْتَ فَكُنْتَ أَفْصَحَ مُخْبِرًا
انْفُضْ غُبَارَ الْمَوْتِ عَنْكَ وَنَاجِنِي
هَذَا الْقَضَاءُ الْجِدُّ، فَارْوِ، وَهَاتِ عَنْ
كُلِّ وَإِنْ شَغَفَتْهُ ذُنْيَاهُ هَوًى
لِلَّهِ (جَامِعَةً) نَهَضْتَ بِأَمْرِهَا
أُمْنِيَّةُ الْعُقْلَاءِ قَدْ ظَفَرُوا بِهَا
وَالْعَقْلُ غَايَةُ جَزْيِهِ لِأَعْنَتِهِ
لَوْ يَعْلَمُونَ عَظِيمَ مَا تُرْجَى لَهُ
تَشْرِيقِ الْمَمَالِكُ بِالْذَّمِّ اسْتِقْلَالَهَا
بِالْعِلْمِ يُبْنَى الْمَلِكُ حَقَّ بِنَائِهِ
وَلَقَدْ يُشَادُّ عَلَيْهِ مِنْ شَمِّ الْعُلَا
إِنْ كَانَ سَرَّكَ أَنْ أَقْمَتَ جِدَارَهَا
أَضَحَتْ مِنَ اللَّهِ الْكَرِيمِ بِذِمَّةٍ
كُلِّتَ بِأَنْظَارِ (الْعَزِيزِ)، وَحُصِّنْتَ
وَإِذَا الْعَزِيزُ أَعَارَ أَمْرًا نَظْرَةً
مَاذَا رَأَيْتَ مِنَ الْحِجَابِ وَعُسْرِهِ
رَأْيِي بَدَا لَكَ لَمْ تَجِدْهُ مُخَالَفًا
وَالْبَاسِلَانِ: شَجَاعُ قَلْبٍ فِي الْوَغَى

وَأَبْرَّهَمَ بِصَدِيقِهِ وَالْجَارِ
وَتَأَذُّبًا لِمَجَادِلٍ وَمِمَارِي
كَالْجَدُولِ الْمُتَرْقِرِ الْمَتَوَارِي
تَحْتَ التَّرَابِ أَحَاسِنُ الْأَقْمَارِ
زُهِرَ النُّجُومُ بِزُهِرِهِ السَّيَّارِ
بِمُعِيبِ نَقِصٍ أَوْ مَشِينٍ سَرَارٍ
إِنَّ الْخُلُودَ الْحَقَّ بِالْآثَارِ
إِلَّا قَضَاءَ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ
حَتَّى رَمَى فَأَحْطَتْ بِالْأَسْرَارِ
عَمَّا وَرَاءَ الْمَوْتِ مِنْ (لَا زَارٍ)؟
فَعَسَايَ أَعْلَمُ مَا يَكُونُ غُبَارِي
حُكْمِ الْمَنِيَّةِ أَصْدَقُ الْأَخْبَارِ
يَوْمًا مُطْلَقُهَا طَلَاقَ (نَوَّارٍ)^٨
هِيَ فِي الْمَشَارِقِ مَصْدَرُ الْأَنْوَارِ
بَعْدَ اخْتِلَافِ حَوَادِثِ وَطَوَارِي
وَالْجَهْلُ غَايَةُ جَزْيِهِ لِعِثَارِ
خَرَجَ الشَّحِيحُ لَهَا مِنَ الدِّينَارِ
قَوْمُوا اشْتَرَوْهُ بِفُضَّةٍ وَنُضَارِ
وَبِهِ تُنَالُ جَلَائِلُ الْأَخْطَارِ
مَا لَا يُشَادُّ عَلَى الْقَنَا الْخَطَّارِ^٩
قَدْ سَاءَهَا أَنْ مَالَ خَيْرُ جِدَارِ
مَرْمُوقَةِ الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ
(بِفَوَادٍ)؛ فَهِيَ مَنِيْعَةُ الْأَسْوَارِ^{١١}
فَالِيْمُنُ أَعْجَلُ، وَالسُّعُودُ جَوَارِي
فَدَعَوْتُنَا لِتَرْفُقَ وَيَسَارِ؟
مَا فِي الْكِتَابِ وَسُنَّةِ الْمُخْتَارِ
وَشَجَاعُ رَأْيٍ فِي وَغَى الْأَفْكَارِ

أَوَدِدْتُ لو صارت نساءً النيل ما
يَجْمَعْنَ في سلم الحياة وحربها
إِنَّ الحجابَ سَمَاحَةٌ وَيَسَارَةٌ
جَهَلُوا حَقِيقَتَهُ وَحِكْمَةَ حُكْمِهِ
يَا قُبَّةَ (الغوري) تَحْتِكَ مَأْتَمٌ
يُحْيِيهِ قَوْمٌ فِي القلوبِ على المدي
هِيَهَات! تُنْسَى أُمَةٌ مَدْفُونَةٌ
إِنَّ شَتَّى يَوْمًا أَوْ أَرَدْتَ فَحَقْبَةٌ
هَاتُوا ابْنَ (ساعدة) يُؤَبِّنُ قَاسِمًا
مَنْ كُلِّ لائِقَةٍ لِبَاذِخِ قَدَرِهِ
كَانَتْ نِسَاءُ (قُضَاعِيَّة) وَ(نِزَار)؟^{١٢}
بِأَسِّ الرِّجَالِ وَخَشْيَةِ الأَبْكَارِ
لَوْلا وَحُوشٌ فِي الرِّجَالِ ضَوَارِي
فَتَجَاوَزُوهُ إِلَى أَدْنَى وَضِرَارِ
تَبْقَى شَعَائِرُهُ عَلَى الأَدْهَارِ
إِنْ فَاتَهُمْ إِحْيَاؤُهُ فِي دَارِ
فِي أَرْبَعِينَ مِنَ الزَّمَانِ قِصَارِ
كُلُّ يَمَرٍّ كَلِيلَةٍ وَنَهَارِ
وَخَذُوا المَرَاثِي فِيهِ مِنْ (بَشَّار)^{١٣}
عَصَمَاءَ بَيْنَ قَلَائِدِ الأشْعَارِ

هوامش

- (١) بدار: يعني بادر.
- (٢) يقول: إِنَّ الذين أَبْذَلَ دَمْعِي وَأَهْيَنِي فِي تَرَابِهِمْ هُمُ هَوَايَ وَمَوْضِعُ حَبِي، وَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ يَبْكِيَ الْإِنْسَانُ أَهْلَ حُبِّهِ وَهَوَاهُ.
- (٣) السمار: جمع سامر، والسمر: حديث الأصدقاء بالليل.
- (٤) الإيثار: هو أَنْ تَعْطِيَ لغيرِكَ مَا أَنْتَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ.
- (٥) المنار: هو العلم يَهْتَدِي النَّاسُ بِهِ فِي الطَّرِيقِ.
- (٦) سرار — يفتح السين وكسرهما —: مُشْتَقٌّ مِنْ قَوْلِهِمْ: اسْتَسَرَّ الْقَمَرُ، إِذَا خَفِيَ لَيْلَةُ السَّرَارِ، وَهِيَ آخِرُ لَيْلَةٍ أَوْ لَيْلَتَيْنِ فِي الشَّهْرِ.
- (٧) لَأَزَارُ أَوْ عَازَارُ: اسْمُ الرَّجُلِ الَّذِي أَحْيَاهُ سَيِّدُنَا عِيسَى، وَيَقُولُ لَوْ بَعَثْتَ لَكُنْتُ أَفْصَحَ فِي إِخْبَارِكَ عَنِ الْمَوْتِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ.
- (٨) نوار: اسْمُ امْرَأَةٍ بَعِيْنَهَا كَانَتْ زَوْجَةَ الْفَرَزْدَقِ الشَّاعِرِ، فَطَلَّقَهَا فَندِمَ كَثِيرًا حَتَّى ضَرَبَ الْمَثَلَ بِنَدَامَتِهِ فِي كُلِّ طَلَاقٍ نَادِمٍ.
- (٩) هي الجامعة المصرية، وَكَانَ لِلْفَقِيدِ فَضْلٌ مَذْكُورٌ فِي إِنْشَائِهَا.
- (١٠) الخطار: أَيُّ المَهْتَزِّ، وَاهْتِزَّازُ الْقَنَا: كُنَايَةُ عَنْ اسْتِعْدَادِهِ لِلْقِتَالِ.
- (١١) العزيز: هُوَ كُلُّ مَلِكٍ لِمِصْرَ: وَكَانَ الْخَدِوْءُ عَبَّاسٌ وَقَتْنَدُ، وَفَوَّادُ، هُوَ جَلَالَةُ مَلِكِ مِصْرَ فَوَّادُ الْأَوَّلِ.

(١٢) ليس الغرض نساء هاتين القبيلتين قضاة ونزار بالذات، وإنما المقصود المرأة العربية الموصوفة في البيت التالي.

(١٣) ابن ساعدة، هو قسُّ بن ساعدة الإيادي، أحد خطباء العرب الحكماء، يضرب به المثل فلا بلاغة الخطب، وبشَّار: هو بشَّار بن برد الشاعر المشهور، يقول إن قاسمًا لا يؤبَّنه إلا أمثال قس من الخطباء وأمثال بشار من الشعراء.

تولستوي^١

عليك، وَيَبْكِي بَائِسٌ وَفَقِيرٌ
وما كُلَّ يَوْمٍ لِلضَّعِيفِ نَصِيرُ
وَأَنْتَ سَرَّاجٌ غَيِّبُوهُ مُنِيرُ
ولا يَمْلِكُونَ الْبِثْ وَهُوَ يَسِيرُ
عليهم، وَتَغْشَى دَوْرَهُمْ وَتَزُورُ
وَلِلْخَادِمِينَ النَّاqَمِينَ قُشُورُ
أَنَاجِيلُ مِنْهَا مُنْذِرٌ وَبَشِيرُ؟
غَدَاةَ مَشَى (بِالْعَامِرِيِّ) سَرِيرُ
يَرَاغُ لَهُ فِي رَاqَتَيْكَ صَرِيرُ^١
وقيل: (بَدِيرِ) الرَّاهِبَاتِ أَسِيرُ
وَلِلطَّبِّ مِنْ بَطْشِ الْقَضَاءِ عَذِيرُ
وَجَاوِرُ (رَضْوَى) فِي التَّرَابِ (ثَبِيرُ)^٢
وَعَالَى بِمَقْدَارِ النَّظِيرِ نَظِيرُ

(تولستوي)، تُجْرِي آيَةُ الْعِلْمِ دَمْعَهَا
وَشَعْبُ ضَعِيفُ الرِّكْنِ زَالِ نَصِيرُهُ
وَيَنْدُبُ فَلَاحُونَ أَنْتَ مَنَارُهُمْ
يَعَانُونَ فِي الْأَكْوَاحِ ظُلْمًا وَظُلْمَةً
تَطُوفُ كَعِيسَى بِالْحَنَانِ وَبِالرَّضَى
وَيَأْسَى عَلَيْكَ الدِّينُ، إِذْ لَكَ لُبُّهُ
أَيَكْفُرُ بِالْإِنْجِيلِ مَنْ تِلْكَ كُتُبُهُ
وَيَبْكِيكَ إِلْفٌ فَوْقَ (لَيْلَى) نَدَامَةً
تَنَاولَ نَاعِيكَ الْبِلَادَ كَأَنَّهُ
وقيل: تَوَلَّى الشَّيْخُ فِي الْأَرْضِ هَائِمًا
وقيل: قَضَى لَمْ يُغْنِ عَنْهُ طَبِيبُهُ
إِذَا أَنْتَ جَاوَرْتَ (الْمَعْرِيَّ) فِي الثَّرَى
وَأَقْبَلَ جَمْعُ الْخَالِدِينَ عَلَيْكُمَا

^١ تولستوي: هو الفيلسوف الروسي الشهير، كان عالمًا عاملاً بما يقول، فتخلَّى عن ماله الجَمِّ ليساوي نفسه بالفقراء، ولعل رواياته ومؤلفاته كانت الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة في روسيا وقد توفي سنة ١٩١٠ وهو شيخ كبير.

جَمَاهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ عَطَرُهَا شَذَى
 بِهِنَّ يُبَاهِي بَطْنُ (حَوَاءَ)، وَاحْتَوَى
 فَقُلْ يَا حَكِيمَ الدَّهْرِ حَدِّثْ عَنِ الْبَلَى
 أَحْطَتَ مِنَ الْمَوْتِ قَدِيمًا وَحَادِثًا
 طَوَانَا الَّذِي يَطْوِي السَّمَاوَاتِ فِي غَايِ
 تَقَادِمِ عَهْدَانَا عَلَى الْمَوْتِ، وَاسْتَوَى
 كَأَنَّ لَمْ تَضُقْ بِالْأَمْسِ عَنِّي كُنَيْسَةً
 أَرَى رَاحَةً بَيْنَ الْجَنَادِلِ وَالْحَصَى
 نَظَرْنَا بِنُورِ الْمَوْتِ كُلَّ حَقِيقَةٍ
 إِلَيْكَ اعْتِرَافِي، لَا لِقَسٍّ وَكَاهِنِ
 فَزَهْدُكَ لَمْ يُنْكِرْهُ فِي الْأَرْضِ عَارِفٌ
 بَيَانٌ يَشْمُ الْوَحْيُ مِنْ نَفْحَاتِهِ
 سَلَكَتُ سَبِيلَ الْمُتَرَفِّينَ، وَلِذَا لِي
 أَدَاةُ شَتَائِي الدَّفْعُ فِي ظِلِّ شَاهِقٍ
 وَمُتَّعْتُ بِالْدُنْيَا ثَمَانِينَ حِجَّةً
 وَذَكَرْتُ كُضُوءَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
 فَمَا رَاعَنِي إِلَّا عَذَارَى أَجْرَنَنِي
 أَرَدْتُ جَوَارَ اللَّهِ وَالْعَمْرُ مُنْقَضٌ
 صَبًّا، وَنَعِيمٌ بَيْنَ أَهْلِ وَمَوْطِنِ
 بِهِنَّ — وَمَا يَدْرِينَ: مَا الذَّنْبُ؟ — خَشِيَّةُ
 أَوَانَسُ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ مُوَحِّشِ
 وَأَشْبَهُ طَهْرٍ فِي النِّسَاءِ بِمَرْيَمِ
 تُسَائِلُنِي: هَلْ غَيَّرَ النَّاسُ مَا بِهِمْ؟
 وَهَلْ أَثَرَ الْإِحْسَانَ وَالرَّفْقَ عَالَمٌ
 وَهَلْ سَلَكَوا سُبُلَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَهُمْ
 وَهَلْ أَنْ مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ تَسَامُحٌ
 وَهَلْ عَالَجَ الْأَحْيَاءُ بِؤْسًا وَشَقْوَةً

جَنَاهُنَّ مَسْكُ فَوْقَهَا وَعَبِيرِ
 عَلَيْهِنَّ بَطْنُ الْأَرْضِ وَهُوَ فَخُورِ
 فَأَنْتَ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ خَبِيرِ
 بِمَا لَمْ يُحْصَلْ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ^٢
 وَيَنْشُرُ بَعْدَ الطَّيِّ وَهُوَ قَدِيرٌ
 طَوِيلُ زَمَانٍ فِي الْبَلَى وَقَصِيرِ
 وَلَمْ يُؤُونِي دَيْرٌ هُنَاكَ طَهُورِ
 وَكُلُّ فِرَاشٍ قَدْ أَرَّاحَ وَثِيرُ
 وَكُنَّا كِلَانَا فِي الْحَيَاةِ ضَرِيرِ
 وَنَجْوَايَ بَعْدَ اللَّهِ وَهُوَ غَفُورِ
 وَلَا مُتَعَالٍ فِي السَّمَاءِ كَبِيرِ
 وَعَلِمُ كَعَلَمِ الْأَنْبِيَاءِ غَزِيرِ
 بَنُونَ وَمَالٌ، وَالْحَيَاةُ غُرُورِ
 وَعُدَّةُ صَيْفِي جَنَّةٌ وَغَدِيرِ
 وَنَضَّرَ أَيَّامِي غَنَى وَحُبُورِ
 وَلَا حَظٌّ مِثْلُ الشَّمْسِ حِينَ تَسِيرِ
 وَرُبَّ ضَعِيفٍ تَحْتَمِي فُيْجِيرِ
 وَجَاوَرْتُهُ فِي الْعَمْرِ وَهُوَ نَضِيرِ
 وَلِذَا تُدْنِيَا، كُلُّ ذَاكَ نَزُورِ^٦
 وَمَنْ عَجِبَ تَخَشَّى الْخَطِيئَةَ حُورِ^٧
 وَلِلَّهِ أَنْسُ فِي الْقُلُوبِ وَنُورِ
 فَتَاةٌ عَلَى نَهْجِ الْمَسِيحِ تَسِيرِ
 وَهَلْ حَدَّثَتْ غَيْرَ الْأُمُورِ أُمُورِ؟
 دَوَاعِي الْأَذَى وَالشَّرُّ فِيهِ كَثِيرِ؟
 كَمَا يَتَصَافَى أُسْرَةً وَعَشِيرِ؟
 خَلِيقٌ بِأَدَابِ الْكِتَابِ جَدِيرِ؟
 وَقُلْ فِسَادٌ بَيْنَهُمْ وَشُرُورِ؟

قم انظر وأنت المالى الأرض حكمة
 أناس كما تدري، ودنيا بحالها
 وأحوال خلق غابر مُتجدد
 تمرّ تباعاً في الحياة كأنها
 وحرص على الدنيا، وميل مع الهوى
 وقام مقام الفرد في كل أمة
 وحوّر قول الناس: مؤلى وعبد
 وأضحى نفوذ المال لا أمر في الورى
 تساس حكومات به وممالك
 وعصر بنوه في السلاح، وجرّصه
 ومن عجب في ظلّها وهو وارف
 ويأخذ من قوت الفقير وكسبه
 ولما استقلّ البرّ والبحر مذهباً

أجدى نظيم، أم أفاد نثير؟
 ودهر رخي تارة وعسير
 تشابه فيها أول وأخير
 ملاعب لا ترخي لهنّ سطور
 وغش، وإفك في الحياة، وزور
 على الحكم جم يستبدّ غفير
 إلى قولهم: مستأجر وأجير
 ولا نهى إلا ما يرى ويشير
 ويُذعن أقيال له وصدور
 على السلم يُجري ذكره ويُدير
 يُصادف شعباً آمناً، فيغير
 ويؤوي جيوشاً كالحصى ويمير
 تعلّق أسباب السماء يطير

هوامش

- (١) الصرير: التصويت. واليراع: القلم.
- (٢) المعري: هو أبو العلاء المعري، وشعره الفلسفي الاجتماعي مشهور. ورضوى وثبير علمان على جبلين: أولهما بالمدينة وثانيهما بمكة: يريد تشبيهه هو والمعري بهذين الجبلين.
- (٣) يريد أنه كان يعرف أشرار النفوس جد المعرفة.
- (٤) النشر: هو البعث من الموت، وهو أيضاً ضد الطي.
- (٥) الفراش الوثير: اللين الناعم.
- (٦) نزور: أي قليل.
- (٧) الحور: جمع حوراء، وهي الجارية في عينها حور. والحور: اشتداد بياض العين وسوادها.
- (٨) أقيال: جمع قيل، وهو الملك. والصدور: جمع صدر، وهو العظيم من الناس كالوزير ونحوه.

عمر بك لطفي^١

قِفُوا بِالْقُبُورِ نُسَائِلُ عُمَرُ
سَلُوا الْأَرْضَ: هَلْ زُيِّنَتْ لِلْعَلِي
وَهَلْ قَامَ (رَضَوَانُ) مِنْ خَلْفِهَا
فَلَوْ عَلِمَ الْجَمْعُ مِمَّنْ مَضَى
إِلَى جَنَّةٍ خُلِقَتْ لِلْكَرِيمِ
بِرَغْمِ الْقُلُوبِ وَحُبِّتِهَا
نَزُولُكَ فِي التُّرْبِ زَيْنُ الشَّبَابِ
مُقِيلُ الصَّدِيقِ إِذَا مَا هَفَا
حَيِّيتَ فَكُنْتَ فَخَارَ الْحَيَاةِ
عَجِيبُ رَدَاكَ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ
فَمَا قَبْلَهَا سَمِعَ الْعَالَمُونَ
وَقَدْ يَقْتُلُ الْمَرْءُ هُمُ الْحَيَاةِ
دَفَنًا التَّجَارِبَ فِي حُفْرَةٍ

مَتَى كَانَتِ الْأَرْضُ مَثْوَى الْقَمَرِ؟
مَمْ؟ وَهَلْ أُرْجَتْ كَالْجَنَانِ الْحَفَرِ؟
يُلَاقِي الرَّضَى النَّقْيَ الْأَبْرَ؟
تَنْحَى لَهُ الْجَمْعُ حَتَّى عَبَرِ
وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ، أَوْ مَنْ قَدَرَ
وَرَغْمِ السَّمَاعِ، وَرَغْمِ الْبَصَرِ
سَنَاءَ «النَّدَى» سَنَى «الْمُؤْتَمَرِ»^١
مُقِيلُ الْكَرِيمِ إِذَا مَا عَثَرَ
وَمُتَّ فَكُنْتَ فَخَارَ السَّيْرِ
حَيَاتُكَ فِي طَوْلِهَا وَالْقِصْرِ
وَلَا عَلِمُوا مُصْحَفًا يُخْتَصِرُ
وَشَغْلُ الْفَوَادِ، وَكَدُّ الْفِكْرِ
إِلَيْهَا انْتَهَى بِكَ طَوْلُ السَّفَرِ

^١ توفي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١، وكان عالمًا قانونيًا ضليعًا، كما كان في حياته يكاد يتقَدَّ غيرة على قوميته وحبًا لمصلحة بلاده، وهو في طليعة مؤسسي نقابات التعاون في مصر.

فكم لك كالنَّجم من رحلَةٍ
«نِقَابَاتُكَ» الغُرُّ تَبْكِي عَلَيْكَ
وَيَبْكِي فَرِيقٌ تَخَيَّرْتَهُ
وَيَبْكِي الْأَلْيُ أَنْتَ عَلَّمْتَهُمْ
حَيَاتُكَ كَانَتْ عِظَاتٍ لَهُمْ
سَهَرْنَا قُبَيْلَ الرَّدَى لَيْلَةً
فَقَمْتُ إِلَى حَفْرَةِ هُيَّئْتُ
مَدَدْتُ إِلَيْكَ يَدًا لِلْوَدَاعِ
وَلَوْ أَنَّ لِي عِلْمَ مَا فِي غَدٍ
وَقَالُوا: شَكَّوْتُ، فَمَا رَاعَنِي
رَثِيئُكَ لَا مَالَكَا خَاطِرِي
فَفِيكَ عَرَفْتُ ارْتِجَالَ الدُّمُوعِ
فَمَثْلُكَ يَرْتَى بِأَيِّ الْكِتَابِ
فِيَا قَبْرُ، كُنْ رَوْضَةً مِنْ رِضَى
سَقَتِكَ الدُّمُوعُ، فَإِنْ لَمْ يَدْمَنَّ

رَأَى الْبَدُوُ آثَارَهَا وَالْحَضَرَ
وَيَبْكِي عَلَيْكَ «النَّدَى» الْأَعْرُ
شَرِيفَ الْمَرَامِ، شَرِيفَ الْوَطَرِ
وَأَنْتَ غَرَسْتَ، فَكَانُوا الثَّمَرِ
وَمَوْتُكَ بِالْأَمْسِ إِحْدَى الْعِبَرِ
وَمَا دَارَ ذَكَرُ الرَّدَى فِي السَّمْرِ^٢
وَقَمْتُ إِلَى مَثَلِهَا تُحْتَفَرُ
وَمَدَّ يَدًا لِلْقَاءِ الْقَدَرِ
خَبَاتُكَ فِي مُقْلَتِي مِنْ حَذَرِ
وَمَا أَوَّلُ النَّارِ إِلَّا شَرَرِ
مِنَ الْحُزَنِ، إِلَّا يَسِيرًا خَطَرُ^٣
وَمِنْكَ عَلِمْتُ ارْتِجَالَ الدُّرِّ
وَمَثْلُكَ يُفْدَى بِنِصْفِ الْبَشَرِ
عَلَيْهِ، وَكُنْ بَاقَةً مِنْ زَهَرِ
كَعَادَتِهِنَّ سَقَاكَ الْمَطَرِ

هوامش

(١) الندى: يريد نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيساً له. ويريد بالمؤتمر المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين في هليوبوليس، ردًا على المؤتمر الذي أقامه أعيان الأقباط في أسيوط. والسناء — بالمد — الضوء، — وبالقصر —: الرفعة.

(٢) السمر: حديث الليل.

(٣) يريد: لا مالكا من خاطري إلا بقية قليلة الخير لا تغني في رثائك.

عمر بك لطفي^١

وَأَقْلَدُ الدُّنْيَا رِثَاءَكَ جَوْهَرًا
تَتَقَدَّمُ الْعُلَمَاءُ فِيهِ مَسْطَرًّا
وَالْفَضْلُ مِنْ حُرُمَاتِهِ أَنْ يُذْكَرَا
كَمْ قَدَّمَ الْعَمَلُ الرِّجَالَ وَأَخْرَا
خُلِطَتْ جِهَامًا فِي السَّحَابِ وَمُمْطَرَا
كَالرَّكْنِ أَزْكَى، وَالْحَاطِمِ مُطَهَّرَا^١
نَسْتَقْبِلُ الْحَرَمَ الشَّرِيفَ مَنْوَرَا
جَعَلُوكَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ مُسَوَّرَا
وَالْوُدُّ فِي الدُّنْيَا حَدِيثٌ مُفْتَرَى
فَأَرَانِي الْخُلُقَ الْعَظِيمَ مُصَوَّرَا
أَنَا فِيكَ أَلْقَى لَوْعَةً وَتَحَسَّرَا
الدَّهْرُ أَقْصَرُ فِيهِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى
حَتَّى لَقِيتَ بِهِ الْفِرَاشَ الْأَوْثَرَا^٢

الْيَوْمَ أَصْعَدُ دُونَ قَبْرِكَ مِنْبَرًا
وَأَقْصُ مِنْ شِعْرِي كِتَابَ مُحَاسِنِ
ذِكْرًا لِفَضْلِكَ عِنْدَ مَصْرَ وَأَهْلِهَا
الْعِلْمُ لَا يُعْلِي الْمَرَاتِبَ وَحَدَهُ
وَالْعِلْمُ أَشْبَهُ بِالسَّمَاءِ رِجَالُهُ
طُفْنَا بِقَبْرِكَ، وَاسْتَلَمْنَا جَنْدَلًا
بَيْنَ التَّشَرُّفِ وَالْخُشُوعِ، كَأَنَّمَا
لَوْ أَنْصَفُوكَ جَنَادِلًا وَصَفَائِحًا
يَا مَنْ أَرَانِي الدَّهْرَ صَحَّةً وَدَّه
وَسَمِعْتُ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ رَوَايَةً
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الرُّقَادِ وَطَوْلِهِ؟
نَمْ مَا بَدَا لَكَ أَمْنًا فِي مَنْزِلِ
مَازَلْتَ فِي حَمْدِ الْفِرَاشِ وَذَمِّهِ

^١ نُظِمَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ لَتُلْقَى فِي حَفْلَةٍ أُقِيمَتْ لِتَأْيِينَ عَمْرِ بَك لَطْفِي بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ، أَمَّا الْقَصِيدَةُ السَّابِقَةُ فَقَدْ نُظِمَتْ عَقِبَ الْوَفَاةِ فِي سُرْعَةٍ تَشْبِهُ الْارْتَجَالِ.

لا تَشْكُونُ الضَّرَّ من حشراتِه
يا سَيِّدَ (النَّادِي) وحامِلَ هَمِّهِ
شهدَ الأعادي كم سَهَرْتَ لمجده
وكم اتَّقَيْتَ الكَيْدَ واستدفعته
ولَبِثْتَ عن حَوْضِ الشَّيْبَةِ نائِدًا
شُبَّانُ مصرَ حِيالَ قَبْرِكَ خُشَّعُ
جمعَ الأسَى لك جمعهم في واحدٍ
لولاك ما عرفوا التعاونَ بينهم
حيث التَفَّتْ رَأَيْتَ حولك منهم
كم منطقٍ لك في البلادِ وحكمةٍ
تمشي إلى الأكواخ تُرشدُ أهلها
متواضعًا لله بينَ عبادِه
لم تَدْرِ نَفْسُكَ: ما الغُرُورُ؟ وطالما
في كلِّ ناحيةٍ تَخُطُّ نِقَابَةً
هي كيميائُوكَ، لا خُرَافَةٌ (جابر)
والمالُ لا تجنِّي ثَمَارَ رءُوسِه
والملكُ بالأموالِ أَمْنَعُ جانبًا
إنَّا لفي زمنٍ سَفَاهُ شعوبِه
أَسِوَاكَ مِنْ أَهْلِ المَبَادِي مَنْ دَعَا
الموتَ قَبْلَكَ في البَرِيَّةِ لم يَهَبْ
لَمَّا دُعِيتُ أَتَيْتُ أَنْتَرُ مَذْمَعِي
أَبْكي يَمِينِكَ في الترابِ غمامةٍ
لم أُعْطَ عنكَ تَصَبُّرًا، وأنا الذي
أَزِنُ الرجالَ، ولي يَرَاغُ طالما
بالأُمسِ أَرسلْتُ الرِّثاءَ مُمَسِّغًا
غَيْرُتَنِي حزنًا، وغَيْرَكَ البَلَى
فَعَلِي حَفْظَ العهدِ حتى نَلتقي

حشراتُ هذا الناسِ أَقْبَحُ مَنظَرًا
خَلَّفَتْه تحت الرِّزْيَةِ مَوْقَرًا^٢
وغَدَوْتَ في طلبِ المزيدِ مُشْمَرًا
ورميتُ عُذْوَانَ الظنونِ فأَقْصَرَا
حتى جَزَاكَ اللهُ عنه الكَوَثَرَا
لا يملكون سوى مدامعهم قَرَى^٤
كان الشَّبَابُ الواجِدَ المُسْتَعْبَرَا^٥
فيما يَسُرُّ، ولا على ما كَدَّرَا
آثارَ إِحْسَانٍ وغرَسَا مُثْمِرَا
والعقلُ بينهما يُباعُ ويُشْتَرَى
مَشَى الحواريَّينَ يَهْدُونَ القُرَى^٦
واللهُ يَبْغِضُ عبْدَه المتكَبِّرَا
دخل الغُرُورُ على الكبارِ فصَغُرَا
فيها حياةُ أَخِي الزِراعةِ لو دَرَى
تَذَرُ المُقِلَّ من الجماعةِ مُكْثَرَا^٧
حتى يصيبَ من الرءُوسِ مُدَبِّرَا
وأعزُّ سلطانًا، وأصدقُ مَظْهَرَا
في ملكهم كالمرءِ في بيتِ الكِرا^٨
للجِدِّ، أو جمعَ القلوبِ النُّفْرا؟
طه الأمين، ولا يسوعُ الخَيْرَا^٩
ولو استطعتُ نَثَرْتُ جَفْنِي في الثرى
والصَّدْرَ بحرًا، والفؤادُ غَضَنْفَرَا
عَزَّيْتُ فيكَ عن الأميرِ المَعْشَرَا^{١٠}
خَلَعَ الثَّنَاءَ على الكرامِ مُحَبَّرَا
واليومُ أَهْتَفُ بالثَّنَاءِ مُعَنْبَرَا
وهواك يَأْبَى في الفؤادِ تَغْيِرَا^{١١}
وعليك أن ترعاه حتى نُحْشَرَا

هوامش

- (١) يقول: إننا نطوف بقبرك ونستلم أحجاره، كما يطوف حجّاج بيت الله فيستلمون الركن والحطيم المطهرين.
- (٢) الفراش الأوثر: هو الفراش الأكثر ليونة ونعومة، ويريد به تراب القبر.
- (٣) النادي: هو نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. وموقرًا: أي مثقلًا بما يحمله من فقدك.
- (٤) القرى — بكسر القاف: ما يقدّم للضيف من إكرام ونحوه.
- (٥) الواجد المستعبر: هو الحزين الباكي.
- (٦) الحواريون: هم أصحاب عيسى ابن مريم.
- (٧) جابر: هو جابر بن حيّان صاحب الكيمياء القديمة. والمقلّ: هو الفقير أو هو الذي لا يملك إلا شيئًا قليلًا.
- (٨) بيت الكرا: هو بيت الأجرة.
- (٩) يسوع: المسيح.
- (١٠) كان أمير الشعراء هو نائب الخديو عباس في تعزية الفقيد.
- (١١) يشير إلى قصيدته السابقة في الفقيد.

الأميرة^١

حَلَفْتُ بِالْمُسْتَرِّهِ
ومجلس الزَّهْرَاءِ فِي الْـ
مِرَاقِدِ السُّلَالَةِ الطَّيِّبِ
مَا أَنْزَلُوا إِلَى الثَّرَى
سَيَرُوا بِهَا تَقِيَّةً
نُجْلُ سِتْرٍ نَعِشَهَا
وَنَنْشُقُ الْجَنَّةَ مِنْ
فِي مَوَكِبٍ تَمَثَّلُ الْـ
دَعِ الْجَنُودَ وَالْبَنُو
وَكُلَّ دَمْعٍ كَذِبٍ
لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ سِوَى
قَدْ تَرْفَعُ السُّوقَةُ عَنْـ
يَا جَزَعِ الْعِلْمِ عَلَى
أَمْسَى بَرْبَعٍ مُوَحِّشٍ

وَالرُّوضَةِ الْمَعْطَرَةِ^١
حِظَائِرِ الْمُنَوَّرَةِ^٢
الْمَطَهَّرَةِ
بِالْأَمْسِ إِلَّا نَيْرَهُ^٣
نَقِيَّةً مُبَرَّرَهُ
كَالْكُسُوفَةِ الْمُسَيَّرَةِ^٤
أَعْوَادِهِ الْمُنْضَرِّهِ
حَقٌّ فَكَانَ مَظْهَرَهُ
دَ وَالْوَفُودَ الْمُخْضَرِّهِ
وَلَوْعَةٍ مُزَوَّرِهِ
صَالِحَةٍ مُدَّخَرِهِ
دَ اللَّهُ فَوْقَ الْقَيْصَرِهِ^٥
(سُكَيْنَةَ) الْمُؤَقَّرِهِ^٦
مِنْهَا وَدَارٍ مُقْفَرِهِ

^١ هي الأميرة فاطمة إسماعيل، كان لها الفضل الأول في تأسيس وإنشاء الجامعة المصرية، وقد انتقلت إلى دار الجنان في سنة ١٩٢٠.

مَنْ ذَا يُؤَسِّي هذه الـ
 لو عَشَتْ شَدَّتْ مِثْلَهَا
 بَنِيَتْ رُكْنَيْهَا، كَمَا
 قَرَنْتِ كُلَّ حَجَرٍ
 مَفْخَرَةً لِبَيْتِكُمْ
 يَا بِنْتَ إِسْمَاعِيلَ، فِي الـ
 أَكَّانِ عِنْدَ بَيْتِكُمْ
 هَلَّا وَصَفَتْهَا لَنَا
 وَلَوْهَا صَافِيَةً
 كَالْحِلْمِ، أَوْ كَالْوَهْمِ، أَوْ
 (فَاطِمُ)، مَنْ يُولَدُ يَمُتُ
 وَكُلُّ نَفْسٍ فِي غَدٍ
 وَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلِ الـ
 وَإِنَّمَا يُنَبِّئُهُ الـ
 يَلْفِظُهَا حَنْظَلَةً
 وَلَنْ تَزَالَ مِنْ يَدٍ
 أَيْنَ أَبُوكَ؟ مَا لَهُ
 وَادِي النَّدَى، وَغَيْثُهُ
 أَيْنَ الْأُمُورُ، وَالْقَصُورُ
 أَيْنَ اللَّيَالِي الْبَيْضُ، وَالـ
 وَأَيْنَ فِي رُكْنِ الْبِلَا
 وَأَيْنَ تِلْكَ الْهَمَّةُ الـ
 تَبْغِي لِمَصْرِ الشَّرْقِ أَوْ
 جَرَى الزَّمَانُ دُونَهَا
 فَإِنْ هَمَمْتَ فَاذْكُرِ الـ
 مَنْ لَا يُصِيبُ فَالْنَّاسُ لَا
 جَامِعَةَ الْمُسْتَعْبِرَةِ^٧
 لِلْمِرَآةِ الْمَحْرَرَةِ
 يَبْنِي أَبُوكَ الْمَأْثَرَةَ
 فِي أَصْهَا بِجَوْهَرِهِ
 كَمْ قَبْلَهَا مِنْ مَفْخَرَةٍ!
 سَمِيتِ لَحَى تَبْصِرِهِ^٨
 لِهَذِهِ الدُّنْيَا تَرَهُ؟^٩
 مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَهُ؟
 وَطَعَمَهَا مَكْدَرَهُ؟
 كَالظِّلِّ، أَوْ كَالزَّهَرَةِ؟
 الْمَهْدُ جَسْرُ الْمَقْبَرَةِ^{١٠}
 مَيِّتَةٌ فَمُنْشَرَهُ
 خَيْرَ أَوْ الشَّرَّ يَرَهُ
 غَافِلٌ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ^{١١}
 كَانَتْ بِفِيهِ سُكَّرُهُ^{١٢}
 إِلَى يَدِ هَذِي الْكُرَةِ
 وَجَاهُهُ، وَالْمَقْدَرَهُ؟
 وَعَيْنُهُ الْمُفْجَرَهُ^{١٣}
 رُ، وَالْبَدُورُ الْمُخْدَرَهُ؟
 أَصَائِلُ الْمَرْغَفَرِهِ؟^{١٤}
 يَدِ يَدِهِ الْمُعْمَرَهُ؟
 مَاضِيَةُ الْمَشْمَرِهِ؟
 أَكْثَرَهُ مُسْتَعْمَرَهُ
 فَرَدَّهُ وَأَعَثَّرَهُ
 مَقَادِرَ الْمُقَدَّرَهُ
 يَلْتَمَسُونَ الْمَعِزَّةَ

هوامش

- (١) المسترة: الكعبة.
(٢) يقصد فاطمة الزهراء، بنت الرسول صلوات الله عليه، ومجلسها في حجرات النبوة.
(٣) نيرة: هي واحدة النجوم النيرة.
(٤) الكسوة: هي كسوة الكعبة المكرمة، وتسير من مصر إلى الحجاز كل عام في موكب عظيم الإجلال.
(٥) القيصة: علم على كل ملكة للروم. والقيصر: علم على ملكها.
(٦) يشبهها بسكينة بنت الحسين في عطفها على العلم والأدب.
(٧) المستعبرة: أي الباكية لفقدتها عطفك.
(٨) التبصرة: بمعنى الموعظة.
(٩) ترة: هي الثأر.
(١٠) فاطم: أي فاطمة، وحذفت التاء للترخيم، كقول امرئ القيس.

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

- (١١) الغرغرة: وقت حشجة الروح في الصدر.
(١٢) يلفظها: أي يلفظ الحياة.
(١٣) الندى: الكرم. والعين: بمعنى النبع.
(١٤) الأصائل: الوقت من بعد العصر إلى المغرب. والمزعفرة: أي الملونة بلون الزعفران. والليالي البيض والأصائل المزعفرة: يقصد بهما الكناية عن السعادة الوارفة الظليلة.

ذكرى مصطفى كامل^١

لم يَمُتْ مَنْ لَهُ أَثَرُ
أُدْعُهُ غَائِبًا، وَإِنْ
أَيُّ الْفَضْلِ كُلَّمَا
رُبَّ نَوْرٍ مُتَمِّمٍ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ مَشَى
مَنْ إِذَا عَاشَ لَمْ يُفِدْ
لَيْسَ فِي الْجَاهِ وَالْغِنَى
قُبْحُ الْعِزِّ فِي الْقَصْوِ
أَعْوَزَ الْحَقُّ رَائِدُ
وَتَمَنَّتْ حَيَاضُهُ
الَّذِي يُنْفِذُ الْمُدَى
أَيُّهَا الْقَوْمُ، عَظَّمُوا
أَذْكُرُوا الْخُطْبَةَ الَّتِي
لَمْ يَرَ النَّاسُ قَبْلَهَا
وَحَيَاةُ مَنْ السَّيَرُ
بَعُدَتْ غَايَةُ السَّفَرِ
أَبَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ^١
قَدْ أَتَانَا مِنَ الْحُقْرِ^٢
مَيِّتَ الْخَيْرِ وَالْجَبَرِ
وَإِذَا مَاتَ لَمْ يَخِرْ
مِنْهُ ظِلٌّ وَلَا ثَمَرُ
رِ إِذَا ذَلَّتِ الْقَصَرُ
وَإِلَى (مُصْطَفَى) افْتَقَرُ
هَبَّةَ الصَّارِمِ الذَّكَرِ
وَالَّذِي يَرْكَبُ الْخَطَرَ^٢
وَاضَعَ الْأُسَّ وَالْحَجَرَ
هِيَ مِنْ آيِهِ الْكُبْرُ
مَنْبَرًا تَحْتَ مُحْتَضَرِ

^١ لأُمير الشعراء عدة قصائد في مصطفى كامل باشا، هذه إحداها، وقد أُلقيت في الاحتفال الذي أقيم
تمجيدًا لذكراه في فبراير سنة ١٩٢٦.

لَسْتُ أَنْسَى لِيَوَاءَهُ وَهُوَ يَمْشِي إِلَى الظَّفَرِ
حَشَرَ النَّاسَ تَحْتَهُ زُمَرًا إِثْرَهَا زُمَرِ
وَتَرَى الْحَقَّ حَوْلَهُ لَا تَرَى الْبَيْضَ وَالسُّمْرَ
كَلَّمَا رَاحَ أَوْ غَدَا نَفَخَ الرُّوحَ فِي الصُّورِ
يَا أَخَا النَّفْسِ فِي الصَّبَا لَذَّةُ الرُّوحِ فِي الصَّغَرِ
وَحَلِيلًا ذَخَرْتُهُ لَمْ يُقَوِّمْ بِمُدَّخَرِ
حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي فُجَاءَاتِهِ الْقَدَرِ
كَيْفَ أَجْزِي مَوَدَّةَ لَمْ يَشُبْ صَفْوَهَا كَدْرُ؟
غَيْرِ دَمْعٍ أَقُولُهُ قَلَّ فِي الشَّانِ أَوْ كَثُرُ؟
وَفُؤَادٍ مُعَلَّلٍ بِالْخِيَالَاتِ وَالذُّكْرِ؟
لَمْ يَنْمِ عَنْكَ سَاعَةٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالسَّمْرِ؟
قُمْ تَرِ الْقَوْمَ كَتَلَةً مِثْلَ مَلْمُومَةِ الصَّخْرِ^٦
جَدَّدُوا أُلْفَةَ الْهَوَى وَالْإِخَاءَ الَّذِي شَطِرَ
لَيْسَ لِلْخُلْفِ بَيْنَهُمْ أَوْ لَأَسْبَابِهِ أَثَرُ
أَلْفَتْهُمْ رَوَائِحُ غَادِيَاتُ مِنَ الْغَيْرِ
وَصَحَوْا مِنْ مُنُومٍ وَأَفَاقُوا مِنَ الْخَدَرِ^٧
أَقْبَلُوا نَحْوَ حَقِّهِمْ مَا لَهُمْ غَيْرُهُ وَطَرِ
جَعَلُوهُ خَلِيَّةً شَرَعُوا دُونَهَا الْإِبْرَ^٨
وَتَوَاصَوْا بِخُطَّةٍ وَتَدَاعَوْا لِمَوْتَمَرِ^٩
وَقُصَّارَى أُولَى النُّهَى يَتَلَقَّوْنَ فِي الْفِكْرِ
أَذْنُونَا بِمَوْقِفٍ مِنْ جَلَالٍ وَمِنْ خَطَرِ
نَسْمَعُ اللَّيْثَ عِنْدَهُ دُونَ أَجَامِهِ زَارِ
قُلْ لَهُمْ فِي نَدِيَّتِهِمْ : مَصْرُ بِالْبَابِ تَنْتَظِرُ^{١٠}

هوامش

- (١) ويقول: في كل أوبة شمس، وفي كل عودة قمر، يئوب للفقيد فضل، ويتجدد له ذكر، وإذن فهو لا يحسب ميتاً، وغاية الأمر أنه غائب في سفر بعيد.
- (٢) الحفر: القبور.
- (٣) الذي ينفذ المدى: يراد به صاحب الطعنات النافذة.
- (٤) يريد آخر خطبة للفقيد، وقد ظنَّها الناس يومئذ خطبة الوداع.
- (٥) البيض: السيوف. والسمر: الرماح.
- (٦) ملمومة: بمعنى مجتمعة، ويقال للدرع: ملمومة، وكذا يقال للكتيبة — وهي الفرقة من الجيش — ملمومة أيضاً.
- (٧) الخدر: الكسل، وهو مصدر خدر، كفرح.
- (٨) الخليّة: موضع سكن النحل. شرعوا الإبر: رفعوها استعداداً للنضال بها، كما يقال: شرع سيفه، إذا انتضاه من غمده.
- (٩) تداعوا: تجمّعوا.
- (١٠) يريد بالندي: البرلمان، وكان وقتئذ يهياً.

المنفلوطي^١

ونعاك في عَصْفِ الرياحِ الناعي^١
جُرْحُ الرَّئِيسِ منافذَ الأَسْماعِ
قَدَمًا تُشَيِّعُ أو حفاوة ساعي
كيف الوقوفُ إذا أَهَابَ الداعي؟
ليس الغرورُ لميَّتِ بمتاع
شَتَّى المواكبِ فيه والأَتباعِ
واظهر بفضلِ كالنهار مُذاع
لَبِقِ بوشى الممتِعاتِ صَناعِ
للشيبِ في القَوْدِ الأَحْمَ رَواعي^٢
فترأه تحت روائعِ الأسجاعِ
أُسْلوبها، أو يُزِرِ بالأوضاعِ
شَوْطًا، فأَحْرَزَ غايةَ الإبداعِ
كالشمسِ جدَّةَ رُقعةٍ وشُعاعِ

اخترتَ يومَ الهولِ يومَ وداعِ
هتَفَ النُّعَاةِ ضُحَى، فأَوَّصَدَ دونهم
مَنْ ماتَ في فَزَعِ القيامةِ لم يَجِدْ
ما ضرَّ لو صَبَرْتُ رِكابُكَ ساعةً
خَلَّ الجنائزَ عنك، لا تحفلُ بها
سِرٌّ في لواءِ العبقريَّةِ، وانتظِمْ
واصعد سماءَ الذكرِ من أسبابها
فُجِعَ البَيانُ وأهْلُهُ بمصوِّرِ
مَرْموقِ أسبابِ الشبابِ وإن بَدَتْ
تتخيَّلُ المنظومَ في منثورهِ
لم يَجْعِدِ القُصَصَى، ولم يَهْجُمِ على
لكن جَرى والعصرُ في مِضمارِها
حُرُّ البَيانِ، قديمُهُ وجديدُهُ

^١ هو الكاتب الذائع الصيت مصطفى لطفى المنفلوطي، اشتهر بأسلوب إنشائي خاص لفت إليه أنظار القُرَّاء في عصره، وقد توفي سنة ١٩٢٤.

خَسِرْتَ — لَعَمْرُكَ — صَفْقَةُ الْمُبْتَاعِ
 فِيهَا عَلَى ضَجَرٍ وَضِيقِ ذِرَاعٍ^٢
 لِلْعَالَمِ الْبَاكِي مِنَ الْأَوْجَاعِ؛
 إِنَّ الْحَكِيمَ بِهَا رَحِيبُ الْبَاعِ
 فِي لُجَّةِ الْأَقْدَارِ نَضُو شِرَاعٍ^٣
 قَدَرُ كِرَاعٍ سَائِقٍ بِقِطَاعٍ^٤
 مُتَلَفَّتٌ عَنْ كِبْرِيَاءِ مُطَاعِ
 يَمْضِي مُضَيَّ الْعَاجِزِ الْمُنْصَاعِ
 فِي الْمَلِكِ غَيْرِ مُعَذِّبِينَ جِيَاعٍ؟
 لِمَحَاتِ دَمْعٍ أَوْ رِسُومِ دِمَاعٍ؟^٥
 دَمْعُ الْقَرِيرِ وَعِبْرَةُ الْمُتْلَعِ
 غَيْرُ الْحَيَاةِ لَهْنُ حُكْمِ مِشَاعٍ^٦
 مِنْهَا، وَفِي الْقَصْرِ الرَّفِيعِ دَوَاعِي
 حَاوِي الْقَضَاءِ، وَفِي الرِّيَاضِ أَفَاعِي
 أَرْبَى عَلَى بُؤْسٍ بَغِيرِ قِنَاعِ
 فَقَدُوا؟ وَأَيُّ مُعَلِّمٍ بَيْرَاعٍ؟
 : مَاذَا وَرَاءَ سِرَابِهَا اللَّمَاعِ؟
 شَبَحًا بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَيَفَاعٍ^٧
 حَقْدُ الْخُصُومِ، وَمِنْ هَوَى الْأَشْيَاعِ
 تَصِلُ الْجُهُودُ فَكُنَّ خَيْرَ دِفَاعِ
 وَالْجَهْدُ بَعْدَ الْمَوْتِ غَيْرُ مُضَاعِ
 وَأَتَى السَّلِيمُ جَوَانِبَ الْأَضْلَاعِ
 نَقْدُ تَنْزَعٍ عَنْ هَوَى وَنِزَاعِ
 بَثْنِيَّةٍ بَعْدَتْ عَلَى الطَّلَاعِ^٨
 قَلَمٌ عَلَيْهِ جَلَالَةُ الْإِجْمَاعِ
 عُطِّلَنَ مِنْ قَلَمِ أَشَمِّ شُجَاعِ
 فِي السَّيْفِ مُنْقَصَةٌ وَسَوْءُ سَمَاعِ

يُونَانُ لَوْ بَاعَتْ (بِهَوْمِيرٍ) لَمَا
 يَا مُرْسَلِ (النَّظَرَاتِ) فِي الدُّنْيَا وَمَا
 وَمُرْقَرِقِ (الْعِبَرَاتِ) تَجْرِي رِقَّةً
 مَنْ ضَاقَ بِالدُّنْيَا فَلَيْسَ حَكِيمَهَا
 هِيَ وَالزَّمَانُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
 مَنْ شَذَّ نَادَاهُ إِلَيْهِ فَرَدَّهُ
 مَا خَلَفَهُ إِلَّا مَقُودُ طَائِعِ
 جَبَّارُ ذِهْنٍ، أَوْ شَدِيدُ شَكِيمَةٍ
 مَنْ شَوَّهَ الدُّنْيَا إِلَيْكَ فَلَمْ تَجِدْ
 أَبْكَلَ عَيْنٍ فِيهِ أَوْ وَجْهٍ تَرَى
 مَا هَكَذَا الدُّنْيَا، وَلَكِنْ نُقْلَةٌ
 لَا الْفَقْرُ بِالْعِبَرَاتِ خُصٌّ وَلَا الْغِنَى
 مَا زَالَ فِي الْكُوخِ الْوَضِيعُ بَوَاعِثُ
 فِي الْقَفْرِ حَيَاتٌ يُسَيِّبُهَا بِهِ
 وَلَرَبَّ بُؤْسٍ فِي الْحَيَاةِ مُقْنَعِ
 يَا (مُصْطَفَى) الْبُلْغَاءِ، أَيُّ يِرَاعَةٍ
 الْيَوْمَ أَبْصَرْتَ الْحَيَاةَ؛ فَقُلْ لَنَا
 وَصِفِ الْمَنُونِ؛ فَكَمْ قَعْدَتْ تَرَى لَهَا
 سَكَنَ الْأَحَبَّةِ وَالْعِدَى، وَفَرَّغَتْ مِنْ
 كَمْ غَارَةٍ شَنُّوا عَلَيْكَ دَفْعَتَهَا
 وَالْجَهْدُ مَوْتٍ فِي الْحَيَاةِ ثِمَارُهُ
 فَإِذَا مَضَى الْجِيلُ الْمِرَاضُ صَدُورُهُ
 فَافْزَعْ إِلَى الزَّمَنِ الْحَكِيمِ؛ فَعِنْدَهُ
 فَإِذَا قَضَى لَكَ أُبْتُ مِنْ شَمِّ الْعُلَا
 وَأَجَلُ مَا فَوْقَ التَّرَابِ وَتَحْتَهُ
 تِلْكَ الْأَنَامِلُ نَامَ عَنْهُمْ الْبِلَى
 وَالْجَبْنُ فِي قَلَمِ الْبَلِيغِ نَظِيرُهُ

هوامش

- (١) يشير بيوم الهول إلى أن وفاة الفقيد كانت في يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد باشا.
- (٢) الفود: أحد الفودين، وهما جانبا الرأس من الأمام، والأحم: الأسود. والرواعي: جمع راعية. ويريد «بالرواعي» الشعرات البيض اللواتي ظهرت في جانبي رأسه.
- (٣) النظرات: اسم كتاب للفقيد.
- (٤) العبرات: اسم كتاب له أيضًا.
- (٥) نضو شراع: أي شراع هزيل متمزق لا يكاد يقوى على مصارعة أمواج تلك اللجة، بل لا يكاد يرى في خضمها المحيط.
- (٦) القطاع: طائفة من الغنم.
- (٧) رسوم دماغ: أي آثار تبدو في مجرى الدمع، كأن الدموع لكثرتها تصنع لها طريقًا في موضع مسيلها.
- (٨) غير الحياة: نوائبها المغيرة على الناس.
- (٩) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، كالنجد. والقرار: ما انخفض منها كالوهاد.
- (١٠) الثنية: الطريق في أعالي الجبال ويجمع على الثنايا، وقد تمثلت الحاج في خطبته الشهيرة بقول بعضهم: أنا ابن جلا وطلأ الثنايا.

عاطف بركات باشا^١

خَفَضْتُ لِعِزَّةِ الْمَوْتِ الْيَرَاعَا
كَفَى بِالْمَوْتِ لِلنُّذْرِ ارْتِجَالًا
حَكِيمٌ صَامَتْ فَضَحَ اللَّيَالِي
إِذَا حَضَرَ النَفُوسَ فَلَا نَعِيمًا
كَشَفْتُ بِهِ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْهَا
وَمَا الْجِرَاحُ بِالْأَسَى الْمَرْجَى
فَإِنْ تَقُلُ الرِّثَاءَ فَقُلْ دُمُوعًا
وَلَا تَكُ مِثْلَ نَادِبَةِ الْمُسَجَّى
خَلَّتْ دَوْلُ الزَّمَانِ وَزُلْنَ رُكْنَا
كَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَشْهَدْ لِقَاءَ
وَلَوْ أَبَتْ ثَوَاكُلُ كُلِّ قَرْنٍ
وَلَكِنْ تَضَرَّبَ الْأَمْثَالُ رُشْدًا
وَرُبَّ حَدِيثٍ خَيْرٍ هَاجَ خَيْرًا
(معارف) مَصَرَ كَانَ لَهُنَّ رَكْنٌ

وَجَدَّ جَلَالُ مَنْطِقِهِ، فِرَاعَا
وَلِلْعَبْرَاتِ وَالْعَبْرِ اخْتِرَاعَا
وَمَزَّقَ عَنْ خَنَا الدُّنْيَا الْقِنَاعَا
تَرَى حَوْلَ الْحَيَاةِ وَلَا مَتَاعَا
وَلَمْحَةً مَائِهَا إِلَّا خِدَاعَا
إِذَا لَمْ يَقْتُلِ الْجُبْنَاطُاطَا
يُصَاغُ بِهِنَّ، أَوْ حِكْمًا تُرَاعَى
بَكَتْ كَسْبًا، وَلَمْ تَبْكِ الْتِيَاعَا^٢
وَرَكْنُ الْأَرْضِ بَاقِي، مَا تَدَاعَى^٣
تَكَادُ لَهُ تَمِيدُ، وَلَا وَدَاعَا
وَجَدْنَ الشَّمْسَ لَمْ تَتَّكِلْ شُعَاعَا
وَمِنْهَاجًا لِمَنْ شَاءَ اتَّبَاعَا
وَذَكَرَ شَجَاعَةً بَعَثَ الشُّجَاعَا
فَذُقْنَ الْيَوْمَ لِلرَّكْنِ انْصِدَاعَا

^١ عاطف بركات باشا: أحد رجالات مصر المقدّمين، وأحد نوابغ جيله المعلمين، ترقّى إلى منصب وكيل وزارة المعارف، وقد توفي سنة ١٩٣٥.

مضى أعلى الرجال لها يميناً
وأكثرهم لها وقفات صدق
أتته فنالها نفلاً وفيئاً
تنقل يافعاً فيها وكهلاً
فتى عجمته أحداث الليالي
سجن مهنداً، ونفين تبراً
شديد ضلّب في الحق حتى
ومدرسة سمّت بالعلم ركناً
بناها محسناً بالعلم برّاً
وحارب دونها صرعى قديم
إذا لمح الجديد لهم تولّوا
أخا «سيشيل»، لا تذكر بحاراً
وربك ما وراء نواك بُعد
نزلت بعالم خرق القضايا
فخل الأربعين لحافليها
مرضت فما ألح الداء إلا
ولم يك غير حادثة أصابت
ومن يتجرّع الآلام حياً
أرقت، وكيف يعطى الغمض جفن
ولم يهدأ وسادك في الليالي
عجبت لشارح سبب المنايا
ولم تكن الحتوف محل شك
ولكن صيّد ولها بزة
أرى التعليم لما زلت عنه
غريق حاولت يده شراعاً
سراة القوم منصرفون عنه
لقد نساه يومك ناصبات

وأزحّبهم بحلتها ذراعاً
إباء في الحوادث أو زماعاً
فلا هبة أتته ولا اصطناعاً
ومن أسبابها بلغ اليقاعاً
فلا ذلاً رأيّن، ولا اختضاعاً
وزدن المسك من ضغط فضاغاً
يقول الحق: ليناً واتداعاً^٦
وأنهضت القضاء والاشتراعاً^٧
يشيد له المعالم والرباعاً^٨
كان بهم عن الزمن انقطاعاً
كذي رمد على الضوء امتناعاً
بعدن على المزار ولا بقاعاً^٩
وأنت بظاهر الفسطاط قاعاً^{١٠}
وأصبح فيه نظم الدهر ضاعاً
وقم تجد القرون مرزناً ساعاً^{١١}
على نفس تعودت الصراعاً
مفلل كل حادثة قراعاً^{١٢}
تسغ عند الممات له اجتراعاً
تسل وراءه القلب الرواعاً؟^{١٣}
لعلمك أن ستفنيها اضطجاعاً
يسمي الداء والعِلل الوجاعاً
ولا الأجال تحتل النزاعاً
تري (السرطان) منها الصداغاً^{١٤}
ضعيف الركن، مخدولاً، مضاعاً
فلما أوشكت فقد الشراعاً
وصحف القوم تقتضب الدفاعاً^{١٥}
من السنوات قاساها تباعاً^{١٦}

قُم ابْنِ الْأُمَّهَاتِ عَلَى أُسَاسٍ
فَهُنَّ يَلِدْنَ لِلْقَصَبِ الْمَذَاكِي
وَجَدْتُ مَعَانِيَ الْأَخْلَاقِ شَتَّى
عِزَاءَ الصَّابِرِينَ (أَبَا بَهِيٍّ)
صَبَرْتُ عَلَى الْحَوَادِثِ حِينَ جَلَّتْ
وَأِنْ النَفْسَ تَهْدَأُ بَعْدَ حِينٍ
إِذَا اخْتَلَفَ الزَّمَانُ عَلَى حَزِينٍ
قُصَارَى الْفَرْقَدَيْنِ إِلَى قِضَاءٍ
وَلَمْ تَحَوِ الْكِنَانَةَ آلَ سَعِيدٍ
وَلَمْ تَحْمِلْ كَشِيخُكُمْ الْمَفْدَى
غَدَاً فَصَلِّ الْخِطَابِ، فَمَنْ بَشِيرِي
سَلُّوا أَهْلَ الْكِنَانَةِ: هَلْ تَدَاعَوْا؟
وَمَا (سَعِدٌ) بِمُتَّجِرٍ إِذَا مَا
وَلَكِنْ تَحْتَمِي الْأَمَالَ فِيهِ
إِذَا نَظَرْتَ قُلُوبُكُمْ إِلَيْهِ

وَلَا تَبْنِ الْحِصُونَ وَلَا الْقِلَاعَا
وَهُنَّ يَلِدْنَ لِلْغَابِ السَّبَاعَا^{١٧}
جُمِعْنَ فَكُنَّ فِي اللَّفْظِ الرِّضَاعَا
وَمِثْلُكَ مَنْ أَنَابَ وَمَنْ أَطَاعَا^{١٨}
وَحِينَ الصَّبْرُ لَمْ يَكُ مُسْتَطَاعَا
إِذَا لَمْ تَلْقَ بِالْجَزَعِ انْتِفَاعَا
مَضَى بِالْدمْعِ، ثُمَّ مَحَا الدَّمَاعَا.
إِذَا عَثَرَا بِهِ انْفَصَمَا اجْتِمَاعَا
أَشَدَّ عَلَى الْعِدَا مِنْكُمْ نِبَاعَا^{١٩}
نُهوْضًا بِالْأَمَانَةِ وَاضْطِلَاعَا
بِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ غَلَبَ الطَّمَاعَا؟
فَإِنْ الْخِصَمَ بَعْدَ غِدِّ تَدَاعَى
تَعَرَّضْتَ الْحَقُوقُ شَرَى وَبَاعَا
وَتَدَرَّعُ الْحَقُوقُ بِهِ ادَّرَاعَا^{٢٠}
عَلَا لِلْحَادِثَاتِ وَطَالَ بَاعَا^{٢١}

هوامش

- (١) يقال: قتل الأمر اطلاقاً، إذا بحثه طويلاً. والآسي: الطبيب.
- (٢) المسجّي: الميت. والالتياح: شدة الحزن.
- (٣) تداعى الركن: أي سقط متهدماً.
- (٤) النفل: مفرد الأنفال، يعني العطايا المكتسبة من الفيء. والفيء: الغنيمة.
- والاصطناع: هو ما يعبر عنه في زماننا بالمحسوبية.
- (٥) ضاع المسك والطيب: سطع عطره. لما قال: «فتى عجمته أحداث الليالي» شرح كيف كان ذلك، فأخبر أنه سجن فكان أشبه بالمهند، ونفي فكان مثل التبر، وحين اشتدت أحداث الليالي ضغطاً، كان الفقيد أشبه بالمسك الذي يُسحق فيزيد أرجاً وطيباً.
- (٦) صلب «باللام المشددة»: أي كثير الصلابة. والاتداع: من الوداعة، وهي رقة الخلق.

(٧) يشير بهذا البيت إلى أن الفقيه كان هو أول قيم على مدرسة القضاء الشرعي، وقد أنشئت تلك المدرسة لتخريج القضاة الشرعيين، ولم يستغن عنها إلا بعد إصلاح الأزهر والاكتفاء بأبنائه.

(٨) الرباع: جمع ربع: الدار.

(٩) سيشل، إحدى جزر الهند النائية، نُفي إليها الفقيه، حين اتهمته السلطات الإنجليزية بالتحريض السياسي في ثورة مصر الكبرى.

(١٠) الفسطاط: مدينة مصر. وظاهر الفسطاط: أي ضاحيتها. والقاع في الأصل: هو المنخفض من الأرض، ويريد به هنا موضع القبر حيث دُفِنَ الفقيه.

(١١) الأربعين في هذا البيت، مقصود بها الأيام التي مضت على وفاته، أو السن التي توفي فيها. والساعة: جمع ساعة.

(١٢) القراع: نوع من الحرب والمغالبة.

(١٣) الرواع: من قولهم: ناقة رواع الفؤاد، بضم الراء وفتح الواو، أي شهمة زكية.

(١٤) البزاة: جمع بازي، وهو ضرب من الصقور.

(١٥) سراة القوم: سادتهم. والاقتضاب: بمعنى القطع أو الإيجاز والاختصار.

(١٦) ناصبات، من قولهم: عيش ناصب، أي فيه كدٌّ وجهد. وتباعاً: أي متتابعة.

(١٧) المذاكي: الخيل التي كملت قوتها. والقصب: هو الخط الذي بتراهن عليه

المتسابقون.

(١٨) أبا بهي: ينادي بهذه الكنية فتح الله بركات باشا شقيق الفقيه. وأنان: رجع

إلى الله.

(١٩) النباع: جمع نبع، وهو شجر للقي والسهم، ينبت في قمة الجبال. آل سعد:

آل زغلول باشا أحوال الفقيه.

(٢٠) تدرع الحقوق به: أي تجعل منه درعاً لها. والدرع: ثوب حديد يلبسه المحارب

ليحتمي به من السيوف وأشباهاها.

(٢١) طال باعاً: أي طال شأواً وعظم قوة.

المويلحي^١

استخَفَّ العقولَ حيناً يرأه^١
تنطقُ الضادَ مَهْدُهُ ورباعه^٢
أَهْلُهُ إِن تَفَرَّقْتُ أَصْقَاعُهُ^٣
حي، وفي الدمع والجراح اجتماعه
أَخَذَ الشَّرْقَ حِقْبَةً إبداعه
إِن تَوَلَّيْتُ قَصُورَهُ وَضِياعه^٤
مئةً بَيْتٌ، كلاهما مِصْرَاعُهُ
مثلُ يَنْفَعِ الشَّبَابَ اتِّباعه
هي إِحْسَانُ فِكْرِهِ وابتداعه
يَخْتَلِفُ لَحْنُهُ وَلَا إِيقَاعُهُ
وتَأَنَّتْ بِهِ، وَدَقَّ اختراعهُ
ما بَدِيعُ الزَّمانِ؟ ما أَسْجَاعُهُ؟^٥
وفي الأَسَدِ خُلُقُهُ وطِباعه
ع، وفيها إِبَاؤُهُ وامْتِناعه

كاتبٌ مُحَسِّنُ البَيانِ صَناعُهُ
إِبْنُ مِصرٍ، وإِنما كُلُّ أَرْضٍ
إِنما الشَّرْقُ مَنْزِلٌ لَمْ يُفَرِّقْ
وِطْنَ واحِدٌ على الشمس والفِصْـ
عِلْمٌ في البَيانِ، وإِبْنُ لَواءِ
حَسْبُهُ السَّحَرُ مِنْ تِراثِ أَبيهِ
إِنما السَّحَرُ والبلاغَةُ والحِـ
في يَدِ النُّشْءِ مِنْ بَيانِ (المويلحي)
صُورٌ مِنْ حَقِيقَةِ وَخِيالِ
رُبِّ سَجَعِ كُمُرِ قِصِّ الشَّعْرِ لَمَّا
أَوْ كَسَجَعِ الحِمامِ لو فَصَّلْتُهُ
هو فِيهِ بَدِيعُ كُلِّ زَمانِ
عَجَبَ النَّاسِ مِنْ طِباعِ المويلحي،
فِيهِ كِبَرُ اللُّيُوثِ حَتَّى على الجِوِ

^١ هو الكاتب الكبير محمد المويلحي المتوفي سنة ١٩٣٠، وقد أَلْقَيْت هذه القصيدة في حفلة تأبينه.

تعب الموتُ في صَبورٍ على النز
صارع العيشِ حِقْبَةً، ليت شعري
قهرَ الموتَ والحياةَ، وقد تحـ
مُهَجَّةَ حرَّةً، وخُلِقَ أَبِي
في الثمانين - يا (محمد) - عِلْمٌ
لَمْ تَقَاعَدَتْ دونها وتوانى
رُبَّ شَيْبٍ بَنَتْ صُرُوحَ المعالي
فيه من هِمَّةِ الشبابِ، ولكن
سَيِّدُ المنشئين حَثَّ المطايا
حَطَّهم (بالإمام) للموت رَكْبُ
قَنَعُوا بالترابِ وجهًا كريمًا
كَسْنَا الفجرِ في ظلالِ الغواصي
يا وحيدًا كَأَمْسٍ في كِسْرِ بيتِ
كُلِّ بيتٍ تَحُلُّه يَسْتَوِي عِنْدَ
نَمِّ مَلِيًّا؛ فلست أَوَّلَ لَيْثٍ
حولَكَ الصالحون، طابوا وطابتْ
قُلُودُ الشرقِ من جمالٍ وخيرِ
أُسَّسَتْ نهضةُ البناءِ بقومِ
كُلِّ حَيٍّ - وإن تراختْ منايا
والذي تحرصُ النفوسُ عليه

ع، قليلٍ إلى الحياةِ نِزاعه^٦
ساعةَ الموتِ كيف كان صِراعه؟
كَمْ في رائضِ السُّباعِ سِباعه
عَيَّ عنه الزمانُ وارتدَّ باعه
لِعَليمٍ، وإن تَنَاهَى اِطِّلاعه^٧
سائقُ الفُلكِ، واضمحلَّ شِراعه؟
سَنَتاه، وشادت المجدَ ساعه
ليس فيه جِماحُه واندفاعه
ومضى في غُبارِه أَتباعه
يَتَلَقَى بِطاوُهِ وسِراعه
كان من رُقْعَةِ الحياءِ قِناعه
كِرْمٌ صفحتاه، هَدْيٌ شِعاعه
ضيقُ النَّزِيلِ، رَحْبُ ذِراعه^٨
دك في الزُّهْدِ ضيقُه واتَّساعه
بِفَلَاةِ (الإمام) طال اضطجاعه^٩
أَكْماَتُ (الإمام) منهم وقاعه^{١٠}
ما يَتَوَدُّ الْمُفَنِّدِينَ انتزاعه^{١١}
وبقومِ سما وطالَ ارتفاعه
هُ - قضاءً عن الحياةِ انقطاعه
عالمٌ باطلٌ قليلٌ مَتاعه

هوامش

- (١) يقال: يد صنع، أي ماهرة حاذقة، وبيان صناع أيضًا.
- (٢) رباع: جمع ربع، وهو الدار.
- (٣) أصقاعه، جمع صقع بضم الصاد: الناحية.
- (٤) تولَّت القصور: أي زهبت. والضياع: جمع ضيعة، وهي العقار والأرض المغلَّة.
- (٥) بديع الزمان: هو الهمذاني صاحب المقامات المشهورة.

- (٦) النزاع للميت: ساعات احتضاره. يقول إنه مع زهده في الحياة فقد طال زمن احتضاره، ولا يكون هذا إلا من قوة الحيوية التي تستطيع مغالبة الموت.
- (٧) في الثمانين: يقصد ثمانين عامًا.
- (٨) كسر البيت — بكسر الكاف وفتحها: جانبه.
- (٩) فلاة الإمام: صحراء الإمام الشافعي، حيث مدفن الفقيد.
- (١٠) أكمات: جمع أكمة: المرتفع من الأرض. والقاع: المنخفض منها.
- (١١) يئود: بمعنى يثقل ويتعب: والمفنديين: المكذبين.

إسماعيل باشا صبري^١

أَخْلَى يَدَيْكَ مِنَ الْخَلِيلِ الْوَافِي
لَبَسَ النَّذِيرَ عَلَى هُدًى وَعَفَافٍ^١
دُونَ الْمَصَابِ بِصَفْوَةِ الْأَلْفِ
هِمَمُ الْعِزَاءِ قَلِيلَةُ الْإِسْعَافِ
فِي حَادِثَاتِ الدَّهْرِ، غَيْرُ خِفَافِ
إِلَّا مَوَدَّاتِ الرِّجَالِ تَلَافٍ^٢
أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ، أَمْ بِسَاطِ سُلَافٍ؟
مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقِيعَ زُعَافٍ^٣
حَتَّى ظَفِرَتْ بِخُلُقِكَ الْمَتْنَافِي
طُهِرَ الْمُكَفَّنِ، طَيَّبَ الْأَلْفَافُ^٤
أَتَرَاهُ يَحْسِبُهَا مِنَ الْأَضْيَافِ؟^٥
وَتَقَلَّبَتْ فِي أَكْرَمِ الْأَكْنَافِ^٦
بِالكَاطِمِ الْغَيْظِ، الصَّفُوحِ، الْعَافِي

أَجَلٌ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ مُوَافِي
دَاعٍ إِلَى حَقِّ أَهَابٍ بِخَاشِعِ
نَهَبِ الشَّبَابِ، فَلَمْ يَكُنْ رُزْئِي بِهِ
جَلَلٌ مِنَ الْأَرْزَاءِ فِي أَمْثَالِهِ
خَفَّتْ لَهُ الْعِبْرَاتُ، وَهِيَ أَبْيَةُ
وَلِكُلِّ مَا أَتْلَفْتُ مِنْ مُسْتَكْرَمِ
مَا أَنْتَ يَا دُنْيَا؟ أَرُؤِيَا نَائِمِ
نَعْمَاؤِكَ الرِّيحَانُ، إِلَّا أَنَّهُ
مَا زِلْتُ أَصْحَبُ فَيْكَ خُلُقًا ثَابِتًا
نَهَبَ الذَّبِيحُ السَّمْحَ مِثْلَ سَمِيَّةِ
كَمْ بَاتَ يَذْبَحُ صَدْرَهُ لَشِكَايَتِهِ
نَزَلْتُ عَلَى سَحْرِ السَّمَّاحِ وَنَحْرِهِ
لَجْتُ عَلَى الصَّدْرِ الرَّحِيْبِ وَبَرَحْتُ

^١ إسماعيل باشا صبري: أحد الشعراء السابقين الفحول، وكان يلقب بشيخ الشعراء، وكان أحد رجال الدولة في عصره، فقد تسنم أعلى المناصب القضائية، وترقى إلى منصب وكيل وزارة الحقانية، ثم وافاه الموت سنة ١٩٢٣.

عَلِقْتُ بِأَرْحَمِ حَيَّةٍ وَشَغَافٌ^٧
 لَمْ يَبْقُ قَاسٌ فِي الْجَوَانِحِ جَافِي
 مَنْ يَبْتَلِي بِقَضَائِهِ وَيُعَافِي
 وَعَلَى الْعُبابِ فَقَرٌّ فِي الرَّجَافِ^٨
 غَيْرَ الرَّمَادِ، وَدَارَسَاتِ أَثَافِي^٩
 يَذَرُ الْعَيُونَ حَوَاسِدَ الْأَكْتَافِ
 وَلَكُمْ نَعُوشٌ فِي الرِّقَابِ زِيَا
 كَرَمٍ، وَمِمَّا ضَمَّ مِنْ أَعْطَافِ
 وَإِذَا جَلَّالُ الْعَبْقَرِيَّةِ ضَافِي
 هَلْ مُتَّعُوا بِتَمَشُّحٍ وَطَوَافٍ؟
 نَكَسَ «اللَّوَاءُ» لِثَابِتٍ وَقَافٍ^{١٠}
 حَرْبٌ لِأَهْلِ الْحَكَمِ وَالْإِشْرَافِ
 بِقَوَادِمٍ مِنْ أَمْسِهِمْ وَخَوَافِي^{١١}
 ضَرَبُوا عَلَى مَوْتَاهُمْ، وَطَرَافِ^{١٢}
 وَعَلَى سَبِيلِ الْقَصْدِ بِالْإِسْرَافِ^{١٣}
 غُرْفَاتٍ مُثَرٍّ، أَوْ سَقِيفَةٍ عَافِي^{١٤}
 وَالْأَرْضُ تَضْحَكُ وَالرُّفَاتُ السَّافِي
 وَتَجَرَّعَتْ تُكُلُّ الْغَدِيرِ الصَّافِي
 وَشَيِّ الرِّيَاضِ وَصَنَعَةَ الْأَقْوَافِ^{١٥}
 جَرِيًّا لِنَافِيَةِ سُودِدٍ وَطَرَافِ^{١٦}
 فَلَقْدَ أَعَادَ بَيَانَ «عَبْدٍ مَنَافٍ»
 مَنْ ذَا يَقِيسُ بِهِمْ بَنِي الْأَشْرَافِ؟
 أَعْلِمْتَ لِلْقَمَرَيْنِ مِنْ أَسْلَافِ؟
 حَتَّى يُشَارَ إِلَيْكَ فِي الْأَعْرَافِ^{١٧}
 لِلْمَوْتِ، لَيْسَ لَهَا مِنْ اسْتِئْثَافِ
 حُكْمِ الْمَنِيَّةِ، مَا لَهُ مِنْ كَافِي
 أَمْسَى تُنَادِيهِ ذِئَابٌ فَيَافِي^{١٨}

مَا كَانَ أَقْسَى قَلْبَهَا مِنْ عِلَّةٍ
 قَلْبٌ لَوْ انْتَضَمَ الْقُلُوبَ حَنَانُهُ
 حَتَّى رَمَاهُ بِالْمَنِيَّةِ فَاانْجَلَتْ
 أَخْنَتٌ عَلَى الْفَلَكَ الْمُدَارِ فَلَمْ يَذُرْ
 وَمَضَتْ بِنَارِ الْعَبْقَرِيَّةِ، لَمْ تَدْعُ
 حَمَلُوا عَلَى الْأَكْتَافِ نَوْرَ جَلَالَةٍ
 وَتَقَلَّدُوا النَعِشَ الْكَرِيمَ يَتِيمَةً
 مُتَمَائِلَ الْأَعْوَادِ مِمَّا مَسَّ مِنْ
 وَإِذَا جَلَّالُ الْمَوْتِ وَافٍ سَابِغٌ
 وَيُخِ الشَّبَابِ وَقَدْ تَخَطَّرَ بَيْنَهُمْ
 لَوْ عَاشَ قَدَوْتُهُمْ وَرَبُّ «لِوَأْتُهُمْ»
 فَلَكُمْ سَقَاهِ الْوَدَّ حِينَ وَدَّاهُ
 لَا يَوْمَ لِلْأَقْوَامِ حَتَّى يَنْهَضُوا
 لَا يُعْجِبَنَّكَ مَا تَرَى مِنْ قُبَّةٍ
 هَجَمُوا عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ بِبَاطِلٍ
 يَبْنُونَ دَارَ اللَّهِ كَيْفَ بَدَا لَهُمْ
 وَيُزَوِّرُونَ قُبُورَهُمْ كَقُصُورِهِمْ
 فَجَعَتْ رُبَى الْوَادِي بَوَاحِدَ أَيْكِهِا
 فَقَدْتُ بَنَانًا كَالرَّبِيعِ، مُجِيدَةً
 إِنْ فَاتَهُ نَسَبُ «الرَّضِيِّ» فَرُبَّمَا
 أَوْ كَانَ دُونَ أَبِي «الرَّضِيِّ» أَبَوَةً
 شَرَفُ الْعَصَامِيِّينَ صُنْعُ نَفُوسِهِمْ
 قَلَّ لِلْمَشِيرِ إِلَى أَبِيهِ وَجَدِهِ
 لَوْ أَنَّ (عِمْرَانًا) نِجَارُكَ لَمْ تَسُدْ
 قَاضِي الْقَضَاةِ جَرَتْ عَلَيْهِ قَضِيَّةٌ
 وَمُصَرَّفُ الْأَحْكَامِ مَوْكُولٌ إِلَى
 وَمُنَادِمُ الْأَمْلَاقِ تَحْتَ قِبَابِهِمْ

فيه الرَّحَى ومشتْ على الأَرْداف^{١٩}
 ما كان يُعبد من وراءِ سِجاف^{٢٠}
 يِيباجَتاهُ على بِلَى وجَفاف
 بعدَ العقولِ تماثُلَ الأَصْداف
 مَنهوبَةَ الأَجْفانِ والأسِيف^{٢١}
 فتنَّتْ بحُلُو تبسُّم وهُتاف
 دُمهم بِذِمَّةِ قَرْنِها الرِّعاف^{٢٢}
 يَدِها، فيا لثلاثَةِ أَحلاف!
 بحبائِلٍ من خَيطِها وكِفاف^{٢٣}
 أَكفانَ موتى من ثيابِ زفاف^{٢٤}
 رُوحَ ورِيحانٍ وَعَذِبِ نِطاف
 حَسَرى على تلكِ الخِلالِ لِهاف
 أَزجِيه بين يَدَيْكَ لِلإِتحاف؟
 أُنَى بَعثتُ بأَكْرَمِ الأَلُطاف؟
 نَفحاتُ تلكِ الرُوضَةِ المِئْئاف^{٢٥}
 بالأَمْسِ لُجَّةُ بحركِ القَذاف
 نَهَجَ المِهارِ على غُبارِ «خِصاف»^{٢٦}
 مِضمارٍ فَضيلٍ أو مَجالٍ قوافي
 ليس السبيلُ على الدليلِ بِخافي
 للحقِّ، لا عَجَلَى، ولا مِيجاف^{٢٧}
 خُلِقَتْ بغيرِ حوافِرٍ وخِفاف
 وتَوُومُ دارِ الحقِّ والإِنْصاف
 حيثُ انتهيتَ بِصاحبِ الأحْفاف^{٢٨}
 عَمَّا يَرُوعُك، والعِشْيُ غوافي
 أنْ ليس جَنبُكُ عنه بالمتجافي
 فاليومَ لست لها من الأهداف
 حتى ظفِرتُ به، فدَعَه كِفاف

في منزلٍ دارت على الصِّيدِ العُلا
 وأُزِيلَ من حُسْنِ الوُجودِ وعِزُّها
 من كُلِّ لَمَاحِ النعيمِ تَقَلَّبَتْ
 وترى الجماجِمَ في الترابِ تماثَلَتْ
 وترى العيونَ القاتِلاتِ بنظرَةٍ
 وتُراغُ من ضِحِكِ الثُّغورِ، وطالما
 عَزَتْ القرونُ الذاهِبِينَ غِزالَةً
 يَجري القضاءُ بها، ويجري الدهرُ عن
 تَرْمِي البريَّةِ بالحُبُولِ، وتارةً
 نَسَجَتْ ثلاثَ عَمائِمٍ، واستحدثتْ
 «أَبَا الحُسَيْنِ»، تحيةً لثراكَ من
 وسَلامٍ أَهلٍ وَلِهٍ وصَحابةٍ
 هل في يَدَيَّ سَوى قَريضِ خالِدٍ
 ما كان أَكْرَمَه عليك! فهل ترى
 هذا هو الرِّيحانُ، إلا أَنه
 والدُّرُّ، إلا أن مَهْدَ يَتيمِه
 أَيامَ أَمْرَحٍ في غُبارِكَ ناشئًا
 أَتَعَلَّمُ الغاياتِ كيف تُراَمُ في
 يا راكِبَ الحِدايا، خلِّ زَمامَها
 دانَ المِطِيِّ الناسُ، غيرَ مِطِيَّةٍ
 لا في الجِيايَ، ولا النِّياقِ، وإنما
 تنتابُ بالركبانِ منزلةَ الهدى
 قد بَلَّغَتْ رَبَّ المِدايِنِ، وانتهتْ
 نَمَ مِلءَ جَفْنِكَ، فالغُدُوُّ غوافِلُ
 في مَضْجَعِ يَكْفِيكَ من حِسانَتِه
 واضْحَكِ مِنَ الأَقْدارِ غيرِ مَعْجَزِ
 والموتُ كُنْتَ تخافُه بِكَ ظافِرًا

قُلْ لي بِسَابِقَةِ الْوِدَادِ: أَقَاتِلْ
 فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبْوَيْكَ كَنْزاً رَحِمَةً
 وَبِهَا شَبَابُكَ وَاللَّدَاتُ، بِكِيتِهِ
 فَازْهَبْ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ، كَلَاكِمَا
 الشَّمْسُ تُخْلَفُ بِالنُّجُومِ، وَأَنْتَ بِالْـ
 غَلْبِ الْحَيَاةِ فَتَى يَسُدُّ مَكَانَهَا
 هُوَ حِينَ يَنْزِلُ بِالْفَتَى، أَمْ شَافِي؟
 وَهُوَ، وَذَلِكَ مِنْ جَوَارِ كَافِي
 وَبِكَيْتِهِم بِالْمَذْمَعِ الذَّرَافِ
 مَالِ النَّهَارِ بِهِ، وَلَيْسَ بِطَافِي
 آثَارِ، وَالْأَخْبَارِ، وَالْأَوْصَافِ
 بِالذِّكْرِ، فَهُوَ لَهَا بَدِيلٌ وَافِي

هوامش

- (١) النذير: الموت.
- (٢) المستكرم: هو كل كريم عليك من مال ونحوه.
- (٣) نقيع زعاف: أي سم ناجع بالغ.
- (٤) يشبه الفقيد بالذبيح، والذبيح قيل: سيدنا إسحاق، والمراد هنا سيدنا إسماعيل، ومن أجل ذلك صار الفقيد سميًا له، والألفاف: يقصد بها الكفن. يريد أنه ذهب طيب المظهر والمخير.
- (٥) الشكاة: هي العلة التي يشكوها المريض.
- (٦) السحر: الرئة. والنحر: أعلى الصدر. والأكتاف: جمع كتف، وهو الجانب.
- (٧) يريد بقوله «أرحم حية»: القلب. والشغاف (بالفتح): غلاف القلب.
- (٨) العباب: هو الموج. والرجاف: البحر.
- (٩) الأثافي: جمع أثفية، وهي ما يوضع عليه القدر.
- (١٠) رب لوائهم: يقصد به صاحب جريدة اللواء، ومنشئها زعيم الشباب الأول المرحوم مصطفى كامل باشا.
- (١١) القوادم والخوافي: ريش في جناح الطائر. وقد ورد في قول بعضهم:

فإن الخوافي قوة للقوادم

- (١٢) طراف — على وزن كتاب: بيت من آدم، ويقصد بها المقاصير الموضوعة على بعض القبور.
- (١٣) القصد: الاعتدال، وهو في كل شيء ضد الإسراف.

- (١٤) العافي: الفقير.
- (١٥) الأفواف: الثياب الرقيقة.
- (١٦) الطراف: هنا من قولهم: توارثوا المجد طرفاً، أي عن شرف ورفعته. والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر المشهور.
- (١٧) عمران: أبو موسى (عليه السلام)، وقد نزلت في القرآن المجيد سورة باسم آل عمران، كما نزلت سورة باسم الأعراف.
- (١٨) الأملاك: الملوك. والفيافي: الصحاري.
- (١٩) الصيد العلا: الملوك. والأرداف: أبناء الملوك، أو الذين يلونهم في المرتبة.
- (٢٠) السجاف: الستر، كالكلل ونحوها.
- (٢١) يريد «بأسياف العيون»: اللحاظ، وكثيراً ما تعمل اللحاظ في الناس عمل السيوف، وعبر بالأسياف ليجانس بينها وبين الأجفان.
- (٢٢) غزالة: هي الشمس. والرعاف: أي قرننها الأحمر الذي يشبه الدم.
- (٢٣) الكفاف: حبال الصائد.
- (٢٤) ثلاث عمائم: الشعر الأسود، والأسود فيه شيب، والأبيض، أي أدوار العمر الثلاثة.
- (٢٥) الروضة المئناف والأنف: هي التي تحمى فلا يكاد أحد يمرُّ بها أو يجتني منها.
- (٢٦) المهار: جمع مهر، وخصاف: فرس مشهور في العرب.
- (٢٧) الميجاف: السريعة.
- (٢٨) رب المدائن: كسرى. وصاحب الأحقاف: عاد.

فوزي الغزي^١

حُمِّلَتْ ما يُوهي الجبال وَيُزهقُ^١
تَبَلَّى على الصبر الجميل وتخلقُ^٢
عَرَّتِ الزمانَ، كأن (روما) تُحرقُ^٣
في حجرة التاريخ أُرْعَنُ أحمقُ
وتَلَصُّ أخرى بالشمال وتَسْرِقُ؟
من نَشْتِكِ الحُمسِ الجنونُ المُطْبِقُ
لا تكتسي صدأً، ولا هي تُطرقُ
ما فيه من عِوَجٍ، ولا هو ضيقُ
أدبِ الحضارةِ فيهما والمنطقُ
يَبْقَى الكتابُ وليس يَبْقَى المُلْحَقُ
تجري، ومنها عبْرَةٌ تترقرقُ
أَفَأَنْتَ مُنْتَظَرٌ كعهْدِكَ شَيْقُ؟
أَخَذْتَ مُخِيلَتُها تجيش وتَبْرِقُ^٤
كرِهَ الحديثَ عن الأجاجِ المَغْرَقِ^٥

جرحُ على جرح! حَنانَكَ (جِلْقُ)
صبرًا لباة الشرق؛ كُلُّ مصيبةٍ
أنسيَتْ نارَ الباطشين، وهزَّةُ
رعناءٍ أرسلها ودسَّ شواظها
فمشتُ تُحطِّمُ باليمين ذخيرةً
جُنْتُ، فضعضها، وراضَ جَمَاحها
لِقِي الحديدِ حَمِيَّةً أُمُويَّةً
يا واضعَ الدِّستورِ أَمِسْ كخُلُقِهِ
نَظْمٌ من الشورى، وحكمٌ راشدُ
لا تَخَشْ مِمَّا أَلْحَقُوا بكتابه
مَيَّتَ الجلال، من القوافي زَفْرَةُ
ولقد بَعَثْتُهُما إِلَيْكَ قصيدةً
أَبْكِي لِيالِينا القِصارِ وصحبةً
لا أَذْكَرُ الدنيا إِلَيْكَ؛ فَرَبِّما

^١ فوزي الغزي: هو أحد سِراة الزعماء في الشام، وأحد أُلوية الثورة العربية في نهضتها العظمى، توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق، وألقيت فيها هذه القصيدة العِصماء، في سنة ١٩٢٠.

وشرابها، وهوؤها المتنشق
لا يعلمون بأي سميها سقوا^٧
ما ليس يسقيك العدو الأزرق^٨
ولكل نفس مدة لا تسبق
علقت، وأسباب المنية تعلق
كفرت بما تنتاب منه وتطرق^٩
ترمي مكانك بالعيون وترمق^{١٠}
فعساك تطلع، أو لعلك تشرق
والحور محلل الضفائر مطرق^{١١}
يجد الهموم خليهن ويأرق^{١٢}
أبذات طوق بعد ذلك يوثق؟^{١٣}
في العبقريّة ما يحب ويغشق^{١٤}
وكان ظل السم فيها زئبق
بحياته الوطن المروع المشفق
لولا القضاء من السماء لما شقوا
فانظر فؤادك، هل يلين ويرفق؟
صفحوا، فما منهم مغيظ مُحق
وأنبّت من أسبابها المتعلق^{١٥}
للشمس يُصنع في الممات ويُنسق
عما وراءك من رفات أضيق^{١٦}
واقى يُعزي الشام فيك المشرق
يحمي حمى الحق المبين ويخفق
وتلمّسته فلم تجده الفيلق^{١٧}
فيرى، وتسألّه الخطاب فينطق
عود المنابر يُستخف فيورق^{١٨}
كانت بها الدنيا ترف وتغبق؟^{١٩}
وتحس رياها العقول وتنشق

طُبعت من السم الحياة، طعامها
والناس بين بطيئها ودعافها
أما الولي فقد سقاك بسمه
طلبوك والأجل الوشيك يحثهم
لما أعان الموت كيد جبالهم
طرقت مهالك حية بشرية
يا (فوز)، تلك دمشق خلف سوايها
ذكرت ليالي بدرها، فتلففت
(بردى) وراء ضفافه مستعبر
والطير في جنّات (دمر) نوح
ويقول كل محدث لسميره
عشقت تهاويل الجمال، ولم تجد
فمشت كأن بنائها يد مدمن
ولو أن مقدورا يرد لردّها
أشقى القضاء الأرض، بعدك أسرة
قسّت القلوب عليهم وتحجرت
إن الذين نزلت في أكنافهم
سَخروا من الدنيا كما سَخرت بهم
يا مأتما من (عبد شمس) مثله
إن ضاق ظهر الأرض عنك فبطنها
لما جمعت الشام من أطرافه
يبكي لواء من شباب أُميّة
لمست نواصيها الحصون ترومه
ركن الزعامة حين تطلب رأيه
ويكاد من سحر البلاغة تحته
(فيحاء)، أين على جناك وردة
علوية تجد المسامع طيها

وَأَرَايْكَ الزَّهْرَ الْغُصُونُ، وَعَرْشُهَا
مَنْ مُبْلَغٌ عَنِّي شُبُولَةٌ جَلَّقَ
بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، بِمُحَمَّدٍ
قَدْ تُفْسِدُ الْمَرْعَى عَلَى أَخَوَاتِهَا
يَدُ أُمَةٍ وَجَبِينُهَا وَالْمُفَرِّقَ
قَوْلًا يَبْرُ عَلَى الزَّمَانِ وَيَصْدُقُ؟
بِيسُوعَ، بِالْغَزِيِّ لَا تَتَفَرَّقُوا
شَاةٌ تَنْدُ مِنْ الْقَطِيعِ وَتَمْرُقُ

هوامش

- (١) جلق (بشدة اللام مفتوحة أو مكسورة): دمشق.
- (٢) اللبابة: أنثى الأسد.
- (٣) يشير إلى ضرب الفرنسيين لها بالمدافع. وحادثة حرق روما: هي إحدى الحوادث التاريخية الكبرى، وهي مضرب المثل منذ صار نيرون مثلاً للظلم والجبروت.
- (٤) الشواظ (بضم الشين وكسرهما): لهب لا دخان فيه.
- (٥) السحابة المخيلة: التي تُحَسَّبُ ماطرة، أي أن صحبة الفقيد كانت مرجوة الخير كما تكون السحابة المخيلة مرجوة المطر.
- (٦) الأجاج: الملح المرُّ.
- (٧) الذعاف: سُمُّ الساعة.
- (٨) العدوُّ الأزرق: هو الكثير العداوة.
- (٩) المهاد: الفراش، وفي هذا البيت إشارة إلى حادثة قتل الفقيد بواسطة زوجته.
- (١٠) سواد دمشق: أي القرى التابعة لها.
- (١١) بردى: نهر بالشام. المستعبر: بمعنى الباكي. الحور: شجر. ضفائر الحور: غصونه. التي تشبه جدائل الشعر.
- (١٢) دمر (بضم الدال وتشديد الميم المفتوحة): عقبة في دمشق. خليهن: الخالي من الهموم، وهو ضد الشجي.
- (١٣) ذات الطوق: الحمامة، وهي في هذا البيت كناية عن المرأة.
- (١٤) التهاويل: الألوان المختلفة.
- (١٥) أنبت، أي قُطِعَ.
- (١٦) الرفات: بقايا الميت.
- (١٧) نواصي الحصون: أعاليها.

الشوقيات

(١٨) يستخف، بمعنى يسرُّ ويطرب.

(١٩) فيحاء: دمشق.

كريمة البارودي^١

أَحِيثُ تَلَوُّحِ الْمُنَى تَأْفُلُ؟
حَكِيَّتِ الْحَيَاةِ وَحَالَاتِهَا
أَمِنْ جَنَحِ لَيْلٍ إِلَى فَجْرِهِ
وَذَلِكَ يَوْجِشُ مِنْ رَبِّهِ
أَجَابَ النَّعِيُّ لَدَيْكَ الْبَشِيرَ
وَأَطْرَقَ بَيْنَهُمَا وَالِدُ
يَفِيءٍ إِلَى الْعَقْلِ فِي أَمْرِهِ
تَهَاوَتْ عَنِ الْوَرْدِ أَغْصَانُهُ
وَرَأَتْ حَيَاةً، وَجَاءَتْ حَيَاةً
وَمَا غَيْرُ مَنْ قَدْ أَتَى مُدِيرُ
كَأَنِّي (بَسَامِي) هَلَوُغُ الْفَوَادِ
يَرَى قَدْرًا يَأْمُلُ اللَّطْفَ فِيهِ
يُضَيُّ لِضَيْفَانِهِ بِشْرُهُ
وَيَقْرِئُهُمُ الْأَنْسَ فِي مَنْزِلِ

كَفَى عِظَةً أَيُّهَا الْمَنْزِلُ!^١
فَهَلَّا تَخَطَّيْتُ مَا تَنْقُلُ؟
جَمَّى يَزْدَهِي، وَجَمَّى يَعْطُلُ؟^٢
وَذَلِكَ مِنْ رَبِّهِ يَأْهَلُ؟^٣
وَذَاقَ بَكَاسِيَهُمَا الْمَحْفِلُ
أَخُو تَرْحَةٍ، لَيْلُهُ أَلِيلُ
وَلَكِنَّهُ الْقَلْبُ، لَا يَعْقِلُ
وَطَارَ عَنِ الْبَيْضَةِ الْبُلْبُلُ^٤
وَأَظْهَرَ قَدْرَتَهُ الْمُبْدِلُ
وَلَا غَيْرُ مَنْ قَدْ مَضَى مُقْبِلُ
إِذَا أَسْمَعْتَ هَمْسَهُ يَعْجَلُ
وَعَايِي الرَّدَى دُونَ مَا يَأْمَلُ
وَبَيْنَ الضَّلُوعِ الْغَضَى الْمُشْعَلُ^٥
وَيَجْمَعُهُ وَالْأَسَى مَنْزِلُ

^١ وَجَّهَ هذه القصيدة يعزي بها المرحوم محمود سامي باشا البارودي في كريمة التي توفيت أثناء زفاف شقيقتها.

فمن غادةٍ في مَجَالِي الزَّفَافِ وذي في نفاسِهَا تَنطَوِي
وذي في نفاسِهَا تَنطَوِي تَقَسَّمُ بينهما قَلْبُهُ
تَقَسَّمُ بينهما قَلْبُهُ فيا نكدَ الحُرِّ، هل تنقضي؟
ويا صبر (سامي)، بلغتَ المَدَى لقد زدتَ من رِقَّةٍ كالصراطِ
لقد زدتَ من رِقَّةٍ كالصراطِ يَمُرُّ عليك خَلِيطُ الخُطوبِ
يَمُرُّ عليك خَلِيطُ الخُطوبِ ويا رجلَ الحِلْمِ، خذْ بالرضى
ويا رجلَ الحِلْمِ، خذْ بالرضى أَتَحَسِبُ شَهِدَا إِنْءَاءِ الزَّمانِ
أَتَحَسِبُ شَهِدَا إِنْءَاءِ الزَّمانِ وما كانَ مِنْ مُرِّهِ يَعتَلِي
وما كانَ مِنْ مُرِّهِ يَعتَلِي وأنتَ الذي شَرِبَ المَترَعَاتِ
وأنتَ الذي شَرِبَ المَترَعَاتِ أَفَيَا ذا الجَلالِ، وفي ذا الوَقارِ
أَفَيَا ذا الجَلالِ، وفي ذا الوَقارِ أَلَمْ تَكُنِ المَلِكُ في عِزِّهِ
أَلَمْ تَكُنِ المَلِكُ في عِزِّهِ وقولُكَ من فوقِ قولِ الرِّجالِ
وقولُكَ من فوقِ قولِ الرِّجالِ ستَعْرِفُ دُنْيَاكَ من ساوَمْتَ
ستَعْرِفُ دُنْيَاكَ من ساوَمْتَ كَأَنَّكَ (شَمشونُ) هَذي الحِياةِ
كَأَنَّكَ (شَمشونُ) هَذي الحِياةِ

هوامش

- (١) تلوح المنى: بمعنى تشرق، تأفل: بمعنى تغرب.
- (٢) جنح الليل (بضم الجيم وكسرها): طائفة منه. يعطل: بمعنى يخلو. والأصل في العطل: التجرد من الحلي.
- (٣) الرَبَّةُ هنا: يقصد بها صاحبة البيت. يأهل: يمتلئ أو يعمر.
- (٤) الترحة: الحزن. الأليل: الشديد السواد.
- (٥) تهاوت: أي تساقطت أو تخلَّت.
- (٦) الغضى: شجر إذا اشتعل بقي جمرة طويلاً.
- (٧) النفاسة من قولهم: هذا شيء نفيس، أي ثمين يرغب فيه. والنفائس: الحلي وما أشبهها.

(٨) الخف: الخفيف. المثقل: الثقيل.

(٩) يشير إلى زمن الثورة العرابية، وموقف البارودي منها.

(١٠) شمشون: أحد أنبياء التوراة، وله قصة هناك تدلُّ على أنه أُعطي بسطة عظيمة في القوة.

فتحي ونوري^١

أُنْظِرْ إِلَى الْأَقْمَارِ كَيْفَ تَزُولُ
وَالِى الْجِبَالِ الشُّمَّ كَيْفَ يُمِيلُهَا
وَالِى الرِّيَّاحِ تَخَرُّ دُونَ قَرَارِهَا
وَالِى النُّسُورِ تَقَاصَرَتْ أَعْمَارُهَا
فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ وَكُلِّ سَمِيَّةٍ
يَهْوِي الْقَضَاءُ بِهَا، فَمَا مِنْ عَاصِمٍ
(فَتْحُ السَّمَاءِ) وَ(نُورُهَا) سَكَنَا الثَّرَى
سَرَّ فِي الْهَوَاءِ، وَلُذْ بِنَاصِيَةِ الشُّهَا
وَارَكَبْ جَنَاحَ النِّسْرِ لَا يَعْصِمُكَ مِنْ
وَلِكُلِّ نَفْسٍ سَاعَةٌ، مَنْ لَمْ يَمُتْ
أَلِى الْحَيَاةِ سَكَنْتْ وَهِيَ مَصَارِعُ
لَا تَحْفَلْنَ بِبُؤْسِهَا وَنَعِيمِهَا
مَا بَيْنَ نَضْرَتِهَا وَبَيْنَ ذُبُولِهَا
وَالِى وُجُوهِ السَّعْدِ كَيْفَ تَحُولُ
عَادِي الرَّدَى بِإِشَارَةٍ فَتَمِيلُ
صَرَغَى عَلَيْهِنَ التُّرَابُ مَهِيلُ
وَالْعَهْدُ فِي عُمَرِ النُّسُورِ يَطُولُ
قَمَرٌ مِنَ الْغُرِّ السُّمَاءِ قَتِيلُ
هِيَهَاتُ! لَيْسَ مِنَ الْقَضَاءِ مُقِيلُ
فَالْأَرْضُ وَلَهَى، وَالسَّمَاءُ تُكُولُ
الْمَوْتَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَبِيلُ^١
نَسِرَ يُرْفَرُ فِيهِ عِزْرَائِيلُ
فِيهَا عَزِيزًا مَاتَ وَهُوَ ذَلِيلُ
وَالِى الْأَمَانِيِّ يَسْكُنُ الْمَسْلُولُ؟
نُعْمَى الْحَيَاةِ وَبُؤْسُهَا تَضْلِيلُ
عَمُرُ الْوَرُودِ، وَإِنَّهُ لِقَلِيلُ

^١ فتحي ونوري: هما الطياران العثمانيان اللذان قدما إلى مصر في سنة ١٩١٣ يقودان طيارتهما، فسقطت بهما؛ فماتا، فكان لمصابهما في مصر أسف شديد، وكانت الخلافة الإسلامية وقتئذ ما تزال تربط المصريين بالعثمانيين.

كالحلم جاء بصده التأويل
ما كان من فرح عليه يسيل
كالرُّقْط في ظلِّ الرياضِ ثقيل^٢
فتحُ أغرُّ على السماءِ جميل
ولمن يُشَيِّد بعده فيُطيل
لم يَهْدِ فيها السالكين دَلِيل
أو علمه، والآخرون فُضُول
والتابعون من الخميس حُجُول^٣
فيم الوقوف ودون مصرِ ميل؟
لَمَّا طَلَعْتُمْ فِي السحابِ كَلِيل
لكم على طُغيانها لَذْلُول
أنَّ المنيَّةَ ثالثُ وزْمِيل
لك في الحياة وفي الممات خليل
في الجوّ نسرٌ بالحياة بَخِيل
عَرَضُ السماءِ ضريحُهم والطُول؟^٤
ويرفرفُ التسبيح والتهلِيل
ويَسُوعُ فوق يمينه إكْلِيل^٥
طِيب، وهَمْسٌ حديثهم إنجيل^٦
في يومٍ يُفْسِدُ في السماءِ الجيل^٧
لا آدمُ فيها، ولا قابيل^٨
ويزرى بها برقُ الرجاءِ عليل
شيخٌ، وباللحظِ البريء بتول^٩
سَيْلٌ، وللدِّمِ والدموعِ مسيل
فيها، ومن خيل الهواءِ رَعِيل^{١٠}
والدهرُ للسرِّ المصونِ مُذِيل^{١١}
ملهوفةٌ، لم تدر كيف تقول
بينَ الجداولِ والعيونِ ذُبُول^{١٢}

هذا بَشِيرُ الأَمْسِ أصبح ناعياً
يجري من العَبْرَاتِ حَوْلَ حديثه
ولرُبِّ أعراسِ خَبَّانٍ مَاتَمَّا
يا أَيُّها الشهداء، لن يُنْسَى لكم
والمجدُ في الدنيا لأوَّلِ مُبْتَنٍ
لولا نفوسُ زُلْنَ في سُبُلِ العُلا
والناسُ باذلُ روجه، أو ماله
والنَّصْرُ غرَّتْهُ الطلائعُ في الوغَى
كم ألفِ ميلٍ نحو مصرٍ قطعتمْ
(طوروس) تحتكم ضئيلٌ، طَرْفُه
تُرخون للريح العِنان، وإنها
إثنينِ إثر اثنين، لم يخطر لكم
ومن العجائب في زمانك أن يَفِي
لو كان يُفْدَى هالكٌ لِفِداكمْ
أَيُّ الغُزاةِ أُولي الشهادة قبلكم
يَغْدُو عليكم بالتحية أهلها
(إدريس) فوق يمينه رِيحانةٌ
في عالم سُكَّانِه أنفاسُهم
إني أخاف على السماءِ من الأذى
كانت مطهرة الأديم، نَقِيَّةٌ
يتوجَّه العاني إلى رحمتها
ويُشيرُ بالرأسِ المُكَلَّلِ نحوها
واليومَ للشهواتِ فيها والهوى
أَضَحَتْ ومن سَفَنِ الجِواءِ طوائفُ
وأزِيلُ هيكلها المصونُ وسِرُّه
هَلِعتْ (دمشق)، وأقبلتْ في أهلها
مَشَتْ الشُّجونُ بها، وعمَّ غِياطُها

وبكلِّ حَزْنٍ رَنَّةٌ وَعَوِيلٌ
للمسجد الأمويِّ، فهوَ طُلُولٌ^{١٣}
لكمُ الصَّلَاةِ، وقُرْبُ الترتيلِ
في الأرضِ عالٍ، والسماءُ أصيلٌ
بمدامع الروحِ الأمينِ غَسِيلٌ
بين (السُّهى) و(المُشتري) مَحْمُولٌ^{١٤}
أولىً بذاك مَشَى به جبريلُ
من قبلُ ثاوٍ، والسماحُ نَزِيلٌ
حتى كأنَّ الميْتَ فيه رسولٌ^{١٥}
وحواكَ ظلٌّ في (فروق) ظَلِيلٌ^{١٦}
بينَ المآذِنِ والقِلاعِ نُزُولٌ
لِستُورها التمسيحُ والتقبيلُ
صبرُ العظامِ على العظيمِ جميلُ
نَاءِ الفراتِ بشطرها والنيلِ
فالغابُ من أمثالها مَأْهُولٌ
عند الإله، وإنه لجَزِيلٌ
للحقِّ، أنتَ بآنٍ يُحَقِّ كَفِيلٌ
عدلاً يُقيمُ الملكَ حينَ يَمِيلُ
لا الجيشُ يرفعه ولا الأسطولُ
والرفقُ عند محمدٍ مَأْمُولٌ^{١٧}
ما انفكَّ في جنب الهلالِ يَسِيلُ
إنَّ الوثاقَ على الأسودِ ثَقِيلٌ^{١٨}
صِنْدِيدُ (برقة) مُوثَّقٌ مَكْبُولٌ؟^{١٩}
ما كان يَغْمَدُ سيفُكُ المسلولُ
واستبقه، إن السيوفَ قليلُ

في كلِّ سهلٍ أَنَّهُ وَمَنَاحَةٌ
وكأنما نُعِيَتْ أُمِيَّةٌ كُلُّهَا
خَضَعَتْ لكم فيه الصفوفُ، وأزْلِفَتْ
من كلِّ نَعِشٍ كالثُّرَيَّا، مَجْدُهُ
فيه شهيدٌ بالكتابِ مُكْفَنٌ
أَعُواده بين الرجالِ، وأصلُهُ
يَمشي الجنودُ به، ولولا أَنهم
حتى نزلتمُ بُقْعَةً فيها الهوى
عَظُمَتْ، وجلَّ ضَرِيحُ (يوسف) فوقها
شِعْري، إذا جُبَّتِ البحارُ ثلاثَةٌ
وتداوَلَتْكَ عَصَابَةٌ عَرَبِيَّةٌ
وَبَلَّغَتْ من بابِ الخِلافةِ سُدَّةً
قلَّ للإمامِ محمدٍ، ولآله
تلك الخطوبُ — وقد حملتم شَطْرَهَا —
إِنْ تَفَقِدُوا الآسَادَ أَوْ أَشْبَالَهَا
صَبْرًا؛ فَأَجِرُ الْمُسْلِمِينَ وَأَجِرْكُمْ
يَا مَنْ خِلافتُهُ الرِّضِيَّةُ عِصْمَةٌ
واللهُ يعلمُ أَنَّ في خلفائه
والعدلُ يَرْفَعُ للممالكِ حائطًا
هذا مقامُ أَنْتِ فيه محمدٌ
بالله، بالإسلام، بالجرحِ الذي
إِلا حَلَلْتَ عن السَّجِينِ وَثاقَهُ
أَيَقُولُ وَاِشْ، أَوْ يُرَدِّدُ شَامِتٌ
هو من سيوفِكِ أَغْمَدُوهُ لَرِيبةٍ
فاذكر أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِلَاءَهُ

هوامش

- (١) السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.
- (٢) يريد أن الأحزان تختبئ في الأرواح، كما تكمن الحيات الرقط وقت القيلولة في ظلال الرياض، فوجود الحيات في ذلك الجو تسميم له ومانع من الانتفاع به، كما أن انطواء الأحزان في ثنايا الأفراح مسمم لجوها، مانع من الاستمتاع بكل سرورها.
- (٣) الخميس: الجيش. الحجل: أصلها من اللون الأبيض يكون في قوائم الفرس كأنه العلامات، يقول: إن الذين يقدمون في أوائل الجيوش، يكونون في جسم النصر أشبه بالغرة، وهي لا تكون إلا في الوجه، على حين أن غيرهم من سائر الجيش يكون أشبه بالحجل، وهي لا تكون إلا في الأيدي والأرجل، وطبيعي أن الوجه أشرف، وإن كانت الحجل بعض سمات الجمال.
- (٤) في هذا البيت ترغيب عظيم يساق للطيارين؛ إذ يقول لهم: إن الغزاة — وهم موضع الإجلال والإكبار — تشقُّ قبورهم في الأرض، ولكن أضرحتم في السماء.
- (٥) يسوع: هو عيسى ابن مريم. إدريس: هو أحد الأنبياء الرسل. وقد خصَّ إدريس بالذكر، لما جاء في قصة الإسراء، من أن النبي صلوات الله عليه رآه قائماً على باب إحدى السماوات السبع، فسأل جبريل: من هذا؟ فقال: أخوك إدريس.
- (٦) قوله: «وهمس حديثهم إنجيل»: يقصد أن أحاديثهم طهرٌ وتقديس.
- (٧) يريد أنه خائف على جو السماء يوم يتخذ الطيارون ميداناً للحروب، فيلوثون ذلك الطهر بأذى قتل الناس وتخريب أوطانهم.
- (٨) يريد «بقايل» الإشارة إلى أول دم أراقه الإنسان ظملاً لأخيه الإنسان.
- (٩) الرأس المكلل: الذي يتوجه الشيب، وهذه كناية عن حالة الضعف.
- (١٠) خيل الهواء: الطيارات. الرعيل: القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين.
- (١١) مذيل: مهين. أي أن الدهر لم يحسن حفظ هذا السرِّ المصون فكأنه إهانة.
- (١٢) الغياط: جمع غوطة، وهي الموضع الكثير الماء والشجر. ويقصد «بالعيون» عيون الماء.
- (١٣) طول: جمع طلل. وهو ما شخص من آثار البناء.
- (١٤) المشتري: من الكواكب السيّارة.
- (١٥) يقصد «بيوسف» صلاح الدين الأيوبي.

(١٦) جبت: قطعت. فروق: الآستانة، وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ.

(١٧) كان يخاطب الخليفة محمد رشاد.

(١٨) السجين: هو عزيز بك المصري القائد الحربي العظيم، وكان يجاهد في طرابلس أيام أغار عليها الطليان، وقد وشي به للحكومة التركية، فاعتقلته وزجّت به في السجن، ولم يخرج إلا بتحقيق وشفاعة مصرية، كانت هذه القصيدة من بعض ظواهرها ومن أجمل مظاهرها.

(١٩) برقة: أحد الأقاليم الليبية حدثت به أهم الوقائع الحربية في تلك الإغارة، وفيها لمع مجد عزيز بك.

علي باشا أبو الفتوح^١

ما بينَ دَمْعِي المُسْبِلِ عهدٌ وَبَيْنَ ثَرَى (علي)
عهدُ (البقيع) وساكني هـ على الحيا المتهدِّل^١
والدمعُ مروحةُ الحزيبِ نِ وراحةُ المُتَمَلِّمِ
نَمْضِي، وَيَلْحَقُ مَنْ سَلا في الغابرينَ بَمَنْ سَلي
كَمْ مِنْ تُرابٍ بالدمو عِ على الزمانِ مُبَلَّلِ
كالقبرِ ما لم يَبَلْ فيهِ هـ من العِظامِ، وما بلي
رِيَّانٍ مِنْ مَجْدٍ يَعِ زُ على القصورِ موثِّلِ
أَمَسَتْ جِوَانِبُهُ قَرَا رًا لِلنُّجُومِ الْأَقَلِ
وَحَدِيثُهُمْ مِسْكُ النَّدِ يِّ، وَعَنْبَرٌ فِي المَحْفِلِ
قُلٌّ لِلنَّعِيِّ: هَتَكْتُ دَمَ عِ الصَّابِرِ الْمُتَجَمِّلِ^٢
المُلْتَقِي الأَحْدَاثِ إِنْ نَزَلْتُ كَأَنْ لَمْ تَنْزِلِ
حَمَلَ الأَسَى (بأبي الفتو ح) عَلَيَّ ما لَمْ أَحْمِلِ^٣
حَتَّى ذَهَلْتُ، وَمَنْ يَذُقْ فَقَدَ الأَحِبَّةِ يَذْهَلِ

^١ علي باشا أبو الفتوح: أحد نوابغ مصر الذين اشتركوا في تمهيد الطريق لنهضتها، كان حقوقياً ضليعاً، وأسندت له وكالة وزارة المعارف، فكان موضع الفخر والأمل، وقد توفي سنة ١٩١٣، فعُدَّ موته خسارة وطنية كبرى.

فَعْتَبْتُ فِي رُكْنِ الْقَضَا
 لَهْفِي عَلَى ذَاكَ الشَّبَا
 وَعَلَى الْمَعَارِفِ إِذْ خَلْتُ
 وَعَلَى شَمَائِلِ كَالرُّبَى
 وَحَيَاءِ وَجْهِهِ كَانَ يُؤْ
 يَا رَاوِيًا تَحْتَ الصَّفِي
 وَمُسْرِبَلًا حُلَّالِ الْوَزَا
 وَمُوسِدًا حُفَرَ الثَّرَى
 إِنِّي التَفْتُ إِلَى الشَّبَا
 وَوَقَفْتُ مَا بَيْنَ الْمُحَقِّ
 فَرَأَيْتُ أَيَّامًا عَجَلُ
 كَانَتْ مُوَطَّأَةً الْمِهَا
 ذَهَبَتْ كَحُلْمٍ، بَيْدُ
 إِذْ نَحْنُ فِي ظِلِّ الشَّبَا
 جَارَانِ فِي دَارِ النُّوَى
 أَيُّكِي وَأَيُّكَ ضَاكَا
 وَالدَّرْسُ يَجْمَعُنِي بِأَفْ
 أَيَّامٌ تَبْذُلُ فِي سَبِي
 غَضُّ الشَّبَابِ، فَكَيْفَ كُنْ
 وَإِذَا دَعَاكَ إِلَى الْهَوَى
 وَلَوْ اطَّلَعْتَ عَلَى الْحَيَا
 لَمْ يَذِرْ إِلَّا اللَّهَ مَا
 تَجْرِي بِنَا لِمُفْتَحِ
 حَتَّى تَبْدُلْنَا، وَذَا
 هَاتِيكَ أَيَّامُ الشَّبَا
 مَنْ فَاتَهُ ظِلُّ الشَّبِي
 يَا رَاوِيًا أَخْلَى الدِّيَا

(ع) عَلَى الْقَضَاءِ الْمُنْزَلِ
 بِ وَذَلِكَ الْمُسْتَقْبَلِ
 مِنْ رُكْنِهَا وَالْمُؤَيَّلِ
 بَيْنَ الصُّبَا وَالْجَدُولِ
 ثَرٌ عَنْ «يَسُوعَ» الْمَرْسَلِ
 حِجٌّ مِنَ الْكِرَى وَالْجَنْدَلِ
 رَةٌ بَاتَ غَيْرَ مُسْرِبَلِ
 بَعْدَ الْبِنَاءِ الْأَطْوَلِ
 بِ الْغَابِرِ الْمَتَمَثِّلِ
 قِي فِيهِ، وَالْمَتَخَيَّلِ
 نَ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَعَجَلِ
 لِ لَنَا، عِذَابِ الْمَنْهَلِ
 أَنَّ الْحُلْمَ لَمْ يَتَأَوَّلِ
 بِ الْوَارِفِ الْمُتَهَدِّلِ
 مُتَقَابِلَانِ بِمَنْزِلِ
 نَ عَلَى خُمَائِلِ مُوْنِبِلِي
 ضَلَّ طَالِبٍ وَمُحْصِلِ
 لِ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُبْذَلِ
 تَ عَنْ الشَّبَابِ بِمُعْزَلِ؟
 دَاعِي الصُّبَا لَمْ تَحْفَلِ
 ةَ فَعَلْتَ مَا لَمْ يُفْعَلِ
 خَبَأَتْ لَكَ الدُّنْيَا، وَلِي
 بَيْنَ الْغُيُوبِ وَمُقْفَلِ
 كَ الْعَهْدِ لَمْ يَتَبَدَّلِ
 بِ الْمَحْسَنِ الْمُتَفَضَّلِ
 بَةِ عَاشٍ غَيْرَ مُظَلَّلِ
 رَ وَفَضْلُهُ لَمْ يَرْحَلِ

تتحملُ الآمالُ إثمَ	ر شبابِه المتحمِّلُ ^٨
مشيتِ الشَّبيبةُ جَحْفَلًا	تَبكي لَواءَ الجحفلِ ^٩
فانظرِ سريرَكَ، هل جرى	فوقِ الدموعِ الهُطْلُ؟
الله في وطنٍ ضعیفٍ	فِ الركنِ، واهي المعقلِ
وأبٍ وراءَكَ حُزنُهُ	لِنواكِ حزنُ المَثكلِ
يَهْبُ الضَّياعُ العامرا	تِ لَمَنْ يردُّ له «علي»
ليس الغنيُّ من البريِّ	ة غيرِ ذي البالِ الخَلِي
وَنَجيبَةٍ بينَ العقبا	ئِل هَمُّها لا ينسلِ ^{١٠}
دَخَلَتْ منازلها المنو	نُ على الجريءِ المُشيلِ ^{١١}
كسرتُ جناحَ مُنعمٍ	ورمَتْ فوادَ مُدَلِّل
فكأنَّ ألكَ من شجٍ	ومُتيِّمٍ ومُرمِّل
أَل «الحسينِ» (بِكربلا	في كُربةٍ لا تنجلي) ^{١٢}
خلعَ الشبابَ على القنا	وبذلتهِ لِلْمُعْضِلِ ^{١٣}
والسيفُ أرحمُ قاتلاً	من عِلَّةٍ في مَقْتَل
فاذهب كما ذهبَ الحسيب	نُ إلى الجوارِ الأفضَل
فكلاكما زينُ الشبا	بِ بجنةِ اللهِ العلي

هوامش

- (١) البقيع: أحد المزارات المقدَّسة في المدينة المنورة.
- (٢) المتجمل: الذي يدفن همه في صدره احتساباً ويظهر عكسه للناس.
- (٣) الأسى: الحزن.
- (٤) الموئل: الملجأ الذي يلجأ إليه في الشدة.
- (٥) يريد «بالصفيح والجنْدل»: حجارة القبر. يستعبر بالفقيد — وهو المرفَّه في الحياة — كيف ينام هذا النوم العميق تحت الحجارة الصماء الثقيلة، وهذا حذق في سياق التفجُّع بأسلوب الاستعبار.
- (٦) المتهدِّل: من قولهم: تهدَّلت أغصان الشجر، إذا تدلَّت.

- (٧) يشير في هذا البيت والذي قبله، إلى أن الفقيـد كان هو وأمير الشعراء زميلين وصديقين، كانا يطلبان العلم في جامعة «مونبلييه»، وهي إحدى مدن فرنسا الشهيرة. الأيـك في الأصل: عش الطائر. الخمائل: النباتات الكريمة كالحقائق والبساتين.
- (٨) الشباب المتحمل، أي الراحل.
- (٩) الجحفل: الجيش.
- (١٠) لا ينسلي: أي لا يمضي ولا يبارح مكانه من قلبها.
- (١١) المشبل: هو الذي يلد الأشبال، وهي أولاد السباع.
- (١٢) كربلاء: اسم الموضع الذي قتل فيه سيدنا الحسين (رضى الله عنه).
- (١٣) يشبه الفقيـد بالحسين، بجامع بذل الشباب من كليهما وموت كليهما قبل أوـانه، كأنه يرى أن الموت في سن الشباب بمثابة بذل الحياة وخلع ثوبها، وهذا لا ينافي الاعتقاد بالأجل المكتوب، فقد تمثّل الحسين نفسه عندما رأى أن لا مفرّ من القتل يقول بعضهم:

فلو ترك القطا ليلاً لنام

جورجي زيدان^١

ممالك الشرق، أم أدراس أطلال
أصابها الدهر إلا في مآثرها
وصار ما نتغنى من محاسنها
إذا حفا الحق أرضاً هان جانبها
وإن تحكّم فيها الجهل أسلمها
نوابغ الشرق، هزّوه لعلّ به
إن تنفخوا فيه من روح البيان، ومن
لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم
ما الدين إلا تراث الناس قبلكم
ليس الغلو أميناً في مشورته
لا تطلبوا حقكم بغياً، ولا صلفاً
ولا يضيعن بالإهمال جانبه

وتلك دُولاًته، أم رسّمها البالي؟^١
والدهر بالناس من حال إلى حال
حديث ذي محنة عن صفوه الخالي
كأنها غابّة من غير رثبال^٢
لفاتك من عوادي الذلّ قتال
من الليالي جمود اليأس السّالي
حقيقة العلم ينهض بعد إعضال
ولا محلّ مُباهاة وإدلال
كلّ امرئ لأبيه تابع تالي
مناهج الرّشد قد تخفى على الغالي
ما أبعد الحقّ عن باغ ومُختال
فرُبّ مصلحة ضاعت بإهمال

^١ الأستاذ الكبير المرحوم جورج زيدان منشئ دار الهلال الغراء هو أحد مؤسسي النهضة الصحفية في البلاد العربية، وأحد أساطين رجال العلم والأدب، الذين يرجع إلى مؤلفاتهم ويحتج بأرائهم، وقد توفي سنة ١٩١٤، بعد أن ترك خلفه من التراث العلمي والأدبي ما يكفي لتسجيل اسمه في طليعة سجل المصلحين.

وَنُومَةٌ هَدَمْتُ بُنْيَانَ أَجْيَالٍ
رُكْنَ الْمَمَالِكِ، صَدْرُ الدَّوْلَةِ الْحَالِي
أَبَى لَهَا اللَّهُ أَنْ تَمْشِيَ بِأَغْلَالٍ
مَا تَقْدِرُ النَّفْسُ مِنْ حُبٍّ وَإِجْلَالٍ
كَنَاقِدٍ مُمَعِنٍ فِي كَفِّ لَالٍ
مَا لَيْسَ يَفْعَلُ فِيهَا طِبُّ دَجَالٍ
رَأَيْتُ شَبْهَ عَلِيمٍ بَيْنَ جُهَالٍ
إِلَى كَهُولٍ، وَشُبَّانٍ، وَأَطْفَالٍ
رَضَى الصَّدِيقِ، مَقِيلُ الْحَاسِدِ الْقَالِي
مَفَاخِرِي حِكْمِي فِيهَا وَأَمْثَالِي
أَشْمُرُ الذَّيْلَ، أَوْ أَعْتِزُّ بِأَذْيَالِي
جَحَدْتُ فِي جَنْبِ فَضْلِ اللَّهِ أَفْضَالِي
إِنْ الصَّنَائِعُ تَزَكُّو عِنْدَ أَمْثَالِي
إِنْ الْغُيُوبُ صِنَادِيقُ بَاقِفَالٍ
وَكَالِذَاكَ عَلَى الْأَسْمَاعِ إِقْلَالِي^٢
وَرُحْتُ مِنْ فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ يَرْتِي لِي
كَالْمَوْتِ لِلْمَرءِ فِي حِلٍّ وَتَرْحَالٍ
أَلَيْسَ فِي الْمَوْتِ أَقْصَى رَاحَةِ الْبَالِ؟
مَنْ التَّرَابُ مَعَ الْأَيَّامِ مُنْهَالٍ
إِلَّا تَرَكْنَا رُفَاتًا عِنْدَ غَرْبَالٍ
إِلَّا زَكَاةَ النَّهْيِ، وَالْجَاهِ، وَالْمَالِ
الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مِثْقَالُ بَمِثْقَالٍ
فَلَا رَأَى الدَّهْرُ نَقْصًا بَعْدَ إِكْمَالٍ
كَرَامَةُ الصُّحُفِ الْأُولَى عَلَى التَّالِي
وَمَنْ وَقَائِعِ أَيَّامٍ وَأَحْوَالٍ
هَمَا لِبَاغِي الْمَعَالِي خَيْرُ مَنَوَالٍ
أَنَّ الْحَيَاةَ بِأَمَالٍ وَأَعْمَالٍ

كَمْ هِمَّةٌ دَفَعَتْ جَيْلًا ذُرًّا شَرَفٍ
وَالْعِلْمُ فِي فَضْلِهِ، أَوْ فِي مَفَاخِرِهِ
إِذَا مَشَتْ أُمَّةٌ فِي الْعَالَمِينَ بِهِ
يَقِلُّ لِلْعِلْمِ عِنْدَ الْعَارِفِينَ بِهِ
فَقِفْ عَلَى أَهْلِهِ، وَاطْلُبْ جَوَاهِرِهِ
فَالْعِلْمُ يَفْعَلُ فِي الْأَرْوَاحِ فَاسِدُهُ
وَرُبُّ صَاحِبِ دُرِّسٍ لَوْ وَقَفَتْ بِهِ
وَتَسْبِقُ الشَّمْسُ فِي الْأَمْصَارِ حَكْمَتُهُ
(زَيْدَانُ)، إِنِّي مَعَ الدُّنْيَا كَعَهْدِكَ لِي
لِي دَوْلَةُ الشَّعْرِ دُونَ الْعَصْرِ وَائِلَّةُ
إِنْ تَمْشِ لِلْخَيْرِ أَوْ لِلشَّرِّ بِي قَدَمٍ
وَإِنْ لَقِيتُ ابْنَ أُنْتَى لِي عَلَيْهِ يَدٌ
وَأَشْكُرُ الصَّنْعَ فِي سِرِّي وَفِي عِلْنِي
وَأَتْرُكُ الْغَيْبَ لِلَّهِ الْعَلِيمِ بِهِ
(كَارُغُن) الدَّيْرُ إِكْثَارِي وَمَوْقِعُهُ
رَثِيتُ قَبْلَكَ أَحِبَابًا فَجِئْتُ بِهِمْ
وَمَا عَلِمْتُ رَفِيقًا غَيْرَ مُؤْتَمِنٍ
أَرْحْتُ بِأَلَاكَ مِنْ دُنْيَا بِلَا خُلُقٍ
طَالَتْ عَلَيْكَ عَوَادِي الدَّهْرِ فِي خَشِنٍ
لَمْ نَأْتِهِ بِأَخٍ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ أَخٍ
لَا يَنْفَعُ النَّفْسَ فِيهِ وَهِيَ حَائِرَةٌ
مَا تَصْنَعُ الْيَوْمَ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُهُ غَدًا
قَدْ أَكْمَلَ اللَّهُ ذِيَاكَ (الْهَلَالَ) لَنَا
وَلَا يَزَلْ فِي نَفُوسِ الْقَارِئِينَ؛ لَهُ
فِيهِ الرِّوَاغُ مِنْ عِلْمٍ، وَمِنْ أَدَبٍ
وَفِيهِ هِمَّةُ نَفْسٍ زَانِهَا خُلُقٌ
عَلِمْتُ كُلَّ نَوْمٍ فِي الرِّجَالِ بِهِ

ما كان من دُولِ الإسلام مُنصرِمًا صَوَّرْتَه، كُلُّ أَيَّامٍ بتمثال
نرى به القوم في عَزٍّ وفي ضِعَّةٍ والملك ما بينَ إِدبارٍ وإقبال
وما عَرَضَتْ على الألبابِ فأكهَّةً كالعلمِ تُبْرِزُهُ في أحسنِ القال
وَضَعْتَ خَيْرَ (رواياتِ) الحياة، فَضَعْ روايةَ الموتِ في أسْلوبِها العالي
وصفْ لنا كيف تجفو الروحُ هَيْكَلُها ويستبد البلى بالهيكل الخالي
وهل تَجِنُّ إليه بعد فُرْقَتِه كما يَجِنُّ إلى أوطانه الجالي
هَضابُ لُبْنانٍ من مُنْعَاتِكَ اضْطَرَبَتْ كأنَّ لِبْنانَ مَرْمِيٍّ بزلزال
كذلك الأرضُ تبكي فَقَدَ عالِمِها كالأم تبكي ذهابَ النافعِ الغالي

هوامش

(١) الأدراس: جمع درس، وهو الطريق الخفي أو الثوب الخلق. الأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار. وهذا المطلع الشعري ملآن بالتفجع على ما صارت إليه ممالك الشرق في هذه الأيام، فهو يسأل مستنكرًا: أهذه ممالك حقًا؟ أم هي آثار ورسوم من ممالك عظيمة كانت موجودة وذهبت؟

(٢) رثبال: أسد.

(٣) الأرغن: آلة موسيقية معروفة.

(٤) الجالي: النازح أو المهاجر.

شهداء العلم والغربة^١

وللمجد ما أبقى من المثل العالي
حياةً لأقوام، ودُنيا لأجيال
كريم المصطفى من شباب وآمال
إلى حادثٍ من غربة الدهر قتال
بأبيض من غسل الملائك سلسال^١
فعادت رفيفاً من عيون وأطلال
وفي العُصر الخالي، وفي العالم التالي
رياحين هام في التراب، وأوصال^٢
ذوت بين حل في البلاد وترحال
هلوع، وأم (بالكنانة) مثكال
بمضطرب في البر والبحر، مرقال^٣
ويلقي على القلب الشجي غير قول

ألا في سبيل الله ذاك الدم الغالي
وبعض المنايا همّة من ورائها
أعيني، جودا بالدموع على دم
تناهت به الأحداث من غربة النوى
جرى أرجوانياً، كُميتاً، مُشعشعاً
ولاذ بقضبان الحديد شهيدَه
سلام عليه في الحياة، وهامداً
خليلي، قوماً في رُبى الغرب، واسقيا
من الناعمات الراويات من الصبّا
نعاها لنا الناعي، فمال على أب
طوى الغرب نحو الشرق يعدو سلكه
يسرُّ إلى النفس الأسى غير هامس

^١ شهداء العلم والغربة: هم طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوروبا، فاصطدم
القطار الذي يقلُّهم من أرض إيطاليا؛ فقتل أحد عشر طالباً وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم
استقبالاً رهيباً، فاشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، ومما كان يزيد الهول في هذا المصاب حدوثه
والبلاد مشتتة بنورتها في سنة ١٩٢٠.

سماءُ الحِمَى بالشاطِئَيْنِ وأَرْضُهُ
تُرَى الرِّيحُ تَدْرِي: ما الذي قد أعادها
يُقِلُّ من الفِثْيَانِ أَشْبَالَ غَابَةِ
ثَنَّتُهُ العَوادي دُونَ (أَوْدَيْنَ)، فانثنى
قد اعتنقا تحت الدَّخَانِ كما التقى
فسبحانَ مَنْ يَرْمِي الحديدَ وبأسه
وَمَنْ يَأْخُذُ السَّارِينَ بالفجرِ طالعا
وَمَنْ يَجْعَلُ الأسفارَ للناسِ هِمَّةً
فيا ناقليهم، لو تركتم رفاتهم
وبينَ (غريبالدى) و(كافور) مَضْجَعُ
فهل عَطَفْتُمْ رَنَّهُ الْأَهْلِ والحِمَى
لئن فات مصرًا أن يموتوا بأرضها
وما شغلْتُهُمْ عن هواها قِيَامَةُ
حَمَلْتُمْ من الغربِ الشمسَ لمشرق
عواثرَ لم تَبْلُغْ صباها، ولم تَنْلُ
يُطَافُ بهم نَعْشًا فنَعْشًا، كأنهم
تَوَابَيْتُ في الأعناقِ تَتَرَى زَكِيَّةً
مُلَفَّفَةً في حُلَّةٍ شَفَقِيَّةٍ
أَظَلَّ جلالُ العلمِ والموتِ وفدها
تُفَارِقُ داراً من غُرُورٍ وباطلٍ
فيا حَلَبَةَ رَفَّتْ على البحرِ حُلِيَّةً
جَرَّتْ بين إِيماضِ العواصمِ بالضحي
كثيرةً باغي السبقِ لم يُرَ مثْلُها
لَكَ اللهُ؛ هذا الخطبُ في الوهمِ لم يَقَعْ
بَلَى، كُلُّ ذِي نَفْسٍ أَخُو الموتِ وابْنُهُ
وليس عَجِيباً أَنْ يَمُوتَ أَخُو الصَّبَا
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ مَشِيْبٍ رَهِيْنَةُ

مناحةً أقمارٍ، وماتتُ أشبال
بساطاً، ولكن من حديدٍ وأثقال؟
غداةً على الأخطارِ رُكَّابُ أهوال
بآخرَ من دُهمِ المقاديرِ ذِيالٌ؛
كَمِيَّانَ في داجٍ من النفعِ مُنْجَالٌ^٥
على ناعمِ غَضٍّ من الزهرِ مِنْهال
طُلُوعُ المنيا من ثَنِيَّاتِ آجالٍ^٦
إلى سَفَرٍ يَنْوُونُهُ غَيْرَ قُفَّالٍ
أَقَامَ يَتِيماً في حِرَاسَةِ لآلٍ^٧
لنَزَّاعِ أَمصارٍ على الحقِّ نُزَّالٍ^٨
وَضَجَّةُ أَترابٍ عليهم وأمثال؟
لقد ظَفَرُوا بالبُعْثِ من تُرْبِها الغالي
إِذَا اعْتَلَّ رَهْنُ المحبِّسِينَ بأشغالٍ^٩
تَلَقَّى سناها مُظْلَمًا كاسِفَ البال
مَذاها، ولم تُوصِلْ ضحاها بأصال
مَصاحِفٍ لم يَعْلُ الْمُصَلِّي على التالي^{١٠}
كتابوتِ موسى في مَنابكِ إِسْرا^{١١}
هَلالِيَّةٍ من رايةِ النِيلِ تِمثال
فلم تُلَقَّ إِلَّا في خُشُوعٍ وإِجلال
إلى مَنْزِلٍ من جِيرةِ الحقِّ مَحْلال
وهَزَّتْ بها (حُلُوانٌ) أعطافَ مُخْتالٍ^{١٢}
وبينَ ابتسامِ الثُّغْرِ بالموكبِ الحالي
على عهدِ إِسماعيلَ ذِي الطَّوْلِ والنالٍ^{١٣}
وتلك المنيا لم يَكُنْ على بال
وإنْ جَرَّ أَذْيالَ الحداثةِ والخال
ولكن عَجِيبٌ عَيْشُهُ عَيْشَةُ السَّالي
بِمُعْتَرِضٍ من حادثِ الدهرِ مُغْتال

إلى المجدِ تَرْكَبُ مَتْنٌ أَقْدَرِ جَوَالٍ
إِذَا الشَّيْبُ سَنَّ الْبَخْلَ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ
وَلَا تَذْكُرُوا الْأَقْدَارَ إِلَّا بِإِجْمَالٍ
تَأَفَّفُ قَالَ، أَوْ تَلَطَّفُ مُحْتَالٌ^{١٤}
وَلَيْسَ إِذَا الْأَعْلَامُ خَانَتْ بِخَذَالٍ^{١٥}
وَصُولِ مَسَاعٍ، لَا مَلُولٍ، وَلَا آلٍ^{١٦}
وَلَا يَجْمَعُونَ الْأَمْرَ أَنْصَافَ جُهَالٍ
بَيَانًا جُزَافٍ الْكِيلَ كَالْحَشْفِ الْبَالِي^{١٧}
فَمَنْ لَجَلِيلِ الْأَمْرِ أَوْ مُعْضِلِ الْحَالِ؟
نُفُوسُ الْحَوَارِيِّينَ أَوْ مُهْجُ الْآلِ^{١٨}
تَرْنُمُ أَبْطَالٍ بِأَيَّامِ أَبْطَالٍ
عَلَى الضَّرَبَاتِ السَّبْعِ فِي الْأَيْدِ الْخَالِي؟^{١٩}
رَجَعْتُمْ لَعْمٌ فِي الْقِبَائِلِ أَوْ خَالٍ

وَمَا الشَّيْبُ مِنْ حَيْلِ الْعُلَا؛ فَارْكَبِ الصَّبَا
يَسُنُّ الشَّبَابُ الْبَأْسَ وَالْجُودَ لِلْفَتَى
وَيَا نَشْءَ النِّيلِ الْكَرِيمِ، عِزَاءَكُمْ
فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ
عَلَيْكُمْ لَوَاءُ الْعِلْمِ؛ فَالْفَوْزُ تَحْتَهُ
إِذَا مَالَ صَفٌّ فَاخْلَفُوهُ بِآخِرٍ
وَلَا يَصْلُحُ الْفِتْيَانُ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ
وَلَيْسَ لَهُمْ زَادٌ إِذَا مَا تَزَوَّدُوا
إِذَا جَزَعَ الْفَتْيَانُ فِي وَقْعٍ حَادِثٍ
وَلَوْلَا مَعَانٍ فِي الْفِدَى لَمْ تُعَانِهِ
فَعَنُّوا بِهَاتَيْكَ الْمَصَارِعِ بَيْنَكُمْ
أَلَسْتُمْ بَنِي الْقَوْمِ الَّذِينَ تَكْبَرُوا
رُدِدْتُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ جَدًّا، وَرُبَّمَا

هوامش

(١) الأرجواني: منسوب إلى الأرجوان، وهو صبغ أحمر يشبه به الدم لشدة حمرة. الكميته: حمرة يخالطها السواد. معنى المشعشع: الممزوج بالماء. الغسل (بكسر الغين): ما يغسل به. يصف دم هؤلاء الشهداء بأنه يجري أحمر مشوباً بسواد ممزوجاً بلون أبيض، كأنه الماء السلسال الذي أصابه من غسل الملائكة.

(٢) الأوصال: الأعضاء.

(٣) سليك: رجل من العرب اشتهر بقوة الجري ويضرب به المثل في السرعة؛ أراد تشبيه الناعي به. مرقال: سريع.

(٤) دُهم: جمع أدهم، وهو الأسود. ذيال: طويل الذيل، والذيل من كل شيء: آخره، ومن الفرس: ذنبه.

(٥) كميان: مثنى كمي، وهو الشجاع المتكمي، أي المتغطي في سلاحه، النقع: الغبار.

(٦) الثنيات: قمم الجبال.

(٧) يريد باليتيم: اللؤلؤ. واللال بائع اللآلئ وصاندها وصانعها.

- (٨) غريبالدى وكافور: بطلان من أبطال الحركة الاستقلالية في إيطاليا.
- (٩) رهن المحبسین: أول ما أطلق هذا التعبير كان يطلق على أبي العلاء المعري، والمحبسان هما العمى ولزومه البيت.
- (١٠) المصلي: هو الذي يجيء أول الخيل في السبق، التالي: هو الذي يجيء تاليًا له.
- (١١) تابوت موسى: هو الذي وضع فيه سيدنا موسى وألقي في البحر، فالتقطه آل فرعون وقاموا على تربيته حتى كبر. إسرال: أي إسرائيل.
- (١٢) الحلبة: الخيل التي تجمع للسباق. حلوان: اسم الباخرة التي أقلت رفات الشهداء في عودتهم إلى مصر.
- (١٣) النال: العطاء. وفي هذا البيت إشارة إلى السباق الذي كان يقام في مدينة حلوان في عهد إسماعيل باشا.
- (١٤) قال: مبغض.
- (١٥) عليكم لواء العلم: أي الزموا أو التزموا.
- (١٦) آل: من قولهم: هو لا يألو جهدًا.
- (١٧) الحشف البالي: التمر اليابس.
- (١٨) الحواريون: أصحاب عيسى. والآل: أصحاب محمد صلوات الله عليهما.
- (١٩) الضربات السبع: يشير إلى نوازل سماوية امتحن الله بها قدماء المصريين، ويريد بالأبد: الزمن القديم المديد.

سعيد زغلول بك^١

آل (زغلول)، حَسْبُكُمْ من عزاءٍ
في خِلالِ الخطوبِ ما راعٍ إلا
حَمَلِ الرُّزءِ عنكمُ في (سعيد)
قد دهاهُ من فَقْدِهِ ما دهاكم
فكما كان نُحْرِكُكم ومُنّاكم
ليت مَنْ فَكَّ أَسْرَكم لم يَكِلْهُ
حجبتُ من ربيعِهِ ما رجوتُم
أَنَسْتُ صَحَّةً فَمَرَّتْ عَلَيْهَا
إنما مِنْ كِتَابِهِ يُتَوَفَّى المر
لست تدري الجِمامُ بالغابِ هل حا
يا (سعيدُ) اتَّيَدُ، وَرَفَقًا بشيخ
ما كفاه نوائِبُ الحَقِّ حتّى
فَجَأَ الدهرُ، فاقتضَبْتُ القوافي
قُمْ فشاهدْ لو استطَعْتَ قِيامًا

سُنَّةُ الموتِ في النَّبِيِّ وآلِهِ
أَنَّها دونَ صَبْرِكُم وجَمالِهِ
بلدُ شَيْخُكُمْ أَبُو أَحْمالِهِ^١
وبكى ما بَكَيْتُمْ من خِلالِهِ
كان من نُخْرِهِ ومن آمالِهِ
للمنايا تَمُدُّهُ في اعتقالِهِ
وطَوَتْ رحلةَ العُلا من هلالِهِ
وتَخَطَّتْ شِبابَهُ لم تُبالِهِ
ء، لا مِنْ شِبابِهِ واكتهالِهِ
مَ على اللَّيْثِ، أَم على أَشْبالِهِ
والهِ من لواعجِ الثُّكلِ والهِ^٢
زِدَتْ في هَمِّهِ وفي إِشْغالِهِ
من فُجاءاتِهِ وَخَطَفِ ارتجالِهِ
حَسْرَةَ الشَّعْرِ، وَالتَّياعِ خيالِهِ

^١ تَفَتَّحَ شِبابُ سَعيدِ بَك زَغلُولِ عَن رَجولَةٍ مَمتازَةٍ، وَبَشَّرَ طالِعَهُ عَن طالِعِ عَظيمٍ وَلَكنَّهُ لَم يَكِدْ يَؤُتِي ثَمَرَهُ حَتّى اِقتَطَفَهُ المَوتُ، فَقضى سَنَةٌ ١٩٢٢ وَكانَ خالَهُ سَعدُ باشا زَغلُولِ مَتَبنّيًّا لَهِ.

كان لي منك في المجامع راو
فطنٌ للصَّحاح من لؤلؤ القو
لم يَكُنْ في غُلُوِّه ضيق الصَّد
لا يُعَادِي، وَيُتَّقَى أَنْ يُعَادِي
فامُضْ في ذِمَّةِ الشَّبَابِ نَقِيًّا
إِنَّ للعَصْرَ والحَيَاةَ لَلْوَمَّا
صَانِكَ اللُّهُ من فسادِ زَمَانٍ
سيقولون: ما رثاه على الفضـ
أَيُّهُمْ مَنْ أَتَى بِرَأْسِ كُليِّبٍ
ليس بيني وبين خَالِكَ إِلَّا
أَتَمَّنَى لمَصْرَ أَنْ يَجْرِيَ الخِيـ
لَسْتُ أَرْجوه كالرجالِ لَصِيدٍ
كيف أَرْجو (أَبَا سَعِيدٍ) لشيء
هو أَهْلٌ لَأَنْ يَرُدَّ لِقَوْمِي
وَأَنَا المرءُ لم أَرِ الحقَّ إِلَّا
رُبَّ حَرٍّ ضَنْعَتْ فِيهِ ثَنَاءً

عَجَزَ (ابْنُ الحَسَنِ) عَنْ أَمثَالِهِ^٢
لِ، وَأَدْرَى بِهِنَّ مِنْ لَأَلِهِ^٣
رِ، وَلَا كَانَ عَاجِزًا فِي اعْتِدَالِهِ
وَيُخْلِي سَبِيلَ مَنْ لَمْ يُوَالِهِ
طَاهِرًا مَا ثَنَيْتُ مِنْ أَذْيَالِهِ
لَسْتُ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا مِنْ مَجَالِهِ
دَنَسَ اللُّومُ مِنْ ثِيَابِ رِجَالِهِ
لِ، وَلَكِنْ رَثَاهُ زُلْفَى لَخَالِهِ
أَوْ شَفَى القَطْرَ مِنْ عِيَاءِ اخْتِلَالِهِ؟
أَنْنِي مَا حَيَّيْتُ فِي إِجْلَالِهِ
رُ لَهَا مِنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
مِنْ حَرَامِ انْتِخَابِهِمْ أَوْ حَلَالِهِ
كَانَ يُقْضَى بِكُفْرِهِ وَضَلَالِهِ؟!
أَمَرَهُمْ فِي حَقِيقَةِ اسْتِقْلَالِهِ
كَنْتُ مِنْ حَزْبِهِ وَمِنْ عُمَالِهِ
عَجَزَ النَاحِتُونَ عَنْ تَمثَالِهِ^٤

هوامش

- (١) شيخكم أبو أحماله: هو الزعيم سعد باشا. والبلد: مصر.
- (٢) الواله: الذي ذهب عقله أو كاد من شدة الوجد.
- (٣) ابن الحسين: الشاعر المتنبّي: وراوي الشعر وراويته: الذي يروي الشعر ويحفظه.
- (٤) اللال: صانع اللؤلؤ وبائعه.
- (٥) يقول: إنني كثيرًا ما أصنع للأحرار قصائد ثناء، فتقوم في تصويرهم وتخليد أشكالهم ومزايهم مقام التماثيل التي تعجز المثالين الناحتين أن يصنعوا مثالها.

أمين بك الرافي

مال أحبَّاهُ خَليلاً خَليلاً
نَصلوا أُمسٍ من غُبارِ اللَّيالي
سَكَنَتْ مِنْهُم الرِكابُ، كَأَنَّ لَمْ
جُرِّدُوا مِنْ مَنَازِلِ الأَرْضِ إِلَّا
وَتَعَرَّوْا إِلَى البَلَى، فَكَسَاهُمْ
فِي يَبَابٍ مِنَ الثَّرَى رَدَّهُ المَو
طَرَحُوا عِنْدَهُ الهمومُ، وَقَالُوا
إِنَّمَا العَالَمُ الَّذِي مِنْهُ جِئْنَا
بَطْلُ المَوْتِ فِي الرِوَايَةِ رَكْنُ
كَلِّمًا رَاحَ أَوْ غَدَا المَوْتِ فِيهَا
نَكرِياتٌ مِنَ الأَحَبَّةِ تُمَحَى
كُلُّ رِسمٍ مِنْ مَنزِلٍ أَوْ حَبِيبٍ

وَتَوَلَّى اللَّدَاتُ إِلَّا قَلِيلاً
وَمَضَى وَحْدَهُ يَحُتُّ الرَحِيلَا^١
تَضَطَّرَبَ سَاعَةً وَلَمْ تَمُضِ مِيلَا
حَجَرًا دَارِسًا وَرَمَلًا مَهِيلَا^٢
خُشْنَةُ اللَّحْدِ وَالذُّجَى الْمَسْدُولَا
تُ نَقِيًّا مِنَ الحَقُودِ غَسِيلَا^٣
إِنْ عِبَاءُ الحَيَاةِ كَانَ ثَقِيلَا
مَلْعَبٌ لَا يُنَوِّعُ التَّمَثِيلَا
بُنِيَتْ مِنْهُ هَيْكَلًا وَفَصُولَا
سَقَطَ السَّتْرُ بِالدُمُوعِ بَلِيلَا
بَيَدٍ لِلزَّمَانِ تَمَحُو الطُّلُولَا
سَوْفَ يَمْشِي البَلَى عَلَيْهِ مُحِيلَا

^١ أمين بك الرافي، كان كاتبًا سياسيًا عظيمًا، وكان في الصحفيين السياسيين يعدُّ مثلاً عاليًا، لطهارة الذمة، ونبل الغاية، ونزاهة الضمير، وله في تمسكه برأيه وصلابته على الحق الذي يعتقدُه مواقف تضحية، لا يصبر عليها إلا من وطَّن نفسه على احتمال جميع مكاره الحياة، وقد وقف حياته منذ نشأته على خدمة القضية المصرية، وظل مجاهدًا في سبيل استقلال مصر حتى مات في سنة ١٩٢٦.

لِ، وَرُزْءٍ نَسَّكَ رُزْءًا جَلِيلًا
تِ، وَأَرْسَلَنَ لَوَعَةً وَعَوِيلًا
نَغْمَةً فِي الْأَسَى، وَأَشْجَى هَدِيلًا^٤
سَوْفَ يَبْكِي بِهِ الْخَلِيلُ الْخَلِيلَا
لَوْ نُحِسُ النُّوَاحَ وَالتَّرْتِيلَا
أَسْطَرًّا مِنْ جَوَى، وَأُخْرَى غَلِيلَا
يَوْمٌ لَا يَأْذَنُ الْبَلَى أَنْ نَقُولَا
خَالِدِيَّ الْغِرَارِ، غَضَبًا، صَقِيلَا^٥
قُ، فَهَلْ كَانَ فَيْنُهُ جَبْرِيلَا؟^٦
بَرْقُ وَالرَّعْدَ خَفَقَةً وَصَلِيلَا
فِ عَلَى كَفِّ فَارِسٍ مَسْلُولَا
مَّا، وَصَدْرٍ أَصَارَهُ الْحَقُّ غِيلَا^٧
بَرِّ أَرَاخَ الْبَيَانِ وَالتَّحْلِيلَا
لَمَحَّةً حُرَّةً، وَصَبْرًا جَمِيلَا
رِ إِذَا طَافَ بِالرِّجَالِ مَهُولَا
مَا تُلَاقِيهِ يَوْمَ جُوعٍ هَزِيلَا
عَتُ، وَلَا تَأْكُلُ اللَّبَاءُ الشُّبُولَا
قَدْ يَكُونُ الْغُلُوُّ رَأْيَا أَصِيلَا
وَقَدِيمًا بَنَى الْغُلُوُّ عُقُولَا
فِي الشَّبَابِ الطَّمَاخَ وَالتَّأْمِيلَا
أَوْ يَكُونُ اتِّجَاهُهُ التَّضْلِيلَا
يُشْبِهُ الْبَغْيَ، وَالْحَنَّا، وَالْفُضُولَا
رَافِعِيَيْنَ وَالْعَفَافَ سَبِيلَا
عَلَّ شَتُونَ النُّفُوسِ قَالًا وَقِيلَا
أَيَقْظُوا النِّيلَ وَادِيَا وَنَزِيلَا
فِ حُزُونًا، وَكَالرَّقِيمِ سُهُولَا^٨
لَمْ تَخُنْ مَصْرَ فِي الْحَقُوقِ فَتِيلَا

رُبَّ نُكُلٍ أَسَاكَ مِنْ قُرْحَةِ التُّكُ
يَا بَنَاتِ الْقَرِيضِ، قُمْنَ مَنَاحَا
مِنْ بَنَاتِ الْهَدِيلِ أَنْتُنَّ أَحْنَى
إِنْ دَمْعًا تَذْرِفْنَ إِثْرَ رِفَاقِي
رُبَّ يَوْمٍ يُنَاحُ فِيهِ عَلَيْنَا
بِمَرَاثٍ كَتَبْنَ بِالْدمْعِ عَنَّا
يَجِدُ الْقَائِلُونَ فِيهَا الْمَعَانِي
أَخَذَ الْمَوْتُ مِنْ يَدِ الْحَقِّ سَيْفًا
مِنْ سِيُوفِ الْجَهَادِ فُولَانُهُ الْحِ
لَمَسْتَهُ يَدُ السَّمَاءِ، فَكَانَ الْـ
وإِبَاءُ الرِّجَالِ أَمْضَى مِنَ السَّيْدِ
رُبَّ قَلْبٍ أَصَارَهُ الْخُلُقُ ضِرْغَا
قِيلَ: حَلَّلَهُ. قُلْتُ: عِرْقٌ مِنَ التَّـ
لَمْ يَزِدْ فِي الْحَدِيدِ وَالنَّارِ إِلَّا
لَمْ يَخَفْ فِي حَيَاتِهِ شَبَحَ الْفَقْـ
جَاعَ حِينًا، فَكَانَ كَاللَّيْثِ أَبِي
تَأْكُلُ الْهَرَّةُ الصَّغَارَ إِذَا جَا
قِيلَ: غَالٍ فِي الرَّأْيِ. قُلْتُ: هَبْوهُ
وَقَدِيمًا بَنَى الْغُلُوُّ نَفُوسًا
وَكَمْ اسْتَنَهَضَ الشَّيُوخَ، وَأَذْكَى
وَمِنْ الرَّأْيِ مَا يَكُونُ نِفَاقًا
وَمِنْ النِّقَدِ وَالْجِدَالِ كَلَامٌ
وَأَرَى الصَّدَقَ دَيْدَنًا لِسَلِيلِ الْـ
عَاشَ لَمْ يَغْتَبِ الرِّجَالُ، وَلَمْ يَجْـ
قَدْ فَقَدْنَا بِهِ بَقِيَّةَ رَهْطِ
حَرَكَوهُ، وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَالْكَهْـ
يَا أَمِينَ الْحَقُوقِ، أَدْيَتَ حَتَّى

ولو اسطعت زدت مصر من الحد
لست أنساك قابعا بين درجيد
قد تواريت في الخشوع، فخالو
سائل (الشعب) عنك، و(العلم) الخ
كم إمام قربت في الصف منه
تنشد الناس في القضية لحنا
ماضيا في الجهاد لم تتأخر
ما تبالي مضيته وحدك تحمي
إن يفت فيك منبر الأمس شعري
جل عن منشد سوى الدهر يلقب

ق على نيلها المبارك نيلا
ك مكبا عليهما مشغولا
ك ضئلا، وما خلقت ضئلا
حقاق، أو سائل اللواء الظليلا^٩
ومغن قعدت منه رسيلا؟
كالحواري رتل الإنجيلا
تزن الصف، أو تقيم الرعيلا^{١٠}
حوزة الحق، أم مضيت قبيل
إن لي المنبر الذي لن يزولا
ه على الغابرين جيلا فجيلا

هوامش

(١) نصلوا من غبار الليالي، تعبير كنائي عن الموت؛ إذ غبار الليالي عبارة عن أحداثها، وليس في إمكان الحي التنصل من هذه الأحداث إلا بالموت. يقول إن أحبابه وخلانه سبقوه، وتنصلوا من الدنيا وحوادثها، وها هو ماضٍ على أثرهم مسرعا، ليلحق بهم، وينصل من بلاء الدنيا كما نصلوا.

(٢) يصف خروج الناس من الدنيا وليس في أيديهم من ممتلكاتها إلا الحجر الموضوع تحت رءوسهم، والتراب المهيل فوق قبورهم، فكأنه يقول: ليت شعري لم يتقاتل الناس، ويتكالبون على بناء القصور وشراء الضياع، وهم إذا ماتوا لا يصحبهم من هذه الممتلكات إلا حجر واحد وحفنة من تراب تداري جسومهم وتواري رممهم.

(٣) اليباب: الخراب. يقول: إن هذا اليباب الذي نسميه بالمقابر موضع نقاه الموت من الأكدار، وغسله من الأحقاد، فهو من أجل ذلك صار أروح للأرواح عن المواضع الآهلة بالعمران.

(٤) الهديل: الحمام. وصوت الحمام، والهديل أيضا: فرخ قالوا إنه كان على عهد نوح، فصاده جراح من جوارح الطير، فليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه.

(٥) العضب: السيف، الغرار: حد السيف. وقوله: «خالدي» نسبة إلى خالد بن الوليد. الصقيل: المصقول.

(٦) القين هو الحداد الذي يصنع السيوف.

(٧) الضرغام: من أسماء الأسد. الغيل: موضع الأسد.

(٨) الكهف: كالبيت المنقور في الجبل. الرقيم: يقال هو الكتاب، وإذن فيكون تشبيهه سهول النيل بالرقيم؛ معناه أنها كانت وقتئذ مبسوبة خالية مهياة لأن يخط فوقها حروف الحياة الأولى. ولو سُئِلَ أحد الحكماء ما هي الحروف الأولى للحياة؟ لأجاب على الفور: هي اليقظة. ولعمري إن ربة الحكمة إذن هي التي ألهمت أمير الشعراء قوله في البيت السابق: «أيقظوا النيل وادياً ونزيلاً» ففي تصوُّره الذهني لمعنى اليقظة سبق خياله إلى تشبيهه سهول وادي النيل بالرقيم.

(٩) الشعب، والعلم، واللواء: أسماء صحف كان الفقيد يحزرها مناضلاً فيها عن مبادئه.

(١٠) الرعيل: طائفة من الخيل. والمراد أنه كان في جيش المجاهدين في القضية المصرية يقوِّم الصفوف إذا مالت، ويردُّ الطوائف إذا نفرت.

الشيخ سلامة حجازي^١

يا ثَرَى النِيلِ، في نَوَاحِيكَ طَيْرٌ
لم يَزَلْ يَنْزِلُ الخُمَائِلَ حَتَّى
أَقْعَدَ الرُّوْضَ في الحَيَاةِ مَلِيًّا
يا لِوَاءِ الغِنَاءِ في دَوْلَةِ الفِ
عَبْقَرِيًّا كَأَنَّهُ زَنْبَقُ الخُلُ
أَيِّنْ مِنْ مَسْمَعِ الزَّمَانِ أَغَانِ
أَيِّنْ صَوْتُ كَأَنَّهُ رَنَّةُ البَلْبِ
فيه من نَغْمَةِ المَزَامِيرِ مَعْنَى
كَلَّمَا رَنَّ في المَسَارِحِ «إِنْ كُنْ
كَعْتَابَ الحَبِيبِ في أَذُنِ الصَّ
كَيْفَ إِخْوَانُنَا هُنَاكَ عَلَى الكَوْ
كَيْفَ في الخُلْدِ ضَرْبُ أَحْمَدُ بِالْعَوِ

كَانَ دُنْيَا، وَكَانَ فَرَحُهُ جِيلِ
حَلٌّ فِي رُبُوعٍ عَلَى سَلْسَبِيلِ
وَأَقَامَ الرَّبِّي بِسَحْرِ الهَدِيلِ^١
نَ، إِلَيْكَ اتَّجَهْتُ بِالإِكْلِيلِ
بِ عَلَى فَرْعِهِ السَّرِيِّ الأَسِيلِ^٢
يُّ عَلَيْهِنَ رُوعَةُ التَّمْثِيلِ؟
لِ فِي النَاعِمِ الْوَرِيفِ الظَّلِيلِ؟
وَعَلَيْهِ قَدَاسَةُ التَّرْتِيلِ
تُ» انْتَنَى بِالْهُتَافِ وَالتَّهْلِيلِ^٣
بَ، وَهَمْسِ النَّدِيمِ حَوْلَ الشَّمُولِ^٤
تَر بَيْنَ الصَّبَا وَبَيْنَ الْقَبُولِ؟^٥
دَ، وَنَفْحُ الأَمِينِ فِي الأَرغُولِ؟^٦

^١ بلغ الشيخ سلامة حجازي أعلى قمم المجد في فن الغناء والتمثيل في عصره، وقد رؤي أن يعترف له بهذا النبوغ اعترافاً عملياً. فتألفت جماعة من أهل الفضل واتفقوا على نقل جثمانه إلى ضريح يتناسب وهذا التقدير، ورأوا من أفضل الوسائل لهذه الغاية أن يقيموا حفلة تذكارية تمجيداً للذكرى الفقيد، وتم لهم ذلك، وأقيمت الحفلة في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١ وأنشدت فيها هذه القصيدة العصماء.

فَرَحَ كُلُّهُ النِّعِيمَ وَعُزُسَ
فَهْنِيئًا لَكُمْ وَنِعْمَةً بِالِ
إِنَّمَا مَنَزَلُ رُفَاتِكَ فِيهِ
ذُبُلْتُ فِي ثَرَاهُ رِيحَانَةُ الْف
قَامَ يَجْزِي (سَلَامَةً) فِي ثَرَاهُ
قَدْ يُوفِّي الْبِنَاءَ وَالْغُرُسَ أَجْرًا
مُحَسَّنٌ بِالْبَنِينَ فِي حَاضِرِ الْعَيْدِ
وَيُعِدُّ الضَّرِيحَ مِنْ مَرَمَرِ الْخُلُ
يَدْفَنُ الصَّالِحِينَ فِي وَرَقِ الْمُصْ
مَصْرُ فِي غَيْبَةِ الْمُشَايِعِ، وَالْحَا
قَامَتْ الْيَوْمَ حَوْلَ ذِكْرِكَ تَجْزِي
مِنْ رَجَالٍ بَنَوْا لِمَصْرٍ حَدِيثًا
هُمْ سُقَاةُ الْقُلُوبِ بِالْوُدِّ وَالصَّفْ
لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا فَتَى عِبْقَرِيٍّ

كَيْفَ (عُثْمَانُ) فِيهِ كَيْفَ (الْحَمُولِي)؟^٧
اسْتَرَحْتُمْ مِنْ ظِلِّ كُلِّ ثَقِيلٍ
لَبَقَايَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ جَمِيلٍ
نَّ، وَجَفَّتْ رِيحَانَةُ التَّمَثِيلِ
وَطَنٌ بِالْجِزَاءِ غَيْرُ بَخِيلٍ
وَيُكَافِي عَلَى الصَّنِيعِ الْجَلِيلِ
شِ، وَفِي سَالِفِ الزَّمَانِ الطَّوِيلِ
بِ الْكَرِيمِ الْمَهْدَبِ الْمَصْقُولِ^٨
حَفِ، أَوْ فِي صَحَائِفِ الْإِنْجِيلِ
سَدِ، وَالْحَاقِدِ اللَّئِيمِ الذَّلِيلِ
وَطَنِيًّا مِنْ الطَّرَازِ الْقَلِيلِ
وَأَذَاعُوا مَحَاسِنًا لِلْنَّيْلِ
وِ، وَهُمْ تَارَةً سُقَاةُ الْعُقُولِ
لَيْسَ فِي الْمَجْدِ بِالْدَّعْيِ الدَّخِيلِ

هوامش

- (١) الهديل: الصوت الحسن الذي يشبه صوت الحمام.
- (٢) السري: الجدول.
- (٣) إن كنت، يشير إلى أن الفقيده قد ذاعت من أغانيه قصيدة مطلعها:
إن كنت في الجيش أدعى صاحب العلم فإنني في هواكم صاحب الألم
- (٤) الشمول: الخمر.
- (٥) الصُّبَا: ريح مهبها من جهة المشرق وهي من لطف الرياح.
- (٦) أحمد: اسم أحد المعاصرين، اشتهر بضرب العود، وأمين: معاد. آخر اشتهر بالأرغول.
- (٧) عثمان: هو محمد عثمان، وكان من المغنين الكبار. والحمولي: هو عبده الحمولي.

الشيخ سلامة حجازي

(٨) الضريح: هو البناء الذي اتَّفقت لجنة إحياء ذكرى الفقيد على صنعه من المرمم المصقول ليُدفن فيه جثمان الفقيد تكريمًا له.

أدهم باشا^١

وأعظمُ منه حَيْرَةُ الشعرِ في فَمِي
وَأَسْكُتُ وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِمَوْلَم؟
فَمَنْ لِي بِغَالٍ فِي الرِّثَاءِ مُنْظَم؟
بَكَى التُّرْكُ وَالْيُونَانُ بِالدَّمِ وَالِدَمِّ
وَكَمْ مِنْ جَبَانٍ فِي اللَّدَاتِ مُذَمَّم
وَقَدْ فَتَكَتْ دُهُمُ الْمَنَايَا بِأَدِهِمْ؟^١
وَمَا السَّهْمُ إِلَّا لِلْقَضَاءِ الْمُحْتَمِّ
وَكَانَ فَتَى الْفَتَيَانِ فِي مَسْكِ ضَيْغَمٍ^٢
وَمَا خُلِقَ الْإِقْبَالُ إِلَّا لِمُقْدِمٍ
وَقَائِدُ جَرَّارٍ، وَمُزْجِي عَرْمَرَمٍ^٣
وَفِي ذُرُوتَيْهِ مِنْ نُسُورٍ وَأَعْظَمُ
وَزُلْزَلٍ فِي إِيمَانِهِ كُلِّ مُسْلِمٍ
وَهَمَّتْ ظَنُونٌ بِالثَّرَاثِ الْمُقْسَمِ
مِنَ النَّصْرِ فِي دَاخٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمٍ

مُصَابُ بَنِي الدُّنْيَا عَظِيمٌ (بَأَدِهِمْ)
أَنْنَطِقُ وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِطَيِّبٍ
أَتَيْتُ بِغَالٍ فِي الثَّنَاءِ مُنْضَدٍ
عَسَى الشَّعْرُ أَنْ يَجْزِيَ جَرِيئًا، لَفَقْدِهِ
وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ فِي الْعِدَاةِ مُكْرَمٍ
وَهَلْ نَافِعُ جَرِيٍّ الْقَوَافِي لَغَايَةِ
رَمَتْ فَأَصَابَتْ خَيْرَ رَامٍ بِهَا الْعِدَى
فَتَى كَانَ سَيْفُ الْهِنْدِ فِي صُورَةِ امْرِئٍ
لَحَاهُ عَلَى الْإِقْدَامِ حُسَّادُ مَجْدِهِ
مُزْعَزَعُ أَجْيَالٍ، وَغَاشِي مَعَاqِلٍ
سَلَوْا عَنْهُ (مِيلُونَا) وَمَا فِي شِعَابِهِ
لِيَالِي بَاتَ الدِّينُ فِي غَيْرِ قَبْضَةٍ
وَقَالَ أَنَاسٌ: آخِرُ الْعَهْدِ بِالْمَلَا
فَأُطْلَعَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُلْكِ كَوَكْبًا

^١ أدهم باشا: هو القائد التركي الذي اشتهر في الحروب العثمانية اليونانية.

وَكُنَّا حَدِيثَ الشَّامِتِ الْمَتَرَحِّمِ
وَمَنْ يُقْرِضُ التَّارِيخَ يَرْبَحْ وَيَغْنَمْ
سَوَادًا، وَقَدْ غَصَّ الْوُرُودُ بَزْمَزْمَ؟
إِلَى كُلِّ رَامٍ بِالْجِمَارِ وَمُحْرَمَ؟
فَكَمْ قَدْ تَلَوْتُمْ مَدَحَهُ بِالْتَرْنَمِ!
تَنَحَّتْ إِلَى أَنْ يَغْبَرَ الْفَارِسُ الْكَمِي
يُعَمَّرُ وَإِنْ لَأَقَى الْحَرُوبَ وَيَسْلَمَ
دِهَاهُ بَبَابِ الدَّارِ سَيْفُ ابْنِ مُلْجَمَ
وَقَوْمِي إِلَى نَعَشِ الْفَقِيدِ الْمَعْظَمِ
فَخَفَّتْ لَهُ بَيْنَ الْبُكَاءِ وَالتَّبَسُّمِ
وَقَبْرًا بَجَنِبِ الْفَاتِحِ الْمَتَقَدِّمِ
فَتَوْبَى إِلَيْهِ فِي الْمَمَاتِ بِمَأْتَمِ
وَقَدْ كَانَ فِيهِ الْمَلِكُ إِنْ رِيعَ يَحْتَمِي
أَحْطُتُمْ بِتَارِيخِ فَصِيحِ التَّكْلُمِ
وَأَثْبَتُ قَلْبًا مِنْ رَوَاسِي الْمَقْطَمِ
مِثَالُ لِبَاغِي قُدُوءِ مُتَعَلِّمِ
وَيَا أَرْضُ، صُونِيهِ، وَيَا رَبِّي، ارْحَمِ

وَرَحْنَا نُبَاهِي الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ عِزَّةً
مَفَاخِرُ لِلتَّارِيخِ تُحْصَى لِأَدْهَمِ
أَلَا أَيُّهَا السَّاعُونَ، هَلْ لَيْسَ الصِّفَا
وَهَلْ أَقْبَلَ الرُّكْبَانُ يَنْعَوْنَ (خَالِدًا)
وَهَلْ مَسْجِدٌ تَتَلَوْنَ فِيهِ رِثَاءَهُ؟
وَكَانَ إِذَا خَاضَ الْأَسِنَّةَ وَالظُّبَى
وَمَنْ يَغْطِ فِي هَذِي الدَّنِيَّةِ فُسْحَةً
(عَلِيٍّ) أَبُو الزَّهْرَاءِ دَاهِيَةُ الْوَعَى
(فَرُوقَ)، اضْحَكِي وَابْكِي فَخَارًا وَلَوْعَةً
كَأَمَّ شَهِيدٍ قَدْ أَتَاهَا نَعِيُّهُ
وُخْطِي لَهُ بَيْنَ السَّلَاطِينِ مَضْجَعًا
بَخِلْتُ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ بِمُوكِبِ
وَيَا دَاءُ، مَا أَنْصَفْتَ إِذْ رُعْتَ صَدْرَهُ
وَيَا أَيُّهَا الْمَاشُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ
وَيَا مِصْرُ، مَنْ شَيَّعَتْ أَعْلَى هِمَامَةً
وَيَا قَوْمُ، هَذَا مَنْ يُقَامُ لِمِثْلِهِ
وَيَا بَحْرُ، تَدْرِي قَدَرَ مَنْ أَنْتَ حَامِلُ؟

هوامش

- (١) دُهِمُ المنايا: أي سود المنايا.
- (٢) المسك (بفتح الميم): الجلد. والضيغم: الأسد.
- (٣) العرمرم: الجيش الكبير.
- (٤) الملاً: الجماعة، ويريد بها الدولة العثمانية. والتراث المقسّم: البلاد التابعة للدولة في ذلك الوقت.

عثمان باشا الغازي^١

كيف حَامَتْ جِيَالُهَا الْآيَامُ؟
م، وقد كُنْتُ فِي الْوَعَى لَا تُرَامُ
صَعَّبَتْهُ لِأَهْلِهَا الْأَحْلَامُ
وَالْخُطُوبُ الْمُرُوعَاتُ جِسَامُ
وَالسَّرَايَا تَدْعُوهُ، وَالْأَعْلَامُ
دُ، وَهُمْ قَادَةُ الْجُنُودِ الْعِظَامُ
رُبَّ فَرْدٍ سَادَتْ بِهِ أَقْوَامُ
وَرِثَاكَ الْوَلِيِّ وَالْأَخْصَامُ
تَ، وَأَهْوَى مِنْ رَاخَتِيهِ الْحُسَامُ
فَادُخْ، رَائِعْ، جَلِيلُ، جُسَامُ
وَقَلِيلُ أَمْثَالِهِ الْأَعْلَامُ
وَلَوْ أَنَّ الْمَحَاصِرِينَ الْأَنَامُ
أَيْنَ مِنْ هَامَةِ السَّمَاءِ الْخِيَامُ؟
عَزَمَكَ الشُّهُبُ، وَالْجُنُودُ الظَّلَامُ

هَالَةً لِلْهَلَالِ فِيهَا اعْتَصَامُ
دَخَلْتُهَا عَلَيْكَ (عُثْمَانُ) فِي السَّلَامِ
وَإِذَا الدَّاءُ كَانَ دَاءَ الْمَنَابِيَا
فَبِرْغَمِ (الْمُشِيرِ) أَنْ يَتَوَلَّى
وَيَدُ الْمَلِكِ تَسْتَجِيرُ بِدَيْهِ
وَبَنُوهُ يَرْجُونَهُ وَهُمْ الْجُنْدُ
مَثَلَتْهُمْ صِفَاتُهُ لِلْبَرَايَا
بَطْلَ الشَّرْقِ، قَدْ بَكَتَكَ الْمَعَالِي
خَذَلَ الْمَلِكَ زَنْدُهُ يَوْمَ أُودِيَ
وَدَهَى الدِّينَ وَالْخِلَافَةَ أَمْرُ
عَلِمَ الْعَصْرَ وَالْمَمَالِكِ وَلَّى
سَلَّ (بَلْفَنًا): أَكُنْتَ تُدْرِكُ فِيهَا
خَيْمَ الرُّوسِ حَوْلَ حِصْنِكَ، لَكِنْ
وَأَحَاطَتْ بِعِزِّكَ الْجَنْدُ، لَكِنْ

^١ هو قائد تركي كبير، اشتهر في الحروب العثمانية الروسية.

كَلَّمَا جَرَدَ (المُحَاصِرُ) سَيْفًا
وَإِذَا كَانَتْ الْعَقُولُ كِبَارًا
وَعَجِيبٌ لَا يَأْخُذُ السِّيفُ مِنْكُمْ
فَخَرَجْتُمْ إِلَى الْعِدَا لَمْ تُبَالُوا
تَخْرُقُونَ الْجِيُوشَ جَيْشًا فَجَيْشًا
وَالْمَنَایَا مُحِيطَةً، وَحَصُونُ الرُّ
وَلِنَارِ الْعَدُوِّ فَيَكُمُّ قُعودُ
جُرْحِ اللَّيْثِ يَوْمَ ذَاكَ، فَخَانَ الـ
مَا دَفَعْتَ الْحُسَامَ عَجْزًا، وَلَكِنْ
فَأَعَادُوهُ خَيْرَ شَيْءٍ أَعَادُوا
فَتَقَلَّدَتْهُ وَكَنْتَ خَلِيقًا
مَا لَهَا عَوْدَةٌ، وَلَا لَكَ رَدٌّ
إِنَّمَا الْمَلِكُ صَارِمٌ وَيَرَاعُ
وَنِظَامُ الْأُمُورِ عَقْلٌ وَعَدْلٌ
وَعَجِيبٌ خُلِقْتَ لِلْحَرْبِ لَبْنًا
فَهِيَ فِي رَأْيِكَ الْقَوِيمِ حَلَالٌ
لَكَ سَيْفٌ إِلَى الْيَتَامَى بَغِيضٌ
مُسْتَبَدٌّ عَلَى قَوِيٍّ، حَلِيمٌ

قَطَعَ السِّيفَ رَأْيَكَ الصَّمَمَ
سَلِمْتَ فِي الْمَضَایِقِ الْأَجْسَامِ
وَيَنَالُ الطَّوَى، وَيُعْطَى الْأَوَامُ
مَا لِأُسْدٍ عَلَى سُغُوبٍ مُقَامٍ
مِثْلَمَا يَخْرُقُ الْخَوَاءُ الْغَمَامِ
وَسِ تَحْمِي الطَّرِيقَ وَالْأَلْغَامِ
وَلِسِيفِ الْعَدُوِّ فَيَكُمُّ قِيَامِ
جَيْشِ قَلْبٍ، وَزُلْزِلَتْ أَقْدَامِ
عَجَزَتْ ضَيْغَمَ الْحُرُوبِ الْكَلَامِ
وَكَذَا يَعْرِفُ الْكَرَامَ الْكَرَامِ
سَلَبْتُنَا كَلَيْكُمَا الْأَيَّامِ
نِمْتَ عَنْهَا، وَمَنْ تَرَكْتَ نِيَامِ
فَإِذَا فَارَقَاهُ سَادَ الطَّغَامِ
فَإِذَا وَلَّى تَوَلَّى النِّظَامِ
وَسَجَايَاكَ كُلُّهُنَّ سَلَامِ
وَهِيَ فِي قَلْبِكَ الرَّحِيمِ حَرَامِ
وَحَنَانٌ يَحِبُّهُ الْإِيْتَامِ
عَنْ ضَعِيفٍ، وَهَكَذَا الْإِسْلَامِ

بطرس باشا غالي^١

الحلمُ والمعروفُ فيكَ أقاما
عامًا، وسوف تُغَيَّبُ الأعواما
في ظلِّها صُلِّيَ الْمُطِيفُ وصاما
يقضونَ حقًا واجبًا وِزاما
كالأَرْضِ تَنْشُدُ في السماءِ غَماما
والأَرِيحِيَّ الْمُفْضَلِ المُقداما
ناديكِ في عزِّ الحياةِ زحاما
لو كان ذلكَ مَحْشَرًا وقياما
وأخذتَ مِنْ نِعَمِ الحياةِ جِساما؟
وعِزَّاءَ أَرْمَلَةٍ، وَحُزْنَ يَتامى
يَزُنُ الرجالَ، وَيَنْطِقُ الأحكاما
ويُدِيمُ حَمْدًا، أو يُؤَيِّدُ ذاما
أَعْلِمْتُ حيًّا غيرَ رِفْدِكَ داما

قَبَرَ الوزيرِ، تحيَّةً وسَلاما
ومحاسِنُ الأخلاقِ فيكَ تَغَيَّبَتْ
قد كنتَ صَوْمَعَةً فَصِرْتَ كَنيسةَ
والقَوْمُ حَوْلَكَ يا بنَ (غالي) خُشَعُ
يَسْعَوْنَ بِالْأَبْصارِ نَحْوَ سَرِيرِهِ
يَبْكُونُ مَوْتَهُمْ، وَكُفْهُ رَجَائِهِمْ
مُتَسَابِقِينَ إلى ثَراك، كأنَّهم
وَدُّوا غَدَاةً نُقِلَتْ بَيْنَ عُيُونِهِمْ
ماذا لقيتَ مِنَ الرِّياساتِ العُلا
اليومَ يُغْنِي عَنْكَ لَوْعَةُ بائِسِ
والرأيُ للتاريخِ فيكَ؛ ففي غِدِ
يَقْضِي عليهم في البَرِّيَّةِ، أو لَهم
أَنْتَ الحَكِيمُ، فلا تَرُعَكَ مَنِيَّةُ

^١ بطرس باشا غالي، كان رئيس الوزارة المصرية في أيام حكم الخديو عباس الثاني، وقد اغتاله إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ لأسباب سياسية.

إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْحَيَاةَ وَضَدَّهَا
 قَدْ عِشْتَ تُحَدِّثُ لِلنَّصَارَى أُلْفَةً
 وَالْيَوْمَ فَوْقَ مَشِيدِ قَبْرِكَ مَيِّتًا
 الْحَقُّ أَبْلَجُ كَالصَّبَّاحِ لِنَظَرِ
 أَعْهَدْتَنَا وَالْقَبْطَ إِلَّا أُمَّةً
 نُعَلِّي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ
 الدِّينُ لِلدِّيَّانِ جَلَّ جَلَالُهُ
 يَا قَوْمُ، بَانَ الرَّشْدُ فَاقْصُوا مَا جَرَى
 هَذَا رُبُوعُكُمْ، وَتِلْكَ رُبُوعُنَا
 هَذَا قُبُورُكُمْ، وَتِلْكَ قُبُورُنَا
 فَبِحُرْمَةِ الْمَوْتَى، وَوَجِبِ حَقِّهِمْ
 جَعَلَ الْبَقَاءَ لِوَجْهِهِ إِكْرَامًا
 وَتُجِدُّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَثَامًا
 وَجَدَ الْمُؤَفَّقُ لِلْمَقَالِ مَقَامًا
 لَوْ أَنَّ قَوْمًا حَكَّمُوا الْأَحْلَامَا
 لِلأَرْضِ وَاحِدَةً تَرُومَ مَرَامَا؟
 وَيُوقِّرُونَ لِأَجْلَانَا الْإِسْلَامَا
 لَوْ شَاءَ رَبُّكَ وَحَدَّ الْأَقْوَامَا
 وَخُذُوا الْحَقِيقَةَ، وَانْبِذُوا الْأَوْهَامَا
 مُتَقَابِلِينَ نَعَالِجَ الْأَيَامَا
 مُتَجَاوِرِينَ جَمَاجِمَا وَعِظَامَا
 عِشُوا كَمَا يَقْضِي الْجَوَارُ كِرَامَا

بيكي والدته^١

أَصَابَ سُوَيْدَاءَ الْفَوَادِ وَمَا أَضْمَى^١
وَمَا دَخَلَتْ لَحْمًا، وَلَا لَامَسَتْ عَظْمًا
كَلَامًا عَلَى سَمْعِي، وَفِي كَبْدِي كُلَّمَا^٢
فِيَا وَيْحَ جَنَّبِي! كَمْ يَسِيلُ؟ وَكَمْ يَدْمَى؟
إِلَيَّ، وَلَمْ يَرْكَبْ بِسَاطًا وَلَا يَمَاءُ
وَأَذْمَى وَمَا دَاوَى، وَأَوْهَى وَمَا رَمَا
طَوَى الشُّهْبَ، أَوْ جَابَ الْغُدَافِيَّةَ الدُّهْمَا^٣
وَلَا كَاللِّيَالِي رَامِيًا يُبْعِدُ الْمَرْمَى
وَلَا كَلِقَاءِ الْمَوْتِ مِنْ بَيْنِهَا حَتْمًا
سَبِيلُ يَدِينُ الْعَالَمُونَ بِهَا قَدَمًا
وَلَا الْمَوْتُ إِلَّا الرُّوحُ فَارَقَتْ الْجِسْمَا

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ عَوَادِي النَّوَى سَهْمَا
مِنَ الْهَاتِكَاتِ الْقَلْبَ أَوَّلَ وَهْلَةٍ
تَوَارَدَ وَالنَّاعِي، فَأَوْجَسْتُ رَنَّةً
فَمَا هَتَفًا حَتَّى نَزَا^٢ الْجَنْبُ وَانزَوَى
طَوَى الشَّرْقَ نَحْوَ الْغَرْبِ، وَالْمَاءَ لِلثَّرَى
أَبَانَ وَلَمْ يَنْبَسْ، وَأَدَّى وَلَمْ يَفُهِ
إِذَا طُوِيَتْ بِالشُّهْبِ وَالْدُّهْمِ شُقَّةُ
وَلَمْ أَرْ كَالْأَحْدَاثِ سَهْمًا إِذَا جَرَتْ
وَلَمْ أَرْ حُكْمًا كَالْمَقَادِيرِ نَافِذًا
إِلَى حَيْثُ آبَاءُ الْفَتَى يَذْهَبُ الْفَتَى
وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا الْجِسْمُ فِي ظِلِّ رُوحِهِ

^١ نظم أمير الشعراء هذه المراثية الرائعة، على إثر إعلان الهدنة، وهو في منفاه في الأندلس سنة ١٩١٨؛ إذ كان يعلى النفس بالعودة إلى الوطن العزيز ولقاء آله، وفي مقدمتهم والدته الحبيبة، ولكنه ما كان يتحدث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق، حتى وافاه البرق بنعيها، فأثّر هذا المصاب الجسيم في نفسه تأثيرًا بالغًا، ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المراثية، وقد قيل إنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد، فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة، حتى نُشِرت في الصحف غداة وفاته رحمه الله.

على نزلٍ الدهرِ بعدك أو علما
لي اليوم منها كان بالأمس لي وهما^٦
فما اغترت البوسى، ولا غرت النعمى^٧
بأنفاسها بالفم لم يستفق غما
نديمك (سقراط) الذي ابتدع السما^٨
بكأسك نجما، أم أدرت بها رجما؟!
شهيدة حرب لم تقارِف لها إثما
وأنزله من دمع الحيا عبرة سخما^٩
فلم يفو مغناها على صوبه رسما^{١٠}
وكم نازع سهما فكان هو السهما!
لما قبِلت منها، وما ضمت الحمى!
إذا هي سماها بذى الأرض من سَمَى؟
فلما وقوا الأسواء لم ترها ذما
إذا أقصر البدر التمام مضوا قُدما!
عدو تراهم في معاطيسه رَغما
ولا يشبعوا الركن استلاما ولا لثما
وأوليت جثمانى من المنّة العظمى
تليد الخلال الكثر، والطارف الجَمّا^{١١}
من الصلوات الخمس، والآي، والأسما
ولا رُمت هذا الثكل للناس واليُتما
فكيف رضائي أن يرى البشر الظلما
كأن ثمار القلب من ولدي ثَمّا
أرى الناس صنفين: الذئاب أو البهّما^{١٢}
ولا العدل إلا حائط يعصم الحكما
فما وجدّت نفسي لأنهارها طعما
وإن لم أرُح (مروان) فيها ولا (لخما)^{١٣}
بكيت الندى في الأرض، والبأس، والحزما

ولا خلد حتى تملأ الدهرِ حُكْمَة
زَجَرْتُ تصاريِفَ الزمان، فما يَقَعُ
وقدَرْتُ (للنعمان) يوما وضدّه
شربت الأسى مصروفة لو تعرّضتُ
فأتّرع وناول يا زمان؛ فإنما
قتلتك، حتى ما أبالي: أدرت لي
لك الله من مطعونة بقنا النوى
مدلّه أذكى من النار زفرة
سقاها بشيري وهي تبكي صبا^{١٤}
أست جرحها الأنباء غير رفيقة
تغار على الحمى الفضائل والعلا
أكانت تمنّاها وتهوى لقاءها
ألّمت عليها، واتقت ثمراتها
فيا حسرتا ألا تراهم أهلة
رياحين في أنف الولي، وما لها
والأ يطوفوا خُشعا حول نعشها
حلفت بما أسلفت في المهد من يد
وقبر منوط بالجلال مُقلد
وبالغاديات الساقيات نزيله
لما كان لي في الحرب رأي ولا هوى
ولم يك ظلم الطير بالرق لي رضا
ولم آل شَبان البرية رقة
وكنّت على نهج من الرأي واضح
وما الحُكم إلا أولي البأس دولة
نزلت ربي الدنيا، وجنات عدنّها
أريج أريج المسك في عرصاتها
إذا ضحكت زهوا إلي سماؤها

أَخَالَ القصور الزُّهْرَ والغُرَفَ الشُّمًا
ولا أَنْتِ في نِي الدار زَايَلْتِ لي هَمًّا
فَجُنَحَا إلى سَعْدَى. وَجُنَحَا إلى سَلْمَى^{١٤}
وَأَبْصَرَ فيه ذُو البَصِيرَةِ والأَعْمَى
وَأَقْلَعَتِ البَلَوَى، وَأَقْشَعَتِ الغَمَّى
وَرَفَّتْ وَجوهُ الأَرْضِ تَسْتَقْبِلُ السَّلْمَى
وَلَوْعًا بِبُنَيَّانِ الرِّجَاءِ إِذَا تَمًّا!
أَوِ العُرْسِ أَبْلَى في مَعَالِمِهِ هَدْمًا
فَدُونِكَ هَذَا الحِشْدَ والموكِبَ الضَّخْمَا!
لِعَنْصَرِهِ الأَزْكَى وجوهرِهِ الأَسْمَى
فَلَمْ تُلَحِّقِي بِنْتًا وَلَمْ تُسَبِّقِي أُمًّا
تَوَاضَعْتَ، لَكِنْ بَعْدَ مَا فَتَّهَا نَجْمَا
وَجِئْتِ لِأَخْلَاقِ الكِرَامِ بِهِ نَظْمَا
بِهِ الأَرْضُ كَانَ المُزْنَ والتَّبَرَّ والكُرْمَا!^{١٥}

أَطِيفُ برسمٍ، أَوِ أَلَمُ بدمْنَةٍ
فَمَا بَرَحَتْ مِنْ خَاطِرِي (مَصْرُ) سَاعَةً
إِذَا جَنَنِي اللَّيْلُ اهْتَزَزْتُ إِلَيْكُمَا
فَلَمَّا بَدَا لِلنَّاسِ صُبْحُ مِنَ المُنَى
وَقَرَّتْ سِيوفُ الهِنْدِ، وَارْتَكَزَ القَنَا
وَحَنَنْتُ نَوَاقِيسُ، وَرَنَنْتُ مَاذَنْ
أَتَى الدَّهْرُ مِنْ دُونِ الهِنَاءِ، وَلَمْ يَزَلْ
إِذَا جَالَ فِي الأَعْيَادِ حَلَّ نِظَامِهَا
لِئِنْ فَاتَ مَا أَمْلَيْتِهِ مِنْ مَوَاقِبِ
رَثِيتُ بِهِ ذَاتَ التَّقَى وَنَظْمَتُهُ
نَمَتِكَ مَنَاجِيبُ العُلَا وَنَمَيَّتِهَا
وَكُنْتُ إِذَا هَذِي السَّمَاءُ تَخَايَلْتُ
أَتَيْتِ بِهِ لَمْ يَنْظُمِ الشُّعْرَ مِثْلُهُ
وَلَوْ نَهَضْتُ عَنْهُ السَّمَاءُ، وَمَخَضْتُ

هوامش

- (١) الكلم (بفتح الكاف): الجرح.
- (٢) نزا الجنب: يريد نزا القلب، ويقال: نزا الطائر، إذا همَّ بالطيران.
- (٣) عوادي النوى: عوائقه. وقوله: «أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى»: أي أصاب صميم القلب ولم يقتل.
- (٤) بساطًا ولا يَمًا: أي لم يركب طائرة تسير في الهواء، كما سار بساط الرياح بسليمان (عليه السلام)، ولم يركب باخرة تسير على اليمِّ، أي البحر.
- (٥) الشهب: البيض. الدهم: السود. جاب: قطع. الغدافية: السوداء، ويقصد بالشهب وبالدهم: الخيل البيضاء والسوداء أو النهار والليل. كأنه يتعجَّب من سرعة هذا النعي في وصوله إليه.
- (٦) الزجر: العيافة والتكهُّن، يقول: إنه كان متكهَّنًا بما صنعه الزمن معه وكان متوقِّعًا له.

- (٧) كان للنعمان بن المنذر يوم بؤس لا يفد فيه عليه أحد إلا قتله، ويوم نعى لا يُسأل فيه إلا أعطى، ولهذين اليومين حوادث سارت من أجلها أمثال كثيرة للعرب، ويرجع في هذا إلى الكتب الأدبية المطوّلة مَنْ شاء.
- (٨) سقراط: إمام الفلاسفة المتقشفين، حُكِمَ عليه بالإعدام فشرب السمّ بيده، ولم يرض أن يفرَّ مع أصحابه الذين عزموا عليه بالفرار.
- (٩) العبرة السحما: أي السوداء، ولا يكون هذا إلا من أثر الحزن العميق.
- (١٠) الرسم: هو هنا مصدر «رسم المطر الديار» إذا عفاها وأبقى أثرها لاحقاً بالأرض.
- (١١) التليد: القديم. الطارف: الجديد.
- (١٢) البهم (بفتح الباء): صغار الغنم.
- (١٣) مروان ولخم: قبيلتان عربيتان، وهما من القبائل التي تولّت السيادة في بلاد الأندلس زمنًا.
- (١٤) الجنح (بضم الجيم وكسرهما): طائفة من الليل.
- (١٥) يريد أنه يشبه المزن في الكرم، والتبر في العرق والنفاسة، والخمر في السكر الذي يسكر الناس به من شعره.

الملك حسين^١

لك في الأرض والسماء مآتم
قعد الأمل للعزاء، وقامت
يا أبا العليّة البهاليل، سلّ آ
المنايا نوازلُ الشّعَرِ الأب
ما الليالي إلا قصارٌ، ولا الدُّنْ
انحسارُ الشّفاهِ عن سنٍّ جدلاً
سنة أفرحت، وأخرى أساءت
المناحات في ممالك أبنا
تلك (بغداد) في الدموع، وعمّا
والحجازُ النبيلُ ربّع مُصلّ
واشتركنا، فمصرُ عبّري، ولبنا
قُمْ تأملُ بنيك في الشّرق زَيْنُ التّ
الزكيّون عُنْصُراً مثل إبراهيم
وعليهم إذا العيونُ رَمَتْهم

قام فيها أبو الملائك هاشم^١
باكيات على الحسين الفواطم^٢
باءك الزُّهر: هل من الموتِ عاصم؟^٣
يخض، جاراتُ كلِّ أسود فاحم^٤
يا سوي ما رأيت أحلام نائم
ن وراء الكرى إلى سنّ نائم
لم يدُم في النعيم والكرب حالم
ئكَ بدريّة العزاء قوائم^٥
ن وراء السّواد، والشام واجم^٦
من ربوع الهدى، وآخر صائم^٧
ن سكوبُ العيون باكي الحمائم
اج، ملء السّريّر، نور العواصم^٨
هيم، والطّيبون مثل القاسم^٩
عوذ من محمد وتمائم^{١٠}

^١ هو ملك الحجاز الحسين بن علي، زعيم الحركة العربية في طلب تحرير أصقاع الجزيرة من حكم الأتراك، وقد توفي سنة ١٩٣١ ودفن بالقدس الشريف.

ما بنى الله بيتهم فهو باق
 دبّروا الملك في العراق وفي الشا
 أمّن الناس في ذراهم، وطابت
 وبَنَوْا دولةً وراءَ فَلَسْطِ
 سَاسَها بالأناةِ أَرْوَعُ (كالدا
 قُبْرُصُ كانت الحديد، وقد تَنَدَّ
 كِرِهَ الدَّهْرِ أَنْ يَقُومَ لِوَاءِ
 قم تَحَدَّثْ (أبا عليٍّ) إلينا
 لم تُبَالِ النُّيُوبُ في الهامِ خُشْنًا
 هاتِ حَدَّثْ عن العَوَانِ وَصِفْها
 كُلُّنا وارِدُ السَّرَابِ، وكلُّ
 قد رَجَوْنَا من المغانمِ حَظًّا
 قد بَعَثْتَ القُضِيَّةَ اليَوْمَ مَيِّتًا
 أَنْتِ كَالْحَقِّ أَلْفَ النَّاسِ يَقْظَا
 إِنَّمَا الهِمَّةُ البَعِيدَةُ غَرَسُ
 رَبِّما غَابَ عن يَدِ غَرَسَتِهِ
 حَبًّا مَوْقِفٌ غُلِبَتْ عَلَيْهِ
 نَائِدًا عن ممالكِ وشعوبِ
 كُلُّ ماءٍ لَهُم، وكلُّ سماءِ
 لِمَ لَمْ تَدْعُهُم إلى الهِمَّةِ الشَّ
 وركوبِ اللَّجَاجِ وَهِيَ طَوَاغِ
 وإِلَى القُطْبِ والجَلِيدِ عَلَيْهِ
 اغسلوه بطيِّبٍ من وَضوءِ الرُّسْ
 وخذوا من وسادِهِم في المُصَلَّى
 واستعبروا لِنعِشِهِ من ذرى المنى
 واحملوه على البُرَاقِ إِنْ اسْطَعَفَ
 وأدبروا إلى العتيقِ (حُسينًا)

ما بنى الله ما له من هادِم
 مِ فَسَنُوا الهدى، وَرَدُّوا المظالمِ
 عربُ الأرضِ تَحْتَهُم والأعاجِمِ
 عَيْنَ، كعابِ الهدى، فتاةُ العزائمِ
 (خل)، ماضي الجنانِ يَقْظَانُ، حازمٌ ١١
 نَزَلَ قُضبانُهُ اللَّيْثُ الضَّرَاعِمِ ١٢
 تُحْشِرُ البِيدُ تَحْتَهُ والعِمَامِ ١٣
 كيف غَامَرْتَ في جِوارِ الأرقامِ؟ ١٤
 وتعلَّقتِ بالحواشي النِّوَاعِمِ
 لا تُرْعَ في الترابِ، ما أنا لائِمٌ! ١٥
 حَمَلٌ في وَلِيْمَةِ الذَّنْبِ طاعِمِ ١٦
 وَوَرَدْنَا الوَعَى، فَكُنَّا الغنائِمِ
 رَبِّ عَظُمَ أَتَى الأُمُورِ العِظائِمِ
 نَ، وَزَادَ اتِّتلافُهُم وَهُوَ نائِمِ
 مُتَأَتِّي الجَنَى، بَطِيءُ الكِماثِمِ ١٧
 وَحَوْتُهُ على المَدَى يَدُ قَادمِ
 لِمَ يَقْفُهُ لِلْعُربِ قَبْلَكَ خادِمِ
 نُقِلْتُ في الأَكْفِ نَقْلَ الدِراهِمِ
 مَوْطِيءُ الخيلِ، أَوْ مَطَارُ القِشامِ ١٨
 مَاءِ والعِلْمِ والطَّماحِ المُزاحِمِ؟
 والسماواتِ وَهِيَ هُوجُ الشِّكائِمِ؟ ١٩
 والصَّحاري وما بها من سَمائِمِ؟ ٢٠
 لِمَ، كَالوَرْدِ في رَباهِ البِواسِمِ ٢١
 رُقْعَةً كَفَنُوا بها فِرْعَ هاشِمِ
 حِرَ عودًا، ومن شَرِيفِ القِوائِمِ
 تَمَ؛ فَقَدِ جَلَّ عن ظُهورِ الرِواسِمِ ٢٢
 يَبْتَهَلُ رُكْنَهُ، وتَدْعُو الدِعاثِمِ ٢٣

واذكروا للأمير مَكَّةَ، والقَصَصَ
ظَمِئَ الحُرُّ لِلدَّيَّارِ، وَإِنْ كَا
نَقَلُوا النَعَشَ سَاعَةً فِي رُبَا الْفَتَدِ
وَقِفُوا سَاعَةً بِهِ فِي ثَرَى الْأَقْفِ
وَادْفَنُوهُ فِي الْقُدْسِ بَيْنَ سُلَيْمَى
إِنَّمَا الْقُدْسُ مَنْزِلُ الْوَحْيِ، مَغْنَى
كُنْفَتِ بِالْغُيُوبِ، فَالْأَرْضُ أَسْرَا
وَتَحَلَّتْ مِنَ الْبُرَاقِ بَطْغَرَا
رَ، وَعَهْدَ الصَّفَا، وَطِيبَ الْمَوَاسِمِ
نَ عَلَى مَنَهْلٍ مِنَ الْخُلْدِ دَائِمِ
حَ، وَطُوفُوا بِرَبِّهِ فِي الْمَعَالِمِ
مَارَ مِنْ قَوْمِهِنَّ وَتُرِبِ الْغُمَائِمِ
نَ وَدَاوَدَ وَالْمَلُوكِ، الْأَكَارِمِ
كُلَّ حَبْرٍ مِنَ الْأَوَائِلِ عَالِمِ
رُ مَدَى الدَّهْرِ، وَالسَّمَاءِ طَلَّاسِمِ
ءَ، وَمِنْ حَافِرِ الْبُرَاقِ بِخَاتِمِ^{٢٤}

هوامش

- (١) أبو الملائك: أي أبو الملوك. وهاشم هو أحد جدود النبي صلوات الله عليه.
- (٢) الآل: آل البيت النبوي الشريف، والمقصود هنا رجاله، الفواطم: يريد بهن نساء هذا البيت من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوج الإمام علي كرم الله وجهه.
- (٣) عليه (بكسر العين): جمع عليٍّ، وهو الشريف العالي القدر من الناس. البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. الآباء الزهر: هم المشرقو الوجوه، المشابهون للنجوم الزهر في صفاء اللون والتلألؤ والظهور.
- (٤) يقول: إن المنايا تنزل بالشيب كما تنزل بالشباب، فليس هناك من عاصم منه.
- (٥) يشبه الحزن على الفقيد بالحزن على صرعى بدر، أولى غزوات الرسول ﷺ.
- (٦) بغداد: عاصمة العراق، والمراد بها القطر كله. وعمَّان: عاصمة الأردن، كنى بها عن الإقليم جميعه. والشام: يقصد بها سوريا وما إليها من الأقاليم المحصورة بين تركيا وبلاد العرب ونهر الفرات والبحر المتوسط.
- (٧) الحجاز النبيل: يقصد الحجاز الذي بقي محافظاً على عهده للفقيد، الربع: الدار.
- (٨) العواصم: جمع عاصمة، وهي البلدان الكبيرة التي تقيم فيها الحكومات.
- (٩) إبراهيم والقاسم: هما من أولاد النبي صلوات الله عليه.
- (١٠) عُوذ: جمع عوذة، وهي الرقية تحفظ من العين كالتميمة، وجمع التميمة: تمائم.

(١١) الأناة: الرفق، ويريد «بالأروع»: الملك فيصل، يشبهه بالداخل، وهو عبد الرحمن الداخل صقر قريش مؤسس دولة بني أمية في الأندلس.

(١٢) قبرص: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، قضى فيها الملك حسين بقية عمره بعد ما اعتزل الملك، يشبهها أمير الشعراء في حالة إقامة الفقيد فيها بالقفص الحديد الذي يحبس فيه الأسد، وصنع الأقفاص الحديدية لحبس الأسود مألوف لمنظمي الحداثق في عصرنا هذا.

(١٣) العمام: الجماعات المتفرقون.

(١٤) يشير إلى انضمام الفقيد في صف الحلفاء ضد تركيا في أثناء الحرب الكبرى، وقد كان لهذا الانضمام أثره في نهاية تلك الحرب.

(١٥) العوان: الحرب.

(١٦) كلنا في وليمة الذئب طاعم: يريد كلنا مطعوم مأكول لهذا الذئب.

(١٧) الجنى: الثمار. الكمائم: محل ما تنبت تلك الثمار.

(١٨) القشاعم: النسور، جمع قشعم. ويريد «بالنسور» الطيارين الذين يشبهون النسور.

(١٩) يريد «بركوب السماوات»: ركوب الطيارات، ويريد بهوج الشكائم: اللحم، أي اللحم الصعبة القياد.

(٢٠) السمائم: جمع سموم، وهي الريح الحارة المحرقة.

(٢١) الوضوء (بفتح الواو): ما يتوضأ به.

(٢٢) الرواسم: الإبل، أو الخيل، أو الركائب عامة.

(٢٣) العتيق: مسجد بيت المقدس حيث دُفِنَ الفقيد.

(٢٤) الطغراء: ما يكتب في أول الكتاب. والبراق: هو ركوبة النبي صلوات الله عليه ليلة أسري به.

يرثي أباه^١

سألوني: لِمَ لَمْ أَرِثْ أَبِي؟
أَيُّهَا اللُّوَّامُ، مَا أَظْلَمَكُمْ!
يا أَبِي، مَا أَنْتَ فِي ذَا أَوَّلٍ
هَلَكْتَ قَبْلَكَ نَاسٌ وَقَرَى
غَايَةُ الْمَرءِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
وَطَبِيبٌ يَتَوَلَّى عَاجِزًا
إِنَّ لِلْمَوْتِ يَدًا إِنْ ضَرَبَتْ
تَنْفُذَ الْجَوِّ عَلَى عِقْبَانِهِ
وَتَحِطُّ الْفَرَحَ مِنْ أَيَّكْتِهِ
أَنَا مَنْ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ أَنَا
نَحْنُ كُنَّا مُهْجَةً فِي بَدَنِ
ثُمَّ عُدْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنِ
ثُمَّ نَحْيَا فِي (عَلِيٍّ) بَعْدَنَا
انْظُرِ الْكَوْنَ وَقُلْ فِي وَصْفِهِ

وَرِثَاءُ الْآبِ دَيْنٌ أَيُّ دَيْنٍ
أَيْنَ لِي الْعَقْلُ الَّذِي يُسْعِدُ أَيْنَ؟^١
كُلُّ نَفْسٍ لِلْمَنَايَا فَرَضُ عَيْنٍ
وَنَعَى النَّاعُونَ خَيْرَ الثَّقَلَيْنِ^٢
أَخَذُ يَأْخُذُهُ بِالْأَصْغَرَيْنِ^٣
نَافِضًا مِنْ طِبِّهِ خُفْيَ حُنَيْنٍ
أَوْشَكْتُ تَصْدُعَ شَمْلَ الْفَرْقَدَيْنِ
وَتَلَاقِي اللَّيْثَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ
وَتَنَالِ الْبَبْغَا فِي الْمُتَتَيْنِ
لَقِيَ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ صِرْنَا مُهْجَةً فِي بَدَنَيْنِ^٤
ثُمَّ نُلْقَى جُثَّةً فِي كَفَنَيْنِ
وَبِهِ نُبْعَثُ أَوْلَى الْبَعْثَتَيْنِ^٥
كُلُّ هَذَا أَصْلُهُ مِنْ أَبَوَيْنِ

^١ نظم هذه القصيدة حوالي سنة ١٨٩٧ يرثي بها والده الطيب الذكر المرحوم علي بك شوقي رحمه الله.

فإذا ما قيل: ما أصلهما؟ فقدَا الجنةَ في إيجادنا وهما العذرُ إذا ما أغضِبَا
ليتَ شعري أَيُّ حيٍّ لم يَدِنْ وقفَ اللهُ بنا حيثُ هما
ما أبَيَّ إلاَّ أَخَ فارقَتُهُ طالما قمنا إلى مائدةٍ
وشربنا من إناءٍ واحدٍ وتمشينا يدي في يده
نظرَ الدهرُ إلينا نظرةً يا أبَي والموتُ كأسُ مُرَّةٍ
كيف كانت ساعةُ قضيتها أشربتَ الموتَ فيها جُرعةً
لا تخفُ بعدَكَ حُزنًا أو بُكَا أنتَ قد علمتني تَرَكَ الأسي
ليت شعري: هل لنا أن نلتقي وإذا متُّ وأودعتُ الثرى

قل: هما الرحمةُ في مَرَحَمَتَيْنِ ونَعَمْنَا منهما في جَنَّتَيْنِ
وهما الصَفْحُ لنا مُسْتَرْضِيَيْنِ بالذي دانا به مُبْتَدِئَيْنِ؟
وأَمَاتَ الرُّسُلَ إلاَّ الوالدين^٧ وَدَّه الصَّدْقُ، ووَدَّ الناسَ مَيْنَ^٨
كانت الكِسْرَةُ فيها كِسْرَتَيْنِ وغَسَلنا بعدَ ذا فيه اليدينِ
مَنْ رَأنا قال عنا: أخوينِ سَوَّ الشَّرَّ فكانت نظرتينِ
لا تذوقُ النفسُ منها مَرَّتَيْنِ كلُّ شيءٍ قبلَها أو بعدُ هَيْنِ؟
أَمْ شَرِبْتَ الموتَ فيها جُرعتينِ؟ جَمَدَتْ مِنِّي ومَنكَ اليومَ عَيْنِ
كلُّ زَيْنٍ مُنتَهاه الموتُ شَيْنِ مَرَّةً، أَمْ ذا افتراقُ المَلَوَيْنِ؟^٩
أَنلَقَى حُفْرَةً أَمْ حُفَرَتَيْنِ؟

هوامش

- (١) يسعد: يعين.
- (٢) الثقلان: الإنس والجن. وخير الثقلين، هو سيدنا محمد صلوات الله عليه.
- (٣) الأصغران: القلب واللسان.
- (٤) خفي حنين: مثل عربي يضرب عند اليأس من الحاجة المطلوبة والرجوع عن الطلب بالخيبة.
- (٥) المهجة: الدَّم، وقد يعبر بها عن الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.
- (٦) علي: هو أحد نجلي أمير الشعراء.
- (٧) يريد في هذا البيت أن يقرر أن الأبوة ضرب من ضروب الرسالة التي لم تنقطع كما انقطعت رسالة الأنبياء، وإنما هي ستظل قائمة بوظيفتها من طبع الأبناء على

يرثي أباه

غرار الآباء، مصداقاً للأثر القائل: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

(٨) المين: الكذب. وفي هذا البيت على سهولة أدائه أعظم ألوان المدائح لوالده، فإن الوالد الذي لا يشعر ابنه بسلطة الأب، هو الوالد المشتغل على جميع مكارم الأخلاق، البالغ أعلى درجات الحكمة.

(٩) الملوان: الليل والنهار، الواحد منهما ملا.

مصطفى كامل باشا^١

قاصيُهما في مأْتَمٍ والدَّاني
في الله من خُلْدٍ وَمِنْ رِضْوَانٍ
في الزائرينَ ورُوعَ الحَرَمَانِ^١
مَنكوسَةُ الأَعْلَامِ والقُضْبَانِ^٢
في الله والمختار والسلطان
في المحفلين بصوتِكَ الرَّنَّانِ
ما غابَ من قُسٍّ وَمِنْ سَحْبَانِ^٣
ماذا لَقِيتَ من الوجود الفاني؟
هذا عليه كرامةٌ للجاني
بالقلب، أَمْ هَلْ مُتَّ بالسَّرَطَانِ؟
والجِدُّ والإقدام والعِرفان
في هذه الدنيا؛ فأنت الباني
هل فيه آمالٌ وفيه أُماني؟
ولرُبِّ حَيٍّ مَيِّتِ الوجودان

المَشْرِقانِ عَلَيْكَ يَنْتَحِبَانِ
يا خادِمَ الإسلامِ، أَجْرُ مُجَاهِدٍ
لَمَّا نُعِيتَ إِلَى الحِجَازِ مَشَى الأَسَى
السَّكَّةُ الكُبْرَى حِيالَ رَبَاهُما
لَمْ تَأَلَّهَا عِنْدَ الشدائدِ خِدْمَةً
يا لَيْتَ مَكَّةَ والمدينةَ فازتا
ليرى الأَوَاخِرُ يَوْمَ ذاكَ ويسمعوا
جارَ التُّرابِ وَأَنْتَ أَكْرَمُ راحِلٍ
أَبْكِي صَبَاكَ، وَلَا أَعَاتِبُ مَنْ جَنَى
يَتَسَاءَلُونَ: أَبَ (السُّلَالِ) قَضَيْتَ، أَمْ
اللهُ يَشْهَدُ إِنَّ مَوْتَكَ بِالْحِجَا
إِنْ كَانَ لِلأَخْلَاقِ رِكنٌ قَائِمٌ
بالله فَتَنِّشْ عَن فَوادِكَ فِي الثَّرَى
وَجَدَانُكَ الحَيُّ المُقِيمُ عَلَى المَدَى

^١ هو الزعيم الخالد الذكر مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني، وقد توفي سنة ١٩٠٨.

وَمُضَلَّلٌ يَجْرِي بِغَيْرِ عِنانِ
عُلَيَّا المَرَاتِبِ لَمْ تُتَحَّ لَجبانِ
ماتوا على دين من الأديان
جُعِلَتْ لَهَا الأَخْلَاقُ كالعنوان
قَصَرَ يُرِيكَ تَقاصُرَ الأَقْـرَانِ
إِنَّ الحِـيَاةَ دَقائِقُ وَثواني
فالذِكْرُ لِلإنسانِ عُمُرٌ ثانِي
ما شاءَ مِنْ رِبحٍ وَمِنْ خُسْـرانِ
وهي المَضِيقُ لِمُؤَثِّرِ السُّلْوانِ
يَشْقَى لَهُ الرُّحَماءُ وَهُوَ الهانِي
في طيِّها شَجَنٌ مِنَ الأشْجانِ
نُعْمَى الحِـيَاةِ وَبُؤْسُها سِـيَّانُ^٥
خِطراتِ، والإِسْـرارِ، والإِـعْـلانِ
غازِ بِغَيْرِ مُهَنْدٍ وَسِـنَّانِ؟
أَنْ العِلْمُ دَعائِمُ العُمَـرانِ؟
جَزَعِ الهِلالِ على فِـتْيِ الفِـتْيَانِ
لَكِنَّمَا يَبْكِي بدمعِ قاني^٦
فكأنما في نَعِشِكَ القَمَـرانِ
يَخْتالُ بَيْنَ بُـغَا، وَبَيْنَ حَـنَانِ
ما ضَمَّ مِنْ عُرْفٍ وَمِنْ إِحْـسانِ
وَجِلائِكَ المِـصْـدوقُ يَلْتَقِيانِ
وَبِكَتِكَ بالدمعِ الهَنُونِ غواني^٦
إِذْ يُنصِتُونَ لخطبةِ وَبَيانِ
بَعْدَ المِـنابِرِ، أَمْ بِأَيِّ لِسانِ؟
دَفنوكَ بَيْنَ جِوانِحِ الأوطانِ
حَمْلوكَ في الأَسْـماعِ والأَجْـفانِ
كَفَنُ لِبِستِ أَحاسِنِ الأكْفانِ

الناسُ جارا في الحِـيَاةِ لَـغايَةٍ
والْخُلْدُ في الدِـنْيا — وَليسَ بَهيِّن —
فلو أَنَّ رُسُلَ اللّهِ قَدْ جَبَنُوا لَمَّا
المَجْدُ والشَّرْفُ الرَفِيعُ صَـحِيفَةٌ
وَأَحَبُّ مِنْ طوْلِ الحِـيَاةِ بِذِلَّةٍ
دَقَّاتُ قَلْبِ المِـرءِ قائِلَةٌ لَه:
فارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ موْتِكَ ذِكْرَها
لِلـمِـرءِ في الدِـنْيا وَجَمَّ شِئُونُها
فَـهِيَ الفِـضاءُ لِرَـاغِبٍ مُتَطَلِّعٍ
الناسُ غايٍ في الشَّقَاءِ وَرائِحُ
وَمُنْعَمٌ لَمْ يَلِقَ إِلَّا لَذَّةً
فاصْبِرْ على نُعْمَى الحِـيَاةِ وَبُؤْسِها
يا طاهِرَ الغَدَواتِ، والرَّوْحاتِ، والـ
هل قَامَ قَبْلَكَ في المِـدائِنِ فَاتِحُ
يَدْعُو إلى العِلْمِ الشَّرِيفِ، وَعِندَه
لِفُوكَ في عِلْمِ البِلادِ مُنْكَـسًا
ما أَحْمَرُّ مِنْ خَجَلٍ، ولا مِنْ رِيبَةٍ
يَزْجُونَ نَعِشَكَ في السَّـنْـاءِ وَفي السَّـنْـاءِ
وَكأنه نَعِشُ الحُسَيْنِ «بِكَزْبَلَا»
في ذِمَّةِ اللّهِ الكَرِـيمِ وَبِرِّه
وَمَشَى جِلالُ المَوْتِ وَهُوَ حَـقِيقَةٌ
شَقَّتْ لِمَنْظَرِكَ الجِـيوبَ عِـقائِلُ
والخَلْقُ حَوْلَكَ خاشِعُونَ كعَـهِـدِهِم
يَتَساءَلُونَ: بِأَيِّ قَلْبٍ تُرْتَقِي
لو أَنَّ أوطانًا تُصَوِّرُ هَيْـكَلًا
أَوْ كانَ يُحْمَلُ في الجِـوارِحِ مِيتُ
أَوْ صِـيغُ مِنْ غُرِّ الفِـضائِلِ والعُـلا

أَوْ كَانَ لِلذِّكْرِ الْحَكِيمِ بَقِيَّةٌ
وَلَقَدْ نَظَرْتُكَ وَالرَّدى بِكَ مُحَدِّقُ
يَبْغِي وَيَطْغَى، وَالطَّبِيبُ مُضِلُّ
وَنَوَاطِرُ الْعَوَادِ عَنْكَ أَمَالُهَا
تُمْلِي وَتَكْتُبُ وَالْمَشَاغِلُ جَمَّةٌ
فَهَشَشْتَ لِي، حَتَّى كَأَنَّكَ عَائِدِي
وَرَأَيْتُ كَيْفَ تَمُوتُ أَسَادُ الشَّرَى
وَوَجَدْتُ فِي ذَاكَ الْخِيَالِ عَزَائِمًا
وَجَعَلْتَ تَسَائِلِي الرِّثَاءَ، فَهَآكِهِ
لَوْلَا مُغَالِبَةُ الشُّجُونِ لَخَاطِرِي
وَأَنَا الَّذِي أَرْتِي الشَّمُوسَ إِذَا هَوَتْ
قَدْ كُنْتَ تَهْتَفُ فِي الْوَرَى بِقِصَائِدِي
مَاذَا دَهَانِي يَوْمَ بِنَتْ فَعَقْنِي
هُوْنٌ عَلَيْكَ؛ فَلَا شِمَاتَ بِمَيِّتٍ
مَنْ لِلْحَسُودِ بِمَيِّتَةٍ بُلُغَتْهَا
عُوفِيَتْ مِنْ حَرْبِ الْحَيَاةِ وَحَرْبِهَا
يَا صَبَّ مِصْرَ، وَيَا شَهِيدَ غَرَامِهَا
إِخْلَعْ عَلَى مِصْرٍ شَبَابَكَ عَالِيًا
فَلْعَلَّ مِصْرًا مِنْ شَبَابِكَ تَرْتَدِي
فَلَوْ أَنَّ بِالْهَرَمَيْنِ مِنْ عَزَمَاتِهِ
عَلِمْتَ شُبَانَ الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى
مِصْرُ الْأَسِيفَةِ رِيفُهَا وَصَعِيدُهَا
أَقْسَمْتُ إِنَّكَ فِي التَّرَابِ طَهَارَةٌ

لَمْ تَأْتِ بَعْدُ؛ رُثِيتَ فِي الْقِرَآنِ
وَالدَّاءُ مِلءُ مَعَالِمِ الْجُثْمَانِ
قَنِطٌ، وَسَاعَاتُ الرَّحِيلِ دَوَانِي
دَمْعُ تُعَالِجِ كُتْمِهِ وَتُعَانِي
وَيَدَاكَ فِي الْقِرطَاسِ تَرْتَجِفَانِ
وَأَنَا الَّذِي هَذَا السَّقَامُ كِيَانِي
وَعَرَفْتُ كَيْفَ مِصَارِعُ الشُّجْعَانِ^٧
مَا لِلْمَنُونِ بِدَكِّهِنَّ يَدَانِ
مَنْ أَدْمَعِي وَسِرَائِرِي وَجَنَانِي
لِنَظْمَتُ فَيْكَ يَتِيمَةُ الْأَزْمَانِ
فَتَعُودُ سِيرَتَهَا إِلَى الدَّوَرَانِ
وَتُجِلُّ فَوْقَ النِّيرَاتِ مَكَانِي
فَيْكَ الْقَرِيبُ، وَخَانَنِي إِمْكَانِي؟
إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةُ الْإِنْسَانِ
عَزَّتْ عَلَى (كِسْرَى) أَنْوَشِرُونَ؟
فَهَلْ اسْتَرَحْتُ أَمْ اسْتَرَاخَ الشَّانِي؟^٨
هَذَا ثَرَى مِصْرَ؛ فَنَمْ بِأَمَانِ
وَأَلْبَسْ شَبَابَ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ
مَجْدًا تَتِيهِ بِهِ عَلَى الْبُلْدَانِ
بَعْضُ الْمَضَاءِ تَحْرُكُ الْهَرْمَانِ
كَيْفَ الْحَيَاةُ تَكُونُ فِي الشُّبَانِ
قَبْرُ أَبْرَ عَلَى عِظَامِكَ حَانِي
مَلِكُ يَهَابُ سَوَالِهِ الْمَلَكَانِ

هوامش

- (١) الحرمان: حرما مكة والمدينة.
- (٢) السكة الكبرى: يريد سكة حديد الحجاز، وقد كان الفقيد أعظم الدعاة المجاهدين في سبيل إنشائها.
- (٣) قس وسحبان: خطيبان عربيان يضرب بهما المثل في الطلاقة الخطابية والفصاحة والحكمة.
- (٤) سيّان: مثلان، الواحد سيّ.
- (٥) قاني: أحمر.
- (٦) العقائل: جمع عقيلة وهي ابنة الرجل المخدرة، أو كريمته. الهتون: من هتن الدمع، إذا قطر. الغواني جمع غانية، وهي الفتاة تغنى بجمالها عن الحلي.
- (٧) آساد: جمع أسد. الشرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد.
- (٨) حربته (كطلبه): سلبه ماله، الشاني: المبعوض.

حسن بك أنور^١

تُسأَلُنِي (كَرَمَتِي) بِالنَّهَارِ
وَأَيْنَ النَّدِيمُ الشَّهِيَّ الْحَدِيثِ؟
نَجِيُّ الْبَلَابِلِ فِي عُشَّهَا
فَقُلْتُ لَهَا: مَاتَ، وَاسْتَشَعَرَتْ
لَيْئَنُ نَاءٍ مِنْ سَمَنِ جِسْمِهِ
وَمَا هُوَ مَيِّتٌ، وَلَكِنَّهُ
وَمَعْنَى خَلَا الْقَوْلُ مِنْ لَفْظِهِ
وَلَا يَذْكُرُ الْمَعْهَدُ الشَّرْقِيَّ
وَمَا كَانَ مِنْ صَبْرِهِ فِي الصَّعَابِ
وِخْدَمَةِ فَنٍّ يُدَاوِي الْقُلُوبَ
وَمَا كَانَ فِيهِ الدَّعْيُ الدَّخِيلَ
وَلَوْ أَنْصَفَ الصَّحْبُ يَوْمَ الْوَدَاعِ
فَغُيِّبَتْ فِي الْمِسْكِ، لَا فِي التَّرَابِ
وَحُطَّ لَكَ الْقَبْرُ فِي رَوْضَةٍ

وبالليل: أَيْنَ سَمِيرِي (حَسَنُ)؟
وَأَيْنَ الطَّرُوبُ اللَّطِيفُ الْأَذُنْ؟
وَمُلْهُمُهَا صَبِيَّةً فِي الْفَنِّ؟
ليالي السُّرُورِ عَلَيْهِ الْحَزَنُ
فَمَا عَرَفْتَ رُوحَهُ مَا السَّمَنُ
بشاشة دهرٍ محابها الزمنُ
وَحُلْمُ تَطَايَرٍ عَنْهُ الْوَسَنُ^٢
(لأنور) إِلَّا جَلِيلَ الْمِنَنِ
وَمَا كَانَ مِنْ عَوْنِهِ فِي الْمَحَنِ
وَيَشْفِي النُّفُوسَ، وَيُذَكِّي الْفُطْنَ
وَلَكِنْ مِنَ الْفَنِّ كَانَ الرُّكْنَ^٣
دُفِنْتَ (كَإِسْحَاقَ) لَمَّا دُفِنَ
وَأُدْرِجَتْ فِي الْوَرْدِ، لَا فِي الْكَفَنِ
يَمِيلُ عَلَى الْغُصْنِ فِيهَا الْغُصْنُ

^١ المرحوم حسن بك أنور: أحد الأعضاء المؤسسين لنادي الموسيقى الشرقي، وكان من الأصدقاء المقربين
لأمير الشعراء، وقد توفي سنة ١٩٣٠.

وَيَخْلَعُ فِيهَا النَسِيمُ الرَّسَنُ؛	وَيَنْتَجِبُ الطَيْرُ فِي ظِلِّهَا
تُعِيدُ الْحَنِينَ، وَتُبْدِي الشَّجَنَ	وَقَامَتْ عَلَى الْعُودِ أَوْتَارُهُ
وَكُنْتَ تَتَنُّ إِذَا النَّايُ أَنَّ	وِطَارْحَكَ (النَّايُ) شَجَوَ النُّوَّاحَ
وَأَظْهَرَ مِنْ بَيْتِهِ مَا كَمَنَ	وَمَالَ فَنَاحَ عَلَيْكَ (الْكَمَانُ)
إِذَا نَفَحَتْ، وَالْغَوَادِي الْهُتْنَ	سَلَامٌ عَلَيْكَ سَلَامُ الرُّبَا
وَرَهْطٍ بِصَحْرَائِهِ مُرْتَهَنَ	سَلَامٌ عَلَى جِيرَةٍ بِالْإِمَامِ
وَأُخْرَى، كُْمَنْدِرِسَاتِ الدِّمَنِ	سَلَامٌ عَلَى حُفَرٍ كَالْقَبَابِ
وَصَافِي وَصُوفِي بَعْدَ الضَّغْنِ	وَجَمْعٍ تَأَلَّفَ بَعْدَ الْخِلَافِ
لَهُ حَجَرٌ فِي بِنَاءِ الْوُطَنِ	سَلَامٌ عَلَى كُلِّ طَوْدٍ هُنَاكَ

هوامش

- (١) كان يطلق على دار أمير الشعراء كرمة ابن هاني.
- (٢) الوسن: النعاس.
- (٣) الركن: الركن، وقد حركت الكاف من أجل الشعر. والركن من كل شيء: جانبه الأشد والأقوى.
- (٤) الرسن: الحبل. ويقال: رسن الفرس: شدّه بالرسن.
- (٥) الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار.

أم الحسين^١

أَخَذَتْ نَعَشَكَ مَصْرُ بِالْيَمِينِ
لَقِيتَ طُهْرَ بَقَايَاكَ كَمَا
فِي سَوَادِيهَا، وَفِي أَحْشَائِهَا
خَرَجْتَ مِنْ قَصْرِكَ الْبَاكِي، إِلَى
أَخَذْتَ بَيْنَ الْيَتَامَى مَذْهَبًا
وَرَمْتَ طَرْفًا إِلَى الْبَحْرِ تَرَى
فَبَدَتْ جَارِيَةٌ فِي حِضْنِهَا
وَعَلَى جُوجُجِهَا نُورُ الْهَدَى
حَمَلْتُ مِنْ شَاطِئِي (مَرْمَرَةً)
وَطَوْتُ بَحْرًا بِبَحْرِ، وَجَرْتُ
وَاسْتَقَلَّتْ دُرَّةٌ كَانَتْ سَنَى
نَهَبْتُ عَنْ عَلِيَّةٍ صِيدٍ، وَعَنْ
وَالثَّقِيَّاتِ بَنَاتِ الْمُتَّقِي
لَبَسْتُ فِي مَطْلَعِ الْعِزِّ الضُّحَى

وَحَوَتْهُ مِنْ يَدِ الرُّوحِ الْأَمِينِ^١
لَقِيتَ (يَثْرِبُ) أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ
وَوَرَاءَ النَّحْرِ مِنْ حَبْلِ الْوَتِينَ^٢
رَمَلَةَ الثَّغْرِ، إِلَى الْقَصْرِ الْحَزِينِ
وَمَشَتْ فِي عَبْرَاتِ الْبَائِسِينَ
مِنْ وَرَاءِ الدَّمْعِ أُسْرَابَ السَّفِينِ
فَنَنْ الْوَرْدُ وَفَرَعُ الْيَاسْمِينِ^٣
وَعَلَى سُكَّانِهَا نُورُ الْيَقِينِ^٤
جَوْهَرَ السُّودِ وَالْكَنْزَ الثَّمِينِ^٥
فِي الْأَجَاجِ الْمَلْحِ بِالْعَذْبِ الْمَعِينِ
وَسَنَاءً فِي جِبَاهِ الْمَالِكِينَ^٦
خُرِدٍ مِنْ خَفِرَاتِ الْبَيْتِ عَيْنِ
وَالْأَمِينَاتِ بُنَيَّاتِ الْأَمِينِ
وَنَضَّتْهُ كَالشَّمُوسِ الْآفَلِينَ^٧

^١ أم الحسين: هي والدة سمو الخديو عباس باشا الثاني، وقد توفيت بالآستانة سنة ١٩٣١.

يَدُهَا بَانِيَّةٌ غَارِسَةٌ
رَبَّةُ الْعَرْشَيْنِ فِي دَوْلَتِهَا
أُضْجِعَتْ قَبْلَكَ فِيهِ (مَرِيَمُ)
إِنَّهُ رَحْلُ الْأَوَّالِي شَدَّةُ
إِخْلَعِي الْأَلْقَابَ إِلَّا لِقَبًا
وَدَعِي الْمَالَ يَسِرْ سُنَّتَهُ
وَاقْذِفِي بِالْهَمِّ فِي وَجْهِ الثَّرَى
وَاسْخَرِي مِنْ شَانِيٍّ أَوْ شَامِتٍ
وَتَعَزِّي عَنْ عَوَادِي دَوْلَةٍ
وَازْهَدِي فِي مَوَكِبٍ لَوْ شِئْتَهُ
مَا الَّذِي رَدَّ عَلَى أَصْحَابِهِ؟
رُبَّ مَحْمُولٍ عَلَى الْمِدْفَعِ مَا
بَاطِلٌ مِنْ أُمِّ مَخْدُوعَةٍ
فِي (فُرُوقٍ) وَرُبَّاهَا مَا تَمَّ
قَامَ فِيهَا، مِنْ عَقِيلَاتِ الْحِمَى
أَسْرُ مَالَتِ بِهَا الدُّنْيَا، فَلَمْ
قَدْ خَلَا (بَيْبُكُ) مِنْ حَاتِمِهِ
طَارَتِ النِّعْمَةُ عَنْ أَيْكَتِهِ
الْيَتَامَى نُوحٍ نَاحِيَّةُ
دَوْلَةٍ مَالَتِ، وَسُلْطَانُ خَلَا
مُنْهَضُ الشَّرْقِ (عَلِيٌّ) لَمْ يَزَلْ
يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ مَا أَفْسَدَتْ
أُمَّ عَبَّاسٍ، وَمَالِي لَمْ أَقُلْ:
كَنْتُ كَالرَّوْدِ لَهُمْ، وَاسْتَقْبَلُوا
فَيُقَالُ: الْأُمُّ فِي مَوَكِبِهَا
(الْعَفِيفِيُّ) عَفَافٌ وَهُدَى
ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ رَوْضَتِهِ

كَيْدِ الشَّمْسِ وَإِنْ غَابَ الْجَبِينُ
قَدْ رَكِبْتَ الْيَوْمَ عَرْشَ الْعَالَمِينَ
وَتَوَارَى بِنِسَاءِ الْمُرْسَلِينَ
لَهُمْ آدَمُ رُسُلِ الْآخِرِينَ
عَبْقَرِيًّا، هُوَ (أُمُّ الْمُحْسَنِينَ)
يَمُضِ عَنْ قَوْمٍ لِأَيْدِي آخِرِينَ
وَاطْرَحِي مَنْ حَالِقٍ عَبَاءَ السَّنِينَ^٨
لَيْسَ بِالْمَخْطِئِ يَوْمَ الشَّامِتِينَ
لَمْ تَدُمْ فِي وَلَدٍ أَوْ فِي قَرِينٍ
لَتَغْطِي وَجْهَهَا بِالْدَارِعِينَ^٩
لَيْسَ يُحْيِي مَوَكِبَ الدِّفَنِ الدِّفِينَ
مَنْعَ الْحَوْضِ، وَلَا حَاطَ الْعَرِينِ^{١٠}
يَتَحَدَّثُونَ بِهِ الْحَقَّ الْمَبِينِ
ذَرَفَتْ أَمَاقُهَا فِيهِ الْعَيُونَ
مَلَأُ بُذُلْنَ مِنْ عِزٍّ بِهُونٍ
تَلْقُ إِلَّا عِنْدَكَ الرُّكْنَ الرُّكِينِ
وَمِنَ الْكَاسِيْنَ فِيهِ الطَّاعِمِينَ^{١١}
وَانْقَضَى مَا كَانَ مِنْ خَفِضٍ وَلِينٍ
وَالْمَسَاكِينُ يَمْدُونُ الرَّنِينَ
دُوولَتِ نِعْمَاهُ بَيْنَ الْأَقْرَبِينَ
مِنْ بَنِيهِ سَيِّدٌ فِي (عَابِدِينَ)
فَقَرَّتْ الدَّهْرُ مِنْ دُنْيَا وَدِينٍ
أُمَّ مَصْرٍ مِنْ بَنَاتٍ وَبَنِينَ؟
دَوْلَةُ الرَّيْحَانِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ
وَيُقَالُ: الْحَرَمُ الْعَالِي الْمَصُونِ^{١٢}
(كَالْيَقِيْعِ) الطُّهْرُ ضَمَّ الطَّاهِرِينَ^{١٣}
إِنَّ فِيهَا غُرْفَةً لِلصَّابِرِينَ

هوامش

- (١) أخذت نعشك مصر باليمين: تعبير مقصود به القول إن مصر كلها أظهرت اهتماماً وعناية كبيرين في استقبال نعش الفقيدة. أمّا الشطر الثاني من البيت فهو كناية عن أن النعش كان يحوي ذخيرة من الذخائر المقدّسة، ومن أجل ذلك قام جبريل (عليه السلام) أمين الملائكة بحراسته حتى يسلم هذه الذخيرة لقومها يدًا بيد.
- (٢) النحر: موضع القلادة من الصدر. الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
- (٣) جارية: سفينة، وفي القرآن الكريم: ﴿وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام﴾.
- (٤) جؤجؤ السفينة: مقدمها، وسكانها: مؤخرها.
- (٥) مرمرة: بحر في بلاد الترك، يقول: إن هذه السفينة لم تحمل من شاطئ تلك البلاد نعش ميتة، وإنما حملت خلاصة السؤدد وجوهر الكنز الثمين.
- (٦) السنى، بالقصر: الضوء، وبالمد: الرفعة.
- (٧) نضته: خلعته. الآفلين: جمع آفل. والآفل للشموس: المغيّب.
- (٨) حالق الجبل: أعلاه، كأنه يقول: إن الموت ارتفاع عظيم.
- (٩) الدارين: جمع دارع، أي لابس الدرع.
- (١٠) العرين: مأوى الأسد. يقول كثير ممّن تحمل نعوشهم فوق المدافع لم يدافعوا عن الحق، ولم يمنعوا العدوان عن الحمى، فما دام هذا المظهر قد يناله في الدنيا غير مستحقه، فهو إذن ليس بذئى خطر، وليس بالذي يعتزُّ به حقيقة.
- (١١) بيبك: قصر الفقيدة في الآستانة، كان مصيفها كل عام. حاتم: اسم رجل يضرب به المثل في الكرم البالغ، فيقال: كرم حاتمي. وقد اشتهرت الفقيدة بالكرم، ومن أجل ذلك قيل لها أم المحسنين.
- (١٢) يشير هذا البيت على أن الفقيدة العظيمة كانت أم خديو وزوجة خديو.
- (١٣) العفيفي: علم على الموضع الذي أقيم فيه مدفن الفقيدة بجوار مدفن قرينها.

الدكتور أحمد فؤاد^١

دارُ مَرَزَتْ بها على (قَيْسونا)^١
دنيا تَغُرُّ السَّادِرَ المَفْتُونَا
وَأَقْلَّ رَفَرَفَهَا الخُطُوبَ العُونَا^٢
من كُلِّ نَاحِيَةٍ تَثُورُ شُجُونَا
شَرَكًا لَصِيدٍ مَّارِبٍ وَكَمِينَا
عن أَنْ تَضُمَّ ضَلَالَةً وَمُجُونَا^٣
كَالفَجَرِ تَغْرًا، وَالصَّبَاحِ جَبِينَا^٤
مَرَضَى (بَعِيسَى الرُّوحِ) يَسْتَشْفُونَا
لِلنَّشْءِ يَنْطِقُ فِي السَّكُوتِ مُبِينَا
وَتَخَالُهُنَّ مِنَ الخُشُوعِ سُكُونَا
أَدَوَاؤُهُمْ، وَتَغَيَّبَ الشَّافُونَا^٥
وَلَرَبِّمَا بَذَلَ الدَّوَاءَ مُعِينَا
تَكْسُو الْفَقِيرَ، وَتُطْعِمُ الْمِسْكِينَا
حَمَلَ الصَّدَاقَةَ وَافِيَا وَأَمِينَا

أَوْحَتْ لَطَرَفِكَ فَاسْتَهْلَ شُتُونَا
غَاضَتْ بِشَاشَتُهَا، وَفَضَّتْ شَمْلَهَا
نَزَلَتْ عَوَادِي الدَّهْرِ فِي سَاحَاتِهَا
فَتَكَادُ مِنْ أَسْفٍ عَلَى أَسَى الْجَمَى
تلك (الْعِيَادَةُ) لَمْ تَكُنْ عَبَثًا، وَلَا
دَارُ (ابْنِ سَيْنَا) نَزَّهَتْ حُجْرَاتُهَا
خَبَّتِ الْمَطَالِعُ مِنْ أَغْرٍ مُؤَمَّلٍ
وَمِنْ الْوُفُودِ، كَأَنَّهُمْ مِنْ حَوْلِهِ
مَثَلُ تَصَوُّرٍ مِنْ حَيَاةٍ حَرَّةٍ
لَمْ تُحْصَ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا حَرَكَاتُهُ
جَمَحَتْ جِرَاحُ الْمُعَوِّزِينَ، وَأَعْضَلَتْ
مَاتَ الْجَوَادُ بِطَبِّهِ وَبَأَجْرِهِ
وَتَجَسَّ رَاحَتُهُ الْعَلِيلَ، وَتَارَةً
أَدَّى أَمَانَةَ عِلْمِهِ، وَلَطَالَمَا

^١ كان الدكتور أحمد فؤاد مثلاً نادراً من أمثلة حسن الخلق، ونابهة من نوابغ الطب المعدودين، وقد توفي سنة ١٩٣١.

بأبيه، أو يَصِل القِرَابَة حِينَا
خُلِقَا عَلَيْهِ وَلَا تُصَادِف دِينَا
قُمْ دَاوِ فِيكَ فَوَادِي المَحْزُونَا
حَيْرَانٌ طَارَ بَلْبُهُ النَاعُونَا
ظَنَّ الْمُدْلَّةُ بالقَضَاءِ ظُنُونَا^٦
وَنَسِيتَ دَاءً فِي الضَّلُوعِ دَفِينَا
فَحَمَلْتِ هَمَّ الْمُسْلِمِينَ سِنِينَا
وَتَذَوَّبَ لِلْوَطَنِ الْكَرِيمِ حَنِينَا
فَنَصَرْتِ خُلُقًا فِي الشَّبَابِ مَتِينَا^٧
وَرَوَّاعُ الإِقْدَامِ فِي الْعِشْرِينَا
حُمُسُ الدَّعَاةِ وَطَاطَنُوا الْعَرِينَا^٨
وَاعْطَفُ عَلَى يَعْقُوبَ فِيهِ حَزِينَا^٩
أَيْشَقُ جَبِيًّا، أَمْ يَشَقُّ وَتِينَا؟^{١٠}
وَقَضَّوْا بِعَائِلِهِ، فَمَالَ غَبِينَا^{١١}
بَهَجًا يَزْفُ الْوَرْدَ وَالنَّسْرِينَا؟
حَتَّى يُهَيِّبَ الصُّبْحُ بِالسَّارِينَا
فَتَرَدَّ شَيْخًا أَوْ تَمَجَّ جَنِينَا
لَمْ أُنْسَ رَفَقَ بَنَانِهَا وَاللَّيْنَا؟^{١٢}
تُومِي بِرَاحٍ، أَوْ تُجِيلُ عَيُونَا
لَوْلَا اعْتِنَاؤُكَ لَمْ تَكُنْ لِتَهُونَا
مَا كَانَ آسَ بِالشِّفَاءِ ضَمِينَا
فِي مَأْتَمٍ أَبْكِي مَعَ الْبَاكِينَا
وَيُرِي الْمَرِيضَ مَصَارِعَ الْآسِينَا!!^{١٣}

وَقَضَى حَقُوقَ الْأَهْلِ، يُحَسِّنُ تَارَةً
خُلِقَ وَدِينٌ فِي زَمَانٍ لَا تَرَى
أُمْدَاوِي الْأَرْوَاحِ قَبْلَ جُسُومِهَا
رُوحٌ بِلَفْظِكَ كُلِّ رُوحٍ مُعَذِّبٌ
قَدْ كَالُ لِلْقَدَرِ الْعِتَابَ، وَرُبَّمَا
دَاوَيْتَ كُلَّ مُحِطَّمٍ فَشَفِيتُهُ
كَبِدٌ عَلَى دِمَهِهَا أَتَكَّاتٌ وَلَحْمِهَا
ظَلَّتْ وَرَاءَ الْحَرْبِ تَشْقَى بِالنَّوَى
نَاصَرَتْ فِي فَجْرِ الْقَضِيَّةِ (مُصْطَفَى)
أَقْدَمْتَ فِي الْعِشْرِينَ تَحْتَ لَوَائِهِ
لَمْ تَبْغِ دُنْيَا طَالَمَا أَغْضَى لَهَا
رُحْمَاكَ (يُوسُفُ) قِفْ رِكَابَكَ سَاعَةً
لَمْ يَدْرِ خَلْفَ النَعِيشِ مِنْ حَرِّ الْجَوَى
سَارُوا بِمُهِجَتِهِ، فَحَمَلَتْ ثُكُلَهَا
أَتَعُودُ فِي رَكْبِ الرَّبِيعِ إِذَا انْتَنَى
هَيْهَاتَ مِنْ سَفَرِ الْمَنِيَّةِ أَوْبَةً
وَيَقَالُ لِلْأَرْضِ الْفَضَاءِ: تَمَخَّضِي
اللَّهُ أَبْقَى! أَيْنَ مِنْ جَسَدِي يَدُ
حَتَّى تَمَثَّلَتْ الْعِنَايَةُ صُورَةً
فَجَرَرَتْ جُثْمَانِي، وَهَانَتْ كُرْبَةً
إِنَّ الشِّفَاءَ مِنَ الْحَيَاةِ وَعَوْنَهَا
وَالْيَوْمَ أَرْتَجِلُ الرِّثَاءَ، وَأَنْزَوِي
سَبْحَانَ مَنْ يَرِثُ الطَّبِيبَ وَطِبَّهُ

هوامش

- (١) قيسون: علم على مسجد بهذا الاسم في شارع محمد علي بالقاهرة كانت دار الفقيد قريبة منه، الشئون: الدموع. يقول: إن المرور على هذه الدار يجعل العين تفيض دمعاً؛ حزناً لما أصاب تلك الدار من الخمول بعد النباهة، والسكون بعد الحركة، والوجوم بعد الطلاقة والسرور، وهذا لفقد صاحبها طبعاً.
- (٢) أقل: حمل. الرفوف: شيء مثل الطاق يجعل عليه طرائف البيت. العون: جمع عوان. الخطوب العون: أي التي نزلت مرة قبل هذه. يريد أن هذه الدار قد عرفت عوائق الدهر وخطوبه قبل هذا الخطب الأخير الذي حلَّ بها.
- (٣) يشبّه الفقيد في الطب والأمانة للعلم بابن سينا.
- (٤) خبت المطالع: انطفأ نورها.
- (٥) أدواء: جمع داء.
- (٦) المدله: الذي ذهب فؤاده من همٍّ وعشق ونحوه.
- (٧) يشير إلى أنه كان من الأنصار الكبار للزعيم مصطفى كامل باشا.
- (٨) حمس: جمع حمس، بكسر الميم، أو أحمس، وهو الصلب في القتال والعقيدة، والحمس: لقب لقريش، ومن تابعهم في الجاهلية لتحمسهم والتجائهم للحمساء، أي الكعبة، العرنين: الأنف.
- (٩) يشبّه الفقيد (عليه السلام)، ليمهد لتشبيهه أبيه بسيدنا يعقوب (عليه السلام) في صبره على فراق ابنه ومحنته.
- (١٠) الوتين: عرق في القلب إذا قطع مات صاحبه.
- (١١) المهجة: تطلق على الدم وعلى الروح، يقال: خرجت مهجته، أي روحه.
- (١٢) يشير: إلى أن الفقيد كان أحد أطبائه الذين تمثلت عناية الله به في عنايتهم بعلاجه واعتنائهم بشفاؤه.
- (١٣) الآسينا: جمع آسي، وهو الطبيب.

نجل إمام اليمن^١

مضى الدهرُ بآبِنِ إِمَامِ الْيَمَنِ
وبَاءَتْ بِصَنَعَاءَ تَبْكِي السِّیُوفُ
وَأَعُولَ نَجْدٍ، وَضَجَّ الْحِجَازُ
وَعَصَّتْ مَنَاحَاتُهُ فِي الْخِيَامِ
وَلَوْ أَنَّ مَيِّتًا مَشَى لِلْعِزَاءِ
فَتَّى كَاسِمِهِ كَانَ سِیْفَ الْإِلَهِ
وُلُقِبَ بِالْبَدْرِ مِنْ حُسْنِهِ
عِزَاءً جَمِیلًا إِمَامَ الْحِمَى
وَأَنْتَ الْمُعَانُ بِإِيْمَانِهِ
وَلَكِنْ مَتَى رَقَّ قَلْبُ الْقِضَاءِ؟
يَجَامِلُكَ الْعَرَبُ النَّازِحُونَ
وَيَجْمَعُ قَوْمَكَ بِالْمُسْلِمِينَ
وَأَنَّ نَبِيَّهِمْ وَاحِدٌ
وَمَصْرُ التِّي تَجْمَعُ الْمُسْلِمِينَ

وَأَوْدَى بِزَيْنِ شَبَابِ الزَّمَنِ
عَلَيْهِ، وَتَبْكِي الْقَنَا فِي عَدَنِ^١
وَمَالَ الْحُسَيْنِ، فَعَزَّ الْحَسَنُ
وَعَصَّتْ مَاتَمُهُ فِي الْمُدُنِ
مَشَى فِي مَاتَمِهِ ذُو يَزَنِ^٢
وَسِیْفَ الرِّسُولِ، وَسِیْفَ الْوَطَنِ
وَمَا الْبَدْرُ؟ مَا قَدْرُهُ؟ وَابْنُ مَنْ؟
وَهُوَّ جَلِيلُ الرِّزَايَا يَهْنُ
وَضَنُّكَ فِي اللَّهِ ظَنُّ حَسَنِ
وَمَنْ أَيْنَ لِلْمَوْتِ عَقْلٌ يَزِنُ؟
وَمَا الْعَرَبِيَّةُ إِلَّا وَطَنُ
عَظِيمِ الْفُرُوضِ وَسَمْحِ السَّنَنِ
نَبِيِّ الصَّوَابِ، نَبِيِّ اللَّسَنِ
كَمَا اجْتَمَعُوا فِي ظِلَالِ الرُّكْنِ^٢

^١ هو الأمير سيف نجل الإمام يحيى، وقد توفي غرقاً وهو يحاول إنقاذ رفيق له من الغرق سنة ١٩٣٣.

وتأخذ حصَّتها في الحَزَن
وتبكيه بالعبرات الهُتَن
من الشَّعرِ في رِبَواتِ اليمَن
رفيفَ الجنَى في أعالي الغُصن
فتى خالص السَّر، صافي العَلن
عراضِ الأواسي طَوَالِ القُنن؛
ولا في الدُّروع، ولا في الجُنن°
وكنا عهدناك غِمْدَ السُّفن؟
فكيف أُزِيل؟ ولمَّ لمَّ يُصَن؟
من الشرفِ العبقريِّ اليُمَن
إليك، وأعطى الترابَ البدن
ولولا حقوقُ العُلا لم تَهَن
وكان القضاء له قد كَمَن
وَحُنْتَ امرأً وافيًا لم يَحُن
ولا مدَّ عمرَ الجبان الجُبُن
قضى، ويَعيش إذا لم يَحِن^٦
أبو السُّجَرِ الرِّمَاحِ اللَّدُن
أحقَّ به من ترابِ اليمَن
وفي كلِّ قلبٍ حزينٍ سكن؟
وأغرقتَ أبناءَه باليمن
وإذ هو كالخِشْفِ (حُلُو) أغن؟^٧
وطيبُ الرياضِ، وصَفُو الزَمَن؟
ونَغَمَّتْهُ لَذَّةٌ في الآن؟
كما لاعبَ المَهْرُ فضلَ الرِّسَن؟
أدلَّ بِمِخْلَبِهِ وافَتَّتَن؟^٨
يَشُبُّ الحروبَ، ويُطْفِئُ الفِتَن؟^٩
وأمسى عَفَاءً كأنَّ لم يَكُن؟
وفصَّلَتْها بالأسَى والشَّجَن

تُعزِّي اليمَانينَ في سَيْفِهِم
وتَقْعُدُ في مَأْتَمِ ابنِ الإمامِ
وتَنشُرُ رِيحَانَتِي زَنْبِقَ
تَرْقَانِ فوقَ رُفَاتِ الفَقِيدِ
قَضَى واجبًا، فَقَضَى دُونَهُ
تَطَوَّحَ في لُجَجِ كالجبالِ
مَشَى مَشْيَةَ اللَّيْثِ، لا في السلاحِ
متى صِرْتَ يا بحرُ غَمْدِ السِّوْفِ
وكنْتَ صِوَانِ الجُمانِ الكريمِ
ظَفِرْتَ بِجَوْهَرَةٍ فَذَّةٍ
فتى بَذَلَ الروحَ دُونَ الرِّفَاقِ
وهانتَ عليه مَلاهي الشَّبابِ
وخاضَكَ يُنْقِذُ أَتْرَابَهُ
غَدَرْتَ فتى ليس في الغادرينَ وما
في الشَّجَاعَةِ حَتْفُ الشَّجَاعِ
ولكن إذا حَانَ حَيْنُ الفتى
ألا أَيُّهَذَا الشَّرِيفُ الرِّضِيِّ
شَهِيدُ المُرُوءَةِ كانَ البَقِيعُ
فهل غَسَلُوهُ بدمعِ العُفَاةِ
لقد أَغْرَقَ ابْنَكَ صَرْفُ الزَّمانِ
أَتَذَكُرُ إذ هو يَطْوِي الشُّهُورَ
وإذ هو حَوْلَكَ حَسَنُ القُصورِ
بشاشَتِهِ لَذَّةٌ في العيونِ
يلَاعِبُ طُرَّتَهُ في يَدَيْكَ
وإذ هو كالشَّبلِ يَحْكِي الأَسْوَدَ
فَشَبَّ، فقامَ وراءَ العَرِينِ
فما باله صارَ في الهامدينِ
نَظَّمْتُ الدَّمُوعَ رِثَاءً لَهُ

هوامش

- (١) صنعاء: حاضرة اليمن، عدن: إحدى المواني هناك، وهي على خليج عدن المشهور.
- (٢) ذو يزن: أحد أقيال اليمن الأقدمين، ولشجاعة هذا الملك في استرداد عرض أبيه وأجداده أضيفت إليه أساطير كثيرة.
- (٣) يريد بالركن: الكعبة.
- (٤) القنن: جمع قنة، وهي رأس الجبل. الأواسي من البناء: الدعائم.
- (٥) الجنن: جمع جنة، بالضم، وهي ما استترت به من سلاح ودروع ونحو ذلك.
- (٦) الحين: الأجل.
- (٧) الخشف (مثلثة الخاء): الظبي، الأغن: الذي يخرج صوته من خياشيمه وهذا كناية عن ميعة الشباب.
- (٨) الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد.. أدل بمخلبه: أي تباهى به وتخايل على أقرانه.
- (٩) العرين: بيت الأسد. يشبُّ الحروب: يوقدها.

عبد الله بك الطوير^١

ماذا صَنَعْتَ بعهدِ (عبدِ الله)؟
وَحَفَقْتَ حَفَقَةً مُوجِعَةً أَوَاهُ^١
لهوى بك الركنُ الضعيفُ الواهي
وعليك من حُسن التجلُّدِ ناه
تهوي المكارمُ نحوها بشفاه
مَوطوءَةً بمفارقٍ وجباه
فيها؛ لفاضت من جَنَى ومياه^٢
من آل طُهرٍ عارِفٍ بالله
في المُقسطينَ الجِلَّةِ الأَنزاه^٣
كذبِ النعيمِ، وتُرَّهاتِ الجاه
بودادٍ لا صَليفٍ، ولا تِيَّاه^٤
من كلِّ (جائِلَةٍ) على الأفواه
في منزلٍ بَهجٍ بنوركِ زاه
بفتاه في مدحِ الرسولِ مُباه^٥

يا قلبُ، ويَحَكَ والمودَّةُ ذِمَّةُ
جاذبتني جنبي عَشِيَّةَ نَعِيهِ
وَلَوْ أَنَّ قَلْبًا ذَابَ إِثْرَ حَبِيبِهِ
فعليك من حُسن المروءَةِ أَمْرُ
نزل «الطَوِيرُ» في الترابِ منازلًا
عَرَصَاتُهَا مَمْطُورَةٌ بمدامعِ
لولا يمينُ الموتِ فوقَ يمينه
يا كابرًا من كابرين، وطاهرًا
وَمُحَكِّمًا عَلمَ القضاءِ مكانه
وحكيماً اسْتَعَصَتْ أَعْنَتُهُ على
وَأَخًا سَقَى الإِخْوَانَ مِنْ (راووقه)
قد كان شعري شغلَ نَفْسِكَ، فاقترح
أُنزِلْتَ منه حينَ فَاتَكَ جَمْعُهُ
فاقرأ على «حَسَّانٍ» منه، لعله

^١ المرحوم عبد الله بك الطوير، كان أحد رجال القانون في مصر، وقد توفي سنة ١٩١٥.

وانزل بنور الخلدِ جدّك، واتّصلْ بملائكٍ من آلهِ أشباه^٦
 ناعيكَ ناعي حاتمٍ أو جعفرٍ فالناسُ بين نوازلٍ ودواهٍ^٧

هوامش

- (١) خفق القلب: اضطرب في موضعه. الأَوَاه: كثير التأوه. وفي القرآن الكريم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.
- (٢) اليمين: يراد بها هنا القوة. الجني: الثمار.
- (٣) المقسطين: أي العادلين. الجلة (بكسر الجيم): قوم ساعدة عظماء ذوو أخطار. الأئزاه: جمع نزه: وهو العفيف المتكرم.
- (٤) الراووق: المصفاة، كالباطية ونحوها من الآنية التي يوضع فيها المشروب. الصلف: مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً.
- (٥) حسان: هو ابن ثابت، شاعر الرسول صلوات الله عليه.
- (٦) جدك: منصوب على نزاع الخافض، أي انزل على جدك، وكان الفقيد منسوباً لآل البيت النبوي.
- (٧) حاتم: هو الطائي المشهور بالكرم. جعفر: لعله يقصد به جعفر البرمكي، أو عبد الله ابن جعفر أحد أجواد العرب في العصر الأموي، والمقصود تشبيهه الفقيد في كرمه بهذين الرجلين اللذين ضرب المثل بكرمهما.

سعد باشا زغلول^١

شَيَّعُوا الشَّمْسَ وَمَالُوا بِضَحَايَا
لَيْتَنِي فِي الرِّكْبِ لَمَّا أَفْلَتَ
جَلَّلَ الصَّبْحَ سَوَادًا يَوْمُهَا
انْظُرُوا تَلَقَّوْا عَلَيْهَا شَفَقًا
وَتَرَوْا بَيْنَ يَدَيْهَا عَبْرَةً
أَذِنَ الْحَقُّ ضَحَايَاهَا بِهَا
كَفَّنُوهَا حُرَّةً عُلوِيَّةً
مِصْرُ فِي أَكْفَانِهَا إِلَّا الْهَدَى
خَطَرَ النِّعَشِ عَلَى الْأَرْضِ بِهَا
جَاءَهَا الْحَقُّ، وَمِنْ عَادَتِهَا
مَا دَرْتُ مِصْرُ: بِدَفْنِ صُبِّحَتْ
صَرَخَتْ تَحْسِبُهَا بِنْتُ الشَّرَى
وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمَّا نَسَلُوا
وَضَعُوا الرَّاحَ عَلَى النِّعَشِ كَمَا

وَانْحَنِي الشَّرْقُ عَلَيْهَا فَبَكَاهَا
(يُوشَعُ)، هَمَّتْ، فَنَادَى، فَثَنَاهَا^١
فَكَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَخْلَعْ دُجَاهَا^٢
مِنْ جِرَاحَاتِ الضَّحَايَا وَدِمَاهَا
مِنْ شَهِيدٍ يَقْطُرُ الْوَرْدَ شَذَاهَا
وَيُحِّه!! حَتَّى إِلَى الْمَوْتِ نَعَاهَا
كَسَتْ الْمَوْتَ جَلَالًا، وَكَسَاهَا
لَحْمَةً الْأَكْفَانِ حَقٌّ وَسُدَاهَا^٣
يَحْسِرُ الْأَبْصَارُ فِي النِّعَشِ سَنَاهَا^٤
تَوَثَّرَ الْحَقُّ سَبِيلًا وَاتَّجَاهَا^٥
أَمْ عَلَى الْبُعْثِ أَفَاقَتْ مِنْ كَرَاهَا؟
طَلَبَتْ مِنْ مِخْلَبِ الْمَوْتِ أَبَاهَا^٦
شُعْبُ السَّيْلِ طَغَتْ فِي مُلْتَقَاهَا
يَلْمَسُونَ الرُّكْنَ فَارْتَدَّتْ نَزَاهَا

^١ زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧.

و(بسعدٍ) رَفَعُوا أَمْسِ الْجِبَاهَا
 هل مَشَى الناعي عليها فمحاها؟^٧
 وَجَلَا عن ضِفَّةِ الوادي دُمَاهَا^٨
 وَإِلَى (الناقوس) قَامَتْ بَيْعَتَاهَا
 أَرْضُ (سوريا)، وَتَطْوِيهِ سَمَاهَا^٩
 كَعَوَايِ الثُّكُلِ فِي حَرِّ سُرَاهَا^{١٠}
 تَطَأُ الْأَذَانُ هَمْسًا وَالشَّفَاهَا
 كُلُّ نَفْسٍ فِي وَرِيدَيْهَا رَدَاهَا^{١١}
 شَبَحًا فِي خَطِّةٍ إِلَّا أَبَاهَا
 حَزَّ فِي سُوقِ الْأَوَالِي وَبَرَاهَا
 أَرْجُلُ الْأَحْرَارِ فِيهِ فَعَفَاهَا
 كَلَّلَتْ (عَدْنُ) بِهَا هَامَ رَبَاهَا^{١٢}
 وَحَيَاةً أَتَرَعَ الْأَرْضَ حَيَاهَا^{١٣}
 وَبَكَتْ أَنْظَمَةُ الشُّورَى صَوَاهَا^{١٤}
 رَايَةً كُنْتُ مِنَ الذَّلِّ فِدَاهَا
 وَتَلَقَّى السَّهْمَ عَنْهَا فَوْقَاهَا
 كَيْفَ يَحْمِي الْأَعْزَلُ الشَّيْخُ جِمَاهَا؟
 مِنْ أَوَاسِيهَا وَجَفَّتْ مِنْ ذُرَاهَا
 وَدَهَا الْفُصْحَى بِمَا أَلْجَمَ فَاها؟
 وَدَهَا الْأَجْبَالُ مِنْهُ مَا دَهَاها
 لَمَسَتْ جُرْثُومَةَ الْمَوْتِ يَدَاهَا
 مِنْ رَحِيقِ الْوُطَنِيَّاتِ سَقَاهَا
 سَاحِرَ رَنْ مَلَبًّا فَشْجَاهَا
 وَأَذَانُ عَشِيقَتِهِ أَذْنَاهَا
 كَالْمَزَامِيرِ وَأَنْغَامِ لُغَاهَا
 فَلَوَاتٍ دَلَّهَتْ وَحُشَّ فَلَها
 أَنْفَذَتْ فِيهِ الْمَقَادِيرُ مُنَاهَا

خَفَضُوا فِي يَوْمِ (سَعْدٍ) هَامَهُمْ
 سَأَلُوا «رُحْلَةً» عَنْ أَعْرَاسِهَا
 عَطَّلَ الْمُصْطَافَ مِنْ سُمَارِهِ
 فَتَحَ الْأَبْوَابَ لَيْلًا (دَيْرُهَا)
 صَدَعَ الْبَرْقُ الدُّجَى، تَنْشُرُهُ
 يَحْمِلُ الْأَنْبَاءَ تَسْرِي مَوْهِنًا
 عَرَضَ الشُّكُّ لَهَا فَاضْطَرَبَتْ
 قَلْتُ: يَا قَوْمِ اجْمَعُوا أَحْلَامَكُمْ
 يَا عَدُوَّ الْقَيْدِ لِمَ يَلْمَخُ لَهُ
 لَا يَضِيقُ ذَرْعَكَ بِالْقَيْدِ الَّذِي
 وَقَعَ الرُّسْلُ عَلَيْهِ، وَالْتَوَتْ
 يَا رُفَاتًا مِثْلَ رِيحَانِ الضُّحَى
 وَبَقَايَا هَيْكَلٍ مِنْ كَرَمٍ
 وَدَعَّ الْعَدْلُ بِهَا أَعْلَامَهُ
 حَضَنْتُ نَعَشَكَ، وَالتَفَّتْ بِهِ
 ضَمَّتَ الصَّدْرَ الَّذِي قَدْ ضَمَّهَا
 عَجَبِي مِنْهَا وَمَنْ قَائِدُهَا!!
 مِنْبَرُ الْوَادِي ذَوَتْ أَعْوَادَهُ
 مَنْ رَمَى الْفَارَسَ عَنْ صَهْوَتِهَا
 قَدَّرَ بِالْمُذْنِ أَلْوَى وَالْقَرَى
 غَالِ (بَسْطُورًا) وَأَرْدَى عُصْبَةً
 طَافَتْ الْكَأْسُ بِسَاقِي أُمَّةٍ
 عَطِلَتْ أَذَانُهَا مِنْ وَتَرٍ
 أَرْغَنُ هَامَ بِهِ وَجَدَانُهَا
 كُلُّ يَوْمٍ خُطْبَةٌ رُوحِيَّةٌ
 دَلَّهَتْ مَصْرًا، وَلَوْ أَنَّ بِهَا
 نَائِدُ الْحَقِّ وَحَامِي حَوْضِهِ

تَأْخُذُ الْأَسَادَ مِنْ أَصْلِ شَرَاهَا
 سَلَمْتُ مِنْهَا الثُّرَيَّا وَسُهَاهَا
 عَلَّةُ الدَّهْرِ الَّتِي أَعْيَا دَوَاهَا
 لَمْ يَنْلُ أَقْرَانَهُ إِلَّا وَجَاهَا
 وَلِسَانًا، وَرُقَادًا، وَانْتِبَاهَا
 يَهْدُ خُفَاهَا، وَلَمْ يَعْرِ مَطَاهَا
 لَمْ يَفُتْ حَيًّا نَصِيبٌ مِنْ خُطَاهَا^{١٥}
 وَالْحَيَاتِينَ: شَقَاءً، وَرَفَاهَا
 عَرَفَ الضُّفَّةَ إِلَّا مَا تَلَاهَا
 فَإِذَا خَفَّ بِهَا يَوْمًا شَفَاهَا
 أُمَّةٌ مِنْ صَخْرَةِ الْحَقِّ بَنَاهَا
 وَإِبَاءٌ هُوَ فِي صُمِّ صَفَاهَا
 وَاسْتَقَى الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ فَتَاهَا
 وَعَلَى قَائِدِهَا أَلْقَتْ رَجَاهَا
 وَابْتَلَتْهُ بِحَقُوقِ فَقْضَاهَا
 غُرْبَةَ الْأَسْرِ، وَوَعَثَاءَ نَوَاهَا^{١٦}
 مَنْزِلَ أَقْرَبُ مِنْهُ قُطْبَاهَا
 دَفَعَ النَّسْرَ إِلَيْهَا فَأَوَاهَا
 دُرَّةٌ فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ نَفَاهَا
 لِمَ لَمْ يَنْفِ مِنَ الدُّرِّ سَوَاهَا؟
 بِحَيَاتِي مَا جِدَّ حُرٌّ نَمَاهَا
 يَلِدُ الزَّهْرَاءُ يَزْهَدُ فِي سَوَاهَا
 بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَمَا جَتْ بَلْبَاهَا^{١٧}
 وَقَضَى الْخَيْرَ لِمِصْرِ فِي جَنَاهَا
 بِالْدمِ الْحَرِّ، وَيَرْفَعُ مُنْتَدَاهَا؟^{١٨}
 صَدْرُهَا حَقٌّ وَحَقُّ مُنْتَهَاهَا
 فِي سِيلِ الْحَقِّ لَمْ تَخْمَدْ جُذَاهَا

أَخَذَتْ (سعداً) مِنَ (البيت) يَدُ
 لَوْ أَصَابَتْ غَيْرَ ذِي رُوحٍ لَمَّا
 تَتَحَدَّى الطَّبَّ فِي قَفَازِهَا
 مِنْ وَرَاءِ الْإِذْنِ نَالَتْ ضَيْغَمًا
 لَمْ تَصَارِخْ أَصْرَحَ النَّاسِ يَدًا
 هَذِهِ الْأَعْوَادُ مِنْ آدَمَ لَمْ
 نَقْلَتْ (خُوفُو)، وَمَالَتْ (بِمِنَا)
 تَخْلِطُ الْعُمُرِينَ: شَيْبًا، وَصَبًّا
 زُورُقٌ فِي الدَّمْعِ يَطْفُو أَبَدًا
 تَهْلَعُ التُّكْلَى عَلَى آثَارِهِ
 تَسْكُبُ الدَّمْعَ عَلَى (سَعْدٍ) دَمًا
 مِنْ لَيَانٍ هُوَ فِي يَنْبُوعِهَا
 لُقِّنَ الْحَقَّ عَلَيْهِ كَهْلُهَا
 بِذَلِكَ مَالًا، وَأَمْنًا، وَدَمًا
 حَمَلَتْهُ زِمَّةٌ أَوْفَى بِهَا
 ابْنُ سَبْعِينَ تَلَقَّى دُونَهَا
 سَفَرٌ مِنْ عَدَنَ الْأَرْضِ، إِلَى
 قَاهِرُ أَلْقَى بِهِ فِي صَخْرَةٍ
 كَرِهَتْ مَنْزِلَهَا فِي تَاجِهِ
 اسْأَلُوهَا، واسْأَلُوا شَانِيَّهَا
 وَلَدَ الثُّورَةَ سَعْدُ حُرَّةٌ
 مَا تَمْنَى غَيْرَهَا نَسْلًا، وَمَنْ
 سَالَتِ الْغَابَةَ مِنْ أَشْبَالِهَا
 بَارَكَ اللَّهُ لَهَا فِي فِرْعِهَا
 أَوْ لَمْ يَكْتُبْ لَهَا دُسْتُورَهَا
 قَدْ كَتَبْتَاهَا، فَكَانَتْ صُورَةً
 رَقْدَ الثَّنَائِرِ إِلَّا ثُورَةً

رَاحَتَيْهِ، وَفَتِيًّا فَرَعَاهَا^{١٩}
وَلِسَانًا كُلَّمَا أَعْيَتْ حَدَاهَا^{٢٠}
فَتَلَقَّى أَوَّلَ النَّاسِ لَهَا
قَذَفَتْ فِي وَجْهِ (فَرْعُونَ) عَصَاهَا؟^{٢١}
شَاءَ وَجْهُ الرُّقْ - يَا قَوْمَ - وَشَاهَا^{٢٢}
ظَافِرِ الْأَيَّامِ مَنُصُورِ لَوَاهَا
وَسِيُوفِ الْهَنْدِ لَمْ تَصُحْ ظُبَاهَا
كَنْتُ بِالْأَمْسِ بَعِينِي أَرَاهَا؟
وَتَوَاصَى بِشَرْهَا بِي وَنَدَاهَا
وَأَذْكَارُ النَّفْسِ شَيْءٌ مِنْ وَفَاهَا؟
مِنْ وَرَاءِ السَّنِّ تِمَثَالِ صِبَاهَا
عَلَتْ الشَّيْبَ، أَمْ الشَّيْبُ عَلَاهَا؟
فَتَدَاعَى وَهِيَ مَوْفُورٌ بِنَاهَا
مَزَحَتْ لَمْ يَذْهَبِ الْمَرْحُ بِهَا
وَيَنَالُ الْوُدَّ غَايَاتِ رِضَاهَا
يُشَبِّهُ السَّفْحَ، وَجِلْمٌ عَنْ عِدَاهَا
تَأْخُذُ النَّفْسَ وَتَجْرِي فِي هَوَاهَا
جَدًّا لِلصَّبِّ حَنِينٌ فَرَوَاهَا
لِلسَّمَكِ الْأَعْزَلِ اخْتَالَ وَتَاهَا^{٢٣}
سَمْتُهُ أَنْ يَرِثِي الشَّمْسَ رَثَاهَا؟
فِي الْمَرَاثِي فَكَبَا دُونَ مَدَاهَا
أَنْعَمَ الدُّنْيَا فَلَمْ تَنْسَ تَقَاهَا
بِالْمَقَادِيرِ، وَلَا الْعِلْمُ زَهَا
خَالِصًا مِنْ حَيْرَةِ الشَّكِّ هُدَاهَا
مِنْ وَرَاءِ الْعَالَمِ الْفَانِي إِلَهَا
لَيْتَهُ يَوْمَ «وَصَيْفٍ» مَا دَعَاهَا^{٢٤}

قَدْ تَوَلَّاهَا صَبِيًّا فَكَوَتْ
جَالَ فِيهَا قَلَمًا مُسْتَنْهَضًا
وَرَمَى بِالنَّفْسِ فِي بُرْكَانِهَا
أَعْلِمْتُمْ بَعْدَ (مُوسَى) مِنْ يَدِ
وَطَلَّتْ نَادِبَةً صَارَخَةً
ظَفِرَتْ بِالْكِبَرِ مِنْ مُسْتَكْبِرِ
الْقَنَا الصُّمِّ نَشَاوَى حَوْلَهُ
أَيْنَ مِنْ عَيْنِي نَفْسُ حُرَّةٍ
كُلَّمَا أَقْبَلْتَ هَزَّتْ نَفْسَهَا
وَجَرَى الْمَاضِي، فَمَاذَا ادَّكَّرْتَ
أَلْمَحُ الْأَيَّامَ فِيهَا، وَأَرَى
لَسْتُ أَدْرِي حِينَ تَنْدَى نَضْرَةً
حَلَّتِ السَّبْعُونَ فِي هَيْكَلِهَا
رَوْعَةُ النَّادِي إِذَا جَدَّتْ، فَإِنْ
يُظْفَرُ الْعُذْرُ بِأَقْصَى سُخْطِهَا
وَلَهَا صَبْرٌ عَلَى حُسَادِهَا
لَسْتُ أَنْسَى صَفْحَةً ضَاحِكَةً
وَحَدِيثًا كَرَوَايَاتِ الْهَوَى
وَقِنَاءَةً صَعْدَةً لَوْ وَهَبْتُ
أَيْنَ مِنِّْي قَلَمٌ كُنْتُ إِذَا
خَانَنِي فِي يَوْمِ (سَعْدٍ)، وَجَرَى
فِي نَعِيمِ اللَّهِ نَفْسٌ أُوتِيَتْ
لَا الْحِجَى لَمَّا تَنَاهَى غَرَّهَا
ذَهَبَتْ أَوَابَةً مُؤْمِنَةً
أَنْسَتْ خُلُقًا ضَعِيفًا وَرَأَتْ
مَا دَعَاهَا الْحَقُّ إِلَّا سَارَعَتْ

هوامش

(١) يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

(٢) جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

(٣) اللحمية: ما سدى به الثوب، السدى: ضد اللحمية.

(٤) يحسر الأبصار: أي يردّها كليله ضعيفة.

(٥) الحق الأول: يقصد به الموت. الحق الثاني: يقصد به العدل.

(٦) بنت الشرى: أنثى الأسد.

(٧) يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعي الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

(٨) السُّمار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في المساء. الضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى: جمع دمية. وهي الصورة يعملها المثل من الرخام.

(٩) صدع: شق وقطع.

(١٠) الموهن: نصف الليل، أو بعده بنحو ساعة.

(١١) الوريدان: مثني الوريد، أحد شرايين الجسم.

(١٢) عدن: الجنة. هام رباها، أي رءوس ربواتها. الربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

(١٣) أترع: ملأ. الحيا: المطر.

(١٤) الصوى: جمع صوة — بضم الصاد — وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة

يهتدى بها.

(١٥) خوفو. ومنا: من ملوك مصر الفراعنة.

(١٦) الوعناء: الطريق العسر، أو المشقة.

(١٧) اللبا: جمع لباة — كقطاة — وهي أنثى الأسد.

(١٨) المنتدى: البرلمان.

(١٩) يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العربية وهو في مقتبل شبابه.

(٢٠) أعيت: تعبت. حداها، من قولهم: حدا الإبل، أي ساقها وزجرها.

(٢١) إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن:

«تلقف ما يَأفكون».

(٢٢) شاه وجه الرق: أي قبح.

(٢٣) القناة: الرمح. الصعدة: هي التي نبتت مستوية، فلا تحتاج لتثقيف. السماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح؛ لأن أمامه كوكبًا صغيرًا يسمى رمح السماك ورايته، ويوصف الآخر بالأعزل، حيث لا يوجد أمامه شيء. يقول إن له قوامًا له منح للسماك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السماك الرامح.

(٢٤) وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيها ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

الشاعر الموسيقي فردى^١

مضى وَمَحَاسِنُهُ بِاقِيهِ
وَلَا مَلِكٌ لَمْ تَزِنِ نَادِيَهُ
وَلَمْ تَخُلْ مِنْ ذِكْرِهَا نَاحِيَهُ
بِقَافِيَةٍ يُنْطِقُ الْقَافِيَهُ
إِذَا ضَمَّ أَلْحَانَهُ الْغَالِيَهُ
عَلَى الْعُودِ نَاطِقَةً حَاكِيَهُ
وَتُفْشِي سَرِيرَتَهَا الْخَافِيَهُ
هِيَ الشَّمْسُ لَيْسَ لَهَا ثَانِيَهُ!
قُلْ: الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ مِنْ غَايِهِ
فَخَفَقَ الْحُلِيِّ عَلَى الْغَانِيهِ
و(عَيْدَا) شَبِيبَتُهَا زَاهِيَهُ^١
كَمَا هِيَ فِي الْأَعْصِرِ الْخَالِيهِ
وَنَنْشُدُ تِلْكَ الرُّؤَى السَّارِيهِ
وَنَنْدُبُ أَيَّامَنَا الْمَاضِيهِ

فَتَى الْعَقْلَ وَالنَّعْمَةَ الْعَالِيَهُ
فَلَا سُوقَةً لَمْ تَكُنْ أُنْسَهُ
وَلَمْ تَخُلْ مِنْ طَيِّبِهَا بَلَدَهُ
يَكَادُ إِذَا هُوَ غَنَّى الْوَرَى
يَتِيَّهُ عَلَى الْمَاسِ بَعْضُ النَّحَاسِ
وَتَحْكُمُ فِي النَّفْسِ أَوْتَارُهُ
وَتَبْلُغُ مَوْضِعَ أَوْتَارِهَا
وَكَمْ آيَةٍ فِي الْأَغَانِي لَه
إِذَا مَا تَنَادَى بِهَا الْعَارِفُونَ
فَإِنْ هَمَسُوا بَعْدَ جَهْرِ بِهَا
لَقَدْ شَابَ (فَرْدَى) وَجَازَ الْمَشِيبَ
تُمَثِّلُ مِصْرَ لِهَذَا الزَّمَانِ
وَنَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيَالِي بِهَا
وَنَبْكِي عَلَى عِزَّنَا الْمُنْقَضِي

^١ الشاعر الموسيقي فردى أحد أعلام إيطاليا العالميين، وقد توفي سنة ١٩٠١.

الشوقيات

فيا آل (فردى)، نُعزِّيْكُمْ ونبكي مع الأسرة الباكية
فَقَدْنَا بمفقودكم شاعراً يَقلُّ الزمانُ له راوِيه

هوامش

(١) عيداً: رواية تمثيلية للفقيد.

إسماعيل أباطة باشا^١

تَصْنُوعُ كَافُورًا مِنْ الْخُلْدِ سَارِيَا
كَأَنَّ ثَرَى (يُرْدِينَ) مَسَّ الْغَوَالِيَا^١
حَوَى السِّيفَ مَصْقُولَ الْغَرَارِ يَمَانِيَا^٢
فَلَمْ يُلَفَّ هَيَّابًا، وَلَمْ يُلَفَّ نَابِيَا^٣
تَأَخَّرَ عَنْهَا بَاطِلُ الْقَوْمِ ظَامِيَا
إِذَا بَطَشَتْ يَوْمًا، وَلَا الْمَالُ فَادِيَا
وَعِنْدَ جُفُوفِ الْعُودِ فِي السَّنِّ ذَاوِيَا
وَيَحْطُطُنَ فِي التُّرْبِ الْجِبَالِ الرُّوَاسِيَا
أَأَمَلْتُ عِنْدَ الرَّاحِلِينَ الْجَوَازِيَا؟
لَهُمْ، وَمِثَالًا قَدْ يُصَادِفُ حَازِيَا
وَجَدْتُ حَسُودًا لِلرُّفَاتِ وَشَانِيَا
فَلَسْتُ لِحَيٍّ حَافِظَ الْعَهْدِ رَاعِيَا
وَهَبُّهُ بَوَادٍ غَيْرِ وَادِيكَ نَائِيَا
وَإِنْ بَتُّمَا تَسْتَبْعِدَانِ التَّلَاقِيَا

سَقَى اللَّهُ (بِالْكَفْرِ الْأَبَاطِيِّ) مَضْجَعًا
يَطِيبُ ثَرَى (بُرْدِينَ) مِنْ نَفْحِ طَيْبِهِ
فِيَا لَكَ غَمْدًا مِنْ صَفِيحٍ وَجَنْدَلٍ
وَكُنَّا اسْتَلَكْنَا فِي النَوَائِبِ غَرْبَهُ
إِذَا اهْتَزَّ دُونَ الْحَقِّ يَحْمِي حِيَاضَهُ
طَوْتُهُ يَدٌ لِلْمَوْتِ، لَا الْجَاهُ عَاصِمًا
تَنَالُ صِبا الْأَعْمَارِ عِنْدَ رَفِيفِهِ
وَبَعْضُ الْمَنَايَا تُنْزَلُ الشَّهْدَ فِي الثَّرَى
يَقُولُونَ: يَرِثِي الرَّاحِلِينَ، فَوَيْحَهُمْ!
أَبُوءُ حَسَدًا أَنْ أَجْعَلَ الْحَيَّ أَسْوَةً
فَلَمَّا رَثَيْتُ الْمَيِّتَ أَقْضِي حَقُّوقَهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْعِ الْعَهْدَ لِهَالِكِ
فَلَا يَطْوِينَ الْمَوْتَ عَهْدَكَ مِنْ أَخٍ
أَقَامَ بِأَرْضٍ أَنْتَ لِأَقِيهِ عِنْدَهَا

^١ إسماعيل أباطة باشا: أحد سعاة الزعماء في البلاد المصرية، كان صاحب الصوت المتبوع في الجمعية التشريعية، وقد توفي سنة ١٩٢٧ بعد أن ترك خلفه تاريخاً حافلاً بالمواقف الوطنية المحمودة.

وَحَلَّيْتُ عَهْدًا بِالْمَفَاخِرِ حَالِيَا
مَشَايِخَ أَقْمَارًا، وَمُزْدًا دَرَارِيَا^١
أَظْلُ النَّدَى أَقْطَارَهَا وَالنَّوَاحِيَا
تَلَفُ التَّقَى فِي سَيِّبِهَا وَالْمَعَاصِيَا
وَلَا الصَّفْحَ تَوَابًا، وَلَا الْعَفْوَ رَاجِيَا
وَلَمْ تُلْهِهِ دُنْيَاؤُهُ وَهِيَ مَا هِيََا
لِحَاجِ الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ قَاضِيَا^٢
وَكُنْتُ تَقُومُ اللَّيْلَ بِالنَّفْسِ خَالِيَا
فَلَا يَصْنَعُ الْخَيْرَاتِ؛ لَمْ يُعْطَ غَالِيَا
تَلَفَتْ فِيهِ الْحَقُّ لَمْ يَلْقَ حَامِيَا^٣
— وَإِنْ جَلَّتْ الْأَخْلَاقُ — لِلْعِزِّ ثَانِيَا
وَقَدَّمَ كَافُورَ الْخَصِيِّ الطَّوَاشِيَا
وَأَنْزَلَهُ عَنِ رَتْبَةِ الشَّعْرِ هَاجِيَا
وَلَا هُوَ زُورُ الْمَدْحِ إِنْ كُنْتُ رَاضِيَا
حَمَلَتْ بِهِ الْمَصْبَاحُ فِي النَّاسِ هَادِيَا
تُضِيُّ عَلَى الْمَوْتَى الرَّجَامَ الدَّوَاخِيَا^٤
أَلَا إِنْ عَتَقَ الْخَمْرُ يُنْسِي الْأَوَانِيَا
مِنَ الذَّمِّ، مَحْمُودَ الْجَوَانِبِ، زَاكِيَا^٥
ذُنُوبًا، وَنَاسٍ يَخْلُقُونَ الْمَسَاوِيَا
فَلَمْ تَسْتَرْحِ حَتَّى نَشْرَنَاكَ مَاضِيَا^٦
وَكُنْتُ حَدِيثًا فِي الْمَسَامِعِ عَالِيَا
فَكَانَ عَجِيبًا أَنْ يَرَى النَّاسُ وَافِيَا
وَهَاجُوا لَنَا الذِّكْرَى، وَرَدُّوا اللَّيَالِيَا
مُلْجَبًا، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْجَقْدِ نَازِيَا^٧
عَرَفْتُ الْمُلَاحِي مِنْهُمْ، وَالْمُحَابِيَا
وَهَانَ مِمَّنِ الْأَحْدَاثِ مَا كَانَ آتِيَا^٨
سَدَلْنَا عَلَيْهِ صَفْحَنَا وَالتَّنَاسِيَا^٩

رَثَيْتُ حَيَاةً بِالثَّنَاءِ خَلِيقَةً
وَعَزَيْتُ بَيْتًا قَدْ تَبَارَتْ سَمَاؤُهُ
إِلَى اللَّهِ (إِسْمَاعِيلُ) وَانْزِلْ بِسَاحَةِ
تَرَى الرَّحْمَةَ الْكُبْرَى وَرَاءَ سَمَائِهَا
لَدَى مَلِكٍ لَا يَمْنَعُ الظِّلَّ لِإِثْدَا
وَأَقْسَمُ كُنْتُ الْمَرَّةَ لَمْ يَنْسَ دِينَهُ
وَكُنْتُ إِذَا الْحَاجَاتُ عَزَّ قَضَاؤُهَا
وَكُنْتُ تُصَلِّي بِالْمُلُوكِ جَمَاعَةً
وَمَنْ يُعْطَى مِنْ جَاهِ الْمُلُوكِ وَسِيلَةً
وَكُنْتُ الْجَرِيءُ النَّذْبُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ
بَصُرْتُ بِأَخْلَاقِ الرِّجَالِ فَلَمْ أَجِدْ
مِنَ الْعِزِّ مَا يُحْيِي فُحُولًا كَثِيرَةً
وَمَا حَطَّ مِنْ رَبِّ الْقِصَائِدِ مَادِحًا
فَلَيْسَ الْبَيَانُ الْهَجْوُ إِنْ كُنْتُ سَاخِطًا
وَلَكِنْ هُدَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَوَحْيُهُ
تُفِيضُ عَلَى الْأَحْيَاءِ نُورًا، وَتَارَةً
هِيََاكُلُ تَفَنَّى، وَالْبَيَانُ مُخْلَدٌ
ذَهَبَتْ (أَبَا عَبْدِ الْحَمِيدِ) مُبَرَّرَةً^{١٠}
قَلِيلَ الْمَسَاوِي فِي زَمَانٍ يَرَى الْعُلَا
طَوِينَاكَ كَالْمَاضِي تَلْقَاهُ غَمْدُهُ
فَكُنْتُ عَلَى الْأَفْوَاهِ سِيرَةً مُجَمِّلَةً
وَقَفَيْتُ لِمَنْ أَدْنَاكَ فِي الْمَلِكِ حَقِيقَةً
أَثَارُوا عَلَى آثَارِ مَوْتِكَ ضَجَّةً
وَمَنْ سَابَقَ التَّارِيخَ لَمْ يَأْمَنْ الْهَوَى
إِذَا وَضَعَ الْأَحْيَاءُ تَارِيخَ جِيلِهِمْ
إِذَا سَلَّمَ الدُّسْتُورُ هَانَ الَّذِي مَضَى
أَلَا كُلُّ ذَنْبٍ لِّلْيَالِي لِأَجَلِهِ

هوامش

- (١) بردين: قرية الفقيد، وهي من أعمال مديرية الشرقية. الغوالي جمع غالية، وهي المسك.
- (٢) الغرار من السيف: حده.
- (٣) غرب السيف: حده أيضاً. نابي: كليل لا يقطع.
- (٤) يشبه شيوخ الأسرة الأباضية بالأقمار، وشبابها المرد بدراري النجوم، على حين أن هذه الأقمار والنجوم تتبارى في الإشعاع والإضاءة.
- (٥) حاج: جمع حاجة.
- (٦) النذب: الخفيف عند الحاجة إليه.
- (٧) الرجام: القبور. الدواجي — جمع داجية: المظلمة.
- (٨) زاكيا: أي نامياً مباركاً.
- (٩) الماضي، في أول البيت: السيف، وفي آخره: من الزمن الماضي.
- (١٠) نازياً: أي واثباً. والملح المتماذي في الخصومة.
- (١١) الأحداث: نوازل الأيام.
- (١٢) سدلنا عليه الصفح: أي سحبتنا على كل الذنوب إعراضنا وسترناها بغفراننا.

علي بهجت^١

أَحَقُّ أَنَّهُمْ دَفَنُوا عَلِيًّا
فَمَا تَرَكُوا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَمَحًا
مَضَوْا بِالضَّاحِكِ الْمَاضِي وَالْقَوَا
فَمَنْ عَوْنُ اللِّغَاتِ عَلَى مُلِمٍّ
لَقَدْ فَقَدْتُ مُصْرَفَهَا حَنِينًا
وَمَنْ يَنْظُرُ يَرِ الْقُسْطَاطَ تَبْكِي
أَلَمْ يَمْشِ الثَّرَى قِحَةً عَلَيْهَا
فَنَقَبَ عَنْ مَوَاضِعِهَا عَلِيٌّ
وَلَوْلَا جُهْدُهُ احْتَجَبَتْ رُسُومًا
تَلَفَّتْ الْفَنُونُ وَقَدْ تَوَلَّى
سَلَوِ الْأَثَارَ: مَنْ يَغْدُو يُغَالِي
وَيُنْزِلُهَا الرُّفُوفَ كَجَوْهَرِيٍّ
وَمَا جَهْلَ الْعَتِيقِ الْحَرِّ مِنْهَا

وَحَطُّوا فِي الثَّرَى الْمَرْءَ الزَكِيًّا؟
عَلَى وَجْهِ التُّرَابِ، وَلَا رَضِيًّا؟
إِلَى الْحَفْرِ الْخَفِيفِ السَّمْهَرِيَّا
أَصَابَ فَصِيحَهَا وَالْأَعْجَمِيَّا؟
وَبَاتَ مَكَانُهُ مِنْهَا خَلِيًّا
بِفَائِضَةٍ مِنَ الْعَبْرَاتِ رِيًّا
وَكَانَ رِكَابُهَا نَحْوَ الثَّرِيَّا؟
فَجَدَّدَ دَارِسًا، وَجَلَا خَفِيًّا
فَلَا دِمْنًا تُرِيكَ وَلَا نُؤْيَا
فَلَمْ تَجِدِ النَّصِيرَ وَلَا الْوَلِيَّا
بِهَا، وَيَرُوحُ مُحْتَفِظًا خَفِيًّا؟
يُصَفِّفُ فِي خَزَائِنِهَا الْحَلِيَّا؟
وَلَا غِيَبِي الْمُقَلَّدَ وَالِدَعِيَّا

^١ رثى أمير البيان «أحمد شوقي» فقيد العلم والعاديات المغفور له «علي بهجت» بهذه اليتيمة العصماء التي قيلت في حفلة تأبينه، وهي كما يراها القارئ الكريم، أخذة من أخذ السحر ومعجزة من معجزات الشعر (نُشِرَتْ بجريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٢٤).

فتى عاف المشارب من دنيا
أبى النفس في زمن إذا ما
تعوّد أن يراه الناس رأساً
وجدت العلم لا يبني نفوساً
ولم أر في السلاح أضلّ حداً
هما كالسيف، لا تنصفه يفسد
غدير أترع الأوطان خيراً
وقد تأتى الجدول في خشوع
حياة معلم طفتت، وكانت
سبقت القابسين إلى سناها
أخذت على أريب المعى
ورب معلم تلقاه فظاً
إذا انتدب البنون لها سيوفاً
إذا رشد المعلم كان موسى
ورب معلمين خلوا وفاقوا
أناروا ظلمة الدنيا، وكانوا
أرقت وما نسيت «بنات بوم»
بكت وتأوّهت، فوهمت شراً
قلبت لها الحذى، وكان مني
زعمت الغيب خلف لسان طير
أصاب الغيب عند الطير قوم
إذا غناهم وجدوا سطيحاً
رمى الغربان شيخ تنوخ قبلي
نحا من ناجذيه كل لحم
نعست فما وجدت الغمض حتى
فقلت: نذيرة وبلاغ صدق
ولكن الذي بكت البواكي

وصان عن القذى ماء المحيا
عجمت بنيه لم تجد الأبياً
وليس يرونه الذنب الدنيا
ولا يغني عن الأخلاق شيئاً
من الأخلاق إن صجبت غويّاً
عليك، وخذه مكملاً سويّاً
وإن لم تمتلئ منه دويّاً
بما قد يعجز السيل الأبيّاً
سراجاً يعجب الساري وضياً
ورحت بنورها أحبو صبيّاً
ومن لك بالمعلم المعيا؟
غليظ القلب، أو قدماً غبياً
من الميلاد ردهم عصياً
وإن هو ضلّ كان السامرياً
إلى الحرية انساقوا هديّاً
لنار الظالمين بها صليّاً
على «المطرية» اندفعت بكياً
وقبلي داخل الوهم الذكياً
ضلالاً أن قلبت ما الحذياً
جهلت لسانه فزعمت غياً
وصار البوم بينهمو نبياً
على فمه، وأفعى الجرهمياً
وراش من الطويل لها دويّاً
وغودر لحمهنّ به شقيّاً
نفضت على المناحة مقلتيّاً
وحق لم يفاجئ مسمعيّاً
خليل عز مصرعه عليّاً

وَمَنْ يُفَجِّعْ بِحُرٍّ عِبْقَرِيٍّ
وَمَنْ تَتَرَاخَ مُدَّتُهُ فَيُكْثِرُ
أَخِي، أَقْبِلْ عَلَيَّ مِنَ الْمَنَايَا
فَلَمْ أَعْدِمِ إِذَا مَا الدَّوْرُ نَامَتْ
يُذَكِّرُنِي الدُّجَى لِدَّةَ حَمِيمًا
نَشَدْتُكَ بِالْمَنِيَّةِ وَهِيَ حَقٌّ
عَرَفْتُ الْمَوْتَ مَعْنَى بَعْدَ لَفْظٍ
أَتَاكَ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَوْتُ فَاَنْظُرْ
وَلِلْأَشْيَاءِ أَضْدَادٌ إِلَيْهَا
وَمُنْقَلَبٌ النُّجُومِ إِلَى سَكُونٍ
فَخَبَّرَنِي عَنِ الْمَاضِينَ؛ إِنِّي
وَصِفْ لِي مَنْزِلًا حُمِلُوا إِلَيْهِ
وَكَيْفَ أَتَى الْغَنَى لَهُ فَقِيرًا
لَقَدْ لَبِسُوا لَهُ الْأَرْيَاءَ شَتَّى
سِوَاءٍ فِيهِ مَنْ وَافَى نَهَارًا
وَمَنْ قَطَعَ الْحَيَاةَ صَدًّا وَجُوعًا
وَمَيِّتٌ ضَجَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ

يَجِدُ ظِلْمَ الْمَنِيَّةِ عِبْقَرِيًّا
مِنَ الْأَحْبَابِ لَا يُحْصِي النَّعِيَّا
وَهَاتِ حَدِيثَكَ الْعَذَبِ الشَّهِيَّا
سَمِيرًا بِالْمَقَابِرِ أَوْ نَجِيَّا
هَنَالِكَ بَاتَ، أَوْ خِلَاءَ وَفِيَّا
أَلَمْ يَكْ زُخْرُفُ الدُّنْيَا فَرِيًّا
تَكَلَّمَ، وَاكْشَفِ الْمَعْنَى الْخَبِيَّا
أَكُنْتَ تَمُوتُ لَوْ لَمْ تُلَفْ حَيًّا؟
تَصِيرُ إِذَا صَبَرْتَ لَهَا مَلِيًّا
مِنَ الدَّوْرَانِ يَطْوِيهِنَّ طِيًّا
شَدَدْتُ الرَّحْلَ أَنْتَظِرُ الْمُضِيَّا
وَمَا لَمْحُوا الطَّرِيقَ وَلَا الْمُطِيَّا
وَكَيْفَ ثَوَى الْفَقِيرُ بِهِ غَنِيًّا؟
فَلَمْ يَقْبَلْ سِوَى التَّجْرِيدِ زِيًّا
وَمَنْ قَذَفَ الْيَهُودَ بِهِ عَشِيًّا
وَمَنْ مَرَّتْ بِهِ شَبْعًا وَرِيًّا
وَأَخَرُ مَا تُحِسُّ لَهُ نَعِيًّا

الباب الرابع

متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع

الْجَامِعَةُ الْمِصْرِيَّةُ

«أنشأها في حفلة افتتاح منشآت الجامعة المصرية سنة ١٩٣١»

رَدَّتْكَ مِصْرُ، وَصَحَّتْ الْأَحْلَامُ
لَكَ — يَا «فَوَاذُ» — جِلَالَةٌ وَمَقَام
فِي ظِلِّكَ الْأَعْلَامُ، وَالْأَقْلَامُ^١
فِي الْعِلْمِ مَا تَسْمُو لَهُ الْأَعْلَامُ
يَسْعَى لَكَ التَّقْدِيرُ وَالْإِعْظَامُ
الشَّامِخَاتُ كَأَنَّهَا الْأَعْلَامُ؟
كَالصَّبْحِ مُنْصَدِعٌ بِهِ الْإِظْلَامُ
عَرَصَاتِهِ، وَتَمَزَّقُ الْأَوْهَامُ
وَقَوَاعِدُ لِحْضَارَةٍ وَدِعَامُ
سَيْرِنُ فِيهَا بُلْبُلٌ وَحَمَامُ
لِلْعَبْقَرِيَّةِ مَنَزَلٌ وَمُقَامُ
فِي ظِلِّهِنَّ، وَتَوْهَبُ الْأَقْسَامُ^٢
نَفْسُ تُسَوِّدُهُ، وَذَاكَ عِصَامُ^٣
نَفْسُ مِنَ الصَّيِّدِ الْمَلُوكِ كُرَامُ
قَصَّرْنَ عَنْ كَرَمِ، وَلَا الْأَعْمَامُ

تَاجَ الْبِلَادِ، تَحِيَّةٌ وَسَلَامُ
الْعِلْمُ وَالْمُلْكُ الرَّفِيعُ؛ كِلَاهُمَا
فَكَأَنَّكَ الْمَأْمُونُ فِي سُلْطَانِهِ:
أَهْدَى إِلَيْكَ الْغَرْبُ مِنْ أَلْقَابِهِ
مِنْ كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَكُلِّ جَمَاعَةٍ
مَا هَذِهِ الْغَرْفُ الزَّوَاهِرُ كَالضُّحَى
مِنْ كُلِّ مَرْفُوعِ الْعُمُودِ مُنَوَّرُ
تَتَحَطَّمُ الْأُمِّيَّةُ الْكُبْرَى عَلَى
هَذَا الْبِنَاءِ الْفَاطِمِيِّ مَنَارَةٍ
مَهْدٌ تَهَيَّأَ لِلْوَلِيدِ، وَأَيْكَةُ
شُرْفَاتِهِ نَوْرُ السَّبِيلِ، وَرُكْنُهُ
وَمَلَاعِبُ تَجْرِي الْحُظُوظُ مَعَ الصَّبَا
يَمِشِي بِهَا الْفَتْيَانُ، هَذَا مَا لَهُ
أَلْقَى أَوَاسِيَهُ، وَطَالَ بَرْكُنِهِ
مِنْ آلِ إِسْمَاعِيلَ، لَا الْعَمَاتُ قَدْ

بان على وادي الملوك هُمام
شعبٌ عن الغايات ليس ينام
ثمراته، وبدت له أعلام؟
وأتى العراق مُشاطراً والشام؟
شُبَّانٌ مَصْرَ على المناهل حاموا
هيهات! ما للعاريات دَوام
نَشَأُ إلى داعي الرّحيل قيام
يسقيه من كلتا يديك غمام
ثمرًا تنوء وراءه الأكمام
وبعيدُهُ للغابرين طعام
فيما يُنيل الصبر والإقدام
بسرّاتهم يتشبه الأَقوام
يأوي الجمالُ إليه والإلهام
وجلائلُ الأسفار فيه رُكام
حتى كأن لم يلتهمه ضرامُ
برْدٍ على ما لامست، وسلام
جُرْحُ الزمان بعُرفها يلتام
بعثتُ تليدَ المجد وهو رِمَام
أرأيت الاستقلال كيف يُرام؟
حادٍ لكل جماعة، وزمام
ومثابة الأوطان حين تُضام
للعبقريّة والنبوغ قيام؟
أو دورِ تعليم هي الأجسام
للطالبيين، ولا البيانُ كلام
وعليك من آمال مصر زحام
أعياده في الدهر، وهي عظام
قعد البُناة، وقامت الأهرام

لم يُعط همّتهم، ولا إحسانهم
وبنى فؤاد حائطيه، يُعينه
أنظر أبا الفاروق غرسك، هل دنت
وهل انتشى الوادي وفي فمه الجنى
في كل عاصمة وكل مدينة
كم نستعير الآخرين ونجتدي
اليوم يزعى في خمائل أرضهم
حبٌ غرست براحتيك، ولم يزل
حتى أناف على قوائم سوقه
فقريبه للحاضرين وليمة
عظّة لفاروق وصالح جيله
ونموذج تحذو عليه، ولم يزل
شيدت صرحاً للذخائر عالياً
رفٌ عُيون الكتب فيه طوائفُ
إسكندريّة، عاد كنزك سالماً
لمتّه من لهب الحريق أناملُ
وأست جراحك القديمة راحة
تهب الطريف من الفخار، وربّما
أرأيت ركن العلم كيف يُقام؟
العلم في سبل الحضارة والعلا
باني الممالك حين تنشدُ بانياً
قامت ربوع العلم في الوادي، فهل
فهما الحياة، وكل دور ثقافة
ما العلم ما لم يصنعه حقيقة
يا مهرجان العلم، حولك فرحة
ما أشبهتك مواسم الوادي، ولا
إلا نهراً في بشاشة صبحه

وأطال «خوفو» من مواكبِ عِزِّه
يُومي بتاج في الحضارة مُعرق
تاج تنقل في العصور مُعظَّمًا
لما اضطلعت به مَشَى فيه الهدى
سبقت مواكبك الربيع وحُسَنَه
الجيزة الفيحاء هَزَّت منكِبًا
لبست زخارفها، ومشت طيِّبها
قد زدتها هرمًا يُحجُّ فِناؤه
تقف القرونُ غداً على درجاته
أعوامُ جهدٍ في الشبابِ، وراءها
بلغ البناءُ على يديك تمامه

فاهتزت الرِّبَواتُ، والأكام
تغنُّ الجِبَاهُ لِعِزه، والهام
وتألفت دُولٌ عليه جِسام
ومراشدُ الدستورِ، والإسلام
فالنيلُ زهُوٌّ، والضَّفافُ وسام
سبغ النوالُ عليه والإنعام
وتردَّدت في أَيْكها الأنعامُ
ويُشدُّ للدنيا إليه حِزام
تُملي الثناء، وتكتبُ الأيام
من جهد خير كهولة أعوام
ولكل ما تبني يداك تمام

بنك مصر

«أنشِدت في مجلس الاحتفال بوضع الحجر الأول في أساس «بنك مصر» في مايو ١٩٢٥».

نراوَح بالحوادثِ، أو نغادى
ونحمدها وما رعت الضحايا
لحأها الله؛ باعتنا خيالاً
مشينا أمس نلقاها جميعاً
أظَلَّتْنا عن الإصلاح، حتى
تلاقينا، فلا نجدُ الصياصي
ومن لقي السَّبَاعَ بغير ظفرٍ
خَفَضْنا من علو الحق حتى
ولمَّا لم نزلُ للسيفِ رداً
وأقبلنا على أقوالِ زورٍ
ولو عُدنا إليها بعدَ قرنٍ

ونُنكرُها، ونُعطيها القيادا
ولا جزتِ المواقفَ والجهادا
من الأحلامِ، واشترتِ اتِّحادا
ونحنُ اليومَ نلقاها فُرادى^٦
عَجَزْنا أن نناقشها الفسادا
ونلقاها، فلا نجدُ العتادا^٧
ولا ناپِ تمزَّق أو تفادى
توهَّمنا السيادةَ أن نُسادا
تنازعنا الحمائل والنجادا
تجئُ الغيَّ تَقْلِبُه رَشادا
رحمنا الطُّرس منها والمِدادا

تضاءلَ بينَ أعيُننا ونادى
إذا هو حلَّ في بلدٍ تَعادى
إذا قَطَعَ القِرابَةَ والودادِ
خدعنا النشءَ عنها والسودا
بهمةِ أنفيسٍ عَظُمَت مُرادا
وأونةً تُعَدُّ له عِنادا
وبالخلقِ المثقَّةِ الصُّعادا
بلغناها أحسَّ بنا، فحادا
يُحِبُّ الأَرِيحِيَّةَ، والسَّدادا
تَنَقَّلَ تاجرًا، وَمَشَى، ورادا
شَرى في السوقِ، أو باع العبادا
وفي دمعِ المُشَخَّصِ ما أجادا
نَرى من خَلْفِ حَوَزَتِهِ فؤادا
ولا نخشى لما وَهَبَ ارتدادا
ولقَّبناه بالأمسِ (المكادا)^٨
ونسأله فنستجدي جَوَادا
ومرهمَ كلِّ جُرح، والضُّمادا
وصابَ غمامُهُ، فسقى، وجادا
بمصرَ لكلِّ صالِحَةٍ تُنادى
وأحيانًا تُقدِّمُهُ اجتهادا
كما بنتِ الكهولُ بنى، وشادا
وهم كالنحلِ في الدارِ احتشادا
سُقِيتِ التَّبرُ، لا أرضى العهادا^٩
وحينَ بنى دعائمَ الشُّدادا
إذا البِناءُ لم يُعْطَ اتِّئادا
أمانِيَّ المخيَلِ، أو رُقادا
إذا رَكِبَتْ له الهِمَمُ البِعدا

وكم سحرَ سمعنا منذُ حينٍ
هنيئًا للعدوِّ بكلِّ أرضٍ
وُبُعدًا للسيادةِ والمعالِي
وربَّ حَقِيقَةٍ لابدَّ منها
ولو طلَعوا عليها عالجوها
تُعَدُّ لحادثِ الأيامِ صَبْرًا
وتخلفَ بالنَّهى البيضُ المواضي
لمحنا الحَظَّ ناحِيَةً، فلمَّا
وليس الحَظُّ إلا عبقريًّا
ونحنُ بنو زمانٍ حُوليٍّ
إذا قعد العِبادُ له بِسوقٍ
وتعجبه العواطفُ في كتابٍ
يُؤمِّننا على الدستورِ أَنَّا
أبو الفاروقِ نرجوه لفضلٍ
ملأنا باسمه الأَفْوَاهَ فخرًا
نُناجيه، فنسترعِي حَكِيمًا
ولم يزلِ المحبَّبُ، والمفدَّى
تَدْفِقُ مَصْرُفُ الوادي، فرَوَى
دعا فتنافستُ فيه نُفوسُ
تُقدِّمُ عونَها ثِقَةً ومالًا
وأقبلَ من شبابِ القومِ جمْعُ
كأنَّ جوانِبَ الدارِ الخَلايا
فيا دارًا من الهِمَمِ العوالي
تَأْنِي حينَ أَسْسَكَ ابنُ حربٍ
ولا تُرَجِّى المتانَةَ في بِناءٍ
بنى الدارَ التي كُنَّا نراها
ولم يَبْعُدْ على نفسٍ مَرَامُ

كَمَقْدِرَةِ ابْنِ آدَمَ إِنْ أَرَادَا
يَرُومُ السَّبْقَ، فَاخْتَرَقَ الْجِيَادَا
وَمِنْ شَأْنِ الْمَجْدِدِ أَنْ يُعَادَى
عَلَيْكَ إِذَا الْوَلِيُّ سَعَى وَكَادَا
عُلُوءًا فِي الْمَشَارِقِ وَانْطِيَادَا^{١٠}
وَنُنْزِلُهَا الْخَزَائِنَ وَالنُّضَادَا
رُجُوعَ النَّحْلِ قَدْ حُمِّلْنَ زَادَا
وَمَا سُقِيَتْ، وَلَا طَعِمَتْ سَمَادَا
إِذَا رَجَعُوا لَهُ أَدَى وَزَادَا
وَتِلْكَ فِرْعَوْنُهَا تَغْشَى الْبِلَادَا
سَمَا قَبْلَ الْأَسَاسِ بِهَا عِمَادَا
جَعَلْتُ أَسَاسَهَا مَاسًا وَرَادَا
فَرَشْتُ النُّيِّرَاتِ لَهَا مِهَادَا

وَلَمْ أَرَ بَعْدَ قُدْرَتِهِ تَعَالَى
جَرَى وَالنَّاسُ فِي رَيْبٍ وَشَكٍّ
وَعُودِي دُونَهَا حَتَّى بَنَاهَا
يَهُونُ الْكَيْدُ مِنْ أَعْدَى عَدُوٍّ
فَجَاءَتْ كَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى
نَصُونُ كِرَائِمِ الْأَمْوَالِ فِيهَا
وُنْخَرِجُهَا، فَتَكْسِبُ، ثُمَّ تَأْوِي
وَلَمْ أَرَ مِثْلَهَا أَرْضًا أَغْلَتْ
وَلَا مُسْتَوْدَعًا مَالًا لِقَوْمٍ
وَمِنْ عَجَبٍ نُثَبِّتُهَا أَصُولًا
كَأَنَّ الْقَطْرَ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهَا
وَلَوْ مَلَكَتْ كُنُوزَ الْأَرْضِ كَفِّي
وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ عَنَّتْ لِحُكْمِي

دَارُ بَنِكَ مِصْرَ

«نظمها لَتُنْشَدَ فِي حَفْلَةِ افْتِتَاحِ الدَّارِ الْجَدِيدَةِ لِبَنِكَ مِصْرَ فِي يُونِيُو سَنَةِ ١٩٢٧»

شَرَّقُ تَنْبَهَ بَعْدَ طَوْلِ مَنَامٍ
إِلَّا بَقَايَا فَتْرَةٍ وَسَقَامٍ
أَعْلَى الْهَوَانِ يُنَامُ فِي الْآجَامِ؟
حَرَكَاتُ عَيْشٍ فِي سُكُونِ حِمَامٍ
سَفَرَ الْحَيَاةِ، وَرِحْلَةَ الْأَيَّامِ
فَاعْدُدْهُ بَيْنَ غَوَابِرِ الْأَقْوَامِ
هِمَمٌ نَهَبْنَ يَرْمُنَ كُلَّ مَرَامٍ
أَوْ جَامِعٍ يَعْدُو بِنِصْفِ لِحَامٍ
لَا تُسْتَبَاحُ، وَلِلْكِنَانَةِ حَامٍ

نَبَذَ الْهَوَى، وَصَحَا مِنَ الْأَحْلَامِ
ثَابَتٌ سَلَامَتُهُ، وَأَقْبَلَ صَحْوُهُ
صَاحَتْ بِهِ الْآجَامُ: هُنْتُ! فَلَمْ يَنْمَ،
أُمَمٌ وَرَاءَ الْكَهْفِ جُهْدُ حَيَاتِهِمْ
نَفَضُوا الْعِيُونَ مِنَ الْكَرَى، وَاسْتَأْنَفُوا
مَنْ لَيْسَ فِي رَكْبِ الزَّمَانِ مُغْبِرًّا
فِي كُلِّ حَاضِرَةٍ وَكُلِّ قَبِيلَةٍ
مِنْ كُلِّ مُمْتَنِعٍ عَلَى أَرْسَانِهِ
يَا مِصْرُ، أَنْتِ كِنَانَةُ اللَّهِ الَّتِي

استَقْبِلِي الْأَمَالَ فِي غَايَاتِهَا
وَحُذِّي طَرِيفَ الْمَجْدِ بَعْدَ تَلِيدِهِ
يُغْنَى بِسُؤْدَدِ قَوْمِهِ، وَحُقُوقِهِمْ
مَا تَأْجُكَ الْعَالِي، وَلَا نُوَابُهُ
جَرَّبَتْ نُعْمَى الْحَادِثَاتِ وَبُؤْسَهَا
عَبَسَتْ إِلَيْنَا الْحَادِثَاتُ، وَطَالَمَا
وَتَبَّتْ بِقَوْمٍ يَضْمِدُونَ جِرَاحَهُمْ
الْحَقُّ كُلُّ سَلَاحِهِمْ وَكَفَاحِهِمْ
يَبْنُونَ حَائِطَ مُلْكِهِمْ فِي هُدْنَةٍ
قُلْ لِلْحَوَادِثِ: أَقْدِمِي، أَوْ أَحْجِمِي
نَحْنُ النِّيَامُ إِذَا اللَّيَالِي سَالَمَتْ
فِينَا مِنَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ بَقِيَّةُ
أَيْنَ الْوُفُودُ الْمُلتَقُونَ عَلَى الْقَرَى
الْوَارِثُونَ الْقُدْسَ عَنْ أَحْبَارِهِ
الْحَامِلُو الْفُصْحَى وَنُورَ بَيَانِهَا
وَيُؤَلِّفُونَ الشَّرْقَ فِي بُرْهَانِهَا
تَاقُوا إِلَى أَوْطَانِهِمْ، فَتَحَمَّلُوا
مَا ضُرَّ لَوْ حَبَسُوا الرِّكَائِبَ سَاعَةً
لِيُضَيِّفَ شَاهِدُهُمْ إِلَى أَيَّامِهِ
وِيرَى وَيَسْمَعُ كَيْفَ عَادَ حَقِيقَةً
... مِنْ هِمَّةِ الْمَحْكُومِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ
مِصْرَ التَّقَتِ فِي مَهْرَجَانِ مُحَمَّدٍ
هَزَّتْ مَنَاكِبَهَا لَهُ، فَكَأَنَّهُ
وَكَأَنَّهُ فِي الْفَتْحِ عَمُورِيَّةُ
أَسْمُ الْعَصُورِ بِحُسْنِهِ، وَأَنَا الَّذِي
شَرَفًا مُحَمَّدٌ، هَكَذَا تُبْنَى الْعِلَا:
هِمُّ الرِّجَالِ إِذَا مَضَتْ لَمْ يَثْنِهَا

وَتَأْمَلِي الدُّنْيَا بِطَرْفِ سَامٍ
مَنْ رَاحَتِي مَلِكٌ أَغْرَّ هُمَامٍ
وَيَذُودُ دُونَ جِيَاضِهِمْ، وَيُحَامِي
بِالْحَائِثِينَ إِلَيْكَ فِي الْإِقْسَامِ
أَعْلِمْتِ حَالًا أَذْنَتْ بِدَوَامٍ؟
نَزَلْتُ فَلَمْ نُغْلَبْ عَلَى الْأَحْلَامِ
وَيُرَقِّدُونَ نَوَازِي الْأَلَامِ
وَالْحَقُّ نِعْمَ مُتَبِّتُ الْأَقْدَامِ
وَعَلَى عَوَاقِبِ شِحْنَةٍ وَخِصَامِ
إِنَّا بَنُو الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ
فَإِذَا وَثَبْنَ فَنَحْنُ غَيْرُ نِيَامِ
لِحَوَادِثِ خَلْفِ الْغُيُوبِ جِسَامِ
الْمُنْزَلُونَ مَنَازِلَ الْأَكْرَامِ^{١١}
وَالْخَالِفُونَ أُمِّيَّةً فِي الشَّامِ؟
يَبْنُونَ فِيهِ حَضَارَةَ الْإِسْلَامِ؟
لَمْ الضِّيَاءِ حَوَاشِي الْإِظْلَامِ؟
وَهَوَى الدِّيَارِ وَرَاءَ كُلِّ غَرَامِ
وَتَنَوُّوا إِلَى الْفُسْطَاطِ فَضْلَ زَمَامِ؟
يَوْمًا أَغْرَّ مُلَمَّحَ الْأَعْلَامِ
مَا كَانَ مُمْتَنِعًا عَلَى الْأَوْهَامِ ...
بِالْقَيْدِ، لَا مِنْ هِمَّةِ الْحُكَامِ
وَتَجَمَّعَتْ لَتَحْيَا وَسَلَامِ^{١٢}
عُرْسُ الْبَيَانِ، وَمَوْكِبُ الْأَقْلَامِ
وَكَأَنَّي فِيهِ أَبُو تَمَامِ^{١٣}
يَرُوي، فَيَنْتَظِمُ الْعَصُورَ كَلَامِي
بِالصَّبْرِ أَوْنَةً، وَبِالْإِقْدَامِ
خَدْعُ الثَّنَاءِ وَلَا عَوَادِي الذَّامِ

وتمامُ فضلكَ أن يعيبَكَ حُسْدُ
المالِ في الدنيا منازلُ نُقْلَةٍ
فرفعتْ إيواناً كركنِ النّجمِ، لم
صيّرتْ طينتهُ الخلودَ، وجئتُ منْ
هذا البناءِ العبقريِّ أتى به
كانت به الأرقامُ تُدرِكُ حِسْبَةً
يا طالما شغف الظنونَ، وطالما
ما زلتَ أنتَ وصاحبك بركنه
أَسَسْتُمُو بالحاسدين جدارَه
شركاتك الدنيا العريضة لم تُنَلْ
اللهُ سَخَّرَ للكنانةِ خازناً
وكانَ عهدك عهدُ يوسفَ: كُلُّه
وكانَ مالُ المودعين وزرعهم
ما زلتَ تبني رُكنَ كُلِّ عَظيمةٍ

يجدون نقصاً عندَ كُلِّ تَمَامٍ
من أين جئتَ له بدارٍ مُقام؟!
يُضْرَبُ على كِسرى، ولا بهرام
وادي الملوك بجنْدَلٍ ورغام
بيتٌ له فضلٌ وحقٌ زمام
واليومَ جاوزَ حِسْبَةَ الأرقامِ
كثر الرجاءُ عليه في الإلمام
حتى استقام على أعزِّ دعامٍ
وبنيتمو بمعاول الهدامِ
إلا بطول رعايةٍ وقيامٍ
أخذ الأمانَ لها من الأعوامِ
ظِلٌّ، وَسُنْبُلَةٌ، وَقَطْرُ غَمَامٍ
في راحتِكَ ودائعُ الأيتامِ
حتى أتيتَ برابعِ الأهرامِ

دارُ العلوم^١

«أنشدت في الاحتفال الخمسيني لدار العلوم، بمسرح حديقة الأزبكية، في يوليو سنة ١٩٢٧»

اتَّخَذَتِ السماءُ يا دارُ رُكنًا
وجمعتِ السعادتَيْن، فباتت
نامًا الدهرَ في ذراكِ، وفَضًّا
وإذا الخُلُقُ كانَ عَقْدَ وِدادٍ

وأُوِيَّتِ الكواكبُ الزُّهْرَ سَكُنًا
فيك دُنيا الصلاحِ للدين خِدنا
من سُلّافِ الودادِ دَنًّا فَدَنًّا
لم ينل منه مَنْ وَشَى وَتَجَنَّى

^١ زيدت هذه في الطبعة الثانية.

وَأَرَى الْعِلْمَ كَالْعِبَادَةِ فِي أَبْـ
وَاسِعِ السَّاحِ، يَرْسِلُ الْفِكْرَ فِيهَا
هَلْ سَأَلْنَا أَبَا الْعَلَاءِ وَإِنْ قَلَّ
كَيْفَ يَهْزَا بِخَالِقِ الطَّيْرِ مَنْ لَمْ
أَنْتِ كَالشَّمْسِ رَفِيفًا، وَالسَّمَائِ
لَوْ تَسْتَرْتِ كَنْتِ كَالْكَعْبَةِ الْغَرِ
إِنْ تَكُنِ لِلثَّوَابِ وَالْبِرِّ دَارًا
قَدْ بَلَغْتَ الْكَمَالَ فِي نِصْفِ قَرْنٍ
لَا تَعْدِي السَّنِينَ إِنْ ذُكِرَ الْعَدِ
سَوْفَ تَفْنَى فِي سَاحَتَيْكَ اللَّيَالِي
يَا عَكَظًا حَوَى الشَّبَابَ فِصَاحًا
بَثُّهُمْ فِي كِنَانَةِ اللَّهِ نَوْرًا
عَلِّمُوا بِالْبَيَانِ، لَا غُرْبَاءَ
فَتِيَّةً مُحْسِنُونَ، لَمْ يُخْلِفُوا الْعَدِ
صَدَعُوا ظُلْمَةً عَلَى الرَّيْفِ حَلَّتْ
مَنْ قَضَى مِنْهُمْ تَفَرَّقَ فِكْرًا
نَادِ دَارَ الْعُلُومِ إِنْ شِئْتَ: «يَا عَا
قَلْ لَهَا: يَا ابْنَةَ «الْمُبَارَكِ»^{١٤} إِلَيْهِ
هُوَ فِي الْمَهْرَجَانِ حَيٌّ شَهِيدٌ
وَهُوَ فِي الْعُرْسِ — إِنْ تَحَجَّبَ، أَوْ لَمْ
مَا جَرَى ذِكْرُهُ بِنَادِيكَ حَتَّى
رُبَّ خَيْرٍ مُلِئَتْ مِنْهُ سُرُورًا
أَدْرَى إِذْ بَنَّا أَنْ كَانَ يَبْنِي
حَائِطُ الْمَلِكِ بِالْمَدَارِسِ إِنْ شِئْتُ
انْظُرِ النَّاسَ، هَلْ تَرَى لِحْيَا
لَا الْغَنَى فِي الرِّجَالِ نَابَ عَنِ الْفَضِ
رُبَّ عَاثٍ فِي الْأَرْضِ لَمْ تَجْعَلِ الْأَرَّ

عِدِ غَايَاتِهِ: إِلَى اللَّهِ أَدْنَى
كُلُّ مَنْ شَكَّ سَاعَةً أَوْ تَظَنَّى
بِ عَيْنًا فِي عَالَمِ الْكُونِ وَسَنَى
يَعْلَمُ الطَّيْرَ: هَلْ بَكَى أَوْ تَغْنَى؟
بِ رَوَاقٍ، وَكَالْمَجْرَّةِ صَحْنًا
إِذَا ذِيلاً مِنَ الْجَلَالِ وَرَدْنَا
أَنْتِ لِلْحَقِّ وَالْمَرَادِ مَغْنَى
كَيْفَ إِنْ تَمَّتِ الْمَلَاوَةُ قَرْنًا؟!
لَمْ؛ فَمَا تَعْلَمِينَ لِلْعِلْمِ سَنًا
وَهُوَ بَاقٍ عَلَى الْمَدَى لَيْسَ يَفْنَى
قَرَشِيَّيْنِ فِي الْمَجَامِعِ، لُسْنَا
مِنْ ظِلَامٍ عَلَى الْبَصَائِرِ أَخْنَى
فِيهِ يَوْمًا؛ وَلَا أَعَاجِمَ لُكْنَا
لَمْ رَجَاءً، وَلَا الْمَعْلَمَ ظَنَّا
وَأَضَاءُوا الصَّعِيدَ سَهْلًا، وَحَزْنَا
فِي نَهْيِ النَّشْءِ، أَوْ تَقَسَّمْ زَهْنًا
نَشْءًا، أَوْ شِئْتَ نَادَهَا: «يَا سُكَيْنَا»
قَدْ جَرَتْ كَاسِمُهُ أُمُورُكَ يُمْنًا
يَجْتَلِي غُرْسَ فَضْلِهِ كَيْفَ أَجْنَى
يَحْتَجِبُ — وَالِدُ الْعُرُوسِ الْمُهْنَا
وَقَفِ الدَّمْعُ فِي الشُّثُونِ فَأَثْنَى
ذَكَرَ الْخَيْرَيْنِ فَاهْتَجَتْ حُزْنًا
فَوْقَ أَنْفِ الْعَدُوِّ لِلضَّادِ حِصْنًا؟
تَ، وَإِنْ شِئْتَ بِالْمَعَاقِلِ يُبْنَى
عُطِّلْتُ مِنْ نِبَاهَةِ الذِّكْرِ مَعْنَى؟
لِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَا الْجَاهُ أَغْنَى
ضُ لَهُ إِنْ أَقَامَ أَوْ سَارَ وَزْنَا

هَمَلًا لَمْ تَهَبْ لِنَاعِيهِ أَذْنَا
عَبْقَرِيَّيْنِ أَوْرَثُوا الْمُلْكَ حُسْنَا
إِنَّمَا يُحَسِّدُ الْعَظِيمُ وَيُشْنَا
أَوْ بَدِيعِ الْخِيَالِ يَخْلُقُ فَنَّا
لَمْ يُقَلِّلْ لَهُ الْجَدِيدَانِ شَأْنَا
رُ، وَيَفْنِي الزَّمَانَ قَرْنًا فَقَرْنَا
عَادَةُ الْفَطْنِ بِالذِّخَائِرِ يُعْنَى
وَسَقُوا شَانئِي عَلَى الْغِلِّ أَجْنَا
أَنْشُدُوهُ، فَعَادَ أَمْرَدَ لَدُنَا
وَهُ، وَالْمَرْءُ بِالْقَرِيبِ مُعْنَى
ل، وَيُلَفِّقُونَ فِي الْمَمَاتِ أَضْنَا
دَمَ شَقِيقًا مِنَ الرُّوَاةِ أَوْ ابْنَا
رَايَةَ الْعِلْمِ كَالْهَلَالِ وَأَسْنَى
يُضِيحُ الْعِلْمَ وَالْمَعْلَمُ مِنَّا
لَمْ يُنْشِئْ لَكُمْ حَصُونًا وَسَفْنَا
ضَ، وَشَقَّ السَّمَاءَ رِيحًا وَمُزْنَا
لَا شَدَدْنَا، وَلَا رِكَابًا زَمَمْنَا
وَمَلِيًّا لِحَادِثِ الدَّهْرِ دِنَّا!
مَلُّ مِنْ هَادِمٍ وَلَمْ يَبِنْ مَنَا؟!
مَعَ أَبْنَاءَنَا يَقُولُونَ: «كُنَّا»!

عَاشَ لَمْ تَرْزِمِهِ بَعِيْنٍ، وَأَوْدَى
نَظَّمَ اللَّهُ مُلْكُهُ بَعْبَادٍ
شَغَلْتَهُمْ عَنِ الْحَسُودِ الْمَعَالِي
مَنْ ذَكَّى الْفَوَادِ يُوْرِثُ عِلْمًا
كَمْ قَدِيمٍ كَرْقَعَةِ الْفَنِّ حَرٌّ
وَجَدِيدٍ عَلَيْهِ يَخْتَلِفُ الدَّهْ
فَاحْتَفِظْ بِالذِّخَيْرَتَيْنِ جَمِيعًا
يَا شَبَابًا سَقُوْنِي الْوُدَّ مَحْضًا
كَلَّمَا صَارَ لِلْكَهْوَلَةِ شِعْرِي
أُسْرَةُ الشَّاعِرِ الرُّوَاةِ، وَمَا عَنَّا
هُمْ يَضْنُونَ فِي الْحَيَاةِ بِمَا قَا
وَإِذَا مَا انْقَضَى وَأَهْلُوهُ لَمْ يَعِ
النَّبُوغَ النَّبُوغَ حَتَّى تَنْصُوَا
نَحْنُ فِي صُورَةِ الْمَمَالِكِ مَا لَمْ
لَا تَنَادُوا الْحَصُونَ وَالسُّفْنَ، وَادْعُوا الْعِ
إِنَّ رَكْبَ الْحَضَارَةِ اخْتَرَقَ الْأَرْ
وَصَحِبْنَاهُ كَالْغُبَارِ، فَلَا رَجَبَ
دَانَ أَبَاؤُنَا الزَّمَانَ مَلِيًّا
كَمْ نُبَاهِي بِلُحْدِ مَيِّتٍ؟ وَكَمْ نَحْ
قَدْ أَنَّى أَنْ نَقُولَ: «نَحْنُ»، وَلَا نَسْ

إِسْكَندَرِيَّةُ أَنْ أَنْ تَتَجَدَّدِي

«نظمها لحفلة افتتاح دار جديدة لبنك مصر في الإسكندرية، في يونيو سنة ١٩٢٩»

إِسْكَندَرِيَّةُ، أَنْ أَنْ تَتَجَدَّدِي
رُدِّي مَكَانَكَ فِي الْبَرِيَّةِ يُرَدِّدِ

أَمْسِ انْقَضَى، وَالْيَوْمُ مَرْقَاةُ الْغَدِ
يَا غَرَّةَ الْوَادِي وَسَدَّةَ بَابِهِ

فيضي كأمس على العلوم من النهى
وسمي النبالة بالملاحم تتسم
وضعي روايات الخلاعة والهوى
لا تجعلني حب القديم وذكره
إن القديم ذخيرة من صالح
لا تفتتنك حضارة مجلوبة
لو مال عنك شراعها وبخارها
وجدت وكان لغير أهيك أرضها
جاري النزيل، وسابقه إلى الغنى
وابني كما يبني المعاهد وشرعي
إني حذرت عليك من أمية
أخزانة الوادي، عليك تحية
ما أنت إلا من خزائن يوسف
قلدت من مال البلاد أمانة
وبلغت من إيمانها ورجائها
فلو أن أستار الجلال سعت إلى
إنا نعظم فيك ألوية على
وإذا طعمت من الخلية شهدها
لا تمنح المحبوب شكر كله
إسكندرية شرفت بعصابة
خدموا جمى الوطن العزيز، فبوركوا
ما بال ذاك الكوخ صرّح وانجلي
من كسر بيت، أو جدار سقيفة
فإذا طلعت على جلاله ركنها

وعلى الفنون من الجمال السرمدي
وسمي الصبابة بالعواطف تخلد
لممثلين من العصور، وشهد
حسرات مضياح، ودفع مبدد
تبني المقصر، أو تحت المقتدي
لم يبن حائطها بمالك واليد
لم يبق غير الصيد والمتصيد
وسماؤها، وكأنها لم توجد
وإلى الحجا، وإلى العلا والسؤدد
لشبابك العرفان عذب المورد
ربضت كجرح الغيّه المتلبّد
وعلى الندي وكلّ أبلج في الندي
بالقصد، موحية لمن لم يقصد
يا طالما افتقرت إلى المتقلد
ما يبلغ المحراب من متعبد
غير العتيق لبست مما يرتدي
جنباتها حشد يروح ويغتدي
فاشهد لقائدها وللمتجند
واقرن به شكر الأجير المجهّد
بيض الأسرة، والصحيفة، واليد
خدما، وبورك في الحمى من سيد
عن حائطي صرح أشم مُمرّد؟
رفع الثبات بناية كالفرقد
قل: تلك إحدى معجزات (محمد) ١٥

فَتِيَّةُ الْوَادِي عَرَفْنَا صَوْتَكُمْ

«يُخَاطَبُ الشَّاعِرُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ شَبَابُ مِصْرَ الَّذِينَ نَهَضُوا بِمَشْرُوعِ الْقُرْشِ سَنَةَ ١٩٣٢، وَهِيَ آخِرُ مَا جَادَتْ بِهِ شَاعِرِيَّتُهُ، وَكَانَتْ تَلَاوَتُهَا يَوْمَ وَفَاتِهِ!»

نَزَعَ الشَّيْبَلُ مِنَ الْغَابِ الْوَتِدَ
وَتَغَطَّى مَنَكِبَاهُ بِاللُّبْدِ
وَدَعَا عَنْ حِمَى الْغَابِ يَدًا
وَابْعَثُوهُ فِي صَحَارَاهَا يَصِدُ
مَرْحَبًا بِالطَّائِرِ الشَّادِيِ الْغَرْدِ
يَحْمِلُ الْحَقْدَ، وَلَمْ يُخْفِ الْحَسَدَ
صَالِحًا مِنْ عَمَلٍ إِلَّا فَسَدَ
كَانَ فِيهَا الْيَوْمُ بِالْأَيْكِ انْفَرَدَ
قَامَ فِي كُلِّ طَرِيقٍ وَقَعَدَ
كُلُّ سِرْبٍ قَدْ تَلَاقَى وَاحْتَشَدَ
ثُمَّ أُعْطِيَ بَدَلَ الزَّهْرِ الشُّهُدُ
وَمَضَى يَقْصُرُ خَطْوًا وَيُمَدُّ
وَيُنَادِي النَّاسَ: مَنْ جَادَ وَجَدَ
أَوْ رَأَى دَارًا عَلَى الدَّرْبِ قَصَدَ
رَائِحًا يَسْأَلُ قِرْشًا لِلْبَلَدِ
أَخْرَجُوا الْمَالَ إِلَى الْبَرِّ يَعُدُّ
طَالِبُ الْعَوْنِ لِمَصْرِ لَا يَرُدُّ
يَغْرُسُ الْقُرْشَ، وَيَبْنِي، وَيَلْدُ
مِنْ عِثَارٍ لَبِثَتْ فِيهِ الْأَبَدُ
لِكَفَاحِ السَّلِّ، أَوْ حَرْبِ الرَّمَدِ
لَمْ يَضُقْ عَنْهُ وَلَمْ يَعِجْزْ أَحَدُ
نَادَتْ الْبَانِي وَجَاءَتْ بِالْعُدْدِ
ثَابَتَ الْآسَاسِ مَرْفُوعَ الْعَمَدِ

لَا يُقِيمَنَّ عَلَى الضَّيْمِ الْأَسَدُ
كَبَرَ الشَّيْبَلُ، وَشَبَّتْ نَابُهُ
اتْرَكُوهُ يَمْشِي فِي آجَامِهِ
وَاعْرَضُوا الدُّنْيَا عَلَى أَظْفَارِهِ
فَتِيَّةُ الْوَادِي، عَرَفْنَا صَوْتَكُمْ
هُوَ صَوْتُ الْحَقِّ، لَمْ يَنْبَغِ، وَلَمْ
وَحَلَا مِنْ شَهْوَةٍ مَا خَالَطَتْ
حَرَكَ الْبَلْبَلُ عِطْفِي رُبُوعَ
زَنْبَقِ الْمَدْنِ، وَرِيحَانِ الْقَرْيِ
بَاكِرًا كَالنُّحْلِ فِي أُسْرَابِهَا
قَدْ جَنَى مَا قَلَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا
بَسَطَ الْكَفَّ لِمَنْ صَادَفَهُ
يَجْعَلُ الْأَوْطَانَ أُغْنِيَّتَهُ
كَلَّمَا مَرَّ بِبَابِ دَقِّهِ
غَادِيًا فِي الْمَدْنِ، أَوْ نَحْوِ الْقَرْيِ
أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا، أَصْغُوا لَهُ
لَا تَرُدُّوهُ يَدَهُمْ فَارِغَةً
سِيرَى النَّاسُ عَجِيبًا فِي غَدِ
يُنْهَضُ اللَّهُ الصَّنَاعَاتِ بِهِ
أَوْ يَزِيدُ الْبَرَّ دَارًا قَعْدَتْ
وَهُوَ فِي الْأَيْدِي، وَفِي قَدَرَتِهَا
تِلْكَ مِصْرُ الْغَدِ تَبْنِي مُلْكَهَا
وَعَلَى الْمَالِ بَنَتْ سُلْطَانَهَا

وَأَصَارَتْ بَنَكَ مَصِرٍ كَهْفَهَا
مَثَلٌ مِنْ هِمَّةٍ قَدْ بَعُدَتْ
رَدَّهَا الْعَصْرُ إِلَى أَسْلُوبِهِ
الْبَنُونَ اسْتَنْهَضُوا آبَاءَهُمْ
أَصْبَحَتْ مَصْرُ، وَأَضْحَى مَجْدُهَا
هَذِهِ الْهِمَّةُ بِالْأَمْسِ جَرَتْ
أَيُّهَا الْجِيلُ الَّذِي نَرْجُو لِيْغْدُ
أَنْتَ فِي مَدْرَجَةِ السَّيْلِ، وَقَدْ
قَدَّتَ فِي الْحَقِّ، فَقَدْ فِي مَثَلِهِ
رُبَّ عَامٍ أَنْتَ فِيهِ وَاجِدٌ
عَلَّمَ الْأَبَاءَ، وَاهْتَفَ قَائِلًا:
اجْمَعْ الْقَرَشَ إِلَى الْقَرَشِ يَكُنْ
اطْلُبِ الْقَطْنَ، وَزَاوِلْ غَيْرَهُ
نَحْنُ قَبْلَ الْقَطَنِ كُنَّا أُمَّةً
قَدْ أَخَذْنَا فِي الصَّنَاعَاتِ الْمَدَى
وَعَزَلْنَا قَبْلَ إِدْرِيسِ الْكُسَا
إِنْ تَكُ الْيَوْمَ لَوَاءً قَائِدًا

حَبَّذَا الرُّكْنَ وَأَعْظَمَ بِالسَّنَدِ
وَمَدَاهَا فِي الْمَعَالِي قَدْ بَعُدَ
كُلُّ عَصْرِ بِأَسَالِيْبٍ جُدُّ
وَدَعَا الشَّبْلُ مِنَ الْوَادِي الْأَسَدِ
هِمَّةَ الْوَالِدِ، أَوْ شُغْلَ الْوَلَدِ
فَحَوَّتْ فِي طَلَبِ الْحَقِّ الْأَمَدِ
غَدُكَ الْعِزُّ، وَدُنْيَاكَ الرَّغْدِ
ضَلَّ مَنْ فِي مَدْرَجِ السَّيْلِ رَقْدِ
مِنْ نَوَاحِي الْقَصْدِ أَوْ سُبُلِ الرُّشْدِ
فَاذْخُرْ فِيهِ لِعَامٍ لَا تَجِدُ
أَيُّهَا الشَّعْبُ، تَعَاوَنَ وَاقْتَصِدِ
لَكَ مِنْ جَمْعِهِمَا مَالٌ لُبْدُ
وَاتَّخِذْ سَوْقًا إِذَا سَوْقُ كَسَدُ
تَهَيَّطِ الْوَادِي، وَتَرَعَى، وَتَرِدُ
وَبَنَيْنَا فِي الْأَوَالِي مَا خَلَدَ
وَنَسَجْنَا قَبْلَ دَاوُدَ الزَّرْدِ
كَمْ لَوَاءٍ لَكَ بِالْأَمْسِ انْعَقِدْ!

عِيدُ الْجِهَادِ^٢

«نظمها احتفالاً بعيد الجهاد الوطني في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦»

حَطَّوْنَا فِي الْجِهَادِ خُطًّا فِسَاحًا
رَضِينَا فِي هَوَى الْوَطَنِ الْمَفْدَى
وَهَادَنَّا، وَلَمْ نُلْقِ السَّلَاحَا
دَمَ الشَّهْدَاءِ وَالْمَالِ الْمُطَاحَا

^٢ زيدت هذه في الطبعة الثانية.

تَقَلَّلْنَا لَهَا الْحَقَّ الصُّرَاحَا
إِذَا عَضَّتْ أُرْيُنَاهَا الْجِمَاحَا
وَنَدْفَعُ عَنْ جَوَانِبِهِ الرِّيَّاحَا
وَنَسْعَى السَّعْيَ مَشْرُوعًا مَبَاحَا
كَمِينَ الْغَيْبِ وَالْقَدَرِ الْمُتَاحَا
عَلَى الْأَيَّامِ قَدْ صَارَ اقْتِرَاحَا
فَقَدْنِ النَّجْمِ وَالْقَمَرِ اللَّيَّاحَا
بِقَاءِ الرِّقِّ، أَوْ نَرْجُو السَّرَاحَا
مِنَ الْإِعْيَاءِ كَالْإِبِلِ الرَّزَاحِي
بِمَا صَبَرُوا، وَلَا مَوْتَ أَرَا حَا
وَمَنْزُوفٍ وَإِنْ لَمْ يُسَقِّ رَا حَا
وَلَا اعْتَقَلُوا الْأَسِنَّةَ وَالصَّفَاحَا
بِمَا عَمِلَ الْجَوَاسِيسُ اجْتِرَاحَا
فِيَا يَوْمَ الرِّسَالَةِ، عِمَّ صَبَاحَا
وَلَا بَرَهَانَ عَزَّتِكَ التِّمَاحَا
بِهَا التَّارِيخُ يُفْتَتِحُ افْتِتَاحَا
وَنُورُكَ عَنْ هَلَالِ الْفَطْرِ لَاحَا
وَمَثَلَتِ الضَّحِيَّةُ وَالسَّمَاحَا
إِلَى «فِرْعَوْنَ» فَابْتَدَأَ الْكِفَاحَا^{١٦}
وَأَطْعَى مِنْ قِيَاصِرِهَا رَمَاحَا
يَخَالُ وَرَاءَ هَيْكَلِهِ «فِتَاحَا»
فِيَا لَكَ خَيْبَةً عَادَتْ نَجَاحَا!
وَلَامَتْ^{١٧} فُرْقَةً وَأَسَتْ جِرَاحَا
عَزَائِمَهُمْ فَرَدَّتْهَا صِحَاحَا
فَرَجَّ شِعَابَ مَكَّةَ وَالْبِطَاحَا
عَلَى جَنَابَاتِهِ اسْتَبَقُوا الصَّلَاحَا
وَكَانُوا بِالْحَيَاةِ هُمُ الشَّحَاحَا

وَلَمَّا سُلِّتَ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي
فَحَطَّمْنَا الشَّكِيمَ سِوَى بَقَايَا
وَقَمْنَا فِي شِرَاحِ الْحَقِّ نُلْقَى
نُعَالِجُ شِدَّةً، وَنَرُوضُ أُخْرَى
وَنَسْتُولِي عَلَى الْعَقَبَاتِ إِلَّا
وَمَنْ يَصْبِرُ يَجِدْ طَوْلَ التَّمَنِّي
وَأَيَّامَ كَأَجَوَافِ اللَّيَالِي
قَضِينَاهَا حِيَالَ الْحَرْبِ نَخْشَى
تَرَكْنَا النَّاسَ بِالْوَادِي قَعُودَا
جَنُودَ السَّلْمِ لَا ظَفَرَ جَزَاهُمْ
وَلَا تُلْقَى سِوَى حَيٍّ كَمِيتٍ
تَرَى أَسْرَى وَمَا شَهِدُوا قِتَالًا
وَجَرَحَى السَّوْطِ لَا جَرَحَى الْمَوَاضِي
صَبَاحُكَ كَانَ إِقْبَالًا وَسَعْدًا
وَمَا تَأَلَّوْا نَهَارَكَ ذِكْرِيَاتٍ
تَكَادُ جَلَاكَ فِي صَفَحَاتِ مَصْرِ
جَلَاكَ عَنْ سَنَا الْأَضْحَى تَجَلَّى
هَمَا حَقٌّ، وَأَنْتَ مُلِئْتَ حَقًّا
بَعَثْنَا فِيكَ «هَارُونَ وَمُوسَى»
وَكَانَ أَعَزَّ مِنْ رُومَا سِيَوْفَا
يَكَادُ مِنَ الْفَتْوحِ وَمَا سَقَتْهُ
وَرَدَّ الْمُسْلِمُونَ فَقِيلَ: خَابُوا
أَثَارَتْ وَادِيًا مِنْ غَايَتَيْهِ
وَشَدَّتْ مِنْ قُوَى قَوْمِ مِرَاضٍ
كَأَنَّ بِلَالَ نُودِي: قُمْ فَأَذْنُ
كَأَنَّ النَّاسَ فِي دِينٍ جَدِيدٍ
وَقَدْ هَانَتْ حَيَاتُهُمْ عَلَيْهِمْ

فتسمع في مآتمهم غناءً
حَوَارِيَّينَ أَوْفَدْنَا ثِقَاتٍ
فكانوا الحقَّ منقبضاً حَيًّا
لهم مِنَّا براءةُ أهلِ بدرٍ
ترى الشَّحناءَ بينهمو عِتَابًا
جعلنا الخلدَ منزلَهم، وزدنا
يَمِينًا بالتي يُسَعَى إليها
وتَعَبَّقُ في أنوفِ الحجِّ رُكْنًا
وبالدستور، وهُوَ لنا حياةُ
أخذناه على المُهَجِ الغوالي
بنينا فيه من دمِ رواقٍ
... لما ملأَ الشبابَ كروحِ سعدٍ
سَلَوْا عن القضية، هل حَمَاهَا
وهل نظمَ الكهولَ الصَّيْدَ صَفًّا
هو الشيخُ الفَتِيُّ، لو استراحت
وليس بذاقِ النومِ اغتَبَاقًا
فيا لَكَ ضَيِّغَمًا سَهرِ الليالي
ولا حَطَمَتَ لك الأيامُ نَابًا

وتسمع في ولائهم نواحا
إِذَا تُرِكَ البَلاغُ لهم، فصاحا
تحدَّى السيفَ مُنصِلَتَا وَقَاحا
فلا إِثْمًا نَعُدُّ ولا جُنَاحا
وتحسب جِدْهم فيها مُزَاحا
على الخلدِ الثناءَ والامتداحا
غُدُّوا بالندامة، أو رَوَاحا
وتحت جِبَاهِهم رَحَبًا، وساحا
نرى فيه السلامةَ والفلاحا
ولم نأخذه نيلًا مُستَمَاحا
ومن دمِ كلِّ نَابَتَةٍ جناحا ...
ولا جعل الحياةَ لهم طِمَاحا
وكان جِمي القضية مُستَبَاحا؟
وَأَلَّفَ من تجارِبِهم رَدَاحا؟
من الدَّأبِ الكواكبُ ما استراحا
إِذَا دار الرِّقَادُ، ولا اصطَبَاحا
وناضل دونَ غايَتِهِ، ولاحَى
ولا غَضَّتْ لك الدنيا صِيَاحا

مَعَالِي الْعَهْدِ

«نظمها في ميلاد الأمير السابق محمد عبد المنعم»

مَعَالِي الْعَهْدِ قُفَّتَ بِهَا فَطِيمَا
تَنَقَّلَ مِنْ يَدِ لَيْدٍ كَرِيمَا
تَنَحَّى لِابْنِ مَرِيَمَ حِينَ جَاءَ
ضِيَاءُ لِلْعَيُونِ تَلَا ضِيَاءَ

وكانَ إِلَيْكَ مَرَجِعُهَا قَدِيمَا
كَرُوحِ اللَّهِ إِذْ خَلَفَ «الْكَلِيمَا»^{١٨}
وخلَّى النُّجْمُ لِلْقَمَرِ الفَضَاءَ
يَفِيضُ مَيَامِنًا، وَهُدَى عَمِيمَا

وهل مُتَجَزَّئُ ضَوْءُ النُّجُومِ؟
تَأَلَّقَ عِقْدُهُ بِكُمُؤِ نَظِيمَا؟
وَعُنُونَا يُكِنُّ لَنَا كِتَابَا
وكان اليأسُ شيطانًا رَجِيمَا
كما كانت وَأَزِينُ فِي الزَّمَانِ
على الأفاقِ مَسْطُورًا رَقِيمَا
وهذا عِيدُهُ فِي مِصْرَ يُجَلَّى
وكان اللهُ بالنَجْوَى عَلِيمَا
هَلَاةً فِي مَنَازِلِهِ أَغْرَا
وبَاتَ التَّغْرُ لِلدُّنْيَا نَدِيمَا
وَشَعِبَ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ الْعَوَالِي ...
وأَهْدِي حِكْمَتِي الشَّعْبَ الْحَكِيمَا
وَشَبُّوا فِيكَ وَاجْتَاوَا السَّنِينَا
وكن لُورِيكَ الْمَاءِ الْحَمِيمَا
وَشَاءَ الْجَدُّ أَنْ تُعْطِي، وَشِئْنَا
وَحَلَّ دَلِيلُكَ الدِّينَ الْقَوِيمَا
وَحُذِّهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا يَلِيهِ
ولا تَهْجُرْ مَعَ الدِّينِ الْعُلُومَا
وكن مما اعتقدتَ على يَقِينِ
فمن شَرَفِ الْمَبَادِي أَنْ تُقِيمَا
فَرْمَهَا بِاجْتِهَادِكَ وَالثَّبَاتِ
تُنَافِسُ فِي جَلَالَتِهَا النُّجُومَا
فَأَقْدِمِ قَبْلَ إِقْدَامِ الْأَنَامِ
فَيَمْلَأُ كُلَّ نَاطِقَةٍ وَجُومَا
ولا تَكُ ضَائِعًا بَيْنَ الْبَرََايَا
يَمْرُ بِهَا، وَلَا يَمْضِي عَقِيمَا
ولا تَقْنَعُ إِلَى هَجْرِ الْمَعَالِي

كذا أَنْتُمْ بَنِي الْبَيْتِ الْكَرِيمِ
وَأَيْنَ الشُّهُبُ مِنْ شَرَفِ صَمِيمِ
أَرَى مُسْتَقْبَلًا يَبْدُو عُجَابَا
وكان «محمَّد» أَمَلًا شَهَابَا
وَأَشْرَقَتْ (الْهَيَاكِلُ) وَالْمَبَانِي
وَأَصْبَحَ مَا تُكِنُّ مِنَ الْمَعَانِي
سَأَلْتُ، فَقِيلَ لِي: وَضَعْتُهُ طِفْلَا
فَقُلْتُ: كَذَلِكَمِ أَنْسَتُ قَبْلَا
(بِمُنْتَزِهِ) الْإِمَارَةِ هَلْ فَجْرَا
فَبَاتَتْ مِصْرُ حَوْلَ الْمَهْدِ (تَغْرَا)
لِجَبِيلِكَ فِي غِدِّ جَبَلِ الْمَعَالِي
... أَزْفُ نَوَابِغِ الْكَلِمِ الْغَوَالِي
إِذَا أَقْبَلْتَ يَا زَمَنَ الْبَنِينَا
فَدُرْ مِنْ بَعْدِنَا لَهُمُؤِ يَمِينَا
وَيَا جَبِيلَ الْأَمِيرِ، إِذَا نَشَأْتَا
فَخُذْ سُبُلًا إِلَى الْعِلْيَاءِ شَتَّى
وَضِنَّ بِهِ؛ فَإِنْ الْخَيْرِ فِيهِ
ولا تَأْخُذْهُ مِنْ شَفَتِي فَقِيهِ
وِثْقُ بِالنَّفْسِ فِي كُلِّ الشُّنُونِ
كَأَنَّكَ مِنْ ضَمِيرِكَ عِنْدَ دِينِ
وإن تَرُمِ الْمَظَاهِرَ فِي الْحَيَاةِ
وَحُذِّهَا بِالْمَسَاعِي بِأَهْرَاتِ
وإن تَخْرُجْ لِحَرْبٍ أَوْ سَلَامِ
وكن كَاللِّيثِ: يَأْتِي مِنْ أَمَامِ
وكنْ شَعْبَ الْخَصَائِصِ وَالْمَزَايَا
وكن كَالنَّحْلِ وَالدُّنْيَا الْخَلَايَا
ولا تَطْمَحْ إِلَى طَلَبِ الْمُحَالِ

كصبر الأنبياء لها قديما
ولا تحمل لغير الدهر ظلما
إذا لم تقدر الأمر المروما
ولا تثقن من مجرى الأمور
ولا أحد بما تأتي عليما
كوضع الشمس في الوحل الضياء
وكان الجهل ممقوتا دميما
ولا تعجل، وثق من كل أمر
وليست ورضا حتى تحوما
فكن ضيف الرعاية والوداد
فشّر الناس أكثرهم خصوما
ولا تسمح بحلمك أن يذالا
فلن ترضي العدو ولا الحميما
وقبل الصوم صم عن كل فحشا
وأن مزكيا آمن الجحيما
ومعنى البر في لفظ الزكاة
ولا هو لإمرئ زكي غريما
وإن تك حاكما فاعدل، وأحسن
وكن للفرض بعدئذ مقيما
فخير مظاهر الأمم البيان
غريبا في مواطنه مضيما
وكان الخير إذ كانت بخير؟
ويبقى أهلها رَحْمًا وبُوما؟!
ودع دعوى تمدنهم وخل
ولا خرس الفتى فضلا عظيما
ولا تجعل لسان الأصل نسيا
وما بلغ الجديد، ولا القديم

فإن أبطأ فاصبر غير سال
ولا تقبل لغير الله حكما
ولا ترض القليل الدون قسما
ولا تياس، ولا تك بالضجور
فليس مع الحوادث من قدير
وفي الجهال لا تضع الرجاء
يضيع شعاعها فيه هباء
وبالغ في التدبر والتحرّي
وكن كالأسد: عند الماء تجري
وما الدنيا بمثوى للعباد
ولا تستكثر من الأعادي
ولا تجعل توددك ابتذالا
وكن ما بين ذاك وذاك حالا
وصل صلاة من يرجو ويخشى
ولا تحسب بأن الله يرشى
لكل جنى زكاة في الحياة
وما لله فينا من جبة
فإن تك عالما فاعمل، وفطن
وإن تك صانعا شيئا فأتقن
وصن لغة يحق لها الصيأن
وكان الشعب ليس له لسان
ألم ترها تنال بكل ضير
أينطق في المشارق كل طير
فعلّمها صغيرك قبل كل
فما بالعي في الدنيا التحلي
وخذ لغة المعاصر، فهي دنيا
كما نقل الغراب فضل مشيا

فَأَمَّا أَنْتَ يَا نَجَلَ الْمَعَالِي
يُحَيِّرُ فِي الْكَمَالَاتِ الْفُهُومَا
وَلَا أَبْغِي بِهَا جَدَّوَاكَ بَعْدِي
وَكَانَ النَّفْعُ فِي الدُّنْيَا لَزُومَا
فَإِنْ أَبَاكَ يَعْرِفُهُ وَيَذَرِي
فَأَصْرَعُ فِي سَوَابِقِهَا (تَمِيمَا)
وَعَهْدُكَ عِصْمَةٌ لَهُمُو وَظَلُّ
يَعِيشُ بِأَنْ تَعِيشَ وَأَنْ تَدُومَا؟

لَجِيكَ يَوْمَ نَشَأْتَهُ مَقَالِي
فَتَنْظُرُ مِنْ أَبِيكَ إِلَى مِثَالِ
نَصَائِحُ مَا أَرَدْتُ بِهَا لِأَهْدِي
وَلَكِنِّي أُجِبُّ النَّفْعَ جَهْدِي
فَإِنْ أَقْرَنْتُ - يَا مَوْلَايَ - شِعْرِي
وَجَدُّكَ كَانَ شَاوِي حِينَ أَجْرِي
بَنُونَا أَنْتَ صُبْحُهُمُو الْأَجَلُ
فَلِمَ لَا نَرْتَجِيكَ لَهُمْ وَكُلُّ

رِسَالَةُ النَّاشِئَةِ

«أهداها إلى الأمير السابق محمد عبد المنعم»

مَصْدَرَ الْحِكْمَةِ طُرًّا وَالضِيَاءَ
وَعَلَى مَا نِلْتُ مِنْ فَضْلِ وَجُودِ
وَبِقَلْبٍ مِنْ رَجَاءِ اللَّهِ حَيٍّ
وَإِخْشَاءِ خَشْيَةٍ مَنْ فِيهِ هَلَكُ
وَتَمَتَّعَ فِيهِ مِنْ خَيْرِ رَزَقِ
كُلِّ شَيْءٍ لَكَ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ
لَكَ، وَالرَّيْحُ، وَمَا تَحْتَ السَّمَاءِ
لَكَ فِي الظُّلْمَةِ لِلنُّورِ حَنِينُ
حَارٍ فِيهِ كُلُّ «بِقَرَاطٍ» عَلِمَ
حِينَ مَسَّتْهُ يَدُ اللَّهِ خَفَقَ
كَانَ فِي الْأَضْلَاعِ لَحْمًا وَدَمًا
فِي انْتِفَاضٍ كَانْتِفَاضِ الْبُلْبُلِ
صَنَعَةُ اللَّهِ، وَلَكِنْ زَغْتُمَا
إِنْ غَيَّرَ اللَّهُ عَقْلًا لَا يَجُوزُ

أَحْمَدُكَ اللَّهُ وَأُطْرِي الْأَنْبِيَاءَ
وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى نِعْمَى الْوُجُودِ
أُعْبِدُ اللَّهَ بِعَقْلٍ يَا بُنَيَّ
أَرْجُهُ تُغَطِّ مَقَالِيدَ الْفَلَكَ
أُنْظِرِ الْمُلْكَ، وَأَكْبِرْ مَا خَلَقَ
أَنْتَ فِي الْكَوْنِ مَحَلُّ التَّكْرِمَةِ
سُخَّرَ الْعَالَمُ مِنْ أَرْضٍ وَمَاءٍ
أُذَكِّرُ الْآيَةَ إِذْ أَنْتَ جَنِينُ
كُلِّ يَوْمٍ لَكَ شَأْنٌ فِي الظُّلَمِ
كَانَ فِي جَنْبِكَ شَيْءٌ مِنْ عَلَقٍ
صَارَ حِسًّا وَحَيَاةً بَعْدَ مَا
دَقَّ كَالنَّاقُوسِ وَسَطَ الْهَيْكَلِ
قُلْ لِمَنْ طَبَّبَ، أَوْ مَنْ نَجَّمَ:
أَمِنَا بِاللَّهِ إِيْمَانُ الْعَجُوزِ

خَيْرَ مَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ جُمْعُ
 هَلْ تَرَى الْجَهْلَالَ إِلَّا كَالنَّعَمِ؟
 لظهورٍ باطلٍ بَيْنَ الْمَلَا
 فَإِذَا فَاتَكَ هَذَا فافترَّقْ
 لَيْسَ لِلْأَعْمَى عَلَى الضَّوِّ هُدًى
 فامتنعْ عن كلِّ تحصيلٍ عَقِيمٍ؛
 كَمَ مَعَ الْجَهْلِ يَسَارٌ وَغَنَى!
 التَّجَارِيِبُ عُلُومُ الْفَهْمِ
 كُلُّ يَوْمٍ فِيهِ لِلْعِبْرَةِ بَابٌ
 مَا يُفِيدُ الْعَقْلُ إِنْ عَيَّ اللِّسَانُ
 مُظْلَمٌ لَا تَهْتَدِي فِي كُتُبِهِ
 جَاءَ بِالْحِكْمَةِ فِيمَا نَظَّمَا
 مَنْ تَغَبَّ عَنْهُ تَفَنُّهُ الْمَعْرِفَةِ
 ضَاعَ قَوْمٌ لَيْسَ يَدْرُونَ الْخَبِرَ
 مَنْ يَخُنْ أَوْطَانَهُ يَوْمًا يَخُنْ
 يَذْكُرُ الْمِنَّةَ مِنْهُ وَالْيَدَا
 كُلُّ حُبِّ شُعْبَةٍ مِنْ حُبِّهِ
 يَعْرِفُ الشَّوْقُ لَهُ مَنْ يَغْتَرِبُ
 فَإِذَا وُورِيَتْ فَالْقَبْرِ الْكَرِيمِ
 وَعَهْدُكَ بَعْدَكَ اسْتَرْعَيْتَهُ
 تَذْرِفُ الدَّمْعَ لِذِكْرِهِ دَمَا
 إِنَّمَا الصِّحَّةُ وَالرِّزْقُ الْعَمَلُ
 مَتَّقَنَّ الْأَعْمَالِ سِرُّ اللَّهِ فِيهِ
 كُلُّ شَيْءٍ بِجَزَاءٍ وَثَمَنُ
 قَدْ حَبَاها الْخَلْدُ مَنْ أَتَقَنَّهَا
 أَتَقَنَّوا الصَّنْعَةَ حَتَّى فِي الْجَعْلِ
 طَالَعُ التَّاجِرِ فِي حُسْنِ الْأَدَبِ

أَيُّهَا الطَّالِبُ لِلْعِلْمِ اسْتَمْعْ
 هُوَ إِنْ أُوتِيَتْهُ أَسْنَى النَّعَمِ
 أَطْلُبِ الْعِلْمَ لِذَاتِ الْعِلْمِ، لَا
 عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ لِلْعِلْمِ مَذَاقُ
 طَلِبُ الْمَحْرُومِ لِلْعِلْمِ سُدًى
 فَإِذَا فَاتَكَ تَوْفِيقُ الْعَلِيمِ
 واطلبِ الرِّزْقَ هُنَا أَوْ هَاهُنَا
 كُلُّ مَا عَلَّمَكَ الدَّهْرُ اعْلَمْ
 إِنَّمَا الْأَيَّامُ وَالْعَيْشُ كِتَابٌ
 إِنْ رُزِقْتَ الْعِلْمَ زِنَهُ بِالْبَيَانِ
 كَمَ عَلِيمٍ سَقَطَ الْعِيُّ بِهِ
 وَأَدِيبٍ فَاتَهُ الْعِلْمُ فَمَا
 إِنْ لِلْعِلْمِ جَمِيعًا فَلِسْفَهُ
 اقْرَأِ التَّارِيخَ إِذْ فِيهِ الْعِبَرُ
 كُنْ إِلَى الْمَوْتِ عَلَى حُبِّ الْوِطَنِ
 وَطَنُ الْمَرْءِ حِمَاةُ الْمَفْتَدَى
 قَدْ عَرَفْتَ الدَّارَ وَالْأَهْلَ بِهِ
 هُوَ مَحْبُوبُكَ بِادٍ مُحْتَجِبُ
 لَكَ مِنْهُ فِي الصَّبَا مَهْدٌ رَحِيمُ
 كَمَ عَزِيزٍ عِنْدَكَ اسْتَوْدَعْتَهُ
 وَدَفِينٍ لَكَ فِيهِ كَرَمًا
 كُنْ نَشِيطًا عَامِلًا جَمَّ الْأَمَلُ
 كُلُّ مَا أَتَقَنَّتَ مَحْبُوبٌ وَجِيهٌ
 يُقْبِلُ النَّاسُ عَلَى الشَّيْءِ الْحَسَنِ
 أَنْظِرِ الْأَثَارَ، مَا أَزَيَّنَهَا!
 تِلْكَ أَثَارُ بَنِي مِصْرَ الْأَوَّلِ
 أَيُّهَا التَّاجِرُ، بُلِّغْتَ الْأَرْبَ

لَا تُفَارِقْ بَابَهُ، أَوْ فَارِقِ
كُلَّهُمْ مِنْهُ رَسُولٌ وَصَلَا
لَفْظَةً مِنْ فِيهِ لِلْقَوْمِ يَمِينٌ
فَتَشَبَّهَ؛ إِنَّ مَنْ يُقَدِّمُ يَسُدُّ
مِنْهُمْ «إِسْكَندَرُ» وَ«ابْنُ زِيَادٍ»
كَشَجَاعِ الْقَلْبِ فِي وَقْتِ الْحُرُوبِ
إِنَّمَا مَنْ يَنْصُرُ الْحَقَّ الْبَاطِلُ
مِنْ غَزَاةٍ أَوْ دُعَاةٍ مُصْلِحِينَ
مَا لِرَاعِي غَنَمٍ عِنْدَ الْغَنَمِ
لَكُمْو دِينَ رَضِيْتُمْ وَلَى دِينَ
إِنَّهُ أَوْلَى بِهِمْ سَبْحَانَهُ!
فَدَعَ الْأَقْدَارَ تَجْرِي وَاسْتَعَدَّ
لَا تُعَارِضُ أَبَدًا مَجْرَى الْأُمُورِ
وَإِذَا شِئْتَ: قَضَاءٌ وَقَدَرٌ!
طَيِّبَ الْحَمْدِ، وَإِنْ مِتَّ بَقِيَ
فَرَحِيمٌ سَوْفَ يُجْزَى مِنْ رَحِيمٍ
وَتَعَهَّدَ وَتَوَلَّى الْبُؤْسَا
كُلُّ خُلُقٍ فَاضِلٍ دُونَ السَّخَاءِ
لَسْتَ تَدْرِي فِي غَدٍ مَا يَقَعُ
رَبِّ قَبْدٍ مِنْ جَمِيلٍ وَصَنِيْعٍ
فَقَدِيمًا جَمَّلَ الْمَرْءَ الْأَدَبُ
إِنْ ضَيَّقَ الرِّزْقُ مِنْ ضَيْقِ الْخُلُقِ
فَهُمَا ضِدَّانِ كَبِيرٌ وَكَبِيرُ
فَاتَرُكُ الْكِبَرِ لَهُ وَالْجَبَرُوتُ
كَمْ حَسُودٍ قَدْ تَوَفَّاهُ الْكَمَدُ
شَرَفٍ قَدْ مُسَّ، أَوْ عَرِضَ كَرِيمٍ
إِنَّهُ كَالنَّارِ وَالرُّشْدُ الْحَطَبُ

بَابُ حَانُوتِكَ بَابُ الرَّازِقِ
وَاحْتَرِمَ فِي بَابِهِ مَنْ دَخَلَ
تَاجِرُ الْقَوْمِ صَدُوقٌ وَأَمِينٌ
إِنْ لِلْإِقْدَامِ نَاسًا كَالْأَسَدِ
مِنْهُمْو كُلُّ فِتْنَى سَادَ وَشَادَ
وَشَجَاعُ النَّفْسِ مِنْهُمْ فِي الْكُرُوبِ
وَابِلُ «سُقْرَاطُ» وَالشَّجْعَانُ طَلَّ
هُمْ جَمَالُ الدَّهْرِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ
لَهُمْ مِنْ هَيْبَةٍ عِنْدَ الْأُمَمِ
قَلَّ إِذَا خَاطَبْتَ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ:
خَلَّ لِلدِّيَّانِ فِيهِمْ شَانُهُ
كُلُّ حَالٍ صَائِرٌ يَوْمًا لِيُضَدَّ
فَلَكَ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ يَدُورُ
قَلَّ إِذَا شِئْتَ: صُرُوفٌ وَغَيْرُ!
وَاعْمَلِ الْخَيْرَ، فَإِنْ عِشْتَ لَقِيَ
مَنْ يَمُتُ عَنْ مِنَّةٍ عِنْدَ يَتِيمٍ
كَنْ كَرِيمًا إِنْ رَأَى جُرْحًا أَسَا
وَاسْخُ فِي الشَّدَّةِ وَازْدَدَ فِي الرِّخَاءِ
فَبِهِ كُلُّ بَلَاءٍ يُدْفَعُ
جَامِلِ النَّاسِ تَحَزَّرْ رِقَّ الْجَمِيعِ
عَامِلِ الْكُلِّ بِإِحْسَانٍ تَحَبَّ
وَتَجَنَّبْ كُلَّ خُلُقٍ لَمْ يَرْقُ
وَتَوَاضَعْ فِي ارْتِفَاعٍ تُعْتَبَرُ
كُلُّ حَيٍّ مَا خَلَا اللَّهَ يَمُوتُ
وَأَرْخِ جَنْبَكَ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ
وَإِذَا أَغْضَبْتَ فَاغْضَبْ لِعَظِيمٍ
وَتَجَنَّبْ فِي الصَّغِيرَاتِ الْغَضَبُ

طالِبُ الحَقِّ بَعْنَفٍ مُعْتَدٍ
 كَمَ مُطِيعٍ لِهَوَى النَفْسِ هَوَى
 يَحْقِرُ المَوْتَ يَنْلُقُ الرِّقَّ الزَّمْنَ
 إِنَّمَا الطِّفْلُ عَلَى الأَرْضِ مَلَكٌ
 رَجِمَ اللّهُ امْرَأً يَرْحَمُهُ
 تُخْرِجُ المَخْزُونَ مِنْ كُرْبَتِهِ
 يَمْلَأُ العَيْشَ نَعِيمًا وَسَعَةً
 صُمٌّ عَنِ الغَيْبَةِ يَوْمًا والنَّمِيمِ
 كَمَ مُصَلٍّ صَجَّ مِنْهُ المَسْجِدُ!
 غَبَّ حَجٌّ لِبُيُوتِ الفُقَرَا
 مِنْ وَقَارِ اللّهِ أَلَّا تَخْدَعَهُ
 إِنَّهَا مَحْبُوبَةٌ عِنْدَ الإِلَهِ
 فَإِذَا مَا زِدْتَ فَالِلّهِ كَرِيمِ
 بَيِّدَ أَنَّ العَيْشَ دَرْسٌ وَاطِّلَاغٌ
 إِنَّ «عِزْرَائِيلَ» فِي خَلْقِ النَّهْمِ
 مَنْ تَوَقَّاهُ اتَّقَى نِصْفَ العِلَلِ
 بَيْنَ شَمْسٍ، وَنَبَاتٍ، وَهَوَاءٍ
 تَبْخُلُ الشَّمْسُ عَلَيْهَا بِالمَرُورِ
 يَسْتَوِي الصُّعْلُوكُ فِيهِ وَالمَلِكُ
 لَا يَرَى مَندُوحَةً عَنْ شُرْبِهَا
 إِنَّ عَقْلَ البَعْضِ فِي كَفِّ النَّدِيمِ
 فَهُوَ سَلُّ المَالِ بَلْ سَلُّ الكِبْدِ
 مَا دَرَى اللَّذَةَ مِنْ لَمْ يَعِشْ!

أَطْلُبِ الحَقَّ بِرِفْقٍ تُحْمَدِ
 وَاعْصِ فِي أَكْثَرِ مَا تَأْتِي الهَوَى
 اذْكُرِ المَوْتَ وَلَا تَفْزَعْ فَمَنْ
 أَحَبَّ الطِّفْلَ وَإِنْ لَمْ يَكُ لَكَ
 هُوَ لُطْفُ اللّهِ لَوْ تَعَلَّمَهُ
 عَطْفَةً مِنْهُ عَلَى لُغْبَتِهِ
 وَحَدِيثُ سَاعَةِ الضُّيْقِ مَعَهُ
 يَا مُدِيمَ الصَّوْمِ فِي الشَّهْرِ الكَرِيمِ
 وَإِذَا صَلَّيْتَ خَفْ مَنْ تَعْبُدُ
 وَاجْعَلِ الحَجَّ إِلَى «أُمِّ القُرَى»
 هَكَذَا «طَهُ» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ
 وَتَسَمَّحْ وَتَوَسَّعْ فِي الزَّكَاةِ
 فَرَضَ البِرَّ بِهَا فَرَضَ حَكِيمِ
 لَيْسَ لِي فِي طَبِّ «جَالِينُوسَ» بَاغٌ
 احْذَرِ التُّخْمَةَ إِنْ كُنْتَ فَهَمٌ
 وَاتَّقِ البَرْدَ؛ فَكَمْ خَلَقَ قَتَلَ
 اتَّخَذَ سُكْنَاكَ فِي طَلْقِ الجَوَاءِ
 خَيْمَةً فِي البَيْدِ خَيْرٌ مِنْ قَصُورِ
 فِي غَدٍ تَأْوِي إِلَى قَفْرِ حَلَكِ
 وَاتْرُكِ الخَمَرَ لِمَشْغُوفٍ بِهَا
 لَا تُنَادِمَ غَيْرَ مَأْمُونٍ كَرِيمِ
 وَعَنِ المَيْسِرِ مَا اسْطَغَتْ ابْتِعَدُ
 وَتَعَشَّقْ، وَتَعَقَّفْ، وَاتَّقِ

حَجُّ الْأَمِيرِ

«أرسل الأبيات الآتية في برقية إلى شريف مكة سنة حج الخديو عباس»

دامت معاليك فينا يا ابن فاطمة	ودام منكم لأفُق البيتِ نِبراسُ
قل للخديو إذا وافيتْ سُدَّتَه	تمشي إليه ويمشي خَلَقَك الناس
حجُّ الأمير له الدنيا قد ابْتَهَجَتْ	والعودُ والعبدُ أَفراحُ وأعراس
فلتَحَيِّ مَلَّتُنَا! فلتَحَيِّ أَمَّنُنَا!	فليحي سُلطانُنَا! فليحي عباس!

إِسْمَاعِيلُ

«وقال وقد أشرف في مدينة نابلي على الدار التي كان يقيم فيها الخديو إسماعيل»

أَبْكِيكَ إِسْمَاعِيلَ مِصرَ، وفي البُكا	بعدَ التَّذْكَرِ راحةُ المُسْتَعْبِرِ
ومن القيامِ ببعضِ حَقِّكَ أَنني	أَرْقَى لِعِزِّكَ والنعيمِ المَدْبِرِ
هذي بُيوتُ الرُّومِ، كيف سَكَنْتَها	بعدَ القصورِ المَزْرِياتِ بَقِيصَر؟
ومن العجائبِ أَنَّ نَفْسَكَ أَقْصَرَتْ	والدهرُ في إِحراجِها لم يُقْصِرْ
ما زالَ يُخْلي مِنْكَ كُلَّ مَحَلَّةٍ	حتى دُفِعَتْ إِلى المَكانِ الأَقْفَرِ
نَظَرَ الزَمانَ إِلى ديارِكَ كُلَّها	نَظَرَ (الرَّشيدَ) إِلى مَنازِلِ (جَغر) ^{١٩}

حَرِيقُ مَيْتِ عَمْرٍ^٢

اللَّهُ يَحْكُمُ في المَدائِنِ والقُرى	يا (مَيْتَ عَمْرٍ) خَذِي القِضاءَ كما جَرى
ما جَلَّ خَطْبُ ثَم قِيسَ بَغيرِهِ	إِلا وَهوَنَهُ القِياسُ وصَغَّرَا

^٢ سنة ١٩٠٥، نشرت بمجلة المجلات العربية.

فَسَلَى (عَمُورَةً) أَوْ (سُدُون) تَأْسِيًّا
 مُدْنٌ لِقِيْنٍ مِنَ الْقَضَاءِ وَنَارِهِ
 هَذِي طُلُوكُ أَنْفَسًا وَجَجَارَةً
 قَدْ جِئْتُ أَبْكِيهَا وَأَخْذُ عِبْرَةً
 أَجْدُ الْحَيَاةَ حَيَاةَ دَهْرٍ سَاعَةً
 وَأَعُدُّ مِنْ حَزْمِ الْأُمُورِ وَعِزْمِهَا
 مَا زِلْتُ أَسْمَعُ بِالشَّقَاءِ رَوَايَةً
 فَعَلَ الزَّمَانُ بِشَمْلٍ أَهْلِكَ فِعْلُهُ
 بِالْأَمْسِ قَدْ سَكَنُوا الدِّيَارَ، فَأَصْبَحُوا
 فَإِذَا لَقِيتَ لَقِيتَ حَيًّا بَائِسًا
 وَالْأُمَهَاتُ بِغَيْرِ صَبْرِ: هَذِهِ
 مِنْ كُلِّ مُودِعَةِ الطُّلُولِ دُمُوعُهَا
 كَانَتْ تُؤْمَلُ أَنْ تَطُولَ حَيَاتُهُ
 طَلَعَتْ عَلَيْكَ النَّارُ طَلْعَةَ شَوْمِهَا
 مَلَكَتْ جِهَاتِكَ لَيْلَةً وَنَهَارَهَا
 لَا تَرْهَبُ الطُّوفَانَ فِي طُغْيَانِهَا
 لَوْ أَنَّ (نَيْرُونَ) الْجَمَادَ فُؤَادُهُ
 أَوْ أَنَّهُ ابْتِلَايَ (الْخَلِيلُ) بِمِثْلِهَا
 أَوْ أَنَّ سَيْلًا عَاصِمٌ مِنْ شَرِّهَا
 أَمْسَى بِهَا كُلُّ الْبَيُوتِ مُبَوَّبًا
 أَسْرَتْهُمْ، وَتَمَلَّكَتْ طُرُقَاتِهِمْ
 خَفَّتْ عَلَيْهِمْ يَوْمَ ذَلِكَ مَوْرِدًا
 حَيْثُ التَّفَتُّ تَرَى الطَّرِيقَ كَأَنَّهَا
 وَتَرَى الدَّعَائِمَ فِي السَّوَادِ كَهَيْكَلٍ
 وَتَشْمُ رَائِحَةَ الرُّفَاتِ كَرِيهَةً
 كَثُرَتْ عَلَيْهَا الطَّيْرُ فِي حَوْمَاتِهَا
 هَلْ تَأْمَنِينَ طَوَارِقَ الْأَحْدَاثِ أَنْ

أَوْ (مُرْتَنِيَقَ) غَدَاةٍ وَوَرِيَتِ الثَّرَى
 شَرًّا بَجَنِبِ نَصِيْبِهَا مُسْتَضْعَرًا
 هَلْ كُنْتُ رُكْنًا مِنْ جَهَنَّمَ مُسْعَرًا؟!
 فَوَقَفْتُ مُعْتَبِرًا بِهَا مُسْتَعْبِرًا
 وَأَرَى النِّعِيمَ نَعِيمَ غُمرٍ مُقْصِرًا
 لِلنَّفْسِ أَنْ تَرْضَى، وَأَلَّا تَضْجَرَ
 حَتَّى رَأَيْتُ بِكَ الشَّقَاءَ مُصَوَّرًا
 بِبَنِي أُمِّيَّةٍ، أَوْ قَرَابَةِ جَعْفَرَا
 لَا يُنْظَرُونَ، وَلَا مَسَاكِنُهُمْ تُرَى
 وَإِذَا رَأَيْتَ رَأَيْتَ مَيِّتًا مُنْكَرًا
 تَبْكِي الصَّغِيرَ، وَتَكَ تَبْكِي الْأَصْغَرَا!
 مِنْ أَجْلِ طِفْلِ فِي الطُّلُولِ اسْتَأْخَرَا
 وَالْيَوْمَ تَسْأَلُ أَنْ يَعُودَ فَيُقْبَرَا
 فَمَحَتْكَ آسَاسًا، وَغَيَّرَتِ الذَّرَا
 حَمْرَاءَ يَبْدُو الْمَوْتُ مِنْهَا أَحْمَرَا
 لَوْ قَابَلْتَهُ، وَلَا تَهَابُ الْأَبْحَرَا
 يُدْعَى لِيَنْظُرَهَا لِعَافِ الْمَنْظَرَا
 — أَسْتَغْفِرُ الرَّحْمَنَ — وَلَى مُدْبِرَا
 عَصَمَ الدِّيَارَ مِنَ الْمَدَامِعِ مَا جَرَى
 وَمُطَنَّبًا، وَمُسَيِّجًا، وَمُسَوَّرَا
 مَنْ فَرَّ لَمْ يَجِدِ الطَّرِيقَ مُيَسَّرَا
 وَأَضَلُّهُمْ قَدَرٌ، فَضَلُّوا الْمَصْدَرَا
 سَاحَاتُ حَاتِمَ غَبِّ نِيرَانِ الْبَقَرَى
 خَمَدَتْ بِهِ نَارُ الْمَجُوسِ، وَأَقْفَرَا
 وَتَشْمُ مِنْهَا الثَّاكَلَاتُ الْعَنْبَرَا
 يَا طَيْرُ، «كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا»
 تَغْشَى عَلَيْكَ الْوَكْرَ فِي سِنَةِ الْكَرَى

تَأْتِي لَتَمَشِي فِي الطُّلُولِ وَتَحْبُرَا
وَأَرَى الْفَرَائِسَ بِالتَّسَاوُلِ أَجْدَرَا
يُطْفِي الْقُلُوبَ الْمُشْعَلَاتِ تَحْسُرَا
بِالصَّبْرِ، فَهُوَ بِمَالِهِمْ لَا يُشْتَرَى
أَوْ لَمْ تَكُنْ لِلْأَجْنِيِّينَ فَمَنْ تَرَى؟!
وَارْحَمِ رَمِيمَا فِي التَّرَابِ مُبْعَثَرَا
آيَاتُكَ السَّبْعُ الْقَدِيمَةُ فِي الْوَرَى
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ يُسِيرُ عَسْكَرَا؟!
بَرْدًا، وَخُذْ بِاللُّطْفِ فِيمَا قُدْرَا
يَا أُمَّةً قَدْ آتَى أَنْ تَسْتَغْفِرَا
مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْو فَأَصْبَحَ مُعْسِرَا
أَلَمْ تَنْتُمْوا الْأَيَّامَ أَنْ تَتَغَيَّرَا؟
مَا تَمْلِكُ الْأَقْدَارُ، مَهْمَا قُدْرَا
فَلَرَبِّ مَا شِ فِي الْحَرِيرِ تَعَثَّرَا
لَأَخِيكَ؛ فَادْكُرْهُ عَشِي أَنْ تُذْكَرَا

وَالنَّاسُ مِنْ دَانِي الْقُرَى وَبَعِيدِهَا
يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْحَرِيقِ وَهَوْلِهِ
يَارَبِّ، قَدْ خَمَدَتْ، وَلَيْسَ سَوَاكَ مَنْ
فَتَحُوا اكْتِتَابًا لِلْإِعَانَةِ فَاكْتَتَبَ
إِنْ لَمْ تَكُنْ لِلْبَائِسِينَ فَمَنْ لَهُمْ؟
فَتَوَلَّى جَمْعًا فِي الْيَبَابِ مُشْتَتًا
فَعَلَتْ بِمَصْرَ النَّارِ مَا لَمْ تَأْتِهِ
أَوْ مَا تَرَاهَا فِي الْبِلَادِ كَقَاهِرِ
فَادْفَعْ قَضَاءَكَ، أَوْ فَصِيْرُ نَارِهِ
مُدُّوا الْأَكْفَ سَخِيَّةً، وَاسْتَغْفِرِي
أَوَّلَى بِعُطْفِ الْمَوْسِرِينَ وَبِرِّهِمْ
يَا أَيُّهَا السُّجَنَاءُ فِي أَمْوَالِهِمْ
لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ مِنْ أَحْوَالِهِ
لَا يُبْطِرُنَّكَ مِنْ حَرِيرِ مَوْطِيْ
وَإِذَا الزَّمَانُ تَنَكَّرَتْ أَحْدَاثُهُ

خُطْبَةُ غَلِيُومٍ

«وخطب غليوم عاهل ألمانيا خطبة في سنة ١٩٠٦ كان لها وقع عظيم، وأحدثت أزمة
أوشكت أن تنتهي إلى حرب أوربية طاحنة، فقال:»

فِي ذَلِكَ الْحُلْمِ الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ؟
أَعْطَاكَ مِنْ مُلْكِكَ إِلَّا الْقَلِيلِ!
مُلْكُكَ إِنْ قِيسَ إِلَيْهِ الضَّئِيلِ
غَادَرَ مِنْ فَجٍّ، وَلَا مِنْ سَبِيلِ
وَالنَّصْفُ لِلرُّومَانِ فِيمَا يَقُولُ
أَيُّهُمَا — يَا رَبِّ — مَاضٍ ثَقِيلُ؟!

يَارَبِّ، مَا حَكْمُكَ؟ مَاذَا تَرَى
قَدْ قَامَ غَلِيُومٌ خَطِيبًا، فَمَا
شَيْدَ فِي جَنْبِكَ مُلْكًا لَهُ
قَدْ وَرَثَ الْعَالَمَ حَيًّا، فَمَا
فَالنَّصْفُ لِلْجَرْمَانِ فِي زَعِمِهِ
يَارَبِّ، قُلْ: سَيْفُكَ أَمْ سَيْفُهُ؟

إِنْ صَدَقْتُ — يَارَبِّ — أَحْلَامُهُ
لَا نَحْنُ جِرْمَانُ لَنَا حِصَّةُ
يَا رَبِّ، لَا تَنْسَ رَعَايَاكَ فِي
جَنَائِيهِ الْجَهْلِ عَلَى أَهْلِهِ
يَا لَيْتَ لَمْ نَمُدُّ بِشَرًّا يَدًا
جَنَى عَلَيْنَا غُصْبَةً جَارَفُوا
فَإِنَّ خُطْبَ الْمُسْلِمِينَ الْجَلِيلِ
وَلَا بِرُومَانَ فَنُعْطَى فَتِيلِ
يَوْمَ رَعَايَاكَ الْفَرِيقُ الذَّلِيلِ
قَدِيمَةً، وَالْجَهْلُ بِئْسَ الدَّلِيلِ
وَلَيْتَ ظِلُّ السَّلَامِ بَاقٍ ظَلِيلِ!
فَحَسْبُنَا اللَّهُ، وَنِعْمَ الْوَكِيلِ!

نادي الموسيقى الشرقي

«وقال يخاطب الملك فؤاد الأول في حفلة افتتاح نادي الموسيقى الشرقي سنة ١٩٢٩».

خَطَّتْ يَدَاكَ الرُّوْضَةَ الْغَنَاءَ
مَازَلْتَ تَذْهَبُ فِي السُّمُوِّ بِرُكْنِهِ
دَارٌ مِنَ الْفَنِّ الْجَمِيلِ تَقَسَّمَتْ
كَالرُّوْضِ تَحْتَ الطَّيْرِ أَعْجَبَ أَيْكُهُ
وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِهَا، فَلَمْ نَرِ قَبْلَهَا
وَتَوَهَّجَتْ حَتَّى تَقْلَبَ فِي السَّنَا
فَتَلَفَّتُوا يَتَهَامِسُونَ: لَعَلَّهُ
تِلْكَ الْمَعَارِزُ فِي طُلُولِ بَنَائِهِمْ
وَتَمَايَلَتْ عِيدَانُهُنَّ تَحِيَّةً
يَا بَانِي الْإِيوَانِ، قَدْ نَسَقْتَهُ
أَيْنَ (الْغَرِيضِ) يَجْلُهُ أَوْ (مَعْبَدٍ) ٢١
الْعَبْقَرِيَّةُ مِنْ ضَنَائِنِهِ الَّتِي
لَمْ بَنِيَتْ إِلَّايْكَ وَاسْتَوْهَبْتَهُ
فَسَمِعْتَ مِنْ مُتَفَرِّدِ الْأَنْغَامِ مَا
وَالْفَنُّ رِيحَانُ الْمُلُوكِ، وَرُبَّمَا
لَوْلَا أَيْدِيهِ عَلَى أَبْنَائِنَا
وَفَرَّغَتْ مِنْ صَرْحِ الْفَنُونِ بِنَاءَ
حَتَّى تَجَاوَزَ رُكْنُهُ الْجَوَازَ
لِلْسَاهِرِينَ رَوَايَةً وَرَوَاءَ
لَحْظَ الْعَيُونِ، وَأَعْجَبَ الْإِصْغَاءَ
فَلَكًا جَلَا شَمْسَ النَّهَارِ عِشَاءَ
(وَادِي الْمُلُوكِ) حَجَارَةً وَفُضَاءَ
فَجَرُ الْحَضَارَةِ فِي الْبِلَادِ أَضَاءَ
أَكْثَرْنَ نَحْوَ بِنَائِكَ الْإِيمَاءَ
وَتَرَنَّمَتْ أَوْتَارُهَا ثَنَاءَ
وَحَدَوْتَ فِي هِنْدَامِهَا (الْحَمْرَاءِ) ٢٠
يَتَبَوَّأُ الْحُجَرَاتِ وَالْأَبْهَاءَ؟
يَحْبُو بِهَا — سُبْحَانَهُ — مَنْ شَاءَ
بَعَثَ الْهَزَارَ، وَأَرْسَلَ الْوَرَقَاءَ
فَاتَ (الرَّشِيدَ)، وَأَخْطَأَ النُّدَمَاءَ
خَلَدُوا عَلَى جَنَابَاتِهِ أَسْمَاءَ
لَمْ نُلَفْ أُمَجْدَ أُمَّةِ آبَاءَ

كَانَتْ أَوَائِلُ كُلِّ قَوْمٍ فِي الْعُلَا
لَوْلَا ابْتِسَامُ الْفَنِّ فِيمَا حَوْلَهُ
جَرَّدَ مِنَ الْفَنِّ الْحَيَاةَ وَمَا حَوَتْ
بِالْفَنِّ عَالَجَتِ الْحَيَاةَ طَبِيعَةً
تَأْوِي إِلَيْهَا الرُّوحُ مِنْ رَمَضَائِهَا
نَبْضُ الْحَضَارَةِ فِي الْمَمَالِكِ كُلِّهَا
إِنْ صَحَّ فَهِيَ عَلَى الزَّمَانِ صَحِيحَةٌ
انْظُرْ — أَبَا الْفَارُوقِ — غَرْسَكَ، هَلْ تَرَى
مِنْ حَبَّةٍ نُخِرَتْ، وَأَيِّدِ ثَابِرَتْ
وَأَكْنَتِ الْفَنِّ الْجَمِيلِ خَمِيلَةً
بَذَلَ الْجُهْدَ الصَّالِحَاتِ عَصَابَةً
صَحِبُوا رَسُولَ الْفَنِّ لَا يَأْلُوهُ
دَفَعُوا الْعَوَائِقَ بِالثَّبَاتِ، وَجَاوَزُوا
إِنْ التَّعَاوُنَ قُوَّةَ عُلوِيَّةٍ
فَلْيَهْنِهِمْ؛ حَازَ التِّفَاتُكَ سَعْيُهُمْ
لَمْ تَبْدُ لِلْأَبْصَارِ إِلَّا غَارِسًا
تَغْدُو عَلَى الْفَتَرَاتِ تَرْتَجِلُ النَّدَى
فِي مَوَكِبِ كَالْغَيْثِ سَارَ رِكَابُهُ
أَنْتَ اللَّوَاءُ التَّفِ قَوْمُكَ حَوْلَهُ
مِنْ كُلِّ مِثْدَنَةٍ سَمِعْتَ مَحَبَّةً
يَتَأَلَّفَانِ عَلَى الْهَتَافِ، كَمَا انْبَرَى

أَرْضًا، وَكُنَّا فِي الْفَخَارِ سَمَاءَ
ظَلَّ الوجودُ جَهَامَةً وَجَفَاءَ
تَجَدَّ الْحَيَاةُ مِنَ الْجَمَالِ خَلَاءَ
قَدْ عَالَجَتْ بِالوَاحِدَةِ الصَّحْرَاءَ
فَتُصِيبُ ظِلًّا، أَوْ تُصَادِفُ مَاءَ
يَجْرِي السَّلَامَةُ أَوْ يَدُقُّ الدَّاءُ
أَوْ زَافَ كَانَتْ ظَاهِرًا وَطِلَاءَ
بِالْغَرْسِ إِلَّا نَعْمَةً وَنَمَاءَ؟
جَاءَ الزَّمَانُ بِجَنَّةٍ فَيُحْيَا
رَمَتْ الظُّلَالَ، وَمَدَّتِ الْأَقْيَاءَ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ الْجُهْدِ جَزَاءَ
حُبًّا، وَصِدْقَ مَوَدَّةٍ، وَوَفَاءَ
مَا سَرَّ مِنْ قَدَرِ الْأُمُورِ وَسَاءَ
تَبْنِي الرِّجَالِ، وَتُبْدِعُ الْأَشْيَاءَ
وَكَسَا نَدِيَّهُمْو سَنَا وَسَنَاءَ
لِخَوَالِفِ الْأَجْيَالِ أَوْ بَنَاءَ
وَتَرُوحُ تَصْطَنِعُ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ
بِشْرًا، وَحَلَّ سَعَادَةً وَرَخَاءَ
وَالْتَّاجُ يَجْعَلُهُ الشُّعُوبُ لَوَاءَ
وَبِكُلِّ نَاقُوسٍ لَقِيَتْ دُعَاءَ
وَتَرُ، يُسَايِرُ فِي الْبَنَانِ غِنَاءَ

فِي دَارِ الْأُوبرَا

«هذه القصيدة لم يتبين لي — على وجه اليقين — سبب إنشادها، وأحسبه نظمها لمناسبة احتفال في دار الأوبرا أقامته جمعية من جمعيات البر بأبناء السبيل»^{٢٢}

وثناءً في فَمِ الدارِ جميلٍ
لُجَّةَ المعروفِ والنَّيلِ الجزيلِ
كلُّ بُنيانٍ على الباني دليل
فَتَحَتْ للخيرِ جيلًا بعدَ جيلٍ؟
ليس حظُّ الجدِّ منه بالقليلِ
وشجَى الأجيالِ من «فُزِي» الهديلِ
ركنُها السُّودُّ والمجدُّ الأثيلِ
دونَ أنْ تُستأنَفَ العَصْرُ الطويلِ
وعقدناه لسبَّاقِ أصيلِ
وشموسٍ شُيِّعَتْ يومَ الرحيلِ
ماج بالخيرِ والسَّميحِ المُنيلِ
ومشى يستروخُ البُرءُ العليلِ
وسعى المأوى لأبناءِ السبيلِ
ومن الدُّورِ جَواثٍ وبخيلِ
منزلٍ ليس بمذمومِ النزيلِ
وَيُنَحِّيهِمُ عن المَرعى الوَبيلِ
بعضُكم خَدَنُ لبعضٍ وخليلِ
كلُّ مولودٍ وإنْ جَلَّ ضئيلِ
نُبَّعُ الظنِّ عن الإنصافِ ميلِ
قَلَّتِ الحيلةُ في قالٍ وقيلِ
رَقَّةُ الدينِ إلى الخُلُقِ الهزيلِ؟!
مُرشدٍ للنُّشءِ كغفيلِ
نَشَأَ عن سَنَةِ البرِّ يَميلِ
كلِّما عَبَّ، وكونوا السلسبيلِ
رَوَّتِ العُشْبَ، ولم تنسِ النخيلِ
كلُّ نفسٍ بكتابٍ وسبيلِ
فاطرحوا خلفكمو العِبءَ الثقيلِ

حَبَّذا السَّاحَةُ والظلُّ الظليلُ
لم تَزَلْ تجري به تحت الثَّرى
صُنْعُ إِسماعيلٍ، جَلَّتْ يَدُهُ
أَتْرَاهَا سُدَّةً من بابِهِ
مَلْعَبُ الأَيَّامِ، إِلَّا أَنَّهُ
شهد الناسُ بها «عائدةً»
والتَّنَفُّسُ في ذراها دَوْلَةٌ
أَيْنَعَتْ عصرًا طويلًا، وَأَتَى
كم ضَفَرْنَا الغارَ في محرابها
كم بدورٍ ودَّعَتْ يومَ النُّوى
رُبَّ عَرِسٍ مَرَّ لِلبرِّ بها
ضحك الأيتامِ في ليلته
والتقى البائسُ والنعمى به
ومن الأرضِ جَدِيبٌ ونَدِ
يا شبابًا حُنْفَاءَ ضَمَّهم
يصرِفُ الشبانَ عن وِرْدِ القذى
انهبوا فيه وجيئوا إخوةً
لا يَضُرُّنكمو قَلَّتْه
أرجفتُ في أَمركم طائفَةٌ
اجعلوا الصبرَ لهم حِيلَتكم
أَيريدونَ بكم أنْ تَجْمَعُوا
حَلَّتِ الأرضُ من الهدى، ومن
فترى الأسرةَ فَوْضَى، وترى
لا تكونوا السَّيْلَ جَهْمًا خَشِنًا
رُبَّ عَيْنٍ سَمَحَةٍ خاشعةٍ
لا تُماروا الناسَ فيما اعتقدوا
وَإِذا جئتم إلى ناديكمو

هذه لَيْلَتُكُمْ في «الأوبرا»
مِهْرَجَانُ طَوْفِ الهادي به
وتجَلَّتْ أَوْجُهُ زَيْنَهَا
فكَأَنَّ الليلَ بالفجرِ انجَلَى
أيها الأجوادُ لا نحزِيكمو
رجلُ الأُمّةِ يُرَجَى عنده
إن دارا حُطَّتْموها بالنَّدَى
ليلةُ القدرِ من الشهرِ النبيلِ
ومشى بين يديه جِبْرَائِيلُ
غُرَّرُ من لَمَحَةِ الخيرِ تَسِيلُ
وكأَنَّ الدارَ في ظلِّ الأَصِيلِ
لَذَّةُ الخيرِ مِنَ الخيرِ بَدِيلُ
لجليلِ العَمَلِ العَوْنُ الجليلِ
أَخَذْتُ عهدَ النَّدَى أَلَّا تَمِيلُ

مَصْرَعُ بَطْرُسَ غَالِي بِاشَا

«حينما قُتِلَ بطرس غالي باشا في مصر برصاصة من يد إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠ هاجت النفوس، واستاء كثير من الأقباط، لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطي، فقال في ذلك:»

بَنِي القَبْطِ إِخْوَانُ الدَّهْورِ، رُوِيَ دُكُمُ
حَمَلْتُمْ لِحْكَمِ اللَّهِ صَلَبَ (ابن مريم)
سَدِيدُ المَرَامِي قد رماه مُسَدِّدُ
وَوَالِلِهِ، لو لم يُطْلِقِ النارَ مُطْلِقُ
قَضَاءٍ، ومِقْدَارُ، وَآجَالُ أَنْفُسِ
نَبِيدُ كما بادت قِبَائِلُ قَبْلَنَا
تَعَالَوْا عسى نطوي الجَفَاءَ وعَهْدُهُ
أَلَمْ تَكُ (مَصْرُ) مَهْدَنَا ثم لَحَدْنَا
أَلَمْ نَكُ من قَبْلِ (المسيحِ ابنِ مريم)
فَهَلَّا تَسَاقَيْنَا على حَبِّهِ الهَوَى
وما زال منكم أَهْلٌ وُدٌّ ورحمةٍ
فلا يَثْنِكم عن ذَمِّ قَتْلِ (بَطْرُسِ)
هَبَوهُ (يسوعًا) في البريةِ ثانيا
وهذا قَضَاءُ اللَّهِ قد غَالَ (غاليا)
ودَاهِيَةُ السُّوَّاسِ لاقى الدَّوَاهِيَا
عليه؛ لَأَوْدَى فَجَاءَةً، أَوْ تَدَاوِيَا
إِذَا هي حَانَتْ لم تُؤَخَّرْ ثَوَانِيَا
وَيَبْقَى الْأَنَامُ اثْنَيْنِ: مَيِّتًا، وَنَاعِيَا!
وَنَنْبِذُ أَسْبَابَ الشَّقَاقِ نَوَاحِيَا
وبَيْنَهُمَا كانت لكلِّ مَغَانِيَا؟
و(موسى) و(طه) نَعْبُدُ النِّيلَ جَارِيَا؟
وهَلَّا فَدَيْنَاهُ ضِيفَاً وَوَادِيَا؟
وفي المسلمين الخيرُ ما زالَ باقِيَا
فَقَدَّمَا عرفنا القَتْلَ في الناسِ فَاشِيَا

تَحِيَّةُ غُلِيُومِ الثَّانِي لِصَلَاحِ الدِّينِ فِي الْقَبْرِ

عَظِيمُ النَّاسِ مَنْ يَبْكِي الْعِظَامَا
وَأَكْرَمُ مَنْ غَمَامٍ عِنْدَ مَحَلِّ
وَمَا عَذْرُ الْمُقَصَّرِ عَنْ جِزَاءٍ
فَهَلْ مِنْ مُبْلَغٍ غُلِيُومَ عَنِّي
رِعَاكَ اللَّهُ مِنْ مَلِكٍ هُمَامٍ
أَرَى النَّسِيَانَ أَظْمَأَهُ، فَلَمَّا
تُقَرَّبُ عَهْدُهُ لِلنَّاسِ حَتَّى
أَتَدْرِى أَيْ سُلْطَانٍ تُحْيِي
وَقَفْتَ بِهِ تُذَكِّرُهُ مُلُوكًا
وَكَمْ جَمَعْتَهُمْ حَرْبٌ، فَكَانُوا
كِلَامٌ لِلْبَرِيَّةِ دَامِيَاتٍ
فَلَمَّا قَلْتَ مَا قَدْ قَلْتَ عَنْهُ
تَسَاءَلَتِ الْبَرِيَّةُ وَهِيَ كَلَمِي
وَأَنْتَ أَجَلٌ أَنْ تُزْرِى بِمِيتٍ
فَلَوْ كَانَ الدَّوَامُ نَصِيبَ مَلِكٍ

وَيَنْدُبُهُمْ وَلَوْ كَانُوا عِظَامَا
فَتَى يُحْيِي بِمَدَحَتِهِ الْكَرَامَا
وَمَا يَجْزِيهِمُوا إِلَّا كَلَامَا؟!
مَقَالًا مُرْضِيًا ذَاكَ الْمَقَامَا؟
تَعَهَّدَ فِي الثَّرَى مَلِكًا هُمَامَا
وَقَفْتَ بِقَبْرِهِ كُنْتَ الْغَمَامَا
تَرَكْتَ الْجَلِيلَ فِي التَّارِيخِ عَامَا
وَأَيَّ مُمْلِكٍ تُهْدِي السَّلَامَا؟!
تَعَوَّدَ أَنْ يُلَاقَوْهُ قِيَامَا!
حَدَائِدُهَا، وَكَانَ هُوَ الْحُسَامَا
وَأَنْتَ الْيَوْمَ مَنْ ضَمَدَ الْكِلَامَا
وَأَسْمَعْتَ الْمَمَالِكَ وَالْأَنَامَا
أُحِبُّكَ كَانَ ذَاكَ أَمْ انتَقَامَا؟
وَأَنْتَ أَبْرُّ أَنْ تُؤْذِيَ عِظَامَا
لِنَالٍ بَحْدٍ صَارِمِهِ الدَّوَامَا

الْفَنَارُ^٤

سَمَا يُنَاغِي الشُّهُبَا
كَالدَّيْدِبَانِ أَلْزَمُو
شَيْعٍ مِنْهُ مَرْكَبًا
هَلْ مَسَّهَا فَالْتَهَبَا؟
هُ فِي الْبَحَارِ مَرْقَبَا
وَقَامَ يَلْقَى مَرْكَبَا

^٤ زيدت هذه في الطبعة الثانية.

بَشَّرَ بِالْدارِ وبِأَلْ	أَهْلِ السُّرَّةِ الْغُيَّبَا
وَحَطَّ بِالنُّورِ عَلَى	لَوْحِ الظَّلامِ: مَرْحَبَا
كَالْبَارِقِ الْمُلِحِّ لَمْ	يُؤَلِّ إِلَّا عَقَّبا
يَارُبُّ لَيْلٍ لَمْ تَذُقْ	فِيهِ الرُّقَادَ طَرَبَا
بِتَّنَا نُرَاعِيهِ كَمَا	يَرَعَى السُّرَّةُ الْكُوكِبَا
سَعَادَةً يَعْرِفُهَا	فِي النَّاسِ مَنْ كَانَ أَبَا
مَشَى عَلَى الْمَاءِ، وَجَا	بَ كَالْمَسِيحِ الْعَبَا
وَقَامَ فِي مَوْضِعِهِ	مُسْتَشْرِفًا مُنْقَبَا
يَرْمِي إِلَى الظَّلامِ طَرُ	فَا حَائِرًا مُدْبَذَبَا
كُمُبْصِرٍ أَدَارَ عَيْنِ	نَا فِي الدُّجَى، وَقَلْبَا
كَبَصَرَ الْأَعْشى أَصَا	بَ فِي الظَّلامِ، وَنَبَا
وَكَالسَرَّاجِ فِي يَدِ الْ	رِيحِ، أَضَاءَ، وَخَبَا
كَلِمَةٍ مِنْ خَاطِرِ	مَا جَاءَ حَتَّى ذَهَبَا
مُجْتَنِبِ الْعَالَمِ فِي	عُزْلَتِهِ مُجْتَنِبَا
إِلَّا شَرَاعًا ضَلَّ، أَوْ	فُلْكَأ يُقَاسَى الْعَطَبَا

حارس الفَنَارِ ودلفين

وَكَانَ حَارِسُ الْفَنَا	رَ رَجُلًا مُهَذَّبَا
يَهْوَى الْحَيَاةَ، وَيُحِبُّ	الْعَيْشَ سَهْلًا طَيِّبَا
أَتَتْ عَلَيْهِ سَنَوَا	تُ مُبْعَدًا مُغْتَرِبَا
لَمْ يَرَ فِيهَا زَوْجَهُ	وَلَا ابْنَهُ الْمَحَبَّبَا
وَكَانَ قَدْ رَعَى الْخَطِيبَ،	وَوَعَى مَا خَطَّبَا
فَقَالَ: يَا حَارِسُ، خَدِّ	لِ السُّخْطِ وَالتَّعْتَبَا
مَنْ يُسَعِفُ النَّاسَ إِذَا	نُودِيَ كُلُّ فَبَاسِي؟
مَا النَّاسُ إِخْوَتِي وَلَا	أَدُمُ كَانَ لِي أَبَا

... ..
 أَنْظِرْ إِلَيَّ، كَيْفَ أَقْضِ
 قَدْ عَشْتُ فِي خِدْمَتِهِمْ
 كَمْ مِنْ غَرِيقٍ قَمْتُ عَنْ
 وَكَانَ جَسْمًا هَامِدًا
 وَكُنْتُ وَطْأْتُ لَهُ
 حَتَّى أَتَى الشَّطُّ، فَـ
 وَطَارْدُونِي، فَاَنْقَلِـ
 مَا نَلْتُ مِنْهُمْ فِضَّةً
 وَمَا الْجَزَاءُ؟ لَا تَسَلْ
 أَلْقُوا عَلَيَّ شَبَكَا
 وَاتَّخِذِ الصَّنَاعَ مِنْ
 وَلَمْ يَزَلْ إِسْعَافُهُمْ
 وَلَمْ يَزَلْ سَجِيَّتِي
 إِذَا سَمِعْتُ صَرْخَةً
 لَا أَجِدُ الْمُسْعِفَ
 وَالْمُسْعِفُونَ فِي غَدٍ
 يَقُولُ «رِضْوَانُ» لَهُمْ:
 مُذْنِبُكُمْ قَدْ غَفَرَ

... ..
 يَ لِهُمَّ مَا وَجَبَا؟
 وَلَا تَرَانِي تَوَعِبَا
 دَ رَأْسَهُ مُطَبَّبَا
 حَرَّكَتُهُ فَاَضْطَرَبَا
 مَنَاكِبِي، فَرَكَبَا
 بَشَّ مَنْ بِهِ وَرَحَبَا
 بُتُّ خَاسِرًا مُخَيَّبَا
 وَلَا مُنِحْتُ نَهْبَا
 كَانَ الْجَزَاءُ عَجَبَا!
 وَقَطَّعُونِي إِرْبَا
 شَحْمِي زَيْتًا طَيِّبَا
 لِي الْحَيَاةَ مَذْهَبَا
 وَعَمَلِي الْمُحَبَّبَا
 طَرْتُ إِلَيْهَا طَرَبَا
 إِلَّا مَلَكًا مُقَرَّبَا
 يُوَلِّفُون مَوْكَبَا
 هَيَّا ادْخُلُوهَا مَرْحَبَا
 اللَّهُ لَهُ مَا أَذْنَبَا

الْقَمَرُ عَلَى آفَاقٍ كَلَّا زُومِينَ لَيْلَةَ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الْأَسْنِي

فَدَيْنَاهُ مِنْ زَائِرٍ مُرْتَقِبٍ
 تَهْزُ الْجِبَالَ تَبَاشِيرُهُ
 وَيُخْلِي الْبَحَارَ بِلَآلَائِهِ
 مَنَارُ الْحُزُونِ إِذَا مَا اعْتَلَى
 أَنَا مِنَ الْبَحْرِ فِي زُورِقٍ

بَدَا لِلْوُجُودِ بِمِرْأَى عَجَبٍ
 كَمَا هَزَّ عَطْفَ الطَّرِيقِ الطَّرَبِ
 فَمِنَّا الْكُتُوسُ، وَمِنْهُ الْحَبَبِ
 مَنَارُ السَّهُولِ إِذَا مَا انْقَلَبَ
 لُجَيْنًا مَجَازِفُهُ مِنْ نَهَبِ

فقلنا: سُلَيْمَانُ لو لم يَمُتْ
وِكِسْرَى وما خمدتْ نارُه
وهيهات! ما تَوَجَّوا بالسَّنا
أَنَافَ على الماءِ ما بينها
فلا هو خافٍ، ولا ظاهرٌ
وليس بئَاوٍ، ولا راحلٌ
تَوَارَى بنصفٍ خلالَ السُّحُبِ
يجدُّها آيَةً قد خلت

وَفِرْعَوْنُ لو حَمَلَتْهُ الشُّهُبُ
وَيُوسُفُ لو أَنَّهُ لم يَشِبْ
ولا عرشُهم كان فوقَ السُّحُبِ
وبينَ الجبالِ وشُمُّ الهضْبِ
ولا سافرٌ، لا، ولا مُنْتَقِبُ
ولا بالبعيدِ، ولا المقْتَرِبِ
ونصفٌ على جبلٍ لم يَغِبْ
ويذكرُ ميلادَ خيرِ العَرَبِ

أَثِينَا°

«أوفدته الحكومة المصرية إلى (أثينا) عاصمة اليونان لحضور مؤتمر المستشرقين، فقال
يخطبها:»

إِنْ تَسْأَلِي عن مِصْرَ (حَوَاءِ) الْقُرَى
فَالصُّبْحُ فِي (مَنْفٍ) وَ(ثِيَّة) وَاضِحٌ
بِالْهَيْلِ مِنْ (مَنْفٍ) وَمِنْ أَرْبَاضِهَا
خَلَّتِ الدُّهُورُ وَمَا التَّقْتُ أَجْفَانُهُ
مَا فَلَّ سَاعِدَهُ الزَّمَانُ، وَلَمْ يَنْلُ
كَالدَّهْرِ لو مَلَكَ الْقِيَامَ لِفَتْكَةٍ
وِثْلَاثَةٍ شَبَّ الزَّمَانُ حَيَالِهَا
قَامَتْ عَلَى النِّيلِ الْعَهِيدِ عَهِيدَةٌ
مِنْ كُلِّ مَرْكُوزٍ كَرَضُوى فِي الثَّرَى
الْجَنُّ فِي جَنْبَاتِهَا مَطْرُوقَةٌ

وَقَرَارَةُ التَّارِيخِ وَالْآثَارِ
مَنْ ذَا يُلَاقِي الصُّبْحَ بِالْإِنْكَارِ؟
مَجْدُوعُ أَنْفٍ فِي الرِّمَالِ كُفَّارِي^{٢٣}
وَأَتَتْ عَلَيْهِ كَلِيلَةٌ وَنَهَارُ
مِنْهُ اخْتِلَافُ جَوَارِفٍ وَذَوَارِ
أَوْ كَانَ غَيْرَ مُقَلِّمِ الْأَطْفَارِ
شُمٌّ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، كِبَارِ^{٢٤}
تَكْسُوهُ ثَوْبَ الْفَجْرِ وَهِيَ عَوَارِ
مَتَطَاوِلٍ فِي الْجَوِّ كَالْإِعْصَارِ
بِبَدَائِعِ الْبِنَاءِ وَالْحَفَارِ

° نشرت بمجلة رعمسيس سنة ١٩١٢.

من حيلة المصلوب في المسمار
أخفت من الأعلاق والأذخار
يجدون أرواح ضجعة وقرار
والدهر دون سريره بهجار
المنزلون منازل الأقمار
بعد الصيان إزالة الأسرار
إلا بأيدي في الرغام قصار
ما بالهم عرضوا على النظار؟
قاموا لخالقهم بغير غبار!

والأرض أضيح جيلة في نزعها
تلك القبور أضن من غيب بما
نام الملوك بها الدهور طويلة
كل كاهل الكهف فوق سريريه
أملاك مصر القاهرون على الورى
هتك الزمان جبابهم، وأزالهم
هيهات! لم يلمس جلالهمو البلى
كانوا وظرف الدهر لا يسمو لهم
لو أمهلوا حتى النشور بدورهم

نكرى محمد فريد

«ألقيت في الاحتفال بالذكرى الخامسة للمغفور له محمد فريد بك سنة ١٩٢٤»

ونُدني خيال الأَمس وهو بعيد
عليهن غاو، أو يسير رشيد
تحيرَ فيها الحي كيف يسود
وإن لم يفتنا في الحقوق جديد
وأنتم أساس في البناء وطيد
مجال الضحايا أنت فيه فريد
ولا فوق ما قاسيت فيه مزيد
وأنت بأفاق البلاى شريد
وترزح تحت الداء، وهو عتيد
من المال لم تبخل به، وتليد
إذا جزع المحضور وهو يَجود
على سره نبنى العلاء، ونشيد
وكيف يُحامي دونه، ويذود

نجدد نكرى عهدكم ونعيد
وللناس في الماضي بصائر يهتدي
إذا الميت لم يكرم بأرض ثناؤه
ونحن قضاة الحق، نرعى قديمه
ونعلم أنا في البناء دعائم
فريد ضحايانا كثير، وإنما
فما خلف ما كابدت في الحق غاية
تغربت عشرًا أنت فيهن بائس
تجوع ببلدان، وتغرى بغيرها
ألا في سبيل الله والحق طارف
وجودك بعد المال بالنفس صابرًا
فلا زلت تمثالًا من الحق خالصًا
يُعلم نشء الحي كيف هوى الحمى

النَّخِيلُ مَا بَيْنَ الْمُتَنَزِّهِ وَأَبِي قَيْرٍ

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

وشقَّ العَنَانَ بِمَرَأَى عَجَبٍ
ظواهرُها درجٌ من شَذَبٍ
ولكن تَصِيحُ عليها الغُرْبُ
نَمَتْ وَرَبَّتْ فِي ظِلَالِ الكُتُبِ
لَّةِ، أَوْ كَالْفَنَارِ وَرَاءَ الْعَبَبِ
إِذَا الرِّيحُ جَاءَ بِهِ أَوْ ذَهَبَ
وَجَرَ الْأَصِيلُ عَلَيْهَا اللَّهَبُ
مَنْ الصَّحْوِ، أَوْ مِنْ حَوَاشِي السُّحُبِ
مَنْ الْقَصْرِ وَاقِفَةً تَرْتَقِبُ
مُفَصَّلَةً بِشَذُورِ الذَّهَبِ
عَلَى الصَّدْرِ، وَاتَّشَحَّتْ بِالْقَصَبِ
تَعَقَّدَ مِنْ رَأْسِهَا لِلذَّنْبِ
أَمِيرُ الْحَقُولِ، عُرُوسُ الْعِزْبِ؟
وَزَادُ الْمَسَافِرِ وَالْمُغْتَرِبِ؟
وَلَا قَصَّرَتْ نَخَلَاتُ التُّرْبِ
وَلَمْ يَحْتَفِلْ شِعْرَاءُ الْعَرَبِ؟!
ئِدْ مِنْ وَصْفِكُنَّ، وَعُطِّلِ الْكُتُبِ؟
كَأَنَّ أَعَالِيَكُنَّ الْعَبَبِ
جَنَاهَا بِجَانِبِ أُخْرَى حَلَبِ
حَسَانُ الدُّمَى الزَّائِنَاتُ الرَّحَبِ
وَكَالشَّهْدِ فِي كُلِّ لَوْنٍ يُحَبِّ

أَرَى شَجَرًا فِي السَّمَاءِ احْتَجَبُ
مَاذُنُ قَامَتْ هُنَا أَوْ هُنَاكَ
وَلَيْسَ يُوَدَّنُ فِيهَا الرِّجَالُ
وَبِاسْقَةِ مِنْ بَنَاتِ الرِّمَالِ
كَسَارِيَةِ الْفُلْكِ، أَوْ كَالْمَسَدِ
تَطُولُ وَتَقْصُرُ خَلْفَ الْكَثِيبِ
تُخَالُ إِذَا اتَّقَدَتْ فِي الضُّحَى
.. وَطَافَ عَلَيْهَا شُعَاعُ النَّهَارِ
... وَصَيْفَةٌ فَرَعُونَ فِي سَاحَةِ
قَدْ اعْتَصَبَتْ بِفُصُوصِ الْعَقِيقِ
وَنَاطَتْ قَلَائِدَ مَرْجَانِهَا
وَشَدَّتْ عَلَى سَاقِهَا مِئْزَرًا
أَهَذَا هُوَ النَّخْلُ مَلِكُ الرِّيَاضِ
طَعَامُ الْفَقِيرِ، وَحَلْوَى الْغَنِيِّ
فِيَا نَخْلَةَ الرَّمْلِ، لَمْ تَبْخَلِي
وَأَعْجَبُ: كَيْفَ طَوَى ذِكْرُكُنَّ
أَلَيْسَ حَرَامًا خُلُوُ الْقَصَا
وَأَنْتَنَ فِي الْهَاجِرَاتِ الظَّلَالِ
وَأَنْتَنَ فِي الْبَيْدِ شَاةُ الْمُعِيلِ
وَأَنْتَنَ فِي عَرَصَاتِ الْقُصُورِ
جَنَاكُنَّ كَالْكَرْمِ شَتَى الْمِذَاقِ

الْبَحْرُ الْأَبْيَضُ

«نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١»

أَمِنْ الْبَحْرِ صَائِغٌ عَبْقَرِيٌّ
 طَافَ تَحْتَ الضُّحَى عَلَيْهِنَّ، وَالْجَوُّ
 جُنَّةً فِي مَعَاصِمٍ وَنُحُورٍ
 وَأَبَى أَنْ يُقْلَدَ الدَّرَّ وَالْيَا
 وَتَرَى خَاتِمًا وَرَاءَ بَنَانٍ
 وَسَوَارًا يَزِينُ زَنْدَ كَعَابٍ
 وَتَرَى الْغَيْدَ لَوْلَا ثُمَّ رَطْبًا
 وَكَأَنَّ السَّمَاءَ وَالْمَاءَ شَقًّا
 وَكَأَنَّ السَّمَاءَ وَالْمَاءَ عُرْسُ
 أَوْ رَبِيعٌ مِنْ رَيْشِهِ الْفَنُّ أَبْهَى
 أَوْ تَهَاوِيلُ شَاعِرٍ عَبْقَرِيٍّ
 يَا سَوَارَى فَيُرَوِّجُ وَلَجَيْنِ
 فِي شُعَاعِ الضُّحَى يَعُودَانِ مَاسًا
 وَمَشَتْ فِيهِمَا النُّجُومُ فَكَانَتْ
 لَكَ فِي الْأَرْضِ مَوَكَّبٌ لَيْسَ يَأْلُو الْـ
 سَرَتْ فِيهِ عَلَى كَنُوزِ (سُلَيْمِ)
 وَتَرَنَّمَتْ فِي الرِّكَابِ، فَقَلْنَا
 هُوَ لَحْنٌ مُضَيِّعٌ، لَا جَوَابًا
 لَكَ فِي طَيْهِ حَدِيثٌ غَرَامٍ
 قَدْ بَعَثْنَا تَحِيَّةً وَثْنَاءً
 وَغَشِينَاكَ سَاعَةً تَنْبَشُ الْمَا
 وَفَتَحْنَا الْقَدِيمَ فِيكَ كِتَابًا
 وَنَشَرْنَا مِنْ طَيْهِنِ اللَّيَالِي
 وَرَأَيْنَا مِصْرًا تُعَلِّمُ (يُونَا)

بِالرَّمَالِ النَّوَاعِمِ الْبَيْضِ مُغَرَّى!
 هَرُ فِي سَوْقِهِ يُبَاعُ وَيُشْرَى
 فَكَسَا مِعْصَمًا، وَآخَرَ عَرَّى
 قَوْتَ نَحْرًا، وَقَلَدَ الْمَاسَ نَحْرًا
 وَبَنَانًا مِنَ الْخَوَاتِمِ صَفْرًا
 وَسَوَارًا مِنْ زَنْدِ حَسَنَاءَ فَرًا
 وَجُمَانًا حَوَالِي الْمَاءِ نَثْرًا
 صَدَفٍ، حُمْلًا رَفِيفًا وَدُرًا
 مُتَرَعِّجَ الْمِهْرَجَانِ لِمَحَا وَعِطْرًا
 مِنْ رَبِيعِ الرُّبَى، وَأَفْتَنُ زَهْرًا
 طَارَحَ الْبَحْرَ وَالطَّبِيعَةَ شِعْرًا
 بِهِمَا حُلَيْتُ مَعَاصِمُ مِصْرًا
 وَعَلَى لَمَحَةِ الْأَصَائِلِ تَبْرًا
 فِي حَوَاشِيهِمَا يَوَاقِيتُ زَهْرًا
 رَّيِّحَ وَالطَّيْرَ وَالشَّيَاطِينَ حَشْرًا^{٢٥}
 (نَ) تَعْدُ الْخُطَى اخْتِيَالًا وَكِبْرًا
 رَاهِبٌ طَافَ فِي الْأَنَاجِيلِ يَقْرَأُ
 قَدْ عَرَفْنَا لَهُ، وَلَا مُسْتَقَرًّا
 ظَلَّ فِي خَاطِرِ الْمُلْحَنِ سِرًّا
 لَكَ يَا أَرْفَعَ الزَّوَاخِرِ ذِكْرًا
 ضَيَّ نَبْشًا، وَتَقْتُلُ الْأَمْسَ فِكْرًا
 وَقَرَأْنَا الْكِتَابَ سَطْرًا فَسَطْرًا
 فَلَمَحْنَا مِنَ الْحَضَارَةِ فَجْرًا
 (نَ)، وَيُونَانَ تَقْبِسُ الْعِلْمَ مِصْرًا

تِلْكَ تَأْتِيكَ بِالْبَيَانِ نَبِيًّا
وَرَأَيْنَا الْمَنَارَ فِي مَطْلَعِ النُّجُ
شَاطِئُ مِثْلُ رُقْعَةِ الْخُلْدِ حُسْنًا
جَرَ فَيُرْوَجَا عَلَى فِضَّةِ الْمَا
كَلَّمَا جِئْتَهُ تَهَلَّلَ بِشِرًّا
إِنْثَنَى مَوْجَةً، وَأَقْبَلَ يُرْخِي
شَبًّا وَانْحَطَّ مِثْلَ أَسْرَابِ طَيْرٍ
رُبَّمَا جَاءَ وَهْدَةً فَتَرَدَّى
وَتَرَى الرَّمْلَ وَالْقُصُورَ كَأَيْكَ
وَتَرَى جَوْسَقًا يُزَيِّنُ رَوْضًا
سَيِّدَ الْمَاءِ، كَمْ لَنَا مِنْ (صَلَاحِ)
كَمْ مَلَأْنَاكَ بِالسَّفِينِ مَوَاقِيـ
شَاكِيَاتِ السِّلَاحِ يَخْرُجْنَ مِنْ مَصـ
شَارِعَاتِ الْجَنَاحِ فِي ثَبَجِ الْمَا
وَكَأَنَّ اللَّجَاجَ حِينَ تَنْزَى
... أَجْمٌ بَعْضُهُ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
قَذَفَتْ هَهْنَا زَيْيْرًا وَنَابَا
أَنْتَ تَغْلِي إِلَى الْقِيَامَةِ كَالْقِدْ

عَبْقَرِيًّا، وَتِلْكَ بِالْفَنِّ سِحْرًا
سَمَّ عَلَى بَرْقِهِ الْمَلَمَحِ يُسْرَى
وَأَدِيمَ الشَّبَابِ طَيِّبًا وَبِشْرًا
ءِ، وَجَرَ الْأَصِيلُ وَالصَّبْحُ تَبْرًا
مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ، وَافْتَرَّتْ ثَغْرًا
كِلَّةً تَارَةً وَيَرْفَعُ سِتْرًا
مَاضِيَاتٍ تَلْفُ بِالسَّهْلِ وَعُرَا
فِي الْمَهَاوِي، وَقَامَ يَطْفُرُ صَخْرًا
رَكِبَ الْوَكْرُ فِي نَوَاحِيهِ وَكُرَا
وَتَرَى رَبْوَةً تَزِيْنُ مِصْرًا
و(عَلِيٍّ) وَرَاءَ مَائِكَ ذِكْرِي!^{٢٦}
رَ كَشَمَّ الْجِبَالِ جُنْدًا وَوَفْرًا!^{٢٧}
رَ بِمِلْمُومَةٍ، وَيَدْخُلْنَ مِصْرًا
ءِ كَنْسَرٍ يَشْدُ فِي السُّحْبِ نَسْرًا
وَتَسْدُ الْفِجَاجَ كَرًّا وَفَرًّا ...
زَحَفَتْ غَابَةً لَتَمْزِيْقٍ أُخْرَى!
وَرَمَتْ هَهْنَا غَوَاءً وَظُفْرًا
رَ، فَلَا حَطَّ يَوْمُهَا لَكَ قَدْرًا

قَفْ حَيِّ شُبَّانَ الْحِمَى

«نظمها في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوروبا»

قَفْ حَيِّ شُبَّانَ الْحِمَى
عَوَّدَتْهُمْ أَمْثَالُهَا
مِنْ كُلِّ ذَاتِ إِشَارَةٍ
قُلْ: يَا شَبَابُ، نَصِيحَةٌ

قَبْلَ الرَّحِيلِ بِقَافِيَةٍ
فِي الصَّالِحَاتِ الْبَاقِيَةِ
لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ خَافِيَةِ
مِمَّا يُزَوِّدُ غَالِيَةِ

هل راعكم أن المدا
هُجَرْتُ فكلُّ خَلِيَّةٍ
وتعطلتْ هالاتُها
غَدَتِ السَّياسَةُ وَهِيَ آ
فهجرتُمُ الوطنَ العز
أنتم غداً في عالمٍ
واريتُ فيه شَبِيبَتِي
ما كنتُ ذا القلبِ الغلي
سيروا به تتعلَّموا
وتأملوا البُنْيَانُ، وأدِّك
ذوقوا الثمارَ جَنِيَّةً
واقضوا الشبابُ؛ فإنَّ سا
والله لا حَرَجَ علي
أو في اشتِهاءِ السُّحرِ من
أو في المسارحِ فَهِيَ بالنَّ

رَسَ في الكنانةِ خاويَه؟
من كلِّ شُهدٍ خاليه
منكم، وكانت حالِيه
مرة عليها ناهيه
يزُ إلى البلاِ القاصيه
هو والحضارةُ ناجيه
وقضيتُ فيه ثمانيه
ظ، ولا الطباعِ الجافيه
سرَّ الحياةِ العاليه
روا الجهودَ البانيه
ورُدُّوا المناهلَ صافيه
عته القصيرةُ فانيه
كم في حديثِ الغانيه
لَحْظَ العيونِ الساجيه
فُسِ اللطيفةِ راقيه

ثَنَى عَطْفَيْهِمَا الْهَرَمَانِ تِيهَا

«وقال يحيى الملك فؤاد في إبَّان زيارته للجيزة سنة ١٩٣٠»

بأرض الجيزة اجتازَ الغمامُ
وزار رياضَ إسماعيلَ غيثُ
ثَنَى عَطْفَيْهِمَا الْهَرَمَانِ تِيهَا
هَلُمِّي مَنْفُ؛ هذا تاجُ خوفو
نَمَتْهُ من بني فرعونَ هامُ
تَأَلَّقَ في سماءِك عبقرياً
ترعرعتِ الحضارةُ في حلاه

وحلَّ سماءُها البدرُ التمام
كوالده له المِنَّنُ الجِسام
وقال الثالثُ الأَدْنَى: سلام
كقُرْصِ الشمسِ يَعْرِفُه الأَنام
ومن خلفاءِ إسماعيلَ هام
عليه جلالَةُ، وله وسام
وشبَّ على جواهره النظام

وَأُخْرَاهُنَّ عِزًّا لَا يُرَامُ
كَظَلِّ النِّيلِ بَلَّ بِهِ الْأَوَامُ
وَنَافَسَ تَحْتَهُ الذَّهَبَ الرَّغَامُ
جِدَارٌ لِلْحَضَارَةِ أَوْ دِعَامُ
وَمُسْتَشْفَى يُدَاؤُ بِهِ السَّقَامُ
إِلَى الْإِسْعَافِ أَنْجَادُ كِرَامُ
مِيزَابٌ إِذَا انْفَجَرَ الضَّرَامُ
وَكُلُّ نَجِيبَةٍ وَلَهَا لِحَامُ
وَأَنْتَ مِنَ الصَّفُوفِ هُوَ الْإِمَامُ
وَمِصْرُ - وَحَقُّهَا - الْبَيْتُ الْحَرَامُ
عَلَا شَفَتِي أَبِي الْهَوْلِ ابْتِسَامُ
وَطَافَ بِهِ التَّلَفُّتُ وَالزُّحَامُ
أَجَلٌ مِنَ الْبُيُوتِ بِهَا الرَّجَامُ؟
هُمُ الْأَيْقَاطُ، وَالْيَقْظَى النِّيَامُ
فَعِنْدَكَ تُفَرِّجُ الْإِزْمَ الْعِظَامُ
وَيَخْلِفُهُ مِنَ النُّعْمَاءِ عَامُ
زَمَانٌ مَا لِحَالِيهِ دَوَامُ
أَلَيْسَ عَلَى يَدَيْكَ لَهُ تَمَامُ؟
وَلَا بَلَدًا بَضَاعَتُهُ الْكَلَامُ
يَشْدُ بِنَاءَهَا الْمَلِكُ الْهُمَامُ
وَأَنْتَ عَلَى الطَّرِيقِ هُوَ الزَّمَامُ
وَتُلَجِّنُنَا الْمَسَافَةَ وَالْمَرَامُ
وَيَغْلِبُنَا عَلَى صَبْرِ مَقَامُ
لَهَا زَهْوٌ بِعَصْرِكَ وَاتِّسَامُ
وَيَنْطِقُ فِي هَيَاكِلِهَا الرُّخَامُ
مَنْ الرَّحْمَنِ عَيْنٌ لَا تَنَامُ
فَمِصْرُ لَتَاجِهَا الْعَالِي قِوَامُ
فَبَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجِسْمِ التَّثَامُ

وَنَالَ الْفَنُّ فِي أُولَى اللَّيَالِي
مَشَى فِي جِيْزَةِ الْفُسْطَاطِ ظِلِّ
إِذَا مَا مَسَّ تَرْبًا عَادَ مَسْكًا
وَإِنْ هُوَ حَلَّ أَرْضًا قَامَ فِيهَا
فَمَدْرَسَةٌ لِحَرْبِ الْجَهْلِ تُبْنَى
وِدَارٌ يُسْتَعَاثُ بِهَا فَيَمْضِي
أَسَاءَةُ جِرَاحَةٍ جَيْنًا، وَحَيْنًا
وَأَحْوَاضٌ يِرَاضُ النِّيلِ فِيهَا
أَبَا الْفَارُوقِ، أَقْبَلْنَا صُفُوفًا
إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ بِكَ اتَّجَهْنَا
طَلَعَتْ عَلَى الصَّعِيدِ فَهَشَ حَتَّى
رِكَابٌ سَارَتْ الْأَمَالُ فِيهِ
فَمَاذَا فِي طَرِيقِكَ مِنْ كُفُورِ
كَأَنَّ الرَّاqِدِينَ بِكُلِّ قَاعِ
لَقَدْ أَرَمَ الزَّمَانُ النَّاسَ، فَانْظُرْ
وَبَعْدَ غَدٍ يُفَارِقُ عَامٌ بؤْسِ
يَدُورُ بِمِصْرٍ حَالًا بَعْدَ حَالِ
وَمِصْرُ بِنَاءٌ جَدَّكَ لَمْ يُتَمِّمْ
فَلَسْنَا أُمَّةً قَعَدَتْ بِشَمْسِ
وَلَكِنْ هِمَّةٌ فِي كُلِّ حَيْنِ
نَرُومُ الْغَايَةَ الْقُصُوى، فَنَمْضِي
وَنَقْصِرُ خُطْوَةً، وَنَمُدُّ أُخْرَى
وَنَصْبِرُ لِلشَّدَائِدِ فِي مَقَامِ
فَقَوَّ حَضَارَةَ الْمَاضِي بِأُخْرَى
تَرَفُّ صَحَائِفُ الْبَرْدِيِّ فِيهَا
رَعَّتِكَ وَوَادِيًا تَرَعَاهُ عَنَّا
فَإِنْ يَكُ تَاجٌ مِصْرَ لَهَا قِوَامًا
لِتَهْنَأَ مِصْرُ، وَلِيَهْنَأَ بَنُوهَا

الأميرة فتحية

«وقال في برقية يهنئ الأميرة السابقة فتحية»

فَنُحِيَّةٌ دُنْيَا تَدُومُ، وَصِحَّةٌ
مَوْلَايَ إِنَّ الشَّمْسَ فِي عَلَيَّائِهَا
نَبَقَى، وَبِهَجَّةُ أُمَّةٍ، وَحَيَاةُ
أُنْتَى، وَكُلُّ الطَّيِّبَاتِ بَنَاتُ!

تهنئة

«وقال يهنئ الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة الإنعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠»

يَدُ الْمَلِكِ الْعَلَوِيِّ الْكَرِيمِ
لِسَانُ الْكِنَانَةِ فِي شُكْرِهَا
قَضَتْ مِصْرَ حَاجَتِهَا يَا (عَلِيٍّ)
وَهَنَأَتْ بِالرُّتَبِ الْعَبْقَرِيِّ
عَلِيٍّ، لَقَدْ لَقَّبَتْكَ الْبِلَادُ
سِلَاحُكَ مِنْ أَدَوَاتِ الْحَيَاةِ
وَلَفْظُكَ (بِنْجُ)، وَلَكِنَّهُ
أَنَامِلُ مِثْلُ بَنَانِ الْمَسِيحِ
تَعَالِجُ كَفَّكَ بَوَسَ الْحَيَاةِ
وَيَسْتَمْسِكُ الدَّمُ فِي رَاحَتَيْكَ
كَأَنَّكَ لِلْمَوْتِ مَوْتُ أَتِيحُ
عَلَى الْعِلْمِ هَزَّتْ أَخَاهُ الْأَدَبُ
وَمَا هُوَ إِلَّا لِسَانُ الْعَرَبِ
وَنَالَتْ، وَنَالَ بَنُوهَا الْأَرْبُ
وَهَنَأَتْ بِالْعَبْقَرِيِّ الرَّتَبِ
بِأَسَى الْجِرَاحِ، وَنِعْمَ اللَّقَبُ
وَكُلُّ سِلَاحٍ أَدَاةُ الْعَطَبِ
لَطِيفُ الصَّبَا فِي جُفُونِ الْعَصَبِ
أَوَاسِي الْجِرَاحِ، مَوَاجِي النَّدَبِ
فَكَفَّ تُدَاوِي، وَكَفَّ تَهَبِ
وَفَوْقَهُمَا لَا يَقْرُ الْذَهَبُ
فَلَمْ يَرِ وَجْهَكَ إِلَّا هَرَبُ!

يا قَاهِرَ الْعَرَبِ الْعَتِيدِ

«وقال في حفل تكريم البطل العالمي في حمل الأثقال السيد نصير، في ديسمبر سنة ١٩٣٠»

شَرَفًا نَصِيرُ، ارْفَعْ جَبِينَكَ عَالِيَا
وَتَلَقَّ مِنْ أَوْطَانِكَ الْإِكْلِيلَا

وَمُنِحَتْ مِنْ عَطْفِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَا
 لَمْ يَبْغِ مِنْ قَصَبِ الرَّهَانِ بَدِيلَا
 غُرَّرَا تَسِيلَ إِلَى الْمَدَى وَحُجُولَا
 وَيَرَوْا عَلَى أَعْرَافِكَ الْمُنْدِيلَا
 يَبْغِي الْمُغَامِرُ عَالِيًا وَجَلِيلَا
 لَيْسَ التَّوَسُّطُ لِلنُّبُوغِ سَبِيلَا
 بَثْنَاءٍ مُصَرٍّ عَلَى الشَّفَاءِ جَمِيلَا
 فِي الْبَاسِ تَرْفَعُ فِي الْفَضَاءِ الْفِيلَا!
 جَعَلَ الْحَدِيدَ لِإِسَاعِدِكَ ذَلِيلَا
 وَطَرَحْتَهُ أَرْضًا، فَصَلَّ صَلِيلَا
 تَتَلَوُ عَلَيْهِ وَتَقْرَأُ التَّنْزِيلَا؟
 فَاصْدِمِ بِرُكْنِكَ رُكْنَهَا لِيَمِيلَا
 فَتَمَشْ فِي أَرْكَانِهَا لِتَزُولَا
 أَحْمَلْتَ إِنْسَانًا عَلَيْكَ ثَقِيلَا؟
 أَحْمَلْتَ يَوْمًا فِي الضُّلُوعِ غَلِيلَا؟
 أَوْ كَاشِحَ بِالْأَمْسِ كَانَ خَلِيلَا؟
 وَاللَّيْلِ، مَنْ مُسَدِّ إِلَيْكَ جَمِيلَا؟
 أَوْ نَالَ مِنْ جَاهِ الْأُمُورِ قَلِيلَا؟
 مِنْ سَامِعِيهِ الْحَمْدَ وَالتَّبْجِيلَا؟
 وَزَنَ الْحَدِيدُ بِهَا فَعَادَ ضَنْئِلَا!

يَهْنِكَ مَا أُعْطِيََتْ مِنْ إِكْرَامِهَا
 الْيَوْمُ يَوْمُ السَّابِقِينَ، فَكُنْ فَتَى
 وَإِذَا جَرَيْتَ مَعَ السَّوَابِقِ فَاقْتَحِمْ
 حَتَّى يَرَاكَ الْجَمْعُ أَوَّلَ طَالِعِ
 هَذَا زَمَانٍ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَهُ
 كُنْ سَابِقًا فِيهِ، أَوْ أَبْقَ بِمَعْزِلِ
 يَا قَاهِرَ الْغَرْبِ الْعَتِيدِ، مَلَاتِهِ
 قَلْبُتَ فِيهِ يَدًا تَكَادُ لِشِدَّةِ
 إِنْ الَّذِي خَلَقَ الْحَدِيدَ وَبَاسَهُ
 رَحَزَحْتَهُ، فَتَخَاذَلَتْ أَجْلَادُهُ
 لِمَ لَا يَلِينُ لَكَ الْحَدِيدُ، وَلَمْ تَزَلْ
 الْأَزْمَةَ اشْتَدَّتْ وَرَانَ بِلَاؤُهَا
 (شَمَشُونَ) أَنْتَ، وَقَدْ رَسَتْ أَرْكَانُهَا
 قُلْ لِي نَصِيرُ وَأَنْتَ بَرٌّ صَادِقُ
 أَحْمَلْتَ دَيْنًا فِي حَيَاتِكَ مَرَّةً؟
 أَحْمَلْتَ ظُلْمًا مِنْ قَرِيبٍ غَايِرِ
 أَحْمَلْتَ مَنَا بِالنَّهَارِ مُكَرَّرًا
 أَحْمَلْتَ طُغْيَانَ اللَّئِيمِ إِذَا اغْتَنَى
 أَحْمَلْتَ فِي النَّادِي الْغَبِيِّ إِذَا التَّقَى
 تِلْكَ الْحَيَاةُ، وَهَذِهِ أَثْقَالُهَا

ابْنُ زَيْدُون

«أنشأها ترحيباً بديوان ابن زيدون، حين ظهر مطبوعاً لأول مرة في مصر، بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني»

يا ابْنَ زَيْدُون، مَرْحَبَا قَدْ أَطْلَتِ التَّغْيِبَا

إِنَّ دِيوَانَكَ الَّذِي يَشْتَكِي الْيَتَمَ دُرَّهُ
 ... صَارَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ جَاءَنَا «كَامِلٌ» بِهِ
 تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُلَّهُ
 بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا
 تَرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا
 وَنَزِيلَ الْمُتَوَجِّهِ كَمِ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ
 وَمَنِ الْمَدْحُ مَا جَزَى وَإِذَا الْهَجْوُ هَاجَهُ
 وَرَأَى رَذِيلَةً مَا رَأَى النَّاسَ شَاعِرًا
 دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ فِي جُلَّتْ فِي الْخُلْدِ جَوْلَةٌ
 صَفَ لَنَا مَا وَرَاءَهُ وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ
 وَصِفِ الْخَوَرَ مَوْجَرًا قَمِ تَرَى الْأَرْضَ مِثْلَمَا
 وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ وَتَرَى ذَاكَ بِالَّذِي
 إِنَّ مَرَوَانَ عُصْبَةٌ طَوَّفُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا
 هَالَةً أَطْلَعَتْكَ فِي

ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبًا،
 وَيُقَاسَى التَّغْرُبَا ...
 لِلْأَلْبَاءِ مَطْلَبَا
 عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
 وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا
 أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
 مِنْ فَنُونِ مُرْكَبَا
 كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرَبَا؟
 مُبْدِعًا فِيهِ، مُغْرَبَا
 بِالْغَوَانِي مُشَبَّابَا
 يَنْ، النَّدِيمَ الْمُقْرَبَا
 مِدْحَةً أَوْ تَعْتَبَا
 وَأَذَاعَ الْمُنَاقِبَا
 لِمُعَانَاتِهِ أَبِي
 لَا تُمَاشِي التَّأْدُّبَا
 فَاضِلَ الْخُلُقِ طَيِّبَا
 زَنْبَقِ الشَّعْرِ عَقْرَبَا
 هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مِنْ نَبَا؟
 مِنْ عَيُونٍ، وَمِنْ رُبَى
 وَظِلَالٍ مِنَ الصَّبَا
 وَإِذَا شَتَّتْ مُطْنَبَا
 كُنْتُمْو أَمْسِ مَلْعَبَا
 لِبَنِي الْمَوْتِ مَأْرَبَا
 عِنْدَ هَذَا مُعَذَّبَا
 يَصْنَعُونَ الْعَجَائِبَا^{٢٨}
 بِالْأَيْدِي وَمَغْرِبَا
 ذِرْوَةَ الْمَجْدِ كَوَكْبَا

أنت للفتح تنتمي وكفى الفتح منصبا
لست أرضى بغيره لك جدًّا ولا أبا

البُلبُلُ الغَرْدُ الَّذِي هَزَّ الرُّبَى

«أُنشِدَتْ في الحفلة التي أقامتها رابطة الأدب الجديد، تكريمًا للشاعر الأستاذ «محمود أبو الوفا»، وكانت هذه القصيدة سببًا إلى عناية الحكومة المصرية وقتئذ بالشاعر — أبي الوفا — وتسفيره إلى أوروبا لعمل رجل صناعة بدل ساقه المبتورة!»

وعِصَابَةٌ بِالْخَيْرِ أَلْفَ شَمْلُهُمْ
جَعَلُوا التَّعَاوُنَ وَالْبِنَايَةَ هَمَّهُمْ
وَلَقَدْ يُدَاوُونَ الْجِرَاحَ بِبِرِّهِمْ
يَسْمُونَ بِالْأَدَبِ الْجَدِيدِ، وَتَارَةً
بَعَثَ اهْتِمَامُهُمْ، وَهَاجَ حَنَانُهُمْ
عَرَضَ الْقُعُودُ فَكَانَ دُونَ نُبُوغِهِ
الْبُلْبُلُ الْغَرْدُ الَّذِي هَزَّ الرُّبَى
خَلَفَ الْبَهَاءَ عَلَى الْقَرِيضِ وَكَأْسَهُ
فِي الْقَيْدِ مُمْتَنِعَ الْخُطَى، وَخِيَالَهُ
سَبَاقُ غَايَاتِ الْبَيَانِ جَرَى بِلَا
لَوْ يَطْعُمُ الطَّبُّ الصَّنَاعَ بَيَانَهُ
... غَالِي بِقِيَمَتِهِ، فَلَمْ يَصْنَعْ لَهُ
وَالْخَيْرُ أَفْضَلُ عُصْبَةً وَرِفَاقًا
وَاسْتَنْهَضُوا الْأَدَابَ وَالْأَخْلَاقَا
وَيُقَاتِلُونَ الْبُؤْسَ وَالْإِمْلَاقَا
يَبْنُونَ لِلْأَدَبِ الْقَدِيمِ رَوَاقَا
زَمَنٌ يُثِيرُ الْعُطْفَ وَالْإِشْفَاقَا
فَيَدَّ، وَدُونَ خُطَى الشَّبَابِ وَثَاقَا
وَشَجَى الْغُصُونِ، وَحَرَّكَ الْأَوْرَاقَا
فَسَقَى بَعْدَ نَسِيْبِهِ الْعُشَّاقَا
يَطْوِي الْبِلَادَ وَيَنْشُرُ الْآفَاقَا
سَاقٍ، فَكَيْفَ إِذَا اسْتَرَدَّ السَّاقَا؟!
أَوْ لَوْ يُسَيِّغُ لَمَّا يَقُولُ مَذَاقَا ...
إِلَّا الْجَنَاحَ مُحَلِّقًا خَفَّاقَا!

خَلِيلُ مُطْرَان^٦

«نظمها لَتُنْشَدُ في حفلة أقيمت بدار الجامعة المصرية في ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ لتكريم الشاعر خليل مطران؛ لمناسبة إنباع الخديو عباس حلمي الثاني عليه بوسام، وكانت الحفلة برياسة الأمير محمد علي توفيق شقيق الخديو».

لُبْنَانُ، مَجْدُكَ فِي الْمَشَارِقِ أَوَّلُ
وَنَبُوكَ الْأَلْفُ مِنْ نَسِيمِكَ ظَلُّهُمْ
أَخْرَجَتْهُمْ لِلْعَالَمِينَ جَحَاجِحًا
بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ أَفْقِ زَاهِرٍ
هَذَا أَدِيبُكَ يُحْتَفَى بِوَسَامِهِ
وَيُجَلُّ قَدْرُ قِلَادَةٍ فِي صَدْرِهِ
صَدْرٌ حَوَالِيهِ الْجَلَالُ، وَمِلْؤُهُ
حَلَاةُ إِحْسَانِ الْخَدِيوِ، وَطَالَمَا
لِعَلَاكَ يَا مُطْرَانُ، أَمْ لِنَهَاكَ، أَمْ
أَمْ لِلْمَوَاقِفِ لَمْ يَقِفْهَا ضَيْغَمٌ
هَذَا مَقَامُ الْقَوْلِ فَيْكَ، وَلَمْ يَزَلْ
غَالِيً بِقِيَمَتِكَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ
فِي مَجْمَعِ هَذَا الْبَيَانِ لَوَاءَهُ
ابْنُ الْمُلُوكِ تَلَا الثَّنَاءَ مَخْلَدًا
فَمِنْ الْبَشِيرِ لِبُعْلَبِكَ وَبَيْنَهَا
يَبْلَى الْمَكِينُ الْفَخْمُ مِنْ آثَارِهَا

وَالْأَرْضُ رَابِيَةٌ وَأَنْتَ سَنَامُ
وَأَشْمُ مِنْ هَضْبَاتِكَ الْأَحْلَامِ
عُرْبًا، وَأَبْنَاءُ الْكَرِيمِ كَرَامُ
طَلَعَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ
وَبَيَانُهُ لِلْمَشْرِقَيْنِ وَسَامُ
وَلَهُ الْقَائِدُ سَمَطُهَا الْإِلْهَامُ
كَرْمٌ، وَخَشْيَةٌ مُؤْمِنٍ، وَذِمَامُ
حَلَاةُ فَضْلُ اللَّهِ وَالْإِنْعَامُ
لِخِلَالِكَ التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ؟!
لَوْلَاكَ لَاضْطَرَبْتَ لَهُ «الْأَهْرَامُ»؟!
لَكَ فِي الضَّمَائِرِ مَحْفِلٌ وَمَقَامُ
وَسَعَى إِلَيْكَ يَحْفَهُ الْإِعْظَامُ
بِكَ فِيهِ، وَاعْتَزَّتْ بِكَ الْأَقْلَامُ
هَيْهَاتَ يَذْهَبُ لِلْمُلُوكِ كَلَامُ!
نَسَبٌ تُضِيُّ بَنُورَهُ الْأَيَّامُ؟
يَوْمًا، وَآثَارُ الْخَلِيلِ قِيَامُ!

^٦ زيدت هذه في الطبعة الثانية.

غَانْدِي

«أنشأها تحية لغاندي الزعيم الهندي المشهور، حين مروره بمصر سنة ١٩٣١، في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن»

وحيُّوا بَطْلَ الهِنْدِ	بَنِي مِصْرَ، ارْفَعُوا الغَارِ
حَقُوقَ العِلْمِ الفَرْدِ	وَأَدُّوا واجِبًا، واقضوا
وَعَرِّكِ المَوْقِفِ النُّكْدِ	أُخُوكُمْ فِي المَقَاسَةِ
وَفِي المَطْلَبِ، والجُهدِ	وَفِي التَّضَحِّيَةِ الكَبْرِى
وَفِي النِّفْيِ مِنَ المَهْدِ	وَفِي الجَرَحِ، وَفِي الدَّمْعِ
وَفِي مَرَحَلَةِ الوَفْدِ	وَفِي الرِّحْلَةِ لِلْحَقِّ
عَلَى الفَلَكِ، وَمِنْ بَعْدِ	قِفُوا حَيُّوهُ مِنْ قَرَبِ
وَعَطُّوا البَحْرَ بِالوَرْدِ	وَعَطُّوا البَرَّ بِالْأَسِ
نَ) ٢٩ تَمَثَّلُ مِنَ المَجْدِ	عَلَى إِفْرِيزِ (رَاجِبُوتَا
سَ)، أَوْ مِنْ ذَلِكَ العَهْدِ	نَبِيٍّ مِثْلُ (كُونْفُشِيُو
مِنَ المُنْتَظَرِ المَهْدِي	قَرِيبُ القَوْلِ والفِعْلِ
عَنِ الحَقِّ، وَفِي الزَهْدِ	شَبِيهِ الرِّسْلِ فِي الدَّوْدِ
وَبِالصَّبْرِ، وَبِالقَصْدِ	لَقَدْ عَلَّمَ بِالْحَقِّ
فَلَبَّاهُ مِنَ اللِّحْدِ	وَنَادَى المَشْرِقَ الأَقْصَى
فَدَاوَاهَا مِنَ الحِقْدِ	وَجَاءَ الأنْفَسَ المَرْضَى
مَ لِلأُلْفَةِ وَالوُدِّ	دَعَا الهِنْدُوسَ والإِسْلَا
حَوَى السَّيْفَيْنِ فِي غِمْدِ	بَسْجَرٍ مِنْ قُوَى الرُّوحِ
يُقَوِّي رَائِضَ الأُسْدِ	وَسُلْطَانٍ مِنَ النِّفْسِ
وَتَيْسِيرٍ مِنَ السَّعْدِ	وَتَوْفِيقٍ مِنَ اللَّهِ
سَوَى المَخْلُوقِ لِلخَلْدِ	وَحِظٌّ لَيْسَ يُعْطَاهُ
وَلَا الصَّوْلُ، وَلَا الجُنْدِ	وَلَا يُخَذُ بِالحَوْلِ
وَلَا بِالكَدِّ والكُدِّ	وَلَا بِالنَّسْلِ والمَالِ
— تَعَالَى اللَّهُ — لِلْعَبْدِ	وَلَكِنْ هِبَةُ المَوْلَى

سَلَامُ النِّيلِ يَا غَنَدِي
وإِجْلَالُ مِنَ الْأَهْرَا
وَمِنْ مَشِيخَةِ الْوَادِي
سَلَامُ حَالِبِ الشَّاةِ
وَمَنْ صَدَّ عَنْ الْمِلْحِ
وَمَنْ تَرَكَبُ سَاقِيهِ
سَلَامُ كُلِّمَا صَلَّيْ
وَفِي زَاوِيَةِ السَّجَنِ
مِنْ (الْمَائِدَةِ الْخَضْرَا
وَلَا حِظَّ وَرَقَ «السَّيْرِ»
وَكُنْ أَبْرَعَ مَنْ يَلْعَ
وَلَا قِي الْعَبْقَرِيِّينَ
وَقُلْ: هَاتُوا أَفَاعِيكُمْ
وَعُدُّ لَمْ تَحْفَلِ الذَّامُ
فَهَذَا النِّجْمُ لَا تَرْقَى
وَرَدَّ الْهِنْدَ لِلْأُمِّ

وهذا الزهرُ من عندي
م، والكُرْنَك، والْبَرْدِي
وَمِنْ أَشْبَالِهِ الْمُرْدِ
سَلَامُ غَاظِلِ الْبُرْدِ
وَلَمْ يُقْبَلْ عَلَى الشَّهْدِ
مِنْ الْهِنْدِ إِلَى السَّنْدِ
ت عُريَانًا، وَفِي اللَّبْدِ
وَفِي سِلْسِلَةِ الْقَيْدِ
ع) ٢٠ خُذْ حَذْرَكَ يَا غَنَدِي
وَمَا فِي وَرَقِ «الْلُورِدِ»
بُ بِالشَّطْرَنْجِ وَالنَّزْدِ
لِقَاءَ النَّدِّ لِلْنَّدِ
أَتَى الْحَاوِي مِنْ الْهِنْدِ!
وَلَمْ تَغْتَرَّ بِالْحَمْدِ
إِلَيْهِ هِمَّةُ النِّقْدِ
ةٍ مِنْ حَدٍّ إِلَى حَدٍّ

تَحِيَّةُ أَبُولُو

«أبولو: مجلة فنية لخدمة الشعر الحي، كان يصدرها مرة كل شهر — في سنة ١٩٣٢
— الدكتور أحمد زكي أبو شادي، فقال يحييها»

أَبُولُو، مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبُولُو
عُكَاطُ وَأَنْتِ لِلْبُلْغَاءِ سَوْقُ
وَيَنْبِوْعُ مِنَ الْإِنْشَادِ صَافٍ
وَمَضْمَارُ يَسْوَقُ إِلَى الْقَوَافِي
يَقُولُ الشَّعْرَ قَائِلُهُمْ رَصِينَا

فإِنَّكَ مِنْ عُكَاطِ الشَّعْرِ ظِلْ
عَلَى جَنْبَاتِهَا رَحَلُوا وَحَلُّوا
صَدَى الْمَتَادِّبِينَ بِهِ يُقَلُّ
سَوَابِقُهَا إِذَا الشُّعْرَاءُ قَلُّوا
وَيُحْسِنُ حِينَ يُكْثِرُ أَوْ يُقَلُّ

ولولا المُحْسِنُونَ بِكُلِّ أَرْضٍ
عسى تَأْتِينَا بِمُعَلِّقَاتٍ
لعلَّ مَوَاهِبًا خَفِيَتْ وضاعت
صَحَائِفُكَ المَدْبَجَةُ الحَوَاشِي
رياحينُ الرِّياضِ يُمَلُّ منها
يُمَهِّدُ عِبْقَرِيُّ الشَّعْرِ فيها
وليس الحقُّ بالمنقوصِ فيها
وليستُ بالمجالِ لِنَقْدِ باغٍ

لما ساد الشُّعُوبُ ولا استَقَلُّوا
نَروُحُ على القديمِ بها نُدِلُّ
تُذَاعُ على يَدَيْكَ وتُسْتَعْلُ
رُبَى الوَرْدِ المُفْتَحِ أو أَجَلُّ
وَرِيحَانُ القَرَارِجِ لا يَمَلُّ
لكلِّ ذَخِيرَةٍ فيها مَحَلُّ
ولا الأَعْرَاضُ فيها تُسْتَحَلُّ
وراءَ يَرَاعِهِ حَسَدٌ وَغِلُّ

أُغْنِيَّةُ

«نظمها بلبنان في صيف سنة ١٩١٣ لتغنيها إحدى القيان»

بي مثْلُ ما بِكَ يا قُمْرِيَّةَ الوادي
وأرسلي الشَّجُوَ أسْجَاعًا مُفَصَّلَةً
لا تَكْتُمِي الوَجْدَ؛ فالجرحان من شَجَنٍ
تَذْكُرِي: هل تلاقِينَا على ظمإٍ؟
وَأَنْتِ فِي مَجْلِسِ الرِّيحَانِ لاهِيَةٌ
تَذْكُرِي قُبْلَةً فِي الشَّعْرِ حَائِرَةٌ
وَقُبْلَةً فَوْقَ خَدٍّ نَاعِمٍ عَطِرٍ
تَذْكُرِي مَنْظَرَ الوادي، ومَجْلِسَنَا
والْغُصْنُ يَحْنُو عَلَيْنَا رِقَّةً وَجَوًى
تَذْكُرِي نَغْمَاتِ هَاهُنَا وَهُنَا
تَذْكُرِي مَوْعِدًا جَادَ الزَّمانُ به
فَنَلْتُ ما نَلْتُ مِنْ سُؤْلِ، وَمِنْ أَمَلٍ

ناديتُ ليلي، فقومي في الدُّجَى نادي
أو رَدِّدِي من وراءِ الأَيْكِ إنشادي
ولا الصَّبَابَةَ؛ فالدمعان من وادٍ
وكيف بَلَّ الصَّدَى ذُو الغَلَّةِ الصَّادي؟
ما سِرْتُ من سامرٍ إلا إلى نادي
أَضَلَّهَا فَمَشَتْ فِي فُرْقِكَ الهادي
أَبْهَى من الوَرْدِ فِي ظِلِّ النَّدَى الغادي
على الغديرِ، كعُصْفُورَيْنِ فِي الوادي
والماءُ فِي قَدَمَيْنَا رَائِحُ غَادٍ
من لَحْنِ شاديةٍ فِي الدَّوْحِ أو شادي
هل طَرْتُ شَوْقًا؟ وهل سابقتُ ميعادي؟
ورحْتُ لم أَحْصِ أَفْرَاحِي وَأَعْيَادِي؟

يَا شَرَاغًا وَرَاءَ دِجْلَةٍ

«غناها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته لتلك البلاد في سنة ١٩٣١»

يا شَرَاغًا وَرَاءَ دِجْلَةٍ يَجْرِي	في دموعي تَجَنَّبْتَكَ الْعَوَادِي
سِرَّ عَلَى الْمَاءِ كَالْمَسِيحِ رُويِدًا	وَاجِرٌ فِي الْيَمِّ كَالشَّعَاعِ الْهَادِي
وَأَتِ قَاعًا كَرَفَرَفَ الْخَلْدِ طَيِّبًا	أَوْ كَفَرْدَوْسِهِ بِشَاشَةٍ وَادِي
قَفٍّ، تَمَهَّلْ، وَخُذْ أَمَانًا لِقَلْبِي	مِنْ عَيُونِ الْمَهَا وَرَاءَ السَّوَادِ
وَالنُّوَاسِيَّ وَالنَّدَامَى؛ أَمِنْهُمْ	سَامِرٌ يَمْلَأُ الدُّجَى أَوْ نَادٍ؟
خَطَرَتْ فَوْقَهُ الْمِهَارَةُ تَعْدُو	فِي غُبَارِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
أُمَّةٌ تُنَشِئُ الْحَيَاةَ، وَتَبْنِي	كِبْنَاءَ الْأَبُوءِ الْأَمْجَادِ
تَحْتَ تَاجٍ مِنَ الْقَرَابَةِ وَالْمُلْكِ	كَ عَلَى فَرْقٍ أَرْحِي جَوَادِ
مَلِكِ الشَّطِّ، وَالْفَرَاتَيْنِ، وَالْبَطِّ	حَاءٍ، أَعْظَمُ بِقَيْصَلِ وَالْبِلَادِ

الرَّجُلُ السَّعِيدُ^٧

«وهي ترجمة أبيات فرنسية عنوانها: L. home heureux لسمو الأمير حيدر فاضل»

عَفِيفُ الْجَهْرِ وَالْهَمْسِ	قَضَى الْوَاجِبَ بِالْأَمْسِ
وَلَمْ يَعْرِضْ لِذِي حَقٍّ	بِنُقْصَانٍ وَلَا بَخْسٍ
وَعِنْدَ النَّاسِ مَجْهُولٌ	وَفِي أَلْسِنِهِمْ مَنْسِي
وَفِيهِ رَقَّةُ الْقَلْبِ	لَأَلَامِ بَنِي الْجَنْسِ
فَلَا يَغْطِطُ ذَا نُعْمَى	وَيَزِيثِي لِأَخِي الْبُؤْسِ
وَلِلْمَحْرُومِ وَالْعَافِي	حَوَالِي زَادِهِ كُرْسِي

^٧ نُشِرَتْ فِي مَجَلَّةِ الْكَشْكُولِ سَنَةِ ١٩٢٥.

وما نَمَّ، ولا هَمَّ
ينامُ الليلَ مَسْرورًا
ويُصْبِحُ لا غُبَارَ على
فيا أَسْعَدَ من يَمْشِي
وَمَنْ طَهَّرَهُ اللَّهُ
أَنْلَ قَدْرِي تَشْرِيفًا
عسى نَفْسُكَ أَنْ تُدَمَّ
فَأَلْقَى بَعْضَ ما تَلْقَى

بِبَعْضِ الكَيْدِ والدَّسِّ
قليلَ الهَمِّ والهَجَسِ
سَرِيرَتِهِ كما يُمَسِّي
على الأرضِ مِنَ الإنسِ
من الرِّيْبَةِ والرَّجَسِ
وهَبَ لي قُرْبَكَ القُدْسِي
حج في أحلامها نَفْسِي
من الغِبْطَةِ والأنْسِ!

الأثر

وجَدْتُ الحياةَ طريقَ الزُّمَرِ
وما باطلاً يَنْزِلُ النازلون
فلا تَحْتَقِرْ عالَمًا أَنْتَ فيه
وخذْ لك زَادَيْنِ: من سيرة
وكن في الطريق عَفِيفَ الخُطَا
ولا تَحُلْ من عملٍ فوقَه
وكن رجلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَه

إلى بَعْثَةِ وشُئُونِ آخرٍ
ولا عَبَثًا يُزْمَعُونَ السَّفَرُ
ولا تَجَحَدِ الآخرَ الْمُنتَظَرِ
ومن عملٍ صالحٍ يُدَّخِرُ
شريفَ السَّمْعِ، كريمَ النظرِ
تَعَشَّ غيرَ عَبْدٍ، ولا مُحْتَقَرِ
يقولون: مَرَّ وهذا الأثرُ

السَّتار

قَدَّمْتُ بين يَدَيَّ نَفْسًا أَذْنَبَتْ
وجَعَلْتُ أَسْتُرَ عن سِوَاكَ ذُنُوبَهَا

وَأَتَيْتُ بينَ الخَوْفِ والإِقْرَارِ
حتى عَيَّيْتُ، فَمَنْ لي بَسْتار!

هوامش

- (١) المأمون بن الرشيد العباسي، وعصره من أزهى عصور الدولة الإسلامية.
- (٢) الأقسام: الحظوظ.
- (٣) يشير إلى قول النابغة:
- نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الكر والإقداما
- وعصام حاجب النعمان بن المنذر، وإليه ينسب كل عصامي.
- (٤) الأواسي: الدعائم والأبنية المحكمة.
- (٥) يشير إلى حديث التاريخ عن حريق مكتبة الإسكندرية.
- (٦) يشير إلى ما كان من حدة الخلاف بين زعماء مصر في ذلك التاريخ.
- (٧) الصياصي: الحصون. والعتاد: عدّة الحرب.
- (٨) الميكادو: الملك في لغة البابان.
- (٩) العهد: المطر.
- (١٠) الانطيا: الارتفاع.
- (١١) يعني وفود البلاد العربية التي اجتمعت لتكريمه ومبايعته بإمارة الشعر في مارس من تلك السنة نفسها.
- (١٢) هو المرحوم محمد طلعت حرب باشا مؤسس البنك.
- (١٣) قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ذائعة مشهورة.
- (١٤) يعني منشئ دار العلوم المرحوم علي مبارك باشا.
- (١٥) محمد طلعت حرب.
- (١٦) يشير إلى مقابلة سعد زغلول وصاحبيه لمثل بريطانيا في مصر في نوفمبر من سنة ١٩١٨ ليطالبوا باستقلال مصر.
- (١٧) لامت: لأمت.
- (١٨) روح الله: عيسى، والكليم: موسى، عليهما السلام.
- (١٩) جعفر البرمكي، ونكبة البرامكة مشهورة في تاريخ الرشيد.
- (٢٠) من قصور بني الأحمر في غرناطة بالأندلس: (الهمبرا).
- (٢١) الغريض ومعبد: من أمراء الغناء العربي.

- (٢٢) زِيدَتْ هَذِهِ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ.
- (٢٣) الْكَفَّارِيُّ: الْعَظِيمُ الْأَذْنَيْنِ، يَشِيرُ إِلَى تَمَثُّالِ أَبِي الْهَوَلِ.
- (٢٤) يَشِيرُ إِلَى الْأَهْرَامِ.
- (٢٥) لَيْسَ يَأْلُو الرِّيحَ.. إلخ: لَيْسَ يَقْصُرُ عَنْهَا.
- (٢٦) يَرِيدُ صِلَاحَ الدِّينِ الْأَيُّوبِيِّ وَمُحَمَّدَ عَلِيِّ بَاشَا.
- (٢٧) مَوَاقِيرُ: مَوْقَرَةٌ: مَثْلَقَةٌ بِمَا تَحْمَلُ.
- (٢٨) يَشِيرُ إِلَى أَصْلِهِ «الرُّومِيَّ» وَإِلَى أَيْدِي بَنِي مُرْوَانَ عَلَى الْعُرُوبَةِ، بِمَا فَتَحُوا مِنْ بِلَادِ الرُّومِ، وَبِمَا اسْتَعْرَبَ مِنْ أَهْلِهَا.
- (٢٩) الْبَاخِرَةُ الَّتِي أَقْلَّتْ غَانْدِي مِنَ الْهِنْدِ إِلَى لَنْدُنِ.
- (٣٠) يَطِيرُ إِلَى الْمَوْثَمَرِ الَّذِي كَانَ مُسَافِرًا إِلَيْهِ لِلْبَحْثِ فِي دَسْتُورِ الْهِنْدِ.

الخصوصيات

أَبُو عَلِيٍّ

«وقال عندما بُشِّرَ بابنه علي شوقي»

صارَ شوقي أبا علي في الزمان «الترلي»
وجناها جنابةً ليسَ فيها بأوّل!

الزَّمنُ الأخير

«وقال في ذلك أيضًا»

عليّ، لو استشرتَ أباك قبلاً فإنَّ الخيرَ حظُّ المُستشير
إذاً لعلِّمتَ أنَّا في غناءٍ وإنَّكَ من لقاءِكَ في سرور
وما ضيقنا بِمقدِّمِكَ المُفدَّى ولكنَّ جئتَ في الزَّمنِ الأخير!

صَاحِبُ عَهْدِهِ

«وقال أيضًا»

وَرَزَقْتُ صَاحِبَ عَهْدِي	وَتَمَّ لِي النُّسْلُ بَعْدِي
هُم يَحْسُدُونِي عَلَيْهِ	وَيَغِيطُونِي بِسَعْدِي
وَلَا أَرَانِي وَنَجْلِي	سَنَلْتَقِي عِنْدَ مَجْدِي
وَسَوْفَ يَعْلَمُ بَيْتِي	أَنِّي أَنَا النُّسْلُ وَحْدِي
فِيَا عَلِيَّ، لَا تَلُمْنِي	فَمَا احْتِقَارُكَ قَصْدِي
وَأَنْتَ مِنِّي كَرُوحِي	وَأَنْتَ مَنْ أَنْتَ عِنْدِي!
فَإِنْ أَسَاءَكَ قَوْلِي	كَذَّبَ أَبَاكَ بِوَعْدِي!

يَا لَيْلَةَ!

«وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده في ساعة واحدة، فقال في ذلك»

يَا لَيْلَةَ سَمَّيْتُهَا لَيْلَتِي	لَأَنَّهَا بِالنَّاسِ مَا مَرَّتِ
أَذْكُرُهَا، وَالْمَوْتُ فِي ذِكْرِهَا	عَلَى سَبِيلِ الْبَثِّ وَالْعِبْرَةِ
لِيَعْلَمَ الْغَافِلُ مَا أَمْسُهُ؟	مَا يَوْمُهُ؟ مَا مُنْتَهَى الْعَيْشَةِ؟
نَبَّهْنِي الْمَقْدُورُ فِي جُنْحِهَا	وَكُنْتُ بَيْنَ النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ
الْمَوْتُ عَجَلَانُ إِلَى الْيَدِي	وَالْوَضْعُ مُسْتَعْصٍ عَلَى رُوحَتِي
هَذَا فَتَى يُبْكِي عَلَى مِثْلِهِ	وَهَذِهِ فِي أَوَّلِ النَّشْأَةِ
وَتِلْكَ فِي مَضَرٍ عَلَى حَالِهَا	وَذَاكَ رَهْنُ الْمَوْتِ وَالْغُرْبَةِ
وَالْقَلْبُ مَا بَيْنَهُمَا حَائِزٌ	مَنْ بَلَدَةٍ أَسْرَى إِلَى بَلَدَةٍ
حَتَّى بَدَا الصُّبْحُ، فَوَلَّى أَبِي	وَأَقْبَلْتُ بَعْدَ الْعَنَاءِ ابْنَتِي
فَقُلْتُ: أَحْكَامُكَ جَزْنَا لَهَا	يَا مُخْرَجَ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ!

أُمِينَةٌ

«وقال حين اكتملت بنته حولاً يصفها في هذا العمر»

أُمِينَتِي فِي عَامِهَا	الْأَوَّلِ مِثْلُ الْمَلِكِ
صَالِحَةٌ لِلْحُبِّ مِنْ	كُلِّ، وَلِلتَّبَرُّكِ
كَمْ خَفَقَ الْقَلْبُ لَهَا	عِنْدَ الْبُكَاءِ وَالضَّحِكِ
وَكَمْ رَعْنَهَا الْعَيْنُ فِي الْ	سُّكُونِ وَالتَّحَرُّكِ
فَإِنْ مَشَتْ فَخَاطِرِي	يَسْبِقُهَا كَالْمُمْسِكِ
أَلَحَظْتُهَا كَأَنَّهَا	مِنْ بَصَرِي فِي شَرَكِ
فِيَا جَبِينِ السَّعْدِ لِي	وَيَا عُيُونِ الْفَلَكَ
وَيَا بِيَاضَ الْعَيْشِ فِي	الْأَيَّامِ ذَاتِ الْحَلَكِ
إِنَّ اللَّيَالِي وَهِيَ لَا	تَنْفَكُ حَزَبَ أَهْلِكِ
لَوْ أَنْصَفْتُكِ طِفْلَةً	لَكُنْتُ بِنْتُ الْمَلِكِ!

طِفْلَةٌ لِأَهِيَّةٍ

«وقال يهنئها بسنتها الثانية»

أُمِينَةُ، يَا بِنْتِي الْغَالِيَةِ	أُهْنِيكِ بِالسَّنَةِ الثَّانِيَةِ
وَأَسْأَلُ أَنْ تَسْلَمِي لِي السَّنِينَ	وَأَنْ تُرْزَقِي الْعَقْلَ وَالْعَافِيَةَ
وَأَنْ تُقَسِّمِي لِأَبَرِّ الرِّجَالِ	وَأَنْ تِلْدِي الْأَنْفُسَ الْعَالِيَةَ
وَلَكِنْ سَأَلْتُكَ بِالْوَالِدَيْنِ	وَنَاشَدْتُكَ اللَّعِبَ الْغَالِيَةَ
أَتَدْرِينَ مَا مَرَّ مِنْ حَادِثٍ	وَمَا كَانَ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ؟
وَكَمْ بُلْتُ فِي حُلُلٍ مِنْ حَرِيرٍ	وَكَمْ قَدْ كَسَرْتَ مِنَ الْإِنْيَةِ؟
وَكَمْ سَهَرْتُ فِي رِضَاكِ الْجَفُونِ	وَأَنْتِ عَلَى غَضَبٍ غَافِيَةٍ؟
وَكَمْ قَدْ خَلْتُ مِنْ أَبْيَكِ الْجُيُوبِ	وَلَيْسَتْ جُيُوبُكَ بِالْخَالِيَةِ؟
وَكَمْ قَدْ شَكَا الْمُرُّ مِنْ عَيْشِهِ	وَأَنْتِ وَحَلَاوِكِ فِي نَاحِيَةٍ؟

وكم قد مرّضتِ، فأسقمته
ويضحكُ إن جئتَه تضحكينَ
ومن عَجَب مرّتِ الحادثاتُ
فلو حسَدتْ مُهجةً ولُدّها
وقمتِ، فكنتِ له شافيه؟
ويبكي إذا جئتَه باكيه!
وأنتِ لأحداثِها ناسيه!
حسَدتْكِ من طفلةٍ لاهيه!

الأنانيّة

«ونظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير»

يا حَبَّذَا أَمِينَةً وِكلْبُها
أَمِينَتِي تحبو إلى الحَوْلَيْنِ
لَكِنَّها بَيضاءُ مِثلُ العاجِ
يَلْزَمُها نهارها وتَلْزَمُهُ
فعندها من شِدَّةِ الإِشفاقِ
في كُلِّ ساعَةٍ له صِياحُ
وهذهِ حادثَةٌ لها مَعَهُ
جاءَتْ بهِ إِلَيَّ ذاتَ مَرَّةٍ
فقلتُ: أهلا بالعُرُوسِ وابنها
قالت: «غلامي» يا أبا جَوْعانُ
فمُرْهُمُوا يَأْتُوا بِخَبْزٍ ولَبَنٍ
فَقُمْتُ كالعادَةِ بالمطلوبِ
فَعَجَنْتُ في اللَّبَنِ اللَّبابا
ثم أَرادَتْ أَنْ تَذوقَ قَبْلَهُ
هُناكَ أَلَقَتْ بالصَّغِيرِ للوْرا
تقول: بابا، أنا (دَحّا) وَهُوَ (كُحّ)
فقلْ لِمَنْ يَجْهَلُ حَطْبُ الْآنِيَةِ
تُحِبُّهُ جَدًّا كما يُحِبُّها
وِكلْبُها يُنَاهِزُ الشَّهْرَيْنِ
وعَبْدُها أَسودُ كالدِّياجي
ومِثْلُما يُكْرِمُها لا تُكْرِمُهُ
أَنْ تَأْخُذَ الصَّغِيرَ بِالخِناقِ
وقَلِّما يَنْعَمُ، أو يَرْتاحُ
تُنَبِّيكِ كَيْفَ اسْتَأْثَرْتُ بِالْمَنْفَعَةِ
تَحْمِلُهُ وَهِيَ بِهِ كالبَرَّةِ
ماذا يَكُونُ يا تُرى مِنْ شَأْنِها؟
وما لَهُ كما لَنَا لِسَانُ
ويُحْضِرُوا آنيَةً ذاتَ ثَمَنٍ
وجِئْتُها أَنْظِرُ مِنْ قَرِيبِ
كما تَرانا نَطْعُمُ الكلابا
فاستَطْعَمَتْ بَنَتْ الكِرَامَ أَكلَهُ
وانْدَفَعَتْ تَبْكي بَكاَءَ مُفْتَرى
معناه: بابا، لي وَحْدِي ما طَبِخَ
قد فُطِرَ الطُّفْلُ على الْآنَانِيَةِ

لُغْبَة

«وقال فيما ينفع أمانة من اللعب، وأشار إلى رأس السنة الميلادية الذي يكثر فيه بيعها»

صِغَارٌ بِحُلُوانٍ تَسْتَبْشِرُ
تَهْزُّ اللُوءَ بَعِيدِ الْمَسِيحِ
فهذا بِلُغْبَتِهِ يَزْدَهِي
وهذا كَغُصْنِ الرُّبَا يَنْثَنِي
إِذَا اجْتَمَعَ الْكُلُّ فِي بُقْعَةٍ
أَوْ افْتَرَقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا
وَمِنْ عَجَبٍ مِنْهُمْو الْمُسْلِمُونَ
فَلَا سِفَةَ كُلُّهُمْ فِي اتِّفَاقٍ
دِيسْمِيرُ شَعْبَانٍ عِنْدَ الْجَمِيعِ
وَلَا لُغْبَةٌ غَيْرَ صَوْتِ شَجِيٍّ
وَلَا يَزْدَرِي بِالْفَقِيرِ الْغَنِيِّ
فِيَالَيْتَ شِعْرِي أَضَلَّ الصِّغَارُ
سُؤَالَ أَقْدَمِهِ لِلْكِبَارِ
وَلِي طِفْلَةٌ جَارَتْ السَّنَتَيْنِ
بَعَيْنَيْنِ فِي مِثْلِ لَوْنِ السَّمَاءِ
أَتَتْنِي تَسَالَّنِي لُغْبَةً
فَقُلْتُ لَهَا: أَيُّهَذَا الْمَلَأُ
وَلَكِنْ قَبْلَكَ خَابَ الْمَسِيحُ
فَلَا تَرُجُ سَلْمًا مِنَ الْعَالَمِينَ
وَمَنْ يَعْدِمُ الظُّفَرَ بَيْنَ الذَّنَابِ
فَإِنَّ شَيْئًا حَيَاةَ الْكِبَارِ
فَخَذْ، هَاكَ (بُنْدُقَةً) نَارُهَا
لَعَلَّكَ تَأْلُفُهَا فِي الصَّبَا
فَفِيهَا الْحَيَاةُ لِمَنْ حَاذَهَا

وَرُؤْيَتْهَا الْفَرْحُ الْأَكْبَرُ
وَتُحْيِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ
وهذا بِحُلَّتِهِ يَفْخَرُ
وهذا كَرِيحِ الصَّبَا يَخْطُرُ
حَسِبْتَهُمُوا بَاقَةً تُزْهَرُ
حَسِبْتَهُمُوا لَوْلَا يُنْثَرُ
أَوْ الْمُسْلِمُونَ هُمْ الْأَكْثَرُ
كَمَا اتَّفَقَ الْآلُ وَالْمَعَشَرُ
وَشَعْبَانُ لِلْكَلِّ دِيسْمِيرِ
كَرَوْضٍ بَلَابِلُهُ تَصْفِرُ
وَلَا يُنْكَرُ الْأَبْيَضُ الْأَسْمَرُ
أَمْ الْعَقْلُ مَا عَنْهُمْو يُؤْثَرُ؟
لَعَلَّ الْكِبَارَ بِهِ أَخْبَرُ
كَبَعْضِ الْمَلَائِكِ، أَوْ أَطْهَرُ
وَسَنَيْنِ يَا حَبَّذَا الْجَوْهَرُ!
لِتَكْسِرَهَا ضِمْنًا مَا تَكْسِرُ
تَحِبُّ السَّلَامَ، وَلَا أَنْكَرُ
وَبَاءَ بِمَنْشُورِهِ الْقَيْصَرُ
فَإِنَّ السَّبَاعَ كَمَا تُفْطَرُ
فَإِنَّ الذَّنَابَ بِهِ تَظْفَرُ!
يُؤْمَلُكَ الْكُلُّ، أَوْ يَحْذَرُ
سَلَامٌ عَلَيْكَ إِذَا تُسْعَرُ
وَتَخْلُفُهَا كُلَّمَا، تَكْبَرُ
وَفِيهَا السَّعَادَةُ وَالْمَفْخَرُ

وفيها السلامُ الوَطِيدُ البناءِ
فلوبيلُ مُمسِكَةٌ مَوْزَرًا
أَجَابَتْ وما النُّطْقُ في وُسْعِها
تقول: عَجِيبٌ كَلَامُكَ لي
تَزِينِ لِبَنَتِكَ حُبَّ الحروبِ
وأَنْتَ امرؤٌ لا تُحِبُّ الأَذَى
فقلتُ: لأَمْرٍ ضَلَلْتُ السَّبِيلَ
فلو جِئَ بالرسُلِ في واحدٍ
وبالأوليين وما قَدَّمُوا
لِيَنْهَضَ ما بينهمُ خَاطِبَا
يقول: «السلامُ» يُحِبُّ السلامَ
لَصُمَّ العبادُ فلم يسمِعوا

لمن آثرَ السَّلَمَ أو يُؤثر
ولوبيلُ تُمْسِكُها مَوْزَرًا
ولَكِنَّها العَيْنُ قد تُخْبِرُ
أَبالَشَرِّ يا وَالِدِي تَأْمُرُ؟
وَحُبُّ السلامِ بها أَجْدَرُ!
ولا تَبْتَغِيهِ، ولا تَأْمُرُ!
وَرُبَّ أَخِي ضَلَّ السَّبِيلَ
وبالكَتَبِ في صَفْحَةٍ تُنْشَرُ
وبالْأَخْرَيْنِ وما أَخْرُوا
على العَرْشِ نَصٌّ له مِنْبَرُ
ويَأْجُرُكم عنه ما يَأْجُرُ
وَكُفَّ العِبادُ فلم يُبْصِرُوا

زَيْنُ الْمُهْودِ^١

«وقال وقد قَبَّلَها قَبْلَةَ في الصِّباحِ»

يا شَبَهَ سَيِّدَةِ البَتُّو
نَسَى جِمالِكَ في الإنا
زَيْنُ الْمُهْودِ اليَوْمَ أَنَا
إِنَّ الأَمَلَةَ إِن سَرَتْ
بِأَبِي جَبِينُ كالصَّبَا
بَقِيَتْ عليه من الدُّجَى
وكرائمُ من لَوْلُؤِ

لِ، وصورةَ المَلِكِ الطَّهْوَ
بِجِمالِ يوسُفَ في الذِّكُورِ
سِتِّ، وفي غَدِ زَيْنُ الخُدُورِ
سارت على نَهْجِ البُذورِ
ح إِذا تَهَيَّأَ للسُّفُورِ
تلك الخُيُوطُ من الشُّعُورِ
زَيْنُ مَرْجَانِ النُّحُورِ

^١ زيدت في هذه الطبعة الثانية.

سَبْحَانَ مُؤْتِيهَا يَتَا
تَسْقِي وَتُسْقَى مِنْ لُعا
وَكَأَنَّ نَفْحَ الطَّيِّبِ حَو
وَعَرِيبَةٌ فَوْقَ الْخَدَوِ
صَفراءُ عِنْدَ رَوَاجِها
قَبْلَائِها، وَشَمَمَتْها
ثُمَّ فِي الْمَرَّاشِفِ، وَالنُّغُورِ
بِ النُّحْلِ، أَوْ طَلَّ الزُّهْورِ
لَ نَضِيدِها أَنْفَاسُ حُورِ
بِ، بَدِيعَةٌ مِنْ وَرْدِ جُورِ
حَمراءُ فِي وَقْتِ البُكُورِ
وَسَقَيْتُها دَمْعَ السَّرُورِ

أَوَّلُ خَطْوِهِ

«وقال يذكر دخول ولده علي في السنة الثانية من عمره»

هَذِهِ أَوَّلُ خَطْوِهِ
فِي طَرِيقِي لِعَلِّي
يَأْخُذُ الْعَيْشَةَ فِيهِ
يَا عَلِي إِنْ أَنْتَ أَوْفَيْتَ
دَافِعَ النَّاسِ، وَزَاجِمَ
لَا تَقُلْ: كَانَ أَبِي! إِيَّ
أَنَا لَمْ أَغْنَمْ مِنَ النَّا
أَنَا لَمْ أَجْزَ عَنِ الْمَدِّ
أَنَا لَمْ أَجْزَ عَنِ الْكُتْبِ
ضَيَّعَ الْكُلَّ حَيَائِي
هَذِهِ أَوَّلُ كَبْوِهِ
عَنْهُ لَوْ يَعْقِلُ غُنُوهُ^٢
مُرَّةً أَنَا، وَحُلُوهُ
سَتَ عَلَى سِنِّ الْفُتُوهِ
وَخُذِ الْعَيْشَ بِقُوهِ
سَاكٍ أَنْ تَحْذُوَ حَدْوَهُ!
بِسَ سَوَى فَنَجَانِ قَهْوِهِ
حَ مِنَ الْأَمْلَاكِ فَرَوِهِ!
بِ مِنَ الْقُرَاءِ حُطْوِهِ!
وَعَفَافِي، وَالْمُرُوهِ!

يَوْمُ فِرَاقِهِ

«وقال وقد بكى طفله وتشبثا به ألا يخرج»

بَكِيًّا لِأَجْلِ خُرُوجِهِ فِي زَوْرَةٍ
لَوْ كَانَ يَسْمَعُ يَوْمَ ذَاكَ بُكَاهُمَا
يَا لَيْتَ شَعْرِي: كَيْفَ يَوْمُ فِرَاقِهِ؟!
رُدَّتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ مِنْ إِشْفَاقِهِ

مَظْلُوم

«وكتب إلى عزيزه وظهيره صاحب العطفة المرحوم أحمد مظلوم باشا من باريز، يهنئه
بالنشان المجيدي الأول»

أَقْسَمْتُ لَوْ أَمَرَ الزَّمَانُ سَمَاءَهُ فَسَعَتْ لِيَصْدِرَكَ شَمْسُهَا وَنُجُومُهَا
لِيُنِيلَ قَدْرَكَ فِي الْمَعَالِي حَقَّهُ شَكَّتِ الْمَعَالِي أَنَّهُ مَظْلُومُهَا

سَرَّنا أَنْكَ ارْتَقَيْتِ

«وبعث من باريز بهذا التاريخ إلى صاحب السعادة محمود شكري باشا يهنئه برتبة
المتمايز» (١٩٠٣)

يَا عَزِيزًا لَنَا بِمَصْرَ عَلِمْنَا أَنَّهُ بِالرِّضَا الْخَدِيوِيِّ فَائِزٌ
سَرَّنا أَنْكَ ارْتَقَيْتِ وَتَرَقَّى فَكأنَّا نَحُورُ مَا أَنْتَ حَائِزٌ
رُتْبَةً أَلْسُنُ الْعُلَا أَرَحَّتْهَا أَنْتَ مُحَمَّدٌ فِي الْعُلَا الْمُتَمَايزُ

بَلَّغْتَنِي أَمَلًا

«وقال يشكر صاحب العطفة المرحوم أحمد مظلوم باشا علي معروف صنعه معه»

ذِي هِمَّةٍ دُونَهَا فِي شَأُوهَا الْهِمَمُ لَمْ تَتَّخِذْ «لَا»، وَلَمْ تَكْذِبْ لَهَا «نَعَمْ»
بَلَّغْتَنِي أَمَلًا مَا كُنْتُ بِالْعَهْ لَوْلَا وَفَاؤُكَ — يَا مَظْلُومٌ — وَالْكَرَمُ
وَذَاكَ الْعِزُّ وَالنُّعْمَى لِخَاطِبِهِ وَوُدُّ غَيْرِكَ ضَحْكُ السَّنِّ، وَالْكَلَمُ
أَكَلَّمَا قَعَدْتُ بِي عَنْكَ مَعْدَرَةً مَشَتْ إِلَيَّ الْأَيَادِي مِنْكَ وَالنُّعْمُ؟
تُجِلُّ فِي قَلَمِ الْأَوْطَانِ حَامِلُهُ فَكَيْفَ يَصْبِرُ عَنْ إِجْلَالِكَ الْقَلَمُ؟

أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبَتْ

«وكتب إلى صديقه المفضل سعادة المرحوم إسماعيل باشا صبري يهنئه بالسلامة، على أثر حادثة في القطار»

بِحَادِثَةٍ وَلَا كَالْحَادِثَاتِ
وَلَيْسَ مِنَ الْخُطُوبِ الْهَيِّنَاتِ
وَلَمْ تَخُلْ الْفَضِيلَةَ مِنْ شَكَاةٍ
وَأَزَعَجَهُمْ عِثَارُ الْمَكْرُمَاتِ
تَرَاءَتْ رُبُّهَا مُتْلَهِّفَاتِ
وَأَحْرَصَهَا لَدَيْكَ عَلَى حَيَاةٍ
فَكَانَتْ فِتْرَةً لِلْمُعْجِزَاتِ
لِسُودٍ لِلْيَرَاعِ وَلِلدَّوَاةِ
فَقَلْبِي فِي رُضُوضِ مُؤَلِّمَاتِ
يُبَلِّغُ عَنْكَ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ

أَتَتَنِي الصُّخْفُ عَنْكَ مُخَبِّرَاتِ
بَخَطِيكَ فِي الْقِطَارِ أَبَا حُسَيْنِ
أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبَتْ فِيهِ
وَسَاءَ النَّاسُ أَنْ كَبِتَ الْمَعَالِي
وَلَسْتُ بِنَاسِ الْأَدَابِ لَمَّا
وَكَانَ الشَّعْرُ أَجْزَعَهَا فُؤَادًا
هَجَرْتَ الْقَوْلَ أَيَّامًا قِصَارًا
وَأَنْ لِيَالِيَا أَمْسَكْتَ فِيهَا
فَقُلْ لِي عَنْ رُضُوضِكَ: كَيْفَ أَمْسَتْ؟
وَهَبْ لِي مِنْكَ خَطًّا أَوْ رَسُولًا

سَأَلْتُكَ بِالْوُدَادِ

«وكتب إلى سعادته يهنئه بتعيينه وكيلاً لنظارة الحَقَّانِيَّةِ»

وَبِالذَّمِّ السَّوَالِفِ وَالْعُهُودِ
وَأَخَرَ فِي فُؤَادِكَ لِي أَكِيدُ
سَيُنْشَرُ بَيْنَ (أَحْمَدَ) وَ(الْوَلِيدِ)؟
سَتَدْنُو لِلتَّائُسِ وَالْوُرُودِ؟
سُعُودٌ فِي سُعُودٍ فِي سَعُودِ
وَكُنْتَ الْبَذْرَ مَأْمُولَ الْوُفُودِ
لَقَدْ خُلِقَ الْأَهْلَةُ لِلصُّعُودِ
وَلَا فِيهَا احْتِمَالٌ لِلْمَزِيدِ

سَأَلْتُكَ بِالْوُدَادِ أَبَا حُسَيْنِ
وَحَبِّ كَامِنٍ لَكَ فِي فُؤَادِي
أَحَقُّ أَنْ مَطْوِيَّ اللَّيَالِي
وَأَنْ مَنَاهِلًا كُنَّا لَدَيْهَا
قَدُومَكَ فِي رُقِيٍّ فِي نَصِيبِي
وَفَدْتُ عَلَى رُبُوعِكَ غَبَّ نَائِي
لِيَنْ رَفْعُوكَ مَنَزَلَةً فَأَعْلَى
وَأَقْسَمُ مَا لَرَفَعَتِكَ انْتِهَاءُ

اهناً أخِي

«وكتب إلى صديقه الفاضل صاحب العزة حمزة بك فهمي يهنئه برتبة الممايز الرفيعة»

قالوا: «تمايز» حمزة	قلت: «التمايز» من قديم
لو لم يميزوه بها	لا ممتاز بالخلق العظيم
رتب كرائم في العلا	وجهن منك إلى كريم
فاهناً أخِي بوفودها	وتلق تهنئة الحميم
وارق المنازل كلها	حتى تنيف على النجوم

يَانَصِيب

«وقال يعاين صديقه الشاعر خليل بك مطران، وقد جاءه أنه ربح رباً»

لقد وافتنى البشرى	وأُنِيبْتُ بما سراً
وقالوا عنك لي أمس	ريحت النمرة الكبرى
فيا مطران، ما أولى	ويا مطران، ما أخرى
لقد أقبلت الدنيا	فلا تجزع على الأخرى
أخذت الصفر باليمنى	وكان الصفر باليسرى
وكانت فضة بيضا	فصارت ذهباً صفرا
وقال البعض: ألقين	وقالوا: فوق ذا قدراً

المُدَامَةُ

(وقال عن بعض شعراء الترك)

كن في التواضع كالمدا	مة حين تجلى في الكؤوس
مشت اتئاداً في الصدور	فحكموها في الرؤوس

تاريخ

(وقال يؤرخ ديوانه الأول — الشوقيات — وقد صدر في سنة ١٣١٧هـ)

وَجَنَّاتٍ مِّنَ الْأَشْعَارِ فِيهَا جَنَى لِّلْمَجْتَبَىٰ مِنْ كُلِّ ذَوْقٍ
تَأْمَلُ كَمْ تَمَنُّوْهَا وَأَرْخُ لِشَوْقِيَّاتٍ أَحْمَدَ أَيَّ شَوْقٍ

أَلَيْقُ دِيْوَانِ ظَهَرَ

وقال يؤرخ الشوقيات أيضًا»

مَجْمُوعَةٌ لِأَحْمَدٍ مُعْجَزُهُ فِيهَا بِهِزُ
تُعَدُّ فِي تَارِيخِهَا أَلَيْقُ دِيْوَانِ ظَهَرَ

هوامش

- (١) لوبيل: اسم تدلل به أمينة، وموزر: نوع من البنادق سريع الطلقات كان له شهرة قبل الحرب الحاضرة.
- (٢) الغنوة: الغنى، يقول: هو في غنى عن سلوك طريقي.

الحكايات

أَنْتَ وَأَنَا

يَحْكُونَ أَنَّ رَجُلًا كُرْدِيًّا
وَكَانَ يُلْقِي الرُّعْبَ فِي الْقُلُوبِ
وَيُفْزِعُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى
وَكُلَّمَا مَرَّ هُنَاكَ وَهْنَا
نَمَى حَدِيثُهُ إِلَى صَبِيٍّ
لَا يَعْرِفُ النَّاسُ لَهُ الْفُتُوَّةَ
فَقَالَ لِلْقَوْمِ: سَأُذَرِّكُمْ بِهِ
وَسَارَ نَحْوَ الْهَمَشْرِ فِي عَجَلٍ
وَمَدَّ نَحْوَهُ يَمِينًا قَاسِيَةً
فَلَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا، وَلَا ارْتَبَكَ
بَلْ قَالَ لِلْمَغَالِبِ قَوْلًا لَيْنًا:

كَانَ عَظِيمَ الْجِسْمِ هَمَشْرِيًّا
بِكَثْرَةِ السَّلَاحِ فِي الْجُيُوبِ
وَيُرْعَبُ الْكِبَارَ، وَالصُّغَارَ
يَصِيحُ بِالنَّاسِ: أَنَا! أَنَا! أَنَا!
صَغِيرِ جِسْمٍ، بَطْلٍ، قَوِيٍّ
وَلَيْسَ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الْقُوَّةَ
فَتَعْلَمُونَ صِدْقَهُ مِنْ كِذْبِهِ
وَالنَّاسُ مِمَّا سَيَكُونُ فِي وَجَلٍ
بِضَرِيَّةٍ كَادَتْ تَكُونُ الْقَاضِيَةَ
وَلَا انْتَهَى عَنْ زَعَمِهِ، وَلَا تَرَكَ
الآنَ صَرْنَا اثْنَيْنِ: أَنْتَ وَأَنَا

نَدِيمُ الْبَاذِنَجَانِ

كَانَ لِسُلْطَانٍ نَدِيمٌ وَافٍ
وَقَدْ يَزِيدُ فِي الثَّنَا عَلَيْهِ
يُعِيدُ مَا قَالَ بِلا اخْتِلَافٍ
إِذَا رَأَى شَيْئًا حَلَا لَدِيهِ

وكان مَوْلَاهُ يَرَى، وَيَعْلَمُ
فَجَلَسَا يَوْمًا عَلَى الْخِوَانِ
فَأَكَلَ السُّلْطَانُ مِنْهُ مَا أَكَلَ
قَالَ النَّدِيمُ: صَدَقَ السُّلْطَانُ
هَذَا الَّذِي غَنَى بِهِ «الرَّئِيسُ»^١
يُذْهِبُ أَلْفَ عِلَّةٍ وَعِلَّةُ
قَالَ: وَلَكِنْ عِنْدَهُ مَرَارُهُ
قَالَ: نَعَمْ، مُرٌّ، وَهَذَا عَيْبُهُ
هَذَا الَّذِي مَاتَ بِهِ «بُقْرَاطُ»
فَالْتَفَتَ السُّلْطَانُ فِيمَنْ حَوْلَهُ
قَالَ النَّدِيمُ: يَا مَلِيكَ النَّاسِ
جَعَلْتُ كَيْ أَنْادِمَ السُّلْطَانَا

وَيَسْمَعُ التَّمْلِيقَ، لَكِنْ يَكْتُمُ
وَجِيءَ فِي الْأَكْلِ بِبَاذِنَجَانٍ
وَقَالَ: هَذَا فِي الْمَذَاقِ كَالْعَسَلِ
لَا يَسْتَوِي شَهْدُ وَبَاذِنَجَانٍ
وَقَالَ فِيهِ الشَّعْرُ «جَالِينُوسُ»
وَيُبْرِدُ الصَّدْرَ، وَيَشْفِي الْغَلَّةَ
وَمَا حَمَدْتُ مَرَّةً آثَارَهُ
مَنْ كُنْتُ يَا مَوْلَايَ لَا أَحِبُّهُ
وَسُمِّ فِي الْكَأْسِ بِهِ «سُقْرَاطُ»
وَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُونَ قَوْلَهُ؟
عُذْرًا؛ فَمَا فِي فِعْلَتِي مِنْ بَاسٍ
وَلَمْ أَنْادِمَ قَطُّ بِبَاذِنَجَانَا

ضِيَاْفَةُ قِطَّة١

لَسْتُ بِنَاسٍ لَيْلَةً
تَطَاوَلْتُ مِثْلَ لَيَا
إِذْ انْفَلَتْتُ مِنْ سُحُو
أَنْظَرُ فِي دِيوَانِ شَعِ
فَلَمْ يَرُغْنِي غَيْرُ صَو
فَقَمْتُ أَلْقَى السَّمِ
حَتَّى ظَفِرْتُ بِالنَّاسِ
فَمَذْ بَدَتْ لِي، وَالتَّقْتُ

مَنْ رَمَضَانَ مَرَّتِ
لِي الْقُطْبِ، وَكَفَهَرْتِ
رِي، فَدَخَلْتُ حُجْرَتِي
رِ، أَوْ كِتَابِ سِيرَةِ
تِ كَمُوءِ الْهَرَّةِ
عَ فِي السُّتُورِ، وَالْأَسْرَةِ
عَلَيَّ قَدْ تَجَرَّتِ
نَظَرْتُهَا وَنَظَرْتِي

^١ نُشِرَتْ فِي سَنَةِ ١٩٢٩.

عادَ رَمَادُ لَحْظِهَا	مِثْلَ بَصِيصِ الْجَمْرَةِ
وَرَدَّدَتْ فَحِيحَهَا	كَحَنْشٍ بِقَفْرِةٍ
وَلَبِسَتْ لِي مِنْ وِرا	ءِ السِّتْرِ جِلْدَ النَّمْرِ
كَرَّتْ، وَلَكِنْ كَالْجَبَا	نِ قَاعِدًا، وَفَرَّتْ
وَانْتَفَضَتْ شَوَارِبًا	عَنْ مِثْلِ بَيْتِ الْإِبْرَةِ
وَرَفَعَتْ كَفًّا، وَشَا	لَتْ ذَنْبًا كَالْمَذْرَةِ
ثُمَّ ارْتَقَتْ عَنِ الْمَوَا	ءِ، فَعَوَتْ، وَهَرَّتْ
لَمْ أَجْزِهَا بِشِرَّةٍ	عَنْ غَضَبٍ وَشِرَّةٍ
وَلَا غَبِيْتُ ضَعْفَهَا	وَلَا نَسِيتُ قُدْرَتِي
وَلَا رَأَيْتُ غَيْرَ أُمَّ	بِالْبَنِينَ بَرَّةٍ
رَأَيْتُ مَا يَعْطِفُ نَفْ	سَ شَاعِرٍ مِنْ صَوْرَةِ
رَأَيْتُ جِدَّ الْأُمِّهَا	تِ فِي بِنَاءِ الْأُسْرَةِ
فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى اِطْمَأَنَّ	جَاشُهَا، وَقَرَّتْ
أَتَيْتُهَا بِشَرَبَةٍ	وَجِئْتُهَا بِكُسْرَةٍ
وَصُنْتُهَا مِنْ جَانِبِي	مَرْقَدِهَا بِسُتْرَتِي
وَزِدْتُهَا الدَّفَاءَ، فَقَرَّرُ	بُتُّ لَهَا مَجْمَرَتِي
وَلَوْ وَجَدْتُ مَصِيدًا	لَجِئْتُهَا بِفَأْرَةٍ
فَاضْطَجَعْتُ تَحْتَ ظِلَا	لِ الْأَمْنِ وَاسْبَطَرْتُ
وَقَرَأْتُ أَوْرَادَهَا	وَمَا دَرْتُ مَا قَرَّتْ
وَسَرَّخَ الصَّغَارُ فِي	نُذِيِّهَا، فَدَرَّتْ
عُرٌّ نَجُومٍ سُبَّحُ	فِي جَنْبَاتِ السُّرَةِ
اخْتَلَطُوا، وَعَبَّثُوا	كَالْعُمِيِّ حَوْلَ سُفْرَةِ
تَحَسَّبُهِمْ ضَفَادِعًا	أَرْسَلْتُهَا فِي جَرَّةٍ
وَقُلْتُ: لَا بَأْسَ عَلَى	طِفْلِكَ يَا جُويرَتِي
تَمَخَّضِي عَنْ خَمْسَةِ	إِنْ شِئْتُ، أَوْ عَنْ عَشْرَةِ
أَنْتِ وَأَوْلَادُكِ حَتَّى	يَكْبُرُوا فِي خُفْرَتِي

الصِّيَادُ وَالْعُصْفُورَةُ^٢

صارت لبعض الزاهدين صوره
ولا أرادوا أولياء الحق
كم لاعب في الزاهدين لاه
والشعر للحكمة مذ كان وطن
ما نطقته السن التجريب
وكل من فوق الثرى صياد
لم ينهها النهي، ولا الحزم زجر
قال: على العصفورة السلام
قال: حنتها كثرة الصلاة
قال: برتتها كثرة الصيام
قال: لباس الزاهد الموصوف
فابن عبيد والفضيل فيه
قال: لهايك العصا سليله
ولا أردد الناس عن تبرك
مما اشتهى الطير، وما أحب
وقلت أقري بائسات الطير
لم يك قرباني القليل ضائع
قال: القطيه. بارك الله لك
ومصرع العصفور في المنقار
مقالة العارف بالأسرار:
كم تحت ثوب الزهد من صياد!

حكاية الصياد والعصفوره
ما هزءوا فيها بمستحق
ما كل أهل الزهد أهل الله
جعلتها شعرا لتلفت الفطن
وخير ما ينظم للأديب
ألقي غلام شركا يصطاد
فانحدرت عصفورة من الشجر
قالت: سلام أيها الغلام
قالت: صبي منحنى القناة؟!
قالت: أراك بايدي العظام!
قالت: فما يكون هذا الصوف؟
سلي إذا جهلت عارفيه
قالت: فما هذي العصا الطويلة؟
أهش في المرعى بها، وأتكي
قالت: أرى فوق التراب حبا
قال: تشبهت بأهل الخير
فإن هدى الله إليه جائعا
قالت: فجدلى يا أبا التنسك
فصليت في الفخ نار القاري
وهتفت تقول للأعزار
«إياك أن تغتر بالزهاد»

^٢ زيدت في هذه الطبعة الثانية.

الْبَلَابِلُ الَّتِي رَبَّاهَا الْبُومُ

أَصْبَى الطُّيُورَ، فَنَاجَتْهُ، وَنَاجَاهَا
لِحَرْمَةٍ عِنْدَهُ — لِلْبُومِ يَرَعَاهَا
فَأَقْبَلَتْ وَهِيَ أَعْصَى الطُّيْرِ أَفْوَاهَا
بِأَنَّ تَبَتْ نَبِيَّ اللَّهِ شَكَاوَاهَا
وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ بِالذَّبْحِ دَاوَاهَا
عَنْهَا، يَقُولُ لِمَوْلَاهُ وَمَوْلَاهَا:
خُرْسًا، وَلَكِنْ بَوْمُ الشُّومِ رَبَّاهَا

أُنْبِئْتُ أَنَّ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ وَمَنْ
أَعْطَى بَلَابِلَهُ يَوْمًا — يُوَدِّبُهَا
وَاشْتَاقَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ رُؤْيَيْهَا
أَصَابَهَا الْعِيَّ، حَتَّى لَا اقْتِدَارَ لَهَا
فَنَالَ سَيِّدُهَا مِنْ دَائِهَا غَضَبُ
فَجَاءَهُ الْهُدْهُدُ الْمَعْهُودُ مُعْتَذِرًا
بَلَابِلُ اللَّهِ لَمْ تَخْرُسْ، وَلَا وَلَدَتْ

الدَّيْكَ الْهِنْدِيُّ وَالذَّجَاجُ الْبَلْدِيُّ

بَيْنَا ضِعَافٌ مِنْ دَجَاجِ الرَّيْفِ
إِذْ جَاءَهَا هِنْدِيٌّ كَبِيرُ الْعُرْفِ
يَقُولُ: حَيَّاَ اللَّهُ ذِي الْوُجُوْهَا
أَتَيْتُكُمْ أَنْشُرُ فَيْكُمْ فَضْلِي
وَكُلُّ مَا عِنْدَكُمْ حَرَامٌ
فَعَاوَدَ الدَّجَاجُ دَاءَ الطَّيِّشِ
فَجَالَ فِيهِ جَوْلَةَ الْمَلِكِ
وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السَّعِيدَةَ
وَبَاتَتِ الدَّجَاجُ فِي أَمَانٍ
حَتَّى إِذَا تَهَلَّلَ الصَّبَاحُ
صَاحَ بِهَا صَاحِبُهَا الْفَصِيحُ
فَانْتَبَهَتْ مِنْ نَوْمِهَا الْمَشْتُومِ
تَقُولُ: مَا تِلْكَ الشُّرُوطُ بَيْنَنَا
فَضَحِكَ الْهِنْدِيُّ حَتَّى اسْتَلْقَى

تَخَطَّرُ فِي بَيْتٍ لَهَا طَرِيفٍ
فَقَامَ فِي الْبَابِ قِيَامَ الضَّيْفِ
وَلَا أَرَاهَا أَبَدًا مَكْرُوهَا
يَوْمًا، وَأَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ
عَلَيَّ، إِلَّا الْمَاءُ، وَالْمَنَامُ
وَفَتَحَتْ لِلْعَلَجِ بَابَ الْعُشِّ
يَدْعُو لِكُلِّ فَرْخَةٍ وَدِيكَ
مُمتَّعًا بِدَارِهِ الْجَدِيدَةِ
تَحْلُمُ بِالذَّلَّةِ وَالْهَوَانِ
وَاقْتَبَسَتْ مِنْ نُورِهِ الْأَشْبَاحُ
يَقُولُ: دَامَ مَنْزِلِي الْمَلِيحُ!
مَذْعُورَةٌ مِنْ صِيحَةِ الْغُشُومِ
غَدَرْتَنَا وَاللَّهِ غَدْرًا بَيْنَنَا!
وَقَالَ: مَا هَذَا الْعَمَى يَا حَقْمَى!؟

متى ملكتُمُ اللُّسَنَ الأَرْبابِ؟ قد كان هذا قبلَ فتحِ البابِ!

العُصْفُورُ والغَديرُ المَهْجُورُ

قد غابَ تحتَ الغابِ في الألفافِ
خَشِيَّةٌ أَنْ يُسَمَعَ عنه، أو يُرَى
وَحَرَكَ الصَّنِيعُ من لِسَانِهِ
وَمُخِجَلِ الكُوْثَرِ يومَ العَرُضِ
لِيَعْرِفَ المَكَانَ والإِمْكَانَا؟
ويشكرَ الفضلَ كما شكرتُ؟
وتُنْسِيَ الناسَ حديثَ النِّيلِ؟
وقال يُهْدِي مُهْجَةً المَغْرُورِ
أَمَّنْكَ اللُّهُ يَدَ ابْنِ آدَمِ
يُعْطِي، ولكنْ يَأْخُذُ الخَبِيثَا
وصارَ كُلُّ الذِّكْرِ لِلْمُهَنْدِسِ
وقيمةُ المحسنِ عندَ الناسِ
فقلْ لِمَنْ يَسْأَلُ عَنِّي بَعْدَهَا
يا سَعْدَ مَنْ صَافَى، وصُوفِي، واستتر!

أَلَمْ عَصْفُورٌ بِمَجَرَى صَافٍ
يَسْقِي الثَّرَى من حيثَ لا يدري الثرى
فاغترَفَ العصفورُ من إحسانِهِ
فقال: يا نورَ عُيُونِ الأَرْضِ
هل لك في أَنْ أُرْشِدَ الإنسانَا
فينظُرَ الخيرَ الذي نظرتُ
لعلَّ أَنْ تُشْهَرَ بالجميلِ
فالتفتَ الغديرُ للعُصْفُورِ
يأَيُّهَا الشاكِرُ دونَ العالمِ
النَّيلُ — فاسمعْ، وافهمِ الحديثَا —
من طُولِ ما أَبْصَرَهُ الناسُ نُسِي
وهكذا العَهدُ بوَدِّ الناسي
وقد عَرفتَ حالتي، وِضدَّها
إِنْ خَفِيَ النافعُ فالنفعُ ظَهَرَ

الأَفْعَى النِّيلِيَّةُ والعُقْرَبَةُ الهِنْدِيَّةُ

في هَوَسِ الأَفْعَى وخُبثِ العُقْرَبَةِ
مُعْجَبَةٌ بِقَدِّهَا الجميلِ
وتَدَّعي العقلَ الكبيرَ الرَّاجِحَا
تَحْمِلُ وَزْنِيهَا مِنَ الأَوْسَاخِ

وهذه واقعةٌ مُسْتَغْرِبَةٌ
رَأَيْتُ أَفْعَى من بناتِ النِّيلِ
تَحْتَقِرُ النَّصْحَ، وتَجْفُو النَّاصِحَا
عَنَّتْ لَهَا رَبِيبَةُ السَّبَاخِ

ساحرةً من ساحراتِ الهندِ
واندفعتِ تِلْكَ كَسَهِمِ زالِجِ
دارتُ عليه كالسَّوارِ دَوْرَها
أَيْنَ الْفِرَارُ يا عَدُوَّ الْعَيْشِ؟
أَوْ تَخْرُجِي فَالْهَلْكَ فِي الْخُرُوجِ
واغْتَرَّتِ الْأَفْعَى بِذا السَّكُوتِ
فخرجتْ ضَرَّتْها بِسُرْعَةٍ
واستَرَسَلَتْ فِي مُؤْلِمِ التَّلْدَاغِ
تصيحُ بالويلِ، وبالثُّبُورِ
فنزلت عن رأسها العدوَّةُ
وإنَّ وَجَدَتْ قَسْوَةً فَعُذْرا
وهكذا فلتَرْكِبُ الْأَعْدَاءِ
يُضْبِحُ يَلْقَى ما لقيت منه
مَنِّي لَمَّا سَمُوا الْخَبِيثَ عَقْرَبَهُ

فحسبْتُها — والحسابُ يُجدي —
فانخرطتْ مِثْلَ الحُسَامِ الْوالِجِ
حتى إذا ما أَبْلَعَتْها جُحْرُها
تقولُ: يا أُمَّ الْعَمَى والطَّيِّشِ
إنَّ تلجِي فالَمُوتُ فِي الْوُلُوجِ
فسكنتْ طريضةً الْبُيُوتِ
وهجعتْ على الطريقِ هُجْعَهُ
ونَهَضَتْ فِي ذِرْوَةِ الدِّماغِ
فانتبَهَتْ كالحالمِ الْمَذْعُورِ
حتى وهَتْ من الْفَتَاةِ الْقُوَّةُ
تقولُ: صَبْرًا لِلْبَلَاءِ، صَبْرًا
فَرَأْسُكَ الدَّاءُ، وَذا الدَّوَاءُ
مَنْ مَلَكَ الْخَصَمَ وَنامَ عَنْهُ
لولا الَّذِي أَبْصَرَ أَهْلَ التَّجَرِبَةِ

السَّلُوقِيُّ وَالْجَوَادُ

وهو إلى الصَّيْدِ مَسُوقُ الْقِيَادِ
فَأَنْتَ تَدْرِي لي الْوفا فِي الْوِدادِ
أَهْلَ السُّرَى وَالسَّيْرِ، أَهْلَ الْجِهَادِ؟
هَامَ بِها الشَّاعِرُ فِي كُلِّ وادِ؟
أنا به المشهورُ بين الْعِبَادِ
إذا دعا الصَّيِّدُ، وَجَدَّ الطُّرَادِ
إنَّ الْعَصَا ما خُلِقَتْ لِلْجَوَادِ
مُنْكَسَ الرُّأْسِ، ضَيْلَ الْفُؤَادِ
يَنْقَادُ لِلْمَالِكِ أَيَّ انْقِيادِ؟

قال السَّلُوقِيُّ مَرَّةً لِلْجَوَادِ
باللهِ قُلْ لي يا رَفِيقَ الْهَنا
أَلَسْتَ أَهْلَ الْبَيْدِ، أَهْلَ الْفَلا
أَلَمْ تَكُنْ رَبَّ الصِّفَاتِ الَّتِي
قال: بلى، كل الَّذِي قَلَّتْهُ
قال: فما بِالْكَ يا صاحِبِي
تشكو، فَتَشْكِيكَ عَصا سَيِّدِي
وَتَنْثَنِي فِي عَرَقِ سَائِلِ
وَذا السَّلُوقِيُّ أَبْداً صابِرُ

ما هكذا أنظارُ أهل الرِّشَادِ
في عَظْمِ سِيقَانِكَ ياذا السَّادِ
إِنَّ البُطُونَ قَادِرَاتٌ شِدَادِ
تَطْوِي إِلَى الحَبِّ مِائَاتِ البِلَادِ؟

فقال: مهلا يا كبيرَ النُّهى
السُّرُّ في الطَّيْرِ وفي الوحشِ لا
ما الرَّجُلُ إِلَّا حيثُ كان الهوى
أما تَرى الطَّيْرَ على ضَعْفِهَا

فَأَرُ الغَيْطُ وَقَارُ البَيْتِ

تَتِيهَ بَابِنِيهَا على الفِيرَانِ!
وَعَلَّمْتَهُ المَشْيَ فوقَ الخَيْطِ
وَأَتَقَنَ الدُّخُولَ والخُرُوجَا
وعاش كالفلّاحِ في هِنَاءِ
بالكِبَرِ، فاحتَارَتْ بما تُسَمِّي
لأنني - يا أُمُّ - فأرُ العَصْرِ
فلي طريقُ، وله طريقُ
وثُبًّا مَن الرِّفِّ إلى الكَرَارِ
ونلتُ - يا كلَّ المَنَى - مَرَامِي
من عسلٍ، أو جُبْنَةٍ، أو زيتِ
وأقْبَلْتُ من وَجْدِهَا تَضُمُّهُ
أخشى عليك ظُلْمَةَ البُيُوتِ
في أن تكونَ مِثْلَهُ فَلَاحَا
أو لا، فِيسِرُ في ذِمَّةِ الرّحْمَنِ
وقال: من قال بِذا قد خَرِفَا
وعاهدَ الأُمُّ على أن تَكْتُمَا
وجُبْنَةً في فِمْه، أو شَمْعَهُ
وعُرفَ اللُّصُّ، وشاعَ الأمرُ
فسألته: أينَ خَلِي الذَّنْبَا؟

يُقالُ: كانتُ فَأَرَةً الغِيطَانِ
قد سَمَّيتُ الأَكْبَرَ نُورَ الغَيْطِ
فَعَرَفَ الغِياضَ والمُرُوجَا
وصارَ في الحِرْفَةِ كالآبَاءِ
وَأَتَعَبَ الصَّغِيرُ قَلْبُ الأُمِّ
فقال سَمِّيني بنورِ القَصْرِ
إني أرى ما لم ير الشَّقِيقُ
لأَدْخُلَنَّ الدَّارَ بَعْدَ الدَّارِ
لعلَّنِي إِنْ ثَبَّتَتْ أَقْدَامِي
أَتِيكَمَا بما أرى في البَيْتِ
فَعَطَفْتُ على الصَّغِيرِ أُمُّهُ
تقولُ: إني - يا قَتِيلَ القَوْتِ -
كان أبوكَ قد رأى الفِلاحَا
فاعْمَلْ بما أوصى تُرْحَ جَنَانِي
فاستَضَحَكَ الفأْرُ، وهَزَّ الكِتْفَا
ثم مضى لِمَا عليه صَمَمَا
فكان يَأْتِي كلَّ يومٍ جَمْعَهُ
حتى مَضَى الشَّهْرُ، وجاءَ الشَّهْرُ
فجاءَ يومًا أُمُّهُ مُضْطَرِبًا

في الشَّهْدِ قَدْ غَاصَ، وفي الشَّهْدِ ذَهَبَ
منها يُدَارِي فَقَدْ إِحْدَى الْأَرْجُلِ
صَيَّرَنِي أَعْرَجَ فِي الْمَعَالِي
قَدْ أَخْلَفَ الْعَادَةَ فِي الزِّيَارَةِ
وسارت الأُمُّ له على عَجَلٍ
قد سَحِقَتْ مِنْهُ الْعِظَامُ سَحَقًا
إِنِ الْمَعَالِي قَتَلَتْ فَتَاهَا!

فَقَالَ: لَيْسَ بِالْفَقِيدِ مَنْ عَجِبَ
وَجَاءَهَا ثَانِيَةً فِي خَجَلٍ
فَقَالَ: رَفُّ لَمْ أَصِبْهُ عَالِي
وكان في الثَّالِثَةِ ابْنُ الْفَارَةِ
فَاشْتَغَلَ الْقَلْبُ عَلَيْهِ، وَاشْتَغَلَ
فَصَادَفَتْهُ فِي الطَّرِيقِ مُلْقَى
فَنَاحَتْ الْأُمُّ، وَصَاحَتْ: وَاهَا!

مَلِكُ الْغُرَبَانِ وَنُدُورُ الْخَادِمِ

وله في النخلة الكبرى أريكُ
لِصْغَارِ الْمُلْكِ أَصْحَابِ الْعُهُودِ
وَهُوَ فِي الْبَابِ الْأَمِينِ الْحَازِمُ
أَنْتَ مَا زِلْتَ تُحِبُّ النَّاصِحِينَ
جَازَتْ الْقَصْرَ، وَدَبَّتْ فِي الْجُدُورِ
قَبْلَ أَنْ نَهْلِكَ فِي أَشْرَاقِهَا
ثُمَّ أَدْنَى خَادِمِ الْخَيْرِ، وَقَالَ:
أَنَا ذُو الْمَنْقَارِ، غَلَّابُ الرِّيحِ
أَنَا لَا أَبْصُرُ تَحْتِي بِأَنْدُورِ!
قَامَ بَيْنَ الرِّيحِ وَالنَّخْلِ خِصَامُ
فَبَدَا لِلرِّيحِ سَهْلًا قَلْعُهَا
وَهَوَى الدِّوَانَ، وَانْقَضَ السَّرِيرُ
وَدَعَا خَادِمَهُ الْغَالِي يَقُولُ:
مَا تَرَى مَا فَعَلْتَ فِينَا الرِّيحَ؟
«أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»!

كَانَ لِلْغُرَبَانِ فِي الْعَصْرِ مَلِيكَ
فِيهِ كَرْسِيٌّ، وَخِذْرٌ، وَمُهِودٌ
جَاءَهُ يَوْمًا نُدُورُ الْخَادِمِ
قَالَ: يَا فَرْعَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ
سُوسَةٌ كَانَتْ عَلَى الْقَصْرِ تَدُورُ
فَابْعَثَ الْغُرَبَانُ فِي إِهْلَاقِهَا
ضَحَكَ السُّلْطَانُ مِنْ هَذَا الْمَقَالِ
أَنَا رَبُّ الشَّوْكَةِ الضَّافِي الْجَنَاحِ
«أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»
ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ
وَإِذَا النخلة أَقْوَى جِذْعُهَا
فَهَوَتْ لِلْأَرْضِ كَالْتِّلِ الْكَبِيرِ
فَدَعَا السُّلْطَانُ ذَا الْخَطْبِ الْمَهُولِ
يَا نُدُورَ الْخَيْرِ، أَسْعِفْ بِالصِّيَاحِ
قَالَ: يَا مَوْلَايَ، لَا تَسْأَلْ نُدُورَ

الظَّبْيُ وَالْعِقْدُ وَالْخَنْزِيرُ

فرفع الرأس إلى السماء
زَنَّهُ بِعِقْدِ اللُّوْلُؤِ النَّضِيدِ
طلبت يا ذا الظَّبْيِ ما لن تُمنحاً
لم يُبق في الحسنِ له مزيداً
لم يخرج الدُّر من البحور
وزاده شوقاً إلى اللآلي
فعاش دهرًا في الفلا يهيم
وهجر طيب النوم والطعام
يشكو إليه نفعه وضره
أقبل راعي الدَّير في الظلام
في جيده قِلادة تُنير
وقال من بعد انجلاء الشك
ما آفة العمر سوى الآمال
لما سعى العِقْدُ إلى الخنزير
وقال: حال الشيخ شرُّ حال
حفظت عُمرًا لو حفظت مَوْعِظَهُ

ظَبْيٍ رَأَى صَوْرَتَهُ فِي الْمَاءِ
وقال يا خالِقَ هذا الجيدِ
فسمِعَ الماءَ يَقُولُ مُفَصِّصًا
إِنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ هَذَا الْجِيْدِ
لو أَنَّ حُسْنَهُ عَلَى النُّحُورِ
فافتتنَ الظَّبْيُ بِذِي الْمَقَالِ
ولم يَنْلُهُ فَمُهُ السَّقِيمُ
حتى تَقْضَى الْعُمْرُ فِي الْهُيَامِ
فسارَ نحوَ الماءِ ذاتَ مرَّةٍ
وبينما الجارانِ في الكلامِ
يتبعُهُ حيثُ مشى خَنْزِيرُ
فاندفعَ الظَّبْيُ لِذَاكَ يَبْكِي
ما آفةَ السَّعْيِ سِوَى الضَّلَالِ
لولا قضاءَ الْمَلِكِ الْقَدِيرِ
فالتفتَ الماءُ إِلَى الْغَزَالِ
لا عَجَبُ؛ إِنْ السَّيْنِ مَوْعِظُهُ

وَلِيَّ عَهْدِ الْأَسَدِ وَخُطْبَةُ الْحَمَارِ

مُبَشِّرًا بِأَوَّلِ الْأَنْجَالِ
وانعقد المجلسُ لِلْهَنَاءِ
في الْأَرْضِ الْقَاصِي بها والدَّانِي
من كُلِّ ذِي صُوفٍ وَذِي مِنْقَارِ
نادى منادي اللَّيْثِ فِي الْمَعْيَةِ

لَمَّا دَعَا دَاعِي أَبِي الْأَشْبَالِ
سَعَتْ سَبَاعُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ
وَصَدَرَ الْمَرْسُومُ بِالْأَمَانِ
فضائق بالذُّيُولِ صَحْنُ الدَّارِ
حتى إِذَا اسْتَكْمَلَتِ الْجَمْعِيَّةُ

يدعو بطول العمر للأُمير؟
وقال ما يليقُ بالمقام
يُنشدُ، حتى قيلَ: ذا جرير
فَقِيلَ: أَحَسَنْتَ أبا نُواس!
يريدُ أَنْ يُشَرِّفَ العشيره
وباعثِ العصا إلى الحمير!..
فماتَ من رِغَدَتِهِ في المَهْدِ
بجُمْلَةِ الأنبياءِ والأَظفار
فقال في التعريضِ بالمسكين:
عاشَ حِمَارًا ومضى حمارًا!

هل من خطيبٍ محسنٍ خبيرٍ
فَنَهَضَ الفيلُ المشيرُ السامي
ثم تلاه الثَّعلبُ السفيرُ
واندفعَ القردُ مديرُ الكاسِ
وأومأَ الحِمَارُ بالعقيره
فقال: باسمِ خالقِ الشعيرِ
فأزَعَجَ الصَّوتُ وَلِيَّ العَهْدِ
فحملَ القومُ على الحِمَارِ
وانتدبَ الثَّعلبُ للتأبينِ
لا جَعَلَ اللهُ له قَرَارًا

الْأَسَدُ وَالثَّعْلَبُ وَالْعَجَلُ

كان بالقربِ على غيْطٍ أَمِينُ
وكذا الأنفُسُ يُضْبِيها النفيسُ
رَأْسُكَ المحبوبُ، أو ذاك الغزلُ!
ومضى في الحالِ لِلأَمْرِ الجليلِ
فرأى العَجَلَ فأهداهُ السلامُ
أَنْتَ أَهْلُ العَفْوِ والبرِّ الغزيرِ
فوشى بي عندَ مَولانا الأَسَدِ
وهوَ فينا لم يزلَ نِعَمَ الشَّفيعِ!
ودنا يسألُ عن شرحِ الحديثِ
أَنْ مَولانا أبا الأَفْئالِ مات؟
موطنَ الحكمةِ والحدقِ الكثيرِ
ولأَمْرِ المُلِكِ ركنًا يُذخرُ
مثلَ آبيسَ وَمَعْبُودِ اليهودِ

نظَرَ اللَّيْثُ إلى عَجَلٍ سَمِينُ
فاشتَهَتْ من لحمه نفسُ الرئيسِ
قال للثعلبِ: يا ذا الاحتِيالِ
فدعا بالسَّعْدِ والعُمَرِ الطويلِ
وأَتى الغَيْطَ وقد جَنَّ الظلامُ
قائلاً: يَأَيُّهَا المولى الوزيرُ
حَمَلَ الذُّئْبُ على قتلي الحَسَدِ
فتراميتُ على الجاهِ الرفيعِ
فبكى المغرورُ من حالِ الخبيثِ
قال: هل تَجْهَلُ يا حُلُوَ الصِّفَاتِ
فرأى السُّلطانَ في الرأسِ الكبيرِ
ورآكم خَيْرَ مَنْ يُسْتَوَزَرُ
ولقد عَدُّوا لكم بينَ الجُودِ

عن يمين الملك السامي الخطير
في انتظار السيد العالي هناك
وانتهى الأنس إليكم والسرور
واطلبوا لي العفو منه والأمان
أخذم المُنعم جهد المستطيع
أنت منذ اليوم جاري، لا تُنال!
أنا لا يشقى لديه بي رفيق
ذا إلى الموت، وهذا للحياه
وحبب الثعلب منه باليسير
وجرى في حلبة الفخر يقول:
فقداه كل ذي رأس كبيرا

فأقاموا لمعاليكم سرير
واستعد الطير والوحش لذاك
فإذا قمتم بأعباء الأمور
برؤوني عند سلطان الزمان
وكفاكم أنني العبد المطيع
فأحد العجل قرنيهِ، وقال:
فامض واكشف لي إلى الليث الطريق
فمضى الخِلان تَوًّا للفلّاه
وهناك ابتلع الليث الوزير
فانثنى يضحك من طيش العجول
سلم الثعلب بالرأس الصغير

القرْدُ وَالْفِيلُ

مُهرولاً خَوْفاً من التَّغْوِيقِ
يُرِيدُ يُحْصِي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً
وَمَرْحَباً بِمُخْجَلِ الْجِبَالِ
فَقِفْ أَشَاهِدْ حُسْنَكَ الْوَسِيمَا
وَالطَّفَ الْعَظْمَ وَأَبْهَى الْجِلْدَا!
كَأَنَّهَا دَائِرَةُ الْغُرْبَالِ!
كَأَنَّهُ النِّخْلَةُ فِي صِبَاهَا!
لِلنَّفْسِ فِي رُكُوبِهِ انْبِساطُ
وَأَمَرَ الشَّاعِرَ بِالصُّعُودِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ مَكَانٍ
وَأَدْخَلَ الْأَصْبُعَ فِيهِ يَخْبُرُ
وَضِيقَ الثَّقَبِ، وَصَالَ بِالذَّنَبِ

قَرِدُ رَأَى الْفِيلَ عَلَى الطَّرِيقِ
وَكَانَ ذَاكَ الْقَرْدُ نَصَفَ أَعْمَى
فَقَالَ: أَهْلًا بِأَبِي الْأَهْوَالِ
تَفْدِي الرَّؤُوسَ رَأْسَكَ الْعَظِيمَا
لِلَّهِ مَا أَظْرَفَ هَذَا الْقَدَا
وَأَمْلَحَ الْأَذْنَ فِي الْاسْتِرْسَالِ
وَأَحْسَنَ الْخُرْطُومَ حِينَ تَاهَا
وظَهَرَكَ الْعَالِي هُوَ الْبِساطُ
فَعَدَّهَا الْفِيلُ مِنَ السُّعُودِ
فَجَالَ فِي الظُّهْرِ بِلَا تَوَانٍ
أَوْفَى عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَا يُذَكَّرُ
فَاتَهُمُ الْفِيلُ الْبَعُوضُ، وَاضْطَرَبَ

فوقَ الضربِ على السليمه
ونزل البصير^٢ ذا اكتئابٍ
فقال: لا مُوجِبَ للندامه
من كان في عينيه هذا الداءُ

فلجّقتُ بأختها الكريمه
يشكو إلى الفيلِ من المصابِ
الحمد لله على السلامه
ففي العمى لنفسه وقاءُ

السَّاءُ وَالْغُرَابُ

مرَّ الغُرَابُ بشاةٍ
تقولُ والدمعُ جارٍ
يا ليت شعري يا ابني
وهل تكونُ بجنبي
فقال: يا أمَّ سعدٍ
فكرتِ في الغدِ، والفكـ
لكلِّ يومٍ خُطوبُ
وبينما هو يهذي
يقول: خلّفتُ سعدًا
رأى من الذئبِ ما قد
فقال ذو البينِ للأـ
إن الحكيمَ نبِي
ألم أقلّ لك توا
قالت: صدقت، ولكن
فإن قومي قالوا:

قد غابَ عنها الفطيمُ
والقلبُ منها كليم:
وواحي، هل تدوم؟
غداً على ما أروم؟
هذا عذابُ أليم
رُ مُقْعِدٌ ومُقيم
تكفي، وشغلٌ عظيم
أتى النعيّ الذمّيم
والعظمُ منه هشيم
رأى أبوه الكريم
م حين ولّت تهيم:
لسانُه معصوم
لكل يومٍ هموم؟
هذا الكلامُ قديم
وجّه الغراب مشوم

أُمَّةُ الْأَرَانِبِ وَالْفِيلِ

قَدْ أَخَذَتْ مِنَ الثَّرَى بِجَانِبِ
وَمَوْئِلِ الْعِيَالِ وَالْحَرِيمِ
مُمَزَّقًا أَصْحَابَنَا تَمْزِيْقًا
أَذْهَبَ جُلٌّ صُوفِهِ التَّجْرِبِ
مَنْ عَالِمٍ، وَشَاعِرٍ، وَكَاتِبِ
فَالاتِّحَادُ قُوَّةُ الضَّعَافِ
وَعَقِدُوا لِلْاجْتِمَاعِ رَايَهُ
لَا هَرَمًا رَاعُوا، وَلَا حَدَاثَهُ
واعتَبَرُوا فِي ذَاكَ سِنَّ الْفَضْلِ
فَقَالَ: إِنَّ الرَّأْيَ ذَا الصَّوَابِ
كِي نَسْتَرِيحَ مِنْ أَذَى الْعَشُومِ
هَذَا أَضُرُّ مِنْ أَبِي الْأَهْوَالِ
أَعْهَدُ فِي الثَّغْلِبِ شَيْخَ الْفَنِّ
وَيَأْخُذُ اثْنَيْنِ جِزَاءَ خِدْمَتِهِ
لَا يُدْفَعُ الْعَدُوُّ بِالْعَدُوِّ
فَقَالَ: يَا مَعَاشِرَ الْأَقْوَامِ
ثُمَّ احْفَرُوا عَلَى الطَّرِيقِ هُوَّةً
فَنَسْتَرِيحُ الدَّهْرَ مِنْ شُرُورِهِ
قَدْ أَكَلَ الْأَرْنَبُ عَقْلَ الْفِيلِ
وَعَمَلُوا مِنْ قَوْرِهِمْ، فَأَحْسَنُوا
فَأَمْسَتْ الْأُمَّةُ فِي أَمَانٍ
سَاعِيَةً بِالتَّاجِ وَالسَّرِيرِ
إِنَّ مَحَلِّيَ لِلْمَحَلِّ الثَّانِي
مَنْ قَدْ دَعَا: يَا مَعَاشِرَ الْأَرَانِبِ

يَحْكُونُ أَنَّ أُمَّةَ الْأَرَانِبِ
وَابْتَهَجَتْ بِالْوَطَنِ الْكَرِيمِ
فَاخْتَارَهُ الْفِيلُ لَهُ طَرِيقًا
وَكَانَ فِيهِمْ أَرْنَبٌ لَبِيبٌ
نَادَى بِهِمْ: يَا مَعَاشِرَ الْأَرَانِبِ
اتَّحِدُوا ضِدَّ الْعَدُوِّ الْجَافِي
فَأَقْبَلُوا مُسْتَصْوِبِينَ رَايَهُ
وَانْتَخَبُوا مِنْ بَيْنِهِمْ ثَلَاثَهُ
بَلْ نَظَرُوا إِلَى كِمَالِ الْعَقْلِ
فَنَهَضَ الْأَوَّلُ لِلْخِطَابِ
أَنْ تَتَرَكَ الْأَرْضُ لَذِي الْخُرْطُومِ
فَصَاحَتْ الْأَرَانِبُ الْعَوَالِي:
وَوَثَبَ الثَّانِي فَقَالَ: إِنِّي
فَلْنَدْعُهُ يُمِدَّنَا بِحِكْمَتِهِ
فَقِيلَ: لَا يَا صَاحِبَ السُّمُوءِ
وَانْتَدَبَ الثَّالِثُ لِلْكَلَامِ
اجْتَمِعُوا: فَالاجْتِمَاعُ قُوَّةُ
يَهْوِي إِلَيْهَا الْفِيلُ فِي مَرُورِهِ
ثُمَّ يَقُولُ الْجِيلُ بَعْدَ الْجِيلِ
فَاسْتَصَوَّبُوا مَقَالَهُ، وَاسْتَحْسَنُوا
وَهَلَكَ الْفِيلُ الرَفِيعُ الشَّانِ
وَأَقْبَلَتْ لِصَاحِبِ التَّدْبِيرِ
فَقَالَ: مَهْلًا يَا بَنِي الْأَوْطَانِ
فَصَاحَبُ الصَّوْتِ الْقَوِيِّ الْغَالِبِ

حكاية الخُفَّاشِ وَمليكة الفَرَّاشِ

مَرَّتْ عَلَى الْخُفَّاشِ
تَطِيرُ بِالْجُمُوعِ
فَعَطَفَتْ وَمَالَتْ
أُزْرِيتَ بِالْغَرَامِ
صَفَّ لِي الصَّدِيقَ الْأَسْوَدَا
قَالَ: سَأَلْتِ فِيهِ
هُوَ الصَّدِيقُ الْوَافِي
جَوَارُهُ أَمَانُ
وَطَرْفُهُ كَلِيلُ
يَحْنُو عَلَى الْعِشَّاقِ
وَجُمْلَةُ الْمَقَالِ
فَقَالَتِ الْحَمَقَاءُ
أَيْنَ أَبُو الْمِسْكِ الْخَصِي
مِنْ صَاحِبِي الْأَمِيرِ
إِنْ عُدَّ فَيَمْنُ أَعْرِفُ
وَإِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ
أَفَاخِرُ الْأَتْرَابِ
فَقَالَ: يَا مَلِيكَةُ
إِنَّ مِنْ الْغُرُورِ
فَأَعِطَنِي قَفَاكَ
فَتَرَكْتُهُ سَاخِرَهُ
وَبَعْدَ سَاعَةٍ مَضَتْ
مَرَّتْ عَلَى الْخُفَّاشِ
نَاقِصَةً الْأَعْضَاءِ
فَجَاءَهَا مِنْهُمْ مَكَا

مَلِيكَةُ الْفَرَّاشِ
سَعِيًّا إِلَى الشَّمُوعِ
وَاسْتَضَحَكَتْ فَقَالَتْ:
يَا عَاشِقَ الظَّلَامِ
الْخَامِلَ الْمُجَرِّدَا^٣
أَصَدَقَ وَاصْفِيهِ
الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ
وَسِرُّهُ كَتَمَانُ
إِذَا هَفَا الْخَلِيلُ
يَسْمَعُ لِلْمِشْتَاكِ
هُوَ الْحَبِيبُ الْغَالِي
وَقَوْلُهَا اسْتِهْزَاءُ
ذُو الثَّمَنِ الْمُسْتَرْحِصِ
الظَّاهِرِ الْمُنِيرِ؟
أَسْمُو بِهِ وَأَشْرَفُ
وَعَنْ مَكَانِي مِنْهُ
وَأَنْثَنِي إِعْجَابَا
وَرَبَّةَ الْأَرِيكَةِ
مَلَامَةً الْمَغْرُورِ
وَامْضِي إِلَى الْهَلَاكِ
وَذَهَبَتْ مُفَاخِرَهُ
مِنَ الزَّمَانِ فَاِنْقَضَتْ
مَلِيكَةُ الْفَرَّاشِ
تَشْكُو مِنَ الْفَنَاءِ
يُضْحِكُ مِنْهَا الْبُكََا

قال: أَلَمْ أَقْلُ لَكَ
رُبَّ صَدِيقٍ عَبْدٍ
يَفْدِيكَ كَالرَّئِيسِ
وَصَاحِبٍ كَالنُّورِ
مُعْتَكِرِ الْفَوَادِ
حِبَالُهُ أَشْرَاكُ
هَلَكْتُ أَوْ لَمْ تَهْلِكِ
أَبْيَضُ وَجْهِ الْوَدِّ
بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ
فِي الْحُسْنِ وَالظُّهْرِ
مُضَيِّعِ الْوَدَادِ
وَقُرْبِهِ هَلَاكُ؟

الْأَسَدُ وَوَزِيرُهُ الْحِمَارُ

الَلَيْثُ مَلِكُ الْقِفَارِ
سَعَتْ إِلَيْهِ الرعايا
قالت: تعيشُ وتبقى
ماتَ الوزيرُ فَمَنْ ذا
قال: الحمارُ وزيري
فأستضحكت، ثم قالت:
وخلّفتُهُ، وطارت
حتى إذا الشَّهْرُ وَلَّى
لم يشعُرِ اللَّيْثُ إِلَّا
القرْدُ عِنْدَ الْيَمِينِ
والقِطُّ بَيْنَ يَدَيْهِ
فقال: مَنْ فِي جُدُودِي
أَيْنَ اقْتِدَارِي وَبَطْشِي
فجاءهُ القردُ سرًّا
يا عاليَ الجاهِ فينا
رأى الرعيَّةَ فيكم
وما تَضُمُّ الصَّحاري
يَوْمًا بِكُلِّ انْكَسارٍ
يا داميَ الْأَطْفارِ
يَسُوسُ أَمْرَ الضَّواري؟
قضى بهذا اختياري
«ماذا رأى في الحمار؟»
بِمُضْجِكِ الْأَخْبَارِ
كَلِيلَةٍ أَوْ نَهَارِ
وَمُلْكُهُ فِي دَمَارِ
والكلبُ عِنْدَ الْيسَارِ
يَلْهُو بِعِظْمَةِ فارٍ!
مثلي عديمُ الوقار؟!
وهيبتني واعتباري؟!
وقال بعدَ اعتذار:
كن عاليَ الأنظارِ
من رأيكم في الحمار!

النَّمْلَةُ وَالْمُقَطَّمُ

كانتِ النملةُ تمشي
فارتخى مَفْصِلُهَا مِنْ
وانثنتْ تنظرُ حتى
قالتِ: اليومَ هلاكي
ليت شعري: كيف أنجو
فسعتُ تجري، وعينا
سقطتُ في شبرِ ماءٍ
فبكت يأسًا، وصاحت
ثم قالت وهي أدري
ليتنني لم أتأخر
ليتنني سلّمتُ، فالعا
صاح لا تخش عظيمًا

مرّةً تحت المُقَطَّمِ
هَيْبَةُ الطَّوْدِ المِعْظَمِ
أوجَدَ الخَوْفُ وأَعْدَمَ
حلَّ يومي وتحتّم!
— إن هوى هذا — وأسلم؟
ها ترى الطَّوْدَ فَتَنَدَمُ
هو عند النملِ كاليمِّ
قبلَ جَرِي الماءِ في الفمِّ
بالذي قالت وأعلّم:
ليتنني لم أتقدّم
قلُّ مَنْ خاف فسَلَّمَ!
فالذي في الغيبِ أعظم

الغزالُ والكلبُ

كان فيما مَضَى من الدهرِ بَيْتٌ
يَطْعَمُ اللُّوزَ والفطيرَ وَيُسْقَى
فأتى الكلبَ ذاتَ يومٍ يُناجيهِ
قال: يا صاحِبَ الأمانَةِ، قل لي
فأجابَ الأَمِينُ وهو القَتُولُ الصَّ
سائلي عن حقيقةِ الناسِ، عذراً
إنما هُم حَقْدٌ، وغشٌّ، وبُغْضٌ
ليت شعري هل يستريحُ فؤادي؟
فرضا البعض فيه للبعضِ سُخْطٌ

من بيوتِ الكرامِ فيه غزالٌ
عسلاً لم يَشْبُهْهُ إلا الزُّلالُ
فيه وفي النفسِ تَرَحُّةٌ وملالُ
كيف حالُ الوَرَى؟ وكيف الرجالُ؟
أدقُّ الكاملِ النُّهَى المِفْضالُ
ليس فيهم حقيقةٌ فتقالُ
وأذاةٌ، وغيبةٌ، وانتحالُ
كم أداريهم! وكم أحتالُ!
ورضا الكلِّ مطلبٌ لا يُنالُ

ورضا الله نَرتجيه، ولكن لا يُغَرِّنَكَ يا أبا البيدِ من مَوْ
أَنْتَ في الأسرِ ما سَلِمْتَ، فَإِنْ تَمَّ
فاطلبِ البيدَ، وارضِ بالعُشبِ قوتًا
أنا لولا العظامُ وهَيَّ حياتي

لا يُؤدِّي إليه إلا الكمال
لاك ذاك القَبولُ والإقبال
رض تقطَعُ من جِسمِكَ الأوصال
فهناك العيشُ الهنيُّ الحلال
لم تَطِبَ لي مع ابن آدمَ حال

التَّعَلُّبُ والدَّيْكَ

برز التَّعَلُّبُ يومًا
فمَشَى في الأَرْضِ يَهْذِي
ويقولُ: الحمدُ للهِ
يا عباد الله، تَوَبُّوا
وازهِدُوا في الطَّيْرِ؛ إِنَّ الـ
واطلبوا الدَّيْكَ يَوْزَنُ
فأتَى الديكَ رسولُ
عَرَضَ الأَمْرَ عليه
فأجاب الديكُ: عُذْرًا
بَلَّغِ التَّعَلُّبَ عني
عن ذوي التَّيْجَانِ ممن
أنهم قالوا وخيرُ الـ
«مُخْطِئُ مَنْ ظَنَّ يومًا»

في شعار الواعِظينا
ويَسُبُّ الماكرينا
هِ إِلِهِ العالمينا
فهُوَ كَهْفُ التَّائِبينا
عَيْشُ عَيْشِ الزَاهِدينا
لصلاة الصُّبْحِ فينا
من إمام الناسِ كينا
وهو يرجو أن يَلينا
يا أَضَلَّ المُهْتَدينا!
عن جدودي الصالحينا
دَخَلَ البَطْنُ اللعينا
قَولِ قولِ العارفينا
أَنَّ للتَّعَلُّبِ دينا»

النَّعْجَةُ وَأَوْلَادُهَا

وافهمهُ فَهَمَ لَبِيبٍ نَاقِدٍ وَاِيعِي
بَأَرْضِ بَغْدَادَ يَرَعَى جَمْعَهَا رَاعِي
لَمْ يَدْعُهَا فِي الدِّيَاجِي لِلْكَرَى دَاعِي
وَابْنِ امِّهِ، وَأَخِيهِ مُنْيَةِ الرَّاعِي
تُخَيِّهِ مَا بَيْنَ أَوْجَالٍ وَأَوْجَاعِ
بُعْدٍ، فَصَاحَتْ: أَلَا قَوْمُوا إِلَى السَّاعِي!
يَقُولُ: أَيَّنِ كِلَابِي أَيَّنِ مِقْلَاعِي؟
فَانْسَابَ فِيهِ انْسِيَابَ الظُّبْيِ فِي الْقَاعِ
حُرًّا، وَكَانَ وَفِيًّا طَائِلَ الْبَاعِ
سَهَرْتُ مِنْ حُبِّ أَطْفَالِي عَلَى الرَّاعِي!

اسْمَعْ نَفَائِسَ مَا يَأْتِيكَ مِنْ حِكْمِي
كَانَتْ عَلَى زَعْمِهِمْ فِيمَا مَضَى عَنَّمِ
قَدْ نَامَ عَنْهَا، فَنَامَتْ غَيْرَ وَاحِدَةٍ
أُمُّ الْفَطِيمِ، وَسَعْدٍ، وَالْفَتَى عَلَفِ
فَبَيْنَمَا هِيَ تَحْتَ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ
بَدَا لَهَا الذُّنْبُ يَسْعَى فِي الظَّلَامِ عَلَى
فَقَامَ رَاعِي الْحِمَى الْمَرْعِيِّ مُنْذَعِرًا
وَضَاقَ بِالذُّنْبِ وَجْهُ الْأَرْضِ مِنْ فَرَقِ
فَقَالَتِ الْأُمُّ: يَا لِلْفَخْرِ! كَانَ أَبِي
إِذَا الرُّعَاةَ عَلَى أَغْنَامِهَا سَهَرَتْ

الْكَلْبُ وَالْقِطُّ وَالْفَأْرُ

مُعَذَّبًا فِي أَضْيَاقِ الْحِصَارِ
مُسْتَجْمِعًا لِلوُثْبَةِ الْمَوْعُودَةِ
وَقَالَ أَكْفِي الْقِطُّ هَذِي الْغُصَّةُ
لِي وَلِأَصْحَابِي مِنَ الْجِيرَانِ
وَمَكَّنَ التُّرَابَ مِنْ عَيْنَيْهِ
وَنَزَلَ الْقِطُّ عَلَى بِدَارِ
وَفِي فَرِيْسَةٍ لَهَا كَرِيمَةٍ
يَذْكُرُهَا فَيَذْكُرُ السَّلَامَةَ
وَقَالَ: عَاشَ الْقِطُّ فِي هَنَاءِ
مَا كَانَ مِنْهَا سَبَبَ الْخَلَاصِ
فَامْنُنْ بِهِ لِمَعْشَرِي إِحْسَانًا

فَأَرَى الْقِطُّ عَلَى الْجِدَارِ
وَالْكَلْبُ فِي حَالَتِهِ الْمَعْهُودَةِ
فَحَاوَلَ الْفَأْرُ اغْتِنَامَ الْفُرْصَةِ
لَعَلَّهُ يَكْتَسِبُ بِالْأَمَانِ
فَسَارَ لِلْكَلْبِ عَلَى يَدَيْهِ
فَاشْتَغَلَ الرَّاعِي عَنِ الْجِدَارِ
مُبْتَهِّجًا يَفْكُرُ فِي وَلِيْمَةٍ
يَجْعَلُهَا لِخَطْبِهِ عِلَامَةٍ
فَجَاءَ ذَاكَ الْفَأْرُ فِي الْأَثْنَاءِ
رَأَيْتَ فِي الشَّدَّةِ مِنْ إِخْلَاصِي
وَقَدْ أَتَيْتُ أَطْلُبُ الْأَمَانَا

فقال: حقًا هذه كرامه
يكفيك فخراً يا كريم الشيمه
وانقض في الحال على الضعيف
فقلت في المقام قولاً شاعا
غنيمة وقبلها سلامه
أنك فأر الخطب والوليمه
يأكله بالملح والرغيف
«من حفظ الأعداء يوماً ضاعا»

سُلَيْمَانُ وَالْهُدُودُ

وقف الهدود في با
قال: يا مولاي، كن لي
مت من حبة بر
لا مياه النيل ترويه
وإذا دامت قليلا
فأشار السيّد العا
قد جنى الهدود ذنبا
تلك نار الإثم في الصّد
ما أرى الحبة إلا
إن للظالم صدرا
ب سليمان بذله
عيشتي صارت مملّه
أحدث في الصدر غلّه
ها، ولا أمواه دجله
قتلتني شر قتله
لي إلى من كان حوله:
وأتى في اللوم فعله
ر، وذو الشكوى تعلّه
سُرقت من بيت نملة
يشتكي من غير عله!

سُلَيْمَانُ وَالطَّائِفُوس

سمعت بأن طائووسا
يجرّ دون وفد الطيّ
ويظهر ريشه طورا
فقال: لديّ مسألة
وها قد جئت أعرضها
أتى يوماً سليمانا
ر أذبالا وأردانا
ويخفي الريش أحيانا
أظن أوانها أنا
على أعتاب مولانا:

رِ وَالْأَنْوَارِ مُزْدَانَا؟	أَلَسْتُ الرَّوْضَ بِالْأَزْهَا
ف أَشْكَالًا وَالْوَانَا؟	أَلَمْ أَستَوْفِ آيَ الظَّرِّ
لِجَمْعِ الطَّيْرِ سُلْطَانَا؟	أَلَمْ أَصْبِحْ بِبَابِكُمْ
وَقَوْمِي الْغُرُّ أَوْثَانَا؟!	فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ أَبْقَى
نصِيبِي مِنْهُ حِرْمَانَا	فَحَسَنُ الصَّوْتِ قَدْ أَمْسَى
وَلَا أَسْكُرْتُ آذَانَا	فَمَا تَيَمَّمْتُ أَفْئِدَةً
يَزِيدُ الصَّبَّ أَشْجَانَا	وَهَذِي الطَّيْرُ أَحَقَرُهَا
إِذَا مَا هَزَّ عِيدَانَا؟	وَتَهْتَزُّ الْمُلُوكُ لَهُ
لَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَا	فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ
وَجَلَّ صَنِيعُهُ شَانَا	تَعَالَتْ حِكْمَةُ الْبَارِي
رُ نَعْمَى اللَّهَ كُفْرَانَا	لَقَدْ صَغُرْتَ يَا مَغْرُو
بِهِ، كِبِرًا وَطَغْيَانَا	وَمُلْكِ الطَّيْرِ لَمْ تَحْفَلْ
لَمَّا كَلَّمْتَ إِنْسَانَا!	فَلَوْ أَصْبَحْتَ ذَا صَوْتِ

الْعُصْنُ وَالْخُنْفَسَاءُ

يَقُولُ: جَلَّ الْوَاحِدُ الْمَنْفَرْدُ	كَانَ بَرَوْضِ عُصْنٍ نَاعِمٌ
وَمِثْلُ حُسْنِي فِي الْوَرَى مَا عُهِدُ	فَقَامَتِي فِي ظَرْفِهَا قَامَتِي
وَنَجْلُهَا يَمْشِي بِجَنْبِ الْكِبْدِ	فَأَقْبَلْتُ «خُنْفَسَةً» تَنْتَنِي
إِنَّ الَّذِي تَطْلُبُهُ قَدْ وَجِدُ	تَقُولُ: يَا زَيْنَ رِيَاضِ الْبَهَا
مَا دَامَ فِي الْعَالَمِ أُمَّ تَلْدُ!	فَانْظُرْ لِقَدْ ابْنِي، وَلَا تَفْتَخَرْ

الْقُبْرَةُ وَابْنُهَا

رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الرِّيَاضِ قُبْرَهُ
وَهِيَ تَقُولُ: يَا جَمَالَ الْعُشِّ
وَقِفْ عَلَى عَوْدٍ بِجَنْبِ عَوْدٍ
فَانْتَقَلْتُ مِنْ فَنَنْ إِلَى فَنَنْ
كَيْ يَسْتَرِيحَ الْفَرْخُ فِي الْأَثْنَاءِ
لَكِنَّهُ قَدْ خَالَفَ الْإِشَارَةَ
وَطَارَ فِي الْفَضَاءِ حَتَّى ارْتَفَعَا
فَانْكَسَرَتْ فِي الْحَالِ رُكْبَتَاهُ
وَلَوْ تَأْنَى نَالَ مَا تَمَنَّى
لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ وَقْتُهُ

تُطَيِّرُ ابْنَهَا بِأَعْلَى الشَّجَرِ
لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْجَنَاحِ الْهَشِّ
وَأَفْعَلُ كَمَا أَفْعَلُ فِي الصُّعُودِ
وَجَعَلْتُ لِكُلِّ نَقْلَةٍ زَمَنٌ
فَلَا يَمَلُّ ثِقَلُ الْهَوَاءِ
لَمَّا أَرَادَ يُظْهِرُ الشَّطَارَةَ
فَخَانَهُ جَنَاحُهُ فَوْقَهَا
وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الْعُلَا مُنَاهُ
وَعَاشَ طَوْلَ عُمُرِهِ مَهْنًا
وَعَايَةُ الْمُسْتَعْجِلِينَ فَوْتُهُ!

النَّعْجَتَانِ

كَانَ لِبَعْضِ النَّاسِ نَعْجَتَانِ
إِحْدَاهُمَا سَمِينَةٌ، وَالْأُخْرَى
فَكَانَتْ الْأُولَى تُبَاهِي بِالسَّمَنِ
وَتَدَّعِي أَنْ لَهَا مَقْدَارًا
فَتَصَبَّرُ الْأُخْتُ عَلَى الْإِدْلَالِ
حَتَّى أَتَى الْجَزَارُ ذَاتَ يَوْمٍ
فَقَالَ لِلْمَالِكِ: أَشْتَرِيهَا
فَانْطَلَقْتُ مِنْ فُورِهَا لِأُخْتِهَا
تَقُولُ: يَا أَخْتَاهُ خَبِّرِينِي
قَالَتْ: دَعِينِي وَهْزَالِي وَالزَّمَنُ
لِكُلِّ حَالٍ حُلُوهَا وَمُرُّهَا

وَكَانَتَا فِي الْغَيْطِ تَرْعِيَانِ
عِظَامُهَا مِنَ الْهُزَالِ بَادِيَةً
وَقَوْلُهُمْ بِأَنَّهَا ذَاتُ الثَّمَنِ
وَأَنَّهَا تَسْتَوْقِفُ الْأَبْصَارَا
حَامِلَةً مَرَارَةَ الْإِدْلَالِ
وَقَلْبَ النُّعْجَةِ دُونَ الْقَوْمِ
وَنَقْدَ الْكَيْسِ الْنَفِيسِ فِيهَا
وَهِيَ تَشْكُ فِي صَلَاحِ بَخْتِهَا
هَلْ تَعْرِفِينَ حَامِلَ السَّكِينِ؟
وَكَلِّمِي الْجَزَارَ يَا ذَاتَ الثَّمَنِ!
مَا أَدَبُ النُّعْجَةِ إِلَّا صَبْرُهَا

السَّفِينَةُ وَالْحَيَوَانَات

وَحَرَّكَتْهَا الْقُدْرَةُ الْمُعِينَةُ
فَمَا تَعَالَى الْمَوْجُ كَالْجِبَالِ ...
وَأَخَذَ الْقِطُّ بِأَيْدِي الْفَارِ
مُوتِنَسًا بِصَوْتِهِ النُّكِيرِ
وَقَبَّلَ الْخُرُوفُ نَابَ الذَّنْبِ
وَاجْتَمَعَ النَّمْلُ عَلَى الْأَكَالِ
وَتَيَّمُ ابْنُ عَرْسٍ حُبُّ الْأَرْنبِ
وظَهَرَ الْأَحْبَابُ فِي الْأَعَادِي
وَأَيَّقَنُوا بَعُودَةَ الْوُجُودِ
وَرَجَعُوا لِلْحَالَةِ الْقَدِيمَةِ
إِنْ شِمَلَ الْمَحْذُورُ، أَوْ عَمَّ الْخَطَرُ
إِذْ كُلُّهُمْ عَلَى الزَّمَانِ الْعَادِي

لَمَّا أَتَمَّ نَوْحُ السَّفِينَةِ
جَرَى بِهَا مَا لَا جَرَى بِبَالِ
... حَتَّى مَشَى اللَّيْثُ مَعَ الْحِمَارِ
وَاسْتَمَعَ الْفَيْلُ إِلَى الْخِنْزِيرِ
وَجَلَسَ الْهَرُّ بِجَنْبِ الْكَلْبِ
وَعَطَفَ الْبَاذُ عَلَى الْغَزَالِ
وَفَلَّتِ الْفَرَحَةُ صُوفَ الثَّعْلَبِ
فَذَهَبَتْ سَوَابِقُ الْأَحْقَادِ
حَتَّى إِذَا حَطُّوا بِسَفْحِ الْجُودِي
عَادُوا إِلَى مَا تَقَنَّضِيهِ الشَّيْمَةُ
فَقَسَّ عَلَى ذَلِكَ أَحْوَالَ الْبَشَرِ
بَيْنَا تَرَى الْعَالَمَ فِي جِهَادِ

الْقِرْدُ فِي السَّفِينَةِ

كَكَذِبِ الْقِرْدِ عَلَى نَوْحِ النَّبِيِّ
فَاشْتَاقَ مِنْ خِفَتِهِ لِلْمَزْحِ
لِمَوْجَةٍ تَجِدُ فِي هَلَاكِي!
فَوَجَدَتْهُ لَاهِيًا مَسْرُورًا
قَدْ ثَقِبَتْ مَرْكَبُنَا يَا نَوْحُ!
فَلَمْ يَرَوْا كَمَا رَأَى الْقِرْدُ خَطَرَ
جَادَتْ بِهِ عَلَى الْمِيَاهِ الْمَرْكَبُ
يَقُولُ: إِنِّي هَالِكٌ يَا نَوْحُ
وَصِرْتُ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ

لَمْ يَتَّفَقْ مِمَّا جَرَى فِي الْمَرْكَبِ
فَإِنَّهُ كَانَ بِأَقْصَى السَّطْحِ
وَصَاحَ: يَا لِلطَّيْرِ وَالْأَسْمَاكِ
فَبَعَثَ النَّبِيُّ لَهُ النَّسُورَا
ثُمَّ أَتَى ثَانِيَةً يَصِيحُ
فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ كُلَّ مَنْ حَضَرَ
وَبَيْنَمَا السَّفِينَةُ يَوْمًا يَلْعَبُ
فَسَمِعُوهُ فِي الدُّجَى يَنْوَحُ
سَقَطَتْ مِنْ حِمَاقَتِي فِي الْمَاءِ

فلم يَصْدُقْ أَحَدُ صِيَاخِهِ وقيلَ حقًّا هذه وقاحه
قد قال في هذا المقامِ مَنْ سَبَقُ أَكْذِبُ ما يُلْفِي الكذوبُ إنْ صَدَقَ
مَنْ كانَ مَمْنُونًا بِدِءِ الكَذِبِ لا يَتْرُكُ اللهَ، ولا يُعْفي نبي!

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالنَّمْلَةُ فِي السَّفِينَةِ

قد وَدَّ نوحٌ أَنْ يُبَاسِطَ قَوْمَهُ فدعا إِلَيْهِ معاشَرَ الحيوانِ
وأشارَ أَنَّ لِي السَّفِينَةَ قَائِدُ منهم يَكُونُ مِنَ النِّهْيِ بِمَكَانِ
فَتَقَدَّمَ اللَّيْثُ الرَّفِيعُ جَلالُهُ وتعرَّضَ الفيلُ الفَخِيمُ الشَّانِ
وتلاهُما باقِي السَّبَاعِ، وكلُّهُمْ خَرُّوا لِهَيْبَتِهِ إِلَى الْأَذْقَانِ
حتى إِذَا حَيُّوا المؤَيَّدَ بالهدى ودَعَوْا بطولِ العِزِّ والإِمْكَانِ
سَبَقَتْهُمْ لَخَطَابِ نوحٍ نَمْلَةٌ كانتَ هُناكَ بِجَانِبِ الْأُرْدَانِ
قالت: نبيُّ اللهِ، أَرْضِي فارِسُ وأنا يَقِينًا فارِسُ المِيدَانِ
سَادِيرُ دِفْئِهَا، وَأَحْمِي أَهْلَهَا وأقودُها في عِصْمَةٍ وَأَمَانِ
ضَحِكَ النَّبِيُّ وقال: إِنَّ سَفِينَتِي لِهِيَ الحِياةِ، وَأَنْتِ كالِإِنْسَانِ
كلَ الفضائلِ والعِظائمِ عنده هو أَوَّلُ، والغَيْرُ فيها الثَّانِي
ويودُّ لو سَاسَ الزَّمانَ، ومالَهُ بأَقْلٍ أَشْغالِ الزَّمانِ يَدانِ

الدُّبُّ فِي السَّفِينَةِ

الدُّبُّ معروفٌ بسوءِ الظنِّ فاسمَعُ حديثَهُ العَجِيبَ عَنِّي
لَمَّا استَطالَ المُكْتَفَى فِي السَّفِينَةِ ملَّ دِوامَ العِيشَةِ الظَّنِيَّةِ
وقال: إِنْ المَوْتَ فِي انتِظارِي والماءُ لا شَكَّ بِهِ قَرارِي
ثم رَأَى مَوْجًا على بُعْدِ عَلا فَظَنَّ أَنَّ فِي الفِضَاءِ جِبالا
فقال: لا بُدَّ مِنَ النِّزولِ وَصَلْتُ، أَوْ لَمْ أَحْظَ بِالوُصُولِ

قد قال مَنْ أَدَبَهُ اخْتِبَارُهُ:
فَأَسْلَمَ النَّفْسَ إِلَى الْأَمْوَاجِ
فَشَرِبَ التَّعْيِيسَ مِنْهَا، فَاَنْتَفَخَ
وَبَعْدَ سَاعَتَيْنِ غِيَضَ الْمَاءُ
وَكَانَ فِي صَاحِبِنَا بَعْضُ الرَّمَقِ
فَلَمَحَ الْمَرْكَبَ فَوْقَ الْجُودِيِّ
فَقَالَ: يَا لَجَدِّي التَّعْيِيسِ
مَا كَانَ ضَرَرَنِي لَوْ امْتَثَلْتُ

السَّعْيُ لِلْمَوْتِ وَلَا انْتِظَارُهُ!
وَهِيَ مَعَ الرِّيحِ فِي هِيَاجٍ
ثُمَّ رَسَا عَلَى الْقِرَارِ، وَرَسَخَ
وَأَقْلَعَتْ بِأَمْرِهِ السَّمَاءُ
إِذَا جَاءَهُ الْمَوْتُ بَطِيئًا فِي الْغَرَقِ
وَالرَّكْبُ فِي خَيْرٍ وَفِي سُعُودٍ
أَسَاءَتْ ظَنِّي بِالنَّبِيِّ الرَّئِيسِ!
وَمِثْلَمَا قَدْ فَعَلُوا فَعَلْتُ؟!

التَّغْلُبُ فِي السَّفِينَةِ

أَبُو الْحُصَيْنِ جَالَ فِي السَّفِينَةِ
يَقُولُ: إِنَّ حَالَهُ اسْتَحَالًا
لِيَكُونَ مَا حَلَّ مِنَ الْمَصَائِبِ
وَيُغْلِظُ الْإِيْمَانَ لِلدِّيُوكِ
بَأَنَّهُمْ إِنْ نَزَلُوا فِي الْأَرْضِ
قِيلَ: فَلِمَا تَرَكُوا السَّفِينَةَ
حَتَّى إِذَا مَا نَصَفُوا الطَّرِيقَا
وَقَالَ: إِذْ قَالُوا عَدِيمُ الدِّينِ
فَإِنَّمَا نَحْنُ بَنَى الدَّهَاءِ
وَمَنْ تَخَافُ أَنْ يَبِيعَ دِينَهُ

فَعَرَفَ السَّمِينَ وَالسَّمِينَةَ
وَإِنَّ مَا كَانَ قَدِيمًا زَالًا
مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَلَى الثَّعَالِبِ
لِمَا عَسَى يَبْقَى مِنَ الشُّكُوكِ
يَرَوْنَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ يُرْضَى
مَشَى مَعَ السَّمِينَ وَالسَّمِينَةَ
لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ حَوْلَهُ رَفِيقَا
لَا عَجَبُ إِنْ حَنَنْتُ يَمِينِي
نَعْمَلُ فِي الشَّدَّةِ لِلرِّخَاءِ
تَكْفِيكَ مِنْهُ صُحْبَةَ السَّفِينَةِ!

الليثُ والذئبُ في السفينة

رأى من الذئبِ صفا المودَّة
في حالتِي ولايتي وعزلي
وعاد لي فيها قديمُ الجاهِ
ثم تكونُ واليَ الولاةِ
وقاهرَ الرعاةِ والكلابِ
ووطئَ الأرضَ على السلامه
وهو مُطاعُ النهي ماضي الأمرِ
ومن له طولُ الفلا وعرضه
وذا أوان الموعِدِ الكريمِ
فمن تكونُ يا فتى؟ وما اسمُكا؟
فإنني والي الولاةِ سابقا!

يقال إن الليثَ في ذي الشدَّة
فقال: يا مَنْ صانَ لي محلِّي
إن عُدتُ للأرضِ بإذنِ الله
أعطيكَ عجلينِ وألفَ شاةٍ
وصاحبَ اللّواءِ في الذئابِ
حتى إذا ما تمَّتِ الكرامه
سعى إليه الذئبُ بعدَ شهرِ
فقال: يا مَنْ لا تُداسُ أرضه
قد نلتَ ما نلتَ من التكريمِ
قال: تجرأتَ وساءَ زعمُكا
أجابَه: إن كان ظنِّي صادقاً

الثعلبُ والأرنبُ في السفينة

فقال: يا مولاي، إني مُذنبُ
وإن وجدتُ شافعا أتوبُ
لتائبٍ قد جاءهُ ذليلاً
عمِلْتُ شرّاً، وعمِلْتُ خيراً
يرتَعُ تحتَ منزلي ويلعبُ
لكنني تركتُهُ معَ ذلكا
فلم يَصِلْهُ من يدي مَساءةُ
يَسْمَعُ ما يُبْدي هُناكَ الثعلبُ
قد كان ذاكَ الزُّهْدُ ياخبيثُ
من تُخمةِ أَلْقَتَكَ في الفلاةِ!

أتى نبيَّ الله يوماً ثعلبُ
قد سوَّدَتْ صَحيفتي الذُّنوبُ
فاسأَلُ إلهي عَفْوَهُ الجليلاً
وإنني وإن أسأتُ السَّيْرا
فقد أتانِي ذاتَ يومٍ أرنبُ
ولم يكنِ مراقِبُ هُنالكا
إذ عَفْتُ في افتراسِهِ الدَّناءةُ
وكان في المجلسِ ذاكَ الأرنبُ
فقال لَمَّا انقطعَ الحديثُ:
وأنتَ بينَ الموتِ والحياةِ

الْأَرْنَبُ وَبِنْتُ عَرِسٍ فِي السَّفِينَةِ

قد حَمَلَتْ إِحْدَى نِسا الْأَرَانِبِ
فَقَلِقَ الرُّكَّابُ مِنْ بَكَائِهَا
... جَاءَتْ عَجُوزٌ مِنْ بَنَاتِ عَرِسٍ
أَنَا الَّتِي أُرْجَى لِهَذَا الْغَايَةِ
فَقَالَتِ الْأَرْنَبُ: لَا يَاجَارَهُ
مَالِي وَثُوقُ بَبْنَاتِ عَرِسٍ
وَحَلَّ يَوْمٌ وَضِعَهَا فِي الْمَرْكَبِ
وَبَيْنَمَا الْفَتَاةُ فِي عَنَائِهَا ...
تَقُولُ: أَفَدِي جَارَتِي بِنَفْسِي
لَأُنِّي كُنْتُ قَدِيمًا «دَايَةً»
فَإِنْ بَعْدَ الْأَلْفَةِ الزَّيَّارَهُ
إِنِّي أُرِيدُ دَايَةً مِنْ جَنْسِي!

الْحِمَارُ فِي السَّفِينَةِ

سَقَطَ الْحِمَارُ مِنَ السَّفِينَةِ فِي الدُّجَى
حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ أَتَتْ بِهِ
قَالَتْ: خَذُوهُ كَمَا أَتَانِي سَالِمًا
فَبَكَى الرَّفَاقُ لِفَقْدِهِ، وَتَرَحَّمُوا
نَحْوَ السَّفِينَةِ مَوْجَةً تَتَقَدَّمُ
لَمْ أَبْتَلِعْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُهْضَمُ!

سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْحَمَامَةُ

كَانَ ابْنُ دَاوُدَ يُقَى
خَدَمَتَهُ عُمْرًا مِثْلَمَا
فَمَضَتْ إِلَى عُمَالِهِ
وَالْكَتُبُ تَحْتَ جَنَاحِهَا
فَأَرَادَتِ الْحَمَقَاءُ تَعْدِ
عَمِدَتُ لِأَوَّلِهَا، وَكَأَنَّ
فَرَأَتْهُ يَأْمُرُ فِيهِ عَا
وَيَقُولُ: وَفُوهَا الرُّعَا
رَبُّ فِي مَجَالِسِهِ حَمَامَةٍ
قَدْ شَاءَ صَدَقًا وَاسْتِقَامَةً
يَوْمًا تَبَلَّغُهُمْ سَلَامَهُ
كُنِبَتْ لَهَا فِيهَا الْكَرَامَةُ
رِفْ مِنْ رَسَائِلِهِ مَرَامَهُ
نَ إِلَى خَلِيفَتِهِ بِرَامِهِ
مَلَهُ بِتَاجِ لِلْحَمَامَةِ
يَةً فِي الرَّحِيلِ، وَفِي الْإِقَامَةِ

وَيُشِيرُ فِي الثَّانِي بَأَن
وَأَتَتْ لِثَالِثِهَا، وَلَمْ
فِرَأْتَهُ يَأْمُرُ أَنْ تَكُو
فَبَكَتْ لِذَاكَ تَنْدُماً
وَأَتَتْ نَبِيَّ اللَّهِ وَهُوَ
قَالَتْ: فَقَدْتُ الْكِتَابَ — يَا
... لِتَسْرُعِي لِمَا أَتَا
فَأَجَابَ: بَلْ جِئْتُ الَّذِي
لَكُنْ كِفَاكِ عَقُوبَةً

تُعْطَى رِبَاضاً فِي تِهَامِهِ
تَسْتَحْيِي أَنْ فَضَّتْ خِتَامَهُ
رَنَ لَهَا عَلَى الطَّيْرِ الزَّعَامَهُ
هَيْهَاتَ لَا تُجِدِي النَّدَامَهُ!
يَا تَقُولُ: يَا رَبِّ السَّلَامَهُ!
مَوْلَايَ — فِي أَرْضِ الْيَمَامَهُ
نِي الْبَارِزُ يَدْفَعُنِي أَمَامَهُ!
كَادَتْ تَقُومُ لَهُ الْقِيَامَهُ
مَنْ خَانَ خَانَتَهُ الْكَرَامَهُ!

الْأَسَدُ وَالضَّفْدَعُ

انْفَعُ بِمَا أُعْطِيتَ مِنْ قَدَرَةٍ
إِذْ كَيْفَ تَسْمُو لِعُلَا يَا فَتَى
عِنْدِي لِهَذَا نَبَأٌ صَادِقٌ
قَالُوا: اسْتَوَى اللَّيْثُ عَلَى عَرْشِهِ
وَقِيلَ لِلسُّلْطَانِ: هَذِي الَّتِي
تُنْقِنُ الدَّهْرَ بِلَا عِلَّةٍ
فَانظُرْ — إِلَيْكَ الْأَمْرُ — فِي ذَنْبِهَا
فَنَهَضَ الْفِيلُ وَزِيرُ الْعُلَا
لَا خَيْرَ فِي الْمَلِكِ وَفِي عِزِّهِ
فَكَتَبَ اللَّيْثُ أَمَانًا لَهَا

وَاشْفَعْ لَذِي الذَّنْبِ لَدَى الْمَجْمَعِ
إِنْ أَنْتَ لَمْ تَنْفَعْ وَلَمْ تَشْفَعْ؟
يُعْجِبُ أَهْلَ الْفَضْلِ فَاسْمَعْ، وَعِ
فَجِيءَ فِي الْمَجْلِسِ بِالضَّفْدَعِ
بِالْأَمْسِ أَذْتُ عَالِي الْمِسْمَعِ
وَتَدَّعَى فِي الْمَاءِ مَا تَدَّعَى
وَمُرُّ نَعْلَقُهَا مِنَ الْأَرْبَعِ
وَقَالَ: يَا ذَا الشَّرَفِ الْأَرْفَعِ
إِنْ ضَاقَ جَاهُ اللَّيْثِ بِالضَّفْدَعِ
وَزَادَ أَنْ جَادَ بِمُسْتَنْقَعِ!

النَّمْلَةُ الزَّاهِدَةُ

وقائِدُ يَهْدِيهِ لِلسَّعَادَةِ
وَاللَّهُ لِلسَّاعِينَ نِعَمَ الْعَوْنِ
تُعَدُّ فِي هَذَا الْمَقَامِ غَايَةً
لَمْ تَسَلْ يَوْمًا لَذَّةَ الْبَطَالَةِ
وَاتَّصَفَتْ بِالزُّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ
فَالْبَطْنُ لَا تَمْلُوهُ الصَّلَاةُ
وَنَمَلْتِي شَقَّ عَلَيْهَا الدُّبُّ
وَجَعَلْتُ تَطَوُّفَ الْبُيُوتِ
تُنْعِمُ بِالْقُوَّةِ لِذِي الْوَلِيَّةِ؟
وَمُنْذُ لَيْلَتَيْنِ لَمْ أُسَبِّحْ
لَمْ تَتْرُكِ النَّمْلَةَ لِلصَّرِصَارِ!
مَتَى مَدَدْنَا الْكَفَّ لِلسُّؤَالِ؟!
ذَاتُ اشْتِهَارٍ بَعُلُوْهُ الْهَمَّةُ
عَنْ بَعْضِهِ لَوْ أَنَّهَا نِمَالُ
مَا عِنْدَنَا لِسَائِلِ جَوَابٍ؟!
نَرَى كِمَالَ الزُّهْدِ أَنْ تَصُومِي!

سَعْيُ الْفَتَى فِي عَيْشِهِ عِبَادَةً
لَأَنَّ السَّعْيَ يَقُومُ الْكُؤُنُ
فَإِنْ تَشَأْ فَهَذِهِ حِكَايَةُ
كَانَتْ بِأَرْضِ نَمْلَةٍ تَنْبَالُهُ
وَاشْتَهَرَتْ فِي النَّمْلِ بِالتَّقَشُّفِ
لَكِنْ يَقُومُ اللَّيْلَ مَنْ يَقْتَاتُ
وَالنَّمْلُ لَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْحُبُّ
فَخَرَجَتْ إِلَى التِّمَاسِ الْقَوَّةِ
تَقُولُ: هَلْ مِنْ نَمْلَةٍ نَقِيَّةٍ
لَقَدْ عَيَّيْتُ بِالطَّوَى الْمُبَرَّحِ
فَصَاحَتِ الْجَارَاتُ: يَا لِلْعَارِ
مَتَى رَضِينَا مَثَلْ هَذِي الْحَالِ؟
وَنَحْنُ فِي عَيْنِ الْوُجُودِ أُمَّةُ
نَحْمِلُ مَا لَا يَصْبِرُ الْجِمَالُ
أَلَمْ يَقُلْ مَنْ قَوْلُهُ الصَّوَابُ:
فَامْضِي؛ فَإِنَّا يَا عَجُوزَ الشُّومِ

الْيَمَامَةُ وَالصِّيَادُ

أَمَنَّةٌ فِي عُشِّهَا مُسْتَتِرَةٌ
وَحَامَ حَوْلَ الرَّوْضِ أَيَّ حَوْمٍ
وَهُمَّ بِالرَّحِيلِ حِينَ مَلَأَ
وَالْحُمُقُ دَاءٌ مَا لَهُ دَوَاءُ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ، عَمَّ تَبْحَثُ؟

يَمَامَةٌ كَانَتْ بِأَعْلَى الشَّجَرَةِ
فَأَقْبَلَ الصِّيَادُ ذَاتَ يَوْمٍ
فَلَمْ يَجِدْ لِلطَّيْرِ فِيهِ ظِلًّا
فَبَرَزَتْ مِنْ عُشِّهَا الْحُمَقَاءُ
تَقُولُ جَهْلًا بِالَّذِي سَيَحْدُثُ:

فالتفتَ الصيادُ صوبَ الصوتِ ونحوه سدَّ سَهْمَ الموتِ
فسقطت من عرشها المكين ووقعت في قبضة السكين
تقول قول عارف مُحقق: «ملكْتُ نفسي لو ملكْتُ منطقي!»

الكلبُ والحمامة

حكاية الكلب مع الحمامة تشهد للجنسين بالكرامة
يُقال: كان الكلب ذات يوم بين الرياض غارقاً في النوم
فجاء من ورائه الثعبانُ مُنتفخاً كأنه الشيطانُ
وهمَّ أن يغدر بالأمين فرقت الورقاء للمسكين
ونزلت توّاً تغيثُ الكلباً ونقرته نقره، فهباً
فحمد الله على السلامه وحفظ الجميل للحمامه
إذ مرَّ ما مرَّ من الزمان ثم أتى المالك للبستان
فسبق الكلب لتلك الشجرة لينذر الطير كما قد أنذره
واتخذ النبح له علامه ففهمت حديثه الحمامه
وأقلعت في الحال للخلاص فسلمت من طائر الرصاص
هذا هو المعروف يا أهل الفطن الناس بالناس، ومن يعن يعن!

الكلبُ والببغاء

كان لبعض الناس ببغاء ما ملَّ يوماً نطقها الإصغاء
رفيعة القدر لدى مولاها وكلُّ من في بيته يهواها
وكان في المنزل كلبٌ عالي أرخصه وجودُ هذا الغالي
كذا القليل بالكثير ينقص والفضلُ بعضه لبعض مُرخص
فجاءها يوماً على غرار وقلبه من بغضها في نار

وقال: يا مليكة الطُّيُورِ
بحسنِ نَطْقِكَ الذي قد أَصْبَى
لأنني قد حِرْتُ في التفكُّرِ
فأَخْرَجْتُ من طيشِها لسانها
ثم مضى من فورِهِ يصيحُ:
وما لها عندي من ثَأْرٍ يُعَدُّ

ويا حياةَ الأُنْسِ والسرورِ
إلا أَرَيْتَنِي اللِّسَانَ العَذْبَا
لَمْ سمعتُ أَنه من سُكَّرِ!
فعَضَّه بنابه، فشأنها
قطعتُه لأنَّه فصيحُ!
غيرَ الذي سَمَّوْهُ قَدَمًا بالحسد!

الْحَمَارُ وَالْجَمَلُ

كان لبعضهم حِمَارٌ وَجَمَلٌ
فانتظرا بِشَائِرِ الظُّلَمَاءِ
يجتليانِ طلعةَ الحرِّيَّةِ
فاتَّفقا أَن يَقضيا العُمَرَ بها
وبعدَ ليلةٍ من المسيرِ
وقال: كَرِبُ يا أَخِي عَظِيمُ
فقال: سَلْ فِدَاكَ أُمِّي وَأَبِي
قال: انطلقْ معي لِإِدْرَاكِ المُنَى
لأَبْدَ لي من عَوْدَةِ اللَّبَلَدِ
فقال سرِّ والزَّمْ أَخَاكَ الوَتْدَا

نالهما يومًا من الرِّقِّ مَلَلٌ
وانطَلقا معًا إلى البَيْدَاءِ
وَيَنْشَقَّانِ رِيحَهَا الزَكِيَّةِ
وارتَضيا بمائِها وَعُشْبِها
التفتِ الحِمَارُ لِلْبَعِيرِ
فَقَفْ؛ فمَشِيَ كُلُّهُ عَقِيمُ!
عسى تنالُ بي جليلَ المَطْلَبِ
أَوْ انتَظِرْ صاحِبَكَ الحَرَّ هُنا
لأنني تركتُ فيه مِقْوَدِي!
فإنما خُلِقْتُ كي تُقَيِّدَا!

دُودَةُ الْقَرْىِ وَالْدُودَةُ الْوُضَاءَةِ

لدودةِ القَرْىِ عندي
حكايةٌ تشتهيها
لَمَّا رَأَتْ تِلْكَ هَذِي

ودودةِ الأَضْواءِ
مَسامِعُ الأَذْكياءِ
تَنُيرُ في الظُّلَماءِ

سَعَتْ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ: تَعِيشُ ذَاتُ الضِّيَاءِ!
أَنَا الْمُؤَمَّلُ نَفْعِي أَنَا الشَّهِيرُ وَفَائِي
حَلَا لِي النَّفْعُ حَتَّى رَضِيتُ فِيهِ فَنَائِي
وَقَدْ أَتَيْتُ لِأَحْظَى بَوَجْهِكَ الْوَضَاءِ
فَهَلْ لِنُورِ الثُّرَى فِي مَوَدَّتِي وَإِخَائِي؟
قَالَتْ: عَرَضَتْ عَلَيْنَا وَجْهًا بَغِيرَ حَيَاءِ
مَنْ أَنْتِ حَتَّى تُدَانِي ذَاتَ السَّنا وَالسَّنَاءِ؟!
أَنَا الْبَدِيعُ جَمَالِي أَنَا الرَّفِيعُ عَلَائِي
أَيْنَ الْكَوَاكِبُ مِنِّي؟! بَلْ أَيْنَ بَدْرُ السَّمَاءِ؟!
فَامْضِي؛ فَلَا وَدَّ عِنْدِي إِذْ لَسْتَ مِنْ أَكْفَائِي!
وَعِنْدَ ذَلِكَ مَرَّتْ حَسَنَاءُ مَعَ حَسَنَاءِ
تَقُولُ: لِلَّهِ ثُوبِي فِي حُسْنِهِ وَالْبَهَاءِ!
كَمْ عِنْدَنَا مِنْ أَيَادٍ لِلدُّودَةِ الْغُرَاءِ!
ثُمَّ انْتَنَتْ فَأَتَتْ نِي تَقُولُ لِلْحَمَقَاءِ:
هَلْ عِنْدَكَ الْآنَ شَكُّ فِي رُتَبَتِي الْقَعَسَاءِ؟!
وَقَدْ رَأَيْتِ صَنِيعِي وَقَدْ سَمِعْتَ ثَنَائِي؟!
إِنْ كَانَ فِيكَ ضِيَاءٌ إِنْ الثَّنَاءَ ضِيَائِي
وَإِنَّهُ لَضِيَاءٌ مُؤَيَّدٌ بِالْبَقَاءِ!

الْجَمَلُ وَالتَّغَلَّبُ

كَانَ عَلَى بَعْضِ الدُّرُوبِ جَمَلٌ حَمَلَهُ الْمَالِكُ مَا لَا يُحْمَلُ
فَقَالَ: يَا لِلنَّحْسِ وَالشَّقَاءِ! إِنْ طَالَ هَذَا لَمْ يَطُلْ بَقَائِي
لَمْ تَحْمِلِ الْجِبَالَ مِثْلَ جَمَلِي أَظُنُّ مُوَلَايَ يُرِيدُ قَتْلِي!
فَجَاءَهُ الثَّغْلَبُ مِنْ أَمَامِهِ وَكَانَ نَالَ الْقَصْدَ مِنْ كَلَامِهِ
فَقَالَ: مَهْلًا يَا أَخَا الْأَحْمَالِ وَيَا طَوِيلَ الْبَاعِ فِي الْجَمَالِ

فَأَنْتَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ حَالاً
كَأَنَّ قُدَّامِي أَلْفَ دِيكَ
كَأَنَّ خَلْفِي أَلْفَ أَرْنَبٍ
وَرُبَّ أُمٍّ جِئْتُ فِي مُنَاجِهَا
يُبْعَثُنِي مِنْ مَرْقَدِي بُكَاهَا
وَقَدْ عَرَفْتَ خَافِي الْأَحْمَالِ
لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا يَمَلُّ الظَّهْرُ
لَأَنْنِي أَتَعَبُ مِنْكَ بِالاً
تَسْأَلُنِي عَنْ دَمِهَا الْمَسْفُوكِ
إِذَا نَهَضْتُ جَاذِبْتَنِي ذَنْبِي
فَجَعَلْتُهَا بِالْفَتَكِ فِي أَفْرَاجِهَا
وَأَفْتَحُ الْعَيْنَ عَلَى شِكَاوِهَا
فَاصْبِرْ، وَقُلْ لَأُمَّةِ الْجِمَالِ:
مَا الْحِمْلُ إِلَّا مَا يُعَانِي الصَّدْرُ

الْغَزَالَةُ وَالْأَتَانُ

غَزَالَةٌ مَرَّتْ عَلَى أَتَانٍ
وَكَانَ خَلْفَ الظَّنِّيَةِ ابْنُهَا الرَّشَاءُ
فَفَعَلْتُ بِسَيِّدِ الصُّغَارِ
فَأَسْرَعَ الْحِمَارُ نَحْوَ أُمِّهِ
يَصِيحُ: يَا أُمَّاهُ، مَاذَا قَدْ دَهَا
تُقَبِّلُ الْفَطِيمَ فِي الْأَسْنَانِ
بُودُهَا لَوْ حَمَلْتَهُ فِي الْحَشَاءِ
فَعَلَ الْأَتَانُ بِابْنِهَا الْحِمَارِ
وَجَاءَهَا وَالضَّحْكُ مِلْءُ فَمِهِ
حَتَّى الْغَزَالَةُ اسْتَحَفَّتْ ابْنَهَا؟!

الثَّعْلَبُ الَّذِي انْخَدَعَ

قَدْ سَمِعَ الثَّعْلَبُ أَهْلَ الْقَرْيِ
فَقَالَ حَقًّا هَذِهِ غَايَةُ
مَنْ فِي النَّهْيِ مِثْلِي حَتَّى الْوَرَى
مَا ضَرَّ لَوْ وَافَيْتُهُمْ زَائِرًا
لَعَلَّهُمْ يُخَيُّونَ لِي زِينَةً
وَقَصَدَ الْقَوْمَ وَحِيَاهُمْ
فَأَخَذَ الزَّائِرُ مِنْ أَذْنِهِ
فَلَا تَثِيقْ يَوْمًا بِذِي حِيلَةٍ
يَدْعُونَ مُحْتَالًا بَيَا ثَعْلَبُ!
فِي الْفَخْرِ لَا تُؤْتَى وَلَا تُتَلَبُ
أَصْبَحْتُ فِيهِمْ مَثَلًا يُضْرَبُ
أَرِيهِمْ فَوْقَ الَّذِي اسْتَغْرَبُوا
يَحْضُرُهَا الدِّيكُ أَوْ الْأَرْنَبُ
وَقَامَ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَخْطُبُ
وَأَعْطَى الْكَلْبَ بِهِ يَلْعَبُ!
إِذْ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ الثَّعْلَبُ!

ثُعَالَةُ وَالْحِمَارُ

أَتَى ثُعَالَةَ يَوْمًا من الضَّوَاحِي حِمَارُ
وَقَالَ إِنْ كُنْتَ جَارِي حَقًّا وَنَعَمَ الْجَارُ
قُلْ لِي فَإِنِّي كَثِيبٌ مُفَكَّرٌ مُحْتَارُ
فِي مُوَكِّبِ الْأَمْسِ لَمَّا سَرْنَا وَسَارَ الْكِبَارُ ...
... طَرَحْتُ مَوْلَايَ أَرْضًا فَهَلْ بِذَلِكَ عَارُ
وَهَلْ أَتَيْتُ عَظِيمًا! فَقَالَ: لَا يَا حِمَارُ!

الْبُغْلُ وَالْجَوَادُ

بُغْلٌ أَتَى الْجَوَادَ ذَاتَ مَرَّةٍ وَقَلْبُهُ مُمْتَلِئٌ مَسَرَّةٍ
فَقَالَ: فَضْلِي قَدْ بَدَا يَا خَلِّي وَأَنْ أَنْ تُعْرِفَ لِي مَحَلِّي
إِذْ كُنْتَ أَمْسَ مَاشِيًا بِجَانِبِي تَعَجَّبُ مِنْ رَقْصِي تَحْتَ صَاحِبِي
أَخْتَالُ، حَتَّى قَالَتْ الْعِبَادُ: لِمَنْ مِنَ الْمُلُوكِ ذَا الْجَوَادُ؟
فَضَحِكَ الْحِصَانُ مِنْ مَقَالِهِ وَقَالَ بِالْمَعْهُودِ مِنْ دَلَالِهِ:
لَمْ أَرْ رَقْصَ الْبُغْلِ تَحْتَ الْغَازِي لَكِنْ سَمِعْتُ نَقْرَةَ الْمِهِمَارِ!

الْفَأْرَةُ وَالْقِطَّةُ

سَمِعْتُ أَنَّ فَأْرَةَ أَتَاهَا شَقِيقُهَا يَنْعِي لَهَا فَتَاهَا
يَصِيحُ: يَا لِي مِنْ نُحُوسِ بَخْتِي مَنْ سَلَطَ الْقِطَّ عَلَى ابْنِ أُخْتِي؟!
فَوَلَوْلَتْ وَعَضَّتِ التُّرَابَا وَجَمَعَتْ لِلْمَأْتَمِ الْأَتْرَابَا
وَقَالَتْ: الْيَوْمَ انْقَضَتْ لَذَاتِي لَا خَيْرَ لِي بَعْدَكَ فِي الْحَيَاةِ
مِنْ لِي بِهِرٍ مِثْلِ ذَاكَ الْهَرِّ يُرِيحُنِي مِنْ ذَا الْعَذَابِ الْمَرِّ؟!

وكان بالقرب الذي تريد
فجاءها يقول: يا بُشْرَاكِ
فَفَزِعْتَ لَمَّا رَأَتْهُ الْفَارَهُ
وَأَشْرَفْتَ تَقُولُ لِلْسَفِيهِ:

يَسْمَعُ مَا تُبَيِّدِي وَمَا تُعِيدُ
إِنْ الَّذِي دَعَوْتَ قَدْ لَبَّاكِ!
وَاعْتَصَمْتَ مِنْهُ بَبِيَّتِ الْجَارَهُ
إِنْ مِتُّ بَعْدَ ابْنِي فَمَنْ يَبْكِيهِ؟!

الْغَزَالُ وَالْخُرُوفُ وَالتَّيْسُ وَالذُّئْبُ

تَنَارَعَ الْغَزَالُ وَالْخُرُوفُ
فَرَأَى التَّيْسُ؛ فَظَنًّا أَنَّهُ
فَكَلَّفَاهُ أَنْ يُفْتِّشَ الْفَلَا
يَنْظُرُ فِي دَعَوَاهُمَا بِالذَّقَّةِ
فَسَارَ لِلْبَحْثِ بِلا تَوَانِي
يقول: عِنْدِي نَظْرَةٌ كَبِيرَةٌ
وَذَاكَ أَنَّ أَجْدَرَ التَّنَاءِ
وإنني إِذَا دَعَوْتُ الدَّيْبَا
لِكَوْنِهِ لَا يَعْرِفُ الْغَزَالَا
ثم أَتَى الذَّيْبُ، فَقَالَ: طَلَبْتِي
وَقَادَهُ لِلْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ
وقال: لَا أَحْكُمُ حَسَبَ الظَّاهِرِ
وقال للتَّيْسِ: انْطَلِقْ لِشَأْنِكَ

وقال كُلُّ إِنَّهُ الظَّرِيفُ
أَعْطَاهُ عَقْلاً مَنْ أَطَالَ ذَقْنَهُ!
عَنْ حَكَمٍ لَهُ اعْتِبَارٌ فِي الْمَلَا
عَسَاهُ يُعْطِي الْحَقَّ مُسْتَحِقَّهُ
مُفْتَخِرًا بِثِقَةِ الْإِخْوَانِ
تَرْفَعُ شَأْنَ التَّيْسِ فِي الْعَشِيرَةِ
بِالْصَّدْقِ مَا جَاءَ مِنَ الْأَعْدَاءِ
لَا يَسْتَطِيعَانِ لَهُ تَكْذِيبَا
وَلَيْسَ يُلْقِي لِلْخُرُوفِ بِالَا
أَنْتَ، فَسِرْ مَعِي، وَخُذْ بِلِحْيَتِي!
فَقَامَ بَيْنَ الظُّبْيِ وَالْخُرُوفِ
فَمَزَّقَ الظُّبْيَيْنِ بِالْأَظْفَارِ
مَا قَتَلَ الْخَصْمَيْنِ غَيْرَ ذَقْنَا!

التَّغْلِبُ وَالْأَرْنبُ وَالذِّيكُ

من أعجب الأخبار أن الأرنباً
وهو على الجدار في أمانٍ

لَمَّا رَأَى الذِّيكَ يَسُبُّ التَّغْلِبَا
يَغْلِبُ بِالْمَكَانِ، لَا الْإِمْكَانِ

دَاخَلَهُ الظَّنُّ بَأَنَّ المَاكِرَا
فَجَاءَهُ يَلْعَنُ مِثْلَ الأوَّلِ
فَعَصَفَ الثَّعْلَبُ بِالضَّعِيفِ
وَقَالَ: لِي فِي دَمِكَ المَسْفُوكِ
فَالْتَفَتَ الدِّيكُ إِلَى الذَّبِيحِ
مَا كُلُّنَا يَنْفَعُهُ لِسَانُهُ
أَمْسَى مِنَ الضَّعْفِ يُطِيقُ السَاخِرَا
عِدَادَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ مُغْفَلِ
عَصَفَ أَخِيهِ الذَّبِيبَ بِالخُرُوفِ
تَسْلِيَةً عَنْ خَيْبَتِي فِي الدِّيكِ!
وَقَالَ قَوْلَ عَارِفٍ فَصِيحِ
فِي النَّاسِ مَنْ يُنْطِقُهُ مَكَائُهُ!

الثَّعْلَبُ وَأُمُّ الذَّبِيبِ

كَانَ ذَنْبٌ يَتَغَدَّى
أَلْزَمَتْهُ الصُّومَ حَتَّى
فَأَتَى الثَّعْلَبُ يَبْكِي
قَالَ: يَا أُمَّ صَدِيقِي
فَاصْبِرِي صَبْرًا جَمِيلًا
فَأَجَابَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي
مَا بِيَ الْغَالِي، وَلَكِنْ
لَيْتَهُ مِثْلَ أَخِيهِ
فَجَرَتْ فِي الزَّوْرِ عَظْمَهُ
فَجَعَتْ فِي الرُّوحِ جِسْمَهُ
وَيُعْزِي فِيهِ أُمَّهُ
بَيِّ مِمَّا بِكَ غُمَّهُ
إِنَّ صَبْرَ الأُمِّ رَحْمَهُ!
كُلُّ مَا قَدْ قَلَتْ حِكْمَهُ
قَوْلُهُمْ: مَاتَ بِعَظْمِهِ!
مَاتَ مُحْسُودًا بِتُخْمِهِ!

هوامش

- (١) المقصود «ابن سينا» الطبيب العربي.
- (٢) البصير: الأعمى.
- (٣) تعني الليل والخفاش لا يأنس إلا بالظلام.
- (٤) أبو المسك الخصي: كافور الإخشيدي وكان عبداً أسود.
- (٥) تعني الضوء.
- (٦) رامة، وتهامة، واليمامة: أمكنة.

ديوان الأطفال

مجموعة من الشعر السهل، نظمها لتكون للأطفال أدبًا وثقافة.

الهَرَّةُ والنَّظَافَةُ

هَرَّتِي جِدُّ أَلَيْفَهُ	وهي للبيتِ حليفه
هي ما لم تتحركْ	دُمِيَّةُ البيتِ الظريفه
فإذا جاءتْ وراحتْ	زَيْدٌ فِي البيتِ وصيفه
شغلها الفَارُ: تُنْقِي الرِّ	فَ مِنْهُ وَالسَّقِيفَهُ
وتقومُ الظهرَ والعصـ	رَ بِأَوْرَادِ شريفه
ومن الأَثْوَابِ لم تمـ	لِكَ سَوَى فِرْوِ قطيفه
كلما استَوَسَّخَ، أَوْ آ	وَى البراغِيثَ الْمُطِيفه
غَسَلَتْهُ، وَكَوَتْهُ	بِأَسَالِيْبَ لطيفه
وَحَدَّتْ مَا هُوَ كَالْحَمَّا	مِ وَالْمَاءِ وَظِيفه
صَيَّرَتْ رِيْقَتَهَا الصَّا	بُونَ، وَالشَّارِبَ لِيْفه
لَا تَمَرَّنْ عَلَى الْعَيْنِ	وَلَا بِالْأَنْفِ جِيْفه
وَتَعَوَّدْ أَنْ تُلَاقِي	حَسَنَ الثَّوْبِ نَظِيفه
إِنَّمَا الثَّوْبُ عَلَى الْإِنْسِ	إِن عُنْوَانُ الصَّحِيفه

الجدة

لي جدّة ترأف بي
وكلُّ شيءٍ سرّني
إن غضبَ الأهلُ عليّ
مشى أبى يوماً إليّ
غضبانَ قد هدّدَ بالضربِ،
فلم أجد لي منه
فجعلتني خلفها
وهي تقولُ لأبي
ويحْ له! ويحْ له!
ألم تكن تصنعُ ما
أحنى عليّ من أبى
تذهب فيه مذهبي
كلُّهم لم تغضب
مشية المؤدّب
وإن لم يضرب
غير جدّتي من مهرّب
أنجو بها، وأختبي
بلهجة المونّب:
هذا الولدُ المُعذّب!
يصنعُ إذا أنت صبي؟

الوطن

عصفورتان في الججا
في خاملٍ من الرّيا
بينما هما تنتجيا
مرّ على أيكهما
حيّا وقال: دُرّتا
لقد رأيتُ حَوْلَ صند
خمائلًا كأنّها
الحبُّ فيها سُكّر
لم يرها الطّيْرُ ولم
هيّا اركباني نأّتها
قالت له إحداهما
ز حَلّتا على فنن
ض، لا ند، ولا حسن
ن سَحَرًا على الغُصن
ريحٌ سرى من اليمَن
ن في وعاءٍ مُمَتَّهَن!
سَءاء، وفي ظلِّ عدن^١
بقيةً من ذي يزن^٢
والماءُ شُهدُ ولبن
يسمعُ بها إلا افتتن
في ساعة من الزمن
والطّيْرُ منهنّ الفطن:

يا رِيحُ أَنْتَ ابْنُ السَّبِيحِ ل، ما عَرَفْتَ ما السَّكَنِ
هَبْ جَنَّةَ الخُلْدِ اليَمَنِ لا شَيْءَ يَعدِلُ الوَطَنِ!

الرَّفْقُ بِالْحَيَوَانِ

الحيوانُ خَلَقُ له عَلَيْكَ حَقُّ
سَخَّرَهُ اللهُ لَكا وللِعبادِ قَبْلَكا
حَمُولَةُ الأَثقالِ وَمَرَضُعُ الأَطْفالِ
وَمُطْعَمُ الجِماعَةِ وخادِمُ الزَّراعةِ
مَنْ حَقَّهُ أَنْ يُرْفَقا به وَأَلَّا يُرْهَقا
إِنْ كَلَّ دَعُوهُ يَسْتَرْخِ وداوهِ إِذا جُرِحْ
ولا يَجْعُ في دارِكا أَوْ يَظْمُ في جِوارِكا
بَهِيمَةً مِسْكِينُ يشكو فلا يُبِينُ
لسانُهُ مَقْطوعُ وما له دُمُوع!

الأُمُّ

لولا التَّقَى لَقَلْتُ: لم يَخْلُقُ سِواكَ الوَلَدُ!
إِنْ شِئْتُ كانَ العَيْرُ، أَوْ إِنْ شِئْتُ كانَ الأَسَدُ
وَإِنْ تُرِدْ غَياً غَوَى أَوْ تَبْغِ رُشْداً رَشِداً
والبَيْتُ أَنْتِ الصَوْتُ فيهِ هـ، وَهُوَ للصَّوْتِ صَدى
كَالبَّغَا في قَفْصِ: قِيلَ لَه، فَقالَدا
وَكَالقُضيبِ اللَّذَن: قَدْ طاوَعَ في الشَّكْلِ اليَدُا
يأخُذُ ما عَوَّدَتِه والمرءُ ما تَعوَّدُا!

وَلَدَ الْغُرَابِ

وَمُمَهَّدٌ فِي الْوَكْرِ مِنْ
كَرْوَيْهَبٍ مُنْقَلَسٍ
لِبَسَ الرَّمَادَ عَلَى سَوَا
كَالْفَحْمِ غَادَرَ فِي الرَّمَا
ثُلُثَاهُ مِنْقَارٌ وَرَأَى
ضَخْمُ الدَّمَاعِ عَلَى الْخُلُوفِ
مِنْ أُمِّهِ لَقِيَ الصَّغِيرَ
جَلَبَتُ عَلَيْهِ مَا تَذُو
فُتِنْتُ بِهِ، فَتَوَهَّمْتُ
قَالَتْ: كَبُرْتُ، فَثَبَّ كَمَا
وَرَمْتُ بِهِ فِي الْجَوِّ، لَمْ
فَهَوَى، فَمُرَّقٌ فِي فِنَا
وَسَمِعْتُ قَاقَاتٍ تَرْدُ
وَرَأَيْتُ غُرْبَانًا تَفَرَّ
وَعَرَفْتُ رَنَّةَ أُمِّهِ
فَأَشْرْتُ، فَالْتَفَتْتُ، فَقُلْتُ
أَطْلَقْتَهُ؛ وَلَوْ امْتَحَنَ
وَكَمَا تَرَفَّقَ وَالِدَا

وَلَدِ الْغُرَابِ مُزَقَّقٍ
مُتَأَزَّرٍ، مُتَنَطِّقٍ
بِجَنَاحِهِ وَالْمَفْرِقِ
بِبَقِيَّةٍ لَمْ تُحَرِّقِ
سُ، وَالْأُظَافِرُ مَا بَقِيَ
مِنْ الْحَبَى وَالْمَنْطِقِ
يَرُ مِنَ الْبَلِيَّةِ مَا لَقِيَ
دُ الْأُمَّهَاتِ وَتَتَّقِي
فِيهِ قُوَى لَمْ تَخْلُقِ
وَثَبَ الْكِبَارُ، وَحَلَّقَ
تَحَرَّصَ، وَلَمْ تَسْتَوِثِقِ
ءِ الدَّارِ شَرَّ مُمَزَّقِ
دُ فِي الْفَضَاءِ وَتَرْتَقِي
قُ فِي السَّمَاءِ وَتَلْتَقِي
فِي الصَّارِخَاتِ النُّعَقِ
حَتْ لَهَا مَقَالَةٌ مُشْفِقِ:
سِتِ جَنَاحَهُ لَمْ تُطْلِقِي
لِكَ عَلَيْكَ لَمْ تَتَرَفَّقِي!

النَّيْلُ

النَّيْلُ الْعَذْبُ هُوَ الْكُوْثَرُ
رِيَانُ الصَّفْحَةِ وَالْمَنْظَرِ
الْبَحْرُ الْفَيَاضُ، الْقُدْسُ
وَالْجَنَّةُ شَاطِئُهُ الْأَخْضَرُ
مَا أَبْهَى الْخُلْدَ وَمَا أَنْصَرَ!
السَّاقِي النَّاسَ وَمَا غَرَسُوا

وَالْمُنْعَمُ بِالْقَطَنِ الْأَنْوَرِ	وهو المَنَوَالُ لما لَبَسُوا
لَمْ يُخَلِّ الْوَادِيَّ مِنْ مَرَعَى	جَعَلَ الْإِحْسَانَ لَهُ شَرَعَا
وَهُنَا يُجَنِّي، وَهُنَا يُبْذَرُ	فَتَرَى زَرْعًا يَتَلَوُ زَرْعَا
لَأَنَاءٍ فِيهِ وَوَقَارِ	جَارٍ وَيُرَى لَيْسَ بِجَارِ
وَيَضِجُ فَتَحَسَّبُهُ يَزَارُ	يَنْصَبُ كَتَلٌ مُنْهَارِ
مِنْ مَنَبَعِهِ وَبُحَيْرَتِهِ	حَبَشِيَّ اللَّوْنِ كَجِيرَتِهِ
لَوْنًا كَالْمَسكِ وَكَالْعَنْبَرِ	صَبَغَ الشَّطِّينَ بِسُمْرَتِهِ

المَدْرَسَة

كَأُمُّ، لَا تَمِلْ عَنِّي	أَنَا الْمَدْرَسَةُ اجْعَلْنِي
مِنْ الْبَيْتِ إِلَى السَّجَنِ	وَلَا تَفْرَعْ كَمَاخُوذِ
وَأَنْتِ الطَّيْرُ فِي الْغَصَنِ	كَأَنِّي وَجْهُ صَيَّادِ
— وَإِلَّا فَعْدًا — مِنِّي	وَلَا بُدَّ لَكَ الْيَوْمَ
إِذْنٌ عَنِّي تَسْتَغْنِي	أَوْ اسْتَغْنِ عَنِ الْعَقْلِ
أَنَا الْمِفْتَاحُ لِلذَّهْنِ	أَنَا الْمَصْبَاحُ لِلْفِكْرِ
تَعَالَ ادْخُلْ عَلَى الْيُمْنِ	أَنَا الْبَابُ إِلَى الْمَجْدِ
وَلَا تَشْبَعُ مِنْ صَحْنِي	غَدًا تَرْتَعُ فِي حَوْشِي
يُدَانُونَكَ فِي السَّنِّ	وَأَلْقَاكَ بِإِخْوَانِ
وَيَا شَوْقِي، وَيَا حُسْنِي	تُنَادِيهِمْ بِيَا فِكْرِي
وَمَا أَنْتِ لَهُمْ بَابِنِ	وَأَبَاءِ أَحَبُّوكِ

نَشِيدُ مِصْرَ

بَنَى مِصْرَ مَكَانَكُمْو تَهَيَّا
خُذُوا شَمْسَ النَّهَارِ لَه حُلِيَّا
عَلَى الْأَخْلَاقِ خُطُّوا الْمُلْكُ وَابْنُوا
أَلَيْسَ لَكُمْ بِوَادِي النَّيْلِ عَدْنُ
لَنَا وَطَنُ بَأَنْفُسِنَا نَقِيه
إِذَا مَا سِيلَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِ
لَنَا الْهَرَمُ الَّذِي صَحِبَ الزَّمَانَا
وَنَحْنُ بَنُو السَّنَا الْعَالِي، نَمَانَا
تَطَاوَلَ عَهْدُهُمْ عِزَا وَفَخِرَا
نَشَأْنَا نَشَأَةً فِي الْمَجْدِ أُخْرَى
جَعَلْنَا مِصْرَ مِلَّةَ ذِي الْجَلَالِ
وَأَقْبَلْنَا كَصَفٍّ مِنْ عَوَالِ
نَرُومُ لِمِصْرَ عِزًّا لَا يُرَامُ
وَيَنْعَمُ فِيهِ جِيرَانُ كِرَامُ
نَقُومُ عَلَى الْبِنَايَةِ مُحْسِنِينَا
إِلَيْكَ نَمُوتُ — مِصْرُ — كَمَا حَيِينَا

نَشِيدُ الْكَشَافَةِ

نَحْنُ الْكَشَافَةُ فِي الْوَادِي
يَارَبِّ، بَعِيسَى، وَالْهَادِي
كَشَافَةُ مِصْرَ، وَصِبْيَتُهَا
وَجَمَالُ الْأَرْضِ، وَحَلِيَّتُهَا
نَبْتِدِرُ الْخَيْرَ، وَنَسْتَبِقُ
جَبْرِيلَ الرُّوحِ لَنَا حَادِي
وَبِمُوسَى خَذُ بَيْدَ الْوَطَنِ
وَمَنَاةَ الدَّارِ، وَمُنِيَّتُهَا
وِطْلَائِعُ أَفْرَاحِ الْمَدُنِ
مَا يَرْضَى الْخَالِقُ وَالْخُلُقُ

بالنفسِ وخالِقِها نثِقُ ونَزِيدُ وثوقًا في المَحَنِ
في السَّهْلِ نَرِفُ رِياحِينا ونَجوبُ الصَّخْرِ شِياطِينا
نَبْنِي الأَبْدانَ وتَبْنينا والهَمَّةُ في الجِسمِ المَرَنِ
ونُخْلِي الخَلْقَ وما اعتقدوا ولوَجِهَ الخالِقِ نَجْتهدُ
نأسو الجَرَحَى أَنّى وَجَدُوا ونُداوي مَنْ جَرَحَ الزَّمَنُ
في الصَّدَقِ نَشأنا والكَرَمِ والعِفَّةِ عن مَسِّ الحُرَمِ
ورعايَةِ طِفْلِ أو هَرِمِ والذُّودِ عن الغِيْدِ الحُصَنِ
ونُوافي الصَّارِخَ في اللُّجَجِ والنارِ الساطِعَةِ الوَهَجِ
لا نَسأَلُهُ ثَمَنَ المُهَجِ وكفى بالوَاجِبِ مِنْ ثَمَنِ
ياربِّ، فَكُتِّرنا عَدَدًا وابْذُلْ لأبوتِنا المَدَدَا
هَيِّئْ لَهُمُ ولنا رَشَدًا ياربِّ، وَخُذْ بِيَدِ الوَطَنِ

هوامش

- (١) صنعاء وعدن: من بلاد اليمن.
- (٢) ذو يزن: من ألقاب ملوك اليمن في التاريخ القديم.
- (٣) رويهب: راعب صغير، والمتقلس، والمتأزر، والمتنطق: الذي يلبس القلنسوة، والإزار، والنطاق، كالرهبان.
- (٤) القاقات: نعيق الغربان.

من شعر الصبا

قصر الأعزة، ما أعزَّ حماكا!

«وقال في صباه يهنئ الخديو توفيق بعيد الفطر ويشير إلى صلة أنفذهما إليه وهو في الدراسة بأوربا»

وَأَجَلٌ فِي الْعَلِيَاءِ بَدَرٌ سَمَاكَ!
أَعِيدَ بَانِي رُكْنِهِ فَبِنَاكَ؟!
سَيَّانَ هَذَا فِي الْجَلالِ وَذَاكَ
يَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ، مَا أَصْفَاكَ!
فِي هَالَةٍ دَارَتْ عَلَى مَغْنَاكَ
حَسَدَتْ عَلَيْهَا النِّيَّارَاتُ ثَرَاكَ
مَا لِلإِمَارَةِ مَنْ يُعَدُّ سِوَاكَ
وَالْعُرْبُ تَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ أَبَاكَ!
لَتَرْقُفَعْتَ أَنْ تَسْكُنَ الْأَفْلاكَ
فَضْلًا، وَفَاتَ بَنِيهِمْ نَجْلَاكَ
يَجْرِي بِهِ الْمَلِكُ شَرْطُ غِنَاكَ
فِي مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ تَحْتَ لِوَاكَ
بِاسْمِ النَّبِيِّ، مَوْفَقًا مَسْعَاكَ
مُونَ السَّبِيلِ عَلَى رَشِيدِ نُهَاكَ
وَهِيَ الْجِبَالُ، فَمَا أَشَدَّ قِوَاكَ!

قَصْرَ الْأَعَزَّةِ، مَا أَعَزَّ حِمَاكَ!
تَتَسَاءَلُ الْعَرَبُ الْمُقَدَّسُ بَيْتُهَا:
وَتَقُولُ إِذْ تَأْتِيكَ تَلْتِمِسُ الْهُدَى:
يَا مُلْتَقَى الْقَمَرَيْنِ، مَا أَبْهَاكَ! بَلْ
إِنَّ الْأَمَانَةَ، وَالْجَلَالَ، وَالْعُلَا
مَا الْعِزَّ إِلَّا فِي ثَرَى الْقَدَمِ الَّتِي
يَا سَادِسَ الْأَمْراءِ مِنْ أَبَائِهِ
التُّرْكُ تَقْرَأُ بِاسْمِ جَدِّكَ فِي الْوَعَى
نَسَبُ لَوْ انْتَمَتِ النُّجُومُ لِعَقْدِهِ
شَرْفًا — عَزِيزَ الْعَصْرِ — فِتْ مَلُوكَهُ
لَكَ جَنَّةُ الدُّنْيَا، وَكُوْثُرُهَا الَّذِي
وَلَكِ الْمَدَائِنُ وَالنُّغُورُ مَنِيْعَةٌ
مُلْكُ رَعِيَتِ اللَّهِ فِيهِ، مُؤَيَّدًا
فَأَقَمْتَ أَمْرًا — يَا أَبَا الْعَبَّاسِ — مَا
إِنْ يَعْرضُوه عَلَى الْجِبَالِ تَهْنُ لَهُ

بسياسة تقفُ العقولُ كليلَةً
وبحكمةٍ في الحكمِ توفيقِيَّةٍ
مَولايَ، عيدُ الفطرِ صُبْحُ سَعُودِهِ
فاستقبلِ الآمالَ فيه بشائِرًا
وتلقُ أعيادَ الزمانِ مُنيرةً
أَيَّامُكَ الغرُّ السعيدةُ كُلُّها
فليَبْقَ بيتُكَ، وليَدُمُ ديوانُهُ
وليَهْنِني بكِ كلَّ يومٍ أَنني
يأيها الملكُ الأريبُ، إِيكها
فطوتُ إِيكَ البحرَ أبيضَ نِسْبَةٍ
قَدِمْتُ على عيدِ لبابك بعدما
أَوْ كَلِّمًا جَادَتْ نَدَاكَ رَوِيَّتِي
أَنْتَ الغنيُّ عن الثناءِ، فَإِنْ تُرِدْ

لا تستطيع لَكُنْهَها إدراكا
لك يَقتَفي فيها الرجالُ خُطَاكا
في مِصرَ أسْفَر عن سنا بُشْراكا
وأشائِرًا تُجَلِّي على عَلِيَاكا
فهنأُوهُ ما كان فيه هَناكا
عيدُ، فعيدُ العالمين بَقَاكا
وليُخَي جُنْدُكَ، ولتَعِشْ شُورَاكا
في أَلْفِ عيدٍ من سَعُودِ رضاكا
عذراءَ هامتُ في صفاتِ عُلَاكا
لِنَظيرِهِ المورودِ من يُمناكا
قَدِمْتُ عليَّ جديدةً نَعْمَاكا
سَبَقْتُ ثَنائي بالارتجالِ يداكا؟!
ما يُطربُ الملكَ الأديبَ فهَاكا!

قَصْرُ الْمُنتَزَه

«وقال يصف قصر المنتزه العامر بالإسكندرية بعد رؤية معلمه الشائقة بدعوة من
الجناب العالي سنة ١٨٩٥»

مُنْتَزَهُ العَبَّاسِ للمجتَلِي
العِيشُ فيه ليس في غَيرِهِ
قصورٌ عَزَّ بِانْخِاطِ الذَرَى
من كلِ راسي الأُصْل تحت الثرى
دارتُ على البحرِ سَلالِيمُهُ
مُنْتَظِمَاتٌ مَائِجَاتٌ بِهِ
من الرخامِ النَدْر، لكنْها
من عَمَلِ الإنسِ، سَوَى أَنَّها

أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَجَنَاتِهِ!
يا طالِبَ العِيشِ وَلَذَاتِهِ
يودُّها كَسَرَى مَشِيدَاتِهِ
مُحِيرِ النَجْمِ بِذِرْوَاتِهِ
فَبِتَنِ أَطْوَاقًا لِلْبَيَّاتِهِ
مُنْمَقَاتٌ مِثْلُ لُجَّاتِهِ
تُنَازِعُ الجَوْهَرَ قِيمَاتِهِ
تُنْسِي سَلِيمَانَ وَجَنَاتِهِ

ري مائلاتٌ دون ساحاته
يأتي على البُسفورِ غاباته
وافٍ، وهذا عند غاياته
يُصدئُ الظلُّ سبيكاته
أنستُ «لمرتين» بحيراته^٢
لم تُبق في الوصفِ لحياته
لسانُ أرضٍ فاقَ فُرضاته
ويجمعُ الوحشُ جماعته
أرتُ من الجريِ نهاياته
والسُورُ في أسرِ أسيراته
تَنبُتُ في الرَّمَلِ وأبياته
ما قيصرُ ألقى جباله
تهيجُ اللعاشقُ لوعاته
تحمي وتحمي في بُيوتاته
مُجَلَّاتٌ مثل أوقاته

والريحُ في أبوابه، والجوا
وغابُه من سارٍ في ظلّها
بالطولِ والعرضِ تباهي، فذا
والرَّمْلُ حال بالضحى مُذهبٌ
وتُرعةٌ لو لم تكن حُلوةً
أو لم تكن نَمَّ حياة الثرى
وفي فم البحرِ لمن جاءه
تَنَحَّشِدُ الطَّيْرُ بأكنافه
من معزٍ وحشيّةٍ، إن جرتُ
أو وثبتُ فالنَّجمُ من تحتها
وأرنبُ كالنَّمَلِ إن أحصيتُ
يعلو بها الصَّيْدُ ويعلو إذا
ومن ظباءٍ في كِناساتها
والخَيْلُ في الحيِّ عراقيةً
غرُّ كأيام عزيزِ الورى

«وقال يهنئ الخديو توفيق بقدم نجليه من سياحتهما بأوربا»

إلا وأنت لَعَيْنِ الدَّهْرِ إنسانُ
إلا وأدهشه حُسْنُ وإحسان
فإنما ظلُّها أَمْنٌ وإيمان
تَقَوَّمتُ بك للإسلامِ أركان
فأنت في العدلِ والتَّقوى سُلَيْمان
لِرِفْعَةِ المُلْكِ إقبالٌ وعِرفان
لهم مكانٌ كما شاءوا وإمكان
في عزٍّ مُلْكٍ — أوطارٌ وأوطان
لأنهم لِمُلوكِ الأرضِ ضيفان
مُعْظَمٌ لهما بين الورى شان

ما باتَ يُثْنِي على عليكِ إنسانُ
وما تَهَلَّلَتْ إذ وافاكِ ذو أَمَلٍ
لله ساحتُكَ المسعودُ قاصدُها
لئن تَبَاهَى بِكَ الدِّينُ الحنيفُ لَكَمْ
تُرَاقِبُ اللهَ في مُلكٍ تَدَبَّرُه
أَنجَى لك اللهُ أنجالاً يُهيئُهم
أَعَزَّةً أينما حلَّتْ ركايبُهم
لم تتنهم عن طِلابِ العلمِ في صغرٍ
تأبى السعادةُ إلا أن تسأيرهم
نجلانٍ قد بلغا في المجدِ ما بلغا

يكفيهما في سبيل الفخر أن شهدت
هُمَا هُما، تعرفُ العلياءُ قدرهُما
ما الفرقدان إذا يوماً هُما طلعا
يا كافي الناس بعد الله أمرهُم
ويا مُنيل المعالي والندى كرمًا
مولاي، هل لفتى الباب معذرة
سعى على قدم الإخلاص مُلتَمَسًا
أرى جَنابَكَ رَوْضًا للندى نَضْرًا
لا زال مُلكك بالأنجال مُبتَهجا

بفضل سَبِقهما روس وألمان
كِلَاهُما كَلِفُ بالمجد يَقْظان
في مَوَكِبٍ بهما يَزْهو ويزدان؟
النصرُ إلا على أيديك خِذلان
الربح من غير هذا الباب خُسران
فعقله في جلال الملك حيران؟!
رضاك، فهو على الإقبال عُنوان
لأنَّ غُصْنَ رجائي فيه رَبَّان
ما بات يُثني على عليك إنسان

«وقال مهنتاً للخديو عباس بولادة إحدى الكريمات»

أعطى البرية إذ أعطاك باريها
أنت البرية، فاهناً، وهي أنت، فمن
عيد السماء وعيد الأرض بينهما
فبارك الله فيها يوم مولدها
ويوم نُشْرِقُ حَوْلَ العرشِ صبيتها
إنَّ العنايةَ لما جاملت وعدت
بكل عالٍ من الأنجال تحسبه
يقومُ بالعهد عن أوفى الجدود به
ويأخذُ المجد عن مصرٍ وصاحبها
الناهضين على كرسي سُوددها
والساهرين على النيل الحفي بها
مولاي، للنفس أن تُبدي بشائرها
الشمسُ قدرًا، بل الجوزاء منزلة
أم البنين إذا الأوطان أعوزها
من الإناث سوى أن الزمان لها
وأنها سرُّ عباس وبضعته

فهل يُهنِّيك شعري أم يُهنِّيها؟
دعاك يومًا لتهنا فهو داعيها
عيدُ الخلائق قاصيها ودانيها
ويوم يرجو بها الآمال راجيها
كهالة زانت الدنيا دراريها
ألا تكف وأن تثرى أياديها^٣
من الفراق لو هشت لرائيها
عن والد أبلج الذمات عاليها
عن السراة الأعالي من موالها
والقابضين على تاجي معاليها
وكأسها وحميها وساقها
بما رزقت، وأن تهدي تهانيها
بل الثريا بل الدنيا وما فيها
مُدبِّرٌ حازم أو قل حامياها
عبد، وأن الملا خدام نايها
فهي الفضيلة، مالي لا أسميها؟!

أَغْرُ يُسْتَقْبَلُ الْعَصْرُ السَّلَامَ بِهِ
عَالِي الْأَرِيكََةِ بَيْنَ الْجَالِسِينَ، لَهُ
عَبَّاسٌ، عَشٌّ لِنَفْوَسٍ أَنْتَ طَلَبْتُهَا
تُبْدِي الرِّجَاءَ وَتَدْعُوهُ لِيَصْدُقَهَا
وَتَشْرِقُ الْأَرْضُ مَا شَاءَتْ لِيَالِيهَا
مَنْ الْمَفَاخِرُ عَلَيْهَا وَغَالِيهَا
وَأَنْتَ كُلُّ مُرَادٍ مِنْ تَنَاجِيهَا
وَاللَّهُ أَصْدَقُ وَعْدًا، وَهُوَ كَافِيهَا

بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي الْعَلَاءِ

بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي الْعَلَاءِ قَضِيَّةٌ
هُوَ قَدْ رَأَى نُعْمَى أَبِيهِ جَنَائِيَّةٌ
فِي الْبِرِّ أَشْتَرَعِي لَهَا الْحُكْمَاءَ
وَأَرَى الْجِنَايَةَ مِنْ أَبِي نِعْمَاءَ

دَوَاءُ الْمُتَيِّمِ

دَاوِ الْمُتَيِّمَ، دَاوِهِ
إِنَّ النَّوَاصِحَ كُلَّهُمْ
فَتَحْتُمُوا بَابًا عَلَى صَبِّكُمْ
فَلَا تَلُومُوهُ إِذَا مَا سَلَ
مَنْ قَبْلِ أَنْ يَجِدَ الدَّوَا
قَالُوا بِتَبْدِيلِ «الْهَوَا»^٥
لِلصِّدِّ، وَالْهَجْرِ، وَطُولِ النَّوَى
قَدْ فَتِحَ الْبَابُ وَمَرَّ «الْهَوَا»

وَكَتَبَ عَلَى صُورَةٍ مُهْدَاةٍ لِصَدِيقٍ

سَعَتْ لَكَ صُورَتِي، وَأَتَاكَ شَخْصِي
لَأَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكَ وَهِيَ أَصْلُ
وَهَبْهَا صُورَةً مِنْ غَيْرِ رُوحٍ
وَسَارَ الظِّلُّ نَحْوَكَ وَالْجِهَاتُ
وَحَيْثُ الْأَصْلُ تَسْعَى الْمُلْحَقَاتُ
أَلَيْسَ مِنَ الْقَبُولِ لَهَا حَيَاةٌ؟!

هوامش

- (١) هو توفيق بن «إسماعيل».
- (٢) لامرتين: شاعر فرنسا العظيم، وقصيدته عن «البحيرات» ذائعة وقد تُرجمت إلى العربية مرات.
- (٣) تترى: متواترة متتابعة، وقد استعملها الشاعر هنا بمعنى تتواتر.
- (٤) يشير إلى قول أبي العلاء المعري:

هذا جناه أبي عليّ، وما جنيت على أحد

- وأبو العلاء لم يتزوج ولم ينجب.
- (٥) يستعمل الشاعر كلمة «الهوا» على طريقة الإيهام عند البديعيين فيقصد معنى ويوهم معنى غيره، والهوا «مقصود الهوا» غير الهوى بمعنى العشق والمحبة.

محجوبيات

«كان بين الشاعر والدكتور محجوب ثابت صلة متينة من الود، وكان بينهما مسامرات ومداعبات أوحت إلى الشاعر ببعض ما ننشره بعد من شعر الفكاهة».

بَيْنَ مَكْسُوِينِي وَالْأَوْتُومُبِيلِ

«كان للدكتور محجوب ثابت حصان يرتاد به ما شاء من أحياء القاهرة في أيام الثورة، وكان أصدقائه يُسمُّون حصانه «مكسويني» وهو اسم بطل أيرلندي مشهور انتحر جوعاً؛ يكونون بذلك عن هزال الحصان وجوعه وعدم العناية به.»

«وقد استبدل به الدكتور محجوب سيارة، فنظم الشاعر هذه القصيدة يداعب الدكتور ويعزي حصانه. وقد نُشِرت هذه القصيدة في سنة ١٩٢٤.»

لکم فی الخطَّ سیَّارَه	حديثُ الجارِ والجارَه
(أَوْفَرُ لَانْدُ) يُنْبِئُکَ	بها القُنْصُلُ (طَمَّارَه) ١
کسیَّارَه (شارلوت)	على السَّواقِ جَبَّارَه ٢
إِذَا حَرَّكَهَا مَالَتْ	على الجَنَّبِینِ مُنْهَارَه!
وَقَدْ تَحَرَّنُ أَحْيَانًا	وَتَمْشِي وَحْدَهَا تَارَه
وَلَا تُشْبِعُهَا عَيْنُ	مَنْ (الْبِنْزِینِ) فَوَّارَه
وَلَا تُرَوِّی مِنَ الزَّيْتِ	وَإِنْ عَامَتْ بِهِ الْفَارَه

ترى الشارع في دُعرٍ وصِبيانا يَضْجُونَ
 وفي مَقْدَمِها بوقٌ فقد تَمْشِي متى شاءَتْ
 قضى الله على السَّوَا يُقَضِّى يَوْمَهُ فِيهَا
 أَذْنِيا الخيلِ (يا مَكْسِي) لقد بَدَّلَكَ الدهرُ
 فصَبْرًا يا فَتَى الخيلِ أَحَقُّ أَنْ (مَحْجُوبًا)
 وباعَ الأَبْلَقَ الحُرَّ ولم يَعْرِفْ له الفضلَ
 قد اختارَ لك الشَّلْحَ فسَلَّهُ: ما هو الشَّلْحُ؟
 كأنَّ لم تَحْمِلِ الرَّا ولم تَرْكَبْ إلى الهَوْلِ
 ولم تَعْطِفْ على جَرْحِي فمضروبٌ برَشَّاشٍ
 ولا والله ما كَلَّفَ فلا البِرْسِيمُ، تَدْرِيبُهُ
 وقد تَزَوَّيَ على (صُلَّتِ) وقد تَسَكَّرُ من خَوْدِ
 وقد تشبَّعَ يا ابنَ اللَّيْلِ عسى الله الذي ساقَ
 فكانت خَلْفَهُم دُنْيا يَهْيِي لكَ هَوَّارًا
 فإنَّ الحظَّ جَوَّالٌ

إذا لاحت من الحاره كما يَلْقَوْنَ طَيَّارَه
 وفي المُوْخِرِ زَمَّارَه وقد ترجعُ مُخْتارَه
 ق أن يجعلها داره! ويَلْقَى الليلَ ما زارَه
 كدُنْيا الناسِ غَدَّارَه! من الإقبالِ إدبارَه
 فنفسُ الحرِّ صَبَّارَه سَلَا عنكَ بَقَّارَه؟
 (بأوفرَ لاند) نَعَّارَه؟ ولا قَدَّرَ آثارَه
 وما كنتَ لَتَخْتارَه عسى يُنْذِرُكَ أخبَارَه
 يةَ يومَ الرُّوعِ والشَّارَه^٢ ولم تَحْمِلْ على الغارَه
 من الصُّبْيَةِ نَظَّارَه ومَقْلُوبٌ بَغْدَارَه
 تَ (مَحْجُوبًا) ولا بارَه ولا تَعْرِفُ نَوَّارَه!
 إذا نادَمتَ سُمَّارَه^٣ على الإفْرِيزِ مَعْقَارَه
 ل من رَنَّةِ قَيْثارَه! إلى (يوسفَ) سَيَّارَه
 له في الأرضِ كِبَارَه كريمًا وابنَ هَوَّارَه^٤
 وإنَّ الأرضَ دَوَّارَه!

مَكْسُوِينِي ...

«وهذه مداعبة أخرى قيلت في مكسويني حسان الدكتور محجوب أيام الثورة المصرية حين كان الدكتور يرتاد بار اللواء وجريدة الأهرام»

وتفدي الأساة النطس من أنت خادم	تفديك — يا مكس — الجياد الصلايم
وتحت ابن سينا أنت حين تسالم	كأنك — إن حاربت — فوقك عنتر
إذا جاء يوم فيه تجزى البهائم	ستجزى التماثيل التي ليس مثلها
وإنك دينار، وهن الدراهم	فإنك شمس، والجياد كواكب
وأخر في (بار اللوا) لك قائم	... مثال يساح البرلمان منصّب
«مزامير» داود عليه نواغم ^٦	ولا تظفر (الأهرام) إلا بثالث
وما أنت مسود، ولا أنت قاتم	وكم تدعي السودان يا مكس هازلًا
ولكن مشيب عجلته العظام	وما بك مما تبصر العين شهبه
وشابت نواصيها، وشاب القوائم	كأنك خيل الترك شابت متونها
وقائعها مشهورة والملاحم!	فيا رب أيام شهدت عصيبة

نَخِيرَة

«وهذه مداعبة أخرى — لم تكمل — نظمها في أيام الثورة وهو يشير فيها إلى ألفي جنيه كان الدكتور محجوب قبل اكتنزها وحرص عليها في بنك حسن باشا سعيد ...»

قل لابن سينا: لا طبيب	بَ اليوم إلا الدرهم
هو قبل بقراط وقب	لَكَ للجراحة مرهم
والناس مذ كانوا عليه	ه دائرون وحوم
وبسخره تعلقو الأسا	فل في العيون وتعظم
يا هل ترى الألفان وقد	ف لا يمس ومحرم؟!
بنك «السعيد» عليهما	حتى القيامة قيم
لا «شيك» يظهر في البنو	ك ولا «حوالة» تخصم!

وَأَعْفُ مَنْ لَا قِيَتَ يَلْقَى هُ فَلَا يَتَكْرَمُ!
... ..

بَرَاعِيْتُ مَحْجُوبٍ

بَرَاعِيْتُ مَحْجُوبٍ لَمْ أَنْسَهَا وَلَمْ أَنْسَ مَا طَعِمْتُ مِنْ دَمِي
تَشَقُّ خَرَاتِيمُهَا جَوْرَبِي وَتَنْفُذُ فِي اللَّحْمِ وَالْأَعْظُمِ!
وَكُنْتُ إِذَا الصَّيْفُ رَاحَ احْتَجَمُ حَتَّى فَجَاءَ الْخَرِيفُ فَلَمْ أَحْجَمْ
تُرَحَّبُ بِالضَّيْفِ فَوْقَ الطِّ رِيْقٍ، فَبَابِ الْعِيَادَةِ، فَالْسُّلَمِ
قَدْ انْتَشَرَتْ جَوْقَةٌ جَوْقَةٌ كَمَا رُشَّتِ الْأَرْضُ بِالسَّمْسِمِ!
وَتَرَقَّصَ رَقَصَ الْمَوَاسِي الْحِدَادِ عَلَى الْجِلْدِ، وَالْعَلَقِ الْأَسْحَمِ
بَوَاكِرُ تَطْلُعُ قَبْلَ الشِّتَاءِ وَتَرْفَعُ أَلْوِيَةَ الْمَوْسِمِ
إِذَا مَا «ابْنُ سِينَا» رَمَى بَلْغَمًا رَأَيْتَ الْبَرَاعِيْتَ فِي الْبَلْغَمِ
وَتُبَصِّرُهَا حَوْلَ «بَبِيَا» الرَّئِيسِ^٧ وَفِي شَارِبِيهِ وَحَوْلَ الْقَمِ!
وَبَيْنَ حَفَائِرِ أَسْنَانِهِ مَعَ السُّوسِ فِي طَلَبِ الْمَطْعَمِ!

هوامش

- (١) الشيخ طمارة: كان إمامًا بالمفوضية المصرية في واشنطن.
- (٢) يعني شارلي شابلن الممثل الهزلي المشهور.
- (٣) يشير إلى ملازمته أباه في أبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩.
- (٤) مشرب عام في القاهرة كان يرتاده الصفوة من سكان القاهرة ونزلاتها.
- (٥) هواره: قبيلة عربية يشتهر بنوها بالكرم، ومنها بطن تستوطن صعيد مصر.
- (٦) نحسبه يعني المأسوف عليه داود بركات رئيس الأهرام لذلك العهد.
- (٧) ابن سينا، والرئيس: كناية عن الدكتور محجوب نفسه، ومن الأشياء الحبيبة إليه التدخين في «الببيا».